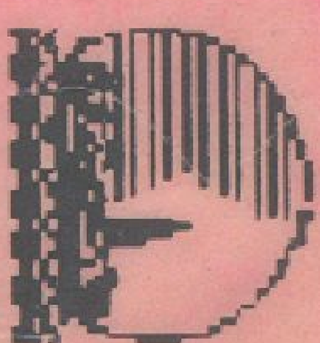
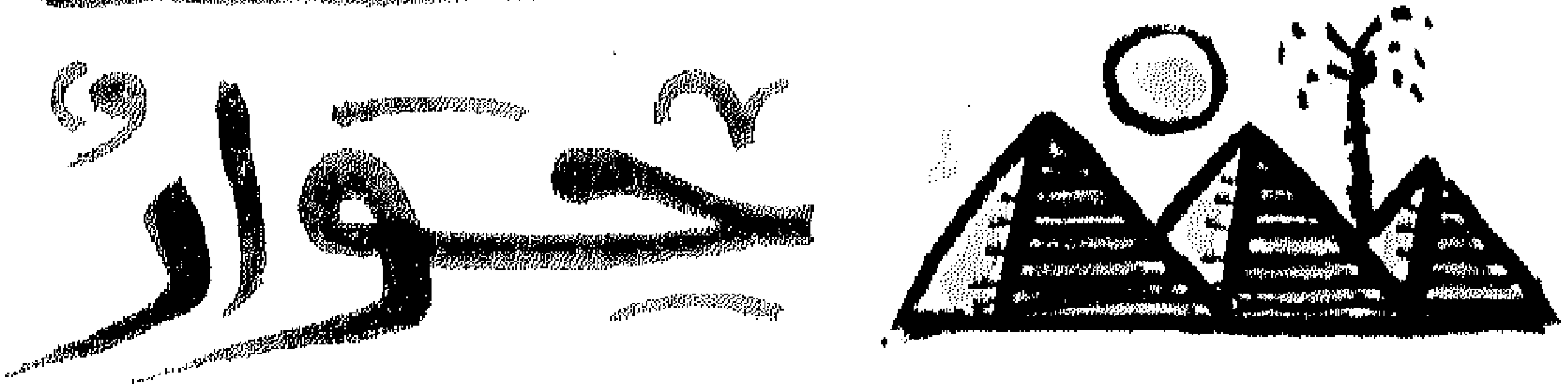

Bibliotheca Alexandrina

0136392

د. محمود عبد الفضيل



حوار مع المستقبل



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No - 531 - Ma - 1995 العدد ٥٣١ - شوال - مارس ١٩٩٥

FAX 3625469 فاكس

اسعار بيع العدد فئة ٣٠٠ قرش

سوريا ١٠٠ ليرة ـ لبنان ٦٠٠٠ ليرة ـ الأردن ٢٤٠٠ فس ـ الكويت ١٥٠٠ فلس ـ السعودية ١٥ ريالا ـ تونس ٥ . ٢ دينار ـ المغرب ٣٠ درهما ـ البحرين ٥٠٠ . ١ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ دبى /أبو ظبى ١٥ درهما ـ مسقط ٥٠٠ ١ ريال ـ غزة / الضفة والقدس ٢ دولار ـ لندن ٢ جك .

حوار مع المستقبل

بقلم :

د. محمود عبد الفضيل

دار الهلال

الغلاف تصميم الفنان
حلمى التونى

إن مصر بلد من سلالة كريمة المجد ، نشيطة المزاج ، إذا تولّد فيها الأمل أثار غضبها علي الذين يناوئونها في استقلالها .. إن الأمة المصرية لاتقبل أبدا أن تكون السلعة العديمة القيم التى تتداولها أيدى الأقوياء » .

من خطاب سعد زغلول إلى جورج كليمنصو

١٢ مايو ١٩١٩

توطئة

فى تلك الظروف العصيبة التى يمر بها الوطن ، اود ان اضع بين يديّ القارىء تلك المجموعة من المقالات والخلجات نتحاور من خلالها حول هموم الوطن ونستشرف معا سبل الخروج من ازمته ولقد حاولنا قدر الإمكان استحضار التراث واستلهامه عند كتابة هذه المجموعة من المقالات التى كتبت باسلوب غير فنى ، بهدف تعميم الفائدة على اكبر عدد من المهتمين بالوطن ومستقبله .

ولقد سبق ان ننشر معظم هذه المقالات خلال الفترة الممتدة من منتصف الثمانينات حتى يومنا هذا ، فى صيغتها الحالية او بصيغة مختلفة بعض الشىء . إذ نشر الجانب الأكبر من هذه المقالات فى مجلة الهلال ، وجريدة الأهرام ، والأهرام الإقتصادى ، وجريدة الأهالى .

واتمنى مخلصا ان تساعد تلك الخلجات الفكرية فى إلقاء بعض الضوء على مشاكلنا الإقتصادية والفكرية والسياسيه ، برؤية مستقبلية ، فى زمن عزّ فيه الرجاء والأمل ، واصيب فيه العديد من البشر بقدر كبير من الإنهاك المادى والمعنوى . ورغم ان هذه المجموعة من المقالات تناقش العديد من قضايانا المعاصرة والراهنة ،

فإنها تحمل فى ثناياها «نظرات مستقبلية» ، و«بوصلة هادية» ، علّنا نستطيع ان نقتحم «بوابات المستقبل» مهما كانت موصدة في وجه شعب جدير بالحياة وبإستعادة زمام المبادرة في ظل تحديات كبرى وعالم متغير ومتوحش .

ولا أملك ختاما سوى أن أردد قول شاعرنا الراحل «امل دنقل» فى ديباجة ديوانه الأوّل «البكاء بين يدَىْ زرقاء اليمامة» .

آه .. ما أقسى الجدار .
عندما ينهض في وجه الشروق .
ربما ننَفق كل العمر .. كى ننقب ثغره .
ليمر النور للأجيال .. مرة !

د . محمود عبد الفضيل
القاهرة : أكتوبر ١٩٩٤

الجزء الأول

ماذا عن المستقبل ؟

مدخل الجزء الأول

في بلادنا قلق كبير حول **المستقبل** ! ماذا يا ترى سوف يحمل هذا المستقبل من تطورات كونية وتداعيات إقليمية وانعكاسات على مستقبل مصر الإقتصادى والسياسى . وماذا سوف يحمل المستقبل في طياته من فرص ومخاطر ، وكيف يمكن لنا الملاحة في بحاره الصعبة ووسط أمواجه المتلاطمة . ومازالت الدراسات المستقبلية مسعى علميا حديث العهد نسبيا ، نظراً لضعف «أدوات الاستدلال المستقبلى» المتاحة ، وكذا فإن الشيء الوحيد المؤكد هو أن هناك دائما عدة **مستقبلات بديلة** «أو محتملة» وأنه ليست هناك مسارات جبرية وحيدة ، إذ أنه بقدر الاعتراف بأن هناك جزءاً «مرتهنا» ، بفعل موروثات الماضى وأثقاله ، فإنه بالقطع هناك جزء «حر طليق» قابل للتشكيل وفقا للإرادة الوطنية الحرة .

ويحاول **الفصل الأول** مناقشة بعض القضايا المنهجية المتعلقة بكيفية استشراف المستقبل بآفاقه ودروبه الصعبة ،

ويوضح هذا الفصل كيف يمكن التفاوض المستمر مع المستقبل ، وكيف يمكن ربط ذلك بهموم ومطالب المستقبل العربى . وضمن هذا السياق ، **تتم مناقشة** شعار ضرورة إستيعاب «المتغيرات الدولية الجديدة» وكيفية التفاعل معها . وكيف أن عملية «التكيف السلبى» مع هذه المتغيرات تصادر المستقبل وتشل حركته . ولذا فلابد من أن نتعامل بروح نُقدية مع مقولات النظام المسمى «بالعالمى الجديد» ، ونطرح **جدولا لأعمال المستقبل** ينطلق من الخبرة والرؤية العربية للمصلحة المشتركة .

ويرتبط بالمضاربات المستقبلية استشراف مستقبل العلاقة بين القوى والتكتلات الرأسمالية الكبرى فى مرحلة «ما بعد الحرب الباردة» . ومن هذا المنطلق ، يناقش **الفصل الثانى** احتمالات نشوء حرب إقتصادية رأسمالية ـ رأسمالية ، فى المستقبل ، أطرافها اليابان (ومعها تجمع الباسفيك) ، والاتحاد الأوروبى ، والولايات المتحدة (ومعها بلدان تجمع النافتا) . وفى الوقت نفسه الذى سوف تحتدم فيه المعركة بين الرأسماليات الثلاث ، سوف يتم تدريجيا تشييد «حائط برلين الجديد» بين بلدان الشمال وبلدان الجنوب : بين الذين يملكون والذين لا يملكون على الصعيد العالمى .

وليس هناك من شك أن «حقبة التسعينات» هى مرحلة انتقالية حاسمة فى تاريخ النظام العالمى ، إذ سوف تشهد مخاضات جديدة فى أكثر من مكان وعلى طول أكثر من جبهة ، ويحاول **الفصل الثالث** ، ان يرصد عدداً من التطورات

الهامة ، خلال ما تبقى من التسعينات ، فى أكثر من بقعة حساسة من بقاع العالم . **فالصين** (ذلك التنين الهائل) تستيقظ وتتحول إلى قوة اقتصادية وإنتاجية هائلة تضيف إلى قوة آسيا البازغة ، مما جعل البعض يصف القرن القادم على أنه «القرن الآسيوى» ، كذلك تشهد أوروبا الغربية نهاية مرحلة «التوظف الكامل» وتتآكل «دولة الرفاه» ، إذ سوف يواجه المواطنون الأوروبيون المستقبل بلا مظلة أمان إجتماعى ، وسوف يقتسمون العمالة كما يقتسمون البطالة . ونتيجة كل تلك التطورات الإقتصادية الاجتماعية سوف تبرز خريطة سياسية وفكرية جديدة فى بلدان غرب أوروبا ، لا تخضع لنمط الاستقطاب الثنائي بين الديمقراطية المسيحية والاشتراكية الديمقراطية . كذلك ، فإن **روسيا** ستبدأ الإفاقة من صدمة إنهيار النظام الشيوعى وإفتقاد التوازن وفقدان الدفة والبوصلة ، لتستعيد توازنها تدريجيا وتتجاوز مرحلة «رومانسية السوق» ، ولتخلق نظاما إقتصاديا ـ اجتماعيا جديدا لم تتحدد بعد ملامحه الكاملة .

وإذا انتقلنا إلى منطقتنا العربية ، نجد أن «تحديات ما بعد السلام» مطروحة بقوة على جدول أعمال المستقبل ، ولكن السؤال الجوهرى يظل : من الذى يضع الترتيبات الإقتصادية والسياسية لمرحلة «ما بعد السلام» ـ بفرض أن السلام الكامل الشامل قد تحقق ! ويحاول **الفصل الرابع** أن يوضح أن الترتيبات «الشرق ـ أوسطية الجديدة» هى رسم هندسة لمعمار جديد يقوم على أنقاض «النظام العربى» كما عرفناه

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .. ويستعرض هذا الفصل سيناريوهات الهندسة الجديدة للمنطقة العربية ، كما خطط لها الساسة الإسرائيليون والأمريكيون ، مما يستتبع طرح السؤال المصيرى : هل نملك رؤية مضادة أو مشروعا مقابلا يحمى المصلحة العربية قبل فوات الأوان ، لأن المستقبل ، كما سبق أن ذكرنا ، «ليس لوحاً محفوظا يزاح عنه الستار» ، ونقف أمامه عاجزين .. بل أحيانا متواطئين !

ولعل خير ما نتسلح به استعداداً لعمليات الملاحة فى بحار المستقبل الصعبة ، هو «العقل النقدى» . إذ أن «العقل النقدى» هو نقيض «العقل التبريرى» ، القائم على النفاق ، و«العقل الميكانيكى الجامد» القائم على التفكير بالنصوص ، و«العقل الفهلوى» القائم على تسطيح المشاكل والتهوين من المخاطر . إذ يوضح **الفصل الخامس** أهمية بناء ذلك «العقل النقدى» كطريق لكسب معركة المستقبل حتى نستطيع أن ندق أبواب القرن الواحد والعشرين بلا خوف لا جل .

ونختم هذا الجزء بفصل عن أهمية ورمزية فكر «جمال حمدان» وعبقرية موقفه الاحتجاجى .. ولكن البنائى فى آن واحد .

الفصل الأول :

كيف نتفاوض مع المستقبل ؟

مازالت الدراسات المستقبلية مسمى علميا حديث العهد نسبيا ، ومازالت منهجيتها وأدواتها التحليلية محل مناقشة وجدل حاد فى الدوائر المهتمة بقضايا استشراف المستقبل . ولكنه على الرغم من تعدد الرؤى والمناهج فهناك اتفاق واسع حول انه ليس هناك مستقبل واحد أو وحيد .. بل هناك عدة مستقبلات بديلة او محتملة .. ولذا فإنه من طبائع الأمور ، أن تتعدد القراءات الاستشرافية للمستقبل . لانه مستقبل مازال «تحت التشكيل» ، وليس «معطى نهائيا» يتم الكشف عنه من خلال نوع من قراءة الطالع . فعلى الرغم من أننا لا نمتلك المستقبل ولا نمسك بزمامه تماما ، فإننا نمتلك جزئيا تشكيل جانب مهم منه .

واستشراف المستقبل هو جهد استطلاعى بالاساس ، يتسع لرؤى مستقبلية متباينة ، ويسعى لاستكشاف أو تكشف العلاقات المستقبلية بين الأشياء والنظم والانساق الكلية والفرعية فى عالم يموج بالحركة ويتصف بازدياد درجة «عدم اليقين» . ولذا يمكن تشبيه «النظرة الاستشرافية» بالوقوف على ربوة عالية لاستطلاع آفاق المستقبل المنظور ، كل

بحسب ما يسمح به ملء بصره وبصيرته . فالجهد الاستشرافى المستقبلى هو نوع من «الحدس التاريخى» المستند الى قاعدة علمية . ولذا فإن «الخطاب الاستشرافى» له طبيعة معرفية خاصة ، فهو خطاب احتمالى بالضرورة يتضمن تعيين المسارات الحرجة للمستقبل العربى .. وحساب «الفرص» و «المآزق المستقبلية» ، فى ضوء القيود والامكانات القائمة والاحتمالية . وهنا تحتل «نسبية الزمان والمكان» اهمية خاصة فى إطار «الخطاب الاستشرافى» ، إذ تتحدد الاحداثيات للمشاهد المستقبلية من خلال علاقات النسبية بين «الزمن الاستشرافى» و«الحيِّز الاستشرافى» (Futuristic Space) .

وبقدر ما أن هناك جزءا من المسارات المستقبلية «حرا طليقا» ، مفتوحا لكافة الاحتمالات والمفاجآت ، فهناك كذلك جانب من المستقبل مرهون سلفا (Committed) ، بفعل الموروثات والقيود الاستراتيجية التى تثقل كاهل الحركة والفعل المستقبلى ، ولذا فان عملية «التفاوض مع المستقبل» (Negotiating the future) هى رهان دائم لزحزحة وكسر القيود التى تشل حركة المستقبل ، دون القفز فوق الواقع الذى يحدد نقاط البدء فى السباق نحو المستقبل [١] .

ولذا فإن الدراسات المستقبلية تسعى لاستشراف آفاق ودروب المستقبل الممكنة ، بهدف رسم خرائط للملاحة الصعبة فى بحار المستقبل . إذ أن امتلاك «بوصلة» ما حول نمط التطورات والتحولات المستقبلية المحتملة ، يساعد راسم

السياسة على تحديد درجات «الحرية» أو «المناورة» التاريخية .. حتى لا يصبح المستقبل قدرا محتوما تساق إليه الامم والشعوب دون حول او قوة .

فحقيقة الأمر ، أن الصور المختلفة للمستقبل «تتوقف الى حد بعيد على القرارات التى تتخذ فى الحاضر . ولذلك فإن محاولة استقراء آثارها في الاجل الطويل ستساعد فى ترشيد القرارات الحالية ، ابتغاء الاقتراب من أفضل البدائل التى يمكن أن تتاح فى المستقبل» (٢) ، إذن العلاقة بين الحاضر والمستقبل هى علاقة جدلية ، تركيبية تاليفية بالضرورة .

ويقتضى ذلك بدوره تحديد القوى والمتغيرات الحاكمة لحركة المستقبل ، إذ أن إماطة اللثام والكشف عن تلك القوى المحركة (الظاهرة والباطنة) كفيل باستكشاف المسارات المستقبلية الممكنة .. وإعداد الحسابات المستقبلية اللازمة ، بما تنطوى عليه من هوامش خطأ وقفزات خيال .

ادوات الاستدلال المستقبلى

لعل من اهم المشاكل المنهجية الشائكة التى تواجه الباحث فى مجال الدراسات المستقبلية هى التوصل الى بعض أدوات «الاستدلال المستقبلى» ، أسوة بأدوات «الاستدلال الاحصائى» (Satistical inference) التى استقر العرف عليها منذ أمد بعيد .

ورغم أن هناك نوعا من المقابلة والمشابهة بين كلا من «أدوات الاستدلال المستقبلى» و«ادوات الاستدلال

الاحصائى» فإن المشاكل والصعوبات المنهجية التى تكتنف عمليات «الاستدلال المستقبلى» هي أعقد بكثير من تلك التي تطرح نفسها فى مجال الدراسات التنبؤية التقليدية . فنهج الدراسات التنبؤية (ذات الطابع الاحصائى) هو بالاساس نهج الاسقاطات المستقبلية الاحتمالية المشروطة تماما بما تمت مشاهدته فى الماضى .. مما يعنى قدرا كبيرا من الاستمرارية فى السلوك .

وذلك فى تقديرنا فرق جوهرى كبير عندما نعيش فى عالم يموج بالتحولات والتغيرات الكيفية التى تجعل الدوال غير متصلة (Non Continus Functions) عبر الزمان ، وحيث المؤسسات والموارد الطبيعية والبشرية ومنجزات التكنولوجيا تشهد قفزات واسعة وتحوى انقطاعات مهمة بالنسبة للخبرة التاريخية الماضية .

وبالتالى فإن أدوات الاستدلال المستقبلى لا يمكن لها أن تكون أدوات خطية ، ولا يمكن لها أيضا أن تخضع لحسابات الاحتمالات التقليدية (Conventional Probability Calculus) ، بل لابد لها وأن تكون أدوات غير خطية تسمح بالانقطاعات والتحولات الهيكلية (Structural breaks) فى البنيات المؤسسية ، وقاعدة الموارد ، وفى النظم التكنولوجية . كذلك لابد من اللجوء الى نهج جديد فى تقدير وترجيح الاحتمالات حول سلوك المتغيرات الاحتمالية فى المستقبل ، بما يحويه ذلك من حدس تاريخى وقوة بصيرة .

هموم المستقبل العربى :

كثر الحديث مؤخرا عن هموم المستقبل العربى ومطالب المستقبل العربى . فتعددت الكتابات والمحاولات التى تسمى لاستشراف بعض الجزئيات المتعلقة بآفاق المستقبل العربى . وتراوحت تلك المحاولات ما بين الخطاب الفكرى والسياسى المرسل (٣) ، وبين الدراسات القطاعية الجزئية(٤) ، وبين الدراسات الخاصة بقطر او مجموعة من الأقطار العربية (٥) . وعلى الرغم من أن تلك المحاولات ظلت جزئية ولا ترقى الى مستوى الرؤية الشاملة ، فإنها جميعها قد عبرت عن شعور عميق بالقلق إزاء المستقبل العربى وما يحمله فى طياته من مخاطر ونذر .

وفى إطار هذا القلق ، تجرى عملية ترويج نظرات جديدة للواقع وللمستقبل ، تحت شعار استيعاب «المتغيرات الدولية الجديدة» والتفاعل معها فى ظل عالم لم يعد فيه مكان لمن يتمسك بثوابت .. فمن لا يسارع بركوب قطار الواقعية الجديدة - حسب قولهم - سوف تجرفه رياح التغيير ويفقد مكانه فى خريطة التاريخ والعالم الجديد الذى يتشكل بعد «نهاية الحرب الباردة» !

واود ان اتوقف قليلا أمام المعنى المقصود بالتفاعل مع المتغيرات الدولية الجديدة ، فاذا كان المقصود هو الأخذ فى الاعتبار ما يجرى حولنا فى العالم من متغيرات وتطورات .. فطبعا هذا الف باء الفهم والعمل السياسى ، لأن العزلة لم تعد

ممكنة فى عالم اليوم ، ولكن القضية تبقى : كيف يتم التكيف ؟ هل «التكيف الايجابى» أو «التفاعل الايجابى» ، من موقع استقلال الارادة الوطنية (أم «التكيف السلبى» بل و«التبعى» احيانا) مع هذه المتغيرات الجديدة .

ولذا فإن السؤال المطروح وبالحاح هو : كيف يتم التفاعل «ايجابيا» مع المتغيرات (أو بالاحرى القيود) الدولية الجديدة ؟ والمسألة فى تقديرى ، لا تخرج عن كونها نوعا من المباراة (Game) ، يحاول صانع القرار الوطنى ان يعظم من خلالها المصلحة القومية (سواء لكل قطر عربي او لمجمل الاقطار العربية) فى ظل القيود الدولية الجديدة . وعادة ما يقال ان العصر الذى نعيشه اليوم هو عصر قائم على غلبة المصالح الاقتصادية Geoeconomics والاعتماد المتبادل ، وأنه لم يعد ينهض على الصراعات التقليدية التى تحكمها الاعتبارات الجيوبولتيكية (geo - politics) فى عالم ما بعد الحرب الباردة ، وإن هذا يفسر ما نشهده اليوم من انفتاح على الغرب الراسمالى من جانب الاتحاد السوفييتى وبلدان أوروبا الشرقية . ولكنه بالرغم من كل هذه الشواهد ، فاننى أزعم اننا فى وطننا العربى ، مازلنا نعيش ونتفاعل مع العالم والمحيط الاقليمى فى إطار مباراة تقوم على خليط فريد من الاعتبارات الجيوبوليتيكية ، من ناحية ، والجيو - إقتصادية ، من ناحية اخرى .

نعم لدى العرب «نفط وفوائض مالية» وهى عناصر مهمة فى لعبة الامم . فتحرك الغرب فى أزمة الخليج ، لم تكن بواعثه

فقط «تأمين امدادات النفط» ، لأن عددا كبيرا جدا من النظم العربية (حتى النظام العراقى نفسه) كان مستعدا لأن يمد الغرب بما يحتاجه من النفط ، ولكن الصراع كان يدور فى الواقع حول الشروط التجارية والأسعار التى يتم على اساسها التعاقد على الامدادات النفطية ، وهناك كذلك الفوائض المالية العربية وكيفية السيطرة عليها ، وابقائها فى حكم «الرهينة» لدى الغرب .

ولكن رغم كل هذه العناصر تظل هناك اعتبارات ذات طبيعة «جيو - بوليتيكية» قديمة جديدة لمجرد استمرار الصراع العربى - الإسرائيلى دون حل عادل وشامل ، لانه صراع له كل الابعاد التاريخية والايديولوجية ، التى تجعل منه صراعا متفجرا حول مقومات الوجود والحياة : الأرض ، الهوية ، الماء والكلأ .

ولذا فإنه فى ضوء كل هذه التعقيدات والتقاطعات ، يجب ان نعى ان هناك توازنا جديدا للمصالح والقوى ، هو فى حقيقة الامر ، محصلة تطورات إقتصادية وتقنية طويلة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . ولكن ستظل هناك تفاوتات فى مستوى الصراعات والمصالح ، وستخوض العديد من «بلدان الجنوب» (ومن بينها البلدان العربية) انواعا مختلفة من المباريات ، يجب أن ترافقها استراتيجيات مشتركة جديدة ، لتعظيم المكاسب الجماعية للعرب (كل العرب) وتقليل الخسائر الفردية «طويلة الاجل» لكل قطر على حدة ، مهما لاح له بريق الكسب العاجل ، نتيجة خداع النظر . فبينما كانت «حرب

الخليج» بمثابة المختبر لمعالم النظام الدولى القديم فى طبعته الجديدة ، فهى بالقطع ليست «المنتهى» فيما سوف نشهده غدا وبعد غد .

كيف نتعامل مع «النظام الدولى الجديد»

وتثير التطورات والتحولات المتعددة التى نعيشها هذه الايام عدداً من القضايا المهمة المرتبطة بالتداخلات والترابطات الجديدة فى عالم الغد فى اطار ما يسمى «بالقرية الكروية» .. وحيث تسقط كل الحواجز الوقائية التى كانت مازالت تحمى بعضاً من مجتمعات العالم الثالث ، اذ انه نتيجة لثورة الاتصالات الكاسحة تم اختزال المسافات والتكثيف المتزايد للعلاقات وتزايد انسياب السلع والاموال والبشر والمعلومات والصور والافكار (بل والاوهام) بين اكثر المجتمعات تفوقا وانعزالا . وتطرح تلك التطورات بدورها تحديات مهمة وجديدة على العلم الاجتماعى وعلى الممارسين السياسيين من حيث تحليل طبيعة التناقضات التى تنشأ فى ظل منظومة علاقات «الاعتماد المتبادل» أو «الاعتماد المتداخل» فيما بين بلدان العالم : شرقاً وغربا ، وشمالا وجنوبا . وهل تفضى تلك الانماط الجديدة من «العالمية» (Globalism) الى درجات حرية اكثر لشعوب العالم الثالث . أم تفضى الى مزيد من العلاقات المسيطرة والتبادل «غير المتكافىء» ؟ وهذا بدوره يقود الى سؤال آخر : هل تصبح تلك المجتمعات اكثر حرية فى السيطرة على مقدراتها أم تصبح اكثر انصياعا لقوانين المراكز الرأسمالية المتقدمة ؟

ولعل ذلك يتخذ من وجوده تحدياً حقيقاً للآليات الجديدة (الظاهرة والخفية) التي تدخل في إطار آليات «الاعتماد المتبادل والمتداخل» وبالتالي اكتشاف الأشكال الجديدة للصراع والتفسيرات التي تحول وفقاً لها إلى أكثر الأحكام الشخصية هلاكا في الصدق وفي الاحص الاخرى الذاتية . اذ ان المهمة الرئيسية العالم الاجتماعي في العقد الاخير من القرن العشرين هي تحرير من المقولات الايديولوجية التي يطرحها المبشرون بـ «النظام العالمي الجديد» يرتكز الى «التعددية السياسية» والاقتصاد «حرية قوى السوق» واحترام «حقوق الإنسان» .

حول «التعددية»

ونحن لا نملك بهذا الصدد سوى ابداء بعض الملاحظات الاولية التي نضعها بين يدي القارئ : إذ ان إعادة تاسيس الحياة السياسية والاقتصادية في بقاع عديدة من العالم بالاستناد الى مبدأ «التعددية الشكلية» على طريقة حديقة «الهايد بارك» في لندن ، يثير العديد من الشكوك حول الامكانية الحقيقية «لتداول السلطة» من خلال ممارسة ديمقراطية حقيقية .

كذلك فإن القول «بالتعددية» كاساس لادارة شئون المجتمعات في ظل الظروف الدولية الجديدة التي تقوم على «الاعتماد المتبادل والمتداخل» لابد ان يرافقها اعتراف واضح وصريح بقبول مبدأ «التعددية الحضارية» ، على الصعيد العالمي ، القائم على احترام الخصوصية الحضارية

والميراث الثقافي لبلدان العالم الثالث في آسيا وامريكا اللاتينية وافريقيا . لأننا لدينا شعور قد يرقى الى مرتبة اليقين بأن هذا النظام العالمي الجديد الذي يجرى التبشير به اليوم يقوم على التنميط لسلوكيات وثقافة البشر في كل المجتمعات بما يؤدى الى طمس «الفروق الحضارية» واخضاعها لمركزية نظام المفاهيم والقيم السائدة في امريكا الشمالية وبلدان اوروبا الغربية ، على النحو الذى اشار اليه فرانسيس فوكوياما في مقاله ذائع الصيت عن «نهاية التاريخ» ، حيث ربط الانتصار الناجز والنهائى للراسمالية الغربية بنجاحها في جعل المواطن في براغ (تشيكوسلوفاكيا) . في رانجون (بورما) ، وفي طهران (ايران) يرقص على انغام موسيقى الروك ، ويأكل الهامبرجر ، ويشرب كوكاكولا . بمعنى خلق «ثقافة استهلاكية» معممة على كل أجزاء العالم .

حول الية السوق .

إن الحديث عن التحول من النظم القائمة على «التخطيط المركزى» الى «اقتصادات السوق» بالاستناد الى التجربة «الناجحة» لبلدان الغرب الراسمالى ، يتجاهل ان تجربة بلدان الغرب الراسمالى هي محصلة خمسة قرون من السبق في عمليات النمو الراسمالى ، وانها استندت الى ظروف تاريخية فريدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (وبصفة خاصة استغلال المستعمرات ونهب خيراتها) .

وبالتالى فان الحديث عن «اليات السوق» بعيدا عن خصوصيات «التشكيلة الاجتماعية» القائمة ، «والانماط

الانتاجية» التى تتعايش وتتفاعل داخلها ، هو ضرب من التبسيط والتجريد الذى يؤدى الى نتائج مضللة . فاذا تفحصنا حال العديد من مجتمعات العالم الثالث ، نجد انه لا توجد «اسواق» بالمعنى الاصطلاحى للكلمة .. لأن هناك اليات عديدة فاعلة فى «الواقع المعاش» تجعل العديد من الصفقات والمعاملات (بل لعل أغلبها) لا يمر من خلال الاسواق سوى بمرور الكرام ، لأن «السوق» ليس مجرد «آلية» تفرض قسرا على المجتمعات «كجهاز فنى» .. بل هى فى واقع الأمر نتاج تطور ومخاض اجتماعى طويل ، ورهن بنضج شروط وظروف عديدة .. ودعونا ننظر حولنا ، ونشير الى ما يسمى «سوق العمل» (labour market) فى بلدان العالم الثالث ، لكى ندرك ان عمليات التوظيف للبشر من خلال «وسائطه أخرى غير «السوق» بدءا من مقاول الانفار وانتهاء ببطاقات المجاملة للاقارب والمعارف والاصهار والبلديات ، وينطبق نفس الشيء على «اسولق الاراضى» و«اسواق المال» .

خلاصة القول هنا ان الرهان على ما يسمى «إقتصاديات السوق» تفتقر الى وجود «مؤسسة السوق» ذاته .. لان «مؤسسة السوق» لا تنشأ بقرار ادارى ، أو تستورد من الخارج ، بل هى كائن حى يولد وينمو وتدركه الشيخوخة المبكرة احيانا . ولعلى اغامر واقول ان ما لدينا حقا فى مجتمعاتنا ليس «أسواقا» .. بل «اشباه اسواق» (Quasi - markets) .

حول حقوق الإنسان :

كما كثر الحديث هذه الايام عن «حقوق الإنسان» وكأنها اصبحت «صرعة العصر» .. وكأننا اكتشفنا فجأة - ودون سابق انذار - ان هناك حقوقا للإنسان مهضومة ومغتصبة في كل بقعة ، ورقعة من هذا العالم .. ونسينا ان جوهر نضال البشرية عبر العصور كان يدور دوما حول الدفاع عن «حقوق الانسان» وتأكيدها واحترامها وترسيخ قيمتها .. لا بالاستناد الى هذه القضية المركزية يقاس جوهر تقدم البشرية على مدار الزمان .

واذا كانت تلك القضية المبدئية هي قضية كل زمان ومكان .. فلا باس ان يزداد التأكيد عليها في ظل ملابسات عالم اليوم ، لكي يتم انتزاع اكبر قدر من حقوق الانسان ولكن يظل التساؤل المركزي يدور حول : اية «حقوق» تلك التي نتحدث عنها ؟ واي «انسان» ؟ الذي نتحدث عنه ؟ هل يقصد بالحقوق مجرد المعنى «السلبي»(Negatively - defined) بمعنى الحيلولة دون انتهاك «حرمات» .. ولا اقول «حقوق» بمعنى حمايته من العسف والجور والاعتقال العشوائي والتعذيب وافتقاد مقومات الدفاع عن النفس ، أم نقصد ذلك ، «المعنى الايجابي .. ولكن المنقوص» ، حول احترام وتوافر «الحقوق السياسية» للانسان المعاصر ، (اى حق الاجتماع والحديث والتنظيم السياسي والنقابي) .. دون ان تمتد تلك «الحقوق السياسية» بالضرورة الى «الحا

الاقتصادية فإن الأولويات الأساسية في ظروف بلدان العالم الثالث ، وتتحدد حول : حق العمل ، حق التأمين ضد البطالة ، حق الرعاية والخدمات المدفوعة ، حق ربط الاسعار بالدخول ، حق المسكن الصحي واللائق ، وغير ذلك من حقوق المعيشية والحياتية .

وهكذا فان اقتصار مفهوم «حقوق الانسان» على الجانب السياسي فقط ، يغدو ما يشكل كسبا كبيرا يجب الذود عنه بكل قوة ، فان اطلاق سريان مفعوله يظل قاصرا على «النخبة السياسية» وطالما بقيت مشاكل الخبز سببا لامتهان حقوق الانسان الحياتية والمعيشية التي تعاني منها الجمهرة واسعة من المواطنين والفئات الكادحة . ولذا لابد من اعادة صياغة مفهوم «حقوق الانسان» في ظروف بلدان العالم الثالث بما يتواءم مع حاجات الجمهرة الواسعة من المستضعفين والمعذبين في الارض . اذ انه بدون ذلك يظل طرح مفهوم «حقوق الانسان» طرحا نخبويا ، لا يخاطب جراح والام الحياة اليومية للجمهرة الواسعة من المواطنين .

وما العمل ؟

نقطة البدء حول «ما العمل ؟» تكمن في محاولة استطلاع عالم المستقبل الذي ينتظرنا ـ نحن العرب ـ اذ ان المستقبل يتشكل من جزءين : جزء «مرتهن» سلفا ، اي تلك القيود والاعباء الموروثة من الفترة السابقة ، وجزء «حر طليق» يدور حوله الصراع في المقبل من الايام .

واعتقد انه فى اللحظة الراهنة هناك اعتراف ضمنى من جميعا ، بان جانبا كبيرا من عناصر تشكيل المستقبل العربي ـ السنوات العشر القادمة على الاقل ـ مرتهن سلفا ، لكن هذا لا يعنى ، كما يشيع فى بعض الكتابات ، ان «الامور المستقبلية» قد اصبحت محددة فى كل تفاصيلها وفى كل دقائقها ، وانه لا فكاك من «مسار جبرى» تنعدم فيه «درجات الحرية» و«المناورة» .

اننى ازعم انه ، طالما تعيش الشعوب وتحيا وتعانى الظلم والقهر ، لابد ان تكون هناك «مساحات للحركة» تضيق او تتسع حسب طاقات الجماهير والنخب والسلطة وقدراتها فى الاستجابة للتحديات ، لذا فان البراعة كل البراعة تكمن فى انتزاع اكبر قدر من درجات الحرية خلال السنوات المتبقية من حقبة التسعينات ، لانه اذا لم يتم انتزاع هذه المساحات من الحركة فاننا سندخل القرن الحادى والعشرين مهمشين تهميشا كاملا لم يسبق له مثيل .

نقطة البدء فى ظل هذا «النظام الجديد» هى تحديد كيفية التعامل مع معطياته وآلياته ، ليس من موقع الانصياع والامتثال ، بل من خلال فهم الضرورة وتجاوزها . إذ انه رغم كل ما حدث فى منطقتنا، مازال ذلك «النظام الدولى» تحت التشكيل لان مجمل العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية مازالت تحوى فى ثناياها مستويات عديدة للصراع وتناقض المصالح . فما زال الصراع الاقتصادى على اشده على القمة

بين بلدان الاتحاد الاوروبى المشتركة وبين اليابان ومنطقة الباسيفيك من ناحية ، وبين الولايات المتحدة ، من ناحية اخرى . وهناك دراسات لوكالة المخابرات المركزية فى الولايات المتحدة الامريكية C.I.A تحذر من الخطر اليابانى القادم .

كذلك فان التطورات المستقبلية فى اوروبا الشرقية ، على عكس ما يتصور البعض ، لم يتم حسمها لا اقتصاديا ولا سياسيا . نعم هناك سقوط لنموذج بعينه من البناء الاشتراكى ، وهناك ازمة سياسية طاحنة فى روسيا ، لكن ذلك لا يعنى ان بلدان اوروبا الشرقية ستكون «نسخة كربونية باهتة» لبلدان اوروبا الغربية ، وان روسيا ستكون دولة ملحقة بالنظام الراسمالى العالمى ، ان العملية ستظل صراعية ومفتوحة .

جدول اعمال المستقبل

اود ، ختاما ، ان اطرح بعض القضايا الملحة على جدول اعمال المستقبل العربى :

القضية اولى وعاجلة تتعلق باسلوب معالجة الصراع العربى ـ الاسرائيلى واسلوب التسوية المنتظرة ، طبعا هناك ضغوط الآن للتسوية فى اتجاه معين ، ومع احترام خصوصية كل قطر ومصالحه ، فان هذا لا يمنع من تكوين «قوة تفاوضية» جماعية ضاغطة من اجل تعظيم «المصالح العربية» ، فى ظل القيود القائمة ، هناك قيود باستمرار تشل الحركة وتضع حدا

للطموحات ، ولكن المهارة تكمن فى كيفية فك بعض القيو
وتحريك الاوضاع . .

القضية الثانية هي وجوب ان تكون السياسة النفط
العربية سياسة «عربية» نفطية ، وليست خاصة بالدو
النفطية ، وحدها ، لان القدرة التفاوضية للدول النفط
العربية فى عالم اليوم غير كافية وتحتاج ان تحتمى بمظ
عربية من الدول «غير النفطية» كي تقوى ذراعها فى التفاوض
على الصعيد الدولي ، علما بأن مستقبل اسعار النفط وكميا
النفط المنتجة ، واين سيتم استثمار الفوائض المالية
ستخضع لمخططات غربية كونية . واود ان اشير هنا الى انن
قرات تقريرا منشورا فى مجلة Foreign Affairs يقول : لد
الغرب مخطط يسمح له عند اللزوم بأن يستثمر بكثافة
السعودية وفى الامارات كي يستغني مستقبلا عن نفط الكوي
وايران والعراق مجتمعين ، باعتبارها مناطق اضطرابا
وقلاقل سياسية .

القضية الثالثة : هى اعادة النظر فى البنية الانتاجي
العربية ، واعادة تصويبها لانها بنية غير سوية ومختلة
ويفترض ذلك بالطبع توظيف «المال النفطى» انمائيا وجماعيا
القضية الرابعة هى الصراع على المياه والموارد المائي
اذ تشير جميع التقارير الى ان مصدر الحروب القادمة
الصراع على المياه وليس الصراع على النفط ، فما
الموقف العربى ازاء هذه القضية ؟ وكيف ستتعامل م
الاخطار الناجمة فى قصور الموارد المائية التى تهدد الحيا

الاقتصادية العربية فى الصميم ؟

هذه كلها قضايا عاجلة ان لم نجد لها حلولا عملية يتوافر فيها الحد الادنى مما يمكن اعتباره «مصلحة عربية» ، بالرغم من كل التناقضات العربية القطرية ، فإننا سندخل ، على ما اعتقد ، فى «النفق المظلم» خلال القرن المقبل ، وسنصبح اضعف تجمع اقتصادى وسياسى فى العالم الجديد ! .

هوامش :

(١) راجع : Mahbubul-Haq, «Negotiating the Future», Foreign Affairs (Winter 1980), pp. 398-417.

(٢) ابراهيم سعد الدين وآخرون ، صور المستقبل العربي ، ط ١ (بيروت مركز الوحدة العربية ، ١٩٨٢) ، ص ١٧٤

(٣) راجع على وجه الخصوص :

- حسن صعب ، المقاربة المستقبلية للانماء العربي (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩) .
- قسطنطين زريق ، نحن والمستقبل (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠) .
- قسنطنطين زريق ، مطالب المستقبل العربي : هموم وتساؤلات (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٣) .
- احمد صدقي الدجاني ، رؤى مستقبلية عربية للثمانينات (عمان : دار الجليل ، ١٩٨٣) .

(٤) راجع على وجه الخصوص :

- عمر الخطيب ، الوطن العربي عام ٢٠٠٠ : محاولة لاستشراف الاوضاع السياسية (القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، ١٩٨٥) .
- هدسون وآخرون ، العقد العربي القادم ، المستقبلات البديلة (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦) .

(٥) راجع على سبيل المثال : المهدي المنجرة ، المغرب الكبير عام ٢٠٠٠ ، المستقبل العربي ، السنة ٦ ، العدد ٥٣ (تموز/يوليو ١٩٨٣) .

الفصل الثاني :

الحرب الرأسمالية - الرأسمالية القادمة !

لاشك اننا نعيش فى ظل عالم يموج بالزلازل والبراكين ، ويشهد تحولات كبرى يتسارع ايقاعها يوما بعد يوم ، وخير شاهد على ذلك ان الفترة الممتدة بين اغسطس ١٩٩٠ (الغزو العراقى) واغسطس ١٩٩١ (الاحداث الدرامية التى ادت لسقوط الاتحاد السوفييتى) انما هى فترة فريدة فى تاريخ البشرية حيث تم فيها تكثيف العديد من الاحداث الجسام التى بدلت ومازالت تبدل فى وجه العالم من حولنا .. وقد لانغالى كثيرا اذا قلنا اننا شهدنا خلال تلك الفترة حربا عالمية ثالثة ، مصغرة و «مكثفة» فهى حرب عالمية تم اخراجها بمواصفات عالم اليوم من حيث امد الحرب واسلوب ادارتها تكنولوجيا ومعلوماتيا . اذ ان التحالف الدولى الذى قامت باسمه حرب الخليج الاخيرة ، هو خير دليل على «عالمية» هذه الحرب فى مسبباتها ونتائجها وتداعياتها . فهى حرب جاءت لتتوج العديد من التطورات الاقتصادية والسياسية الجارية على الصعيد العالمي منذ منتصف الثمانينات ، ولتعيد تشكيل خريطة العالم جغرافيا ، واقتصاديا ، وسياسيا على نار ساخنة ، ولتعكس العديد من التطورات التى ترتبت على الحرب العالمية الثانية وعلى راسها «عالم ما بعد يالطا» .

ولكن ان كانت تلك «الحرب العالمية المصغرة» قد حسمت العديد من الامور لاجال قد تطول أو تقصر ، فان التاريخ لا يتجمد عند نقطة واحدة ، مهما كان جبروت الدول الكبرى والتكنولوجيا الحديثة وادوات البث الاعلامى الجديد ، بل ان التاريخ الحى تصنعه التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية العميقة التى يموج بها عالم اليوم والتى لم تتكشف كل ابعاده بعد .. رغم المبشرين «بنهاية التاريخ» .

ولذا فاننا نجد انه قد نشطت كتابات فى اوروبا والولايات المتحدة خلال الفترة الأخيرة ، تحاول ان تحذر من الاستغراق فى وهم عالم «أحادى القطب» وحيد القرن تهيمن عليه الولايات المتحدة الأمريكية .. وتمارس فيه غطرسة القوة على النحو الذى شهدناه اثناء حرب الخليج وفى اعقابها .. وتشير تلك الكتابات الى ان حالة التوازن ، او بالاحرى ، «اللا توازن» التى نشهدها منذ نهاية حرب الخليج حتى يومنا هذا ، هى حالة «توازن مؤقت وغير مستقر» .

والقضية ليست تنجيما أو ضربا بالغيب .. بل هى محاولة لطرح مجموعة من التساؤلات المشروعة حول شكل التغيرات والتحولات القادمة التى سوف يشهدها العالم مع مطلع القرن القادم . وحتى لا نسلط انظارنا فقط على ما هو تحت ارجلنا .

ففى ظل اقتصاد عالمى واحد بلا حدود (Boderless economy) وفى ظل عصر يسمى «عصر المعلوماتية (The information age) لم تعد «الميزات التنافسية» بين البلدان

المختلفة قاصرة على التنافسية فى المجال العسكرى او الاقتصادى فقط ، وانما اصبح مجالها الاساسى : التكنولوجيا والمعلوماتية والقوة المالية ، فهناك إذن العديد من التحديات والمعارك الجديدة التى قد تؤثر فى مستقبل موازين القوى فى عالم الغد .

وضمن هذا السياق يطرح د . دانييل برشتين (Daniel Burshtein) فى كتابه الجديد «الزلزال الاوروبى» موجة من التساؤلات والتوقعات حول عالم الغد : عالم القرن الحادى والعشرين فى ظل التغير فى موازين القوى الاقتصادية والتكنولوجية والسياسية . وبقدر ما كان سقوط «جدار برلين» بمثابة اعلان رسمى بنهاية الحرب الباردة ، ولكنه كان ايضا ايذانا ببدء حروب من نوع جديد لا تلعب فيها الاساطيل وقاذفات القنابل الدور الذى لعبته خلال القرن العشرين .

ولان الامور لم تحسم بعد . ولان العالم الجديد هو عالم مازال تحت التشكيل ، فان **هناك العديد من التساؤلات المهمة المطروحة حول مستقبل وملامح «عالم القرن الحادى والعشرين» يجىء على راسها :**

أ ـ هل ستكون الوحدة الالمانية عنصر استقرار وسلام ، ام عنصر عدم استقرار واضطراب فى عالم الغد ؟

ب ـ ما هو مستقبل النظام السياسى ـ الاقتصادى فى روسيا وبلدان اوروبا الشرقية .. وماهى اشكال خروج تلك الشعوب من ازمتها ومن المأزق الحالى الذى تعيشه ؟

ج ـ ماهى اشكال التحالفات القادمة فى خريطة العلاقات

الدولية : هل سيكون هناك تحالف امريكى - اوروبى فى مواجهة التحدى القادم من منطقة الباسفيك تحت قيادة اليابان ؟ ام سيكون هناك تحالف يابانى - اوروبى فى مواجهة الولايات المتحدة الامريكية ؟ ام هل هناك امكانية لبروز كتلة تاريخية جديدة تجمع روسيا فى طبعتها المعدلة والصين واليابان وما تبقى من بلدن اوروبا الشرقية (فى صيغتها المعدلة) فى مواجهة الولايات المتحدة واوروبا الموحدة ؟

د - هل يقترب حلم الولايات المتحدة الأوروبية المتحدة من التحقيق .. ذلك الحلم الذى راود خيال جان مونيه (الاب الروحى للسوق الأوروبية المشتركة) غداة الحرب العالمية الثانية ؟

ويرى الكاتب : ان الدور الأوروبى سيكون حاسما فى تشكيل معالم العلاقات والتوازنات الجديدة فى عالم القرن الحادى والعشرين ، وبالتالى فان الحديث عن القرن القادم وكأنه «القرن الامريكى» يفتقر الى الدقة ، وهو بمثابة تبسيط مخل للواقع الدولى الذى يموج بالحركة ويخفى العديد من التناقضات البارزة والكامنة .

اذن على عكس الفكرة السائدة فى بعض التحليلات غداة حرب الخليج ، بان الامور قد حسمت كافة ، واننا نشهد «نهاية التاريخ» و «نهاية الايديولوجيا» ، فإننا سوف نشهد عالما يموج بالتفاعلات والحركة .. حتى نصل الى نقطة توازن جديدة فى العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية . فلقد شهدت الثمانينيات صراعا مكتوما بين الراسماليات

(والشركات الدولية) الاوروبية والامريكية واليابانية على الجبهة الاقتصادية ، ومع مطلع التسعينات ، فان الراسمالية الاوروبية بقيادة المانيا الموحدة تدخل حلبة المنافسة بقوة واصرار لتصبح اللعبة الدولية مثلثة الاطراف ، مما سوف يؤثر - بلاشك - على قواعد السلوك فى العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية : بلدان النافتا ، الاتحاد الأوروبى ، تجمع اسيا - الباسفيك .

ورغم القواسم المشتركة بين الراسماليات الثلاث ، تظل هناك فروق جوهرية فى انساق القيم السائدة ، وأساليب التعامل فى السوق الدولية ، وهيكل الاصول ، وانماط الاستثمار ، وعادات الاستهلاك والادخار . وفى مجريات الحياة الاقتصادية .. وهناك مؤشرات عديدة ، وكذا قناعة واسعة لدى العديد من الخبراء والمحللين ، بانه بالرغم من السجل الحافل للراسمالية الامريكية فى مجال التجديد التقنى ونشر ثمار التحديث بين العديد من فئات الشعب ، فان هناك تدهورا ملموسا فى المقدرة التنافسية للاقتصاد الامريكى فى عالم الغد مما يزيد من اهمية كل من التحدى اليابانى والتحدى الاوروبى ، واحتدام الصراع بين الراسماليات الثلاث حول اقتسام الاسواق الحالية والمحتملة .

ويطرح التحدى الاوروبى نفسه فى شكل «السوق الاوروبية الموحدة» التى أعلنت مع مطلع عام ١٩٩٢ ، وما صاحب ذلك من حركة واسعة لإعادة هيكلة وترشيد الاستثمارات واعادة بناء التحالفات وتحسين كفاءة الاداء الاقتصادى ، بهدف

وصول عملية «الاندماج الاقتصاد الاوروبى» الى اقصى درجاتها . ويزداد هذا التحدى اهمية اذا ما انضمت بلدان اوروبا الشرقية الى هذه العملية الاندماجية مما سوف يؤدى الى تعاظم القوة الاقتصادية الاوروبية فى عالم الغد .

ومن ناحية أخرى ، نلاحظ ان حجم الاستثمارات اليابانية فى بلدان اوروبا الغربية قد قفز من ٢ الى ٣ بلايين دولار خلال عام ١٩٨١ إلى نحو ٧ بلايين عام ١٩٨٧ ـ واذ به يتضاعف الى ١٤ بليون دولار عام ١٩٨٩ ، مما يشير الى اهتمام يابانى مستقبلى بارساء الدعائم الاقتصادية لتحالف اوروبى ـ يابانى فى عالم الغد .

كذلك نلاحظ تحول اليابان التدريجى من «دولة تجارية قوية» ، ذات فائض تصديرى هام . الى «قوة مالية واستثمارية» .. ذات اصول واستثمارات مالية مهمة فى اوروبا الغربية والولايات المتحدة الامريكية وبلدان الشرق الاقصى ، مما يعطيها وزنا سياسيا ونفوذا تكنولوجيا متزايدا فى عالم الغد .

وهكذا فإنه مع تضاؤل الخطر الشيوعى ، فان الاحداث سوف تدفع فى اتجاه معركة تنافسية حادة وضارية بين الراسماليات الثلاثة : الامريكية (والانجلوساكسونية عموما) ، واليابانية ، والالمانية . ويشير الكاتب الى ان هذا الصراع ليس مجرد صراع اقتصادى وتقنى . بل هو صراع يستمد جذوره من تباين الميراث الثقافى والمصادر الفكرية والايديولوجية فى كل نموذج من نماذج الراسماليات الثلاث ،

وان هذه التباينات الفكرية والاجتماعية والثقافية بين الراسماليات الثلاث سوف تبرز للسطح . وتغذى التناقضات فيما بينها .. مما يجعل المعركة ذات ابعاد ثقافية وحضارية مهمة .

مضاربات مستقبلية

تشير العديد من التحليلات ، ومن بينها كتاب الزلزال الاوروبى . الى ان الدولار الامريكى سوف يفقد دوره تدريجيا كعملة الارتكاز الرئيسية فى النظام النقدى الدولى ، بعد ان تربع على العرش نحو ٤٥ عاما منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .. وبالتالى يصبح من الصعب على الولايات المتحدة الامريكية ان تستمر فى تمويل العجز الهائل فى ميزان مدفوعاتها عن طريق اصدار صكوك بالدولار على الخزانة الامريكية . وهكذا ، ومع بداية القرن القادم . يرى المؤلف ـ مع الكثير من المحللين ـ ان العملات التى ستتربع (وتتنازع) على عرش النظام النقدى الدولى هى : الين اليابانى ، الوحدة النقدية الاوروبية (I.C.U) والدولار الامريكى . وفى ظل هذه التطورات ، لن تستطيع الولايات المتحدة الامريكية ان تشترى مزيدا من الوقت للتغطية على ضعف الاداء الاقتصادى وتآكل الميزات التنافسية للاقتصاد الامريكى بالمقارنة مع البلدان الصناعية الرئيسية .. بل ستواجه الازمة بلا أجهزة تنفس صناعى .

كذلك يرى المؤلف ان حائط برلين الجديد الذى سوف يتم تشييده خلال التسعينات على انقاض حائط برلين القديم وهو ذلك الحائط غير المرئى . بين بلدان الشمال وبلدان الجنوب ، بين «الذين يملكون» و«الذين لا يملكون» ، وهو حائط سوف يصعب اجتيازه كلما مر الزمن وتراكمت المشاكل الاقتصادية والسياسية للعالم الثالث . فالنظام العالمى الجديد لا يحمل للعالم الثالث سوى مزيد من التهميش والتفتت والتشرذم ، فى غياب سياسات بديلة للتعبئة والنهوض الوطنى في بلدان العالم الثالث .

ولكنه بالرغم من الحديث المتزايد عن ان عناصر القوة الاقتصادية و«القدرات التكنولوجية» سوف تحل تدريجيا محل القوة والقدرات العسكرية فى صياغة مقومات القوة والنفوذ السياسى فى عالم الغد ، الا اننى أرى ان عناصر القوة الاقتصادية والمالية تظل فى حاجة ماسة للقواعد العسكرية التى تضمن توفير الحماية «لحقول النفط» (مصدر الوقود والطاقة للصناعة الحديثة) ، وللاساطيل البحرية لتأمين خطوط الملاحة والتجارة . نعم قد تتغير الاوزان الخاصة بكل عنصر فى معادلة القوة فى عالم الغد ، ولكنها ستظل عناصر مترابطة ومتكاملة . بيد ان الجديد فى الأمر «انه سوف يتم اخضاع الشعوب والسيطرة على مقدراتها من خلال الاعلام الموجه وايديولوجية مجتمع الاستهلاك الحديث وتنميط الثقافة واختراق العقل ، من خلال النظامين التعليمى والاعلامى وبالتالى فان معركة السيطرة على مقدرات الشعوب لم تعد

تبدأ بالاقتصاد بل غدت تركز على العقول والوجدان ، فاذا تمت اعادة صياغة الفكر وتحريف الوجدان .. جاءت المكاسب الاقتصادية والسياسية على طبق من فضة .. دون جهد ودون إطلاق طلقة مدفع واحدة .

الفصل الثالث :

حقبة التسعينات ومخاض عالم جديد

حقبة «التسعينات» هي بلاشك مرحلة انتقالية هامة في تاريخ البشرية ، حيث نشهد الانتقال من «عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية» الى عالم جديد مازال في «طور التشكيل» ، ولكنه يموج بالاضطرابات البركانية التي تعصف بكل ما هو قديم وتقذف بحمم جديدة لا نعرف بعد مداها وابعاد تفاعلاتها . وهل ستكون شهب ضياء تفتح الطريق امام عالم جديد اكثر إنسانية وتقدما ؟ ام كتل من النيران تحرق الكثير من الحرث والنسل ؟ وليس هناك من شك أن «حقبة التسعينات» هي حقبة مخاض في التاريخ الانساني والعالمي ، مثلما كان الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ومن الواضح ان عملية المخاض هذه سوف تستمر لسنوات عديدة قادمة ، حتى نفهم معنى التوازنات والظواهر الجديدة ودلالاتها المستقبلية .

وفي ضوء المناقشات والتأملات الجارية الآن على الصعيد العالمي ، يكاد يتبلور عدد من «الهواجس» حول مستقبل العالم بكتله الرئيسية السياسية والاقتصادية ومساراته الجديدة ..

وسوف أحاول هنا تسجيل بعض تلك الهواجس التى تلح على العديد من الأذهان ، وتثير القلق وتطرح التحديات القادمة على جدول أعمال الغد .

الهاجس الصينى .. التنين يستيقظ

لعل من أهم الهواجس التى تقلق الغرب (بشقية الأوروبى الامريكى) هو تعاظم قوة الصين الاقتصادية خلال السنوات العشر الأخيرة ، لتضيف الكثير الى وزن الصين السياسى وثقلها النووى فى خريطة القوة العالمية .. ويتم هذه الايام اعداد البرامج التليفزيونية والتحقيقات الصحفية وتدبج المقالات حول مخاطر العملاق او التنين الذى استيقظ وبدأ ينطلق من عقاله .. فلقد حققت الصين قفزة اقتصادية كبرى خلال السنوات العشر الأخيرة ، اذ بلغت معدلات النمو السنوى ١٣ فى المائة فى بعض السنوات ، كما حققت نقلة نوعية فى صادراتها الصناعية الى العالم الخارجى .

وأخذت الدوائر الاقتصادية الغربية تتحدث عن «القوة الاقتصادية للصين» ، فهناك بعض الدراسات تضعها فى المرتبة الاقتصادية الرابعة أو الخامسة ، بل لقد صنفها صندوق النقد الدولى فى دراسة حديثة فى المرتبة الثالثة بعد أخذ القوة الشرائية المحلية للعملات فى الاعتبار بدلا من استخدام المقارنات على اساس سعر صرف الدولار .

والمثير حقا فى كل ما يجرى انه حتى اول يناير ١٩٩٤ . لم

يكن احد فى العالم يعبأ بمعرفة اسم «العملة الوطنية» للصين المسماة «اليوان» رغم تحول الصين الى قوة اقتصادية عملاقة .. ولكنه منذ أن أعلنت الصين فى أول يناير من هذا العام عملية إنتقال عملتها جزئيا إلى عملة قابلة للتحويل (partial convertbility) ، سيبدأ العالم الاهتمام بالعملة الصينية مثلما يهتم بالدولار والين والاسترلينى والمارك الألمانى .

وقد لفت نظرى تعليق ذكى لصديق استاذ جامعى بريطانى ، اذ قال ان الصين تتبوأ اليوم المكانة التى كان يجب ان تحتلها منذ قرابة مائتى عام ، اذ تضافرت قوى عديدة على منعها من أن تبزغ وتعبىء طاقاتها الكبرى ، وترقى الى متطلبات موقعها الاستراتيجى فى آسيا .. وتذكرت على الفور مصرنا العزيزة ، التى تتضافر العديد من القوى على مصادرة دورها الاستراتيجى منذ عهد محمد على ، لكى تحجب وتبدد قواها ولا تنهض كقوة اقتصادية وسياسية يحسب لها ألف حساب .

والجدير بالتذكر ان الصين قد حققت كل هذا النهوض العظيم على مدى ثلاثين عاماً فقط ، فقد ورث النظام الجديد عام ١٩٤٩ بلدا متهالكا ممزقا يعانى من التخلف ومن آثار حرب أهلية طويلة وشرسة ، وإذا كانت السنوات العشر المنصرمة بين عامى ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ كانت سنوات ترميم الخرائب وتضميد الجراح وتلمس الطريق .. فان الفترة ما بين

عامى ١٩٦٠ ـ ١٩٩٠ كانت فترة البناء والانطلاق الحقيقى نحو العلا .

وعلى اية حال ، فإن الكتابات تتدفق كل يوم لتحث على أن القرن القادم سيكون القرن الاسيوى بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معان ومضامين وتحولات .. ولقد عبر عن ذلك وكيل وزارة التجارة الماليزى بقول بالغ الدلالة ، إذ قال :

«إن العهد الذى كانت فيه الولايات المتحدة إذا عطست تسبب الزكام لآسيا قد انتهى ، ولم يعد حتى لاصابة بالولايات المتحدة بحمى شديدة أثر على آسيا يجعلها ان تصاب حتى ولو بالسعال» .

اوربا : شبح البطالة والازمة المستمرة

ومن ناحية أخرى تعيش اوروبا ازمة إقتصادية حادة نتيجة الكساد الذى طال امده ، وجيش العاطلين عن العمل الذى يتزايد كل يوم . ورغم كل التقدم الذى حدث على طريق «البناء الاوروبى» ، تظل الأزمة الاقتصادية هى الاعنف منذ نهايات الحرب العالمية الثانية ، بما لذلك من إنعكاسات وتداعيات إجتماعية وسياسية . بل ، فى بعض الاحوال ، هناك شعور بالإرتداد إلى اجواء الثلاثينات القاسية التى نجمت عن الكساد الكبير ولعله ليس من قبيل المصادفة ان بلجيكا ـ تلك الدولة الاوروبية الهادئة ـ قد شهدت أول حركة إضراب شامل فى تاريخها منذ عام ١٩٣٦ .

ويتحدث الكثيرون اليوم فى أوروبا الغربية عن نهاية ما يسمى عصر «التوظف الكامل» ، نتيجة التطورات التكنولوجيا الحديثة المقتصدة فى استخداماتها للعمالة ونتيجة تباطؤ وتاثر النمو عما كان عليه الحال فى الخمسينات والستينات والسبعينات . ويكاد يكون الحل الوحيد المطروح هو صيغة : «اقتسام العمالة واقتسام البطالة» بين أفراد قوة العمل ولكن الأزمة لا تقف عند هذه الحدود ، فمع بدء فك» دولة الرفاه» وتآكل نظم التأمين ضد البطالة والتأمين الصحى والأشكال المختلفة لدعم الدولة ، يجد المواطن نفسه فى حياته العاملة وفى شيخوخته وجها لوجه امام الازمة .. وعليه أن يدبر أموره بنفسه دون مغيث أو معين .

ويرافق ذلك تـآكل أحـزاب الوسط والاشتـراكيين الديمقراطيين ، وبدايات استقطاب من نوع جديد تختلط فيه العنصرية ، والبطالة ، والاحباط المعنوى .. لتضع خريطة سياسية وفكرية من نوع جديد .

روسيا ونهاية «رومانسية السوق»

كان للهزيمة الانتخابية الساحقة التى منى بها أنصار سياسة الاصلاح باسلوب الصدمة فى روسيا ، دوى هائل فى أوساط صنع القرار فى الدوائر الغربية . وبدأت على الفور عملية توزيع الاتهامات ، فكتب احد كبار اساتذة الاقتصاد فى جامعة هارفارد (جفرى زاخس) والمستشار الخاص لشئون الاصلاح الاقتصادى لدى الرئيس الروسى بوريس يلتسين ـ

يتهم صندوق النقد الدولى ورئيسه فى التباطؤ فى عمليات الدعم المالى للاقتصاد الروسى مما أدى إلى تعرية الاصلاحيين وعدم قدرتهم على الانجاز وتحقيق مكاسب ملموسة ، مما ادى إلى هزيمتهم المدوية فى الانتخابات . وطالب زاخس علنا بإستقالة رئيس صندوق النقد الدولى نتيجة سوء ادارته وتعريض المصالح الغربية للخطر .

ومن جانب آخر ، اعلن رئيس الوزراء الروسى بأن مرحلة «رومانسية السوق» قد انتهت .. وأنه لن يستعين قط بالخبراء الأجانب الذين يسيئون فهم الواقع الاقتصادى الروسى .. وقد إستوقفنى طويلا تعبير «رومانسية السوق»، لأن هناك فعلا نظرة رومانسية للسوق يحملها كل دعاة الإصلاح الإقتصادى على الطريقة الليبرالية .. وكأن إنطلاق «قوة السوق» سوف يكون له مفعول السحر فى إصلاح ما افسده الدهر . ولم يتوقف أحد طويلا أمام تعبير «السوق» .. ماذا نقصد ؟ فهناك فرق بين «أسواق» و«أسواق» ! فهناك «أسواق شديدة» التخلف والبدائية مثل سوق القرية ، وهناك «أسواق» عالية التنظيم (مثل الأسواق المستقبلية) (futures makets) كما ان هناك «أسواق» تتمتع بدرجة عالية من التنافسية ، وفى المقابل هناك «أسواق» أخرى تتسم بدرجة عالية من الاحتكار وضعف المنافسة . كما أن هناك «أسواق» سمتها الاساسية «المضاربة» مثل اسواق العقارات وبورصات الأوراق المالية .. فأى «أسواق» نريد ؟

ولعله قد غاب عن العديدين أن «مؤسسات السوق» فى

البلدان الرأسمالية المتقدمة ، والتى تعمل بكفاءة عالية ، هى وليده عملية تاريخية طولية امتدت لبضعة قرون حتى استقرت قواعدها والياتها . وليس من السهل استيراد تلك «الأسواق» بنفس الدرجة من التنظيم وأسلوب الكفاءة لزرعها فى وسط تاريخى وثقافى واقتصادى مغاير ، لكى تقوم بنفس الدور التاريخى .. لأنها عملية أشبه ما تكون بعملية «زرع الاعضاء» . وعندما حاولوا عمل ذلك فى روسيا ، لم يتم ميلاد «إقتصاد سوق» بالمعنى المتعارف عليه مدرسيا - بل تشكل «إقتصاد المافيات» و«إقتصاديات العصب» المختلفة . لأن عمليات الاصلاح الاقتصادى لاتتم بالضغط على أزرار اتوماتيكية ، لنقول للسوق كن فيكون ، فميلاد «السوق» هو محصلة لعملية إجتماعية وسياسية وإقتصادية حتى تتبلور «الأسواق» وتحدد اساليب ادائها السليم .

الفصل الرابع :

نهاية التاريخ . أم نهاية الجغرافيا ؟

كثر الحديث هذه الأيام عن العديد من النهايات : «نهاية لايديولوجيا» ، و«نهاية التاريخ» التى طرحها الامريكى من صل يابانى "فرانسيس فكوياما[1]" التى حاول من خلالها ان ستثمر سقوط الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ودول اوروبا لشرقية وانهيار نموذج معين «للبناء الاشتراكى» ، لكى يؤكد ننا نشهد «نهاية التاريخ» ، بمعنى أن الراسمالية كما نعرفها ى بلدان اوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية ، تمثل لشكل النهائى للتنظيم الاقتصادى ـ الاجتماعى الذى رتضيه البشرية . وهكذا فان انتصار «الرأسمالية» الناجز على محاولات بناء نوع من «النظام الاشتراكى» الذى يقوم على الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج والتخطيط كأداة لتخصيص الموارد ، هى فى رأيه نقطة الوصول الى «نهاية التاريخ» ، وانه لا مجال ولا محل لتجريب اشكال وانماط جديدة للتنظيم الاقتصادى ـ الاجتماعى لحياة البشر .. اذ تتوقف حركة التاريخ عند هذه المحطة الأخيرة . وعلى المقيمين خارجها «أن يراعوا فروق التوقيت» .

ولم تكد المناقشات والمحاورات التى ثارت حول مقو «نهاية التاريخ» ، تهدأ حتى صدر عام ١٩٩٢ مؤلف جدي بعنوان : «الاندماج المالى العالمى : نهاية الجغرافية» لمؤلفه «ريتشارد أوبراين» . ويرى المؤلف ـ الذى يعم رئيسا للقسم الاقتصادى لمصرف «امريكان اكسبرس» ـ أ تزايد درجة الاندماج والتداخل المالى بين معظم بلدا العالم ـ بشقيه المتقدم والمتخلف ـ سوف يترتب عليه ذوبا «الحدود الجغرافية» القائمة بين البلدان وتآكل مفهو «السيادة القومية» للدول . وهكذا ، مع اتساع وتعمق عمليا الاندماج المالى من خلال المصارف والبورصات وأسوا النقد ، سوف تفقد السلطات المالية والنقدية والوطنيا سيطرتها على ادوات السياسة الاقتصادية المحلية ، وعلى مقدراتها الاقتصادية فى عالم لا يعبأ بالحدود الجغرافي والسيادات الوطنية .

١ ـ مدخرات بلا حدود .

وقديما كان الحديث عن «المدخرات الوطنية» و«المدخرات القومية» موضع فخر واعتزاز كمصدر لتمويل عمليات التنمية والتراكم الوطنى فى بلدان العالم الثالث . وكان الحديث يجرى عن الاساليب المثلى لتعبئة وتجميع تلك المدخرات ومنع تسربها الى الخارج .. أما اليوم فقد أصبح معظم المدخرات «المحلية» عابرة للحدود القومية والجغرافية ، لتصب فى اسواق المال وبورصات الأوراق المالية العالمية فى لندن ونيويورك وباريس وطوكيو وزيوريخ . كما غدت البنوك

المصارف الوطنية تعيد توظيف جانبا مهما من أموالها وفوائض السيولة لديها فى الاسواق المالية الكبرى . وهكذا أخذت الفروق تتلاشى تدريجا بين ما كان يسمى فى الماضى تهريب الأموال الى الخارج» وبين «التوظيفات الدولية لمدخرات المحلية» فى ظل عمليات الاندماج المالى المتزايدة بين جميع الوحدات الجغرافية فى الربع الأخير من القرن العشرين .

وهكذا تجرى عملية «تدويل» المدخرات القومية لتصب فى رعية المراكز المالية الكبرى ليجرى اعادة تدويرها فى شكل قروض لبلدان العالم الثالث التى تعانى قصورا فى الأموال اللازمة لتمويل برامجها الاستثمارية وخططها الانمائية . وينطبق هذا بشكل خاص على الوطن العربى حيث يتم ايداع وتوظيف الجانب الاكبر من الفوائض المالية للمؤسسات الحكومية فى «دول الفائض» النفطية ومدخرات الأفراد فى دول العجز» غير النفطية فى اسواق المال والمصارف الكبرى فى الوقت الذى تتراكم وتتصاعد المديونيات الخارجية للعديد من البلدان العربية .

وفى ظل هذه التطورات ، يتم تعزيز الهيمنة المالية للبلدان الرأسمالية المتقدمة على حركة المدخرات فى جميع ارجاء العالم ، ويفقد راسم السياسة المحلى سيطرته التدريجية على تلك المدخرات المحلية التى تجرى «دولرتها» ، هروبا من العملات المحلية المتآكلة ، وسعيا وراء ما يعتقده البعض انه البراحة الامان والاستقرار . وايا كانت الاسباب الاقتصادية

والسياسية التى تدفع الى هذا النمط من السلوك ، فان الواق
الاليم يتمثل باستنزاف «الطاقة الادخارية المحلية» وبالتال
ادمان القروض والمساعدات الأجنبية ، فى ظل علاقات ماليا
تتسم بالاندماج والتداخل بين اطراف غير متكافئة ، وهكذا
فى ظل عمليات ما يسمى «التحرير المالى» ، أصبح «الرفا
الخاص» له الأولوية على كل ما هو «رفاه عام» فى ظل تآكل
سيادة «الدولة القطرية» او «القومية» .

٢ ـ تدويل العمالة .

وفى إطار السياق التاريخى نفسه ، نجد أن عمليات الهجرة
الواسعة للعمالة على جميع مستويات مهاراتها (من غسل
الصحون الى الوظائف الادارية والتقنية العالية) ، وكذا نمو
دور الشركات دولية النشاط فى بنية الاقتصاد العالمى
بوصفها شركات عابرة للحدود الجغرافية ، تقوم بتنظيم
الانتاج وعملياتها الاستثمارية عبر مجمل الاقتصاد العالمى
وتوزع عملياتها على العديد من البلدان المتجاورة أو
المتباعدة ، قد ادت الى تبدلات جوهرية فى مفاهيم الانتاج
الوطنى والعمالة الدولية على المستويين الفنى والمعنوى .

وتدريجا اخذت الخطوط الفاصلة بين الإنتاج المحلى
وانتاج الشركة دولية النشاط تتلاشى وتتعقد ، وأصبح ذلك
الجزء من الانتاج الوطنى المنتج داخل حدود الدولة القومية
هو مجرد شريحة من الانتاج العالمى للشركة ، بل يصبح
حجم «تلك الشريحة» رهنا بسياسات «الشركة الدولية» فى

مجالات الانتاج والتسويق على الصعيد العالمي . اذن إن عملية «تعظيم الربح» أصبحت هى الأخرى عملية تتم على الصعيد العالمى ، ويصبح العالم من منظور «الشركة الدولية» رقعة جغرافية واحدة تحرك عبرها مصانعها وعملياتها الانتاجية والاستثمارية ، كما تحرك قطع الشطرنج وفقا «لمخططات كونية» لا تملك «الدولة القومية» ازاءها سوى الانصياع وتقديم التسهيلات اللازمة لضمان استمرار تلك «النعمة» المهددة بالزوال .

كذلك فان عمليات التدويل المستمرة للانتاج والتوظف والعمالة تفرز فئات وانماطا من العمالة لها طبيعة دولية عابرة للحدود الجغرافية والانتماءات الوطنية ، اذ تصبح الأرض التى يستوطن فيها العامل (او الفنى) هى مصدر رزقه ، ومن خلالها يتكون نمط استهلاكه وروتين حياته اليومى . وقديما كان هناك فئة محدودة من «الموظفين الدوليين» الذين ترتبط حياتهم المهنية بالعمل فى المنظمات الدولية واجهزة الأمم المتحدة ، أما اليوم فهناك جحافل من مواطنى بلدان العالم الثالث هجرت مواقع عملها الاصلية ـ نتيجة البطالة او الاحباط ـ لتبحث عن عمل هامشى على رصيف عاصمة من عواصم العالم المتقدمة ، وتسعى للاندماج الكامل فى بنية الاقتصاد الحديث لتلك الدول بجميع آلياته ومرافقه . وهكذا تتحول رحلة الهجرة المؤقتة الى رحلة دائمة ، ويصبح الوطن مع مرور الزمن مجرد ذكرى تاريخية طيبة او مريرة بحسب الأحوال .

٣ ـ نهاية الجغرافيا .. ام نهاية العالم الثالث ؟

لعل الحديث عن «نهاية الجغرافيا» يخفى فى طياته نهاية من نوع آخر من النهايات ، واعنى بها نهاية «العالم الثالث» ذلك العالم الذى حاول النهوض وتأكيد هويته وطموحاته السياسية واستقلاليته الاقتصادية فى خريطة العلاقات الاقتصادية والدولية منذ مؤتمر باندونج فى منتصف الخمسينات ، وتأليف مجموعة الـ ٧٧ فى اطار منظمة الامم المتحدة للتجارة والتنمية (الانكتاد) فى اوائل الستينات . إذ أن الذى نشهده اليوم هو بداية الموت البطىء للهوية السياسية والاقتصادية والمستقلة للعالم الثالث ولمجموعة الـ ٧٧ ولتجمع بلدان «عدم الانحياز» .. فى ظل عمليات الالحاق والاتباع والادماج القسرى على جميع المستويات ، السياسية والاقتصادية والتقنية والثقافية والحياتية ، تتحقق مقولة «نهاية التاريخ» و«نهاية الجغرافيا» فى آن واحدٍ على النحو الذى يتمناه ويسعى اليه بعض المنظرين وراسمى السياسة فى الدوائر الغربية .

ولكن نذر وبوادر «الحرب التجارية» التى احتدمت مؤخرا بين الولايات المتحدة الأمريكية والجماعة الأوروبية تفضح زيف الحديث عن «نهاية الجغرافيا» ، اذ أن التلويح «بالحرب التجارية» بين الكتل الاقتصادية الكبرى أثناء «جولة اورجواى» فى اطار اتفاقية (الجات) حول تحرير التبادل التجارى ، يدل بوضوح على ان المصالح الاقتصادية

للوحدات القومية مازالت قائمة بل يتم الدفاع عنها بعنف وشراسة . وان فتح الحدود الجغرافية (وبالتالى الأسواق) لا يخضع لاعتبارات مبدأ «حرية التجارة» بصياغته المدرسية التبسيطية التى يروج لها انصار «حرية التجارة» فى بلادنا ، فقد كانت اعتبارات «القومية الاقتصادية» عنصرا مهما فى مفاوضات «الجات» التى انتهت عام ١٩٩٤ . وخير دليل على ذلك الموقف الفرنسى الذى ظل يدافع عن مصالح المزارعين الفرنسيين ويرفض الضغوط الأمريكية لفتح الاسواق الأوروبية أمام الصادرات الزراعية الأمريكية على حساب المصالح الاقتصادية والزراعية الفرنسية .

وفى اطار التحليلات والتعليقات التى احتدمت حول مفاوضات تحرير التجارة فى اطار اتفاقية (الجات) ، لم يحاول المعلقون تغليف كلماتهم وصياغتهم .. بل كانوا اكثر صراحة وافصاحا هذه المرة عن واقع الحال بعيدا عن الشعارات المنمقة . فقد كان العنوان الرئيسى لافتتاحية جريدة اللوموند[٢] الفرنسية (القريبة من دوائر وزارة الخارجية الفرنسية) «الجات» : قانون الطرف الأقوى ، كذلك كان العنوان الرئيسى لمقال تحليلى مهم حول مفاوضات «الجات» فى الصحيفة نفسها «الهيمنة»[٣] .

وقد يعجب البعض كيف تنطلق تلك العناوين والصياغات الحادة ذات النبرة «الراديكالية» من عاصمة دولة اوروبية كبيرة قطعت شوطا طويلا فى النمو والتقدم الاقتصاديين ، وكأنها تذكرنا بالشعارات التى كانت ترفعها بلدان العالم

الثالث فى الستينات ، كذلك كان مشهدا مثيرا حقا ان نرى على شاشات التليفزيون المزارعين الفرنسيين وهم يتظاهرون أمام السفارة الأمريكية يوم ١٨ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٢ ويحرقون علم الولايات المتحدة الأمريكية ، وكأننا نشهد مرة أخرى فيلما تسجيليا تم التقاطه لتظاهرة غاضبة فى احدى عواصم بلدان العالم الثالث فى الستينات . ولكن الأرض تدور ، والتاريخ «لا نهاية له» .

هوامش :

---

(١) فرانسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ والإنسان الاخير تعريب فؤاد شاهين وجميل قاسم ورضا الشيبى ، اشراف ومراجعة وتقديم مطاع صفدى (بيروت: مركز الانماء القومى ١٩٩٣)

(٢) جريدة اللوموند ١١ / ١١ / ١٩٩١

(٣) جريدة اللوموند ٦ / ١١ / ١٩٩١

الفصل الخامس :

تحديات «ما بعد السلام» : «سوق شرق - أوسطية» أم «نظام شرق - أوسطي» ؟

منذ ان انطلقت الدعوة إلى «السوق الشرق اوسطية» وما سمى «باقتصاديات مرحلة السلام» ، والنبرة التفاؤلية .. احيانا التبشرية ـ تغلب على العديد من الكتابات . وفى احوال كثيرة ، كان الضباب ، اسبق على الرؤية .. ولقد ركزت الكتابات والسجالات خلال الفترة الاخيرة على قضية السوق الشرق اوسطية» ومخاطرها ومحاذيرها ، وكأنها الكل ليست الجزء فى إطار ترتيبات سياسية واستراتيجية جديدة منطقة المشرق العربى . إذ أن المطروح حقا ليس «سوقا شرق اوسطية» . وإنما شىء اشمل واعم هو «النظام الشرق اوسطي الجديد» بمكوناته السياسية والإقتصادية والاستراتيجية والثقافية . فإذا غابت عناصر هذه الحقيقة الاولية ، غابت عنا حقائق اخرى مهمة .. ونكون قد انهمكنا فى الحديث عن الجزئيات واهملنا الكليات .

هل الترتيبات الشرق اوسطية الجديدة قدر محتوم ؟

يتعامل البعض ، من المفكرين والكتاب والسياسة ، مع الترتيبات الشرق أوسطية الجديدة وكأنها قدر مكتوب وقضاء لايصد ولا يرد . نعم هناك رسوم هندسية لمعمار جديد لمنطقة الشرق الاوسط التى تشمل مصر وإسرائيل وبلدان المشرق العربى ، يعيد صياغة المقومات الاقتصادية والسياسية والمفاهيم الامنية والركائز الثقافية للنظام الاقليمى العربى الذى تبلور غداة الحرب العالمية الثانية .. ولكن هذه «العملية التاريخية» الجارية لرسم خريطة جديدة للمنطقة .. هل هى من صنعنا ، أم مفروضة علينا قسراً ، وما هى الفرص المتاحة لبلورة موقف عربى موحد لتقليل الخسائر والمغارم ، فى الاجلين القصير والمتوسط ؟ تلك تساؤلات مهمة ومصيرية ، ولكن تظل الاجابات عليها باهتة او معلقة ، بل فى أحوال كثيرة .. نجد ان هذه التساؤلات غير مطروحة أصلا !

وإذا سلمنا بأن المفاوض العربى (والنظم العربية عموما) لا تملك سوى النذر اليسير من «الأوراق التفاوضية» ، فإن أية مباراة حقيقية لها حل يسميه علماء الرياضة (Mini - Max) بمعنى انه ، فى نهاية المباراة ، يحصل الطرف الاقوى على أقصى ما يستطيع ويرتضى الطرف الاضعف بالحد الأدنى (mininum) . وإذا كانت اسرائيل تعرف جيدا أقصى ما تريد ، فهل يعرف العرب (مفاوضون وحكام ومفكرون وشعوب) ما هو الحد الادنى الذى لا يجب التنازل عنه فى اية تسوية

قادمة في كافة الجهات السياسية والاقتصادية والثقافية !؟

وبالتالى ، فليس هناك شيء اسمه «تقليل الخسائر» و«تعظيم المكاسب» في آن واحد بالنسبة لأحد أطراف المباراة التفاوضية . ولكن لكي يكون لأية مباراة حل «توازنى» يحقق الحد الأقصى مكاسب للطرف الأضعف ، لابد من وجود حد أدنى من التكافؤ النسبى بين أطراف التفاوض (مع إختلاف درجات القوة) بما يسمح بالوصول الى ما يسميه البعض «حل وسط للصراع» ، وفق التعبير الدارج فى قاموس السياسة اليومية . أما إذا انعدم التكافؤ (أو انعدمت أوراق المساومة) فلا توجد «مباراة» أصلا ، ولا يبقى سوى القسر والإملاء من طرف على آخر .

إن عنصر الجدة الوحيد في الصراع العربي - الاسرائيلي هو أنه أصبح كلا الطرفين مقتنعا أنه غير قادر على نفى الآخر نفيا مطلقا بقوة السلاح ، وأنه لابد من إدارة الصراع بأشكال أخرى : سياسية ، إقتصادية ، وثقافية . ولذا فإن القائلين «بإنكسار» أو «إنحسار» المشروع الصهيونى إنما يتحدثون فقط عن إنحسار أو إنكسار الجانب العسكرى «المطلق» من المشروع الصهيوني . وقد عبر شمعون بيريز - وزير خارجية إسرائيل - عن هذا التحول فى المشروع الصهيونى ، وإنعكاسات ذلك على مفهوم الأمن للدولة العبرية ، إذ يشير إلى أنه :

«من المستحيل التفكير فقط في الدفاع عن الحدود وإغفال

ما يجرى فى الأماكن البعيدة . من غير المعقول ان يحملنا صاروخ من بعد الف كيلو متر ، بينما نشغل أنفسنا برسم حدود على بعد ثلاثين كيلو مترا من مركز وجودنا .. فالمطلوب اليوم ليس حدوداً قابلة للدفاع ، بل ابعاداً قابلة للدفاع . وبكلمات أخرى ، علينا ان نبنى شبكه من العلاقات السياسية يكون بمقدورها تغطية كل مواقع الخطر فى شبكة العلاقات العسكرية المجردة» .

إن تلك النظرة الامنية الجديدة تقوم على توظيف شبكة ومنظومة الترتيبات السياسية والإقتصادية «الشرق أوسطيا الجديدة» لبناء تلك «الابعاد» و«الاعماق» دون الإقتصار على المفهوم التقليدى والضيق للامن القائم على الدفاع عن الحدود الجغرافية فقط . فلقد تجاوزت اسرائيل عقلية «الجيتو» و«الاقتصاد المعاصر» ، لكى تنتقل إلى مرحلة الهجوم الإقتصادى والسياسى على صعيد مجمل المنطقة العربية .. وهى فى ذلك تحاول استخدام «إتفاق غزه - اريحا» كمدخل لهذه العملية الهجومية الواسعة ، وتحويل «الكيان الفلسطيني الناشىء» إلى جسر للعبور للمنطقة العربية .. وهذا هو «الثمن الحقيقى» للسلام الذى تطلبه اسرائيل ، الذى يطالبنا البعض بعدم مناقشة شروطه وتداعياته ، وإلا أصبحنا حكما فى معسكر الرافضين للسلام» .

سيناريوهات الهندسة الجديدة للمنطقة العربية

ولاشك أن هناك عدة سيناريوهات «للفك» و«اعادة التركيب» لبلدان المنطقة العربية لكى تتلاءم مع متطلبات «النظام الشرق أوسطى الجديد» . ولكل سيناريو من هذه السيناريوهات بأبعاده وتداعياته الإقتصادية والسياسية وبصفة عامة تنهض الهندسة الجديدة على عدد من المقومات والدعائم الاساسية :

١ ـ بناء «منظومات» و«مناطق» للتعاون الاقتصادى الامنى ، تنشأ على حساب النظام الاقليمى العربى القائم حاليا .

٢ ـ فصل بلدان «المشرق» عن بلدان «المغرب» العربى ، من خلال ترتيبات إقتصادية وسياسية منفصلة لكل منهما .

٣ ـ اعادة تعريف «المشرق» لكي يشمل مصر ، ودمج «المشرق الجديد» مع اسرائيل فى منظومة تعاون إقتصادى أمنى .

٤ ـ فصل «العراق» عن المشرق وبلدان الشام ودمجه فى منظومة إقتصادية أمنية جديدة ، تشمل بلدان الخليج ، وربما إيران وجمهوريات إسلامية من آسيا الوسطى .

٥ ـ دمج بلدان المغرب العربى فى «الفضاء الإقتصادى الأمنى» لبلدان البحر الابيض المتوسط .

٦ ـ عزل وتهميش السودان والصومال واليمن (بلدان الأطراف) ، وضمها لنظم امنية ومناطق إقتصادية خاصة بأفريقيا والقرن الافريقى .

٧ ـ تحويل «فلسطين» من قاطرة لحركة التحرر العربى الى معبر وجسر لاسرائيل فى الوطن العربى .

تلك بعض الخطوط المريضة والتوجهات التي تحكم عملية إعادة رسم الخرائط الاقتصادية والسياسية والاحزمة الا[منية] الجديدة فى المنطقة العربية ، وما يحيط بها من مناخ وتخوم .

وهناك بلاشك «تنويعات» و«تفريعات» مهمة على ه[ذه] الخطوط العريضة التى أشرت اليها .

وليس هناك من شك إنه من حق إسرائيل ، وساسته[ا] ومفكريها ، تقديم رؤيتهم للمستقبل فى إطار ما يسمى «الشر[ق] الاوسط الجديد» ، الذى يجد القارىء تحليلا واضحا وشا[ملا] له فى كتاب شمعون بيريز الذى صدر مؤخرا بهذا العنوان ولكن أين نحن من تلك الرؤية الاسرائيلية التى تتبناها الي[وم] منظمات دولية وإقليمية مهمة . هل نقتصر على إبداء بعض الملاحظات الفنية المحدودة ، أو نقف عند مستوى كتا[بة] بعض الهوامش الفرعية على الرسوم المعمارية والتصميما[ت] العملاقة المطروحة اليوم على الساحة ، ام نختلف فقط عل[ى] مواقيت التنفيذ والتشغيل للمراحل المختلفة للنظام الشر[ق] أوسطى الجديد .. أم نطرح رؤية كاملة بديلة تحافظ على الح[د] الأدنى من الحقوق والطموحات العربية ، فى إطار رؤية جديد[ة] للسلام . ولكن ذلك السلام الشامل والعادل والدائم الذى يقوم على القسر والاجبار والاملاء ، وإنما ينهض على مفهو[م] «المصلحة المتبادلة» ، وفقا لارادات حرة لاطراف متكافئة فحن العرب أصحاب حق ، وبدوننا لن ينجح أى ترتيب تصميم من التصميمات الراهنة لانها ليست قدرا مكتوبا

ولان المستقبل ليس لوحا محفوظا يكشف عنه الستار . بل هو «عملية ديناميةِ» مستمرة لنا دور اساسى في صياغتها وتحديد معالمها وفقا لرؤيتنا ، حتى فى ظل اكثر لحظاتنا ضعفا .

كذلك ، فان ليس هناك مفهوم واحد او وحيد «للسلام» ، كما يحاول البعض ان يوهمنا ، بل هناك مفاهيم متعددة واشكال مختلفة لاية تسوية تعكس علاقات القوى ، او غياب او تواجد الرؤى الاستراتيجية لدى اطراف النزاع . فهناك اكثر من شكل من اشكال السلام ، وفقا لمضمون «التسوية» التى يتم ابرامها .. وبالتالى فان قبول او رفض «السلام» إنما هو فى الحقيقة قبول أو رفض لمفهوم «تسوية» من نوع معين ، وليس له علاقة بالمفهوم المطلق او المجرد للسلام .

ما العمل ؟

إن مواجهة التحديات الجديدة بتعقيداتها وتداخلاتها الاقليمية والدولية ، هى مهمة شاقة بطبعها يعجز عنها جهاز بعينه او دولة عربية بمفردها . ولذا لابد من تضافر مبادرات ومجهودات فرق عمل على مستوى الاجهزة الرسمية المهتمة بقضايا الامن القومى والمصير العربى ، وكذا قيادات القوى السياسية والمنظمات المهنية والنقابية (بما فى ذلك منظمات رجال الاعمال) ، لان الامر اخطر من أن يترك لمناظرات فكرية تتعامل مع اشباح واوهام ، تدور حول نفسها ، وترضى غرور بعض المثقفين دون أن تخرج بإجابات صحيحة ومعمقة حول التساؤلات العملية والمصيرية التالية :

١ ـ ما هى افضل الترتيبات الإقتصادية فيما بين البلدان العربية لمواجهة المشروع الاسرائيلى للنظام الشرق اوسط الجديد ؟

٢ ـ ما هو تقييم منافع ومضار مشروعات الربط الاقليمي المقترحة على البلدان العربية المعنية ؟ ونعطى كمثال لذلك تاثيرات مشروع خط انابيب البترول المقترح انشاؤه ليربط بين راس التنورة فى السعودية وميناء حيفا فى اسرائيل على دخل قناة السويس فى مصر ، وعلى مستقبل وربحية خط سوميد ؟ كذلك ما هى تاثيرات تحويل مسارات «تجارة الترانزيت» القادمة للمنطقة العربية من ميناء بيروت الى ميناء حيفا الاكثر كفاءة والاكبر طاقة ؟

٣ ـ فى حالة سوق شرق اوسطية (او «منطقة تجارة حرة بين اسرائيل ومصر وبلدان المشرق العربى) كما هو مطروح حاليا ، ، ماهو توزيع مكاسب التجارة والنمو فى هذه المنطقة بين الطرف الاسرائيلى والاطراف العربية الاخرى ، فى ظل الانماط الجديدة لتقسيم العمل فى اطار هذه المنطقة ؟ ومن ذا الذى سوف يستحوز على «نصيب الاسد» ؟

تلك هى نماذج لبعض الأسئلة الملحة ، التى أعتقد أنه لا توجد لها إجابات واضحة لدى أجهزة صنع القرار فى البلدان العربية المعنية ، أو لدى الأمانة العامة للشئون الاقتصادية للجامعة العربية او لدى مجلس الوحدة الاقتصادية العربية .. ولهذا يجب ان ينتقل الحوار فورا ، وبدون ابطاء ، الى مستوى

ارقى يدقق فى المقولات ويطرح تصورات بديلة تحافظ على التضامن العربى وتفتح الطريق امام مستقبل من صنع ايدينا .

الفصل السادس :

تكوين العقل النقدي : طريق المستقبل

اشار بعض الكتاب[١] إلى اهمية تكوين «العقل النقدى» باعتباره إحدى المهام الرئيسية لاية نهضة معاصرة ، وضرورة أن ينعكس ذلك على النظام التعليمى ، والنظام الاعلامي ونظام التنشئة الإجتماعية بصفة عامة .. وتلك قضية على جانب كبير من الأهمية والخطورة إذا كنا نسعى حقا لان يكون لنا مكان بين الأمم والشعوب الناهضة . إذ ما احوجنا إلى اعمال مثل هذا «العقل النقدى» فى غمار تلك المواجهة الحضارية وذلك التنافس الضارى الذى سوف يطبع الحقب القادمة ، حيث ستكون الغلبة لروح المبادرة والنقد والابداع . ولعل مرفقى التعليم والاعلام يشكلان اهم مرفقين مناط بهما بناء ذلك «العقل النقدى» الذى يقوم على التمحيص والشك المنهجى . ويبدو لى أنه هناك غياب «شبه كامل» لذلك العقل النقدى فى كل منحى من مناحى حياتنا وفى مجمل سلوكياتنا اليومية . ويكفى لنا ان نضرب مثلا بنجاح دعايات شركات توظيف الاموال فى اكتساب جمهرة كبيرة من الناس من بينهم اناس على درجة عالية من التعليم والتأهيل المهنى للتدليل

على غياب ذلك «العقل النقدى» ، وعلى أن هناك خللا جسيم في النظم والمناهج التعليمية وفي اسلوب وممارسات وسائل الاعلام ووسائل الاتصال الجماهيرى المقروءة والمسموعة والمرئية . ونظرا لخطورة هذه القضية ومساسها بمستقبل هذا الشعب وموقعه من خريطة الاحداث والتطورات الاقليمية والدولية ، في ظل إعادة تشكيل مراكز ومواقع القوة ، لابد ان تحتل هذه القضية المكانة التي تليق بها في دائرة الحوار الوطني ولتشكل احد مقومات استراتيجية التغيير والتجديد خلال السنوات القليلة المتبقية من القرن العشرين . اذ ان تشكيل وتطوير ذلك «العقل النقدى» ، وشيوعه في كافة مناحي الحياة ، يشكل دعامة رئيسية من دعامات «الامن القومى» كما تفهمه الشعوب والامم الناهضة ، كما تفصح عن ذلك تجربة نهضة شعوب الشرق الاقصى وآسيا .

«العقل النقدى» و«العقل التبريرى» .

«العقل النقدى» هو نقيض «العقل التبريرى» القائم على التجميل المثالى للواقع وعدم كشف عوراته ومشاكله .. إذ ان «العقل النقدى» هو الذى يتجاوز اللحظة الراهنة ويتسلح بالرؤية التاريخية التي تنظر للحاضر كتاريخ ، ولا يزيف الحقائق ولا يقصر في استخلاص الدلالات وقراءة النذر في الافق . كذلك فان «العقل النقدى» هو نقيض «العقل الميكانيكى» ، القائم على التفكير بالنصوص ، الذى يرى الاشياء والظواهر في جزئياتها ويعجز عن رؤية العلاقات الجدلية والتفاعلات الجارية بين الظواهر والاشياء . إذ ان

«العقل النقدى» هو عقل قائم بالضرورة على التأليف والتركيب - وليس التلفيق - يرى الاشياء فى صيرورتها وتفاعلاتها وتداعياتها القصيرة وطويلة الاجل .

كذلك ، فان «العقل النقدى» هو نقيض «العقل الفهلوى» الذى يقوم تبسيط القضايا وتسطيحها وتزيين الامور والتهوين من المخاطر والعواقب وعدم حساب الاحتمالات ، مما يؤدى الى كوارث .. وفقا لنظرية «كله تمام يا فندم» ! ان سيادة «العقل الدعائى» فى كثير من التصريحات والبيانات الرسمية ، وغياب روح النقد البناء تؤدى الى شراء الحاضر على حساب المستقبل ، وتقوم على تضخيم حجم الايجابيات وعدم تسليط الضوء على السلبيات ، وكأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان .. ولعلى أضرب مثالا بسيطا على ذلك ، وهو اسلوب عرض البيانات الاحصائية ذات الطبيعة المالية والاقتصادية التى يجب أن يتم حسابها على اساس «الاسعار المثبتة» . فمعظم الأرقام والكميات الاقتصادية والمالية التى تمتلىء بها تصريحات وبيانات السادة المسئولين عادة ما يجرى حسابها «بالاسعار الجارية» دون استئصال اثر التضخم من الاسعار ، مما يجعل الزيادات (ومعدلات النمو) زيادات «اسمية» (nominal) وليست «حقيقة» (real) ، مما يطمس الحقائق ويعطى انطباعات خاطئة وخادعة عن حجم الانجاز والاداء الحقيقى ، بينما المطلوب هو مزيد من الافصاح والمكاشفة وليس الابهام والتشوية حتى نستعد لتبعات التحديات القادمة .

حول بناء «الكادر الوطني»

ولعل اهم التحديات التى تواجهها مصر عند نهاية القرن العشرين ومشارف القرن الواحد والعشرين هو «بناء الكادر الوطني» المدرب مهنيا وفنيا وفكريا للصمود فى وجه التحديات القادمة . فليس سرا ان المجتمع المصرى سوف يشهد خلال النصف الثانى من التسعينات عملية إحلال وتجديد واسعة للكوادر والقيادات العليا والوسيطة فى كافة المواقع الادارية والمهنية والاكاديمية . اذ أن أجيال الاربعينات والخمسينات والستينات التى لعبت أدوارا مهمة فى عمليات البناء والنهوض الوطنى ستبدأ فى مغادرة مواقعها ، وتسليم مسئولية القيادة لاجيال وقيادات اخرى .

ويبدولى أننا لم نعد العدة الكافية لعملية الاحلال والتجديد هذه ، إذ أن هناك ضعفا فى التكوين المهنى والعلمى الحديث مما يجعلنا نسرف فى الاعتماد على «الخبرة الأجنبية» . كذلك هناك تآكل فى «نظام القيم» ، حيث تسود قيم «الانتفاع السريع» مما يؤثر على النزاهة ، ويؤدى الى مزيد من الخلط والتداخل بين «النفع الخاص» واعتبارات «الصالح العام»

وهنا يبرز مرة اخرى الدور الاستراتيجى الهام المنوط بمرفقى «التعليم» بكافة مراحلة ، ومرفق «الاعلام» لبناء «العقل النقدى» وترسيخ قيم «الممارسة الديمقراطية» حتى يمكن بناء ذلك «الكادر الوطنى القيادى» ، المسلح بالعلم والنزاهة والخاضع دوما للمحاسبة

(accountability) . وان تشمل عمليات إعادة التدريب والتأهيل كافة اقسام قوة العمل المصرية ، على إختلاف مستويات مهاراتها . إذ انه لا خير في نخبة تحديثية .. عالية التعليم والتأهيل تخرجها مراكز علمية متقدمة في الداخل او الخارج (centres of excellence) ، إذا كانت تلك «النخبة المتقدمة» معزولة عن «الوسط الانتاجي» الطبيعي للمجتمع .. وحيث بقية اقسام قوة العمل تعاني من الجهل والتخلف وسوء التدريب وقلة الحيلة .

فإذا لم نسارع بسد تلك الثغرات من خلال استراتيجية شاملة لبناء الوطن ، فستبقى قياداتنا المهنية تحت رحمة «الخبير الاجنبي» الذي يضع لنا الخطط والتصورات المستقبلية دون أن نقارعه الحجة بالحجة ونضع له التصورات البديلة . ولن يكون لدينا جيل من المهندسين الخلاقين والمصممين بل جيل من المهندسين التنفيذين اقرب ما يكون الى فئة «الميكانيكيين» المهرة . ولن يكون لدينا العامل الحديث الذي يعرف قيمة الزمن ويدرك ارتباط الانشطة الانتاجية ببعضها البعض ، بل سيكون هناك ذلك الحرفي الذي لا يحضر معه ادوات عمله ويمارس صنوفا من الفهلوة لاداء عمله دون جودة او اتقان .

حول بناء «الانسان الجديد» والممارسة الديمقراطية

ختاما ، ان بناء العقل النقدي والعقل الخلاق يحتاج الى مناخ ديمقراطي حقيقي ، والى توسيع دائرة الحوار العام والرأي والمشورة حول قضايا الوطن ومستقبله . فلقد نجح

الاتحاد السوفييتى «سابقا» فى بناء ترسانة متقدمة من الاسلحة الحديثة والنووية والمتطورة ، واقتحم عصر الفضاء عام ١٩٥٧ ، ولكن غياب الديمقراطية وانتشار الفساد والانتهازية وعدم بناء «الانسان الجديد» ادى الى انهيار ذلك الصرح الكبير على النحو المأساوى الذى شهدناه .

إن حل المعادلة الصعبة بين ضرورات النقد وتوسيع دائرة الممارسة الديمقراطية لحماية مسيرة البناء الوطنى فى الاجل الطويل ، وبين اعتبارات الأمن والاستقرار فى الاجل القصير ، يجب أن تحل لصالح الديمقراطية بالمعنى الحقيقى - وليس الشكلى - للكلمة .. حتى يكون لدينا «كتاب» لا « كتبه» و«مواطنون» لا «رعايا» ، وحتى لا يعيش شعبنا «بنصف عقل» و«نصف لسان» ، ونحن ندق ابواب القرن الواحد والعشرين .

الفصل السابع :

جمال حمدان ورمزية الموقف !

مع بداية كل عام دراسى جامعى جديد تثور فى النفس العديد من الشئون والشجون حول حاضر ومستقبل جامعاتنا المصرية ، وحول ما ال اليه حال الاساتذة والطلاب فى عصر تتعاظم فيه الضغوط والتحديات والتناقضات . ولا ادرى لماذا يلح علىّ فى مطلع كل عام جامعى طيف الدكتور جمال حمدان الذى غاب عنا ، والذى كان رمزا للباحث الاصيل والاستاذ الذى تسلح بالعلم والكرامة والاستقلالية ، وظل يتمسك بكل معانيها ومضامينها حتى آخر لحظة من حياته .

لقد ذهب جمال حمدان الى الغرب ـ مثل العديد منا ـ فى بعثة علمية الى جامعة ريدنج بانجلترا لدراسة علم الجغرافيا ولكى يتسلح بالادوات والمناهج العلمية الحديثة ولينعم بالجو العلمى الذى تزخر به الجامعات الغربية .. ولكنه كان يدرس طوال الوقت بعين الفاحص والناقد الذى لم تفارق مخيلته لحظة واحدة خصوصية وتضاريس الواقع المصرى . وعندما حصل على درجة الدكتوراه فى نهاية بعثته العلمية عاد الى

الوطن ليؤسس رؤية علمية وطنية جديدة فى علم الجغرافيا ، ولم يرض لنفسه ان يكون هامشا على متن فتوحات الغرب وكشوفه العلمية ، بل حاول تاسيس «مرجعية وطنية علمية» ينطلق منها ، وحدد لنفسه جدول اعمال ابحاثه المستقبلية .. ولم يرقص على انغام آخر الالحان والصرعات الصادرة عن مراكز الابحاث الغربية المتقدمة دون نقد او تمحيص .

لقد ادرك جمال حمدان بفطرته وحسه الوطنى انه يجب ان يخاطب بنى وطنه اولا ، وان «المحلية الصادقة» ، هى الطريق الى العالمية ، الحقة. ولقد قاوم فى سبيل ذلك العديد من الاغراءات واعتصم بشقته المتواضعة يواصل ابحاثه الطويلة والمضنية لا يعاونه مساعد باحث ولا يتمتع باى تمويل خارجى او داخلى . ورغم ظروف العزلة والاعتزال الاحتجاجى لجمال حمدان ، انجز مشروعا بحثيا عظيما ومتكاملا فى العلوم الاجتماعية المصرية سيبقى خالدا فى السجل البحثى للاكاديميين المصريين . وسيبقى رمزا لقيم عزيزة غالية قلما يجرى احترامها هذه الايام . وعظمة جمال حمدان ، تكمن فى انه لم يكن يهتم باللهاث وراء صغائر الاشياء .. ولهذا لم يشأ جمال حمدان ان يزاحم احدا على طيبات ومباهج الحياة اليومية الصاخبة ، ولم يسع الى منصب او جاه ، ولم يكن فى يوم من الايام «عبده مشتاق» - على حد تعبير وتصوير الرسام الساخر مصطفى حسين .

تجليات جمال حمدان

من بين اهم تجليات جمال حمدان فى كتاباته تلك الجدلية

العميقة والخصبة بين الزمان والمكان التى صبغت الاجزاء الأربعة ، من مؤلفه الموسوعى «شخصية مصر» . ولقد اطل جمال حمدان فى المجلد الثالث من «شخصية مصر» على الاوضاع الاقتصادية المصرية ، ولخص الاعتلالات الاساسية للاقتصاد المصرى المعاصر على النحو التالى :

«نحن نستهلك اكثر مما ننتج ، وننتج اقل مما ننجب ، وبالتالى نستورد اكثر مما نصدر ، ونصدر اقل مما نستدين .. وننفق ونستورد اكثر مما ندخر ونستثمر» .

وفى ظل سياسة «الانفتاح الاقتصادى» ـ او ما يسميه جمال حمدان سياسة «الانزلاق الاقتصادى» ـ يشير الى انه قد : «اختل نظام الاجور والدخول والاسعار ، فجميعهم اصيب بالصرع الاقتصادى والاجتماعى» .

والى الذين ينُغنون بسيرة جمال حمدان . دون التأمل فى مضمون مواقفه فى قضايا السياسة والفكر والمجتمع ، اهدى اليهم هذه الباقة من سبائك اقواله :

ـ «مصر محكوم عليها بالعروبة . فمصر وهى واسطة كتاب الجغرافيا ، تحولت الى فاتحة كتاب التاريخ» .

ـ الشخصية الاقليمية لاى بلد هى حاصل ضرب جغرافيته فى تاريخه .. ارضه وناسه» .

ـ «لا جغرافيا دون تاريخ ، وكذلك لا تاريخ دون جغرافيا .. فان الجغرافيا والتاريخ كالتوائم» .

ـ و«لا اعتز فى عملى بشىء كما اعتز بحجم الاصالة والجدة وكمية الخلق والابتكار» .

ـ «الخيال ليس بعيدا تماما عن العلم .. بل لعله بدايته» .

ـ «ان بلادنا تخصصت فى اهالة التراب على عباقرتها وهم احياء .. وتمجيدهم وهم موتى» .

تلك هى بعض الاقوال الخالدة لجمال حمدان ، وكم نحتاج الى ان نتوقف طويلا عند هذه الاقوال والمقولات التى تمت صياغتها كسبائك الذهب الخالص ، لتكون عونا لنا فى هذا الزمان .

رمزية ظاهرة «جمال حمدان» .

يبقى جمال حمدان رمزا شامخا فى مجتمع سقط فيه العديد من الرموز وموت فيه الكثير من القيم والمعانى . سيبقى جمال حمدان رمزا للتمرد على «الحقبة النفطية» فى تاريخنا ، وكل ما حملته من مفاسد فى ثنايا حياتنا الثقافية والعلمية والسلوكية .

سيبقى رمزا للبحث العلمى الاصيل الذى يهتدى بالمرجعية الوطنية ، ويرفض الشروط المرجعية والاولويات البحثية الغربية .

وسيبقى رمزا لرفض تهافت «العلماء» على كل مؤلد وكل زفة وسيبقى رمزا للبعد عن الاضواء الاعلامية الباهرة التى تصنع من الاقزام عمالقة وتلف بالصمت خيرة الرجال .

وسيظل جمال حمدان ضميرا حيا لا يموت يقض مضاجع العديدين ، ويفضح الكثير من الزيف فى حياتنا العلمية وممارساتنا البحثية .

المثقفون : هل هم شهود زور ؟

فى تلك اللحظات التى يتشكل فيها تاريخ . جديد للعالم ولمنطقتنا العربية ، وتميد الأرض من تحت اقدامنا ، وتهب الرياح العاتية من كل جانب .. نتلفت حولنا لنتلمس مواقف «المثقفين» او هؤلاء الذين كان يطلق عليهم في الكتابات «النخبة» او «الانتلجنسيا» ازاء كل ما يحدث فى الداخل والخارج ، فلا نجد سوى التمتمات والهمسات الخافتة او الحركات السريعة التى تذكرنا بخفة ومهارة لاعب السيرك المحترف .

ففى لحظات كثيرة ، يتمالكنى شعور بان كثيرا مما يكتب ويقال هو بمثابة «رجع الصدى» لما يكتب ويقال فى دوائر اخرى تملك المال والجاه وتصدر صكوك الغفران . فبالامس كانت شعارات الاشتراكية والتخطيط تملأ الدنيا ، واليوم نحن نعيش عصر الاقتصاد الحر والخصخصة بنفس الحماس والاندفاع ، وغدا التعاون والتعايش فى اطار النظام الشرق اوسطى» !

فاحيانا كثيرة يغيب الوعي ويطول غيابه ، ثم يصاب البعض بنوبات «عودة الوعى» .. ولا ندرى متى كان الخطأ .. ومتى كان الصواب ؟

وعندما تضيع الفروق بين الاعتقاد الحقيقى وبين النفاق ، وبين الثبات على المبدأ والثبات على المبلغ ، يفقد المثقفون واهل الرأى مصداقيتهم فى اعين الناس ولا يتطلع احد اليهم لكى يكونوا طليعة او نخبة قائدة . واذا كان هذا هو

حال المثقفين الذين اتاهم الله علما ومعرفة ، وسعة اطلاع ، فلا غرابة اذن اذا جاء التغيير من فئات وعناصر تسبح في الجهل والجهالة . فلماذا كل هذا تغراب والتعجب ؟!

ولنتذكر دوما قول الشاعر :«وما استعصى على قوم منال .. اذا كان الاقدام لهم ركابا» .

الجزء الثانى

فى أزمة الفكر والسياسة فى المجتمع المصرى

الجزء الثانى من هذا الكتاب يتناول أزمة الفكر والسياسة فى المجتمع ، حيث يعيش المجتمع المصرى منذ منتصف السبعينات فترة إضطراب وإلتباس فكرى شديد . ولعل ذلك يعود الى المخاض الانتقالى للمجتمع المصرى خلال السبعينات والثمانينات ، بما إختلط فيه من هجرة وبترول وإنفتاح ومراجعة فكرية مما أدى إلى صعوبة فرز القضايا الفكرية والسياسة موضع الخلاف والنقاش بوضوح وأمانة . حيث كان هناك دائما «ستار الدخان» (smoke screen) التى تختفى وراءها المعارك والمصالح الحقيقية .. ومن هنا كانت شعارات الديمقراطية والانفتاح واللحاق بركب التقدم فى احيان كثيرة كلمات حق يراد بها باطل ، وشعارات جوفاء بدون مضامين حقيقية .. تضلل أكثر مما تستنهض .

ولذا فإن فصول هذا الجزء من الكتاب تتصدى للمشاكل الحقيقية والشروط الموضوعية المرتبطة بالأخذ بالنهج الديمقراطى وتسييد قيم النهضة على قيم التخلف والخروج من حالة «الخندقة الفكرية» التى يعانى منها المجتمع المصرى فى اللحظة الراهنة . ومن هذا المنظور ، يعالج الفصل السابع قضايا النهج الديمقراطى وتكوين «الرأى العمومى» الذى لا يقتصر على النخبة أو الصفوة المتميزة . ويرتبط بذلك موقف «رجال الأعمال» و«أرباب السوق» من قضية الدفاع عن النهج الديمقراطى فى حكم وإدارة البلاد .

ويعالج الفصل الثامن قضايا تتعلق بنهج الإصلاح السياسي والاقتصادي والاداري ، حيث يتم استخدام «المسكنات الموضعية» و«الحلول الترقيعية» وسياسة «إطفاء الحرائق» دون النفاذ إلى جوهر الازمة وعلاج الجذور . ويزداد العود إعوجاجا عندما يصبح جانب هام من نبهاء ووجهاء البلاد أعضادا للرؤية الأجنبية لحلول مشاكل البلاد ، حيث نفتقد المشروع الوطني الجامع ونرقص على أنغام ألحان قادمة من الخارج ، وحيث أصبح «زامر الحي لا يطرب» ! وهكذا يتم نزع «فتيل الوطنية» من الوجدان في عصر «الرؤية الكونية» ، ويجرى الهروب دوما الى الامام قفزا فوق المشاكل باسم الواقعية والعالمية والتمشي مع «روح العصر» !

ورغم كل هذه الدعوة للإنفتاح على العالم الجديد والدعوة للقدرة على المنافسة في عالم الغد لا توجد أدنى محاولة لزرع «قيم النهضة» في تربة المجتمع ، فكل ما يجرى من ممارسات ويسود من آليات يرسخ ويعمق «قيم التخلف» . وهذا موضوع **الفصل التاسع** حيث تجرى مقابلة واضحة بين منظومة **قيم النهضة** التى تؤكد على القيم الإنتاجية ، قيم الانضباط في العمل ، قيم الابداع والتجويد ، قيم التنمية ، من ناحية ، وبين **قيم التخلف** ، من ناحية أخرى ، حيث تسود العقلية الريعية (الكسب السريع بدون جهد) ، قيم التسيب ، قيم التقليد والإتباع، قيم الاستهلاك والبذخ لمن يملك . إن تلك المقابلة البسيطة بين منظومتى القيم والحالة الصراعية بينهما ، هى المؤشر الواضح لمدى التقدم المطلوب للخروج من دائرة

التخلف إلى دائرة المنافسة العالمية .. وهنا يكمن الاختبار الحقيقى رغم كل محاولات التدليس الفكرى والقفز فوق الواقع .

ويجىء الفصل العاشر ليناقش قضية هامة تتعلق بالازمة الراهنة للفكر المصرى المعاصر حيث ينقسم الى ما يسمى تيار العلمانية (أو «التنوير» كما يسميه بعض أصحابه) وتيار الاصولية الإسلامية ، كما درج القول على تسميته . ولقد أدى هذا الاستقطاب الفكرى الحاد إلى حالة من «الخندقة الفكرية» والتراشق الفكرى والسياسى ، تتسم بالتبسيط والتعميم وعدم البحث فى جذور تلك الانقسامية الفكرية العنيفة التى يمكن أن تؤدى إلى حالة من الشلل المجتمعى فى سعيه نحو النهضة والتقدم والخروج من الحصار . وفى هذا الفصل نبحث عن جذور الأزمة لدى التيارين حيث توجد «شبيهة التغريب» لدى التيار العلمانى (أو المسمى «بالتنويرى») ، وهى قضية سبق أن اشار إليها صبحى وحيده (١٩٥٠) عندما تحدث عن إغتراب تيار الفكر الإصلاحى والتكنوقراطى عن الواقع المصرى ، حيث يستند هذا الفكر إلى «النموذج الجاهز» القادم من الخارج (سواء شرقا أم غربا) ، دون تمحيص مدى ملاءمة هذا النموذج لتضاريس الواقع المحلى والتاريخى المعقد . وفى المقابل ، توجد ازمة من نوع آخر لدى تيار «الاصولية الإسلامية» ، حيث يتم الهروب إلى الخلف فى محاولة لإعادة إنتاج حقبه ما بتفاصيل تجاوزها الواقع المعاش . فهو تيار صحيح التوجيه فى

استلهام التراث والموروث الثقافى وفهم خصوصيات الواقع المحلى ، ولكنه يدخل فى طريق مسدود عندما يحاول إعادة إنتاج الماضى بشكل سلفى وجامد فى عالم متغير .

ومن هنا تجىء أهمية الفصل الحادى عشر الذى يناقش قضايا «الحروب والتسويات الفكرية» وأساليب إدارة الصراع الفكرى والسياسى فى بلادنا .. وتلك قضية مركزية حتى لا ينحرف الصراع السياسى والفكرى فى مجتمعنا ويتم تبديد طاقة المجتمع والجماعات السياسية فى معارك ودوامات لا تقود بالضرورة الى نهضة أو تقدم . وهكذا نجد فى ثنايا هذا الفصل محاولة الخروج من حالة التنافر الفكرى والشرذمة السياسية التى يعيشها مجتمعنا فى الآونة الراهنة . ويلج الحديث فى هذا الفصل الى جوهر القضية وهو : إذا كنا بصدد الحديث عن «التسويات الفكرية» وفتح الحدود بين التيارات الفكرية والسياسية المتصارعة على الساحة المصرية ، دعونا نتساءل عن من ذا الذى يبادر الى اغلاق الحدود الفكرية وقفل باب الحوار والاجتهاد ؟ إن الجواب كما يوضح هذا الفصل يكمن فى سلفية كافة التيارات السياسية والفكرية على الساحة المصرية . وهنا تكمن الأزمة .. كل الأزمة .

الفصل الثامن :

هج الديمقراطى والرأى العمومى

من حق اى سلطة أن يكون لها كتابها الذين يحملون وجهة نظر الرسمية ، ويطرحون على الجمهور العريض من الناس بهة نظر نظام الحكم فيما يحدث من حولهم من مشاكل طورات . ولكن فى مقابل ذلك لابد ان تتواجد قنوات وسبل م من خلالها التعبير عن ما أسماه العالم الجليل رفاعة طهطاوى «الرأى العمومى» ، أى ذلك الرأى الذى يعبر عن ممير الشعب وعن نبض الشارع . إذ لن يستقيم النهج ديمقراطى لأى حكم الا بالاستماع الى الرأى العمومى ، بيدا عن مواكب النفاق وعن ثرثرة النوادى والمنتديات .

وفى ذلك يقول رفاعة رافع الطهطاوى فى مباهج الآداب مصرية : «ومما يحملهم (الملوك والرؤساء) على العدل يضا ويحاسبهم محاسبة معنوية : «الرأى العمومى» ، أى اى عموم أهل ممالكهم او ممالك غيرهم ممن جاورهم من ممالك ، فإن الملوك يستحون من اللوم العمومى . فالرأى عمومى سلطان قاهر على قلب الملوك والاكابر لا يتساهل فى كم ولا يهزل فى قضائه» .

وفى نفس المعنى ، يقول السيد عبد الرحمن الكواكبى في مؤلفه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد :

«إن داء الشرق هو الاستبداد ، والاستبداد هو أن تتصرف الحكومة في شئون الرعية كما تشاء بلا رقيب ولا حسيب واذن فمبعث الاستبداد هو غفلة الامة ، فالامة التى لا تقيم نفسها رقيبا على الحكام . يستبد بها حتما وكلاؤها»

ويستطرد ليقول : «وما من حكومة عادلة تأمن المسئولية والمآخذة بسبب من اسباب غفلة الامة ، او إغفالها إلا وتسارع إلى العكس بصفة الاستبداد ، وبعد ان تتمكن فيه لا تتركه» .

وهكذا فإن الرأى العمومى يشكل أحد صمامات الأمان التى تحمى السلطة اى سلطة ، من نفسها ، ومن إغراءات الانفراد بالرأى .. واستبعاد فئات وقوى عديدة من دائرة الاجتهاد الوطنى .

والمقصود بالرأى العمومى هنا هو الرأى العمومى المسئول ، الذى يترفع عن المهاترات والمناورات السقيمة ويصيب كبد الحقائق دون إسفاف أو تشهير . اذ ان محاولات التستر وراء الرأى العمومى للحديث عن قضايا ثانوية ومفتعلة وجانبية دون التصدى للقضايا المصيرية الكبرى بجرأة وشجاعة ، انما هى ممارسات تصيب قضية الديمقراطية فى الصميم وتقوض مقومات النهج الديمقراطى السليم . وقد لا نغالى كثيرا اذا ما شبهنا تلك الممارسات بإخراج عربة

يمقراطية من الطريق العمومى العام ، ودفعها الى طرقات وارع جانبية لا مخرج منها . فيصاب الركاب بالاحباط تنوط .

ومن ناحية أخرى ، لن يستفيد الوطن شيئا عندما تتسع وة والهوة بين ما يقول به اهل السلطة وبين ما يستقر عليه ى العمومى . لأنه كلما ضاقت الفجوة بين «الفكر الرسمى» ن «الرأى العمومى» فى البلاد ، كان ذلك دليل خير على ة تحسن أحوال البلاد واقتحام العباد لكافة الصعاب التى ، فى وجه تقدم ورفعة هذا البلد الامين .

ولقد كان رفاعة رافع الطهطاوى ـ ذلك المعلم المصرى ـ احد رواد الفكر الديمقراطى الحديث فى مصر ، وطالما فى كتاباته بالحرية والأسلوب الديمقراطى فى إدارة ن البلاد . إذ يشدد الطهطاوى على أن :
«الحرية هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك .. ا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية .. كانت بطة عظمى فى راحة الاهالى وإسعادهم فى بلادهم ، انت سببا فى حبهم لأوطانهم» .

ولم يقبل الطهطاوى فكرة ان تكون ممارسة السياسة ركزة بيد النخبة والصفوة المتميزة ، او ان تكون وقفا على ة او فئة معينة دون سائر ابناء الشعب .. فلقد هاجم هطاوى المذهب الذى يرى بان «السياسة من اسرار كومة الملكية ، لا ينبغى عملها إلا لرؤساء الدولة ونظار

الدواوين» . (راجع : د . محمد عمارة ، رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث ، ص ٣٥٠) .

ويقترب فكر الطهطاوى كثيرا من فكر الكواكبى فى الاستبداد ، وضرورة ان يكون الحاكم عادلا راعيا لرعيته يقول :

«ان دأب الملك العاقل أن يتبصر فى العواقب ، يستحضر فى دائم اوقاته وسكناته أن الله سبحانه وتعالى اختاره لرعاية الرعية ، وجعله مالكا عليهم لا مالكا لهم ، لهم ، يعنى ضامنا لحسن غذائهم، حسا ومعنى ، لا لهم ؟!» .

ويرى الطهطاوى ان هناك علاقة وثيقة بين التمتع بال وبين الالتزام المجتمعى يدفع المضار عن الوطن فى ظرف الأزمة والخطر ، حيث يجب أن يتم انكار الذات والتنازل المزايا والامتيازات لصالح القضية الوطنية فى ظروف الأ والمحنة .. وفى هذا يقول :

«من حيث أنهم مستوون فى الحقوق ، أنتج ذلك انهم ا وقعوا جميعا فى خطر عام وجب على سائرهم ان يتعاونوا إزالة هذا الخطر ، لما فى إزالته من منفعتهم العمومية ، وقع لوطنهم حادث وجب عليهم أن يصرفوا النظر امتيازاتهم المعنوية ، كأنهم مجردون عنها بالكلية ، ويرجع الى صفة التسوية ، وينسوا كل مزيد ، فبهذا تكون التسو ملازمة للحرية عند انطواء راية الحرب ولوائه» .

وللأسف فان هذا المعنى النبيل الذى يتضمنه قو

لطاوى طالما غاب عن ذوى الامتيازات المعنوية والمادية لحظات الخطر والأزمة ، فحلت على البلاد الكوارث كبات .

«أرباب السوق» والديمقراطية

جاء على لسان سعد زغلول فى مذكراته الخاصة عن لاقة بين التجار والحياة السياسية :

«والتجار لا يشتغلون بالأمور العمومية إلا على مقدار ما ج به بضاعتهم عند العامة ، لا يهمهم بعد ذلك شكل كومة إن كانت مقيدة او مطلقة» .

وعن ذوى الوجاهة والنفوذ ، قال فى نفس المذكرات : «وذوو الوجاهة والنفوذ فهم يشتغلون بالأمور العامة بقدر ما بون بسبب الاشتغال بها من السلطة والنفوذ ، من امة ، فإذا أخذوا فى الاشتغال ومباشرة ما يبتغون من لة وجاه انصرفوا عنها وتبرأوا منها» . (راجع فتحى وان ، مجلة الهلال ، عدد نوفمبر ١٩٨٦) .

وهذه الأقوال لسعد زغلول ـ زعيم «الامة المصرية» فى لع العشرينات من هذا القرن ـ لها اهميتها وودلالاتها . إذ ا تطرح العلاقة بين التجار وذوى الوجاهة والنفوذ وأرباب سوق عموما وقضية الديمقراطية . وهل هناك مصلحة حقيقية سيلة للتجار وأرباب السوق فى النظام الديمقراطى وتعاظم قنوات التعبير عن الرأى العمومى . إن لدينا شكا كبيرا ان تلك الفئات يهمها بحق احتضان الممارسات

الديمقراطية فى مجتمع مثل مجتمعنا : فالديمقراطية ، ور
شأن الرأى العمومى فى حياة البلاد ، كفيل بتسليط الـ
على الممارسات غير السوية وغير القويمة فى عالم
والتجارة والمقاولات ، ومن ثم المحاسبة و«اللوم العمومى
على حد تعبير رفاعة الطهطاوى .

فعندما يكون الشعار الحقيقى الذى يعمل فى ظله
كبير من رجال الاعمال الجدد هو : «دعه ينهب .. دعه يمر
يصبح من الصعب على تلك الفئات أن تقبل الممارسا
الديمقراطية التى تقوم على تسليط الضوء على مواطن الـ
والفساد وتخريب الاقتصاد الوطنى وذمم افراد المجتم
وتفضل هذه الفئات العمل فى الظلام بعيدا عن دائرة الـ
والمحاسبة .

وفى ظل انتشار الممارسات الطفيلية التى نشهدها
حولنا فى عالم الاعمال والمال الجديد ، تصبح الرغبة
الحفاظ على الاشكال والمؤسسات الديمقراطية وحرية الرا
رغبة واهنة إن لم تكن معدومة . واذا كانت الديمقراط
والممارسات الديمقراطية هى صمام الامان لكافة فئا
المجتمع .. فإن عبء الدفاع عن الديمقراطية وصيا
مسيرتها يقع على عاتق القوى والفئات والجماعات المؤم
بالحق وبالعدل وباهلية هذا الوطن للتقدم والنماء .

بطاقة التموين .. وبطاقة الانتخاب

لعل من أهم الظواهر التى تلفت النظر فى مجتمعنا حول
قضية «الديمقراطية» ، و«المشاركة الشعبية» هى : كيف
حدث أن يتدافع المواطنون بالمناكب للحصول على البطاقات
التموينية لتأمين مقرراتهم من السلع التموينية الضرورية ،
بينما نجدهم هم انفسهم يحجمون عن الحصول على البطاقات
الانتخابية والادلاء بأصواتهم الانتخابية والتأكيد على حقوقهم
الاولية فى مجال تعديل اسلوب الحكم وتحديد توجهات
السياسة العامة للبلاد (بما فى ذلك السياسة التموينية
ذاتها) . ولكن هذه المفارقة هى نتيجة تراكمات وملابسات
تاريخية طويلة مر بها المجتمع المصرى خلال الثلاثين سنة
الماضية ، عندما اقمنا تعارضا مصطنعا بين حرية الحصول
على رغيف العيش وبين حرية المشاركة السياسية الواسعة
فى ادارة شئون البلاد .

ولقد جاء فى ميثاق الوطن (١٩٦١) خلال الفترة الناصرية
أن «حرية الرغيف هى المقدمة الطبيعية لحرية بطاقة
الانتخاب ، وان الذي يملك الأول هو الذى يحوز الثانى» . وتلك
- فى تقديرنا - ليست نتيجة صحيحة بالضرورة ، اذ اننا
نعتقد ان كليهما شرطان متلازمان لا يسبق احدهما الآخر ،
فالديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية السياسية هما صنوان
لا يستطيع المواطن ان ينعم بواحدة دون الاخرى . ولذا فقد
آن الاوان - فى ضوء خبرة الثلاثين عاما الماضية - الا نقيم

تعارضا مصطنعا وخيارا مستحيلا بين الديمقراطية السيا
والديمقراطية الاجتماعية ، فكلاهما يضيف بعدا وعمقا ج
للآخر .

فحالة السلبية الواسعة التي نشهدها حولنا ـ والتي تأ
شكلها الدرامي في النكوص عن اداء الواجب الانتخابي ـ
هي تعبير واضح عن رفض الاغلبية الصامتة للتزوير المس
للارادة الشعبية ولممارسة الضغوط وكافة اشكال الان
الاداري لتحويل العملية الانتخابية الى اداء لتكريس الاوض
القائمة . ونحن نعلم ان هناك العديد من المثقفين والمهن
والتكنوقراط من ابناء الطبقة الوسطى ، الذين حظوا باكبر
من التعليم ويملأون مجالسهم بأحاديث السياسة اليومية
يمارسوا حقوقهم الانتخابية خلال الثلاثين سنة الماضيا
لانهم يعلمون النتيجة سلفا .

إن المجتمع في حاجة الى مؤشرات ودلائل تؤكد الر
من جانب السلطة على نجاح «تجربة الانتقال الديمقراطي» ل
مصر ، إذ ان نجاح هذه التجربة هو امتحان ورهان لكل القو
السياسية في المجتمع المصري عند نقطة فاصلة من تاري
الحديث ، وفي ظل تعقيدات وتحديات واطماع خارجية هائلة
ولذا فان احترام الارادة الشعبية واتاحة الفرصة لاوس
اشكال الممارسة الديمقراطية هو الطريق الوحيد للذود ع
كرامة الوطن ولحماية المال العام وحشد كل الطاقات المنت

والحية فى المجتمع لتحقيق حالة نهوض وطنى جديد .. تنتشلنا جميعا من مستنقع اليأس والقنوط ومن حالة التحلل المجتمعى التى نعيشها منذ سنوات طوال .

الفصل التاسع :

كيف يستقيم الظل والعود أعوج !

هذا عنوان لمقال كتبه عبد الله النديم بمجلة «التنكيت والتبكيت» بتاريخ ١٧ يوليو ١٨٨١ ، أى منذ ما يزيد عن نيف ومائة عام . وقد أدان النديم فى هذا المقال ، «تقليد الاجانب فيما لا يجدى كالتفنن فى الماكل والمشارب والملبس (الموديات) وهذا كله يشجع الصناعة الاجنبية ويؤدى الى بوار الصناعة الوطنية» . ولقد أشار النديم فى مذكراته السياسية متسائلا حول اسباب نكسة وهزيمة العرابيين فى مصر : «ومن يرجو الظفر بالحرب باناس اجسامهم فى الشرق وارواحهم فى الغرب .. ونحن (العرابيون) تحركنا والامير مع العدو ، والامراء انفت من الدنو ، والنبهاء اعضاد للاجانب ، والوجهاء نائمون فى جانب» .

ولعل البلاغة كل البلاغة تكمن فى عنوان المقال الذى كتبه النديم فى منتصف عام ١٨٨١ ، اى قبيل عام واحد من الاحتلال البريطانى لمصر . إذ كيف يستقيم الظل والعود نفسه اعوج ؟ وتلك مسالة تحتاج لتامل كبير .. لعله بهذا القول يتوجه الى هؤلاء الذين يراهنون على اصلاح الفروع

دون الاصول ، ويهتمون بتحسين ظاهر الاشياء وليس جوهرها . فالذين لا ينتبهون ، أو يتغافلون ، عن حقيقة ان الظل لن يستقيم الا اذا تم تقويم اعوجاج العود ذاته .. يقودون البلاد الى حافة الهاوية .

وتلك مسألة أساسية فى منهج الاصلاح السياسى والاقتصادى والادارى فى بلادنا ، اذ نهتم عادة بمعالجة الاعراض السطحية للأمراض والأزمات الاقتصادية والادارية المزمنة التي يعيشها مجتمعنا ، بالمخدرات الفكرية والمسكنات الموضعية والحلول الجزئية . ولانجرؤ على معالجة الاعتلالات الكبرى التى يعانى منها مجتمعنا ، فالاعتلالات ليست مجرد اختلالات مؤقتة ، او عارضة ، يسهل معالجتها وتصحيحها لكى يستعيد المجتمع توازنه وعافيته بل هى ضاربة بجذورها فى اعمق اعماق المجتمع .

ولا يخفى على احد ان لدينا مشاكل متراكمة مزمنة : كمشكلة الاسكان وانكشاف الامن الغذائى وتدهور الانتاجية وضعف روح الانتماء للوطن ، وكلها تدل على اعوجاج خطير فى عود وبنيان هذا المجتمع ، وليس مجرد خلل طارىء وازمة عابرة . وكنموذج للنهج الخاطىء الذى نسير عليه هو عمليات الترقيع التشريعى المستمر التى نعيشها كل يوم ، إذ قلما يتم تغيير القوانين والتشريعات ، من أساسها لتلائم ظروف واوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة .. بل جرت العادة على ترقيع القوانين والتشريعات القديمة بالحذف والاضافة لكى تلائم كل العصور والامزجة ، حتى اصبحت

كالثوب المهلهل الذى يكشف عن كل عورات المجتمع ، وعلى مرأى من الجميع . فنحن لا نريد قوانين ورجالا لكل العصور ، بل يجب ان نسمي الاشياء بمسمياتها وليس بمعمياتها . فالوضوح والشفافية شرط للتقدم .

كذلك عندما نتحدث عن الرغبة فى الخروج من حالة التخلف والسعى للتنمية المستقلة ، كيف يمكن لنا إنجاز مثل هذا العمل التاريخى الجبار بأناس اجسامهم فى الشرق وارواحهم تهيم فى الغرب ـ على حد قول النديم ـ إذ أن وثنية النموذج الغربى تقتل مشروع النهضة الوطنية فى المهد وفى الصميم ، عندما يقنع نبهاء ووجهاء البلاد باقتسام فتات ثمار التحديث مع ممثلى الشركات الاجنبية العملاقة دولية النشاط ، فيتم تعقيم الكفاءات . ويتم نزع (فتيل الوطنية) من وجدان هؤلاء النابهين والاكفاء الذين يعملون تحت مظلة الشركات الاجنبية الواقية ويصبحون اعضادا للاجانب ـ يعضدون اقوالهم ومفاهيمهم وتصوراتهم حول مستقبل الوطن . وهكذا تنكسر شوكة الوطنية . وتضعف مناعة الامة فى مواجهة الازمة .

عندما ينفرط العقد

ولقد وصف جمال الدين الافغانى حالة «التحلل المجتمعى» التى اصابت الامة العربية الاسلامية فى عصره على النحو التالى :

«هذه الامة قد وهن بنيانها وانتشر المنظوم وتفرقت

الاهواء .. وشقت العصا .. وتبدد ما كان مجتمعا ، وانحل ما كان منعقدا وانفصمت عرى التماون .. وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم افرادها عما يحفظ وجودها» .

واكاد لا اجد توصيفا لحالة مجتمعنا الراهنة اكثر بلاغة ونفاذا مما جاء على لسان المصلح الاجتماعي الكبير جمال الافغاني ، وكانه يعيش بيننا اليوم ويتجول فى الاسواق ويغشى المجالس ويرقب أحوال البلاد والرعية ، ويرصد انفصام عرى التضامن والمودة بين فرادى وجموع المواطنين .

فبعد ان عاش مجتمعنا لحظات تلاحم وطنى فريد إبان ثورة ١٩١٩ ، وفى غمار صعود حركة التحرر الوطني والاجتماعى غداة الحرب العالمية الثانية ، واثناء وفى اعقاب معركة تأميم القناة عام ١٩٥٦ ، نجد ان المجتمع المصرى يعيش اليوم حالة من التحلل والتفسخ المجتمعى منذ منتصف السبعينيات بعد انحسار غبار معركة اكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣ . وتحت تأثير مفعول الهجرة لبلدان النفط والذهب الاسود . وفى ظل طغيان لغة وقيم التجارة والمال على قيم العمل والشرف ، وتغلغل كل ما هو اجنبى فى نسيج حياتنا الفكرية والاجتماعية يتبدد ما كان مجتمعا وينحل ماكان منعقدا .. وتنصرف عزائم الناس نحو كل ماهو فردى ونفعى وآنى .

وتعبيرا عن الحالة التى اخذ يعيشها المجتمع المصرى غداة حرب اكتوبر ، كتب مقاتل قصة يقول فيها : «اذا ما خمد

غبار المعركة لن تجد الا تجار الحديد والخردة .. يغيب الشهيد ويبرز التجار ، بات على هذا الجيل (جيل حرب الاستنزاف) ان يدفع ضريبتين : الاولى ضريبة احلامه الماضية حين كان المد عاليا . والاخرى ضريبة الاخفاق فى معايشة واقع اليوم وكلتاهما ثمن فادح» .

وهذا القول يلخص دون مغالاة مأساة جيل بأكمله يعيش حالة «احباط وطنى» دائم ، فقد طعن فى اعز احلامه وأمانيه الوطنية . يوم عاد من جبهة القتال وخنادق حرب الاستنزاف ليجد مجتمعا جديدا ليس له فيه مسكن ولا مسلك . وغدت الهجرة والحصول على عقد عمل بالخارج سبيلا للهروب من مواجهة اوضاع المجتمع الجديد غير المألوف لهم ، حيث الغلبة لارباب المال والتجار والمقاولات . وهكذا شهد المجتمع المصرى نزيفا للكفاءات والمهارات ليس له مثيل منذ ايام الحكم العثمانى .

وإن كان المال النفطى مخدرا ، وكانت الهجرة للخارج مهربا ، فاليوم لم يعد خمرا .. بل أمرا .. وأى امر .. ففى تلك اللحظات التاريخية الصعبة التى يعيشها مجتمعنا اليوم نحن احوج ما نكون الى استنهاض روح الجماعة فينا واستعادة اواصر وعرى التعاضد والتلاحم الوطنى بين الفئات والقوى الاجتماعية المختلفة التى يهمها مستقبل هذا الوطن ورفعته . ولعل المعركة اليوم لم تعد معركة حول سبل القيام بالنهضة والتقدم ، بقدر ما هى معركة الخيار بين الوجود والعدم .

ولقد جاء فى افتتاحية العدد الاول من مجلة العروة الوثقى (الصادر بتاريخ ١٣ مارس ١٨٨٤) التى اشرف على تحريرها جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده :

«والذى يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانسانى من يوم علم تاريخه الى اليوم ان الأمم الكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق فى الكلمة او غفلة عن عاقبة لا تحمد او ركون الى راحة لاتدوم أو إفتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة اجنبية ازعجتها ونبهتها بعض التنبيه.. فإذا توالت عليها وخزات الحوادث واقلقتها آلامها فزعت الى استبقاء الموجود ورد المفقود ، ولم تجد بدا من طلب النجاة من اى سبيل .. وعندئذ تحس بقوتها الحقيقية وهى ما تكون بالتئام افرادها والتحام احادها» .

وتسترسل الافتتاحية لتقول :

«ولم تبق طبقه من الطبقات الا وقد مسها الضرر من إفراط الطامعين فى اطماعهم من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية بايدى ذوى المطامع فيها . حملوا الى البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها وشدوا عليها بما لا تألفه .. فحارت ألبابها والزموها ما ليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها وخضروا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع» .

وهكذا يتضح أن مصر كانت دائمة مستهدفة ومحطا للاطماع الاجنبية بحكم موقعها الجغرافى وثقلها التاريخى

وكان محمد على (والى مصر) منذ البداية شديد التخوف من المطامع البريطانية فى مصر فعندما عرض عليه فكرة حفر قناة السويس قام برفض فكرة المشروع بالاستناد الى حدسه التاريخى ، إذ أسر لبعض خلصائه ان انجاز مثل هذا المشروع سوف يؤدى فى النهاية الى احتلال بريطانيا لمصر لتامين طرق ومسارات التجارة فى اتجاه الشرق . ولم تخب وقائع التاريخ الحى فى هذا الحدس التاريخى الثاقب لمحمد على .

الفصل العاشر :

قيم النهضة وقيم التخلف

عندما نتحدث عن التنمية والنهضة عموما ، فلعل من ابرز مقومات عمليات التنمية والنهضة ما يحدث لقيم وسلوكيات الافراد وعناصر القوى العاملة . فمهما تحدثنا عن «الانتاجية» وغيرها من المؤشرات المادية . تظل القضية الحاكمة هى قيم ومعنويات القوى العاملة عند كل لحظة ومنعطف تاريخى . إذ ان استقراء تاريخ مصر الحديث وبقية بلدان العالم (المتقدم والمتخلف) يفصح بوضوح وجلاء عن مدى اهمية القيم والمعنويات (values and Morals) فى صناعة النهضة والتقدم ، بغض النظر عن طبيعة النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد . فلدينا نموذجان ماثلان أمام العيان فى كل من الصين واليابان رغم اختلاف اسس التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى كل فى بلد على حده .

وفى اعتقادنا ان قضيه «القيم والمعنويات» لدى عناصر قوة العمل (على اختلاف مستويات مهاراتها ومكانتها الوظيفية) تحتل اهمية كبرى فى مصر لاسيما خلال العشرين سنة الاخيرة (٧٤ - ١٩٩٤) . اذ إتسمت الفترة اللاحقة لهزيمة يونيو ١٩٦٧ باضطراب واهتزاز كبير للقيم والمفاهيم

التى سادت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .. ولاسيما فى فترات النهوض والارتقاء ، ثم جاءت الحقبة النفطية (١٩٧٤ ـ ١٩٩٤) ـ بخيرها وشرها ـ لتفرض على المجتمع المصرى نظاما جديدا للقيم والمفاهيم اثر تأثيرا بالغا على سلوكيات ومعنويات الافراد على المستويين الجمعى والفردى .

ولذا فان التأمل فى طبيعة الصراع الدرامى الدائر حول «قيم العمل» خلال العشرين سنة الاخيرة سوف يساعد بلاشك على فهم الازمة الراهنة للتنمية فى مصر .. حيث اخذت «القيم الرديئة» تطرد «القيم الجيدة» ، واصبحنا نواجه تحديا هائلا خلال حقبة التسعينات ـ وعلى مشارف القرن الواحد والعشرين ـ من حيث عمليات «الاحلال والتجديد» فى «صفوف القوى العاملة ، ولاسيما عند المستويات القيادية والوسطى فى كافة القطاعات : قطاع الادارة الحكومية ، القطاع العام ، القطاع الخاص المنظم . فعندما يتم احالة جيل الاربعينات والخمسينات الى التقاعد لن يتم الاحلال والتجديد فى البشر فقط ، بل فى نظام القيم .. مما سوف يؤثر بلاشك على كفاءة الاداء وطبيعة التطور الاقتصادى والاجتماعى عموما . ولذا فان قضية الاحلال والتجديد فى صفوف القوى العاملة يجب ان تحتل الاهمية الكبرى فى مناقشتنا وهمومنا المستقبلية ، لأن قضايا الاحلال والتجديد فى الآلات والمعدات والمبانى أيسر فهما واسهل حلا فى الاجلين المتوسط والطويل .

فكما فى العلم البيولوجى (الاحياء) . فهناك قيم «غالبة» (dominant) وطافية على السطح ـ وقيم «متنحية»

(receding) ـ ولكنها كامنة تحت السطح .. ففى ظل صراع القيم المحتدم فى المجتمع المصرى .. تقدمت «قيم مستحدثة» .. وتراجعت قيم أصيلة وتم احلال «القيم المستحدثة» على حساب «القيم المتأصلة» .. وقد نجم عن ذلك اضطراب فى الرؤية واحباط للمعنويات ، وتداخل حاد بين «الاصيل» و«الدخيل» .. وبين «الجيد» و«الردىء» . وحتى نتجنب منذ البداية إطلاق «احكام قيمية» على اطلاقها ، فان معيارنا للتمييز بين «الجيد» و«الردىء» هو المعيار «التنموى أو النهضوى» . وذاك فى حد ذاته «معيار موضوعى» لانه يتصل بالشروط الموضوعية لاحداث النهضة والتنمية فى اى مجتمع من المجتمعات .

وسوف نحاول فيما يلى ان نعرض لاهم «الصراعات» فى مجال القيم من منظور التطور الاقتصادى والاجتماعى العام ، بهدف تشخيص اهم التصورات السلبية فى عالم القيم ومحاصرتها قبل ان يستفحل مفعولها فى بنيان المجتمع . وقبل ان يتآكل ما تبقى من «القيم الجيدة» التى تساند عمليات التقدم والنهضة ، ونحن احوج ما نكون اليها خلال الحقبة القادمة .

(أ) القيم «الانتاجية» مقابل «القيم الريعية» .

اتسمت السنوات الاخيرة بالانفصام المتزايد بين «الجهد الانتاجى» و«العائد المادى» ، بل لقد اصبح هناك علاقة «شبه عكسية» بين الجهد الانتاجى والعائد المادى .. وغدت

الانشطة المدره للدخل والعائد الوفير هى تلك التى تقع على هامش العملية الانتاجية ، وترتبط بانشطة التداول من تجارة وسمسرة ووساطة وتربح بغير وجه حق . وهكذا تولدت فى المجتمع المصرى سلسلة من «الدخول الريعية» (Rentier Incomes) التى يتم الحصول عليها دون جهد انتاجى يذكر . وقد نتج عن ذلك نمو «العقلية الريعية» لدى العديد من الافراد وعناصر القوى العاملة . ولذا فقد شهدنا انسحاب تدريجى خلال السنوات الاخيرة لبعض فئات العاملين بأجر من الانشطة الانتاجية الى الانشطة ذات الطبيعة الريعية (التى تدر الدخل دون جهد انتاجى يذكر) مثل ايداع الأموال لدى شركات توظيف الأموال ، والقيام باعمال السمسرة والوساطة ، تاجير الشقق المفروشة ، والقيام بعمليات الاتجار السريع .

وليس هناك من شك ان تغلغل تلك «العقلية الريعية» فى صفوف افراد القوى العاملة لها اثار سلبية على الانتاجية وعلى معنويات قوة العمل المصرية . اذا اصبحت قيم «الشطارة» و«التهليب» و«اغتنام الفرص» هى القيم السائدة والطافية على السطح . يقابلها تحقير الجهد الانتاجى ومن ياخذون عملهم ماخذ الجد ، ويحرصون على الاتقان والابداع .

(ب) قيم «الانضباط فى العمل» مقابل «قيم التسيب» :

يرتبط بالنقطة الاولى انه فى ظل تحلل «القيم الانتاجية»

حدث انهيار تدريجي لقيم «الانضباط فى العمل» (Work discipline) .. وما يرتبط بذلك من اتساع نطاق «التغيب من العمل» (absenteeism) تحت اعذار صورية ووهمية . وكذا حالات الانصراف المبكر قبل انتهاء مواعيد العمل الرسمية. وعدم التواجد ساعات الدوام الرسمى .. لممارسة اعمال خاصة ليس لها علاقة بالتوصيف الرسمى للوظيفة . وهكذا أخذت «قيم التسيب» تحل تدريجيا محل قيم «الانضباط فى العمل» ولاسيما فى قطاع الادارة الحكومية والخدمات الخاصة والانشطة الحرفية .

وتلك نقطة خطيرة فى مجتمع مثل المجتمع المصرى انتقل حديثا من «اقتصاد زراعى» ، حيث هناك مرونة فى مواعيد العمل والانضباط ، الى اقتصاد صناعى واقتصاد خدمات ـ حيث تعتبر مواعيد العمل مقدسة ومنضبطة وحيث سرعة اداء الخدمة يعتبر سمة من سمات الكفاءة والنهضة والتقدم . ولقد حقق المجتمع المصرى بعض التقدم فى مجال «الانضباط فى العمل» خلال الخمسينات والستينات ، فاذا به يرتد خلال السبعينات والثمانينات الى حالة من «التسيب فى قيم العمل» لم تشهد مصر لها مثيلا منذ بداية القرن . ويكاد يكون الشعار السائد : «دعه لا يعمل .. دعه يمر» !

وقد انعكس ذلك فى شكل ارتفاع معدلات دوران العمالة (Labour turnover) في العديد من الاعمال والانشطة مما يؤثر على استقرار ومستوى اداء قوة العمل . بل لعله توجد قطاعات وانشطة باكملها اخذت الخبرات القديمة فيها تنقرض

بينما لم يتم تكوين خبرات وكفاءات جديدة تحل محلها .

(ج) سيادة قيم «التقليد والاتباع» مقابل «قيم الابداع» .

فى ظل غياب مشروع واضح للنهضة الوطنية كان «النموذج الغربى» هو النموذج المثالى المطلوب اتباعه فى مجالات الانتاج والتشغيل والاستهلاك ، دون مراعاة للظروف الموضوعية للمجتمع المصرى وخصوصا العملية التطورية الجارية به . وحينما تصبح هناك وثنية لنموذج النمو الغربى ، تسود قيم «التقليد والاتباع» على حساب قيم «الابداع والتجديد والابتكار» . فاذا سادت قيم «التقليد والاتباع» فى مجالات الانتاج ، والاستهلاك ، والثقافة ، والسلوك المجتمعى . تطمس هوية المجتمع وتفقد اليات التقدم خصوصيتها وديناميتها الخاصة .

وأمامنا الامثلة الناجحة فى التقدم والنهضة وعلى راسها حالات : اليابان ، والصين ، والهند وكلها نماذج وحالات تشير بوضوح وجلاء الى ان صناعة النهضة والتقدم لم تتم من خلال التقليد الأعمى والانبهار بالنموذج الاقوى والاسبق تاريخيا .. بل من خلال عملية معاناة ومخاض تاريخى طويل ، يتم من خلال التطويع والتجديد والابتكار .. حتى لا تكون القيم الجديدة «والمستوردة» مسخا تاريخيا ، وتلحق بعملية النهضة والتقدم افدح الاضرار .

ولكن يتم بذر بذور «قيم الابداع والتجديد» مقابل «قيم التقليد والاتباع» ، فان المسألة تتعلق بأسلوب التنشئة منذ

الصفر ، فى المدرسة والحقل والمصنع والمكتب . ففى ظل غياب قيم الديمقراطية التى تطلق المبادرات وتشجع على تنمية الخيال الجسور .. تسود قيم الاستبداد والتسلط التى تصادر المبادرات وتنمى روح التلقين والحفظ والترديد . ولعل نظرة فاحصة لنظامنا التعليمى وللمناهج التدريسية منذ بدء الحلقة فى مدارس (تحفيظ القرآن) حتى نهاية حلقات «التعليم الجامعى» تشير بوضوح الى سيادة قيم «الحفظ والتلقين» .. وقمع الخيال الابداعى والتشكيلى لدى الطلاب النابهين .

كذلك فان الاعتماد المفرط على استجلاب الخبرة الاجنبية فى كل صغيرة وكبيرة من شأنه عدم تنمية القدرات فى الابداع والتطوير التكنولوجى . «فالاختراع دائما وليد الحاجة» ، وحيث لا توجد حاجة ماسة لاستخدام وتطوير الخبرات المحلية ، يقتصر دور قوة العمل المحلية على مستوى التنفيذ والعمل الروتينى .. وينطبق هذا المنطق على فنون الانتاج ، ونظم التشغيل والصيانة ، ونظم الادارة ، ونظم المعلومات ، وهى النظم الحاكمة لحركة ومسيرة المجتمع .

ولعل من المفارقات التاريخية ، انه خلال الفترة التى أعقبت العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ـ وفى ظل توتر العلاقات مع البلدان الغربية ـ قامت عناصر من القوى العاملة المصرية ، على إختلاف مستويات مهاراتها ، بأعمال تجديدية مهمة فى مجالات الانتاج والتشغيل والصيانة فى ظل نقص المخزون من قطع الغيار المستوردة وانسحاب الخبرة الاجنبية .

(د) سيادة قيم «الاستهلاك» فى مقابل قيم «التنمية»

كذلك كثر الحديث خلال الآونة الاخيرة عن «المناخ الاستثمارى» وتحسين شروطه .. وغاب عن المناقشات أهمية ما يمكن ان نسميه «المناخ التنموى» بما فى ذلك نظام القيم والسلوكيات اللازمة لاستكمال شروط عملية التنمية ودفعها للامام ، فقد ساعدت عمليات هجرة العمالة ـ على اختلاف مستويات مهاراتها ـ الى البلدان العربية .. والتوسع فى الانخراط فى الاعمال الاضافية الى سيادة قيم «الاستهلاك» و«الكسب السريع» .. دون الاهتمام بالجودة والاتقان والتجويد فى العمل ، وهذا يؤدى بدوره الى فساد مقومات عملية التنمية ، نتيجة سيادة قيم «الاستهلاك» وتراجع قيم «التنمية» المرتبطة برفاه الاجيال القادمة .

وهكذا فان سيادة قيم الاستهلاك والكسب السريع هى بمثابة شراء «الحاضر» على حساب «المستقبل» ، اى شراء رفاه الجيل الحالى على حساب رفاه الاجيال القادمة . وقد ساعد على ذلك ضعف روح الانتماء للوطن والحرص على المصلحة العامة (the Lack of Public Purpose) على حد تعبير الاقتصادى الامريكى جون جالبريث ـ أو ما سبق ان اسماه الاقتصاد المصرى الراحل محمد طلعت حرب ، غياب «المنافع العمومية» عند القيام بأى نشاط انتاجى ، استهلاكى ، ادخارى ، او استثمارى .

(هـ) تدنى قيم «العمل اليدوى / التطبيقى «مقابل قيم» العمل الذهنى / المكتبى» .

لعل من أهم موروثات الماضى السلبية فى المجتمع المصرى هى تلك النظرة المغالى فيها لقيمة «العمل الذهنى» و«العمل المكتبى» .. والنظرة الدونية «للعمل اليدوى» و«المهن التطبيقية» عموما . وقد نتج عن تغلغل تلك القيم ازمة هامة فى النظام التعليمى المصرى وسوق العمل عموما .

وكنتيجة لذلك التراث حدثت فجوة كبيرة متنامية بين «المعارف النظرية» وبين «المعارف التطبيقية» ، مما ادى الى عزوف منظم عن الاعمال اليدوية وتهافت على التعليم الجامعى ذى الطبيعة النظرية بالاساس .. وقد ادى ذلك الى اختلال بين فى هيكل قوة العمل المصرية ، لاسيما بالنسبة للوظائف الوسطى ، حيث المعرفة التطبيقية لها وزنها الكبير من حيث الادارة الفعلية للنشاط الاقتصادى والخدمى . ففى الوقت الذى يوجد فيه فائض للخريجين (مخرجات نظام التعليم العالى) توجد إختناقات مهمة فى الوظائف الوسيطة : مشرفو وملاحظو العمال (foremen) والميكانيكيون (mechanics) وظائف التمريض (nursing) .

ولعل الأزمة تكمن فى الاهتمام المبالغ فيه بنظام التعليم الرسمى (او النظامى) (formal education) ، مقابل اهمال نظام التعليم غير النظامى (informal education) ، حيث يتم اكتساب المهارات والخبرات من خلال العمل الميدانى

والممارسة ذاتها (learning on the job) . إذ ان عمليات «التاهيل المهني» لا تاتي فقط من خلال القنوات التعليمية الرسمية او الدورات التدريبية النظامية .. بل تأتى فى احوال كثيرة ، من خلال الممارسة واكتساب الخبرات الملائمة والمعارف التطبيقية المناسبة من خلال «موقع العمل» .

وفى الازمة الراهنة لسوق العمل وارتفاع حدة «التكدس الوظيفى» فى الوظائف المكتبية ولذوى المعارف النظرية .. ستفرض «آليات التكيف» نفسها فى مجال تصحيح الخلل الراهن فى مخرجات النظام التعليمى المصرى ، وبالتالى تصحيح هيكل العمالة المصرية ، ولاسيما فى حلقاته الوسطى . ولعل ما يساعد على ذلك التآكل التدريجى للمكانة الاجتماعية التى كان يحظى بها اصحاب الوظائف الادارية والكتابية والمهنية والنظرية ، وتدهور العائد المالى النسبى الذى تدره تلك المجموعات الوظيفية . وفى مقابل ذلك ، حدث نوع من اعادة التقييم «المالى» للوظائف اليدوية والحرفية والتطبيقية .. ولم تعد اعمال منبوذة من ابناء الطبقة الوسطى كما كان الحال من قبل .

ويجب التاكيد هنا على ان تلك المجموعات من القيم ليست منعزلة ومنفصلة عن بعضها البعض ، بل هى تنتمى الى مصفوفة واحدة تتشابك خلاياها وتتفاعل عناصرها فيما بينها .

تطور الفنون الانتاجية واثره على قيم العمل :

لعل من المستقر الآن ان قيم العمل و«القيم الاجتماعية»

سوما لا تتطور - من فراغ .. بل هى مشروطة فى معظم الاحيان بتطور الظروف الموضوعية (المادية والفنية) ، ولذا ن التطور الذى يطرأ على الفنون الانتاجية له اثار بعيدة مدى على طبيعة القوى العاملة وقيمها ونظرتها للحياة لمجتمع .

فاذا امكن تصنيف الفنون الانتاجية ، حسب تدرجها تطورها الزمنى على النحو الاتى :

- فنون انتاجية يدوية (manual)
- فنون نصف مميكنة (seniechaical)
- فنون مميكنة بالكامل (fullymechanical)
- فنون نصف اتوماتيكية (semi - automatic)
- فنون اتوماتيكية بالكامل (Fully automatic)

فان كلا من هذه الفنون الانتاجية يحمل فى طياته مجموعة من القيم الخاصة بعلاقات العمل ونمط الاداء والتفاعل مع البيئة المحيطة . ولعل تشارلى شابلن قد قدم فى فيلمه «الازمنة الحديثة» (Modern Times) صورة كاريكاتيرية بارعة لتاثير قدوم «خط الانتاج الحديث» على علاقات ووتيرة العمل وعلى قيم العمل من حيث التنميط والميكانيكية وانعدام هامش الإبداع والتجديد والتجويد .

ولعل الاستيراد الكثيف للتكنولوجيا المتقدمة خلال السنوات الاخيرة قد خلق «حالة صراعية» فى نظام القيم وعلاقات العمل .. لان التكنولوجيا الحديثة (لاسيما اخر صيحة) ليست نبتا طبيعيا لتطور المجتمع وقوى الانتاج

وعلاقات الانتاج فى مصر ، كما حدث فى المجتمعات الغربية المتقدمة التى يتم النقل منها . وينطبق نفس التشخيص على مستوردات البرامج التعليمية والثقافية ، بما فى ذلك المسلسلات التليفزيونية المستوردة (ولاسيما الأمريكية منها) ، بما تحمله من نظام للقيم ونظرة للحياة تؤثر على مفاهيم الشباب لما يمكن تسميته «معايير النجاح والترقى فى الحياة» .. دون الاخذ فى الاعتبار اختلاف مراحل النمو ، ومستلزمات ذلك التطور فى كل مرحلة . ففى لحظات «الانطلاق التنموى» (take - off) يكون الادخار والاستثمار «المنتج» فضيلة كبرى ، بينما فى مرحلة «مجتمع الوفرة والاستهلاك» .. يكون الاستهلاك هو القيمة العليا ، وأحيانا «الفضلى» .

فاذا ضاعت الحدود واختلط الحابل بالنابل ، وتداخلت الازمان والأكوان ، اضطربت الرؤية واهتز نظام القيم .. وفقدت القوى العاملة وقودها المعنوى الاساسى فى عمليات التنمية والنهضة .

الفصل الحادى عشر

حول أزمة الفكر المصرى المعاصر

١ ـ مقدمة : فى الاشكالية .

يقول الشيخ محمود محمد شاكر فى مؤلفه : «رسالة فى الطريق الى ثقافتنا» أن هناك قضية مثارة محفوفة بألفاظ مبهمة هى قضية «القديم» ، و«الجديد» و«التجديد» و«ثقافة العصر» . و«النظر فى حقيقة هذه القضية يفضى الى شيئين للعربين : ميل ظاهر الى رفض «القديم» والاستهانة به ، دون ان يكون الرافض ملما إلماما ما بحقيقة هذا «القديم» ، وميل ظاهر الى الغلو فى شأن «الجديد» ، دون ان يكون صاحبه متميزا فى نفسه تميزا صحيحا بأنه «مجدد» تجديدا نابعا من نفسه ، وصادرا عن ثقافة متكاملة متماسكة . بل كان ما يميزه ان الله قد يسر الاطلاع على آداب وفنون وأفكار تعب اصحابها فى الوصول اليها من خلال ثقافتهم المتماسكة متكاملة !!»(١) .

ولعل الشيخ محمود شاكر هنا يلخص ـ رغم غلو نظرته السلفية ـ جانب من الازمة التى يمر بها الفكر المصرى العربى عموما ، ان يشير الى اختلاف «الاطر المرجعية» و«الاحداثيات الفكرية» (frames of reference) بين رواد التجديد والتنوير ، من ناحية ، ورواد العودة للتراث واعادة

اكتشاف القديم ، من ناحية اخرى . ومن هنا فان النظر الى «ثقافة التنوير» باعتبارها «ثقافة العصر» تظل مسألة خلافية وموضع صراع فكرى حاد فى مجتمعنا ، إذ انها رغم انجازاتها الايجابية العديدة تظل وليدة «ثقافة متكاملة» تخضع هى الاخرى لنسبية الزمان والمكان . إذ ان مجهودات «فلاسفة التنوير» في أوروبا كانت تهدف لتمهيد الطريق امام مفاهيم ومقولات تحليلية جديدة لتحل محل «الغيبيات» و«الحدس» ولتطرح مزاوجة جديدة بين «الزمان» و«المكان» (new spatial and temporal configuration)[٢] . فكل شيء أصبح قابل للقياس وللتعبير الكمي او الرمزى والاختبار المعملي ، تحت تاثير ديكارت ، اوجست كونت ، فرانسيس بيكون . وهكذا أصبح هناك «ميزان جديد» و «اطر مرجعية» جديدة تقاس عليها وفى اطارها الاشياء .

بيد ان تلك الحركة التجديدية والتنويرية التى بدات فى أوروبا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى مجالات الفنون والعلوم والاداب ، ووصلت الى أوجها فى القرن الثامن عشر ، لم تكن منقطعة الصلة بالماضى . بل حاولت احياء التراث الاغريقى – الرومانى – فى جوانبه الايجابية ، ومن هنا كان مصطلح «الجديد»[٣] . ولعل كلمة «البعث» او «الانبعاث» – التي سادت فى الكتابات القومية وخاصة لدى مفكرى «حزب البعث العربى فى الخمسينات» – هى اقرب ما يكون لهذا المفهوم . ولكنه ظل مفهوما غامضا ، اذ لم يتحدد ما الذى

ينشده العرب : هل هي محاكاة نموذج الماضي الذهبي ؟ أم تخليق نموذج جديد ؟ وماهية متطلباته .

٢ ـ مدخل «التنوير» ونموذج «التغريب» .

إن مدخل التنوير في الفكر العربي الحديث ـ الذي يستلهم كتابات وفلاسفة التنوير في أوروبا ـ قد بدأ بلا شك مع رفاعة رافع الطهطاوي في تخليص الإبريز في تلخيص باريز . وبرز فيما بعد في كتابات أحمد لطفي السيد وفتحي زغلول ، وطه حسين ، وسلامة موسى ، ولويس عوض ، وزكي نجيب محمود (أقلام رواده وأعلامه) . ولعل كتابات أحمد لطفي السيد ، وفتحي زغلول ، وطه حسين تمثل تأثراً وافياً وواضحاً بكتابات فلاسفة التنوير في فرنسا ، وخاصة مونتسكيو ، جان جاك روسو ، ديدرو ، فولتير ، أوجست كونت والآخرين .

ولكن صياغة سلامة موسى الإجابة في مقالته الهام : ماهي النهضة ؟ ، تعتبر من أوضح الصياغات الدالة في هذا الشأن ، إذ يقول :

«لا استطيع أن أتصور نهضة عصرية لأمة شرقية ، ما لم تقم على المبادىء الأوروبية للحرية والمساواة والدستور ومع النظرة العلمية للكون»(٤) .

بيد أن تلك الصياغة على وضوحها وجرأتها ، تشير إلى أن هناك خيطا رفيعا يفصل بين «التنوير الأوروبي» ـ باعتباره الاطار المرجعي «الجديد» و«الوحيد» [illegible]

للنهوض ، والتقدم - وبين شبهة «التغريب»(westernization) ، أي شبهة الوقوع في براثن «الاتباعية الفكرية» لمنجزات الحضارة الغربية وصرعاتها الفكرية باعتبارها المصدر الوحيد لقيم النهضة والتمدين والرقي (The only civilising process) [*] .

وتلك بلاشك شبهة لازمت خط «التنوير» في الفكر المصرى منذ بداياته في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، اذ لم يكن واضحا في كل الاحوال في ثنايا تلك الكتابات ، كيف أن تبلور «فكر التنوير الاوروبي» هو مشروط بدرجة معينة من التطور التاريخي والاجتماعي في تلك المجتمعات التي افرزته . وأن محاولات الترويج لتشغيل «نموذج التنوير الأوروبي» في الواقع المصرى منذ أوائل القرن العشرين (على النحو الذى نشهده في كتابات أحمد فتحى زغلول واحمد لطفى السيد على سبيل المثال) - يصطدم بالعديد من العقبات المادية والحقائق الاجتماعية والثقافية . ومن هنا جاءت ازمة «الفكر الليبرالي» في مصر عبر مسيرته من ثورة ١٩١٩ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ .

كذلك جاء ما يمكن تسميته «بالفكر التقنوى» الذى يدعو للحداثة في قوالب فنية مجردة ليصب جل اهتمامه في كيفية سد «الفجوة التقانية» التي تفصل حاضر العرب عن حاضر الغرب ومستقبله[٦] . وهنا أيضا يظل «الغرب» - وفقا لهذه الرؤية - هو الاطار المرجعى الذى يقاس عليه في مجال التقدم

الفني ، بغض النظر عن الظروف الاجتماعية والسياسية والفكرية التي مهدت لتلك القفزة في التقنية .

ولعل البدايات الأولى للخطاب «التقانى والتحديثى» فى مصر المعاصرة يمكن ارجاعها لعلى باشا مبارك ، ثم نجد له اصداء واضحة في كتابات اسماعيل صدقي وحافظ عفيفى .. قبل ان يتبلور فى فكر «جماعة الرواد» قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، مع إقلال شبه متعمد من شأن المسألة الديمقراطية والمسألة الاجتماعية

ويوضح صبحى وحيدة فى مؤلفه الهام فى اصول المسألة المصرية (١٩٥٠) قضية اغتراب تيار الفكر الاصلاحى التكنوقراطى عن الواقع المصرى ، بقوله : «والعلة فى هذه الطريقة التى يجرى عليها الاصلاح لدينا هى .. أن الذين يشرعون يقلدون الغرب بدلا من أن يدرسوا الحقائق الواقعة ، ويخلطون بين الاوضاع الاجتماعية والقوانين التى تنظمها ، فينقلون هذه وهم يظنون انهم ينقلون تلك»(٧) .

٣ ـ ازمة «القطع» و«الوصل» فى الفكر المصرى المعاصر .

لعل الازمة التى يمر بها الفكر المصرى منذ الربع الاخير للقرن التاسع عشر ، تكمن فى افتقاد العلاقة الجدلية بين «الفكر» و«الواقع» . فهناك ازمة حول مع أى «تراث» يجب أن نقطع ، ومع أى فكر «تنويرى» أو «نهضوى» يجب أن نصل ؟ ولعل افتقاد الميزان الصحيح فى العلاقة بين الفكر والواقع

هو الذى ادى الى الغلو فى «العقلانية» ، من ناحية ، والغلو فى قيمة «الجديد» الوافد ، من ناحية اخرى . وفى تقديرى ، اننا شهدنا على الساحة الفكرية نوعين من القفز فوق الواقع منذ بدايات هذا القرن : النوع الاول هو الهروب الى الخلف فى شكل محاولة لاعادة انتاج ماض لم يبق ماثلا فى الواقع المعاش ، بل يعيش فقط فى ثنايا «العقل السلفى» . والنوع الثانى هو الهروب الى الامام (la fuiten avrunt) من خلال مقولات الفكر «الليبرالى» و«الماركسى» ، فى صياغاتها الغربية «المحضة» ، وبدون تحديد كاف ، مما يجعلها «فكرا طوباويا» يسبق عصره .. ولا يجد جذورا يستند اليها فى تربة الواقع(٨) .

فى الحالتين ، يرى الجابرى - وهو محق فى ذلك - ان ازمة الفكر العربى المعاصر تكمن فى التفكير «خارج الواقع» ، اى من خلال «نموذج جاهز»(٩) . ونضيف من جانبنا وفقا لنظام «تسليم المفتاح» (turm - key model) .

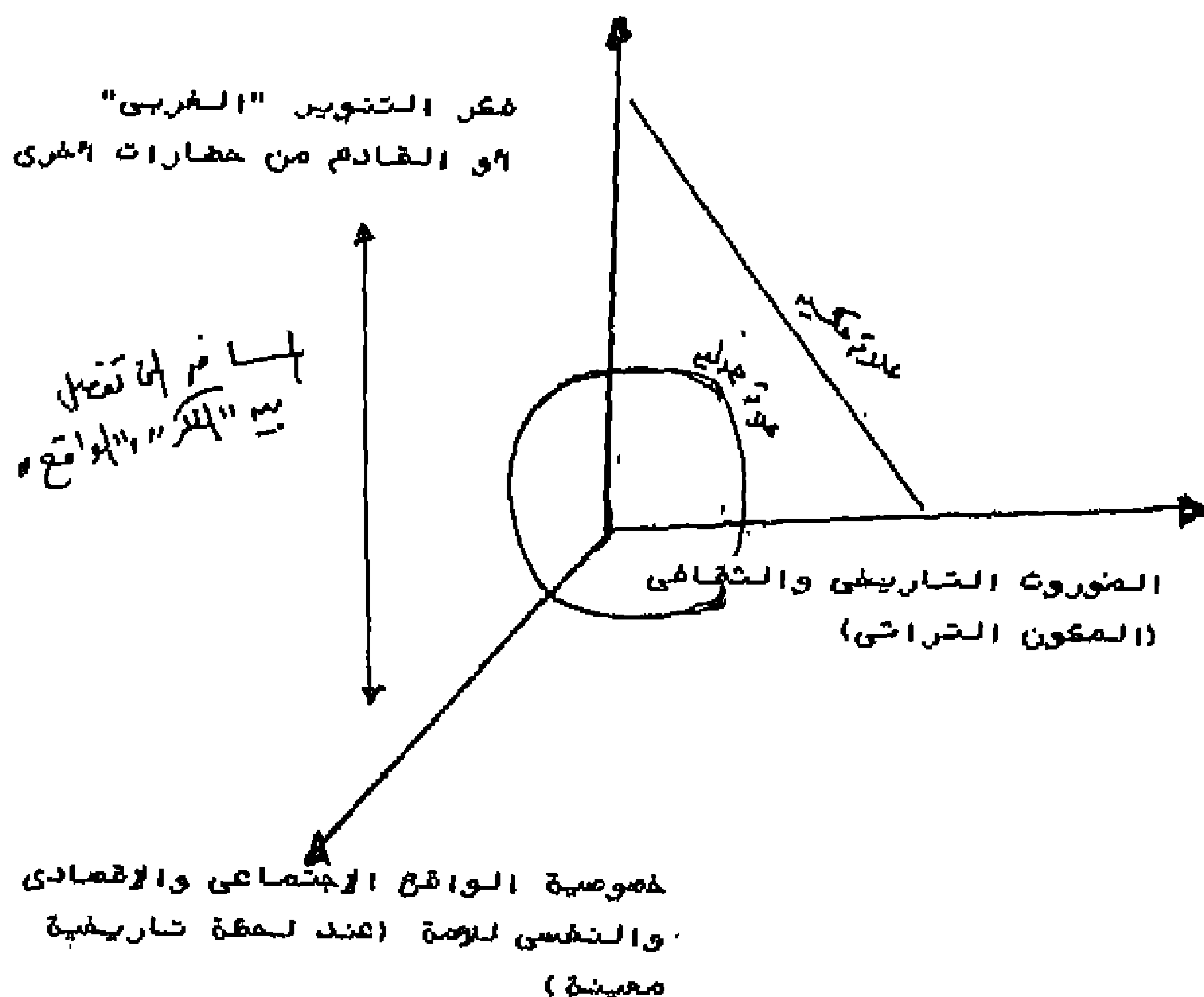
ويرى صبحى وحيدة ان هذا الفكر «التنويرى» الذى يجىء ويذيع من الغرب لم يكون عنصرا هاما من عناصر النهضة المحلية ، لانه يأتى من الطبقة نفسه شيئا يفرض على عامة المجتمع ، ولا يكون شيئا ينبت من ابداعه . ولا يصدر من قاع الحياة الاجتماعية الا قليلا(١٠) . وهذا يؤدى بدوره الى تعميق «المسافة» او «الفجوة» او «الانفصام» بين النخبة والجماهير ، على حد تعبير طارق البشرى .

ولعل هذا يفسر ، من ناحية اخرى ، بعض النجاح الذى صادفته بعض التيارات الفكرية التى قامت على «التأليف» و«التركيب» بين العناصر الحية فى «التراث» ، من ناحية ، وبين بعض الافكار «التحديثية» و«التنويرية» القادمة من الغرب ، من ناحية اخرى ، وذلك دون افراط او تفريط . اذ كان لتلك المحاولات صدى اكبر لدى كل وجدان بصورة واسعة من عناصر الطبقة الوسطى ، والبرجوازية الصغيرة فى مصر ، وهى الفئات الاعلى صوتا والاكثر فاعلية فى الحياة السياسية والفكرية والثقافية . وذلك بالمقارنة بتيار «السلفية الضيقة» الذى يطرح نفسه باعتباره منظومة فكرية مغلقة» غير قابلة للتطوير والتطعيم فى ضوء معطيات الواقع وروح العصر ، وكذا تيارات «الليبرالية» و«الماركسية» فى صياغاتها الخالصة والجامدة والتجريدية .

ولعل ابرز رموز واعلام هذا التيار التأليفى والتركيبى – ولا اقول التلفيقى والتوفيقى كما قد يحلو البعض – تيار «العروة الوثقى» بقيادة جمال الافغانى ومحمد عبده الذى نلمح فى رحابه سعد زغلول واخرون من قيادات مصر الفكرية والعملية ، وعبد الله النديم صاحب ومحرر مجلة «التنكيت والتبكيت» ومحمد طلعت حرب مؤسس بنك مصر (راجع : لخالد محمد خالد فى كتاباته الاولى (وخاصة من هنا نبدأ) . اذ تحوى كتابات هؤلاء مكونا «تراثيا» هاما ينهل من الموروث التاريخى والثقافى للامة (بما فى ذلك المعتقدات الدينية) ، وكذلك مكونا «تنويريا وتحديثيا» هاما يراعى اهمية تطور

الواقع الاقتصادى والاجتماعى المصرى ، وكذا خصوصية التكوين النفسى والوجدانى للأمة وطبقاتها وطوائفها المختلفة . ويقترب رفاعة الطهطاوى وطه حسين بدرجات متفاوتة من هذا الخط «التاليفى» .

ويمكن لنا تصوير «الاحداثيات الفكرية» لهذا «التيار النهضوى» فى فراغ هندسى ثلاثى (Three - dimensional space) على النحو التالى :



وباعتباره احد ممثلى هذا التيار التاليفى فى الفكر المصري ، لم يكن عبد الله النديم ـ غافلا عن «البعد الطبقى» فى رؤيته السياسية والاجتماعية ، اذ جاء فى مذكرات النديم السياسية حول اسباب نكسة وهزيمة العرابيين فى مصر : «ومن يرجو الظفر بالحرب بأناس اجسامهم فى الشرق وأرواحهم فى الغرب .. ونحن (العرابيون) تحركنا والامير مع العدو ، والامراء أنفت من الدنو ، والنبهاء اعضاد للاجانب ، والوجهاء نائمون فى جانب» . وهنا نجد ربطا واضحا بين المسالة الاجتماعية والمسالة الوطنية لدى النديم ، ليس بعيدا تمام البعد عن بعض الصياغات الماركسية حول «الكومبورادور» .

وهكذا تختلف «الاطر المرجعية» (Axes of references) ، و«الاحداثيات الفكرية» (intellectual co - ordinates) داخل هذه الاطر المرجعية . واحيانا قد يتطلب الامر «تدوير تلك المحاور» و«الاطر المرجعية» واعادة تحديد موقع «الاحداثيات الفكرية» داخلها ، لكى تصبح اكثر ملاءمة لقضايا النهضة والتقدم عند كل منعطف هام فى التاريخ المصرى الحديث ، منذ انعقاد المؤتمر الوطنى الاول فى هليوبوليس فى ابريل ـ مايو ١٩١١ .

٤ ـ التقلبات الفكرية «الدورية»

يجب التسليم بداءة بأن الحياة الثقافية والفكرية فى اى مجتمع تجتاحها موجات وصراعات لا تعتبر مجرد رد فعل ميكانيكى لما يحدث فى البنية التحتية وعلاقات الانتاج ، بل

ترتبط تلك «التقلبات الفكرية» بعوامل ذاتية ونفسية على المستوى الكلى والمجتمعى . ولعل تلك «التقلبات الدورية» فى الحياة الفكرية والثقافية تقترب (دون ان تتناظر بالضرورة) من فكرة «التقلبات الدورية الاقتصادية» (business cycles) ، حيث تتابع فترات «الكساد والركود» وفترات «الازدهار والانتعاش» .

ولعل تلك «التقلبات الفكرية» التى ترتبط بشدة بما يمكن تسميته «بالمزاج النفسى» للأمة هى التى تفسر سقوط «جمهورية فيمار» وصعود النازية فى المانيا ، وكذلك صعود «الفاشية» فى ايطاليا ، وصعود التاتشرية مؤخرا فى انجلترا . وهذا يجافى بلاشك «النظرة الخطية» (uni - linear view) للتاريخ باعتباره الامتداد المطرد والمستمر لخط «التقدم والتنوير» فى توازٍ مع ما يحدث من تطور لقوى الانتاج ودرجة تقدم الفنون الانتاجية . وتلقى كتابات «انتونيو جرامشى» و «ميلاد أم واينزه بعض الضوء على بعض اسباب الانتكاس «لمسيرة التقدم» على صعيد الفكر والسياسة فى ايطاليا والمانيا خلال العشرينات والثلاثينات .

ولعل ما يحدث فى المجتمع المصرى من تراجع «للعقلانية» ، وما يسمى «خط التنوير» ، وتصاعد منتظم للفكر السلفى منذ عام ١٩٦٧ وحتى الآن ، انما هو نتاج لذلك المزيج الفريد من العوامل الاقتصادية والنفسية والمزاجية للأمة . ولقد شهدنا ارهاصات مماثلة لذلك — وان كانت على نطاق اضيق — خلال حقبة الثلاثينات فى مصر كرد فعل للأزمة الاقتصادية الحادة التى اجتاحت المجتمع منذ عام ١٩٢٩

حالة الاحباط السياسى التى سادت قطاعات هامة من الطبقة المتوسطة والشباب نتيجه سلوكيات الوفد وقيادات ثورة ١٩١٩ ، بعد فترة محمومة من الصعود الفكرى خلال العشرينات . وقد اقترب بعض كتابنا من نظرية «الدورة الثقافية» هذه ، اذ نجد غالى شكرى يقترب من هذه الفكرة فى مؤلفه «النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث» ، حيث انتهت فى تقديره ظاهرتا النهضة والسقوط الى مرتبة «القانون الاجتماعى»[11]. كذلك هناك دراسة (لم أطلع عليها) للدكتور لويس عوض بعنوان «دورات النهضة والاضمحلال» ، يبدو من العنوان انها تقترب من نفس المعنى .

٥ ـ «الاظلام» الفكرى وصعود «الثقافة البترولية» .

يتساءل محمد عابد الجابرى (الخطاب العربى المعاصر ، ص ٣٢) حول ما الذى يبرر الردة الفكرية التى حدثت بعد هزيمة حرب ١٩٦٧ ، فظروف العرب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ظلت هى هى قبل الهزيمة وبعدها».[12] «وتلك الردة على صعيد الفكر مع بقاء الواقع المادى ثابتا ، يطرح جوهر العلاقة بين الفكر والواقع»[13] .

وهذا القول غير صحيح على اطلاقه ، لأن الواقع المادى لم يبق ثابتا خلال الفترة الممتدة منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ حتى وقتنا الحاضر ، اذ حدثت تحولات طبقية ومادية هامة اثرت على المواقع الطبقية وعلى الأوزان النسبية للشرائح الاجتماعية المختلفة داخل كل طبقة ، تحت تأثير الهجرة والمال النفطى والانفتاح . ومن هنا جاءت ملاحظة الجابرى متعسفة بعض الشيء ، حيث يشير إلى أن «مقولات الخطاب

العربى الحديث والمعاصر يعبر عن حالة نفسية وليس عن حقائق موضوعية»[١٤] . وبالتالى فهو «خطاب وجدان» وليس «خطاب عقل»[١٥].

ولعل اهم تاثيرات عمليات هجرة العمالة ، على اختلاف مستويات مهاراتها . الى البلدان النفطية ، تمثلت فى بروز وصعود ما أسماه د . حسن الساعاتى «الفئات المرسمّلة» فى المجتمعات العربية المرسلة للعمالة ، وعلى رأسها مصر . ويعرف د . الساعاتى هذه الفئات التى ترّسمّلت انها تمثل شرائح من الفئات الوسطى والدنيا من الطبقة المتوسطة ، مكنتها مهاراتها وفرص الهجرة للبلدان النفطية فى تحقيق مكاسب اقتصادية ومالية ، جعلتها تنتمى الى ما يسميه شريحة «الالفونيرات» ، «اى الذين يملك الواحد منهم آلالاف من الجنيهات (او الدنانير أو الريالات والدولارات وغيرها من العملات الحرة الاخرى) ، التى يستثمرونها بشتى الطرق وبخاصة كودائع فى المصارف العربية والاجنبية والوطنية»[١٦] .

وقد تكونت هذه الفئات أول ما تكونت من المهنيين (الاطباء ، المهندسين ، المحاسبين ، المعلمين ، اساتذة الجامعات) الذين عملوا فى البلدان العربية النفطية خلال الخمسينات والستينات . ولكن ما أن الغيت قيود السفر والاقامة فى الخارج ، حتى انضمت الى قوافل المهاجرين فئات جديدة من العمال المهرة ونصف المهرة والفلاحين المعدمين وذوى الحيازات القزمية .. وحتى من بين صفوف

فئات «البروليتارية الرثة» (كالبوابين ، وخدم المنازل ، السعاه ، إلخ) . وقد قام العديد من هؤلاء لدى عودتهم توظيف «الفوائض الادخارية» التى تم تكوينها اثناء عملية هجرة ، فى «شراء قطع صغيرة من الأراضى الزراعية اراضى البناء ، وامتلاك سيارات النقل ، والات الحرث والرى الجرارات والجرافات ، فضلا عن الايداع فى المصارف»(١٧) ونضيف من عندنا الاستثمار المالى لدى «شركات توظيف اموال» التى استقطبت جانبا هاما من مدخرات صغار متوسطى المدخرين ، معظمهم من فئة «الالفونيرات» .

ونظرا لان هذه الفئات لا تمتلك رؤوس اموال كبيرة ولا حوز اصولا انتاجية على نطاق واسع ، فيكون من الاصوب ـ ى تقدير د . حسن الساعاتى ـ تسميتها «بالفئات مرسمِّلة» ، تمييزا لها عن «الفئات الرأسمالية» التى تمتلك ؤوس أموال كبيرة وتدير استثمارات واسعة النطاق(١٨)

والشىء المؤكد ان هذه «الفئات المرسمِّلة» الجديدة أخذت التكاثر والتوسع فى مراتبها خلال حقبة السبعينات فى دد من المجتمعات العربية المرسلة للعمالة على نطاق كبير : مصر ، اليمن العربية ، الاردن ، السودان . فنجد ان بعض موظفين الحكوميين من الفئات الادارية والكتابية يقوم لدى ودته فى تشغيل وتوظيف مدخراته فى مشروعات تجارية أو دمية صغيرة الحجم ، كما يتحول بعض الحرفيين السابقين «مقاولين صغار» يعملون لحسابهم الخاص .. بينما ميش قسم كبير من المهنيين على ريع «الشقق المفروشة» .. الودائع المصرفية» وشهادات الاستثمار وشهادات الايداع

بانواعها .. وبالتالي نمت وتغلغلت «العقلية الريعية» القائمة على الكسب السريع والانفصام بين «الجهد» و«العائد».[19]

فلا عجب اذا ، ان تؤدى هذه التطورات الى بروز «الفئات المرَسمَلة» بشكل واسع فى صفوف فئات الطبقة الوسطى وعناصر البرجوازية الصغيرة .. بل الفئات العمالية . وقد نتج عن ذلك تداعيات هامة فى أوضاع البنية الاجتماعية والطبقية فى تلك البلدان ، اذ ازدادت سبل الجمع بين مصادر الدخل المختلفة (دخل الملكية ودخل العمل) . وكذلك ارتفع عدد الاجراء الذين يتحولون يوميا الى ملاك ومستثمرين صغار او حائزين لاصول مالية (ودائع ، اوراق مالية) دون ان يتخلوا تماما عن وظائفهم واعمالهم الاجرية الاصلية . وكان لذلك بلاشك انعكاسات هامة على جبهة الثقافة والفكر .

ان السلوك المحموم الذى يأخذ شكل السعى للحصول على الريع بأى ثمن ومن اى مصدر ، من قبل غالبية المواطنين فى المجتمعات الريعية النفطية ، انما يؤثر على نظرة الافراد لآليات وأسلوب أداء النظام الاقتصادي ككل . ولقد سبق ان ذكرت الاستاذة آن كروجر : «انه اذا اعتبرنا توزيع الدخل فى مجتمع ما هو نتاج لعبة الحظ والمصادفة (Lottery Game) ، حيث ينقسم السكان الى افراد ناجحين (أو محظوظين) يحصلون على اقصى قدر من الريع (النفطى) ، واخرين ، فاشلين لم يحالفهم الحظ او المهارة للحصول على الريع باشكاله المختلفة . فى مثل هذا النوع من المجتمعات ، فان آلية السوق تغدو ضربا من الوهم».[20] .

هوامش :

(١) محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق الى ثقافتنا ، كتاب الهلال ، (القاهرة : دار الهلال ، ١٩٨٧) ، ص ٢٣٢ .

(٢) راجع : Fredric jameson , The Realist Floor - plan, P. 374)

(٣) راجع محمد عابد الجابرى ، الخطاب العربي المعاصر ، دراسة تحليلية نقدية (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٢)، ص ١٨ .

(٤) سلامة موسى ، ما هي النهضة ؟ (القاهرة : مؤسسة سلامة موسى للنشر والتوزيع ، بدون تاريخ) ، ص ١٠٨

(٥) راجع حول هذا مفهوم Nerbert Elias' The Civilising process:

(٦) راجع : محمد عابد الجابرى ، اشكاليات الفكر العربي المعاصر (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٩ ، ص ١٣٤ .

(٧) صبحى وحيدة ، في أصول المسألة المصرية ، طبعة جديدة منقحة ، (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٧٤ وص ٢٨٩ .

(٨) يمكن أن نذكر في هذا الصدد النموذج العاسلوى الخاص بالمدرسة السريالية في الفن التي ازدهرت في اواخر الثلاثينات في مصر على يد كامل التلمساني ، ورمسيس يونان ، وفؤاد كامل وملات ،شبه منتحرة، ـ رغم طليعيتها ـ لأنها كانت صدى للخارج، اكثر من كونها استجابة لحركة الواقع المحلي .

(٩) محمد عابد الجابرى ، الخطاب العربي المعاصر ، ص ٢٠ .

(١٠) صبحى وحيدة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧٩

(١١) راجع : د . غالى شكرى ، النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٨) ، ص ٢٦١ .

(١٢) الجابرى ، الخطاب العربى المعاصر ، ص ٣٣ .

(١٣) المصدر نفسه

(١٤) المصدر نفسه

(١٥) المصدر نفسه

(١٦) انظر حسن الساعاتى : «الفئات المرسملة فى مصر المعاصرة» (القاهرة : جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، فبراير ١٩٨٥ ، ص ١ بحث غير منشور) .

(١٧) المصدر نفسه

(١٨) المصدر نفسه

(١٩) راجع : محمود عبد الفضيل ، التشكيلات الاجتماعية والتكوينات الطبقية فى الوطن العربى (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، فبراير ١٩٨٨) ، ص ١٨٦ .

(٢٠) انظر : Ann Krueger, «The political Economy of the Rent Seeking Society», American Economic Review, vol 64, no 3 (June 1974), p. 302

الفصل الثانى عشر :

حول الحروب والتسويات الفكرية

حسنا فعل الاستاذ طارق البشرى عندما طرح علينا ملاحظاته الثاقبة حول «اساليب الصراع الفكرى» فى تلك اللحظة الحرجة من تاريخ تطور مجتمعنا (راجع : مجلة الهلال ، عددى مارس ومايو ١٩٨٨) ، فقد رصد بحق عددا من الظواهر السلبية التى تحيط بجو الصراع الفكرى والسياسى الدائر فى بلادنا ، لتحرفه عن مساراته الاساسية وتفتت من جهد وطاقة الجماعات السياسية المتصارعة وتفرقه فى دوامات لا تقود بالضرورة الى نهضة او تقدم .

وإذا كنا نتفق مع طارق البشرى على أن قائمة رصد المشكلات التى يواجهها المجتمع المصرى فى اللحظة الراهنة هى قائمة تكاد تكون سليمة ومتفق عليها من جانب القوى المختلفة المتصارعة ، فإننا نختلف معه حول أن تكون قائمة رصد الحلول هى الاخرى سليمة وموضوع اتفاق عام .. وان المشكلة انما تكمن فى مجرد توصيل الخيوط بين كل من بنود القائمتين . فكل من يعايش عملية الصراع الفكرى والسياسى التى تدور رحاها هذه الايام .. يعلم ان هناك خلافا حادا ومشتعلا حول تشخيص قائمة الحلول المقترحة للمشاكل القائمة . ولذا فإن أبعاد الأزمة الراهنة .. تتجاوز بكثير مجرد

توصيل الخيوط بين بنود القائمتين ، اذ أن جزءا هاما من عملية الصراع الفكرى والسياسى تتمحور تحديدا حول الاختلاف في مناهج الحل لمشكلات المجتمع المصرى .

وهذا يزيد من خطورة الامر ويزيد من حجم الصعوبات والتحديات التى تواجه أساليب إدارة الصراع الفكرى فى مجتمعنا .. بما تحمله من مخاطر تبديد طاقاته فى حروب فكرية ضروس لا تفضى سوى الى مزيد من التطرف والخندقة الفكرية ، وتغليب التناقضات الثانوية على التناقضات الاساسية . ولذا نجد الكاتب يؤكد على أن جهود «التسوية الفكرية» المطلوبة تقتضى «جهدا فكريا بنزع خواص التنافى بين الاتجاهات الفكرية الغالبة الشاغلة للساحة الجماهيرية» . ولكننا يجب ان نحذر منذ البداية بأن عملية «نزع خواص التنافى بين الاتجاهات الفكرية الغالبة» ليست عملية جراحية بسيطة بل معقدة ، لان «خواص التنافى» ليست مشتقة من ساحة الفكر .. بل هى موجودة ، وبشكل أساسى ، فى الواقع المعاش وتفرزها تناقضاته وطبيعة تطوراته .

القضية المطروحة إذن مهمة وخطيرة ، ويجب ان تأخذ حقها من المناقشة والتأمل فى ظل حالة التناحر الفكرى والشرذمة السياسية التى يعيشها مجتمعنا .. فى لحظة تتعاظم فيها التحديات وتتدنى فيها مستويات الاستجابة لتلك التحديات ... وتدلهم فيها عناصر الازمة .

واذا كنا بصدد الحديث عن التسويات الفكرية وفتح الحدود الفكرية بين التيارات الفكرية والسياسية المتصارعة

على الساحة المصرية ، دعونا نتساءل من ذا الذى يبادر باغلاق الحدود الفكرية واغلاق باب الاجتهاد والحوار ؟

إن هناك بعض عناصر وفصائل التيار الاسلامى ، ينكرون «التعددية الفكرية والسياسية» ، ويبادرون باغلاق الحدود الفكرية ويلوحون بتطبيق «حد الردة» على كل من يخالفهم فى الراى والاجتهاد ، وفى الوقت نفسه ، نجد ان المفكرين

الاسلاميين الذين يدعون للحوار والاخذ باسلوب «التسويات الفكرية» هم اصحاب الصوت الاكثر خفوتا فى الشارع الاسلامى . وضمن هذا الاتجاه نجد مفكرا اسلاميا بارزا مثل الدكتور احمد كمال أبو المجد يؤكد على «أن إقامة احكام الاسلام فى عصرنا تحتاج الى اجتهاد عقلى كبير ، وللعقل سبيل الى ذلك لا يسع عاقلا إنكاره ، فالنصوص ـ قرآنا وسنة ـ محددة متناهية ، والحوادث متجددة غير متناهية .. وحركة الزمن سنة من سنن الله ، وحركة التشريع علاقات تلك الحركة امر من أمر الله» (راجع : «د . كمال أبو المجد ، حوار لا مواجهة ، كتاب العربى ، إبريل ١٩٨٥ ، ص ٤١) .

إننا لا نريد أن نستخلص من ذلك ان التيار الاسلامى هو التيار الوحيد الذى يمارس عملية إغلاق «الحدود الفكرية» .. فهناك ممارسات فى هذا الاتجاه من جانب القوى الأخرى ، ولكن عندما يستخدم الدين من جانب إحدى القوى السياسية كاداة لتكفير الخصوم السياسيين ومصادرة الحوار باسم عدم «الشرعية الدينية» تكون المسالة اكثر خطورة ، ومستقبل «التسويات الفكرية» المطلوبة أكثر إظلاما .

ازمة المجتمع المدنى

ليس هناك من شك فى ان المجتمع المصرى عموما والمجتمع المدنى بصفة خاصة يمر بازمة حادة ، هى ازمة «وجدانية» بالدرجة الأولى . ولقد تحدث البعض عن «صحوة المجتمع المدنى» خلال السنوات الاخيرة كظاهرة صحية ، ولكن فاتهم ان تلك «الصحوة» هى صحوة مأزومة تحوى فى طياتها روح الفرقة والتشقق .. ويضيع فى خضم الصراعات والمقارعات الخط الرئيسى للنهوض والتقدم ، الذى يجمع شتات الامة ويضم قواها الاجتماعية والسياسية الحية ، فمازلنا حتى اليوم ـ وبعد مرور اكثر من خمسة وعشرين عاما ـ نلعق جراح هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وتستخدم واقعة تلك «الهزيمة» كأداة لمصادر المستقبل بجريرة الماضى ، ولاسيما من جانب القوى «الليبرالية الجديدة» ، ودوائر بعض رجال الاعمال .

ولذا فاننا لا نغالى ، كثيرا اذا قلنا أن السنوات الاخيرة قد شهدت نوعا من إندلاع الحرب الأهلية الفكرية فى مصر ، حيث ازدادت عمليات الخندقة الفكرية والانغلاق المذهبى .. وتآكلت «المساحات الوسطية» التى كانت تسمح بالتاليف بين القلوب والافكار والعمل السياسى الفاعل . فلم يعد يهتم كل فريق «متصارع» بمعايشة وفهم المنطق الداخلى للرأى المخالف .. بل جرت العادة الذميمة على تشويه منطلقات الرأى الآخر ومناقشتها باسلوب «كاريكاتيرى» مبتسر .

وليس هناك من شك أن قوى خارجية (إقليمية وعالمية) تلعب دورا هاما ونشطا فى تأجيج نيران الصراعات الجانبية .. وسكب الزيت على نيران الصراعات القائمة فى المجتمع المصرى . إذ إن العديد من مؤسسات «المجتمع المدنى» القائم لم تنج من شبهة الاختراق خلال السنوات الأخيرة ، وهذا يؤثر بدوره على اسلوب إدارة الصراع الفكرى فى مجتمعنا .. ويعطى دورا اكبر لما أسماه طارق البشرى «رجال الامن الفكرى» الذين «يجوبون خلال الديار مفتشين عن كل ما يتعاطف مع الطرف الآخر فيقصونه ، دعما وتاكيدا للمفاصلة الفكرية والقطيعة بين الاطراف المتصارعة .. وهؤلاء هم فى واقع الأمر ليسوا رجال «امن» .. بل رجال «تخريب» و «تاليب» . يدفعون البلاد نحو «فتنة كبرى» .. لا يعرف منتهاها .

ولقد تزايدت عمليات بناء التحصينات والسدود من جانب كل فريق حول موقعه الفكرى ، واحاطته لمعتقداته الفكرية والسياسية بجو من الاسطورية والمثيولوجيا يضفى عليها «قداسة مصطنعة» .. مما يؤثر بلا شك على نمط الجدل الفكرى والسياسى القائم ، ويقود فقط الى نوع من «المراوغة الفكرية» . وتلك ظاهرة لها جذور محددة فى حياتنا وتراثنا الفكرى .. حيث هناك نزعة رفض التاليف الجدلى بين الاشياء والافكار .

ولعل طارق البشرى قد وضع اصبعه على آفة هامة من

آفات الصراع الفكرى فى بلادنا الا وهى إدارة الصراع الفكرى بين الاطراف المختلفة على مستوى العموميات والمقولات المجردة ، دون محاولة الاقتراب من الظروف الواقعية الملموسة لتطبيق تلك الافكار . فقلما يحفل اى من الأطراف المتصارعة «بجرد المحتويات التطبيقية لكل فكرة نظرية وبيان المفاد الواقعى لكل فكرة مجردة» ، او رد كل فكرة الى عناصرها التطبيقية .

إذ ان استمرار الصراع عند مستوى العموميات والمقولات المجردة ، بغض النظر عن المحتوى التطبيقى لتلك المقولات ، ، يؤدى الى مزيد من الاظلام والضباب الفكرى ، ويساعد على خلق نوع من «اليقين» لدى انصار هذا التيار الفكرى او ذاك .. الامر الذى يتعثر معه فتح الحدود الفكرية بين التيارات المختلفة المتصارعة .. ولعلنا لا نغالى كثيرا اذا قلنا ان المنطقة العربية كلها قد دفعت ثمنا باهظا لادارة الصراع الفكرى بين التيارات المختلفة على مستوى «الشعارات» دون السعى لتفصيل كيف يمكن تشغيل وتطبيق تلك الشعارات فى الواقع . فعندما يتم الوصول الى السلطة ، ويواجه اصحاب هذا التيار او ذاك تضاريس الواقع وجها لوجه .. تضطرب الافكار والشعارات وتترنح .. بل تتهاوى ، ليحل محلها اسلوب «التجربة والخطأ» بما يجره على الشعوب من ويلات وكوارث ونكبات .

ولعل المثلث الثانى المشتق من اسلوب ادارة الصراعات الفكرية حول قضايا مصيرية على مستوى «الشعارات

العمومية» هو الارتكان للكسل الفكرى وضعف روح الاجتهاد والتجديد والابتكار ، فعندما ترفع بعض القوى السياسية شعار «الاسلام هو الحل» او «القطاع الخاص هو الحل» او «الاشتراكية هي الحل» ، يظل المحتوى البرنامجى لتلك الشعارات غامضا ومطاطا .. وفى غياب الاجتهاد والتجديد الفكرى يتم الانكفاء على تجارب وتراث «السلف الصالح» أو النهل من «تجارب الغير» .

إن هذا النهج السلفى فى إعطاء مضمون للشعارات المرفوعة من جانب القوى السياسية ، هو نهج عام يكاد يطغى على الخطاب السياسى لكافة القوى السياسية فى اللحظة الراهنة .

فالذين يرفعون شعار «الدولة الاسلامية» لا تصدر عنهم اجتهادات واضحة بخصوص واقع ومشاكل المسلمين اليوم ، بل يبحثون فى خزانة الفقه القديم لكى يردوا على التحديات التى يفرزها الواقع المعاصر . والذين يرفعون الشعارات الليبرالية اليوم لا يجدون خير برهان او دليل على صحتها وجدواها سوى الحديث عن امجاد ثورة ١٩١٩ . وكرامات مصطفى النحاس والسلبيات الديمقراطية لتجربة ثورة يوليو .. دون التصدى لمشاكل تشغيل «النموذج الليبرالى» فى ظل تضاريس الواقع الاجتماعى والسياسى للمجتمع المصرى فى الثمانينيات .

كذلك نجد انصار الفكر الناصرى يعيشون فى معظم

الاحوال ، على اجترار منجزات الفترة الناصرية . دون بذل الجهد اللازم لما يمكن ان يقدمه الفكر الناصرى اليوم بعد ان تدفقت مياه كثيرة فى النهر . وبالمثل نجد لدى أنصار الفكر الاشتراكي ارتكانا مبالغا فيه الى حصيلة التجارب السابقة لبناء الاشتراكية فى بلدان اخرى وفى ظروف تاريخية مغايرة ، دون محاولة استخلاص الدروس المستفادة من مشاكل وعثرات بناء الاشتراكية فى مصر وغيرها فى البلدان . كذلك نلمس نوعا من الاستخفاف بالتحديات التى يواجهها الفكر الاشتراكى فى مجتمع تشوهت فيه قيم ومبادىء الاشتراكية بفعل الدعايات المختلفة ، من جانب ، وبفعل الظروف الموضوعية التي افرزتها الحقبة النفطية وما صاحبها من هجرة وبترو ـ دولارات ، من ناحية اخرى . فلم يعد هذا الفكر فكرا خالصا نقيا كما كان الحال فى العشرينيات والاربعينيات .. بل غدا فكرا معاشا مجربا ، بما له وما عليه من تبعات .

ولهذا فإن أزمة الصراع الفكرى الدائر الآن على جبهة الثقافة والسياسة والاقتصاد في مجتمعنا تعود الى أنه حوار لا يحتكم الى «الواقع المعاش» ، بل إلى «النصوص» . وهذا يقود الى منزلق هام للفكر السياسى والاجتماعى فى بلادنا ، يتمثل فى ربط الافكار والمقولات بظرف تاريخى زمانى او مكانى قد لا يتكرر ، وهكذا يدخل الصراع الفكرى والصراع السياسى عموما فى مأزق يصعب الخروج منه ، لأن الحوار السياسى يصبح أشبه «بحوار الطرشان» . وما دام الاحتكام

هو إلى النصوص وليس الى الواقع ، فسرعان ما تزداد الفرقة الفكرية والتشرذم السياسي ، حيث يتم الخلط بين الاصول والفروع والاساسى والثانوى والعاجل والمؤجل

ولعل الانقسامات الداخلية الحادة التى تعيشها التيارات الاسلامية والناصرية واليسارية هى خير دليل على حالة التشرذم الفكرى هذه ، إذ تعكس «الذاتية الفكرية» لكل فريق او فصيل نفسها فى شكل تمايزات تنظيمية وسياسية ، وهى «ذاتية» وليدة العزلة وضعف الممارسة الاجتماعية . فعندما يختل «الميزان السياسى» يختل «الميزان الفكرى» .. وليس العكس كما يعتقد البعض . إذ إن «الميزان الفكرى» ليس ميزانا معلقا فى الهواء . بل لابد له من ان يلامس تضاريس الواقع ، والا اصبح دليلا ونبراسا لحلقة صوفية .. وليس دليل عمل ونهضة لحركة سياسية فاعلة .

وإذا كان هناك حراس «للحدود الفكرية» .. فهناك ايضا اصحاب «الحوانيت الفكرية» . المولعون بلعبة التمايز والذاتية الفكرية والشرذمة السياسية ، ويدفعون الصراعات الى المسارات الجانبية بعيدا عن الطريق العمومى للنهضة . حتى ينتهى الامر بإفلاس لكافة الحوانيت (المشهرة وغير المشهرة) .. وإفلاس الحياة السياسية والديمقراطية فى مجملها .

الكتلة التاريخية ومشروع النهضة الوطنية

ينعى طارق البشرى حالة التشتت والتجزؤ التى تعيشها البلاد فى تلك الفترة الحرجة من تاريخها .. وخطورة خلق وحدات كفاح جزئية تؤدى الى تشتيت التجمع الكفاحى

العام . ولكنه يعود ليؤكد في الجزء الأول من «راسته : «أنه من الخطأ أو من عدم الدقة أن نتصور ان هذا الشاغل الذي يشغلنا يتعلق بما يسميه البعض «الجبهة السياسية» .. إنه أهم من ذلك وأخطر ، لأن يتعلق بتوثيق عرى التماسك في بنيان الأمة ، إنه يتعلق برتق الفتوق في قماش الأمة لتقوى أشرعتها في مواجهة الرياح .. إنه يتعلق بتكوين التيار السياسي الحضاري الغالب في أمتنا» .

ولعل الكاتب هنا يتحفظ على صيغة «الجبهة» باعتبارها تركيبة كيميائية ، بين عناصر شتى ، لا ترقى لمستوى التحديات التي يمكن ان تتعامل معها الحركة الواحدة الجامعة ، مثلما كان الحال مع الوفد في لحظة هامة من تاريخ الكفاح والجهاد الوطني . ولكن الدعوة الى الحركة الواحدة الجامعة في المجتمع المصري اليوم تحمل في طياتها العديد من المحاذير ، لعل أهمها طمس التمايزات الفكرية والسياسية للقوى المختلفة لحساب ما يسمى «بالتيار الغالب» . ومن ناحية اخرى ، فنحن نعتقد أن المجتمع المصري قد قطع شوطا طويلا في مجال التمايز الطبقي والاجتماعي والايديولوجي منذ العشرينيات ، لدرجة يصعب معها الحديث عن تلك الحركة الواحدة الجامعة .. دون ان ينطوي ذلك على درجة ما من درجات القسر والقهر .. وفرض سيطرة وهيمنة احدى القوى ـ التي تدعي لنفسها الغلبة ـ على بقية التيارات الفاعلة في المجتمع .

ولكن مسعى بناء الجبهة بين القوى السياسية المختلفة

الساعية للنهضة والتقدم ليس بالأمر اليسير ، فرغم التمايزات الفكرية واختلاف مناهج الحل . يمكن البحث دوما عن مساحة للاتفاق حول رؤية استراتيجية محددة لمهام التحرر والبناء المرتبطة بمرحلة معينة ، بحيث تتوحد القوى ـ رغم تمايزاتها ـ حول برنامج عام لا تشوبه شبهة التحالف التكتيكى المؤقت الذى تحكمه اعتبارات آنية .. إذ انه رغم اختلاف المنطلقات العقائدية والرؤى السياسية هناك قضايا ملحة على جدول اعمال المستقبل مثل : التنمية المستقلة ، حل مشكلة الديون الخارجية ، تحقيق العدل الاجتماعى ، التصدى للمخططات الصهيونية فى المنطقة العربية .

إن القضية المطروحة اليوم وبإلحاح على جبهة الفكر والسياسة الوطنية هى تجميع تلك القوى التى يمكن ان تشكل «الكتلة التاريخية» من قوى وطنية وديمقراطية تقف على أرض التراث وتتعامل معه بالفة وحب .. وتنهل منه بلا حدود ـ ولكن دون ان تحبس نفسها فى قوالب «فكر السلف الصالح» وحده ، متجاوزة بذلك الصراع بين «الموروث والوافد» ، فى اطار ثقافة وطنية خلاقة متطورة .. تتفاعل مع معطيات وحركة الواقع المعاصر .. بلا جمود وبلا تغريب ..

الجزء الثالث

نظرات فى أوضاعنا الاقتصادية الراهنة

نحاول في هذا الجزء إلقاء نظره فاحصة على أوضاعنا الإقتصادية الراهنة ، إذ ان سلامة التشخيص للاختلالات والاعتلالات الاقتصادية هو السبيل لوصف وتحديد سبل العلاج . ويتناول الفصل الافتتاحي لهذا الجزء قضية هامة تتعلق بمفتاح فهمنا للأوضاع الراهنة للاقتصاد المصرى ، إذ لم يعد هذا الاقتصاد ، اقتصادا واحدا .. بل «عدة اقتصادات» ، لكل منها آلياته وقوانين وازماته .. ولكنها تظل كلها اقتصادات متداخلة يغذى كل منهما الآخر ، بل هناك من المتعاملين والنشطاء الاقتصاديين من يتحركون بين كل تلك الاقتصادات بسهولة وخفة .. وهذه الاوضاع تطرح تحديات على راسم السياسة الاقتصادية عندما يتعامل مع كل من هذه الاقتصادات في ان واحد ، حيث ان معالجة مشاكل احد تلك الاقتصادات قد يكون له اثار جانبية هامة وتداعيات سلبية في جنبات الاقتصادات الأخرى .

ولكن الذى يربط بين كل الاقتصادات المتعددة والمتداخلة هو ما يمكن تسميته «رواج الفلوس» - على حد تعبير المقريزى - وهو ما سوف نحاول ايضاحه وتبيانه في الفصل الرابع عشر ، إذ إتسمت الفترة منذ منتصف السبعينات برواج هائل للانشطة سريعة الكسب ولآليات جديدة لصنع المال دون جهد او عناء . وتصور البعض أن الرواج المالى والتجارى هو مؤشر للنمو والتنمية وحسن الاداء الاقتصادى ، ولكن سرعان ما بدأت آثار الازمة والإعياء الاقتصادى تبدو مع

نهاية الثمانينات ، وبدأ الخيط الرفيع الذى يفصل بين «الرواج الاقتصـــادى» (econoamic prosperiy) ذى الطبيعة المؤقتة ، وبين «الاداء الاقتصادى الحقيقى» (real economic performance) ذى الطبيعة الدائمة ، يتضح تدريجيا . ولكن يظل الخلط قائما فى أذهان الناس ، وفى الواقع الاقتصادى ، بين «الكسب» المرتبط بالجهد والعمل والاداء ، من ناحية ، وبين «الرزق» القائم على اقتناص الفرصة والوساطة والشطارة ، من ناحية اخرى .

وحيث اننا بدأنا نشهد بداية «موسم العودة من الخليج» على نحو ما نفصله فى الفصل الخامس عشر ، فان تصدير الأزمة الاقتصادية للخارج لم يعد ممكنا كما كان الحال منذ منتصف السبعينات ، فلقد جاءت ساعة مواجهة الحقيقة . إذ ان التقدم والرخاء ليس منحة تهبط من السماء لأن التاريخ الحقيقى لا تصنعه محاسن الصدف ، وأن «عقد العمل فى الخارج» ، وان نجح فى حل المشاكل المالية والاجتماعية للافراد لفترة من الزمن ، فانه لا يحمل فى طياته حلولا ناجحه ودائمة لمشاكل النمو والتراكم الاستثمارى والمعرفى فى مجتمعنا . فياترى هل نرحب ببداية موسم «العودة من الخليج» ، لكى نعالج ما اختل من توازنات اقتصادية واجتماعية وقيمية ، وما لحق بالمجتمع من تجريف للأرض والعقول والسواعد والقيم ؟!

ويجىء الفصل السادس عشر ليطرح مفارقة هامة ، إذ أنه

رغم تدفق النقد الاجنبى بشكل هائل على الاقتصاد المصرى خلال الفترة : ٧٥ ـ ١٩٨٥ ، من خلال عائدات صادرات البترول ، ومتحصلات ايرادات قناة السويس ، وتحويلات العاملين فى الخارج ، فان حجم المديونية الخارجية قد تصاعد بشكل هائل خلال تلك الفترة . وهذا يطرح بدوره مسالة كفاءة استخدام القروض الخارجية لاغراض النمو والتنمية ، وكذلك قضية الديمقراطية والمحاسبة واحكام الرقابة الشعبية على استخدام القروض الخارجية فى كافة مراحلها .. إذ أن كفاءة استخدام القروض الخارجية والرقابة على اوجه استخدامها ضرورة وطنية حتى نخرج من دائرة «ادمان القروض» .

ويطرح الفصل السابع عشر قضية التوازنات الاقتصادية والتوازنات الاجتماعية ، واهمية تحقق تلك التوازنات فى ان واحد ، وليس احدا منها على حساب الاخر . إذ أن شيوع الاختلالات الاجتماعية وتفاقمها يؤدى الى نتائج اقتصادية سلبية تؤثر بدورها على استقرار واستمرار «التوازنات الاقتصادية» ذاتها . ويوضح هذا الفصل كيف أن العلاقات السعرية ، والعلاقات الاجرية ، والعلاقات الايجارية كلها انماط من العلاقات التى تحقق توازنات اجتماعية واقتصادية فى آن واحد . ولذا يجب أن نحسن صياغتها وقيادها لان اكثر ما نخشاه اننا اليوم فى سبيلنا للوقوع فى النقيض الآخر لما كان سائدا فى الستينات ، اى الاهتمام «بالتوازنات

الاقتصادية» دون اعارة الاهتمام الكافى لتصحيح «الاختلالات الاجتماعية» المتفاقمة .

ويناقش الفصل الثامن عشر نوعاً آخر من الانفصام فى تفكيرنا وممارساتنا الراهنة ، اذ تم الاسراف فى الحديث عن «الكفاءة الاقتصادية» دون الاهتمام بصنوف اخرى من «الكفاءة» لاتقل اهمية وخطورة عن «الكفاءة الاقتصادية ، مثل «الكفاءة الاجتماعية» و«الكفاءة المؤسسية» . إذ ان حصر ثمار النمو والتقدم الاجتماعى لصالح فئة (او لشريحة اجتماعية) ، وعلى حساب فئات اقتصادية واجتماعية اخرى ، هو الطريق الاكيد للازمة المجتمعية الشاملة ، مهما تحسن اداء ميزان المدفوعات وتم خفض عجز الموازنة . كذلك فان غياب «الكفاءة المؤسسية» على مستوى مجمل الاقتصاد والمجتمع ، يؤدى الى تشويه اية «كفاءة اقتصادية» على مستوى الوحدات الانتاجية والخدمية .. ويرتبط بذلك ما جاء فى الفصل التاسع عشر حول «التخصيصة» فى الظروف الراهنة للاقتصاد المصرى ، اذ ان مشكلة ، كل من القطاعين العام والخاص تعود الى طبيعة «البيئة المؤسسية» المحيطة بهما ، التى تتسم بالجمود والتسيب فى ان واحد . ولذا فان المفاضلة بين «العام» و«الخاص» على نحو ما يشيع من العديد من الكتابات الاقتصادية ، هى مفاضلة كاذبة ، إذ ان المفاضلة الصحيحة ، هى بين الادارة الفاشلة والفاسدة ، من ناحية ، وبين الادارة الناجحة والكفؤة ، من ناحية اخرى . ومن هنا فانه لابد من «اصلاح منظومى» شامل لمجمل البنية

الاقتصادية والادارية والسياسية ، حتى يمكن ان تتحقق «الكفاءة الاقتصادية» و«الكفاءة الاجتماعية» ، و«الكفاءة المؤسسية» فى آن واحد .

وفى ضوء المخاطر والمحاذير المرتبطة بعدم احترام «التوازنات الاجتماعية» واهدار اعتبارات «الكفاءة الاجتماعية» ، يمكن ان تؤدى برامج الاصلاح الاقتصادى الراهنة الى ازمة حادة لعناصر الطبقة الوسطى فى مصر . ازمة اقتصادية واجتماعية فى آن واحد . إذ أن الاوضاع الاقتصادية والمكانة الاجتماعية لفئات الطبقة الوسطى اخذت تترنح بشدة عند منتصف الثمانينات . فمع نهاية موسم الهجرة للخليج ، ومع تآكل الكثير من المكاسب الاقتصادية التى تم الحصول عليها خلال الفترة الناصرية (التعليم المجانى - الدعم السلعى - ضبط ايجارات المساكن - تثبيت الاسعار - تعيين الخريجين) ، فإن هذه الطبقة ستكون وجها لوجه مع الأزمة خلال النصف الثانى من التسعينات ، اذ أن ارتفاع نفقات التعليم والمسكن والبنزين وشرائح استهلاك الكهرباء ووسائل الترفيه سيدفع معظم أفراد تلك الطبقة للخروج تدريجيا من مصاف «مساتير الناس» ، على حد تعبير الجبرتى تلك هى القصة التى يرويها الفصل الاخير من هذا الكتاب ، بعد تحديد سريع لمعالم تلك الطبقة وخصائصها الاقتصادية الاجتماعية .

الفصل الثالث عشر:

الاقتصاد المصري: اقتصاد واحد أم عدة اقتصادات؟

توسعت دائرة النقاش حول «الاقتصاد الخفي» ، ومدى تأثيره وانعكاساته على بقية اجزاء الاقتصاد القومي ومن الواضح ان هناك خلطا والتباسا في المفاهيم حول حدود ومكونات ورقعة ذلك «الاقتصاد الخفي» . ولذا يقتضي الامر رفع بعض الالتباس في المفاهيم حرصا على وضوح دائرة الرؤية حول هذا الموضوع الهام الذى يهم راسم السياسة الاقتصادية والمواطن العادى على السواء .

واود ان اضع امام الباحثين والقراء المهتمين بهذا الموضوع ، بعض الملاحظات الاساسية لعلها تنير الطريق وتحد من بعض الخلط والالتباس الحادث في المفاهيم :

(١) من المفضل - بل من الاوفق - استخدام تعبير «الاقتصاد الموازى» بدلا من «الاقتصاد الخفي» الذى يوحي بعدم الشرعية والجنوح للجريمة الاقتصادية ، بينما تعبير «الاقتصاد الخفي» (أو الموازى) يغطي دائرة واسعة من الانشطة غير الرسمية او «غير المسجلة» ، وليس بالضرورة

غير المشروعة . وهو بالتالى يقابل مجموعة واسعة من المصطلحات المتداولة باللغة الانجليزية بهذا الصدد : (underground, parallel, shadow, unrecorded) . واذا كان لى ان افاضل بين المفاهيم والمصطلحات المتداولة بالعربية ، فاننى ارجح استخدام تعبير «الاقتصاد الموازى» بالمقارنة بتعبير «الاقتصاد الخفى» ، نظرا لأن هناك بعض الانشطة «غير المسجلة» او «غير الرسمية» ولكنها فى نفس الوقت «غير خافية» .. بل ظاهرة «للعيان» ، وتمارس فى وضح النهار .

ويستلزم التحليل الاقتصادى والاجتماعى الدقيق التمييز بين دوائر (او مكونات) للانشطة والمعاملات والصفقات التى تتم فى إطار ما يسمى «بالاقتصاد الموازى» :

● ما درجت الكتابات الاقتصادية الحديثة على تسميته «القطاع غير المنظم» (Informal sector) وهو تعبير شائع فى ادبيات التنمية منذ اوائل السبعينات ، وتم الترويج له على الصعيدين النظرى والتطبيقى من خلال دراسات مكتب العمل الدولى . وهو يغطى فيما يغطى الانشطة الحرفية والخدمية «غير المصرح بها رسميا» التى تمارس على قارعة الطريق او فى الشوارع الخلفية او داخل دور السكن ، بدءا من اعمال اصلاح السيارات وغيرها من الاعمال الحرفية «ذات الطبيعة المنتجة» ، وانتهاء بنشاط الباعة الجائلين وماسحى الاحذية وجامعى القمامة ، ذات الطبيعة الهامشية . وتغطى الدراسة التى قام بها مؤخرا المركز القومى للبحوث الاجتماعية

والجنائية بعنوان «القطاع غير الرسمي في حضر مصر» هذا النوع من الانشطة وقد سبقتها دراسات اخرى في هذا المضمار تعود بداياتها الى عام ١٩٨٠ .

● ما جرى العرف في الكتابات الغربية الحديثة على تسميته «بالاقتصاد الاسود» (Black economy) وهو يطابق ما يطلق عليه بعض الباحثين تعبير «الاقتصاد الخفي» . وهو يشمل مجموعة الانشطة والمعاملات التي تدخل ضمن دائرة

الجريمة الاقتصادية مثل استهلاك المخدرات والاتجار فيها ، وتهريب السلع المستوردة الى داخل البلاد والاتجار في السوق السوداء للعملة ، وكذا السوق السوداء لتجارة السلاح ، بالاضافة الى الرشوة والتهرب الضريبي ، وهي انشطة لها اثار تخريبية واضحة على بنية الاقتصاد القومي ، وعلى كفاءة ادائه .

● انشطة تندرج تحت ما اود ان اطلق عليه «الاقتصاد الرمادي» ، ويشمل مجموعة انشطة غير مصرح بها في الاساس .. ولكن يتم التغاضي عنها حتى تصبح ممارستها نوعا من «العرف المقبول» وان تم استهجانه احيانا .. ولكن دون أن تدخل تحت دائرة التجريم الاقتصادي . وتشمل تلك «المنطقة الرمادية» مجموعة من المعاملات والانشطة التي نشهدها يوميا : اعطاء الدروس الخصوصية ، القيام باعمال اضافية بواسطة موظفي الحكومة ، دفع «خلو الرجل» للمساكن ، بناء وتعلية المساكن دون تصاريح (بما في ذلك ما يسمى «الاسكان العشوائي») ، العمولات على الصفقات الخ .

(بيد ان «هامش التمييز» بين الانشطة «السوداء» والانشطة «الرمادية» يضيق احيانا حتى يصعب التمييز بين «الرشوة» (المجرمة اقتصاديا) و«العمولة» (المشرعة قانونا او عرفا)، ولذا فهناك «شريط حدودى» ضيق يفصل بين بعض «الانشطة الرمادية» و«الانشطة المسماة بالسوداء» .

التشابك والتداخل

ليس هناك شك ان هناك تداخلا بين الدوائر الثلاث للانشطة والمعاملات السابق ذكرها ، بل هناك من يتنقلون يوميا بين «الاقتصاد الرسمى» ، من ناحية ، وبين احد الاقتصادات الثلاثة : «الهامشى وغير المنظم» ، «الرمادى» ، و«الاسود» ، ولكن التفرقة تظل هامة وضرورية لاسباب تتعلق بالتحليل الاقتصادى ورسم السياسات الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية .

وليس سرا ان معظم نظم «المحاسبة القومية» فى بعض البلدان المتقدمة قد بدأت تأخذ بعين الاعتبار تلك الانشطة «غير المسجلة» حتى يمكن تكوين صورة متكاملة عن مجمل النشاط الاقتصادى فى البلاد ، سواء أكان ذلك «رسميا او غير رسمى» .. «رماديا» أم «اسود» ، وذلك حتى لا يتم التعامل مع كميات اقتصادية كلية «مشوهة» او «مبتورة» .

ونود ان نبدى عددا من الملاحظات حول الاثار الاجتماعية والتوزيعية لوجود الاقتصاد الموازى (بمكوناته الثلاثة : «غير

المنظم» ،«الرمادى» ، «اسود») ضمن بنية الاقتصاد المصرى الراهن :

١ ـ من وجهة نظر التوزيع يلاحظ ان متحصلات الافراد من الاعمال الاضافية «غير الرسمية» و«غير المعلنة» لها اثار ايجابية فى مجال تحسين توزيع الدخول الشخصية القابلة للتصرف ، اما بقية الدخول الخفية والمدفوعات التحويلية التى تتم ضمن اطار الاقتصاد «الموازى» ، فانها تساهم فى زيادة درجة عدم العدالة التوزيعية للدخول فى المجتمع المصرى (مثال ذلك : تلك الدخول «السوداء» الممثلة فى اجمالى ارباح تجارة الحشيش والسمسرة ، والخلوات ، التهرب الضريبى لدخول الاعمال فى الانشطة المعتادة) .

٢ ـ ان لنشاط الاعمال الثانوية ، وغير الرسمية اثارا سلبية على القيمة المضافة المتولدة فى القطاع العام والحكومة ، وذلك لان اولئك العاملين فى هذه الاعمال يضطرون لتخفيض عدد الساعات المقررة لوظائفهم الاصلية وهو ما يعنى تخفيض العرض الفعال لساعات العمل الرسمية مما يؤدى بالتالى الى تدهور انتاجيتهم فى الوظائف الاساسية .. وبناء على ذلك ، فان الدخل القومى المسجل فى هذه القطاعات يبدو انه مبالغ فى تقويمه ، وفقا لاعراف المحاسبة القومية السائدة ، بينما يبدو الدخل الشخصى القابل للتصرف مقوما باقل من قيمته نتيجة لعدم احتساب الدخل المتولد من هذه الانشطة الاجتماعية .

٣ ـ ان لانشطة «الاقتصاد الموازى» نتائج اجتماعية

خطيرة حيث تؤدى «الدخول والاموال السوداء» (Black Money) الى تمكين الافراد الذين حصلوا عليها من الانتقال من فئة دخلية اقل الى فئة دخلية اعلى ، وبالتالى توسيع مراتب عناصر «الراسمالية الطفيلية» بما تحمله من قيم اجتماعية وفكرية . ومن ناحية اخرى ، يلاحظ وجود ميل قوى لدى «الفئات الكادحة» ذات الدخل المحدود والمتوسط الى قبول العمل فى وظائف واعمال دنيا (Inferior Jobs) ، لا تناظر مؤهلاتهم العلمية الاصلية ، وذلك للحصول على دخل اعلى فى محاولة يائسة لمقاومة التضخم وتحسين مستوى معيشة اسرهم وهذا يؤدى الى تدنى مهاراتهم ، من ناحية ، وتصفية «وقت الفراغ» اللازم لتكوين الوعى وتحقيق التقدم فى مجالى النشاط السياسى و النشاط المهنى» .

الفصل الرابع عشر :

رواج الفلوس

لعل أهم ما يتميز به منهج العلامة الكبير احمد بن على المقريزى فى كتاباته التاريخية ذلك الربط الجدلى الوثيق بين الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على نحو فريد لم يكن معهودا فى عصره . ويكشف التحليل الاقتصادى الذى اورده المقريزى فى كتابه «إغاثة الامة بكشف الغمة» عن معالجة اصيلة ورائدة فى مجال الدورات الاقتصادية ، والتقلب فى الاحوال الاقتصادية من الازدهار والانتعاش الى الركود والكساد والانحطاط .

ولقد عاصر المقريزى مرحلة هامة ودقيقة من تاريخ دولة سلاطين المماليك ، فلمس بحاسته التاريخية بداية انحسار الرواج الاقتصادى القائم على التجارة وبداية الخلل فى دورة الحياة الاقتصادية ، فمن المعروف ان عصر سلاطين المماليك قد تميز بازدهار التجارة وتراكم الثروات الفاحشة ، وقد نجم عن ذلك الانتعاش التجارى ان «اكتظت القاهرة ودمياط والاسكندرية بالاسواق والمؤسسات التجارية الكبرى ، كالخانات والفنادق والوكالات التى تستقبل التجار على اختلاف اجناسهم ومللهم والبضائع على تنوع اصنافها والوانها » . كذلك يتحدث المقريزى عن انقلاب زمام الاصدار

النقدى وضرب العملات فى ذلك العصر ، اذ اكثر السلاطين المماليك من ضرب الفلوس النحاسية الصغيرة . حتى طغت على غيرها من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية .. ووصلت الامور ذروتها فى عصر السلطان الظاهر برقوق ، الذى اكثر من ضرب الفلوس النحاسية على غير نظام او قاعدة . مما ادى الى ان كثرة الفلوس بايدى الناس كثرة بالغة .

وقد نتج عن ذلك ارتفاع فى الاسعار ومضاربة على اقوات العباد بواسطة التجار والباعة ، فكثرت ارباح التجار والباعة واختلت الموازين بين الدخول والاثمان لعامة الشعب ، واشتدت المضاربة ، وتضاعفت تكاليف الزراعة والغلال .. وكثرت المغارم على « اهل الفلح » . وهلكت الدواب نتيجة شحة المعروض من الغذاء ..

ومع استفحال الخلل فى احوال الاقتصاد زادت المظالم الاجتماعية والمت بالبلاد ازمة اقتصادية خانقة وصلت الى حد المجاعة بالنسبة لبعض القطاعات من السكان عام ٨٠٦ هجرية . ولكن المقريزى ـ ببصيرته النافذة ـ كان اذكى من ان يرجع الأزمة لعوامل اقتصادية صرفة ، بل ارجع جذور الازمة لاسباب واختلالات سياسية . فاصل الفساد ـ كما يراه المقريزى ـ هو اسلوب ولاية الخطط السلطانية والمناصب العامة . ومن هذه المناصب ما هو جليل كالوزارة والقضاء ونيابة الاقاليم وولاية الحسبة ، الامر الذى جعل ولايتها « لكل جاهل ومفسد وظالم وباغ » .

وهكذا فإن الاسباب العميقة للازمات الاقتصادية ـ فى نظر المقريزى ـ انما تعود الى «سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر فى مصالح البلاد والعباد» .

الكسب والرزق .

كذلك حرص العلامة ابن خلدون على التفرقة فى مقدمته الشهيرة بين «الكسب» و«الرزق» لاختلاف مضمون ومصاحبات كلا المفهومين . وتكتسب تلك التفرقة اهمية كبيرة فى مجتمعاتنا العربية المعاصرة فى ظل هطول الاموال النفطية ، وغيرها من العطايا والهبات .

ويرى ابن خلدون «الكسب» على انه : ما يتملكه الانسان بسعيه وعمله ، سواء انتفع به أم لا» . وفى موقع آخر يرى : «أن قيمة ما يكسبه الانسان انما تتحدد بما بذله من سعى وعمل .. فالكسب هو قيمة الاعمال البشرية» .

المقدمة الجزء الثالث .

أما «الرزق» فهو ما يهبط على الناس والمنتفعين دون جهد أو سعى بالعمل . وبهذا المعنى تعتبر أصول وعناصر التركة لمن ينتفع بها من الوارثين نوعا من الرزق . ومن هنا ايضا تم اشتقاق تعبير «مرتزقة الجند» الذين يحاربون دون مبدأ او قضية ، وانما يمنح لهم من ارزاق واعطيات ذلك بلغة المؤرخين واهل الدولة قديما (راجع : محمد عابد الجابرى ، معجم مصطلحات ابن خلدون) .

ولذا فان ابن خلدون يعتبر المذاهب الطبيعية للمعاش (اى المكسب الطبيعى) هى تلك القائمة على العمل والسعى

كالفلاحة والتجارة والصناعة ، بينما الامارة هي اسلوب للعيش يعتمد على الجاه والسلطة (الموقع في البناء الفوقي للمجتمع) لا على العمل والانتاج . وبعبارة حديثة ، هي أسلوب قائم على الاستيلاء والاستحواذ على «الفائض الاقتصادي» الذي ينتجه ارباب المذاهب الطبيعية للمعاش .

وهكذا فان الاصل في حياة المجتمعات هو تنظيم اساليب «الكسب» القائم على الانتاج والعمل والسعي والكد . ويكون الاستثناء هو «الرزق» لانه يجيء على سبيل الاضافة والتزيد . واذا ما تأملنا في احوال مجتمعنا ، والمجتمعات العربية التي حولنا ، نجد أن الآية قد انقلبت .. وغدا «الكسب» مسالة ثانوية و«الرزق» و«المنح والعطايا» . هي المصدر الاساسي للدخول والثروات . وقد ساعد على ذلك هطول الأموال النفطية بغزارة خلال السنوات الخمس الأخيرة . وادى ذلك الى تقليص دائرة «الكسب» وتوسيع نطاق دائرة «الرزق» من خلال اليات وقنوات عدة اهمها : الاتاوات ، والعمولات والاكراميات ، والمضاربات .. وعمليات السلب والنهب المنظم (او ما يسمى باللغة الدارجة «التهليب») .

وهكذا اخذ الافراد والجماعات يرتبون أمورهم واحوالهم بناء على ما يحط عليهم من «رزق» ، وليس ما يحصلون عليه من «كسب» . إذ ان نسبة الكسب في احوال كثيرة لا تقاس بما يحل عليهم من رزق ، وفي ذلك اختلال واضح للموازين ، حين يصبح الدخل الاصلي (الكسب) ثانوي واضافي ، والدخل الثانوي والتكميلي هو الاصل والاساس . وغني عن

القول ، كم يؤثر ذلك تأثيرا سلبيا على قيم المجتمع ومنوال حياته ونمط قيمه وسلوكه .

ولكن الاوضاع الاستثنائية لا تدوم .. فالحساب الرشيد يقوم على الموارد الثابتة والمتجددة وليس على الموارد الطارئة والناضبة ، اى على قاعدة الكسب «المتجدد» ، وليس الرزق «المتبدد» . ولذا فان قيما «كالكسب الحلال» و«الامانة» هى ليست مجرد قيم روحية .. بل هى فى الواقع قيم مادية متعلقة بالمعاملات المادية والمالية الجارية ، فعندما تضيع هذه القيم وتنحسر تضيع اشياء ثمينة فى حياة المجتمع ، عندما تحل محلها قيم «الشطارة» و«الفهلوة» و«النهب» و«السلب» .

منطق الترف
ومنطق الشرف

كذلك يشير العلامة ابن خلدون فى مقدمته الى اسباب انتقال الامم والممالك من طور العظمة والمجد إلى طور التحلل والفساد وانكسار العصبية . وتعود نقطة التحول هذه الى انتقال المجتمعات من حياة البساطة والاقتصار على الضرورى من العيش الى حياة الرفاهية والتفنن في الترف . وهكذا يرى ابن خلدون ان الامة اذا سادها منطق الترف «كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته ويذهبون الى اتباع من

قليهم فى عوائدهم واحوالهم ، وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية فى تحصيلها . وينزعون من ذلك الى رقة الاحوال فى المطاعم والملابس والفرش ويتفاخرون فى ذلك ، ويفاخرون فيه غيرهم من الامم فى اكل الطيب ولبس الانيق وركوب الفاره ، ويناغى خلفهم فى ذلك سلفهم الى آخر الدله».

ووفقا لهذا المنطق ، «منطق الترف» ، تصاب المجتمعات بحالة عارمة من التحلل والاسترخاء والقعود عن مواجهة التحديات الخارجية ، ولذا فإن الدول والممالك انما تهرم وتضمحل لسبب رئيسى هو «استحكام عوائد الترف فى اهلها» و«عدم ايفاء دخلهم بخرجهم» .

وكان ابن خلدون باقواله هذه يعايش احوال مجتمعاتنا العربية خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة عندما هبطت عليها الأموال النفطية ، فانتقلت بعض فئاتها وعناصرها انتقالا غير طبيعى من «نكد العيش وشظف الاحوال» الى «التفنن فى الترف ، احواله» و«سكن القصور والضياع» .. دون ان يرافق ذلك تحسن مطرد فى ظروف الانتاج وأدواته ووسائله .

ولم يقتصر ابن خلدون فى توصيفه على ذكر أحوال الرواج والتفنن فى الترف ، بل تحدث عن ازمة تلك المجتمعات عندما تتحول طرق التجارة وتجف مصادر الرزق دون جهد . فلما كانت الدولة هى السوق الاعظم ـ على حد تعبير ابن خلدون ـ لمنتجات ارباب الصنائع والحرف ، فإذا كسدت مصاريفها تحت وطأة الازمة .. فان الكساد يعم بقية الاسواق ويصير ارباب الصنائع والحرف الى الفقر والخصاصه .

وعندما تتحكم الازمة فى البلاد ، يقعد الرعية عن العمل ، ويفر اصحاب الاموال بأموالهم ، وينقبض الفلاحون عن الفلاحة ، ويقعد التجار عن التجارة .. وهكذا تفسد مادة العمران فى المجتمعات وتضمحل اجهزة الدولة ويصيبها التفكك والفساد .

وفى مقابل منطق الترف ، يوجد منطق الشرف ، منطق العمل الدؤوب لبناء المجتمعات . فالكسب القائم على العمل الجاد والتفنن فى الاجادة هو سبيل النهوض بالمجتمعات من كبوتها ، بينما الارزاق والعطايا هى السبيل للافساد والاسترخاء وانتشار روح التواكل .. فالحياة الاقتصادية التى تقوم على الجاه والسلطان واقتسام المغانم ، ولا تنهض على اساس من العمل والانتاج مآلها الضمور والاضمحلال .

وهكذا يتضح انه فى ظروف الشعوب والامم الناهضة ، هناك تضاد تام بين منطق الترف ومنطق الشرف . ويحضرنا هنا قول شاعرنا الراحل امل دنقل الذى يمس كبد الحقيقة بأبياته التالية :

«أترى حين افقأ عينيك
ثم اثبت جوهرتين مكانهما
أهل ترى .. ؟
هى أشياء لا تشترى !»

الفصل الخامس عشر :

بداية موسم العودة من الخليج

قد يظن القارىء أن هذا هو عنوان لرواية على شاكلة (موسم الهجرة للشمال) للطيب صالح ، الروائي السوداني المعروف . ولكنه عنوان يعبر عن رواية درامية يعيشها جماع المصريين منذ عشر سنوات ، وقد قاربت اليوم على الفصل الختامي .. فقد كانت عملية الهجرة الواسعة الى بلدان الخليج لاعداد كبيرة من المصريين على اختلاف مستويات مهارتهم (من الخفير الى الوزير) ظاهرة تاريخية فريدة ، تركت بصماتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى كل جانب من جوانب الحياة فى مجتمعنا .

وتكاد لا توجد اسرة مصرية اليوم لم ينلها رذاذ عملية الهجرة من قريب أو بعيد ، فى الريف والمدينة على السواء .

وقد كنا ننظر لعملية الهجرة هذه ـ حتى عهد قريب ـ على انها بمثابة «البلسم الشافى» لمشاكلنا الاقتصادية المزمنة والمستحدثة ، إذ من خلال عملية الهجرة يتم «تصدير الازمة الاقتصادية» للخارج على المستويين : الفردى (الحصول على عقد عمل بالخارج) والمجتمعى (تحسين حصيلة النقد الاجنبى ، تخفيف الضغط على سوق العمل الداخلى ، رفع حجم المدخرات القومية) .

بيد أن عملية الهجرة بدلا من ان تساعد على مزيد من التماسك المجتمعي ، فقد أدت الى ارتداد المواطن المصرى الى نوع من الفردية والفرائزية .. التى ترى ان طريق الصعود والازدهار والترقي يمر «ببوابة الهجرة» الى الخارج ، وأن البذل والعطاء واجادة العمل فى الداخل هو الطريق الى الهاوية والتخلف عن ركب الرفاه والحياة الرغدة السعيدة .

وهكذا كانت «الهجرة» بمثابة المخدر الذى يسكن الام المجتمع الاقتصادية ، وكانت امام اعين المواطنين الطريق السهل والسريع للقفز فوق الاشواك وتضاريس الواقع الاليم واللحاق بقطار الحظ السعيد .

واليوم ، وقد قارب «موسم الهجرة الى الخليج» على الانتهاء ، فلم يعد أمام المجتمع المصرى من سبيل «لاعادة تصدير» ازمته الاقتصادية الى الخارج .. ولم يبق أمامه سوى مواجهة الاختيارات والتحديات الصعبة الماثلة امامه عن طريق الكد وبذل العرق والابتكار والتجديد لبناء المجتمع المصرى بقواه الذاتية وموارده المحدودة وسواعد ابنائه البررة .

فالتقدم والرخاء ليس منحة تهبط من السماء على المجتمع ، والتاريخ لا تصنعه الصدفة وحسن الحظ .. وإنما يصنعه الجهد الانتاجي الدءوب والتراكم الاستثمارى والمعرفى الذى يسمح بنمو وتطور القوى الانتاجية بإطراد .

فدعونا إذن نرحب بنهاية «موسم الهجرة» الى الخارج ، لعل الموازين تنصلح بعد طول إختلال .. ولعل القيم الجيدة

والشريفة ، القائمة على الانتاج والجد ، تكنس فى طريقها القيم الرديئة القائمة على النهب والتهليب .

تجريف الارض الزراعية ام تجريف المجتمع ؟

كذلك كثر الحديث فى الثمانينيات عن تجريف الارض الزراعية دونما حسيب او رقيب لتغذية مصانع الطوب الاحمر التى بلغت وفقا لبعض الاحصائيات الى نحو ٣٥٠٠ مصنع ، وتجريف التربة معناه ببساطة «ذبح الارض الزراعية المصرية» ، اى تصفية ذلك الاصل الانتاجى الهام الذى ينتج الغلة ويطعم افواه الملايين من الناس ، ولكن المسألة الاخطر من ذلك ، ان عملية ذبح الارض الزراعية قد تم لحساب عمليات البناء والتشييد ، حيث تم حرق الطبقة الخصبة من الارض الزراعية وتحويلها الى طوب احمر .. يستخدم فى بناء العمارات الشاهقة «للتمليك» ، هذا بينما ظلت ازمة الاسكان الشعبى والمتوسط متفاقمة ، ولم تسعفها تلك الحركة الهائلة للبناء والتشييد للمساكن والعمارات ، التى شهدناها خلال السنوات العشر الاخيرة .

وليت الامر توقف عند هذه النقطة ، بل لقد ابتلع الزحف العمرانى ، ودخول مساحات واسعة من الارض الزراعية داخل كوردون المدن ، ما يقرب من مليون فدان من اجود الاراضى الزراعية خلال السنوات الاخيرة ، وكأننا بذلك نكون قد فقدنا المليون فدان التى تم استصلاحها خلال فترة الستينيات وحتى بداية السبعينيات ، بل لعل الخسارة هى فى الواقع افدح من ذلك لا ننا نكون قد فقدنا مليونا من اجود الارض

الزراعية .. بينما احللنا مكانها مليون فدان من اقل الاراضى الزراعية جودة وخصوبة وانتاجا .

وهكذا لم ينتبه المجتمع والدولة - فى غمرة تدفق الاموال النفطية وفورة البناء والتشييد - الى هول ما فعلنا ببلدنا .. اذ اننا قد قايضنا المأكل بالمسكن (وليته كان المسكن لعامة الناس) فى مجتمع يعانى من زيادة سكانية كبيرة ، مما ادى الى انكشاف امنه الغذائى على نحو لم يسبق له مثيل . فاى مفاضلات وموازنات تلك فى حساب الزمن والتاريخ !

كذلك ساعد اتساع نطاق هجرة العمالة الريفية الى بلدان الخليج سعيا وراء «الرزق الاوسع» الى نوع آخر من التجريف للعمالة الريفية .. وادى هذا بدوره الى انخفاض مستوى الانتاج الزراعى وتدهور الغلة الغذائية فى بعض المحاصيل .. واهم من كل هذا وذاك اتساع نطاق عمليات «تبوير الأرض» خلال مدة الهجرة ، والعجز عن اتمام حصاد بعض المحاصيل نتيجة شح الايدى العاملة المتاحة فى موسم الحصاد .

وهكذا اخذت تتراجع قوى الانتاج فى قطاع الزراعة .. خط الدفاع الاول عن الاقتصاد المصرى - نتيجة تجريف التربة والعمالة ، وهما اثمن راسمال لنجاح العملية الزراعية .

وإذا ما تأملنا حولنا نجد أن عمليات التجريف هذه (اى نزع اخصب واثمن ما فى المجتمع من موارد وطاقات) هى عمليات مستمرة فى جميع القطاعات والانشطة . فقد تم تجريف خيرة الكفاءات والمهارات والقيادات من شركات

القطاع العام ، ولم يبق هناك سوى أقلية صامدة . كما سحبت عمليات الهجرة الى الخليج فئات من امهر الحرفيين والصناع وعمال التشييد والبناء مما اثر على جودة الاداء فى العديد من الحرف والخدمات .. وانزوى اهل العلم والمعرفة والموهبة الحقة من علماء وكتاب ومهنيين الى دائرة الظل .

وهكذا اختلت الموازين واضطربت المفاضلات التاريخية ، وانقلب سلم الاولويات الاجتماعية فى وقت نحن فى امس الحاجة لوقف نزيف وهدر الموارد والطاقات ، واستنهاض العزائم والهمم . إننا نعلم ان هناك قوى متربصة بنا يسعدها ان يتم تجريف المجتمع المصرى حتى يعمل بربع طاقته وعافيته ، لانهم يعلمون ان هذا المجتمع لو عمل بكامل طاقته وعافيته ، دون هدر او مصادرة ، لانطلقت قوى الابداع والنهضة من عقالها وزلزلت موازين القوى فى المنطقة العربية ، وعلى الصعيد الدولى والاقليمى .

الفصل السادس عشر

حتى نخرج من دائرة ادمان القروض

تنشط الدولة المصرية هذه الأيام نشاطا واسعا ومكثفا لمحاولة تخفيض جانب هام من الديون التي تراكمت على عاتق الاقتصاد المصرى خلال الخمسة عشر عاما الماضية .

وليس هناك من شك أن تصاعد حجم الدين الخارجي المصرى مسألة تشكل مصدر قلق للدوائر الرسمية والشعبية على السواء ، لاسيما وأن الاعباء السنوية لخدمة الدين الخارجي تشكل عبئا ثقيلا على استخدامات حصيلة النقد الاجنبي المحدودة التي تتنافس عليها الواردات الغذائية وقطع الغيار والمعدات الراسمالية .. اللازمة لتسيير عجلة الحياة الاقتصادية اليومية وتسيير دولاب الانتاج .

وإذا كان الظرف الدولى قد غدا مناسبا لاسقاط جانب من الدين الخارجي المصرى ، وإعادة جدولة بقية الدين الخارجي على النحو الذى اسفرت عنه مفاوضات نادى باريس التى جرت فى نهاية شهر مايو ١٩٩١ ، فإن السؤال المستقبلى الهام والملح يظل : كيف يمكن أن نخرج من دائرة إدمان القروض ونتوقف عن عمليات «إحلال الديون القديمة بديون جديدة» ؟

والاجابة على هذا السؤال المصيرى ، الذى يعتبر من صميم «المسألة المصرية» اليوم ، يرتبط بمدى كفاءة استخدام القروض الخارجية لدفع عمليات النمو والتنمية فى مصر .. ومدى جدية وفعالية دور المشرع وأجهزة الرقابة والمساءلة الشعبية فى عمليات إبرام واستخدام القروض الخارجية .

حول كفاءة استخدام القروض الخارجية لاغراض النمو والتنمية .

حذر نفر هام من ثقاة الاقتصاديين فى مجال التخطيط والتنمية - وعلى رأسهم الاقتصادى النرويجى الكبير راجنر فريش (Ragnar Frisch) - الحائز على جائزة نوبل فى العلوم الاقتصادية واحد العلماء الذين ساهموا فى اعداد الخطة الخمسية الاولى للتنمية الاقتصادية فى مصر - من خطر الاقتراض من الخارج دون ضابط او رابط .. وأنه لابد من وضع سقوف (ceilings) على الحمولة القصوى للدين الاجنبى التى يمكن أن يتحملها اقتصاد معين ، وفقا لطاقته التصديرية ، وقدرته على خدمة الدين الخارجى دون أثار ومضاعفات سلبية على مسيرة النمو والتنمية .

ورغم التحذيرات الصادرة عن هذا النفر من العلماء فى بداية الستينات ، فقد اغرت شروط الاقتراض السهل والميٌسر خلال حقبة الستينات ، العديد من قادة بلدان العالم النامى على التوسع فى عمليات الاستدانة الخارجية بحجة توفير موارد تمويل إضافية تسمح بقفزة تنموية ، لا تسمح بها

المدخرات المحلية المحدودة . ورغم الكتابات العلمية النظرية التى حددت بعض الشروط التى تقرر نوعية المشروعات والبرامج التى يمكن تمويلها باسلوب الاقتراض الخارجى ، والتى يتولد عنها عائد سنوى (بالنقد الاجنبى) يفوق مقدار سعر الفائدة المدفوع على القرض الذى يتم به تمويل المشروع ، فان معظم بلدان العالم النامى - ومن بينها مصر - لم تتمسك بتطبيق هذا المعيار .. وتم الاقتراض فى احيان كثيرة لسد حاجات إستهلاكية عاجلة او لدعم ميزان مدفوعات متعثر ، أو لانشاء مشروعات للمظهرية والتفاخر والتى تدر عائدا تنمويا محدودا .

واذا انتقلنا لحالة مصر بالتحديد ، فرغم ان حجم الدين العام الخارجى قد تطور من ١ر٧ بليون دولار عام ١٩٧٠ الى نحو ٤٢ بليون دولار عند نهاية الثمانينات .. لا يوجد حتى الآن كشف حساب واضح يشير الى أوجه استخدام وانفاق تلك القروض الخارجية الجديدة ، وبالتالى تقييم مدى كفاءة استخدامها من منظور الانماء طويل الأجل . وبالتالى امكانية تخفيض عبء الديون فى المستقبل .

وقد امكن لنا اعداد بيان احصائى عن اسلوب التصرف فى القروض الخارجية التى حصلت عليها الحكومة المصرية حتى عام ١٩٨٥ ، والتى يبلغ حجمها نحو ٢٥ بليون دولار امريكى بخلاف - «الدين العسكرى» - (راجع الجدول المرفق) يعطى بعض المؤشرات حول نمط إنفاق جانب هام من القروض الخارجية التى تم الحصول عليها حتى منتصف الثمانينات ، فى ظل البيانات المتاحة لنا .

كشف حساب انفاق القروض الخارجية حتى عام ١٩٨٥

أوجه استخدام القروض	المبالغ المخصصة (بالمليون دولار)	التوزيع النسبي
الزراعة	٢٣٠	٩ر٠٪
استصلاح الاراضى	٢٧٤	١ر١٪
الرى	٣٢٢	٣ر١٪
الصناعة	٢٦٤١	٦ر١٠٪
البترول والثروة المعدنية	٤٦٨	٩ر١٪
الطاقة والكهرباء	١٧٢٩	٩ر٦٪
النقل والنقل البحرى	٧٥٩	٠ر٣٪
السكك الحديدية	٩٦٩	٩ر٣٪
الاتصالات السلكية واللاسلكية	٥٨٦	٣ر٢٪
استيراد السلع الغذائية	٥٧٦١	١ر٢٣٪
الخزانة	٩	٠٤ر٪
الاقتصاد والتجارة الخارجية	٢٧	١ر٪
الاسكان	١١٢٦	٥ر٤٪
الصحة	٢١٨	٩ر٠٪
التامين الاجتماعى	٧	٠٣ر٠٪
التعليم	٢٦	١ر٠٪
نافقات بحوث وتطوير (RSD)	١١٩	٥ر٠٪
العلاقات العامة *	١٤١	٦ر٠٪
السياحة	٣٢	١ر٠٪
الطيران المدنى	٢٠٣	٨ر٠٪
الانتاج الحربى	١٤٥	٦ر٠٪
المحليات	١٤٠	٦ر٠٪
قناة السويس	٧٨٠	١ر٣٪
البنوك والقطاع الخاص	٣٧٤٩	ـ ر١٥٪
قطاعات اخرى	٢٢٥	٩ر٠٪
التزامات عامة * *	٤٢٩٨	٢ر١٧٪
الجملة	٢٤٩٩٣	١٠٠

* يقصد «بالعلاقات العامة» : المنفق على الدعاية ، والاعلان ، والحفلات ، والاستقبالات والندوات .
** تشمل ، ضمن ما تشمل ، الدعم العاجل لميزان المدفوعات وغير ذلك من الالتزامات العامة .
المصدر : بيانات غير منشورة لوزارة التخطيط .

والمتأمل فى بيانات هذا الجدول ، يلاحظ ان الجانب الاعظم من المنفق من القروض الخارجية خلال تلك الفترة ، قد ذهب بالدرجة الأولى الى المجالات التالية :

مجال النشاط	النسبة المئوية من جملة القروض
(١) مشروعات البنية الاساسية (الطاقة / الكهرباء / النقل البحرى / السكك الحديدية / الاتصالات السلكية واللاسلكية	٢ر١٦٪
(٢) البنوك ومشروعات دعم القطاع الخاص	ـر١٥٪
(٣) قطاع الصناعة	٦ر١٠٪
(٤) مشروعات الزراعة واستصلاح الاراضى	٣ر٣٪
(٥) الخدمات الاجتماعية : إسكان/صحة/تعليم	٥ر٥٪

(٦) وفى مقابل ذلك ، استغرق استيراد السلع الغذائية نحو ٢٣٪ من إجمالى المنفق من القروض الخارجية .. نتيجة قصور اداء قطاع الزراعة فى مصر .

وإذا كان لنا من تعليق على هذا النمط لاستخدام وانفاق اموال القروض الخارجية ، فإننا نرى أن هذا النمط من

الاستخدام «غير صحى» ولا يسمح بالخروج من «دائرة القروض الاجنبية» . إذ أن الملاحظ أن نحو ربع هذه القروض (٢٣٪) قد استخدم لاستيراد سلع غذائية ، أى لمواجهة احتياجات استهلاكية عاجلة .. ولم تخصص لاستثمارات ذات اثار إنمائية بعيدة المدى . كذلك تم تخصيص ١٧٪ من أموال القروض لمواجهة التزامات عامة عاجلة للدولة المصرية ، وهى التزامات وإن كانت ضرورية .. فهى ليس لها عائد انمائى محدد . كذلك تم تخصيص ١٥٪ من أموال القروض لدعم البنوك ومشروعات القطاع الخاص مقابل تخصيص ٥ر٠٪ فقط من اموال القروض (١١٩ مليون دولار) لنفقات البحث والتطوير (ROD) وهى النفقات التى لها اهمية مؤسسية كبرى فى عملية رفع الانتاجية وتطوير الأداء الانمائى ورفع القدرة التنافسية للصادرات ، مقابل ١٤١ مليون جنيه للمنفق على العلاقات العامة (٦ر٠ من جملة أموال القروض) .

فى المقابل ، نجد أن ما تم تخصيصه لمشروعات البنية الاساسية والمرافق ـ والتى لها اهمية اقتصادية كبرى ـ لم

يتجاوز ١٦٪ من جملة أموال القروض ، وهى مشروعات على أهميتها .. تظل مشروعات مساندة للبنية الانتاجية .. وعائدها التنموى يكون بطيئا ويعود على الاقتصاد القومى بشكل غير مباشر . أما ما تم تخصيصه للقطاعات السلعية الرئيسية (الزراعة والصناعة) ، فلم يتجاوز ١٤٪ من جملة المنفق من أموال القروض .. وهى مبالغ ضئيلة للغاية بالنسبة لحجم التحديات التى تواجه الاقتصاد المصرى ، فى مجال تطوير «القدرة التصديرية» لقطاع الصناعة .. وتحقيق درجة اعلى من الاكتفاء الذاتى من الحبوب الغذائية فى قطاع الزراعة ، للتخفيف من نزيف العملة الصعبة المنفق على الواردات الغذائية خلال السنوات العشر الاخيرة .. الامر الذى يؤدى إلى تفاقم عجز ميزان المدفوعات وينتج عنه الاعتماد المتزايد على التمويل بالقروض الخارجية .

القروض الخارجية والديمقراطية والمحاسبة .

إن قضية القروض الخارجية ونمط انفاقها اخطر بكثير من أن تترك للمفاوضات والصفقات فى حجرات مغلقة . لانها تتعلق بمصائر الامم والشعوب . ويعتبر من صميم الممارسة الديمقراطية إحكام الرقابة الشعبية على القروض الخارجية فى كافة مراحلها :

(أ) مراحل التعاقد على القرض الخارجى .

(ب) مراحل استخدام القرض الخارجى .

(جـ) مراحل المتابعة الخاصة بسداد القرض وخدمة الدين الخارجى .

وفى تقديرى ، أنه يجب توجيه عناية خاصة لعملية ابرام القروض ، وحماية الاقتصاد القومى عند المنبع .. من خلال احكام رقابة مجلس الشعب (كهيئة تشريعية) على إبرام العقود ، وتدقيق نصوصها ، والتأكد من الاهداف الانمائية المخصصة لها أموال القروض . ففى احوال كثيرة ، صادق مجلس الشعب على اتفاقيات قروض أجنبية خطرة بناء على الترجمة العربية لاتفاقية القرض (وليس على النص الاصلى باللغة الاجنبية) ، والتى لم تكن فى بعض الأحوال ترجمة دقيقة . هذا بينما تكون الوثيقة التي يعتد بها الطرف المانح للقرض هي تلك الاتفاقية المصاغة باللغة الاجنبية ، مما ينتج عنه خلافات هامة فى المستقبل عند تفسير النصوص وعند نشوب المنازعات القانونية .

واود ان اتساءل ختاما ، أليس من حق وطننا علينا ان يصدر تشريعا ، يحرم التعاقد على قرض خارجى لا يخصص لأغراض إنمائية ، مضمونة العائد .. وتسمح بخدمة أعباء الدين على أساس منتظم ! وذلك حتى لا تتراكم الديون ، وتتفاقم أعباء خدمتها .. وندق ابواب جماعة الدائنين عاما بعد عام ، نسألهم الرحمة والشفقة بعباد الله المصريين .

الفصل السابع عشر :

التوازنات الاقتصادية والتوازنات الاجتماعية

أسرف فريق من الاقتصاديين فى بلادنا (وفى صندوق النقد الدولى) فى الحديث عن أهمية القضاء على الاختلالات الاقتصادية واعادة التوازنات الاقتصادية الاساسية (مثل توازن ميزان المدفوعات . توازن موازنة الدولة ، تقليص الفجوة بين المدخرات والاستثمارات ، تخفيض معدل التضخم ، ووقف تدهور سعر الصرف الخارجى للعملة المحلية) ، على اساس ان اعادة تلك «التوازنات الاقتصادية» يعتبر شرطا ضروريا وكافيا لاخراج الاقتصاد المصرى من عثرته ، ووضعه على المسار الصحيح .

وتلك ـ بلاشك ـ توازنات اقتصادية اساسية لابد من السعى والعمل الحثيث والجاد للوصول اليها ، ولا يجوز اغفالها تحت اى شعار أو مسمى ، ولكن اخشى ما اخشاه اننا اليوم فى سبيلنا للوقوع فى النقيض الاخر لما كان سائدا فى الستينات .. اى الاهتمام بالتوازنات الاقتصادية دون إعارة الاهتمام الكافى لتصحيح الاختلالات الاجتماعية .

والحقيقة ان مفاهيم «العدالة الاجتماعية» و«الأمن الاجتماعى» قد استقرت فى الضمير المصرى : وتسربت الى الخطاب الرسمى منذ منتصف الاربعينات . ويستطيع القارىء الرجوع الى البيان المقدم من وزير المالية حول «حالة الملكية

العقارية» الى مجلس النواب المصرى فى مايو ١٩٤٥ ، وكذا الرد على بيان وزير المالية بواسطة اعضاء مجلس النواب للتأكد من أن تلك المفاهيم قد غدت جزءا من القاموس السياسى المصرى قبل قدوم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ولا غرو في ذلك ، إذ أن الحديث عن «التوازنات الاجتماعية و«الامن الاجتماعي» ليس من قبيل الشعارات الطنانة والحذلقة الفكرية ، اذ ان تلك «التوازنات الاجتماعية» تشكل ضرورة موضوعية فى سعينا الحثيث لاقامة «التوازنات الاقتصادية» المنشودة والحفاظ عليها ، فأى خلل فى عناصر ومقومات العدالة الاجتماعية يعصف بدوره «بالتوازنات الاقتصادية» ذاتها .

ويمكن إيجاز أهم عناصر «التوازنات الاجتماعية» فى بلادنا على النحو التالى :

● **التوازن فى سوق العمل** : اى بين فرص العمل المتاحة وطالبى التوظف ، بما يؤدى الى تقليص حجم البطالة الكلى فى المجتمع ولدى كافة فئات ومراتب قوة العمل .

● **التوازن بين الدخول والاثمان** : وهو توازن اقتصادى - اجتماعى - فى آن واحد ، اذ انه فى حالة عدم حصول الافراد والاسر المعيشية على دخول كافية تقيم اود الناس وتفى بالحاجات الاساسية ، يصبح الاسلوب الوحيد لسد عجز «الميزانية الاسرية» هو الرشوة والفساد والتسول المهين للدخل الاضافى ، او الهجرة للخارج .

● التوازن بين الايجارات والدخول : إذ أن اى تشريع ينظم علاقة المالك بالمستأجر في الريف والمدينة يجب ان يراعي التوازنات الاقتصادية والاجتماعية في آن واحد . نعم لقد اسرف المشرع في حماية «التوازنات الاجتماعية» على حساب «التوازنات الاقتصادية» في هذا المجال ردحا طويلا من الزمن ، بيد ان تصحيح تلك العلاقة كما هو مطروح الآن يجب الا يتم فقط من المنظور الاقتصادي البحت . فمع تسليمنا بحصول مالك الارض في الريف ومالك العقار في المدينة على عائد اقتصادي غير مجز لا يتناسب مع عائد الاصول الاخرى ، فإن الامر يستوجب عند تحديد مستوى الايجارات النقدية مراعاة النسبة والتناسب بين قيم الايجار النقدي والدخل الدوري لاسرة المستاجر للأرض الزراعية أو للسكن في المدينة (على اساس شهري أو سنوي) .

خلاصة القول هنا ، ان شيوع الاختلالات الاجتماعية وتفاقمها يؤدي الى نتائج اقتصادية سلبية تؤثر بدورها على استقرار «التوازنات الاقتصادية» المنشودة . فعلى سبيل المثال ، ان الاختلال المتفاقم بين الدخول والاثمان يؤدي بدوره الى تعدد الوظائف وبالتالي ضعف الانتاجية في مواقع العمل الرئيسية مما ينتج عنه انهيار اخلاقيات العمل وروح الانضباط والاجادة في العمل ، وهذا يغذي بدوره الضغوط التضخمية ويضعف من القدرة التنافسية للاقتصاد المصري ، وبالمثل ، فإن انتشار البطالة (لاسيما في صفوف

المتعلمين) يؤدى إلى انتشار الجريمة الاقتصادية المنظمة بما لذلك من اثار سلبية على مجمل اداء الاقتصاد .

ورغم كل محاولات «التحرير الاقتصادى» واعادة الاعتبار «لآليات السوق» . فمازلنا نلحظ ان هناك حالة من الفوضى تعم اسواق السلع والخدمات فى الاقتصاد المصرى . كذلك يوجد قدر من الاضطراب وعدم الشفافية يكتنف العلاقات السعرية والاجرية فى الاقتصاد الوطنى ، مما يؤثر على التخصيص الرشيد للموارد وينعكس سلبيا على نظم الحوافز فى المجتمع ، الامر الذى يترتب عليه انتشار رقعة «الاقتصاد الموازى» كل يوم .

وفي تقديرى ، ان تحقيق قدر من الانضباط فى حياتنا الاقتصادية ، يستلزم وضع سياسة واضحة للدخول والاثمان يسهر عليها جهاز متخصص (يتبع رئاسة الجمهورية ، او رئاسة الوزراء ، او وزارة التخطيط) . ومثل هذه السياسة للدخول والاسعار لا تمثل عودة للاخذ باساليب التخطيط والتحكم المركزى ـ كما يحلو للبعض ان يتهمها ـ لانها سياسات معمول بها فى بلدان راسمالية عريقة مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا .

وإجمالا فان العناصر الرئيسية التى يمكن ان تكون موضع اهتمام ورعاية راسم السياسة الاقتصادية فى هذا المجال ، هى :

● العلاقات السعرية : بين مجموعات السلع والخدمات

الرئيسية ، او ما يسمى فى علم الاقتصاد هيكل الاثمان النسبية ، لكن يكون هناك قدر من التوازن والتناسب والاتساق بين اسعار السلع والخدمات .

● العلاقات الاجرية : أى هيكل الاجور النسبية بين الفئات المهارية المختلفة ، لتحقيق اكبر قدر من العدالة والمرونة فى نظم الدفع والحوافز عبر القطاعات وفروع النشاط المختلفة .

● العلاقات الايجارية : التى تنظم العلاقات الاقتصادية بين المالك والمستأجر فى الريف والمدينة .

وغنى عن القول ان تلك العلاقات خاضعة للحركة المستمرة فى عالم متغير ، وفى ظل اوضاع اقتصادية واجتماعية متحركة .. ولذا فان سياسة الدخول والاسعار المقترحة تعتبر عملية مستمرة مواكبة لحركة الاقتصاد والمجتمع حتى لا تتسم بالجمود والمكتبية ، وذلك فى اطار اوسع حوار ديمقراطى تشترك فيه كافة القوى الاجتماعية صاحبة المصلحة .

حول العلاقة بين المالك والمستاجر فى الاراضى الزراعية .

إن الدعوة الى تصحيح «العلاقات الايجارية» بين المالك والمستأجر فى الريف المصرى هى فى الاساس دعوة لصياغة علاقة متوازنة ومرنة تحكم المعاملات الاقتصادية والاجتماعية بين المالك والمستاجر ، بحيث «لايغبن المؤجر ـ المالك ولا يضار الفلاح ـ المستاجر» . وقد تركز التعديل فى

التشريع الجديد الذى ينظم العلاقة بين المالك والمستاجر على ثلاث قضايا :

أ ـ إعادة النظر في «الانصبة التوزيعية» لكل من المالك والمستاجر ، اى الحصة لكل منهما فى ناتج الارض ، بعد طول شكوى الملاك من انخفاض نصيبهم النسبى (الريع) من ناتج الارض الزراعية فى ظل ارتفاع اسعار الحاصلات .

ب ـ طول مدة عقد الايجار وأساليب انقضائه .

ج ـ مدى استمرارية توريث عقد الايجار لورثة الفلاح والمستاجر ، إذ تصاعدت شكوى الملاك من ان استمرار التوريث يؤدى الى غل يد المالك عن التصرف فى ارضه بالبيع او الزراعة على الذمة .

ونظرا لان تصحيح العلاقات الايجارية فى الاراضى الزراعية هي قضية لها اثار اقتصادية واجتماعية خطيرة على المستوى الكلى ، وليس على مستوى التحليل الجزئي ـ وكاننا بصدد شراء ، كيلو لحم أو بطاطس ـ فدعونا نتتبع بعض التداعيات الهامة لتطبيق القانون الجديد لتنظيم العلاقة بين المالك والمستاجر فى الاراضى الزراعية من وجهة نظر التنمية والعدل الاجتماعي .

اولا : حجم المشكلة :

تشير الاحصاءات المتاحة عن فترة الثمانينات الى ان هناك نحو مليون فدان من جملة الارض الزراعية (اى نحو ١٥٪) خاضع لنظام الايجار النقدي وبالمشاركة (منها ٨٧٩

الف فدان تزرع وفقا لنظام الايجار النقدى) ، يتعيش عليها نحو نصف مليون حائز (اى نحو خمس عدد الحائزين فى الريف المصرى) يقومون بإعالة نحو ٣ ملايين شخص . وهكذا يتضح ان التشريع الجديد يمس قسما هاما من سكان الريف المصرى ، ويؤثر على اوضاع الانتاج والحيازة فى ١٥٪ من الرقعة المزروعة .

ثانيا : التداعيات الاقتصادية على المستوى الكلى :

طالما سمح التشريع الجديد باسترجاع المالك للارض بعد انتهاء مدة عقد الايجار المحددة بخمس سنوات ، فقد اصبح الباب مفتوحا على مصراعيه ، للعديد من الاحتمالات :

أ ـ انكماش سوق الايجار وقيام العديد من الملاك بالزراعة على الذمة . وهنا يمكن للمالك أن التوسع فى عمليات الميكنة الزراعية واحلال الآلة محل اليد العاملة ، مما يؤدى الى قطع الارزاق وانتشار البطالة بين اعداد هامة من فئة الفلاحين المستأجرين سابقا . واذا تمت الميكنة على النحو المشار اليه ، سوف تنحدر الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية لعشرات الالاف من الفلاحين والمستأجرين الذين فقدوا حيازاتهم المستاجرة وانحدارهم الى مصاف الفلاحين الاجراء الذين لا يملكون سوى بيع قوة عملهم بشكل دائم او موسمى .

ب ـ إعادة التاجير وفقا لاحكام القانون الجديد . وهنا سوف نشهد تراجعا ملحوظا من نظلم الايجار النقدى ، الذى

يحقق للفلاح والمستاجر قدرا اكبر من الاستقلالية الاقتصادية ، والاجتماعية ، واحلال نظام المزارعة او المشاركة على المحصول الذى يحول الفلاح المشارك على المحصول الى فلاح شبه اجير خاضع لاشراف المالك ، مقابل حصة عينية فى المحصول .

ج - تنشيط حركة بيع الاراضى الزراعية التى كانت محبوسة عن التداول ردحا طويلا من الزمن ، مما يؤدى الى اعادة تخصيص هذه الاراضى المباعة الى استخدامات جديدة (زراعية وغير زراعية) مما يؤثر على مستوى الانتاج الزراعى والتركيب المحصولى للزراعة المصرية .

ثالثا : التطورات المتوقعة (للقيمة الايجارية) للارض الزراعية :

نظرا لمحدودية عرض الاراضى الزراعية بشكل عام (وفى سوق الايجار بشكل خاص) ، ومع استمرار والحاح الطلب عليها للعديد من العوامل التى يصعب تفصيلها فى هذا الحيز الضيق ، فان الاتجاه المستقبلى هو الارتفاع المستمر للقيمة الايجارية للارض الزراعية مما سيؤدى الى اضطراب جديد للنسبة والتناسب بين القيمة الايجارية والناتج الصافى للفدان . وبالتالى فان اطلاق اليات السوق فى مجال تأجير الاراضى الزراعية والاحالة الى احكام القانون المدنى فى المنازعات يتجاهل الخصوصيات الهيكلية لسوق تأجير الاراضى الزراعية فى مصر فى جانبى الطلب والعرض .

وكأننا بصدد الحديث عن سوق الطماطم او سوق المشروبات الغازية .

ولذا فان القبول بمبدأ تحريك الايجارات للاراضى الزراعية يستدعى تحديد الحصص النسبية العادلة لكل من المالك والمستأجر فى ضوء تطور القيمة الصافية لناتج الفدان بعد خصم التكاليف الخاصة بمستلزمات الانتاج .

رابعا : نحو فض الاشتباك بين المالك والمستاجر :

ان المقترح العملى الوحيد لفض الاشتباك بين مالك الارض الزراعية ومستاجرها على اسس دائمة وعادلة ـ كما تردد فى العديد من الكتابات الامينة والمخلصة ـ هو انشاء صندوق للاراضى الزراعية يلعب دور الوسيط المالى بين مالك الارض والفلاح ـ المستأجر ـ ويساهم فى عملية بيع الأرض للفلاح المستأجر الذى يفلحها فى حدود الحيازات التى لا تتجاوز خمسة افدنة ، من خلال نظام للدفع بالتقسيط يمتد لمدة عشرين عاما . ويقوم الصندوق بتسديد قيمة الارض (محسوبة على اساس ثلاثة ارباع القيمة السوقية للفدان) للمالك الاصلى فورا او على مدى عامين على الاكثر ، لكى يمكن له استغلال هذه الاموال واعادة استثمارها فى اصول اخرى تدر عليه دخلا مجزيا .

واذا كان خبراء صندوق النقد الدولى والبنك الدولى يلحون على ضرورة تصحيح العلاقة بين المالك والمستأجر . فى الريف المصرى (الموروثة عن الحقبة الناصرية) ، فانه من

واجب الحكومة والمفاوض المصرى ان يضغط بدوره على البنك والصندوق لتوفير قرض تمويلى كبير له «طبيعة دائرية» لكى يتم استخدامه فى تمويل عمليات صندوق الاراضى المقترح حماية للأمن الاجتماعى وتحقيق للاستقرار والتنمية .

الفصل الثامن عشر :

الكفاءة الاجتماعية والكفاءة المؤسسية .

أسرف فريق من الاقتصاديين فى بلادنا فى الحديث خلال السنوات الاخيرة عن الاهمية القصوى لاعتبارات «الكفاءة الاقتصادية» لنجاح برامج الاصلاح الاقتصادى ولدفع عمليات التطور الاقتصادى والتحديث فى الاقتصاد المصرى . ورغم قناعتى الشخصية باهمية الحديث والتركيز على اعتبارات «الكفاءة الاقتصادية» ، التى تم اهمالها وتجاوزها فى أحيان كثيرة وخلال سنوات طويلة سابقة ، فان هناك ضرورة للحديث عن صنوف اخرى من «الكفاءة» لا تقل أهميتها - بل أحيانا تفوق - اعتبارات «الكفاءة الاقتصادية» .. ويبدو أن الحديث عن تلك الصنوف الأخرى من «الكفاءة» ظل خافتا ، ان لم يكن معدوما ، فى العديد من الحوارات الوطنية الدائرة حول الخروج من «عنق الزجاجة» والانطلاق نحو آفاق تنموية كبرى .

عن «الكفاءة الاجتماعية»

مع انحسار موجة «الليبرالية الاقتصادية الجامحة» التى حكمت توجهات السياسة الاقتصادية فى البلدان الغربية المتقدمة خلال عقد الثمانينات ، ولاسيما فى ظل ما سمى

«التاتشرية» فى بريطانيا (نسبة الى مسز تاتشر) و«الريجانية الاقتصادية» فى الولايات المتحدة الامريكية (نسبة الى رونالد ريجان) ، بدأ الحديث يتصاعد ـ منذ بداية التسعينات ـ عن اهمية اعتبارات «الكفاءة الاجتماعية» (Social Efficiency) لمساندة وتغذية اجراءات رفع «الكفاءة الاقتصادية» .. وتعددت الكتابات فى هذا الاتجاه، ولعل ابرزها المؤلف الهام الحديث للكاتب الامريكى (Robert Heilbroner) عن «راسمالية القرن الواحد والعشرين» . حيث يشير الكاتب بوضوح الى خطورة اهدار اعتبارات «الكفاءة الاجتماعية» مما يؤدى الى سوء اداء النظام الاقتصادى والاجتماعى فى مجمله .

والمقصود «بالكفاءة الاجتماعية» هو أن ينجح النظام السياسى ومجمل السياسات الاقتصادية والاجتماعية المطبقة الى تحقيق درجة عالية (او معقولة) من العدل الاجتماعى وتكافؤ الفرص والتضامن والتلاحم الاجتماعى (Souial cohesion) . اذ ان السياسات الاقتصادية ـ مهما بلغت درجة كفاءتها فى المجال الاقتصادى البحت ـ ستفشل إذا لم تحقق النمو المتوازن والتقدم الاجتماعى والرفاه المادى لكافة فئات المجتمع (غنيها وفقيرها) . إذ أن مصادرة النمو والتقدم الاجتماعى لفئة لحساب فئة أخرى ، اولشرائح اجتماعية دون الاخرى ، هو الطريق للازمة الشاملة للمجتمع مهما تحسن اداء ميزان المدفوعات وتم خفض عجز موازنة الدولة كما ذكرنا .

وإذا كنا قد شهدنا انحسار «قوى اليسار» و«الاحزاب

الاشتراكية» ، كتعبير سياسى جامع عن المطالب والطموحات المرتبطة بتحقيق العدل الاجتماعى ، على الصعيد العالمى ، فليس معنى ذلك أن «السلام الاجتماعى» ، سوف يجىء تلقائيا او اتوماتيكيا . ولعل التطورات الاجتماعية الاخيرة فى فرنسا تشير الى ذلك بوضوح وبدون أدنى لبس . فبعد أن حققت القوى اليمينية والليبرالية انتصارا ساحقا ، وغير مسبوق ، فى الانتخابات التشريعية التى جرت فى اشهر مارس ١٩٩٣ ، لم يمض سوى ستة أشهر على تلك الانتخابات حتى بدأ خريف ساخن حافل بالاضطرابات والاعتصامات والحركات المطلبية الاجتماعية . إذ أن تعبير جماعة الناخبين عن عدم رضاهم عن برنامج او سلوك معين للاشتراكيين الفرنسيين ، لم يكن معناه انحلال واضمحلال المشاكل والصراعات الاجتماعية .. أو أنه كان بمثابة توقيع جماعة الناخبين «صكا على بياض» ، لكى تفعل بهم قوى السوق ما تشاء !

ومن هنا تجىء أهمية ادارة الصراعات الاجتماعية ، والتقليل من حجم الآثار الاجتماعية السلبية الناجمة عن برامج الاصلاح الاقتصادى التى ينتج عنها شروخ وتصدعات اجتماعية قد يصعب رأبها فى المستقبل . وعادة تقاس قوة الامم بدرجة «التماسك الاجتماعى» ، وليس بازدياد درجة «الانفصامات الاجتماعية» ، الامر الذى يستوجب الاهتمام الشديد من جانب راسم السياسة الاقتصادية باعتبارات «الكفاءة الاجتماعية» جنبا الى جنب مع اعتبارات «الكفاءة الاقتصادية» .

عن «الكفاءة المؤسسية»

فى تقديرى أن لا خير فى أية «كفاءة اقتصادية» ، على مستوى المشروع الخاص ، فى غياب ما يمكن تسميته «الكفاءة المؤسسية» على مستوى الاقتصاد الكلى والمجتمع .. وهذا امر يدركه جيدا رجال الاعمال الجادين فى الداخل والخارج .. إذ أن «الفساد المؤسسى» ، والتسيب المفرط الذى يتعايش مع القيود المفرطة ، يؤدى الى خلق ذلك «المناخ المؤسسى» الذى يفسد ويشوه ايه «كفاءة إقتصادية» على مستوى الوحدات الانتاجية والخدمية . ولعل حالة «الترهل المؤسسى» التى يعيشها مجتمعنا ، هو الذى دفع العديد من المحللين والخبراء للحديث عن ضرورة الاصلاح لمجمل النظام السياسى والادارى (systemic reform) حتى يمكن أن تتحقق «الكفاءة الاقتصادية» ، و«الكفاءة الاجتماعية» ، و«الكفاءة المؤسسية» فى آن واحد .

ولكى تتحقق «الكفاءة المؤسسية» لابد من تحقيق نوع من «التوازن المؤسسى» فى المجتمع ، من خلال خلق آليات وقنوات للتغيير والتجديد ، حتى لايصاب النظام السياسى والادارى بالجمود والتكلس . كذلك لابد من إشاعة مزيد من الديمقراطية والمحاسبة (accountability) ، لأنه فى غياب نوع من «المحاسبة» الدائمة والرادعة يستشرى الفساد المؤسسى وتستعصى الأزمة ويتم اجهاض كل اصلاح وتقدم ، ويزداد شقاء الامة .

خلاصة القول هنا ، ان التركيز المفرط على اعتبارات «الكفاءة الاقتصادية» (أو ما يسمى تجاوزا «التحرير الاقتصادى») ، لن يفتح الطريق أمام مزيد من النمو الاقتصادى والتقدم الاجتماعى والنهوض الحضارى ، فى ظل غياب كلا من «الكفاءة الاجتماعية» و«الكفاءة المؤسسية» فليس «بالكفاءة الاقتصادية» وحدها تحيا الشعوب وتنهض الامم .

الفصل التاسع عشر

حول التخصيصية في اقتصادنا المعاصر

منذ عام ١٩٨٩ ونحن نشهد بداية انتقال الدعوة الى «التخصيصية» من التبشير والترويج الفكرى (الخطاب التخصيصى) الى الفعل والممارسة في العديد من البلدان العربية ، على راسها مصر ، المغرب ، الجزائر ، تونس ، العراق . ورغم ان هناك تسليما عاما بضرورة التخفيف من حدة سيطرة اسلوب الادارة المركزية البيروقراطية للدولة بشكل عام ، فان الصراع على الصعيد الفكرى وفى الواقع العملى يدور حول مستقبل الدور الاقتصادى للدولة ، من حيث الرقعة والمدى والآليات خلال حقبة التسعينات .

وليس هناك شك فى ان هناك ازمة تتعلق باعادة تحديد وتخطيط دور ووزن الدولة فى الحياة الاقتصادية فى ضوء ازمة مالية الدولة ، من ناحية ، وفى ضوء بعض الاخفاقات الاقتصادية الناتجة عن ترهل الدولة ووحدات قطاع الاعمال العام ، من ناحية اخرى . كذلك هناك اشكالية ذلك الفيض الهائل من المدخرات السائلة لدى القطاع العائلى والخاص ، التى يتم اعادة تدويرها الى الخارج ، وتستخدم فى الداخل لتمويل انشطة تجارية ومضاربة قصيرة الاجل ذات عائد انمائى محدود . تلك الاموال التى مازالت هائمة على وجهها

تبحث عن قنوات استثمارية منتجة داخل الوطن مضمونة العائد وتتمتع بالحماية القانونية والضمانات اللازمة ، وكانت فى الماضى ضحية وفريسة سهلة لشركات توظيف الاموال . ويتضح من العديد من الدراسات العلمية الرصينة ، ان مشاكل وحدات القطاع العام تعود الى الادارة الاقتصادية فى ظل بيئة ومناخ اقتصادى يتسم بالجمود والتسيب فى آن واحد . ولقد لخص التقرير الاستراتيجى العربى لعام ١٩٨٩ ، أهم مؤشرات القصور فى الاداء على النحو التالى :

١ ـ انخفاض وضعف ربحية المشروعات العامة .

٢ ـ قصور هياكل التمويل الراسمالى والجارى .

٣ ـ ضعف اساليب المحاسبة والضبط المالى .

٤ ـ ضعف روح المبادرة وجمود الهياكل التنظيمية والادارية .

٥ ـ ضعف «حوافز الاداء» وبالتالى انخفاض جودة السلع وكفاءة الخدمة .

٦ ـ قصور عمليات التحديث التكنولوجى .

٧ ـ ضعف الطاقة التصديرية .

٨ ـ ارتفاع حجم العمالة الزائدة ، وضعف انتاجية العمل .

٩ ـ شيوع الطاقات العاملة .

١٠ ـ ضعف الحساسية لطلب المستهلكين وتراكم المخزون من السلع تامة الصنع .

بيد أن حل هذه المشاكل على تعددها ، لا ينبع من كون هذا القطاع «قطاعا مملوكا للدولة» ولكنها مشاكل تنبع فى

تقديرنا من محاولة تسيير وادارة وحدات القطاع العام باساليب غير اقتصادية ، كما يرجع ذلك لقصور النموذج المعمول به في ادارة الاقتصاد القومي عموما . ذلك «النموذج» الذى يتسم بالجمود والتسيب فى آن واحد ، ويستخدم خليطا غير متجانس من الأوامر والادوات الاقتصادية ، ناهيك عن الفساد وتبديد المال العام فى ظل غياب الديمقراطية وسبل المحاسبة والمساءلة .

باختصار ، انها ازمة تتعلق بادارة التنمية عموما ، وقد لا تنجو منها تماما وحدات قطاع الاعمال الخاص ، حيث نجد ذات المشاكل المشتركة فى مجال : قصور الهياكل التمويلية ، ضعف الطاقة التصديرية ، شيوع الطاقات العاطلة ، ضعف الربحية (بفرض عدم وجود سياسة تسعيرية احتكارية أو استغلالية مثل تلك القائمة على المغالاة السعرية من خلال التمييز بواسطة العلامات التجارية) .

كما يلاحظ المتابع للأمور قدرا كبيرا من الالتباس حول القضايا التى يجرى عادة النقاش حولها ، وأهمها :

١ ـ الخلط بين العودة الى «اليات السوق» ، من ناحية ، وبين التحول نحو «اقتصاد سوق» بالمعنى التقليدى ، من ناحية اخرى ، فهناك اكثر من نموذج مطروح «لاقتصاد سوق» ، فى ظل انماط من «الراسمالية الموجهة» مثل اقتصاد السوق الاجتماعية الموجه فى المانيا ، وهناك اقتصاد «السوق الاشتراكية» ، الذى مازال تحت التجريب فى اعقاب فشل

تجربة التخطيط المركزى فى بلدان اوروبا الشرقية .

٢ ـ الخلط بين ضرورة «التخصيصية»لوحدات قطاع الاعمال القائمة فعلا ، وبين «التخصيصية» كاسلوب لتعبئة مدخرات القطاع العائلى وقطاع الاعمال الخاص القابلة للاستثمار ، اى الخلط بين ما هو «قائم» وبين ما هو «قادم» ، فسياسات التخصيصية قد تلعب دورا هاما فى تعبئة المدخرات السائلة الحرة (غير المربوطة فى مشروعات انتاجية) ، حيث يمكن تعبئتها فى قنوات استثمارية تحقق قدرا كبيرا من الكفاءة الاقتصادية دون ان تستخدم هذه الاموال بالضرورة لشراء وحدات قائمة لقطاع الاعمال ، وبالتالى لا تضيف كثيرا الى عملية التنمية وتوسيع الطاقات الانتاجية .

٣ ـ الخلط بين اعتبارات «الرفاه الخاص» القائمة على الربحية والكفاءة فى الاجل القصير ، وبين اعتبارات «الرفاه العام» في الاجل الطويل حيث هناك مكاسب انمائية يصعب ترجمتها فى شكل مكاسب مالية . وهذا يرتبط بدوره بالمرحلة التي يمر بها المجتمع ، من حيث درجة تطور بنيته الاقتصادية وقواه الانتاجية ، ودرجة تطور اسواق المال والاوعية الادخارية ومدى تبلور طبقة من المنظمين ورجال الاعمال

المحليين ، والا فان «العملية التخصيصية» قد ينتج عنها انقضاض لراس المال الاجنبي وللشركات دولية النشاط على الاصول الانتاجية الخاصة بقطاع الاعمال العام ، وتحويلها لملكية راس المال الاجنبى ، ونزح الفائض الاقتصادى فى

شكل ارباح محولة للخارج ، وبالتالى تقويض الاسس التمويلية لعملية التراكم داخل الاقتصاد الوطنى . وهكذا قد نجد انفسنا من حيث لا نقصد لا نتجه نحو «التحرير الاقتصادى» .. بل نحو «التدويل الاقتصادى» .

٤ ـ عدم وضوح الرؤية فى معظم الكتابات لطبيعة علاقات التنافس او (المزاحمة) ، من ناحية ، وعلاقات التكامل والتعايش بين وحدات القطاع العام ومنشآت القطاع الخاص ، من ناحية اخرى . ففى حالات كثيرة نجد ان نشاطات القطاع الخاص فى مجال التجارة والمقاولات والاستثمارات تقوم على اساس (التربح) من عقود وانشطة القطاع العام كما هو الحال فى العديد من بلدان العالم الثالث التى يوجد لديها قطاع عام كبير وقوى .

ولذا ، فان المفاضلة الصحيحة فى تقديرنا يجب ألا تدور حول المفاضلة بين العام والخاص فى فراغ وتجريد ، بل بين «البيروقراطية الفاشلة والفاسدة» من ناحية ، وبين الادارة العامة الناجحة والكفؤة ، من ناحية اخرى . وبين «رأس المال الخاص الطفيلى ، من ناحية ، ورأس المال الخاص المنتج ذى الرؤية التنموية ، من ناحية اخرى . إذ أن مصدر كل الشرور فى مسيرة الاقتصاد المصرى منذ منتصف السبعينات وحتى الآن يكمن فى ذلك الحلف غير المعلن القائم بين «البيروقراطية الفاسدة» فى كواليس الحكومة وقطاع الاعمال العام ، من ناحية ، وبين الراسمالية الطفيلية التى توجد بقوة بين اعطاف قطاع الاعمال الخاص ، من ناحية أخرى .

الفصل العشرون :

الأزمة القادمة للطبقة الوسطى في مصر !

طرحت المقالات التى نشرت فى مجلة الهلال خلال الفترة : ٨٩ ـ ١٩٩٠ ، قضايا تعريفية هامة متعلقة بحجم والعناصر المكونة للطبقة الوسطى فى مصر ، عبر المراحل والازمنة التاريخية المختلفة ، وكذا مشاكل النمو الكمى والتغير الذى يرافقه فى الخصائص الاقتصادية ـ الاجتماعية .. والانعكاسات السياسية لكل ذلك .

كذلك تناولت هذه المجموعة الهامة من المقالات مسائل متعلقة بأزمة الطبقة وهمومها الراهنة ودورها المستقبلى فى المجتمع المصرى . ويمثل هذا الفصل مساهمة متواضعة فى هذا النقاش ، لكى يمتد الحوار وتتسع دائرته من ناحية ، ولاستجلاء بعض نواحى الغموض فى الصورة المرسومة للطبقة الوسطى ومشاكلها .

المشاكل الحدودية بين الطبقات .

لعل المشكلة الأولى التى تواجه الباحث فى هذا المجال هى رسم (أوترسيم) الحدود بين الفئات الاقتصادية الاجتماعية المختلفة ، لكى نعرف : «اين تبدأ طبقة وأين تنتهى أخرى؟» . ومن الواضح ان هذه المسألة لها شقان :

أ ـ شق منهجي ، يتعلق بطبيعة المعايير التي يتم الاستناد اليها للتصنيف والتدريج الطبقي ، بين طبقة عليا ، ووسطى ، ودنيا . اذ لم يعد من الممكن اجراء التصنيف والتدريج الطبيعي هذه بالاستناد الى معيار وحيد مثل : الدخل والثروة ، مستوى التعليم ، المكانة الاجتماعية ، والسياسية (الحسب والنسب) والممارسات الثقافية والسلوكية ، بل عدنا في حاجة الى معيار مركب يشمل كل هذه الخصائص ، والا غدا تحليلنا وتصنيفنا منقوصا ووحيد الجانب .

(ب) شق احصائي ، يتعلق بتوافر ودرجة الثقة في البيانات المتاحة حول احجام الفئات الاقتصادية ـ الاجتماعية المختلفة عن نقطة زمنية معينة .. فعادة ما تجيء البيانات الاحصائية (وافضلها بيانات تعدادات السكان) في شكل تصنيف لفئات مهنية غير ملائمة لاغراض التصنيف الطبقي ، ووفقا لمعايير مركبة (ذات اكثر من متغير) على النحو السابق بيانه .. الامر الذي يحتاج لعمليات اعادة تصنيف وملاءمة شاقة حتى نصل الى صورة تقريبية للاوضاع والمواقع الطبقية .

ولذا فإنه رغم بساطة التصنيف الثلاثي المعتاد للاسر والافراد في المجتمع الى : طبقة عليا ، وطبقة وسطى ، وطبقة دنيا ، تظل المشاكل المنهجية والاحصائية مشاكل شائكة حتى يمكن الوصول الى رسم خريطة طبقية يعتد بها في التحليل والنقاش العام . وفي ظل احسن الاحوال تفاؤلا ، ومهما كان حجم نجاحنا في حل تلك المشاكل المنهجية

والاحصائية ، تظل هناك بالضرورة مشاكل ما يسمى «بالاشرطة الحدودية» ، بين الطبقات (اى تلك «المناطق الرمادية» (grey zones) التى تحتمل التصنيف هناك او هناك) . وهى «اشرطة» قد تضيق او تتسع حسب الظرف التاريخى والاجتماعى ، ودرجة «السيولة» و«الحراك» الطبقى السائدة فى مرحلة تاريخية معينة . ومن هنا ينشأ المفهوم «الضيق» والمفهوم «الواسع» للطبقة ، وبالتالى تختلف الاوزان النسبية لكل طبقة فى اطار الخريطة الطبقية العامة للمجتمع .

حول نمو واتساع مراتب الطبقة الوسطى فى مصر .

واذا كنا بصدد تحليل عملية نمو واتساع مراتب الطبقة الوسطى ، فى مجتمع مثل مجتمعنا ، فيمكن ان نتخذ الوحدة الاساسية لنا فى التحليل «عدد الاسر» وليس «عدد الافراد» حتى لا تضطرب معايير القياس ، باعتبار ان «الاسرة هى الوحدة الدخلية وبؤرة النشاط الاقتصادى والاجتماعى والثقافى» .

ويرى الدكتور جلال امين فى مقاله المنشور بمجلة الهلال ، اغسطس ١٩٩١ ، ان «حجم الدخل والثروة هو اكثر المعايير ملاءمة لتصنيف المجتمع الى الطبقات الثلاث ، مع عدم تعليق اهمية كبيرة على طبيعة المصادر التى ياتى منها الدخل ، على اساس ان المجتمع المصرى هو اقل اهتماما الان ، بالسؤال عن مصدر الدخل والثروة» . واجدنى مختلف مع الدكتور جلال امين حول عدم الاعتداد بالسؤال عن مصدر الدخل او الثروة ، عند اجراء عملية التصنيف والتحليل

الطبقى فى ظروف مجتمع مثل مجتمعنا . فرغم أن بعض الاقتصاديين الفرنسيين يقول بان «النقود ليس لها رائحة» ، فانه يوجد فى مصر الآن نوعان من الدخل :

ا - الدخل الدورى القابل للتجدد (renewabee income) ، المرتبط بانشطة اقتصادية لها صفة الدورية والديمومة مثل : الأنشطة الزراعية ، الصناعية ، التجارية ، والخدمية .

(ب) الدخل الطارىء او الاستثنائى (yransifory income) القائم على الصدفة ، الشطارة ، المضاربة ، العمولة ، الصفقة غير المتكرره ، الخ ، وهى دخول استثنائية وطارئة تتولد من خلال مجالات «التداول» وليس من خلال عمليات «الانتاج المتجدد» .

ولذا فان الفئات التى قفزت الى مواقع الطبقة الوسطى ، من حيث حجم الدخل ، من خلال الحصول على دخل طارىء واستثنائى ، (دون ان يتحول الى ثروة مادية دائمة ومولدة للدخل) ، هى فئات ذات وضع مؤقت فى اطار الطبقة الوسطى .. قد يمتد لحقبة من الزمان ، وليس لجيل كامل . ولدينا سابقة تاريخية فى مصر فى هذا الصدد ، وهى ظاهرة «القرنص» اثناء الحرب العالمية الثانية ، وما نتج عنها من دخول استثنائية وبعض السيولة الطبقية المؤقتة . .. لم يكتب لها الدوام والاستمرارية ، لانها بينت على ظروف استثنائية ومؤقتة .

وهكذا فان تحديد معالم «الخريطة الطبقية» وفقا لمعيار الدخل دون السؤال عن المصدر ، يتوقف على ما اذا كنا

بصدد اخذ «صورة فوتوغرافية» للمجتمع عند لحظة زمنية معينة ... ام اننا نحاول استشفاف عناصر هذه الخريطة من منظور مستقبلي ديناميكي ، بمعنى هل هذه الخريطة الطبقية التي نرسمها ذات معالم ثابتة ومستقرة نسبيا ؟ ام انها تعبر عن «اوضاع خاصة» ذات طبيعة مؤقتة ؟

ويرتبط بذلك اعتماد «نمط الاستهلاك السائد» ، او نوعية ملكية السلع المعمرة ، كمعيار يسترشد به لترسيم الحدود الفاصلة بين الطبقات والشرائح الاجتماعية المختلفة . فقد تنجح اسرة من الاسر في تحقيق دخل استثنائي (غير قابل للتكرار) ، من خلال عمليات الهجرة للخليج مثلا ، تساعدها على اقتناء اغلى السلع المعمرة . من سيارة خاصة ، فيديو ، اجهزة تكييف ، ولكن قد تعجز في المستقبل عن تدبير نفقات تشغيل وصيانة تلك الاجهزة المعمرة .. مصدر المكانة والوجاهة الاجتماعية التي تؤهل للدخول في مصاف «الطبقة الوسطى» ، عند لحظة زمنية معينة .

وفي ضوء ما تقدم ، اود أبداء بعض التحفظات على الرقم الذى تقدم به الدكتور جلال امين حول الحجم المطلق والنسبي «للطبقة الوسطى» في اطار الخريطة الطبقية للمجتمع المصرى في النصف الثاني من الثمانينات .. فلقد قدر الدكتور جلال امين هذا الحجم بنحو ٢٥ مليون شخص ، اى نحو ٤٥٪ من السكان ، واعتقد أن هذا الرقم متحيز لأعلى ، لانه يشمل النمو الطفرى والمؤقت في الدخول عند لحظة تاريخية معينة .. وليس له صفة الدوام والاستقرار .

كذلك اذا ما اتفقنا مع الدكتور جلال امين على مستويات الدخل الشهرى للاسرة التى تناظر الاوضاع الطبقية : الحد الفاصل من الطبقة الدنيا والطبقة الوسطى هو الحصول على دخل قدرة ثلاثمائة جنيه شهريا ، وان الحد الفاصل بين «الطبقة الوسطى» و«الطبقة العليا» هو الحصول على دخل شهرى للأسرة قدرة عشرة الاف جنيه (شاملا المزايا العينية) ، تظل الصورة شديدة العمومية وينقصها العديد من التفاصيل الهامة . فمن المعرف ان «الطبقة الوسطى» - إن صح إلتعبير - تنقسم الى مراتب وشرائح دخلية ، وانه من الضرورى التميز بين ثلاث شرائح :

ا) الشرائح العليا من الطبقة الوسطى ، وهى أقرب ما تكون فى طموحاتها ونظام قيمها وانماط معيشتها من «الطبقة العليا» .

(ب) الشرائح الوسطى من الطبقة الوسطى ، وهى ما يمكن اعتبارها «الوعاء الحقيقى» للطبقة الوسطى بالمعنى الضيق .

(جـ) الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى ، وهى أقرب ما تكون فى نظام قيمها وانماط معيشتها من الفئات الدنيا .

إن مثل هذا التصنيف الداخلى لمراتب وشرائح الطبقة الوسطى المصرية ، يعتبر ضروريا للغاية . واذا اعتمدنا معيار الدخل لبساطته ، ، وبدون اخلال كبير للحدود الدخلية الفاصلة التى جاءت ضمن تحليل الدكتور جلال امين ، يمكن تركيب الصورة التالية للتناظر بين الاوضاع الطبقية والاوضاع الدخلية .

متوسط الدخل الشهرى : لاسرة مكونة من زوج وزوجة وطفلين

الشريحة الطبقية
١ ـ الطبقات الدنيا ٣٠٠ جنيه فى الشهر
٢ ـ الطبقة الوسطى "
أ ـ الشرائح الدنيا ٣٠٠ ـ ٩٠٠ جنيه فى الشهر
ب ـ الشرائح الوسطى ١٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ جنيه فى الشهر
هـ ـ الشرائح العليا ٣٠٠٠-عشرة الاف جنيه في الشهر
٣ ـ الطبقة العليا اكثر من عشرة الاف جنيه في الشهر

واذا ما انتقلنا الى بعض الاحصاءات الواردة فى تعداد ١٩٨٦ للسكان فى مصر ، يمكن أن نلقى مزيداً من الضوء على بعض المؤشرات الهامة ذات الدلالة ، لعلنا نصل لتقدير أخر لحجم «الطبقة الوسطى» فى مصر فى النصف الثانى للثمانينات ، من منظور آخر (راجع الشكل «٢») . وفيمايلى بعض المؤشرات :

(أ) عدد الذين يملكون اكثر من شقة او فيلا باكملها يمثلون نحو ٢٪ من جملة الاسر فى الجمهورية ، مقابل ٢٢٪ من جملة اسر المناطق الحضرية يعيشون فى غرفة او اكثر بوحدة سكنية ، او فى عشة أو خيمة .

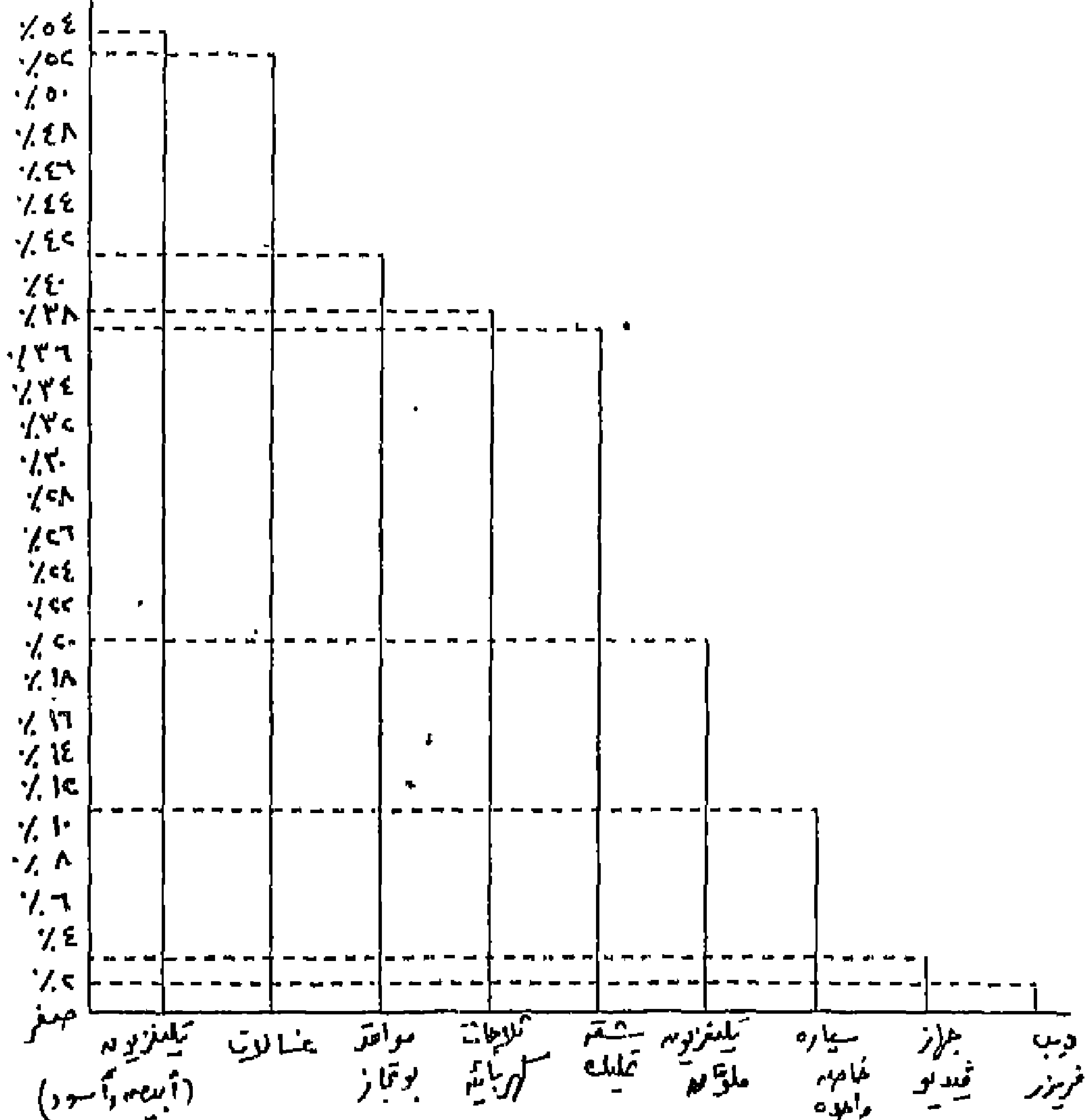
ب) عدد الاسر التى تمتلك تليفزيون ملون نحو ٢ مليون اسرة (اى نحو ٢٠٪ من جملة الاسر فى الجمهورية) ، مقابل نحو ربع مليون اسرة (اى ٣٪ من جملة الاسر) يتملكون ديب فريز / وجهاز فيديو .

(جـ) عدد الاسر التى تمتلك غسالة كهربائية وتليفزيون ابيض واسود فى حدود ٥٠٪ من جملة اسر الجمهورية ، مقابل ٣٨٪ فقط من الاسر تمتلك ثلاجة كهربائية

د) عدد الاسر التى تمتلك سيارة واحدة نحو مليون اسرة (اى ١١٪ من جملة اسر الجمهورية) ، مقابل ٨٨٪ من الاسر لا تمتلك سيارة . فى هذا الوقت الذى كان هناك نحو ٦٠ الف اسرة تمتلك سيارتين او ثلاث سيارات (نحو ٦ر٠ من جملة الاسر) .

(هـ) بلغ عدد الاسر الحائزة على مسكن «تمليك» نحو ٤ر٣٧٪ فى مجمل المناطق الحضرية مقابل ٢٢٪ فى محافظة القاهرة و ٢٥٪ فى محافظة الاسكندرية ، حيث ان العبرة فى مساكن التمليك بالمناطق الحضرية .. لان «مساكن التمليك» تعتبر هى النمط السائد تاريخيا فى المناطق الريفية ، والايجار هو الاستثناء .

التوزيع النسبي لحيازات الاسر المصرية من السلع المعمرة (١٩٨٦)



★ النسبة هنا قاصرة على المناطق الحضرية فقط

المصدر : الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ، التعداد العام للسكان لعام ١٩٨٦ ، المجلد الأول ـ الجزء الثاني ـ الظروف السكنية (القاهرة : يناير ١٩٩٠) .

نهاية «مساتير الناس» !

تعبير «مساتير الناس» هو تعبير جاء فى تاريخ الجبرتى ، ويقصد به ذلك الفريق من الناس الذين تعتبر احوالهم المعيشية والمالية مستورة بشكل عام ، ولكن ليست بالضرورة ميسورة . واذا ما ترجمنا فئة «مساتير الناس» ، بلغة الجبرتى ، الى مصطلح جديد بلغة العصر الحالى . نجد ان المقصود به اليوم هم «ابناء الطبقة الوسطى» . الذين تعتبر احوالهم المعيشية وسطا بين «افراط» و«تقتير» .

والمتامل فى التاريخ المصرى الحديث منذ بداية هذا القرن ، يكتشف ان تلك الطبقة الوسطى - على تنوع فئاتها ومراتبها - قد شكلت العمود الفقرى لحركة المجتمع المصرى السياسية والفكرية منذ ثورة ١٩١٩ ، ومرورا بثورة ١٩٥٢ وحتى الآن ، فلقد شكلت تلك «الفئات الوسطى» الوعاء الرئيسى للحركة السياسية والتنظيمات الحزبية المصرية ، والنقابات المهنية ، ومن بين صفوفها انحدر اهم المفكرين والكتاب والفنانين : طه حسين ، وعباس العقاد ، واحمد امين ، وتوفيق الحكيم ، ومحمد مندور ، ولويس عوض ، محمد حسنين هيكل ، واحمد بهاء الدين ، والاف اخرين .

وهى ذات الفئات التى ملأت «الشارع السياسى» جلبة وضجيجا منذ عام ١٩١٩ وحتى الآن ، بما نالته من حظ طيب فى التعليم والوعى السياسى وما تتمتع من وقت فراغ يسمح بالحركة والحضور السياسى والحيوية الفكرية .

ولكن الاوضاع الاقتصادية والاحوال المالية والمعيشية لتلك «الطبقة الوسطى» اخذت تترنح بشدة عند منتصف الثمانينيات ، فرغم الغلاء والتضخم ، فقد نجحت فئات عديدة تنتمى الى «الطبقة الوسطى» من التنفيس عن أزمتها الاقتصادية من خلال عمليات الهجرة الواسعة النطاق الى بلدان الخليج منذ منتصف السبعينات .. وحتى منتصف الثمانينيات .

كذلك اذا عدنا قليلا الى الوراء نجد ان الجانب الاكبر من مكاسب الخمسينيات والستينيات ذهبت . فى معظمها الى ابناء تلك الطبقة ، لاسيما : مجانية التعليم ، والاصلاح الزراعى ، وتثبيت الاسعار ، وتعيين الخريجين ، وتوسع رقعة القطاع العام . ثم جاء الانفتاح وموسم الهجرة الى الخليج ليحدث بعض الانتعاش المؤقت فى الاحوال المالية والمعيشية لتلك الطبقة التى اخذت تصارع «غول التضخم والغلاء» قبل ان يصرعها .

واليوم بعد ان اوشك «موسم الهجرة الى الخليج» على الانتهاء ، وتضاءلت الامال المعلقة على الحصول على عقد عمل فى الخارج ، ليكون بمثابة جواز المرور للخلاص من الاوضاع المتردية للطبقة الوسطى فى المجتمع ، فان الطبقة المتوسطة هى المرشحة لان تكتوى اكثر من غيرها ، بنيران التضخم نظرا لطبيعة نمطها الاستهلاكى وضيق ذات يدها . فمع ارتفاع تكلفة الدروس الخصوصية . ونفقات تعليم الابناء عموما ، وارتفاع تكاليف البنزين وتكلفة المواصلات ، وارتفاع

اسعار وشرائح استهلاك الكهرباء . يصبح من الصعب على عناصر الطبقة الوسطى الحفاظ على المستوى المعيشى الذى تمتعت به خلال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات .

ففى ظل التطورات الاقتصادية الجديدة .. أخشى ان يتحول العديد من عناصر الطبقة الوسطى من مصاف «مساتير الناس» الى مصاف «مسحوقى الدخل» . وسوف يكون لذلك انعكاسات مستقبلية هامة على حركة المجتمع والسياسة فى مصر .

الفهرس

الهلال

المجلة الثقافية الأولى
فى مصر والعالم العربى
إقرأ فى عدد مارس ١٩٩٥

(عدد ممتاز)

تجربتنا تقول : إذا أرادت مصر فعلت — د. عزيز صدقى
التجربة اليابانية — د. شكرى عياد
نحن والهوية الوطنية — د. مصطفى سويف
محنة الكاتب المؤرخ جلال الدين السيوطى — مصطفى نبيل

أدب النساء - جزء خاص

ماذا تريد المرأة بالضبط؟ — د. أحمد أبو زيد
الإبداع الروائى للمرأة المصرية — إبراهيم فتحى
وإقرأ شهادات لمبدعات القصة فى مصر :
د. رضوى عاشور - سلوى بكر - اعتدال عثمان - فوزية مهران - عائشة أبو النور

واقرأ الباب الجديد من الهلال الى الهلال

تلتقى فيه بـ . المسرح - السينما - الموسيقى والغناء - الكتب - التليفزيون - الفن الجميل - الفولكور
ويشارك فى كتاباته نخبة من ألمع الكتاب الشباب .

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

الثمن ١٥٠ قرشا

رقم الايداع
٩٥/٢٩٢٩
I.S.B.N
977 - 07 - 0380 - X

هذا الكتاب

في بلادنا قلق كبير حول المستقبل !

ماذا ياترى سوف يحمل هذا المستقبل من تطورات كونية وتداعيات إقليمية وانعكاسات على مستقبل مصر الاقتصادى والسياسى ؟ وماذا سوف يحمل هذا المستقبل فى طياته من فرص ومخاطر ؟ وكيف يمكن لمصر الملاحة فى بحاره الصعبة ووسط أمواجه المتلاطمة .

- هذه بعض الأسئلة التى تناولها الكتاب بالمناقشة والتحليل فى محاولة لاستكشاف آفاق المستقبل ، ودروبه الصعبة ، وكيف يمكن التفاوض المستمر مع المستقبل ويؤكد الكتاب فى ثناياه علي أن هناك دائما عدة مستقبلات بديلة «أو محتملة» وانه ليس هناك مسارات جبرية أو وحيدة .

إذ أنه بقدر الاعتراف بأن هناك جزءاً «مهماً» بفعل موروثات الماضي وأثقاله ، فانه بالقطع هناك جزء «حر طليق» قابل للتشكيل وفقا للارادة الوطنية الحرة .

إن هذا الكتاب يطرح جدول أعمال لهموم وقضايا المستقبل فى مصر فى مجالات الفكر والسياسة والاقتصاد .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

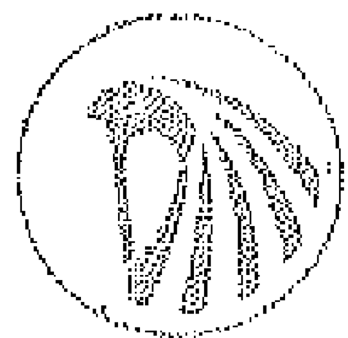
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت · السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N

أهلاً بكم فى عالمنا



مصر للطيران

يوميات عبقري

بقلم: سلفادور دالى • ترجمة: أحمد عمر شاهين





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No-532- AP-1995

العدد ٥٣٢ ـ ذو القعدة ـ أبريل ١٩٩٥

FAX 3625469 فاكس

اسعار بيع العدد فئة ٣٥٠ قرشاً

سوريا ١١٠ ليرات ـ لبنان ٦٥٠٠ ليرة ـ الاردن ٢٧٠٠ فلس ـ الكويت ١٧٥٠ فلسا ـ السعودية ١٥ ريالا ـ تونس ٢,٥٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠, ـ درهما ـ البحرين ١,٥٠٠ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ دبى / أبو ظبى ١٥, درهما ـ سلطنة عمان ـ ١,٥٠٠ ريال ـ غزة / الضفة / القدس ـ ٢, دولار ـ المملكة المتحدة ـ ٢, جك .

يوميات عبقرى

بقلم :
سلفادور دالى

ترجمة :
أحمد عمر شاهين

دار الهلال

الغلاف للفنـــــان

حلمى التـــــونى

هذه ترجمة لكتاب :

Diary of AGenius

An autobiography

By : SALVADOR DALI

Picador Books,

G.B.1976

تقـــديم

ظل «دالى» سنوات عديدة يحدثنا عن يومياته التى اعتاد كتابتها ، وحين قرر أن ينشرها فكر أن يطلق عليها فى البداية «حياتى السرية» ، لتكون تابعا لكتابه الذى سبق له أن أصدره «حياة سلفادور دالى السرية» لكنه اختار أن يسميها «يوميات عبقرى» أحد العناوين الاكثر ملاءمة ، التى زين بها أولى الكراسات التى استخدمها لكتابة هذه اليوميات ، وقد دوّن فيها دالى – شذر مذر – أفكاره وعذاباته كرسام يتشوق للكمال ، حبه لزوجته ، مقابلاته غير العادية ، افكاره حول علم الجمال والاخلاق والفلسفة وعلم الاحياء .

إن «دالى» يعى عبقريته لدرجة مذهلة تقريبا ، ويبدو أن ذلك يعطيه شعورا كبيرا بالراحة . أطلق عليه أبواه اسم «سلفادور» توقعا منهما أن يكون مخلص Saviour فن الرسم من خطر الانقراض على يد الفن التجريدى والسريالية الاكاديمية والدادية وكل المذاهب الفوضوية الأخرى .

وهكذا ، فإن هذه اليوميات «نصب تذكارى» أقامه دالى تخليدا لمجده الخاص ، وإن كان ينقصها التواضع ، فإنها من ناحية أخرى تتميز بصدق شديد ، فهو يعرّى اسراره بغطرسة شديدة ، وفكاهة مطلقة ، واسراف واضح . إن هذه اليوميات ، مثلها مثل الحياة السرية ، نشيد لروعة التقاليد ، متمثلة فى النظامين الكنسى والملكى ، وهى كقولنا هذه الأيام ، صفحات هدامة ، فى رأى غير العليم .

بالإضافة إلى أنه من الصعب تقرير ما يعجبنا أكثر فى هذه اليوميات : صدق غطرسته أم غطرسة صدقه ، ووصفه لحياته اليومية ، فإنه قد أربك كل من كتب سيرته وأدهش من تناولها بشكل أو بآخر ، لكن فى النهاية ، هو الأكثر تأهيلا وجدارة بمناقشة نفسه ، حقه فى ذلك ، لا ينكره أحد ، خاصة حين يتحدث بتفاصيل ثرية ، وذكاء وحماسة مفرطة .

ونظن أننا نعرف «دالى» لأنه اختار ، بشجاعة مفرطة ، أن يكون شخصية عامة ، يتكالب الصحفيون على كل ما يقوله لهم ، لكن نفاجأ بشدة بسوقيته ، خذ على سبيل المثال قصة الشاب الذى يريد النجاح ، ويسأله النصيحة ، فينصحه بأكل الكافيار

وشرب الشمبانيا حتى لا يجوع وهو يكدح . ومن أكثر الاشياء جاذبية عند «دالي» جذوره وقرون استشعاره ، الجذور التى تضرب عميقا فى الأرض ، بحثا عن كل نضر ريان – Succulent وهى من الكلمات المحببة إليه – استطاع الانسان أن ينتجه خلال أربعين قرنا من الرسم ، وقرون استشعار تتجه نحو المستقبل ، فتدركه وتبصره وتستوعبه بسرعة البـــرق ، إن لـــدالى عقلا نهما لا يشبع فى حبه للاستطلاع العلمى . فالاكتشافات والاختراعات تنعكس فى أعماله . ويمكن اكتشافها وسط لوحاته معدلة بشكل طفيف .

وهو سابق لأوانه بالنسبة للعلم ، يتنبأ بالتقدم العلمى العقلانى بوسائل ملتوية غير عقلية ، ولديه تجربة غير عادية بالنسبة لمبدع ، فابتكاراته تتغلب عليه ، وتسافر اسرع منه ، وتتخذ أشكالا مختلفة دون أن يهتم بها . فى أوائل حياته قوبل بالشك والاهمال ، ولكن أعماله الآن تبدو فى كل مكان . بل وأكثر من ذلك ، فإن أفكاره التى ألقيت بإهمال للرياح ، لم تعد تحتاج إليه الآن ليدافع عنها شكلا وموضوعا . أحيانا يدهش نفسه ، فالبذرة التى زرعها بسرعة قد نبتت ، فيتأمل الثمار بلا مبالاة مثيرة ، وربما يتوقف

عن ايمانه بمشروع ما ، بينما مثابـــرة الآخرين تطــــوره وتحقق منه نجاحـــا .

أود أن أضيف أن «يوميات عبقرى» عمل لكاتب حقيقى . إن لدى «دالى» موهبة الخيال والحكم الدقيق السريع على الأشياء . اختياره للكلمات ينتمى لعهد الباروك وعصر النهضة ، وقد رد إليها الحياة ثانية خلال رسومه . إن لدينا هنا وثيقة من الدرجة الأولى عن رسام متمرد لا ينكر أهميته أحد ، وعن عقل مثمر فى إنتاجه وأعاجيبه . إن أولئك الذين يحبون الفن والمشاعر المتوحشة وكذلك أطباء التحليل النفسى سيجدون فى هذه الصفحات اهتماما جياشا ، فهى تتحدث عن رجل قال عن نفسه :

«الفرق بينى وبين المجنون أنى لست مجنوناً»

«مايكل ديون»

استهلال

هناك فرق كبير بين إنسان وآخر ،
أكثر من الفرق بين حيوان وآخر
من نوع مختلف .

ميشيل دى مونتان

منذ الثورة الفرنسية ، تنامى اتجاه مرضى سقيم ، باعتبار العبقرى إنسانا يتشابه مع الانسان العادى فى كل النواحى ماعدا عمله . وهذا رأى زائف . وإذا كان زائفاً بالنسبة لى ، العبقرى المعاصر الحقيقى ، عبقرى النظام الروحى العظيم لعصرنا ، فهو أكثر زيفا حين نطبقه على اولئك العباقرة مثل رفائيل ، الذين يجسدون عبقرية عصر النهضة .

وسيبين هذا الكتاب أن الحياة اليومية للعبقرى ، نومه وهضمه، ابتهاجه ونشوته ، اظافره ودمه ، حياته وموته ، مختلفة بدرجة أساسية عن بقية البشر . إنه كتاب فريد ، فهو أول يوميات يكتبها عبقرى ، كان حظه الفريد أن يتزوج من «جالا» المرأة الاسطورية الفريدة فى عصرنا .

بالطبع ، لا أستطيع أن أقول كل شيء اليوم ، ستكون هناك صفحات محذوفة من هذه اليوميات التى تغطى الفترة من ١٩٥٢ حتى ١٩٦٣ من حياتى السرية ، فبناء على طلبى وموافقة من الناشر ، فسنوات معينة ، وأيام محددة سأحتفظ بتفاصيلها غير منشورة فى الوقت الراهن ، فالمجتمعات الديمقراطية غير مهيأة بعد لنشر مثل هذا البوح العاصف الذى اعتدت عليه . ستظهر الاجزاء غير المنشورة فى وقت لاحق فى المجلدات الأولى من يوميات عبقرى إذا سمحت الظروف ، وإذا لم تسمح فستظهر بعد ذلك حين تكون اوربا قد استعادت تقاليدها فى الحكم الملكى ، وفى الوقت ذاته ، قرائى الاعزاء ، اطلب منكم أن تكتموا أنفاسكم وأن تستفيدوا بكل ما تستطيعون ، فى هذه اللحظة ، من الجوهرة التى هى سلفادور دالى ، فكل كلمة فى هذه اليوميات عمل من أعمال العبقرية لسبب وحيد أنها كلمات صادقة ومخلصة لخادمكم المخلص المطيع ..

دالى

إهداء

أهدى هذا الكتاب إلى ملاكى جالا
جراديفا ، هيلين طروادة ، القديسة هيلين ،
جالا جالاتيا بلاسيدا

١٩٥٢

بورت ليجات أول مايو :
كل من يتمرد على السلطة الأبوية
ويهزمها ، فهو بطل .
فرويد

حتى أكتب هذه اليوميات ، فإنى ألبس لها للمرة الأولى ، حذاء من جلد لميع لم استطع أن ألبسه لمدة طويلة ، حيث إنه ضيق بشكل مرعب . ألبس هذا الحذاء عادة قبل أن ألقى محاضرة ، فالضغط المؤلم الذى يسببه لقدمىّ يحث قدراتى الخطابية لأقصى درجة . هذا الألم الساحق الحاد يجعلنى أغنى كالعندليب ، أو كأولئك المغنين من نابولى ، الذين يلبسون هم أيضا أحذية ضيقة جداً . فألم البطن والتعذيب الغامر الذى يستفزه الحذاء ، يجبرانى على أن استخلص كلمات مستقطرة وحقائق سامية ، نبعت من الاستنطاق الفائق للألم الذى تعانيه قدماى .

وهكذا ، لبست حذائى وبدأت اسجل دون تردد ، معذبا نفسى، الحقيقة كاملة حول استبعادى من الحركة السريالية . فأنا لا أهتم

بالافتراءات التى رمانى بها اندريه بريتون André Breton[1] ، الذى لم يغفر لى كونى السريالى الوحيد والأخير ، ولكن من المهم حين أنشر يومياتى هذه يوما ما ، أن يعرف الجميع حقيقة ما حدث، ولكى أشرح ذلك لابد أن أعود إلى طفولتى .

لم أستطع أبدا أن أكون تلميذا متوسطا عاديا ، فإما أن أبدو غير قابل للتعلم على الاطلاق ، وأعطى الانطباع بأنى غبى تماما ، أو أن ألقى بنفسى على العمل بإرادة محتدمة ورغبة فى التعلم تدهش كل فرد ، ولكى يوقظ حماسى ، فمن الضرورى أن يقدم لى شىء أحبه ، وحين تنفتح شهيتى أصبح جائعا بشكل هائج .

أول مدرس لى كان يدعى دون ستابان ترايتر (فى كتابه حياتى السرية جاء دالى على ذكر مدرسه الغريب هذا ، الذى خلال العام الأول من المدرسة جعله ينسى القليل الذى كان يعرفه من الحروف والحساب) (٢) الذى ظل يكرر لى طوال العام بأن العالم لا خالق له ، وكان يضيف بحزم بأن الدين هو «شغل النساء» ، وحيث إنى كنت صغيراً جدا ، فإن ذلك أبهجنى ، وبدا لى أن ما يقوله حقيقة، فإنى أرى حقيقته كل يوم فى عائلتى ، فالنساء وحدهن ، هن اللواتى كن يذهبن إلى الكنيسة ، بينما يرفض أبى الذهاب ، قائلا

إنه مفكر حر ، ولكى يؤكد حرية أفكاره ، فلابد أن ينمق أقواله بتجديف هائل مثير للذهن ، وإذا اعترض أحد على ذلك ، فإنه يستشهد بقول صديقه جبرائيل الامار «التجديف هو أجمل حلية فى اللغة القطالونية» .

ولقد حاولت فى مكان آخر ، أن أحكى حياة والدى المأساوية ، إنها تستحق أن يكتبها سوفوكليس . لم أكن أعجب بأبى بشدة فقط بل كنت أقلده كثيرا ، وبالتالى جعلته يقاسى بدرجة كبيرة وأرجو أن يرحمه الله ويدخله جنته ، وأنا متأكد أنه هناك بالفعل ، لأنه فى السنوات الثلاث الأخيرة من حياته مر بنقطة تحول دينية عميقة تستحق العفو والغفران . ولكن فى فترة طفولتى حين كان عقلى متعطشا للمعرفة ، لم أجد فى مكتبة والدى إلا كتبا تدعو للكفر ، وحين طالعتها بدقة ، دون أن اترك دليلا إلا جربته ، ظلت تقول إن الخالق غير موجود ، قرأت بصبر عميق الموسوعات ، التى أجدها الآن مملة ، وكانت كل صفحة من القاموس الفلسفى لفولتير تطالعنى بنقاش كجدل رجال القانون - الذين يشبهون أبى فقد كان موثقا للعقود - تقول إن الخالق غير موجود .

الجرعة الأولى التى رشفتها من نيتشه Nietzsche صدمتنى

بعمق ، فهو بوقاحة وكل وضوح يؤكد بأن الخالق قد مات ، ما هذا؟ لقد تعلمت أنه غير موجود ، والآن شخص ما يقول إنه قد مات . وهكذا وُلدت شكوكى الأولى . بالنسبة لعقلى كان زرادشت بطلا عظيما ، أُعجبت بعظمة روحه ، لكنه فى الوقت ذاته خان نفسه بالرعونة والصبيانية، وقد تركتهما أنا «دالى» خلفى منذ فترة. يوما ما سأكون أعظم منه . فى اليوم التالى لقراءتى «هكذا تكلم زرادشت» تكونت لدى فكرة عن نيتشه أنه شخص ضعيف وخائب لدرجة أنه أسلم نفسه للجنون ، بينما أحد الأمور الاساسية فى هذا العالم ألا تصبح مجنونا ، هذه التأملات كوّنت شعارى الأول فى الحياة ، الذى أصبح فيما بعد خطة حياة ، وهو «أن الفرق الوحيد بينى وبين المجنون أنى لست مجنوناً» احتاج الأمر ثلاثة أيام لأتمثل نيتشه وأهضمه ، بعد وليمة الاسد هذه ، بقيت لدى تفصيلة واحدة من شخصية هذا الفيلسوف ، عظمة واحدة لأمصمصها : شاربه !

فى وقت لاحق كان لوركا Lorca يقول عن افتتانه بشارب هتلر «إن الشارب هو الشىء الثابت المريع فى وجه الرجل» .

حتى فى مسألة الشارب هذه ، سأبز نيتشه . لن يكون شاربى

محبطا مأساويا مرهقا كالضباب أو موسيقى فاجنر ، سيكون شاربى خطا رفيعا ، امبرياليا ، لا معقولا ، مشيرا للسماء كالتصوف القائم أو النقابات الاسبانية المنتصبة .

فى الحق أن نيتشه بدل أن يقودنى إلى الإلحاد ، أثار فى نفسى الاسئلة والشكوك للايحاءات والافكار التى انتابتنى قبل المرحلة الصوفية التى ستصل ذروتها المجيدة سنه ١٩٥١ حين رسمت لوحة «البيان الصوفى» ، لكن من ناحية أخرى فإن شخصيته ، ومذهبه الوليد ، وموقفه المتصلب تجاه القيم المسيحية المحزنة العقيمة ، ساهمت داخليا فى تطور غرائزى الانعزالية والنقص في مشاعرى الاسرية . بعد قراءتى لكتاب «هكذا تكلم زرادشت» سمحت لسوالفى أن تغطى خدّى حتى زوايا فمى ، ولشعرى الاسود الفاحم أن يطول كشعر امرأة . لقد أيقظ نيتشه فى داخلى فكرة وجود الله ، لكن النموذج الذى أقامه أمامى لأعجب به وأخلده كان كافيا لجعل عائلتى تلفظنى . لقد طردنى أبى لأنى درست بدقة واتبعت حرفيا التعاليم الفوضوية والهرطقية التى فى كتبه ، طردنى والدى الذى لم يستطع أن يسامحنى ؛ لأنى تفوقت عليه فى كل ما أفعله خاصة حين أتحدث عن الله .

السنوات الأربع التى سبقت خروجى من بيت العائلة ، قضيتها فى حالة مستمرة ومتطرفة من الدمار الروحى ، وتبدو هذه السنوات ، بالنسبة لى ، نيتشوية تماما ، حياتى فى تلك الفترة كانت غير مفهومة إن لم تكن تافهة فى ذلك الجو . وهذه هى الفترة التى وُضعت فيها فى السجن ، حين رُفضت إحدى لوحاتى فى معرض الخريف فى برشلونة ، واتهمت بالبذاءة ، وأرسلت خطابات مهينة لكل الشخصيات المهمة فى اسبانيا بمن فيهم «خمينيز» الحائز على جائزة نوبل فى الأدب ، وقد وقّع معى هذه الخطابات المخرج بونويل Bunuel ، وقد كانت هذه المظاهرة ظالمة تماما ، لكنى أردت بهذه الطريقة أن أؤكد «ارادة القوة» لدّى ، ولأثبت أنى مازلت صامدا لا أشعر بالاستياء . إن مثلى الاعلى قدُر له أن يكون امرأة ، المرأة الخارقة جالا .

حين اكتشف السرياليون فى بيت أبى فى Cadaqués اللوحة التى انهيت رسمها لتوى ، وأن بول الوار Poul Eluard (٣) قد عمدّ لوحة «التسلية الكئيبة» ، فقد ابدوا اشمئزازهم من العناصر الإستية والمعوية والفضلات التى ظهرت فى اللوحة ، حتى «جالا» اعترضت على عملى بحدة ، مما اشعرنى بالامتعاض فى ذلك الوقت، لكنى تعلمت منذ ذلك الحين أن أعجب بهذه الاعتراضات .

كنت قد تهيأت للانضمام إلى الحركة السريالية . فقد درست شعاراتهم وأفكارهم بدقة ، وحلّلت تفاصيلها . لقد فهمت أن القضية هي تدوين ما يطرأ على الذهن بعفوية دون الرجوع إلى العقل أو علم الجمال أو الأخلاق ، والآن ، وقبل حتى أن أدخل المجموعة بأنقى نية في العالم ، يبدأون بفرض تعليمات كتلك التى كانت تفرضها عائلتى . كانت «جالا» أول من حذرنى ، بأنى سأعانى من السرياليين الرفض ذاته كما في كل مكان ، وانهم كلهم في النهاية برجوازيون ، ورأت أن قوتى تكمن في الاحتفاظ بمسافة متساوية بعيدا عن كل الحركات الفنية والادبية ، وبحدس كان أكبر من حدسى آنذاك ، أضافت بأن أصالة طريقتى التى اسـميتها التحليل النقـدى المبنى على الهلوسـة Paranoiac - critical analysis كافية لأى فرد لتأسيس مدرسة مستقلة . ورفض مذهبى النيتشوى أن يصغى لجالا . لقد رفضت صراحة ، أن أعتبر السرياليين مجموعة أدبية أو فنية كالجمعيات الأخرى ، لقد اعتقدت أنهم قادرون على تحرير الانسان من طغيان «العالم العملى العقلى» ، لقد قررت أن أصبح نيتشه اللامعقول ، أنا الممسوس بالعقل كنت الوحيد الذى عرف ما أراد . لن أذعن

واستسلم للاعقلانية من أجل سواد عينيها ، ولا بسبب نرجسية وسلبية الآخرين ، سأذعن لها من أجل أن أقوم بالعكس تماما ، سأحارب من أجل هزيمة اللاعقلانية (هزيمة اللامعقول - دالى سنه ١٩٣٥) ، فى الوقت ذاته ، ترك اصدقائى أنفسهم ليكتسحهم اللامعقول ، واستسلموا مثل الكثيرين - بمن فيهم نيتشه - إلى ذلك الضعف الرومانسى .

حين استوعبت أخيرا ، كل شىء نشره السرياليون ، وتشربت تعاليم «لوتريامون» [٤] والماركيز «دى ساد» [٥] ، دخلت المجموعة متسلحا بإيمان قوى كإيمان اليسوعيين ، وكنت مصمما أن أصبح رئيس هذه المجموعة بأسرع وقت ممكن . لماذا أقيم اعتبارا وأرهق نفسى بالوساوس نحو أبى الجديد «اندريه بريتون» بينما لم تتملكنى الهواجس ذاتها نحو الأب الذى كان سبب وجودى فى هذا العالم ؟

وهكذا أخذت السريالية حرفيا ، دون أن أهمل الدم أو البراز الذى يغذى به المدافعون عنها خطبهم اللاذعة ونقدهم الساخر ، بالطريقة ذاتها التى طوّعت نفسى لها لأصبح مهرطقا بقراءة كتب والدى . لقد كنت تلميذا ملتزما للنهاية بالسريالية ، بحيث إنى

أصبحت بسرعة «السريالى الكامل» . وحين وصل الأمر إلى هذه الدرجة ، طُردت من المجموعة لأنى كنت سرياليا جدا . ولهذا اعتبر الاسباب المزعومة لطردى من طبيعة الاسباب ذاتها التى حرضت على طردى من العائلة . وكانت جالا - الحدس الصافى - على حق مرة ثانية . ويمكننى القول اليوم بأن من بين كل الاشياء التى أنا متأكد منها ، هناك شيئان لا يمكن شرحهما بإرادة القوة التى لدّى ، اولهما ايمانى التام الذى اكتشفته ثانية سنة ١٩٤٩ ، والآخر أن «جالا» دائما على حق بشأن مستقبلى .

ولنعد إلى السرياليين ، حين اكتشف «بريتون» رسمى ، صُدم من العناصر المعوية التى تلطخه ، وهذا أدهشنى بالتالى ، بدأت من البراز ، الذى هو من وجهة النظر النفسية ، يمكن تفسيره كتعويذة سعيدة للذهب ، الذى - لحسن الحظ - يهدد بأن ينصب على . وحاولت بخبث ، أن أجعل السرياليين يعتقدون بأن العناصر المعوية يمكن أن تجلب الحظ للحركة . استشهدت بكا[illegible]
استخدمت كتكنية عبر العصور والحضارات - [illegible]
تبيض ذهبا ، الحمارة التى روثها من الذهب ، [illegible]
لداناى Danae - ولكن ذلك استفزهم ، ورفضوا الـ[illegible]

بسرعة ، بما أنهم رفضوا هذه الفضلات التى قدمتها لهم بكرم ، فسأحتفظ بهذه الكنوز لنفسى . اللقب المشهور الذى ألفه بريتون ليطلقه علىّ بعد حوالى عشرين سنة ، والذى كوّنه من حروف اسمى ليصبح Avida Dollars أى شره للدولارات ، ربما فكروا به فى ذلك الوقت .

مجرد أسبوع قضيته مع السرياليين ، كان كافيا ليرينى أن جالا كانت على حق . تسامحوا لدرجة معينة نحو عناصرى المعوية، وأعلنوا من ناحية أخرى عدة محظورات ، وهنا لاحت لى الممنوعات نفسها التى واجهتها فى محيط العائلة . سمحوا لى ، مثلا ، برسم الدم مع بعض الفضلات الآدمية ، أما هذه الاخيرة وحدها فغير مسموح بها ، صرحوا لى برسم الاعضاء التناسلية ، دون أية تخيلات حولها ، لا مؤخرات أو فتحات خلفية ، إنهم يفضلون السحاقيات لا محبى الغلمان . يمكننى أن أعبر عن الاحلام مستخدما أى شىء من الشماسى وآلات الخياطة حتى السادية لكن دون اللجوء للبذاءات ، أى عنصر دينى ممنوع حتى لو كان ذا طبيعة صوفية ، فإذا حلم المرء بمادونا رافائيل [٦] دون تجديف واضح ، فعليه ألا يشير إلى ذلك .

كما قلت قبل لحظات ، لقد أصبحت سرياليا مائة بالمائة ، ولكي احافظ على ايماني بذلك ، قررت أن أسير بتجربتي السريالية إلى نهاياتها المتناقضة والمتطرقة . وشعرت بأني على استعداد للتعامل مع ذلك التلون الجنوني الخاص بأبناء المتوسط [٧] ، واعتقد أني الوحيد القادر على ذلك بسبب عنادي ومشاكستي . وكان الشيء المهم بالنسبة لي آنذاك ، أن أرتكب العدد الاكبر من الخطايا . وبما أنني متأثر بعمق بقصائد «سانت چون» صاحب الصليب [٨]، وقد عرفتها بالسماع حين كان يتلوها «جارثيا لوركا» ، ويمتدحها كثيرا . لقد كان لدّى إحساس داخلي أن قضية الدين ستأتي لاحقا في حياتي ، وأردت أن أقلد القديس أوغسطين الذي انغمس في بداية حياته في السلوك الخليع واللهو العربيدي بينما يصلي لله طلبا للايمان . ابتهلت إلى السماء مضيفا لطلب الايمان ، مهلة قصيرة ، فقبل أن تصبح حياتي على ما هي عليه الآن من الزهد والفضيلة ، أردت أن ألتصق بسرياليتي المتخيلة الخادعة ذات الانحرافات المتعددة ، فترة قصيرة ، كالنائم الذي يصارع ليجمع الشظايا الأخيرة لحلم خليع . ورافقني العنصر «الديونيزي النيتشوي» [٩] في كل مكان ، كالمربية الصبور ، ولاحظت بسرعة

أنه كان يضع على ذراعه شارة الصليب المعقوف ، سيفسد اولئك المتعفنون الاشياء .

لم أنكر على خيالى الخصب المراوغ أشد الطرق الصارمة فى البحث ، لكن كل ذلك عمل على تأكيد جنونى الفطرى . لذلك بذلت جهدا كبيرا ، حتى وأنا عضو فى الحركة السريالية ، لأحقق القبول، كل يوم ، لفكرة أو صورة تكون معارضة تماما للنمط السريالى . فى الواقع ، فإن كل ما اقترحته سار على عكس رغباتهم . إنهم لا يحبون المؤخرات ، فحاولت خداعهم ، بإعطائهم الكثير من الفتحات ، مموهة بعناية ، على الطريقة الميكيافيلية (١٠)، وحتى إذا رسمت شيئا سرياليا لا تظهر فيه أية خيالات من هذا النوع ، فإن الوظيفة الرمزية لهذا الشيء لابد أن تكون إستية . وعارضت التلقائية البحتة والسلبية عن طريق النبض الحى لطريقتى المشهورة بالتحليل النقدى المبنى على الهلوسة ، وجابهت الحماسة لماتيس Matisse (١١) والاتجاهات التجريدية بالتكنيك الارتدادى المدمر لماسونيه Meissonier (١٢) .

فى الوقت الذى لم يرد فيه «بريتون» سماع أى شيء عن الدين، كنت استعد لابتداع مذهب جديد ، يكون ماسوشيا وساديا

وجنونيا ، وقد أخذت الفكرة من قـــراءاتي لأعمال أوغســـت كونت (١٣) ، فقد تستطيع الحركة السريالية أن تنجز ما عجز الفيلسوف عن تحقيقه ، لكن فى البداية ، لابد أن أقنع قديس المستقبل الاعظم ، اندريه بريتون ، بالايمان بالصوفية . عزمت أن أشرح له ، بأنه إذا كانت الاشياء التى ندافع عنها حقيقية ، فلابد أن نضيف لها عنصرا دينيا صوفيا . أعترف أنه في تلك الفترة ، كنت أتوقع أن نعود إلى المذهب الكاثوليكى الرومانى البابوى ، الذى بدأ يغمرنى بجلاله ببطء ، استقبل «بريتون» شروحى بابتسامة ، مرددا بعض آراء «فيورباخ» الذى نعرف الآن أن فلسفته مليئة بالثغرات المثالية ، ولم نكن نُدرك ذلك آنذاك .

وبينما كنت أقرأ «اوغست كونت» لكى أؤسس مذهبى على قواعد صلبة ، بدت «جالا» أكثر نشاطا منى ، كانت تقضى ايامها تدور على محلات البويات ومتاجر العاديات ، تشترى الفرش والبويات وكل المواد التى تساعدنى على بدء الرسم بمجرد أن أقرر التوقف عن لصق المستنسخات الملونة وقطع الورق على القماش . بالطبع لم أكن استطيع الاصغاء لأى قول حول التكنيك وأنا مشغول بابداع نظرية دالى الخاصة فى نشأة الكون ، بساعاتها

العرجاء التى تتنبأ بتفتت المادة ، وبيبيضها المقلي دون طاسة ، وبشرار عينيها السماوى المهووس ، تذكارا من جنة الرحم التى كنت فيها قبل أن اولد ، وفقدتها فى اليوم الذى ولدت فيه . سأكون سعيدا إذا فهمتم ما أعنيه وكان قولى واضحا ، فسترى الاجيال القادمة فيها ، تمام عملى ونقاءه . لم توافقنى جالا . ومثل أم مع طفلها الذى يرفض الطعام . أصرت قائلة «اسمح ياصغيرى دالى جرّب هذه المادة الخاصة جدا ، إنها كهرمان سائل ، لم يدخل النـــار أبدا ، وقالوا إن ڤيرمير Vermeer (١٤) اعتاد أن يرســم به» . وجربته وتعبير مقرف حزين يرتسم على وجهى وقلت لها «يمكننى أن أرى مزايا هذا الكهرمان ، لكنك تعرفين أنه ليس لدى وقت لهذه التفاصيل . فهناك الأفضل الذى يمكننى أن أفعله . فلدّى فكرة ستؤذى إحساس الجميع خاصة السرياليين ، ولا يستطيع أحد أن يوجه لها نقدا لأنى حلمت مرتين بوليم تل الجديد هذا ، إنها عن لينين . أود أن أرسمه بردف واحد بارتفاع تسعة أقدام ، مستندا على عكاز ، واحتاج لقماش بارتفاع ١٨ قدما ، أود أن ارسم لينين بذيل سترته المفرح حتى لو طردونى من الحركة السريالية ، سأرسمه يحمل ولدا صغيرا - أنا ، ويحملق بى

بانبهار كآكل لحوم البشر ، وسأصرخ (إنه يريد أن يأكلنى) . ولن أخبر بريتون بذلك» .

وانغمست فى رؤى تأملية وصلت ذروتها ، وكما يحدث حين أكون فى هذه الحالة ، بللت سروالى .

ردّت جالا بنعومة «وهو كذلك ، سأحضر لك غدا بعض الكهرمان (١٥) المذاب بالزيت . إنه يساوى ثروة ، لكنى أريدك أن تستخدمه حين ترسم لينين الجديد» .

ولخيبة أملى الكبيرة ، فإن ردف لينين القيثارى لم يثر اشمئزاز اصدقائى السرياليين ، وشجعتنى خيبة الأمل هذه ، فيمكننى أن أتمادى .. أحاول المستحيل .

وكان أراجون (١٦) هو المعترض الوحيد على طريقة تفكيرى ، وصرخ بغضب «لقد نلنا الكفاية من غرابة أطوار دالى» ووقف بريتون في صفى ، وبدا أراجون فى وضع لا يحسد عليه ، كان متوافقا مع نفسه ، فحتى عائلتى كانت ستضحك من طبيعة أفكارى ، لكنه كان ينطلق من مفهوم سياسى رجعى قاده إلى حيث هو الآن ، أعنى إلى لا شىء .

فى هذه الاثناء كان هتلر يتهتلر ، ورسمت ذات يوم ممرضة

أطفال نازية تقوم بشغل الابرة ، وكانت ، بالمصادفة ، تجلس فى حفرة كبيرة مملوءة بالمياه القذرة ، وتحت إلحاح بعض من أعز اصدقائى السرياليين ، رسمت شارة الصليب المعقوف على ذراعها . لم أكن أتوقع العواطف التى يمكن أن يثيرها هذا الشعار فى نفسى . لقد تملكنى لدرجة أنى سلّطت ضوء هلوستى على شخصية هتلر الذى بدا لى دائما كامرأة . كثير من اللوحات التى رسمتها فى هذه الفترة دمرها الالمان حين غزوا فرنسا . كنت مفتونا بجسم هتلر الملفوف بزيّه العسكرى بإحكام ، وفى كل مرة أرسم فيها الشريط الجلدى الذى يتمنطق به ، من الحزام حتى الكتف المقابل ، كان اللحم الهتلرى داخل الاهاب العسكرى يسبب لى نشوة تصاحبها لذة مغذية متفجرة تجعل قلبى ينبض بعنف ، عاطفة نادرة جدا لم أجربها حتى وأنا أقوم بفعل الحب . لحم هتلر الريان الذى تخيلته كلحم انثى أبيض بض ، كان يفتننى . حين وعيت الطبيعة النفسية المرضية لهذه النشوة ، أصبت بالرعب ، وهمست لنفسى «هذه المرة أنا على حافة الجنون» . قلت لجالا «احضرى لى بعض الكهرمان المذاب وأحسن الفرش فى العالم . لا شيء سيكون أكثر رقة من الرسم بطريقة «ماسونيه» النكوصية»

لأحصل على أرقى هذيان مغذ ، وعلى النشوة الغامضة التى تتملكنى حين أرسم على القماش انطباع الشارة الجلدية على لحم هتلر».

لا يهم كم مرة أكدت لنفسى أن هذا الالهام الهتلرى الباعث على الدوار لم يكن سياسيا ، وأن اللوحة الناتجة من الصورة الأنثوية لهتلر ، كانت ذات طبيعة فضائحية مبهمة ، وأن هذه النتائج لها الرنين ذاته من الفكاهة السـقيمة كتلك التى لوليم تل او لينين . ولا يهم كم كررت ذلك لاصدقائى ، فلا فائدة من كل ذلك. هذه المأساة الجديدة فى لوحاتى أثارت شكوكا أكبر وأكثر وسط السرياليين وساءت الأمور حين جاءت الانباء بأن هتلر معجب باللوحات الاخيرة ، بالجنون والعزلة والفاجنرية وكل اللمسات المجنونة التى وضعتها فى بعض لوحاتى . وبحسى الفطرى بالتناقض ، شعرت أن الامور تتجه إلى الاسوأ . فطلبت من «بيرتون» أن يدعو إلى اجتماع خاص وعاجل لمناقشة اللغز الهتلرى من وجهة نظر نيتشوية ، واللامعقولية المضادة للكاثوليكية. كنت آمل أن يغرى البعد المضاد للكاثوليكية «بريتون» . بالإضافة إلى أننى أعتبر هتلر ماسوشيا كاملا ، تتملكه فكرة إثارة حرب كى

يخسرها ببطولة كما أن إصرارى على اعتبار الهيبة الهتلرية جزءا من النظرة السريالية ، وتصميمى على إضفاء معنى دينى على العنصر السادى فى السريالية ، ثم تطوير طريقتى النقدية فى التحليل المبنية على الهلوسة التى نزعت إلى استنكار التلقائية ونرجسيتها الملازمة لها ، كل ذلك أدى إلى سلسلة من الانكسارات والشجارات المتواصلة مع بريتون وأصدقائه . وبدأ الاصدقاء يتأرجحون بينى وبينه بطريقة أزعجته . ورسمت لوحة تنبؤية بموت هتلر ، وأسميتها «لغز هتلر» ، لعننى بسببها النازيون ، وتحمس لى أعداء النازية برغم أنها تفتقر لأى معنى سياسى واضح ، وهذا ينطبق على أى شىء عملته وسأظل أقول ذلك لآخر أيام حياتى ، وفى اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور ، أعترف بأنى لم أحل بعد رموز هذا اللغز المشهور .

وذات مساء ، دعت الجماعة السريالية إلى اجتماع تناقش فيه ما سُمى بهتلريتى . ولسوء الحظ فقد نسيت معظم تفاصيل هذا الاجتماع الخاص ، وإذا أراد بريتون أن يرانى يوما ما ، فليته يعلمنى بمحضر الجلسة الذى كتب بعد ذلك الاجتماع .

كنت أعانى من التهاب فى الحلق ، ودائما يصيبنى الانزعاج

حين أشعر بالمرض ، ولازمني الترمومتر طوال ساعات محاكمتي ، وقست درجة الحرارة أربع مرات خلال الاجتماع الذي استمر حتى وقت متأخر من الليل ، لأني حين عدت إلى البيت كان الفجر ينبلج فوق باريس . واتخذ القرار بطردي من الجماعة السريالية .

بينما كنت اترافع عن نفسي ، ركعت عدة مرات ، ليس تضرعا كي لا أُطرد كما قيل زيفا ، ولكن على العكس ، كنت أحث «بريتون» كي يفهم أن سيطرة فكرة هتلر عليّ ، كانت نابعة من الهلوسة والجنون ، وأنني ضده سياسيا ، ولا يمكنني أن أكون نازيا ، فلو هزم هتلر اوربا كلها ، فسينتهز الفرصة ليتخلص من كل المتهووسين مثلي ، كما فعل بهم في ألمانيا ، حين عاملهم كأشخاص أقل من الناس العاديين ، كما أن الدور السخيف الذي نسبته لهتلر كاف لتصنيفي كعدو ، وأنه أثارني فقط كلعبة لهلوستي ، وهو يبدو لي كفاجعة لا مثيل لها .

واقتنعوا أخيرا ببراءتي ، على أن أوقع وثيقة ، أعلنت فيها ضمن أشياء أخرى ، ألا أكون عدوا للبروليتاريا ، ووقعّت على ذلك دون ارتياب ، فليس لدّي أي مشاعر مع أو ضد الطبقة العاملة .

وفجأة اتضحت لي الحقيقة كاملة ، من المستحيل أن تكون

سرياليا حقيقيا فى جماعة تقودها الدوافع السياسية لمناصريها ، وينطبق هذا على الجميع بمن فيهم بريتون أو أراجون على السواء..

شخص مثلى ، يزعم أنه مجنون حقيقى ، يعيش وينظم نفسه وفق الدقة الفيثاغورسية بالمعنى النيتشوى لا يمكن أن يوجد ، وما كان متوقعا أن يحدث حدث فى حينه . إن «دالى» السريالى الكامل ينادى بإلغاء أى قسر أو إكراه جمالى أو أخلاقى على الفنان ، تحركه فى ذلك «ارادة القوة» النيتشوية ، مؤكدا أن كل تجربة يجب أن تسير لآخر مداها دون توقف ، وطالبت بحقى فى أن أرسم ردف لينين تسعة أقدام وأن أزيّنه بتوابل هتلرية هلامية وبكاثوليكية رومانية إذا احتاج الأمر ذلك .

كل إنسان حر فى أن يصبح أولا يصبح ما يريد : لوطى أو جعرانى يعيش على الروث ، فاضل او زاهد فى تحولاته بناء على تقلباته الهضمية ، أو الشرار الذى يطق من عينيه . غرابة اطوارى المتعددة التى عشتها خلال مراهقتي وصلت الآن إلى قمة هيستيرية . وسحقت جالا بين فكى . وقعت فى حب أكثر الحمير عفنا ، روائح الاجساد البشرية أصبحت طبيعية كالطقوس الدينية بالنسبة لي . التعاطف الانسانى أعاق ازهار النتن والنشوة

الشرجية (دون فتحات) نظيفة أوجافة ، أضعاف أضعاف ارتعاشات وانقباضات الاحشاء .

وكان هذا كله مجرد بداية .

ولكن بريتون قال لدالى : لا . من بعض النواحي كان على حق لأنه في هذا الخليط أراد ، على الأقل ، أن يكون قادرا على أن يختار الخير أو الشر أو حتى الخير والشر ، ومع ذلك كان مخطئا نوعا ما ، لأنه حين يصر على حرية الاختيار كان من الضرورى أن يستسلم لهذه التشكيلة الدالية اللاذعة والنضرة . وهو لم يكن على صواب تماما ؛ لأن دالى ، المنطقى المطلق ، أراد أن يعرف كل شىء عن اللا منطق ، ليس لكى يجعل منه ذخيرة أدبية وانسانية ، ولكن على العكس ليحوله ويخضعه ويصنع هزيمته . إن اعصار دالى الفلسفى يتشوق لسحق وتدمير كل شىء بمدفعية نيوترونية فوق ذرية كى يحوّل الخليط البيولوجى من الاحشاء النشادرية الدنسة إلى طاقة صوفية بحتة . وحين يصاغ التعفن الغزير بشكل طاقة روحانية محددة ، فإن وجود الانسان وهدفه على الأرض سيكون قد تحقق ، وكل شىء سيصبح ثمينا .

هذه هى اللحظة التى اختارها سيرين كيركجورد [١٧] ليغنى

كعندليب متعفن ، وكل فئران المجارى الوجودية التى كانت تتناكح فى البدرومات خلال أيام الاحتلال ، وسمحنا لها أن تنمو ببرود داخل السريالية كعلب الصفيح فى الزبالة ، بصقت غثيانها على الوليمة السريالية الباقية ، كل شيء كان دنيئا بشكل فخم ، والانسان نفسه كان غير ضرورى .

وصرخ فيهم دالي : لا : ليس قبل أن يعقلن كل شيء ، وأن يتحول كل رعب شهوانى داخلى إلى شيء نبيل ، يتسامى بالجمال الاسمى للموت ، متبعين الطريق المؤدى إلى الزهد والكمال الروحى، ولا يستطيع إنجاز هذه المهمة وسط أبشع وأكثر الاكتشافات شيطانية عبر العصور ، إلا اسبانى . كل شيء يجب أن يُنظف ، ويجب اختراع الهندسة الغيبية .

وكان من الضرورى العودة لجلال الأخضر الزيتونى وأكسيد الفضة ، مثل فيلاسـكويز Velasquez [١٨] وزربـاران Zurbaran [١٩] ، للواقعية والباطنية حين نكتشف أنهما متشابهتان ومن المادة ذاتها . الواقع المبهم يجب أن يُدمج فى بعض من الواقع النقى عَرَضا ، كما حققته السيطرة البصرية المطلقة لفيلاسكويز .

محاولة دالى فى « التعقلن rationalisation » ظهرت بخجل ودون وعى كبير بها فى مجلة Le minotaure ، وطلب بيكاسو من «سكيرا» الناشر أن يكلفنى برسم أناشيد مالدورور(٢٠) . لكنى أعتقد أن المجهود الاكثر تماسكا نحو التعقلن قد قامت به المطبوعة الجميلة جدا etudés carélitaines التى أشرف عليها الاب برونو الذى أُعجب به كثيرا .

وفى مناسبتين أخريين ، ناقشت ، مجاملة ، مذهبى الجديد مع بريتون ، لم يفهم ، توقفت عن الاصرار . لم نعد نرى بعضنا كثيرا، وحين وصل إلى نيويورك سنة ١٩٤٠ اتصلت به لأحييه وأحدد موعدا معه ، واتفقنا أن نلتقى فى اليوم التالى ، وأخبرته أن لدّى برنامجا ايديولوجيا جديدا ، وهو أن نبدأ حركة تصوفية تدعو لمعنى يعزز تجربتنا السريالية ، وتعزلها نهائيا عن المادية الجدلية . ولكن فى المساء ذاته أخبرنى الاصدقاء أن بريتون كان يشوه سمعتى ثانية ، قائلا إننى أحد المعجبين بهتلر ، وكان هذا كذبا ، وأيضا أمرا خطيرا ، أن يقوله فى ذلك الوقت . كنت على استعداد للقائه ، لكننا لم نلتق منذ ذلك الحين .

ومع ذلك ، شكراً للسنوات التى مرت ، ولحدسى الفطرى الذى

كان دقيقا كعداد «جيجر» . ومع ذلك فإنى أشعر أن بريتون أقرب إلىّ ، فنشاطه الثقافى ، بغض النظر عن المظاهر ، له قيمة تنقص الوجوديين برغم كل نجاحاتهم المسرحية المؤقتة .

ومنذ اليوم الذى أخلفت فيه موعدى مع «بريتون» ، فإن السريالية كما عرفناها قد ماتت . فى اليوم التالى ، حين طلبت منى صحيفة كبرى تعريف السريالية ، أجبت «أنا السريالية» ، وأعتقد ذلك لأنى الوحيد الذى استمر يواصل نشاطه بها ، فلم أتنكر لأى شىء ، بل على العكس ، أعدت توكيدها ، وتساميت بها، ونظمتها ، وعقلنتها ، ونزعت عنها ماديتها ، وأكسبتها بعدا روحيا. وإن تصوفى النووى الحالى هو الثمرة التى استلهمتها من الشبح المقدس الذى نبع من تجاربى السريالية الشيطانية فى الفترة الأولى من حياتى .

وكنوع من الانتقام منى ، قام بريتون بدقة شديدة بتأليف جناس من حروف اسمى العجيب Silvador Dali بتحويلها إلى Avida Dollars بمعنى شره للدولارات . وطبعا هذه ليست إحدى روائع شاعر كبير . ومع ذلك ، لابد أن أعترف ، أن ذلك يتوافق مع سياق حياتى وطموحاتى الآنية . مات هتلر بطريقة فاجنرية (نسبة

لفاجنر) عظيمة بين ذراعى ايفابراون فى برلين ، بمجرد أن سمعت الخبر ، فكرت لمدة سبع عشرة دقيقة قبل أن اتخذ قرارا لارجعة فيه «إن سلفادور دالى سيصبح أعظم محظية Courtesan فى عصره . وقد كان . إنه الشيء نفسه مع كل ما أشرع فى تحقيقه فى سورة غضب جنونية .

بعد وفاة هتلر ، بدأ عصر دينى غيبى يلتهم كل الايديولوجيات، وفى الوقت ذاته كانت لدّى مهمة ، فالفن الحديث ، البقية الصدئة من المادية الموروثة من الثورة الفرنسية ، قاومنى لعشر سنوات على الأقل ، والآن ، يجب أن أرسم جيدا شيئا ما لا يكون مثيرا لاهتمام أى أحد ، ومن الضرورى أن أرسم جيدا لأن تصوفى النووى سينتصر فى اليوم الموعود ، فقط إذا تجسد فى أكثر انواع الجمال رقيا .

وادركت أن فن الرسامين التجريديين – اولئك الذين لا يؤمنون بشيء وبالتالى فإن ما يرسمونه لا شيء – سيعمل كسند رائع لسلفادور دالى المحاصر فى عصرنا الحقير بين التزيين المادى والوجودية الهاوية . كل هذا كان مؤكدا ، ولكن كى أقف ثابتا ، لابد أن أكون أقوى مما كنت ، أن امتلك النقود ، الذهب ، بسرعة وبطريقة فعّالة كى أتقدم ولا استسلم . النقود والصحة :

توقفت عن شرب الخمر نهائيا ، وبالغت بالاعتناء بصحتى ، وفى الوقت ذاته لمعت «جالا» كى تسطع ، أعمل على سعادتها قدر الامكان ، معتنيا بها أكثر من اعتنائى بنفسى ، لأنه بدونها سينتهى كل شىء . ولابد أن نستخدم النقود فى عمل كل ما نريده بشكل جميل ولطيف . وشرهى للدولار لن يكون إلا لهذا الهدف . والدليل يراه الجميع الآن فى حياتى ...

أكثر ما يعجبنى فى فلسفة اوغست كونت ، هو اللحظة الحاسمة قبل أن يجد مذهبه الوضعى ، حين وضع على قمة نظامه السلطوى أصحاب البنوك الذين علق عليهم أهمية كبرى . كنت دائما مبهورا بالذهب بدرجة كبيرة وبأى شكل ، قد يكون ذلك بسبب العرق الفينيقى فى دمائى . منذ مراهقتى عرفت أن سرفانتيس الذى كتب «دون كيشوت» من أجل مجد اسبانيا ، مات فى فقر تام ، وأن كريستوفر كولمبس الذى اكتشف العالم الجديد ، مات تحت الظروف ذاتها وفى السجن أيضا .

ومنذ مراهقتى نصحنى حذرى بشدة نصيحتين :

اولاهما : أن أنتهى من حكاية السجن - الذى فيما يبدو يتعرض إليه الجميع بأسرع ما يمكن وفى وقت مبكر من حياتى،

وقد حدث هذا . والنصيحة الثانية أن أصبح من أصحاب الملايين في أسرع وقت استطيعه ، وقد تحقق هذا أيضا .

إن أسهل الطرق لعدم تقديم تنازلات للذهب ، أن تمتلكه ، حين يكون الانسان غنيا فلا فائدة من الالتزام بشيء ، البطل لا يدخل في أي التزام ، إنه النقيض تماما للانسان الداجن الاليف ، وكما قال الفيلسوف القطالوني فرافشسكو بيول : «الطموح الاكبر للإنسان على المستوى الاجتماعي هو الحرية المقدسة ، في أن يعيش دون الحاجة لأن يعمل» .

وأضيف أن هذه الحرية في طبيعتها المتقلبة ، لمن يحققها ، بطولة انسانية . إن الطريقة الوحيدة لإضفاء الطابع الروحي على المادة ، هي أن تملأ كل شيء بالذهب .

أنا ابن وليم تل ، الذي حوّل إلى ذهب خالص ، التفاحة القاتلة، متكافئة الضدين ، التي وضعها على رأسه مقلقلة ، أبواه اندريه بريتون وبابلو بيكاسو . ذلك الرأس الهش ، المحبوب من صاحبه ! نعم أنا أومن بأني مخلص الفن الحديث ، وأني الوحيد القادر على أن أتسامى وأكمل وأعقلن ، بشكل جميل ووقور ، كل التجارب

الثورية للعصور الحديثة وفق تقاليد الكلاسيكية العظيمة للواقعية والغيبية ، وهى مهمة اسبانيا المجيدة والسامية .

إن دور بلادى اساسى للحركة الكبيرة للتصوف النووى الذى لابد أن يجسّد عصرنا . أما أمريكا ، فبسبب تقدمها التكنولوجى ، فإنها ستنتج الدلائل المبهرة لهذه الغيبية الجديدة ، وبالنسبة لفرنسا فستلعب دورا تعليميا اساسيا ، قد تضع الشكل الدستورى للغيبية الجديدة بسبب براعتها الثقافية ، لكن ، ومرة ثانية ، فإن مهمة اسبانيا أن تضفى النبل على كل ذلك عن طريق الايمان والجمال .

حروف اسمى التى كوّن منها بريتون «شره للدولارات» ، كانت تعويذتى ، انهمرت علىّ الدولارات منسابة عذبة مطردة . سأقص يوما الحقيقة كاملة حولها ، ستكون فصلا فى كتاب جديد ربما يكون أعظم كتبى .

أود أن أختم هذا اليوم بطُرفة . ذات مساء رائع ، كنت عائدا إلى جناحى فى فندق سانت ريجس فى نيويورك ، سمعت صوتا معدنيا فى حذائى بعدما دفعت أجرة «التاكسى» ، حين خلعت الحذاء وجدت فى كل «فردة» قطعة من ذات الخمسين سنتا ، كانت

جالا قد استيقظت لتوها ، نادتنى من غرفتها قائلة :

«عزيزى دالى ... كنت أحلم الآن أن الباب كان مواربا ، ورأيتك مع بعض الرجال تزن ذهبا » .

رسمت علامة الصليب فى الظلام وتمتمت بنبل :

– ليكن الامر كذلك !

٢٠ يونية :

لم أهتم بالاطفال بشكل خاص ، ولكن رسومهم تثير اهتمامى. فالطفل الرسام يعرف أن لوحته رديئة ، والطفل الناقد يعرف أن الطفل الرسام يعرف أن لوحته رديئة ، والطفل الناقد الرسام الذى يعرف أن الطفل الرسام يعرف ، أنه يعرف أن اللوحة رديئة ، ليس أمامه ، إلا خيار واحد : هو أن يقول إن اللوحة جيدة .

٢٩ يونية :

أحمد الله أنى فى هذه الفترة من حياتى أنام جيدا ، وأرسم بشكل أفضل واقتناع أكبر مما سبق . لكن يجب أن أتذكر كيف أتجنب البثور المؤلمة التى يبدو أنها ظهرت على زوايا فمى ، وهى النتائج الجسدية المزعجة لريقى الذى يتجمع بسبب السرور الذى يغدقه علىّ المعشوقان المبجلان : النوم والرسم . نعم ، فالنوم

والرسم يجعلانى «أرّيل» من السعادة . بالطبع يمكننى مسح وجهى
بحركة سريعة أو بطيئة من ظهر يدى ، اثناء احدى يقظاتى
الفردوسية من النوم أو خلال توقفى لحظات عن العمل ، وهى
وقفات لا تقل فردوسية عن اليقظات ، لكنى أدمنت تماما ، نشواتى
الثقافية والحيوية ، بحيث إنى لا أفعل ذلك . والآن ، تبرز مشكلة
أخلاقية لابد من حلها .

هل على المرء ترك بثور الرضا هذه لتصبح اسوأ ؟ أو أن عليه
أن يجبر نفسه على مسح لعابه فى الوقت المناسب ؟ وفى انتظار
حل لهذه المسألة سأحدثكم عن اختراعى لطريقة جديدة للنوم ،
طريقة يجب أن توضع فى مختارات ابتكاراتى يوما ما ، الناس
عادة تتناول الحبوب المنومة حين يستعصى عليها النوم ، لكنى
أفعل العكس تماما ، ففى الفترات التى يكون فيها نومى فى
أقصى درجات انتظامه وروعته ، فانى بتصميم مغناج ، أقرر أن
أتناول حبة منوم ، وبصدق ودون ذرة استعارة ، فإنى أنام كلوح
الخشب ، واستيقظ مستعيدا شبابى ثانية ، يشع ذكائى بقوة
شديدة لا تخفت حتى تصل أدق أفكارى إلى تمام ازدهارها ، وفى

هذا الصباح حدث لى ذلك ، فقد تناولت ليلة أمس حبة منومة لأجعل كأس توازنى تفيض . ويالها من يقظة ، فى الحادية عشرة والنصف ، كنت أجلس فى الشرفة أتناول قهوتى بالعسل والكريمة تحت أشعة الشمس والسماء الصافية دون أن يزعجنى الانتصاب الغامض . وبتأثير بقايا حبة الامس ، نمت من الثانية والنصف حتى الخامسة ، مما جعل كأسى تفيض أكثر وكذلك لعابى ، فحين فتحت عينى ، عرفت من مخدتى المبللة أنى «ريلت» بغزارة . قلت لنفسى : «لن تبدأ اليوم بمسح وجهك بين حين وآخر . فاليوم الاحد، ثم إن هناك سببا أكبر ، إذا أردت للبثرة الصغيرة التى ظهرت على جانب فمك أن تكون الأخيرة ، لا تمسح عليها بين حين وأخر حتى لا تكبر ، واحترم الخطأ البيولوجى واطعن ظواهره فى الصميم» .

وهكذا ، أيقظونى فى الخامسة ، ووصل سيد البنائين المهندس «برجناو» ، وكنت قد طلبت منه الحضور ليساعدنى فى انجاز الابعاد الهندسية للوحة التى أعمل بها . أغلقنا الاستوديو على انفسنا حتى الساعة الثامنة . كنت جالسا أعطى الأوامر فقط «ارسم مثمنا آخر ، ثم مثمنا أكثر انحناء ، وآخر متحد المركز» ،

وهو كمهندس مجتهد وسريع الخاطر كتلميذ فلورنسى ممل ، يرسم كل شىء بمجرد أن أتلفظ به ، وقد أخطأ ثلاث مرات فى حساباته ، وبعد فحص مطوّل لما قام به ، صرخت ثلاث صرخات حادة ، أربكته ، هذه الصرخات أقوم بها عادة لأخفف انفعالى الشديد ، لقد وجدت الأخطاء الثلاثة رائعة ، وقد حققت ، فى لحظة، ما كان مخى يكدّ فى محاولة لإيجاده ، حين غادرنى برجناو، جلست أحلم ، بعد ذلك كتبت على جانب لوحة القماش بالفحم الكلمات التالية ، وأنا أكتبها هنا ثانية فى اليوميات أحببتها أكثر :

«إن الاخطاء فى معظم الاحيان ذات طبيعة مقدسة . لا تحاول تصحيحها ، بل على العكس ، حاول أن تُعَقْلنها وافهمها بدقة ، ثم حاول أن تصقلها ، فالمشاغل الهندسية التى انتجتها تشير إلى يوتوبيا لا تلتفت إلى الجنس فالمهندسون نادرا ما يستثارون جنسيا» .

٣٠ يونية :

يوم آخر قدِّر له أن يكون يوم لعاب وريالة . أنهيت إفطارى فى السادسة صباحا ، وكنت متعجلا للبدء فى رسم السماء فى لوحة

«صعود العذراء» ، لكن اصطدنا أمس أحد أنواع السمك الطيار ، وهى أكثر سمكة رأيتها لمعانا فضيا ، وكرست نفسى أن أرسمها أولا ، وبدقة شديدة لم أتوقف حتى رأيت بالفعل قشر السمكة يومض كأنه مسكون بضوء طرف فرشاتى المستدق . هكذا اذن كان الأمر مع جوستاف مورو Gustave Moreau (٢١) حين رغب أن يرى الذهب ينبثق من طرف فرشاته .

هذا الجهد ، بصفة خاصة ، خليق بأن يسيل لعابى ، وشعرت بالبثرة تلتهب وتلسع ، تومض فى توافق مع قشرة السمكة التى ساعدتنى كموديل . بعد الظهر بدأت أرسم السماء فى لوحة صعود العذراء ، حتى الشفق ، والسماء فى معظم الأحيان تجعل لعابى يسيل . وظلت البثرة الصغيرة تحرقنى كأنها دودة أسطورية تنخر فى زاوية فمى ، مما يذكرنى بالاشكال الرمزية بخمولها الغامض المثير فى اللوحة التى رسمها بوتشيللى Botticelli وأسماها Primavera . هذا الخمول النامى ببطء ، يكبر ويهيّج بثرتى الصغيرة فى ايقاع يشبه كانتاتا باخ ، مما يدفعنى على الفور ، لسماعها على الجرامفون بصوت عال . ودخل علىّ «جوان» الصبى ذو السنوات العشر ويعمل كموديل ، ليطلب منى الخروج

للعب الكرة معه على الرصيف ، وليغريني بذلك ، التقط فرشاة وبدأ يشير بها ، عازفا نهاية الكانتاتا باشارات ملائكية رائعة . نزلت إلى الرصيف مع «جوان» . النهار يقترب من نهايته ، وجالا مكتئبة قليلا ، وقد لوحتها الشمس فبدت أكثر جمالا ، بشعرها «المنكوش» كما لم أره من قبل . رأيت فجأة يراعة تلمع كقشر السمكة التى رسمتها فى الصباح .

وذكرنى هذا بأول مؤلفاتى الأدبية ، كنت فى السابعة من عمرى ، وكانت القصة التى كتبتها كالتالى : «كان طفل يتنزه مع أمه فى مساء أحد أيام يونية ، وكانت السماء تمطر نجوما . التقط الطفل نجمة وضعها فى راحة يده ، حين وصل البيت سجنها فى كوب فوق مكتبه ، وحين استيقظ فى الصباح ، صاح فى رعب : لقد التهمت دودة نجمته اثناء الليل» . كان أبى ، يحفظه الله ، معجبا بهذه القصة ويرى أنها أفضل من قصة «اوسكار وايلد» الامير السعيد .

سأروح الليلة فى نوم «دالى» متواصل ، تحت السماء العظيمة لصعود العذراء ، والقشر اللامع لسمكتى المتعفنة وشفتى المتشققة .

أود أن أشير إلى أنى اكتب هذه اليوميات ، وچورچ بريكويه يذيع من الراديو سباق الدراجات الفرنسى . قائد السباق أصيبت ركبته بخلع ، درجة الحرارة تخدر الجسم . أود لو ركبت فرنسا كلها الدراجات ، والعالم كله يبدّل كرجل عجوز مجنون ، يصعد منحدرات صعبة ، والعرق ينهمر ، بينما المبجل دالى يرسم أكثر أنواع الرعب لذة ، فى هدوء بلدة بورت ليجات الرائع . إن سباق الدراجات الفرنس يعطينى احساسا بالرضا المستمر حتى أن لعابى يسيل قليلا قليلا لكن بشكل متواصل ، ويمتد إلى زاويتى فمى المتورمتين الجافتين ، الضيق الغبى الفاضح لبثور سرورى الروحى.

١ يوليه :

لا نساء ولا محار فى يوليه (٢٣)

حين استيقظت فى السادسة صباحا ، كانت أول حركة عملتها، أن لمست بطرف لسانى البثرة الصغيرة على جانب فمى . كانت ساخنة ومبهجة على غير العادة ، لكنها جفت خلال الليل ، ودهشت لأنها نشفت بسرعة ، وبدت من لمسة لسانى كشىء صلب يمكن

نزع قشرته . قلت لنفسى «ستكون هذه لعبة ممتعة ، لن أنزع القشرة فورا ، فذلك سيكون تضييعا أحمق لمباهج يوم عمل طويل، ألعب خلاله بقشرة البثرة الجافة» .

وفى هذا اليوم ، عانيت تجربة من أكثر التجارب ايلاما فى حياتى ، فقد تحولت فيه إلى سمكة ، والقصة تستحق أن تروى :

بعد ربع ساعة من الجهد فى وضع ومضات لامعة لقشر سمكتى الطائرة ، على القماش ، توقفت بسبب حشد من الذباب الكبير (بعضه أخضر ذهبى) جذبته الرائحة النتنة للسمكة المتعفنة. كان الذباب يحوم بين السمكة المتعفنة ووجهى ويدى ، مما اضطرنى لمضاعفة انتباهى ، وأن أكون أكثر خفة فى الحركة وسرعة الخاطر ، وأن أظل صامدا للسعات الذباب فى قمة صعوبة العمل ، مواصلا ضربات فرشاتى دون توتر ، راسما الشكل الخارجى لجسم السمكة دون أن أرمش كثيرا . وفى لحظة كانت ذبابة تلتصق بطريقة تبعث على الجنون ، فى رمش عينى ، وثلاث أخريات على السمكة الموديل ، وكان لابد من الاستفادة من اللحظات القصيرة التى تغير فيها هذه الذبابات وضعها لأواصل ملاحظاتى ، لكن سرعان ما جاءت ذبابة وأصرت على الوقوف على

بشرتى ، ولم استطع أن أهشها إلا بتحريك زاويتى فمى على فترات متقاربة ، ومع ذلك ، لم تكن هذه المعاناة المهولة هى التى اضطرتني للتوقف بل على العكس ، فأن ترسم والذباب يلتهمك بهذه الطريقة قضية «فوق انسانية» تفتنني وتدفعنى إلى رشاقة تبدو لي كمفخرة لم أكن لأحصل عليها لولا الذباب . ما جعلنى أتوقف هو رائحة السمكة التى كانت متعفنة لدرجة أنى كدت اتقيأ طعامي . رميت السمكة بعيدا ، وبدأت أرسم في لوحة المسيح . لكن الذباب انقسم إلى قسمين ، أحدهما تبع السمكة ، والآخر تجمع على بشرتى . كنت عاريا تماما ، وكان جسمى قد تلطخ بمادة لاصقة من زجاجة وقعت فوقى ، أفترض أن ما جذب الذباب هو ذلك السائل ، فقد كنت نظيفا تماما عدا تلك اللطخ . واصلت الرسم ، بأفضل من السابق ، وأنا مغطى بالذباب ، مدافعا عن البثرة بلساني وتنفسى ، كنت أرطب قشرتها الخارجية ، التي بدت كأنها ستنتزع ، بلساني ، وكنت أجففها بأنفاسي ، جاعلا تنفسى متوافقا مع ضربات الفرشاة .

كانت البثرة جافة تماما ، وتدخل لساني لم يكن كافيا لنزع قطعة من القشرة الرقيقة إلا بلي العضلات الذى كنت أقوم به كلما

تناولت لونا ما من الطبق . تلك القشرة الرقيقة كأنها قشرة سمك . بتكرار العملية عدة مرات نزعت كمية من قشر السمك . كانت بثرتى مصنعا لقشر السمك الذى يشبه الميكا (مادة زجاجية) . بمجرد أن أنزع القشرة تبدو أن واحدة أخرى تظهر على زاوية فمي . بصقت القشرة الأولى على ركبتى ، انتابنى احساس قوى حين سقطت على جسدى ، بأنها أصابتنى بالتعفن . توقفت فورا عن الرسم ، وأغمضت عينى . احتجت لكل قوتى لأظل بلا حراك ، كانت هناك أعداد غفيرة من الذباب المحموم بالنشاط تقف على وجهى ، وفى كرب ، بدأ قلبى يدق كالمجنون ، وأدركت فجأة أنى أتوحد مع سمكتى المتعفنة حين شعرت أنى متصلب مثلها ، صحت «ياالهى إننى أتحول إلى سمكة» . وجاءت الأدلة التى ترجح هذه الفكرة على الفور . قشرة البثرة التى تلسعنى فى ركبتى بدأت تضاعف نفسها ، وشعرت كأن القشر ينمو على ردفىّ الواحد تلو الاخر ، ثم على بطنى ، اردت الاستمتاع بهذه المعجزة ، وظللت مغلقا عينى لمدة ربع ساعة تقريبا . قلت لنفسى وأنا غير مصدق «سأفتح عينى الآن وأرى نفسى وقد تحولت إلى سمكة» . كـــان

العرق يسيل على جسمى كله ، استحممت فى دفء الشمس الغاربة، وفتحت عينى أخيرا ، أوه .. لقد كنت مغطى بقشور لامعة. لكن فى اللحظة نفسها أدركت من أين جاءت هذه القشور ، فهى لم تكن سوى البقع الصغيرة الجافة من المادة اللاصقة المتبلورة ، وكانت هذه هى اللحظة التى اختارت فيها الخادمة إحضار شىء لى لأتناوله ، قطعة توست مغموسة فى زيت الزيتون ، حين رأتنى فى الوضع الذى أنا عليه ، لخصت الموقف قائلة «أنت مبلول كسمكة ، ولا أدرى كيف تستطيع الرسم وكل هذا الذباب يلسعك». وبقيت على هذه الحالة أحلم ، حتى موعد الغروب .

يا سلفادور ، إن تحولك إلى سمكة ، رمز للمسيحية ، وحدث لك فقط بسبب تعذيب الذباب لك . ياله من جنون دالى نموذجى أن تتوحد مع مسيحك وأنت ترسمه .

وبطرف لسانى ، نزعت قشرة البثرة كلها ، وأمسكتها بين إصبعى الابهام والسبابة بحذر شديد ، كانت ناعمة وإذا ثنيتها فسيتنكسر ، رفعتها قرب أنفى لأشمها ، لم تكن لها رائحة ، وبلا وعى تركتها لحظات بين أنفى وشفتى العليا ، عن طريق ثنى الشفة كتكشيرة ، وذلك يلخص مدى إنهاكى وتعبى ، وتسلل إلىّ تراخ جميل .

تحركت ، فوقعت القشرة على الأرض ، وضعتها فى طبق على ركبتى دون أن أغيّر وضعى المتعب ، وكشرت كأنى ثُبّت على ذلك الشكل ، حكاية القشرة هذه أخرجتني من بلادة صعبة ، بدأت أبحث عنها فى ذعر وسط فتافيت الخبز فى الطبق ، بقعة بنية ، التقطتها بإصبعين لألعب بها مرة أخرى ، لكن انتابنى الشك فلم أعد متأكدا منها ، وشعرت بحاجة شديدة للتفكير . ها هو لغز يشبه ألغاز القشور الأخرى التى انتجتها ، الشكل والأثر وغياب الرائحة هى الشىء ذاته ، ما الذى يهم إذا كانت هى القشرة ذاتها أم غيرها ؟

أغضبتنى هذه المقارنة ، فهى تعنى ببساطة أن المسيح المقدس الذى رسمته اثناء عذابى بالذباب كأنه لم يوجد قط .

هذا الغضب جعلنى أزم فمى ، ومع ارادة القوة ، بدأت البثرة تنزف ، وسقطت قطرة حمراء بيضاوية الشكل على لحيتي الصغيرة .

نعم إنها الطريقة الاسبانية التى أوقع بها دائما ألعابى المجنونة .. بالدم على الطريقة التى أرادها نيتشه أيضا .

٣ يوليه :

كالعادة ، بعد ربع ساعة من الإفطار ، وضعت زهرة ياسمين خلف أذنى ودخلت التواليت . كانت حركة الامعاء جيدة وبلا رائحة، بل أنقى ما حدث معى أخيرا ، إذا كان هذا الوصف مناسبا فى مثل هذه الظروف . أرجع سبب ذلك إلى تقشفى ، واتذكر باشمئزاز ورعب تقريبا ، حركة أمعائى فى فترة الصعلكة فى مدريد مع لوركا وبونويل ، حين كنت فى الحادية والعشرين من العمر ، شىء لا يمكن التحدث عنه ، هوان ساحق ، متواصل ، تشنجى ، اهتياجى ، جهنمى ، انفعالى ، وجودى ، مبّرح ومدمر إذا قورن بما عليه الأمر اليوم ، حيث يسير كل شىء بيسر وسهولة يجعلنى أفكر طوال اليوم فى نحلة مشغولة بافراز العسل .

كانت لى عمة يصيبها الرعب من كل ما يتعلق بالامعاء ، إن فكرة اخراج الريح تبعث الدموع فى عينيها ، ولقد راهنت بشرفها أنها لم تخرج ريحا فى حياتها ، واليوم لا أرى ذلك غريبا ، فالحقيقة ، أنه فى فترات تقشفى وحياتى الروحية المكثفة لاحظت أنى من النادر أن أخرج ريحا ، ولقد قرأنا فى الكتب القديمة أن القديسين من النساك لا يتبرزون ، ويبدو لى ذلك الآن قريبا من

الحقيقة ، خاصة حين نأخذ فى الاعتبار فكرة بارا سيلسوس Para celsus [٢٤] الذى قال «إن الفم معدة ، ولذا إذا مضغت الطعام فترة طويلة ثم بصقته دون أن تبلعه فستظل منتعشا» إن النساك يمضغون الجذور والجنادب ويبصقونها ، وأن شعورهم بالنشوة ناتج عن الايمان والانطباع الساذج بأنهم يعيشون فى جو السماء الروحى .

إن الحاجة للبلع – وقد شرحتها منذ فترة طويلة فى دراستى عن أكلة لحوم البشر – تتوافق مع الضرورة القهرية لنظام اخلاقى مؤثر أكثر منها حاجة للتغذية . نحن نبلع كى نوحّد أنفسنا قدر الامكان مع المحبوب ، بالطريقة نفسها التى نبتلع فيها الخبز دون مضغه جيدا . وهذا يفسر التعارض بين المضغ والبلع ، فالزاهد المتنسك يفصل بين الاثنين ، فلكى يكرس نفسه كلية لدوره التأملى، يستخدم حركة فكيه بدل البلع ، محتفظا بداخله لله وحده .

٤ يوليه :

حياتى منظمة بساعة توقيت ، كل شىء يتزامن ، فى الدقيقة المحددة التى أنهيت فيها اللوحة ، جاء إلى البيت على التوالى زائران مع مرافقيهما ، أحدهما هو إل . إل ناشرى من أيام

البطولة فى برشلونة ، وقد أعلن أنه جاء من الارجنتين خصيصا ليرانى (أعتقد أنه يقول ذلك لكل أصدقائه المهمين) ، والآخر هو ، بلا . إل . الذى وصل أولا ، وبدأ يحدثنى عن خططه ، إنه يعتزم طباعة أربعة كتب جديدة بقلمى وقلم آخرين .

– دراسة كبيرة موسعة يكتبها عنى رامون خوميز وقد سبق أن وعدته أن أعطيه بعض الوثائق المذهلة غير المنشورة .

– يومياتى التى أكتبها الآن .

– وجوه مخفية بقلم «لاسرنا» وقد اشترى حقوق نشره من برشلونة .

– بعض الرسوم الغامضة لتنشـــــر مع نص لاسرنا La Serna ومعنى ذلك أنه يريد رسوما منى ، فقررت ، على العكس ، أن يقوم هو برسم الكتاب الذى أكتبه .

بالنسبة لبلا . إل فبمجرد وصوله ردد ما سبق أن قاله لى فى لقائه الأخير «إن ذلك الشارب سيخرب بيتك فى النهاية» . واسترسل فى الحديث مع إل . إل ، ولاختصار هذا الاسترسال، قلت : «إن بلا . إل قد كتب مقالا حدّد فيه بفطنة كبيرة قفزاتى

الفنية» ، فأجاب «أخبرنى بأشياء أكثر عنك مثل تلك التى أخبرتنى بها وأنا سأكتب مقالات قدر ما تريد» .

- ستكتب كتابا عنى لم يكتب مثله أحد .

- سأفعل .

صاح إل . «وأنا سأنشره ، بالإضافة إلى أن «رامون» قد أنهى تقريبا كتابا عن دالى» .

قال بلا . إل .باستنكار:لكن «رامون» لا يعرف دالى شخصيا.

وفجأة ، امتلأ البيت بأصدقاء «بلا» . وهم لا يعدّون ومن الصعب وصفهم ، ولكنهم يشتركون جميعا ، كقاعدة عامة ، بصفتين : فكلهم لهم حواجب كثيفة ، ثم إنهم يبدون كأن أحدا قد سحبهم عن قهوة رصيف كانوا يجلسون عليها منذ عشرة أعوام .

حين غادر «بلا» . قلت له «ذلك الشنب سيخرب بيتى فى النهاية.. أرأيت ؟ فى أقل من نصف ساعة تقرر نشر خمسة كتب عنى . إن استراتيجيتى تفرض مطبوعات لا تعد عن شخصيتى ، والشىء المهم أن يظل شاربى - ضد النيتشوى - مشيرا إلى السماء كأطراف أبراج الكنائس البورجوازية ، يوما ما ، وبسبب

شخصيتى، سيضطر الناس إلى الاهتمام بعملى ، وهذا أكثر تأثيرا من محاولة تلمس شخصية الفنان عن طريق عمله » .

٥ يوليه :

فى اليوم الذى أهدانى فيه الشاعر لوتين Loten ، وكنت قد أديت له عدة خدمات ، قرن خرتيت أعجبنى كثيرا ، قلت لجالا : هذا القرن سينقذ حياتى .

وهذه المقولة بدأت تتحقق اليوم . لاحظت وأنا أرسم المسيح أنه يتكون من مجموعة من قرون الخراتيت ، وكرجل ممسوس بدأت أرسم كل جزء من الجسد كما لو كان قرن خرتيت ، وحين يتم القرن ، فقط حين يتم ، يكون الجسد تاما ومقدسا . ولمّا لاحظت أن كل قرن يشتمل على قرن آخر مقلوب ، بدأت أرسمها متشابكة، وفجأة أصبح كل شىء أكثر قدسية وكمالا . اندهشت لاكتشافى وركعت على ركبتى لأشكر المسيح ، وهذا ليس كلاما استعاريا ، كان ينبغى أن ترانى اسقط راكعا فى الاستوديو كرجل مجنون تماما . إن الفنانين - عبر التاريخ كله - كانوا يعذبون أنفسهم ليلتقطوا الشكل ويقولبوه إلى أحجام هندسية أولية ، فكان ليوناردو ينزع لرسم البيض الذى هو أكثر الاشكال كمالا حسب رأى

إقليدس ، أما انجرس Ingres [٢٥] فكـان يفضل الاجسام الكروية، وسيزان المكعبات والاسطوانات ، لكن دالى فقط بكل تلوثه الملتوى المحتدم ، قد مَسّ بالخراتيت ووجد الحقيقة ، فكل الاسطح المنحنية فى الجسد البشرى لها الابعاد الهندسية ذاتها بشكل عام: وذلك البعد الموجود فى المخروط مستدير الطرف المتجه نحو السـماء أو الأرض ، وكل التمام الكامل للايحاءات الملائكية المدمرة .. هى قرن خرتيت .

٦ يوليه :

يوم حار رطب ، أنهيته بسماع موسيقى باخ بصوت مرتفع ، أشعر برأسى وكأنه سينفجر ، ركعت ثلاث مرات لأشكر الله على التقدم الجيد فى رسم لوحة «صعود العذراء» . عند الغسق هبت رياح حارة من الجنوب ، وكانت التلال على البعد متوهجة ، عادت «جالا» من صيد الحلزون ، وارسلت الخادمة لتخبرنى أن أنظر لغروب الشمس الذى يلون البحر بلون بنفسجى ثم بلون أحمر فاقع، أشرت لها من النافذة أنى لاحظت ذلك .

فى هذا اليوم رأيتها أجمل من أى يوم آخر ، كان الصيادون على الشاطىء يتطلعون إلى الريف الملتهب ، ركعت ثانية لأحمد الله

إن جالا جميلة كتلك المخلوقـــات التى رسمها «رفائيل» . أقسم أن هذا الجمـــال من الصعب ادراكه ، ولا يمكن لأحـــد أن يراه بحيـــوية رؤيتى له ، الشكر لنشواتى السابقة ولقرون خراتيتى .

٧ يوليه :

جالا أكثر جمالا .

تلقيت دعوة لحضور مسرحية «لغز إلك Elche » [٢٦] فى الرابع عشر من أغسطس . ستفتح قبة الكنيسة آليا ، وستحمل الملائكة العذراء إلى السماء . لقد كُلفت أن أكتب مقالا عن «سيدة إلك» فى نيويورك . كل شىء مُهم يتوافق ، القرية الصغيرة بسيدتها الفريدة، واللغز الفريد لصعود العذراء ، وقد حاولوا منعه لكن البابا أعلن أنه فى لب العقيدة الدينية ، وكل شىء يتوافق بالنسبة لى أيضا ، زاحما أيامى بالعمل ، وأتلقى فى الوقت ذاته النص الذى كتبته حول صعود العذراء والذى سينشر فى مجلة etudes carmélltaines ، أعدت قراءة ما كتبته ، واعترف أنى أحببت هذه الصفحـــات أكثر . تذكرت الدم الجـــاف على فمى المتشقق فقلت لنفسى : موعود ومحظوظ لوحة «صعود العذراء» هى نقطة الذروة

لإرادة القوة النيتشوية الانثوية ، المرأة الخـارقة الكاملة تصعد إلى السماء بالقوة الحاسمة لارادتها الذاتية .

٨ يوليه :

طلب رؤيتى مهندسان سخيفان . سمعتهما يتحدثان وهما يصعدان التل ، كان أحدهما يشرح للآخر أنه مولع بأشجار الصنوبر ، قائلا : «إن بورت ليجات بلدة جرداء وأنا أحب أشجار الصنوبر ليس لظلها ولكن لشكلها الذى أحب أن أنظر إليه . وأن الصيف الـذى لا أرى فيه شجرة صنوبر لا يكون صيفا بالنسبة لى» . قلت لنفسى «انتظر ، سأريك أنت وأشجار صنوبرك» . استقبلتهما برقة شديدة ، وأجبرت نفسى أن يكون الحديث كلية حديثا عاديا . شكرانى كثيرا ، وفى طريق الخروج لاحظا جمجمة الفيل التى أمتلكها ، سألنى أحدهما : ما هذا ؟

قلت : جمجمة فيل فأنا أحب جماجم الفيلة خاصة فى الصيف، لا استطيع العمل بدونها ، وإن صيفا يمر دون جمجمة فيل ، يكون صيفا لا يطاق .

٩ يوليه :

امتلأ اليوم برغبة حارقة لذيذة تدفعنى لأتفوق على نفسى فعدم

الرضا الجليل هو علامة على أن شيئا ينمو داخل روحى سيمنحنى رضا كبيرا . عند الغسق نظرت من النافذة نحو «جالا»، فبدت لى أصغر سنا من المساء السابق ، كانت تبحر فى قاربها الجديد ، وحين مرت من امامى حاولت مداعبة البجعتين اللتين نمتلكهما ، وكانتا تقفان على قارب صغير ، لكن احداهما طارت ، واختبأت الثانية تحت جانب المركب .

١٠ يوليه :

تلقيت رسالة من ارتورو لوبيز – حسب قوله فانى أعز أصدقائه – يخبرنى بأنه سيأتى بيخته الذى أعاد تزيينه على طريقة لويس ١٥ وزوّده بطاولات رخامية ، إلى برشلونة حيث سنقابله هناك ثم نعود معه إلى بورت ليجات جالسين طبعا إلى الطاولات المرمرية . إن اقامته عندنا ستكون تاريخية ، فنحن سنتخذ قرارا بعمل كأس ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة مخصصة إلى Tempietto di Bramante فى روما ، سأصف زيارته التاريخية فى ٢ أغسطس بعناية المؤرخ ، وإنى استطيع ذلك إذا أردت (٢٧)

١٢ يوليه :

حلمت أحلاما خلاقة طوال الليل ، فى احدها اخترعت أطقم

كاملة من الفساتين ، كانت كافية لاثرائى طوال سبعة مواسم كمصمم لملابس النساء ، نسيان الحلم أفقدنى [illegible] حزن ، واستطعت بالكاد تصميم فساتين ستلبسها جالا فى نيويورك هذا الشتاء . لكن آخر حلم من أحلام الليلة كان قويا بحيث اتذكره ، وكله عن كيفية الحصول على صور فوتوغرافية لعملية صعود العذراء ، سأسميه عيد الصعود واستخدم الطريقة فى أمريكا . مازلت أذكر الحلم تماما كأنى أحلمه . تأخذ خمسة أكياس من الحمص تضعها جميعا فى كيس كبير ، تُسقط الحمص من ارتفاع ٣٥ قدما ، مع تسليط صورة للعذراء على حبات الحمص تحت ضوء كهربى قوى ، ستكون حبات الحمص المنفصلة عن بعضها صورة للعذراء ، كل حمصة تسجل جزءا صغيرا من الصورة ، وبتصوير هذه الصورة معكوسة ، سيتسبب التسارع المتساقط لحبات الحمص بسبب قوانين الجاذبية فى خلق صورة تصاعدية للصعود تتفق مع أدق قوانين الطبيعة ، إن مثل هذه التجربة ستكون فريدة فى نوعها ، ولكى تزيد من التأثير يمكنك تغليف كل حمصة بمادة تعطيها كثافة معينة ، فيصبح المنظر سينمائيا تماما .

١٣ يوليه :

كتبت اليوم الخطاب التالي إلى بلا . إل .

صديقى العزيز : توقف إل . عن القول بأن كتابا بقلمك عنى سينجح جدا فى الارجنتين وسيترجم لعدة لغات . وبما أننى أعلم أنك تخطط لكتابة عدة كتب فى هذه اللحظة ، فإنى أعتقد أنها لحظة مناسبة لكتابة واحد آخر . المهم أن تجد طريقة لكتابته دون أن تعمل به ، بمعنى أن تدع الكتاب يكتب نفسه . ويمكن حل هذه المشكلة عن طريق العنوان : ذرة دالى Dali's Atom ، وستكون المقدمة جاهزة بالفعل فى شكل هذا الخطاب . طبعا تتفق معى أنه فى كل مقاطعة «امبردان» الاسبانية لا توجد سوى ذرة واحدة هى ذرة دالي التى ستعطى الكتاب الاهتمام الذى يحتاج إليه . وفى كل لقاء لنا سأزودك بالاخبار عن ذرتى بالإضافة إلى الصور والوثائق، وبهذه الطريقة، فكل ما عليك هو خلق الجو الذى تضعها فيه ، وسيكون ذلك سهلا بالنسبة لك إذا كرست له مواهبك الوصفية الفائقة ، فذرتى نشطة لدرجة أنها تعمل طوال الوقت . أكرر ، لسنا نحن الذين سنكتب الكتاب ، فبالنسبة لذرة - خاصة ذرة دالى - يصبح الكتاب أمرا طبيعيا . إنه كتاب مكـرس لشىء

لا يمكن وصفه بطريقة مختصرة ، حيث إني لا أعرف ما سيكون عليه ، لكن لا يوجد شيء في العالم يبدو حلوا وسعيدا ومريحا وحتى جليلا ، مثل السخرية السامية التي تشير إليها مباديء ايزنبرج Eisenberg حول الحيرة وعدم اليقين .

تعال لتناول الغداء معنا ، ستأكل كل ما تحب

أو ما يناسب نظامك الغذائي .

المخلص

١٤ يوليه :

حلمت بفارسين ، أحدهما عار تماما والآخر كذلك ، كانا على وشك الدخول إلى شارعين متماثلين . يرفع حصاناهما القدم ذاتها، ويدخلان الشارعين على التوالي . أحد الشارعين يفيض بنور شديد ، بينما الآخر شفاف كما في لوحة رفائيل «زواج العذراء» وعلى البعد يوجد كثير من البللورات . وفجأة امتلأ أحد الشارعين بضباب متحرك بدأ يتكاثف بالتدريج حتى كوّن لجة رصاصية لا يمكن اختراقها ، كلا الفارسين كان سلفادور دالي ، أحدهما حبيب جالا ، والآخر لا يعرفها .

١٥ يوليه :

لا تهتم بكونك حداثيـــا ، فإن كل ما تفعله ، لســوء الحظ ، لا يمكن تجنبه .

أشكر ، مرة ثانية ، سيجموند فرويد ، وأوافق بصوت أكثر علوا على حقائقه الكبيرة التى اكتشفها . ففى تحليلى الاستبطانى المدقق المتواصل لأفكارى الضئيلة ، اكتشفت لتوى ، ودون أن أدرك ، أنى لم أرسم شيئا فى حياتى كلها إلا قرون الخراتيت . فى سن العاشرة ، كنت طفلا كالجندب ، أتلو صلواتى على أربع ، أمام طاولة مصنوعة من قرن خرتيت ، كانت بالنسبة لى خرتيتا بالفعل . ألقيت نظرة أخرى على كل رسومى ، وذهلت من كم الخراتيت التى تحتويه ، حتى لوحتى المشهورة خبز Bread هى بالفعل قرن خرتيت يستلقى برقة فى سلة . أفهم الآن حماستى يوم أهدانى «لوبز» عصاى الشهيرة المصنوعة من قرن خرتيت ، بمجرد أن امتلكتها ، أثارت بداخلى تخيلات غير معقولة تماما ، والتصقت بها بطريقة مَرَضية غير مفهومة تصل إلى درجة المس ، لدرجة أنى ضربت ذات مرة حلاقا كاد يكسرها دون قصد ، وذلك حين أحنى بسرعة كبيرة الكرسى الذى وضعتها عليه برقة . ضربته بشدة

على كتفــه ، لكنى بالطبــع منحته بقشيشا كبيـــرا جــدا حتى لا يغضب .

الخراتيت .. أيتها الخراتيت .. من أنت ؟

١٦ يوليه :

من أجل أن تنتصر ، فالزى مهم . كانت المناسبات قليلة فى حياتى التى أذللت فيها نفسى لارتداء الملابس المدنية العادية ، فأنا أرتدى دائما زى دالى الخاص .

استقبلت اليوم شابا يبدو عليه الهرم ، جاء يطلب نصيحتى قبل أن يقوم برحلة إلى أمريكا . أعجبتنى الحكاية ، فلبست الزى الخاص ونزلت لمقابلته ، وكان موضوعه كالتالى :

يريد الذهاب إلى أمريكا ويحقق نجاحا فى أى مجال ، أى شىء مادام سينجح فيه ، والحياة المتوسطة العادية فى أمريكا تروق له ، ســـألته : هل لديك عادات ثابتة ؟ وهل تحب أن تأكل جيدا ؟

أجاب بطمع أستطيع الحياة على أى شىء .. فاصوليا مثلا استطيع أن أعيش عليها كل يوم لعدة سنوات .

قلت له حالما وبلا مبالاة : ذلك سيىء .

دهش ، شرحت له : إذا أردت أن تأكل فاصوليا وخبزا كل يوم فذلك مكلف ، فانت ستكسبهما بالعمل الشاق ، أما إذا استطعت التعوّد على تناول الكافيار والشمبانيا فلن يكلفك ذلك شيئا .

ابتسم ببلاهة ، وظن أنى أمزح .

قلت بجدية : أنا لم أمزح فى حياتى قط .

وفى الحال بدأ يصغى بتواضع ، قلت «الكافيار والشمبانيا يمكن أن تُقدمهما لك مجانا ، سيدات متميزات جدا ، تفوح منهن رائحة عطر رائع ، ويحيطهن أفخر الاثاث وأجمله ، ولكن لتحصل عليهن ، يجب أن تكون مختلفا عن الشخصية التى جئت تقابلنى بها ، أظافر قذرة بينما اقابلك أنا بزى رسمى . اذهب واعمل على حكاية الفاصوليا . إنها مشكلتك . كما أن شكلك يشبه حبة الفاصوليا الجافة المجعدة ، أما بالنسبة للون قميصك السبانخى - إذا لم اخطىء - فهو بالضبط اللون الذى يميز الفاشلين من الناس، والذين يهرمون قبل أوانهم .

١٧ يوليه :

لا تخف من الكمال ، فلن تدركه . دالى

امتلك وعيا دائما بأن كل شيء يتماس مع حياتى فريد ، وغير عادي وكامل ، ولاذع أيضا .

وأنا اتناول الإفطار ، رأيت الشمس تشرق ، فأدركت أنى أول اسبانى تلمسه أشعة الشمس فى الصباح ، فبورت ليجات ، التى أقيم فيها ، تقع جغرافيا فى معظم الجزء الشرقى من اسبانيا ، وحتى Cadaques التى تبعد عشر دقائق من هنا تشرق الشمس فيها متأخرة عنا .

كما أفكر أيضا في الاسماء الأولى المغالى فيها لصيادى بورت ليجات : الماركيز ، الوزير ، الافريقى ، حتى أن هناك ثلاثة يُسمون بيسوع ، أنا متأكد أن هناك قليلا من الاماكن فى العالم - خاصة بحجم بورت ليجات - يمكن لثلاثة باسم يسوع أن يقابلوا بعضهم .

١٨ يوليه :

الله يساعد اولئك الذين يستيقظون مبكرا

مثل اسبانى

برغم أن هناك تقدما عظيما فى رسم لوحتى صعود العذراء ، فإن ملاحظة أنه الثامن عشر من يوليه أخافتنى ، كل يوم يمر

الوقت اسرع من سابقه ، وبرغم أنى أعيش من عشر دقائق إلى أخرى ، أتجرعها دقيقة دقيقة ، محوّلا أرباع الساعات إلى معارك أكسبها بالمآثر والانتصارات الروحية ، متساوية فى الذكرى ، فإن الاسابيع تجرى ، وأنا اصارع إلى استثمار كل جزئية من وقتى الثمين المحبوب بشكل حيوى .

دخلت «روزينا» بالإفطار فجأة ، وأبلغتنى خبرا جعلنى أنتشى مرحا . قالت : غدا التاسع عشر من يوليه وهو الوقت الذى وصلتم فيه من باريس السنة الماضية .

أطلقت صرخة هستيرية «فى مثل هذا اليوم لم أكن قد وصلت هنا بعد . فى هذا الوقت من العام الماضى لم أكن قد بدأت رسم لوحة المسيح ، والآن وقبل أن تمر سنة علىّ هنا ، فإن لوحة صعود العذراء تقف على قدميها تقريبا مشيرة إلى السماء» .

وجريت فورا إلى الاستوديو ، وبدأت أعمل حتى كدت «أسقط من طولى» ، مخادعا نفسى ، لأستفيد من أنى لم أكن هنا فى مثل هذا الوقت من العام الماضى ، عازما على أن أحقق أكبر إنجاز ممكن فى موعد وصولى .

فى مثل هذا الوقت من العام الماضى لم يكن أحد فى بورت

ليجات يعرف أنى سأصل . وفى مثل هذا المساء ، فى موعد العشاء ، من العام الماضى ، كان الصغير جوان يصيح فرحا بأعلى صوته :

«سنيور دالى سيأتى مساء غد . سنيور دالى سيأتى مساء غد» . نظرت إلى «جالا» بتعبير الحب الفوار الذى لا يستطيع رســمه إلا ليوناردو ، وبالمناسبة فإن المئوية الخامسة لمولده تحل غدا .

وبرغم كل براعتى بالاحساس باللحظات الاخيرة من غيابى ، وبكثافة فاتنة ، فهأنذا هنا أخيرا ، فى الوطن ، فى بورت ليجات وسعيد بدرجة كبيرة .

٢٠ يوليه :

زودتنى «روزينا» بلحظات سعادة أخرى ، ذكرتنى بأنى بدأت ارسم المسيح بعد وصولى هنا بأربعة أيام . فأطلقت صرخة أكثر هستيرية من صرخة الامس ، عالية لدرجة أن الصيادين الذين كانوا فى مراكبهم فى البحر رفعوا رءوسهم لحظات لينظروا فى اتجاه منزلى .

اعتقدت أنى كلية فى قبضة الزمن ، واكتشفت أنى استطيع أن أهــرب منه أربعة أيام أخر . لو أســمع اخبارا كهــذه كل

يـــوم ، فسأركب مجرى الزمن ضد التيار ، شعرت بأني استعيد حيويتى ، وبأني أكثر قدرة على اتمام عملى بنجاح وبصورة شيطانية .

٢١ يوليه :

كيف يمكننى أن أشك بأن كل ما يحدث لى غير عادى بدرجة كبيرة !

فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، كنت مستغرقا بتحليل بعض الاشكال الثمانية التى رسمها ليوناردو دافنشى ، وفى رأيى أنها الاشكال التي ينبغى أن تضبط فكرة الصعود ، وفجأة رفعت رأسى لتأمل أحد أعظم الاشكال النموذجية فى عملى : شكل الثمانية ، عملاق ، مهيب ، متصاعد . لقد لاحظته لتوى . أحضرت «روزينا» البريد فى تلك اللحظة ، وسط الرسائل كانت هناك رسالة من عمدة قرية «الك» فيها برنامج مسرحية «اللغز» الغنائية الطقسية وحتى البهلوانية ، التى ستعرض فى الرابع عشر من أغسطس . فى إحدى الصور المرفقة تظهر الرمانة الذهبية تهبط مفتوحة من قبة الكنيسة ، إنها تحتوى على الملائكة الذين سيحملون العذراء . بدأت أعد على الفور : واحد .. اثنان .. ثلاثة

حتى الثمانية ، الرمانة ثمانية ، وتبدو فتحة القبة مثل الفتحة التى ارسمها .

حين يأتى ارتورو ساقترح إقامة حفل للاصدقاء ، سيسرون ، وسنذهب جميعا فى قارب لحضور المسرحية .

٢٢ يوليه :

لن تصعد العذراء إلى السماء اثناء صلاتها . إنها ستصعد بقوتها الذاتية العاتية ، فكرة الصعود فكرة نيتشوية ، إن الصعود هو ذروة الارادة لقوة الانثى الخالدة التى يطالب أتباع نيتشه بتحقيقها . وحيث إن المسيح ليس هو الرجل الكامل الذى اعتقده ، فإن العذراء هى المرأة الكاملة التى ، حسب حلم أكياس الحمص الخمسة ، ستسقط إلى السماء ، وهذا يشير إلى أن أم المسيح تظل جسما وروحا فى الجنة .

٢٣ يوليه :

ثلاثة آلاف جمجمة فيل !

جاء يزورنى كولونيل فرنسى وقت الغسق . حين تطرق الحديث إلى جمجمة الفيل ، قلت له : لدى خمس جماجم بالفعل . قال متعجبا : لماذا كل هذه الجماجم ؟

قلت : مازلت أحتاج لثلاثة آلاف جمجمة ، ولابد أن امتلكها - وهناك صديق لى ، مهراجا ، سيحضر لى حمولة مركب منها . آمل ذلك . سيأتى الصيادون لافراغها هنا على حاجز الامواج الصغير . سانثرها فى جميع الاماكن فى بورت ليجات .

صاح الكولونيل : سيكون ذلك جميلا .. سيكون ذلك دانتيا (نسبة إلى دانتى) .

قلت : والاكثر مناسبة أيضا .. فأنت لا تستطيع أن تزرع شيئا فى هذه الارض دون أن تفسد المنظر . لا توجد أشجار صنوبر .. سيكون التأثير مهولا .. جماجم الفيلة هى الأفضل حقيقة .

٢٥ يوليه :

عيد القديس Jacques وهو يوم عيد مقاطعة Cadaques ، جدتى لأمى ، ضئيلة الحجم ، النظيفة والمهندمة دائما ، كانت لا تفشل أبدا فى تلاوة هذه الاشعار فى مناسبة كهذة ، حين كنت طفلا :

عيد القديس جاك
فى اليوم الخامس والعشرين
سيقام احتفال كبير .. فى الحلبة

كل الثيران مؤذية

وهناك سبب لحرق الاديرة .

تبدو لى هذه القصيدة تلخيصا كليا لتناقض الاسبانى مع نفسه .

أحسسنا من امتداد فترة الشفق وروعته أن الليلة ستكون إحدى ليالى الصيف الباردة الخاوية .

تصل إلينا من بعض خيام المتسكعين المنصوبة على بعد قريب من البيت ، أصوات أغنيات شعبية .

منحنى هؤلاء المغنون المرتجلون سرورا غير متوقع يبعث على استرخاء لا يضاهى ، وكثافة عاطفية تعيدنى بحيوية وجدانية وبصرية إلى فصول صيف مراهقتى ، حين كنت أذهب لإقامة المعسكرات والغناء مع أصدقائى .

لقد أعطانى هؤلاء المتسكعون البسطاء لحظات قليلة رائعة ، لو كنت مطلق السلطة لأمرت بمعاقبتهم بثلاث أو أربع ضربات من العصا لكل منهم ؛ لأنهم ليسوا بالشكل الذى كنت عليه . أعرف أنهم أغبياء ، ومحبون للرياضة وطيبون ، لكنى فى مثل سنهم

كنت أحمل كتب نيتشـــه فى حقيبتى ، وأوجع دماغى ودماغ الآخرين .

٢٦ يوليه :

إذا كنت متوسط الموهبة ،
سيظل الناس ينظرون إليك
كمتوسط الموهبة حتى لو بذلت
جهدا كبيرا لترسم بشكل ردىء . دالى

بعد يوم منهك من العمل ، تسلمت برقية تفيد بوصول مائة واثنين من الرسوم الخاصة بالكوميديا الالهية إلى روما .

وأحضر لى الناشر «جينز» كتاب «دالى العارى» . تناولنا الغداء وشربنا شمبانيا رائعة ارتشفتها فى نشوة من السعادة ، هذان أول كأسين من الشمبانيا أشربهما منذ ثمانى سنوات .

٢٨ يوليه :

كانت تمطر طوال النهار على جمجمة الفيل وكل شىء آخر . ووقت القيلولة كان هناك قصف رعد معتدل . حين كنت صغيرا اعتادوا أن يقولوا لى «هناك من يحرك الاثاث فى الغرفة العلوية» . أفكر هذه الايام فى وضع مانعة صواعق لحماية المنزل . فى المساء

وجدت فى المطبخ إناء خزفيا كبيرا مليئا بالحلزون ، كنت طوال النهار أتشوق لهذه الأكلة اللذيذة ، يبدو الحلزون الرمادى داخل قواقعه كأنه يستلقى على حشية من النشاء منتفخة وحريرية بلون الرصاص ، الظلال الرمادية طغت على المحار الاسود ، واللون الابيض اللبنى يذكر المرء بلون بطن طائر الحجل .

٢٩ يوليه :

عبقريته أكبر من برغوث

وأقل من ضرطة . Piet (٢٨)

بسبب ضرطـــة طويلة جدا ، حقيقة طويلة جدا ولكن صرحاء ، ضرطة حسنة الايقاع ، أخرجتها حين استيقظت ، ذكرتنى بميشيل دى مونتان (٢٩) الذى كتب أن القـــديس أوغسطين كان ضراطـــا عظيما ، وقد نجح فى عزف ألحان كاملة .

٣٠ يوليه :

فرحت جدا بأن الشهر ينتهى اليوم ، لكن الخادمة ، التى اخبرتنى بذلك ، كانت مخطئة ، قبل الغداء عرفت أن غدا سيكون الحادى والثلاثين ، ذلك يعنى أنى سوف أنتهى من رسم وجه «جالا» فى لوحة الصعود قبل نهاية الشهر .

لوحة ستكون الاكثر جمالا والادق شبها بها فى كل ما رسمته من قبل .

الأول من أغسطس ١٩٥٢ .

لأول مرة منذ سنة على الأقل ، أتطلع الليلة إلى السماء المملوءة بالنجوم . بدت لى صغيرة ، هل كبرت ؟ أو أن الكون ينكمش ؟ أو كلا الامرين معا ؟ كم يختلف تأملى الآن عن التأمل المرهق للنجوم فى مراهقتى . حيّرنى الكون آنذاك بسبب رومانسيتى ، واستحوذت علىّ الكآبة والسوداوية لأن مشاعرى كانت غير محددة. أما الآن فإن عاطفتى محددة لدرجة تمكننى من تجسيدها فى تمثال نصفى ، وقد قـــررت أن أفعل ذلك ، تمثـــال من الجـص يقدم بدقة متناهية العاطفة التى أثارها تأمل القبة السماوية .

ستكون عاطفتى ذات شكل تام ، لأربعة أرداف متصلة فى رقة لحم الكون . حين ذهبت إلى السرير تعبا جدا بعد يوم عمل شاق ، حاولت أن أحتفظ بهذه العاطفة حتى فى السرير ، فالكون بكل المادة التى يحتويها ، مهما بدت وافرة وغزيرة يمكن أن يتقلص إلى

هذه النسب المعقولة ، وقد أسعدني ذلك وكدت أفرك يدّى ، ولكن بدل ذلك سأقبلهما بفرحة غامرة مكررا إلى نفسى ، أن الكون مثل كل شيء مادى ، يبدو حين يرسم ، تافها وضيقا إذا قورن مثلا بجبهة عريضة رسمها رفائيل .

٢٠ أغسطس :

تسلمت أخيرا التجسيد الجصى لعاطفتى ، وقررت أن التقط صورة لهذه السلسلة المتصلة من الأرداف . كان هناك بعض الاصدقاء في الحديقة . صعدت حيث تقف امرأة مجتمع محترمة . نظرت إليها ، وأنا أنظر إلى كل النساء ، وفجأة هبطت علىّ رؤيا ، أن المرأة التى تقف أمامى ، مديرة ظهرها لى ، يشبه ردفاها أرداف التمثال . طلبت منها أن تقترب من السبيكة وقلت لها إن أسفل ظهرها يشبه رؤيتى للكون ، فهل توافق أن التقط صورة لهذا الجزء ؟ وبطريقة طبيعية جدا وافقت . رفعت فستانها ، وانحنت على الحاجز القصير تثرثر مع الاصدقاء فى الشرفة السفلية دون أن يدرك أحد ما يحدث هنا . قدمت لى مشهدا لردفيها يمكننى من مقارنة السبيكة بلحم جسدها . بعد أن انتهيت

من الصورة ، سوت فستانها وأعطتنى مجلة كانت تحتفظ لى بها فى حقيبتها . كانت مجلة قديمة ، قذرة وبالية ، وجدت فيها ، بكل الافتتان الذى يمكنك تخيله ، استنساخا لشكل هندسى يتطابق مع سبيكتى : سطح بانحناءة كاملة متوالية ، حصلوا على صورته بتجارب لتفلق آلى لنقطة زيت .

أحداث كثيرة فى وقت قليل ، تمت بشكل دالى نموذجى تؤكد النتيجة بأنى وصلت إلى قمة عبقريتى .

أول سبتمبر :

صعود العذراء مصعد

يرتفع بسبب جسد المسيح .

أنا أول من يُذهل من الاحداث غير العادية التى تقع لى كل يوم. لكن يمكن القول بأن الحادثة الفريدة فى حياتى حدثت بعد ظهر اليوم ، بعد ربع ساعة من «تعسيلة» منعشة .

حاولت أن أنزل لوحتى قليلا كى أرسم الاجزاء العلوية ، لكن البكرات لم تعمل بشكل صحيح ، يبدو أنى تصرفت بقوة ، فانفصل القماش الذى أرسم عليه ، ووقع بضجة من ارتفاع عشرة

أقدام على الأقل ، فى الحفرة التى تساعدنى على انزال أو رفع اللوحة حسب الحاجة .

خفت أن تكون اللوحة قد خُدشت أو تمزقت ، وبذلك يضيع جهد ثلاثة شهور ، أو على الأقل سأضطر لاضاعة الوقت والجهد لاصلاحها . الصرخات التى أطلقتها جعلت الخادمة تأتى مهرولة لترانى شاحبا شحوب الموت . وتراءى لى معرضى فى نيويورك وقد تأجل أو أُلغى ، لابد من استدعاء شخص يهبط إلى الحفرة ليحضر بقايا لوحتى الرائعة غير المكتملة . لكن لسوء الحظ كان كل فرد فى بورت ليجات يأخذ «تعسيلة» فى ذلك الوقت . وفى جنون صعدت إلى الفندق ، وفقدت فردة شبشب فى طريقى ، ولم أهتم بالتقاطها ، ولابد أن منظرى كان مرعبا بشعرى المنكوش وشاربى غير المسوّى ، فقد رأتنى فتاة انجليزية ، فصرخت وجرت لتختبىء ، وجدت ، أخيرا ، رفائيل مالك الفندق ، فطلبت منه المجىء ومساعدتى .

نزلنا إلى الحفرة وبعناية شديدة أخرجنا اللوحة . معجزة ! كانت سليمة تماما ، لاخدش ولا ذرة واحدة من القذارة . لم يفهم

أحد ممن عرفوا بالحادث كيف يمكن أن يحدث ذلك دون تدخل العناية الالهية !

أدركت فجأة أن سقوط اللوحة أكسبنى فى خبطة واحدة كل شهر أغسطس ! كنت خائفا من العمل فى لوحتى بسبب كمالها ، وكنت أبطىء عمدا ، الآن ، وقد أدركت أنها يمكن أن تُدمر ، فلابد أن أعمل بسرعة وبلا توقف . بقية النهار كانت كافية لرسم القدمين، وحتى لتلوين القــدم اليمنى والجو الذى يحدد معالم اللوحة .

كنت أفكر أثناء العمل بهبوط العذراء تجاه السماء بقوة وزنها، الشىء نفسه حــدث مع عذرائى بسقوطها فى أعماق قبــرها . لقد نجحت فى اســـترجاع صعودها الجليل ماديا وأخلاقيا ورمزيا . هذا النوع من المعجزات ، يحدث فى هذا العالم بسبب شخص واحد هو ســـلفادور دالى . وبتواضع شكرت الله وملائكته .

٢ سبتمبر :

أسوأ رسام فى العالم ،

من كل النواحي ، ودون
أدنى تردد أوشك ،
هو تيرنر Turner (٣٠)

داليـ

بينما كنت فى التواليت هذا الصباح ، جاءتنى للمرة الثانية رؤية رائعة صادقة ، وبالمناسبة فإن حركة امعائى كانت جيدة بشكل استثنائى ، ودون رائحة . كنت أفكر فى مشكلة طول عمر الانسان ، بسبب أحد المعمرين الذى يهتم بالموضوع ، وقد هبط بالباراشوت فوق نهر السين مستخدما مظلة حمراء حريرية . كان الحدس الذى جاءنى ، أنه لو استطعنا أن نجعل اخراج الانسان سائلا كالعسل فإن عمره سيطول ، فالاخراج على رأى باراسيلوس Paracelsus (٣١) هو خيط الحياة ، وأى قطع له بواسطة الريح ، يعنى أن لحظة من الحياة تُستقطع ، كالمقص يقطع خيط الوجود ، يقسّمه ويستخدمه . وحيث إن مهمة الانسان الكبرى على الأرض ، اضفاء الروحانية على كل شىء ، فإن الاخراج هو الأولى بذلك . ولذا فإنى أكره كل النكات الخاصة

بالامعاء ، وكل أشكال التبذل حول هذا الموضوع . وفى الواقع ، يدهشنى الكم القليل - فلسفيا وميتافيزيقيا - الذى أولاه العقل البشرى لمسألة حيوية كالإخراج ، وفى اليوم الذى أكتب فيه أطروحة عامة حول الموضوع ، فسأدهش العالم كله بالتأكيد ، وستكون تلك الاطروحة على تضاد كامل مع مقالة «سويفت» عن المراحيض .

٣ سبتمبر :

اليوم هو الموعد السنوى لحفلة Beistegui ، ذكرى الثالث من سبتمبر العام الماضى فى فينيسيا ، حيث حضرت الحفل مع جالا بملابس تظهرنا كعمالقة ، تغمرنى بلوعة حادة ، قلت لنفسى : سأنتهى اليوم من القدم اليسرى ، وابدأ رسم زخارف الذراعين الخرتيتية ، وخلال يومين سأبدأ فى تلوين الكريات بالرسم المنظورى . وبعد ذلك أنغمس فى رفاهية التأمل الكبيرة واسترجاع أثر الحفلة ، أحتاج لذلك حتى أنغمس فى الكريات الفينيسية (نسبة إلى فينيسيا) المضيئة لجسد رائعتى جالا على اللوحة .

٤ سبتمبر :

صارعت عدة مرات ببسالة ، لأمنع مشاهد الحفلة من الاستئثار بتدفق استغراقى فى التفكير ، نجحت فى حماية نفسى من الرؤى بالطريقة ذاتها التى اعتدتها وأنا طفل ، بالدوران حول المائدة لمدة ساعة وأنا أكاد أموت من العطش ، قبل أن أتناول كوبا من الماء البارد يطفىء ظمئى الذى لا يروى .

٥ سبتمبر:

حافظت على حبس ذكرياتى عن الحفلة ، بالضبط كما يحبس المرء بوله ، كنت أدور حول لوحتى ، أتنطط وابتدع رقصة باليه جديدة .

٦ سبتمبر :

فى اللحظة ذاتها ، التى بدأت فيها أخيرا ، أدع لمخى المحبوب البدء فى اعادة تجميع مشاهد حفلة «بستجوى» ، أبلغت بمقدم أحد المحامين . طلبت أن يوضحوا له أنى أعمل وسأقابله فى الساعة الثامنة،عادت الخادمة لتخبرنى بأنه يصر على رؤيتى الآن لأنه جاء بتاكسى ، والتاكسى ينتظر . وهذا السبب يبدو سخيفا جدا بالنسبة لى، لأن التاكسى ليس كالقطار ، فيمكنه الانتظار .

ان توقفي قليلا عن خططي التأملية يستثير لدى نوازع التمرد . قلت لروزيتا : ان تأملاتي والكريات التي ارسمها لجسد جالا الرائع لا يمكن ازعاجها بالترك قبل الساعة الثامنة مساء . لكن المحامي ، متظاهر بأنه صديق حميم لي ، دخل غرفة المكتبة وأزاح بعض الكتب المهمة جدا في الفن ، وقلب بعض رسومي الثمينة جدا التي لا يسمح لأي شخص بلمسها وأخرج ورقة وبدأ يكتب إقرارا بأني أرفض مقابلته ، وطلب من الخادمة ان توقعه .

صعدت الخادمة لتخبرني بالأمر ، فاندفعت الى اسفل ومزقت كل الاوراق التي جرؤ وفردها على الطاولة ، وقذفت به خارج المنزل بركلة في الخلف .. ركلة رمزية لأني لم ألمسه .

٧ سبتمبر :

انغمست في حالة نشوة من أحلام اليقظة التي تمهد الطريق لاستعادة مشاهد الحفلة ، وأنا أحس بالفعل بالتواصل «البروستي» بين بورت ليجات وفينيسيا .

في الساعة السادسة ،لاحظت ظهور ظل على الجبال ، كان هناك برج ، ويبدو لي ان الظل متوافق تماما مع الظل الذي يمتد على النوافذ الخلفية لكنيسة لاسالوت في فينيسيا ، كل شيء

باللون القرنفلى نفسه ، كما كان فى يوم الحفلة فى حوالى الساعة السادسة ، على مقربة من مبنى الجمارك .

٨ سبتمبر :

بدأت اليوم برسم الكريات على الجسد ، متسامية وبألوان إضافية تصل إلى الذروة ، فهناك الخضراء والبرتقالية والشقراء المصفرة ، هاهى ذى فى النهاية لوحتى ذات الكريات .

إنى استمتع بشدة ، فلأطرد بعيدا ذكريات الحفلة حتى الغد . فى الصباح سأقوم بعمل بعض الكريات دون حلم ،اترك افكارى حرة تماما تفعل ما تريد ، وبعد الظهر سأعطى نفسى كلها لتحلم حول الحفلة باستحواذ ودقة مذهلة. سأستهلك ذكرياتى الكسولة .. حتى أجف .

٩ سبتمبر :

اليوم ، كنت سأترك لافكارى العنان لتستعيد ذكريات الحفلة لولا ان قاطعنى استدعاء من الشرطة بطلب الحضور فى ١١ سبتمبر ، وذلك بسبب ما حدث مع المحامى أخبرونى أنه قد يحكم على بالسجن لمدة سنة ، أجلت كل تأملاتى إلى حين ، وركبت الكاديلاك بسرعة إلى ج . لرؤية السفير م . الذى سألته النصيحة.

لقد تصرف معى باحترام وود كامل ، وتحدث بالتليفون مع وزيرين على الأقل .

١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤ سبتمبر :

حتى لايزعجونى ، اسمعونى وثيقة رسمية تليت بعد ظهر أحد الايام . لقد أضعت كل هذا الوقت فى معالجة قضية المحامى. من الآن فصاعدا ، سأتصرف تبعا للعرف والتقاليد ، كقملة أسرع من الصوت ، تجاه كل المسئولين ومن شابههم ، على آية حال كانت هذه وجهة نظرى دائما ، واذا تصرفت بطريقة مختلفة فى هذه المناسبة ، فذلك بسبب كرياتى المتسامية التى أرسمها وقد أوحت لى كما توحى العظمة للكلب ، بل اكثر من ذلك .

الهاماتى كانت ذات طبيعة كونية ، ومن الواضح أن المحامى لايستطيع أن يفهم ذلك وما كنت اشعر به فى تلك اللحظة التى قوطعت فيها ، هو اقتراب مقدمة نشوة الكريات .

١٥ سبتمبر :

الكمد الذى انتابنى بسبب احتمال سجنى لمدة سنة نتيجة الحادثة مع المحامى ، استفز داخلى احساسا حادا بالآنية - الحاضر . أحب جالا أكثر مما كنت أعرف ، وكنت بدأت أرسم

كما يغنى العندليب ، وفجأة تمرد عصفورى الكنارى ، وتوقف عن الغناء ، وهو أمر غريب . رسمت ثلاث رسمات لجالا بالطباشير الاحمر وهى تصلى عارية . فى الايام الثلاثة الاخيرة كنا نشعل النار فى المدفأة الضخمة فى غرفتنا ، وحين نطفىء النور ، تنيرنا الكتل الخشبية المشتعلة :

من الممتع الا أكون فى السجن بعد ، ورائع أن أعطى نفسى إجازة غدا قبل الانغماس فى حلم اليقظة الكبير المتسامى المهلك اللذيذ لحفلة بستجوى . أنهيت يدى وقدمى العذراء .

١٦ سبتمبر :

بدأت فى رسم أول كرة دم فى لوحة صعود العذراء لاسجن فى الوقت الحالى ، وذلك يجعلنى استطعم حتى النخاع سجنى التطوعى فى بيتى فى بورت ليجات . إنى أعد نفسى روحيا لأبدأ غدا عند دقة الثالثة والنصف الاستغراق فى حفلة بستجوى .

١٧ سبتمبر :

لكن ذلك لم يحدث . الاستغراق لم يحدث ، وبدأت ادرك ان هذه الصعوبة فى الاستغراق – الذى يسعدنى جدا مجرد التفكير فيه – قد نتج عن شىء ما نموذجى ومتناقض وفريد ويتعلق

بشخصى . تولد لدى انطباع بأنه الألم البسيط فى الكبد الذى أعزوه الى القلق بسبب حادثة المحامى ، لكنى اكتشفت فى النهاية أن لسانى مغطى بلون مختلف ، دهشت كثيرا ، فهذا لم يحدث لى منذ سنوات عديدة . تناولت نصف جرعة عادية من دواء ملين . اشك الآن ان تأملاتى ستبدأ غدا ، وأرجعت سبب الفكرة الغامضة التى انتابتنى بأنى فى حالة لاتمكننى من البدء فى الانغماس المحبوب المهلوس إلى لسانى المغطى بشكل غير عادى، فالمعدة المضطوبة تخالف تماما النشوة السامية التى يجب أن تسبق نفسيا ، فعل الخيال المكثف المبهج. دخلت جالا وقبلتنى قبل أن أنام. إنها أحلى قبلة فى حياتى .

١ نوفمبر :

فى اللحظة التى يموت فيها شخص مهم ، أو شبه مهم ينتابنى إحساس فورى ، مكثف، يقينى ، ان هذا الميت قد أصبح «داليا» مائة فى المائة ، لأنه من الآن فصاعدا سيرعى عملى. هذا اليوم كرسته للتفكير بالموت وفى نفسى . يوم للتفكير بموت فدريكو جارثيا لوركا ، الذى أطلق عليه الرصاص «فى غرناطة». فى

انتحار Rene Crevel في باريس ، وجان مايكل فرانك في نيويورك ، التفكير في موت السريالية ، وموت الامير مدفاني -Mdi vani بقطع رأسه بسيارته الروزرويس، وموت سيجموندفرويد منفيا في لندن ، والموت المزدوج لستيفان زفايج وزوجته ، وموت الاميرة فاوسيني لوسينج ، وموت كريستيان برارد ولويس جوفيه على المسرح ، موت جرترود شتاين وجوزيه ماريا سيرت و مسيا سيرت وليدى مندل ، موت روبرت ديسنو و انتونين ارتو ، موت الوجودية، موت أبي ، وموت بول الوار :

لدى يقين بأن صفاتي كمحلل نفسي ارقى من تلك التي لدى مارسيل بروست ، ليس فقط لاني استخدم طريقة المحلل النفسي التي لم يعرف عنها شيئا ، ولكن بسبب تركيبة عقلي الجنونية السامية التي تؤهلني لهذا النوع من التحليل ، بينما التركيبة العقلية لبروست كانت عصبية مكتئبة، وبالتالي أقل مناسبة لمثل هذه التحليلات . ويمكن معرفة ذلك بسهولة ، من شكل شاربه الكئيب المشوش الشبيه بشارب نيتشه والمناقض لشارب «فالسكوين» المتأهب اليقظ المرح الباخوسي (نسبة الى باخوس اله الخمر عند الرومان) ، أو الشارب الخرتيتي المتفوق لخادمكم

المتواضع العبقرى دالى .

احب دائما استخدام الطريقة الشعرية Pilose (نسبة الى الشعر) ، إما من وجهة النظر الجمالية لأحدد التوازن المناسب للشخصية المعتمد على فرق الشعر ، أو النظرة النفسية المرضية للشارب المسيطر ، ذلك الثابت التراجيدى للشخصية ، اكثر الملامح مشاكسة فى الوجه الذكورى .

ولكن اذا فضلت استخدام مصطلحات الطهو لعرض افكارى الفلسفية صعبة الهضم ، فأتوخى دائما ان يكون لها شفافية وحشية حتى آخر شعرة ، دون أدنى كلمة غامضة مهما كانت ضئيلة .

ولذا أحب أن أقول إن مارسيل بروست ، بتأمله الماسوشى وتشريحه السادى الشرجى للمجتمع ، قد نجح فى تخليق حساء مذهل غليظ القوام ، مؤثر ، حساس ، شبيه بالموسيقى من الجمبرى والشىء الوحيد المفقود فى هذا الحساء هو الجمبرى ، وقد يقال إنه موجود فى الخلاصة فقط . لكن دالى على العكس من ذلك تماما ، فنتيجة لأكثر الخلاصات تفاهة فى تشريحه الخاص للأمور ، نجح أن يقدم لكم ، على طبق مبهر ودون شعرة معرفة ،

جمبرى حقيقيا صلبا لامعا ، يمكن أن يؤكل .

بروست يصنع الموسيقى من الجمبرى ، ودالى نجح فى صنع جمبرى من الموسيقى .

ولكن دعونى أتحدث عن موت أولئك المعاصرين الذين عرفتهم وكانوا أصدقائى .

شعورى الأول انهم أصبحوا داليين (نسبة الى دالى) لدرجة انهم سيكونون جزءا مهما من مصادر عملى ، وفى الوقت ذاته ينتابنى شعور مختلف يفرض نفسه ، شعور مزعج ومتناقض هو إنى سبب موتهم .

ودون الحاجة إلى سؤال ، فان تفسيرى الجنونى قد زودنى بأكثر الأدلة شمولا على مسئوليتى الاجرامية ، لكن من الناحية الموضوعية فان كل ذلك زائف وغير حقيقى ، وبالتالى انتهى كل شىء على خير ، وهذا هو السبب أنى اعترف لكم دون خجل وان كان بكآبة .

ان الميتات المتتابعة لاصدقائى ، تفرض نفسها على بشدة ، على شكل طبقات رقيقة جدا من مشاعر ذنب زائفة ، تكون أخيرا نوعا من مخدة ناعمة أنام عليها فى الليل منتعشا وأقل قلقا .

شـاعـر الموت الغـادر فـدريكو جـارثيـا لوركـا ، قـتل رمـيـا بالرصاص في جرانادا .

أو ....لي ....

صيحة الاستهجان الاسبانية التقليدية ، يطلقها محبو مصارعة الثيران في كل مرة ينجح فيها الميتادور بالقيام بحركة جميلة ، أويطلقها الجمهور مشجعا مغني الفلامنكو، أطلقتها حين تلقيت في باريس خبر موت لوركا أفضل أصدقاء شبابي الصاخب ، معبرا بذلك ان مجده قد تحقق بنجاح نموذجي مأساوى اسباني .

كان لوركا يشير إلى موته خمس مرات في اليوم على الاقل ، وكان لايستطيع الذهاب إلى النوم ليلا إلا اذا وضعته مجموعة منا في السرير ، وحتى في السرير لايعدم الوسيلة في أن يطيل الحديث عن الشعر الذى ينتهي، و غالبا ، بمناقشة الموت ، خاصة موته .

كان يغني ويمثل بحركاته كل ما يتحدث عنه ، وبشكل خاص الحديث عن موته . كان يقول : «انظر .. هكذا سأبدو حين أموت»، ثم يرقص رقصة أفقية يعرض فيها حركة جسده أثناء الدفن ، وانزلاق التابوت إلى القبر . ويستمر ليرينا كيف سيبدو وجهه بعد

أيام قليلة من موته ، فتشع ملامحه ، التى كانت بطبيعتها غير انيقة جدا ، جمالا جديدا وتتخذ شكلا محبوبا ، ويبتسم ، منتشيا بالنصر ، وهو متأكد من التأثير الذى احدثه ، واستحواذه التام على مشاهديه .

لقد كتب :

للنهر لحية حجرية

ولغرناطة نهران

أحدهما للدموع والآخر للدم .

بل والاكثر من ذلك أنه فى نهاية قصيدته «نشيد إلى دالى» أشار عرضا ، وبطريقة جلية ، الى موته ، طالبا منى ألا اتوقف عنده مادامت حياتى وعملى يزدهران ..

آخر مرة رأيته فيها ، كانت فى برشلونة ، قبل شهرين من بداية الحرب الاهلية الاسبانية . «جالا» التى لم تكن تعرفه تأثرت بشدة بهذه الظاهرة الفردية الغنائية الكاملة .

وقد كان التأثير بينهما متبادلا ، فقد ظل يتحدث عنها ثلاثة أيام . كذلك الشاعر المليونير ادوارد جيمس ، الحساس جدا كطائر طنان ، أسرته شخصية لوركا ووقع فى شركها . كان

جيمس يرتدى ملابس مزخزفة ، سراويل جلدية قصيرة وقميصا مزينا بالدانتيلا، قال عنه لوركا : إنه طائر طنان يلبس كجندى من عصر سويفت .

اثناء تناولنا الطعام فى أحد المطاعم ، حطت على المفرش حشرة جميلة ، وسارت كأنها تمشى بخطوة الاوزة ، عرفها لوركا فورا ، وصاح ، لكنه أخفى هويتها عن جيمس بضغطها بإصبعه ، حين سحب اصبعه لم يكن هناك أثر للحشرة، هذا الشاعر، الحشرة الصغيرة ، المزينة بالدانتيلا كان الشىء الوحيد الذى يمكن أن يغير مصير لوركا .

كان جيمس قد استأجر فيلا قرب أمالفى - التى ألهمت فاجنر ليبدع بارسيفال - ودعانى أنا ولوركا ان نذهب ونقيم هناك الفترة التى نريدها . ظل لوركا مترددا ثلاثة أيام :هل يذهب او لا يذهب ؟ وكل ربع ساعة يغير رأيه كان والده فى جرانادا يعانى من القلب ، وكان قلقا عليه يخاف أن يموت ، وقرر فى النهاية أن يلحق بنا بمجرد أن يزور والده ويطمئن عليه ، فى الوقت ذاته ، انفجرت الحرب الاهلية ، أطلق عليه الرصاص بينما والده مازال حيا . وليم تل ؟ مازلت مقتنعا ، بأننا مادمنا لم ننجح فى اصطحابه معنا ،

فإن مزاجه القلق المتردد المريض نفسيا، سيمنعه من اللحاق بنا . على كل حال ، فى تلك اللحظة ولد داخلى إحساس حزين بالذنب تجاهه ،فلم أحاول جديا أن أبعده عن اسبانيا ، ولو أردت ذلك لاصطحبته إلى ايطاليا ، لكنى فى ذلك الوقت ، كنت أكتب قصيدة غنائية بعنوان «أنا التهم جالا»، وشعرت بشكل ما بالغيرة منه. أردت أن أكون وحيدا فى ايطاليا، أتطلع إلى أشجار السرو والبرتقال ومعابد باستردم المهيبة ، كى أشبع سعادتى بهوس العظمة والعطش للعزلة، فى الوقت الذى كان دالى يكتشف فيه ايطاليا ، كانت علاقتى بلوركا ومراسلاتنا العنيفة ، تتشابه بمصادفة غريبة ، مع الشجار المشهور بين نيتشه وفاجنر ، وفى تلك الفترة أيضا كتبت تحية للوحة Millet (٣٢) المسماة Angelns . – صلاة التبشير – و أحد أفضل كتبى «الاسطورة المأساوية لصلاة التبشير» ، وباليه حول هذه اللوحة أردت أن استخدم فيه موسيقى نيتشه غير المدونة ، وكان قد سجلها وهو على حافة الجنون خلال احدى نوباته ضد فاجنر واكتشفها فى مكتبه فى بازل الكونت «اتيان دى بومونت» ، وبالرغم انى لم اسمعها فقد كنت متأكدا من أنها الموسيقى الوحيدة المناسبة

لعملى .

سعى الجميع ، الحمر واشباه الحمر والورديون والشاحبون للاستفادة من الدعاية الغوغائية المخجلة لموت لوركا ، بالابتزاز الدنيء . حاولوا ومازالوا يحاولون أن يجعلوا منه بطلا سياسيا . ولكنى ، انا اقرب صديق له ، أتحمل الشهادة أمام الله والتاريخ ، إن لوركا الشاعر مائة بالمائة ، كان أكثر من عرفتهم تدينا بالفعل . لقد كان ببساطة ضحية ظروف شخصية ومحلية وفريسة بريئة لفوضى الحرب الاهلية الاسبانية المتشنجة .

أما موت رينيه كريفيل R ene Crevel فهو قصة أخرى ، قبل روايتها لابد أن أعطيكم نبذه قصيرة عن «جمعية الادباء» والفنانين الثوريين.«A.E.A R.» سلسلة من الكلمات الضخمة حول لاشيء ، فالسرياليون الذين كانوا انذاك قد انتعشوا بكرم مثالى كبير، أغراهم المعنى الملتبس لاسم الجمعية ، فانضموا إليها جملة واحدة، وهكذا أصبحت الأغلبية فى هذه الجمعية من البيروقراطيين متوسطى الموهبة، مثل كل شئ هذا النوع من الجمعيات ، المقدر لها ان تنتهى الى لاشيء او العدم ، والمقضى عليها بالخواء الفطرى. وكان الاهتمام الأول لهذه الجمعية هو السعى إلى عقد «مؤتمر دولى كبير» ولأن الهدف من هذا المؤتمر يمكن التنبؤ به بسهولة ، فقد كنت أول من يشجبه قبل أن ينعقد .

ففي المقام الأول يجب استبعاد كل الكتاب والفنانين الذين يشتركون في اتجاه معين مهما كان ، خاصة اولئك الذين يؤمنون أو يدافعون عن أفكار مخربة وبالتالي ثورية . إن المؤتمرات وحوش غريبة محاطة في جوهرها بسراديب يتدفق من خلالها اولئك المناسبون فسيولوجيا لهذه الحركة. ومهما كان رأيك في «بريتون» ، فهو في المقام الاول انسان مستقيم وحازم ، وأى تلاعب في السر في مؤتمرات كهذه، يجعله يصبح بسرعة أقل اندماجا ، وعقبة كبيرة في أى اتفاق، لايستطيع أن يبتعد أو يلتصق بالجدران . وقد كان هذا أحد الاسباب الرئيسية في عدم دخول الحملة السريالية باب مؤتمر جمعية الكتاب والفنانين الثوريين ، كما تنبأت بطريقة لاذعة دون أى مجهود عقلى .

العضو الوحيد في المجموعة الذى آمن بفاعلية اشتراك السرياليين في المؤتمر الدولى لجمعية الكتاب والفنانين كان رينيه كريفيل . والآن نأتى إلى تفصيلة غير عادية مليئة بالمعنى : فكريفيل لم يسم بول أو اندريه ولا حتى سلفادور مثلى ، في اللغة القطالونية فان «دالى» و «جودى» هما فقط الكلمتان اللتان تعنيان «المتعة والرغبة» ، أما «رينيه» فانها تعنى «يولد ثانية»، بينما كريفيل تعطى معنى فعل الموت ، اوكما يقول فلاسفة تاريخ اللغة «الرغبة الحيوية للموت» وهكذا يتضح لكم معنى اسمه . وقد كان

الوحيد المؤمن بامكانيات ، الجمعية ، التى جعلها لعبته ، وأصبح الوحيد بيننا المدافع المتحمس عنها، وقد منحه الله شكلا جنينيا، او بدقة أكثر شكل برعم السرخس قبل أن يتفتح، مباشرة قبل أن يكون جاهزا لفض طياته اللولبية الوليدة . ويمكنك ملاحظة وجهه شرس المظهر ، كملاك شرير ، أصم بيتهوفينى، كأنه موضوع فى ثنية برعم سرخس . فكر فى هذا الكلام بعناية وستعرف بالضبط شكل الوجه الطفولى المنتفخ للعزيز كريفيل وقت أن قدم لى أكثر الرموز حيوية للمرحلة الجنينية .

أما اليوم فقد تغير فى عينى واصبح النموذج الكامل للعلم الجديد المسمى بعلم الانبعاث phoenixology الذى سأحدثكم عنه، فمن المحتمل أنكم لا تعرفون شيئا بعد عن هذا العلم لسوء الحظ . علم الانبعاث يرشدنا نحن الأحياء للفرص الرائعة التى نملكها لنصبح خالدين فى مجرى هذه الحياة الدنيوية - وهذا نتيجة للامكانات السرية التى لدينا لإعادة اكتشاف حالتنا الجنينية، بحيث يمكننا أن نولد من جديد وبشكل دائم من رمادنا الخاص مثل العنقاء ، ذلك الطائر الاسطورى الذى استخدم اسمه لتعميد هذا العلم الجديد، الذى سيكون أعظم العلوم الخاصة فى عالمنا .

لم يفن أحد ويولد من جديد مثل رينيه كريفيل . فحياته تتكون من سلسلة وراء أخرى من المرض والشفاء، يبدو على وشك الموت لكنه يعود ثانية منتعشا ، فتيا منتشيا كطفل . ولا يستمر هذا طويلا ، فجنون تدمير النفس يقبض عليه ثانية ، ويصيبه القلق ، ويبدأ تدخين الأفيون ، ومناقشة مسائل ذات طبيعة ايديولوجية وأخلاقية وجمالية وعاطفية لا تحل ، وينغمس في أرق وتمزق لا ينتهيان ، حتى يشرف على الموت . ثم ينظر الى نفسه في كل المرايا ، كرجل ممسوس ، بحثا عن نزوات مهووسة ، في باريس البروستيه الباعثة على الاكتئاب ، ويحدث نفسه « أنا اشبه الموت.. اشبه الموت» ، وحين تخور قواه، يلجأ لاصدقائه المقربين يصارحهم «من الافضل أن أموت على أن أعيش يوما آخر بهذا الشكل» . ارسلناه إلى مصحة للشفاء . بعد أشهر من العناية المركزة ، ُولد، ثانية ، رأيناه يظهر ثانية في باريس ، يفيض حياة كطفل سعيد ، يلبس كراقص ماهر ، والوجه لامع ، والشعر متموج يكاد يموت من التفاؤل الذي أطلق له العنان بكرم ثوري ، ثم بالتدريج ، وبشكل لامناص منه، بدأ يدخن ثانية ، ويعذب نفسه ، يتلوى ويرتعش كورقة سرخس لا تستطيع ان تحمل نفسها .

أمضى فترة نشوته الثانية ، وعدم موته، عندنا في بورت

ليجات ، هذا المكان الذى يناسب هومر، وينتمى فقط لى ولجالا . كانت هذه الاشهر أجمل شهور حياته كما كتب هو فى رسائله . لقد أثر فيه تقشفي ، وطوال الوقت الذى أقامه معنا ، عاش كناسك يقلدنى ، يستيقظ قبلى ، قبل شروق الشمس ، ويقضى أيامه عاريا تماما فى بستان زيتون، وجهه الى السماء، الاقسى والأكثر لازوردية في حوض البحر المتوسط كله . احبنى أكثر من كل الآخرين ، لكنه كان يفضل جالا ، التى يسميها الزيتونة كما أفعل ، مرددا انه اذا لم يجد «جالا» التى تخصه، زيتونة له، فان حياته ستنتهى بطريقة مأساوية. كتب فى بورت ليجات قصائده : اقدام فى الطبق ، معزف ديدرو القيثارى ، ودالى ضد الظلامية .

تتذكره «جالا» الآن وتقارنه ببعض معاصرينا من الشباب ، وتقول بتأمل «لم يعودوا يصنعون اولادا مثله» وهكذا ، كان هناك ذات يوم شيء يدعى جمعية الكتاب والفنانين الثورية ، بدأت تظهر على كريفيل علامات غير صحية منذرة ، وظن أنه لن يجد أفضل من مؤتمر الجمعية ليغمس فيه كل عذاباته وتناقضاته الايديولوجية المثيرة والمهلكة . وكان يعتقد بأمانة كفنان سريالى، انه بدون تقديم تنازلات فسنسقط فى أحضان الشيوعيين . وجرت قبل فترة طويلة من افتتاح المؤتمر ، أحط المكائد وأقذر أنواع التلاعب من أجل

التأكد من إنهاء القاعدة الفكرية التى قامت عليها حركتنا السريالية . وهرول كريفيل متنقلا بين الشيوعيين والسرياليين بحثا عن صلح بائس، غير مجد .

كان يموت ويحيا كل يوم، ونعيش كل مساء بين المأساة والأمل، لكن التصدع المتعذر اصلاحه الذى وقع بينه وبين بريتون كان مأساة بالنسبة له ، جاءنى والدموع فى عينيه ليخبرنى بذلك ، لم أشجعه على السير فى الاتجاه الشيوعى ، فى الواقع ، وافقت هوى نفسى ، واتبعت اسلوبى الدالى المعتاد ، بإثارة أكبر قدر من الصراعات غير القابلة للحل فى مواقف كهذه ، من أجل استخلاص اسمى عصائر اللامعقول .

فى ذلك الوقت بالضبط ، استسلم الاستحواذ الذى كان مسيطرا على – وليم تل – بيانو – لينين – إلى استحواذ جديد صالح للأكل – للمجنون العظيم – أعنى ادولف هتلر .

قلت لكريفيل وهو ينهنه : إن النتيجة العملية الممكنة لمؤتمر جمعية الكتاب والمؤلفين الثورية ، هى أن تتبنى اقتراحا يعلن ان وجه هتلر وظهره الريان يثيران غنائية شعرية لاتقاوم وأن ذلك لا يشكل عقبة فى الحرب ضده على المستوى السياسى ، إن لم يكن العكس . وفى الوقت ذاته ، أطلعت «كريفيل» على شكوكى حول

موضوع قانون بوليكليطوس Polycletus (٣٣) وبانى متأكد تماما من انه كان فاشيا .

مضى «رينيه» مسحوقا ، فقد كان يعرف أكثر من كل أصدقائى ، انه فى أعماق حماقاتى الصاخبة ، يظل دائما – كما اعتاد أن يقول ريمو Raimu – أساس من الحقيقة .

مر أسبوع ، وغمرنى احساس حاد من الشعور بالذنب ، أدركت انه يجب ان أتصل بكريفيل ، وإلا فسيظن أنى على توافق مع موقف بريتون ، مع أن الاخير بعيد تماما عن مشاركتى الرأى حول هتلر ، مثل أعضاء المؤتمر تماما .

خلال ذلك الاسبوع من الانتظار ، أدت المكائد التى دبرت خلف الستائر ، ألا يقرأ «بريتون» تقرير المجموعة السريالية أمام المؤتمر، وسمح لبول ايلوار ان يقدم نسخة مختصرة ومخففة منه. لابد أن كريفيل كان ممزقا بين واجباته الحزبية والطلبات الملحة للجماعة السريالية . حين قررت أخيرا أن أطلبه ، رد على صوت غريب باستخفاف كبير : اذا كنت صديقا لكريفيل .. فتعال على الفور . إنه يحتضر . حاول قتل نفسه .

قفزت فى تاكسى ، وبمجرد ان وصلت الى الشارع الذى يعيش فيه ، دهشت لرؤية جمهور متجمع حول مسكنه ، وعربة

إطفاء حريق تقف أمام البيت . فكرت أن الحريق والانتحار حدثا في المنزل ذاته ، شققت طريقي الى غرفة كريفيل المزدحمة . برجال المطافي . كان يستنشق الاكسجين بشراهة طفل . لم أر في حياتي انسانا متعلقا بالحياة مثله . بعد محاولة قتل نفسه بالغاز الباريسي، يحاول أن يولد ثانية بأكسجين بورت ليجات لكن بلا فائدة . قبل أن يقتل نفسه شبك ورقة الى رسغه الايسر كتب عليها بحروف كبيرة واضحة «رينيه كريفيل» .

هرعت الى الكونت والكونتيسة «دى تويل» أعز أصدقاء كريفيل لم استخدم التليفون لأني كنت مضطربا ، وأخبرتهما ببراعة متناهية قدر ما استطعت ، وبطريقة لبقة الانباء التي كنت أول من يعرفها، وستجعل باريس تضطرب عند سماعها .

قالت «ماري لاور» بعض الكلمات الطائشة عن كريفيل سرعان ما نسيت ، كنا في غرفة الجلوس التي تتلألأ فيها تحف من البرونز مموهة بالذهب ، على خلفية سوداء وخضراء زيتونية ولوحات من رسم «جويا» . تأثر جان ميشيل فرانك - الذي سينتحر بعد فترة قصيرة - بموت كريفيل بشدة ، وأصابته انهيارات عصبية عديدة في الايام التالية .

مساء الوفاة تجولنا في البوليفار وشاهدنا فيلما عن

فرنكنشتاين . حين حللت الفيلم بطريقتى المبنية على الهلوسة ، رأيته يصور بأدق التفاصيل استحواذ الموت على كريفيل ، حتى الوحش فرنكنشتاين كان يشبهه جسديا ، بل ان السيناريو كله مبنى على فكرة الموت ثم الانبعاث ، كانتصار مسبق لعلم الانبعاث الجديد .

وقائع الحرب الثانية كنست كل امثال هذه العذابات الفكرية ، كان كريفيل يشبه خيوط نبات السرخس المتسلق ، لاتمتد الا على حافة الدوامات الاليمة السامية لبرك السمك الايديولوجية .

منذ وفاة كريفيل ، لم يناقش أحد، ممن أعرفهم ، جديا المادية الجدلية أو المادية الآلية أو أى شىء آخر .

حين يعيد العقل اكتشاف حليته الشكلية ، وسلطان الكلمات ، الصوفية وعلم التشكل والانبعاث النووى فسيحرك العالم ثانية .

اناديك يا رينيه كريفيل   انبعث من جديد

إنى اسمعك تجيب على الطريقة الاسبانية :

حاضر.

كان يوجد ذات يوم شىء يسمى جمعية الكتاب والفنانين الثورية .

١٩٥٣

١ مايو :

قضينا الشتاء فى نيويورك كالعادة ، واستمتعت بالنجاح الهائل لكل شيء فعلته .

وصلنا إلى بورت ليجات منذ شهر ، وقد قررت ان استأنف كتابة يومياتى ، فى اليوم ذاته الذى بدأت به اليوميات فى العام الماضى .

أدشن الاول من مايو بالعمل كالمجنون كما لو أن هناك ألما حلوا خلاقا يحثنى على العمل .

لم يكن شاربى بهذا الطول من قبل ، كل جسمى ينحشر داخل ملابسى ، شاربى فقط هو الذى يبدو جليا .

٢ مايو :

اعتقد ان أعذب الحريات للانسان على الارض ان يستطيع الحياة دون ان يكون مضطرا للعمل .

واصلت الرسم من شروق الشمس حتى حلول الظلام ، كنت منهكا ومتيبسا ، رسمت ستة وجوه ملائكية ، رياضية ذات جمال متفجر رائع .

حين ذهبت الى السرير ، تذكرت فكرة ليوناردو دافنشى حين

قارن مجىء الموت بعد حياة كاملة ، بمجىء النوم بعد يوم عمل طويل.

٣ مايو :

حلمت أحلاما غير محدودة حول الانبعاث ، واليوم كأنى ولدت للمرة الثالثة حين سمعت من الراديو أنهم اكتشفوا طريقة لتغيير لون الشعر، دون اللجوء الى مخاطر الصبغات المختلفة ، وذلك عن طريق مسحوق ناعم يحمل شحنة كهربائية عكس تلك التى يحملها الشعر، فتتسبب فى تغيير اللون. اذا احتاج الامر سأحتفظ دوما بأجمل شعر اسود ، منتظرا تحقيق حلم الانبعاث .

وقد جعلنى هذا الامر أشعر بفرح طفولى ، وأغدو أكثر حيوية فى هذا الربيع الذى أحس أنى عدت فيه الى شبابى فى كل شىء.

٤ مايو :

ونحن فى طريقنا إلى «كاداكيس» رأت «جالا» غنمة نادرة الشكل ، أرادت ان تقتنيها وتحدثت مع الراعى عن شرائها .

٥ مايو :

كتبت فى صدر كتابى «خمسون سرا سحريا للحرفة» .

الكلمة التالية : لقد قطع فان كوخ اذنه ، وحتى لا تقطع اذنك اقرأ هذا الكتاب .

٦ مايو :

كل شيء يمكنك أن تفعله بإتقان او بتسرع وكذلك الامر مع لوحتي .

٧ مايو :

ليكن معلوما لديك أن أكثر الرؤى إدهاشا ، التي يمكن لعقلك أن يتخيلها ، يمكن أن تجسدها بالرسم الموهبة الفنية لليوناردو أوفيرمير .

٨ مايو :

أيها الرسام : أنت خطيب : لذا ارسم ولا تتكلم .

٩ مايو :

اذا رفضت دراسة التشريح ، وفن الرسم ، ورسم المنظور، والحسابات الجمالية ، وعلم الالوان ، فدعني أقول لك ، إن هذه علامات كسل وليست علامات عبقرية .

١٠ مايو :

تعسا للروائع التي تثبط الهمة عن العمل .

١١ مايو :

ابدأ بالرسم والتلوين مثل العمالقة السابقين، بعد ذلك افعل ما تراه مناسبا ... فستنال الاحترام دائما .

١٢ مايو :

الغيرة من الفنانين الآخرين ، كانت ترمومتر نجاحى دائما .

١٣ مايو :

أيها الرسامون : كونوا أغنياء لا فقراء.

ولتصلوا الى ذلك اتبعوا نصيحتى .

١٤ مايو :

بأمانة .... لا ترسم بعدم امانة.

١٥ مايو :

هنرى مور ...... انجليزى قح .

١٦ مايو :

براك Braque (٣٤) يومىء كل منا للآخر

ولا نتكلم – مثله فى ذلك مثل فولتير ولورد.

١٧ مايو :

ماتيس Matisse

انتصار الذوق البورجوازى والاختلاط الجنسى .

١٨ مايو :

بيرو ديلا فرانشسكا Piero della Francesca

انتصار العفة والملكية المطلقة.

١٩ مايو :

بريتون Breton تصلب كبير جدا بسبب خطيئة صغيرة جدا

٢٠ مايو :

اراجون ... وصولى كبير ونتائج ضئيلة جدا .

٢١ مايو :

الوار .. اضطراب كبير من أجل الحفاظ على النقاء.

٢٢ مايو :

رينيه كريفيل .. سيكفن نفسه بالتروتسكية البونابرتية .

٢٣ مايو :

كاندنسكى Kandinsky (٣٥)

لامفر ! لن يوجد رسام روسى ، ربما صنع رءوس عصى رائعة لامعة مثل تلك التي أحملها واهدتها لى جالا فى عيد الميلاد.

٢٤ مايو :

بولوك Pollock (٣٦)

. مارسيليز التجريد ، رومانسى المهرجانات والالعاب النارية ليس سيئا كتيرنر ، لانه أكثر من لا شىء .

٢٥ مايو :

إن شعبية الفنون الافريقية ، والماجوركية ، واللابية والبريتونية والكريثية .. ما هى إلا حالة مرضية حديثة .

إنها صينية ، والله يعلم أنى لا أحب الفن الصينى .

٢٦ مايو :

كانت لدى خصلة رديئة منذ طفولتى، وهى أنى أعتبر نفسى مختلفا عن الناس العاديين . وحتى فى هذه نجحت .

٢٧ مايو :

جالا ودالى أولا ، ودالى ثانيا ، ثم كل الاخرين بمن فيهم نحن الاثنين ثالثا.

٣٠ مايو :

إن أسوأ لحظة بالنسبة لماسونييه Meissonier قد مرت.

١ يونيه :

اكتشفت منذ اسبوع أنى متخلف عن كل شىء فى حياتى بما فيه الافلام ، بحوالى اثنتى عشرة سنة . منذ أحد عشر عاما مثلا كنت أعتزم صنع فيلم يتفوق على دالى تماما ، وحسب ما اعتقد سيبدأ تصوير هذا الفيلم السنة القادمة .

حالى بالضبط عكس حالة قصة لوفنتين الخرافية : الراعى والذئب . فقد حققت فى حياتى وحتى ايام شبابى الكثير من

الاشياء الممتازة والمثيرة ، لكن يحدث الان ، ان كل ما أعلن انى سأفعله ، يؤمن به الجميع عداى .

وعلى سبيل المثال : طقوس مصارعة الثيران التى فكرت فيها، حيث يرقص رهبان شجعان أمام ثور هائج ، يرفع الى السماء بطائرة هليكوبتر بعد انتهاء الصراع ، الكل آمن بالفكرة ، والمدهش ، ان ينتهى الامر بأن تتحقق كأنها قدر .

حين نزلت باريس فى سن السابعة والعشرين ، عملت فيلمين بالتعاون مع «لويس بونويل» ، هما «الكلب الاندلسى» و«عصر الذهب» ، وسيظلان علامتين فى تاريخ السينما . عمل «بونويل» بعد ذلك وحده ، وأخرج أفلاما أخرى ، مقدما لى خدمة جليلة ، بأن كشف للجمهور من هو المسئول عن البنية الاساسية للفيلمين ، ومن هو العبقرى فى هذا المجال .

اذا أبدعت فيلما ، فانى أريده أن يكون من بدايته الى نهايته سلسلة متتابعة من العجائب ، لانه لا محل ان نضايق انفسنا برؤية عروض ليست مثيرة .

وكلما كثر جمهورى زاد دخل صانع الفيلم الذى عمد بأنه «شره للدولارات» ولكن حتى يبدو الفيلم ممتازا للجمهور ، فلابد لهذا الجمهور ان يصدق العجائب التى تقدم له ، ولذا فعلى المرء

ان يبتعد عن ايقاع السينما الحالى المنفر، وعن البلاغة التقليدية لحركة الكاميرا .

كيف يمكن للمرء أن يصدق لثانية واحدة - حتى فى فيلم ميلودرامى عادى - ملاحقة الكاميرا للقاتل فى كل مكان ، حتى الى الحمام حيث يذهب ليغسل يديه من الدم ؟

ذلك ما دفع دالى ، قبل أن يبدأ فيلمه ان يعطل حركة الكاميرا، بان يثبتها على الارض كما ثبت المسيح على الصليب. طبعا من الامور المزعجة ان يبتعد الفعل عن مجال الرؤية . سيظل الجمهور منتظرا، حزينا متضايقا، يتنفس بعمق ويخبط اقدامه على الارض، ملولا لدرجة الموت ، حتى يعود الفعل الى مجال الرؤية ، إلا اذا عرضت على الجمهور بعض الصور المذهلة من خلال عين كاميرا دالى الثابتة ، التى استعادت وظيفتها الحقيقية فى أن تكون خادمة لخياله المذهل .

سيكون فيلمى القادم على العكس تماما مما يسمى بالفيلم الطليعى التجريبى ، خاصة ما يسمونه الان بالفيلم الخلاق الذى لا يعنى سوى الخضوع الصاغر لكل مباذل فننا الحديث التعس، سأحكى فى هذا الفيلم القصة الحقيقية لامرأة مجنونة وقعت فى حب عربة يد ، هذه العربة التى ستقوم بنجاح بتأدية كل صفات المحبوب الذى تحول جسده الميت إلى وسيلة نقل . ثم يحل على

هذه العربة التناسخ وتصبح من لحم ودم ، ولذا سأسمى الفيلم «عربة اليد الادمية» . وسيضطر الجمهور كله ، من المثقفين أو الناس العاديين ، إلى المشاركة فى هذه الهلوسة النيتشية ، لانها تبدو حقيقية تماما ، وتقص بطريقة لا يستطيعها أى فيلم وثائقى .

سيحتوى الفيلم على بعض المناظر الحقيقية الغريبة ، ولا استطيع مقاومة الحديث عن بعضها إلى القراء لكى أجعل لعابهم يسيل لمشاهدة الفيلم ، سترون خمس بجعات بيض ، تنفجر الواحدة بعد الاخرى بدقة شديدة ، فى سلسلة من الصور البطيئة وتناظر ايقاعى ملائكى ، ستكون البجعات محشوة برمان حقيقى عبىء مقدما بمفرقعات ، حتى يمكن مشاهدة انفجار احشاء الطيور بدقة ، والبذور بشكل مروحة تضرب سحابة من الريش ، ويستطيع المرء أن يتخيل كرات دم من الضوء يضرب بعضها البعض ، لكن فى تجربتى سيكون للبذور الواقعية ذاتها كما هى فى رسوم مانتيناMantegna (٣٧) ، وسيكون للريش الغموض الفياض الذى جعل ايوجين كارييه Eugene Carriere (٣٨) مشهورا .

وسيكون هناك أيضا مشهد يقدم نافورة «تريفى» فى روما ، نوافذ المنازل حول الميدان مفتوحة ، وسيقفز فى الماء ستة خراتيت الواحد اثر الآخر ، وبعد سقوط كل خرتيت سترتفع «شمسية»

سوداء تفتح من قاع النافورة .

وفى مشهد آخر سيعبر ميدان الكونكورد من كل النواحى ، ألفان من القساوسة يركبون الدراجات ويحملون لوحات اعلان مبهجة ، لكن تتضح عليها صورة لمالنكوف MalenKov (٣٩) ، ثم سأعرض فى اللحظة المناسبة ، مائه غجرى أسبانى ، وهم يقتلون فيلا ويقطعونه فى شارع فى مدريد ، حتى يتركوه هيكلا عظميا وفى اللحظة التي تظهر فيها ضلوع الحيوان الضخم ، يخترق غجريان جثة الحيوان للحصول على الكبد والقلب والكلى .. الخ

وهما يغنيان الفلامنكو برغم همجيتهما ويتصارعان بالسكاكين للظفر بما يريدان ، بينما الباقون فى الخارج يستمرون فى تقطيع الفيل ، ويجرحون بين حين وآخر المتصارعين داخل الجثة، اللذين يمزقان جوف الحيوان بفرح غامر مرعب ويحولانه الى قفص دموى ضخم .

ثم هناك مشهد غنائى ، ينشد فيه كل من نيتشه وفرويد ولودفيج ملك بافاريا، وكارل ماركس ، مبادئهم بتذوق فريد ، يرد كل منهم على الاخر متجاوبا على موسيقى بيزيه Bizet(٤٠) وسيتم هذا المشهد على شواطىء بحيرة «فيلابرثران» ، حيث تقف فى وسطها امرأة عجوز جدا ترتعش من البرد ويصل الماء الى

منتصف جسدها ، ترتدى ثياب مصارع ثيران ، وتوازن على رأسها قرصا من عجة الاعشاب كلما انزلق ووقع فى الماء، يستبدله شخص برتغالى بقرص جديد .

قرب نهاية الفليم ، سنرى كرة شمعدان ، تنتفخ وتنكمش ، تغطى بالحلى ، ثم تختفى، لتعاود الظهور مشتعلة بتوهج ، ثم تتحول الى سائل ، وتتجمد ثانية ..الخ

قضيت عاما تقريبا أفكر فى هذا التلخيص للتاريخ السياسى للمادية الانسانية ، مرموزا له بالتحول التشكيلى لنبات الخطمية بشكل بسيط ومعروف كالخطوط الخارجية لكرة الشمعدان .

تلك الدراسة الطويلة يستمر عرضها دقيقة واحدة فى الفيلم ، وتتواصل مع رؤية رجل ضربته الشمس ، فيغلق عينيه ويضغط بألم براحة يديه عليهما .

كل هذا استطيع تحقيقه ، لأنى شخص فريد ، ومع جالا التى تملك السر الذى يساعدنى على ابداع الفيلم دون قطع او حتى مونتاج .

ذلك السر وحده هو الذى سيجلب طوابير لانهائية الى ابواب السينما التى تعرض الفيلم ، وعلى عكس توقعات الساذجين ، فان فيلم «عربة اليد الآدمية» ليس عملا عبقريا فقط ولكنه فيلم من أكثر

الافلام التجارية فى عصرنا ، حيث إنه يتميز بصفة واحدة تجذب انتباه الجميع دائما ، وهى : الابهار.

١ أغسطس :

أجلست القبح على ركبتى ، لكن سرعان ما مللت منه .

٢ أغسطس :

كلنا جوعى وعطشى الى الصور الحسية المادية. كان الفن التجريدى جيدا لسبب واحد : انه أعاد عذريته التامة الى الفن التصويرى.

٣ أغسطس :

حلمت بطريقة تعالج كل الامراض - على كل حال الامراض النفسية فقط .

٦ أغسطس :

الصيف يؤثر على فكيّ المطبقين كأنى أعانى من التيتانوس ، خوفى من بداية شىء جديد ، فقد كانت لوحة المسيح على الصليب رائعة ، .. جعل فكرة نموذجية دالية تطرأ على ذهنى .

ان خوفى ناتج عن نقص فى تركيب الخصية أما الشىء الذى امتلك منه الكثير فهو صلابة الاسنان لذا فانى سأعمل بعد ظهر اليوم على شيئين متباينين ، ومع ذلك فهما مترابطان : خصيتى

تمثال فيدياس Phidias، ثم سرة التمثال نفسه .

والنتيجة توقفي تقريبا عن الخوف ! براڤو دالي .

٧ أغسطس :

وصل «ارتورو لوبيز» بيخته مع اليكس واصدقائه . استيقظت متأخرا ، غطست غطسة طويلة في البحر الذي كان يومض كغابة من أشجار الزيتون ، حين أغلقت عيني تهيأ لي أني اسبح بسائل اوراق الزيتون .

حلمت الليلة الماضية ، وكنت أعرف أن اليخت قادم ، ببحر مغطى بقطع صغيرة من كل الالوان ، وبمساعدة رادار اخترعته نظمتها في شكل لوحة جميلة جدا .

استمتعت بعمق بكل لحظة في هذا اليوم. كنت المراهق نفسه الذي كان يخجل ولا يجرؤ على عبور الشارع أو الشرفة في منزل والده ، ويحمر وجهه حين يقابل السيدات أو السادة الذين يراهم في منتهى الرشاقة ، حتى انه غالبا ما يصاب بالدوخة ويكون على وشك الاغماء.اليوم نلتقط الصور ونحن في ملابس تنكرية فائقة الصنع ارتدى «ارتورو» زيا فارسيا وقلادة من جواهر ضخمة عليها شعار يخته ، وارتديت أنا ، الرجعي المتزمت ، سروالا تركيا بلون الفيروز وحملت تاج اسقف ، وقدمت على كرسي ، نسخة من

زحافة لويس الرابع عشر ، صنع ظهره من درقة سلحفاة توجت بهلال ذهبى ، كل ذلك بسبب الجو الشرقى الذى يشع بألف ليلة وليلة فى بيتنا واثاثنا . وزهورنا القطالانية ، التى يعود الفضل فى تزويدنا بها إلى انصع الملوك بياضا المسمى ارتورو لوبيز. تناولنا الغداء .

فى منتصف الميناء الذى حدد بدقة بالرادار ، وسط الشمبانيا ومجموعة من المجوهرات والذهب المموه .

الخاتم الجميل الذى يلبسه البارون «دى ريديه» صممه ارتورو، وتذكرت أنى رأيته منذ فترة قصيرة فى أحد احلامى بجنون العظمة .

لمدة نصف ساعة بعد رحيل ارتورو ، كانت صخور كاداكيس كأنها تستحم باسلوب «فيرمير» .اعتقد أن القطالانيين يجب أن يعودوا للمشرق أخيرا ، لذا اقترحت جولة بحرية فى اليخت إلى روسيا .

حين سمعت آخر الانباء بوفاة ستالين ، قلت سيكون فى انتظارى هناك ثمانون فتاة تسعدهم رؤيتى وأنا اهبط الى البر ، لكنى سأثقل عليهن ، حين يصررن ، أظهر أخيرا ، ويدوى التصفيق الحاد .

٨ أغسطس :

اتأمل فى مأدبة غداء أمس ، واستعد لبعد غد الاثنين حيث سأبدأ بعمل جديد وكأنها أول مرة فى حياتى .

لم يسبق لى ان استمتعت بالرسم بهذا الشكل .

ذهبنا للاستحمام فى «جانكويه» واستمتعت كثيرا بالمياه ، وذلك يدل على أن تكنيكى التصويرى يسير فى الطريق الصحيح . أنا أستطيع أن اسبح – والسباحة بالنسبة للفيلسوف تعادل قتل الابن ، ولهذا فانى فى كل مرة اسبح فيها أتوحد مع وليم تل، كم هو جميل ان ترى مائة فيلسوف يسبحون ويحاولون التوافق بضربات صدورهم مع ألحـــــان روسينى (٤١) Rossini وليم تل!

طريق يوم الاحد للكمال . كل شىء لابد أن يكون أفضل. سنرى آل لوبيز مرتين هذا الصيف. لوحة «المسيح على الصليب» أجمل اللوحات .أشعر بأنى اكثر نشاطا . معدتى فى ذروة صحتها . أنا وجالا نحب بعضنا أكثر. كل شىء لابد أن يكون أفضل . كل ربع ساعة أصبح أكثر اشراقا وصفاء ذهن .

يجب ان تمتلىء احلامى الآن بصور اكثر نعومة وجمالا حتى تغذى افكارى فى النهار . لتحفظ يارب دالى وجالا . أليس مقدرا لى أن أصنع الأعاجيب ؟

١٠ أغسطس :

اتطلع إلى ظهـر الكرسى المصنوع من درقـة السلحفـاة التى اهداها لنا «لوبيز». الهلال الذهبى الذى يتوجه يعنى شيئا واحدا فقط :

سنتـمكن مـن الذهـاب الى روسـيـا خـلال سنة وإلا لماذا هذا الكرسى الزحافة بهلاله جاء ليستقر فى غرفتنا فى بورت ليجات ؟

«مـالنكوف» مـثـابر ، لـه جسـم مـاسح سـلالات الافـيـال ، نـحن مشغولون بمسح الشيوعية .

جالا تجهز الكاديلاك للسفر الى روسيا ، واليخت جاهز أيضا . وستالين الذى مسح تماما .. أين هو ؟ وأين موميــــاؤه ؟

١١ أغسطس :

حين تهـيـأت للعـمل ، عـازمـا الاسـتـفـادة من كل لحظة ، لأنى أشـعر بتأخرى عن رسمى ، قـالت جالا انهـا ستكون تعسة جدا لو لم أرافقـهـا ، لمرة واحدة على الاقل ، فى رحلة الى «كيب كروز» ان اليوم اهدأ ايام الصيف وأكثرها جمالا . وهى تريدنى ان استغل ذلك .

رد الفعل الاول ان أقول «مسـتحـيل» ، لكن بسـبب هذا الجمـال وكى اسعدها وافقت . حين يكون المرء فى قمة انشغاله فمن الترف

ان يظل كسولا .

إن رغبتى بالرسم ستغدو أكثر حدة ، وأنا أشعر بسبب هذا القطع غير المتوقع فان رسمى سيتم ببعض الطرق السرية .

قضينا بعد ظهر يوم رائع ، كل هذه الصخور ما هى إلاتماثيل لفيدياس تحت التشكيل .. ان أجمل منطقة فى البحر المتوسط تقع بين «كيب كروز» و «توديلا ايجل» .

الجمال المطلق للمتوسط مرتبط بجمال الموت، فالصخور المجنونة «لكولارو وفرانكالو» هى «أموت» الصخور فى العالم ، لاشىء منها سبق له ان كان حيا أو حقيقيا . بعد عوتنا من خروجنا الفلسفى هذا ، شعرنا اننا عشنا بعد ظهر يوم ميت .

سأسمى هذا اليوم التاريخى : العودة من بلد الصور الزائفة الناعمة العظيمة القاسية .

١٢ أغسطس :

أطلقت ، فى المساء ، أعدادا كبيرة من البالونات ، أحدها كان على شكل فلاح قطالونى ، كاد يحترق لكنه ضاع فى الفضاء اللانهائى. حين أصبح فى حجم البرغوث ، قال البعض : مازلنا نراه ، وقال آخرون : لقد ضاع . وظل شخص واحد يظن انه مازال يراه ! يذكرنى ذلك بالجدل الهيجلى الحزين جدا لأن كل

شىء فيه ضاع فى الفضاء اللانهائى . الفضاء المحدود هو ما نحتاج إليه كل يوم .

نشاهد نجمة تهبط محترقة بلون أخضر، أكبر نجمة شاهدتها، قارنتها بجالا التى هى بالنسبة لى أعظم نجمة مرئية ، ومحددة ومتشكلة .

١٣ أغسطس :

فيليب رسام كندى شاب ، متعصب لى جدا . ملاك ارسله الرب . اقمت له استوديو فى سقيفة . يرسم بنزاهة كبيرة ما اطلبه منه مما يسمح لى ان امضى فترة أطول فى التفاصيل التى افضلها بشعور أقل من الذنب .

منذ السادسة صباحا وهو يرسم ، خارج المنزل ، قارب جالا كما طلبت منه .

بورت ليجات صفراء ومجدبة . أحب جالا اكثر من أى شىء حين انتزع من أعماق وجودى صفات العطش العربية .

١٤ أغسطس :

بسبب الخوف من لمس وجه جالا ، استطيع أخيرا أن أرسم . الرسم يجب أن يتم فى عفوية ، وسرعة ، تاركا التظليل المتناقض يذوب فى شكل المعين بخطوط محددة واستعمل اللون للظلال

الخفيفة كي تذوب فيه .

يجب أن اتعامل مع وجه جالا بشجاعة .

١٥ أغسطس :

احسست بأن اليوم هو يوم العذراء . هناك رعد ومطر . بدأت ألون الفخذ الايسر ، واضطررت لتركه لضعف الضوء. فكرت فى الحاجة الى مبادىء يقينية حول الحياة الخالدة،لدى حدس أنى ساجد الشىء الذى يقنعنى فى اعمال ريموندو لوليو (لول) Rai-mondo Lulio.

إن تكنيكى متقدم ، ولا اسمح لنفسى ان تعبر خاطرى فكرة أن أموت ، حتى فى عمر متقدم .

تراجعى أيتها الشعرات البيض . تراجعى .

١٦ أغسطس :

هذا الأحد ، اكتشفت اللون البندقى لعينى جالا تحت الماء ، هذا اللون مع اللون البحرى لأشجار الزيتون يحركانى . طوال الوقت أشعر أنى أراقب هاتين العينين الرائعتين اللتين ستكونان عينى الرأس فى لوحتى التالية (سيكون حجمه مترا مربعا) وسأسميها «السبتمبرية» ، ستكون أكثر اللوحات مرحا فى العالم. لذا اعتزم أن أنجح تماما ، ومن المؤكد أن رسم الصور بفضائلها

الساخرة سيثير القهقهات .

فيليب يلون لوحتى بدقة ، كى أكملها لا احتاج إلا أن ألغى ثانية كل ما سبق أن عمله !

أشعر بقوة بطولية فى داخلى ، وبأنى سأصبح قويا لدرجة تجعلنى لا أخاف شيئا .

١٧ أغسطس :

وضعت قليلا من الطلاء ، بحرص زائد ، على الفخذ الايمن ، وبينما أبحث لإضافة لون جديد ، لطخت لوحتى . سمعت من الخارج صيحة اعجاب من المحيطين بالمنزل ، صاعدة كأنها موسيقى سماوية ، سر السر هو أنى اشهر رسام فى العالم لا اعرف كيف تتم عملية تلوين لوحة . ومع ذلك أنا على وشك معرفة ذلك ، وسألون لوحة تتخطى فى روعتها اللوحات التقليدية .

بدأت اعمل فى تلوين خصيتى تمثال فيدياس ليمنحنى الشجاعة .

آه ، لو لم أكن خائفا من التلوين ، أريد ، فى النهاية لكل ضربة فرشاة ان تحقق المطلق ، وتعطى الصورة الكاملة المتقنه للون الخصية .

الأغبياء يريدوننى ان اتبع النصيحة التى اقولها للآخرين ، هذا مستحيل لأنى مختلف عنهم تماما .

١٨ أغسطس :

بمجرد أن أخرج

تكون الفضيحة في أعقابي   دون جــــوان

مثل دون جوان ، تتفجر الفضائح اينما اذهب . حتى فى رحلتى الأخيرة إلى إيطاليا ، حين رسونا فى ميلان ، بدأ بعض الناس ، وبلا داع ، فى إقامة دعوى حول «الصوفية النووية» بحجة انها من اختراعهم .

جاءت أميرة ايطالية على ظهر يخت مع حاشية كبيرة لترانى . كانوا ينادوننى بالاستاذ ، لكن ما جعلنى عبقريا هو سيطرتى الفكرية الفريدة .

صمت . اعتقد ان خصيتى فيدياس ، ستلهمانى مساء الغد كيف ألون بشكل متقن المقصود هنا الذراع اليسرى .

١٩ أغسطس :

بذلك الالهام ألون الفخذ الايسر بشكل رائع . السير الآن بمحاذاة الكمال، وهذا يعنى أنى بعيد عنه جدا مثل كل شىء يسير المرء بمحاذاته. لكنى أحوم حوله ، بينما فى السابق لم أكن احوم.

جاء لزيارتى اليوم بعض الشباب المتخصصين فى الطبيعة النووية . وغادروا وهم مفتونون ، وقد وعدوا بأن يرسلوا لى

بللورات مكعبة من الملح صورت فى الفضاء .

ينبغى أن أحب الملح - رمز الصلابة . كى اعمل بالشكل الذى اعمل به ويعمل به جوان دى هيريرا Juan de Herrera(٤٢) حول قضية صلب المسيح .

٢٠ أغسطس :

أقول لنفسى ثانية - لكن اذا لم أقل لنفسى ثانية فإنى لا أعرف من الذى يأخذ على عاتقه فعل ذلك -إنه منذ مراهقتى كنت خبيثا لدرجة ان اسمح لنفسى بكل شىء، بسبب انهم سمونى سلفادور دالى، ومنذ ذلك الحين تصرفت بالطريقة نفسها وسرت على ذلك .

حين نظرت الى اللوحة ، لاحظت خطأ فى الفخذ الايسر. وقد نتج هذا الخطأ عن اعتقادى المطلق بخواص نوبان اللون الاساسى التحتى .

كل ما يمكنني عمله ، ان اضغط وأفرد الطلاء حتى يذوب على الحواف . من المهم جدا ان يذوب اللون على الحواف لدرجة الاختفاء ، ومن الضرورى ان تبدأ من الوسط وأن تخلط على الحواف ، فإن ما يسبب اللطخ اللون الذى لم يخلط جيدا ولم تتعب فيه .

٢٢ أغسطس :

نأكل عنبا «مسكاتيا» ، وكنت أعتقد دائما اننا اذا قربنا العنب من آذاننا فانه يصدر نوعا من الموسيقى لدى عادة عند الانتهاء من الطعام ، ان آخذ حبة عنب وأضعها فى أذنى اليسرى ، تبهجنى برودتها وأفكر بالفعل كيف استفيد من لغز تلك البهجة.

٢٣أغسطس :

سنذهب الى برشلونة حيث سيحضرون نماذج للباليه الذى اكتبه . أمل ان تكون الموسيقى سيئة . القصة التى فكر فيها روتشيلد تافهة ، وبهذا يمكننى ان أصوغ أعاجيب دالية بمفردى ، وقد أكد لى «بون» و «ليفار» دعمهما غير المشروط . فى طريقى الى هناك تمتعت بشعبيتى التى تتزايد من حين لآخر .

٢٤ أغسطس :

كأنى أعيش فى شهر عسل مع جالا . علاقتنا اكثر غنائية من قبل ، احس باقتراب تلك الشجاعة التى اسعى اليها لتجعل من حياتى تحفة فنية ، ولكى احصل عليها يجب أن أكون بطلا فى كل لحظة منها .

رأيت «ليفار» فى برشلونة ، وابتدعت هناك مشهد مضخات الهواء الساخن، حين ترتفع المضخة تنبجس مائدة بشمعدان ،

على المائدة سأضع رغيفي الحقيقي من الخبز الفرنسي وطوله ثماني ياردات .

٢٥ أغسطس :

عدنا الى بورت ليجات. وبينما كنت أعد لوحة خلط الالوان بسرور شديد ، اصابني تقلص معوى متواصل ، لم يدعني أنام ، شعرت ان السماء ابتلتني بهذا المرض ، فان التأخير الذى حدث سيقنعني بقوة ان أسرع فى انهاء لوحتي «المسيح على الصليب».

٢٦ أغسطس :

يوم ممطر . اختفت التقلصات . نمت طوال بعد الظهر. استعد للعمل غدا . كل هذه الايام رائعة .

المنزل مملوء بنباتات المسك وألوان مدهشة . انا فى السرير والقطة الصغيرة الجميلة تهر مصدرة صوتا يشبه بالضبط صوت معدتي اثناء الاضطراب المعوى الذى أصابني .

هذان الصوتان المتلائمان اعطياني رضا كبيرا . بدأ اللعاب يتكوم عند زاويتي الفم ، فأدركت أني فى سبيلي الى النوم .

هبت ريح الشمال ، فتنبأت بأني سأستمتع غدا بصباح مشرق فردوسي ، حتى أعود الى لوحتي الرائعة المسيح على الصليب» .

٢٧ أغسطس :

براف‍‍‍و !

هذا المرض كـان هبـة من الله . لم أكن مـسـتـعـدا . لم أكن استحق أن أباشر العمل في البطن والصدر . تمرنت على الفخذ الايمن .

يجب ان تشفي معدتي وان يكون لساني نظيفا جدا . غدا سأعمل على خصية تمثال فيدياس منتظرا التطهر ، ثم يجب ان أتعلم خلط الألوان تماما من الوسط حتى الجوانب .

٢٨ أغسطس :

أحمدك ياربي إنك أصبتني بذلك الاضطراب المعوى، فذلك ماكان ينقص توازني . سبتمبر على وشك ان يمارس صلاحياته ، فيه يزداد الناس وزنا ، بينما يجنون وينتحرون في يوليه ، هكذا تقول الاحصائيات .

أرسلت في طلب ميزان من برشلونة ، سأبدأ في وزن نفسي . جالا وجوان يلبسان القطة الصغيرة قبعة نمر بريشة صفراء ، ندربها على النوم في المهد الذي أحضرناه لها من برشلونة .

الغسق وارتفاع القمر متوافقان مع المواء السيمفوني للقطة ومعدتي . هذا التوافق المعوى القمري يرشدني لكيفية تخليد لوحتي .

۲۹ أغسطس :

رعب ! درجة حرارتي ترتفع واضطر ان أذهب إلى الفراش بعد الظهر . لم تعد معدتي تقرقر ، ولم تعد القطة تهر. أرى هذه الحمى البسيطة كأنها تتلألأ زاهية . هل تكون قوس قزح مرضى؟

الحمام الذى كان صامتا خلال الايام القليلة الماضية ، اسمع هديله الآن ، يبعد عنى مرضى واضطراب معدتي بالطريقة نفسها التى حل بها الكبش مكان اسحق (اسماعيل) عند التضحية .

أهديت زهر الياسمين الى اندريه ساجارا الذى جاء لزيارتي مع «جونز دخوا» وحضرنا مأدبة استمرت وقتا طويلا على شرف الشاعر والانساني كارلوس ريبا Carlos Ribas الذى قضى حياته كلها يدرس اليونان دون ان يستطيع فهم مكانة تلك البلاد فى التاريخ القديم ، مثله مثل كل الإنسانيين فى ذلك الأمر .

۳۰ أغسطس :

الحمد لله ، انتهى مرضى وأشعر انى شفيت تماما. بعد غد ، ساكون قادرا على الرسم ثانية .

لدي فكرة دالية : الشئ الوحيد الذى ينقص العالم ، هو الفحش ، وذلك هو الدرس الكبير الذى تعلمناه من اليونان . الدرس الذى كشف لنا عنه لأول مرة ، الفيلسوف نيتشه فيما

اعتقد. لأنه اذا كان حقيقيا ان الروح الابولونية (نسبة إلى أبو للو) فى اليونان قد وصلت الى أسمى المستويات ، فالحقيقة الاكبر ان الروح الديونيسية (نسبة إلى ديونيس) قد تجاوزت كل مستويات الفحش ، وما عليك سوى ان تنظر الى اساطيرهم المأساوية. لذا فإني أحب جودى وريموندو ولوليو وجوان دى هيريرا لأنهم أكثر من عرفت فحشا فى هذا العالم .

٣١ أغسطس :

اليوم ، لأول مرة فى حياته ، يشعر سلفادور دالى بتلك النشوة الملائكية – فلقد ازداد وزنه .

استيقظت فى الصباح على رفرفة جناحى حمامة دخلت غرفة النوم عن طريق المدخنة. هذه الظاهرة ليست مصادفة فقط ، بل هى علامة على أن مرض معدتى قد طرد من جسمى ، وهديل الحمام يؤكد حدسى. بدأت أصغى لنفسى من الخارج ، بدلا من الاستمرار فى الإصغاء لها من الداخل . وقد آن الأوان لنبدأ أنا وجالا ببناء «مظهر خارجى» لأنفسنا ، فوسط الملائكة كل شئ خارجى ، فالمرء لايستطيع ان يدركهم إلا بخارجيتهم .

الارهاب الهيكلى لروح دالى يبدأ اليوم .

١ سبتمبر :

سيجلو سبتمبر ابتسامة جالا وكراتها الدموية . ستكون لوحة

المسيح على الصليب أكتوبرية . لكن شهر سبتمبر سيكون شهر جالا المتألقة. ألون الجزء العلوى من صدر المسيح ، ونادرا ما اتناول الطعام خلال العمل ، فقط القليل من الأرز ، في الصيف القادم ساقتنى بدلة فائقة البياض لأرتديها أثناء التلوين . نظافتى تزداد يوما بعد يوم ، سأنتهى بأن اسمح لنفسى بالرائحة الضعيفة لقدمى مختلطة برائحة زهرة الياسمين خلف اذنى، فقط.

٢ سبتمبر :

صحتى تتحسن ، وجدت مصادر تقنية جديدة. هناك شخص مجهول خارج المنزل بعد ظهر هذا اليوم ، ولا أريد أن أراه . خرجت وقت الغسق لأستمتع بالغروب فوق بورت ليجات وجدت الرجل مازال ينتظر على أمل أن يرانى. تحدثت إليه وعرفت أنه صائد حيتان ، وفورا رجوته أن يرسل لى عدة فقرات من ظهر هذا الحيوان الثديى . وعدنى بكل رقة ان يفعل ذلك. ان قدرتى على الاستفادة من كل شئ غير محدودة . سجلت، فى اقل من ساعة ، اثنين وستين استخداما لهذه الفقرات ، مستفيدا منها فى : باليه ، فيلم ، لوحة ، فلسفة ، ديكور ، تأثير سحرى ، هلوسة نفسية او ليلوبوتيه (نسبة الى ليليبوت)، وذلك بسبب تخيلات العظمة ، قانون تركيب اجساد الحيوانات والنباتات، نسب تفوق المقاييس

الانسانية، طريقة جديدة للتبول ، فرشاة ... كل ذلك من شكل فقرات ظهر الحوت. وحاولت استدعاء ذاكرة الشم ، لتذكر رائحة حوت متعفن ذهبت لرؤيته فى «بورتو دى لانزا» حين كنت طفلا ، وبمجرد أن أعدت اكتشاف تلك الرائحة ، رأيت خلف عينى المغلقتين وفى حالة اغفاء كتلك التى تسبق النوم ، شكلا يتجسد بالتدريج معبرا عن نوع من تضحية ابراهيم بولده. هذا الشكل بلون الحوت الرمادى ، وكأنه مقطوع من لحم الحوت .

نمت على لحن «هيلين الجميلة» ، نمت واللحن مختلط بالحوت فى عقلى اللاواعى . (لتشابه كلمة Belleجميلة مع كلمة حوت ba leine).

٣ سبتمبر :

قال الكونت دى. جيه. النصير النموذجى لدالى : المرء يقيم الحفلات لاولئك الذين لا يدعون. مع أنى تلقيت عدة برقيات ترجونى حضور حفلة المركيز دى كونيا ، لكنى فضلت البقاء فى بورت ليجات . فالصحف ، اليقظة الدقيقة ، لا تزال تعلق على حضورى حفلة بيارتز . ان أكثر الحفلات نجاحا هى تلك التى يتحدث عنها كثيرا من لم يحضروها .

أبدت جالا فى المساء اعجابها الشديد بلوحاتى. ذهبت الى

السرير سعيدا . مشاهد سعيدة لحياتنا الحالمة الحقيقية . عزيزى سبتمبر : اللوحات الجميلة تحيط بنا ، اشكرك يا جالا ، فانا رسام من خلالك وبدونك لم اكن أومن بمواهبى . أحبك .

٤ سبتمبر :

بينما كنت أتحدث مع أحد الصيادين ، ذكرلي عمره فقررت فجأة انى فى الرابعة والخمسين (فى الواقع كان فى التاسعة والاربعين .م .) . وخلال قيلولتى المزعجة قلت لنفسى إنى أعد بالمقلوب ، أذكر حين أصدرت كتابى «حياتى السرية» أن قال لى والدى إنى زدت سنة فى عمرى ، ولذا يمكن أن اكون فى الثامنة والاربعين بالفعل.شعرت بالراحة لهذه السنوات التى اكتسبتها ، من التاسعة والاربعين الى الثالثة والخمسين. وبدأت ألوّن صدر المسيح فى لوحتى بأفضل مما توقعت ، سأطبق تقنية جديدة : سأكون سعيدا بكل ما أعمله ، وأسعد جالا حتى يكون كل شئ أفضل لكلينا . سنعمل بجدية أكبر ، فلتتراجع كل المشاكل والشعيرات البيضاء .

أنا الأداة المجنونة – دون طاسة القلى ودون البيضة .

٥ سبتمبر :

سأكون فى السنة القادمة أفضل وأسرع رسام فى العالم .

فكرت أنى يمكن أن ألون بطلاء سائل شبه شفاف ، لكن ذلك لم يأت بنتيجة ، امتص الكهرمان الطلاء السائل وتحول كل شئ الى اللون الاصفر .

٦ سبتمبر :

كل صباح ، عند الاستيقاظ ، ينتابنى فرح فائق ، عرفت اليوم لأول مرة أنه بسبب كونى سلفادور دالى ، واتساءل مندهشا : ما الاعجوبة التى سيحققها دالى اليوم ؟ أجد صعوبة يوما بعد يوم، فى فهم ، كيف يعيش الآخرون دون ان يكونوا دالى او جالا.

٧سبتمبر :

يوم أحد متميز. ذهبنا جالا وأنا مع ارتورو وجوان وفيليبس الى جزيرة «بلانكا» ، انه أجمل يوم فى السنة .

جالاتيا ، حورية بتضاريسها البحرية النقية العملاقة، تتشكل ببطء بنبض رفائيلى نووى لتصبح لوحتى الرائعة التالية .

فى المساء ، جاء لزيارتى مصور باريسى . أخبرنى أن جون ميرو Joan Miro قد خيب أمل الجميع بضربات فرشاته الكثيرة على القماش وكأنه يكوى الوانه.الرسامون التجريديون يعدون بالالاف . كبر بيكاسو كثيرا فى عدة أشهر . الطقس يغدو أكثر جمالا بمرور الوقت . قبل ذهابنا الى النوم تناولت جالا سمكة

كبيرة من الرنجة ! وينتهى هذا الأحد، ببيضة سكرية بحرية رفائيلية نقية هائلة ، دالية جالانية ، بينما ينهار فى باريس الهراء الفنى فوق الوجودى .

٨ سبتمبر :

أخيرا ، ارسم وجه جالا بأكثر الطرق اقناعا لى .

٩ سبتمبر :

أعمل على القماش الاصفر بتصميم كبير.

فى المساء ، انضم الينا على العشاء ، ديونزيو وزوجته ، ومارجاريتا البرتو . ارتدت جالا عقدا مرجانيا جميلا. اخبرتنا مارجاريتا بكل شئ عن حفلة الماركيز دى كونيا ، وما حدث بين أمير ارلوندا وملك يوغوسلافيا . وتحدثنا بعد ذلك عن الموت . جالا وحدها لم تكن خائفة منه ، كان يقلقها فقط : كيف سأعيش بدونها! تلا ديونيزيو مرتبكا فقرة من كتاب كالديرون «الحياة حلم» كانت لديه فكرة غامضة او ربما أمل فى انه مؤلفها .

وحيث اننا ذهبنا الى النوم متأخرين جدا ، فلم استطع النوم مما شجعنى فى اليوم التالى على ان ألون ثانية ذراعى المسيح فى لوحتى «المسيح على الصليب» . زيارة اصدقائى تشبه ظلال الخريف الناعمة . كل شئ أضحى واضحا اكثر واكثر حولنا .

سنصبح ، انا وجالا ، اكثر الاحباء حقيقة وسموا فى عصرنا .
رسم لى ديونيزيو صورة بالزيت متنكرا كرجل صينى .
انتهت حفلة «آل كونيا» مثل ظل أشباح متنكرة . دالى وجالا تنكرا بشكل اسطورة خالدة . أحب كلينا كثيرا . ممنوع نهائيا ان تحتج ضد مهرج .

١٠ سبتمبر :

تذكر التالى .. ضع قليلا من الكهرمان المحلول بزيت الترينتينا على القماش واضغط عليه بشدة. الخطأ يكمن فى وضع الكثير من الكهرمان . اغمس فرشاة صغيرة طويلة جميلة بالسائل ، ستغطى لوحتك دون بقع، لأن البقع تتسبب عن زيادة الطلاء الذى يصعب تنشيفه عند الزوايا ، ولتلوين الاجزاء الحرجة ، يتطلب الأمر الوانا سائلة من أجل اللمسات الاكثر روعة .

تغير الطقس ، الدنيا تمطر والرياح شديدة . الخادمة تجهز كعكة وأنا أراقبها . أحس أنى اقترب بشدة من معرفة كل ما هو ضرورى لألون بشكل عجائبى، حتى يصيح الجميع «ياللروعة» . سأرجع ذلك الى الصبر والتوازن الذى تمنحنى اياه جالا ، والى لوحة المسيح وخصيتى فيدياس ، التى أرى فيها جميعا قيما سامية .

١١ سبتمبر :

أعمل ثانية على الفخذ الايسر . بعد جفافه لاحظت للمرة الثانية ان هناك «تجبيرا» لابد من معالجته بشرائح البطاطس ، ثم أعيد التلوين بخفة دون مسح او مغمغة .

١٢ سبتمبر :

أعمل ثانية على القماش الاصفر والامور تسير الى الافضل . حدث اليوم شئ فريد ، لاول مرة ينتابنى دافع حقيقى حيوى لزيارة قاعة فنون .

١٣ سبتمبر :

لو رسمت بشكل جيد طوال حياتى، لكنت تعيسا، يبدو لى الآن، إنى فى الحالة نفسها من النضوج التى كانت لدى «جوته» حين وصل روما وصاح مندهشا: «وأخيرا آن أن اولد» .

١٤ سبتمبر :

طلبت ثمانون فتاة ان أظهر لهن فى نافذة الاستوديو . صفقن لى وارسلت لهن قبلة فى الهواء . انسحبت من النافذة ورأسى يطن بتساؤلات ليست جديدة :

ما العمل حتى أعرف كيف ألون جيدا ؟

۱٥ سبتمبر :

«ايوجينو دورس» الذى لم يرجع الى «كاداكيس» منذ خمسين سنة، جاء لزيارتى محاطا بالاصدقاء ، أتت به اسطورة ليديا كاداكيس كتابانا حول الموضوع نفسه سيظهران فى وقت واحد ، كتابه شبه افلاطونى وذو بعد جمالى غامض قد يجعل حدة الواقعية التى كتبت بها ليديا تسطع أكثر .

١٦ سبتمبر :

أيقظونى فى وقت متأخر ، المطر يتساقط بغزارة والجو مظلم ولن أتمكن من التلوين . أفهم الفشل التقنى لشهر سبتمبر الآن، وأنا أقوم بتلوين القماش بشكل أفضل من قبل ، حاولت بسبب رغبة خيالية فى الكمال ، أن ألوّن بطلا . بشكل خفيف جدا حتى يكاد يكون لاشئ على أسطح مشبعة بالكهرمان . أردت أن أحرز سيطرة فائقة ، وأقصى خلاصة روحية ، لكن النتيجة كانت كارثة.

ظلت المساحة التى لونتها رائعة لمدة ساعة . وحين جفت امتص الكهرمان الجزء الملون وتحول كل شيء إلى لون كهرمانى غامق مبقع. هذا السواد يتوافق مع السحب الرصاصية الممطرة لهذا اليوم من سبتمبر .

لقد اسودت حياتى بعد ظهر هذا اليوم . فى المساء، ادركت

سبب اخطائي الاساسية . احسست هذه الاخطاء، جالا تعرف انه يمكن اصلاح كل شئ بسهولة باستخدام شريحة بطاطس قبل اعادة التلوين. ان سعادتي في الكشف عن كل حقائق التلوين الذى أقوم به بمساعدة فشلى الوقتى المتكرر . وللحظات أخرى ، تمعنت بخطيئتي مليا ، ثم طلبت أن يحضروا لى شيئا ملموسا تماما وعلى صلة بالموضوع . اعنى قطعة بطاطس، وحين وضعت على الطاولة تنهدت كجوته وقلت : أخيرا سأولد .

إنه شئ جميل ان يبدأ مولدك في يوم عاصف مرعب .

١٧ سبتمبر :

الون الملابس وظلال الذراعين. مات رجل فى المكسيك عن عمر يناهز مائة وخمسين عاما تاركا يتيما فوق المائة .أود أن أعيش أكثر منه، اتوقع دائما ان يتوصل العلم الى اطالة عمر الانسان بشكل فعلى – بمساعدة الله طبعا – وفى الوقت ذاته، فإن البدء «بأن تولد» كما حدث لى أمس، طريق للبقاء أيضا.

أيتها الذاكرة الدءوب ، ساعة حياتى المرنة ... هل تعرفينني ؟

ذهبت جالا مع جون الى برشلونة ، سنصطاد فى وقت الشفق الخفافيش ، سنتسلح بعصى ثبتنا فى اطرافها جوارب حريرية سوداء من التى تلبس فى الامسيات الرسمية فى نيويورك .

مساء الخير يا جالا ، سأمسك الخشب حتى لا يحدث لك شئ فأنت قرة عيني وعينك إيضا .

١٨ سبتمبر :

جاء عامل كهرباء ليرى لوحتى « المسيح على الصليب » بعد صمت مذهل ، صاح بإعجاب «يايسوع» قالها بالقطالانية .. وهى تعادل أسمى قسم هناك .

١٩ سبتمبر :

ألوِّن اجزاء كبيرة من القماش بثقة أكبر ، ورسمت قطعة القماش التى ستغطى عرى المسيح ، برغم الانقطاع المتكرر للتيار الكهربى.

٢٠ سبتمبر :

أقوم بالتلوين الثانى الفوقى للمكعب وظله الايسر. ولونت ما رسمته أمس ، أقصد قطعة القماش التى تغطى عرى المسيح . أنا فى الفراش ، وجالا ذهبت مع بعض الاصدقاء لصيد الجمبرى .

٢١ سبتمبر :

فتحت نسخة قديمة - ترجع لسنة ١٨٨٠ - من كتاب «الطبيعة» وقرأت قصة ١٠٠٪ دالية ، أحد بالعى السيوف، أصابته وعكة بسبب انزلاق شوكة الى معدته اثناء حفلة مع بعض الاصدقاء

وقد استطاع أحد الاطباء اخراجها بعد عملية رائعة . كانت القصة ستكون دالية ٢٠٠٪ لو كان بدل الشوكة شئ آخر ولنقل كتلة صلبة من القذارة ، لكنت أخرجتها بطريقتى الدالية الخاصة.

وقد لفت البارون لارى انتباهنا بأن عملية شق المعدة قد أجريت فى عصور سابقة قديمة ، ويذكر انه رأى فى كتاب قديم فتاة ابتلعت كرة متصلبة من الروث ، وبعد عدة أشهر وصلت الكرة الى ما تحت السرّة، وقد اتخذ الجراح من هذا الانتفاخ مرشدا له لشق جدار البطن والمعدة واخراج الكرة .

١٩٥٤

لم يكتب دالى يوميات فى هذا العام . وقد كان عاما خصبا فى حياة دالى ، فقد كتب مسرحية فى ثلاثة فصول لثلاثة ممثلين وهى مسرحية : «هلوسة صوفية شهوانية» وهى لجمهور مثقف خاص . كذلك كتب فى هذا العام كتابه: «مائة وعشرون يوما فى سودوم لنقيض الماكيز المبجل» .

كذلك بدأ فيلمه : المغامرة العجيبة لصانعة الدانتلا والخراتيت مايكل ديون

١٩٥٥

١٨ ديسمبر - باريس

كانت الليلة الماضية تمجيدا لدالى فى معبد المعرفة، أمام

جمهور رائع . بمجرد أن وصلت بعربتي الرولز المطوءة بالقرنبيط ، حتى انطلقت آلاف «الفلاشات» الكهربائية لتحيتي . نهضت لألقي كلمتي في المدرج الضخم للسوربون . الجمهور المترقب الهياب كان يتوقع بضعة كلمات حاسمة .

قلت : لقد قررت التعامل في باريس بأقصى درجات ذكائي ، لأن فرنسا أكثر بلاد العالم ذكاء، وأعظم الاقطار عقلانية ، وأنا قادم من اسبانيا أكثر بلاد العالم لاعقلانية وغموضا .

استقبلت هذه الكلمات بعاصفة من التصفيق ، لانه لا يوجد أكثر من الفرنسيين حساسية نحو المجاملة والمديح .

وأضيف : ان الذكاء يقودنا الى الوقوع في ضباب الشك للفروق اللغوية الدقيقة ، ويقلص الاشياء لنا بحيث تغدو الامور في النهاية تعبيرا عن الالتباس في طريقة اعداد الطعام وتذوقه ، ولذا فمن المفيد والضروري ، من وقت لآخر ، ان يحضر بعض الاسبان مثل بيكاسو ومثلي، الى باريس، ليضعوا أمام عيون الفرنسيين كتلة من لحم ودم الحقيقة .

ثارت بعض الضجة وسط الجمهور كما توقعت . لقد فزت. اضفت في نفس واحد : إن أحد أعظم وأهم الرسامين المعاصرين هنري ماتيس ، لكنه يقدم في لوحاته آخر نتائج الثورة الفرنسية ،

وبالتحديد انتصار البرجوازية والذوق البرجوازى .

وعلا تصفيق كالرعد .

ومضيت قائلا : ان نتائج الفن الحديث المعاصر جاءت لنا بأقصى درجات العقلانية وأقصى درجات الشك ان الرسامين الشبان اليوم لايؤمنون بشئ ، ومن الطبيعى ، حين لا يؤمن المرء بشىء أن ينتهى الى أن يرسم لاشىء . وهى حالة الرسم الان، بما فيه الرسم التجريدى والاخلاقى والاكاديمى باستثناء مجموعة الرسامين النيويوركيين - فى نيويورك - لأنهم بسبب نقص الموروث الفنى لديهم وغريزتهم المحتدمة ، فهم قريبون من ايمان ما قبل الصوفية ، وسيتخذ منهم شكلا حين يعى العالم التقدم الاخير فى العلوم الحديثة خاصة العلوم النووية . فى فرنسا وفى العمود القطرى المعارض لمدرسة نيوريورك، أجد مثلا واحدا لأقدمه لكم ، صديقى الرسام جورج ماثيو Georges Mathieu بسبب من اصوله الملكية والكونية تبنى موقفا معاكسا تماما لاكاديمية الرسم الحديث .

تردد كلمة «برافو» عدة مرات عند هذه النقطة . لااستطيع أن

أفعل الكثير للجمهور سوى استمرار التواصل معه بالذكاء شبه العلمي الذى أفكر به ، أعرف انى لست خطيبا ولا رجل علم ، لكن وسط الجمهور لابد أن يكون هناك علماء ، خاصة بعلم التشكل وسيحكمون على هلوستي الابداعية وشخصيتي الحقيقية .

قلت : في سن التاسعة ، كنت في «فيجوراس» مسقط رأسى ، وكنت أجلس عاريا في غرفة الطعام ، ارتكز بكوعى على المائدة متظاهرا بأنى نائم ، فعلت ذلك حتى تنظر لى الخادمة دون حرج . كان على المائدة فتافيت من الخبز الجاف ، وكانت تضغط على كوعى بشكل مؤلم . تماثل الالم مع نوع من النشوة الغنائية المسبوقة بغناء عندليب. حركتنى تلك الأغنية لدرجة دفعت الدموع الى عينى . بعد تلك اللحظة مباشرة ، وقعت عيناى على لوحة مستنسخة من «صانعة الدانتلا» لفيرمير كانت معلقة على حائط غرفة مكتبة أبى ، رأيت اللوحة المستنسخة عبر الباب الذى ترك مواربا في لحظة كنت أفكر فيها بقرون الخراتيت . حين قصصت ذلك على أصدقائى قالوا إنه وهم وهلوسة ، لكنه كان حقيقة ، حين كنت شابا فقدت لوحة مستنسخة من «صانعة الدانتلا» فى

باريس، مرضت ولم أستطع تناول الطعام حتى حصلت على نسخة أخرى منها .

كان الجمهور يصغى مبهورا ، لم يكن أمامى سوى أن أكمل وأشرح حكاية انشغالي الدائم «بفرمير» خاصة لوحته «صانعة الدانتلا».

قلت : ذات يوم وصلت الى قرار حاسم . طلبت من متحف اللوفر إذنا برسم نسخة للوحة «صانعة الدانتلا» وذات صباح وصلت الى المتحف وأنا أفكر فى قرون الخراتيت . ولدهشة اصدقائى وأمين المتحف فقد ظهرت على اللوحة التي أرسمها قرون الخراتيت . تحول توتر الجمهور الى قهقهات عالية غرقت فورا فى عاصفة من التصفيق .

قلت : بصراحة ، لقد توقعت ان يحدث ذلك. ثم عرضت على الشاشة نسخة من لوحة «صانعة الدانتلا» وبينت للجمهور ما الذى أثر على بدرجة أكبر فى تلك اللوحة : كل شئ قد تجمع ليلتقى بالضبط عند إبرة لم ترسم لكن يفهم انها هناك . مضاء طرف تلك الابرة اشعر به ينغرز بحدة فى لحمى الخاص . حتى الآن، تعتبر

لوحة «صانعة الدانتلا » لوحة هادئة جدا مسالمة ، لكن بالنسبة لى فانها ممسوسة بأعظم قوة جمالية عنيفة، لايمكن مقارنتها الا بذلك الذى اكتشفوه حديثا : البروتون المضاد .

وطلبت من عامل العرض أن يعرض على الشاشة نسخة من اللوحة التى رسمتها عن صانعة الدانتلا .

وقف كل الحاضرين يصفقون ويصيحون : انها أفضل .. ذلك واضح . وشرحت للجمهور أنى لم ابدأ فهم «صانعة الدانتلا» بالفعل إلا حين بدأت برسمها ، واحتاج ذلك الى فترة صيف كاملة لأناقش الموضوع مع نفسى وادرك أنى رسمت بالغريزة اكثر الانحناءات حدة ولوغاريتمية . اصطدام فتافيت الخبز الجافة وكرات الدم مرة ثانية ، مكنانى من رؤية لوحة صانعة الدانتلا على حقيقتها . وواصلت الرسم ، لكن أفكارى حول الخراتيت كانت واضحة لدرجة أنى ارسلت برقية لصديقى ماثيو اقول له : «لن اذهب الى اللوفر ثانية .. يجب ان اواجه خرتيتا حيا »

ولكى اعيد جمهورى الى الارض واجعل الجسد يسترخى ، عرضت صورة لى ولجالا ونحن نستحم فى مياه «كيب كروس»

وعلى جانب الصورة، صورة للوحة صانعة الدانتلا.

قلت : الخمسون رسما الأخرى ، رسوم صغيرة متناثرة فى بستان الزيتون الخاص ، تدعونى دوما لتأملات جديدة حول مسألة لاتحد معانيها . وواصلت فى الوقت ذاته تعميق دراستى حول تركيب وتشكيل زهرة عباد الشمس ، التى توصل ليونارد دافنشى إلى بعض خصائصها عبر رسوماته . واكتشفت فى ذلك الصيف من عام ١٩٥٥ ، أنه فى اتصال اللولبيات التى تكون زهرة عباد الشمس ، توجد بوضوح الانحناءة الكاملة لقرن الخرتيت. علماء تشكل النبات فى الوقت الحالى ليسوا على يقين تماما ان لولبيات زهرة عباد الشمس هى لولبيات لوغاريتمية وإن كانت قريبة منها . لكنى استطيع ان اؤكد انه لا يوجد فى الطبيعة أكثر كمالا وقربا من اللولبيات اللوغاريتمية من منحنى قرن الخرتيت . باستمرار دارستى لعباد الشمس والمنحنى اللوغاريتمى (٤٣) سهل على أن أميّز الخط المرئى الواضح لصانعة الدانتلا ، وتصفيفة شعرها ، ومخدتها ، المشابه لأسلوب سورا Seurat (٤٤) التجزيئى .وفى كل زهرة عباد الشمس وجدت على الاقل خمس عشرة صانعة دانتلا ،

بعضها أكثر قربا من البعض الآخر من لوحة فيرمير الأصلية .

وأكملت : وذلك هو السبب، أنى حين رأيت للمرة الاولى لوحة صانعة الدانتلا وخرتيتا حيا معا، ادركت انه لو كانت هناك معركة، فان صانعة الدانتلا ستفوز لأنها فى علم التشكل قرن خرتيت .

حيانى الجمهور بالتصفيق والضحك . كل ما بقى لى لأفعله هو أن أعرض على الجمهور لوحة الخرتيت المسكين يحمل على طرف أنفه صانعة دانتلا صغيرة ، بينما صانعة الدانتلا نفسها عبارة عن قرن خرتيت ضخم ليس له وحشية قرون الخراتيت ويمتلك قوة روحية عظيمة ، لأنه كان رمزا للعفة المطلقة . فان لوحة لفيرمير هى على العكس تماما للوحة لماتيس . فالأخير ليس طاهرا ومحتشما برسمه مثل فيرمير الذى لم يقترب من الشئ . ماتيس يضفى العنف على الحقيقة ويحولها ويقلصها الى ما يشبه العربدة.

ولأنى أحرص دائما ألا ادع جمهورى يغرق فى تأملات غير تأملاتي ، عرضت عليه صورة للوحتى «المسيح على الصليب»، ثم

لوحة حللها صديقى روبرت ديكانس ، الذى يصور الآن فيلمى «المغامرة العجيبة لصانعة الدانتلا والخراتيت»، بأنها وجه جالا مكون من ثمانية عشر قرن خرتيت .

صاح الجمهور معبرا عن إعجابه ، وتجددت صيحات الاعجاب حين قلت ان البعض قد رأى علاقة قربانية واضحة بين الخبز وركبتى المسيح من وجهة النظر المادية والتشكيلية، وقد كنت طوال حياتى ممسوسا بالخبز الذى رسمته مرات لا تعد ، ولو حلل أحد بعض الانحناءات المعينة فى لوحتى «المسيح على الصليب» ، فسيرى قرون الخراتيت المبجلة ، التى هى القاعدة الاساسية لكل الجماليات الطاهرة والعنيفة . ثم اشرت الى الشاشة التى كانت تعرض عليها صورة لوحة «الساعات العرجاء» قائلا : ان القرون نفسها يمكن أن توجد فى الاعمال الفنية لدالى .

فسألنى أحد الحضور : ولماذا هى عرجاء ؟

فأجبت : عرجاء او سليمة، ليس ذلك هو المهم ، مادامت تشير الى الوقت الصحيح . فى لوحاتى هناك أعراض لقرون خراتيت تشير وتلمح الى إعلاء ذلك العنصر الذى تحول داخلى بالتدريج

الى عنصر صوفي . ومن المؤكد ان قرن الخرتيت ليس من أصل رومانسى او ديونيسى، بل على العكس ، فانه ينتمى الى ابوللو ، وقد اكتشفت من دراسة شكل الرقبة فى رسومات رافائيل ، ان كل شئ فى رسوماته يتكون من مكعبات واسطوانات لها اشكال مشابهة للمنحنيات اللوغاريتمية الملاحظة فى قرون الخراتيت .

ولأثبت ما قلته ، طلبت عرض شريحة للوحة «عذاب الصلب» لرفائيل التى أرى انها متأثرة بوضوح بقرون الخراتيت . وهذه اللوحة من أعظم الامثلة للتنظيم المخروطى لسطح ما . وبالطبع ان قرن الخرتيت هنا ليس هو كما نجده عند فيرمير (حيث له قوة أعظم) ، بل هو ما يمكن ان يطلق عليه الافلاطونى الجديد .

وقد عرض رسم توضيحى لهذه اللوحة ، مبين عليه الشئ الاساسى فيها ، قسمت الاشكال فيها بناء على النسب الملكية المبجلة للوكانش باسيلى Lucoas Pacelli الذى يستخدم دائما فى علم الجمال كلمة «ملكية» Monurchy لأن الاجساد الخمسة العادية محكومة كليا بالملكية المطلقة للجماليات الكروية .

الجمهور يكتم أنفاسه ، فلأزوده بحقائق طازجة أخرى. كانت

تعرض على الشاشة ورائى صورة خرتيت، حللتها منذ فترة قريبة بحذق شديد ، واكتشفت انها ليست إلا زهرة عباد شمس مثنية مرتين ، لم يكن للخرتيت أنف يحمل أجمل الانحناءات اللوغاريتمية فقط ، ولكنه يرتدى على ظهره نوعا من المجرة بشكل زهرة عباد الشمس .

علت صرخات الإعجاب ، كان الجمهور كله في قبضة يدى ، كنا فى حالة دالية خالصة ، وجاءت لحظة البدء بالتنبؤ والتكهن .

قلت : بعد الدراسة التشكيلية لتركيب زهرة عباد الشمس ، أدركت أن اجـزاءها وانحناءاتها وظلالها لها شخصية كتومة تمشيا مع الكآبة العميقة لليونارد دافنشي نفسه . وتساءلت أليس ذلك آليا أكثر من اللازم . القناع الديناميكى لزهرة عباد الشمس منعنى من رؤية صانعة الدانتلا داخلها ، كنت أدرس المسألة حين وقعت عينى على صورة إحدى ثمار القرنبيط ، قلت : اكتشاف . فالتكوين الشكلى للقرنبيط نموذج لتكوين عباد الشمس ، والاثنان يتكونان من لولبيات لوغاريتمية حقيقية ، لكن لولبيات الزهرة لها نوع من القوة التوسعية تشبه القوة النووية . وبدأ يتصاعد داخلى

توتر مشابه . لذلك الجبين العنيد الذى أحببته بشغف شديد فى صانعة الدانتلا . جئت إلى السوربون بعربة رولز مليئة بالخضراوات ، لكن الموسم لم يكن بعد موسم القرنبيط الكبير ، وعلينا أن ننتظر لشهر مارس ، وحين أحصل على قرنبيطة كبيرة ، سأسلط عليها الأضواء وأصورها من زاوية معينة ، ثم - وأعطيت كلمة شرف كاسباني - حين تظهر الصورة سيرى فيها كل امرئ صانعة الدانتلا بل وتقنية فيرمير الكاملة .

وأصاب القاعة جنون مطلق . لم يبق إلا أن أحدثهم ببعض الطرائف . قلت : قيل لى إن جنكيزخان سمع يوما عندليبا يغنى فى بستان كان يريد إن يُدفن فيه ، ورأى فى اليوم التالى حلما فيه خرتيت أبيض ، أبرص ، بعينين حمراوين . فاعتبر هذا الحلم فألا حسنا . فأعلن عن عزمه غزو التبت . أليس هذا شبيها بشكل مدهش بما أتذكره من طفولتى حين بدأ الأمر بغناء عندليب ثم استحواذ «صانعة الدانتلا» على نفسى ، وفتافيت الخبز وقرون الخراتيت ؟ كما أنى حين كنت أقرأ حياة جنكيزخان قبل فترة ، تلقيت الدعوة لإلقاء هذه المحاضرة من السكرتير الدائم للمركز

الدولى للدراسات الجمالية واسمه : م. مايكل جنكيزخان .

بالنسبة إلى صفاتى الاخلاقية والخلقية المتميزة ، فان هذه مصادفة رائعة وجميلة .

منذ يومين ، وقعت مصادفة أخرى أكثر اثارة ، كنت أتغذى مع جان كوكتو ، وحدثته عن موضوع هذه المحاضرة ، فشحب وجهه. معى الآن شئ سيسبب لكم الدوار ، وأمام الجمهور المفتون الذى كان فى ذروة فضوله ، حركت الشئ فى الهواء . هذا هو مشعل فرن الخباز الذى كان يشترى منه «فيرمير» خبزه ، لم يكن مع فيرمير ثمن الخبز ، وكان يدفع لخبازه الثمن لوحات وأشياء أخرى منها هذا المشعل الذى عليه طائر وقرن ، ليس قرن خرتيت ولكنه لوغاريتمى على كل حال . إنها قطعة نادرة جدا لأن فيرمير شخص غامض جدا ، ولاشئ غير هذا معروف عنه .

اضطربت القاعة حين ذكرت اسم «كوكتو»، واضطررت إلى القول إنى احترم وأبجل كل أعضاء الاكاديمية الفرنسية. وكان هذا كافيا لجعل كل فرد يصفق، أنا أبجل كل أعضاء الأكاديمية الفرنسية خاصة منذ قال أحد أجل أعضاء الأكاديمية الأسبانية

الفيلسوف ايوجينومونت Eugenio Montes قولا أعجبنى: «إن دالى هو أقرب إنسان إلى الملائكى ريموندو لوليوLulio(٤٥) حيتنى القاعة بتصفيق حاد لهذا الاقتباس ، باشارة أوقفتهم وأضفت : بعد ملاحظاتى هذا المساء ، اعتقد أنى كى أتقدم من صانعة الدانتلا إلى زهرة عباد الشمس ، ومن زهرة عباد الشمس إلى الخراتيت ، ومن الخراتيت إلى القرنبيط ، فلا بد أن يكون هناك شئ ماحقيقى داخل جمجمتى .

١٩٥٦

٨ مايو :

أعلنت الصحف والإذاعات ، بضجة كبيرة ، أن اليوم هو الذكرى السنوية لانتهاء الحرب فى أوربا ، حين استيقظت فى الصباح على دقات الساعة السادسة طرأت على ذهنى فكرة أنى أنا الذي كسبت الحرب الماضية ، وقد أبهجتنى هذه الفكرة . لم أعرف أدولف هتلر شخصيا ، ولكن نظريا قد أكون قابلته بشكل خاص فى مناسبتين قبل مؤتمر نورمبرج . طلب منى صديقى

الحميم «لورد بيرنرز» عشية هذا المؤتمر أن أوقع نسخة من كتابى « هزيمة اللامعقول» ليسلمها شخصيا الى هتلر الذى يرى فى رسوماتى جوا بلشفيا فاجنريا ، خاصة الطريقة التى أرسم بها شجر السرو ، حين تناولت نسخة الكتاب من لورد بيرنرز لأوقعها، انتابتنى حيرة عجيبة ، تذكرت الفلاحين الجهلاء الذين كانوا يأتون الى مكتب أبى ويوقعون على الوثائق التى تقدم لهم برسم علامة الصليب ، ووقعت على الكتاب بهذا الشكل ، وادركت وأنا أوقع برسم الصليب أن هناك معنى كبيرا ومهما وراء ذلك ، ولكن لم يخطر ببالى أبدا أن تكون هذه العلامة ذاتها هى التى ستوصل المأساة الهتلرية الى أقصاها . إن «دالى» المتخصص فى رسم الصلبان (أعظم ما وجد منها) ، نجح فى ضربتين رشيقتين ، أن يعبر ، خطيا وبشكل مهيب وبفعل سحرى مكثف ، عن الجوهر الخامس للصراع الكلى للصليب المعقوف ، الصليب الديناميكى النيتشوى الخطافى الهتلرى ، رسمت صليبا رواقيا ، الاكثر رواقية من أى شئ ، أعظم صليب فيلاسكويزى (نسبة للرسام فيلاسكويز) ، والاكثر تضادا للصليب المعقوف ، إنه الصليب الاسبانى للصفاء الديونيسى (نسبة الى ديونيسيوس) ، الذى سيهزم هتلر .إن ادولف هتلر الذى كان له مجسات سحرية ، محشوة بخرائط ابراج كشف الطوالع ، ظل خائفا فترة طويلة

وحتى وفاته فى مخبئة ببرلين ، بسبب نبوء تى ،لا شك أن المانيا برغم جهودها الجبارة كانت ستقهر وتخسر الحرب ، وإن اسبانيا التى لم تشترك في الصراع ، ولم تفعل شيئا . ونحن بانسانيتها وبإيمانها الدانتي وبمساعدة الله اقتيدت لأن تكسب الحرب ومازالت تكسب وستظل تكسب روحيا . الفرق الكامل بين اسبانيا وألمانيا هتلر الماسوشى ، إننا نحن الاسبان لسنا ألمان بل نوعا ما على عسكهم تماما .

٩ مايو :

أنا لا أدرس المصادفة كظاهرة بيولوجية ، وأنا أتوغل بعمق فى رياضيات الكون المتناقضة . أنهيت فى السنتين الماضيتين أربع عشرة لوحة على القماش كل واحدة أروع من الأخرى . العذراء وابنها يسوع يتلألآن فى كل لوحاتى هذه . وهنا أيضا أنا أطبق نظاما رياضيا صارما : ألا وهو المكعب الأصلى الأولى . المسيح انقسم الى ٨٨٨ شظية أو فرقة ، ذابت كلها واندمجت فى تسع فقط (مكعب ٣ المتضاعف) . سأتوقف منذ الآن عن الرسم بدقتى المذهلة وصبرى الهائل . سأرسم بسرعة ، وسأعطى نفسى كلها بقوة وفهم للرسم . وقد اتضح هذا تماما حين ذهبت ذات صباح الى متحف اللوفر لرسم لوحة فيرمير صانعة الدانتلا . استغرق الامر أقل من ساعة ، رسمتها بين أربع كسرات من الخبز كما لو أنها ولدت من صراع الجزيئات وفقا لمبدئى فى

تعاقب الارداف الاربعة . والكل شاهد فيها «فيرمير جديد» .

نحن ندخل عصر الرسم العظيم ، نتيجة توصلت اليها ١٩٥٤ بموت رسام أعشاب البحر المفيد جدا في تيسير عملية الهضم عند الطبقة المتوسطة ، وأعنى به هنرى ماتيس رسام ثورة ١٧٨٩، إنها ارستقراطية الفن التى ولدت ثانية فى الهلوسة والهذيان . الجميع اتخذ موقفا معارضا لرسوماتى التوضيحية للكوميديا الالهية لدانتي ، من الشيوعيين الى المسيحيين ، إنهم متخلفون مائة عام على الأقل . لقد تخيل جوستاف دورى Gustave Doré (٤٦) الجحيم كمنجم فحم ، وأنا رأيته تحت سماء المتوسط كرعب هائج .

يقترب موعد تصوير فيلمى الذى تحدثت عنه طويلا فى يومياتى : عربة اليد الآدمية . منذ بداية التفكير فيه ، وأنا اسعى لجعل السيناريو كاملا تماما . المرأة التى تعشق عربة اليد ستعيش معها برفقة طفل جميل كيسوع . عربة اليد الآدمية ستحمل كل صفات العالم .

١٠ مايو :

أنا فى حالة من التوهج الثقافى الدائم ، كل رغباتى تحققت . المصارعة الطقسية (من الطقوس) بدأت تتحقق ، والكثيرون بدأوا يستفسرون عنها . تطوع رهبان شجعان بالرقص حول الثور

مع الأخذ فى الإعتبار الشروط الجمالية الفائقة لحلبة المصارعة . الاختلاف الاكثر تأثيرا ، فى المشهد ، هو استبدال عملية نقل الثور المبتذلة عن طريق البغال ، برفعه عموديا باستخدام الهليوكبتر ، آلة غامضة هائلة تستمد قوتها من ذاتها ، ولجعل المشاهدين أكثر تأثرا فإن الهليوكبتر ستحمل الجثة عاليا جدا وإلى منطقة بعيدة ، الى جبال مونتسيرا مثلا ، لتلتهمها الصقور ، ولتحقق بطريقة شبه طقسية صراعا لم يسبق رؤية مثله .

أود أن أضيف أن الطريقة الوحيدة الدالية فى تزيين الحلبة (برغم أن فيها انتحالا بسيطا من ليورناردو) ستكون باخفاء خرطومين وراء الحواجز يستخدمان بتكوين كل انواع الاشكال (يفضل المعوية) ، بشكل ساخر ، عن طريق ضغط لبن ساخن فيهما لينبثق من فتحتهما بشكل قوى .

فلتحيا الصوفية الاسبانية العمودية التى تصعد من أغوار غواصة نرسيس مونتريول عموديا الى السماء بطائرة هليوكبتر .

١١ مايو :

يزورنى كل عام ، بشكل منظم تقريبا ، شباب يسألني أن أدله على طريق النجاح .

قلت لأحدهم وقد جاء يزورنى هذا الصباح : إن نيل الاحترام الدائم والمتنامى في المجتمع ، شئ عظيم ، لكن اذا امتلكت

موهبة كبيرة فعليك فى مطلع شبابك ، أن تعطى هذا المجتمع الذى تحبه.ركلة قاسية فى ساقه ، ثم كن متعاليا ونفاجا .

منذ طفولتى أعجبت بالطبقة العليا ، تجسد ذلك فى شخص سيدة كانت تسمى «ارسيولا» ووقعت فى حبها أولا بسبب كانت كانت ترتدى قبعة (عائلتى لم تكن تلبس القبعات)، وثانيا لأنها كانت سكن فى الطابق الثانى . لم اقتصر بعد ذلك على الطابق الثانى ، كنت دائما أود أن أكون فى أهم الطوابق، حين ذهبت الى باريس كان هاجسى الوحيد أن أعرف هل يمكن أن أدعى الى كل الاماكن العظيمة التى أحب أن أراها ، وحين أتلقى الدعوة ، تهدأ كبريائى على الفور بالطريقة ذاتها التى يشفى فيها المرء بمجرد أن يفتح الطبيب الباب ، ومع ذلك فإنى غالبا لا ألبى هذه الدعوات، واذا حدث وذهبت فإنى أختلق فضيحة تجذب الانتباه لى ، واختفى فى الحال . كان التنفج بالنسبة لى ، خاصة فى المرحلة السريالية، استراتيجية حقيقية ، فقد كنت الوحيد من بينهم - عدا كريفيل - الذى استقبل فى الاوساط الاجتماعية ، فلم يكن السرياليون يعرفون هذا الوسط فهم غير مقبولين فيه . كنت أقول لهم : إنى مدعو لحلفة عشاء فى المدينة ، اتركهم لافتراضاتهم وتنبؤاتهم ، فهى حفلة عشاء عند أناس يعتبرون فاكهة محرمة بالنسبة لهم . حين أصل الى بيت مضيفى مباشرة ، أمارس نوعا

آخر من التنفج أكثر جدارة بالاعتبار ، أقول «سأضطر للمغادرة بعد تناول القهوة مباشرة لأنى على موعد مع الجماعة السريالية» وهى جماعة أصعب فى الوصول اليها بالنسبة له ، من وصولى الى الطبقة الأرستقراطية . فالسرياليون يعتبرون الطبقة العليا طبقة عبيطة ولا تفقه شيئا . أو كنت أقول «أستأذنكم .. فأنا ذاهب الى مكان كذا حيث يعقد اجتماع مهم للجماعة السيريالية» . ويكون لذلك تأثير كبير ، فبالنسبة لأفراد مجتمع فضولى فإنى ذاهب الى مكان لا يستطيعون هم الذهاب اليه . كنت اذهب دائما الى تلك الاماكن التى لا يستطيع اصحابها الالتقاء بالسرياليين ، ولا يستطيع السرياليون الذهاب الى تلك الاماكن . التنفج هو أن تضع نفسك فى موقع لا يسمح به للآخرين، ويسبب احساسا بالنقص لهم ، هناك طريقة ، فى كل العلاقات الانسانية ، تستطيع بواسطتها السيطرة على الموقف تماما . وتلك كانت سياستى مع السرياليين .

وهناك شئ آخر ، فأنا لا استطيع أن اشارك أو أساهم بالوشايات العادية . مثلا تخاصم «آل بيمونت» مع «آل لوبين» بسببى وبسبب فيلمى عصر الذهب ، وعرف الجميع أن العائلتين قد تخاصمتا ولم تعد احداهما تزور الأخرى أو تتواصل معها ،

وكل ذلك بسببي . لكنى أنا وبكل جدية اذهب لزيارة آل بيمونت ، وبعد ذلك أذهب لزيارة آل لوبيز دون أن أعرف شيئا عن طبيعة شجارهما ، وحتى لو عرفت فلم أكن أعير ذلك أدنى انتباه ، الشئ نفسه حدث بين «كوكو شانيل» و «الزا شيابا» فقد كانت بينهما حرب ازياء أهلية ، وكنت أتغدى مع الأولي ، واتناول الشاى مع الثانية ، وفى الليل اتعشى مع الأولى. كل ذلك خلق دوامات من الغيرة ، وأنا من القليلين جدا الذين عاشوا وسط أكثر الدوامات تناقضا ، والمقفولة احداها عن الاخرى تماما ، بينما أنا أروح وأغدو كما اشاء نتيجة لتنفجي الخالص ، ولجنونى فى أن أشاهد دائما وسط أكثر الدوائر صعوبة ومنالا .

نظر اليّ الشاب بعينين مستديرتين كعيني سمكة .

سألته : ماذا تريد أن تعرف أيضا ؟

قال : إن شاربك ليس طويلا كالمرة السابقة التى رأيتك فيها .

قلت : إنه متذبذب دائما ولا يكون الشارب نفسه فى يومين متتاليين ، وهو فى الوقت الحالى فى حالة خمول لأنى أخطأت فى موعد وصولك بحوالى الساعة ، وهو لم يبدأ العمل بعد فلقد استيقظ لتوه من دنيا الاحلام .

عندما فكرت بهذه الكلمات ، بدت لى مبتذلة ، وحركت بداخلى مشاعر الهمتنى اختراعا فريدا ، قلت للشاب : انتظر ، وجريت الى الخارج ، والصقت بطرفى شاربى خيطين من الالياف النباتية ، كان لهما خاصية غريبة ، وهى الانحناء والانبساط على التوالى ، حين رجعت أشرت للشاب الى هذه الظاهرة .

لقد اخترعت لتوى الشارب الرادارى .

١٢ مايو :

النقد شئ رفيع وسام ، ولا يستحقه إلا العباقرة ، وبالتالى يمكننى الكتابة فى النقد ، فأنا مبتدع الاسلوب النقدى المبنى على الهلوسة وقد كتبت كتابا حول ذلك [٤٧] ، ولكن هناك ما لم أقله ، سواء فى كتاب حياتى السرية أو فى اليوميات ، فقد كنت حريصا أن احتفظ ببعض الرمانات المتعفنة القابلة للانفجار ، فلو سألتنى مثلا من هو الرسام العادى المتوسط وسط كل الرسامين ، لقلت لك إنه زيرفوس zervos ، ولو قالوا إن ألوان ماتيس متكاملة ، لقلت إن ذلك حقيقى ، فكل ما تقوم به الوانه هو أن يقدم أحدها الثناء للآخر ، (يلعب دالى هنا على الكلمتين complement بمعنى يتم أو يكمل ، وكلمة compliment بمعنى ثناء أو اطراء) ، كما

أكرر أنها فكرة جيدة أن نعطى بعض الاهتمام للرسم التجريدى ، ولأنه تجريدى فإن قيمة نقده ستصبح تجريدية أيضا وفى وقت قريب.

هناك تعاقب غريب فى بؤس الرسم غير التصويرى : أولا هناك الفن التجريدى الذى يبدو حزينا جدا ، لكن الاكثر حزنا هو الرسام التجريدى ، ويتحول هذا الحزن الى بؤس اذا قابلت أحد المعجبين بالفن التجريدى ، لكن الاكثر سوءا وشؤما هو ذلك الخبير - ناقد الفن التجريدى .

يحدث احيانا شئ مفزع ، حين يصبح كل النقاد مجمعين على شئ جيد جدا او ردئ جدا ، آنذاك تأكد ان كل ما يقولونه زائف ، لابد أن يكون المرء غبيا جدا حين يصر انه اذا تحول الشعر من الاسود الى الابيض ، فمن الطبيعى تماما أن يتحول لون غراء الورق الى اللون الاصفر .

أعطيت الكتيب الجديد الذى كتبته عنوان «ديوث الفن الحديث القديم» ، لكنى لم أقل فيه إن أقل الديوثين عظمة هم الدادائيون ، عجائز بشعر أبيض ، مشاكسون بشدة ، يحبون بشغف تلقى الأوسمة الذهبية فى بعض المعارض أو غيرها عن لوحة بائسة

رسمت برغبة لإتعاس كل من يراها ، على كل حال ، هناك ديوثون أقل عظمة . اذا وجد من هو أحقر من هؤلاء العجائز . اولئك الذين أعطوا جائزة النحت لكالدر Calder (٤٨) الذى ظن الجميع انه دادائىٌ مع أنه لم يكن كذلك . ولم يفكر أحد أن يلفت نظره . إن أقل ما يطلبه المرء من قطعة من النحت ألا تتحرك !

١٣ مايو :

جاءنى صحفى من نيويورك ليسألنى رأيى فى موناليزا ليونارد دافنشى .

قلت له : أنا معجب جدا بمارسيل دوشام Marcel Duchamp (٤٩) الذى صنع هذه التحولات الكبيرة فى وجه الجيوكندا ، فقد رسم شاربا صغيرا لها ، وكان شاربا داليا ، وتحت الصورة كتب بحروف صغيرة جدا لكنها مقروءة ل . م . ح (لها مؤخرة حلوة) ، لقد أعجبت دائما بموقف دوشامب الذى وصل ذروته بتساؤله : هل نحرق اللوفر ؟ فى ذلك الوقت كنت معجبا متحمسا بالدعوة الى العودة للاساليب القديمة فى الرسم ، التى جسدها ماسيونيه الذى اعتبرته دائما رساما فى عظمة سيزان (٥٠) وكنت بالطبع من اولئك الذين قالوا إنه لا يجب حرق

اللوفر ، وحتى الآن أرى انهم قد أخذوا وجهة نظرى فى الاعتبار ، فاللوفر لم يحرق بعد ، ولو اتخذ قرار مفاجئ بحرقه ، فيجب انقاذ الجيوكندا ، واذا احتاج الامر يمكن نقلها الى امريكا مع كل الحفاوة اللازمة ، فهى أيضا قابلة للكسر نفسيا . طبعا فى كل العالم يوجد المتعصبون لها ، لكن الكثيرين أيضا هاجموها ، ومنذ بضعة سنوات قذفت بالحجارة ، وذلك مثل للفعل الفاحش بالعدوان على الام . أنت تعرف افكار فرويد حول ليونارد دافنشى، وأن كل فنه مخبوء فى لاوعيه . انذاك من السهل أن نستنبط انه ، حين رسم الجيوكندا ، كان واقعا فى غرام أمه ، ودون أن يدرك ، رسم لوحة تمتلك كل صفات الام المتسامية ، أنثى لها ثديان كبيران ، تنظر لكل من يتأملها بطريقة أموية خالصة ، بينما فى الوقت ذاته تبتسم بطريقة ملتبسة ذات معنيين ، كل فرد رأى ومازال يستطيع أن يرى اليوم أن هناك عنصرا شهوانيا جدا فى تلك الابتسامة . إذن ، ما الذى سيحدث الى شاب بائس مسكين سيطرت عليه عقدة أوديب – بمعنى انه وقع فى حب أمه – ويحدث أن يذهب الى المتحف ، والمتحف مفتوح للجميع ، وفى لاوعية فهو ذاهب الى بيت دعارة . فى هذا البيت يرى نموذجا لصورة كل أم ،

تعطيه نظرة رقيقة وابتسامة ملتبسة تقوده الى عمل إجرامى ، يرتكب جريمة قتل الام بأن يلتقط أول شئ يصل الى يده ، حجرا مثلا ، ويدمر اللوحة إنه نموذج للعدوان النفسى المرضى (٥١) .

قال الصحفى حين مغادرته : كان الحديث يستحق الرحلة . يجب أن أعتقد أنه يستحق الرحلة . شاهدته يصعد التل وهو غارق فى التفكير ، ثم انحنى ليلتقط حجرا .

١٩٥٦

٢ سبتمبر :

تلقيت برقية من الاميرة «ب» تخبرنى انها ستصل غدا ، افترضت انها ستحضر معها «الكمان الصينى الجنسى» الذى وعدني به زوجها الامير كهدية من رحلته الأخيرة الى الصين .

أثناء نومى حلمت بالكمان الصينى وقد نبت له ذيل اهتزازى ، هذا الذيل مصمم للقيام بعمليات جنسية ، واثناء قيامه بذلك يمر عازف بقوس وهمى على الاوتار ، ومن الطبيعى ألا يعزف شيئا .

كنت أغفو تحت سماء تظهر الجلال والروعة الكونية ، وحين اصحو أغرق فى احلام يقظة شهوانية ، استمعت بشكل غائم الى

محادثة بين ثلاثة أشخاص من برشلونة ممن يحاولون الإصغاء الى موسيقى الكون ، كانوا يتحدثون عن النجم الذى اختفى منذ ملايين السنين ، ومع ذلك يمكن رؤية الضوء المنبعث عنه الذى يسافر لملايين من السنوات الضوئية .

وبما أني لا أستطيع مشاركتهم بإدعائى الذهول أمام غوامض الكون ، قلت : لا شئ مما يحدث فى الكون يدهشنى . أحد هؤلاء الثلاثة كان ساعاتيا مشهورا فى برشلونة ، قال لى : ألا يدهشك شئ فى هذا الكون ؟ طيب ، دعنا نتخيل شيئا ما ، الوقت الآن منتصف الليل ، افرض أن ضوءا ظهر فى الافق يبشر بطلوع الفجر ، وأنت تنظر اليه بتركيز شديد ، ثم فجأة رأيت الشمس تشرق فى منتصف الليل .. ألا يدهشك ذلك ؟

قلت : لا ، لن يدهشنى أقل دهشة .

صاح : لو حدث ذلك لا عتقدت أنى جننت . وهنا قدمت أحد تعليقاتى الهائلة التى املك سرها :

قلت : بالنسبة لى .. الامر على العكس .. كنت اعتقدت أن الشمس هى التى جنت .

٣ سبتمبر :

وصلت الاميرة دون الكمان الصيني الجنسي . وزعمت أنها خافت أن تحمله حتى لا تضطر أن تشرح لرجال الجمارك عمله ، وأحضرت لي بدلة ، اوزة من الخزف ، سنضعها وسط المائدة ، لها غطاء في ظهرها ، كنت أخبر الاميرة بأشياء مقدسة حول لعبة الاوزة حين تملكتني تخيلات فجائية ، تخيلت أني أطلب من النحات الذي استخدمته لاضافة الاعضاء التناسلية لتمثال فيدياس ، أن ينشر رقبة هذه الأوزة ، وأقوم بوضع أوزة حقيقية داخل الأوزة الخزفية بحيث لا يظهر منها سوى الرأس والعنق ، واذا أصدرت ضجة يمكن أن نصنع لجاما ذهبيا لنقفل منقارها ، كما اقوم بعمل فتحة تشبه فتحة مؤخرة الاوزة ، وتخيلت عازفا يابانيا بالكيمونو يحمل كمانا صينيا بذيل اهتزازي كالذي حلمت به ، يدخل طرف الذيل في فتحة مؤخرة الاوزة ، ويعزف موسيقى بعد العشاء ، الاهتزازات ستثير الاوزة ، وسنتفرج على حركاتها أثناء الحديث مع ضيوف العشاء .. وسيضاء المشهد كله بشمعدانات خاصة جدا ، سأضع نسانيس حية في قوالب فضية على شكل نسانيس بطريقة لا يبدو منها حيا سوى وجوه القرود وذيولها ،

وسنبتهج بلا حدود من حركة الذيول المثيرة ، سيضربون المائدة بشكل عصبي ، وهم يحملون مضطرين الشموع المثبتة على القوالب ، سندويتشات لأغبي انواع القرود . وأنا أتخيل كل ذلك ، ضربت ذهني ومضة كالبرق ، مهزلة تفوق مهزلة القرود مليون مرة. سأستغفل ملك الحيوانات : الاسد . سأحضر أسدا وأحزمه بأشرطة جميلة من الجلد اللامع من عند هيرمز فى باريس ، ستستخدم هذه الاشرطة لحفظ توازن عشرة أقفاص حول جسد الاسد تحتوى على ألذ الاطعمة ، بطريقة لا يستطيع الاسد فيها أن يمسك بأى قطعة من الطعام الذى يزينه ويحمله . بالإضافة الى ذلك سيرى الطعام عبر عدة مرايا مما يزيد فى معاناته حتى الموت ، ومثل هذه الوليمة - وليمة الاسد الذى يجوع حتى الموت - يجب أن يحتفل بها كل خمس سنوات فى مجالس كل القرى الصغيرة ، بعد خمسة أيام عند عيد الغطاس ، كجدول عملى للمدن الصناعية الحديثة الكبيرة . من أجل العظة والتأديب .

٤ سبتمبر :

فى الساعة الرابعة من هذا اليوم حدثت إحدى تلك الظواهر

التى أرجعها إلى الله . اثناء بحثى فى أحد كتب التاريخ عن صورة أسد ، وقع من الصفحة التى فيها الاسد ، ظرف صغير اسود الحواف على الأرض . فتحته ، كان فيه بطاقة من ريموندروسل يشكرنى على ارسالى أحد كتبى اليه ، روسل ، الذى كان عصابيا بدرجة كبيرة ، انتحر فى بالرمو فى الوقت الذى وهبته نفسى جسدا وروحا ، وعانيت لوعة على موته حتى أنى ظننت أنى سأجن . غلبنى الانفعال لذكراه ركعت شاكرا الله على التحذير . من النافذة ، شاهدت وأنا راكع ، قارب جالا الاصفر يصل الى رصيف الامواج ، خرجت وجريت لأحتضن كنزى ، فالله أيضا هو الذى أرسلها لى . إنها تبدو أكثر من أى وقت ، شبيهة بأسد متروجولدن ماير ، ولم أشعر بمثل هذه الرغبة من قبل ، فى التهامها .

كل افكارى حول موت الاسد ، اختفت ، وطلبت من جالا أن تبصق على جبهتى ، ففعلت ذلك على الفور .

٥ سبتمبر :

ضربت رأسى بشدة ، بشكل أخرق . بصقت عدة مرات فورا ، وقد تذكرت أن والدى اعتاد القول إن ذلك يساعد على إبطال أثر

الضربة ، الضغط القليل على الورم بسبب الالم ، ألم حلو كسوداوية الخوخ الاخضر فى أغسطس .

٦ سبتمبر :

ذهبنا الى السوق فى فيجورا ، حيث اشتريت عشر خوذات ، واشترت جالا كراسى مختلفة الاحجام . الخوذات مصنوعة من القش مثل تلك التى يلبسها الاطفال لحمايتهم حين يقعون . عند عودتى الى البيت وضعت كل خوذة على كرسى . المنظر الشبيه بالطقوس منحنى انتعاشا بسيطا ، صعدت الى الاستوديو لأصلى وأشكر الله . دالى لن يجن ، وما فعلته توا هو الاكثر انسجاما من كل الزيجات الممكنة ، ولأولئك المحللين النفسيين وغيرهم الذين سيكتبون مجلدات حول هلوسة هذا الاسبوع المقدس من سبتمبر، أضيف ، لأجعلهم أكثر سعادة ، أن كل كرسى عليه حشية مملوءة بريش الأوز ، وعليه اللعنة ذلك الذى لن يرى فى كل ريشة أوز شبح كمان حقيقى جنسى ، الآلة الدالية للتفكير فى المستقبل .

٧ سبتمبر :

اليوم الأحد . استيقظت متأخرا ، حين نظرت من النافذة رأيت زنجيا ممن يخيمون فى الجوار ، يخطو خارجا من القارب ، ملوثا

بالدماء ، يحمل بيديه إحدى بجعاتنا ، جريحة وتحتضر ، منحنى هذا المشهد حزنا غريبا مبهجا ، خرجت جالا جريا من المنزل لتحتضن البجعة ، في تلك اللحظة حدثت ضجة جعلتنا نقفز جميعا . كانت عملية تفريغ لحمولة عربة لورى من الفحم للفرن ، ذلك اللورى هو العامل المؤثر للأسطورة ، في ايامنا هذه ، يستطيع المرء أن يتنبأ بأفعال جوبيتر ، اذا كان يقظا ، ليعرف الحضور غير المتوقع للوريات الكبيرة .

٨ سبتمبر :

تلفن لى بعض الاصدقاء بأن الملك أمبرتو ملك ايطاليا ، سيأتى لزيارتي . طلبت من اوركسترا «سردانا» الحضور للعزف على شرفه ، سيكون أول من يمشى على الطريق الذى نظفته وبيضته ، وتحفه على الجانبين أشجار الرمان ، ذهبت الى النوم بعد الظهر وأنا أفكر فى وصول الملك الذى سيضع زهرتى ياسمين على طرفى شاربى ، من خلال الثقب الضيق فى كل منهما . وحلمت حلما لا ينسى . بجعة محشوة برمان متفجر ، وحين انفجر الرمان لاحظت أجزاء أمعائها الصغيرة كما فى فيلم لكشاف سرعة القتل ، كما أن كل ريشة طائرة يتبعها شكل كمان

صغير طائر . حين استيقظت ، ركعت وشكرت العذراء على هذا الحلم المبهج .

١٠ سبتمبر :

سأقول كل شئ حتى لو كان غير قابل للتصديق . فشخصيتى تستبعد الطرائف أو الالغاز لأنى صوفى ، والصوفية والإلغاز أو التعمية ضدان رسميان بقانون الاوانى المستطرقة .

ذات صباح ، أرادنى صديق قديم لأبى ، أن أتعرف على لوحة قديمة لى تملكها عائلته ، حين رأيته أخبرته أن اللوحة أصلية . دهش أنى استطعت أن أعرف دون أن أراها . ولكن رؤيته كانت تكفينى، وأصر على أن أرى اللوحة التى تركها فى الصالة ، قال : لنلق نظرة عليها .. لقد تركتها بجانب الدب المحشو .

قلت : مستحيل . فجلالته يغير ملابس الاستحمام خلف الدب . وكان ذلك حقيقيا .

قال بلهجة واثقة : اذا لم تكن أكبر جوكر على الأرض فأنت أعظم رسام .

ذلك يذكرنى بزيارتى لقداسة البابا بيوس الثانى عشر منذ سنتين ، فذات صباح فى روما ، نزلت درجات فندق جراند اوتيل

بسرعة ، أحمل صندوقا غريبا مربوطا بخيط ومشمعا بالرصاص ، كان يحتوى على إحدى لوحاتى . كان رينيه كلير يجلس فى الصالة يقرأ فى صحيفة ، رفع الىّ عينيه الشكاكتين دائما وبالدوائر السوداء تحتهما ، قال «إلى أين تذهب فى مثل هذا الوقت وبهذه العجلة وبكل هذه الخيوط ؟» أجبته بجفاء وعظمة «لزيارة البابا ، انتظرنى هنا»، لم يصدق ذلك للحظة واحدة ، وقال بلهجة مسرحية : «من فضلك بلغه تحياتى» .

عدت بعد ثلاثة أرباع الساعة بالضبط . كان رينيه مازال هناك جالسا فى الصالة ، وبنظرة مهزومة أرانى الصحيفة التى يقرؤها ، فى الوقت نفسه الذى غادرته فيه قرأ الخبر عن الزيارة التى سأقوم بها للبابا .

ولكن الذى لم يعرفه رينيه أبدا ، أن من بين الاسباب العديدة لزيارتى للبابا ، كان السبب الأول هو بذل الجهد للحصول على تفويض لزواج جالا فى الكنيسة ، وكان ذلك صعبا بسبب أن زوجها الاول بول الوار مازال حيا ، فليفرح الجميع .

أمس التاسع من سبتمبر . تفحصت عبقريتى لأرى اذا كانت

تنمو وتزادا أم لا ، رقم تسعة والمكعبات .. تسلمت اليوم خطابا يقول إن هاويا امريكيا يمتلك نسخة «هزيمة اللا معقول» التى أهديتها الى هتلر بتوقيع علامة الصليب ،أليس من حقى أن أسترد هذه التعويذة السحرية التى جعلت هتلر يخسر الحرب أو على الأقل المعركة الأخيرة ؟ وأكثر من ذلك ، لو لم أكن محاطا بعناية ملائكية (بضرب من العبقرية) أيختفى الجنون وتهديداته الوقحة ليظهر متوهجا فى حلم فلسفى رائع عن البجعات المتفجرة ؟

وبالأمس زارنى ملك ، وأنا مصمم تماما على الزواج من الرائعة جالا لكى استغفل رينيه كلير ثانية (٥٢) ، العدد التكعيبى تسعة هذا العام أكثر سموا من الرقم تسعة فى العام الماضى ، فكل ما حدث هذا العام لم يحدث مثله فى العام الماضى ، فقط الشجاعة كانت أروع ، فبدلا من رينيه كلير كان هناك اسم لا يمكن ذكره ينتهى بـ oie .

١٩٥٧

٩ مايو :

عندما استيقظت ، قبلت أذن جالا ، وتحسست بطرف لسانى شحمة أذنها وبللتها باللعاب ، بيكاسو .. بيكاسو أكثر الرجال

الذين عرفتهم حيوية ، كانت له وحمة على شحمة أذنه اليسرى ، زيتونية فاتحة اللون وليست ذهبية قاتمة، ناتئة قليلا جدا بالشكل ذاته والموقع نفسه ، التى توجد به وحمة مشابهة على أذن زوجتى جالا ، يمكن القول إنها نسخة منها ، وغالبا ، حين أفكر فى بيكاسو ، أداعب ذلك البروز فى طرف أذن جالا اليسرى ، يحدث ذلك فى أحوال عديدة ، لأن بيكاسو هو الرجل الذى أفكر فيه كثيرا بعد أبى ، فكل منهما اعتبره وليم تل حياتى ، وضد سلطتهما قمت بتمرد بطولى ، ودون تردد ، منذ مراهقتى .

إن وحمة جالا هى الجزء الحى الوحيد من جسدها ، الذى أستطيع أن أغطيه بإصبعين ، وذلك يؤكد لى بطريقة غير معقولة خلودها الانبعاثى . أحبها أكثر من أمى ، وأكثر من أبى ، وأكثر من بيكاسو، بل وأكثر من النقود .

كان لأسبانيا الشرف دائما فى أن تقدم للعالم أكثر التناقضات عنفا ، تجسدت هذه التناقضات فى القرن العشرين فى شخصية بابلو بيكاسو وشخصية خادمكم المتواضع . إن أهم ما يمكن أن يحدث للرسام المعاصر هو :

١ - أن يكون اسبانيا .

٢ – أن يدعى جالا سالفادور دالى .

وهذا قد حدث لى ، فكما يشير اسمى سلفادور فقد قُدّر ألا أفعل شيئا سوى انقاذ الرسم الحديث من الخمول والفوضى ، ودُعيت «دالى» التى تعنى باللغة القطالونية «رغبة» ، ثم أن لدى جالا ، أما بيكاسو فهو اسبانى بالتأكيد ، لكن ليس لديه من جالا، إلا ظلا متجسدا بشكل وحمة على طرف أذنه ، ولقد سمى بابلو مثل بابلو كاسال أو أسماء البابوات ، بمعنى أنه اسم عادى جدا .

١٠ مايو :

أقابل فى الحياة الاجتماعية ، على فترات وبشكل رتيب ، نساء انيقات ، متوسطات الجمال ، «معصعصات» بشكل وحشى ، يتشوقن حتى الموت لمعرفتى شخصيا .

وقد جرت المحادثة التالية بينى وبين إحداهن :

المرأة : أنا أعرفك بالاسم فقط ..

دالى : وأنا كذلك

المرأة : ربما لاحظت انى لم اتوقف مباشرة عندك .. اعتقد أنك فاتن .

دالى : بالفعل .

المرأة : لا تتملقنى .. فأنت لم تنظر نحوى ..

دالي : أتحدث عن نفسى يا مدام

المرأة : اتساءل .. كيف تجعل شاربك يتجه الى أعلى ..

دالي : البلح !

المرأة : لم اسمعك

دالى : البلح ، الفاكهة التى يحملها النخيل .. بعد الطعام أحلى بالبلح ، وقبل أن أغسل أصابعى أمسح شاربى بها وذلك يكفى لجعل الشارب واقفا .

المرأة : اوه .. اوه ..

دالى : وهناك فائدة أخرى .. فإن حلاوة البلح تجذب اليها الذباب .

المرأة : ذلك مريع !

دالى : يعجبنى الذباب ولا أكون سعيدا إلا حين أكون عاريا فى الشمس والذباب يغطينى .

وتساءلت المرأة وهى مقتنعة تماما ، بسبب لهجتى الصارمة الحادة بأن ما أقوله هو الحقيقة ..

كيف تحب أن يغطيك الذباب ، تلك قذارة .. ؟!

دالى : أنا اكره الذباب القذر ، أحب فقط أنظف انواع الذباب.

المرأة : وكيف يمكنك أن تميز بين الذباب القذر والنظيف

دالى : استطيع ذلك على الفور ، فأنا لا أحب ذباب المدن القذر أو حتى ذباب القرى ببطنه المنتفخة ولونه الاصفر كالمايونيز وأجنحته السوداء التى تبدو وكأنها غمست فى مستحضر تلوين أهداب العيون . أحب الذباب النظيف ، السوبر ، الذى يبدو كمن يرتدى حلة رمادية من بلنسيا ، يلمع كقوس قزح فى جو صحو ، دقيق كالميكا ، بعيون بلون الجرانيت ، وبطون بلون أصفر نبيل ، مثل ذباب الزيتون الصغير فى بورت ليجات حيث يعيش دالى وجالا فقط . الذباب الصغير الذى يحط على الجانب الفضى المؤكد لورقة الزيتون ، جنيات البحر المتوسط ، ملهمات فلاسفة اليونان الذين قضوا حيواتهم فى الشمس يغطيهم الذباب . إن التعبير الحالم المرسوم على وجهك يجعلنى أعتقد أن الذباب استمالك لصفه ، وأخيرا أقول لك إنه فى اليوم الذى أنزعج فيه من الذباب الذى يغطينى ، وأدرك أن افكارى لم يعد لها قوة ذلك التيار الجنونى الذى هو دليـــل عبقـــريتى ، واذا لم ألاحظ الذبـــاب وأعره الاهتمام فذلك برهـــان أكيد بأنى فقدت السيطرة على موقفى الروحى .

المرأة : يبدو أن لكل ما تقوله معنى . هل شاربك ، فى الحقيقة هو قرن الاستشعار الذى تتلقى من خلاله أفكارك ؟

عند هذا السؤال ، يكون دالى المبجل قد حلق بعيدا وتفوق على نفسه . لقد زين كل أفكاره بشكل مغر ولذيذ كدانتلا فيرمير ، ولم يترك للمرأة «العصعص» سوى «عصعصها» .

١١ مايو :

لقد ألمحت ، حين وصفت لقائى مع فرويد ، أن جمجته تبدو كحلزونة بورجندية ، والدليل واضح ، لأنك اذا أردت أن تأكل افكاره ، فعليك أن تحصل عليها بالتقاطها بابرة . واذا لم تفعل ذلك فستكسر ولا تستطيع حيالها أى شئ ، واليوم وأنا أذكرك بوفاة فرويد ، أود أن أضـــيف أن حلزونة بورجندى اذا أخرجت من قوقعتها فإنها تبدو وبشكل مدهش مثل لوحـــة لإل جريكو EL Greco (٥٣) ، بالإضافة الى أن إل جريكو والحلزون البورجندى شيئان لا طعم لهما بالمرة ، ومن وجهة النظر الفنية فى تذوق الطعام فهما اسوأ طعما من ممحاة (استيكة) .

كل اولئك الذين يحبون الحلزون سيصرخون محتجين ، سأفصل الامور أكثر ، فحتى لو لم يكن لهما طعم فى ذاتهما ،

فهما يمتلكان فضيلة شبه المعجزة من «المحاكاة التذوقية الفائقة» بمعنى أنهما يستطيعان طمس نفسيهما ، بسبب تفاهتهما الخاصة، وتقديم كل النكهات المشتركة للبهارات التي يؤكلان بها، كلاهما وعاءان سحريان لجميع نكهات الاطعمة ، وذلك هو السبب فى أن كل النكهات التى يجهز بها الحلزون أو ال جريكو تظل محتفظة بأنشودتها الخاصة بوضوح وتناغم .

لو كان للحلزون طعم خاص فى حد ذاته .. هل كانت حاسة التذوق عند الانسان تستطيع أن تتعرف على ما تقدمه حضارة المتوسط من طعم ذلك الهلال الرمادى المزرق ، شبيه القمر المعذب بابتهاج وجدانى – أقصد فص الثوم ؟

الثوم الذى يضئ لدرجة بعث الدموع فى العيون ، والسماء الصافية لتفاهة طعم الحلزون .

وبالطريقة ذاتها ، فإن تفاهة ال جريكو تعادل تفاهة طعم الحلزون البروجندى دون توابل ، ولكن ، انتبه ، فال جريكو مثل الحلزون يمتلك تلك القيمة التى تحمل القوة الفريدة القادرة على نقل كل طقوس الزهور العربيدية . حين ترك ايطاليا كان منتعشا

وأكثر شهوانية وبدانة من «تاجر البندقية» . ولكن انظر اليه حين وصل الى «توليدو» ، و تشرب فجأة كل عطور ولباب ومادة الروح الصوفية الزاهدة لاسبانيا ، وأصبح أكثر اسبانية من الاسبان ، ولأنه ماسوشى وأكثر تفاهة من الحلزون ، فقد كان الوعاء المناسب والجسد السلبى لاستقبال وصمات الفرسان السفارديم المعذبين بالشرق ، ذلك هو أصل الالوان السوداء والرمادية عنده، بنكهتها الفريدة للإيمان الكاثوليكى والروح المكافحة ، واللون الثومى الراقى فى شكل قمر فى المحاق من فضة لوركا المعذبة ، إنه القمر نفسه الذى يضئ مناظر توليدو والطيات المبقعة والستائر فى لوحته «صعود العذراء» ، التى تشبه بشكل كبير ، الخط المنحنى الخارجى لحلزونة بورجندية لاذعة ، حين تدقق فيها النظر وهى تمتد وتنكمش على طرف ابرتك . وكل ما عليك تخيله أن قوة الجاذبية التى تشدها الى الارض ، هى القوة نفسها، لو عكست الصورة ، التى تجعلها تصعد الى السماء .

وهكذا ، فى صورة بصرية واحدة ، قدمت الدليل فى أطروحتى التى لم يوافق عليها بعد ، والتى تقول إن فرويد «صوفى كبير مقلوب» ولو أن مخه الثقيل والمبتل بكل لزوجة المادية ، لم تجره

الجاذبية الى أعمق بلاعة على الأرض ، بل على العكس صعد الى الجانب الآخر للجة السماء ، لبدا مثل لوحة الصعود الرائعة التى رسمها ال جريكو ، لا مثل حلزونة الموت شبه النشادرية . إن عقل فرويد ، أحد أهم وأعظم العقول فى عصرنا ، كان حلزونة الموت الأرضى بجدارة ، وفيه يكمن جوهر المأساة الدائمة للعبقرية اليهودية التى حرمت دائما من ذلك العنصر الأزلى .. الجمال ، الذى هو الشرط الضرورى للمعرفة الكاملة لله ، الجميل الاسمى .

ويبدو أنى دون أن ادرك ذلك ، رسمت صورة لموت فرويد بالقلم الرصاص قبل وفاته بسنة ، قصدت أن أبدع صورة تركيبية صافية لعبقرى التحليل النفسى بدلا من رسم صورة واضعة لعالم نفسى ، حين أنهيت اللوحة ، رجوت ستيفان زفايج ، الذى كان حلقة الوصل بينى وبين فرويد ، أن يريها له .. وانتظرت بقلق تعليقه عليها .

لقد انتشيت بشدة من تعليقه على لقائنا ، الذى قاله لستيفان زفايج بعد ذلك ، وقد كان ينتقدنى بشدة ولفترة طويلة بطريقة مكثفة ومرعبة ، قال : «لم يسبق لى أن رأيت نموذجا كاملا لاسبانى ، ياله من متعصب » .

على كل حال ، تلقيت رد فرويد بعد أربعة أشهر حين قابلت مع جالا ، ستيفان زفايج وزوجته ،على الغداء في نيويورك ، كنت متعجلا لسماع رأى فرويد ، فلم انتظر القهوة وسألت : ماذا كان رد فرويد حين رأى لوحتي ؟

قال زفايج : لقد أعجب بها جدا .

سألته عن تفاصيل أكثر ، متشوقا لمعرفة أى تعليق أو ملاحظة ابداها فرويد ، لأن ذلك سيكون ثمينا لى بلا حدود . لكن زفايج بدا مراوغا أو مشغولا بأفكاره ، زعم لى أن فرويد قد أعجب بدرجة كبيرة برقة الملامح فى الصورة ، ثم غرق فى أفكاره ، أرادنا أن نلحق به الى البرازيل ، وقال إن الرحلة ستكون رائعة وستعمل على إحداث تغيير مثمر فى حياتنا ، وغلب على حديثنا الفكرة المستحوذة عليه عن اضطهاد اليهود فى المانيا ، وقد صور الامر لى بأنه اذا أردت الحياة فلابد أن أذهب الى البرازيل، اعترضت وقلت إنى لا أحب المناطق الاستوائية ، وأكدت له أن الرسام لا يستطيع الحياة ما لم تحطه ألوان أشجار الزيتون ولون التربة الاحمر ، رفضى ورعبى من الفكرة جعلا زفايج يضطرب لدرجة ظهور الدموع فى عينيه .

ذكرنى بحجم الفراشات فى البرازيل ، كززت على اسنانى

وقلت إن الفراشات فى كل مكان كبيرة الحجم ، كان فى يأس كامل ، وظن أننا لن نكون سعداء إلا فى البرازيل . ترك لنا عنوانه الذى كتبه بدقة شديدة ، لم يصدق أننى سأظل عنيدا ومتصلب الرأى ، وبدا كما لو أن ذهابنا الى البرازيل مسألة حياة أو موت بالنسبة له ولزوجته .

بعد شهرين علمنا بالانتحار المزدوج لزفايج وزوجته ، لقد قررا ذلك الانتحار فى لحظة استبصار صافية بعد أن كتب كل منهما للآخر عن ذلك .

فراشات كبيرة جدا !

وعلمت أخيرا بحقيقة الصورة التى رسمتها لفرويد ، وذلك بعد قراءتى الفصل الاخير من سيرة حياة زفايج التى كتبها بعنوان «عالم الغد» (٥٤) ، لم ير فرويد الصورة ابدا ، لقد كذب علىّ بوداعة ، فقد كان رأية أن الصورة تتنبأ بدقة بموت فرويد القريب ، فلم يجرؤ أن يريها له حتى لا يزعجه دون داع ، خاصة وقد كان مريضا بالسرطان .

وضعت فرويد بين الابطال دون تردد ، فلقد سلب من الشعب اليهودى أعظم وأكثر الابطال تأثيرا حين أثبت أن موسى كان

مصريا ، وفى مقدمة كتابه عن موسى - أكثر كتبه مأساوية - حذر قراءه بأن اثبات ذلك كان أشق وأكثر أعماله طموحاً ، لكنه أيضا كان أقسى وأكثر أعماله مرارة .

لقد انتهت الفراشات الكبيرة .

١٩٥٧

٦ نوفمبر - باريس :

أحضر لى «جوزيف فوريه» لتوه ، النسخة الأولى من رواية دون كيشوت المزودة برسوماتى ، التى نفذتها بتكنيك فريد أصبح له الغلبة فى العالم أجمع منذ دشنته . ومرة أخرى يحصل دالى على نصر رائع ، فلم تكن هذه هى المرة الأولى ، فى سن العشرين راهنت على أنى سأكسب الجائزة الكبرى للأكاديمية الملكية فى مدريد ، برسم صورة دون أن تلمس فرشاتى القماش لحظة واحدة ، وقد نلت الجائزة بالطبع ، كانت اللوحة تصور فتاة عذراء عارية ، وقفت على بعد ثلاثة أقدام من حامل اللوحة ، وقذفت الألوان لتتناثر على اللوحة ، والغريب أن نقطة واحدة لم تسقط فى غير مكانها ، كل قذفة كانت دقيقة وبلا خطأ ، وقد فزت بالرهان ذاته فى باريس بعد سنة من ذلك التاريخ .

خلال الصيف ، رسى جوزيف فوريه فى بورت ليجات بحمولة من حجارة الطباعة ، وأصر على أن أرسم صورا توضيحية لرواية دون كيشوت على هذه الاحجار . كنت فى ذلك الوقت ضد فن الطباعة على الحجر لأسباب جمالية وأخلاقية وفلسفية . وأعتبره عملية سهلة روتينية ليس فيها قوة ولا جلال أو تمحيص . على كل حال ، اصرار «فوريه» ودأبه ، ومواصلة احضار الحجارة ، كل ذلك أثار ارادة القوة الكارهة لهذا الفن في داخلى ، الى درجة عدوانية من أجل تحقيق جمالية فائقة . وهبطت علىّ فكرة ملائكية جعلت فكى مخى يتسعان . ألم يقل غاندى «إن الملائكة تسيطر على الموقف دون حاجتها الى خطة» ، وهكذا ، فى الحال ومثل ملاك سيطرت على الموقف الخاص برسومات دون كيشوت .

قد لا أكون قادرا على اطلاق رصاصة من بندقية قديمة على الورق دون أن أمزقه ، لكنى استطيع اطلاقها على حجر دون أن أكسره . أبرقت الى باريس ليجهزوا لى بندقية قديمة ، أهدانى صديقى الرسام جورج ماثيو بندقية ثمينة من القرن الخامس عشر ، يدها مغطاة بالعاج ، وفى السادس من نوفمبر ١٩٥٦ ، تحيطنى مائة أضحية من الغنم ، ضحى بها للنسخة الأولى التى ستطبع

على ورق البارشمان ، أطلقت من على ظهر مركب في السين أول رصاصة في العالم مملوءة بحبر الطباعة على الحجر .

هذه الرصاصة المتناثرة افتتحت عصر «الرصاصية "Bulletism" وظهرت على الحجر بقعة رائعة ، نوع من الاجنحة الملائكية تجاوزت تفاصيلها وقوتها الديناميكية كل التقنيات المستخدمة من قبل ، كرست نفسى فى الاسبوع التالي الى تجارب جديدة وعجائبيه . في مونمارتر ، وأمام جمهور مصاب بالهذيان ، وتحيطني ثمانون فتاة على حافة النشوة ، ملأت قرنين مفرّغين من قرون الخراتيت بفتافيت خبز منقوعة في الحبر ، وهاتفت ذكرى وليم تل الخاص بى ، وأطلقت على الحجر . كانت النتيجة معجزة بحمد الله عليها ، لقد رسم القرنان الذراعين المفتوحتين لطاحونة هوائية ، ثم تضاعفت المعجزة ، حين تسلمت البروفات الأولى ، لاحظت أن تداولها السيئ ترك بقعا عليها ، ورأيت من واجبى أن أحتوى هذه البقع واجعل لها دورا لأنهى بهلوسة لغز كل مراسيم هذه المشهد . لقد واجه دون كيشوت فى العالم الخارجى ، كل العمالقة المهووسين الذين حملهم داخل نفسه ، وحققت في مشهد دنان الخمر دم البطل الخيالى والانحناء اللوغاريتمى على جبهة منيرفا ،

فدون كيشوت الاسبانى الواقعى لا يحتاج الى مصباح علاء الدين، يكفيه أن يحمل جوزة بلوط بين اصابعه ليولد العصر الذهبى من جديد .

بمجرد أن عدت الى نيويورك ، كان مخرجو التليفزيون يتصارعون حول جهودى فى الطريقة «الرصاصية» ، لكننى استغرقت في النوم معظم الوقت ، كى أكتشف فى احلامي أكثر الطرق دقة وتأثيرا فى اطلاق رصاصاتى المملوءة بالحبر ، وكى ارتب الثقوب رياضيا ، ولقد ساعدنى اخصائيون عسكريون من اكاديمية نيويورك العسكرية ، وبدأت استيقظ كل صباح على صوت البنادق القديمة ، كل انفجار كان يولد طباعة كاملة على الحجر ، وكان عليّ أن أوقع الرسومات المطبوعة لهواة جمعها الذين كانوا يتكالبون عليها من بين يدى بأسعار خرافية . وادركت للمرة الثانية أنى فى طليعة الاكتشافات العلمية ، حين علمت ، بعد ثلاثة أشهر من أول اطلاق لرصاصة تحمل حبرا ، أن العلماء يستخدمون البنادق والرصاص ليقيسوا ويكتشفوا لغز الخليقة .

عدت الى بورت ليجات فى مايو هذا العام ، كان جوزيف فوريه ينتظرنى بصندوق سيارته المملوء بحجارة جديدة . ضربات جديدة من بنادق قديمة مرة أخرى ، وولدت رسومات دون كيشوت . رجل

غلبه التعب فتحول لمراهق حقق بحزنه البسيط ما فى رأسه المتوج بالدم . وفي ضوء يستحقه فيرمير ، يرشح من خلال كوات فى نوافذ مزخرفة ، كان يقرأ قصصه حول الحب القلبى ، وباستخدام أنبوبة صغيرة رسمت لولبيات مع جريان الحبر الطباعى على الحجر ، وانتجت شكلا ملائكيا كأنه مغطى بزغب من ذهب لبزوغ النهار . دون كيشوت رمز لكون مصغر مهووس ، اندمج فى ثم ابتعد عن الطريق اللبنى ، الذى لم يكن سوى طريق القديس جيمس .

كان القديس جيمس يرعى عملى ، وأظهر ذلك فى يوم عيده الخامس والعشرين من أغسطس ، فأثناء تجاربى حققت انفجارا سيبقى ، الى الأبد ، مجيدا فى تاريخ علم تكوين الاشياء ، إنه طبع على حجر من الاحجار التى ظل يقدمها لى «فوريه» باصرار القديسين لأضع عليها ضربات خيالى ، اخترت حلزونة بورجندية فارغة ، وملأتها بحبر الطباعة على الحجر ، ثم ادخلتها فى ماسورة البندقية القديمة ، وصوبت على الحجر من مدى قريب ، حين أطلقت، كانت النتيجة بقعة تزايد جمالها بعد التمعن فيها وتحليلها، فكتلة السائل على منحنيات لولبيات الحلزون أنتجت شبه مجرة حلزونية فى لحظة خلقها السامية . سيغدو يوم القديس جيمس هو

اليوم الذى شهد نصر دالي على التجسيم وعزو الصفات البشرية لغير العاقل .

فى اليوم التالى لذلك اليوم المبارك ، هبت عاصفة شديدة ، وأمطرت السماء ضفادع غطس بعضها فى الحال ، فى الحبر ، وشكلت نموذجا لحلة دون كيشوت المزخرفة ، وقد تسببت هذه الضفادع فى رطوبة ضفدعية مناقضة لذلك الجفاف المبهر لسهول «كاستايل» المرتفعة التى كانت تقطن رأس البطل ، خيال الأخيلة ، لم يعد هناك شئ خيالى ، فقد ظهر سانشو بينما دون كيشوت يلمس باصبعه تنانين (جمع تنين) د . يونج .

واليوم ، وجوزيه فوريه يضع أمامى أول نسخة من دون كيشوت، استطيع الصياح: برافو دالي . لقد رسمت سيرفانتس ، فكل ضربة من ضرباتك تحتوى على عملاق وطاحونة هواء . إن عملك عمل عملاق محب للكتب ، وذروة لأعظم التناقضات الخصبة للطبع على الحجارة .

١٩٥٨

١ سبتمبر:

من الصعب أن تشل اهتمام العالم لأكثر من نصف ساعة فى المرة الواحدة ، ولقد حققت ذلك بنجاح ، كل يوم لمدة عشرين

سنة، وكان شعارى كالتالى : « دعهم يتحدثون عن دالى حتى لو مدحوه» ، ولقد نجحت فى ذلك لمدة عشرين عاما الى درجة أن الصحف كانت تنتشر حتى اكثر الابناء غموضا حولى .

باريس : دالى يلقى محاضرة فى السوربون عن صانعة الدانتلا لفيرمير والخراتيت ، وصل فى سيارة رولزرويس تحتوى على ألف زهرة قرنبيط بيضاء .

روما : فى حدائق الاميرة «بالافيتنشينى» المنارة بالشموع ، ولد دالى من جديد . فقد خرج من بيضة مكعبة مغطاة بنقوش سحرية من كتابات رايموند لول وألقى خطبة متفجرة باللاتينية .

فيرونا : لقد وقع دالى لتوه عقد زواجه ذا الطقوس السرية على جالا فى «دير العذراء» وقد أعلن أنهما الآن مخلوقان ملائكيان .

فينيسيا : دالى وجالا يظهران كعملاقين طول كل منهما ١٨ قدما ، نزلا درجات قصر بستجوى ورقصا مع الجمهور .

باريس : فى مونمارتر ، رسم دالى دون كيشوت بطلقات بندقية قديمة على حجر طباعة ، وقد قال «الطواحين تطحن الدقيق وأنا الآن استخدم الدقيق لصناعة الطواحين» ثم ملأ قرنى خرتيت بالدقيق وفتافيت الخبز المشبعة بالحبر ، وحقق ما أعلنه .

مدريد : أدلى دالى بحديث يدعو فيه بيكاسو للعودة الى اسبانيا ، بدأ بالقول «بيكاسو اسبانى وأنا كذلك ، بيكاسو عبقرى وكذلك أنا ، بيكاسو شيوعى ... وأنا لست كذلك» .

جلاسكو : اشترت بلدية جلاسكو لوحة دالى الشهيرة «مسيح سانت جونس الصليبى» بموافقة جماعية ، أثار الثمن الذى دفع لهذه اللوحة كثيرا من الجدل والسخط .

نيس : أعلن دالى أنه سينتج فيلما مع «أنامانيانى» باسم «عربة اليد الآدمية» ، وفيه تقع البطلة بحب جنونى مع عربة يد .

باريس : قام دالى بمسيرة فى شوارع المدينة ، حاملا رغيفا من الخبز طوله خمس عشرة ياردة . وقد وضع الرغيف على خشبة مســـرح «اتولى» حيث ألقى خطبة هستيرية حول «الغراء الكونى» لها ينزبرج .

برشلونة : قرر دالى ولويس دومينكا أن يقيما مصارعة ثيران سريالية ، تقوم فى نهايتها ، طائرة هليوكبتر مكسوة بفستان طفلة بلنسية ، بحمل الثور الصريع الى جبال مونتسريرا لتلتهمه الصقور، فى الوقت ذاته سيقوم دومينيكا بزى برناسوس بتتويج جالا القائمة بدور ليدا ، وتحت قدميها يفقس دالى من بيضة .

لندن : نسقت النجوم ، فى قبة السماء الصناعية ، بالشكل الذى كانت علية لحظة مولد دالى في بورت ليجات ، وهو يعلن بناء على تحليلات طبيبه النفسي د . روميجو بأنه هو وجالا طفلا جوبيتر ، وانهما تجسيد للأسطورة الكونية السامية «كاستور وبولوكس» .

نيويورك : هبط دالى فى نيويورك مرتديا بدلة فضاء ذهبية داخل الشكل البيضاوي الذى اخترعه : جسم كروى شفاف ، وسيلة جديدة للنقل مبنية على تخيلات أثارتها تركيبات الرحم الداخلية الفردوسية . لم أشعر ابدا ، ابدا ، ابدا بأن الافراط فى الاعلان والنشر أو الافراط فى النجاح أو الجماهيرية أو المال .. يدمرنى ، بل على العكس أحببت ذلك كله . منذ فترة قريبة سألنى صديق لم يستطع أن يفهم لماذا لا تجلعنى كل هذه «الهبهبة» أعانى وأقاسي وأتألم .

قال : أنت لا تشعر اذن بأى نوع من المعاناة بسبب كل هذا النجاح ؟

قلت : لا

قال : ولا حتى بأى نوع من العصبية ؟

أجبته بشكل حازم : لا

وحيث إنه غني بشكل مفرط ، أضفت «أنا مستعد لقبول خمسين ألف دولار الآن دون أن يرمش لي جفن» . كل شخص ، خاصة في امريكا ، يريد أن يعرف سر هذا النجاح ، إنها طريقة النقد المبني على الهلوسة التي ابتدعتها منذ ثلاثين سنة ، مع أني لا أعرف ممّ تتكون تفصيلا .

لكنها بشكل عام أعظم تنظيم دقيق لأعظم ظاهرة هذيان مادية ، وعن طريقها حصلت على أكثر أفكاري خطرا واستحواذا وابداعا ملموسا ، وهي تعمل فقط ، اذا امتلكت محركا رقيقا من أصل الهي ، نواة حية ، جالا ، وهناك جالا واحدة فقط .

وسأعطي قراء يومياتي عينة ليوم واحد من الايام التي اعيشها حسب الطريقة النقدية الشهيرة المبنية على البارانويا ، وليكن اليوم السابق على مغادرتي نيويورك ، ليستطيعوا فهم عمل هذه الطريقة .

عند انبلاج النهار ، كنت قد حلمت بأني أخرجت اخراجا نظيفا جدا . حين استيقظت قلت لجالا :

– سنكسب اليوم ذهبا .

حسب رأي فرويد ، وبعبارات صريحة ، فإن هذا الحلم ربطني بالدجاجة التي تبيض ذهبا ، أو بالحمار الأسطوري الذي يخرج

عملة ذهبية حين يرفع ذيله. ولقد كنت أشعر منذ أسبوع أنى أصبحت كبوتقة الكيمائى. المهم ، خططت أن أقيم فى اخر ليلة لى فى نيويورك ، حفلة لمجموعة من الاصدقاء فى غرفة الشمبانيا فى فندق ال موركو ، بمن فيهم أجمل أربع موديلات فى المدينة ، كانت المدينة لامعة متألقة كأنها تستعد لإعلان بدء الحفلة ، تلك الحلفة التى وعدت نفسى طوال اليوم بأن تكون كاملة ، اثارت بشكل عجائبى كل قدراتى على العمل ، وستحلّ قوتى التى ستكون فائقة كل المشاكل بسرعة ، وأجعل الضيوف يدقون كعوبهم بالطريقة البروسية .

فى الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا غادرت الفندق لهدفين محددين : أن احصل على نموذج لا معقول لصورة التقطها فيليب هالسمان ، ولكى أتفق ، قبل موعد الغداء ، على بيع لوحتى «القديس جيمس شفيع الشعب الاسبانى» الى المليونير الامريكى هانتنجتون هارتفورد . بالمصادفة البحتة توقف المصعد فى الطابق الثانى ، حياتى بالهتاف جمهور من الصحفيين الذين كانوا فى انتظارى ، لقد نسيت تماما أن هناك مؤتمرا صحفيا سأعقده أقدم فيه اختراعى لزجاجة جديدة للعطور . التقط الصحفيون صورتى وأنا اتسلم الشيك وأطبقه وأضعه فى جيب معطفى ، كنت مضطربا

قليلا اذ يتحتم عليّ أن أقدم الزجاجة المشروط عليها فى العقد ، وقد نسيت كل شئ عنها ، ودون لحظة تردد واحدة ، تناولت لمبة فلاش محترقة من أحد المصورين ، كان لونها ازرق ثلجيا ورفعتها كشئ ثمين بين الابهام والسبابة قائلا : ها هى فكرتى .

قال أحد الحضور : إنها ليست مرسومة

قلت : هذا أفضل بكثير ، ها هو الموديل امامكم ، كل ما يلزمكم هو أن تنسخوها بكل دقائقها .

ضغطت اللمبة بعناية على الطاولة ، تشققت بشكل لا يرى ، وتفلطحت قاعدته بدرجة كانت كافية لبقائها ثابتة ، صاح صانع العطور المنتشى : إنها واضحة كبيضة كولمبوس ولكن عليك التفكير بها .. والآن يا عزيزى ما هو اسم هذا العطر الجديد ؟

كان جوابى كلمة واحدة : فلاش (وميض) .

وصاح كل شخص : فلاش .. فلاش .. فلاش.

أمسكوا بى عند الباب ، وسألنى أحد الصحفيين :

- ما هى الموضة ؟

- الشئ الذى لم يكن موضة .

رجونى أن أطلق فكرة دالية جديدة حول ملابس النساء . قلت

وأنا أغادر : يرتدين اثداء على ظهورهن .

– لماذا ؟

– لأن الاثداء تحتوى على حليب أبيض قادر على خلق تأثير ملائكى .

– هل تشير الى بشرة ملائكية طاهرة ؟

– أشير الى كاهلى المرأة .. لو كـــان هنـــاك نبعان لانبثاق الحليب .. لامتد كاهلاها .. ولو التقطنا لهما صـــــورة بكشاف سرعة الاهتزاز لكـــان لدينا جناحـــان ملائكيان كما رسمهما ميملنج Memling (٥٥) .

وذهبت لأرى هالسمان ، مقررا بحزم ، اعادة ابداع الجناحين بالتصوير ، فقد ادهشتنى وفتنتنى الفكرة التى اعلنتها منذ قليل ، لكن لم يكن لدى هالمان ذلك النوع من التصوير ، فقررت على الفور، أن أصور التاريخ الشعرى للماركسية ، واحضرت لهذا الغرض ستة أقراص من الورق الابيض ألصقتها بشاربى ، على كل قرص وضع هالسمان بهذا الترتيب صور : كارل ماركس بلحية وشعر مهيب ، أنجلز بمواصفاته ، لينين بشارب انيق ولحية قصيرة وصلعة محدودة ، ستالين بشعر كثيف وشارب متصل به ، مالنكوف

بذقن حليق تماما ، وبقيت ورقة واحدة احتفظت بها لخروتتشيف وكأنى اتنبأ ، وكانت له صلعة فى وسط رأسه ، واليوم فإن هالسمان ينزع الشعر القليل الذى تركه ، خاصة بعد ما عاد من روسيا ، وكانت تلك الصورة واحدة من أعظم صور الكتاب الذى نشره : شارب دالى Dali'S Moustache جهت الى هارتفورد أحمل بيدى آخر قرص ورقى ابيض ، وباليد الأخرى مستنسخ من لوحتى «القديس جيمس» لأريها له . ما إن دخلت المصعد حتى تذكرت أن الامير على خان يسكن فى الطابق الذى يعلو هارتفورد مباشرة ، وبسبب تنفجى الفطرى الذى لا يقهر ، وبعد تردد للحظات ، أعطيت صبى المصعد مستنسخ اللوحة كهدية للأمير . شعرت على الفور بأنى ابله ، سأذهب لهارتفورد ليس فقط فارغ اليدين ، ولكن بقرص ورق أبيض ، ومما يضاعف من سخرية الموقف أنه كان معلقا بخيط ، بدأت أدرك عبثية الموقف لكنى قلت لنفسى ستتحول الامور بشكل جيد جدا . كنت متأكدا من ذلك ، فطريقتى النقدية المبنية على البارانويا ستحول هذه الحادثة الهذيانية الى أعظم مكافأة فى هذا اليوم .

سألنى هارتفورد على الفور هل أحضرت المستنسخ الملون

للوحة القديس جيمس . قلت : لا ، سألني اذا كان بالامكان الذهاب الى قاعة العرض وفك اللوحة الكبيرة ، قررت فى تلك اللحظة ودون معرفة السبب أن اللوحة يجب أن تباع فى كندا ، قلت له : من الأفضل أن ارسم لوحة أخرى لك نسميها : اكتشاف كولمبوس للعالم الجديد .

وكأنها كلمة سحرية ، وقد كانت كذلك بالفعل ، لأن متحف هارتفورد سيقام فى منطقة كولمبس أمام الاثر الوحيد الذى يمثل كريستوفر كولمبس ، وهى مصادفة لم نكتشفها إلا بعد عدة أشهر.

أوقفني صديقى د . كولن الذى كان يرافقنى وسألنى هل لاحظت أن المصعد فى البناية التى يسكنها الامير قد صنعته شركة «دن» ، فى الواقع كنت أفكر سواء بوعى أوبلا وعي بالسيدة «دن» كمشترية للوحة القديس جيمس ، وقد حدث بعد ذلك أن اشترتها بالفعل .

مازلت شاكرا لفيليب هالسمان رفضه وضع صورة خروتتشيف على القرص الورقي الأخير ، وأظن من حقى أن أسميه الآن «دائرة كولمبس» فبدون هذا القرص لم أكن لأرسم لوحة «الحلم الكونى لكريستوفر كولمبس» .

أثبتت الخرائط الجغرافية التى اكتشفها المؤرخون الروس ، المقولات ذاتها التى طورتها فى لوحتى ، مما جعلها مناسبة للعرض فى روسيا ، ويغادر اليوم صديقى سول هاروك ، حاملا مستنسخا من هذه اللوحة ، ليعرض على الحكومة السوفييتية مشروعا للتبادل الثقافى بموجبه سأعرض هناك مع اثنين من مواطنىّ العظماء : فيكتوريا دى لوس انجليس واندريه سيكوفيا .

وصلت للغداء مع جالا مبكرا خمس دقائق ، ما إن هممت بالجلوس حتى جاءتنى مكالمة من «بالم بيتش» ، كان السيد ونستون جيست يطلب منى أن ارسم له «عذراء جاد الوب» ، وأيضا صورة لابنه الكسندر البالغ من العمر اثنى عشر عاما ، وقد كنت لاحظت أنه يحلق شعره كالبحارة فبدا كالكتكوت . حين هممت بالجلوس ثانية ، دعيت الى مائدة مجاورة حيث طلب منى أن اوافق على تلوين بيضة مخصصة لوضع لؤلؤة فيها على طريقة فابيرج Faberge .

لا أدرى هل كنت جائعا أم أنى أشعر بتوعك ، فقد انتابنى احساس متوسط للرغبة فى القئ ، كذلك الاحساس الشهوانى الحاضر ابدا والذى يحتد عند التفكير فى الحفلة التى تنتظرنى عند منتصف الليل .

كان غدائى يتكون من بيضة نصف مسلوقة وبعض البسكويت.

وهنا يجب ملاحظة أن طريقتى النقدية الجنونية لابد أن تعمل بطريقة فعالة داخل كيمياء أمعائى المهووسة لإضافة الزلال الضرورى لفقس كل بيض الخيال الخفى الذى أحمله فوق رأسى بعد ظهر هذا اليوم . بيض مشابه لبيضة إقليدس المتقنة التى علقها بييرو ديللا فرانشيسكا piero della francesca [٥٦] فوق رأس العذراء فى لوحته ، تلك البيضة أصبحت كسيف ديموقليس بالنسبة لى ، يمنعها من السقوط والتحطم فوق رأسى ، طوال الوقت ، زمجرات أسدى الصغير الرقيق بلا حدود - أقصد جالا .

وفى شفق غرفة الشمبانيا ، شع بالفعل الاحتفال الطقسى للقمر الصناعى الشهوانى لمنتصف الليل . التفكير بالحفلة يدفعنى لأصبح أكثر استقامة وعفة فى كل ثانية ، بعد الصعود بمصعد الامراء وأصحاب الملايين ، شعرت أنى مضطر ، بسبب الفضيلة الخالصة ، أن انزل الى بدروم الغجر ، وذهبت متعبا لزيارة الراقص الغجرى الصغير «لاتشونى» الذى سيرقص للاجئين الاسبان فى قرية جرينتش .

فى تلك اللحظة ، أزعجتنى بشكل مرعب ولأول مرة فى حياتى،

«فلاشات» المصورين الذين أرادوا أن يلتقطوا لنا صورة معا .
طلبت من أحد الاصدقاء أن يعيدنى الى الفندق . مازال الشرر المتطاير من البيض المقلى دون طاسة ورائى ، وبعينين مغلقتين متعبتين تقيأت بغزارة ، وفى الوقت نفسه تخلصت امعائى من اكبر كمية فضلات أخرجتها فى حياتى ، ذكرنى ذلك بمشكلة دبلوماسية أخبرني بها ذات يوم جوزيه ماريا سيرت sert عن شخص كان يعانى من رائحة نفسه ، ويتجشا برائحة نتنة ، حتى نصحه أحدهم بشكل لبق «من الافضل لو استبدلت بالتجشؤ الضراط» .

ذهبت الى الفراش غارقا فى عرق بارد ، ترتسم على شفتى اندر وأذكى ابتسامة رأتها جالا ، أيقظت فى نظرتها تساؤلا من الصعب أن تخمن اجابته ، للمرة الأولى فى حياتها

أخبرتها : لقد جربت لتوى الاحساس المبهج بأن أكون قويا لدرجة تحطيم البنوك في عملية نفقد فيها ثروة .

لأنه بلا وسوسة جالا ، وبنقائها الذى صفى بصبر آلاف المرات، وبدون عادتها الوحشية باحترام الاسعار المتفق عليها ، كنت بسهولة وبدون غش اوتزوير ، قد زدت بدرجة كبيرة من الاستسلام المثمر لطريقتى النقدية الجنونية

جاء طبيبى الخاص د . كارباليريو على الفور ليرانى ، قال إنها ما يسمى بانفلونزا الاربع والعشرين ساعة ، وإنه يمكننى المغادرة الى أوربا غدا ، حين يكون لدى حمى كافية لمعرفة سرى الاعظم ، حلمى الكلادنستى Cledanist (٥٧) الاثمن ، الحلم الذى كنت اتتبعه خلال كل الاحداث الخيالية واللامعقولة لهذا اليوم دون ان ادركه ، كى أحقق النصر لزهدى واخلاصى الكامل والصافى لجالا ، ارسلت الى ضيوفى اعتذر لهم عن عدم لحاقى بهم ، وأبلغت الفندق بمعاملتهم معاملة ملكية (مع بعض التحفظات الخاصة) ، وهكذا قضيت حفلة منتصف الليل دون بيض ودون طاسة ، ونمت مع جالا نوم العادلين .

حين بدأت رحلة عودتى الى أوربا ، فى اليوم التالى ، تساءلت من الذى يستطيع فى هذه الايام - وفى يوم واحد - أن يحول بنجاح المادة الخام التى بلا شكل الى ابداع ثمين ؟ من الذى يستطيع بضربة برق لبيضة واحدة أن يلصق بشاربه الفريد كل ماضى ومستقبل الماركسية ؟ من يستطيع أن يجد العدد ٣١٢ و٤٦٩ و٧٥٨ و٧٧ كرقم سحرى يقود الى طريق يحتوى على مقومات النمو والحياة للرسم التجريدى والرسم الحديث عموما ؟

من يستطيع النجاح في وضع أكبر لوحة لي «حلم كويستوفر كولمبس» في متحف مرمرى قبل أن يفتتح المتحف بثلاث سنوات؟ من يستطيع فى بعد ظهر يوم واحد أن يجمع بين ياسمين جالا الشهواني وبين كثير من النقاء الابيض المتقن للبيض ، متجاوزا كل ما كان وما سيأتي ، مازجا كل ذلك مع أفكار دالي الاثيمة ؟ من فى الواقع ، يستطيع الحياة بعمق ، والتألم بعمق ، والكف عن الأكل كثيرا ، والتقيؤ كثيرا ، ومن لا شئ ينتج الكثير ؟ فليرجمني بأول حجر من يستطيع أن يفعل ذلك أفضل مني ، وهأنذا راكع لأتلقاه بصدرى ، لأنه لن يكون إلا حجر الفلاسفة .

دعنا الآن أيها القارئ فترك الطرائف الى الحديث المتسلسل حول جوهر جالا ، ذلك المحرك الناعم الذى يجعل من طريقتي النقدية المبنية على الهلوسة تعمل على تحويل واحد من أكثر أيامي النشادرية المعتلة الى يوم روحي ذهبيّ في نيويورك . وسترون بعد ذلك ، كيف استطاع هذا الجوهر الجالى أن يحول الفراغات والفضاءات الهوميرية فى بورت ليجات الى ضيعة رائعة سامية لها روحها الخاصة .

٢ سبتمبر :

حلمت بسنتين صغيرتين شبه شفافتين لبنيتين جديرتين

بالرثاء ، فقدتهما فى وقت متأخر ، حين استيقظت رجوت جالا أن تحاول اعادة التأثير الاصلى لهاتين السنتين عن طريق تعليق حبتين من الارز بخيط بالسقف ، وهما بذلك ستعبران عن المدرسة البدائية لمنطقتنا الليليبوتية Lilliputian التى أتمنى أن تصور علي يد روبرت ديكارنس بأى ثمن .

لن أفعل شيئًا طوال النهار ، لأن ذلك ما اعتدت عليه كل سنة خلال الاشهر الستة التى امكثها فى بورت ليجات – ولا شئ هذه تعني أنى أرسم دون أن يقاطعنى أحد ، تجلس جالا عند قدمى العاريتين ، مثل قرد فضائى أوزخة مطر ربيعية أو كسلة صغيرة مكللة بنبات الآس البرى . قلت لها : هل تستطيعين أن تكتبى قائمة «بالتفاحات التاريخية» .

حين انتهت بدأت تتلوها بطريقة الابتهالات :

«تفاحة الخطيئة الاصلية لحواء ، تفاحة آدم التشريحية ، التفاحة الجمالية لقضاء باريس ، تفاحة وليم تل ، تفاحة نيوتن وتفاحة سيزان» ثم قالت وهى تضحك «لم يبق تفاحات تاريخية ، التالية هى التفاحة الذرية وتلك ستنفجر» .

قلت لها : فجريها

قالت : ستنفجر عند الظهر

صدقتها ، لأن كل ما تقوله جالا حقيقى . عند الظهر ، أصبح الممر القصير الذى طوله خمس ياردات الواقع على جانب فناء منزلنا ، ممتدا لمسافة ثلاثمائة ياردة ، فقد اشترت جالا سرا ، بستان الزيتون المجاور لنا ، وخلال فترة الصباح تم تزيين الطريق الجميل الابيض بالطباشير ، كانت على ناصية الطريق شجرة رمان ، وهناك على شكل رمانة كانت التفاحة المتفجرة .

واقترحت جالا ، التى تشاركني كل رغباتي ، اختراع صندوق جوانبه الستة من النحاس الاصفر ، تستقبل قنبلة الرش المكونة من المسامير ومعادن مسمارية أخرى عند انفجار الرمانة فى وسطه وبذلك تحفر على هذه الجوانب فى الحال وبشكل تنبؤى اللوحات الست لكتابى «سفر الرؤيا من وجهة نظر القديس جون» .

«يا قلبى ماذا تريد ؟ ماذا تريد يا قلبى» هكذا كانت تتحدث لى أمي فى كل مرة تنحنى فوقي لتراقبنى ، ولكى أشكر جالا على فكرتها ، كررت لها قول أمى : «ماذا تريدين يا قلبى ؟ يا قلبى ماذا تريدين ؟» .

قالت : قلب من الياقوت ينبض بالحياة .

وأصبح ذلك القلب الذى صممته ، أشهر جوهرة فى مجموعة شيثام Cheatham التى عرضت فى جميع انحاء العالم .

جاء قردى الفضائى الصغير ليجلس عند قدمى العاريتين ، أرادت جالا أن تستريح من دورها كليدا اتوميكا الذى تقوم به فى الفيلم المرتقب ، وقد كنت مشغولا بإعادة رسمها ، شعرت بدفء لطيف فى اصابعى ، دفء لا يمكن أن يأتى إلا من ملاك آدمى ، وأخبرتها بما يدور فى ذهنى من خيال يبدو هذه المرة مستحيل التحقيق :

قلت لها : بيضى بيضة من أجلى ... وباضت بيضتين .

فذلك المساء ، اصغيت فى فناء منزلنا - آه أين أنت يا جارثيا لوركا يا حائط اسبانيا العظيم - ثملا برائحة الياسمين ، الى نظرية د . روميرو ، التى جسدنا بناء عليها الاسطورة السامية لديسكورى ، وفقسنا من بيضة واحدة من بيضتى ليدا المقدستين . (فى فيلم مصارعة الثيران الذى يعده دالى تجسيدا لأسطورة حديثة عن «ليدا» - زوجة تونداريوس ملك أسبرطة - تقول إن زيوس زار ليدا فى هيئة بجعة فأنجبت بيضتين خرج من احداهما كاستور اوبولوكس ومن الأخرى هيلينا ، بولوكس سيجسده دالى

فى الفيلم ويفقس تحت اقدام ليدا - جالا . هـ .م) وعرفت أن جالا قد أعدت بيضة ثالثة ، غرفة ضخمة ، كروية تماما وناعمة ، يتم بناؤها في الوقت الحالي .

ذهبت الى النوم كبيضة مليئة بالرضا ، وفكرت كيف أنى في هذا النهار ، وبدون الحاجة الى طريقتى النقدية المجنونة ، قد تسلمت بجعتين (نسيت أن اذكرهما سابقا) ، ورمانة متفجرة ، وقلبا من الياقوت ، وبيضة ليدا لتمجيدنا ، وكل ذلك بهدف واحد لحماية عملي بلعاب العشق الكيماوى ، ولكن ذلك ليس كل شئ .

أيقظنى من نومى الاول فى الساعة العاشرة والنصف ، مندوب عن عمدة فيجوراس - مسقط رأسى - أراد رؤيتى ، لقد كان مقدرا أن يحقق الرضا الذى تحتويه بيضتى تمجيدا عظيما . إن العملاقين اللذين ابتدعتهما جالا وكريستيان ديور منذ بضعة أعوام للاشتراك فى حفلة بستجوى ، كانا يتجسدان فى هذا المساء فى شخصى وشخص جالا ، فقد جاء مندوب العمدة ليخبرنى عن رغبتهم أن اشارك فى احتفالات «امبوردان» بعملاقين يسيران فى الموكب يجسدان شخصيتى و شخصية جالا .

بعد كل هذا يمكننى أن أذهب الى النوم الى الابد . السنتان

الصغيرتان بلونهما الابيض الغامض ، اللتان حلمت بهما فى الصباح ، وأردت أن اعلق بخيط حبتين من الارز رمزا لهما ، تحولا فى أول الليل الى عملاقين أصيلين هما جالا ودالى ،يسيران بثبات ، تدق اقدامهم الاربعة على طريق جالا ، ويحملان لوحاتنا الفخمة ، بينما نعد أنفسنا لنتابع حجنا فى هذا العالم .

واذا كنا لم نرجم كالكلاب أو نجوع حتى الموت ، بسبب عبقريتنا التى تعتبر فضيحة في عصر أشباه الاقزام الذى نعيشه الآن ، فإن ذلك من فضل الله علينا .

١٩٥٩

لم يكتب دالى يوميات في هذا العام ، وعلق على باب مرسمه «يافطة» بالانجليزية والفرنسية مكتوبا عليها «لا تزعجنى من فضلك» فدالى يرسم ويكتب وسيكشف سر هذه السنة الخصبة فى حياته فيما بعد .

مايكل ديون

١٩٦٠

١٩ مايو - باريس :

يحيطنى جمهور غفير ، يتمتم باسمى ، ويدعونى بالاستاذ ،

وكنت على وشك افتتاح معرض المائة صورة توضيحية التى رسمتها للكوميديا الالهية . انتابنى احساس سار جدا ، وهذا الاعجاب يغمرنى بموجات سحرية ، تجعل من الفن التجريدى ، مرة ثانية وثانية ، مجرد هراء ، وتدفعه ليموت من الحسد .

سألونى لماذا رسمت الجحيم بألوان فاتحة براقة ؟ أجبت بأن الرومانسية قد ارتكبت فضيحة حين جعلتنا نعتقد أن الجحيم أسود كمناجم فحم جوستاف دوريه ، حيث لا يمكنك رؤية شئ ، كل ذلك خطأ ، فجحيم دانتى مضاء بشمس وعسل البحر المتوسط ، وذلك هو سبب رعب رسوماتى المفصل والهلامى بلزوجة ملائكية . إن الجماليات الفائقة لعملية هضم اثنين يلتهم أحدهما الآخر ، يمكن ملاحظتها للمرة الأولى فى رسوماتى ، معرضة للضوء تماما ، ضوء محتدم بفرح صوفى نشادرى . أردت أن تشبه رسوماتى للكوميديا الالهية ، الآثار الخفيفة للرطوبة فى بعض انواع الجبن الممتاز ،.وهذا يفسر البعد المبرقش كأجنحة الفراش فيها .

الصوفية نوع من الجبنة ، المسيح نفسه جبنة ، أو بالأحرى جبال من الجبنة ! ألم يخبرنا بذلك القديس اوغسطين . لقد قال المسيح فى الانجيل :

«ايها الجبل الصلب . ايها الجبل المتخمر» ماذا يمكن أن يعنى ذلك سوى جبل حقيقى من الجبنة ، ليس دالى هو الذى يقول ذلك ، بل القديس اوغسطين ، ودالى يردد قوله .

منذ البدايات الغيبية لليونان الخالدة ، ابتدع اليونانيون من الالم واللوعة فى المكان والزمان ، آلهة ذات صفات نفسية ، وقلقا مأساويا ساميا للروح الانسانية ، وأضفوا على الآلهة الصفات البشرية بشكل أسطورى كلى .

وتأسيا باليونانيين ، فدالى لا يقتنع إلا حين يبدع من الألم واللوعة فى المكان والزمان ، وقلق الروح الانسانية ، نوعا من الجبنة ، جبنة صوفية مقدسة .

١ سبتمبر :

مرت عشرون سنة على إنهاء كتابى «حياتى السرية» ومازال شعرى أسود ، وقدماى سليمتين ، وزال «كرشى» بعد عملية

الزائدة الدودية، واستعدت تقريبا الشكل الذى كنت عليه فى مراهقتى ، وبينما أنتظر أن يمن الله علىّ بفضله ويمنحنى الايمان الكامل ، اصبحت بطلا ، بل بالأحرى بطلين ، فالبطل حسب رأى فرويد هو الذى يثور ضد السلطة الابوية ويتغلب عليها . وكان هذا حالى مع والدى الذى أحبنى كثيرا ، لكنه لم يبد إلا القليل من هذا الحب فى حياته ، وهو الآن فى السماء فى ذورة مأساة أخرى ، يمكنه أن يكون سعيدا فقط لأن ابنه أصبح بطلا بفضله ، الموقف ذاته حدث مع بيكاسو ، أبى الروحى الثانى ، فقد ثرت ضد سلطته، ومازلت مشغولا بالتغلب عليه ، لكنه يستطيع أن يستمتع فى حياته ببطولتى ، ويكفى المرء أن يكون بطلا مرتين . ومنذ انهيت كتابى «حياتى السرية» ، لم أطلق زوجتى كما حدث للكثيرين ، بل على العكس ، تزوجت زوجتى مرة ثانية ، هذه المرة فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الاصولية ، بمجرد أن اتاح لنا شاعر فرنسا الاول بول الوار هذه الامكانية بوفاته . لقد تم زواجى السرى فى دير العذراء مع الملائكة ، وأصابنى اهتياج فاق كل الحدود ، لأنى أعرف أنه لا يوجد على الارض مكان يستطيع

احتواء الحجر النفيس لعطشى الذى لا يروى لكل ما هو مقدس وطقسي واحتفالي . فبعد ربع ساعة من اعادة زواجى ، تملك روحى وجسدى ، خيال جديد ، كنوع من ألم الاسنان الشديد ، بأن اتزوج جالا مرة ثانية ، كنت عائدا الى بورت ليجات ، والشمس على وشك الغروب ، أنظر الى البحر والمد يعلو ، حين قابلت أحد القسس يجلس هناك (يحدث غالبا ان اقابل قسسا جالسين فى لحظات مشابهة) ، قبلت خاتمه ، ثم قبلته بعرفان مضاعف بعد أن أوضح لى أنى استطيع أن أتزوج ثانية حسب الطقوس القبطية، وهى من أطول وأعقد وأرهق الطقوس المعروفة، وأخبرنى أن ذلك لن يضيف شيئا الى القربان الكاثوليكى ولن ينقص منه شيئا أيضا، ذلك لك يا دالى ، بعد أن ملكت العديد من البيض المقلى دون طاسة ، فإن الشئ الذى ينقصك هو اللا شئ ، اللاشئ مضاعفا ، وسيكون لاشئ فعلا اذا لم يكن مقدسا .

وقررت لكى أحصل على ذلك اللاشئ ، أن ابتدع حفلة دالية كبرى ، حفلة ستقام يوما ما ، وتكون فخرا لكل الحفلات ، تشتمل على معظم أفكارى عما ستكون عليه الحفلة اليوم ، أفعل ذلك كى استرضى ، بذكاء وحذر ، اصدقائى الذين لن ادعوهم .

١٩٦١

لم يرغب دالي في نشر يومياته في هذا العام ، وكتب عليها «سري جدا» ولا يسعنا إلا أن نحترم رغبته .

مايكل ديون

١٩٦٢

٥ نوفمبر :

رموز رايمون لول الستة عشر معرضة لعدد من التوافيق يبلغ ٨٨٨ ٧٨٩ ٢٠٩٢٢ ، استيقظت وفي نيتي الوصول الى ذلك الرقم من التوافيق داخل كرتي الشفافة ، أقوم بالتجارب الأولى منذ أربعة أيام (الأولى على حد علمي) على طيران الذباب . البحر عالٍ جدا ، وخدم المنزل في صخب ، يقولون انها أعنف عاصفة منذ ثلاثين سنة . قطعت الكهرباء ، وبدت الدنيا كأنها منتصف الليل ، واضطررنا الى اشعال الشموع ، قطع قارب جالا الحبل الذي يربطه الى الشاطئ وبدأ يطوف في وسط الخليج ، وبحارنا يصيح ويضرب المائدة بيده قائلا :

– لا أحتمل أن أرى القارب يتحطم على الصخور .

سمعت كل ذلك وأنا في المرسم ، وجاءت جالا لتطلب مني أن

اهدئ البحار الذى تعتقد الخادمات أنه قد جن ، فى الطريق اليه ، مررت بالمطبخ ، وبخبطة واحدة ، بسرعة وبراعة لا تصدق ، أمسكت بالذبابة ، التى احتاجها لتجربتى ، وهى طائرة . لم يلاحظ أحد ذلك ، قلت للبحار : لا تحزن لهذه الدرجة ، سنشترى قاربا آخر فلا أحد رأى مثل هذه العاصفة . وتماديت ، ووضعت يدى المغلقة على الذبابة ، على كتفه فجأة ، بدا انه هدأ فورا ، عدت الى المرسم ووضعت الذبابة داخل الجسم الكروى ، اثناء مراقبتى للذبابة وهى تطير فى شكل دائرى سمعت أصواتا عالية على الشاطئ ، نزلت جريا ، فوجدت الخدم والصيادين يصيحون «معجزة» ، فقد كان القارب على وشك الارتطام بالصخور حين تغير اتجاه الريح فجأة ، ودفعت به ليستريح كحيوان أليف على بقعة أمام منزلنا ، وبمهارة فائقة ألقى أحد البحارة بمرساة مربوطة بسلك على سطحه ، واستطاعوا سحب القارب بعيدا عن الامواج التى كانت تدفعه نحو الصخور . لا حاجة الى الاشارة بأن القارب يحمل بالاضافة الى اسم جالا اسم ميلا جرو الذى يعنى معجزات .

عدت الى المرسم ، فوجدت أن ذبابتى قد حققت بدورها عدة معجزات ، أكثرها غرابة تحقيقها لعدد التوافيق التى تمنيت أن أحققها حين استيقظت .

كان ذلك قبل الظهر بثمانى دقائق بالضبط .

لابد أن الحياة مكتظة بمثل هذه الاحداث التى تجمع بين المصادفة والبراعة المرعبة .

ذكرنى ذلك بأبى وهو يزأر كالاسد ذات صباح من يونيه قائلا: «تعالوا .. تعالوا بسرعة» وصلنا ، منزعجين كثيرا ، لنجده يشير الى عود كبريت من الشمع يقف طوليا ويشتعل على قرميدة الموقد. بعد أن أشعل أبى سيجارته ، ألقى بالعود عاليا جدا ، فسار بشكل قوس وانطفأ ، ثم سقط رأسيا على القرميد الساخن الذى أشعله ثانية . خرج أبى ونادى الفلاحين الذين تجمهروا حوله.

- تعالوا انظروا .. لن تروا شيئا كهذا ابدا . ذلك اليوم ، بعدما انهيت وجبة الطعام ، كنت لا أزال واقعا تحت ضغط تلك الظاهرة التى أثرت بى بدرجة هائلة ، قذفت بشوكة الطعام فى الهواء بكل قوتى . بعد أن ضربت السقف ، قفزت الى سطح البوفية، ثم استقرت متأرجحة على طرف حامل الستارة الخشبى .

وذهل أبي من هذه الظاهرة الثانية ، وظل لمدة ساعة يتأمل الشوكة ، ومنع أي شخص من تحريكها من مكانها ، وظلت هناك لأسابيع يتطلع اليها بعجب الخدم والاصدقاء .

٦ نوفمبر :

دلقت قهوة على قميصي ، رد الفعل الاول لاولئك الذين ليسوا عباقرة مثلي ، أن يمسحوها ، لكني على العكس تماما ، حتى في طفولتي ، كنت انتظر اللحظة التي لا يراني فيها أحد ، وادلق بسرعة ونزق القهوة التي أشربها بين قميصي وبشرتي ، بالاضافة الى البهجة التي أشعر بها لانسياب السائل الذي لا يوصف الى سرتي ، فإن جفافه التدريجي ، والمادة التي تلتصق ببشرتي يعطياني فرصة لمشاهدات ثابتة لفترة من الوقت ، أسحب القميص ببطء وبالتدريج ، أوبهزات انتظرتها بابتهاج كبير ، وحين ينفصل القميص الملتحم بالجلد تفيض عليّ مشاعر وافكار فلسفية تستمر طوال اليوم ، هذه المباهج السرية لحياتي المبكرة وصلت قمتها زمن المراهقة ، حين يلتصق الشعر ويترابط على صدري (في موضع الايمان) ملتحما بقماش القميص كظرف لاقامة الشعائر الطقسية . هذه الشعيرات القليلة التي تلتصق بالقماش ،

أعرف الآن انها هي التي حافظت على اتصالي بتلك المشاعر والافكار ، ويرجع الفضل الى العنصر الغروى الدبق المتغير دوما، الذى سيصبح العنصر المسهل لحركة الآلة الصوفية الحقيقية ، التي بفضل الله ابتدعتها هذا الصباح ، بدلق كمية كبيرة ، بطريقة ارادية واضحة ، من القهوة والقشدة المحتوية على كثير من السكر (لم اكن اعي ذلك) بشكل مثير . انه طلاء حقيقي من السكر جعل أجمل قمصاني يلتصق بشعر صدري المملوء بالايمان الديني. ملخص القول ، أن هذه الحادثة التي تبدو للكثيرين بلا معنى سيحولها دالي العبقري الى آلة عملية سلسة تمكنه من التوجه والوصول الى الايمان الكامل الذى هو ميزة فريدة لفضل الله غير المحدود .

٧ نوفمبر :

المتعة التي كانت وستظل أكثر المتع كثافة وانعاشا وسط كل المسرات المترفة في حياتي : أن استلقي في الشمس ويغطيني الذباب .

بعد الانتهاء من طعام الافطار ، صببت فوق رأسي ، الزيت المتبقي في طبق الأنشوجة الذى تناولته في الحال ، جاء الذباب

يطن حولي . إن دغدغة الذباب تعجل فى سيطرة افكارى على الموضوع الذى يدور فى ذهنى ، وفى الاحوال النادرة التى يضايقنى فيها حضور الذباب ، فتلك اشارة أن هناك خطأ ما ، وأن الآلية العملية لمكتشفاتي على وشك التوقف . ولذا فإنى اعتبر الذباب جنيات البحر المتوسط ، وحتى فى العصور القديمة ، كان يغطى وجوه اسلافى المشهورين أمثال سقراط وافلاطون وهومر الذين وصفوا بعيون مغلقة روعة السحابة المشهورة من الذباب البلنسى (نسبة الى بلنسيا) وليس ذلك الذباب الموجود فى المكاتب أو بيوت الطبقة المتوسطة ، الذباب الذى يعيش على ورق الزيتون ويطير حول قنفذ بحر لم يتحلل بعد . وقد قرأت اليوم فى كتاب ألمانى أن « فيدياس» قد أخذ فكرة المعبد الذى أقامه، من نموذج لقنفذ البحر، حيث يقدم أكثر الأشكال الخماسية روعة حسب رأيه.

واليوم ، فى الثانية بعد الظهر ، وأنا أنظر الى خمس ذبابات تطن حول صدفة قنفذ بحر ، لاحظت أنها فى طيرانها تقوم بحركة لولبية من اليمين الى الشمال فى كل دورة . اذا تأكد هذا القانون، فلا أشك انه سيكون فى المستقبل ، فى أهمية قانون تفاحة نيوتن،

لأني أزعم ، أن هذه الذبابة التي يطاردها كل فرد ، قد وضع الله داخلها ، قانونا وفعلا ، يعرضهما دوما تحت أنوف البشر ، ليريهم مرة ثانية وثانية ، أحد أعظم القوانين المخبوءة للكون .

٨ نوفمبر :

ذهبت الى النوم أحمل فكرة أن حياتى الحقيقية يجب أن تبدأ غدا أو بعد غد ، أو على أكثر تقدير فى اليوم التالى لذلك . هذه الفكرة منحتنى حلما خلاقا قبل الاستيقاظ استغرق ثلاثة أرباع الساعة ، ووصل الى ذروة مشهدية مدهشة . تبدأ هذه الذروة بستارة مموهة بالذهب مضاءة بشكل باهر ، فى منتصفها شخص صغير غريب الاطوار ظاهر بشكل صارخ حتى أن الجمهور كله شاهده بطريقة لا تنسى ، حين ترتفع هذه الستارة الخارجية تبدأ المشاهد التى تصل فورا الى ذروتها كأكثر الاساطير روعة وعصفا ، صاعقة جوبيتيرية تغمر كل شئ فى ظلام دامس ، وتوقع كل فرد أن تبدأ الاحداث بمؤثرات متصاعدة عجائبية ، لكن يحدث تحول درامى ، فتضاء الانوار لنرى الستارة الأولى كما فى البداية. وهكذا يتم استغفال الجمهور كله عدا دالى وجالا التى حلمت الحلم ذاته .

يظن الناس أنهم ينظرون الى بداية اوبرا حياتنا ، ولكن الامر غير ذلك ، فالستارة لم ترتفع بعد ، تلك الستارة الخارجية ، التى استخدمت بذكاء ، تساوى وزنها ذهبا .

١٩٦٣

٣ سبتمبر :

اعتدت أن انظر الى الصحف بالمقلوب ، وبدل أن أقرأ الاخبار أنظر اليها وأراها ، حتى وأنا مراهق رأيت وسط حروف الطباعة ، مباريات لكرة القدم كما كانت تبدو فى التليفزيون ، كل ذلك بتصنع قليل من الحول فى عينى .

واليوم ، وأنا أمسك الجرائد بالمقلوب ، أرى اشياء رائعة تتحرك ، فقررت بإلهام سام من فن دالى الشعبى أن أقوم بتلوين اجزاء من هذه الجرائد التى تحتوى كنوزا جمالية تستحق فيدياس أن يراها .

ساكبر هذه الجرائد وأطرزها بنقاط الذباب ، جاء تنى هذه الفكرة حين رأيت جمال مجموعة من قطع الصحف لونها بالاصفر وبقليل من بقع الذباب ، بيكاسو وبراك .

كنت أصغى الى الراديو ، اثناء الكتابة هذا المساء ، وكان ينقل أصوات طلقات البنادق التى تطلق تحية لبراك Braque فى جنازته ، براك الذى كان مشهورا لاكتشافه البعد الجمالى لقطع الصحف الملصقة ، مع اشياء أخرى بالطبع ، وأنا أهدى له بكل اجلال وتقدير ، أعظم تمثال نصفى ، وأشهرها تلقائية ، لسقراط مصنوع من الذباب .

١٩ سبتمبر :

دائما فى محطة بيربجنان perpignan ، تهبط علىّ أعظم أفكارى الفريدة ، كانت جالا تقوم بالترتيبات الخاصة لشحن لوحاتنا بالقطار الى باريس ، وقبل أن تصل بأميال عديدة ، ونحن فى «بولو» يبدأ عقلى يتحرك ، لكن الوصول الى محطة بيربجنان هو الذى يحدد ذلك القذف الفكرى المطلق ويجعله يصل الى ذروته التأملية السامية ، وأظل هائما فترة طويلة ، عيناى لاتحملان أى تعبير ، وعند «ليون» يبدأ التوتر فى الخفوت ، وحين أصل باريس أكون ساكنا تماما ، ممتلئا بالتخيلات اللذيذة التى داهمتنى أثناء الرحلة ، ثم يصبح عقلى عاديا تماما ، ومع ذلك أظل عبقريا ، كما أحب أن يتذكر قرائى الطيبون .

فى هذا اليوم ، التاسع عشر من سبتمبر ، هبطت علىّ نشوة كونية أقوى من كل ما مر بى ، شاهدت رؤية دقيقة لتركيب هذا العالم أحد أعظم الاشياء المحدودة الموجودة فى الكون . إن العالم عبارة عن محطة سكة حديد بيربجنان بالضبط ، تشابه فى التركيب والابعاد مع اختلاف النسب ، عدا اختلاف واحد يوجد قرب شباك قطع التذاكر. ففى العالم ، يوجد بدل مكتب التذاكر . ذلك النحت اللغز الغامض ، الذى حيرنى مستنسخ عنه ، أياما عدة. الجزء الفارغ من النحت يقدر بتسع ذبابات من «بولو» ، وذبابة نبيذ واحدة ضد المادة .

أنظر الى رسمى وتذكر أن كل العوالم قد ولدت بهذه الطريقة .

صباح الخير !

سلفادور دالى فى سطور

- ولد فى فيجوراس فى اسبانيا فى ١١ مايو ١٩٠٤ .

- أقام أول معرض له سنة ١٩١٨ على مسرح بلدية فيجوراس وهو فى الرابعة عشرة من عمره .

- التحق بكلية الفنون الجميلة فى مدريد سنة ١٩٢١ ، وأقام فى المدينة الجامعية ، حيث التقى هناك بالشاعر جارثيا لوركا ،

ولويس بونويل الذى سيشاركه فيما بعد فى اخراج فيلمين هما : الكلب الاندلسى ، وعصر الذهب .

- زار باريس لأول مرة سنة ١٩٢٦ ، ومنذ سنة ١٩٤٨ اعتاد أن يقضى ستة اشهر كل عام فى نيويورك ، وباقى السنة بين بورت ليجات وباريس .

- لم يقتصر نشاطه على الرسم ، بل عمل فى النحت وتصميم الديكور والملابس وتأليف الكتب والافلام ونظم الشعر .

- من مؤلفاته : الحياة السرية لسلفادور دالى ،عالم سلفادور دالى ، سلفادور دالى والفن الحديث . الوحدة المختلفة ، وجوه مختفية .

- نال عدة جوائز عالمية ، وبعض الأوسمة ، وأقام عشرات المعارض فى جميع انحاء العالم الصناعى تقريبا ، كما انتخب عضوا فى اكاديمية الفنون الجميلة فى اسبانيا

- بلغت قدراته والوانه وتشكيلاته حد الاعجاز البشرى مهارة تكنيكية واتقانا للتفاصيل الدقيقة ، فيما يسمى بالواقعية السحرية التى تبعث فى نفس المشاهد إحساسا اسطوريا بالواقع نتيجة المزج بين الواقع الطبيعى والهلوسة الذهنية التصويرية المثيرة .

- بعد وفاته زوجته «جالا» سنة ١٩٨٢ ، اختلت موازين حياته، وزهد الدنيا وتكالبت عليه الامراض ، وأصـــيب الشلل الرعاش فلم يعد يستطيع التحكم فى فرشـــاة الرســـم ، وتوفـــى فى ٢٣ يناير سنة ١٩٨٩ .

هوامش المترجم

١ – اندريه بريتون : (١٨٩٦ – ١٩٦٦) شاعر وناقد فرنسى ، مؤسس الحركة السريالية ، من مولفاته «ناديجا» ١٩٢٨ .

٢ – هذه الملاحظة أضافها فى الهامش مايكل ديون الذى قدم للكتاب .

٣ – بول الوار : (١٨٩٦ – ١٩٥٢) شاعر فرنسى ، عضو الحركة السريالية ، من مؤلفاته «عاصمة الحزن» ١٩٢٦ ، «الشعر والحقيقة ١٩٤٢» ، «قصائد للجميع ١٩٥٢»

٤ – لوتريامون : (١٨٤٦ – ١٨٧٠) شاعر فرنسى نشر ديوانين هما : «أناشيد مالدورور ١٨٦٩» «مقدمة الاشعار ١٨٧٠» وقد اعتبر السرياليون هذين الكتابين أحد المؤلفات الاساسية فى حركتهم .

٥ – الماركيز دى ساد : (١٧٤٠ – ١٨١٤) كاتب فرنسى قضى معظم حياته في السجون ، ومات فى مصحة عقلية ، ينسب اليه الانحراف الجنسى المعروف «بالسادية» ، له مؤلفات عديدة تدور حول الجنس والانحرافات الجنسية

٦ – رفائيل : (١٤٦٦ – ١٥٢٤) رسام أيطالى من فلورنسا ،

تلميذ بوتشيللى ونيليتيو .

٧ - يقصد شعوب البحر الابيض المتوسط .

٨ - القديس جون الصليبى: (١٥٤٢ - ١٥٩١) متصوف وشاعر وقديس اسباني ، كتب الشعر من واقع تجربته الشخصية الدينية ، ومن اشعاره «ليلة الروح المظلمة» و«لهب الحب الحى» .

٩ - العنصر الديونيزى النيتشوى : نسبة الى ديونيزيوس اله الخمر عند اليونان ، ونيتشه الفيلسوف الالماني .

١٠ - الطريقة المكيافيلية : نسبة الى ميكيافيللى صاحب وجهة النظر: الغاية تبرر الوسيلة ومؤلف «الامير» .

١١ - ماتيس : (١٨٦٩ - ١٩٥٤) رسام فرنسى ، مدرسة ما بعد الانطباعية ، يعتبر رائدا للمدرسة الفوفية Fauvist .

١٢ - ماسونيه Meissonier: (١٨١٥ - ١٨٩١) رسام فرنسى، عرف برسوماته الحربية ، وكذلك برسم صور صغيرة للشخصيات ، ملونة برقة بالغة .

١٣ - أوغست كونت: (١٧٩٨ - ١٨٥٧) فيلسوف فرنسى مؤسس الفلسفة الوضعية .

١٤ - ڤيرمير: Vermeer (١٦٣٢ - ١٦٧٥) رسام هولندى ،

رسم حوالي أربعين لوحة مشهورة منها صانعة الدانتلا ، وفتاة نائمة وديانا تتزين .

١٥ - الكهرمان : لون اصفر ضارب الي الحمرة .

١٦ - اراجون : لويس اراجون (١٨٩٧ - ١٩٨٢) شاعر وروائي وصحفي فرنسي ، ألف أكثر من ستين كتابا في موضوعات مختلفة .

١٧ - كيركجورد : سورين (١٨١٣ - ١٨٥٥) فيلسوف هولندي عارض فلسفة هيجل واسس فلسفته الخاصة علي الايمان والمعرفة والفكر والواقع . أول فيلسوف وجودي مؤمن .

١٨ - فيلا سكيز: Velasquez (١٥٩٩ - ١٦٦٠) رسام اسباني رائد مدرسة الرسم الاسباني ، وقد عين رسام البلاط الملكي. يرسم موضوعات متنوعة وتاريخية .

١٩ - زرباران: Zurbaran (١٥٩٨ - ١٦٦٤) رسام اسباني ، رسام البلاط في عهد فيليب الثاني (١٦٣٨) اشتهر بلوحاته الدينية.

٢٠ - اناشيد مالدورور : من تأليف لوتريامون ، أخذ الكتب التي اعتمدتها الحركة السريالية كتعبير عنها .

٢١ – جوستاف مورو: Gustave Moreau (١٨٢٦ – ١٨٩٨)
رسام فرنسي ، تعتبر رسوماته رد فعل لطبيعية كوربيه ومانيه .

٢٢ – بوتشيلي: Botticelli (١٤٤٤ – ١٥١٠) رسام ايطالى من تلاميذ «نيليبو» ، شارك فى زخرفة كنيسة سستاين .

٢٣ – فى كل عام ، يرسل دالي الى بيكاسو «كارت بوستال» يذكره بهذا المثل دون أن يعرف لماذا – مايكل ديون .

٢٤ – باراسيلسوس: paracelsus (١٤٩٣ – ١٥٤١) عالم كيمائى وطبيعي سويسرى ، اهتم بأمراض عمال المناجم ، مؤلف كتب فى الطب والسحر .

٢٥ – إنجر: Ingres (١٧٨٠ – ١٨٦٧) رسام فرنسى درس فى ايطاليا ، يعتبر رائدا وسط الرسامين الكلاسيكيين اشتهر بأنه رسام تاريخى .

٢٦ – إلك elche : تمثال نصفى من الحجر الرملى عثر عليه فى القرن التاسع عشر اثناء التنقيب فى خرائب فينيقية .

٢٧ – وعد لم يحافظ عليه دالى ، فلم يكتب شيئا فى ٢ أغسطس حول هذه الزيارة – مايكل ديون .

٢٨ – بييه Piet : رسام تجريدي ظل دالي يستخدمه ككبش

فداء لسنوات – مايكل ديون .

٢٩ – ميشيل دى مونتان: (١٥٣٣ - ١٥٩٢) كاتب مقالات فرنسى ، قامت شهرته على مقالاته هذه التى أصدر منها ثلاثة كتب ، أصبح عمدة بلده بوردو .

٣٠ – تيرنر Turner : (جوزيف تيرنر ١٧٧٥ – ١٨٥١) رسام انجليزى اشتهر بلوحاته التى تمثل مناظر طبيعية .

وتشارلز تيرنر رسام امريكى (١٨٥٠ – ١٩١٨) اشتهر برسم لوحات جدارية وشخصيات

لا أعرف من الذى يقصده دالى منها ، فهو لم يذكر الاسم الاول ، فقط Turner ...

٣١ – سبق ذكره رقم ٢٤ .

٣٢ – ميليه Millet : (جان فرانسوا ١٨١٤ – ١٨٧٥) رسام فرنسى اشتهر بلوحاته الدينية .

٣٣ – بوليكليطس Polycletus : نحات ومهندس يونانى من القرن الخامس قبل الميلاد ، مجد بسبب تطويره المتقن الابعاد المجردة التى تجسد النحت اليونانى .

٣٤ – براك Braque : (١٨٨٢ – ١٩٦٣) رسام فرنسى ، أحد

مؤسسى المدرسة التكعيبية فى الرسم .

٣٥ - كاندنسكى Kandinsky : (١٨٦٦ - ١٩٤٤) رسام ومصمم روسى من المدرسة ما بعد الانطباعية ، أسس مع بول كلى المدرسة التجريدية الجديدة فى ميونيخ .

٣٦ - بولوك Pollock : (جاكسون ١٩١٢ - ١٩٥٦) رسام امريكى من المدرسة التعبيرية التجريدية .

٣٧ - مانتينا Mantegna : (١٤٣١ - ١٥٠٦) رسام ايطالى وأيضا ينقش ويحفر على الخشب وغيره .

٣٨ - أيوجين كارييه Eugene Carriere : (١٨٤٩ - ١٩٠٦) رسام فرنسى ، وعمل أيضا رسومات بالطباعة على الحجر ، من الرسامين الانطباعيين فى فرنسا .

٣٩ - مالنكوف Malenkov : سكرتير الحزب الشيوعى السوفييتى بعد وفاة ستالين سنة ١٩٥٣ .

٤٠ - بيزيه Bizet : (١٨٣٨ - ١٨٧٥) مؤلف اوبرا فرنسى وملحن عدة أغنيات وقطع موسيقية للبيانو .

٤١ - روسينى Rossini : (١٧٩٢ - ١٨٦٨) مؤلف موسيقى ايطالى ، أحد عمالقة مؤلفى الاوبرا .

٤٢ - جوان دى هيريرا Juan de herrera : (١٥٢٠ - ١٥٩٧) مهندس اسبانى ، المهندس الاول فى بلاط فيليب الثانى، اشتهر بتصميمه لمبنى الاسكوريال .

٤٣ - المنحنى اللوغاريتمى هو منحنى المعادلة : ص = لو أ س ، أ> .

٤٤ - سورا (G. serat): (١٨٥٩ - ١٨٩١) رسام فرنسى مؤسس مدرسة الانطباعية الجديدة . .

٤٥ - ريموندو ليليو (لول) Lulio : (١٢٣٦ - ١٣١٥) فيلسوف اسبانى كان مولعا بالشعر ، كان شديد التصوف وانتهج فى كتاباته نهجا رمزيا ، هاجم فى فلسفته ابن رشد بشكل خاص.

٤٦ - جوستاف دوريه Gustave Dore : (١٨٣٣ - ١٨٨٣) رسام ومصور فرنسي ، رسم كثيرا من الكتب المشهورة .

٤٧ أصدر دالي كتيبا ١٩٥٦ بعنوان «قوانين النقد الادبى الحيث القديم» مايكل ديون .

٤٨ - الكسندر كالدر Calder (١٨٧٠ - ١٩٤٥) نحات أمريكى درس فى اكاديمية الفنون فى بنسلفانيا ثم فى باريس ، له

تشكيلات تحتية أظهر فيها لأول مرة البعد الرابع : الزمن كحركة في المكان .

٤٩ - مارسيل دوشام M.Du champ : (١٨٨٧ - ١٩٦٨) رسام ومنظر فرنسي ، اثارت لوحاته جدلا كبيرا

٥٠ - بول سيزان Cezanne : (١٨٣٩ - ١٩٠٦) رسام فرنسي رائد مدرسة ما بعد الانطباعية .

٥١ - عاد دالى لترديد وجهة نظره هذه في مجلة أخبار الفن مارس ١٩٦٣ بتفصيل أكثر ، وتحدى أن يأتي أحد آخر بتفسير مختلف لقذف الموناليزا بالحجارة . مايكل ديون .

٥٢ - تمت مراسيم الزواج في احتفال ديني ١٩٥٨ .

٥٣ - ال جريكو El Greco : (١٥٤٨ - ١٦١٤ أو ١٦٢٥) وليد في كريت وذهب الى فينيسيا وتتلمذ على يدى تيتيان ، رائد الرسم الصوفي الاسباني :

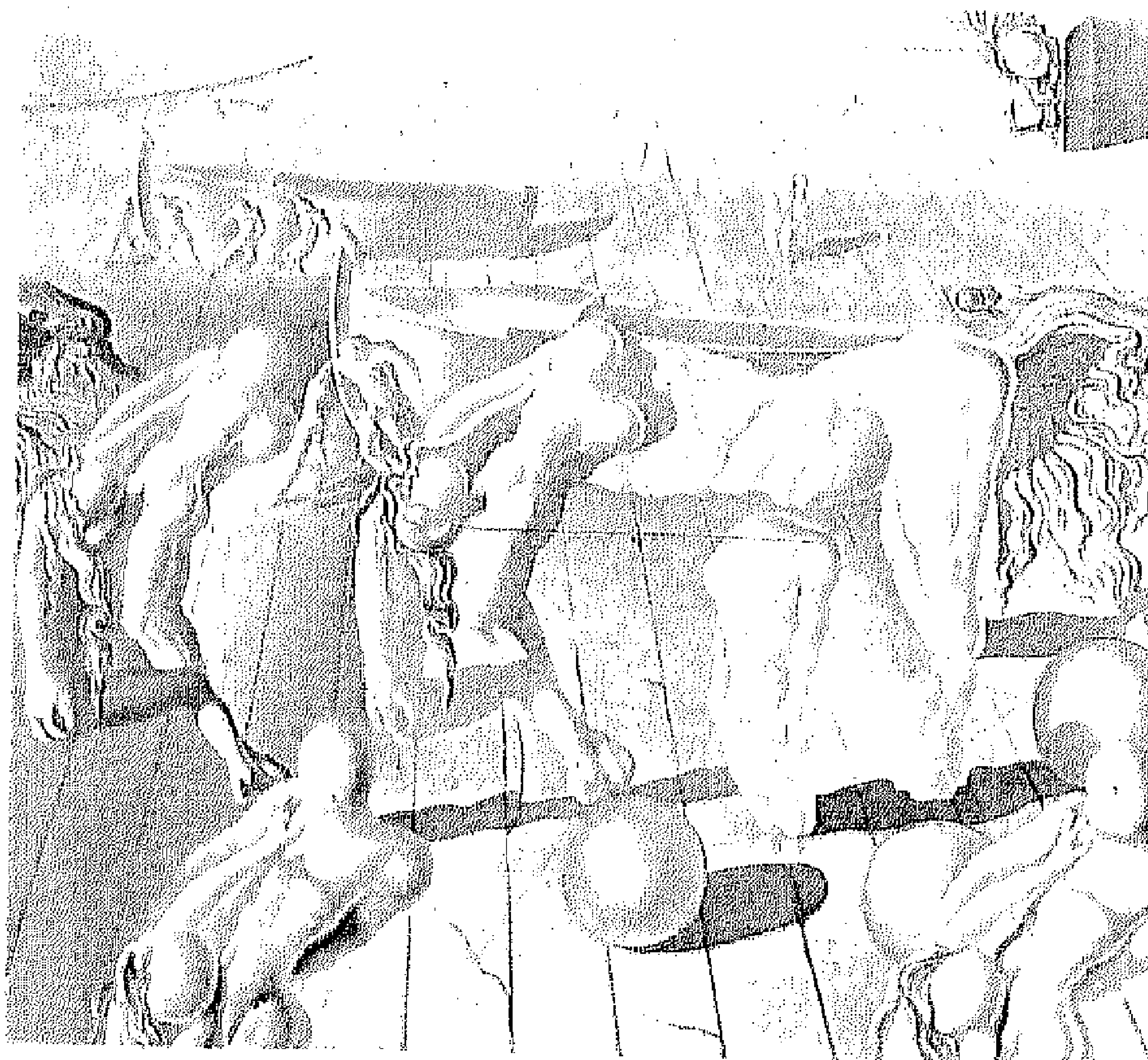
٥٤ - أخطأ دالى هنا في عنوان مذكرات زفايج ، فهي «عالم الامس» وليس «عالم الغد» .

٥٥ - ميملنج Memling : (١٤٣٠ - ١٤٩٥) رسام فلمنكي جرماني ، عاش في براغ منذ ١٤٦٦ ، رسم شخصيات ولوحات دينية .

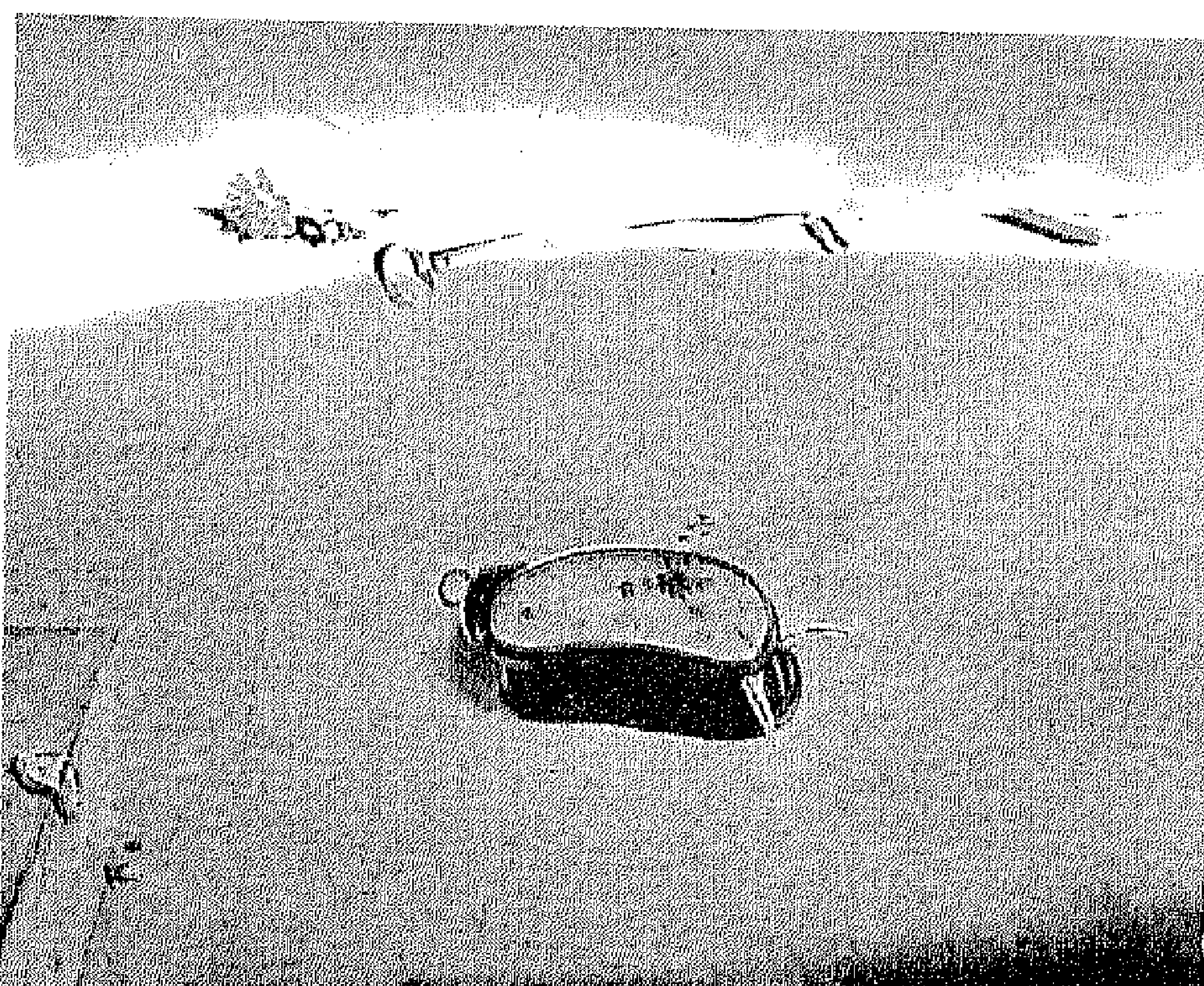
٥٦ – بيير ديللا فرانشيسكا : (١٤٢٠ – ١٤٩٢) رسام ايطالى من رواد الواقعية فى عصره ، عالم رياضيات كتب رسالة فى الهندسة .

٥٧ – الكلادنستى Cledanist : الكليدانزم Cledanism انحراف جنسى مشتق من اسم سولانج دو كليدا Solange de cleda.

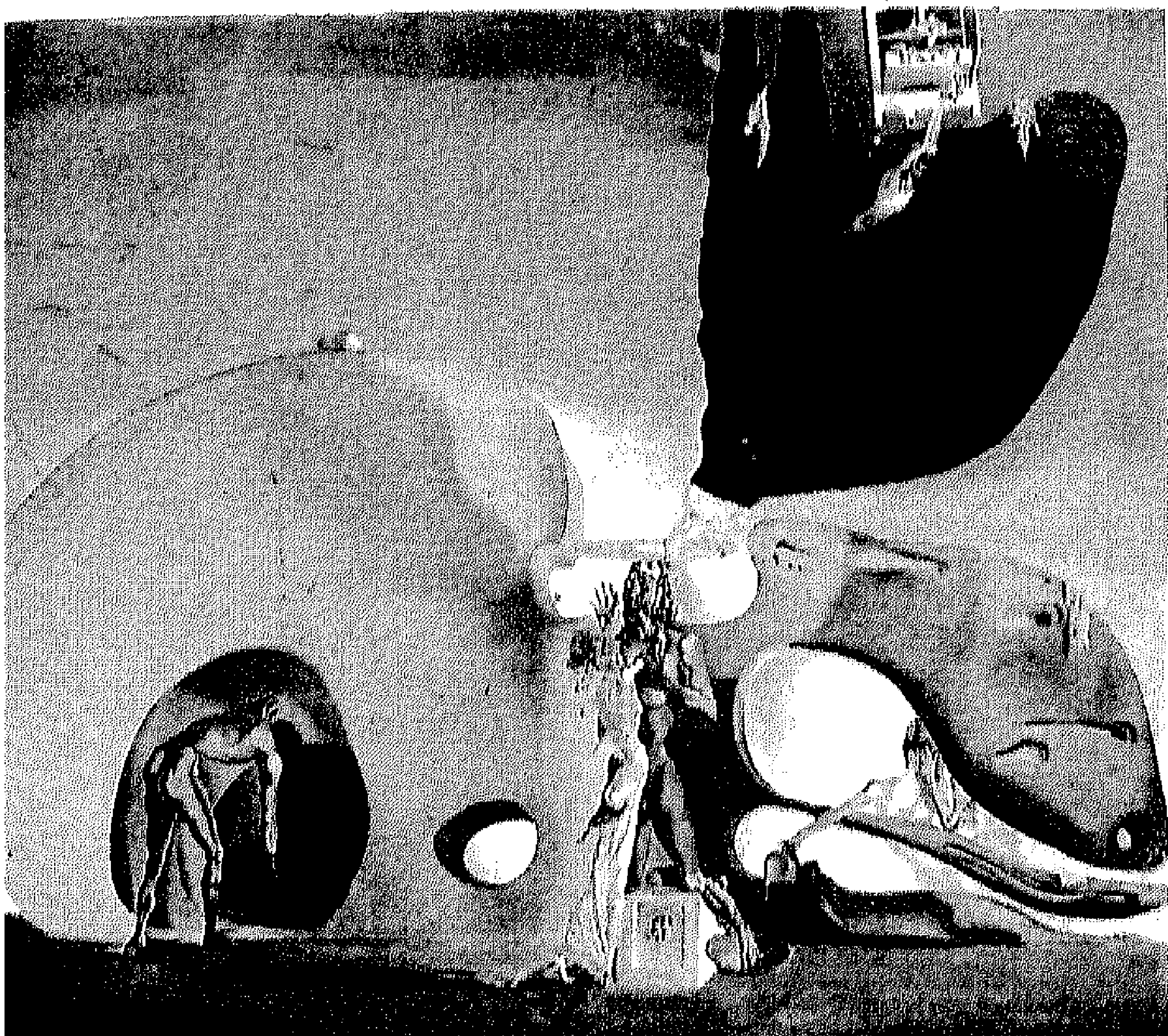
★ ★ ★



اللوحة المزدوجة وتتمثل فيها امرأة نائمة وحصان وأسد ،١٩٣٠،



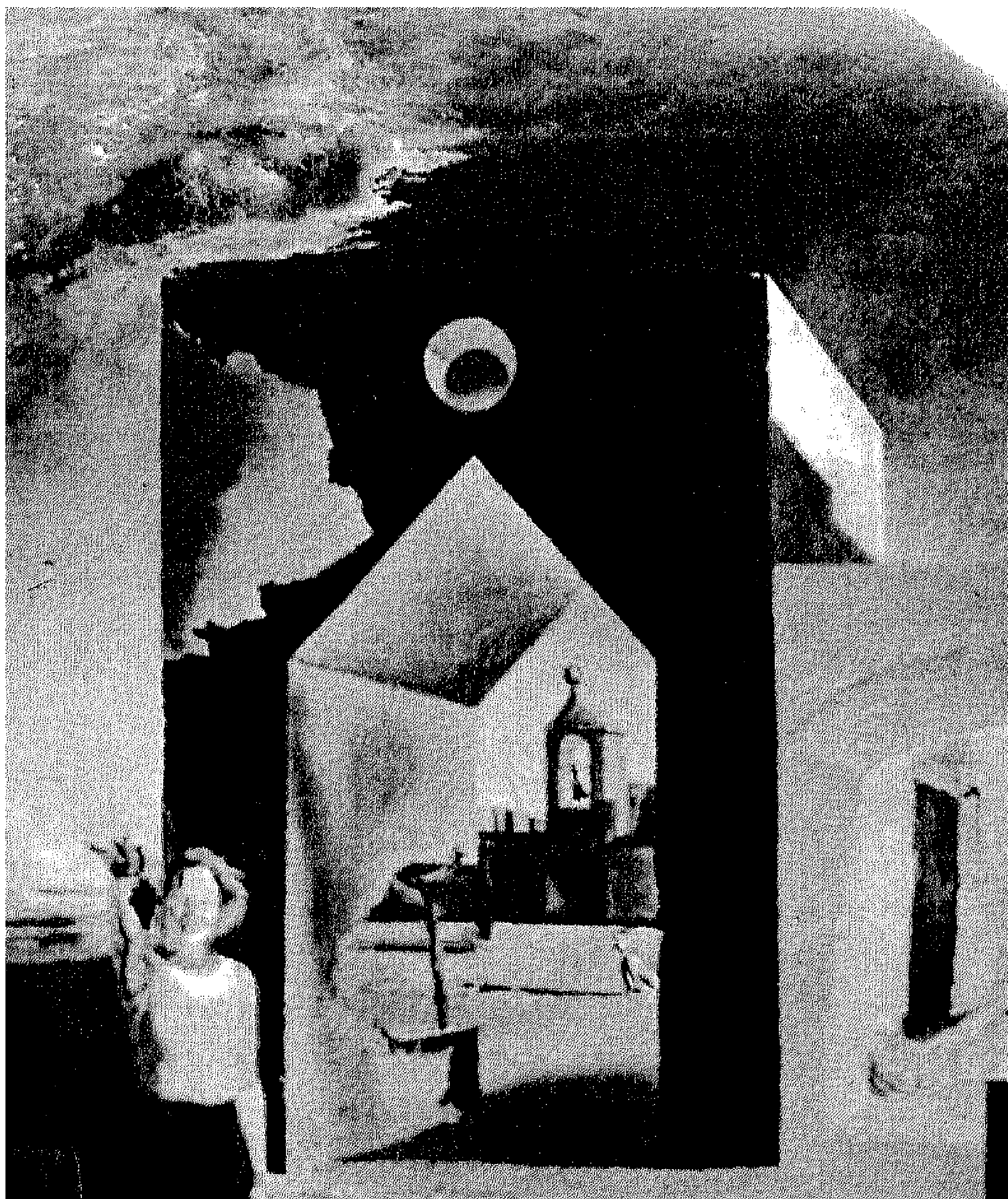
لوحة معبرة تشمل رموزاً مستوحاة من الواقع ،١٩٥٠،



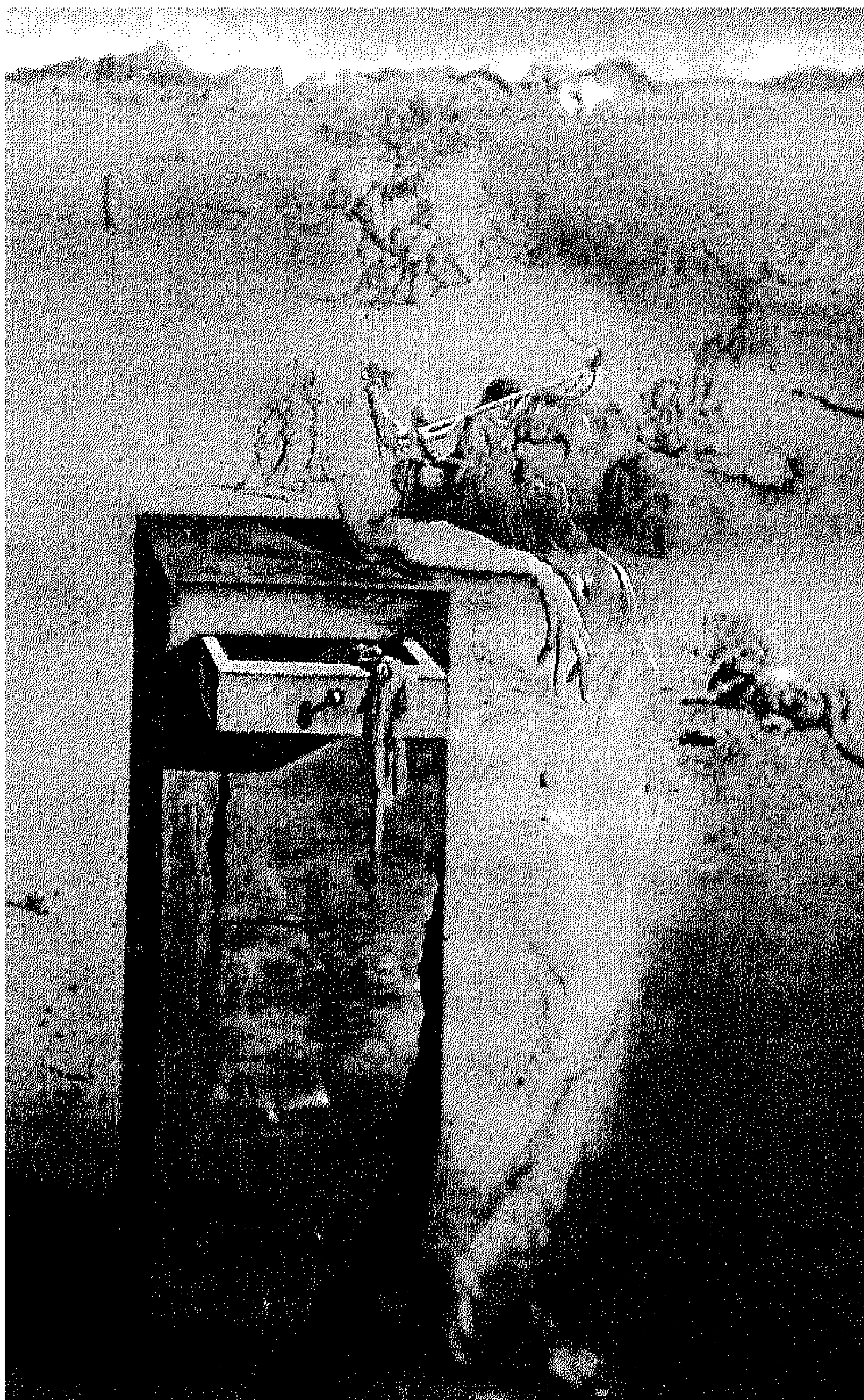
مولد رغبات متدفقة وهي
لوحة تكشف عن عالم غريب ،١٩٣٢،



جذع امرأة مستلهم من الخزف الملون ،١٩٣٣،



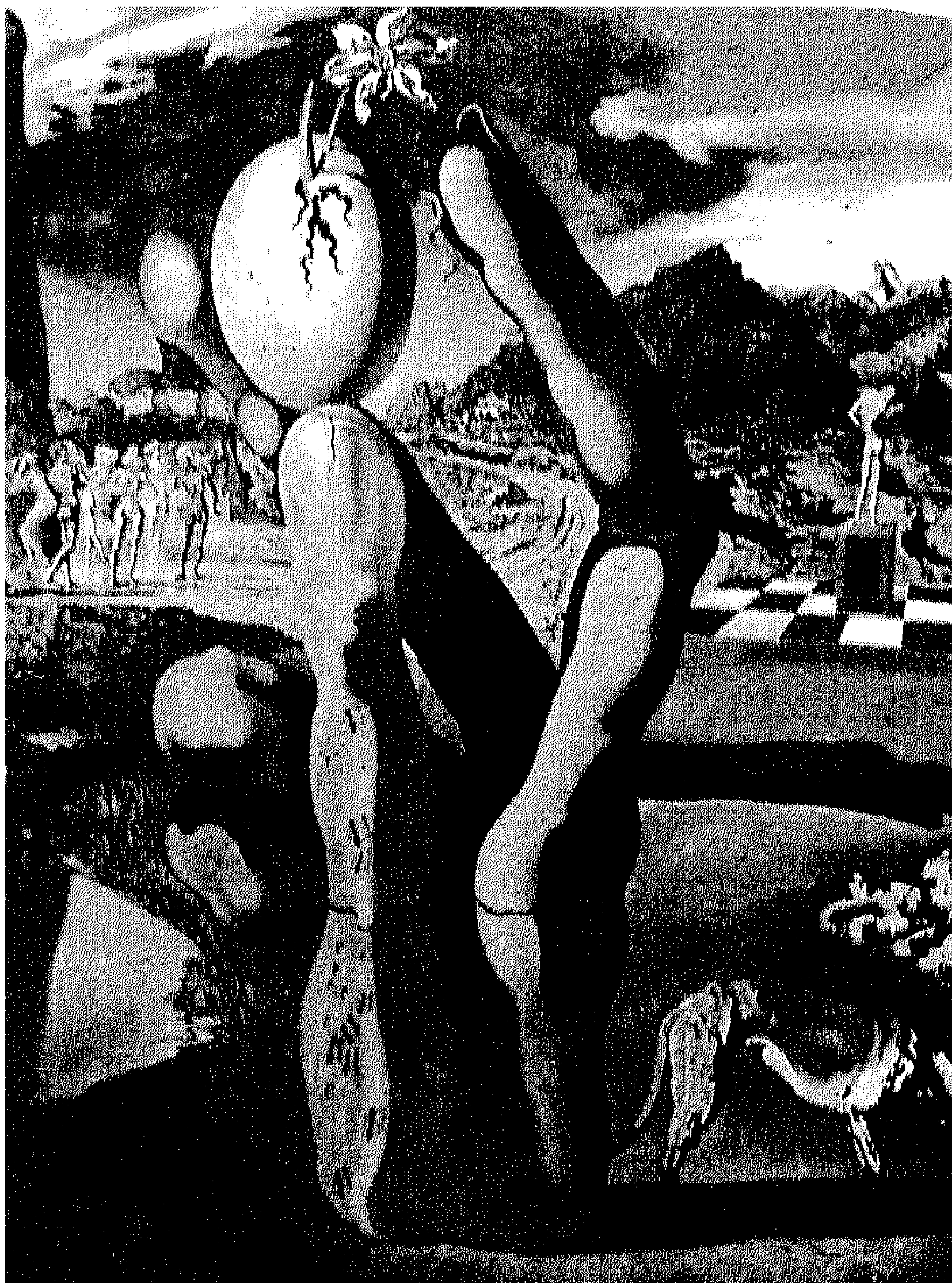
مشهد للهوس الانتقادى ،١٩٣٦،



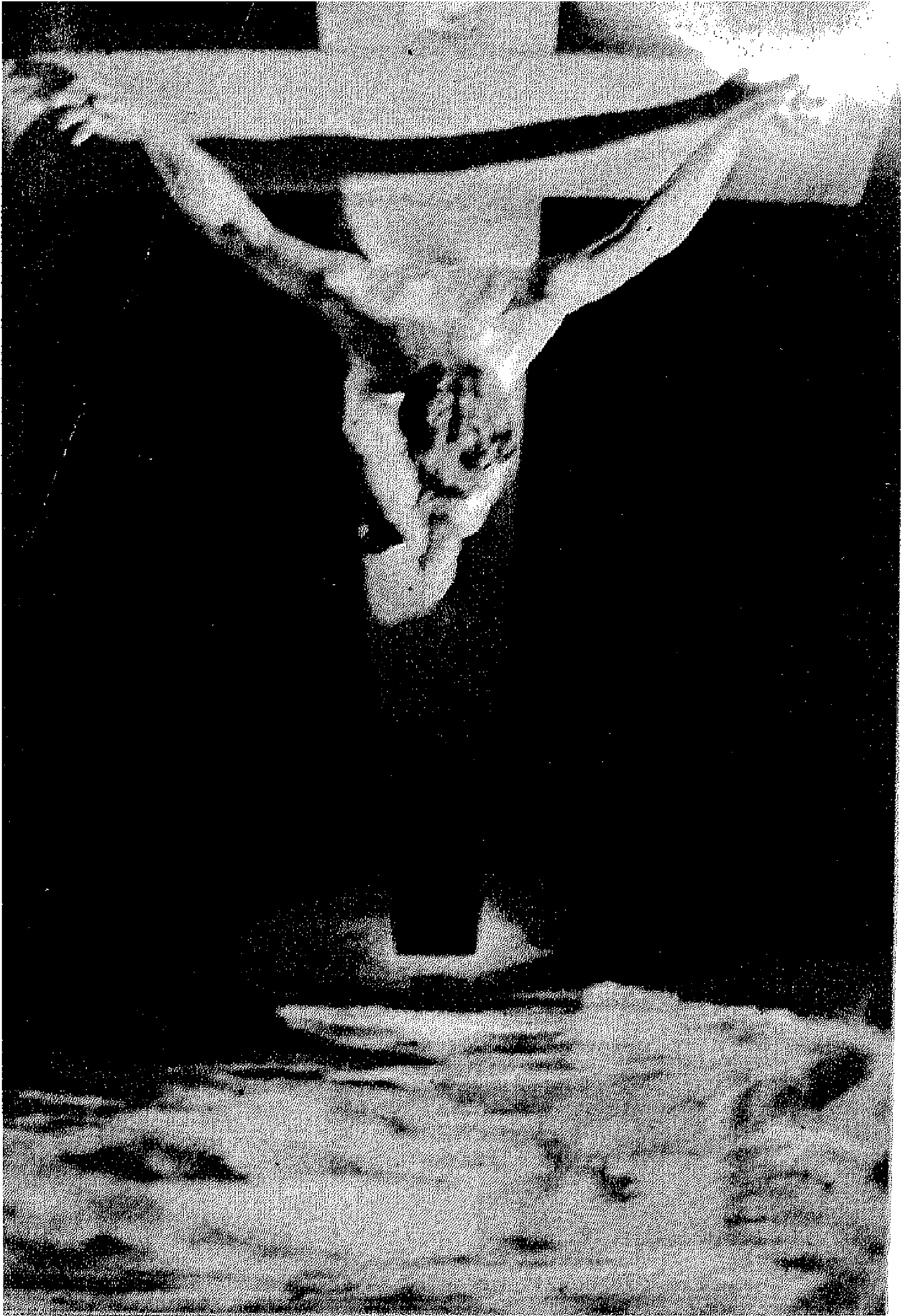
اسبانيا ،١٩٣٨،



شبح فارس المائدة (فيرسر) ،١٩٣٤،



مسخ فرسيس، ١٩٣٧



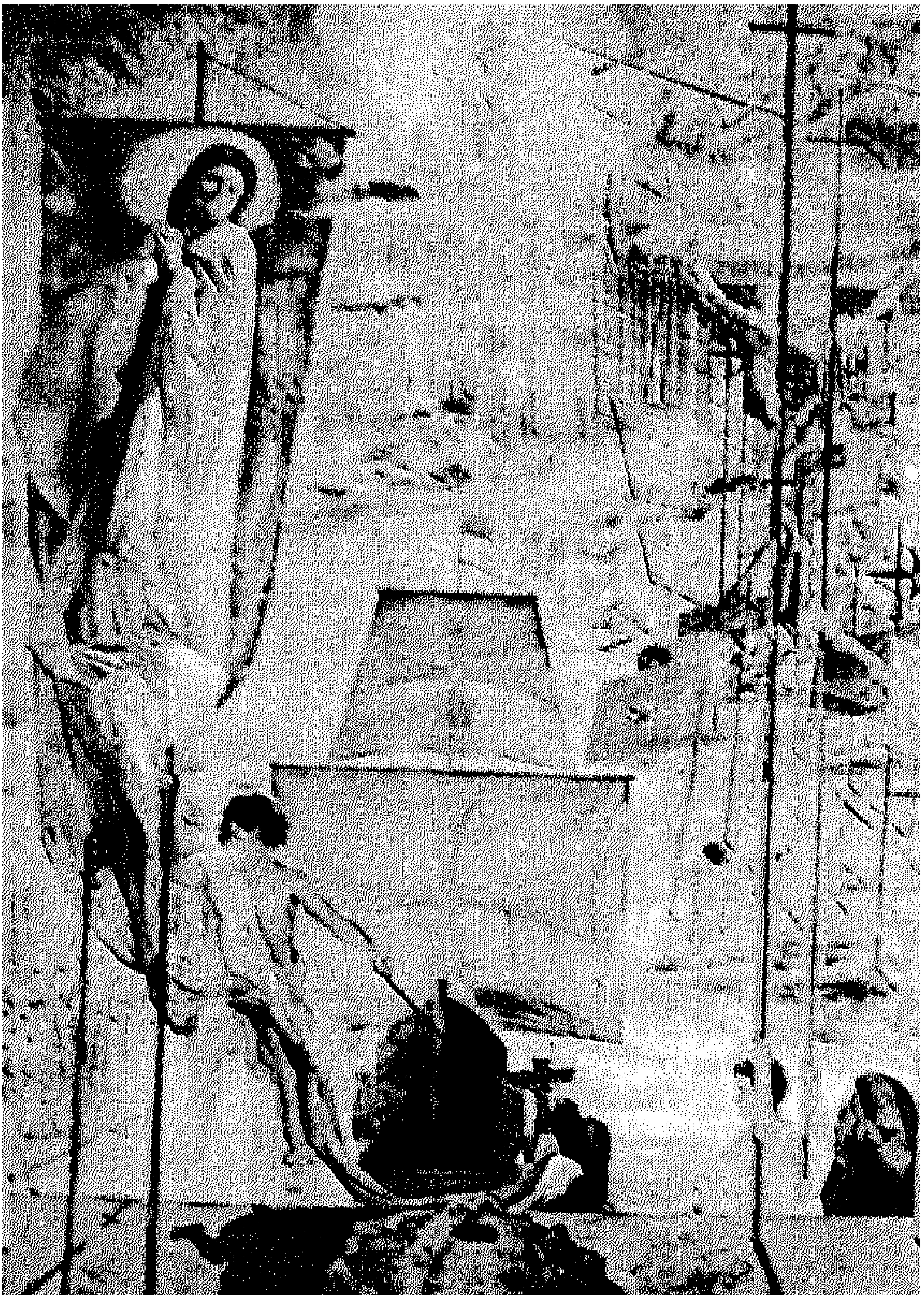
صلب المسيح ،١٩٥١،



وليم تل ، ۱۹۳۰



هواجس الحرب الأهلية، ١٩٣٦،



حلم كريستوفر كولمبس، ١٩٥٨،



حلم سببه طيران النحل ، ١٩٤٤ ،



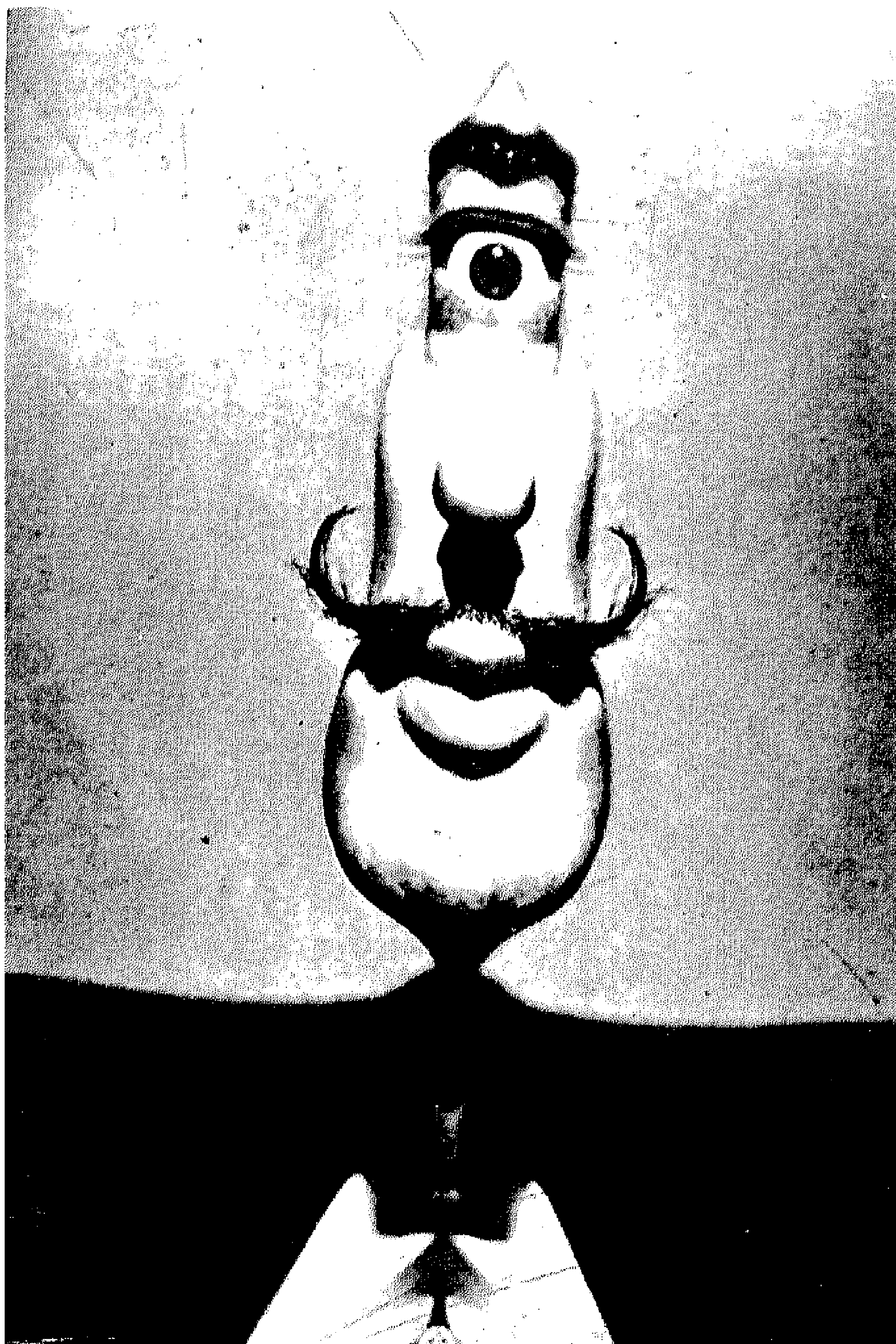
لوعه، ١٩٣٦،



دالی، ۱۹۸۱



عندما أصبح شارب دالي عقارب ساعة



دالى كما صوره الفنان فيليب هيلس مان

فهرست

ص

رقم الإيداع
٩٥/٣٥٢٤
I.S.B.N
977-07-0388-5

هــذا الكتاب

يُعتبر سلفادور دالى أكثر الفنانين شهرة وشعبية فى القرن العشرين، وقد تساءل الكثيرون عن سبب هذه الشعبية : هل هى بسبب امتيازه كفنان ، أو لأن خياله الجامح يلقى قبولا من الجميع ، أو لعبقريته فى الدعاية عن نفسه، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة ؟!

هذه اليوميات تجيب عن عدة أسئلة حائرة دارت حول الظاهرة الدالية ، علاقته بالسرياليين ، تطور تكنيكه وأسلوبه الفنى ، وعذاباته كرسام يتشوق للكمال ، وأفكاره حول الجمال والأخلاق والفلسفة وعلم الأحياء ..

إنها صورة رسمها لنفسه كفنان عبقرى مجنون.

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

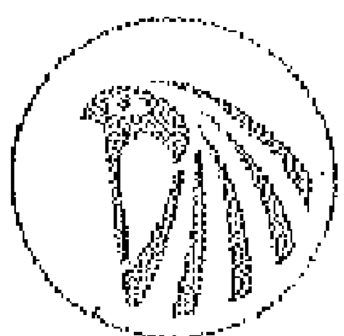
● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

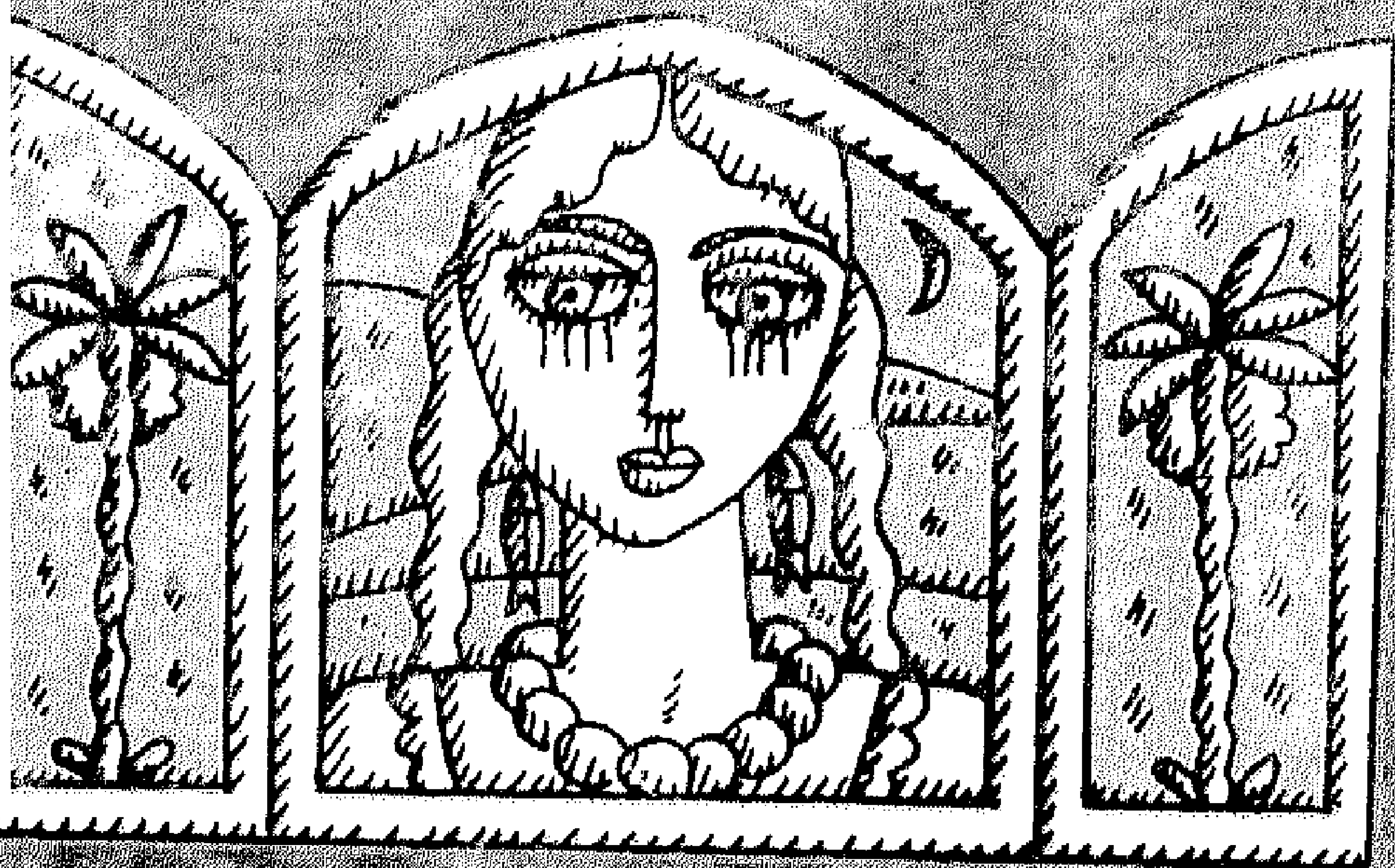
الكويت السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

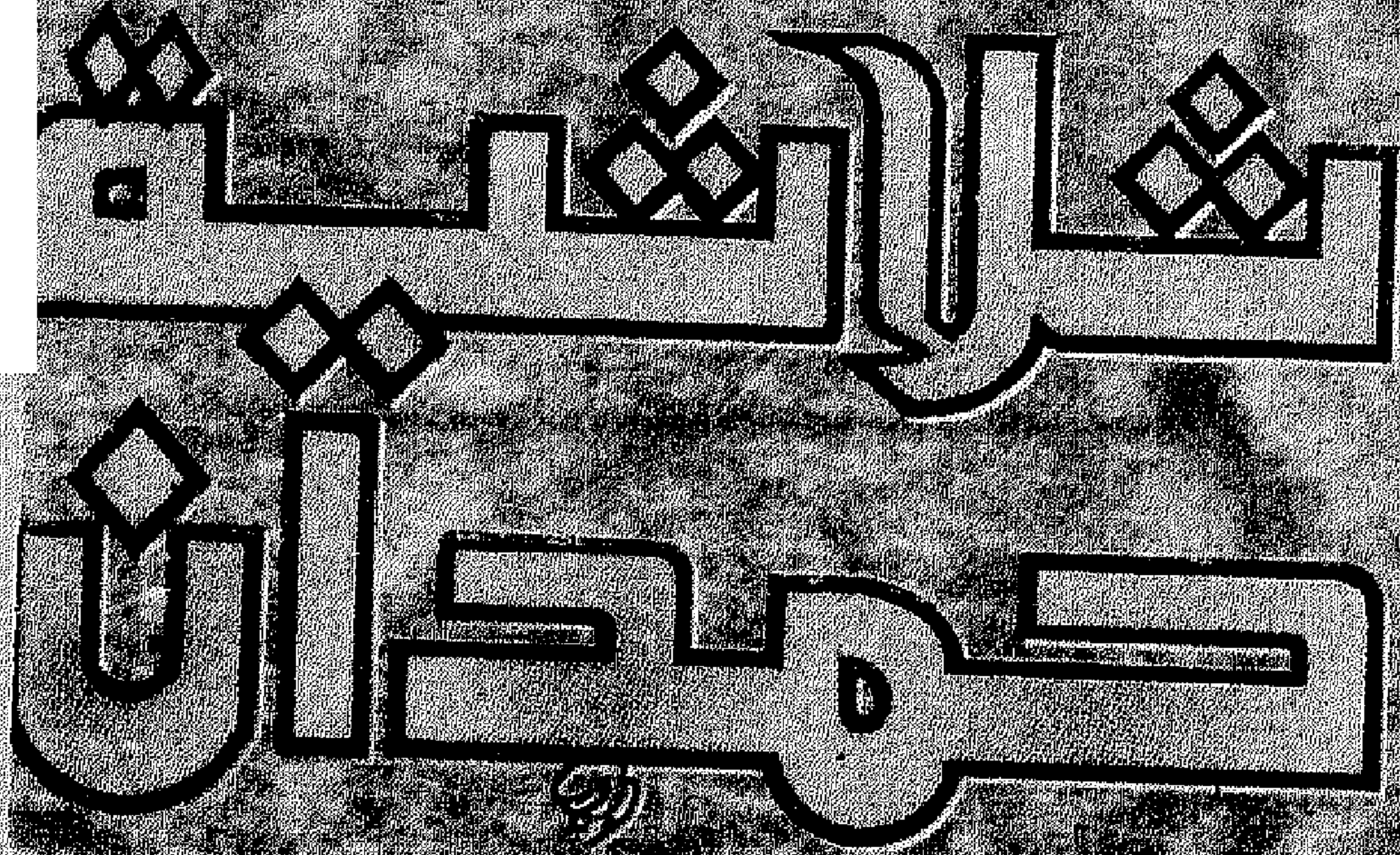
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

مصر للطيران

أهلاً بكم فى عالمنا


مصر للطيران





د. عمر الفاروق



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No - 533 - Ma - 1995 العدد ٥٣٣ ـ ذو الحجة ـ مايو ١٩٩٥

FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٧٠ ليره ـ لبنان ٩٢٠٠ ليره ـ الأردن ٣٧٠٠ فلس ـ الكويت ٢٠٠٠ فلس ـ السعودية ٢٥ ريالاً ـ تونس ٤ دينارات ـ المغرب ٤٠ درهم ـ البحرين ٢ دينار ـ الدوحة ٢٠ ريال ـ دبي وأبوظبي ٢٠ درهما ـ سلطنة عمان ٢ ريال ـ غزه والضفه والقدس ٣ دولارات ـ لندن ٤ جك .

ثلاثية حمدان

د. عمر الفاروق

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمي التوني

الإهـــداء

إلى حمدان

في ذكراه الثانية

أبريل ١٩٩٥

مقدمة

مصر .. العالم العربى .. العالم الإسلامى .. تلك دوائره الثلاث الأثيرة ..، وهى أضلاع مثلثه .. وجوانب هرمه .. وأبعاد ثلاثيته المنسوجة ، توحد بينها رؤيته الشاملة .. وتجمعها فى سياق متدرج متواصل ، وتضمها مترابطة .. رغم تباعد كتاباته عن كل منها .. بفواصل زمنية طويلة ، مثل بذرة واحدة تنمو .. وتتجلى فى ثمار عديدة ، وتبقى محتفظة وهى ناضجة .. بذات نكهتها الأصيلة ، هل البذرة رؤيته ؟ أم منهجه ؟ أم موضوعه ؟ أم هى الثلاث جميعا .. مبطنة بعاطفته المشبوبة .

فرؤيته سارية بها .. تضيئها وتشحنها بالطاقة ، رؤية تصيغها جماع قوة (الوطنية × القومية × الحضارة) .. وتطهرها من التناقض ، فقد ثبت أن تغليب أى منها .. إنما يهددها جميعا ، ويحولها إلى عملية طرح وقسمة .. بدلا من مجموع قوة متصاعد ، فالوطنية .. ليست إقليمية شوفينية .. بمقدار ما تتداخل فى القومية وتتدامج (لا ازدواجية ولا تناقض بالتأكيد .. وإنما قطبان لمتصل مدرج واحد

Continuum ، ولعل المطلوب ليس تذويب الوطنية في القومية .. بقدر ماهو تزويدها بها) .. ويؤكد (ليس مما يضير القومية .. أن يكون لكل وطن داخل إطارها .. شخصيته المتبلورة .. بدرجة أو بأخرى .. داخل الاطار العام المشترك ، فهذا التنوع يثريها ، ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد) ، ويوصى (الواقع أن على القومية أن تحترم الوطنية وتقرها .. بمثل ما أن على الوطنية أن تعترف بالقومية وتقر بها ، ففى البدء كانت الوطنية .. ثم اتسعت وامتدت ونمت إلى القومية ، والقومية بدورها تبدأ ببيتك .. بالوطن ، فأنت لا يمكن أن تكون قوميا . طيبا .. دون أن تكون وطنيا بارا ..، حمدان) .

وينتقل إلى متصل القومية/ الدين . يطهره من الألغام المدسوسة .. "لا تناقض بين القومية والدين ، وإنما يبدو التناقض ظاهريا .. حين تختلط الأدوار في خضم التاريخ والسياسة ، فالقومية .. ثمرة الشخصية الإقليمية .. لمنطقة من العالم .. (أى وحدة الشخصية لأرض وقوم معا .. بما يهيؤها للوحدة بالمعنى السياسى) .. أما الدين فحضارة وثقافة .. تتجاوز الوحدة الاقليمية فى إطارها الجغرافي .. وذلك بمقدار انتشاره .. فوق عدد منها .. متنائية المسافة ومترامية المساحة ، بما يجعل منه إطارا .. يتجاوز الوحدة الاقليمية بالضرورة ، وإذا كانت الشخصية الإقليمية تهيىء للوحدة .. فإن الإطار

الحضارى يدعو للتواصل ، وإذا كانت للوحدة مراحلها .. فإن للتواصل درجاته ، وتتحدد الغاية .. فى الوصول بكليهما (الوحدة + التواصل) إلى أعلى مرحلة .. وإلى الدرجة القصوى المتاحة ، ويمكن القول أن كتابيه عن العالم العربى والعالم الإسلامى .. قد وضعا من أجل ذلك .

هذا فيما يتصل برؤيته .. أما بالنسبة لمنهاجه .. فإنه متشابك متعدد المداخل ، غير أن تكرر عناصره فى دوائره الثلاث .. يمنحها نسيجا متقاربا .. من حيث البناء والخصائص ، تتوجه جميعها للكشف عن الشخصية الاقليمية لكل منها .. بكل ما تنطوى عليه من جوانب القوة ونقاط الضعف .. بمثابة الهدف النهائى .. (إن تكن الجغرافية فى الاتجاه السائد .. بين المدارس المعاصرة .. هى التباين الأرضى Areal differentialion أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض .. على مختلف المستويات ، فمن الطبيعى أن تكون قمة الجغرافية هى التعرف على شخصيات الأقاليم Regional Personality ، وإذا كان الاقليم بهذا التعريف .. هو قلب الجغرافية .. فمن المنطقى أن تكون الشخصية الاقليمية هى قلب الاقليم .. ومن ثم بيقين أعلى مراحل الفكر الجغرافى ... حمدان) .

ومن هنا استناده الأساسى للمنهج التاريخى ، باعتبار أن للشخصية جذورها التاريخية بالضرورة ، خاصة بالنسبة لدوائره (مصر ، العالم العربى ، العالم الإسلامي) بورائها التاريخى المترامى ، ومن ثم يؤكد دائما .. (أن الزمن يمثل البعد الرابع للإقليم ، كما أن التاريخ البعد الرابع للجغرافية ، حمدان) ، ذلك أن الجغرافية الحالية لاقليم ما .. هى محصلة جغرافيات الماضى ، بصيغة أخرى .. فإنه لا جغرافية بلا تاريخ ، فالتاريخ منجم ثرى للجغرافية .. لا ينضب .. كما أن التاريخ بلا جغرافية .. (أشبه بروح هائمة .. بلا جسم تقر وتستقر فيه) ، ومن هنا جميعا تصبح الجغرافية التاريخية عنصرا جوهريا فى دراسة الشخصية الاقليمية .. لأنها بإيجاز .. (متوسط التاريخ مضروبا فى جذر الجغرافية ، حمدان) .

ولأنه يرفض أحادية Monism التفسير .. فإنه يقرن مابين التاريخ والايكولوجيا عند التحليل .. ويعرفها .. (الايكولوجيا هى علم العلاقة بين البيئة والإنسان) ، بما يمنحها ـ أى تحليلاته ـ صلابة الأساس .. وواقعية السياق ، وتمسى تفحصا لجدلية العلاقة بين الطبيعة التى تهب وتمنع .. والبشر بمهارات التفاعل والاضافة والتشكيل ، وليس صدفة أن أغلب من درسوا الشخصية الإقليمية من

الجغرافيين .. إنما دخلوها بالجمع بين المنهجين .. ويضيف بالنسبة لنفسه .. (وإنما نحن نغترف بحرية من عناصر المنهجين ، لننتخب الحقائق الدالة .. فنأخذها ونصبها .. بعد تصنيعها تصنيعا جغرافيا جذريا .. في قوالبها الجغرافية الصارمة والواجبة .. أنماطا وأدوارا وقيما إقليمية محددة وأصيلة) ..

ومن بعد التاريخ والايكولوجيا .. من بين المناهج الجغرافية العديدة .. يختص المنهج الإقليمى باهتمامه (أو الجغرافية الإقليمية الخاصة .. Spe- cielle Geographie .. والتى هى بالضرورة .. مصب ومجمع ونهاية وقمة الجغرافية جميعا ، وتنقسم منهجيا إلى الجغرافية الإقليمية الداخلية والخارجية ، الأولى تحليلية .. فيها نشرح كائنا عضويا ضخما Macro - organism إلى أعضائه الدقيقة Micro - organism .

أما الثانية ـ الخارجية ـ فتركيبية أساسا .. تعالجه كإقليم واحد ، تبغى التعرف على مكانه وخصائصه وهيئته .. ودوره في العالم الواسع ، وهى بهذا تحاول أن تضع عالما صغيرا نسبيا Microcosn فى مكانه الدقيق والصحيح من عالم أعظم Macro - cosm ، حمدان) .. أى مصر من العالم العربى .. والعالم العربى من العالم الإسلامى ..

والعالم الإسلامى من العالم ؛ متبعا في ذلك المنهج المقارن .. سواء لتحديد أوجه التشابه أو جوانب التناقض ، فبضدها تعرف الأشياء .. أيضا ، وبالمقارنة تمنح المنطقة عمقا ومنظورا .

ويشير إلى المنهج التطبيقى .. فى سياق تحديده لجملة ما اتبعه من مناهج .. تعددت مع اتساع مشروعه .. (وظفت فيه معظم المناهج .. استجابة لتعدد العناصر .. وتنوعها الكيفى من حيث الطبيعة ، الأصولية والاقليمية ، الطبيعية والبشرية ، الكيفية والكمية ، المجهرية والملحمية البحتة والتطبيقية .. وغير ذلك) .. ويؤكد بالنسبة للمنهج التطبيقى .. (حيث المستوى التطبيقى لا يقل أهمية عن المستوى النظرى الأكاديمى باعتباره يتعرض بالتقييم والتقويم .. لنقاط القوة والضعف .. التى تتكشف في الشخصية الاقليمية ، وهى حلقة الوصل إلى التخطيط ورسم السياسة الاقليمية والاستراتيجية القومية) ، ويفيض فى توضيح أهميتها .. (واليوم أصبحت السياسة جغرافية .. أكثر من أى يوم مضى ، ذلك لأن السياسة أضحت الآن فن الأشتغال بالمستقبل) .

ولقد كان حتما لا صدفة .. أن يبزغ علم المستقبلية Futurology.. بعد علم التخطيط ، ومن جانبها .. فإن الجغرافية .. وإن تكن نظريا .. فلسفة المكان .. فإنها

تطبيقيا .. هندسة المكان وما التخطيط الإقليمى ببساطة .. إلا هندسة إقليمية ، كما لا تقل عن ذلك ضرورة بالنسبة للمشكلات .. فى مجالاتها جميعا ، والتى تقتضى التركيز على الجوانب العملية والتطبيقية والتخطيطية وهى تبحث عن الحلول والعلاج ، سواء فى مجالات الانتاج والموارد أو الاستهلاك والتوزيع أو السكان والمدن ، أو النقل والمواصلات ، أو الاستراتيجية والدفاع الوطنى والأمن القومى ، حمدان) .

ويختم اشاراته إلى مناهجه .. بما يشحنها جميعا بالحيوية .. ويخلصها من جمودها التقريرى .. (لقد وُظفت كل مناهج الجغرافية ولواحقها .. فى خدمة جغرافية الحياة ، جغرافية الحياة اليومية والأشياء ، كيما تضفى الحيوية والأهمية والاهتمام .. على الحقائق الجامدة الصماء .. وتحيلها حية نابضة ناطقة ، ومن أجل هذا .. حاولنا عمدا أن ننظر للاقليم نظرة لاندسكيبية بالتحديد .. تدعو إلى الرؤية والحس المباشر ، فمن الثابت أن المنهج اللاندسكيبى .. الذى يعالج الاقليم كظاهرة مرئية وملموسة Visible et tangible يضفى على الدراسة حياة وحيوية ومعايشة ، قد تفتقدها بغير ذلك ، حمدان) .

والواقع أن هناك ما يجمع بين دوائره أيضا .. من حيث زوايا التناول ، فهى تبدأ فى كل منها بأركان الأساس الطبيعى ، من القاعدة الجيولوجية إلى خطوط السطح ، ومن الموقع الفلكى إلى النظم المناخية والنباتية ، ومن المياه الى التربة .. وغير ذلك ، بحيث تؤدى إلى تفهم الوجه الطبيعى من شخصية كل منها .. ثم يعود فيعتصر هذه الأركان .. فى معادلة .. تلخصها جميعا .. بمثابة شفرة .. تفسرها جملة وتفصيلا .. يستخدمها مرارا وتكرارا .. بما يثبت فاعليتها وصدقها الموضوعى .. (ولئن حق لنا أن ندرس كل وجه من وجوه الشخصية الإقليمية .. إلى أدق الدقائق ، فحق علينا أن نتجاوزها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات ، لتمسك روح المكان .. وتجسدها فى احكام .. وتستقطرها فى معادلة .. أو ما يشبه ذلك ، حمدان) .

ومن الأساس ينتقل إلى البناء ، متمثلا فى الغطاء البشرى (السكان + العمران) ومجالات النشاط الاقتصادى (الزراعة ، الرعى ، التجارة ، الصناعة) .. وغيرها .. وما يتداعى عنها من علاقات وتفاعلات ، منتهيا إلى بنيتها السياسية .. كذروة لبنائه الموضوعى المتدرج المتصاعد ، باعتبارها محصلة أو مرآة مجمعة .. لوجوهها جميعا ، وفى جميع المراحل .. وبالنسبة لكل دائرة .. يطرح

معادلاته وشفراته ومفاتيحه ، هذه التى تكون فى حد ذاتها .. سياقا قائما بذاته ، يعود فيجمعها فى خيط واحد .. بقدر ما يفصح عن قسمات شخصيتها الإقليمية .. بقدر ما يكثف قوتها العامة ، هذه التى يتخذ من ايجابياتها وسلبياتها .. محاورا لتقديم توصياته .. تدعيما وعلاجا ، بما يمكن معه اعتبارهما (القوة العامة + توصياته) .. الهدف النهائى من بنائه الهرمى لموضوعاته .

ولا يعنى ذلك .. أن هناك قالبا ثابتا .. يصب فيه دوائره .. ويشكلها على غرار متكرر جامد ، فذلك ـ كما سيأتى عند عرض كل دائرة تفصيلا ـ أبعد ما يكون عن تحليلاته .. هذه التى يطلقها .. (فى نظام فكرى ونسق منهجى ومعمار بنيوى .. يتفيأ الأصالة والخلق والجدة والابتكار أساسا) .. وإنها يقينا لرحلة شاقة .. إلا أنها شيقة ، وعرة .. غير أنها واعدة .. مجهدة .. ولكنها بالقدر نفسه مجزية (وإن كان الحكم .. فى هذا متروكا بالطبع للقارىء) .. هكذا يقرر دائما فى تواضع .. وهو يقدم أو يختم مؤلفه .. عن كل دائرة من دوائره الثلاث الأثيرة .

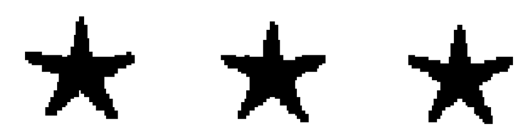
حمدان فيلسوف المكان

لم يكن يختار السهل .. إذا خيّر ، تؤهله قدراته للصعب .. مشحوذة بالتحدى ، لا يلتفت للقشور .. يعنيه اللب ، يرتقى الأعلى ـ وينفذ للجوهر ، يستهويه "الأقليم" .. لأنه الأعقد .. قابل للفحص .. بما يرضى رؤيته الشاملة ، لا يعرضه بالوصف .. فذلك الأسهل . وإنما ينقب عن شفرته وسره .. هذه التى تتكامل حروفها .. على طول تاريخه وعرضه ، يراه مركّبا فى بنية كلية Holistic متدامجة ، قد تداخلت شرائحها الطبيعية والبشرية والاقتصادية .. منطوية على ارتباطاتها المتراكمة ، ويراه عضويا حيا .. له روحه الغضة ، متفاعلا داخل ذاته .. ناميا بذاته وبالتواصل مع غيره .. مثمرا ثقافته ، وهذه بالضبط عبقرية الأقليم فى نظره ، عبقرية تتجلى فى خصوصية ثقافته .. وعملية تكونها ، وتتمثل فى نسيجها الوظيفى .. وتجسيدها لشخصية المكان .. طبيعته وبشره ، بغض النظر عن مستواها ومكوناتها ، فالعبقرية تكمن فى العملية وما تنتجه .. أما نوعية الثمرة .. فلها مقاييسها الأخرى ، تلك نظرة حمدان ونظريته أيضا ، وهى ما طبقها على مصر .. باعتبارها نموذجه الأثير والأمثل ، ولأن عليه أن يبدأ بوطنه Home Geography على حد قوله ، فكل شبر من أرض مصر .. يقتضى تغطيته ببحث مكثف ، فكيف ينصرف عنها .. قبل أن يستقطر جغرافيتها وتاريخها .. ويميط اللثام عن عبقرية شخصيتها ، هكذا كان اختياره .. وربما أيضا قدره .

(يحاول الكتاب أن يرسم صورة عريضة .. ولكن دقيقة بقدر الامكان لشخصية مصر ، ومصر لاشك موضوع مثالى لذلك ، نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود والتقاطيع ، ولما تملكه من تاريخ ألفى حافل ، الغريب فى الأمر ـ مع ذلك ـ أن مصر جغرافيا بالمقاييس العلمية العالمية الرفيعة .. ما تزال إلى حد بعيد "أرضا بكرا" .. ولا نقول "أرضا مجهولة" على المستويين الأكاديمى المتخصص والثقافى العام ، حقا لقد كتب شىء لا بأس به عن جغرافية مصر بمختلف اللغات خاصة الأجنبية ولعلماء أجانب غالبا ، إلا أنه على قيمته وخطره .. مجرد نواة متواضعة نسبيا أو شظايا متناثرة هنا وهناك ، والكل لا يعدو قطرة من محيط .. إذا كان المستهدف مكتبة جغرافية وطنية بالمعنى العالمى ، وليس فى العربية حتى الآن مرجع علمى واحد عن جغرافية مصر ، مرجع جامعى أو فوق جامعى جدير بالكلمة ، هذا أكاديميا .. أما على مستوى الثقافة العامة .. فإن الحصاد بائس .. إن لم يكن حصاد الهشيم .

ولا عجب بعد هذا ما نرى ونلمس من تخبط التخطيط ، وإحباطه وإجهاضه فى عديد من المجالات وعلى معظم المستويات ، إذ لا تخطيط البتة أيا كان نوعه بلا جغرافية ، ثم فى ركاب التخطيط الفاشل .. هل من مفر أن يسير أو يستمر التخلف المادى والاقتصادى والحضارى العام ؟، دع عنك بعد هذا تردى سياستنا الخارجية وتدهورها ، إن ثقافتنا الوطنية من أسف قاصرة محدودة ، وحتى عند ذلك فنحن

نأخذها بطريقة عاطفية فجة أكثر منها علمية ناضجة ، ونحن ـ حرفيا ـ ندفع لذلك كله ثمنا باهظا فى كل جوانب ونواحى حياتنا بلا استثناء ، ومن ناحية أخرى .. فإننا قط لم نكن أحوج مما نحن الآن إلى فهم كامل معمق موثق لوجهنا ووجهتنا ، لكياننا ومكاننا ، لإمكانياتنا وملكاتنا ، فمصر بحاجة أكثر من أى وقت مضى إلى إعادة النظر والتفكير فى كيانها ووجودها نفسه ، وبالعلم وحده فقط .. لا الإعلام الأعمى ولا الدعاية الدعية ولا التوجيه القسرى المغرض .. يكون الرد ..) . (شخصية مصر .. ص ص ١٨ ـ ٢٠) .



باعتزال حمدان الجامعة .. أصبحت سيرته بالضبط هى ما كتبه ، ومهما تعددت الآراء بشأن اعتزاله (بما قد يقتضى دراسة أخرى) . فسيبقى فى جوهره .. تعبيرا عن مجمل فكره ، لم يكن بداية انسحابا .. بل اعتزالا ، بل اعتصاما بنقطة أعلى ، يتأمل منها الواقع فى شموله .. ويصوب منها نيران عقله ، فقد أدرك منذ الأزمة الجامعية الأولى .. أن ما ينتظره بعدها أكثر ، فالساحة الضيقة لا تناسبه .. وهو لا يتقن شراكها ، فأداته الرئيسية قلمه .. وهل يحطم القلم فخا ؟ فنأى عاليا منها .. وشرعه ، دون أن يكون الثأر هدفه ، فكما تحرر من الساحة .. حرر نفسه من نوازعها ، وتفرغ واهبا نفسه ، بشجاعة نادرة يكتب .. معتذرا أنه لم يكن أشجع ، ملتزما ألا يغادر موقعه .. إلا بعد أن يزول وجه مصر

القبيح نهائيا ، وكذلك وجه العرب الكالح القمىء المتنطع (جـ ٤ ، ص ٦٣١) ، هو لا يعتذر خوفا على سلامته أو حتى حياته ـ ولكن حرصا على أن يصل للناس ما يكتب ، وكل لبيب بالإشارة يفهم .

وقبل أن يعتزل .. كان قد نشر .. ما لفت إليه النظر .. من أول وهلة ، خاصة مؤلفه المرموق "دراسات فى العالم العربى" .. الذى نال عنه جائزة الدولة (١٩٥٩) ، ويدل وعده عن دراسات مقبلة تكشف "عبقرية الحضارة العربية" ، على اهتمامه الفكرى المبكر بمشروع "عالم عربى موحد" .. اهتماما لم يخفت قط نبضه ، مقترنا برفضه .. "للمشروع الإسرائيلى" .. التى اعتبرته يوما عدوها الأول ، وقد أكد بعد ذلك خطه الفكرى تجاهها ، وفند دعاواها العنصرية فى كتابه "اليهود أنثروبولوجيا" ، وبقى يرفضها .. فلم يكن عقله يقبل بأنصاف الحلول مطلقا ، ويرى كل ما طرأ بشأنها .. مجرد تغيرات انقلابية محزنة ومخزية ، جعلت من التفكير العلمى سخرية ، وحولت نتائجه الصلبة إلى هراء .. تذروه رياحها الفاسدة ، ولكنها ليست سوى جولة وزوبعة (جـ ٤ ، ٦٣٣) .

ورغم قلة المعلومات عنه خلال فترة بعثته (بريطانيا ١٩٤٩ ـ ١٩٥٣) ، سوى ما يتصل بألمعيته الفذة .. التى أقر بها أساتذته ، وانتهت برسالته "سكان وسط الدلتا" Mid - Nile Delta Population .. التى حصل بها على درجة الدكتوراة ، إلا أن الواضح أن استغراقه الأكاديمى فى

إعدادها ، لم يشغله عن رصد تغيرات عالم ما بعد الحرب الثانية حوله ، خاصة ما يتصل بانحسار الاستعمار التقليدى .. لحساب حركة التحرر الوطنى الصاعدة ، رصدا وجد رصيده داخل نفسه ، خلال معايشته فورة الوطنية المصرية .. ضد الاستعمار البريطانى .. طوال سنوات دراسته فى الجامعة (٤٤ ـ ١٩٤٨) ، وأثمرت من بعد ثمارها الناضجة .. فى كتابيه "استراتيجية الاستعمار والتحرير" ، و"افريقية الجديدة" .. وغيرهما من المقالات فى الدوريات المتخصصة ، أفصحت عن منهجه فى الدمج بين الجغرافية والتاريخ فى بنية واحدة ، تظللها الفلسفة ، كما تجلت فى الباب السادس من "شخصية مصر" (الفصول ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ص ص ٦٠٣ ـ ٧٨٣) .. فى رؤية ثاقبة وصياغات محكمة ، تكشف أبعاد الجانب السياسى .. من هذه الشخصية المركبة ، متطلعا إلى "النظرية العامة" .. التى تحكم وجودها واستمرارها وبقاءها ، تطلعا يمكن متابعة جذوره عند بعض أساتذته .. خاصة عباس عمار وسليمان حزين .. فى أعمالهما المبكرة ، ويظهر حمدان وقد تجاوزها بعد ما امتصها وتشرب بها ، مستندا فى وثبته إلى ثقافة متنوعة .. ورؤية نافذة ، فضلا عن لغته الثرية بمستوياتها وايقاعاتها .. التى تعود لموهبته المتفردة ، بما جعل منها علامة أسلوبية .. تدل عليه وإن لم يوقع تحتها باسمه .

والمرجح أن فكرة مشروعه الخاص عن "شخصية مصر" .. قد ولدت أثناء اعداد رسالته ، يدل على ذلك إطلاعه

الواسع على أدبيات المؤلفات السابقة .. عن شخصيات الأقاليم والدول ، وخاصة ما كتبه ما كيندر وفوكس عن بريطانيا ، وما كتبه لا بلاش عن فرنسا .. فى مقدمة كتاب عن تاريخها ، إطلاعا عامدا منقبا يعود عصبه .. إلى بحث مصر أنذاك عن هويتها .. وتوقها إلى استعادة روحها ، بحثا تعود منابعه إلى الحملة الفرنسية .. ونهضة محمد على من بعدها ، وتوقا تأجج بعد ثورة ١٩١٩ ، وارهاصاتها فى الثورة العرابية قبلها ، فقد بلغت حيرة مصر أشدها .. خلال عقدى مابين الحربين خاصة ، وطرحت فى ساحتها صياغات متناقضة ومتعددة ، وقدمت الاجابات عن هويتها .. مابين فلسفية وسياسية ودينية ، بل وأدبية وفنية بشتى الصور ، نهل منها حتى ارتوى برحيق عصره ، ثم ألهمته ودفعته للمشاركة ، بعد عودته من بعثته ، مشاركة استهلها بمقالات مكثفة عن "شخصية مصر وعبقرية إقليمها" ، أثارت بأصالتها نقاشا واسعا ، بما قدمته من إجابات .. وأيضا بما طرحته من أسئلة ، ثم توسع على مراحل فى مشروعه .. حتى تجسد سفرا من أجزاء أربعة ، لم ينته منها إلا قبل وفاته بسنوات معدودة ، مخلفا بذلك إجابته الموسعة الناصعة عن شخصية الوطن ، ولكنها جديرة كما أراها أن تكون نافعة ، ليس فقط من حيث ما تسهم به فى الكشف عن هويته .. وإنما أيضا بما تلقيه من ضوء ينير مستقبله .

وبقدر ما ارتوى احتشد ، وتدامج مع كتابه ، وبقدر ما يكشف الكتاب عن شخصية مصر .. يكشف عن مؤلفه ، تنبثق قوته منها .. ويعود ضعفه لضعفها ، وربما آن الأوان لعرض

بعض ما كتب ، خاصة ما يعكس ركائزه الفكرية .. التى وردت مركزة فى الجزء الاخير من سفره ، باعتبارها سارية فيه بدايته إلى نهايته .

● (.. مصر تحتاج إلى فورة حقيقية كل بضعة عقود أو أجيال ، تعيد تقليبها وخضها وتجنيسها ، ثم توجيهها إلى الطريق الصحيح ، بل إنها فى حاجة إلى الفورة الشعبية كشرط للبقاء الحق والحقيقى والوجود الكريم ، أى لكى تعيش ولا تنقرض معنويا وأخلاقيا ، بمثل ما أصبح الحكم الديمقراطى المطلق منذ الآن شرط عدم انحدارها وتدهورها ، أو المزيد من هذا الانحدار والتدهور ..) شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٦١٣ .

● (.. غير أن الديمقراطية كالحرية ، أو ليسا جانبين لشىء واحد ؟ الديمقراطية لا تمنح ولكن تنتزع ، لا تستجدى من الديكتاتور ، وإنما تفرض عليه فرضا بقوة الوعى وفعل القوة وبيد الشعب نفسه ، والانقلاب العسكرى مرض ، فعله المضاد هو الثورة الشعبية . ولقد ولى زمان الحاكم المطلق المستبد .. فى حياة مصر ..) ، جـ ٤ ، ص ٦١٢ .

● (لرحلة مصر على طريق الاشتراكية دربان أساسيان ، الاصلاح الزراعى على مستوى الإقطاع والريف . والتأميم على مستوى رأسمالية المدن ، وتلك كما يقرر مابرو "محاولة أصيلة .. وإن كانت قد تعرضت للنقد بسبب عدم راديكاليتها ..) (جـ ٣ ، ص ٥٩) .

● (.. النتيجة النهائية .. أن مصر حاليا قد أصبحت خليطا غريبا وربما متناقضا من عناصر اشتراكية ليبرالية من رأسمالية الدولة ورأسمالية الطبقة ، أو هى إلى حد آخر بورجوازية باسم الاشتراكية وإصلاح باسم الاشتراكية ، وإصلاح باسم الثورة ، إنه على أفضل تقدير اقتصاد مخلط .

وفى ضوء هذا التحليل .. ينتهى الكثيرون إلى أنه إذا صح أن الثورة أسقطت تحالف الإقطاع والرأسمالية وأحلت محله تحالف العسكريين والمثقفين خلال الستينات ، فإنها فى النهاية وخلال السبعينيات قد أسقطت هذا التحالف بدوره ، وأقامت بدلا منه تحالف العسكريين والرأسماليين ..) (جـ ٢ ، ص ٦٢)

● (.. قمة المأساة بالطبع .. أن الديون تحيل اقتصادنا القومى برمته تابعا خاضعا ، معتمدا على الخارج .. إلى حد رهن الاستقلال الوطنى ذاته ، ومن السخرية أن خير من عبر عن هذه التبعية .. هو روبرت ماكنمارا الذى قال حين كان رئيسا للبنك الدولى أن الشعب المصرى يأكل ٣ أيام فى الأسبوع من جهده ، و ٤ أيام من جهد غيره ..) (جـ ٣ ، ص ١٣٤)

● (.. ولكن يقينا قبل تخطيط الانتاج جميعا .. ألا تأتى منطقيا مشكلة الفاقد فى الإنتاج ، ذلك الفاقد الذى يسخر من عملية الإنتاج نفسها ، مثلما يسخر من عملية تخطيطية قبلها أو بعدها ..) (جـ ٣ ، ص ٢٨٩) .

(.. وأول وأشمل مثلما هو أبسط وأبرز أعراض الأزمة الاقتصادية هو الانفجار الاستهلاكي ، فإن يكن الاستهلاك هو المسئول بعامة عن شيطنة bedevil الاقتصاد المصرى ، فإن الاستيراد هو المسئول بخاصة عن سرطنته ، فإذا ما عدنا إلى نمط الاستهلاك بشيء من التفصيل ، فإن الانفاق الحكومى ابتداء استعراضى ، تحكمه مركبات العظمة والغرور الكاذب ، فبدعوى الكرامة الوطنية يحاكى جهاز الدولة نظراءه فى أكبر وأغنى الدولة ، فى حين أن الدولة نفسها لا تعدو كسرا عشريا وربما مئويا فى القوة والحجم والوزن السياسى والمادى ..) (جـ ٣ ، ص ١٢٢) .

● (.. أما الانفتاح الذى يرادف الانتفاخ ، فقد خلق طبقة جديدة ثقيلة من الرأسمالية العاتية المستغلة والطفيلية غير المنتجة فى أعلى السلم الاجتماعى ، كما خلق طبقة جديدة منتجة ، ولكنها نسبيا مستغلة أيضا فى أسفل السلم الاجتماعى .. من الحرفيين والعمال المهرة ، ارتفعت من القاع بسبب ندرتهم واقتصاد السوق ، حتى الفلاحون بدأوا جزئيا وبطريقة ما يتبرجزون ، على الأقل من تداعيات البترول العربى والانفتاح العربى) (جـ ٣ ، ص ٦٣) .

(.. أما أولئك الذين يرون بأن الارتباط بالغرب وحده .. هو الانفتاح وحده ، فنظرتهم تلك عوراء لا ترى الحقيقة إلا بعين واحدة ، لا ترى إلا أن العالم هو الغرب .. ولا شيء سواه وهى النظرة الاستعمارية التى سادت طويلا ، والتى تركز على

أن الدنيا هى أوربا Euro - Centric ، والآن على أوربا وأمريكا معا Atlanto Centric أو الغرب بعامة - West Centric ..) (جـ ٣ ، ص ١٥٣) .

● (.. النتيجة النهائية .. هى مجتمع طبقى مختل ، طبقات مقلوبة ، وطبقية متميعة ، باختصار فوضى طبقية ضاربة وخلط هيكلى عام وعارم ، وهذا الخلط وهذه الفوضى تحدد ملامح انقلاب طبقى لا ثورة طبقية ، انقلاب اجتماعى لا ثورة اجتماعى ، ومصر فى هذا الرأى .. لم تكن طبقية ولا برجوازية ولا رأسمالية أكثر مما هى عليه اليوم بالدقة ، ولا كانت الفروق الطبقية أوسع وأبرز مما هى عليه الآن قط ، حيث ازداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا أكثر من أى وقت مضى ، وصل عدد المليونيرات فى مصر الآن ـ القطط السمان ـ إلى رقمه القياسى فى تاريخ مصر الحديث ، البعض يقول بضع عشرات من الألوف ، بينما يقدره جهاز الضرائب بنحو ١٥ ـ ١٧ ألفا ، فى حين يصل به بعضهم الى ربع مليون مليونير ، والنتيجة الصافية أو الصافعة فى تقدير هذه المدرسة الفكرية النقدية ، أن مصر فقدت طريقها إلى الاشتراكية ، واختلت بوصلتها الاجتماعية طبقيا ، فالانفتاح إذن هو أعلى مراحل الليبرالية والميول الرأسمالية ..) (شخصية مصر ، جـ ٣ ، ص ٦٤) .

(.. وواقع الأمر أن ما لا تريد مصر أن تذكره ، هو أن النموذج الرأسمالى وقمته الأمريكى .. لا يصلح لها كدولة ، فالنموذج يصلح لمجتمع أو دولة الوفرة ، ولا يصلح لمجتمع أو

دولة الندرة مثل مصر .. والحقيقة .. فى الحساب الصافى والتصفية النهائية ، إن كلا من الانفتاح والانغلاق مطلوب مفيد ، لكن المشكلة هى كيف ؟ ولمن ؟، فالانفتاح مفيد بالتأكيد للأقلية (الساحقة) ، والانغلاق مفيد بالتأكيد للأغلبية (المسحوقة) ، ولذلك فإن الأول تنمية لكنها لا مفر طبقية ، بورجوازية واستغلال باسم الوطنية ، والثانية تنمية وطنية .. ولكن للقاعدة العريضة والجماهير الأساسية ، قدر موزون إذن من الانفتاح والانغلاق ، ونكاد نقول بين الايديولوجيا والتكنولوجيا .. هى الصيغة الملائمة المطلوبة لمصر ..) (جـ ٣ ، ص ص ١٥٦ ـ ١٥٧) .

(.. ومصر بالذات محكوم عليها بالعروبة والزعامة ، فمصر لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها ، أن تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت ، كيف ؟ وهى إذا نكصت عن استرداد فلسطين العربية كاملة من البحر إلى النهر ، وهادنت وحكمت عليها بالضياع ، فقد حكمت على نفسها أيضا بالاعدام ، بالانتحار ، وسوف تخسر نفسها ورصيدها ، الماضى والمستقبل .. التاريخ والجغرافية ..) (جـ ١ ، ص ٤٦) .

★ ★ ★

يرى بان "الشخصية الاقليمية" ذروة الجغرافية ، وبإطلالة كلية يراها علوية رفيعة Super Geog ، وذلك بقدر ماهى تركيبية .. لا تقف عند حدود وصف المكان .. بل تتعداها إلى فلسفته ، بما تعتصره ثم تستقطره من بنيته وروحه وعقله ، وهى فلسفة عملية بقدر ما تلخصه وتضعه من

مقولات صائبة .. تدعم قوته وتعالج ضعفه ، ولم يكن دربه إليها سهلا ، فرغم الإقرار بأهميتها وقيمتها . إلا أن نماذجها السابقة محدودة .. فى الأدبيات الجغرافية بعامة ، يذكر من بينها .. ما كتبه لابلاش في مقدمته لكتاب لافليس عن تاريخ فرنسا .. تحت عنوان "شخصية فرنسا الجغرافية" ، والمؤلف المشهور لفوكس عن "شخصية بريطانيا The Personality of britain ، وكتاب ماكيندر "بريطانيا والبحار البريطانية" ، كما يشير إلى دراسات "حزين" المبكرة عن البيئة والموقع فى مصر عبر التاريخ ، وأيضا إلى كتب "مصر ورسالتها" لحسين مؤنس ، و"تكوين مصر" لشفيق غربال ، و"أصول المسألة المصرية" لصبحي وحيده ، و"سندباد مصرى" لحسين فوزى .. باعتبار ريادتها فى تلمس خصائص شخصية مصر .. جغرافيا وتاريخيا وسياسيا .

ومن هنا فقد وجد من الضرورى أن يفرغ أولا من تعريف موضوعه ، وتحديد ضفافه المنهجية العامة ، موضحا غايته النهائية ، وردت كما يلى فى الصفحات الأولى من الجزء الأول من كتابه المتفرد .

● (.. الشخصية الإقليمية .. أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الاقليم ، تبدأ بالتساؤل عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق ، محاولة أن تنفذ إلى روح المكان لـ "تستشف" عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة ، وهذه فكرة "الهيكل" المركب Compage ، عند بعض الجغرافيين الأمريكيين أو ما يعرف

كاصطلاح عام بعبقرية المكان Genius loci فيها يتم تشريح كائن عضوى ضخم Macro- Organism إلى أعضائه الكائنات الدقيقة Micro Organisms ، كما لابد من إعادة تركيبه، وهى بهذا تحاول أن تصنع عالما صغيرا نسبيا Micro cosm فى مكانه الدقيق والصحيح من عالم أعظم Macrocos ، ومن ثم تقع فى دائرة ما سمى بالجغرافية الملحمية Macrogeography ، ذلك كله .. الجغرافية الطبيعية والبشرية والإقليمية ـ على المستوى النظرى الأكاديمى ، غير أن المستوى التطبيقى لا يقل أهمية وخطرا ، فمن المنطقى لا شك .. بعد أن تكون قد حللت شخصية المكان فى الماضى والحاضر ، بكل هذه الاستفاضة والإحاطة والشمول ، من المنطقى أن تتعرض بالتقييم والتقويم لنقاط القوة والضعف التى قد تنكشف فيها ، وهذا ما يقودنا رأسا إلى الجغرافية التطبيقية ، جغرافية التخطيط ورسم السياسات الإقليمية والاستراتيجية القومية ، وبهذا الشكل تصبح جغرافية التخطيط فى واقعها بمثابة جغرافية المستقبل Geo- Futurology ، توظف الماضى والحاضر ، فى كشف الطريق أمام مستقبل أفضل ..) (شخصية مصر ، جـ ١ ، ص ص ص ٥٧ ـ ٥٨) .

● (.. والآن فإن من المحقق أن طبيعة الجغرافية الكاملة الكامنة هذه .. لا تتحقق فى شىء كما تتحقق فى دراسة الشخصية الإقليمية ، فليست الشخصية الإقليمية مجرد تقرير حقيقة علمية مطلقة .. يمكن أن تخضع تماما للقياس

الرياضى الإحصائى ، وذلك على الرغم من أنها تعتمد على مادة علمية موضوعية بحتة ، إنها عمل فني بقدر ما هى عمل علمى ، فكما يقول "جلبرت .. إن الجغرافية فن التعرف على شخصيات الأقاليم وتفسيرها ، وأن شخصية الاقليم كشخصية الفرد يمكن أن تنمو وأن تتطوز وأن تتدهور .

على أننا نرى أن فن تناول المادة العلمية لا يكفى وحده ، ولهذا فنحن أيضا مع "دبنام" حين يعرف الجغرافية بأنها "فلسفة المكان" ، ومع "ماكيندر" حين يتحدث عن "الجغرافية الفلسفية" ، وذلك دون أن نذكر دعوة البعض المتطرفة إلى ما يسمونه Geo- Sophy ، ولا يعنى هذا أو ذاك فلسفة محلقة غامضة ، بل فلسفة عملية واقعية Concrete Philosophy قد ترفع برأسها فوق التاريخ .. ولكن تظل أقدامها راسخة فى الأرض ، فلسفة تخلق بقدر ما تحدق .

وهكذا فإن المطلوب جغرافية حية ، بمعنى جغرافية الحياة اليومية every day Life geography ، تلك التى إذا عرفتها عرفت كل شىء عن نمط وطبيعة وظروف وقوانين الحياة فى هذا المكان أو ذاك ، جغرافية الحياة التى وإن بدأت من أعلى آفاق الفكر الجغرافى فى التاريخ والسياسة ، فإنها لا تتقاعس عن أو تستنكف من أن تنفذ أو تنزل إلى أدق دقائق حياة الناس العادية فى الاقليم ، باختصار جغرافيا تنسج الحياة اليومية ودورة حياة الناس الجارية فى نمط الاقليم ومورفولوجية الأرض ..) (من كتاب شخصية مصر ص ص ١٥ ـ ١٨) .

ليس كتاب شخصية مصر عملا موسوعيا .. كما يوصف أحيانا .. ربما بسبب تعدد أجزائه (٤ أجزاء) وضخامة عدد صفحاته (٣٥٥٢ صفحة) ، بل إنه على العكس تماما (ضد موسوعى) على حد قوله ، ذلك أنه إذا كانت الموسوعة - تعريفا - عملا تجميعيا معلوماتيا بالدرجة الأولى ، فإن شخصية مصر عملا عقليا بنائيا من جذوره ، يستند إلى مقولات فكرية .. يبدأ منها ، وينتقل إلى ما يثبتها واقعيا .. جغرافيا وتاريخيا ، يدل على ذلك عنوانه الرئيسى "شخصية مصر" .. دراسة فى عبقرية المكان .. ومن مفهوم "العبقرية" الأساسي .. تشتق عناوين فصوله (٣٧ فصلا) بل وعناوينه الثانوية داخل صفحاته ، كما يدل على ذلك التحديد المبكر لملامح هذه الشخصية (ص ٣٣) ، هذه التى يفترض تقليديا أن ترد فى صفحاته الأخيرة ، والمرجح أن حمدان قد وضع بعد تأمل طويل وعميق .. منظومة كتابه الفكرية أولا (شكل ٣) ، ثم عكف بعد ذلك على البرهنة عليها وإثباتها تفصيليا ، محاذرا فى موضوعية صارمة .. أن يتعسف قط فيما يعرضه من أدلته .. أو يغفل ما يتعارض معها ، عامدا إلى تفنيدها .. باعتبار أن ذلك مما يؤكد مقولاته ولا يضعفها ، لا يثبت هذا قائمة مراجعه - (وهى بالمئات) فحسب .. بل وأيضا ما يورده فى تحليلاته من مناقشة آراء غيره ، وقد مكنته قدراته العقلية من السيطرة على موضوعه .. وبنفس الدرجة على ضده ، ملتقية مع طموحه العلمى نحو بناء النظرية ، ومطوعة مهاراته الفائقة الأخرى (اللغوية بصفة

خاصة) لتحقيق هدفه .. أو أهدافه المتعددة على وجه الدقة ، لقد احتشدت قواه جميعها تحت إمرة عقله ، يتجلى ذلك تماما فى كل سطر كتبه ، الرؤية الفلسفية ، وقدرات التجريد والتعميم والتخيل والتوقع ، ومهارات التصوير والإحساس الإيقاعى المرهف ، ودانت له اللغة فى تركيباتها المركبة والسلسة ، هذه التى وظفت ببصيرة نافذة لتجسيد مشروعه الفكرى ، بمستويات نفعيته المتعددة لوطنه وعلمه ، وبما يلبى طموحه المتقد .. لأن يعكس عمله شخصية مصر عند الذروة .

● (.. ولئن حق لنا أن نبغى تفاصيل التفاصيل عن كل قطعة من أرض مصر ، فحق علينا كذلك ألا نغرق فيها أو نتوه ، وإنما علينا أن نتجاوزها ، نقفز منها وفوقها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات ، فوصف المكان وحده ليس يكفى ، بل لابد بعده من فلسفة المكان ، وإلى جانب النظرة التحليلية الميكروسكوبية والجغرافية المجهرية ، لا غنى عن النظرة التركيبية التليسكوبية والجغرافية والماكروسكوبية Macroscopic الواسعة الأفق .

وإذا كانت الدراسة الاقليمية التحليلية .. تثرى معرفتنا بالمعلومات ، غير أنها قلّ أن تتقبض على روح المكان ، أو تجسد العبقرية بإحكام ، إنها تشرّح الاقليم .. إلا أنها فى غمار ذلك تضحى بروح الاقليم ، ولهذا فإن علينا لكي نقبس شخصية مصر فى الصميم أن نتحول من التخصيص إلى التعميم من الجزء إلى الكل ، نضع رقعة الوطن فى بؤرة واحدة ، لننظر إليها من منظور سماتها وخصائصها وملامحها

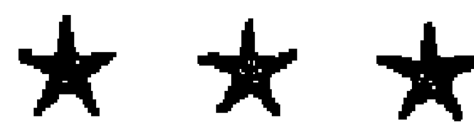
الرئيسية السائدة ، وهكذا نبدأ بدراسة "التجانس" بجوانبه المختلفة ، التجانس الطبيعى فى الأرض والمناخ ، التجانس المادى فى الزراعة والمحاصيل ، فالتجانس العمرانى فى توزيع السكان ، فالتجانس الحضارى فى القرى والمدن ، ثم أخيرا التجانس البشرى فى السلالة والتكوين الجنسى ، ومن التجانس نتقدم منطقيا إلى الوحدة ، الوحدة السياسية بكل مقوماتها ومكوناتها .. من وحدة إقليمية ووطنية ولغوية ونفسية (شكل ١) .

تلى هذا سلسلة فصول التطورات التاريخية ، قل سلسلة "من .. إلى" ، من السبق الحضارى إلى التخلف ، من الطغيان الفرعونى إلى الثورة الاشتراكية ، من امبراطورية إلى مستعمرة ، والموضوع الأخير بالذات يستدعى ويشمل وقفة مفصلة أمام الاستعمار الأوربى الحديث ، باعتباره آخر وأعلى مراحل الاستعمار ، ثم وقفة معممة عند شخصية مصر الاستراتيجية ككل ، ومن السياسة والاستراتيجية ننتقل إلى البناء الحضارى وأساسه الطبيعى ممثلاً أولاً فى الموقع .. قلب العالم .. ثم فى الموضع .. هبة النيل .

وهذا الأساس الصلب يضعنا تلقائيا على الطريق إلى دراسة شخصية مصر الاقتصادية ، التطور العام والخصائص الرئيسية أولا ، ثم الزراعة فالصناعة والثروة المعدنية ، كل على حدة ، وكل بهياكلها ومشاكلها وتخطيطها ، ثم من الاقتصاد نتحرك منطقيا إلى الاجتماع ، فنرسم خريطة المجتمع المصرى فى بحثين أساسيين ، الأول يعالج السكان

تحت عنوان "كثافة بلا هجرة" والثاني محوره المدن .. تحت عنوان "مركزية رغم الامتداد" .

بعد هذا ننتقل بحرية وسرعة محلقين بين آفاق الزمان وأبعاد المكان ، لندرس أولاً : تعدد الأبعاد ، ثم التوسط والاعتدال ، ثم الاستمرارية والانقطاع ، والموضوع الأخير ينقلنا منطقيا إلى الباب الختامى فى الموضوع كله ، وهو موضوع مصر والعرب ، فتدور فصوله بين الوطنية المصرية والقومية العربية أولاً .. ثم مصر فى عالم عربى متغير ثانيا ..) (شخصية مصر ، جـ ١ ، ص ص ٤٨ ـ ٥٠) .



كيف توصل حمدان إلى تحديد الملامح الأساسية لشخصية مصر ؟ وكيف تمكن من ارتياد منطقة من العلم .. غير مطروقة لشدة وعورتها من قبل .. على الأقل بالنسبة لمصر ؟ تلك قضية منهجية بالدرجة الأولى (شكل ٢) ، ذلك أن أدنى اختلال فيما يعرضه .. لا يميع مقولاته فحسب .. بل يوهن من مصداقيته العامة على الفور ، فالمنهج هنا فى هذا المجال الصعب .. مثل حبل مشدود شديد الحساسية .. عليه أن يجتازه فكريا ولغويا ونفسيا .. ملتزما بأدق القواعد المنهجية .. محافظا فى نفس الوقت على مرونته وحيوية أدائه .. بطول صفحات مشروعه الضخم ، ويمكن القول ـ من بعد ـ بأنه قد حقق دربته الأساسية من كتاباته التى سبقت مشروعه .. هذه التى دلت على لياقة عالية مهدت له ، والمؤكد أنه لم يشرع فيما خطط له .. قبل قراءة واسعة .. يصعب

الإحاطة بأبعادها .. وإن دلت عليها ببولوجرافيته فائقة الثراء والتنوع بالقطع ، ثم هو رغم فطرته التجديدية المتوثبة .. آثر أن يلتزم بالمنهج الجغرافى التقليدى فى عمومياته .. بمثابة ركيزته الراسخة من قبل .. مؤجلا تحليقه لما بعد ، فجاء مشروعه فى إطار التقسيم المستقر للعلم .. إلى فروعه الرئيسية .. الطبيعية .. البشرية .. الاقتصادية .. دون أن تمس ، مخصصا لكل فرع جزءا منه .. يغطى تفصيلاته كما ينبغى لها بالتوضيح والشرح ، مستخدما كافة الأساليب المعتادة .. من خرائط إلى جداول .. إلى نماذج .. متبعا فى عرضها ذات الطرق المعروفة .. من تحليل ووصف ونقد ، متوصلا إلى تحقيق الألفة المنهجية بداية .. بما يضمن له توصيل إضافاته المنهجية بعد ذلك بيسر ، هذه التى ساقها بعد ذلك فى سياقاتها .. بحذر أولا .. ثم شاعت وأشاعت الجدة والأصالة فى نسيجه المنهجى ، فهو عندما يبدأ بالصورة العامة فى إيجاز وإحكام .. إنما يمهد لما بعدها .. حين يصيغ مقولته عنها فى شكل المعادلة ، وهى إن كانت معادلات لفظية بأكثر منها كمية .. إلا أنها بمثابة أسلوبه الأساسى لأن يحفر مقولته حفرا فى الذهن .. فتصبح وكأنها حكمة أو مثلا سائرا على الأقل ، ثم هو يعمد إلى "جمع النقائض" .. بما يثير الذهن ، متوجها منها إلى إثباتها أو دحضها .. مستعينا بالأدلة من كل علم ، مطبقا بذلك بجدارة فائقة ما يعرف بمنهج العلوم المتعددة Interdisciplinary APP. حيث يخضعها للفحص من كافة الزوايا .. مقلبا لها من كافة وجهات النظر ، منتهيا إلى ما يريد إثباته بالفعل ، بعدما

يكون قد طرق وراء ظاهرته كل فج ، ثم هو يطبق بيسر المنهج الأيكولوجى .. المستند إلى تحديد العامل الرئيسى .. ومن حوله منظومته .. بعلاقاتها المعقدة المتشابكة ، مسيطرا على فروضه الصعبة .. المتصلة بتحديد درجة التوازن .. وعلامات الاختلال .. على منحنى شديد الحساسية للمتغيرات الدقيقة منها قبل الكبيرة ، ويدخل بهذا المنهج مجالات غير معهودة .. اقتصاديا وعمرانيا وسكانيا .. فتتفتح له سراديبها .. وتنجلى غوامضها الدفينة ، ورغم أن المنهج الكمى .. لا يظهر ضمن أدواته إلا نادرا .. خاصة فى صياغاته الرياضية الحديثة ، فإنه يعوض غيابه .. بشتى الأساليب المنطقية . المدعمة بأداء لغوى فائق .. ومهارات تحليلية تركيبية .. تكشف الظواهر .. وتقنع بما يتوصل إليه من حقائق .. وما يوصى به لمواجهة المشاكل ، ويتجلى المنهج التاريخى عصبا أساسيا فى كتابه ، فمن التاريخ ينهل رصيده ، ليعيد تنظيمه .. فى رؤية شاملة محيطة ، بل هو يدمج المنهج فى الجغرافية بحذافيره ، وذلك فى إطار مقولة "التفسير الجغرافى للتاريخ" .. متخذا منها قاعدة لتفسير المراحل المتتابعة لتاريخ مصر الألفى كما يسميه ، بل هو يساوى بين أهمية الجغرافية التاريخية لمصر . وبين جغرافيتها الطبيعية والبشرية (.. ولهذا فإن دراستنا هذه دراسة فى الجغرافية التاريخية .. كما هى دراسة فى الجغرافية الطبيعية والبشرية .. ص ٥٦ ، جـ ١) ، وأخيرا .. فإن تمرسه الطويل بالمنهج الأقليمى .. باعتباره دربة جغرافية أساسية ..

وباعتبار موضوعه .. قد جعلت من عناصره أوتادا .. يشق بها طريقه ، بل إنه لا يمانع فى أن ينسب عمله جميعا إلى الجغرافية الأقليمية الخاصة Specielle Geographie التى ترادف الكورولوجيا أو التباين الأرضى (ص ٥٧ ، جـ ١) التى هى بالضرورة مصب ومجمع ونهاية وقمة الجغرافية .. بالمعنى الأكاديمى .

● (يفتتح العمل ابتداء بالجغرافية الطبيعية ، ثم يمضى قدما لخوض آفاق الجغرافية البشرية بكل مراحلها ومراتبها ، وهو إذا يضغط فى الشق الطبيعى على الأرض والمناخ بنوع خاص - لا قيمة عمليا للغطاء النباتى والحيوانى فى مصر الصحراوية - فإنما ليضغط على علاقة التكامل والتواصل الحتمية والصحية بين الجغرافية الطبيعية والبشرية من حيث المبدأ ، وتأتى الأخيرة فى دراسة أصولية إقليمية .. بمفهوم المدرسة الفرنسية ، وهاهنا بالضرورة يرقد مركز الثقل فى العمل ككل ، من ناحية لأن تلك هى طبيعة جغرافية مصر ، ومن ناحية أخرى لأن الشخصية الاقليمية إنما تبرز وتترجم من خلال الإنسان وأعماله فى الدرجة الأولى ، والمهم داخل هذه الحدود أن نحتفظ بالتوازن السليم بين النظرتين الطبيعية Geocentric والبشرية Homocentric بين دراسة اللاندسكيب الطبيعي واللاندسكيب الحضارى .

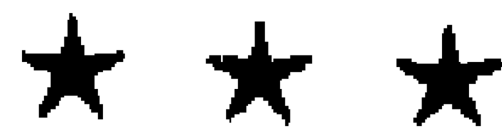
(وتكاد جغرافية مصر البشرية تعنى الجغرافية الاقتصادية تقريبا ، خاصة منها الزراعية ، مع رشاش أو تهميش هنا وهناك من جغرافية السكان والمدن عادة ، ذلك فى رأينا قصور معيب لا يستقيم ، ومن هنا حاولنا معالجة متكاملة

متكافئة بقدر المستطاع لكل مراحل ومناحى الجغرافية البشرية . من الاقتصادية إلى الاجتماعية ، ومن الجنسية إلى السياسية ، ومن الحضارية إلى الثقافية ، وسيجد القارىء ـ ربما لأول مرة ـ اهتماما خاصا بتلك الجوانب المهملة من جغرافية مصر البشرية : القرية والمدينة ، جغرافية السكان ، الجغـرافية الجنسيـة ، جغرافيـة الدولـة السيـاسيـة والاستراتيجية .

ومادمنا قد قلنا الجغرافية البشرية .. فقد قلنا توا الايكولوجيا .. أى العلاقة بين البيئة والإنسان ، وما دمنا قد قلنا الأيكولوجيا .. فقد قلنا إما فلسفة الحتم الجغرافى .. وأما مدرسة الحرية .. إمكانية كانت أو احتمالية أو ضرورية ، والجانب الذى نسترشد به فى هذه الدراسة .. هو أنه ليس هناك حتم جغرافى ، ثمة فقط حسم جغرافى ، فالجغرافية عامل هام فى تفسير الحياة والحضارة والتاريخ فى مصر ، ولكنها بالتأكيد ليست العامل الوحيد ، فلا مكان فى العلم الاجتماعى للأحادية monism ، والكثير جدا من النظريات البيئية ليست فى الأساس جغرافية ، وإنما وضعها علماء آخرون من سائر العلوم الاجتماعية والإنسانية والطبيعية .

والجغرافية البشرية لمصر .. ومثلها الطبيعية .. لا تقتصر على الحاضر .. وإنما هى مضروبة فى الماضى ، فى تاريخها الطويل بمراحله المتعاقبة ، والجغرافية التاريخية تصل الحاضر بالماضى ، وتضيف إلى الجغرافية الراهنة جغرافيات

عديدة .. تتضاعف بها أعماقا وأبعادا وأعماقا ، وهى أكثر ما يسبر روح أى إقليم ويعبر عن جوهر كيانه ، ليس فقط بكشف الثوابث المتكررة أو المتغيرات فى سلوك الأقليم ودوره ، ولكن أيضا بالإحاطة والشمول الزمنى ، وليس صدفة أن أغلب من درسوا الشخصية الاقليمية من الجغرافيين ـ إنما دخلوها من الجغرافية التاريخية أساسا ، والملاحظ أن دراسة الجغرافية التاريخية لمصر .. بينما أبدت اهتماما معقولا بالجوانب الاقتصادية خاصة كالزراعة والرى والصناعة ، والاجتماعية إلى حد ما .. كالسكان والمدن ، أهملت الجوانب السياسية إلى حد بعيد ، وتضع دراستنا هذه الجانب السياسى من جغرافيتنا التاريخية فى البؤرة ، فهى تتبع نمو الدولة المصرية وأقليمها .. عبر العصور ، كما تعالج استراتيجياتها السياسية والعسكرية فى صراع القوى التاريخية من حولها ، مثلما أخضعت مراحل الصعود والسقوط ودورات المد والجزر التاريخية فى أقدارها ومصائرها .. لمقاييس وتكنيك الجغرافية السياسية المعاصرة ، وبهذا وبغيره ننسج على مدى فصول الكتاب شخصية مصـــر الجيوبـوليتيكية والجيوستراتيجية .. منذ تبزغ فى البداية ، إلى أن تبرز لنا تامة النضج والأكتمال ..) .. شخصية مصر جـ ١ ، ص ص ٥٠ ـ ٥٦ .



يقرر أن النظرية العامة التى يفسر بها شخصية مصر تستند إلى التفاعل بين بعدين أساسيين فى كيانها ، وهما

الموضع Site والموقع Situation (جـ ١ ، ص ٣٥) ومن ثم فإنها بالدرجة الأولى نظرية مكانية ، ويعني الموضع البيئة بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها ، أى البيئة النهرية الفيضية بطبيعتها الخاصة ، وجسم الوادى بشكله وتركيبه ، أو كما يقول أحمد فخرى بحق فى (مصر الفرعونية) .. "لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها" ، أما الموقع .. فهو صفة نسبية تتحدد بالنسبة إلى توزيعات الأرض والناس والانتاج حول مصر ، وتضبطه العلاقات المكانية التى تربطه بها ، الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة ، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة (جـ ١ ، ص ٣٥) .

وبعد أن يضع يده على هذا العصب الأس .. لا يتوقف عن تطبيقه .. متلمسا به طريقه - عبر عناصر شخصيتها جميعها ، طبيعية وبشرية واقتصادية وعمرانية وسياسية .. منفردة ومجتمعة ، ولكنه بداية يكشف عن التناقض بين هذين البعدين من حيث الأهمية .. حيث أن حجم الموضع لا يتكافأ دائما مع خطورة الموقع ، وبينما يدفع الأول إلى قدر من العزلة .. يدعو الثانى إلى فيض من الاحتكاك ، ولكنه تناقض يفضى إلى التكامل أيضا ، وبصيغة رياضية فإن معادلة القوة فى شخصية مصر هى (الموقع × الموضع) جـ ٢ ص ٦٩٣ ، وبمعنى آخر فإن توظيف إيجابياتهما يحول التناقض إلى تناسق ، ويفجر مكامن القوة ، مستدلا على ذلك بمتابعة مراحلها الحضارية ، هذه التى تثبت ذبذباتها بين

سموق إلى حد الأمبراطورية .. وهبوط إلى حد المستعمرة .. حقيقة التكامل بينهما ، فحين تـزدهر مصـر داخليا (الموضع) .. يصبح الموقع محميا .. ويصب موارده في بنيتها ، وتطفر مصر كقوة إقليمية ، أما إذا ضعفت بنيتها .. تدافعت القوى إليها .. لتسيطر على الموقع ومن ثم الموضع بعده ، وبهذه الفرضية يفسر تاريخها ، ومن ثم يقرر بأن كيان مصر ومصيرها .. وظيفة مباشرة للعلاقة المتغيرة بين قوتها كموضع وقيمتها كموقع ، ذلك مفتاح الماضي مثلما هو دليل المستقبل (جـ ٢ ص ٦٩٣) .

وتتمحور مواردها الموضعية في نيلها .. مائيته وتربته ، ثم بالتالي في الزراعة وانتاجها ، وفي سهولة سطحها عامة .. هذه التي جعلت من موضعها (السهل الممتنع) ، وفي الموارد المعدنية لصحراواتها ، خاصة بترولها وفوسفاتها ، وفي مناخها .. الذي كيّف دورة محاصيلها ، وفي جبهاتها المائية .. بحرية وبحيرية ، وفي غير ذلك مما لم يستغل .. ولا يزال كامنا ، ومن موضعها تدفقت خصائص شخصيتها المتفردة ، يتصدرها التجانس (جـ ٢ ، ص ص ١٣ ، ٣٦٢) .. خاصية مستمرة في طبيعتها (ص ص ١٣ - ٥٨) ، واقتصادها (ص ص ٥٩ - ١٦٥) ، وعمرانها (ص ص ١٦٦ - ٢١١) وحضارتها (ص ص ٢١٢ - ٢٥٤) وسكانها (ص ص ٢٥٥ - ٣٦٢) ، متبعا ذات مناهجه التاريخية والأيكولوجية والاحصائية .. في إثبات ظواهره .. في هذه المجالات جميعها ، ومن بعده يأتي "التكاثف" .. أو

ما يعبر عنه بالكثافة المكثفة .. حتى لتبدو مصر كأنبوبة مغلقة .. مكتظة بالعمران والبشر ، ولكنه تكاثف يرتبط بالنيل وحده .. منفصلا عن بقية مصر بحدود قاطعة بمثابة تنويعة شديدة العمق .. فوق سطح التجانس مرتبطة بمائيته ، أو هو لحن منفرد .. متميز بتجانسه الداخلى ، مرتبط بالصحراوات التى تحيطه .. ارتباط اليرقة بشرنقتها ، فى علاقة تكاملية تفاضلية معا ، تكاملية بحكم حاجاته الدفاعية .. بما يكفل استمراريته ، وتفاضلية .. بحكم جاذبية النيل بالقياس للصحراء الطاردة ، ولكن للصحراء امكاناتها الكامنة .. التى قد تؤدى إلى التوازن يوما .. أو على الأقل بالتخفيف من كثافة النهر المكثفة ، وبعدهما (التجانس + التكاثف) .. تأتى "الوحدة" .. خاصية ثالثة ، يدل عليها وحدة التاريخ والثقافة والدولة المركزية المبكرة ، وحدة قلما انفرطت أو قسمت ، تبلغ أعماقها فى شخصية المصرى .. بسيكولوجيته وسلوكياته المحددة ، وهى وحدة تأطرت بمركزية موضعية وسياسية صارمة ، فرضتها ضرورات الرى .. وتجسدت فى العاصمة ...، وتورمت ببيروقراطية متشعبة .. يعلوها الفرعون على طول عصورها (جـ ٤ ص ٢٧٠) .

وتتمثل مواردها الموقعية .. فى توسطها الفلكى والجغرافى على مستوى القارات والأقاليم المجاورة ، وبالتالى أهميتها لخطوط الحركة التجارية طوال عصورها ، هذه التى ترمز لها قناة السويس فى هذه المرحلة ، وفى إطلالها على البحرين المتوسط والأحمر معا ، وفى نيلها الذى يشق صاعدا إلى قلب

افريقية .. وإن تفاوتت سهولة الملاحة بين قطاعاته ، وفوق ذلك توسطها الحضارى والثقافى بين أوربا وأفريقية والعرب ، ومنه ـ الموقع ـ انبثقت مجموعة من خصائص شخصيتها المركبة ، يتصدرها "التوسط" كما سبق تحديده ، بكل تداعياته السياسية والثقافية والنفسية معا ، وبعده "تعدد أبعادها" .. خليط من الأفريقية والأوربية والآسيوية معا ، جوهرها العربية .. التى تفاعلت معها جميعا .. لتكون روحها ، فإذا كانت الثلاثة الأولى أبعادا موجهة .. فالعربية هى الوجهة والوجه معا ، ومن بعدهما (التوسط + تعدد الأبعاد) .. تأتى الخاصية الثالثة .. الاعتدال .. تجسيدا لملكة الحد الأوسط عند شعبها ، وبها يفسر استمراريتها عبر هذه القرون المتطاولة ، خاصية مدعمة بقدرة إسفنجية فائقة .. على امتصاص الثقافات الأخرى وتمصيرها ، تؤكد تجانسها المستند إلى النيل كمحرر للاستقرار والسكن ، وإلى الصحراء الحامية .

ومن تدامج الموقع والموضع فى شخصيتها .. نبعت بعض سماتها ، وبها يفسر "الانقطاع فى استمرارية ثقافتها .. كظاهرة تكررت فى تاريخها .. خاصة من الفرعونية إلى العربية .. كأبرز الأمثلة ، هذه التي يعود بها أيضا إلى تعدد أبعادها ، وإلى ضعف موضعها عن الدفاع عن موقعها غالبا ، ومع ذلك فإن الاستمرارية تبقى سارية .. وإن تغيرت أطرها ، هذه بعض خيوط نظريته عن تأثير "الموضع والموقع" .. فى شخصية مصر .. باعتبارها محور متنه .

● (.. ليس سهلا أن نركز الشخصية الاقليمية فى معادلة موجزة لاسيما إذا كانت غنية خصبة كشخصية مصر ، فمصر وإن كانت جزيرة صحراوية بالموضع ، فإنها بالموقع إقليم مرور وعبور ، فى قلب الدنيا وعلى ناصية كل التيارات الحضارية والثقافية ، إنها برج أو مرصد - يغطى العالم القديم برمته ، ولهذا فلم تملك مصر أن تنعزل قط عن تيارات التاريخ وحركات الحضارة ، ونحن نستطيع أن نرى التناسق الدقيق بين أثر الموقع والموضع فى مصر ، بما جعل منها منطقة اتصال Zone of Junction ومنطقة انفصال disjunction فى الوقت نفسه ، وبالتالى منطقة توصيل وتأصيل معا ، ومن هنا حيويتها التاريخية وبقاؤها ، إن هذا التناسق الدقيق هو مفتاح جوهرى لشخصية مصر التاريخية ، وبه نستطيع أن نحلل كيانها الحضارى .. ما كان منه وما سيكون .

وسواء من حيث الموضع أو الموقع تحتل مصر مكانا وسطا ، وسطا بين خطوط الطول والعرض ، وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الإنتاج ، بين القارات والمحيطات ، وحتى بين الأجناس والسلالات والحضارات والثقافات ، بل يمكن القول أن هذا التوسط هو مصر نفسها ، فالشعور العام - أكثر مما يقول لا بلاش عن فرنسا ، هو الشعور بمتوسط ، تمتزج فيه الصفات المتباينة فى سلسلة شديدة التدرج (جـ ٤ ، ص ٤٨٢) .

والتجانس الطبيعي صفة جوهرية فى البيئة المصرية ، فالوادي كله وحدة فيضية ، أرضه من تشكيل مائه .. مثلما هي من صنعه وصلبه ، فالنهر هو باني واديه الوحيد ، والضابط الأساسى لشكل اللاندسكيب الطبيعى ، ولهذا فإن النيل يمنح أرض مصر من التجانس بقدر ما يسيطر على حياتها ، ومن الناحية الأخرى يقرر بيرجرن Berg- gern "مصر بلد مفارقات طبيعية درامية" .. ولا تناقض ، فمصر تتألف من بيئتين أساسيتين هما الصحراء والوادى ، وإذا كان من الجغرافيين الألمان من يميز بين الأقاليم ذات النغمة الثلاثية drieklang والثنائية Zweik lang فإن مصر بهذا المعنى من الأقاليم ذات النغمة الثنائية ، ومع ذلك فإن هذه الثنائية تترك مكانها فى الحقيقة لأحادية مطلقة ، إذا نحن اعتبرنا الحياة فى مصر .. أى مصر المعمورة ، وفى استطاعتنا إذن أن نعد مصر الفعالة بيئة أحادية بمعنى الكلمة ، ذات نغمة واحدة einklang .. النيل والنيل وحده ضابط إيقاعها .

والتدرج قانون التجانس المكمل ، أو فلنقل إنه التجانس فى تدرج ، أو التدرج داخل التجانس ، ويترتب على هذا أن التغير لا يتراكم حتى يتبلور .. فى فروق محسوسة بدرجة أو بأخرى .. إلا فى أقصى الطرفين من مصر فقط .. وهكذا نعود فنجد أن كل شىء فى مصر الوادى والصحراء .. لا يتغير إلا عند أطرافه القصوى ، ليس قط فى النواحى الطبيعية بل والبشرية أيضا ، وإذا جاز إطلاقا أن نتحدث عن قطبين

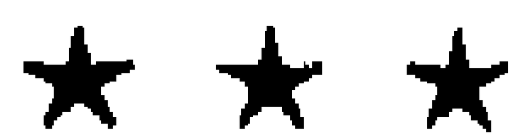
متنافرين فى اللاندسكيب المصرى ، فهما تجاوزا القطبان الشمالى والجنوبى .. فى برارى الدلتا وفى النوبة السفلى ، ومع ذلك فليس الأمر تنافرا ينقض مبدأ التجانس القاعدى ، بقدر ما هو اختلاف إقليمى ثانوى الدرجة ، ويظل الجسم الأساسى من مصر والتجانس جوهره والتدرج مظهره (جـ ٢ ص ١٤) .

ومن التجانس إلى الوحدة .. فمنذ فجر التاريخ بزغت مصر كشعب واحد تجمعه وطنية في وطن واحد على شكل دولة أحادية ، وراءها تكمن عوامل التبلور الجغرافى ، ووحدة البيئة الطبيعية والوظيفية والتجانس الأرضى والجنسى والبشرى ، والبيئة الأحادية عادة نقطة قوة فى كيان الدولة السياسى .. ولكنها كذلك يمكن أن تكون سلاحا ذا حدين .. إذا اعتبرنا أيضا أنها قد تحد نسبيا من تنوع الموارد الطبيعية ، وتجعل الأساس الطبيعى للدولة ضيق القاعدة أحادى الجانب ، خاصة أن الوحدة تفضى إلى المركزية .. بقوة المركزية الجغرافية والوحدة الوظيفية وطبيعة الرى فى البيئة الزراعية الفيضية ، بما يؤدى إلى تعدد وجوهها .. ومن ثم أصبحت "المركزية ، الحكومة ، البيروقراطية ، العاصمة" .. أطرافا أربعة .. لمشكلة مزمنة متوطنة فى مصر .

لا عجب أن يأتى الغطاء البشرى من عمران وسكان أشبه بإرسابات بشرية سميكة متضاغطة .. لا تعرف التخلخل أو الفجوات ، ومنذ فجر التاريخ تبدو مصر الوادى مكدسة كغابة

متراصة من البشر فى أرخبيل غاص بالحلات والقرى والمدن ، وفى داخل هذه البيئة .. يبدو كل شيء مكثفا إلى أقصى حد ، مضغوطا متضاغطا على نفسه بشدة ، ابتداءً من التضاريس نفسها إلى السكان .. مرورا بالتربة والمائية والسكن والزراعة ، فالزراعة المصرية من أكثف الزراعات فى العالم تقليديا ، إن الزراعة المصرية كانت دائما أقرب إلى فلاحة البساتين ، والفلاح المصرى بستانى محاصيل حقل وإن لم يكن صاحب أشجار مثمرة بصفة خاصة (جـ ١ ص ص ٣٣ - ٤٣) .

وبالنسبة للموقع .. تتبدى لنا فى المحصلة العامة أبعادا أربعة فى توجيه مصر ، الأسيوى والأفريقى على مستوى القارات ، والنيلى المتوسطى على المستوى الإقليمى ، على أن الكل يتداخل فى الاطار العربى الكبير ، بيد أن الإطار العربى ليس مجرد بعد توجيهى ، إنما هو خامة الجسم وكيان الجوهر ذاته ، هو الجسم حيث الأبعاد هى الأطراف ، هو الوجه وهى الوجهة ، هى الهوية وهو هوائيات الإرسال والاستقبال ، بوضوح أكثر .. العروبة وجود .. ولكن الأبعاد توجيه ، إن تكون الأبعاد هى اتجاهات البوصلة .. فإن الأساس العربى هو جسم البوصلة ذاته ..) (جـ ٤ ص ٤٠٠) .



من موقع العروبة فى عقله وقلبه .. أراد أن يطهر عمله مما قد ينسب إليه دعوى إعلاء الإقليمية الضيقة .. على حساب

القومية الشاملة ، أو أن يتخذ منه البعض أداة لترويج ما يرفضه .. من أفكار التعصب والشوفينية المتحيزة ، مقدما مقولته الأساسية بهذا الشأن .. (بأن على القومية أن تحترم الوطنية وتقر بها ، بمثل ما أن على الوطنية أن تعترف بالقومية وتقربها) .. وبذا يعقد صلحا فكريا .. ينطلق لما بعده ، فالوطنية والقومية ثنائية متكاملة .. لا تناقض بالضرورة بينهما .. يدلل على ذلك بالتاريخ والجغرافية معا ، فالتاريخ المشترك .. ينطوى على تنويعاته .. التى تخص كل بلد على حدة ، واللغة الواحدة تتضمن لهجاتها المحلية الخاصة بكل منطقة ، وهناك داخل الوطن الواحد .. العديد من الاختلافات بين وحداته المتجاورة ، ولكن القاعدة الثقافية تتشرب ذلك كله وتستوعبه .. وتتغذى به ، وليس الاقليم فى الجغرافية بمثل معناه الدارج المقترن بالانفصالية وحدها ، وإنما هو مصطلح منهجى ، يسهل للعلم تحقيق مقاصده ، وإذا كان الإقليم من هذه الزاوية ـ يعنى منطقة متجانسة ، فإنه من الزاوية القومية .. يعنى العالم العربى بأكمله ، فالتجانس هنا .. كما يعنى التقارب .. فإنه يتضمن التكامل فى جوهره ، ومن شأن التكامل أن يلاشى النتواءات المحلية ويجمع بينها ، ليست المسألة إذن تضادا بين الوطنية والقومية مطلقا ، وإن المشكلة فى نظم الحكم القائمة .. وكل لبيب بالإشارة يفهم .. على حد قوله (جـ ٤ ص ٦٣١) .. وانعدام الرؤية العامة للمصلحة ، عدا ما يمكن أن تدسها القوى الأجنبية المناوئة .. من جراثيم التفرقة ، ثم هو يوضح بأن اختيار مصر موضوعا

لكتابه .. كان ضرورة مطلقة ، دون أن يعنى ذلك أن كتابه عنها يفصلها عن شقيقاتها ، بل إنه يتضمن الصفحات تلو الصفحات .. عن انتمائها ، كما خصص بابه الأخير عنها وعن العرب ، بل إنه ينوى أن يصدر مثله .. إن طال عمره .. عن كل بلد عربى مثلها ، بل إنه قد بدأ بشخصية الشام عموما .. وسوريا الحبيبة خاصة (جـ ١ ص ٢٥) .

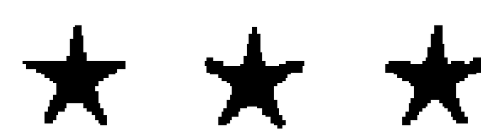
● (فرعونية هى بالجد .. لكنها عربية بالأب ، غير أن كلا الأب والجد من أصل مشترك ومن جد أعلى واحد ، فعلاقات القرابة والنسب متبادلة ، وما كان الإسلام والتعريب إلا إعادة توكيد وتكثيف وتقريب ، ولهذا فإن التعريب .. وإن كان أهم وأخطر انقطاع فى الاستمرارية المصرية ، إلا أنه لا يمثل ازدواجية بل ثنائية ، فلا تعارض ولا استقطاب بين المصرية والعربية ، وإنما هما اللحمة والسداة فى نسيج قومى واحد .

ومنذ آلت إليها زعامة العالم العربى ، أصبحت مصر خير تصغير وتكبير له ، خير تصغير .. لأنها الوحيدة التى تتمثل فيها معظم العناصر الجنسية والجاليات الوطنية من جميع الشعوب والأقطار العربية تقريبا ، وخير تكبير لأنها بالحجم والموقع هى الرأس والقلب وضابط الإيقاع ، إنها فى العالم العربى كالقاهرة فى مصر نفسها ، أم العرب أكثر منها ابنتهم ، إنها العالم العربى لا ظله ، ومرآة مكبرة بالتحديد .. فيها يستطيع أن يرى صورته المستقبلية .

ذلك أنه كما تم تعريب مصر قديما فى عصر الإسلام ،

فإننا نشهد تحت أعيننا بداية عملية تمصير العرب فى عصر البترول ، وهذه العملية الهادئة البطيئة السارية .. تتم من خلال شبكة العلاقات والمصالح الجديدة المتلاحمة عموما ، والوجود المصرى الذى لأول مرة توزع وانتشر فى ربوع الوطن الكبير خصوصا ، والواقع أن مصير العرب مصرى حضاريا ، كما أن مصير مصر عربى سياسيا ، ومصر لا مستقبل عالمى لها خارج العرب .

ومصر بالذات محكوم عليها بالعروبة والزعامة ، ولكن أيضا بتحرير فلسطين ، ولقد خلق البترول العربى نمطا جديدا .. وإن يكن ثانويا ومؤقتا .. من توازن القوى السياسية داخل العالم العربى ، وهذا الاختلال أثار وعرى كل كومن الحساسية الوطنية بين العرب ، حتى ليوشك أن يكون عامل تفريق وتمزيق لهم .. بعد أن كانت مأساة فلسطين عامل تجميعهم .. (شخصية مصر ، جـ ١ ، ص ص ٤٥ ـ ٤٦) .



يستهل عمله منهجيا وموضوعيا بالأرض ، منهجيا لأنها بداية الخيط ، وموضوعيا لأنها هيكل الشخصية وعظامها الفقرية .. تكتسى بعد ذلك باللحم (الجغرافية البشرية) وبالشحم (الجغرافية الاقتصادية) . بما يحقق رؤيته الأساسية للمكان ككائن حى ، وكدأبه .. يمهد بالصور العامة .. أشبه بنظرة الطائر eye's bird view من عل .. ولكن بعيون الصقر ، يلتقط عناصرها البارزة .. ويحولها إلى

صورة فى الذهن ، ثم يخلصها من سكونها وجمودها Moving geog .. بتوجهه إلى كشف ديناميتها على مستويين ، يظهر أولهما فى متابعة العملية Process التى أدت إليها ـ باعتبار أن حالتها الراهنة ليست سوى مرحلة Stage من مراحل وجودها ، ويتمثل ثانيهما فى تحديد علاقاتها بغيرها .. باعتبارها جزءا من كل ، وبذا يبعث فيها حياة من نوع خاص .. يهدف إليه ، فالجغرافية الطبيعية ليست عنده سردا تقريريا .. أو وصفا شكليا فحسب ، بل علاقات تبادلية ونمو طبيعى ، وما المنظور الطبيعى .. كما يطلق عليه .. سوى صفحة مفتوحة من كتاب مطوى ، تسبقها صفحات بمقدار التاريخ الجيولوجى ، وتمهد بذاتها لصفحات تالية بلا عد ، وهو لا يبدأ فى تنميط Typology ظواهره إلا بعد أن تتخلق أمامه فى تدفقها الحى ، تنميطا لا يلغى تفردها Suigeneyis, unique الذاتى الداخلى ، مستجيبا بالتنميط لأهداف العلم .. ومحققا بالتفرد .. حرفة الجغرافى المساح فى الأصل ، ومشبعا فى الحالتين قدرته على التفلسف والمسح ، ثم يرضى بعد ذلك هدفه النهائى ، باعتصار روح المكان فى معادلة مبتكرة .. يستقطر فيها خلاصة القول ، جامعا بينها وما سبقها من معادلات .. وواصلا بينها وما بعدها منها .. فى بناء تركيبى ، طامحا إلى هذه المعادلة الشاملة الأحادية الحاكمة .. أو النظرية العامة كإطار فكرى .

● (.. لقد ألفنا أن ننظر إلى صفحة مصر .. على أنها تتألف من عنصرين طبيعيين أساسيين .. هما النهر

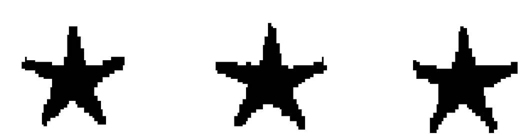
والصحراء ، ولكن البحر بالتأكيد عنصر ثالث .. بعد ثالث ، يكمل صورة مصر الجغرافية ، ولا يمكن لهذا أن تفهم بدونه ولهذا فلابد لأى تحليل متكامل أن يأخذ فى اعتباره هذه الثلاثية من الخطوط الطبيعية .. النهر ، الصحراء ، البحر ،. وعلى الفور يبدو قدر من النظام والترتيب أو الإيقاع والتوازن العريض ، قدر من التناظر الهندسى العام باختصار ، فى كل واحد من عناصر تلك الثلاثية ، فالتناظر إذن هو القاسم المشترك ، والنغمة الأساسية فى صورة مصر الجغرافية

وجه مصر مربع منتظم ، أو قل إن جسمها ربعة مكتنز يمكن الالمام بها بسهولة تامة .. مصر مربع مليونى ، يحتل الركن الشمالى الشرقى من إفريقية ، مربع ذو زوايا أربع قوائم .. أو أشباه قوائم هندسيا ، وطول كل ضلع نحو ١٠٠٠ كم نظريا ، أما واقعيا وبالطبع .. فإنه يختلف قليلا أو كثيرا ، أساسا بسبب ميل ساحل البحر الأحمر بالدقة عن الخط العمودى وانحرافه عن الزاوية القائمة ، والنتيجة المثيرة لهذا الاختلاف النسبى .. أننا نجد أن أقصى عرض مصر أكبر من أقصى طولها ، فالأخير من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب يبلغ ١٠٧٣ كم ، مقابل ١٢٢٦ كم للأول من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب .

وداخل هذا الإطار .. يسيطر على خطوط التضاريس الكبرى محوران أساسيان ، يبدوان وكأنهما احداثيا مصر .. المحور الطولى والمحور العرضى ، أو محور البحر الأحمر ومحور البحر المتوسط ، ومن تقاطع وتعاقد هذين المحورين

الفقريين .. تبرز شبكة مركبة من الاحداثيات الثانويا والثالثة ، تغطى وجه مصر ، وتضبط ايقاع معظم معالم وملامح "اللاندسكيب" فى تناغم موحد ، وتمنحه خطة مهندسة بالطبيعة ، ولكنها مبسطة بالضرورة ، مما يؤكد البساطة الكامنة فى صورة مصر الجغرافية جميعا ، ومحور البحر الأحمر بين الاثنين هو الإحداثى الطاغى الغلاب خارج كل مقارنة ، فهو حاكم الخطوط الرئيسية ، بينما يحدد المحور المتوسطى الخطوط الثانوية نسبيا .

والنتيجة النهائية هى أنه فى كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة (النهر ، البحر ، الصحراء) تأتى الاختلافات فى الدرجة الثانية من الأهمية ، أو قل فى الدرجة أكثر منها فى النوع ، بينما تظل الوحدة الأساسية هى القاعدة الأصولية ..) شخصية مصر ، ص ص ٢٢٣ ـ ٢٣٦ .



إذا كان من السهل نسبيا .. تحديد خصائص مصر من الناحية الطبيعية .. وصياغتها فى مجموعة من المعادلات والتناظرات المبسطة ، فليس الأمر كذلك بالنسبة لخصائصها البشرية .. المتراكمة والمتضاغطة .. عبر تاريخها الممتد وهو يملح فى عبابها .. مبتدئا بسكانها .. ومستندا إلى تعداداتها الدورية المسجلة (١٨٨٢ ـ ١٩٧٦) ، ومهتديا بما ورد فى تاريخها المدون .. بطول عصورها ، مطبقا مناهج جغرافية السكان الممتدة بحذافيرها ، يحاول دائما

استخلاص ما يتاح من قواعد التوزيع وضوابطه ، وقوى الحركة والنمو الظاهرة والباطنة ، وجذور مشكلاتها المعقدة .

ويدل على اهتمامه أنه يخصص لدراسة السكان فصلين من مشروعه ، فى ٢٥٠ صفحة .. بما يكون كتابا بذاته ، فضلا عما يرد ضمنا فى غيرها من فصوله اللاحقة ، وتعكس عناوينها الداخلية ـ أى بناؤها ـ رؤيته الخاصة كدأبه ، فهو لا يشبع مقتضيات المناهج وحدها .. وإنما يدمجها بمقولاته التى تضيف لها .. بمثل ما تضيف الأشجار الظل إلى الطرق المعبدة ، فتحت عنوان "كثافة بلا هجرة" .. يدرس تغيرات خريطة مصر السكانية عبر تاريخها ، فالمنهج التاريخى هنا بمثابة الطريق المعبدة ، تظلله مقولته أو عنوانه ، متوصلا إلى أن ما تختلف به مصر وتنفرد .. إنما هى كثافتها ونمط توزيعها ، وتحت عنوان فلسفة الخط المنحنى .. يضع فى نقاط عشر قواعد النمو وضوابطه ، مثبتا خضوع تاريخها السكانى لفكرة الدورة Cyclic محددا ثوابتها ومتغيراتها ، ومشيرا إلى ذبذباتها ، فضلا عن ضوابطها الحيوية والاقتصادية وغيرها ، وتحت عنوان "سكان مصر فى عالم متمدد .. يخوض غمار المقارنات بين مصر وغيرها ، بل وبين مصر ونفسها فى مراحل تاريخها ، متواصلا إلى ما أسماه بـ "الثورة الديموجرافية" .. التى تفجرت بها بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وتضاعفت بها من نحو ٣ ملايين إلى ٤٦ مليونا (١٩٨٣) .. أى بمعدل مرة كل عشر سنوات تقريبا .. تبعا لحساباته ، وهو يقسمها إلى مراحل دالة .. يسمى كل

منها تسمية مبتكرة .. من صياغته ، منتهيا إلى فرضية "سلم النمو المتصاعد .. بمثابة قانون يشمل المراحل كلها ، متوقعا زيادة قدرها مليونا كاملا كل نصف سنة" (جـ ٤، ص ٥١) .. مع نهاية هذا العقد الذى نعيشه .

وتحت عنوان "قوى النمو" .. يدرس الزيادة الطبيعية دراسة مفصلة ، متتبعا عواملها الحيوية (المواليد + الوفيات) ، ومثريا لها بوجهات النظر البيئية والاجتماعية والبيولوجية .. وغيرها ، ومتخذا من الزوايا الاقتصادية مؤشرات لها ، يفسر بها تفاوتها بين المستويات المعيشية .. فى الريف والحضر ، متوصلا إلى نتيجة بارزة .. بأنه كلما ارتفع مستوى المعيشة والتعليم والطبقة الاجتماعية .. قل حجم الأسرة مع تناقض معدل مواليدها ، وهى بمثابة قاعدة هادية .. لما يطرح على المجتمع من دعاوى ضبط النسل .. إعلاميا فقط ، ثم هو ينتقل بعدها إلى دراسة تركيب السكان .. من زواياه جميعا ، النوع والعمر والنشاط الاقتصادى .. والوظيفى وغيرها ، واضعا الخطوط تحت نتائجه ، فالتركيب العمرى يعانى من اختلال نسبة الإعالة Dependency. R. بين العائلين من فئات العمر المنتجة .. وعيالهم المقدرين بنحو ثلثى المجتمع ، وبهذا المؤشر الدال القاطع .. يظهر الهرم التركيبى مختلا بأكمله .

ويعود للكثافة .. حجر الزاوية ، ويرى مصر مثل زجاجة مغلقة إلى عنقها .. مسدودة فى الوادى ومصندقة

emboilee ، ويتابع تطورات كثافتها بتطبيق فرضيته عن "آلية السلم الصاعد" .. وقياسها حسابيا وزراعيا واقتصاديا - تبعا لجداول التعدادات .. والتقديرات قبل اجرائها محددا بأنها أكثف الدول الزراعية على إطلاقها ، ويستغرقه البحث فى دواعى الكثافة وضوابطها .. هذه التى تتمثل فى نمط الزراعة الكثيفة وتركيبها المحصولى .. والمستوى المعيشى المتجذر فى الريف والقرى ، وما يقترن بكل ذلك من التقاليد الموروثة السائدة ، وتأخذه الكثافة إلى الهجرة الداخلية والخارجية .. بمستوياتها ، هذه التى يخصص لها الفصل الثانى من دراسته السكانية بأكمله .

ويعود فيطبق المنهج التاريخى على الهجرة .. كظاهرة معقدة ، ولكن ليس قبل وضع معادلتها التى تظلل منهجه ، معادلة ثلاثية الحدود قوامها (.. كثافة الهجرة الداخلة + ضعف الهجرة الخارجة + قوة الهجرة الداخلية ..) ، ويتابع شقها الأول .. ويفسره بالفراغات المكانية الهامشية الجاذبية .. وبانصراف المصريين عن بعض الحرف .. وإن كانت قد انقلبت مؤخرا .. بالخروج المصرى للدول المجاورة .. فأصبح فى معظمها "مصر صغيرة" .. بين سكانها ، كما يتابع الهجرة الخارجة .. نافيا الفكرة الشائعة عن المصرى بأنه نبات بشرى أو مخلوق نهرى immobile جامعا الأدلة حول انتشارهم .. تحت ظروف معينة ، ومصنفا الانقلاب الهجرى الأخير نحو الخارج .. إلى ثلاث مراحل (جنينية ، تكوينية ، انفجارية) ، ومحللا نوعياتها بين

الحرفيين وإلى الياقات البيضاء White Collrs من المثقفين وغيرهم ، مفتقد الأرقام الرسمية اللازمة .. لتوثيق هذه التيارات كميا ونوعيا معا ، فجميع جداوله تقديرية .. لا تلبى أهدافه فى الإحاطة بها ، ثم يتساءل تحت عنوان ميزان الهجرة (جـ ٤ ، ص ١٦٩) عن وزن قوة العمل المصرية بين القوى الأجنبية العاملة فى العالم العربى عامة .. ومنطقة الخليج خاصة ، مدققا وراء المد الآسيوى المنافس من الهنود والكوريين وإخوانهم ، خاصة بعدما تعادلت نسبتهم العاملة مع جملة العرب .. متضمنة العمالة المصرية ذاتها ، وراصدا ما أدت إليه المنافسة .. وزيادة العرض على الطلب .. إلى انهيار سلم الأجور بدرجة مخزية ، وتحت عنوان "تقييم وتقويم" (ص ١٧٦ ، جـ ٤) يناقش احتمالات المستقبل .. التى قد يكون مفيدا .. إيراد مقتبس منها .. يعكس رؤيته ، بعد انتهاء استعراض مكونات فصلى السكان من دراسته .

ويفرغ بعد "الهجرة" .. لقضية السكان فى مصر .. أو المشكلة ، محددا أبعادها فى سباق السكان والموارد .. الذى انتهى إلى اختلال خطير فى شتى جوانبه ، متمثلا فى انخفاض ما يخص الفرد من الأرض والمساحة المحصولية والدخل والكفاية الغذائية وغيرها ، متخذا من العمالة والبطالة مؤشرا لا تخطىء دلالته ، وفى الزحف الريفى إلى حد تورم المدن ، وفى تضخم العاملين فى المجالات غير المنتجة .. أو تكوين دولة الموظفين حسب تسميته (ص ٢٠٧) ، مصورا حلولها المطروحة .. بأنها سياسات الصعود إلى الهاوية ..

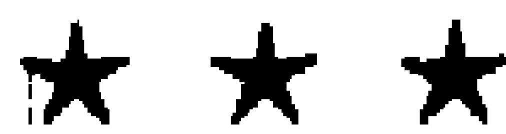
حيث يؤدى حل المشكلة إلى أكثر من مشكلة ، منتهيا إلى تقديم حلوله الأربعة .. (إعادة توزيع الدخل + زيادة الدخل القومى + تنظيم الهجرة + ضبط النسل) .. فهذه خلاصة رؤيته .

● (.. لمصر أطول تاريخ سكانى معروف أو مسجل ، تاريخ مفعم بقدر ماهو مطول ، زاخر بالتقلبات والذبذبات الكمية والنوعية ، حافل بالتجارب والسياسات السكانية المخططة والعفوية ، وذلك بحق يجعل مصر صاحبة أطول تجربة سكانية فى العالم ، بل معمل تجارب ديموجرافى تاريخى ، ولكنه حى سابق غير مسبوق ، ولا مثيل له فى عالم أو علم السكان على الأرجح .

على أن مصر طوال هذه التجربة الثرية .. لم تكن بدار هجرة وحركة بدرجة مذكورة ، بل دار استقرار وإقامة أساسا ، على أنها قبل ذلك وبعده .. كانت دار كثافة فى الدرجة الأولى ، فكانت بذلك على الدوام مزرعة سكانية بالغة التكثيف والتزاحم ، تبدو بيئتها المائية ورقعتها الضئيلة وسط اللامعمور الصحراوى الشاسع .. أشبه بصوبة زجاجية من الزراعة .. إلا أنها صوبة طبيعية وزراعة بشرية .

وفى الوقت الحالى .. فإن ما تتميز به مصر وتنفرد سكانيا .. ليس هو بصفة خاصة تركيبها الديموجرافى .. بمعنى هيكل السكان من حيث الخصائص ، ولا حتى مشكلتها السكانية على خطرها ، ففى هذا لا تكاد تخرج صورة مصر

عن نمط دول العالم الثالث النامية ، الانتقالية حضاريا بين التخلف والتقدم ، والانتقالية ديموجرافيا من المرحلة البدائية فى النمو إلى المرحلة الناضجة ، وإنما تنفرد مصر سكانيا فى باب الكثافة ونمطها الجغرافى ، ذلك الذى بات اليوم أشد وزنا وتضاغطا منه فى أى وقت مضى ، ولم يعد لها مثيل فى العالم المعاصر ، وعلى هذا فإذا كان هناك عنصر واحد أو أكثر . يمنح مصر المعاصرة شخصيتها الديموجرافية المميزة ، فليس ذلك ديموجرافيتها التركيبية بالمعنى الضيق ، وإنما بالدقة تاريخها الديموجرافى فى جانب . وجغرافيتها السكانية الفريدة فى الجانب الآخر ، ولعل فى هذه المتناقضة يكمن صميم شخصية مصر السكانية ..) شخصية مصر (جـ ٤ ، ص ١٣ ، ١٤)



تشعر به مستمتعا وهو يكتب ، متعة فنية بغض النظر عن أهمية القضية ، متعة مبعثها اندماجه فيما يعرض .. وحرصه على النفاذ إلى روحه ولبه ، يقلبه على شتى الأوجه .. ويتحسسه أولا ثم يتعمق ، يتلمس سياقه - ثم يستطعم ، وينهض إلى مراجعه وثبا ، كل تفصيلة تهمه وكل ثنية - يدس أصابعه ويستخرجها ، يعرى ويكشف فى جرأة .. ولا يتورع أمام الحقيقة أو يغمض ، رصيده كلماته .. ومنبع كلماته فكره ، وسخونة صياغاته مبعثها عاطفته ، يتقد عقله ثم قلبه .. وتسرى الحرارة فى كيانه .. ولا تتوقف ، تعادل الكلمة موضوعه .. لا تحيد عنه .. فيصدق ويصدق ، لا يكل ولا

يهمد .. فى كل وقت يفكر ، مشغول فى كل لحظة .. وغير مستعجل .. لا يرضى ولا يقنع .. ولا ينتظر شكرا ، تصخب الفكرة فى رأسه .. وتصيبه بدوار مسكر ، يمسك بها ولا يفلتها .. ويتأملها مثل جمرة ، ويستغرق .. حتى يصبح هو الفكرة ، يدق عليها بأزميله فتتفتت .. ويتشربها فتتحلل داخله .. وتختلط بغيرها .. وتنطوى حين يكتبها على جماع نفسه .

تنبعث متعته من التاريخ رأسا .. كل ظاهرة مهما تضخمت يبدأ معها من البذرة ، كاشفا عما يعبر عنه بالنبض والايقاع والحركة ، راصدا ومسجلا أدنى تغير ، رابطا بينه وما قبله وما بعده ، باحثا عما يسميه باللحن أو نغمة الأساس المستقرة ، وحين يمسكها .. لاينى عن تجريبها ، مؤكدا بالأدلة اتساقها وجدارتها بأن تفسر ، فيما يمكن تسميته بالتنويع الهارمونى على لحنه ، وأنغام الأساس عنده غالبا مكانية .. تضبط ما يظهر متناثرا مبعثرا دون وحدة ، ومنها نغمته الأساسية عن الموضع والموقع .. هذه التى تفسر العديد من جوانب شخصية مصر .. العمرانية والثقافية والسياسية ، وبعدها نغمة العزلة والتواصل والانتشار .. يطلقها فتضىء باطن الشخصية وتضاعيفها .. الحضارية والاجتماعية والنفسية ، وبعدها نغمة الندرة والوفرة .. يخلص بها المكان جموده ، ويستلخص دلالات الحركة البشرية فى الزمان والمكان .. بأبعادها ومستوياتها ، وحين يتوصل إلى قاعدة الاستمرار والانقطاع .. يدندن بها .. فتجاوبه أحداث

التاريخ بايقاعات القرار .. وتنطق وتبوح بما خفى فى الأعماق ، ومن قاعدة "عضوية المكان" .. تنبثق الحياة من التربة والصخور والحرارة والرياح وسلاسل الجبال ، وتفصح عن دورها الخاص ، وعن علاقاتها بغيرها . ومردوداتها فى شخصية الإقليم ، وحين يتحرك فوق قاعدة المجهرى Microcosm والكبير Macrocosm يكشف عن نسبية الوجود والتوزيع ، وأن أهمية المجهرى لا تقل عن أهمية الكبير ، ويتخذ من قاعدة التنوع فى إطار الوحدة Variaty Within Unity محورا ممتداً لدراسة الطبيعة والاقتصاد والسكان .. ومقياسا لتماسك المكان ، وما هذه سوى أنغام الأساس .. وهناك غيرها الكثير .

وتصل متعته العقلية والشعورية إلى ذروتها .. حين يعكف على نحت مصطلحاته المبتكرة التى تشيع فى سفره .. بما يصعب حصره ، مكونا بها ما يمكن تسميته بقاموسه الخاص ، بالمئات هى أو بالالاف . وفيما يلى بعضها داخل قوسين .. تدل على براعته كما تدل على متعته .. وقيمتها العلمية فائقة فى جميع الحالات .

(.. استراتيجية المناخ ، جيوب الاقليم ، تشريح القرية ، خطة بلا تخطيط ، انشطار القرى ، الامتصاص ضد التدفق ، ملكة الامتصاص ، أنبوب مغلق لا صندوق ، بروفيل مقارن ، من السبق الحضارى إلى التخلف ، سيناريو الزراعة ، اللاندسكيب السياسى ، الوحدة السيكولوجية ، المجتمع الهدرولوجى ، الديموكتاتورية ، من إمبراطورية إلى

مستعمرة ، السيولة السياسية ، تخلف الموضع عن الموقع ، خريطة الخطر ، نظرية جناية الموقع ، عبقرية الموقع ، انقلاب المواقع ، سباق حواجز التضاريس ، تناسق الماء والطمى ، بين الترشيح والتكثيف ، تراجيديا الفيضان ، بروفيل المجاعة ، النبض المناخى والسكانى ، النبض الهامشى ، بتر البدارى ، النبض الموجب ، منطق الطبيعة والشريعة الجغرافية ، الانقطاع الرأسى ، شخصية مصر التكاملية ، الاقتصاد الانقلابى ، مفارقات وانـزلاقات ، الاعتـدال المصرى ، بين الموارد والمواهب ، ثورة الغضب ، الثورة الصاخبة للأرز ، الثورة الصامتة للبسـاتين ، صراع المحاصيل ، ثنائيات المحاصيل ، من الكفاية إلى العجز ، المساحة المستوردة ، الأمريكى القصير ، الصراع بين الإنسان والحيوان ، تجريف المركب المحصولى ، قوارض الأرض ، الرمل ضد الطين ، الميت ضد الحى ، دستور الأرض ، القصة والقضية ، النبض والإيقاع ، التنوع والتركيز ، قرص دلتا خط الاستواء الصناعى ، نقطة الانعكاس ، أرضية بلا سقف ، رأس كاسح وجسم كسيح ، من الثروة إلى الثورة ، فلسفة الخط المنحنى ، خريطة الحياة وفرص الموت ، العد التصاعدى ، مركزية رغم الامتداد ، عقدية القاهرة .. الخاصرة والعنق والقمة والرأس ، الهرم الأكبر أم الورم الأكبر ، آفاق الزمان وأبعاد المكان ، تعدد الأبعاد ، قطب فى دائرة الحلقة السعيدة . ذبذبة البوصلة ، تعدد لا انفصام ، التوسط والاعتدال ، ملكة الحد الأوسط ، الاستمرارية والانقطاع ، الاستمرارية القاعدية ، الصورة

والظل ..)

هذه بعض حصيلة التصفح السريع للعناوين ، أما مابين العناوين .. فيحتاج إلى دراسة خاصة عن فنية نحت العبارات عند حمدان ، ولو رتبت ربما كشفت عن جانب من وظيفية الكتابة عنده والتى تجمع بين الإبداع والإمتاع ، ومزج المصطلحات من شتى العلوم ، بما يحقق قصده من التكثيف والتلخيص ، وصنع مفاتيح التحليل ، ويشيع الحيوية والاثارة عند عرض الموضوعات ، فقد أراده عملا يجمع بين المتعة والأصالة والخلق والجدة والابتكار (جـ ١ ، ص ٦) ، وفيما يلي مقتبس من جغرافية مصر الاقتصادية .. ربما يعكس جانبا مما ذكر .. وليس جميعه بطبيعة الحال .

(.. العائلة المحصولية :

من ثنائيات المحاصيل نتقدم منطقياً ونهائيا إلى الصورة الكاملة علاقات التوازن بين المحاصيل المختلفة ، داخل مركبها العام كوحدة واحدة ، وابتداء فمن الواضح أن صراع المحاصيل ليس علاقة تنافس وحسب ، بل تنافس وتعايش أيضا ، ليس مسألة تفاضل فقط ، بل تفاضيل وتكامل معا ، ومن هذه العلاقة الديالكتيكية المركبة ، يخرج المركب المحصولى كله وهو بناء متوازن بقدر ماهو حساس ، وهيكل متماسك أكثر مما هو متهالك ، وأخيرا وبالتالى وهو كائن عضوى أو متعضون لا- مجرد تركيبة آلية صماء .

وفى الواقع أو فى النتيجة .. فإن مركبنا المحصولى يأتى أشبه بمجتمع عائلة محصولية متكاملة ، سواء جاء التشبيه من مجتمع الإنسان أو مملكة الحيوان ، فإذا كنا قد أشرنا إلى البرسيم والذرة ، بكل ثقلهما الواثق كجيروسكوب الزراعة المصرية ، ووثوق خطوهما الساحق كبولدوزر هذه الزراعة ، وإذا كنا قد أشرنا إليهما كفيلى رهان ، فإن لك أن تقول كالفيل والحوت على الترتيب ، وفى هذه الحالة فإن "القطن" دينامو الزراعة المصرية ، هو بلاشك الأسد فى هذه العائلة الحيوانية ، حيث القمح المتحدى هو النمر ، والأرز المائى المتمدد هو التمساح .

على أن تشبيه العائلة البشرية قد يكون أقرب وأنسب ، فالقطن .. هو الرأس وسيد العائلة وعمودها الفقرى وقلبها النابض ، ليس فقط بدوره كركن الزاوية فى الدورة الزراعية ولكن أيضا لدوره فى الاقتصاد القومى والتجارة الخارجية ، برغم تناقص مساحته وشحوب أولويته .. فمازال القطن ملكا فى دولة الزراعة على الأقل .

الذرة والقمح ، بعد القطن ، هما الشقيقان الكبيران فى العائلة ، إلا أن الذرة بجسمه الأضخم ووزنه الأثقل ووظيفته كغذاء الفلاح .. هو أكبرهما سنا ، غير أنه ، كما يحدث عادة للأخ الأكبر فى الريف ، قنع منذ البداية بالإقامة فى قريته ليعمل فلاحاً فى الزراعة ، فى حين أن الأصغر سنا كان الأكثر

طموحاً وفرصة ، فرحل منذ الصغر إلى البندر ، حيث تعل
وتحضر وأصبح ابن المدينة ، أصبح غذاء سكان المدن

والقصب مع الخضراوات والفواكه هما الشقيقان الوسط
فى العائلة ، إن يكن الأول أصغرهما مساحة .. فهو أكبرهما
عمرا ، غير أنه فى الأساس هو "الفتى المدلل enqant gote
فى العائلة ، إن لم يكن الابن المسرف ، وذلك بما يستهلك من
مياه ، كأنما هو يتقاضى ثمن وسامته وحلاوة مذاقه السكرى

أما الخضراوات والفواكه .. فلقد تكون بحداثتها النسبية
تاريخيا "آخر العنقود" ، إنها آخر الوافدين الجدد فى عائلة
المحاصيل المصرية ، ولكنها بسرعة أصبحت أكبر الصغار ..
أو أصغر الكبار .

وأخيرا يتمم نسل العائلة الكبيرة هذه .. رهط حاشد من
الأبناء والأطفال الصغار ، كالفول والعدس أو كالشعير
والكتان ، أو من التوائم الأقزام كالسودانى والسمسم .

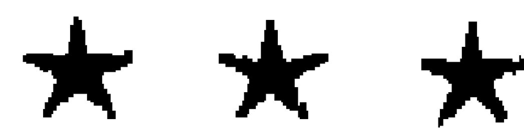
على أن دوار العائلة لا يكتمل بغير الخدم ، فثمة ف
خدمتها شغالان مجتهدان لا غنى عنهما ، بحيث يوشك أن
يتحقق بهما القول "سيد القوم خادمهم" ، والاشارة بالطبع
إلى البرسيم والأرز ، والبرسيم أقدمهما .. مع العائلة من
نشأتها الأولى ، وهو إلى هذا ضخم الجثة حتى ليفوق كل
سادته ، غير أنه شديد التواضع والقناعة ، هو خدوم ، يعطى
الكثير ويطلب القليل ، فهو غذاء الحيوان .. ولكنه لا يحتاج
إلى غذاء أى سماد ، هو نفسه غذاء وسماد ، مجند بصفة

خاصة لخدمة كبير العائلة وسيدها .. القطن ، ذلك المتحكم المتشدد فى طلباته ، لهذا كله يتمتع البرسيم باحترام الجميع ، حتى ليكاد يرقى عمليا إلى واحد من أفراد العائلة ، أما الأرز .. فهو أحدث كثيرا فى خدمتها ، أقل جرما وقوة من البرسيم ، غير إن له وضعا خاصا يجعله أقرب إلى فقراء العائلة منه إلى الخادم الأجير ، حتى لتفرد له حجرة معيشة مستقلة وإن تكن متواضعة على هامش البيت الكبير ، وفضلا عن هذا فإن له موارد خاصة تمنحه مكانة اقتصادية فوق العادة ، بل إنه قد قفز بسرعة ليصبح أحد أهم أفراد العائلة نفسها .

فالأصل فى الأرز كمحصول مائى نهم للمياه من ناحية ، وكمحصول استصلاح تكميلى أو تابع من ناحية أخرى ، أنه يعيش على فضلات مياه الرى ، بل والصرف أحيانا ، المتبقية أو المتخلفة بعد حاجات المحاصيل الأخرى ، ومن ثم فإنه بين المحاصيل جميعا آخر ما يعمل له حساب فى ميزانية مياه الرى .. وأول ما يستبعد أو يطرد فى الجفاف أو الشدة ، إنه يكاد يذكر بالزنجى بشهرته المأثورة ولكن غير الأثيرة فى الولايات المتحدة .. آخر من يوظف .. وأول من يفصل ، ومن هنا سمى الأرز فعلا .. ولا غرابة بخادم المحاصيل .

على أنه منذ زالت عنه قيوده المادية التى كبلته طويلا ، قيود الماء ، انفتحت أمامه مدارج الرقى الاجتماعى والتصعيد الطبقى ، ليغير مرتبته وطبقته بين أفراد العائلة من موقع التابع إلى موقع الثورى المتقدم والعصامى المناضل

المكافح الذى لا يكل ، فقد نشط نشاطا خارقا فى العقود الأخيرة ، ليصبح مساحة وإنتاجا وعائدا على مستوى كل أبناء العائلة "حذوك الرأس بالرأس ..) (شخصية مصر ، جـ ٣ ، ص ص ٢٢٦ - ٢٣٠) .



لقد شغلته قضية تخلف مصر .. كما لم تشغله قضية أخرى ، استثارته عاطفيا بقدر ما أثارته عقليا ، وفى إطار رؤيته الحضارية .. وضعها تحت مجهره التاريخى بعنوان "من السبق الحضارى إلى التخلف" ، مستهلا تحليله بمناقشة مسألة العزلة فى شخصيتها ، متوصلا إلى أن مصر تجمع فى تناسب نادر بين قدر من عزلة فى غير تقوقع ، وقدر من احتكاك لا يصل إلى حد التميع ، وتحفظ لها هذه المعادلة شخصيتها القوية ، منطلقا بعد التوصل إلى معادلته الخاصة كشأنه .. إلى متابعة تاريخها من بدايته الخفية .. تحت عنوان "النظرية العاملة" ، متابعة تعود به إلى العصور الحجرية .. هذه التى شهدت نزول الإنسان الباليوليثى من الهضبة إلى النهر .. تحثه دوافع الجفاف الطاردة .. منذ نهاية البلايستوسين ، هذه الدوافع (الطرد والجذب البيئى) هى بمثابة لب النظرية العاملة ، وهو يضرب فى هذا الخضم غير المدون .. بنفاذية تكشف قوانين الحركة .. كما سجلتها البقايا الحجرية والأركيولوجية ، حتى يصل إلى سؤاله المحدد .. لماذا عرفت مصر الحضارة قبل غيرها ؟.. باعتبار أن الكشف عن جذور السبق .. قد يفيد فى علاج ظواهر

التخلف ، وتأتى اجابته مستندة إلى انبثاق نظامها الاقتصادى الأساسى .. كما يتمثل فى الزراعة .. من قاعدة طبيعية شديدة الاتساق .. تتمثل فى النهر والمناخ والتربة ، ومن هذه الجديلة الطبيعية الاقتصادية .. حققت مصر سبقها الحضارى التاريخى ، بتكوين مجتمعها المستقر وثقافتها الخاصة ، وبذرت قراها فى الزمامات .. كما تبذر الحبوب فى الحقول ، تنساب فوائضها إلى أسواقها .. التى نشطت العلاقات المكانية .. بقدر ما وثقت الارتباطات والمصالح .. التى تنامت لتؤدى إلى أول دولة مركزية فى التاريخ ، ولتشع بعد ذلك تأثيراتها .. فى دوائر متتابعة .. تواصلت حتى الرافدين ، وهكذا كان سبقها ذاتيا .. وبقواها الخاصة .. أعقبه الانتشار والتأثير ، تلك كانت إجابته عن الشق الأول من السؤال ، فكيف كانت عن شقه الثانى .. المتصل بالتخلف ؟

إنه يقسم تاريخها الحضارى إلى مراحل .. يمنح كل مرحلة منها تسميتها الدالة ، فالمرحلة الفرعونية .. هى مرحلة صناعة وتصدير الحضارة ، وبانتهائها ينكمش دور مصر .. وتدخل مرحلة الاكتفاء الذاتى .. التى تسود العهدين الهيلليني والرومانى ، ومع العصر العربى الإسلامى .. تدخل مصر مرحلة لعلها وسط بين الاكتفاء الذاتى والتصدير الحضارى ، لقد كانت خلية مضطرمة فى قلب العالم الإسلامى ، وبقيت هكذا حتى الكشوف الجغرافية .. التى دفعت مصر نحو العزلة ، ومعها العالم العربى الإسلامى كله ، ودخلت مرحلة

اجترار استنفدت طاقاتها ، وانكفأت على وجهها فى العصر العثمانى .. فى بيات شتوى لم يسبق له مثيل فى تاريخها .. إنها فترة العزلة Seclusion Period الكاملة ، تحولت فيها مصر إلى ما يشبه أهل الكهف ، وحين استيقظت بعد قرابة ثلاثة قرون مع الحملة الفرنسية ، وجدت نفسها فى عالم غريب تماما عنها ، ولم يكن أمامها لتعرفه .. سوى أن تدخل مرحلة "استيراد الحضارة" لقد وجدت نفسها متخلفة عن ركبها .. بحكم فترة سباتها .. ذلك تشخيصه وهذه إجابته عن الشق الثانى ، وهى لا تزال الآن تحاول أن تلحق بها ، متمسكة بتراثها .. بحيث لا تبتلع enculturation ، تبادلها transculturation وتتداخل معها Crossculturation وبما يحقق المعادلة بين الأصالة والمعاصرة ، وتتحقق معادلته الأساسية .. عزلة بغير تقوقع .. واحتكاك لا يؤدى للتميع ..

وتبدأ مرحلة "استيراد الحضارة" .. حين انتقلت قبلة الحضارة العالمية من الشرق إلى الغرب ، واقتحمت الحضارة الحديثة والمواصلات العالمية أركان الأرض ، وراحت تنفجر حول العالم تغزو الشرق كله حضاريا ، وهنا لم يعد للعزلة مكان وأصبحنا بحق فى عصر الاحتكاك الحضارى الذى تعيشه مصر ، كما يعيشه بقية العالم المتخلف أو النامى أو العالم الثالث عموما : أو حرفيا العالم الترسو Tiers Monde و il Mondo Terzo ، ولكن الشىء الذى يميز مصر خاصة عنه فى كثير من مناطق العالم .. أنه لم يكن عملية إحلال وذوبان وإنما أساسا عملية تبادل حضارى ، بعبارة أخرى ..

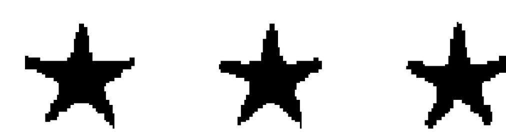
لم تتحول مصر نافورة الحضارة القديمة إلى مجرد بالوعة للحضارة الجديدة ، وإنما إلى بوتقة صهرتها لتشكلها بما يتفق وتراثها ، ونحن نرى أن هذا ليس إلا صورة جديدة معاصرة من معادلة التوازن الدقيق المتأصلة بين الموقع العقدى على مفترق طرق العالم ، وبين الموضع المحمى فى إطاره الصحراوى ، والواقع أن عملية الاحتكاك مع الغرب مرت فى ثلاث مراحل واضحة بما فيه الكفاية ، ولا تبعد عن منطق الديالكتيكية .. من تقرير فنقيض فتركيب .

فالأولى مرحلة الانبهار الحضارى والانبهار النفسى ، فقد فوجئنا بأننا أقزام أمام عمالقة ، وكان رد الفعل "مركب نقص" حضاريا شديدا ، أفقدنا كل ثقة فى تاريخنا وتراثنا وكياننا ، وجعلنا نتهافت على النقل والتقليد بلا تمييز ، وأنذرت من ثم بتحويل مصر إلى لافقرية حضارية ومخلوق شاذ مخلط Pseudomorph .

ولكن المرحلة الثانية جاءت رد فعل عكسى ، زال الانبهار وعادت إلينا بعض الثقة فى النفس ، وأدركنا فضلنا غير المباشر فى أصول هذه الحضارة ، ولكن البعض تطرف فطالب بالرجوع إلى الماضى ، واشتدت الحركات السلفية ، وقد كانت هذه مرحلة الانتفاض السياسى أيضا ، وأدى نجاحها بالبعض إلى تطرف جديد ، وصل إلى درجة الغفلة أحيانا ، فقد انقلب مركب النقص الحضارى إلى مركب عظمة .. هو فى الحقيقة مركب نقص مقلوب .

غير أن المرحلة الثالثة بدأت بسرعة .. وربما كنا نعيشها اليوم ، وهى مرحلة الاتزان ، فأدركنا أننا لابد أن نستعير ، لكن استعارة رشيدة انتخابية ، استعارة هضم وتمثيل لا إغراق وذوبان ، واستعارة تمالك لا تهالك ، ولهذا فنحن الآن نجمع بين الأصيل والدخيل والقديم والجديد .. فى نسب متفاوتة وفى اتزان واختيار محسوب .. (شخصية مصر .. جـ ٢ ، ص ص ٤٤١ ـ ٤٤٣) .

(.. لا السكان ولا الفقر .. ولا حتى الاستعمار فى الماضى أو إسرائيل أو البترول العربى فى الحاضر ، هى المشكلة الأم فى كيان مصر ، وإنما مشكلة المشاكل وقضية القضايا هى قضية الديمقراطية / الدكتاتورية أو نظام الحكم المطلق ، إنها هى جماع مشكلة مصر كلها : شخصية مصر ، مصير مصر ، بل وبقاء مصر ، شخصية المصرى ، كرامة المواطن المصرى ، نفسية الإنسان المصرى ، إعادة بناء الإنسان المصرى .. والشخصية القومية ، فى كل هذا وغيره "فتش عن الديمقراطية أو غيابها" فإنها هى حاكمها ومقررها وضابط إيقاعها مثلما هى مفتاح حلها جميعا ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٦١١)



من بين جوانب شخصية مصر الإقليمية المتعددة .. يتبدى اهتمامه بالجانب السياسى فائقا ، بما يمكن اعتباره معها هوايته ومتعته ، يستغرق فيها بكليته .. وتنطلق قدراته النظرية .. ومهاراته العملية إلى أبعد مدى ، ومن بين

مستويات الجغرافية السياسية .. يظهر شغفه بالمستوى الاستراتيجى منها .. أو الجيوستراتيجى بمعنى أدق ، حيث تندمج الجغرافية مع الاستراتيجية .. في بنية مركبة .. تجاوب مهاراته فى الحل والربط ، وتستجيب لاستخلاص الفروض النظرية .. ووضعها على المحك ..، بهدف الكشف عن خصائص فضلا عن تنمية شخصية مصر ، وتتحدد نظريته العامة فى الجغرافية السياسية .. بما تنطوى عليه من فروضه الجيوستراتيجية فيما يلى .. مع تأجيل تطبيقاته وتوصياته .. حسب المتبع .. لما بعد ..

* الأساس الطبيعى للوطن السياسى ..
* التطور التاريخى للوحدة السياسية ، وتغير خريطة الموارد .
* مورفولوجية الحدود .. ومشاكلها الكامنة والظاهرة .
* مقاييس التدامج والتماسك الوطنى والمجتمع السكانى .
* الخصائص والخطة الجيوستراتيجية لمكونات الدول .
* القوة العامة .. والدور السياسى محليا وإقليميا وعالميا وتغيرات الوزن .

تلك هى خطوطه النظرية العامة .. فكيف جاءت نتائج تحليلاته لها بالنسبة لمصر ؟

فالأساس الطبيعي لمصر .. يؤدى بها للوحدة على مستويين ، الوحدة التركيبية .. من اقسامها المورفولوجية الطبيعية .. وعصبها النهر ، والوحدة الوظيفية .. وقوامها

الزراعة ومحورها الرى ، وتتجسد فى معمورها الريفى الحضرى المتصل .. فى وحدات تركيبية وظيفية مطبوعة من الأصل ، كما تظهر فى سيولة الحركة الإقليمية فى الوادى والدلتا .. موجهة أيضا من النهر .. ورياحات وترع الرى .

ولم يكن تطورها التاريخى بأقل دفعا لها نحو الوحدة من النهر ، بل إن تاريخها كما نبع منه .. انطبع عليه ، فكما اجتذب إليه سكانها .. لتتراكم ثقافتهم الزراعية حوله وبه ، دعا إلى تكوين الدولة مرتكزة عليها وعليه ، ومع الدولة والنهر بذرت المركزية .. التى أصبحت قيدا فيما بعد .

ولم تتغير إلا نادراً حدود مصر ، فهى طوال تاريخها السياسى .. إما برقعتها الراهنة غير منقوصة .. وإما بإضافات إمبراطورية اختفت مع الوقت ، ذلك أن حدودها الطبيعية قد حفظتها مثل شرنقة .. تحيطها الصحراوات من كل جنب ، ورغم أنها مورفولوجيا تصنف كحدود فلكية فى معظمها .. فإن بنيتها الربعة قد كفلت لها من المساحة ومن التخوم الصحراوية المجدبة .. ما أمسى بمثابة قلعتها الدفاعية الطبيعية ، وكذا أضعفت من احتمال النزاع حولها مع جيرانها ، إلا ما يمكن أن تستثيره السياسات الضيقة أو القوى المناوئة .

أما عن مقاييس التماسك السكانى والوطنى .. فإنها تتمثل فى الوحدة اللغوية .. التى هى مطلقة فى واقعها .. بحكم العربية ، كما أنها قد استوعبت أديانها ، إلا فيما يطرأ أو

يزمن تحت ستارها .. وليس بسببها ، ثم هناك الأصل الاثنولوجى .. فهى بوتقة صهرت جميع عناصرها ، وليست لها انعكاسات أو شروخ داخل بنيتها السياسية ، بل إنها حققت قدرا نادرا من الوحدة السيكولوجية .. التى تكاد تتكرر بوتيرة متقاربة من أسوان إلى الإسكندرية .. قوامها الشخصية المصرية التى نعرف خصائصها وردود أفعالها .. وما يرضيها وما يحزنها .. ضاربة بجذورها إلى عصر الفراعنة .. ومتواصلة متدامجة بعده .

أما عن خصائصها الإستراتيجية ومنابع قوتها ودورها .. فيوضحه المقتبس التالى .. مع بعض فروضه الجيوستراتيجية .

(.. يتحدد الموقف الجيوستراتيجى المصرى بإيجاز وتركيز فى صيغة سلسلة من المعادلات على النحو الآتى :

- من يسيطر على فلسطين .. يهدد خط دفاع سيناء الأول .
- من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط .. يتحكم فى سيناء .
- من يسيطر على سيناء .. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير .
- من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير .. يهدد الوادى .

ولقد أدركت مصر منذ أقدم العصور حقائق الاستراتيجية المصرية الصحيحة ، وقواعد الدفاع السليمة عن الوطن ، الأول .. أن مصير مصر مرتبط عضويا وتاريخيا وجغرافيا

بمصير الشام ، بل وأدركت مغزى جبال طوروس بالذات لأمنها ، قبل أن يؤكد ذلك جنرالات الاستعمار البريطانى بعشرات القرون ، كما يعترف المؤرخ العسكرى البريطانى هـ . د . كول ، ومن هنا كانت سيناء دائما محصنة تحصينا أساسيا ، ومن هنا كانت مصر تسارع إلى ملاقاة أعدائها خارج سيناء ، وتنقل المعركة إلى بر الشام ، إذ أن فرص النصر المصرى كانت تزداد .. كلما كانت المعركة أبعد عن قلب الوطن .

سيناء إذن ليست مجرد "صندوق من الرمال" كما قد يتوهم البعض ، إنما هى "صندوق من الذهب" ـ مجازا كما هى حقيقة ، استراتيجيا كما هى اقتصاديا ، وهى استراتيجيا ليست مجرد فراغ أو حتى عازل ، إنما عمق جغرافى وإنذار مبكر ، يمكن أن نشترى فيه الزمان بالمكان ، إنها ككل خط الدفاع الأخير عن مصر الدلتا والوادى ، وإن كانت فلسطين هى الخط الثانى وطوروس الأول .

وإذا كانت سيناء قد فقدت بتكنولوجيا الحرب الحديثة بعضا من عمقها ، فإن ذلك لم يفعل سوى أن زاد من أهميتها وخطورتها الحيوية ، وأصبح أى خطر يهدد سيناء .. يهدد القناة .، وما يهدد القناة يهدد مصر ، دافع عن القناة .. تدافع عن مصر ، لقد أصبحت سيناء استراتيجيا جزءاً من القناة ، فضياع سيناء معناه شل القناة ، هكذا اثبتت التجربة المعاصرة مرتين فى عقد واحد تقريبا ، ومن هنا يتحول المبدأ الاستراتيجى فى الأمن القومى إلى شعار .. دافع عن

سيناء .. تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعا .. موقعا وموضعا .

أكثر من هذا .. فإن معنى سيناء قد أصبح فى الوقت يتجاوز أمن مصر وحياة مصر ، إنها الآن حياة العرب جميعا ، ودرع العروبة من المحيط إلى الخليج ، وإن وقعت فى قلبها وليس على هامشها ، لماذا ؟ لأنها قد أصبحت منذ إسرائيل وهى أرض المعركة العربية وميدان حرب العرب Battle field of the Arab world المعارك على الجبهات العربية الأخرى .. كالضفة الشرقية للأردن أو الجولان يتحدد مصيرها إلى حد بعيد بمصير معركتها ، لقد أصبحت سيناء بهذا المعنى أرضا عربية مثلما هى مصرية منذ الأزل ، وبمثل ما أن مستقبل العربى "مصرى" فى نهاية المطاف ..) (شخصية مصر ، جزء ٢ ، ص ص ٧٧٠ ـ ٧٧٢) .



الريف عنده نسيج شخصية مصر ، قاعدته الزراعة .. ونقوشه القرى والعزب والكفور ، بمثابة الأس الرئيسى من ثوابتها الحضارية Cultural immobilia ، ودليل التجانس القاعدى الأكيد ، فالقرية وتوابعها الأصغر .. بمثابة البعد الثالث ـ بعد العرض والطول ـ للحقول ، تمثل امتدادا رأسيا تشكيليا تكعيبيا للأرض السوداء ، فجسمها وأرضيتها من تربة مصر مباشرة ، والكل مرتبط تماما بالبيئة النيلية الأم ، تلك هى لب نظرته العمرانية للريف ، نظرة عضوية تركيبة .. تتجمع جزئياته حول التجانس .. كمحور تفكيرى للتفسير ، لا يفلتها حين ينتقل من التوزيع إلى التركيب ، فالتوزيع يرتبط

بالنيل ـ وفرعيه .. وما يخرج منهما من ترع ومصارف ورياحات .. وما تنتهى إليه جميعا من البحيرات ، ارتباطا يماثل ارتباط القرية بزمامها المزروع ، ومواضعها الطبيعية فوق الربوات .. التى هى إما تلال وإما أكوام ـ تفاديا للفيضان .. إرثا موروثا من رى الحياض ، وتظهر عضويتها حين تتركب دائريا .. يحيطها داير الناحية يفصل بينها وزمامها المزروع ، ويؤكد التجانس بتحديد الاستثناءات .. فلكل قاعدة شواذ ، هذه التى تظهر كظلال فى النوبة جنوبا .. وشمالا حول البحيرات ، حيث تمتد القرية فى النوبة طوليا .. مضغوطة داخل السهل الضيق بموازاة النيل ، وتتبعثر فى السياحات والمستنقعات حول البحيرة ـ فيما يسميه حلات المستنقعات Marchhufendorfer ، فالتكيف مع البيئة من خصائص العمران .. ويؤكد عضوية الأخير ، بل إن خطتها العامة المتراكمة .. ليست عشوائية كما يقال ، هى خطة بلا تخطيط .. تستجيب للعناصر الطبيعية فى المكان .. خاصة الرياح والأمطار ، وكما تستمد مادة بنائها من طين الحقول .. وما يخلفه ترع المصارف والقنوات ، فإنها تكيف الحرارة أو تتكيف معها .. باعتبارها عازلة لها .. خاصة مع مضاعفة سمك الجدران ، والدور ككل بعد هذا جسم مضغوط متحوصل كأنه تل النمل ، تتسع طرقه بما يكفي لسير الدواب ، وهى تنمو بالانشطار .. حيث تنفصل عن القرية الأم نوايات كالبراعم .. صورة مصغرة عن الأم .. وكلها متشابهات ، وهى لا تنفصل إلا إذا زاد التكدس عن الحد .. وكذلك إذا طالت

رحلة العمل اليومية .. من الدار إلى الغيط ، ومن بعد متابعته لكافة التفصيلات .. يعود إلى التقعيد .. تلخيصا لها .. وتمهيدا لوضعها تحت مجهر الإصلاح ، فإذا كانت عناصر السكن تتحدد فى (القرية + العزبة + المنزل المنفرد) .. فإن ما يسود مصر هى القرية Dominants ، باستثناء شمال دلتا النيل .. حيث تسود العزبة .. وما يدنو عنها من الأشكال ، والمقياس الأمثل لأصلاحها يتمثل فى الخدمات ، وقد أثبتت الأبحاث التخطيطية أن هناك حدا أدنى من الحجم ، يتفق مع مبادىء العادلة الاقليمية لتوزيع الخدمات (المدرسة ، المستشفى ، الطريق) ، هذه التى يجب أن تتوافر بمستوياتها الأولية .. فى كل مركز سكنى ريفى يبلغ حجمه السكانى ٥٠٠ نسمة كمتوسط عام ، ثم يعلو مستوى الخدمات .. من المدرسة الابتدائية إلى الإعدادية .. ومن الوحدة الصحية إلى المستشفى المجهز بالأسرة .. مع تضاعف الأحجام ، فى هيراركية متدرجة .. تراعى عناصر المسافة وخصائص التوزيع ، تعلوها ـ أى الهيراركية ـ خدمات المدينة المحلية التى يجب أن تضم كافة الخدمات المركزية .. بما يلبى حاجة الإقليم ، خاصة مركز الشرطة ومقر القضاء والسنترال العام .. فضلا عن البنك ومراكز الترفيه ، مع ما تقتضيه الحركة إليها من الطرق الريفية والمعبدة والرصوفة .. تيسيرا للسيولة الاقليمية .. وتدعيما لوحدة وتماسك الإقليم حول النواة .

وتعلو رؤيته .. كما تخشن كلماته .. وهو يطالب للريف

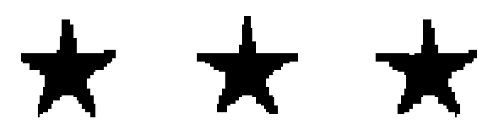
بحقوقه المسلوبة على مر التاريخ ، فالقرية المصرية بوضعها الحالى وصمة فى جبين مصر (جـ ٤ ص ٣٨٧) ، فكما بنى الريف مصر المدن والعمران ، وكما أن القرية بذرة ونواة مصر .. وهى بحق أم المدنية ، فقد آن الآوان لأن تسترد الدين ، وأن تنال نصيبها المشروع من خطط التنمية الشاملة فى كل مكان ، ومقياس ذلك ليس أقل من أن يعود للريف ـ ما يعادل إسهامه فى الدخل المصرى العام .

(.. ومن هنا .. فإن القرية ، الريف ، هى التحدى الحقيقى فى مصر ، ولن تتغير مصر وتتطور جذريا إلا إذا تم هز الريف المصرى بجسمه الثقيل ولن يتغير وجه مصر تحت الجلد ما لم تتغير القرية المصرية حتى النخاع ، وإلا إذا تم رفعها إلى مستوى المدينة ، وبغير القرية الحديثة لن تكون الدولة العصرية ، ولن تصبح مصر دولة متقدمة لا نامية .. إلا يوم تهدم آخر قرية باللبن ، وإذا كان قد قيل على المستوى السياسى أن للانقلاب تاريخا فقط ، ولكن الثورة وحدها هى التى لها تاريخ وجغرافيا ، فيمكن أن يضاف أنها إذا كانت جغرافية مدن لا جغرافية ريف .. أصبحت إصلاحا فقط ، ولهذا يعود التخطيط الإقليمى ضد التركيز العاصمى .. وهو كلمة المستقبل ومفتاح استراتيجته ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ص ٣٨٩) .

(.. إعادة بناء القرية تنتظم تخطيطيا عدة أبعاد وعناصر كأشكالها وأحجامها وخطتها وكثافتها ، يمكن أن تكون مجالا واسعا للاختلاف .. كما للتفاوت والابتكار ، لكن عاملا واحدا

بعينه نراه الفيصل وفصل الخطاب .. فى مصير القرية الجديدة جميعا ، وذلك هو المادة الخام ، فاللطوب الأخضر . أى اللبن . ومازال أنصاره والمدافعون عنه لميزاته الطبيعية العديدة خاصة الحرارية ، غير أن نقطة الضعف الخطيرة أنه بلا مواربة مادة غير حضارية على الإطلاق ، ومهما غلف بالطلاء الأبيض أو غير ذلك ، فليست هناك مناقشة فنية أو غير ذلك .. يمكن أن تقتنعنا بها بيئة للسكن الإنسانى الكريم ، بل لعله أن يكون النقطة السوداء فى القرية المصرية جميعا ..)

(شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٣٨٧)



المـركـزيـة :

من فروضه الأساسية .. التى يفسر بها العديد من ملامح شخصية مصر .. وتتخلل تطبيقاته ، يراها منتشرة فى بنيتها .. طبيعيا وإداريا وحضاريا معا ، ويحددها مفرطة صارخة .. فى علاقة القاهرة بأقاليمها .. فيطلق عليها .. العاصمية القاهرة .. ويشخصها كعلة مزمنة .. ترقد الخصائص الطبيعية وراءها ، تتمثل فى هذه المركزية المورفولوجية التركيبية للنيل وفروعه .. داخل شرنقة الصحراء الشاسعة ، يعبر عنها بأن مصر مسافة لا مساحة .. فى مقولة مكثفة ، بكل تداعياتها الإدارية المعقدة ، وبما أدت إليه من إهمال الأطراف المتطوحة النائية ، وهى مزمنة تاريخياً أيضا ـ حيث هى تكمن في أعمق جذور تاريخ مصر ..

منذ تأسست دولتها الأولى .. مركزية فى لبها ، وسرت إلى ساقها وفروعها ، فرضت موقع عواصمها من منف إلى القاهرة ، فتوطدت عند الخاصرة ، التى يشبهها أيضا كزر ماسى يمسك مروحة الدلتا ويد صعيدها ، وإذا كانت قد تأرجحت موقعا عبر تاريخها .. فتلك استثناءات القاعدة ، فالموقع المركزى وإن كان عتيقا .. إلا أن القاهرة معتقة .. بمعنى أن وظيفة العاصمة .. وإن نأت عنها فترات محدودة معينة ـ تعتقت خلالها .. وأثبتت جدارتها المطلقة .. الموقعية بالخصوص وخاصة ، بل إن المركزية أمست خاصية ملازمة لبقية المدن الإقليمية .. تكرارا لسمات الأم .. وبما يثبت فرضيته ، بل هى ـ المركزية ـ قد شرطت تركيب المدن والقرى .. فجميعا دائرية نووية .. فى لبها ، وإن فجرتها المواصلات الحديثة .. فنمت محوريا على طول طرقها ، بما يخالف خصيصة المركزية .. وإن ارتبطت بها غالبا .. تبدأ منها ـ وتنتهى لها ـ ولا تفسير لكثافة سكانها .. إلا بالنيل .. هذا المحور الطبيعى المركزى .. الذى كما اجتذب إليه مراكز العمران بصوره .. شد إليه وإليها سكانها ، بل واستشرت إلى وظائفها الإدارية جميعها ، فالبيروقراطية .. من ثمارها .. وإن كانت حنظلا ، ومنها يضع قاعدته الإصلاحية كعهده ، فلا يوجد بلد كمصر .. تتأثر بالإدارة صالحة أو فاسدة ، ولا مفر بعدئذ .. من تخليص إدارتها من أوخامها وأوشابها ، وتطهير بنيتها من إفراط مركزيتها .. التى وإن استندت إلى جغرافيتها .. إلا أنها تورمت بتاريخها ، وذلك بصياغة تجمع بين المركزية والإقليمية .. فى معادلة محكمة .

ويعود فيعلو بنظرة الطائر فى رؤيته .. فيرى أن المركزية لا تزال تضغط مصر كلها فى أنبوبها ، فإذا كان الإقطاع قد صفى بقوة الاشتراكية العابرة ، قد عاد بعد زوالها .. بقوة الرأسمالية المعربدة ، متمثلا فى تعمق الانقسام الطبقى بين العاصمة وريفها ، وطمت وعمت بعد الانفتاح المنساح خاصة ، فقد تعملقت القاهرة كالمارد المريد .. لتصبح بانفجارها العمراني .. بالوعة مصر الرأسمالية خاصة ، كما كان الريف بالوعة مصر الأقطاعية سابقا ، وإذا كان اسماعيل قد أرادها قطعة من أوربا .. فالانفتاح يريدها بأبراجها (مثل عش الغراب المشئوم) على حد قوله .. قطعة من أمريكا .. وبذا أصبح هو أعلى مراحل نمو القاهرة (ص ٢٨٤ جـ ٤) ، بما يفضى حتما إلى فقر وتحجر اقاليمها ، ترجمة واستمرارا لتناقض بشع بين لاندوقراطية العاصمة .. وبروليتاريا الريف الفرعونية .. التى لم تنقطع ، تناقضا يعبر عنه بمتناقضة "العاصمة الكاسحة والجسم الكسيح ، سوف تفضى بمصر تبعا لتوقعه .. بأن تتحول فى صورتها النهائية إلى قزم ضخم الجمجمة A macrocephal from Lilliput .. على حد قوله .

(.. من بين المركزية التركيبية والمركزية الوظيفية ، تخرج لنا القمة النهائية المجسدة للمركزية فى مصر عموما ، ونعنى بها المركزية الحضرية التى ترادف توا العاصمية المفرطة ، وإذا كان لهذا التركيب من معنى .. فهو بلا شك أن مصر إنما كانت تتألف فى الحقيقة من مدينة كبرى وقرية

كبرى ، المدينة الكبرى هى العاصمة .. والقرية الكبرى هى الاقاليم ، ومن ثم فالسؤال المحورى .. لماذا هذا التضخم العاصمى المفرط ؟، هل هى قضية الحتم الجغرافى مرة أخرى ؟، والرد الفورى هو النفى المؤكد ، حقا إن المركزية الطبيعية تدعو إلى وتساعد على النمو العاصمى البارز ، ولكن فى حدود الاتزان لا الإفراط ، والجغرافية مسئولة إلى نقطة معينة ، ولكنها بريئة بعدها ، وإذا كان من المتعذر أن نحدد أنسب حجم ، أو الحجم الطبيعى كما تفرضه الضوابط الجغرافية ، فإن من المحقق أن إفراط العاصمية عندنا ظاهرة غير طبيعية .. ترجع إلى عوامل غير طبيعية ، عوامل بشرية شتى .. تاريخية واجتماعية وسياسية وحضارية ، بل وإلى عوامل آلية بحتة كامنة فى ميكانيزم نمو المدن ، تتداعى بها ككرة الثلج ، فلئن كانت المركزية تورث الحجم ، فإن الحجم أيضا يورث الحجم ، والكل يمرتبط فى النهاية بصورة بأخرى بسياسة "دعه يمر" والتى تترك الأمور تجرى عشوائيا فى أعنتها (جـ ٤ ، ص ٢٨٣) .

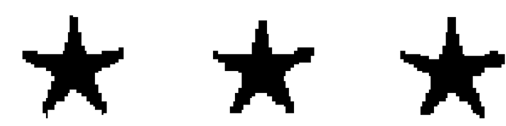
والنتيجة النهائية أن المعادلة الإقليمية فى مصر .. كانت تتألف طبيعيا وللأسف .. من رأس كاسح وجسم كسيح عامة ، ولعل هذا كان منتهى التناقض وقمة الثنائية فى مصر عموما ، فكما كان النهر الواحد الهائل ضد الصحراء المطلقة ، دونما مناطق انتقالية بين الطين والرمل على المستوى الطبيعى ، والحاكم المستبد المطلق ضد المحكوم المسحوق المنسحق على المستوى السياسى ، والطبقة الإقطاعية المالكة ضد

القاعدة البروليتارية المعدمة .. دون طبقة متوسطة على المستوى الاجتماعى ، كانت هناك العاصمة العاتية ضد الريف الأجوف .. دونما أقاليم فعالة أو طبقة من المدن الوسطى المتزنة على المستوى الحضرى ، وفى جميع الحالات لم تكن مصر قط هرما مدرجا ذا قمة وقاعدة بينهما وسط أساسى ذهبى أو حديدى ، وإنما كانت تقريبا مسلة لها قمة وقاع فقط ، كأنهما القطب الموجب والسالب فى محور غليظ على أكثر تقدير (جـ ٤ ، ص ص ٢٨١ ، ٢٨٢) .

كل هذا .. وهو قليل من كثير .. عن معنى تضخم العاصمة على حساب البلد ، ولكن يبقى أخيرا كيف أنه جاء على حسابها هى نفسها ، لعله منطق الطبيعة فى التصحيح ، أن هذا التضخم مثلما أدى فقر الدم الحاد .. ولين العظام والضمور والشلل الزاحف فى الأطراف ، أى فى الريف والأقاليم ، ارتد على الرأس أى العاصمة نفسها ، مهددا إياها بلا أقل من خطر انفجار الشرايين Apoplexy ، وبهذا وذاك أصبحت العاصمة تهزم أغراضها بنفسها وتعاقب نفسها بنفسها ، فى الوقت الذى تدفع فيه الأقاليم والريف الثمن مضاعفا : إنها القاهرة .. تعانى من التضخم المؤدى إلى التفجر الباثولوجى ، فباتت كل مؤسسات مرافق العاصمة .. تئن وتتآكل وتنهار تحت ضغط سكانها .. لا تكف عن التزايد الفلكى ، تعانى من مشكلات الاسكان والمواصلات والتلوث وغيرها .. فما حلولها ؟

إنها تتراوح بين "حماقة العاصمة الجديدة" ، والعاصمة

المغلقة ، وحلول المضاعفة والتثبيت والتنصيف ، والمدن الجديدة حولها ، تفتقر جميعها بدرجة أو أخرى إلى التخطيط الإقليمى ـ المستند إلى الإقليمية واشتراكية المكان وعدالة التوزيع الإقليمية ، وأفكار التوازن الحضرى الإيكولوجى العام ، وبدونها تبقى الصورة المريضة قائمة ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ص ٣٣٧ ـ ٣٨٤) .



الإقليمية Regionalism :

عنده بمثابة المعادل الجغرافى .. لمصطلح اللامركزية بزواياها جميعا ، وتعنى تعريفا .. أن تتكون الدولة من اتحاد مجموعة من الأقاليم الحية القوية بذاتها ، بما يوفر لها التنوع الفعال ، والتفاعل المثمر .. الذى يصيب معطياته فى البنية العامة للدولة .. وفى كل إقليم من أقاليمها ، وبذا تستوعب بهذا التعريف جانبا هاما من رؤيته ، التى تجمع بين الكل والجزء .. فى إطار تركيبى مفعم بارتباطاته ، ومن ثم لا ينى عن تطبيقها .. منتقلا بها من مجال إلى مجال .. ومن دائرة إلى دائرة ، متخذا منها نواة لما يسميه "عملية إعادة بناء أقاليمنا" (ص ٣٨١) ، هذه التى يجب أن تبدأ من أصغر وحداتها فى الريف والحضر .. من شتى تفصيلاتها الاقتصادية والاجتماعية والسكانية والإدارية .. إلى النظام السياسى .. الذى يجدر به أن يخلع مركزيته .. التى أرهقته .. بقدر ما أوهنت أقاليم الدولة معه ، وتتمثل الوحدة الصغرى فى الريف .. فى خلية القرية مع توابعها وزمامها ،

ثم دائرة مجموعة القرى المتجاورة بزماماتها ، ثم تنداح إلى عاصمتها المحلية الصغيرة .. التى نبتت من باطنها .. مكونة متصلا ريفيا حضريا متكاملا ومتماسكا ، وداخلها تتحقق الإقليمية فى تعريفها الجغرافى ، متجاوبة مع اللامركزية الإدارية الواجبة ، ومتناقضة مع المركزية .. خاصة إذا كانت مفرطة قاهرة ، تتدخل فيما يجوز ولا يجوز .. من أشد تفصيلات حياتها ، فإذا ما عادت الأمور إلى نصابها .. حيث أهل مكة أدرى بشعابها ، تواصلت مع الأقاليم المجاورة .. فى إطارات إدارية أوسع بالضرورة ، تربطها حسابات التنظيم المكانى والمصلحة ، مقترنة بعدالة توزيع الأعباء .. الناجمة عن المشروعات المشتركة ، وعدالة توزيع العوائد بينها تبعا لأنصبتها ، ومن ثم لا تصبح الديمقراطية صيحة أو مظهريات زائفة .. بل ضرورة مبثقة من العدالة ، الإقليمية ذاتها .. ومرة ثانية .. فمن يقدر على الدفاع عن المصلحة سوى أصحابها .. المنتخبين لتمثيل كل منطقة .

ولاشك فى استحالة الاستغناء عن المركزية كلية ، وإلا تفككت الدولة ذاتها ، ولكنها مركزية منخفضة ، يقتصر فيها دور الدولة على مهام معينة .. تتصل بالسياسة الخارجية والدفاع والمشروعات الرئيسية الكبرى أو القومية وحدها ، ليس تخفيفا عنها فقط .. وإنما لأن ذلك بالنسبة للاطارات الأصغر .. يقلل الأعباء ويخفض التكلفة ، وبالنسبة للعاصمة المركزية .. فإنها تغدو وقد تحررت مما يثقل رأسها ، وتفرغت لأداء ما يحقق المصلحة العليا للوطن ، ومن بعد فإن إدارة

اقسامها الداخلية وأحيائها .. يجب أن تعود لا مركزية من أساسها ، فالمسألة ليست أختيارا بين طرفى المعادلة .. أختيارا ينتهى بتبنى أحدهما ونبذ الآخر .. بل الجمع بينهما في سياق من الضرورات .. يحكمها التنظيم المكانى والمصلحة ، وفيما يلى مقتبسا من بعض ما أورده عن الاقليمية .. مع ما طبقه منها على القاهرة .

(.. إن مصر لم تعرف الاقليمية كفلسفة مكانية .. طوال تاريخها الاستبدادى الاقطاعى ، لم تعرف إلا اللا إقليمية Irregiomalism الوائدة ، التى تركت اقاليمنا مجرد صحراء حضارية ، وينبغى أن يكوّن مفهوما لنا أن المركزية العارمة فى شكل العاصمة الطاغية .. ليست إلا الترجمة المكانية للأقطاع والرأسمالية ، والأقليمية بهذا هى الوجه الآخر للمركزية أو العاصمية ، فالعلاقة بينهما حتمية وتوازنية ، وليس من الضرورى أن يتعارض الوجهان فى المجتمع المتزن السليم التركيب عمرانيا وحضاريا ، فلابد وأن يكون ذلك على حساب الآخر ، فتصبح العلاقة بينهما عكسية نصا ، والخطر دائما هو أن تتطرف المركزية بالذات نحو إفراط العاصمية بدرجة أو بأخرى ، والضحية بالتالى هى الأقاليم والريف التى تضمحل حينئذ وتضمر بالدرجة نفسها .

ولا مفر من أن نعترف بتخلف الأقاليم فى مصر وتدهورها ، وبإحباط الريف وتردى مستوى الحياة فيه إلى مستنقع حضارى راكد آسن ، ولابد أيضا من أن نقرر أن هذا التخلف وهذا الأحباط إنما يرجع مباشرة إلى تضخم واكتناز العاصمة

المتخمة المنهومة ، واستئثارها بكل أجهزة وأدوات ووسائل الحضارة الحديثة ومرفهاتها دون سائر الأقاليم والريف ، وتفاهة القرية المصرية العادية ، فضلا عن المدينة الاقليمية العادية ، لا يمكن أن تنفصل سببيا ووظيفيا عن عظمة وشموخ العاصمة العاتية .

فهناك شعور عام .. بل هى حقيقة واقعة إلى حد صارم ، أن ثمرات الحضارة الحديثة وتسهيلاتها تحجب عن أبناء الأقاليم والريف .. لتكرس حتى التخمة فى العاصمة أو العاصمتين ، وتكاد المقولة القديمة "أهل الكفور .. أهل القبور" .. تصدق على ريفنا كله ، كفورا وغير كفور ، فى أكثر من معنى .. إنه برمته "كفر" واحد حضاريا ، كفر القاهرة ، ولذا فلا علاج لإجهاض الريف وإحباط الأقاليم هذا .. إلا بتحديد وإيقاف نمو القاهرة .

هذا وليست الاقليمية أو اللا إقليمية سياسية فحسب ، بل واقتصادية أدبية كذلك ، لذلك نجد أن الحكم المحلى لا يعود إلى الاقاليم وحده ، بل ومعه الأنتاج والصناعة والثورة والملكيات ، كما أن الفنون الشعبية والآداب الفولكلورية التى طال إهمالها بل واحتقارها ، بدأت تجد تقديرها والاحترام ، ولم تعد السلطة والنفوذ والثروة والأنتاج والفنون والآداب مركزة تماما فى العاصمة ، بل وأخذت تنتشر فى لا مركزية واضحة خلال كل خيوط الشبكة القومية ، غير أن هذه البادرة لم تزل هى الأخرى فى المرحلة الجنينية . ولم يتجاوز الحكم المحلى حد الإدارة المحلية إلى الحكومة المحلية ، أو يزد عن

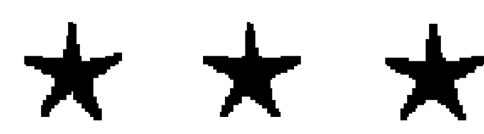
مجرد زرع بعض الطغاة الصغار فى كل محافظة باسم توزيع السلطة المركزية .

وإذا كانت الدولة تأخذ بقوة بالتخطيط القومى ، فإنها لا يمكن ولا ينبغى أن ترى فى التخطيط الأقليمى الذى هو ببساطة التوزيع الجغرافى للخطة القومية ، ترفا كماليا أو بذخا غير اقتصادى ، والملاحظ حتى الآن أننا نبدى أشد الاهتمام بالتخطيط القومى .. ولا نتعامل مع التخطيط الاقليمى إلا باستخفاف كحلية زخرفية لمجرد استكمال الشكل ، وبينما نما التخطيط الأقتصادى والتنمية الأقتصادية عندنا نموا مشجعا ومرضيا بالقياس النسبى ، مازال التخطيط الجغرافى والتنمية الأقليمية مهملة إلى حد مثير ، وهذا كله تناقض غير منطقى ، ولكنه منطقى جدا مع التناقض الأكبر بين المركزية والإقليمية وبين العاصمة والريف .

هذا وعادة ما يعترض أعداء التخطيط الاقليمى بأنها غير اقتصادية ، وأن للعاصمة الضخمة وفوراتها الخارجية وبناءهل التحتى الجاهز ، بعكس أقطاب التنمية الاقليمية التى ستبدأ كل شىء من الصفر تقريبا ، لكن هذا مرفوض علما ، لأنه منطق الحلقة المفرغة ، لا تنمية إقليمية لغياب الأبنية والأجهزة التحتية ، ولا أبنية وأجهزة تحتية لغياب التنمية الأقليمية ، ينبغى أن تتم أعادة توزيع الثورة والحضارة والخدمات بين أقاليم الدولة ، لابد ، يعنى ، من أعادة بناء أقاليمنا وأعادة تأهلها re - habiltatian إلى أقصى حد ممكن ودون أدنى تحفظات أو ذرائع .

ومن الناحية الأخرى .. فكما أن العدالة الاجتماعية لا تعنى المساواة المطلقة التنميطية ، بل العدل فى تكافؤ الفرص بين الأفراد ، فكذلك لا تعنى العدالة المكانية تسوية كل بقعة فى الدولة بمثيلاتها ، وإنما المقصود تكافؤ الفرص بين الأقاليم حتى ينمو كل منها بحسب مواهبه الجغرافية الكامنة وإمكاناته الطبيعية ، بعيدا عن ضغط الاندفاع التاريخى أو القصور الذاتى أو المواقع والمزايا التراكمية المكتسبة .

من هنا وهناك وفى المحصلة الصافية ، فلا مفر من أن تتحول العاصمة الطاغية بالتدريج وحسب الخطة الموضوعة إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب ، تحويلا لشرايين الحياة إلى الأقاليم والمدن الأقليمية والريف العريض ، إلا أن تتخلق فيها ومنها تلك الوحدات الحية القوية النابضة ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠) .



المكان وثيقته الأولى .. واسطته إليه الخريطة ، وسيلته إليهما الكلمة .. فى لغة تصويرية رفيعة ، والمرجح أن قاموسه الخاص قد تكون .. من قراءاته فى مجالات عديدة ، فيزيائية ورياضية وبيولوجية .. وليست فقط فى مجال الإنسانيات بفروعه ، ومكنته درايته بأسرار الأنجليزية والفرنسية .. من الأطلاع والترجمة عنهما بسهولة ، وقد أثرى ذلك كله من قائمة المصطلحات عنده .. واستناده إليها فى تحليلاته ، وتظهر إضافاته فى تطويع المصطلح منها .. واستخدامه فى غير

مجاله ، فمصطلحات البيولوجيا عن النمو العضوى .. يعبر بها عن عملية نمو المدينة .. فتضيؤها بالدلالة ، والمصطلحات الدالة عن الحضارات الحجرية (نيوليتى ، ميزوليتى ، باليولينى) .. يطوعها للتعبير عن التطور فى شتى مجالاته ، دون أن يتعسف فى فى أيها إلا قليلا .

ويظهر تأثير الخريطة فى لغته .. فى مهارته بالتعبير عنها بالكلمة .. متابعا خطوطها الدقيقة ، يحاول أن يجعل من كلماته بديلا للخريطة ، متصاعدا بها لتعبر عن المكان فى كلياته ، مسهبا فى مترادفاته أحيانا ، بهدف تأكيد الصورة العامة .. وقد يؤخذ عليه غموض لغته .. فى بعض محدود من تحليلاته ، وغالبا بسبب رغبته فى تكثيفها .. فتأتى محملة بما قد تنوء به من الظلال والمعانى ، فالمرجح أنه حين يكتب .. يستمد معينه من مستويات ثلاثة ، الفكرة العامة ثم المكان الأصلى ثم الخريطة ، ولكل منها رصيده اللغوى عنده .. بما قد يتداخل أحيانا ، فيبهم المعنى قليلا ، فإذا ما تواصلت القراءة .. سلست وانفرجت الزوايا ، حيث يتبين القارىء تدريجيا .. منابع ومعانى ألفاظه ، ويستوعب قاموسه .. ويألف صوره وأيقاعاته ، وينتقل إليه تدريجيا قاموس المؤلف بمستوياته .. فيأنس ويواصل طريقه .. وقد يعاود القراءة .

(.. يتلخص تاريخ الصناعة فى مصر الحديثة فى منحنى مديد كالقوس المقعر ، أو بالأحرى كسفحى واد مدرج غير منتظم ، أو إن شئت فقل كرقم ٧ وإن يكن غير متناظر الضلعين ، وضلعاه متغضنان بالذبذبات المحلية .. التى

تحددها خمس وقفات تاريخية حادة، فالضلع الساقط يبدأ من قمة محمد على الشاهقة الواعدة ، ولكنه يهوى منها بعده بعنف ، إلى أن يعود إلى الأرتفاع فى قمة أدنى بكثير جدا أيام أسماعيل ، غير أنه لا يلبث بعدها أن يتهاوى بسرعة ويتسارع فى التهاوى منذ الأحتلال البريطانى وبفعله ، إلى أن يصل مع كرومر وقبيل الحرب الأولى إلى نقطة الحضيض الدنيا والصفر المطلق ، وهنا أيضا نقطة الأنكسار فى المنحى كله ، حيث ينتهى الضلع الساقط ويبدأ الضلع الصاعد .

ببطء شديد جدا يبدأ ، وذلك مع الحرب الأولى التى منعت الأستيراد ، فأرغمت الصناعة الوطنية على شىء من الظهور الطفيف ، والأستعمار على القبول بها ؛ غير أنها تنتكس بسرعة وبحدة بعد الحرب بعودة المنافسة الأجنبية ، ولا تفيق وتعود إلى الصعود البطىء إلا فى الثلاثينات . مع فورة الوطنية المصرية وترشيد التعريفة الجمركية ، ثم تأتى الحرب الثانية ، أكثر جدا من الأولى ، لتمثل القمة الثانية والضخمة ، خط الصعود ، ورغم أنها تتعرض لبعض الأهتزاز بعد الحرب ، إلا أن ثورة يوليو لا تلبث أن تجىء لتدفع الخط إلى أقصى قمة عرفها على الاطلاق التاريخ الحديث جميعا ، منذ وبما فى ذلك محمد على ، إذ لا وجه الآن للمقارنة بين مستوى تلك البداية وهذه النهاية التى تتفوق خارج كل حدود بحكم اختلاف العصر تماما .

وعدا العلاقة العكسية أو السلبية مع الاستعمار ، والتى هى نغمة الأساس ، وإن تكن النغمة الحزينة بالطبع ، فلعل

أبرز مغزى لهذا المنحنى هو العلاقة الموجبة بين صناعتنا وبين الحروب العالمية ، الحرب الأولى والثانية ، ولولا الأخيرة كحماية طبيعية قسرية ، لما أنتزعنا أول خيوط التصنيع من بين براثن الأستعمار ، أو بالأصح من فك الأسد المفترس ، وبهذا الايقاع وهذا النبض .. تبدو حركة صناعتنا أشبه بحركة القمح وعكس حركة القطن فى زراعتنا ، تزدهر أثناء الحروب العالمية .. وتنتكس بعدها أو بينها ، وإذا كان أثر ترشيد التعريفة الجمركية سنة ١٩٣٠ .. يمثل استثناءً جزئيا من هذه القاعدة أو العلاقة ، فإنما هذا يأتى ليكمل القصة باللمسات النهائية فقط .

فالقصة فى واقع الأمر تكتمل مراحل وضوابط فى هذا السيناريو : بعد ولادة الحرب الأولى الجنينية ، كان ترشيد التعريفة الجمركية بمثابة حضانة وحصانة للصناعة الوليدة ، ثم كانت الحرب الثانية فأتت بالمزيد من المناعة والدفعة ، عبرت بها الصناعة من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الصبا والمراهقة ، إلى أن جاءت يوليو أخيرا .. فعبرت بالصناعة من مرحلة البلوغ والمراهقة إلى سن الرشد والشباب حاليا ..) (من كتاب شخصية مصر ، جـ ٣ ، ص ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩) .



المكان كائن عضوى .. تلك من فروضه الأساسية بلا شك ، إذ كيف نبحث عن شخصيته .. بل وعبقريته .. دون رؤيته فوارا متدفقا بروحه الخاصة .. متجليا بها فى ظواهره جميعا ، تجليا يبرز به الإنسان بثقافته وتاريخه ، ثم يتدرج

إلى غيره من الكائنات الحية .. دون آن ينقطع فى الجوامد ، حيث تشملها العلاقات العضوية جميعا .. بقوانينها العامة ، هذه التى حين وضع يده عليها .. باتت من أهم أدواته ، مستكشفا بها روح اقليمه ـ وسابرا أغواره ، مدللا على عضويته .. بما تتعرض له ظواهره من "تغير" دائب .. حيث لا جانب أيها يبقى مطلقا على حاله ، ومتتبعا لها فى دورة وجودها .. سواء كانت مجتمعا أم نباتا أم هضابا ، تصعد جميعا دورة حياتها .. على منحنى يبدأ بالطفولة وينتهى بالشيخوخة .. مفضية إلى دورة جديدة ، ثم هى "تتفاعل" .. عبر ما لا يحصى من خطوط التبادل ، وهى أيضا "تتلاحم" وتختلط وتتماذج .. وتتوحد شرايينها فى بنية مركبة .. معقدة .. بقدر ما هى حال تبينها بسيطة ، وهى حين تتمايز .. لا تنقطع ارتباطاتها بغيرها بتاتا ، بل تتواصل منداحة فى دوائر .. تضمها مع غيرها .. فتمس جزئية من بنية الأرض العامة ، بل هى أيضا تتحرك .. ليحل بعضها محل الآخر .. سواء كانت بشرا أم صحراوات أم بحارا ، كما هى تتكيف .. إنسانا ونباتا وحيوانا ، وتقاوم عوامل الفناء .. كل بطريقته الخاصة ، بهذا وغيره .. دفع عن مشروعه أن يكون جامدا أو سكونيا .. على حد تعبيره ، والواقع أن اختياره لفرضه الصعب "المكان كائن عضوى" .. كان أيضا أستجابة لدينامية عقله وقدراته ، ولولا ذلك ما أستطاع أن يمضى فى تطبيقه بطول وعرض مشروعه ، فجاءت تطبيقاته مجلوة معبرة عن الواقع وعن تصوراته ، بل وصعد بفرضه العضوى خطوة .. وتمثله كدراما ، دراما الإنسان المصرى .. كما هى

دراما الطبيعة . يدق مع الكوارث طبوله .. ويعزف عند الرخاء بمزماره ، باحثا فى المكان عن نبضاته .. وفى التاريخ عن ايقاعاته ، ناشرا أضواءه فوق ما ينفع وطنه .. فهذا هدفه النهائى .

● (.. لعلنا الآن فى موضع يسمح لنا بأن نصل إلى قانون هام للغاية فى كيان وتكوين مصر ، وفى شكلها وتشكيلها ، إنه النيل يكاد يحكم تشكيل كل مظاهر العمران تقريباً ، وتوزيع الحياة من حوله ، ويضبط ايقاعها فى كثافة معينة ، تقل بصورة عامة .. كلما بعدنا عنه شرقا وغربا ، فكل شىء فى مصر تقريبا يميل إلى أن يقل وزنا وقامة .. وربما قيمة كلما بعد عن النهر ، عدد السكان ، كثافتهم ، أحجام المدن ومعدل تباعدها بل وأحجام القرى ، مستوى أحياء المدن وثرائها والتوزيع الجغرافى للطبقات الأجتماعية داخلها ، ومن تحت ذلك كله سمك رواسب التربة الفيضية ونسبة الطمى المخصب فيها ، ماء الرى نفسه ، فضلا عن منسوب الأرض الطبوغرافى البحت ، حتى اللغة (بالمناسبة أو الأستطراد) النيل يحكمها هى الأخرى بنفس النمط والأيقاع فيما يبدو .

ذلك إذن ايقاع الحركة الأساسية فى مورفولوجية مصر الطبيعية .. وفى وجه مصر البشرى ، إن الوادى كله بفضل وحدة الأصل النيلى .. يخضع لايقاع ونغمة موحدة ، تتطور ببطء وبتدريج شديد فى الطبيعة واللاندسكيب والمجتمع ، أى أن النمط البشرى يكاد يتناسب طرديا مع سمك غطاء التربة النيلية من تحته ، وسطحه محدب كسطح الوادى أسفله ،

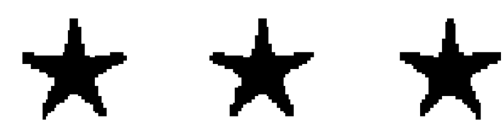
ومصر في مجمل جسمها البشرى .. بشكله الخطى الدقيق النحيل ، المكثف المتضاغط مع ذلك ، وبانحدارات كثافته الموقعة والموزعة ، مصر أقرب شيء إلى سلسلة جبلية طويلة عالية ، تنحدر بانتظارم من ذروتها في الوسط ، عبر سفحين متناظرين إلى سفح الجبل وأقدام السلسلة على الأطراف .

وإذا كان معنى هذا أن التدرج الهامشى هو قاعدة الحياة البشرية .. وقانون مورفولوجية جسم مصر ، فإن معنى آخر أن النيل .. كما هو مانح الحياة موضوعا Life Giuer .. فإنه شكلا موزع أو رشاش الحياة Life Sprayer علي وجه الدقة ، حيث يقل عطاؤه نوعا بالتدريج على الأطراف ، إن طبوغرافية النهر ترسم تضاريس المجتمع أو الطبوغرافيا الاجتماعية ، النهر مرة أخرى .. هو جغرافى مصر الأول والأكبر .. إنه النهر الجغرافى .

معنى هذا أيضا وأخيرا .. أن النيل على كل امتداده من الشمال إلى الجنوب .. هو قمة مصر طبيعيا وبشريا ..، وإن بدا القاع تضاريسيا ، إنه محور مصر وعمودها الفقرى الصلب ، علي سيولته الرجراجة ، يمثل خط الذروة فيها كسلسلة السمكة أو الجبال أو كالهرم منه تنحدر وتدق وتخف شرقا وغربا فى كل شيء .

باختصار .. النيل هنا .. هو اللحن الأساسى فى السيمفونية الجغرافية ، وإن المرء ليشعر بسهولة تامة ، أن كل قوة مصر وحياتها وكيانها .. تحتشد وتتركز بكل كثافة في

خط واحد محدد هو النيل ، ما من إقليم فى العالم بالتأكيد تتركز كل قوته في خط وحيد مثلما تفعل مصر النيلية ، إنه خط "القوة العظمى" بها فى الاستقرار ، مثلما هو خط المقاومة الدنيا فى الحركة ، ومصر بدورها إذن نيلية التركيز والاستقطاب Nilo Centric . فالنيل ليس عصب وشريان مصر وشارعها الرئيسى فحسب ، ولكنه كذلك مرآتها ومغناطيسها وموجهها ، وهو الذى يمنحها التجانس التركيبى ، ويعطيها نسيجا شبكيا متدرجا فى آن واحد ، وتقع هذه العلاقة الحميمة كلها لا من خلال حتم جغرافى موهوم أو مزعوم .. وإنما ببساطة من خلال مطلق السببية العلمية ..) (شخصية مصر ، جـ ٢ ، ص ص ٢٠٩ ـ ٢١١) .



لم يكن المكان وحده عضويا عنده .. بل التاريخ أيضا ، ليس فقط بهدف بعث الحيوية والتدفق فى ظواهره ، وإنما أيضا كضرورة منهجية ، فالتاريخ رصيده .. والجغرافية حقله ، وشخصية مصر بنية متدامجة جغرافيا وتاريخيا .. متلاحمة فى الزمان والمكان .. فكيف يفصم مكانها عن زمانها ؟، ومن ثم .. فلم تفلت ظاهرة مكانية .. دون متابعتها زمانيا إلى جذورها ، بحيث لو قسمنا متنه فرضا .. فسينجلى عن نصفين شبه متعادلين للتاريخ والجغرافية ، وتتراوح معالجته التاريخية .. ما بين الإطلالة الشاملة .. لمئات من السنوات .. يلخصها فى فقرة ، وما بين المتابعة التفصيلية

التى تشغل عشرات الصفحات .. بل وفصولا بأكملها (شخصية مصر الجنسية ، ص ص ٣٠٨ ـ ٤٧٨ ، جـ ٢) مثلا ، عدا أخرى عديدة تقل عنها ، لكنه يعود فيلخص سياقاتها .. فى معادلة مكثفة .. هى بالضبط ما يهدف إليه .. وما يسعى لاثباته من ملامح شخصيتها الاقليمية الأساسية ، وربما تكون مقولاته الفكرية من نتائج رحلاته التاريخية أو العكس ، فكيف يثبت "المركزية ، والانقطاع والاستمرارية ، وملكة الحد الأوسط ، والاعتدال والتجانس والتوسط ، وغيرها من المقولات الثرية بمستوياتها والمتشابكة بأبعادها ، دون أن يجدف فى النهر مرة .. ويشرع قلوعه فى البحر مرة . ويملح ويبحر .. فى طبقات التاريخ المتراكمة ، ولقد يبطىء أحيانا ويسهب .. ربما للمتعة أو لأن الرياح لم تكن مواتية ، فيضطر للغوص بنفسه .. ويقتضى ذلك منه صفحات ووقتا لا يضن به ، ثم هو يتوقف عند الموانى والجزر .. ليجادل ويحاور .. ويستخلص المعنى .. إما من خبرة من سبقه .. وهم كثر .. ومؤلفاتهم متضخمة حجما ، وإما بجدليته الخاصة مع فروضه الأساسية ، فهو لا ينى عن تقليبها عبر مراحل التاريخ المختلفة ، ويقارن بينها وبين آراء غيره ، ولا يتراجع عن خوض معركة .. يشهر فيها أسلحة نقده .. فلا تنجلى غالبا إلا وقد دحر خصمه (راجع معركة النيل والفرات ص ٤٠٣ ـ ٤٠٨ ، جـ٢) ، ورغم بحثه الدءوب عن المنحنى التاريخى فى صعوده وهبوطه .. إلا أنه يلجأ دائما لتقسيماته الخاصة لمراحله ، تقسيما يتفق مع مقولاته ويوضح فروضه .

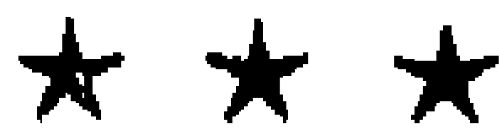
ثم هو يربط بين جزئياتها .. فليست عنده جزئية مستقلة ، وإن شذت أو واجهته صعوبات موضوعية أو منهجية .. فهو إما أن يراها من باب اثبات القاعدة .. أو يترك أمرها للمستقبل .. (راجع تحليلاته للسد العالى .. كذروة لتطور الرى المصرى ، جـ ٢ ، ص ١٠١٦) ، وتتجلى مهاراته التوقيعية المستقبلية .. مستندة إلى قراءة تاريخية ، فلا تجاوز خطوة للأمام بعدها ، متسقا مع إدراكه بكم المتغيرات اليومية .. وأحيانا شبه الانقلابية ، هذه التى قد تخالف بعضها .. حتى القريبة منها ، ومن ثم يعود فيفسرها .. بأن السياسات الغشوم . تفسر التاريخ كما تفسد الجغرافية ، ولكنه لا يفقد يقينه بصلابة توقعاته ، ويعود فيؤكد بأن التاريخ يوما سيصحح .. وكذلك الجغرافية ، يدل على ذلك تحليلاته عن إسرائيل وقضية العرب معها (جـ ٤ ، ص ٦٣٢) ، بل هو يرى بأن متنه كله عن شخصية مصر .. وثيقة تاريخية .. وإن كانت جغرافية ، فالمكان ذاته يتغير يوميا ، انظر قوله (.. وإنما عذرنا .. وهو أيضا رجاؤنا ، أن يكون النص بصورته الأصلية وثيقة تاريخية دامغة ، مثلما هى صافعة لكل من كان له قلب أو لم يزل .. أو القى السمع وهو شهيد ، وتذكرة وعبرة لمن لم يفقد بعد آخر قطرة من حسه الوطنى والقومى ..) ، فهل كان أيضا يقصد نفسه ؟.. ربما .. ولكن هذه مسألة أخرى ، وربما أيضا آن أوان عرض ما يوضح منهجه التاريخى ويفسر أهميته عنده .

● (.. شخصية أى بلد هى كجبل الجليد الطافى ، لا

يظهر منه إلا اقله .. وهو الجغرافية المعاصرة ، أما الجسم الغاطس الأكبر فهو البعد أو العمق أو الوراء التاريخى ، والأمر فى هذا ليس مجرد اهتمامات أنتيكية antiquarian أو ولع بالماضى ، وإنما الجغرافية الحالية لأقليم ما .. هى إلى حد أو آخر محصلة جغرافيات الماضى ، ومن أجل هذا قيل أن الخريطة الجغرافية وثيقة اجتماعية ، الخطوط التى عليها هى خط يد التاريخ ، ومن أجله أيضا قيل كذلك أن التاريخ هو البعد الرابع للجغرافيا ، بل ويذهب "جونز" إلى حد القول بأنه "إذا كانت الجغرافية قد أصبحت تعنى دراسة علاقات الإنسان ببيئته الطبيعية .. فإن كل الجغرافية هى إذن جغرافية تاريخية ، ومن هنا جميعا تصبح الجغرافية التاريخية ، عنصرا جوهريا .. فى دراسة الشخصية الاقليمية ، لأنها بإيجاز متوسط التاريخ مضروبا فى جذر الجغرافيا .

والتاريخ بعبارة أخرى هو منجم للجغرافية ثرى لا ينضب ، منه تستمد خامة ثمينة لا غنى عنها ، وهو إلى ذلك معمل الجغرافية البشرية . يقدم لها تجارب الماضى التى لا بديل عنها ، حيث يستحيل إجراء التجارب على الإنسان والمجتمعات المعاصرة ، ويندمج العلمان فى الجغرافية التاريخية ، التى هى جغرافية ديناميكية متعددة الطبقات والأعماق ، وبصيغة أخرى لا جغرافية بلا تاريخ أكثر مما هناك جغرافيا بلا خرائط عموما ، كل الفرق أن الخريطة أداة أما التاريخ فمادة ، الخريطة وسيلة إيضاح وأسلوب تعبير ، أما التاريخ فخامة للتشكيل ومصدر للتقنين ، وكما أن تاريخ

مصر ككل .. تاريخ لا يمكن فهمه بغير جغرافيتها . كما يدرك كل مؤرخ واع ، فإن جغرافية مصر ككل .. جغرافية تفقد الكثير جدا من معناه ومبناها ، ومن مغزاها ومحتواها .. بغير تاريخها ، ولعل الجغرافيا التاريخية لهذا كله .. هى من بين كل الجغرافيات أكثر ما يسبر روح أى إقليم ويعبر عنه فى جوهر كيانه ، ليس فقط بكشف الثوابت المتكررة .. أو المتغيرات فى سلوك الأقليم ودوره ، ولكن أيضا الإحاطة والشمول والعرق الزمنى .



لم تفت حمدان .. جماليات المكان aecsthetics of Landscape ، ليس فقط فيما يتحسسه من قسماته .. أو يتسمعه من إيقاعاته .. أو يتشممه من روائحه .. أو يصوره من ألوانه ، أو غير ذلك مما يبثه دافئا بين سطوره ، وإنما أيضا بتوجه خاص .. يضع له المقاييس .. ويفرد له الصفحات ، وكأنه يدفع عن تخصصه .. ما اشتهر به من صلابة الحقائق .. وخشونة السياق .. هامسا بقلمه .. كم الجغرافية علم جميل ، ورغم أن رؤيته لتجليات الجمال .. وظيفية فى الأساس ، تتمثل فى التجانس والتناسق والاتساق .. وفى إنسيابية الحركة وتكامل الأجزاء ، إلا أن غرامه يتبدى فائقا أيضا بجمال الأوصاف ، جمالا فطريا مزوقا بذاته .. متزينا لذاته .. معطرا من ذاته .. ظاهرا وخفيا ومتعريا .. متعابثا ورصينا .. يعلن بشتى الطرق عن ذاته ،

ولكنه لا يدع غرامه يغلبه .. فهو يدرك ما قد يصيبه من العائلة الجغرافية المحافظة بالطبيعة .. إن لم يكبح غرامه ، فليس أقل من اعتباره شاعرا أو أديبا .. تبعا لتقاليد العائلة الوقورة ، فيعود خفيفا .. بعد أن يبث فى بعض السطوز مكنونه ، ليدمج ذاتية الجمال في موضوعه ومضمونه .. منقبا عن النفعية والوظيفة ، واضعا جماليات المكان فى سياقها الاقتصادى ، باعتبارها من موارده وامكاناته ، وتتركب رؤيته الجمالية بذلك من مستويات ثلاثة ، بما يضيفه إلى المستويين الشكلى والوظيفى .. بهذا المستوى اقتصادى ، موضحا أن استثمارها وتنميتها .. لابد وإن تتضمنها بداية سياسة عامة . تترجم تفصيلاتها إلى برامج ، تبدأ بالمحافظة على مقوماتها الخاصة .. وتمنع تدمير أو تشويه الطبيعة ، وتعلو بتنميتها .. استنادا إلى خصائصها الذاتية .. وليس بالمشروعات الزاعقة الدخيلة ، وتتضاعف بتكاملها مع جماليات التاريخ والثقافة ، فتاريخ مصر .. وإن يك فائق الجمال حقا .. إلا أن نفعيته تتدفق من تفرده المكاني ..، وتفيض خيرا إن اتصلت بغيرها .. من مجالات الانتاج الاقتصادى ، بحيث تصب فيضها في البنية الاقتصادية للعامة ، ولا يقتصر نفعها على شريحة بعينها .. وإنما يعود على الشعب جميعا .

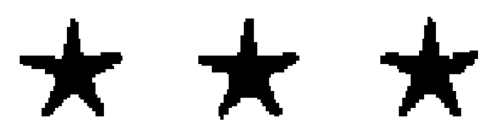
● (.. الواقع أن من الخطأ أن نقلل ـ كما فعل هيرودوت قديما ـ من جماليات الأقليم فى مصر ، حقا إن مصر تخلو من الغابات والجبال .. قطبى السياحة الباردة ، ولكنها تملك فى النيل ما يمكن أن يعد بمثابة عقد متصل ـ لا ينفرط بين

البحيرات السويسرية أو الأيطالية مجتمعة ، وحقا إن اللاندسكيب المرئى فيها زراعى من صنع الإنسان .. ولكنه دائم الخضرة والروعة والثراء ، وليس متوسط الجمال أو بسيطا كما يصوره البعض ، ومن ثم فاللاندسكيب المصرى سياحى بدرجة كبيرة ، وموهبة مصر السياحية تكمن فى الأرض بقدر ما تبرز فى المناخ ، والسياحة في مصر "جغرافية" .. فى كل معنى ، بمثل ماهى "تاريخية" إلى أقصى حد .

إن التجانس الطبيعى حقيقة ملموسة ، ولكنها ليس صورة باهتة .. خالية من هزة التباين ومفاجآت التغير ، فذلك أمر ينفيه التدرج الأساسى ، فضلا عن دقائق التفاصيل المحلية والموضعية التى لا تنتهى ، ويقول "فيدون" - إنه نظرا لشفافية التباين ودقائق التغير فى اللاندسكيب المصرى .. فقد يظن المرء خطأ أنه لا ملامح له ، وقد يصل الظن أخيرا إلى أنه لم ينتقل أبدا .. وأن تقدمه لم يكن إلا وهما ، فبعد سفر طول النهار .. قد تحسب انه لم يكن ثمة إلا منظر واحد عبره شاهدت تلاعب الضوء والنور والشكل اللانهائى ؛ هذا فجر وهذا ظهر وهذا غروب ، فهذا الحكم اقل من نصف الحقيقة ، وإلا فماذا نقول عن هولنده أو الدانمرك السهليتين مثلا ؟ ولعلهما أكثر من مصر تجانسا طبيعيا تجانسا ورتابة .

ولا ننسى فى النهاية أن جانب المنفعة فى اللاندسكيب المصرى .. يرجح الجانب الجمالى على قوته ، فهو منتج غزير الأنتاج ، وليس مجرد زخرف طبيعى فحسب ، وكثيرون -

يقينا ـ يغطبوننا على طبيعتنا ، أو يودون لو استبدلوا ببيئاتهم المشجرة المضرسة بكل جمالياتها بيئة كمصر ، تجمع بين روعة المناخ وبراعة الإنتاج دون أن ينقصها المنظر الطبيعى ..) .



تعدد الأبعاد والجوانب في شخصية مصر وكذلك المصرى من أهم ما توصل إليه فى دراسته عنها ، تعددا يعود به إلى أبعاده الجغرافية وأغواره التاريخية ، ويختبر سماته على محك نظريته الأساسية عن الموقع والموضع ، فهى على مستوى القارات .. أفريقية وآسيوية ، وهى على المستوى الأقليمى نيلية وبحر متوسطية ، ولكل بعد منها تأثيراته فى شخصيتها ، كما أن له مقتضياته السياسية ، وهى على محور التاريخ والثقافة .. فرعونية بحر متوسطية عربية ، بكل ما يعنيه ذلك من تنوع توجهاته ، وهى قد تشربتها كلها داخل بنيتها .. فلم تؤدى مثل غيرها إلى أنفصام الشخصية .. ولم تصبها بدوار جغرافى على حد قوله (ص ٤٥) ، فقد أتاح لها تاريخها الطويل أن تستوعب معطياتها جميعها ، وذلك فى إطار سمة أخرى قدرها لها .. وأسماها .. ملكة الحد الأوسط .. أو الاعتدال كخاصية أساسية فى الشخصية المصرية ، ولا تقل هذه أهمية عن "تعدد الجوانب" .. فى المحصلة الأخيرة لدراسته ، بل هما (التعدد + الاعتدال) .. بمثابة شقى المعادلة ، يؤدى عدم اقترانهما أو ضعفه .. إلى شروخ فى الشخصية ، أى أن مصر قد امتصت تعددها باعتدالها ،

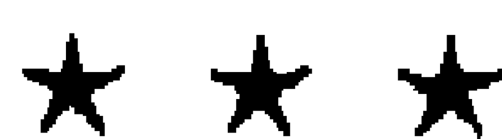
ومزجت بين تنوع أبعادها .. بملكة الحد الأوسط ، متوصلة بذلك إلى ما أسماه بـ "الاستمرارية" ..، وهذه سمة ثالثة أخرى... .لا تقل أهميتها عن سابقتيها ، وإذا كانت استمراريتها قد تقطعت ظاهريا .. فقد بقيت سارية في دفائنها ، مؤدية آخر الأمر إلى ما يمكن تحديده جملة في شخصيتها ، ولا يعنى ذلك خلوها من شوائبها .. على كافة مستوياتها .. السياسية والاجتماعية والفردية ، بل على العكس .. هيَ تعانى فى جميع هذه المستويات من أمراضها ، ولكنها تواصل طريقها ، وقد آن لها أن تواجه نتائج ما اختارته وما فرض عليها ، مستندة إلى سماتها (التعددية + ملكة الحد الأوسط + الأستمرارية) .. متطهرة من أوخامها وأوشابها .

(.. ماهى خصائص الشخصية المصرية ؟. التدين على رأسها .. مردودا لحضارتها الزراعية ، بكل ما يتصل بها من سمات الصبر والدأب والجلد والتحمل ، ثم المحافظة .. نتيجة للاستقرار وبسببه ، فالاستقرار استمرارية والاعتدال .. وإن يكن غير بعيد عن المحافظة ، ولكنه يوفر هامشا معقولا من المرونة والتلاؤم والتغيير والحيوية .. التى تضمن له على أقل تقدير القدرة على التطور البطىء ، التطور خطوة خطوة وبالجرعات الصغيرة ، وبالتالى تضمن له البقاء الطويل على المدى البعيد ، وبحكم الاعتدال فالمصرى أميل للشخصية الاجتماعية المنطلقة extrauery غير المنغلقة ، كما أنه أجنح للتعاون منه للتنافس ..، ومن الاعتدال إلى الواقعية ، فقد

علمته البيئة والتجربة .. أى الجغرافية والتاريخ .. احترام الواقع .. وعدم الانفصال عنه أو التناقض معه ، وإلا فهو يهرب منه بالتدين أو يواجهه بالنكتة ، ومن المسلم به أن مصر لم تعرف كراهية الأجانب قط Xenophobia .. بحكم موقعها وسط الدنيا ، لم تعرف العنصرية أو التعصب الجنسى ، ولا رفضت الاختلاط الصحى بالغير ، ولا عرفت حاجزا لونيا فى تاريخها ، ولقد رأينا كيف امتزجت العناصر فى مصر كيماويا ، وذلك بفضل قوة امتصاص نادرة ، ولعل الشىء نفسه يمكن أن يقال عن الناحية الدينية ، فالتسامح الدينى من أقدم خصائص المصرى القديم ، جعلته يتقبل الأديان ويقبل عليها على مر التاريخ ، وليس صدفة على الأرجح أن مصر هى التى أضافت إلى المسيحية الرهبنة ، وإلى الإسلام من بعدها التصوف ، كما لم تعرف المذابح الدينية أو محاكم التفتيش ، فقد جب تعدد الأديان التعصب الدينى وجعل التسامح ضرورة حياة ، أما فى الحضارة فلا يبرز عنصر التوازن والاتزان والاعتدال والتعادلية ، كما يبرز فى التفاعل مع الحضارة الغربية الحديثة ، والمدنية المصرية اليوم تجسيم واضح لتعاصر القديم والجديد ، وريفنا بدوره يمثل تضاغطا للتاريخ فى أكثر من ناحية ، فإلى جانب المحراث والشادوف وغيرهما من أدوات القرن العشرين قبل الميلاد ، نجد الجرار والخزان وغيرهما من نتاج القرن العشرين بعد الميلاد) .

والواقع أن المثير حقا فى كل هذا .. هو كيف تتمتع مصر بنظرة عالمية رحبة الأفق كوزموبوليتانية ، دون أن تفقد قوامها

الذاتى ، وكيف أن الجوهر الدفين فيها لا ينسخ وإنما يتناسخ ، ولكن يمكن أن نضعها كقاعدة .. إن مصر كلما زادت تغيرا وتطورا .. زادت شخصيتها وذاتيتها تأكيدا واستمرارا ، كأنما هى تجسيم للمثل الفرنسى المعروف . كلما تغير ذا .. كان ذا نفس الشىء .. Pluscachange Pluscest La meme chose حتى فى الماضى البعيد .. مصر كانت "تمصر" كل جديد ، تهضمه وتمثله وتفرزه كائنا مصريا صميما .. الموجات الأجنبية ابتلعتها ومصرتها ، الرعاة امتصتهم فى قالبها الفيضى .. وصاروا زراعا مستقرين ، هذا عن مصر القديمة .. أما اليوم فيقول فيدون .. "مصر عازفة عن أن تكون أى شىء إلا مصر" ، إن ملكة الحد الأوسط هى بوضوح كلمة المفتاح فى شخصية مصر الحضارية ، فى مواجهتها للجميع ، وفى التوفيق بين الماضى والحاضر ، بين المحلية والعالمية ، بين الأصالة والمعاصرة ، وبين التراث والاقتباس ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ص ٥٢٤ ـ ٥٣٤) .



تعود جسارته الفكرية .. إلى عقله وقوة روحه الفطرية ، آثر باعتزاله ألا يبددها .. فى صراعات جانبية ..، قد شحنت بقدرات ومهارات متوثبة .. هى نقيض العزلة .. وفى نفس الوقت تعوض عنها .. فاستثمرها مكثفة فى عمله .. ولم يضيعها ، مكنته جميعها من مواجهة الحقائق .. فى عيتها (جـ ١ ، ص ٢٠) ، مستندة إلى مكتبة موسوعية .. من الناحية الموضوعية ، والى الإحاطة بمقاييس الفحص .. من

الناحية المنهجية ، هو يقرأ أولا .. ويسجل الفكرة .. ثم يقرأ ثانية .. للإحاطة بأبعادها .. ثم يقلبها ويتأمل جوانبها .. وقد يكتب أنذاك بعض خواطره عنها ، ثم يقرأ مرة أخرى .. غير متعجل أو متحيز .. عن النظرية ، باحثا عن تطبيقاتها فى العلوم الأخرى .. محددا تغيراتها ومستوياتها .. ومتفاعلا برأيه الخاص معها ، ثم يربطها وهى جزئية .. بالمنظومة العامة لمشروعه .. ويرتق ثقوبها .. ويجمع خيوطها .. ويكشف تناقضاتها .. ويعالجها ، ساعيا لوحدتها ، وحين يتأكد أن صافى ذهنه .. قد غدا معادلاً لموضوعه .. ومعادلا لكل ما كتب عنه قبله ، يشرع قلمه .. وتبدأ معاناته الحقيقية .. ذلك أنه يطمح لأنه يدمج ما فى ذهنه مع موضوعه مع جملة ما قرأ عنه ، طامحا أيضا لأن تكون لغته علوية فلسفيا .. واقعية جغرافية .. فنية صياغة وايقاعا ورسما ، وقبل ذلك وبعده .. مصيبة كبد الحقيقة .. كالمشرط . ومن معاناته تنبثق متعته .. تشعر به مستمتعا وهو يكتب ، متعة شخصية .. بغض النظر عن أهمية القضية ، مبعثها اندماجه فيما يعرض .. وحرصه على النفاذ إلى روحه ولبه وتفريغ أيها من صديدها المزمن يقلبه بكلماته على شتى الأوجه ، يتحسسها أولا ثم يتعمق ، يتلمس حروفها .. ثم يستطعم .. ويتابع فيضها وثبا ، كل تفصيلة تهمه وكل ثنية .. فيقربها ويكبرها بالكلمة ، وكما اندمج من قبل فى القراءة والفكر .. هو الآن مندمج فى الكلمة ، لا يرضى ولا يقنع .. إلا بأن تكون مشعة بما فى باطنها .. فيصدق ويصدق ، يعرى بها ويكشف

فى جرأة .. فبعد كل هذا .. كيف يكذب ؟ لقد وعد بأن يواجه الحقيقة فى عينها .. وفيما يلى ما يدل على صدق وعده .

(.. قضية إعادة بناء الإنسان المصرى .. هى ببساطة .. قضية هرم الديكتاتورية المصرية الغاشمة الجهول ، ودك صرحها الاجرامى العاتى المتهرئ ، وتصفية الطغيان الفرعونى المخضرم المتقيح البغيض .. تصفية أبدية ، وهى قلعة الاستبداد المصرى الشوهاء المشئومة ، ومن هنا .. فحين يأتى الحديث عن إعادة بناء الإنسان المصرى والشخصية المصرية من أعلى .. من وكر السلطة الغاصبة ، فلكم يبدو حديث إفك حقا ، ولكم يبدو منتهى السخرية وقمة الاستخفاف بالحق والعقل والعلم ..) ، (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٥٢١) .

● (.. إن معظم سلبيات وعيوب الشخصية المصرية .. إنما يعود أساسا .. وفى الدرجة الأولى إلى القهر السياسى الذى تعرضت له ببشاعة وشناعة طوال التاريخ ، هذه .. ولا سواها نقطة الابتداء والانتهاء .. مثلما هى نقطة الاتفاق والالتقاء ، السلطة ، الحكم ، النظام ، الطغيان ، الاستبداد ، الديكتاتورية ، البطش ، التعذيب ، التنكيل ، الإرهاب ، الترويع ، التخويف ، تلك هى الآفة الأم .. وأم المأساة ، ومن هنا .. يجمع الكل على أن النغمة الأساسية أو اللحن الخفى المستمر وراء الشخصية المصرية فى علاقتها بالسلطة ، ومفتاح هذه العلاقة التعسة ، هو العداء المتبادل والريبة المتبادلة ، هى الحب المفقود .. والبغض الموجود .. بلا حدود ..) ، (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ٥٢٢) .

●● (.. روح السماحة والدماثة . المقولة تلك .. هى أيضا المسئولة الأولى عن واحد من أخطر عيوب مصر .. وهى أنها تسمح للرجل العادى المتوسط .. بل "للرجل الصغير" بأكثر مما ينبغى .. وتفسح له مكانا أكبر مما يستحق ، وفى الوقت نفسه ، وكأنما لتضيف الإهانة إلى الجرح .. فإنها على العكس تضيق بالرجل الممتاز ، إذ لا مكان له فى توسطها ووسطيتها ، وأفضل مكان له خارجها ، فشرط النجاح فى مصر أن تكون اتباعيا ولا ابتداعيا ، ومواليا لا معارضا ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٥٣٩) .

●●● من المركزية إلى الطغيان ، فلا جدال أن الدولة المركزية ، والمركزية العارمة ملمح ملح وظاهرة جوهرية فى شخصية مصر ، فبقوة المركزية الجغرافية .. فرضت المركزية السياسية والإدارية نفسها فرضا ، فى شكل حكومة طاغية الدور .. فائقة الخطر ، وبيروقراطية متضخمة وعاصمة كبرى .. منذ الفرعونية وحتى اليوم ، ومنذئذ وإلى الآن كقاعدة أيضا .. أصبحت المركزية والحكومة والبيروقراطية والعاصمة .. أطرافا أربعة أو مترادفة لمشكلة واحدة مزمنة ..) (شخصية مصر ، جـ ١ ص ٤٠) .

●●●● وسواء أكانت مصر أم الدنيا أو أم الديكتاتورية .. أو كان حاكم مصر هو أقدم أمراضها . كما يذهب البعض ، فلا شبهة أن الديكتاتورية هى النقطة السوداء والشوهاء فى شخصية مصر بلا استثناء وهى منهج كل

السلبيات والشوائب المتوغلة فى الشخصية المصرية حتى اللحظة ، ليس على المجتمع فحسب . ولكن الفرد أيضا ، ليس في الداخل فقط ولكن فى الخارج كذلك ..) (شخصية مصر ، جـ ١ ص ٤١) .

●●●● ولقد تغيرت مصر الحديثة فى جميع جوانب حياتها .. بدرجات متفاوتة ، إلا نظام الحكم الاستبدادى المطلق .. والفرعونية السياسية وحدها ، فهى ما تزال تعيش بين أو فوق ظهرانينا بكل ثقلها وعتوها ، وإن تنكرت فى صيغة شكلية ملفقة هى الديموقراطية الشرقية ، أو بالأحرى الديموكتاتورية ، والمؤكد أن مصر المعاصرة لن تتغير جذريا ، ولن تتطور إلى دولة عصرية وشعب حر ، إلا حين تدفن الفرعونية السياسية مع آخر بقايا الحضارة الفرعونية ..) (شخصية مصر ، جـ ١ ص ٤١) .

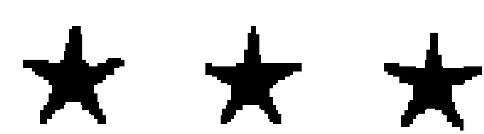
●●●● والحقيقة أن الحكومة هى كل شىء فى مصر ، تحكم كل شىء ، ووحدها تملك كل شىء ، بما فى ذلك الحكمة والرأى الصواب وفصل الخطاب ، ولما كانت الحكومة ملك الحاكم ، والوطن ملك الحكومة ، فإن مصر فى النهاية ليست شعبا له حكومة بقدر ما هى حكومة لها شعب ، حتى ما يسمى في مصر الثورة .. هو حكومى أيضا ، انقلاب عسكرى .. أليس انقلابا من الدولة على الدولة ؟ انقلاب جزء من الدولة على الدولة ..) (جـ ٤ ، ص ٦١٠) .

●●●● (.. لقد تحرر الإنسان المصرى أخيراً .. أو يوشك على التحرر من التخلف ، ولكنه لم يتحرر قط أو بعد من

الأسر ، لقد ظفر بالتنمية نسبياً ، لكنه لم يظفر بالحرية إطلاقاً ، أصبح إنسانا متقدما نوعا .. لكنه ليس إنساناً حرا حقا ..) (جـ ٤ ، ص ٦١٤) .

●●●● (.. ومصر التى كانت ومازالت هى حاكمها ، لن تتطور وتصبح شعبا حراً ، إلى أن تصبح هى شعبها لا حاكمها ، وإلى أن تصبح ملكا لشعبها ، راقيا عزيزاً أبيا فى دولة حقيقية متقدمة متطورة ، إلا إذا صار الشعب هو الحاكم والحاكم هو المحكوم ، فى كلمة واخدة .. لن تتغير مصر فى جوهرها الدفين .. ولا مستقبل لمصر .. إلا حين يتم دفن آخر بقايا الفرعونية السياسية والطغيان الفرعونى ..) (جـ ٤ ، ص ٦١٣) .

●●●● (.. وبالمثل إذا كانت مصر لم تعرف طبقة حاكمة ، فإنها لسوء الحظ عرفت العصابة الحاكمة (ولا نقول أحيانا الحثالة الحاكمة) ، بمعنى عصبة مغتصبة تستمد شرعيتها من القوة غير الشرعية ، ومن هنا فلئن كانت مصر الطبيعة حديقة لا غابة ، فقد كانت على العكس بشريا غابة لا حديقة ، وإن كانت زراعيا مزرعة لا مرعى ، فقد كانت سياسيا مرعى لا مزرعة ، وبالتالى وكثيرا ما كانت مصر إلى حد بعيد حكومة بلا شعب سياسيا ، وشعبا بلا حكومة اقتصاديا ..) (جـ ٤ ، ص ٥٧٦) .



لا ينتهى الموضوع عنده بالتحليل والتشخيص .. بل يتبعه فورا بالعلاج ، ويبدأ التشخيص عنده بالتاريخ .. تاريخ

المكان أو الحالة أو الموضوع .. إلى أدق شعيرات الجذور ، متتبعا لها فى تأن وحذر .. حتى يتحسس موضع الورم ومكامن الداء (راجع تحليله التاريخى لأزمة مصر الاقتصادية .. على سبيل المثال ، جـ ٣ ، ص ص ١٧ ـ ١٤٦) ، ثم هو يصيغ ما توصل إليه فى سياقه التركيبى العضوى .. محددا علاقته بالأغراض ، فى نظرة شاملة لعناصر البنية ، لا تغفل ظواهر الصحة فى بعضها .. حيث توضح النسبية العناصر كما توضح الارتباطات ، ومنها ينتقل إلى الأساس الجغرافى فى المشكلة كقاعدة انطلاق ، يرصد منها كما يتابع أبعاد البنية الحضارية والاجتماعية ، والسياسية والعسكرية والعالمية ، بل والثقافية . كما تعكسها سلوكيات الإنسان ، دون أن يتوقف عن إجراء المقارنات .. تاريخيا بالنسبة للحالة .. وجغرافيا مع غيره من المجتمعات ، مستندا فى كل ما يقوم به ويجريه إلى الأرقام من مصادرها .. دون أن يغرق القضية فى خضمها ، ملتقطا دلالاتها .. ومعانى تغيراتها ، على طول منحنيات بسيطة أو مركبة .. تفسر الظاهرة .. وتوضح قصده .. كما تغذى نتائجه .. وتمنحها صلابة كمية .. تضفى صدقا على التوصيات ، هذه التى تصاغ آخر الأمر فى عبارات قوية موحية ، منذرة بقدر ماهى دافعة ، مشحونة بعاطفته القوية نحو الإصلاح ، متفائلة بقدر ماهى مخوفة ، محددة فى شكل المعادلات . طرق العلاج :

* تدعيم ما أسفر عنه التشخيص من نقاط القوة فى بنية المكان .

* تقديم ما يراه ناجعا من توصيات الشفاء من العلل والأمراض .

ويتبع فى المستويين أسلوبا واحدا لا يحيد ، يتمثل فى استثارة كافة القوى الذاتية للبنية فى الأساس ، بما يحقق مضاعفة القوة الخاصة من ناحية ، وتخليصها من ناحية ثانية . من الأمراض ، فيما اصطلح على تسميته بالعلاج الإيكولوجى .. سواء للجغرافية أو التاريخ ، ويستند بيئيا إلى أن من شأن مضاعفة القوة .. تخليص البنية من الأمراض ، كما يؤدى شفاؤها إلى مضاعفة القوة بالتأكيد ، ضمن تأكيد صارم من الطبيب .. بذاتية العلاج ، وتتراوح بعد ذلك أساليب تدعيم القوة .. مرتبطة أساسا بالإنسان .. باعتباره لب القوة .. وقاعدة التطوير ، وبعده الموارد .. التى تقتضى حصراً شاملا .. يتضمن المستغل منها فعليا .. والمتاح ، فى نظرة ترى بصلاحية جميع الموارد الطبيعية للاستغلال ، وبأن تحويلها إلى موارد اقتصادية .. لا يجب توقفها مهما بلغت الصعوبات ، وبالنسبة لمصر .. فإن سيناء والصحراوات والبحار والبحيرات والواحات بمثابة رصيدها الذى ينتظر التحويل ، ثم ينتقل بمشرطه إلى نظم الحكم والإدارة والقوانين .. وهو ما يدخل به إلى باب معالجة العلل والأمراض .

وتتراوح أساليبه مابين البتر والكى والفصد والتطهير من الصديد ، البتر لكل ما يعوق الديموقراطية بدرجة من الدرجات ، ولكل ظواهر النمو العشوائية فى الحضر والريف ،

والكى لكل الآلام المفصلية فى الإدارة المحلية والنقل والمواصلات ، والفصد لكثافة السكان بإعادة التوزيع وتعمير سيناء والصحراء ، والتطهير من كل ما علق بالثقافة المصرية عبر العصور ، هذا باختصار بعض ما ورد فى روشتة الحكيم حمدان ، وفيما يلى مقتبسا مما فى شخصية مصر .. ورد وجاء ، يتصل بمشكلة مصر الاقتصادية بوجه خاص .

(.. من المفيد والضرورى .. أن ننظر فى البداية إلى اقتصادنا الراهن ككل واحد ، فى نظرة تركيبية شاملة ، تضع كل عنصر من عناصره فى مكانه النسبى من مركبه العام ، ثم تحدد علاقته بسائر تلك العناصر ، وذلك قبل أن نتفرغ لتحليل تتلك العناصر بتفصيل وعمق ، ولهذا الغرض يمكن أن نحلل مركب الاقتصاد المصرى إلى عناصره الأولية الآتية ، الزراعة وتثويرها ، الصناعة وانقلابها ، البترول وثورته ، موارد الموقع من قناة وسياحة ، وموارد العمل من خارج الحدود .. أى تحويلات المصريين المغتربين ، ثم أخيرا التجارة الخارجية ، وفى ضوء هذا الاستعراض الدينامى يمكن أن نصل فى الختام إلى حكم متكامل على الهيكل الاقتصادى ككل مترابط (جـ ٣ ، ص ٥٧) .

ومن المسلم به إجماعا أن مصر تجتاز فى الفترة الأخيرة أزمة اقتصادية طاحنة خانقة كعنق الزجاجة تكاد أعراضها تتمثل وتتغلغل فى كل جوانب ونواحى الحياة الوطنية واليومية ، ولا يكاد يبدو لها على الأفق القريب نهاية أو حل ، والواقع أن مصر برمتها قد أصبحت مشكلة من مشاكل ، أى

مشكلة عظمى واحدة .. تتألف من حزمة كثيفة ضخمة من المشاكل النوعية والمنوعة ، بل لقد وصل الأمر فى تقدير البعض إلى حد أنها باتت تحل مشكلة بمشكلة أخرى ، مثلما تفعل فى مشكلة السكان بمشكلة الاسكان ، وغدت مصر أو بدت دولة مشكلة Problemstate بين دول المنطقة وربما العالم ، وعلى الأقل فإنها أحدى الحالات القليلة من دول العالم الثالث التى تزداد تخلفا وتأزما .. بدل التطور والتقدم . (جـ ٣ ، ص ١١٨ - ١١٩) .

ويخطىء من يظن أن هذه الأزمة قد برزت فجأة أو أنها وليدة السنوات الأخيرة وحدها ، وإن كانت قد بلغت ذروتها أثناءها وربما بسببها ، كما يخطىء من يحسبها أزمة عابرة ، فإنما هى أزمة مقيمة .. بل وتصاعدية ضاربة الجذور ، وستظل معنا إلى عقود .. إنها أزمة تاريخية كما هى اقتصادية ، ويخطىء من يظنها بسيطة .. فإنما هى أزمة مركبة ، وهى فى التحليل الأخير أزمة تاريخية حضارية سكانية اجتماعية سياسية عسكرية .

والأساس الجغرافى ، إذا بدأنا من البداية ، واضح تماما فى فقر الموارد الطبيعية نوعا ومحدودية الرقعة الزراعية شبه الثابتة ، لاسيما إذا قورنت بحجم السكان الضخم ، حيث يبرز عدم التناسب .. فتتخذ الأزمة البعد السكانى بلا جدال فأزمة مصر الاقتصادية الراهنة إذن جذرها فى الأرض وساقها فى السكان ، أو قل إن قدمها فى الأرض وجسمها هو السكان ، ويظهر البعد الحضارى فى الأزمة فى انخفاض مستوى

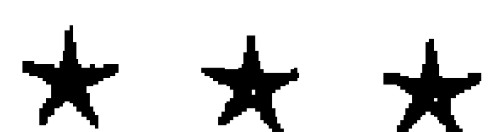
التكنولوجيا والتطور الفنى والعلمى العام ، أما البعد الاجتماعى فيظهر فى تطورات التركيب الطبقى للمجتمع المصرى حديثا ، وما استتبعها من تغيرات فى أنماط الاستهلاك وما خلقت من تطلعات ، أما البعد العسكرى فيبرز فى حاجات وإنفاقات الدفاع ، والحروب الدفاعية المتكررة ضد العدوان الإسرائيلى ، أما البعد السياسى فيتمثل فى اتجاهات السياسة المصرية .. وتقلبها بين سياستى الانغلاق والانفتاح أو الانطواء والانسياح ، وأخيراً وليس آخراً .. ففى تضاعيف كل ذلك .. فى صورة استيراد التضخم الأجنبى والغلاء الغربى مع الواردات السلعية يتسلل البعد العالمى إلى نسيج الأزمة .

ورغم هذا كله .. فإن أزمة مصر الاقتصادية قابلة للحل ، لا مكان هناك للافراط فى التفاؤل ، كما أن الإسراف فى التشاؤم مرفوض ، ولكن السبيل إليه لا يخرج عن معادلة بسيطة ولكنها قاطعة قاسية ..، وهى قاطعة لانها لا بديل لها البتة ، وقاسية لانها صعبة التنفيذ للغاية ، هذه المعادلة هى تعظيم الايجابيات وتحجيم السلبيات فى الهيكل الاقتصادى الراهن ، تعظيم الادخار والاستثمار والإنتاج ، والانتاج السلعى خاصة ، والدخل القومى والفردى إلى الحد الأقصى ، وتحجيم الانفاق والاستهلاك والاستيراد والاستدانة ، ويمكن أن نضيف الأسعار والسكان ، إلى الحد الأدنى ، ومن هذه الزاوية .. فحسنا فعلت الخطة الخمسية الجديدة ، حيث

حددت هدف زيادة الصادرات السنوى بنحو ٨٪ مقابل ٤٪ فقط للواردات أى النصف ، ولو أن المطلوب أكثر بكثير .

وقد يكون من الصعب على مصر أن تضاعف إنتاجها السلعى بالذات ، سواءً فى الزراعة أو الصناعة ، ولكنها بالتأكيد تستطيع أن تضاعف دخلها القومى مرات ، وذلك بالتصنيع الكامل لكل زراعتها وإنتاجها وخاماتها بالاضافة إلى الخدمات العليا ، كذلك فقد تبقى مصر طويلا ، مهما فعلت فى الدتخل والخارج ، فى دائرة التخلف والفقر النسبى داخل العالم الثالث ، ولكن ليس هناك بالقدر التاريخى أو بالحتم الجغرافى سقف أعلى ولا حاجز نهائى لمدى تقدمها وامكانيات تطورها .

القضية أذن فى التحليل الأخير .. قضية الإنتاج ضد الاستهلاك الحد الأقصى من الإنتاج ضد الحد الأدنى من الاستهلاك ، فالبقاء للمنتج لا للمستهلك ، وكل استهلاك لا يقابله إنتاج يعنى الإفلاس فالضمور فالانقراض فى النهاية .. أى الموت ، فى حين أن كل إنتاج يفوق الاستهلاك يعنى الانتعاش والرخاء والنمو إلى النهاية .. أى الحياة ..) ، (شخصية مصر ، جـ ٣ ، ص ص ١٤٦ ـ ١٥٠) .



من بين مهاراته العقلية العليا المتعددة .. تتحدد قدرته على التوقع باعتبارها الأعلى : وهى مهارة تحولت إلى قدرة بتغذيتها المستمرة موضوعيا ومنهجيا ، وبالانصات الصبور

لروح العصر ، موضوعيا بمعنى الاحاطة المعلوماتية .. ومنهجيا بإخضاعها لشروط التفكير العلمى ، ومن ثم يقود المرئى إلى غير المرئى .. وتضييق مساحة المجهول لحساب المعلوم .. ويلقى شعاع البصيرة ضوءه .. متجاوزا دائرة الحاضر .. داخل مسافة ما من المستقبل ، وإذا كان المنهج التاريخى بمثابة نهجه المفضل .. فقد قدم له رصيده أيضا للتحرك خطوة نحو ما قد يأتي ، فإذا كان الأمس مستمرا بداهة إلى اليوم .. فبنفس الدرجة يتواصل مع الغد على الأرجح ، وبعبارة أخرى .. إذا كان اليوم متضمنا الأمس .. فالمتوقع أن ينطوى أيضا على الغد .. وبدرجة أقل ما بعد الغد ، ومن هنا فإن أقرب التوقعات المستقبلية للصدق .. هى من باب أولى أقربها إلى اليوم ، وهنا تتحدد السمة الثانية من قدرة التوقع عنده .. حيث الأولى هى الإحاطة بالأمس والثانية أن توقعاته قريبة لا تجاوز الغد .. حرصا على قاعدة الصدق ، ثم تتمثل الثالثة .. فى متابعته الخط .. أو المنحنى الخاص بالظاهرة .. كما يطلق عليه ، أى أنه لا يفلت الخط فى مساره الطولى المتصاعد .. محددا ذبذباته ومستخرجا دلالاته .. بما يكشف قوانين حركته الخاصة وبما يتسق مع رؤيته الشاملة ، هو لا يفلته .. ولكن يتلفت حواليه .. باحثا عن ارتباطاته بغيره .. وعن سياق التأثير المتبادل .. وعن أوجه الاختلاف والتشابه ، وهذه تقود إلى سمته الرابعة .. وتتحد فى المقارنة بالطول وبالعرض ، بالطول تاريخيا .. عبر مراحل الظاهرة الواحدة .. وبينها وغيرها المتزامنة معها ، وجغرافيا

بالعرض ، أينما أتيحت له الأمثلة ، ليست المتشابهة أو المتقاربة وحدها ، وإنما المختلفة والمتباينة أيضا معها ، فالتوقع لا يقوم على المتشابه بين الظواهر .. إلا فى مستواه الأدنى ، ويعلو برصد المختلف .. وتوظيفه فيما يلقى الضوء على الغد بتوصيات عملية قابلة للتنفيذ ، هذه مهارته ـ وهذه قدرته .. وهذه سمات أسلوبه .. وفيما يلى ما يدل عليها وعليه ، فى المجالين السياسى والاستراتيجى الاقتصادى حيث تتجلى قيمة التوقع النفعية إلى أقصى .

● (.. لا يمكن أن نتكلم عن البعد النيلى لمصر .. دون أن نضع أكثر من خط تحت السودان ، فموقع الجوار الجغرافى ووحدة وادى النيل الهيدرولوجية جعلته من أشد الأقاليم التصاقا وارتباطا بمصر طوال التاريخ ، شأنه فى ذلك شأن الشام ، حيث الرابطة هى موقع الجوار والوحدة الاستراتيجية ، هذه الوحدة الهيدرولوجية وهذه الوحدة الاستراتيجية ، أى بين مصر والسودان كما بين مصر والشام .. علاقة خاصة بمعنى ما ، وكلتا العلاقتين قديمة وسابقة للعروبة .. كما هى لاحقة عليها .

وفى العصر الحالى . حيث قد تلعب السياسات الوطنية الضيقة أو الضحلة أحيانا دورا يفتقر إلى الرشد ، ولكن بالأخص منذ تفجر عصر البترول فى الجزيرة العربية بكل جاذبيته ومغناطيسيته ، وأيضا بكل اغراءاته وغواياته .. فإن

الملاحظ أن السودان قد يتأرجح ، حيث لا ينبغى ولا يجوز ، متذبذبا بين البعد المصرى فى الشمال والسعودى فى الشرق ، وعلى هذا مهما يكن الأمر .. يلقى مسئولية خاصة على مصر ، فى تقويم ورعاية بعدها السودانى بخاصة كبعدها النيلى بعامة ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٤٤٠) .

●● (.. مازالت حدود مصر الجنوبية معلقة ، فبين السلم والصمت .. تحولت حلايب ومنطقة جبل علبة إلى أشبه بالأعراف بيننا وبين السودان ، فلقد كانت كثير من القوى الأجنبية المعادية لمصر .. تواقة إلى تأجيج المشكلة والوقيعة بين الشقيقين ، فلم تتوان عن أن تغفل الحدود السياسية والقانونية إغفالا تاما فى أطالسها وخرائطها الرسمية وغير الرسمية .. تمهيداً لأثارتها ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٥٠١) .

●●● (.. ستنتقل مصر سنة ٢٠٠٠ إلى الغرب عموما ، بعد أن ظلت طويلا معلقة بين الشرق والغرب ، وستكون مصر بذلك أول دولة هامة فى الشرق .. بعد اليابان تنتقل جغرافيا إلى الغرب ، وبالمثل سيتزحزح خط التقسيم بين الشمال والجنوب ، لتعبر مصر البحر المتوسط ، وتصبح بصفة نهائية دولة شمالية ، بعد أن ترددت طويلا أو قليلا بين الدول الشمالية والجنوبية ..) (جـ ٤ ، ص ٦١٨) .

●●● (.. لم يترك الفراغ العمرانى سيناء .. أرضا جاهزة لمعركة العدوان وملائمة لاغراضه فقط ، ولكنه تركها

نهبا للأطماع الاستعمارية الآن وفيما مضى ، وبصفة عامة يمكن القول أنه كان هناك دائما عدو ما يشكك بطريقة ما فى مصرية سيناء .. ويطمع فيها بصورة ما .. بالضم .. بالسلخ .. بالعزل أو بغير ذلك .. لن نذكر هنا البيع أو الايجار ..) (جـ ٢ ، ص ٧٧٣) .

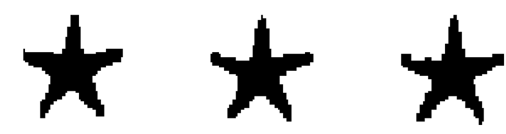
●●●● (.. من الوجهة الاستراتيجية البحتة .. فلم يعد معنى لأن يتوقف ارتباط سيناء بمصر الوادى عبر القناة على كوبرى سكة حديد قابل للتدمير .. بعد إعادة البناء ، لابد من سلسلة انفاق تحت القناة تحمل شرايين المواصلات مثلما تنقل المياه ، فمثل هذه الانفاق تعد مجازيا بل عمليا ، بمثابة إعادة تحقيق للاستمرارية والوحدة الأرضية بين الوادى وسيناء ، ولرقعة مصر الجغرافية السياسية عموما .. رغم وجود القناة ..) (جـ ٢ ، ص ٧٧٧) .

●●●● (.. اهتبلت إسرائيل فرصة النكسة لتحقيق خططها القديمة والموضوعة لوراثة دور القناة نهائيا ، ومعروف أن إسرائيل كانت تهدف دائما إلى سرقة موقع مصر الجغرافى ، وتحلم بأسر تجارة المرور منها وتحويلها إليها ..) (جـ ٢ ، ص ٨٠٦) .

●●●● (.. القناة محكوم عليها بالخطر "الراجع" .. وموقعنا مهدد أبدا وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل ، ومن ثم يصبح المبدأ الاستراتيجى الأولى فى نظرية الأمن المصرى هو مرة أخرى : دافع عن سيناء -

تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعا ، ولا ضمان بالتالى إلا بذهاب العدو ، غير أن هذه قضية متروكة للمدى البعيد ..) (جـ ٢ ، ص ٨١٠) .

●●●● (.. وماذا بعد السد العالى ؟ ماذا بعد أن تمتلىء بحيرة ناصر إلى قمتها بالطمى بعد ٥٠٠ سنة كالمقدر ؟ ثمة احتمالان لا ثالث لهما . إما أن يشق النيل له مجرى جديدا إلى البحر المتوسط ، وإما أن يقتحم الوادى ليحتله من جديد ، ومن ثم لابد من إنشاء قناة تحويل جانبية ، تستدير حول البحيرة ، بادئة من أمام السد .. فى النقطة التى يتكدس فيها الطمى أغزر ما يتكدس ، لتنتهى خلفه بعد أن تكون قد تفادت مصيدة السد ، حاملة بذلك الطمى إلى مجرى النهر الطبيعى مرة أخرى ..) (جـ ٢ ص ١٠٠١) .



تقتنع به حين يدافع عن شخصية مصر وشخصية المصرى ، ذلك لأن دفاعه يسبقه نقده ... ولأنه أيضا يختار قضاياه كمحام بارع بدقة ، فدفاعه يقتصر على ما ألصق بها وبه ظلما من وجهة نظره ، أما غير ذلك .. فإنه يخضعه لنقده .. ويتحول إلى مهاجم فى أحيان أخرى ، متبادلا أدوار الدفاع والاتهام والقاضى .. تبعا للقضية ، وفى جميع الحالات حين يتصدى للشائك منها .. يظهر مستندا إلى رصيد كاف من الأوراق عنها ، يخضعها لعقلية نقدية تقلب الأوجة وإلى قوة شعوره وعاطفته .. لا يترك زاوية معلقة

منها .. بل يطرحها أرضا .. ويعومها تاريخا .. ويشرحها عضويا ، ثم يعود فيركبها ويسجل أوزانها .. ويحدد الكفة الراجحة .. فى حياد وموضوعية .. تبعا لقوانينها العامة .. وأيضا لرؤيته الخاصة ، ذلك أن للقاضى قانونيا مساحة تقديرية ، يستهل مرافعاته بسؤال محدد "ما القضية" ، وبعد أن يعرفها .. يتوجه إلى تحليل أبعادها .،. مستعرضا فى توازن وجهات النظر المختلفة ، بما قد يثير الحيرة حول رأيه .. لأنه يعرض أيها مثل صاحبها ، ثم يجمعها ويوجز خلاصتها .. بما يتيح لك أن تصدر أنت حكمك ، ثم يعرض رأيه .. وغالبا ما يكون رأيك مثله .. أو قريبا منه ، وخاصة حين تكون القضية دفاعية .. وبالأخص عن ثقافة مصر وشخصية المصرى ، وقد يثير ذلك الريبة فى شبهة تحيز .. منك ومنه ، يدفعها أنه يهاجم سلبياتهما بضراوة .. قد تشاركه فيها أيضا ، داعيا إلى تغييرها بعقل المحب وقلبه ، فتسلم بوجودها .. لأنه يعرض الأفضل ، هى العقلية النقدية إذن .. فى كافة وجوهها . الهجومية والدفاعية والتقيمية والتقويمية .

وفيما يلى عناوين بعض ما تصدى لدحضه .. أترك تفصيلاتها كى تقرأها بنفسك .

* قضية العزلة (جـ ٢ ، ص ص ٣٦٣ ـ ٤)
* مصر أصل الحضارة (جـ ٢ ، ص ص ٤٠١ ـ ٤٢٨) .
* السبق والتخلف (جـ ٢ ، ص ص ٤٤٦ ـ ٤٥٦)

* الحكومة والمجتمع (جـ ٢ ، ص ص ٥٤٢ ـ ٥٤٦) .
* النظرية الاقطاعية فى تفسير التاريخ المصرى (جـ ٢ ، ص ص ٥٤٦ ـ ٥٦٥) .
* نظريات خاطئة فى التاريخ المصرى (جـ ٢ ، ص ص ٥٨٦ ـ ٥٩٣) .
* نظرية الشعب غير المحارب (جـ ٢ ، ص ص ٧١ ـ ٧١٤) .
* نظرية جناية الموقع (جـ ٢ ، ص ص ٧١٤ ـ ٧١٦) .
* نظرية الأمن المصرى (جـ ٢ ، ص ص ٧٧١ ـ ٧٧٣) .
* التشكيك فى مستقبل القناة (جـ ٢ ، ص ص ٨٦٨ ـ ٨٧١) .
* السد العالى فى الميزان (جـ ٢ ، ١٠١١ ـ ١٠١٧) .
* بين الوطنية المصرية والقومية العربية (جـ ٤ ، ص ص ٦٣٣ ـ ٦٦٦) .

هذا بعض أمثلة .. وإليك نموذجا من أسلوبه فى الدفاع النقدى .

● (.. تلك هى خريطة المسيحية أو جغرافية الأقباط فى مصر ، فماذا تعنى سياسيا من حيث النسيج والتماسك الجيوبوليتيكى والوحدة الوطنية أو السياسية ؟.. ابتداء .. إن كثافة المسيحية تزداد كلما تعمقنا جنوبا ، أى كلما بعدنا عن مدخل الإسلام من الشمال ، فهذا لا يعنى مطلقا أن الموجة العربية الإسلامية ـ إذا كان لنا أن نضع الحاضر فى إطار

الخلفية التاريخية ـ قد أزاحت الاساس القبطى إلى جيب الجنوب المغلق فى الصعيد ، وذلك كما حدث مثلا للقرشات الأساسية فى الشام والمغرب .. حيث التجأت إلى المعاقل الجبلية والمرتفعات ، فالانتشار العربى فى مصر كان أشبه شيء بعملية الانتشار الغشائى الاسموزى ، عملية تغلغل لا زحزحة ، وتخلل لا إزاغة ، ولهذا فقد أثبتت الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة خطأ النظرية التى كانت ترى أن بين الفلاحين والقبط فارقا كالذى بين العرب والبربر فى المغرب ، فالأقباط والفلاحون يكونون جسما واحدا ، ميتة طبيعية لنظرية غير طبيعية .

والواقع أن الغريب فى هذه النظرية ليس سقوطها وإنما أساسا قيامها ، ذلك لأن وحدة الأصل بين المسلمين والأقباط ليست علميا إلا تحصيل حاصل ، ومجرد بديهية انثروبولوجية ، ببساطة لأن تكوين مصر الجنسى سابق على تكوينها الدينى ، أو كما يضعها "حزين" بكل وضوح .. لأن "الطابع الجنسى العام للمصريين .. قد وجد واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون" .

وفى هذه ، بالمناسبة ، رد ضمنى وتوضيحى أيضا على النظرية الشائعة من أن الأقباط أقرب إلى تمثيل المصريين القدماء من المسلمين ، ولاشك ابتداء أن هذا صحيح ، وإنما بالنسبة إلى جزء من المسلمين لا كلهم ، فليس كل المسلمين بالضرورة قد داخلتهم دماء عربية أو غير عربية ، فهؤلاء إذن لا يقلون قربا من المصريين القدماء عن الأقباط ، والأصح

أيضا أن نقول : عن معظم الأقباط لا كلهم ، ذلك لأن الأقباط هم أيضا قد داخلتهم بعض مؤثرات خارجية ، وأن تكن غير عربية أو إسلامية بالطبع ، وذلك من خلال الزواج المختلط مع بعض العناصر والجاليات المسيحية الليفانتية والأوربية .

بعبارة أخرى فإن معظم المسلمين أو الكثير منهم اليوم .. إنما هم معظم القبط المصريين أسلموا بالأمس ، بمثل ما أن أقباط اليوم هم بقية قبط الأمس الذين استمروا على عقيدتهم ، ومن هنا وحده نتفهم أن المصريين إما قبط مسلمون ، وإما قبط مسيحيون ، حيث كلمة قبط إنما هى تحريف لكلمة إيجيبت أى مصر ، ولقد تكون هذه طريقة خاصة جدا للتعبير عن وحدة الأصل بين الطائفتين ، ولكن الجوهر فيها سليم عمليا ، وهو تلك الوحدة بعينها ، وإذا صح التشبيه الشائع عن الزواج الطبيعى بين أرض مصر وفيضان النيل ، فإن من الصحيح أيضا أن ثمرته هى المصريون جميعا . فالنيل أبوهم ومصر أمهم ، ولعل العقاد كان عالما باحثا .. قبل أن يكون أديبا متحمسا حين لخص الموقف كله فى قضية الوحدة الوطنية بقوله الجامع "ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية ..) (جـ ٢ ، ص ص ٥٠٧ ـ ٥٢٠) .



● لا أظنه يرضى بأن يعرض له دون نقده ، فيلسوف ناقد هو .. وعقلية نقدية ، لا تكتمل دائرة ما يكتبه .. إلا بمن يقرأه ـ وينقده ، لقد حاولت إرضاءه بنقده .. ولكن المشكلة أن لعمله طبيعة خاصة جدا .. تدعو إن شئت لأن تتقبله كله .. عظامه

ولحمه وشحمه ، كالنهر يتدفق من منبعه إلى مصبه .. محملا بمائيته وطميه .. وثمة علائق أخرى ، ولكن هذه طبيعة النهر .. فهل ننتقده ؟ وليس هذا تشبيها صرفا .. لأنه ـ حمدان ـ يفيض أحيانا ويسهب ، ويتناقض أحيانا ويركد ، وقد يعلو ويغيب المقصد ، وقد يهجر ضفافه المنهجية .. وأحياناً يتشدد فيما يقطع ، وقد تتداعى عناوينه الداخلية بما يربك ، وأحيانا يكرر صفحات بأكملها ، ولكنها جميعها مسبوقة بكلمتى قد ، وأحياناً .. وهى نادرة أيضا .. ونادرة جدا ، سيدى النهر .. أعتذر عن نقدك .. وأتقبل مائيتك مع طميك مع علائقك الأخرى .

ومن بعد .. فلم يك ما فات وما قبله .. سوى جرعة من بئره .. أما بحره فمستعص ، إلا أن يقرأ سفره كله ، أما أفاقه ورؤاه .. فمتروكة للمستقبل .. عسى لا يبعد ، والمؤكد أن متنه كما أراده تماما .. ملحمة علمية ، ونظاما فكريا ونسقا منهجيا ومعمارا بنيويا .. يتفيأ الأصالة والجدة (جـ ١ ، ص ٦٠) بل ووثيقة تاريخية الكلمة ، تضاف بجدارة للذاكرة الوطنية .

وإزاء عجزى عن قبس متنه المعجز ، آثرت أن أختم هذه المحاولة بمنظومات ثلاثة توجزه .. كما فعل ، الأولى عن فكره والثانية عن مناهجه والثالثة عن موضوعاته ، عسى تفيد قراءه أو من يستعد منهم وقد يتردد ، ببساطة أعدت .. دون التقيد بحرفية أساليبها المتبعة .

شخصية مصر

أولا: منظومة الموضوعات

شخصية مصر

الاقتصادية
التنمية
التجارة
الصناعة
الزراعة
النقل
قناة السويس
الطاقة
البترول
السد العالي
المعادن

العمرانية
الحكم المحلي
سيناء اليوم
العاصمة
الحضر
التخطيط
الخدمات
الريف
القرى
العزب
حلات

البشرية
الديموقراطية
الإدارة
السياسية
الحكم
السكانية
التاريخية

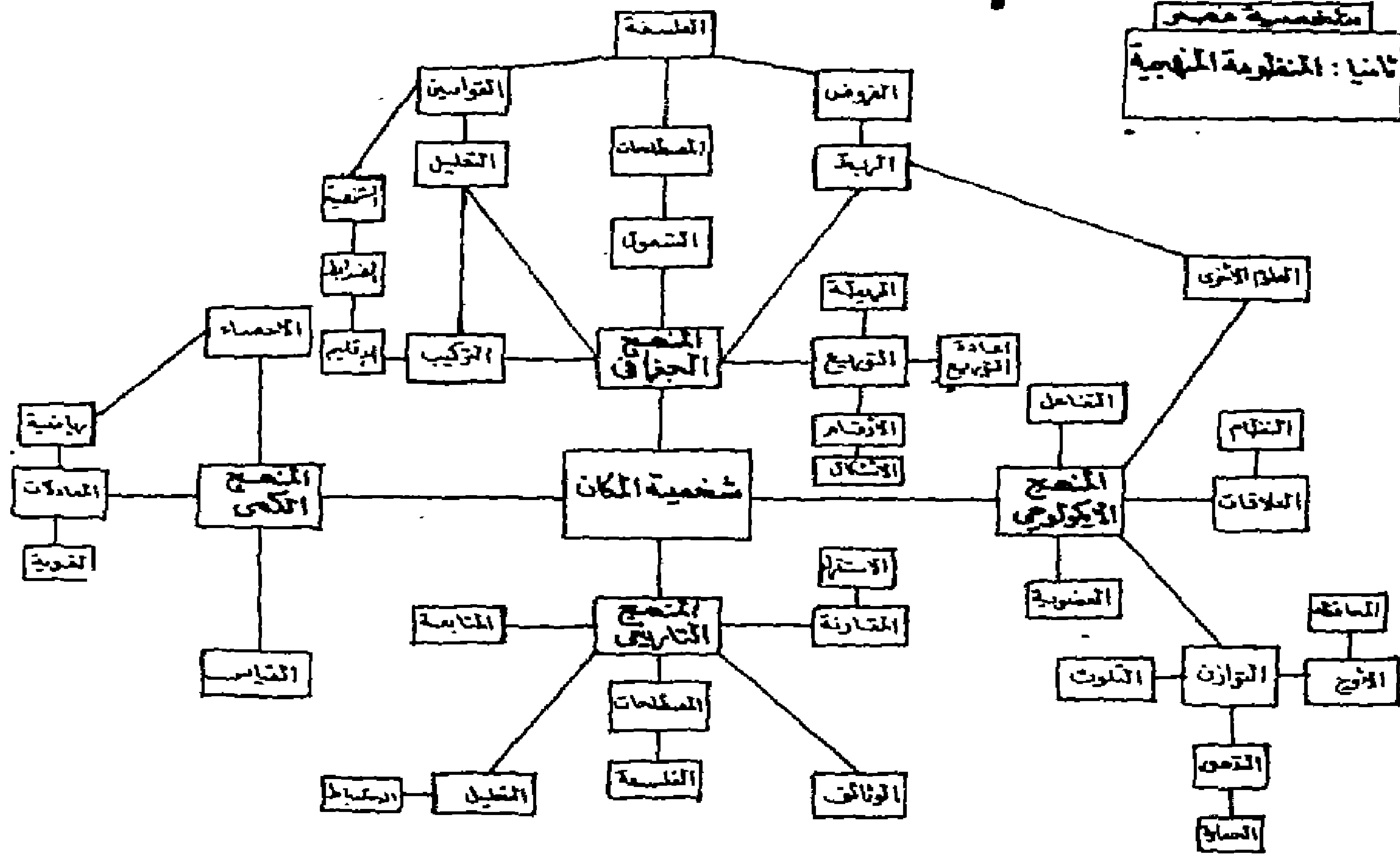
الطبيعية
المناخ
النهر
المائية
التربة
الجيولوجيا
أشكال السطح
السطح
جبال
هضاب
سيناء
الدلتا
الوادي

شكل (١)
"شخصية مصر"
منظومة الموضوعات

شكل (١)
"شخصية مصر"
منظومة الموضوعات

شخصية مصر

ثانيا : المنظومة المنهجية



"شخصية مصر"
شكل (٢) المنظومة المنهجية

شكل (٣) شخصية مصر
المنظومة الفكرية

تلخيص النص .. عن .. شخصية مصر

مقـدمـة :

تشغل مقدمة كتابه خمسين صفحة من جزئه الأول (ص ص ١١ ـ ٦١) ، يستهلها بسطور عن قيمة التعرف على شخصيات الأقاليم Regiona Personality .. (الاقليم قلب الجغرافية ، والشخصية الاقليمية قلبه ، ومن ثم فهى أعلى مراحل الفكر الجغرافى ، ص ١١) ، ثم يعرّفها (.. الشخصية الاقليمية أكبر من المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الاقليم ، فهى إنما تتساءل أساسا عما يعطى منطقة تفردها ، محاولة أن تنفذ إلى روح المكان .. لتستشف عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة ، هذه هى فكرة الهيكل المركب .. أو ما يعرف كاصطلاح عام بعبقرية المكان (Geniusloci ، ص ١١) ، ويمكن القول بأن فكرة الهيكل المركب Campage .. هى الفكرة المفتاح فى عمله كله .. كما سيأتى ، ويحدد الهدف (.. والبحث الحالى .. يحاول أن يرسم صورة عريضة .. ولكنها دقيقة بقدر الامكان لشخصية مصر ، ومصر لاشك موضوع مثالى لمثل هذا البحث ، نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية .. واضحة الحدود والتقاطيع ، ولما تملكه من تاريخ الفى حافل ، ص ١٨ م إلى ، ويشير إلى ضرورته (.. لم نكن قط أحوج مما نحن الآن الى فهم كامل

معمق موثق لوجهنا ووجهتنا ، ولكياننا ومكاننا ، لامكانياتنا وملكاتنا ، ولكن أيضا لنقائضنا ونقائصنا .. كل أولئك بلا تحرج ولا تحيز أو هروب ، ص ٢٠) .

ويطهر عمله فكريا .. من شبهة الاقليمية الضيقة (.. من الخطأ أن نظن أن الحديث عن تفرد الشخصية الجغرافية وعبقرية المكان . لهذا القطر العربى أو ذاك .. يعنى تدعيم الدعوة الانفصالية ، فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية .. أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصية .. بدرجة أو بأخرى داخل الاطار العام المشترك ، ص ٢٣) ، ويؤكد (.. الواقع أن على القومية أن تحترم الوطنية وتقرها ، بمثل ما أن على الوطنية أن تعترف بالقومية وتقر بها ، ولعل المطلوب ليس تذويب الوطنية فى القومية .. بقدر ما هو تزويدها بها ، ص ٢٤) .

ويلخص ملامح شخصية مصر (.. ليس سهلا أن نركز الشخصية الاقليمية فى معادلة موجزة ، لاسيما إذا كانت غنية كشخصية مصر ، إنها تجمع بين أطراف متعددة وأبعاد وآفاق واسعة ، بصورة تؤكد لديها ملكة الحد الأوسط ، وتجعل منها أمة وسطا بمعنى الكلمة ، وهي شخصية متفردة Sui generis ، والنظرية العامة التى نقدم فى تفسيرها .. تتمثل فى التفاعل بين بعدين أساسيين فى كيانها .. وهما الموضع Site والموقع Situation ، ويعنى الموضع البيئة النهرية الفيضية ، أما الموقع .. فيتمثل فى موقعها الحاسم على

ناصية العالم وركن الزاوية ، وهى بعد ذلك نموذج البيئة الفيضية المطلق ، وتجسيم بيئة الرى المطلقة ، وهى بالدرجة نفسها مثال الصحراء أيضا ، ومن متناقضة النهر والصحراء ـ تشكلت ، وهى أرض المزروعات لا النباتات الطبيعية .. ولا مراعى طبيعية بها ، وفى داخل هذه البيئة المتبلورة ، يبدو كل شىء فى مصر مكثفا ، مضغوطا على نفسه ومتضاغطا ، ابتداء من التضاريس نفسها .. إلى التربة والمائية والزراعة والسكان والسكن ، مثلما هى بمورفولوجيتها الطبيعية مسافة قبل أن تكون مساحة ، والتجانس بعد التكاثف بمثابة النغمة الأساسية فى هذه البللورة المركزة ، أشبه بأقليم واحد .. وإن انطوى على أقاليم ثانوية باهتة ، ومن التجانس إلى الوحدة السياسية .. هكذا بالفعل كان .. وهكذا بقيت دائما ، ومن الوحدة إلى المركزية .. تتبدى فى حكومتها وبيروقراطيتها والعاصمة ، تلك سلسلة متداعية من السمات الكامنة .. انبثقت عن الموضع ، أما بالنسبة للموقع .. فقد تفاعلت سماته مع ما سبق ، ومنه تداعت أيضا من خصائصها سلسلة ، هى مدارية بعروضها .. متوسطية بجسمها ، افريقية بالموضع .. متوسطية بالموقع .. وأيضا آسيوية بوقعها ، وهى البلد الوحيد الذى يلتقى فيه النيل بالمتوسط ، أبو الأنهار وابو البحار .. مهد الفلاحة ومدرسة الملاحة .. نهر الحضارة .. وبحر الحضارة معا ، وفى جميع الأحوال .. كانت أسبق للحضارة .. فى استمرارية نادرة ، ومن أول أمة فى التاريخ .. إلى أول دولة .. إلى أول

امبراطورية .. وأيضا من أسف إلى أطول مستعمرة ، وكثنائية السبق والتخلف لا مفر من أن نعد ثنائية الامبراطورية المستعمرة من سماتها التاريخية التى انقضت ، وهى بجسمها النهرى قوة بر .. ولكنها بسواحلها قوة بحر ، وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى ، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم ، ولمصر أبعاد إقليمية أربعة .. تختزل توجيهها الجغرافى بدقة وحساسية .. وإن تداخلت ، بعدان قاريان .. الافريقي والآسيوى ، وبعدان إقليميان .. النيلى والمتوسطى ، فرعونية هى بالجد .. لكنها عربية بالأب .. وللأب والجد أصل مشترك ، وهى خير تصغير وتكبير للعالم العربى ، خير تصغير لأنها تجمع عناصره فى كيانها ، وخير تكبير .. لأنها بالحجم والموقع والوقع .. هى الرأس والقلب معا . (ص ص ٣٣ ـ ٤٧) .

وعن خطة العمل (.. التجانس الطبيعى والمادى والحضارى والبشرى ، الوحدة الطبيعية والسياسية ، من السبق الحضارى إلى التخلف ، من امبراطورية إلى مستعمرة ، من الطغيان الفرعونى إلى الثورة الاشتراكية ، الأساس الطبيعى الخارجى للبناء الحضارى ، مركزية رغم الامتداد ، كثافة بلا هجرة ، تعدد الأبعاد ، التوسط والاعتدال الاستمرارية والانقطاع ، ثنائية الوطنية القومية ، تلك إذن فى رؤوس موضوعات .. هى أبرز خصائص شخصية مصر .. التى يتعين علينا أن ندرس ونحلل بالتفصيل ، ص ٤٧) .

ويضيف (.. لابد من مسح شامل لكل شبر فى أرض مصر ، دراسة تقديمية لشخصية مصر الطبيعية ، وبعد الحصر .. نضع رقعة الوطن كلها في بؤرة واحدة .. لننظر إليها من منظور سماتها وخصائصها وملامحها الرئيسية الغالبة ، وهكذا نبدأ بدراسة التجانس بجوانبه المختلفة .. الطبيعية والمادية والعمرانية ، ومنها إلى الوحدة .. الوحدة السياسية بكل مقوماتها ومكوناتها .. من وحدة إقليمية ووطنية ولغوية ودينية ونفسية ، تلى هذا سلسلة فصول التطورات التاريخية ، قل سلسلة .. من .. إلى ، من السبق الحضارى إلى التخلف ، من الطغيان الفرعونى إلى الثورة الاشتراكية ، من امبراطورية إلى مستعمرة ، ثم وقفة معممة عند شخصية مصر الاستراتيجية ككل ، من السياسة والاستراتيجية ننتقل إلى البناء الحضارى وأساسه الطبيعى ممثلا أولا فى الموقع .. قلب العالم ثم فى الموضع .. هبة النيل .

ويضعنا هذا الأساس الصلب تلقائيا على الطريق إلى شخصية مصر الاقتصادية .. التطور العام والخصائص الرئيسية أولا ..، ثم الزراعة فالصناعة والثروة المعدنية ، كل على حدة ، وكل بهياكلها ومشاكلها وتخطيطها ، ثم من الاقتصاد نتحرك منطقيا إلى الاجتماع ، فنرسم خريطة المجتمع المصرى فى بحثين أساسيين .. الأول يعالج السكان تحت عنوان كثافة بلا هجرة ، والثانى محوره المدن تحت عنوان .. مركزية رغم الامتداد .

وبعد ذلك ننتقل بحرية وسرعة ، محلقين بين آفاق الزمان وأبعاد المكان ، لندرس أولا تعدد الأبعاد ، ثم التوسط والاعتدال ، ثم الاستمرارية والانقطاع ، وينقلنا الموضوع الأخير منطقيا إلى الباب الختامى فى الكتاب كله ، وهو موضوع العرب ومصر ، ص ص ٤٧ ـ ٥٠) .

وعن المنهج (.. أين بالضبط يقع هذا العمل من المنهج الجغرافى العام ؟، والاجابة ـ إنه قطاع كامل من الجغرافية الشاملة بكل فروعها ، يغطى دائرتها التامة من المركز إلى المحيط ، هكذا يفتتح العمل بالجغرافية الطبيعية ، ثم يمضى قدما ليخوض آفاق الجغرافية البشرية بكل مراحلها ومراتبها ، ويركز على علاقة التكامل والتواصل الحتمية والصحية بين الجغرافية الطبيعية والبشرية ، ومن هنا حاولنا معالجة لكل مراحل ومناحى الجغرافية البشرية .. من الاقتصادية إلى الاجتماعية ، ومن الجنسية إلى السياسية ، ومن الحضارية إلى الثقافة ، ص ص ٥٠ ـ ٥٢) .

وعن فلسفة المنهج .. (.. مادمنا قد قلنا الجغرافية البشرية .. فقد قلنا الايكولوجيا .. أى العلاقة بين الإنسان والبيئة ، ومادمنا قلنا الايكولوجيا .. فقد قلنا إما فلسفة الحتم الجغرافى .. وإما مدرسة الحرية .. امكانية كانت أو احتمالية أو ضرورية ، وعندنا باختصار أن الجغرافية عامل هام فى تفسير الحياة والحضارة والتاريخ فى مصر ، ولكنها بالتأكيد ليست العامل الوحيد ، والجغرافية البشرية والطبيعية لا

تقتصر على الحاضر ، بل هى مضروبة فى الماضى ، فشخصية أى بلد هى كجبل الجليد الطافى .. لا يظهر إلا أقله .. وهو الجغرافية المعاصرة .. أما الجسم الغاطس الأكبر .. فهو البعد التاريخى "الجغرافية × التاريخ" ، أخيرا وليس آخر .. لك بالطبع أن تعد هذا العمل برمته دراسة فى الجغرافية الاقليمية ، ومن هذه الزاوية .. فإن لها جانبين .. هما الجغرافية الاقليمية الداخلية والخارجية ، أما الأولى ـ الداخلية ـ فهى تحليلية ، أما الثانية .. فتركيبية ، ومن هذا المنطلق .. كانت العناية بالمقارنات بين مصر والأقاليم الأخرى .. ذلك كله الجغرافية الطبيعية ـ البشرية .. التاريخية ـ الاقليمية .. على مستوى الجغرافية البحتة ، غير أن المستوى التطبيقى لا يقل أهمية وخطرا ، يتمثل فى تقييم وتقويم نقاط الضعف والقوة .. التى تتكشف فى الشخصية ، وهذا يقودنا رأسا إلى الجغرافية التطبيقية .. جغرافية التخطيط ورسم السياسة الاقليمية والاستراتيجية القومية ، واليوم أصبحت السياسة جغرافية أكثر منها فى أى وقت مضى ، ذلك لأن السياسة الآن فن الاشتغال بالمستقبل والتخطيط ، ولقد كان حتما لا صدفة .. أن يبزغ علم المستقبلية Futurlogy .. بعد بروز علم التخطيط ، وفى مصر .. فإن الجغرافية لا التاريخ هى أمل المستقبل ، ومن جانبها .. فإن الجغرافية إن تكن نظريا فلسفة المكان .. فإنها تطبيقيا هندسة المكان ، وما التخطيط الاقليمى ببساطة إلا هندسة إقليمية ، بينما أن المخطط الجغرافى ليس سوى

مهندس إقليمى تحت الجلد ، وبهذا الشكل تصبح جغرافية التخطيط في واقعها بمثابة جغرافية المستقبل Geo Futurology ، وفى دراستنا هذه .. كثير من الفصول .. نماذج من جغرافية المشكلات Problem Geo التى تركز على الجوانب العملية والتطبيقية والتخطيطية . وتبحث عن الحلول والعلاج ، سواءً فى مجال الانتاج أو الموارد أو الاستهلاك أو التوزيع أو السكان والمدن أو النقل والمواصلات أو الاستراتيجية والدفاع الوطنى والأمن القومى .

وختاما (.. فى هذا العمل إذن ـ وتلك حدوده وأبعاده ـ اجتمعت كل الثنائيات المعروفة فى الجغرافية .. الأصولية والاقليمية ، الطبيعية والبشرية ، التاريخية والمعاصرة ، الكورولوجيا والايكولوجيا ، اللاندسكيب والجيوفيزيقيا ، الكيفية والكمية ، المجهرية والملحمية ، البحتة والتطبيقية ، فيها أيضا وظفت كل أدوات الجغرافية ولواحقها فى خدمة جغرافية الحياة ، جغرافية اليومية والأشياء الصغيرة ، كيما تضفى الحيوية والأهمية والاهتمام على الحقائق الجامدة الصماء .. وتحيلها حية نابضة ناطقة ، وفى خلال هذا كله .. حاولنا دائما وعمدا .. أن ننظر إلى الاقليم نظرة لاندسكيبية بالتحديد ، تعتمد على .. وتدعو إلى الرؤية والحس المباشر ، فمن الثابت أن المنهج اللاندسكيبى ، الذى يعالج الإقليم كظاهرة مرئية وملموسة ، يضفى على الدراسة حياة وحيوية .. ومعايشة ـ بغير ذلك قد تفقدها ، مثال ذلك الآثار وأسماء

الأماكن Lyponomie والفولكلور والأمثال الشعبية .. وسائر مظاهر الحياة المحيطة بنا .. والتى نعيشها .

وبعد .. فإن عملا بهذا الحجم والطبيعة قد يبدو موسوعيا بالضرورة ، غير أنه فى الحقيقة أبعد شىء عن أن يكون موسوعة ، بل هو قل .. ضد موسوعة ، إلا أنه قبل ذلك وبعده نظام فكرى ونسق منهجى ومعمار بنيوى .. يتفيأ الأصالة والخلق والابتكار والجدة ، إنه بناء عقلى فى كبسولة يضع مصر برمتها كالبللورة فى البؤرة ، ويستقطر مكنون شخصيتها حتى تستقطب فى معادلة ، عسى دعنا نأمل .. أن يجد كل مصرى نفسه فى هذا الكتاب ولسوف يرضى .

* * *

أولا : شخصية مصر الطبيعية

الكلمة المفتاح فى شخصية مصر الطبيعية .. هى البساطة ، بساطة تتجلى فى بنيتها وعظامها الصخرية وسمات وجهها التضاريسى ، وتمتد إلى ثوبها الرسوبى ومزاجها المناخى ، بساطة تستند إلى قاعدة جيولوجية راسخة قديمة ، ورغم أن هذه القاعدة أركية .. أى تعود إلى أقدم عصور البناء الجيولوجى .. إلا أن عملية بنائها لم تتعقد كثيرا .. وإنما خضعت لايقاع منتظم .. من تتابع النمو التركيبى ، يتراوح بين عمليتى الاضافة والازالة .. فى علاقة متواترة بين البحر واليابس .. مع تداخلات تكتونية - أى من باطن الأرض -

بسيطة أيضا .. بصفة عامة ، وحين بدأ النهر .. يشق إليها طريقه .. خلال الزمن الثالث . فقد أضاف إلى مورفولوجيتها الصحراوية العامة رتوشه ، ولكنها على طول مجراه بها .. شكل مورفو لوجيته الخاصة ، متمثلة فى الدلتا والفيوم والوادى ، وما كساه بها من إرسابانه ، وأيضا ما حددته فوق أديمها فروعه .. وما خلفه من بحيرات ومستنقعات وراءه ، وفوق ذلك منحها عمودها الفقرى الايكولوجى .. الذى هيأ لتعميرها بعد ذلك ، وإذا كانت هى قبله .. قد بقيت طويلا .. صحراوية الطابع .. فقد خلصها هو من أسرها الصحراوى ، وحررها بمائيته وطميه .. من براثن الجفاف والرمال المحيطة ، وحولها إلى واحة عريضة مديدة ، تلك هى قصة مصر الطبيعية القصيرة ، ولكنها كرواية .. استغرقت الجزء الأول (٨٤١ صفحة) من كتابه ، ذلك لأنه وثق كل حرف توثيقا .. وتابعه إلى أدق تفصيلاته ، دون أن يضل مطلقا طريقه .. فقد كان مفتاحه إليها البساطة .

● البناء الجيولوجى

يبدأ رواية مصر الطبيعية من الماضى الأركى السحيق ، منذ كانت نواة جيولوجية (.. ضمن قاعدة أساسية صلبة قدمتها القارة ، وبفرشات متلاحقة قدمها البحر ، تكونت أرض مصر بالتدريج ، أفقيا من الجنوب إلى الشمال ، ورأسيا من أسفل إلى أعلى ، حتى تحولت من نواة أولية إلى شرنقة

أرضية مركبة مديدة ، جـ ١ ، ص ٦٩ ..) ، ويتابعها وهى تتخذ مورفو لوجيتها الراهنة .. وذلك (.. عبر سلسلة من عمليات طغيان البحر من الشمال .. على نواة اليابس فى الجنوب .. ثم انحساره عنها بعد ذلك ، ونظرا لأحادية مصدر الطغيان واتجاهه ، فقد جاءت القصة بسيطة فى جوهرها ، ومعها جاءت خريطة مصر الجيولوجية فى النهاية بسيطة فى خطوطها العريضة ، جـ ١ ص ٧٠) .

وتتكون النسبة الكبرى من جيولوجية مصر من (.. القاعدة الأركية + الخراسان النوبى + التكوينات الطباشيرية الكريتاسية + الحجر الجيرى الايوسينى + الحجر الرملى الأوليجوسينى + الحرج الجيرى الميوسينى) ، وتغطى نحو ٩٥٪ من مساحة مصر (جـ ١ ص ٧٣) ، وتعود النسبة الباقية للعصور التالية (البلايوسين ، البلايستوسين ، الهولوسين) بنسبة محدودة ، وتظهر بساطة التركيب فى تتابع التكوينات من الأقدم إلى الأحدث .. من الجنوب إلى الشمال ، كما تظهر فى ميلها الطفيف الوئيد فى نفس الاتجاه ، يؤكدها النهر الذى يقطع هذه النطاقات العرضية ، متعامدا عليها كقطاع يكشف عنها وعن تتابعها ، مؤديا بمجراه إلى تكوين حافتين Escarpments على جانبيه ، دون أن يفصل استمراريتها شرقية وغربية ، وإن تمايزتا فى العديد من التفصيلات .

وكقاعدة عامة ـ تؤكد البساطة ـ تقل صلابة هذه التكوينات

أيضا من الجنوب إلى الشما ، بحيث يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام تركيبية رئيسية هى (.. النواة ، الرصيف الثابت ، الرصيف غير الثابت ، جـ ١ ص ١٠٥) ، ويحدق الرصيف الثابت بالنواة .. ومساحته ثلثى مصر ، ويقع غير الثابت بمساحة محدودة .. فى أقصى الشمال ، وتبعا لدرجة صلابتها ومقاومتها .. تتوزع بها الانكسارات والالتواءات ، كما خلقت البركنة بصماتها .. حول أخدود البحر الأحمر وجبل عوينات وسيناء ومنخفض الفيوم (جـ ١ ، ص ١١٥) .

وتستمر هذه البساطة إلى خطوط السطح وأقسام التضاريس ، حيث تحدد هذه الخصائص الجيولوجية طبوغرافية مصر العامة بشكل شبه تام ، فالسطح ينخفض معها باطراد نحو الشمال ، وتنفق أعلى مناسيبه مع أقدم وأصلب التكوينات .. والعكس بالضرورة صحيح ، ويمدفعه التطابق إلى تقرير (.. أقاليمنا التضاريسية هى أقاليم جيولوجية ، وأقاليم السطح هى نفسها أقاليم البنية تقريبا ، جـ ١ ص ١٠٢) .

ويفصل بعد ذلك هذه الخاصية الهامة من شخصية مصر الطبيعية فى عشرات من الصفحات (جـ ١ ، ص ص ١١٥ - ٢٣٥) ، مبرهنا بها مقولته الأساسية .. عن بساطة جغرافية مصر .. انطباعا لجيولوجيتها ، وكاشفا أيضا عما تنطوى عليه من تناظر وانتظام ، ثم يلخص صورتها كدأبه فى عبارات

مكثفة .. تمهد للتفصيل .. (ولقد ألفنا أن ننظر إلى صفحة مصر على أنها تتألف من عنصرين طبيعيين أساسيين .. هما النهر والصحراء ، ولكن البحر بالتأكيد عنصر ثالث ، بعد ثالث يكمل جغرافية مصر الطبيعية ، ولا يمكن لهذه أن تفهم دونه ، ولهذا فلابد لأى تحليل متكامل لخريطة مصر الجغرافية أن يأخذ فى اعتباره هذه الثلاثية من الخطوط الطبيعية .. النهر ـ الصحراء ـ البحر ، وعلى الفور يبدو قدر من النظام والترتيب .. أو الايقاع والتوازن العريض ، قدر من التناظر الهندسى العام باختصار ، فى كل واحد من عناصر تلك الثلاثية ، فالتناظر إذن هو القاسم المشترك .. والنغمة الأساسية فى صورة مصر الجغرافية ، جـ ١ ص ٢٣٤) .

وقبل أن يفرغ لثلاثيته بما تقتضيه من تفصيل ، يعود فيؤكد ملمحين بارزين فى صفحة مصر الطبيعية ، ويضع تحتهما الخطوط ، متسائلا بالنسبة لأولهما عن درجة صحراوية مصر ؟ ويجيب (.. مصر فى جوهرها ليست إلا جزءا من نطاق الصحراوات الجافة فى العروض الوسطى ، ليست مجرد جزء فقط .. ولكن قلبه ووسطه ، ليست قلبه فحسب كذلك ، وانما جماع مصغر لكل خصائصه ، وتلخيص مركز لنمط الصحراء الحارة .. من حيث هى نوع فريد من الاقليم الجغرافى الطبيعى ، وإذا كانت الصحراء الكبرى النموذج الكامل للصحراء الحارة .. فإن مصر هى التصغير النموذجى الكامل لها ، جـ ١ ص ٢٤٣) .

ومتسائلا أيضا بالنسبة للثانى .. هل لمصر النيلية سطح أو تضاريس ؟.. ويجيب (.. على السطح يبدو الأمر مجرد سهل فيضى مستو .. ينتهى إلى دلتا أشد استواء وتسطحا ، بمثل ماهى أكثر اتساعا وأكبر مساحة ، والكل ينحدر بعد ذلك فى تدرج مطرد باهت .. لا يكاد يبين من الشلال إلى البحر ، وعلى السطح أيضا يبدو وجه الوادى شاحب الملامح فاقد المعالم تقريبا ، إن لم نقل بلا تضاريس فعلا ، فأنت أينما نظرت فثم الانبساط السهل والرتابة السائدة ، إلا من خطوط أو نقط تعلو أو تنخفض قليلا هنا وهناك عن المستوى العام للسطح ، ولكن لا يكاد يشعر بها السائر تحت قدميه ، ولا تكاد هى تكسر خط الأفق فى عين الناظر ، ولكنها مع ذلك مختلفة إلى حد أو آخر ، فلسطح الوادى تضاريسه ، وتضاريسه السالبة والموجبة أيضا ، صحيح أنها تضاريس الحد الأدنى minimal ، وقد لا تقاس إلا بالمتر .. وأحيانا بكسوره ، فأعلى نقطة فى الوادى كله فى أقصى الجنوب بالكاد تبلغ المائة ، وبذا يظل سطحه دراسة فى الفيزيوغرافيا الميكروسكوبية micro - Physiography وتضاريسه هى تضاريس مجهرية micro - Relief متواضعة المقياس خفيضة .. خفيفة لطيفة ودقيقة إلى أبعد حد .. لأنها أساسا تضاريس بيئة نهرية فيضية ، ص ص ٦٩٩ ـ ٧٠٠) ، ولكنها أيضا فاعلة ايجابية من النواحى الطبوغرافية والهيدرولوجية والبشرية ، فمتر واحد فقط وأحيانا كسوره .. قد تحدد الفرق بين الحياة والموت وبين النجاة والضياع .. سواء بالغرق أو

بالشرق .. بقدر ماهى سالبة إذن هذه التضاريس طبيعيا .. بقدر ماهى موجبة بشريا (ص ٧٠١) .

وجه مصر

يستهل الفصل الرابع (وجه مصر ، ص ٢٣٣ ـ ٢٨٥) من هذا الجزء .. بعبارة موحية (.. بقدر ما يمتاز تاريخ مصر بالتعقيد .. تمتاز جغرافية مصر بالبساطة ..) مؤكدا ذلك بتلخيص وجهها الطبيعى .. وتقسيم سطحها إلى أقسامه الرئيسية فى لمسات خاطفة .. (.. ولاتتبدى هذه البساطة النسبية .. كما تتبدى فى تلك السمترية .. أو ذلك التناظر الذى يسود عناصر اللاندسكيب الطبيعى فى مصر ، فعلى جانبى الوادى الذى تحف به حافتان هضبيتان فى توازن ملحوظ ، تتناظر صحراوان فى الشرق والغرب .. بصفة مستمرة ، والوادى نفسه ـ على وحدته الأساسية ـ ينقسم مابين الدلتا والصعيد .. اللذين يتوازنان بدورهما فى استقامة واضحة مابين الشمال والجنوب ، وحول الجميع يتناظر بحران رئيسيان فى الشمال والشرق ، جـ ١ ص ٢٣٤ ، ويقتضيه تفصيل هذه الصورة العامة .. البابين الثانى والثالث كاملين .. من هذا الجزء من الكتاب ، حيث يخصص الثانى « للصحراوات » (ص ٢٨٩ ـ ٦١٨) والثالث « لوادى النيل » (ص ٦١٩ ـ ٨١٤)

الصحراوات

تقع دراسته « للصحراوات » فى ستة فصول .. تسمح له بدراستها بغاية التفصيل ، يبتدؤها بمناقشة مسهبة لنظريات البناء والتكوين ، ومن ثم بتقسيمها إلى مجموعة من الأقاليم الثانوية .. تبعا لعدد من المعايير ، ولأن الصحراء الغربية تشغل ثلثى مصر (٦٨١ الف كم ٢) .. فإنها تستغرق من هذا الباب الثانى .. ثلاثة فصول (الخامس والسادس والسابع (ص ٢٨٩ ـ ٤٥١) يخصص الخامس منها .. لأبعادها المكانية .. وشكلها العام ، ثم لخصائصها الرئيسية ، فهى .. (.. تتخذ شكل المستطيل .. طوله نظريا ١٠٠٠ كم .. وعرضه ٦٦٦ كم ، وهى النموذج الكامل للصحراء) ويلخص موروفولوجيتها العامة .. (.. هي صحراء هضبة ومنخفض Plateau and depression فجسمها مصوغ أساسا في قالب هضبة عظمى تفصصها إلى عدد من الهضاب الاقليمية والثانوية .. سلسلة من المنخفضات الكبيرة والصغيرة ، ص ٢٩٠) ويفصل من بعد . فى وصف هذه المنخفضات وتحليل خصائص كل منها ؛ منتقلا بتعمق إلى شرح نظريات تكوينها (ص ٢٩٩ ـ ٣٠٨) موضحا تكويناتها الصخرية .. تحت عنوان « صحراء الحجر والرمل » .. (.. من الناحية الليثولوجية .. فإن الرمال تسجل أعلى نسبة لها .. فى أى جزء من مصر على الاطلاق تشغل أكثر من ثلثها ، مقابل أقل من الثلثين للصخور ، فهى إذن صحراء حجر أو

حماد فى الدرجة الأولى ، وصحراء رمل أو عرق فى الدرجة الثانية ، وهى ليست صحرا حصى أو رق ، إلا بنسبة كسرية ضئيلة ، ص ٣٠٨) وبعد ذلك يأتى التفصيل .

وهى أيضا صحراء الواحات .. تتوزع بها واحات مصر الرئيسية .. (.. سيوة ، الخارجة ، الداخلة ، الفرافرة ، البحرية) ويخص هذا الملمح بدراسة مستفيضة (ص ٣٢١ ـ ٣٤٥) .. أى إلى نهاية الفصل ، وبذا يكشف عن خصائصها الرئيسية الثلاث .

★ هى صحراء الهضاب والمنخفضات .
★ وهى صحراء الأحجار ثم الرمال .
★ وهى صحراء الواحات .

وحسب المنهج الجغرافى المتبع .. فإنه يتبع الصور العامة بالتقسيم ، ويخصص الفصلين السادس والسابع (ص ٣٤٧ ـ ٤٥٠) .. لدارسة أقاليم الصحراء الغربية .. (.. تنقسم الصحراء الغربية إلى ثلاثة أقسام طبيعية واضحة ، تتابع كهضبات ثانوية من الجنوب الى الشمال ، وتتفاوت بدرجات مختلفة .. ليس فقط فى الموقع أو التركيب الجيولوجى ، ولكن كذلك فى المناخ والنبات وأنماط الحياة البشرية ، ولهذا تعد بحق أقاليم الصحراء الغربية ، تلك هى : ص ٣٤٧)

★ الهضبة الجنوبية .. جنوب خط الداخلة / الخارجة / ابومنقار .

★ الهضبة الشمالية .. شمال خط سيوة / القطارة/ النطرون .
★ الهضبة الوسطى بين الخطين .

ويتابع كل إقليم منها بما يقتضيه من تفصيل ، من النواحى الجيولوجية والبنيوية والتضاريس ، باهتمام خاص بالهضبة الشمالية .. التى يفرد لها الفصل السابع بأكمله (ص ٤٠٣ ـ ٤٥١) يتناول فيها خصائصها الطبوغرافية والمائية والاقتصادية .. وأقسامها الثانوية ، مع التركيز على منخفض القطارة والنطرون وهضبة مارمريكا ومنطقة مطروح

الصحراء الشرقية :

وإذا كانت الصحراء الغربية .. قد شغلت ثلاثة فصول من هذا الجزء الأول المخصص « لشخصية مصر الطبيعية » فإن دراسة « الصحراء الشرقية » .. قد شغلت منه فصلين (الثامن والتاسع ، ص ٤٥٣ ـ ٥٣٨) يأتى أولهما تحت عنوان « صورة الصحراء الشرقية » يتناولها فيه من حيث الشكل والامتداد (.. مساحتها نحو ٢٢٥ الف كم^{٢} .. فهى ربع مساحة مصر تقريبا ، ونحو ثلث شقيقتها الغربية ، بطول نحو ١٠٨٠ كم ، وعرض يتراوح بين ١٥٠ ـ ١٨٠ كم ..) ويتابع تركيبها الجيولوجى وتضاريسها ومناخها وشبكة تصريفها الأساسية ، محددا خصائصها الرئيسية فى كونها :
★ صحراء الحجر والحصى .. حيث لاتغطى الرمال -

بعكس الصحراء الغربية ـ سوى كسر ضئيل من رقعتها ، ويتشابهان فى ضآلة نسبة الحصى .. أى سرير العرب .

★ وهى بعد ذلك .. صحراء الجبل والوادى ، حيث تبرز الأودية بها باعتبارها أهم ملامحها ، فهى بالنسة لها كالمنخفضات والواحات .. بالنسبة للصحراء الغربية .

★ ونتيجة لهذه الأودية .. تبدو حالة تامة من الهضاب المقطعة dissected وهكذا ـ إذا كانت الصحراء الغربية .. هضبة حافات ومنخفضات .. فان الشرقية فى النتيجة الصافية .. على حد تعبيره .. هضبة جبلية وديانية .

★ وهى فى المحصلة الايكولوجية .. صحراء الرعى .. نتيجة مائيتها وسيول أوديتها (ص ٤٧٢) ولكنه رعى فقير .. ورعى بلا زراعة .. لم يؤد إلا إلى غطاء بشرى مخلخل (٤٧٦)

★ وهى بلاشك منجم مصر (٤٧٧)

★ وهى وان كانت صحراء عزلة .. إلا أنها اقليم عبور (ص ٤٨١) موجزا بذلك لب جغرافيتها وتاريخها .. ويفصل مقولته هذه ويفسرها ، محددا ضوابط عزلتها ودوافع عبورها .. عبر تاريخها ، متتبعا شبكة دروبها .. وموانيها القديمة على البحر الأحمر ، وعلاقة هذه الموانى بالمحور النيلي (ص ٤٨٤) مختتما هذا الفصل الثامن ـ بنظرة استشرافية .. تحت عنوان « بين الحاضر والمستقبل »

وكما اتبع بالنسبة للصحراء الغربية .. فإنه يخصص الفصل التاسع (ص ٤٨٧ ـ ٥٣٨) لأقاليم الصحراء

الشرقية .. (.. الآن .. وعلى أساس من البنية والتضاريس . يمكن تقسيم الصحراء الشرقية إلى أقاليمها الطبيعية الداخلية ، فهناك أولا .. الجبال فى الشرق ، ثم الهضبة فى الداخل ، ص ٤٨٧) ويفصلها فى ذات الصفحة إلى (جبال البحر الأحمر ، تلال البحر الأحمر ، الهضبة الجنوبية ، الهضبة الشمالية ، صحراء شرق الدلتا ..) متناولا كل قسم من هذه الأقسام الخمسة الطبيعية .. بشىء من التفصيل .. مقترنا بنظرته الايكولوجية .. التى تربط بين خصائصها .. والتوطن البشرى فى أجزائها ، متابعا أيضا علاقاتها عبر التاريخ .. بقطاع النيل الموازلها غربا (ص ٤٩١ ـ ٥١٠)

وفى دراسته التفصيلية عن هذا الأقسام .. يذكر عن الهضبة الجنوبية .. (.. وتعرف أيضا بهضبة العبابدة ـ نسبة إلى قبائل الابل البدوية .. التى تسود المنطقة) ويحددها .. (.. هى هضبة مستطيلة طولها نحو ٤٧٠ كم ، تترامى إلى الجنوب من ثنية قنا ، منحصرة بين وادى النيل وجبال البحر الأحمر ، وتشغل نصف هضبة الصحراء الشرقية إلا قليلا ..) ويتابع تفصيلاتها .. من حيث دورة الأودية وخصائصها .. على وجه التحديد ، ويذكر عن قسمها الرئيسى الثانى .. الهضبة الشمالية .. (.. وتعرف بهضبة المعازة .. نسبة إلى القبيلة العربية البدوية السائدة بها ، وتمتد بمثل طول الهضبة الجنوبية .. أى ٤٧٠ كم .. إلى الشمال من ثنية قنا .. حتى طريق القاهرة / السويس منحصرة بين وادى النيل ووادى قنا وسلاسل البحر الأحمر ،

ص ٥١٧) ويتابع أيضا تفصيلاتها من حيث البنية والتضاريس و « شبكة الأودية » وينهى هذا الفصل .. بدارسة مسهبة عن « صحراء شرق الدلتا » .. باعتبارها .. (.. نهاية الصحراء الشرقية أقصى شمالها ، وأيضا فى أضعف صورها أو أعدل قطاعتها .. شكلها أقرب إلى مثلث قائم الزاوية ، أضلاعه طريق القاهرة / السويس جنوبا ، وقناة السويس شرقا ، وحدوده دلتا النيل غربا ، أما رأسه فعند نهايات بحيرة المنزلة ، ص ٥٢٩) ويقسمها إلى نطاقات .. يتابعها من حيث تاريخها الجيولوجى وسطحها وخطوط أوديتها ، وينهى دراسته عنها .. بما يتوقعه لها . (.. قد تبدأ الصحراء الشرقية .. لا من أطراف بحيرة المنزلة .. ولكن من تخوم وادى الطميلات ، بينما تتحول صحراء شرق الدلتا برمتها .. أو فى معظمها إلى جزء لايتجزأ من الدلتا الكبرى نفسها ، ص ٥٣٨) وذلك فى إطار برامج تنموية زراعية صناعية شاملة ، تدعو لها امكانات هذا المثلث الصحراوى الكبير وموارده .

شبه جزيرة سيناء

وبعد الصحراوين .. يتوجه إلى « سيناء » .. هذه التى تنال منه فائق الاهتمام فى مجموع أجزاء كتابه .. من النواحى الطبيعية والبشرية والاقتصادية والجيوستراتيجية جميعها ، يشير إليها دائما .. ويكرر التأكيد على أهميتها الجغرافية

والتاريخية .. فى الماضى والحاضر والمستقبل معا ، ويخصص لها هنا .. فى الجزء الأول منه .. الفصل العاشر بأكمله (ص ٥٣٩ ـ ٦١٢) .. لدراسة خصائصها الطبيعية وحدها ، يستهلها كمنهجه بصورتها الكلية .. تحت عنوان « الهيكل العام » .. ويحدده .. (.. سيناء .. ٦١ الف كم٢ ، حوالى ٦ ٪ من مساحة مصر ، أى نحو ثلاثة أمثال مساحة الدلتا ، وتبدو مثلها كمثلث منتظم بدرجة أو بأخرى ، ارتفاعه من رأس برون حتى رأس محمد نحو ٣٨٥ كم ، وأقصى عرضه بين السويس والعقبة .. نحو ٢١٠ كم ، أى أن طوله ضعف عرضه .. إلا قليلا ، ص ٥٣٩) .

وتحت عنوان « وجه سيناء » (ص ٥٤٥) .. يلخص خصائصها .. (.. سيناء توجز الصحراء الشرقية بصفة خاصة ، فهى تمثل تضاغطا مكثفا ومصغرا فى مثلث للأقاليم الطبيعية والجغرافية ، وهى العقدة الطبيعية التى تلحم أفريقيا بآسيا ، بل إن فيها تجتمع مصر والشام والجزيرة العربية جيولوجيا وتضاريسيا ، فالسهل الساحلى إنما هو استمرار لسهول فلسطين ، والهضبة الوسطى امتداد لهضبة بادية الشام ، أما كتلة الجبال الجنوبية فعقدة الالتحام المشتركة بين جبال حافتى الأخدود الانكساريتين فى حوض النيل والجزيرة العربية ، ص ٥٤٦)

ويفصل بعد ذلك فى خصائصها ، يستهلها بشبكة التصريف ، وتحليل عقديتها المناخية والنباتية ، ومواردها واقتصادياتها ، وهيكلها العمرانى العام ، ويقسمها إلى

أقاليمها (ص ٥٦٠) التى يحددها فى (السهول الشمالية ، إقليم القباب ، السهول الداخلية ، هضبة التيه ، هضبة العجمة ، جبل الطور ، شكل ص ٥٦١) ويتابع كل قسم منها بالدراسة التفصيلية (ص ٥٦١ ـ ٦٠٨) ويكمل صورتها بدراسة خليجيها .. السويس والعقبة (ص ٦٠٨ ـ ٦١٢) منتهيا إلى مقارنة لها دلالتها .. ينهى بها تحليله لهما .. وأيضا للفصل كله (.. السويس خليج بترول غنى أرضا وماء ، بينما العقبة خليج جاف بتروليا ، ويفسر هذا الفارق بعض مظاهر الاختلافات البشرية ، والعمرانية على شواطىء الخليجين وفى مياههما ، ولو أن الفارق التاريخى والبشرى الحاسم إنما أتى ـ يقينا ـ من تفرد خليج السويس بقناة ملاحة الشرق ـ الغرب العظمى ، فكان شريانا عالميا ، حيث ظل العقبة منزويا كزقاق مغلق شبه مهجور ، وان بدأ يتحول مؤخرا إلى حارة أو عطفة محلية لأسباب طارئة عابرة غالبا ، ص ٦١٢)

نهر النيل

ويتضمن الباب الثالث الخاص بوادى النيل (ص ٦١٥ ـ ٨٤١) أربعة فصول يخصصها لجوانبه الطبيعية بالتفصيل ، يبدأها « بفيزيوغرافية النهر » (الفصل ١١ ص ٦١٩ ـ ٦٧٨) ثم « مورفولوجية الوادى » (الفصل ١٢ ص ٦٧٩ ـ ٧٣٢ » ثم « الوادى والفيوم » (الفصل ١٣ ص ٧٣٣ ـ ٧٨٨) وأخيرا « الدلتا » (الفصل ١٤ ص ٧٨٩ ـ ٨٤١) .

وتتضمن دراسة « فزيوغرافية النهر » العشرات من العناصر التفصيلية ، تشمل « الامتداد والانحدار » المجرى ، الخوانق ، الجنادل ، الأودية المنتهية إليه ، فرعا الدلتا ، التعرجات ، الجزر النهرية ، البحيرات المقتطعة ، المائية ، الحمولة .. ولكل منها تفصيلاتها وعناوينها الثانوية ، وفيما يلي أبرز ماورد ذكره فى هذا الفصل ، خاصة مايتصل منها بموزاييك الشخصية الطبيعية لمصر المعمورة :

● خصائص المجرى :

ـ إن الأطوال الفعلية مقيسة على واقع خريطة النهر ، توضح أن طول فرعى الدلتا ٤٨٤ كم ، مقابل ١٠٥٢ للصعيد ، أى أن فرعى الدلتا .. نصف نيل الصعيد بالكاد ، وهذا على الفور يأتى عكس المساحة تقريبا ، حيث أن الدلتا ضعف مساحة الصعيد (٢٢ الف كم[٢] مقابل ١١ الف كم[٢] ترتيبا) وفى النتيجة فالدلتا خارجية بحرية أكثر بالموقع ، والصعيد بالطبيعة أكثر نهرية من الدلتا .. داخلى قارى أكثر ، ص ٦٢١ .

ـ القاعدة العامة أن الانحدار يقل بالتدريج .. كلما تقدم النهر شمالا ، ولكن الدلتا أشد من الصعيد انحدارا بصفة عامة ، فعلى حين يبلغ معدل الانحدار من أسوان إلى القاهرة نحو ٥ بوصات فى الميل ، فإنه يبلغ فى الدلتا ٨ بوصات فى الميل ، (ص ٦٢٣)

ـ الاتجاه العام للنهر .. هو إلى الشمال بالطبع ـ أى طولى المحور ، ولكن مع وجود انثنئات وتعرجات إقليمية ، وأحيانا ابتعادات وانحرافات ، تتمثل فى ثنية كورسكور الدر ، وثنية قنا بصفة خاصة ، حيث قد يتعامد النهر على محوره العام (ص ٦٢٥)

ـ عرض النيل فى مصر يناهز في متوسطه نحو ثلاثة أرباع الكيلو ، ولكنه يتفاوت كثيرا إقليميا ومحليا ، وهذا يشير إلى علاقة طبيعية دالة ، وهى أن عرض المجرى يتناسب طرديا مع عرض الوادى نفسه بعامة : (ص ٦٢٨) .

ـ يزداد المجرى تعرجا وانثناء .. كلما اتجهنا شمالا ، مع كل مايرتبط بها من أشباه جزر وشطوط رملية وبحيرات متقطعة .. (ص ٦٤٠)

ـ النيل المصرى لاشك نهر جزر ـ نهر جزرى ـ يغص بالجزر النهرية التى ترصع مجراه على امتداده من الشلال للبحر ، فهناك نحو ٣٠٠ جزيرة تختط المجرى من أديندان حتى المصبين .. (ص ٦٤٥)

● مائية النهر

ـ بالأرقام يقدر ايراد النهر الطبيعى السنوى عند أسوان نحو ٨٣ مليار م٣ ، ولكن هذا الايراد يتفاوت حول متوسطه من

عام إلى عام ، قد يصل إلى أن يعادل الحد الأقصى .. أكثر من ثلاثة أمثال الأدنى ، أو بنسبة تراوح ٣ : ١ (ص ٦٦٥)

ـ يبلغ نصيب الفيضان منها ٦٨ مليارا ، أى بنسبة ٨٢ ٪ ومعنى هذا عمليا .. هو أنه إن تكن مصر هى النيل .. فإن النيل هو الفيضان ، ومن ثم فمصر هبة الفيضان (ص ٦٦٥)

ـ الدخل المائى لمصر .. يعادل بصيغة المكافىء المطرى ٨٠ ـ ١٠٠ بوصة سنويا ، أى قدر مايصيب الغابة الاستوائية أو الموسمية .. (ص ٤٨٦)

ـ يعد النيل نموذجا مثاليا لذلك النوع من الأنهار الذى يعرف بالغربية المتداخلة, Intrusive exotic فهو يجرى بالمياه فى وسط جاف تماما ، مستمدا مائيته من بعيد خارج الحدود ، فليس مصدره موضعيا أو محليا ، ولايكاد يستفيد من الأمطار المحلية . (ص ٦٦٤)

ـ وفى رحلته داخل مصر .. يتعرض النهر لقدر معين من الفاقد .. سواء بالبخر أو التسرب ، وقد قدر الفاقد بما يتراوح بين ١٥ ـ ٢٥ ٪ من مائيته ، ويقدر فاقد التسرب بنحو ٥ مليار م^{٣} .. وبقية النسبة فاقد التبخر . (ص ٦٦٥)

ـ الغى السد الدورة المائية السنوية للنهر ، فقد وضع نهاية للفيضان وكل أوضاعه ومظاهره ، أى وضع نهاية لفزيوغرافية النهر الطبيعية ، وأدى بدلا بدلا منها إلى نظام نهرى جديد .. من صنعه . (٦٦٨)

- كم هى مذهلة كمية المياه الجوفية المرتدة إلى النهر فى فصل الجفاف ، حسبها أنها كافية لتعادل كل فاقد البخر الحاد فى ابريل ومايو ويونيه ، ويقدر بنحو مليار م^{3} سنويا ، نصفه فى الدلتا ونصفه فى الصعيد . (ص ٧٢٣)

- ليس النيل الذى نراه يتوج لاندسكيب الوادى .. هو كل النيل الحقيقى ، ثمة فى الواقع نيلان : ظاهرى على السطح .. هو النيل العلوى أو السطحى ، وباطنى هو النيل السفلى ، فما يتسرب فى الأرض .. يعود فيتجمع فى طبقات معينة منها ، تستغل فعلا منذ القدم .. وعلى نطاق واسع للزراعة والشرب ، وتقد جملة المخزون منها فى الطبقة الحاملة للمياه الجوفية ٧٠٠ مليار م^{3} تتوزع بين الدلتا .. ٥٤٠ مليارا ، وبقيتها فى الصعيد . (٧٢٤)

- الرى أسهل شمالا ، والصرف أسهل جنوبا . (ص ٦٧٠)

● الارسابات النهرية :

- ينقل النيل إلى مصر وجبة الغرين الشهيرة ، التى بنى بها واديه الرسوبى وسهله الفيضى ودلتاه عبر العصور ، وإليها ترجع خصوبة مصر ، ويتفاوت حجم الحمولة بحسب حجم الفيضان ، وتقدر فى المتوسط عند وادى حلفا بنحو ١١ مليون طن . (ص ٦٧٤)

ـ تصنف التربة المصرية الى أربعة أنواع أساسية . هى التربة الصلصالية السوداء الكثيفة السميكة ، والصلصالية السوداء الكثيفة متوسطة السمك ، ثم الصلصال الرملى ، وأخيرا التربة الرملية أو الحصباوية . (٧١٠)

ـ وكما يتدرج اتساع الوادى من الجنوب إلى الشمال ، فكذلك تتطور طبيعته الرسوبية ، فرواسب الطمى والغرين لاتكاد تظهر قبل أسوان ، ومن هنا التسمية الفرعونية بجزيرة فيلة Pi - lac بمعنى الزاوية .. أى نهاية الأرض ، ثم تظل الرواسب ضيقة حتى ثنية قنا ، ثم تفترش أرض الوادى بسخاء إلى أن نصل إلى الدلتا ، فتنفرج كالمروحة بلا حدود ، وبهذا أيضا ينقسم الوادى من حيث الارسابات النهرية إلى ثلاثة قطاعات رئيسية ، الوادى بلا سهل حتى جنوب أسوان (نقطة الصفر) والسهل الفيضى من أسوان إلى القاهرة ، ثم أخيرا الدلتا . (ص ٦٨٥)

الوادى والدلتا والفيوم

أما دراسته للوادى والفيوم (الفصل ١٣ ص ٧٣٣ ـ ٧٨٨) فتبدأ بالوادى من حيث « البنية والتضاريس ، أشكال الأرض وأسماء الأماكن ، ثم أقاليم الوادى ، أما « الفيوم » فيستهلها بالتركيب الجيولوجى ، ثم الاطار الاقليمى ، وجه الفيوم ، هيدرولوجية جغرافية ، مشكلة الفيوم ، ويختتمها أيضا بأقاليم الفيوم الطبيعية ، مع اشارات مسهبة لمنخفض الريان .

ويحدد في السطور الأولى من الفصل (٧٣٣) ، صعوبة تقسيم (الوادى + الفيوم + الدلتا) إلى أقاليم ثانوية .. بسبب تجانسها الطبيعي العام ، وحين يبدأ « بالوادى » يلخص بنيته في (.. سواء أكان الوادى فى نشأته التوائيا أو انكساريا أو وادى تعرية نهرية .. أو الثلاثة معا ، فإنه موضوعيا التواء مقعر تحف به الانكسارات فى معظم قطاعاته .. سواء بالموازاة أو الانحراف أو بالتقاطع ، ثم شارك النهر بالتعرية في تكوينه ، وعلى طوله يتناقض مع تركيب الاطار الهضبى المحيط فالوادى متجانس على الجملة باستمرار ، فى حين يتغير الاطار بانتظام ، ٧٣٣) .

ويربط بين تضاريس الوادى كأحواض متتابعة وبين الرى الحوضى القديم (.. وفكرة الرى الحوضى كمبدأ .. إنما هى تعبير هيدرولوجى أولى عن الحقيقة التضاريسية الأولى فى جغرافية الوادى ، مثلما هى إفادة أساسية منه ، ص ٧٢٧) وتعكس شبكة الترع هذه الافادة ، فالترع فى الصعيد أقصر ، فكل نقطة على قطاع النهر عبره هى مخرج ميسور لترعة جديدة ، ومن ثم فلا رياحات فى الصعيد .. حيث يقوم النيل نفسه بدور الرياح ، وكذلك هو المصرف الرئيسى (ص ٧٢٨) ومايحيط بالنهر وان اصطلح على تسميته بالجبل ماهى إلا حواف متماوجة مابين [illegible] التلال ومقعرات الأودية الفد[illegible]رة التى توصل [illegible]ها على التعاقب

ولعل أبرز حقيقة فى جغرا[illegible]ة الوادى بعد [illegible] هى تمثل

سهله الفيضى بنسبة ٩ : ١ بين الضفة الغربية إلى الشرقية ، ومعنى ذلك أن الصعيد ليس ببساطة سوى الضفة الغربية (حيث تتركز الأرض السوداء .. بكل ماتحمل من مظاهر الحياة والعمران والحضارة .. ص ٧٤١)

وكنظرة تركيبية ختامية ، يقسم الوادى طبيعيا إلى (النوبة ، الجنوب الأقصى ، ثنية قنا ، الجذع الجنوبى من نجع حمادى إلى أسيوط ، الجذع الشمالى بين منفلوط وديروط ، وإقليم العنق من الواسطى إلى رأس الدلتا ، ص ٧٥٢)

ويخصص لكل قسم منها مايوضح خصائصه بشىء من التفصيل .

وتبدأ دراسته للقسم الثانى (الفيوم ص ٧٥٨) بتركيبه الجيولوجى ، ثم إطار المنخفض الاقليمى (٧٦) أما وجه المنخفض فيصوره (.. بين الدائرة والمثلث والكأس ، يبدو شكل الفيوم أشبه على الجملة بورقة شجر الاسفندان maole غصنها أو عودها القصير هو وادى بحر يوسف من اللاهون إلى مدينة الفيوم ، وعروقها هى شبكة الترع والمصارف المتشعبة داخلها بهذا الشكل .. وبمساحتها البالغة ١٧٠٠ كم^{٢} ويبلغ محيطها ١٨٠ كم .. تذكر على نطاق مصغر .. ولكن بشدة بصورة دلتا .. بل ووادى النيل كله ، ص ٧٦٩) .

ويحدد خصائص المنخفض فى انخفاضه (أعمق أقاليم الوادى جميعا ، ص ٧٦٥) وأشدها انحدارا (.. يكاد يعادل انحدار وادى النيل بأسره من أسوان إلى البحر المتوسط ص ٧٦٥) وفى انحداره على شكل مدرجات (.. فهناك ثلاثة مدرجات أساسية .. تتسارع فى الانحدار باطراد ..) وعلى تلك المنحدرات المتجهة نحو بحيرة قارون بعامة .. تجرى شبكة المجارى المائية الطبيعية والصناعية التى تعكس شكل سطح المنخفض ، وبهذا الانحدار الطبيعى تتمتع الفيوم ـ حتى من قبل عصر الرى الدائم فى وادى النيل ، بالرى المستديم وبالرى وبالراحة معا .

ويطلق على الفيوم « مصر الصغرى » .. مفسرا ذلك (.. من هنا عدت الفيوم فى منخفضها المنعزل تصغيرا مركزا مكثفا ومتضاغطا لمصر النيل ، وجاء التسمية الموفقة « مصر الصغرى Little Egypt تماما كما تعد سيناء على ضلوع مصر الصحراء « مصر الصغرى الأخرى Egypt Minor وان إختلف المعنى والوضع والطبيعة فى الحالين بالطبع ، وفى هذه التسمية أيضا اختزال معبر بما فيه الكفاية عن جوهر شخصية الفيوم الاقليمية فى ذاتها ، ثم عن جوهر تفردها داخل شخصية مصر الاقليمية ككل ، ص ٧٧٠)

أما عن أقاليم الفيوم الطبيعية ـ فتتمثل فى (.. دلتا اليوسفى ، قارون وسهلها ، تجويف الشمال ، التجويف الجنوبى ، حوض الغرق ، ص ٧٧٣ ـ ٧٧٧)

ويأتى دور « الدلتا » فى النهاية (الفصل ١٤ ص ٧٨٩ ٨٤١) يتصدرها عنوان « النموذج .. النضج الفزيوجرافى ووراء ه عناوينه التفصيلية (المساحة ، البروز ، البحيرات ، الساحل الانسيابى ، قمة النمو أو نهايته ، ثم يأتى عنوانه الرئيسى الثانى « مروحة الدلتا .. الشكل والرقعة » ووراءه أيضا عناوينه الخاصة (بين شرق وغرب الدلتا ، مدى التناظر ، بين دوائر العرض ، ثم العنوان الرئيسى الثالث « صفحة الدلتا : السطح » .. مشتملا على تفصيلاته (مدرج خفيض ، الفاصل الرأسى ، أقواس منتظمة ، مدرج مائل ورقة شجر مقلوبة ، السطح والمائية ، درجة الاستواء ، فى مرآة أسماء الأماكن) ويختتمها كالعادة بالأقسام الداخلية تحت عنوان « أقاليم الدلتا الطبيعية ، مع اشارات مسهبة لنطاقها الشمالى وبحيراته .

وعن شكلها يذكر (.. دلتا النيل شكلا وحجما وتركيبا هى من أقرب دالات الأنهار جميعا إلى فكرة الدلتا النموذجية ، وهى دلتا ناضجة فيزيوجرافيا ، فسيحة تجاوز ٢٢ الف كم^{٢} بما فى ذلك البحيرات والكثبان ، هلالية الساحل ، ضعيفة المد والجزر ، ص ٧٨٩ - ٧٩٠) ويتابع مراحل بنائها .. محددا المرحلة الحالية (.. بأنها مرحلة توقف نسبى .. إن لم يكن نهائيا عن النمو ، وذلك منذ انشاء السد العالى الذى احتجز كل الطمى ، لقد ولى .. الى الأبد فيما يلوح .. عصر تقدم ونمو الدلتا ، وأضحى خطر التآكل يهدد الساحل

الشمالى ، دع عنك مشروع الدلتا الكامنة تحت البحر الذى لن يكون بعد الآن أبدا ، ص ٧٩٤)

وعن مروحتها من حيث الشكل والرقعة (.. جسم الدلتا الأساسى فرشة غطائية أو رقعة غطائية واحدة متصلة) ويتابع حدودها الغربية والشرقية والشمالية ، أما صفحتها .. فانها رغم ماتظهر به (.. كسطح بحر هادىء .. إلا أن بها قدرا هاما من الانحدار والتغضن ، تقع نصف مُساحتها تحت خط كونتور ٥ م ، ص ٨٠٢) وفى متابعة شيقة ـ يضع أسماء قراها فى مرآة خصائصها (ص ٨٠٧ ـ ٨١٠) وكعهده مع الوادى والفيوم .. يحدد أقاليمها الطبيعية فى (.. الاقليم الجنوبى بين رأس الدلتا وكونتور ٧ م ، واقليم الوسط بين كونتورى ٧ ـ ٣ م والاقليم الشمالى دون كونتور ٣ م وحتى البحر ، ص ٨١٠ ـ ٨١١) ويقدم ظواهرها الفزيوغرافية الرئيسية فى نوع من التحليل الجيومورفولوجى المسهب ، من قبيل ظهور السلحفاة (ص٨١٢) نطاق البرارى (ص ٨١٦) البحيرات الشمالية (ص ٨١٨) نطاق الكثبان الرملية (ص ٨٣٤) وينهى بذلك الجزء الأول الرئيسى من عمله .

شكل (٤) منظومة عناصر شخصية مصر الطبيعية

ثانيا : شخصية مصر البشرية

إذا كانت الكلمة المفتاح فى شخصية مصر الطبيعية هى « البساطة » فإنها بالنسبة لشخصيتها البشرية .. تتحدد فى التجانس ، وبالنسبة لهما معا .. فهى البساطة المؤدية للتجانس وتستند نظريته العامة عن التجانس .. إلى مجموعة من الفروض المتتابعة (التجانس الطبيعى ـ التجانس المادى ـ التجانس السكانى ـ التجانس العمرانى ـ وحدة الوطن السياسى) .. وذلك على النحو التالى :

★ التجانس الطبيعى .. فى مصر المعمورة .. بمثابة القاعدة لكافة صور التجانس .

★ إذا كان النهر .. (بمائيته + تربته) وراء التجانس الطبيعى .. فقد أفضى ذلك إلى التجانس المادى (الزراعة) .

★ انطبع التجانس السكانى فوق الزراعة ، ومقاييسه .. وحدة الأصل والتوزيع والكثافة .

★ صيغ التجانس العمرانى حول ماسبق .. من القرية إلى السوق إلى المدينة المتوسطة .

★ وحدة الوطن السياسى .. ثمرة ماسبق ، ومقاييسه الدولة المركزية وثبات حدودها .

ومن بعد .. يتوجه بكل قوة لاثبات فروضه ، بطول صفحات

الجزء الثانى (١٠١٨ صفحة) من كتابه ، وخاصة الباب الرابع منه (ص ١٣ ـ ٣٦٢) .. الذى يتصدره « التجانس » .. كعنوان رئيسى يفسر جميع فصوله (من ١٥ إلى ١٩) ويتصاعد من قاعدة التجانس السارية .. ويكثفها فى صيغة « الوحدة » (التجانس ـ الوحدة) .. حين يتناول « الوطن السياسى » مفردا لذلك البابين الخامس والسادس (ص ٣٦٣ ـ ٧٨٣) .. بفصولهما الستة (من ٢٠ ـ ٢٥) ويمكن اعتبار الفصل العشرين من بينها .. وعنوانه (.. من السبق الحضارى إلى التخلف ..) بمثابة همزة الوصل بين الباب الرابع .. والبابين الخامس والسادس ، أما الباب الأخير من هذا الجزء .. والسابع من كتابه .. فيخصصه لنظريته العامة .. عن « البناء الحضارى والأساس الطبيعى » .. المستندة إلى فرضيته الجذرية عن « الموضع والموقع » .. هذه التى تتردد كنغمة أساسية فى تحليلاته ، حيث يتناولها بالتفصيل فى فصول هذا الباب (من ٢٦ إلى ٢٨) الثلاثة .



ويأتى الفصل الأول من هذا الجزء (فصل ١٥) تحت عنوان « التجانس الطبيعى » (ص ١٣ ـ ٥٨) يتابع فيه ماخصص له الجزء الأول بأكمله (شخصية مصر الطبيعية) بما يمكن معه اعتبار هذا الفصل .. تتمة له واستكمالا ، مع تميزه بتوجيهه وتكييفه للكشف عن التجانس الطبيعى ، أى اخضاعه لذات الرؤية العامة ، بما يجعله فوق كونه ملحقا وتتمة .. بمثابة هزة الوصل المنهجية والموضوعية والفلسفية .. بين الجزئين الأول (الطبيعى) والثانى

(البشرى) .. من خطة كتابه وبنائه ، تدل على ذلك مقولته الأساسية التى يستهل بها هذا الفصل (.. التجانس الطبيعى .. صفة جوهرية فى البيئة المصرية (جـ ٢ ص ٣) بما يعنى أن كافة صور التجانس التالية .. إنما تنبثق من هذه القاعدة الطبيعية ، وحين تواجهه مشكلة ثنائية البيئة الطبيعية المصرية .. بين الصحراء والوادى .. يعالجها بمقوليته عن البيئة الفعالة .. أى المنتجة .. وتتمثل فى الوادى ، والبيئة غير الفعالة .. أى الصحارى ، وبذا تستمر قاعدة التجانس .. ولكن بتمثل ثنائى (تجانس البيئة الفعالة + تجانس البيئة غير الفعالة) ، مكتفا ذلك فى أن مصر (.. من الأقاليم ذات النغمة الثنائية Zweiklang جـ ٢ ص ١٣)

ويعود بتجانس البيئة الفعالة إلى النهر بصورة مطلقة (... فالوادى كله وحدة فيضية ، أرضه من تشكيل مائه ، والنهر هو الضابط الأساسى .. إن لم يكن المطلق لشكل اللاند سكيب الطبيعى ، ولهذا فإن النيل يمنح أرض مصر من تجانسه .. بقدر مايسيطر على حياتها .. ص ١٣) وهكذا يتصاعد التجانس حتى يتخلل نسيج شخصية مصر .. ويصبغ جميع خيوطه ، ويجعل النيل من مصر المعمورة بيئة أحادية تماما .. ذات نغمة واحدة eimklang يضبط ايقاع الحياة فيها (ص ١٤) وتتحدد عملية تجنيسه لها فى هيدرولوجيته وارساباته .. أى الماء والتربة ، فهما عاملا التجنيس الطبيعى (ص ١٤) ومن ثم البشرى فالاقتصادى .

لكن هذه النغمة الواحدة تفصح عن ذبذباتها المكانية ،

هذه التى يفسرها بمقولته الثالثة عن « التدرج » (... وفى النتيجة .. فإنه من الصعب أن نجد بلدا يخضع فى ملامحه لقانون التدرج كوجه مصر ، فإذا كان التجانس هو قانونه الأول .. فإن التدرج قانونه المكمل ، والتدرج ضد التغير أو التحول المفاجىء ، وهو لا يؤدى إلى التراكم بحيث يؤدى الى تبلور فروق محسوسة ، فإذا ماظهرت فروق نوعية بين أقصى شمال الوادى وجنوبه ، فإنه لايعنى تنافرا ينقض مبدأ التجانس القاعدى الأساسى ، بقدر ماهو اختلاف إقليمى ثانوى الدرجة ، ويبقى الجسم الأساسى من مصر والتجانس جوهره والتدرج مظهره ، ص ١٤) وبذا ينفى أيضا بالتدرج .. ماينطوى عليه التجانس المطلق من اختفاء القسمات وشحوب الصورة (ص ٢٠) .

وبعد أن يدعم قاعدته النظرية بمقولاته .. ينطلق إلى تطبيقاتها فى المجالات المختلفة ، وكما ربط بين التركيب الجيولوجى والتضاريس .. يربط بين الأخيرة والتربة (.... ترتبط التضاريس الطبوغرافية توا بطبيعة وتوزيع التربة ، إلى حد التداخل الكامل واستحالة الفصل بينهما ، بحيث تصبح دراسة سطح مصر الوادى .. هى فى الوقت نفسه دراسة فى تربتها تقريبا ، وهما التضاريس والتربة من صنع النهر وصياغته وتشكيله .. جـ ١ ص ٤٠١) كما يشير إلى إلى تجانسها توزيعا وتركيبا .. (.. بالموازاة مع هيئة الأرض يسير تركيب التربة ، فنسبة الرمل الأثقل أعلى ماتكون قرب النهر وتقل بالتدريج ، بينما تزيد نسبة الطين الخفيف .. كلما

تقدمنا نحو حافة الصحراء ، وبالصيغة البيدولوجية المحلية ، قرب النهر والفروع تسود التربة الرملية التى تتراوح فيها نسبة الطين حول الربع ، تتدرج بعيدا عنهم إلى الطفل Loam حين تتعادل نسبة الطين والرمل تماما ، ثم إلى التربة الطينية أو الأرض السوداء ، التى ترتفع فيها نسبة الطين إلى أكثر من النصف ، ثم فى النهاية على هامش الصحراء الواسعة تأخذ التربة الصفراء الخفيفة جدا فى الظهور ، جـ ١ ص ٧٠٩)

● ويمنح « المناخ » اهتماما خاصا (جـ ٢ ص ٢١ ـ ٦٥) فى سياق التدليل على التجانس (... إن لم يكن مناخ مصر .. هو نموذج التجانس النادر ، فإنه على الأقل أكثر عناصر البيئة المصرية تجانسا بالتأكيد ، ص ٢١) وبقدر ما يفسر التجانس المناخى جغرافيا وفلكيا ، يتابعه إلى تفصيلاته المكانية من كافة عناصره وخصائصه التى تدل على التجانس أيضا وتثبته (الحرارة ، القارية ، الرياح ، التساقط وغيرها) وكما يكشف عن تجانسه يوضح تدرجه ، ويضمه إلى منظومته الطبيعية المتجانسة ، ويكثفه إلى صورته العامة كما يلى (.... إن الجزء الأكبر من رقعة مصر يقع تحت سيادة نوع مناخى واحد هو المناخ الصحراوى ، ومن هنا التجانس الأساسى العام فى مناخ البلد ، واذا جاز أن نتكلم عن ثنائية فى مناخ مصر ، فقد نضيف إليه هامش مناخ البحر المتوسط فى الشمال ، والواقع أن نسبتهما المساحية إلى بعضهما البعض على المستوى المناخى ، هى تقريبا كنسبة مساحة

وادى النيل إلى الصحراء على المستوى الطبوغرافى ، وداخل هذا الاطار .. يمتاز مناخ مصر بثلاث خصائص قوية ، (الانتقالية ، القارية ، الاطراد .. بعبارة جامعة ، جـ ٢ ص ٢٢) ولمزيد من تجسيم الصورة المناخية فى إطارها الايكولوجى .. يقرر (... فى غياب المطر كلية وسيادة الجفاف ، تصبح الحرارة دون الرطوبة هى العامل الأساسى فى التمييز بين فصول السنة ، ص ٢٣) ويضيف فى لمسة انسانية تقرب الصورة بعد العقل من الشعور .. (.. والحق لقديصل اطراد واستمرار المناخ فى مصر .. إلى حد أن المرء كثيرا مايشعر أن الطقس الذى يحس به فى فصل من فصول السنة ، بل فى أى يوم ، قد سبق أن مر عليه فى عام سابق ، ص ٢٥) ويؤكد فى ذات السياق .. (.. كأنما هو استعادة لشريحة من جهاز آلى لتسجيل الجو .. أو من ذاكرة اليكترونية للمناخ ، يحدث هذا فى أيام الخماسين كما فى الخريف ، وفى أى يوم من قلب الشتاء كما فى عز الصيف ، ويحدث بعد هذا ـ لا مرة كل بضعة أعوام .. وإنما تقريبا من عام إلى عام .. وذلك لاشك قمة الاطراد والرتابة ..) ويستمر فى التدليل على هذه الصورة أو الانطباعات العامة ، من واقع انعكاساتها على الحياة اليومية وفى البيئة (ص ٢٥ ـ ٢٨) بما يجعل من المناخ وانعكاساته .. مقياسا للتجانس ، تجانسا يسرى من ظاهرة لأخرى .. حتى يضمها جميعا فى إطاره .

● التجانس المادى :

وكما سبق تبعا لفروضه .. فانه يتصاعد بها .. بعد ما دلل فى الفصل ١٥ على التجانس الطبيعى - إلى ما يطلق عليه « التجانس المادى » .. فى الفصل التالى ، ويثير عنوان الفصل ١٦ (جـ ٢ ص ٥٩ ـ ١٦٥) السؤال عن المقصود بالتجانس المادى ؟ ويتضح ذلك على الفور من عنوانه الثانوى (خريطة مصر الزراعية ص ٥٩) وبذا يصعد بالتجانس الى مستواه الاقتصادى .. كما انطبع تبعا لرؤيته فوق التجانس الطبيعى ، وكان قد سبق تحديد « الرى والزراعة » .. باعتبارهما من عوامل التجنيس البشرى حسب تعبيره (ص ١٧) ثم أضاف إليهما العمران فى سياق آخر ، ويبرز دور « المناخ » فى تجانس الزراعة بصفة خاصة .. (... ذلك التجانس الطبيعى الأساسى فى البيئة ، خاصة التجانس المناخى .. ينعكس بالضرورة فى الزراعة ، فضلا عن النبات الطبيعى من قبلها ، ص ٥٩) وكنتيجة مباشرة للجفاف .. فإن مصر تقريبا بلانبات طبيعى .. أى بلا غابات أو مراعى ، وكنتيجة مباشرة للنهر .. فان خضرة واديها تعود للزراعة ، واذا وجدت معها ثنائية رعى طبيعى .. فإنها وبصورة محدودة تقتصر على صحاريها .

وتعود هذه الخضرة المتجانسة المزروعة إلى منظومة ايكولوجية ، يحدد عناصرها فى (ص ٦٠ ـ ٧٠)

★ الرى .. باعتباره توظيفا لمائية النهر .. وعامل التجنيس الزراعى الرئيسى .

★ الحرارة .. باعتبارها أهم الضوابط المناخية المؤثرة فى الزراعة .

السكان .. وخاصة الكثافة .. التى دفعت لاستزراع كل شبر .. عبر تاريخ الزراعة ومراحلها فى مصر المعمورة .

★ المدن .. بما شكلته من نطاقات الزراعة حولها .. وبنموها على حساب الزراعة .. كظاهرة متفاقمة خطيرة .

ولكن الأمر بالنسبة لتجانس هيكل الزراعة .. يبقى متطلبا اثباته (.. أيمكن بعد أن نقيس درجة هذا التجانس ومداه احصائيا ؟ وكيف ؟ ص ٨٣) وتحت عنوان « مقياس التجانس » يجرى دراسة كمية دقيقة .. للاجابة عن سؤاله ، يتبع فيها عدد من الطرق الاحصائية ـ من بينها مقياس التكاثف (ص ٨٣) ومقياس التركز (صن ٩٣) يتوصل بعدها إلى مايسميه قاعدة التجانس (ص ١٠٥) .. يخلص منها بما يلى (.. إن الزراعة المصرية .. ككل عناصر الطبيعة أو الحياة التى سبق أن عرضنا لها .. إنما تتغير على أطرافها وهوامشها وحدها ، وتبقى زراعتنا فى مجملها .. وبعيدا عن أى طمس للمعالم الثانوية والتباين المحلى .. وهى أقرب إلى التجانس العريض منها إلى غيره ، وهو تجانس يرتبط وثيقا بالتجانس الطبيعى العام فى مورفولوجية مصر ، ذلك الذى لاينفصل بدوره عن ضبط النيل أو ضط المناخ .. أو كليهما معا ، ص ١١٦ ..)

وكما يثبت التجانس .. فإنه يسعى إلى اثبات التكامل معه .. متسائلا (عما نخرج به فى الخلاصة .. من هذا التحليل الاحصائى لمحاصيلنا الزراعية ؟ .. وكيف تتكامل ؟) ويفيض فى دراسة مسهبة عن كثافة الزراعة وديناميات المحاصيل وتوزيعها ، ويتابعها رقميا إلى تفصيلاتها .. فى قرابة مائة صفحة (ص ١٠٥ ـ ١٩٨) .. يضمنها جداوله ، ويقوم بتنميطها حسب المناطق والمحاصيل معا ، مستندا إلى ما أسماه « بالقاعدة الرباعية » للمحاصيل فى مصر (القطن ، القمح ، البرسيم ، الذرة) هذه التى تتوزع فوقها ظلال المحاصيل الأخرى .. بنسب متفاوتة ، فضلا عن تباين نسبها هى ذاتها ، بما يؤدى إلى توضيح وإثبات أنماطها ، متوصلا فى صدد اثبات تكاملها .. إلى تحديد الشخصية الزراعية لكل محافظة .. فى دراسة تيبولوجية تطورية .. هى إضافة هامة لشخصية مصر الزراعية بعامة (ص ١٢٥ ـ ٢١١) فى حد ذاتها .

هى إضافة .. لأنها توصلت استنادا الى فروق احصائية ضئيلة .. لنوع من التصنيف المكانى .. الضرورى للتخطيط المستقبلى .. والكشف عن ثراء المكان بالتنويعات .. رغم تجانسه ، وهى إضافة هامة .. لأنها تثبت بهذه التنويعات تكامله ، ويقرر تحت عنوان أقاليم مصر الزراعية (.. من فعل التجانس الغالب .. وبرهانا عليه أيضا .. صعب جدا أن نجد فى مصر أقاليم زراعية صارمة الجدود متبلورة .. بل مناطق انتقالية متداخلة متكاملة ..)

وأخيرا .. فإن هذا الفصل الهام (جـ ٢ ، فصل ١٦) .. ليس فقط همزة الوصل بين الجزأين الأول (شخصية مصر الطبيعية) والثانى (شخصية مصر البشرية) من كتابه فقط ، بل هو بنفس الصفة .. بينهما وجزئه الثالث (شخصية مصر الاقتصادية) .. ومن هنا التنويه عن أهميته .

● التجانس البشرى

يأتى الفصل السابع عشر (جـ ٢ ص ١٦٦ ـ ٢١١) تحت عنوان « التجانس العمرانى (السكان + السكن) .. تبعا لترتيب فروضه فى نظريته ، ولكنه يخصصه لدراسة « الغطاء البشرى » بعنوان ثانوى .. وهى تسمية موفقة للسكان .. تتسق وتوحى بما يسعى لاثباته عن تجانسه .. فالغطاء ينطوى على المعنى ذاته ، ويؤكد بانتقاله من التجانس المادى (الزراعة) الى التجانس البشرى (السكان) .. بناءه المنهجى الهرمى فى تصاعده ، غير أن الضرورة هنا تقتضى .. اضافة ماورد عن السكان .. فى غير هذا الفصل السابع عشر .. فى مجمل كتابه .. خاصة الباب التاسع من الجزء الرابع .. تكثيفا لرؤيته ، كما تقتضى تلخيصا مبكرا .. لما ورد عن تاريخ مصر الجنسى القديم (فصل ١٩ جـ ٢) .. باعتباره يؤصل للمجتمع السكانى فى مصر .. ويحدد جذوره وبدايته .

ويبدأ فصله السابع عشر .. بسؤال .. لاتتأخر إجابته (.. والآن .. ماذا عن الانسان ؟ هل يتفق هو الأخر مع مبدأ التجانس والتدرج فى مورفولوجية مصر ؟ أيرسم النيل خريطة الحياة .. أعنى السكان .. بما فيها القرى والمدن أيضا ؟ إن نظرة إلى خريطة توزيع السكان أو الكثافة فى مصر .. جديرة بأن تضع أيدينا على حقيقة جذرية .. كأنها القانون ، إن نهر النيل ليس فقط مانح الحياة فى مصر .. ولكنه أيضا موزع الحياة على وجهها ، ونستدرك بأن هذا لايعنى أن النيل وحده هو العامل الوحيد فى تفسير كثافة السكان .. فهناك عوامل أخرى عديدة .. طبيعية وبشرية .. اقتصادية واجتماعية .. وحتى تاريخية ، ولكن النهر يكمن خلفها غالبا .. مباشرة وغير مباشرة ، وهو وحده العامل المفتاح والمسيطر ، جـ ٢ ص ١٦٦)

● التجانس العرقى

نحن المصريين .. من نكون ؟ ما الأصل والعرق والنسب ؟ ، ومنذ متى ظهر المصريون كشعب وشعبة من البشر ؟ .. كيف يبدون اليوم شكلا ؟ وأين يقع الانسان المصرى فى العائلة البشرية ؟ أيبدى المصريون من التجانس البشرى مثلما تبدى مصر من التجانس الطبيعى والمادى والحضارى وغير ذلك ؟ قد لاتكون مصر مهد الجنس البشرى ، ولكن الانسان المصرى يعد بالتأكيد من أقدم

سلالات الأرض ، فمن المحقق أن تعمير مصر .. بدأ مبكرا جدا .. منذ وقت بالغ القدم ، يسبق فجر التاريخ المكتوب .. بمراحل سحيقة على أقل تقدير ، فالانسان ظهر على مسرح الحياة في هذا الجزء من العالم في عصر البلايستوسين .. أى في العصر المطير على الأقل ، ومنذ أوائل العصر الحجرى القديم بالقطع .. تظهر مصر وهى منطقة مسكونة بواسطة جماعات مختلفة منتشرة فى معظم أجزاء الوادى ، تدل عليه بقاياه المادية .. ولكن دون بقايا جثمانية أو عظمية .. تبين صورته كإنسان (ص ٢٥٥) فمتى يمكن القطع بالأصول الجنسية الأولى لسكان مصر ؟ .. وكيف حدث التجانس والتجنيس ؟

وفى سياق بحثه عن إجابات لما طرحه من أمثلة .. يعرض بالتفضيل لعدد كبير من الآراء والنظريات المتوافقة والمتعارضة ، ويسلط عليها ضوء رؤيته العامة ، ويفرد لذلك فصلا كاملا .. تحت عنوان « تاريخ مصر الجنسى (فصل ١٩ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ ـ ٣٥٩) يستهله كما سبق بهذا السؤال المحورى (.. نحن المصريون .. من نكون ؟) وتقتضيه اجابته ـ أكثر من غيره ـ رحلة فى التاريخ وماقبل التاريخ طويلة ، ليس فى مصر وحدها .. بل فى مجمل العالم القديم .. خاصة الشرق الأدنى .. وفى مناطق حضاراته الرئيسية تخصيصا . ومنها يتبين أن الجنس الأوروأفريقى Eurafrican بمثابة الجد الأعلى للانسان الحجرى القديم فى افريقية (جـ ٢ ص ٢٥٧) وصل إليها كموجة حامية من

الجنوب ، أما أولى سلالات ماقبل الأسرات .. فهى (.. أهل نقادة فى ثنيه قنا .. ص ٢٥٩) وبعد مناقشة نقدية للنظريات المختلفة المطروحة فى هذا المجال .. يقرر (.. أن المصريين القدماء .. ينتمون أساسا إلى مجموعة الحاميين الشرقيين .. الذين ينتشرون حاليا فى شمال شرق افريقية .. حتى القرن الأفريقى ص ٢١٩)

وينتقل من الأنثروبولوجيا التاريخية الى التشريحية ، هذه التى تنفى دراساتها .. وجود الصفات الزنجية بين المصريين القدماء ، وتشير الى سلالة بحر متوسطة .. متوسطة القامة .. داكنة الشعر والعينين ولا تختلف صورة المصرى بعد ذلك فى عصر الأسرات (ص ٢٧٥) مؤكدة استمرارية الصفات الاثنولوجية .. (.. فالفلاحون الذين يؤلفون جسم الأمة اليوم .. هم النسل المباشر لفلاحى سنة ٣٣٠٠ ق . م ، ص ٢٧٧)

منذ فجر التاريخ إذن يبرز الشعب المصرى كوحدة جنسية واحدة الأصل .. متجانسة بقوة .. من حيث الصفات والملامح الجنسية ، وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم بوجه عام ، وبالنسبة للهجرة العربية .. فهى أول وآخر وأخطر هجرة استيطانية .. موجبة وفاعلة وناجحة فى تاريخ مصر ، ولكنها أيضا نقطة انفصال فى تاريخ مصر الجنسى ، فعرب الجزيرة من الساميين .. وهم مع الحاميين تعديلات من عرق جنسى مشترك ، بدليل أوجه التشابه الثقافية والعرقية ،

ومهما معا .. أقارب جنس البحر المتوسط ، وهكذا كان الاختلاط الجنسى المصرى العربى .. (.. بمثابة زواج بين ، أقارب بعيدين ، ص ٢٩٨) .

ويستخلص من رحلته الطويلة فى التاريخ .. ما يعتبره الأبعاد التى تحدد شخصية مصر الجنسية ، ويحددها فى أن التكوين الجنسى الأساسى قديم سابق للتاريخ ، تداخلت معه مجموعة من المؤثرات الثانوية ـ القوقازية عامة ـ والبحر متوسطية :. على وجه التخصيص ، وفى مواجهة التدفق البشرى من الخارج .. تأصلت فى مصر خاصية الامتصاص (ميكانيزم التجانس فى مصر .. الامتصاص ضد التدفق ، ص ٣١٥) بما كفل لها استمرار التجانس .. رغم الاختلاط ، منتهيا إلى أن شخصية مصر الجنسية .. هى فى التحليل الأخير (نهاية وبداية كلتاهما متجانسة ، يفضل أو بالأصح يصل بينهما قدر ضئيل من الاختلاط لا التخليط ، والاستمرار مع التجانس رغم الاختلاط ، تلك إذن فى معادلة ذات ثلاثة حدود هى شخصية مصر الجنسية ، ص ٣٢٣)

ويتصدى خلال دراسته الموثقة .. لعدد كبير من القضايا المعقدة .. المتصلة بما يحاول اثباته والتدليل عليه ، لعل أهمها مايتصل بمسألة « قبط مصر » .. وهل يمثلون شذوذا عن قاعدة التجانس العام ؟ يعرض فيها ـ قبل تفنيدها ـ لجملة الآراء التى ترى الأقباط أقلية دينية وجنسية معا .. وأنه يمكن التمييز بمجرد النظر بين الأقباط والمسلمين ، متخذة من

بعض الاختلافات الجسمية والسلوكيه .. أساسا للتميز ، وهو لايتصدى فقط لاثباته فرضيته عن التجانس .. وإنما أساسا لأن هذا التمييز .. يصيب وحدة الوطن السياسية فى الصميم ، ومن ثم يعمد إلى دراسة المسألة من الجذور ، متابعا مراحل الهجرة العربية الاسلامية إلى مصر عبر التاريخ (ص ٢٩٥) وموضحا كيف تمت عملية التمازج والاختلاط .. بينها والعناصر الأقدم فى مصر آنذاك ، ومفسرا جوانب الاختلاف ، ويعود الى تعدادات السكان (ص ٥١٥) .. يثبت بها خطل مايقال عن وجود تركز قبطى فى بعض المديريات والمحافظات ، وأن مايوجد بها لايعدوا ارتفاعا فى النسبة .. عن المتوسط العام ، وأن القاعدة الأساسية .. تبقى متمثلة فى الاختلاط والتداخل بين السكان .. مسلمين وأقباط .

ويعود فيقلب المسألة باسهاب (ص ٢٠٧ ـ ٥٢٠) .. من وجهة نظر الاثنولوجيا التاريخية .

(.. وفى هذه ، بالمناسبة رد ضمنى وتوضيحى أيضا على النظرية الشائعة من أن الأقباط أقرب إلى تمثيل المصريين القدماء من المسلمين ، ولاشك ابتداء أن هذا صحيح ، وإنما بالنسبة إلى جزء من المسلمين لا كلهم ، فليس كل المسلمين بالضرورة قد داخلتهم دماء عربية أو غير عربية ، فهؤلاء إذن لايقلون قربا من المصريين القدماء عن الأقباط ، والأصح أيضا أن نقول : عن معظم الأقباط لا كلهم ، ذلك لأن الأقباط هم أيضا داخلتهم بعض مؤثرات خارجية ، وان تكن غير

عربية أو إسلامية بالطبع ، وذلك من خلال الزواج المختلط مع بعض العناصر والجاليات المسيحية اليڤانتية والأوروبية .

بعبارة أخرى فإن معظم المسلمين أو الكثير منهم اليوم .. إنما هم معظم القبط المصريين أسلموا بالأمس ، بمثل ما أن أقباط اليوم هم بقية قبط الأمس الذين استمروا على عقيدتهم ، ومن هنا وحده نتفهم أن المصريين إما « قبط مسلمون » ، وأما قبط مسيحيين ، حيث كلمة قبط « إنما هى تحريف لكلمة « إيجيبت » أى مصر ، ولقد تكون هذه طريقة خاصة جدا للتعبير عن وحدة الأصل بين الطائفتين ، ولكن الجوهر فيها سليم عمليا ، وهو تلك الوحدة بعينها ، واذا صح التشبيه الشائع عن الزواج الطبيعى بين أرض مصر وفيضان النيل ، فإن من الصحيح أيضا أن ثمرته هى المصريون جميعا ، فالنيل أبوهم ومصر أمهم ، ولعل العقاد كان عالما باحثا .. قبل أن يكون أديبا متحمسا .. حين لخص الموقف كله فى قضية الوحدة الوطنية بقوله الجامع (.. ينقض التاريخ كل مايقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية .. »

وبعد ما يستخلص من التعدادات دلالاتها حول تركز وانتشار الأقباط فى مصر .. كما سبقت الاشارة ، يصل إلى الوحدة الوطنية كنقطة أخيرة (تلك هى خريطة المسيحية أو جغرافية الأقباط فى مصر ، فماذا تعنى سياسيا من حيث النسيج والتماسك الجيوبوليتيكى والوحدة الوطنية أو

السياسية ؟ ابتداء . أن كثافة المسيحية تزداد كلما تعمقنا جنوبا ، أى كلما بعدنا عن مدخل الاسلام من الشمال ، فهذا لايعنى مطلقا أن الموجة العربية الاسلامية - إذا كان لنا أن نضع الحاضر فى إطار الخلفية التاريخية - قد أزاحت الأساس « القبطى » إلى جيب الجنوب المغلق فى الصعيد ، وذلك كما حدث مثلا للفرشات الأساسية فى الشام والمغرب .. حيث التجأت الى المعاقل الجبلية والمرتفعات ، فالانتشار العربى فى مصر كان أشبه شىء بعملية الانتشار الغشائى الاسموزى ، عملية تغلغل لازحزحة ، وتخلل لا إزاحة ، ولهذا فقد أثبتت الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة خطأ النظرية التى كانت ترى بين الفلاحين والقبط فارقا كالذى بين العرب والبربر فى المغرب ، فالأقباط والفلاحون يكونون جسما واحدا ، ميتة طبيعية لنظرية غير طبيعية .

والواقع أن الغريب فى هذه النظرية ليس سقوطها وإنما أساسا قيامها ، ذلك لأن وحدة الاصل بين المسلمين والأقباط ليست علميا إلا تحصيل حاصل ، ومجرد بديهية انثروبولوجية ، ببساطة لأن تكوين مصر الجنسى سابق على تكوينها الدينى ، أو كما يضعها حزين بكل وضوح .. لأن الطابع الجنسى العام للمصريين .. قد وجد واتخذ صورة المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون . (ص ٥١٩)

● تجانس الغطاء البشرى (السكان)

خريطةالسكان معقدة بطبيعتها .. زاخرة بالتباين والفروق المحلية ، وهناك اختلافات محلية وإقليمية هامة فى مصر .. ومع ذلك (.. فإنها لاتبتعد بها كثيرا عن التجانس العام أو النسبى ، جـ ٢ ص ١٦٦) ويتجلى ذلك فى كثافتها السكانية .. كما يظهر فى غيرها من الجوانب التركيبية والوظيفية ... وتختلف مصر عن غيرها فى باب الكثافة .. ونمطها الجغرافى بالدقة (.. ذلك الذى بات اليوم أشد وزنا وتضاغطا منه فى أى دولة أخرى ، ومصر انما تستمد شخصيتها السكانية الحقه .. من الخلفية التاريخية والأرضية الجغرافية .. أكثر مما تستمده من تشريح الجسم السكانى ذاته ، ولعل فى هذه المتناقضة الشكلية .. يكمن صميم شخصية مصر السكانية ، أو لعله لاتناقض هناك موضوعيا ، فإنما تلك الشخصية انبثاق طبيعى من تفاعل خصوصية المكان وعمومية السكان جـ ٤ ص ١٤) ويكثف من صورة السكان ويدمجها بالفكرة .. (.. ولاتكاد فكرة مصر تنفصل عن فكرة السكان ، بل توشك فكرة مصر أن تكون سكانا .. قبل أن تكون أرضا ، فقلما ترد فكرة مصر على الذهن .. إلا وتقفز إليه صورة الملايين الضاغطة المتكاثرة والكثافة الساحقة ، أو كما يصفها بحث شارل عيسوى .. فى وادى النيل .. من المستحيل حرفيا أن تكون خارج نطاق رؤية البشر جـ ٤ ص ١١٦)

وهكذا .. إذا كان التجانس السكانى ظاهرة مستمرة .. فإن الكثافة أبرز مؤشراتها ومقاييسها ، تؤكد ذلك نتائج معالجاته الاحصائية .. بواسطة التجانس Coefficient of uniformity (جـ ٢ ص ١٦٧) ومنها تكثيف هذا الاتجاه نحو المزيد من التجانس فى توزيع وكثافة السكان على المستوى القومى ، واستنادا اليه يقرر (.. تقترب مصر فى الواقع من قانون راتزل المعروف فى كثافة السكان ، ومؤداه أن كثافة السكان حين تزيد عن الحد .. وتبلغ حد الافراط .. فإنها من فرط طفحها تغمر كل المناطق .. بحيث تطمس الفروق بينها .. فتتقارب كثافات المناطق المختلفة .. وتتشابه مؤلفة غطاءا متجانسا وسميكا ، يشبه بقعة زيت واحدة متصلة ، جـ ٢ ص ١٦٩) وتتبع له مصادره التاريخية .. أن يقرر فى صياغة مكثفة عددا من خصائصها الكامنة المستمرة (.. لمصر أطول تاريخ سكانى معروف أو مسجل ، غير أنها طواله .. لم تكن دار هجرة وحركة .. بل دار استقرار وإقامة ..) على أنها قبل ذلك وبعده .. كانت دار كثافة فى الدرجة الأولى ، فكانت بذلك على الدوام .. مزرعة سكانية بالغة التكثيف والتزاحم ، تبدو بيئتها المائية ورقعتها الضئيلة وسط اللامعمور الصحراوى الشاسع .. أشبه بصوبة أو حوضة زجاجية من الزراعة الهيدربونية ، إلا أنها صوبة أو جوضة طبيعية وزراعة بشرية ، جـ ٤ ص ١٣)

ولأن الكثافة عنده من أهم قسمات شخصية مصر السكانية .. فإنه يخضعها لدراسة احصائية عبر التعدادات

المصرية المتتالية ، غير مكتف بما أورده عنها فى الجزء الثانى من عمله ، بل ويعود إليها ـ كما سبق ـ فى الجزء الرابع أيضا ، دون أن يغفل نظرته الايكولوجية لها في أيهما .

وربما يكون مفيدا .. تقديم بعض ما انتهت اليه متابعة الاحصائية .. سواء بالنسبة للكثافة أو لغيرها من زوايا الدراسة السكانية (النمو والهجرة وغيرهما) ليس فقط باعتبارها من سمات شخصية مصر البشرية بل وأيضا باعتبارها مدخله لدراسة مشكلة مصر السكانية الراهنة .

● النمو السكانى :

يحدد بداية القرن ١٩ إطارا للفترة الحديثة من نمو مصر السكانى ، وذلك باعتبارها وحدة مورفولوجية مستقلة فى منحنى السكان التاريخى .. ويصفها بأنها (.. الثورة الديموجرافية بكل معنى الكلمة ، ونحن نعيش اليوم على آخر وأعلى قممها ، فالبداية ١٨٢١ تسجل بالتقريب ٥ر٢ مليون نسمة ، والنهاية ١٩٨٣ تقدر بنحو ٤٦ مليونا ، فسكان مصر يبلغون على الأقل ثمانية عشر أمثال ـ كدت أقول أمصار ـ ماكانوا عليه منذ أكثر قليلا من قرن ونصف قرن ، ونسبة النمو الكلى تصل إلى ١٧ مثلا ، أى أن سكان مصر ضاعفوا عددهم نحو ١٧ مرة فى ١٦٢ سنة ، بمعدل مرة كل ١ سنوات تقريبا .

ويقسم مرحلة النمو الحديثة هذه إلى فترات ، يشتق لكل منها من طبيعتها الخاصة اسما ، ومتتبعا لها ولكل فترة

بالتحليل الديموجراف الدقيق ، ورابطا بينها وبين التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، متوصلا إلى هذه الحقيقة التي يجدر أثباتها (.. وعلى الجملة فإن المعنى العام أن السكان بعد أن كانت تتجه وئيدا ولكن أكيدا نحو مرحلة النضج والاستقرار ، عادت على أعقابها مرة أخرى بعد ١٩٧٦ ، ولأمر ما إلى مرحلة الشباب والانتقال ، باختصار حدثت عملية تجديد ديموجرافى Demographic Re-juvenation ونحن الآن مانزال ، بل وأكثر من أى وقت مضى على قمة المرحلة الانفجارية من منحنى السكان وفى صميم عنفوانها ، جـ ٤ ص ٤٦)

ويؤكد الحقيقة السابقة فى صياغة أشد تحديدا (.. لقد عدنا منذ بضع سنوات إلى معدل من سرعة النمو لم نعرفه حتى فى بداية الثورة الديموجرافية ، وإلى قمة انفجارية خطيرة من التزايد الهندسى .. كأنما لنبدأ لا دورة لوجيستية جديدة فحسب بل وثورة ديموجرافية جديدة أيضا ..) منذرا ومحذرا (.. وهنا موطن الخطر والخطورة جـ ٤ ص ٤٩) ثم يؤكدها ويجسدها رقميا (.. إن اضافة مليون جديد إلى السكان يتطلب فترة زمنية أو عددا من الشهور ، يقل بانتظام من عام إلى عام ، ففى سنة ١٩٧٦ فقط كان هذا يتطلب سنة واحدة كاملة تقريبا ، ولكنه الآن ومنذ ١٩٨١ لايستدعى سوى ١٠ أشهر ، ستهوى إلى ٦ أشهر فقط سنة ٢٠٠٠ كما يقدر ، أى إننا سنزيد مليونا كاملا .. كل نصف سنة ، ص ٥١)

وعلى أساس معدل النمو الصافى لسنة ١٩٧٦ .. فقد كان من المقدر أن يصل عدد السكان سنة ٢٠٠٠ إلى ٧٢ مليونا ، وفى تقدير آخر ـ إذا أنجبت كل أسرة طفلين فقط ـ فسنصبح ٦٠ مليونا سنة ٢٠٠٠ ، ٨٤ مليونا سنة ٢٠٣٠ ، ٢٠٠ مليونا سنة ٢١٠٠ ، وعلى أية حال .. فمن الواضح فى كل هذه التنبؤات أنها كانت دائما أقرب للصواب .. على أساس افتراضات الحد الأقصى ، منها على أساس افتراضات الحد الادنى ، ص ٥٤)

وينعكس النمو السكانى على الفور .. تضاغطا وتضاعفا فى معدلات الكثافة خاصة (.. وأن السكان حبيسة الوادى ، والوادى حبيس الصحراء ، والوادى أصبح بمثابة قالب حديدى لافكاك منه Procrusteam bed والنتيجة الحتمية أن التعدادات السكانية المتعددة لاتفعل سوى أن ترفع الكثافة بصورة آلية من عقد إلى عقد .. إلى أن تبلغ مستواها الخطير الراهن ، وهكذا .. مرة أخرى على المستوى الديموجرافى ، بعد الطبيعى والماء والزراعى والاقتصادى ، نجد مصر جوهريا كثافة لامساحة ، جـ ٤ ، ص ١١٧)

ويجسد ذلك مكانيا ويوضحه (.. ففى إطار جغرافية مصر الخاصة كواحة صحراوية ضئيلة المساحة وكنواة مضغوطة من المعمور داخل شرنقة ضخمة من اللامعمور الصحراوى ، تبرز كثافة الوادى (٣ر٥ ٪ من جملة المساحة) كظل السكان الأساسى ، وحوله شبه فراغ سكانى ، مجرد كسر مئوى أو

أقل من جسم مصر السكانى ، والمعادلة ببساطة هى كثافة الماء : كثافة الزراعة : كثافة السكان ، جـ ٤ ص ١٢٦)

ثم يؤكد التجسيد المكانى احصائيا .. بمتابعة تغيرات الكثافة فى التعدادات الحديثة ، محددا دلالاتها (.. لقد تضاعفت كثافة مصر من ٤١٠ إلى ٨٤٥ نسمة / كم٢ بين ١٩٢٧ ـ ١٩٦٦ ، وارتفعت الى ١٠٠٠ نسمة حسب تعداد ١٩٧٦ ، ثم إلى نحو ١٣٠٠ نسمة حسب أرقام ١٩٨٣ ، ويقدر أن تقارب ٢٠٠٠ نسمة / كم٢ سنة ٢٠٠٠ .

وهذه أرقام نادرة أى مقياس ، وحتى مع ذلك فإنها أدنى من الحقيقة .. فهى احصائية بأكثر منها جغرافية ، وتبعا للأخير فانها قد تصل الى ١٨٤٠ نسمة (١٩٨٣) كثافة ساحقة Ecrasante بكل معنى الكلمة لاتكاد تعرف فى أكثف المجتمعات الصناعية ، بل توشك مجازا أن نقول أن هذه معدلات كثافة مدن لا دول ، أو قل كثافة ضواح لاريف ، وأن مصر وان لم تزل أقرب إلى القرية الطويلة وظيفيا فإنها أقرب إلى المدينة كثافة ، ولكن لعله ليس غريبا تمام أن تتحول مصر إلى ذلك .. وهى التى تحولت زراعتها من قبل إلى شبه فلاحة بساتين ، ومن الواضح فى النهاية أن الغطاء البشرى فى مصر يؤلف ارسابة سمكية .. لاتكاد تتكرر على رقعة مماثلة فى العالم ..) ولاشك أن كثافة الوادى فى مصر . أكثف منطقة زراعية فى العالم جـ ٤ ص ١٢٢ ـ ١٢٣)

ويكثف الصورة (.. هى أكثرها صحراوية .. وأكثرها

نهرية .. وأكثرها كثافة ، ص ١٢٤ ، ومن الصعب أن نتصور بلدا على وجه الأرض اكثف من مصر فى القرن الواحد والعشرين ، ولامعنى لذلك سوى أن الكثافة إذا لم تنفجر خارج الوادى الى الصحراء ، فلا معدى من أن تنفجر على نفسها من الداخل ، وهو انفجار لايمكن إلا أن يكون مدمرا ، ص ١٢٥) وهكذا يقدم مايراه حلا فى السياق ، إنه فى الخروج إلى الصحراء .

ويؤكد فى الجزء الرابع (.. وهنا مرة أخرى تبرز الصحراء كصمام الأمن الأخير ، بل المجال الحيوى الوحيد ، وهاهنا مرة أخرى تبدو الصحراء الغربية بالدقة وهى أمل المستقبل فى أكثر من معنى ، عمرانيا كما هى معدنيا ، وسكانيا كما هى اقتصاديا ومن هنا أخيرا انبثقت مؤخرا شعارات « الخروج من الوادى » و « غزو الصحراء » وسياسات نقل الكثافة السكانية اليها .. وانشاء « المدن الجديدة » بها إلى آخر ذلك (جـ ٤ ، ص ١٢٥)

الصحراء الغربية بامكانياتها المتوقعة خلال نصف القرن القادم ، والمقدرة باحتمال استيعابها لنحو ٢٣ مليون نسمة ، تتركز فى ٨٤ مدنية ، تتوزع بين ٤ مناطق جغرافية على النحو الآتى (ص ٣١٩ ، جـ ٤)

- الوادى الجديد ٤٢ مدينة
- غرب بحيرة ناصر ٢٠ مدينة
- الساحل الشمالى الغربى ١٥ مدينة

● منخفض القطارة ٧ مدن .

وليس ذلك عنده بنهاية المطاق ، فسوف يعود إلى المشكلة فى الجزء الرابع ـ كما سبقت الاشارة ـ بقدر أكبر من التفصيل .

● ايكولوجية التوزيع والكثافة

وتبعا لنظرته الايكولوجية .. يحدد العوامل البيئية المؤثرة فى تباين الصورة .. مهما كانت ضئيلة ، وفى تعدد ظلالها .. مهما كانت متلاشية باهتة فوق القاعدة العامة ، فالقاعدة أن الكثافة السكانية العامة قد تجاوزت فى مصر المعمورة عتبة الألف نسمة /كم[٢] إلا أنها تقل عن ذلك المتوسط فى الدلتا .. وتزيد عنه فى الصعيد قليلا ، بما يمثل خط التمايز الأساسى تقريبا ، يعود به إلى عوامله المكانية (التربة + الصرف والرى) .. دون أن يتجاهل تأثير اتساع الاطارات المساحية لأقسام الدلتا الادارية .. فى تفسير نسبة من هذا التباين ، وينتقل من هذا الخط الأساسى إلى ظلاله .. مقسما الصعيد إلى قطاعات ثلاثة .. متتابعة من جنوبه الى شماله ، ومحددا « سوهاج » كقمة كثافية بها جميعا .. وان تراجعت مؤخرا لحساب الجيزة .. دون أن يهمل تفسير ذلك (جـ ٢ ص ١٧٨) متوصلا إلى وضع ما أسماه « بروفيل الصعيد » .. كختام موجز لتحليلاته المستفيضة هذه التى يعود اليها فى الدلتا .. باعتبارها القسم الرئيسى الثانى ، حيث يقسمها

أيضا إلى مناطق ثلاثة تبدأ القمة الجنوبى (المنوفية والقليوبية بصفة خاصة) حيث تصل الكثافة به الى أعلاها (٣٥٠٠ نسمة /كم٢) متجاوزة بذلك قمة الصعيد ذاته .. فهو قمة الكثافة الريفية فى مصر .. صعيدها ودلتاها ، متابعا تغيراتها منذ نهاية القرن الماضى (ص ١٨٣ ـ ١٨٦) وتتجه الكثافة فى الدلتا للانخفاض كلما اتجهنا شمالا وغربا وشرقا .. وابتعدنا عن مثلث القمة الجنوبى ، وذلك على خطوتين .. تتمثل الأولى فى نطاقها الأوسط بصفة خاصة ويتضح التناقص فى النطاق الشمالى ، وكما قعد الصعيد فى بروفيله .. يوجز صورة الكثافة الدلتاوية فيما يسميه « خماسية المحاور المحيطة » فى صياغات لاتقل عن دلالة الخريطة (ص ١٩٠ ـ ١٩٨) متضمنة جملة العوامل المكانية (النهر + التربة + شبكة الرى) المؤثرة .. سواء فى التباين أو فى زيادة الكثافة بعامة .

ومهما تعددت الأسباب التاريخية والاقتصادية .. يبقى النهر بمثابة الجذر المشترك لها .. ولكافة تداعياتها السكانية والعمرانية ، ومن ثم يطلق عليه « النهر الجغرافى » (جـ ٢ ص ١٩٨) تعنى أن النهر لم يكون خريطة مصر المعمورة فحسب .. بل رسمها وشكلها أيضا بما قدمه لها من محاور توزيعها .. على طول مجراه فى الوادى وفرعيه فى الدلتا ، سواءً بالنسبة للغطاء البشرى أو وحداته السكنية ، يضبط توزيعها وأثقالها وانتثارها .. بنفس القوة التى يضبط بها كثافته ، ومن هنا العلاقة الوثيقة بين توزيع كثافة السكان

العامة .. وبين توزيع القرى والمدن .. التى تؤلف وحداتها الخلوية ، يؤكد ذلك .. (.. أن مدن الصعيد جميعا تقريبا .. صغيرها وكبيرها .. تقع على النهر مباشرة ، ولاتقل قبضة النهر إحكاما في الدلتا ، وحتى بالنسبة للمدن الساحلية .. فأنها تستمد حياتها من ترع النيل التى تنتهى اليها ، ترعة الاسماعيلية لمدن القناة .. والمحمودية بالنسبة للاسكندرية ، ص ٢٠٢) وكما يضبط النهر توزيعها .. يضبط أحجامها السكانية .

وتحت عنوان « مورفولوجية مصر البشرية » (٢٠٩) ينهى هذا الفصل .. حيث يقرر (.. لعلنا الآن .. وفى النهاية .. فى وضع يسمح لنا أن نصل إلى قانون هام للغاية فى كيان وتكوين مصر .. وفى شكلها وتشكيلها ، إن النيل يكاد يحكم كل مظاهر العمران بها .. ويضبط ايقاعها فى كثافة معينة .. تقل بصورة عامة .. كلما بعدنا عنه شرقا غربا ، فكل شىء فى مصر تقريبا .. يميل لأن يقل وزنا وقامة وقيمة كلما بعدنا عن النهر ، كثافة السكان .. أحجام المدن وتباعدها ، وتوزيع القرى وانتشارها ذلك إذن هو ايقاع الحركة الأساسية فى مورفولوجية مصر الطبيعية ، وفى مورفولوجيتها البشرية ، وإن المرء ليشعر بسهولة تامة .. أن كل قوة مصر تتركز فى خط واحد محدد محدد .. هو النيل ، وما من إقليم فى العالم بالتأكيد تتركز قوته فى خط واحد .. مثل مصر النيلية ، إنه خط القوة العظمى بها فى الاستقرار .. مثلما هو خط المقاومة الدنيا فى الحركة ، وهو الذى يمنحها التجانس التركيبى ،

ويعطيها نسيجا مبكيا متدرجا فى آن واحد ، جـ ٢ ص ٢٠٩ ـ ٢١١)

● تجانس الريف

وتنمو رؤيته العامة .. وتسفر عن نتائجها ، ويطور من فكرته عن ثنائية الصحراء والوادى فى مصر ، ويصيغها ايكولوجيا (.. مصر إما رعى بلا زراعة فى الصحراء .. وإما زراعة بلا رعى فى الوادى ص ٥٦) فمصر المعمورة .. بيئة أحادية الى حد بعيد ، تمثل الزراعة قوامها وكيانها ، ومنها استمدت شخصيتها الريفية الغالبة .. بكل سماتها وتفصيلاتها ، وهكذا .. فان تجانس العمران الريفى فى مصر .. إنما يبدأ من ارتباطه العضوى بالزراعة (النهر ـ الزراعة ـ الريف)

والقرية تاريخيا .. هى أقدم وحدة مورفولوجية سكنية ظهرت فى الدلتا والوادى ، غرست مرتبطة بالأحواض المزروعة ، بمسافات تحددها .. رحلة العمل اليومية القصيرة (تجانس المسافة) وتتكاثر مع اتساع المساحة المزروعة .. ونموها السكانى .. بواسطة العزبة التى تنشأ عند هوامشها .. تبعا لقانون المسافة ، مورثة خصائصها للأخيرة ، وقد تكاثرت القرى فى مصر المعمورة (٤٠٢٣ قرية ، ص ٢٢٣) وحولها ٢٨٫٠٠٠ عزبة أو حلة صغيرة ، ولايفرق بين القرية والعزبة سوى الحجم السكانى ، ومع ارتباطه بالكثافة .. فقد بلغ متوسط حجم القرية المصرية قرابة ٥٠٠٠ نسمة فى التعدادات الأخيرة ، مع وجود قرى عملاقة (٣٠ الف نسمة)

أما العزبة ففي حدود بضع مئات فى الغالب ، وتتداخل جميعها فى فرشة عمرانية متجانسة توزيعا وتركيبا (ص ٢٢٤) ويستمر التجانس إلى المدينة الصغيرة والمتوسطة فى الدلتا والوادى .. توزيعا وانتشارا ، بل إن معظم مدنها أقرب إلى القرى .. تركيبا ووظيفيا ، لاتتجاوز مرتبتها الحضرية كونها (مدن أسواق Market towns عامة) أى مراكز للخدمات المحلية المتواضعة .. تخدم مناطقها المحيطة مباشرة .. فى حاجاتها العادية اليومية ، ولذا فان حجم نشاطها لايمكن أن يتجاوز امكانيات ريفها .. بل يعكسها بحساسية فائقة ، هى أذن مجاج طبيعى للبيئة المحلية .. وبالتالى بنت الكثافة السكانيـة المباشـرة ص ١٩٩) وإذا كان النهر قد أدى للاستقرار والزراعة .. وأفرزت الأخيرة القرية .. فإن ماظهر من المراكز الحضرية قد تريف بدوره .. ولازال يتريف .

وترتبط القرية بالزراعة وظيفيا ، فالدار والحقل وجهان لعملية واحدة ، قاعدتها الاستقرار الذى عرفه المجتمع المصرى .. منذ النيوليثى Neolthic المبكر .. أى قبل عشرة آلاف سنة على الأرجح ، وتشير الدراسات التاريخية الى بضع مئات من القرى فى الوادى والدلتا .. قبل عصر الأسرات مباشرة ، تكاثرت مرتبطة بتطهيرها من المستنقعات وبالرى الحوضى مؤدية إلى سلالة من القرى .. يصعب التمييز بين الواحدة منها والأخرى ، متقاربة الطابع والتركيب الثقافة .. من مرحلة تعميرية لأخرى ، تتكاثر وتزيد عددا

بذات الدينامية .. فى إطار الاقتصاد المعيشى .. يدمغ حياتها وبنيتها ، واذا كانت قد حققت خلال العصر التاريخى فائضا هامشيا .. مع تطور الزراعة والعملية الانتاجية ، فقد امتص حكامها وغزاتها .. كل بطريقته .. نسبته الكبرى ، أما ما تبقى فقد تبادلته أسواقها المحلية ، وإذا كانت الأخيرة قد نمت لتصبح مدنا وعواصم لأقاليمها .. فإن قانون النسبة والتناسب قد حكمها ، وبقيت فى إطار ريفها ـ اقتصاديا وحضاريا ـ مجرد مدن ريفية الطابع ، هذه إذن هى العملية الايكولوجية التى جنست مصر الريفية (ص ٢١٤) .. ومازالت .

التجانس القاعدى

ويفرد الفصل ١٨ (جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ٢٥٤) .. لمتابعة هذه العملية شكلا ومضمونا ... ويسميها « عملية التجانس القاعدى » باعتبارها تضم النهر أيضا .. تربته ومائيته .. وخاصة ـ تاريخيا ـ فيضانه ، فالقرية المصرية خلية متكررة نمطية ، متجانسة من حيث التركيب والوظيفة (.. تمثل امتدادا رأسيا تشكيليا تكعيبيا للأرض السوداء الأفقية ، توشك وحدتها السكنية أن تكون امتدادا للحقول ، فجسمها وأرضيتها من تربتها مباشرة ، والكل مرتبط بالبيئة النيلية الأم تماما .. يستمد من تجانسها تجانسه ص ٢١٢) وبشىء من التفصيل يحدد ظواهر التجانس المشتركة بينها فى (الموضع فوق ربوة + نووية القرية + تسطح الدور + مادة البناء .

+ الخطة العضوية + النمو من خلال العزبة + رحلة العمل اليومية القصيرة + المسافات المحدودة بينها + الارتباط بالأسواق والعواصم المحلية + غير ذلك) وتدل تحليلاته على أن التكيف يسبق التجانس .. ويؤدى إليه بينها جميعا ، سواء من حيث اختيار مواضعها المرتفعة نسبيا .. تجنبا لفيضان النهر ، أو من حيث تلاحم مبانيها nucle-ated أو من حيث ارتباطها بمواقع النقاط الجافة dry point تجنبا للرطوبة ، أو من حيث شكلها الدائرى .. أو من غير ذلك ، كما تؤكد على مركزية القرية (خلية مصر) فى نظريته العامة للتجانس ، حيث تستمر خصائصها التركيبة - كما سبق ويأتى - إلى المدينة (.. ففيما عدا الحجم ومادة البناء .. فإن المدينة المصرية تقارب القرية .. سواء فى ذلك الموضع أو الخطة أو الشكل .. بل وأحيانا التركيب الوظيفى ، ص ٢٢٧)

ويفصل بعد ذلك فى تشريح القرية .. من حيث مواضعها ومواقعها .. وتركيبها .. بل وأسماءها متخذا من الأخيرة وسيلة ضمن أخرى .. للتعرف على كيفية نموها وانشطارها .. كما تدل عليها مسمياتها الراهنة (ص ٢١٨) دون أن يغفل أشكالها الصغرى .. المعروفة بالنجوع والعزب .. وما أشبه ، مختتما ذلك بهذه القاعدة (.. ذلك إذن تشريح القرية المصرية وتلك مورفولوجيتها ، التجانس جوهرها .. والتوحد منتهى تطورها ، فهى لاتبتعد عن نمطها الأساسى .. إلا على أطراف الوادى ، خاصة فى الشمال الأقصى من الدلتا

والجنوب الأقصى من الصعيد ، ثم هى حين تتطور .. لاتلبث أن تستعيد فى النهاية تجانس تركيبها العام ، ويظل الشعور بتجانس القرية المصرية المتوسطة ، قائما ، ومثل هذا يمكن أن يقال أيضا عن المدن ص ٢٢٧) ويقرر فى سياق آخر .. (.. صفوة القول .. أن الأقاليم المصرية .. تظل أساسا ريفا بسيطا ومجتمعا ريفيا Folk Society بنادره شبه ريفية أيضا ، وتخلو حياة المدن الحقيقية المؤثرة ، وتبدو مصر بنسبة ريفيتها العالية .. وكأنها بالتقريب قرية واحدة كبرى ، طويلة جدا .. تترامى على جانبى شارع رئيسى واحد هو النيل ، ص ٣٢ ، جـ ٤)

● التجانس الحضرى

باستثناء العاصمتين وقلة من الموانى ومدن القناة ، تشكل المدينة الاقليمية المصرية المتوسطة - البندر التقليدى - وحدة مورفولوجية ثابتة الطابع والقالب والجو العام ، حتى ليؤكد « لوزاك » أن واحدة منها .. لاتعرف شخصية مدنية مستقلة .. تنفرد بها عن سواها (جـ ٢ ص ٢٢٧) ويتمثل تجانس هذه المدينة المتوسطة .. فى تركيبها وتوزيعها وتباعدها .. وفى أحجامها السكانية ووظائفها

.. أما بالنسبة للتركيب .. فقد بقى معظمها إلى نهاية القرن ١٩ .. مجرد قرى متضخمة فى ريفها ، وحين دخلت طور نموها الحديث بعد ذلك .. بقيت هذه النواه القروية كامنة فى تضاعيفها نمت حولها فى صورة تراكمية تحمل بعض

خصائصها .. أو امتدت بجناح طولى مواز للطريق السريع ، أو التفت حول المحطة الحديدية ، وقد بقيت هذه النواة حتى فى القاهرة والاسكندرية وان تطورتا بمعدلات أعلى كثيرا نوعيا ، هما ومدن القناة .. وبضعة من المدن الأخرى (ص ٢٣٣) والواقع أنه فى ذات الوقت الذى تتحضر فيه مصر .. أى تزيد فيها أعداد المدن وتتضخم حجما .. فإنها تتريف أيضا .. بحكم الوسط الريفى والهجرة الريفية ، كما أفضى التضخم البالغ للقاهرة ثم الاسكندرية .. إلى تشوه بنيتها التركيبية ، بقدر ما أدى إلى اختلال العلاقات الاقليمية برمتها .

وبالنسبة للتوزيع .. فالنهر وفروعه ـ كما سبق ـ ضابط ايقاعها (النيل شارعها الرئيسى .. وفروعه شوارع توزيعها الثانوية) ويعود بذلك الى خلو الطبوغرافية العامة من العقدية الطبيعية .. هذه التى تهيىء لنوعية مختلفة من الظهور والنمو الحضرى (باستثناء ثنية قنا ورأس الدلتا) فالصعيد يفتقر الى قلب طبيعى .. يجعل من امتداده الخطى طولا بلا عرض ، أحادى الحركة والتوجه لاتتميز فيه نقطة عن أخرى ، وكذلك الدلتا التى تخلو من بؤرة حاسمة .. فلئن كان بها حزمة من خطوط عرضية على المحور الشمالى الجنوبى .. متمثلة فى فروعها وترعها ، فإنها تعدم أى محاور طبيعية عرضية تتعامد عليها ، وتؤدى الى عقدية طبيعية Nadality فعالة ، فالدلتا كالصعيد .. هى رقعة بلا عقدة .. وهو خط بلا بؤرة ، وقد اتفق مع هذا الانسياح والامتداد .. توزيع العمران والمواصلات ،

ص ٢٥٢ جـ ٤) ويؤكد الصورة العامة للتوزيع الحضرى .. بمتابعتها فى لقطات سريعة عبر التاريخ ، منتهيا إلى ماسبق تقريره ، كما يضيف إليها بعض اللمسات الدقيقة .. التى تمنح شخصيتها غنى وثراء ، فإذا كان توزع المدن الدلتاوية - مثلا - يرتبط فى معظمه بسواحلها وهوامشها ، فقد تراجع بعضها بعد ذلك لحساب الهامش الصحراوى ، وذلك حين فقدت الموانى المصبية الضحلة الطامية قيمتها .. لمواقع جديدة عميقة .. أصلب .. خارج الدلتا الطينية الرخوة (.. أى فقدت البوابات الطينية قيمتها للبوابات الحجرية ؛ فورثت الاسكندرية نهائيا دور رشيد ، بينما ورثت بورسعيد دور دمياط ، وورثت الزقازيق بلبيس ، وآلت أهمية الصالحية للاسماعيلية ، ومن الناحية الأخرى .. فبعد أن كانت الصدارة تقليديا لمدن داخل الدلتا حتى العقود الأخيرة .. بفضل توسطها للمعمور الزراعى ، انتقلت اخيرا إلى مدن السواحل والأطراف .. بفضل النقل والتصنيع .. هذا هو سباق المواقع .. كما يسميه .. ومعه سباق الأحجام .. كما سيأتى بعد قليل .

وبالنسبة لأحجام المدن .. فإنها تستمد تجانسها من الكثافة السكانية بعامة ، خاصة شريحتها الصغرى (فئة ٣٠ - ٤٠ الف نسمة) وتتناسب باطراد معها (ص ١٩٩) أما عن الشريحة المتوسطة (٥٠ - ١٠٠ الف نسمة) فإنها (.. تخضع لضوابط التباعد الوظيفى .. بحيث تغطى كل منها منطقة خدمات متقاربة الامتداد والمساحة ، وذلك بحسب

عامل الخدمات المركزية .. كما حدده كريستالر .. فى وسط طبيعى واقتصادى وحضارى متجانس ، هاهنا نجد قدرا مثيرا من التجانس في التباعد .. وان اختلف مابين الدلتا والصعيد ص ٢٠١) ويكتف تحليله عن أن الفاصل المسافى ـ التباعد ـ يبلغ فى الصعيد (١٠٠ كم) أى ضعفه بالنسبة للدلتا (٥٠ كم) فالتباعد فى الصعيد يتم على محور خطى أحادى بسيط ، بينما هو فى الدلتا يقع على عدد من المحاور فى اتجاهات متعددة .. بحكم مساحتها الفسيحة ، أما المدينة المصرية القاعدية (أقل من ٤٠ الف نسمة) فهى أقل تباعدا (متوسط ٢٠ ـ ٢٥ كم) .. بحكم أنها أوسع انتشارا ، أما الشريحة العليا من المدن الكبيرة .. خاصة النصف مليونية والمليونية .. وبالاخص القاهرة والاسكندرية . فقد خضعت لمجموعة أخرى من العوامل المعقدة (.. العاصمية ، المركزية ، الصناعة ، الهجرة الريفية) وغير ذلك من الأسباب التى دفعتها لما يسميه بسباق الأحجام (جـ ٤ ص ٢٥٥) شذت بها بدرجات .. عن مستوى التجانس القاعدى العام المذكور .

● سباق الأحجام

لقد دخلت المدن المصرية دور نموها الحديث بعد القرن التاسع عشر ، واستثمرت كل منها معطياته .. بمقدار ماتيسر لها منها ، وقدمت لها الصناعة والمواصلات والهجرة

الريفية .. أهم دوافع نموها الحجمى ، وبذا دخلت سباقا فيما بينها .. وتبادلت مراكزها ، تقدمت الجيزة وشبرا الخيمة مثلا .. ليسبقا بورسعيد وطنطا .. وتقدمت المحلة لتسبق طنطا (.. فرغم المتوسط الهندسى Centrality لطنطا فى الدلتا .. فإن المحلة تتقدم وئيدا .. بسبب الصناعة عليها ، ص ٢٦٠) كما يتابع السباق بين القاهرة والاسكندرية (.. وتؤكد أرقام القرن المنصرم ١٨٨٢ ـ ١٩٣٦ .. فى الدرجة الأولى طغيان القاهرة من البداية للنهاية ، وفى الدرجة الثانية صعود الاسكندرية الطافر المتفجر .. لتنافس القاهرة باقتدار ، فبينما بدأت وهى ١ : ٢٠ من القاهرة تقف الآن وهى أكثر من نصفها ١ : ٢ إذن هو تكافؤ نسبى إن لم يكن ندية عملية جـ ٤ ص ٣٣٢) ويتم سباق الأحجام على حساب سكان الريف أساسا (الهجرة الريفية) .. والمحصلة .. (.. أن فى مصر ١٩٧٦ خريطة حضرية تضم ٢٠ مدينة مائة ألفية ، ٥ مدن ما بين ربع إلى نصف مليون نسمة ، ٣ مدن مليونية هى القاهرة والاسكندرية والجيزة .. تضم ٨٫٥ مليون نسمة ، أى بنسبة ٥٠ ٪ من جملة سكان المدن المصرية ؛ أى أن المدن الكبيرة .. تنمو أيضا على حساب المدن المتوسطة والصغيرة ، ص ٣٣٢) ويضيف ...

(نصل من هذا بسهولة .. إلى أن هرم مدننا شديد الاختلال والاعوجاج ، أساسا بقهر القاهرة .. فهى قاهرة المدن جميعا ، جـ ٢ ص ٣٣٢)

وفى النتيجة ينقسم هرم مدننا إلى مجموعتين متناقضتين .. لايكاد يعرف طبقة وسطى ، معقولة أو جديرة ، فهو يهوى عموديا بعد القاهرة والاسكندرية إلى المدينة الثالثة سواء كانت هذه المدينة طنطا أو بورسعيد أو المحلة أو شبرا الخيمة ، ودعك من خرافة الجيزة المستقلة ، وهذه المدينة الثالثة إنما تتصدر بذلك حفنة من المدن الضئيلة أو المتواضعة أو العاجزة ، ونفس الظاهرة فى الصعيد .. فأنت كلما ابتعدت عن القاهرة تصعد تدريجيا من بنى سويف إلى المنيا إلى اسيوط القمة ، قبل أن تبدأ أحجام المدن فى التناقص مع فقر البيئة فى الجنوب الأقصى ، ص ٣٤٢) ومن ثم يتوصل إلى قاعدته (إن أثر القاهرة على نمو وأحجام المدن الاقليمية تحديد وصارم وعكسى وصارم إلى حد بعيد ، لأنها تذوى وتحرم من الضوء فى ظل شجرة العاصمة الطاغية ، إذ لامبرر وظيفى ولافائض امكانية مادية لنموها ، والقاهرة الغلابة على هذا القرب ، ص ٣٤٢) .

وهكذا .. كانت دائما هناك فى قمة الهرم .. عاصمة عاتية .. دونما طبقة فعالة من المدن الوسطى المتزنة على المستوى الحضرى (.. وتماما كما نملك نهرا واحدا جبارا .. فى مقابل صحراء شاسعة جرداء ، فإننا نملك مدينة طاغية عظمى واحدة فقط .. هى العاصمة القاهرة .. مقابل إقليم ريفى واحد متخلف .. كأنه قرية واحدة ، ومازلنا لانملك إلا ميناء واحدة فقط كبرى .. تحتكر تقريبا كل تجارتنا الخارجية .. هى الاسكندرية ، فى مقابل سواحل متعددة

طويلة .. وعشرات من الموانى القزمية العاجزة أو المهملة ، والنتيجة النهائية .. أن المعادلة الاقليمية فى مصر .. تتألف من رأس كاسح وجسم كسيح تقليديا ، ص ٣٤٤)

واذا كان تضخم العاصمة قد أتى على حساب الأقاليم فإنه يقرر (.. بأنه جاء على حساب الصعيد بوجه خاص ، وهو مايثير ابتداء قضية الشمال والجنوب ، كفصل فى كتاب الاقليمية فى مصر ، وليس فى مصر عمليا شرق وغرب .. ثمة فقط شمال وجنوب ، وتلك بذاتها واحدة من أبرز الحقائق فى جغرافية مصر البشرية ، ص ٣٤٥)

ويدعم كشفه بمقارنة دالة سريعة بين أقسام مصر الرئيسية (.. إن التقسيم الادارى بين الدلتا والصعيد .. فى كل من المساحة المزروعة وقيمة الانتاج الزراعى .. يدور فى حدود ٦٠ : ٤٠ تقريبا لكل على الترتيب ، ولكن الدلتا تتفوق أكثر فى السكان ، ممثلة فى العادة نحو ٥٠ ٪ من سكان مصر ، ويتراجع الصعيد بانتظام تقريبا ، حيث هبطت نسبته من ٣٨٫٥ ٪ سنة ١٩٤٧ إلى ٢٨٫٥ ٪ سنة ١٩٦٦ ، أى بنسبة ١٠ ٪ فى عقدين ، وإن عاد للارتفاع إلى ٣٤٫٧ ٪ سنة ١٩٧٦ ، وقد حولت فترة الخسارة لحساب القاهرة .. التى ارتفعت نسبة سكانها فى نفس الفترة بين ٤٧ ـ ١٩٧٦ إلى ١٤ ٪ أو الى ١٩٫٨ ٪ إذا أضفنا الجيزة اليها ، وفى مقابل ١٠ مدن كبيرة من فئة ١٠٠ الف نسمة + سنة ١٩٧٦ بالدلتا كان بالصعيد ٦ فقط من هذه الفئة ، معظمها أيضا أصغر حجما من مثيلاتها بالدلتا ، وبينما جاوز اجمالى المجموعة

الأولى المليونى نسمة ، ظل مجموع الثانية دون المليون بكثير ، فإذا عدنا للسكان ككل ، فإن لنا أن نقول بالتقريب أن الدلتا الآن نصف سكان مصر سكانا ، والصعيد ثلثها .. بينما القاهرة الكبرى خمسها ، وبهذا فإذا كانت الدلتا بكاملها ضعف القاهرة الكبرى .. فإن الأخيرة تعادل الصعيد إلا قليلا ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩)

ثنائية الشمال والجنوب :

تبقى التفرقة الاقليمية بين الشمال والجنوب فى مصر .. بمثابة أسوأ ظواهرها ، واذا كانت أسبابها الطبيعية .. تعود الى مورفولوجيتها (.. حيث مصر الوادى تختلف عن مصر الدلتا ..) إلا أن نتائجها الحضارية تعود الى اهمال الصعيد بدرجة متناهية ، ولايعنى ذلك أن الدلتا غير مهملة .. ولكن المسألة نسبية ، ويدلل على ذلك بعشرات من المقاييس التى تثبتها .. بالأرقام والمقارنات ، وبتحليل مايتاح من الوثائق والتقارير .

ونظرة عابرة إلى خريطة مصر الاقتصادية اليوم .. تكشف هذا الفارق بكل سهولة ، كل الخدمات والبنيات الأساسية الشبكية ، إن لم تكن فى الدلتا أضعافها فى الصعيد أطوالا وكثافة بحكم المساحة ، فإن بعضها يقتصر على الأولى دون الأخير .

ويدلل على ذلك بشبكات السكك الحديدية والطرق وأنابيب البترول ، كما يتخذ من أحجام المدن مؤشرا عليها ، باعتبارها

مراكز تقديم الخدمات للريف المحيط ، وكذلك من درجة تركز الصناعة بين الاقليمين .. متوصلا إلي (والنتيجة أن الصعيد يزداد على النسبة فقرا بضغط السكان المتزايد وقلة الموارد والتنمية المتخلفة ، وهما الدلتا والصعيد ضحية في نموه وتنميته لافراط العاصمة القاهرة ، ولكن الصعيد الضحية الأولي والكبرى ، وبهذا التخلف ـ مع الموقف المتخلف ، أصبح الصعيد بحق هو الإقليم الخلفى Arrierl - Pays في مصر ، من كل معنى .. جغرافيا وحضاريا ، ماديا وبشريا ، اقتصاديا واجتماعيا (ص ص ٣٢٤ ـ ٣٥٠) .

وهو حين يكشف هذه الثنائية .. فإنه يدعو إلى تصحيحها تبعا لما ذكره من جوانبها ، أو يذكر بما أهمل من خطط علاجها ، وتحت عنوان « مشروع للذكرى (جـ ٤ ص ٣٥٠) يذكر بخطة تنمية « جنوب مصر » التى قدمت فى أواخر السبعينات كمشروع قومي ضخم فى التخطيط الاقليمى ليدفع بالتنمية الاقتصادية والبشرية فى الجنوب المهمل ، ويرفعه على الاقل إلى مستوى الشمال ، لقد كان المشروع (يشمل مصر ابتداء من ثنية قنا بما فى ذلك الصحراوان يمينا ويسارا ، ولكنه يرتكز على قطاع الوادى ، فالى جانب تنمية الموارد الزراعية بالكامل باستصلاح البور وترشيد الرى وصرفه وتكثيف وتجديد المحاصيل ، بما فى ذلك حوض بحيرة ناصر ، وكذلك الواحات والأودية الصحراوية ، فقد كان المقرر أن تجتمع فى قطاع الوادي نفسه موارد الصحراوين المعدنية بصفة خاصة في ٨ مجمعات تعدينية ، تخدمها

جميعا شبكة جديدة من سكك حديدية ، وطرق سيارات وأنابيب مياه تربط الرقعة كلها ، مستغلة موقعها أيضا بين البحر الأحمر والسودان والسعودية ، لتحريك ثورة صناعية وعمرانية وحضارية شاملة ، وكان الهدف المرصود أن تستوعب منطقة المشروع نحو ٤٠ ـ ٥٠ ٪ من حجم الزيادة الطبيعية للسكان في مصر حتى سنة ٢٠٠٠ ، أى نحو ٨ ـ ١٠ ملايين) .

على أن المشروع قد طواه النسيان ، وبدل أن يتحقق ليحد من طغيان العاصمة وهزال الجنوب ، ترك مكانه لمشاريع كمترو الانفاق أكثر تكلفة وأقل جدوى ، إلا أنها غير قابلة للنقض .. حيث أن الأمر يعنى العاصمة .. وما أدراك ماهى (ص ٣٥٥)

● التجانس السياسى

يمهد لدراسة التجانس السياسى فى مصر .. بفصل كامل .. يناقش فيه قضية هامة فى شخصية مصر ، تتمثل فى هذا السؤال المركب ـ كيف ارتدت مصر .. من السبق الحضارى إلى التخلف ؟ (الفصل ٢٠ ص ص ٣٦٣ ـ ٤٥٦) ويقدم فيه واحدة من نظرياته الهامة .. تلخصها هذه المعادلة (قوة مصر السياسية = الموقع × الموضع) يستهلها بمناقشة مسألة « عزلة مصر » .... منتهيا منها إلى أن مصر (.. تنفرد إذن بأنها تجمع فى تناسب نادر .. بين قدر من العزلة فى غير تقوقع .. وبين قدر من الاحتكاك ..

لايصل إلى حد التميع ، ص ٣٦٤) ثم يحدد القاعدة الأساسية لما حققته من سبق حضارى فى (.. التناسق الدقيق بين أثر الموقع والموضع فى مصر ، فقد زاوج فيها بين العزلة والاحتكاك فى زواج سعيد ، أخذ من كل منهما محاسنه دون أضداده .. وجعل منها منطقة اتصال Zone of Junction ومنطقة انفصال disjunction في الوقت نفسه ، وبالتالى منطقة توصيل وتأصيل معا ، ص ٣٦٤)

وينطلق فى متابعة قضية السبق عبر مراحل التاريخ المختلفة .. وما قبل التاريخ أيضا (ص ص ٣٦٩ ـ ٤٢٨) يحلل خلالها ظواهر السبق الحضارية المختلفة .. هذه التى برزت بها مصر .. فوق المستوى العام للتاريخ .. منذ وقت مبكر ، مستندا دائما إلى نظريته الأساسية .. عن الموضع والموقع ، وذلك عبر مراحل التاريخ المصرى .. منذ ماقبل الأسرات .. وطوالها .. ومابعدها .. إلى نهاية العصر الفرعونى .. ومابعده .. أيضا ، مدعما تحليلاته بما يسميه « النظرية العاملة » (ص ٣٦٩) هذه التى تفسر كيف تفاعل الانسان المصرى مع بيئته التاريخية .. وكيف تعامل ومعها واستثمر معطياتها (النهر + المناخ + التربة) .. وكيف طورها (الرى + الزراعة) وتطور معها .. منتهيا إلى (.. أن نشأة الحضارة فى هذه المنطقة ـ لم تكن صدفة ، وبغير حتم جغرافى .. كانت البيئة الجغرافية هنا مثالية لقيام الحضارة فى القديم .. ثم لاستمرارها وبقائها بعد ذلك لآلاف السنين ص ٣٩٠) ولايتوقف عن اجراء مقارناته بينها .. وبين مناطق

الحضارات الأخرى .. المتزامنة معها ، كما يفند بدقة .. مايسميه بالنظريات المضادة (ص ٣٨٣) هذه التى تعارض السبق المصرى .. أو تنسبه لغيره ، مؤكدا أن (السبق الحضارى سمة أصيلة فى شخصية مصر ص ٤٢٨) فلماذا حدث من بعد السبق المؤكد .. ما آلت اليه من تخلف ؟

وتأتى إجابته .. بأن السبق أصيل .. ينبعث من طبيعتها وبنيتها .. أما التخلف فطارىء مؤقت .. وبفعل ضغوط ومؤثرات من خارجها ، بدليل قدرتها الفائقة على استعادة ذاتها .. من بعد الكبوة ، أما سببه - التخلف - على مر تاريخها .. أى فترات ضعفها .. فيعود إلى (.. النتيجة المتغيرة للشد والجذب بين قوتى العزلة والاحتكاك فى شخصيتها .. أى الموضع والموقع على الترتيب ، ص ٤٢٨) .. فإذا ما اختلت العلاقة المتوازنة بينهما .. تدهورت وكبت لفترة .. واذا ماتوازنت .. أفاقت ودخلت من فورها السباق .. مرة أخرى ، ولايدع نظريته دون أن يثبتها تاريخيا .. (ص ٤٢٨ - ٤٥٦) ويقوم بتقسيم تاريخها تبعا لرؤيته .. وبما يثبتها .. إلى مايلى :

★ مرحلة صناعة الحضارة .. وتتفق مع مرحلة التاريخ النهرى Potamic حين كانت مصر مشتلا لتأصيل حضارة مبكرة سباقة ، مادتها الخام هى فيض الثروة الفيضية ، وصوبتها الزجاجية التى تحمى طفولتها هى الغلاف الصحراوى ، فالعزلة النسبية كانت لازمة فى هذه المرحلة

لضمان استمرارها .. إلى أن بزغت فى مرحلة نامية متطورة . دخلت بها إلى المرحلة التالية .

★ مرحلة تصدير الحضارة .. وتشمل العصر الفرعونى فى إبانه .. حين هيمنت ظواهر الحضارة المصرية على جيرانها وشكلت لها نموذجا حضاريا .. تقتبس منه وتتوجه نحوه ، وكما تقول مارجريت مرى . (فإن كل المناطق المحيطة تدين فى حضارتها لمصر ، ابتداء من الحضارة الأوروبية إلى روسيا وفارس والعرب والهند بل والصين أيضا ، ص ٤٣٢)

★ مرحلة الاكتفاء الذاتى : وتلى نهاية الفرعونية وتتسم بهبوط قوة مصر السياسية .. واستمرار قوتها الحضارية ، وخلالها أسهمت مصر فى الحضارة الهيللينية البحر متوسطية .. من خلال الاسكندرية .. وذلك كشريك مع غيرها ، وتأصلت فيها ملكة الامتصاص .. على حساب قدراتها الخلاقة ، واستمرت هذه المرحلة من البطالسة الى العصر التركى ، وكانت عند نهايتها قد وصلت إلى نقطة الحضيض حضاريا ، مصابة (بتصلب شرايين حضارى .. أو بيات شتوى .. لم يسبق له مثيل فى تاريخها ، إنها فترة العزلة Seclusion Period التى اختل فيها تماما التوازن بين عزلتها واحتكاكها .. وهما طرفا معادلة قوتها .

★ مرحلة استيراد الحضارة :

وتبدأ مع اقتحام الحضارة الأوروبية لمصر .. بالحملة الفرنسية ، وبعدها بدأت تخرج رويدا رويدا من شرنقة عزلتها ، وانتعش ميكانيزم المشاركة الكامن فى صميمها ، وخلالها (.. لم تتحول مصر من نافورة الحضارة القديمة .. إلى بالوعة الحضارة الجديدة ، ص ٤٤١) ولكن إلى بوتقة صهرتها .. لتشكلها بما يتفق وتراثها ، ويرى (بأن هذا ليس إلا صورة جديدة معاصرة .. من معادلة التوازن الدقيق المتأصلة بين الموقع العقدى على مفترق طرق العالم ، وبين الموضع المحمى فى إطاره الصحراوى ، ص ٤٤٢) لقد تجاوزت مصر بسرعة صدمة الانبهار الأولية ، وخرجت بنفس السرعة من حبائل التقليد المتهافت .. التى تبعتها ، وتدخل الآن عصر توازنها .. (.. تستعير .. لتهضم وتتمثل .. لا لتذوب أو تغرق ، استعارة تمالك لاتهالك ص ٤٤٣)

إن دور مصر الحضارى .. وهذا مجمل الخلاصة .. وصفوة القول (.. لم يختف عبر العصور .. وإن اختلف من عصر إلى عصر ، وكما يقول مارييت .. مصر لاتشرق بضع لحظات .. ثم تغيب فى ليل طويل .. مثلما حدث فى بلاد أخرى ، وإنما العكس هو الصحيح ، فلقد أراد لها طالعها العجيب .. أن تواصل عملها سبعين قرنا ، وأن تترك أثرها فى كل ناحية من النواحى واضحا جليا ، وخلال هذا الدور

المتصل .. كانت إما صانعة الحضارة وإما حافظتها ، وفى الجزء الأكبر من تاريخها .. كانت فى الصدارة أكثر منها فى الصفوف ، واذا كانت الأمم التى قادت العالم حضاريا .. قلة معدودة بالضرورة .. فمصر بالضرورة منها ، ص ٤٤٣)

ولكن المسألة ـ السبق والتخلف ـ لاتزال تتطلب تحديد ضوابطها ، حقا .. فسرها نظريا .. بمعادلته عن الموقع والموضع .. وترجمتها التاريخية الاحتكاك والعزلة ، ولكن الأمر لم يشبع بعد بعوامله الداخلية ، ويقدم بكل وضوح إجابته (.. إن مصر ليست هبة النيل وحده .. ولكنها هبة المصريين معه ، ص ٤٤٧) بل هو يمنح الانسان وزنا أكبر .. فكم من منطقة نهرية أخرى .. لم تحقق مكانة تاريخية تذكر ، وهكذا يعود السبق والتخلف إلى تطورات المجتمع ونظمه السياسية ، فبعدما حقق وحدته ودولته المركزية .. وقام بثورته الحضارية على أساس من الابتكار ، والاقدام والنظام (.. لم يلبث بعد أن اكتمل أن تحول إلى المحافظة على القديم والتقاليد ، وتحت ضغط وابتزاز النظام الاقطاعى والحكم المطلق ، أخذ المجتمع المصرى يتسم بالجمود والعقم والتكرار ، والواقع أن الحضارة والتطور .. ليست مسألة تكنولوجية فى بيئة طبيعية ، ولكنه أيضا قضية ايديولوجيا فى بيئة اجتماعية ، ص ٤٥٣) ومن هنا يطلق مقولته أو صرخته .. بأن التاريخ لايعرف دولة مثل مصر .. تتأثر سبقا وتخلفا .. بنظمها وحكامها ، ولايدع مقولته معلقة .. بل يواصل اثباتها .. ليس فى الفصل التالى وحده .. وإنما

يخصص لها فى الجزء الرابع من كتابه .. فصولا أخرى .. كما سيأتى .

● **الوحدة السياسية :**

ويأتى الفصل التالى (٢١ ص ص ٤٥٧ ـ ٥٣٥) تحت عنوان « الوحدة السياسية » .. بعنوان ثانوى « الوطن السياسى » .. وهى تسمية لها دلالاتها المرتبطة بفروضه المتصاعدة عن التجانس ، يدل على ذلك استهلاله هذا الفصل .. بتحديد الأساس الطبيعى للوطن السياسى (.. مصر السياسية .. هى تاريخيا وادى النيل من الشلال حتى البحر ، أى أنها جغرافيا مجموع السهل الرسوبى فى الصعيد والدلتا ، ص ٤٥٧) وعبر المصريون القدماء على وعيهم بهذه الحقيقة .. فى نص فرعونى منقوش .. (.. كل بلاد يغمرها النيل فى فيضانه هى من مصر ، وكل من يشرب من ماء هذا النيل تحت جزر الفانتين .. فهو مصرى ..) .. ولاتخفى دلالة النص .. التى تربط النهر بالوطن .. بالانتماء السياسى ، فضلا عن تصوره المبكر كوحدة بحدود معروفة مشروعة ، فما هى مقومات هذا التصور فى الواقع المكانى ؟

ويجيب (.. تستمد مصر وحدتها من إحاطة الصحراء والبحر بها من الخارج ، وفى الداخل من الوحدة المورفولوجية للوادى .. والوحدة الوظيفية للنهر ، ومنها تحقق لها قدر من الوحدة السياسية .. عرفت به الدولة المركزية منذ قرابة

٥٠٠٠ سنة .. أى سنة ٣٤٠٠ ق . م ، ص ٤٧٦) بما يعنى أن الأساس الطبيعى لم يقدم للوطن السياسى وحدته فقط .. بل وحدد كذلك نظامه ، ويؤكد ذلك فى نفس الصفحة (.. مصر وطن سياسى .. من معطيات الطبيعة .. natural) political territory ويوضح السياق التالى (ص٤٦٠ ـ ٤٦٢) أن النهر وان قدم لهذا الوطن جسده الحي .. فقد منحته الصحراء على جانبيه درعه الواقى ، بما وفرته له من الحماية .. سواء فى فترة تكوينه أو بعد ذلك .. (.. فرغم سلبية دور الصحراء طبيعيا وماديا .. فقد كان لها دور ايجابى سياسيا ، إنها لم تخلق وحدة الوطن فى مصر .. ولكنها أنضجتها وحفظتها ، ثم عادت فدعمتها وبلورتها ، لقد كانت الصحراء .. هى الرحم الجغرافى الذى ولد فيه الوطن الجنينى ، ثم كانت الصوبة الزجاجية أو البيت الدافىء الذى نمت فيه ، وأخيرا كانت الدرع الكثيف الذى احتمت به وقد شبت وترعرعت ، أو كما لخص ديودور الصقلى الموقف كله قبل الميلاد .. مصر محمية من كل الجوانب بواسطة الطبيعة ، ص ٤٦١) لقد حضنت الصحراء كالشرنقة الوادى .. وحمت سكانه .

ومن الداخل كفل له النهر الوحدة التركيبية والوظيفية فى آن واحد ، التركيبية .. باعتباره العمود الفقرى فى معمور ضئيل للغاية .. داخل لامعمور صحراوى ، بل هو نفسه المعمور الوحيد فيه ، ويكثف الصورة .. (.. إنه ليس حدا بل نواة .. ليس أطرافا .. بل قلب ، ص ٤٦٣) ويكفيه ذلك

لتحقيق الحد الأقصى من الوحدة التركيبية ، أما الوحدة الوظيفية .. فقد تكفل بها الرى .. بما يعنيه من توظيف مياه النهر للزراعة .. (.. تؤلف مصر سلسلة من الحلقات المتصلة المتكاملة هيدرولوجيا ووظيفيا .. يتفاعل الماء بين أجزائها المختلفة .. كما لو فى أوانى مستطرقة ، لابد وأن تعالج كوحدة هيدرولوجية واحدة ، وإلا اختل فيها ذلك التوازن الايكولوجى الحرج الدقيق .. وبالتالى اختلت فيها عناصر الحياة ص ٤٦٤) ويضيف (.. لقد قضى النهر .. الرى النهرى .. أن يتعامل السكان مع بعضهم البعض ، وأن يتشاركوا فى ماء الحياة .. لا عن طريق قبائل وعشائر تتحارب مع بعضها البعض ، ولكن عن طريق قنوات تصلهم ببعضهم البعض ، ص ٤٦٥) ويكفيه ذلك لتحقيق الحد الأقصى من الوحدة الوظيفية .. اللازمة للوطن السياسى ، ثم دعمها دور النهر الملاحى كشريان لاحم بالمصلحة من كافة أجزائه .

ويفيض بعد ذلك فى متابعة مراحل تطور وحدة الوطن السياسى (ص ص ٤٦٦ ـ ٤٧٨) .. يفند خلالها عددا من النظريات المتصلة بموضوعه ، ينتهى منها إلى أن مصر هى على وجه التأكيد (.. وطن سياسى طبيعى ، ص ٤٧٨) يحدد خصائصه فى (.. هى لاندسكيب سياسى ناضج ، وهى كيان سياسى موحد ، وهى رقعة سياسية ثابتة ، تتمتع ـ أخيرا ـ بحدود سياسية فاصلة ، ص ٤٧٨) وتعنى الأولى .. أن مصر تتمتع بقلب مركزى متبلور .. وبهوامش قاطعة حادة ، وهما شرطا اللاندسكيب الناضج ، وإذا كان الشكل الطولى لمعمورها attenutated state قد جعل منها مسافة لا

مساحة (٤٨٢) فإن قوى الوحدة قد امتصت نتائجها .. ولم تجاوز مشاكلها المستوى الادارى .

أما الثانية .. فتعنى أنها دولة مركزية من الدرجة الأولى .. لم تعرف الانفصال عبر تاريخها .. إلا فترات نادرة قصيرة ، فوحدتها السياسية إذن خصيصة أصيلة ، أما الثالثة .. فتعنى أن مصر استمرت برقعتها السياسية كاملة غير منقوصة .. وذلك على طول تاريخها السياسى الحافل .. سواء كدولة مستقلة .. أو كمستعمرة من قوى الخارج ، أما الرابعة .. فتكمل الثالثة .. حدودها دائما ثابتة تاريخيا وجغرافيا .. دون أدنى شبهة أو تداخل (.. ورغم أن حدودها فلكية فى معظمها .. وطويلة تصل إلى قرابة ٢٠٠٠ كم فى مجموعها .. فإنها منحتها جسما مكتنزا ربعة وملموما ، خاليا من الزوائد والأطراف والأسافين الناتئة أو الغائرة ص ٤٩٧) ولايدع هذه النقطة دون أن يعرض باستفاضة .. لكافة مشكلاتها الحدودية غربا وجنوبا . مستعرضا وجهات النظر المتعارضة ، ومقدما لوجهة النظر المصرية .. مايثبت جدارة حلولها المطروحة (ص ص ٥٠٠ ـ ٥٠٧)

● الوحدة الوطنية :

كما سبق فإن معادلة القوة المصرية .. تتجاوز مجرد طرفيها (الموقع × الموضع) .. لتضيف اليها طرفا ثالثا .. يتمثل فى الوحدة الوطنية ، بما تعنيه من تماسك نسيج

المجتمع .. وتلاحمه في إطار من الثقافة المشتركة ـ المستندة إلى المصلحة والحياة المشتركة في بيئة فيضية .. مغزولة حول نهر مشترك (.. إن تكن الوحدة الطبيعية أخص خصائص الوطن السياسي المصرى كقطعة من الأرض ، فإن الوحدة الوطنية هي بلا ريب أبرز ملامح المجتمع السياسي الذي احتواه ذلك الوطن .. عبر العصور .. كقطعة من البشرية ، ومن مجموع وجماع هاتين الخاصيتين بالدقة والضبط .. جاءت مصر السياسية بلا زيادة أو نقصان ص ٥٠٧) .

وليست الوحدة الوطنية في مصر .. تعبيرا انشائيا .. أو شعارا فارغا بل هي محصلة لتفاعل جغرافي مع المكان .. وتاريخي مع الأحداث والتطورات .. عبر مرحلة طويلة كفلت له العمق والنضوج ، تمتد بجذورها إلى فترة التكوين الأولى قبل التاريخ (الوحدة الاثنولوجية) وتتوطد بالثقافة المشتركة (اللغة) .. وتتعمق في الشعور .. لتصبح من حقائق الوجود (.. فمن الوحدة الاثنية إلى اللغوية إلى السيكولوجية .. على هذا الترتيب .. نصل إلى متوالية تصاعدية أساسية ، وإلى هذه المتوالية جاء تطور الوحدة الوطنية ، ص ٥٠٧) وبالاضافة إلى الفصل ١٩ الذي يخصصه لاثبات التجانس العرقي للمصريين ، فإن البرهنة على صحة متواليته .. تستغرق بقية صفحات هذا الفصل الواحد والعشرين (ص ص ٥٠٧ ـ ٥٣٥) يتناول خلالها بكل دقة وتركيز .. الوحدة اللغوية (ص ٥٠٩) .. فبغيرها لا وحدة لشعب على

الاطلاق ، ثم الوحدة الدينية (ص ٥١١) .. فإذا كانت اللغة وحدة الفكر .. فإن الدين بلا ريب وحدة القلب .. وقد تحقق فى مصر فى إطار من التعايش .. وبفضل ملكة الامتصاص ، وذابت الفروق بميكانيزم الوحدة الاثنية .. والحياة المشتركة المتداخلة فى الريف والمدن .. بين الجميع (.. إن ثنائية المسلمين / الأقباط .. لاتتعارض مع الوحدة الوطنية .. بل ولا الدينية .. فبالأصل الاثنولوجى .. كما بالوضع الاجتماعى .. كما بالتوزيع السكنى .. تعد الأقلية القبطية من صميم الكيان المصرى الكبير ، ص ٥٢٥) وأفضت ثلاثية (اللغة + الدين + الأصل) إلى الوحدة الثقافية التى هى تراث التراب الوطنى .. وطابع الأمة المميز ، وكلها معا تصنع الوحدة السيكولوجية (ص ٥٣٠) .. أى (وحدة المزاج والطبع .. والنفسية والعقلية .. والسلوك والعادات وطريقة الحياة ، وهى وحدة ليست أقل خطرا من سابقاتها .. وإن كانت المحصلة النهائية لها ، فإنما هى فى واقع الأمر .. الوحدة الوطنية كلها فى التطبيق والممارسة المباشرة والحياة اليومية ؛ أكثر حتى ربما مما هى البعد الرابع من متوالية الوحدة الوطنية)

فإذا كانت الوحدة الوطنية على هذا القدر من التماسك والرسوخ .. فأين بالضبط ـ تقع مشكلة مصر السياسية .. على مر العصور ؟ ..

وتأتى الاجابة الفورية .. (.. وعلى وجه التأكيد .. إنها الحكومة ونظام الحكم بالتحديد ..)، وكدأبه يعود بإجابته إلى

مايؤكدها تاريخيا وايكولوجيا بالأسانيد ، ويضعها تحت عنوان « أيكولوجية النيل الاجتماعية » (ص ٥٣٧) متخذا من مصطلح « المجتمع الهيدرولوجي » .. مدخله للتحليل ، باعتباره تلخيصا لحقيقة أساسية في كيان مصر .. كبيئة نهرية ، وبداية أيضا لم أصبح عليه نظام الحكم بها .. وما أمست حكوماتها عليه ، فقد اقتضى تنظيم الرى بها كوظيفة للنهر .. حكومة مركزية .. تحكم قبضتها عليه ، وتمخضت التطورات .. عن الفرعون .. كرأس رئيس لهذه الحكومة .. متسربلا بالقداسة متخذا من هذه المتتابعة (النهر ـ الرى ـ الزراعة ـ المجتمع المنظم ـ الحكومة المركزية ـ الفرعون) الطبيعية البشرية السياسية .. أداته لتفسير الطغيان السياسى .. حتى أنه يطلق عليها (أمست مصر مع تركيز نظام الحكم .. أرض الطغيان ، ص ٥٨٦) ويؤكد .. (.. والآن من ينكر أن الطغيان والاستبداد .. هو كظاهره موضوعية .. نغمة أساسية .. وأسوأ خط فى دراما الشعب المصرى ..) ويتصدى تحت عنوان « نظريات خاطئة (ص ٥٨٦) لكل ما ألصق بالشعب المصرى .. من صفات الخنوع والخضوع للسلطات ، مستشهدا بالفلاح الفصيح . وبثورات هذا المجتمع الهيدرولوجي .. عبر العصور ، وينفى عنها صفة الحتمية الجغرافية ، ويعود بها بأوضح الكلمات (.. إلى انحراف السلطة بقيم المجتمع النهرى .. القائمة على التعاون وعدالة التوزيع .. الحكومة المركزية والمجتمع التعاونى .. هما الظاهرتان الحتميتان فى كيان مصر

الفيضية .. وليس الاستبداد والطغيان ..) فالاستبداد ثمرة مرة .. لشجرة خصيبة من التطور والتنظيم .. تجرعها الشعب المصرى على مضض .. للمحافظة على وجوده وكيانه الحضارى العام ، ولكن تلفظها بنيته باستمرار ، وبين هدف الوجود .. ورفض الطغيان .. تكونت نغمة أساسية فى تاريخه وشخصيته ، عالجها بالتمسك بوحدته (.. فمصر السياسية جسم بشرى واحد ووحيد .. ووسط جغرافى واحد بالتأكيد ..) فلم يفرط فى وحدته عبر التاريخ .. مع السعى الدءوب عبر الزمن وبالثورة .. لمحو الطغيان .

● من الطغيان إلى الثورة :

هذا موضوع الفصل الثانى والعشرين (جـ ٢ ص ص ٥٣٦ ـ ٥٩٩) .. وعنوانه أيضا باختصار ، يستكمل مابدأه فى الفصل السابق .. من تطور نظام الحكم فى مصر .. وتركزه فى قبضة الفرعون .. مع اختلاف تسمية الحاكم .. عبر العهود ، يستهلها بمعاودة تحليل « جغرافية مصر الاجتماعية » (ص ٥٣٦) مع التفصيل فى تحليل ايكولوجية المجتمع المصرى .. كمجتمع هيدرولوجى .. نواته النيل ، مستندا الى متتابعته الواردة فيما سبق من سطور ، مع التركيز على تطور دور الحكومة .. وكيفية تسممها بالطغيان (.. بدأت الحكومة كوسيط بين الانسان والبيئة .. وهمزة الوصل بين النهر والفلاح .. هى ضرورة ـ فكرة وأجهزة م

للتكامل الايكولوجى ، ضرورة كما هى نتيجة .. تتطور لتنتهى عاملا جغرافيا .. بكل معنى الكلمة ، ص ٥٣٩) أى أن الحكومة عامل ايكولوجى أصيل ، تستمد شرعيتها من عدالة التوزيع .. فالعدل كما يقول رفاعة الطهطاوى أساس العمران (ص ٥٤٠) ثم يضاف اليها وظيفة حماية العمران .. ومن هنا (عدالة التوزيع + الدفاع) تنبثق ضرورة أن تكون مركزية .. فى تتابع تنفرد به مجتمعات الأنهار .. خاصة من يتعرض منها للفيضان ، ولب المركزية هنا أن المياه مؤممة .. يملكها الجميع .. فكيف يمكن بغير المركزية أن تدار .. ومن يحمى العمران من الغزو والفيضان ؟ (.. ذلك إذن توجيه البيئة الفيضية .. وتأثيره السياسى .. وهو توجيه طبيعى وصحى وحكيم ، ولا علاقة بينه وبين الانحراف للطغيان ، فاذا وقع .. فلابد أن نبحث عن الأسباب ، ص ٥٤٦)

ويعود فى بحثه عنها للجذور .. إلى بداية تكوين « النظام الاجتماعى المصرى » (ص ٥٤٦) مستهدياً فى تحليله بثلاث نظريات ، النظرية الاقطاعية ، النظرية العبودية ، النظرية الأسيوية (٥٤٩) منتهيا إلى ارتباط تجذر الطغيان فى مصر .. بتحول ملكية الأرض بعد المياه .. إلى الحاكم .. (الذى أصبح يملك الأرض وماعليها .. والكل يخضع له خضوعا مطلقا كاملا ، ص ٥٥٢) وكان لابد وأن يتبع ذلك تكييف هيكل النظام .. بما يناسبه ويحقق مقاصده ، وهكذا نبتت البيروقراطية (ص ٥٥٦) من الأوتوقراطية ، وأحاطت ذاتها بقداسة الكهنة (٥٥٧) .. وبرجال الجيش (٥٥٨) ..

وبطبقة عليا غير أرستقراطية .. مرتبطة بالفرعون (٥٥٩) وتكاد هذه التحالفات القديمة أن تشكل صلب هذا النظام . الذى بقى بعد ذلك عشرات القرون .

وقد ضاعفت أحادية النظام الاقتصادى المصرى (الزراعة) .. من تصلب هذه البنية الاقطاعية (.. فنظرا لأحادية البيئة النيلية .. فقد حد ذلك من نمو طبقة من التجار والصناعيين .. بدرجة يمكن أن تنافس الاقطاع المتسيد ، ص ٥٦٦) ويضيف .. (.. وليس من الصعب أن ننتهى من هذا .. إلى أن مصر لم تستغل موقعها الفريد كما ينبغى وركزت أساسا على الموضع ، ولو فعلت فلربما تغير تاريخها وشخصيتها بعد ذلك ، أى أن الانطواء الزراعى القانع داخل قوقعة الموضع .. كان من عوامل استمرارية الأوتوقراطية واستشراء طغيانها ، وبعبارة أخرى لو أن مصر ركزت أكثر على استثمار الموقع كما ينبغى .. لأنقذها الموقع من نتائج تحريف الطغيان وتشويهه لامكانيات الموضع ، ص ٥٦٧) وبذا يذكرنا بمعادلة القوة المصرية (الموضع × الموقع) كأساس لتقدمها .

ويفسر الطغيان الداخلى .. وقوع. مصر المتكرر الطويل تحت سيطرة الاستعمار ، فحين ينهزم النظام .. تسقطه مصر .. وتستبدل طغيانا بطغيان ، بل وسرعان مايتحالف الطغيان الخارجى .. مع الداخلى .. فى معظم الأحيان (الأتراك مع المماليك على سبيل المثال ، ص ٥٦٧) ومع انقطاع الصلة بين الحكام والمحكومين .. لاتجاوز المسألة

تغيير نظام بنظام ، دون أن يعنى ذلك التهوين من قدرة الشعب المصرى على التصدى فى الحالين ، فتاريخه سجل حافل بالهبات والثورات .. ولكن بطريقته الخاصة على مر التاريخ (.. ذلك لأن مصر بحجمها جسم ضخم لايتحرك باندفاع متهور .. بل بدفع محسوب ، ولذا فإن ثوراتها الشاملة .. وإن كانت قليلة العدد نسبيا .. إلا أنها فاعلة حين تقع ومحطمة ، ص ٥٦٨) وهكذا ينفى أن يكون الطغيان قرين مصر الاجتماعية (ص ٥٨٠) بل هو ضد روحها الكامنة ، وضد روح المكان Geniusloci ولايجاوز كونه انعكاسا لطبيعة Zeitgeist عصر من العصور ، عرفته المجتمعات البشرية .. كل فى مرحلة معينة .. بأدرانه تصاب ، هو إذن لايعبر عن روح المجتمع المصرى ، ولايمكن أن توصم روحه الوادعة وأصالته المنظمة .. بأنها استجابة فطرية .. لما عرفته من طغيان .. فى فترة طويلة من تاريخها (.. لاحتم جغرافى إذن فى الطغيان ص ٥٨٣) وإنما هى انحراف السلطة المركزية عما عهد إليها به ، هذا عدا ما أضافه الغزو الأجنبى والاستعمار ، أما الأصل .. أى المجتمع المنظم .. فالديموقراطية روحه ، قوامها عدالة توزيع المياه والأرض بين سكانها ، ديمقراطية سياسية واجتماعية واقتصادية معا فى آن ..) ص ص ٥٨٤ ـ ٥٩٩ ، بذا يحدد من الخصائص .. مايفسر التاريخ البعيد والقريب .

ورغم اقراره الموضوعى بما يمكن أن يخلفه الطغيان والاستعمار .. من رواسب وشوائب (ص ٥٨٤) فى شخصية

المصرى ومجتمع المصريين ، إلا أنه يتصدى لجملة من « النظريات الخاطئة » (ص ص ٥٨٦ ـ ٥٩٣) .. تسعى لدمغ شخصية مصر فى الصميم ، وبعدما يستقرىء التاريخ .. يقرر (.. غير أن الحقيقة التاريخية التى تثبتها مرارا وتكرارا تجربة الفى سنة .. مازالت مستمرة معنا حتى اليوم ، وهى أن كبرى الآفتين ليست الاستعمار الأجنبى .. ولكنه الحكم الداخلى المطلق .. إنه وجه مصر القبيح ، ص ٥٩٥) وهى الحقيقة التى سوف يستند إليها بعد ذلك فى كثير مما يلحق من الفصول ، بالاضافة إلى ماحدده منها فيما سبق من فصول ، يظهر ذلك على الخصوص فى الفصلين (٢٣ ، ٢٤ ، جـ ٢) وذلك حين يعود إلى تحليل شخصية السياسية عبر العصور ، متسائلا فى أولهما (.. كيف تحولت مصر من أول امبراطورية فى التاريخ .. إلى أطول مستعمرة عرفها التاريخ ؟ .. ص ٦٠٣) ، وتقتضيه اجابة السؤال .. خوض غمار قرابة أربعين قرنا من الزمان ، يتابع فيها دورات الازدهار والانتكاس بالتفصيل دون أن يكف عن اجراء المقارنات الموحية بين مصر وغيرها من قوى العالم القديم ، وحين يتوصل إلى اجابته .. تظهر كنظرية (تخلف الموضع عن الموقع ، ص ٦٤٢) صالحة دائما للتفسير (.. لقد تكشف المعمور المتمدد عن قوى جديدة .. وقواعد أرضية وبشرية من مقياس أضخم من المقياس المصرى ، وقد وجدت هذه القوى أن المفتاح يرقد دائما فى أرض الزاوية .. تلك مصر ، ومن هنا أصبحت قبلة الغزاة ، ونظرا لأن وزن موضعها لم يعد يسعفها إزاء هذه القوى الأكبر جرما .. فقد

وقعت مصر فريسة لها ، بمعنى آخر .. إن الانقلاب الذى حدث فى مصير مصر .. هو أن خطر موقعها قد زاد كثيرا عن قوة موضعها ، لقد تخلف الموضع عن الموقع .. ولم يواكب تطوره ، ولم تعد امكانيات الأول التقليدية .. ترقى إلى متطلبات الثانى الباهظة ، ص ٦٤٣) ... تخلف الموضع عن الموقع إذن اجابته .. وهى أيضا نظريته الثرية بلاجدال .

ويطبقها بعد ذلك فى الفصل الرابع والعشرين (ص ص ٦٥٤ ـ ٦٨٩) .. الذى يخصصه للاستعمار الأوروبى الحديث ، متابعا علاقته مع مصر .. منذ الحملة الفرنسية ، فالاستعمار البريطانى (٦٥٩) ، وتزايد نسبة الأجانب (ص ٦٦٧) .. وتأثيرهم فى المجتمع المصرى ، وفى الجوانب الاقتصادية المختلفة (وبالنسبة للأجانب فانهم كانوا وظلوا مجتمعا مغلقا .. منقول بجذوره وبيئته .. ومناخه الحضارى والاجتماعى ، باختصار جزر أوروبية فرضت على الأرض المصرية ، قطعة من أوروبا فى مصر .. التى لم تصبح على اية حال .. قطعة من أوروبا ، ص ٦٧٤) وبقدر مايظهر هذا الفصل استمرارا لسابقه .. ومجالا لتطبيق نظريته ، فإنه يمهد أيضا للفصل اللاحق له (٢٥ ص ص ٦٩٠ ـ ٧٧٧) .. ويخصصه لدراسة « شخصية مصر الاستراتيجية » متوجا بها الباب الخامس من الجزء الثانى من كتابه ، وبه يكون قد أفرد ستة فصول كاملة (٢٠ ـ ٢٥) .. أى مايزيد عن ٤٠٠ صفحة (ص ٣٦٣ ـ ٧٧٧) لدراسة شخصية مصر السياسية .

● فماذا يقصد من عنوان هذا الفصل « شخصية مصر الاستراتيجية » .. على وجه التحديد ؟ (.. الآن وقد درسنا مراحل وأدوار تاريخ مصر الجيوبوليتيكى .. مابين امبراطورية ومستعمرة ، وحللنا معانيها ودلالاتها ، نحن فى موضع يسمح لنا بالتعميم بعد التخصيص ، لننفذ إلى أعماق شخصية مصر الاستراتيجية ككل وكإقليم من الخارج ، ولنحدد جوانب القوة والضعف فيها ، ثم لنضع مصر كقوة سياسية فى الميزان .. بما في ذلك دورها ووزنها السياسي ، ثم أخيرا .. لنقيم ونقنن أركان وقواعد استراتيجية مصر من الداخل ، حتى نصل من ذلك جميعا إلى مؤشرات للعمل المستقبلى .. تفيد فى تخطيط أهدافه .. لاسيما فى الصراع المصيرى مع اسرائيل ، ص ٦٩٠) .

ومرة أخرى .. وليست أخيرة .. يضع قاعدة (الموضع × الموقع) أساسا لتحليلاته وتفسيراته باعتبارها لب شخصيتها الاستراتيجية .. محل الدراسة .. (.. الحقيقة العظمى فى كيان مصر .. ونقطة البدء لفهم شخصيتها الاستراتيجية - هى اجتماع موقع جغرافى أمثل مع موضع طبيعى مثالى ، وذلك في تناسب أو توازن نادر ، ص ٦٩٠) ويفيض فى اثبات ذلك .. من زوايا جديدة ، تحلل دوائر القوة فى المناطق المحيطة .. مسجلا هذه الحقيقة (.. مصر كانت دائما مركز دائرة وقطب قوة .. ولم تنزلق إلا نادرا لتصبح على هامش دائرة أخرى ، وبحكم موضعها (السهل الممتنع) وموقعها (الصعب الممتنع) .. فإنها تصعد منحنى القوة كقوة

إقليمية ، إذا ماوظفت امكانيات موضعها وموقعها جميعا ، فذلك مفتاح الماضى مثلما هو دليل المستقبل ، ص ٦٩٢) .

وتحت عنوان « خريطة الخطر » (ص ٦٩٣) يتابع ماتعرضت له مصر من أدوار الغزو والاستعمار (.. لقد عاشت مصر دائما أو غالبا فى خطر ..) ويتناسب الخطر الخارجى تناسبا طرديا مع أهمية الموقع ، ولم يكن ذلك سلبيا .. فقد نضجت شخصية مصر بقدر ماتعرضت له ، وهو يجمل دوائر الخطر وحلقاتها .. ويدلل عليها عبر تاريخها ، متوصلا إلى عدد من الخصائص يراها دائمة ، من أهمها العلاقة الاستراتيجية العضوية بين مصر والشام (ص ٦٩٨) وبذا فان الدفاع عن مصر يبدأ من طوروس (٦٩٨) .

ويستغرقه بعد ذلك تحليل وتفنيد عدد من النظريات الخاطئة (٧٠٣) من قبيل نظرية « أطول مستعمرة » (ص ٧٠٤) ونظرية النضج المبكر والشيخوخة المبكرة (ص ٧٠٦) ونظرية المقاومة السلبية (ص ٧٠٧) ونظرية « الشعب غير المحارب » (ص ٧١١) ونظرية « جناية الموقع (ص ٧١٤) تفنيدا قويا يثبت به خطأها وصواب ضدها .

وفى اتجاه تحليل « مصر كقوة سياسية » (ص ٧١٦) يتابع وزنها عبر تاريخها ، محددا ذبذباته وارتفاعاته ، وانحداراته ، مستندا الى معادلته الأساسية (الموضع × الموقع) حيث أن من شأن تنمية موارد الموضع والموقع أن

ترفع بداهة من المحصلة ، ولقد حققت مصر بالنسبة لشق المعادلة الأول خلال القرن الماضى مادعمه حقا سواء فى مجال الزراعة (ثورة الرى الدائم ص ٧٤٠) التى بلغت نهايتها بالسد العالى ، أو الصناعة التى قطعت فى مضمارها شوطا لايستهان به ، وذلك ضد « خريطة الخطر » المحيطة بها .. والتى لاتكف عن محاولة اجهاضها وتبديد تراكماتها ، سواء من جانب الاستعمار العالمى أو اسرائيل ، وفى نفس الوقت فإنها رغم ماحققته .. فقد كان العالم المتقدم ينمو بمعدلات أكبر .. تضاعف المسافة بينه وبينها (.. لقد كانت مصر طوال العصر الحديث .. فعليا وفى حد ذاتها فى نمو مطرد .. حجما ووزنا وقوة وسكانا وتحضرا وتمدنا .. بيد أنها كانت تجد نفسها فى تناقص وتراجع وتخلف مطرد ، لا لشىء سوى أن العالم كان ينمو خارج كل حدود .. ص ٧٣٩) وبالنسبة للموقع .. فقد كللت مصر موقعها باستعادة القناة ، وبذا يمكن احلال (السد العالى + القناة) محل معادلة القوة المذكورة ، باعتبارها أعلى ماحققته مصر فى تاريخها الحديث .

وتحت عنوان « سياسة مصر الخارجية » (ص ٧١٧) يقرر (.. إن تكن الجغرافية وراء السياسة مقولة صحيحة ، فلعل سياسة مصر الخارجية تعكس شخصيتها الاستراتيجية .. ربما أكثر مما تعرف دولة أخرى (ص ٧١٧) ومن ثم يتابعها ويقسمها (.. يمكن أن نتعرف على ثلاثة مراحل رئيسية من السياسة الخارجية المصرية ،

تمثل فى جوهرها أبعادا جغرافية فى الدرجة الأولى ، وبالدقة أبعادا متوسعة متزايدة على التعاقب : مرحلة السياسة المحلية ، مرحلة السياسة الاقليمية ، مرحلة السياسة العالمية ، ص ص ٧١٨ - ٧٢٣) وبعد تحليلها تاريخيا وجغرافيا وجيوبولوتيكيا - يستخلص مايسميه « أجروميه أو قواعد سياسة مصر الخارجية فى خمسة مبادىء أو قوانين .. تدور تباعا حول العلاقات والمحاور الآتية (القوة والعزلة أولا ، العزلة والعرب ثانيا ، العزلة والاستعمار ثالثا ، العزلة والتحجيم رابعا ، المجال الطبيعى ..) وتوضح درجة ثقل العزلة .. فى هذه الأجرومية .. وتمثل بالطبع الوجهة السلبية فى السياسة المصرية الخارجية ، ومنها يخلص إلى قاعدته الأساسية فى هذا الشأن (... تتناسب قوة مصر السياسية تناسبا عكسيا مع درجة عزلتها وانغلاقها داخل حدودها ، وطرديا مع مدى انطلاقها خارج حدودها ص ٧٢٣) .

وفى متابعة شائقة لدور مصر ووزنها فى المراحل أو الدوائر الثلاثة .. منذ القرن التاسع عشر عامة ، ومابعد الحرب العالمية الثانية خاصة . يتوصل إلى مايسميه المجال الطبيعى (ص ٧٢٦) ويتمثل فى العالم العربى على وجه التحديد (.. والبعد الأمثل لسياستنا الخارجى هو البعد الاقليمى الذى يرادف العالم العربى ..) .

وكما يضع الخطوط تحت مسألة العزلة ، يضع مثلها تحت الدائرة الاقليمية من دوائر سياستها الخارجية ، وبالذات المجال العربى منها (.. ويتحدد دور مصر ووزنها فى الدائرة

الاقليمية بعامة .. والعربية بخاصة ، ص ٧٢٧) ويتابع دورها تاريخيا حتى المرحلة المعاصرة ، التى يرى مصر فيها وقد تدهورت .. ليس من حيث الدور وإنما من من حيث المكانة أيضا ، ويعود بتدهور المكانة إلى البترول ، وبتدهور الدور إلى الصلح مع اسرائيل (ص ٧٤٤) ويضيف إلى أهمية استعادة مصر لدورها الاقليمية .. مجموعة من الأسس يراها بمثابة قواعد دور مصر السياسى (.. لا أمان ولامستقبل لمصر إلا بالقوة الذاتية ، القوة العسكرية والمادية والاقتصادية ، سواء على مستوى الموضع أو الموقع ، سواء فى الداخل أو الخارج ، ص ٧٤٠.) .

ولا ينته الموضوع عنده بذلك .. بل يعاود طرحه من زاوية جديدة .. تحت عنوان « قواعد استراتيجية » (ص ٧٤٦) يحاول الإلمام فيها (بتركيب مصر الجيوستراتيجى) مستهلا ذلك باثبات ماينطوى عليه هذا التركيب من عناصر قوة البر والبحر معا ، وبتحلل عمقها الاستراتيجى (ص ص ٧٤٧ - ٧٥٥) ومنتهيا إلى مايسميه « مفاتيح مصر الاستراتيجية » (ص ص ٧٥٥ - ٧٧٧) ويحددها بداية فى (سيناء فى الشمال الشرقى ومرمريكا فى الشمال الغربى ، والنوبة فى الجنوب ، ص ٧٥٥) غير أن سيناء تستأثر بجل اهتمامه ، حيث يخضعها لدراسة مستفيضة ، توظف كافة المعلومات عنها لزاويته الجيوستراتيجية المختارة ، مع الربط عضويا بينها وبين القناة ووادى النيل ، وفيما يلى بعض أهم ما أورده فى هذا المجال .

● .. لم يترك الفراغ العمرانى سيناء .. أرضا جاهزة لمعركة العدوان وملائمة لأغراضه فقط ، ولكنه تركها نهبا للأطماع الاستعمارية الآن وفيما مضى ، وبصفة عامة يمكن القول أنه كان هناك دائما عدو ما يشكك بطريقة ما فى مصرية سيناء .. ويطمع فيها بصورة ما .. بالضم .. بالسلخ .. بالعزل أو بغير ذلك .. لن نذكر هنا البيع أو الايجار .. جـ ٢ ، ٧٧٣

●● .. من الوجهة الاستراتيجية البحتة .. فلم يعد معنى لأن يتوقف ارتباط سيناء بمصر الوادى عبر القناة .. على كوبرى سكة حديد قابل للتدمير .. ثم للتدمير بعد اعادة البناء ، لابد من سلسلة انفاق تحت القناة تحمل شرايين المواصلات مثلما تنقل المياه ، فمثل هذه الانفاق تعد مجازيا بل عمليا ، بمثابة اعادة تحقيق للاستمرارية والوحدة الأرضية بين الوادى وسيناء ولرقعة مصر الجغرافية السياسية عموما .. رغم وجود القناة . جـ ٢ ، ص ٧٧٧ .

●●● اهتبلت اسرائيل فرصة النكسة لتحقيق خططها القديمة والموضوعة لوراثة دور القناة نهائيا ، ومعروف ان اسرائيل كانت تهدف دائما إلى سرقة موقع مصر الجغرافى ، وتحلم بأسر تجارة المرور منها وتحويلها اليها .. جـ ٢ ص ٧٧٧ .

●●●● .. القناة محكوم عليها بالخطر .. « الراجح » .. وموقعنا مهدد أبدا وبانتظام بالاجهاض والشلل الجزئى مابقيت اسرائيل ، ومن ثم يصبح المبدأ الاستراتيجى الأول

فى نظرية الأمن المصرى هو مرة أخرى : دافع عن سيناء ـ تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعا ، ولاضمان بالتالى إلا بذهاب العدو ، غير أن هذه قضية متروكة للمدى البعيد) .

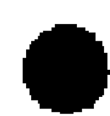
ويقرر فى الخلاصة (.. وعلى هذا نستطيع .. وفى الختام أن نعبر عن الموقف الجيوستراتيجى كله فى ايجاز .. فى سلسلة من المعادلات الاستراتيجية على النحو التالى :

ـ من يسيطر على فلسطين .. يهدد خط دفاع سيناء الأول .

ـ من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط .. يتحكم فى سيناء .

ـ من يسيطر على سيناء .. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير .

ـ من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير .. يهدد الوادى . وهذه بالضبط « نواة نظرية الأمن المصرى » (ص ٧٧١) فى صياغته الأخيرة .



فإذا كان وجود مصر يستند إلى هاتين الدعامتين :

★ الموضع .. ومحوره النيل . بكل ما أدى إليه من اقتصاد وعمران .

★ الموقع .. فى هذه الزاوية نادرة المثال من العالم ..

ورمزها قناة السويس .. فما هى درجة صلابة الدعامتين ؟ وماهى درجة متانة مايعلوها من بناء ؟ .

● الأساس والبناء :

يخصص الباب السابع من الجزء الثانى لدراسة « البناء الحضارى والأساس الطبيعى » (ص ٧٨١ ـ ١٠١٨) ويتضمن ثلاثة فصول (٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) يخصص أولها لدراسة « موقع مصر الجغرافى » ويأتى الثانى تحت عنوان « هبة النيل » ويكمله الثالث بعنوان « ضبط النيل » يمهد لها جميعا بمقدمة قصيرة ، يستهلها بهذا السؤال الموحى (.. ما الأساس الطبيعى لبنائنا الحضارى الشامخ الذى أقمناه عبر العصور ، بكل محمولاته من غطاء عمرانى وكيان اقتصادى إلى تراث مادى وهيكل اجتماعى ؟

هل هو يقوم على أرض صلبة بحيث تتكافأ قوة الأساس Substructure مع عظمة الصرح Structure وماهى نقط القوة والضعف فيه ؟ (ص ٧٨١)

ويحدد من بعد سؤاله طريقه بسؤال آخر (.. ما طبيعة ونوعية العلاقة فى كياننا البشرى بين الحضارة والبيئة ، وبين المصنوع والمطبوع وبين التاريخ والجغرافية ؟ وتأتى الاجابة فى معادلة بسيطة (.. تستمد مصر أساسها الطبيعى من عنصرين جوهريين .. الموضع والموقع ، الموضع هو الوادى

المعمور المزروع بموارده وانتاجه ، والموقع يتمثل فى تجارة المرور .. وتلخصه وتلخصها الآن قناة السويس .

غير أن هناك زواجا جغرافيا آخر كاملا ووثيقا وليس يقل خطرا بين النيل والبحر المتوسط ، وقد أثمر هذا الزواج الجغرافى السعيد مصر .. أم الأمم .. أم الحضارة .. أم التاريخ .. أم الدنيا ، ص ٧٨٢) غير أنه يحدد من فوره نقطة الخطورة (.. إن الكيان المصرى يستمد أصوله من مصادر خارج الحدود سواء فى ذلك الموضع أى الوادى الزراعى ، أو جانب الموقع ، أى تجارة المرور ، ص ٧٨٣) وبذا يضع يده على صميم دراما شخصية مصر .. وينطلق منها إلى تحليلاته .

قلب للعالم :

وكما سبقت الاشارة .. فإن الفصل الأول من هذا الباب يخصصه « لموقع مصر الجغرافى » واضعا فوقه عنوانا (قلب العالم) وتحته عنوانا (عبقرية الموقع) ويستهله بما يسميه معادلة الموقع (.. إنها لاتمتاز فقط بالموقع المركزى المتوسط فى قلب الدنيا القديمة ، ولا بالموقع المدخلى أو موقع البوابة فحسب ، ولكن أيضا بالموقع العقدى البؤرى ، ص ٧٨٤) ويقتضيه تفسير ذلك رحلة طويلة ، تبدأ بتحليل « الموقع الجغرافى الطبيعى » (ص ٧٨٤) ومقارنة الموقع والموضع (ص ٧٨٧) وتذبذب الموقع (ص ٧٨٨) ودورات

الموقع وأدواره (ص ٧٩٠) منتهيا الى دور القناة .. باعتباره الدور الأخير (ولكنه وحده ثورة كاملة ، ص ٧٩٦) فبالنسبة لمصر .. (كان أبسط معنى للقناة أنها جددت شباب موقعها الجغرافى ، ص ٧٩٧) ويتابعها باسهاب منذ بدايتها الأولى (.. قد لا نبالغ كثيرا اذا قلنا أن تاريخ مصر الحديث المفعم المتضاغط .. إنما هو في التحليل الأخير تاريخ القناة ، ص ٧٩٨) ويربط بينها وبين الاستعمار العالمى (ص ٧٩٩) ثم بينها وبين البترول (ص ٨٠١) وبالخطر الاسرائيلى (ص ٨٠٥) ويحذر من الخطر الاسرائيلى الراجح ، ويؤكد معادلته بأن من يدافع عن سيناء يدافع عن القناة ، وبعبارة اكثر مباشرة (.. لا أمان لقناتنا ولاضمان بالتالى لموقعنا الجغرافى الا بذهاب العدو (ص ٨١٠) .

● **القناة وبدائلها :**

وبعد ذلك وإلى نهاية الفصل دراسة موضوعية للقناة ، وتحليلا دقيقا لبدائلها المطروحة ويطلق عليها التحديات الثلاثة (ص ٨٢٨) وتتمثل فى (متغيرات البترول ، خطر الأنابيب ، الناقلات العملاقة ص ٨٣٣) منتهيا إلى (.. والخلاصة النهائية . أن كل الاخطار التى يمكن أن يتعرض لها موقع مصر عارضة ومفتعلة ـ وليست نابعة من طبيعته ، ص ٨٧٥) .

وفى الفصل الثانى من هذا الباب (هبة النيل) .. يتناول

الشق الثانى من معادلة الوجود المصرى .. أى الموضع ، ويستهله بمقولته (.. مصر هى النيل) ويعدد مايسميه « بالمزايا العشر » (ص ٨٧٨) للنهر ، بمعنى المقومات الطبيعية التى تجمعت له من منابعه لتؤدى به فى النهاية إلى مصبه فى مصر ، ومن أهمها بطبيعة الحال (ثنائية المنابع ، الماء والطمى) ويلخص ذلك كله فى (.. كما تتركز كل قوة مصر فى وادى النيل .. تتركز كل قوة حوض النيل فى مصر ، ص ٨٩١) .

وتحت عنوان « بيئة الرى المثالية » (٨٩٢) .. يقرر (.. وهاهنا وعلى وجه التحديد .. نصل الى جوهر الوجود المصرى وصميم كيان مصر وأساسها الطبيعى ، فمصر ليست فقط بيئة فيضية متداخلة بنموذجية وإنما هى النموذج المثالى لتلك البيئة الجغرافية ، وهنا يجرى مجموعة من الحسابات الطريفة يجسد بها النهر ، فهو يعادل من حيث المكافىء المطرى ٩٥ بوصة ، وتبلغ جملة مسطحه المائى ربع مليون فدان ، يضاف إليها نصف مليون آخر لشبكة الترع بمستوياتها والمصارف (جملة أطوالها ١٢٥ ألف كم ص ٨٩٥) ، بما يعادل ثمن جملة الأراضى الزراعية (٦ ملايين فدان) فاذا ما أضيف إليها بحيرتا ناصر والريان .. لبلغت مساحة المسطحات المائية المتصلة به أكثر من ٢ مليون فدان ، أى أن أكثر من ربع مساحة الوادى هى مسطحات مائية ، ومن ثم يضيف لمسة عميقة إلى موضع مصر (.. إن الماء والطين يتلازمان ويتقاسمان أرض الوادى

وثيقا فى الداخل .. مثلما يتلازم الطين والرمل من الخارج ص ٨٩٥) ثم يتبعها بأخرى (.. بيئة مصر مطبوعة Superimposed على اللاندسكيب الطبيعى ، لايكاد شبر منها يخلو من بصمات أصابع الانسان أو لايتشبع بعرقه ، ص ٨٩٧) .

غير أن لموضعها مشكلاته أيضا ، هذه التى يحددها ترتيبا .. فى أن مصدر وجوده يأتيه من خارجه ، كما أن مائية هذا المصدر ترتبط بالمناخ البعيد المتذبذب .. الذى ينعكس فى دورات فيضانه على مر عصورها (.. تراجيديا الفيضان ص ٩٠٣ ..) هذه التى يقننها فيما يسميه « النبض الهامشى » (ص ٩٠٩) بمثابة قانون ايكولوجى marginal vibrance لأن وقعه أوضح مايكون فى هوامش المعمور منها فى قلبه (.. بما يدل على أن النهر ضابط ايقاع جوهرى للعمران فى مصر الفيضية ، ص ٩٠٩) ..

ويتابع فى رحلة تاريخية طويلة « عملية استزراع مصر » واتجاهاتها (ص ص ٩١٠ ـ ٩١٩) يختمها بأن نهاية قانون النبض الهامشى قد ارتبطت بثورة الرى الدائم فى مصر .. وأن « السد العالى » قد وضع نقطة ختامه بالفعل .

ولأن السؤال الأساسى فى هذا الباب .. هو عن الدعائم الطبيعية للبناء الحضارى فى مصر ، فإنه ينتقل إلى تحليل متانة دعامتها الطبيعية الوحيدة .. كما تتمثل فى مياه النهر ، وذلك تحت عنوان « الماء والسياسة » (ص ٩٢٤) حيث

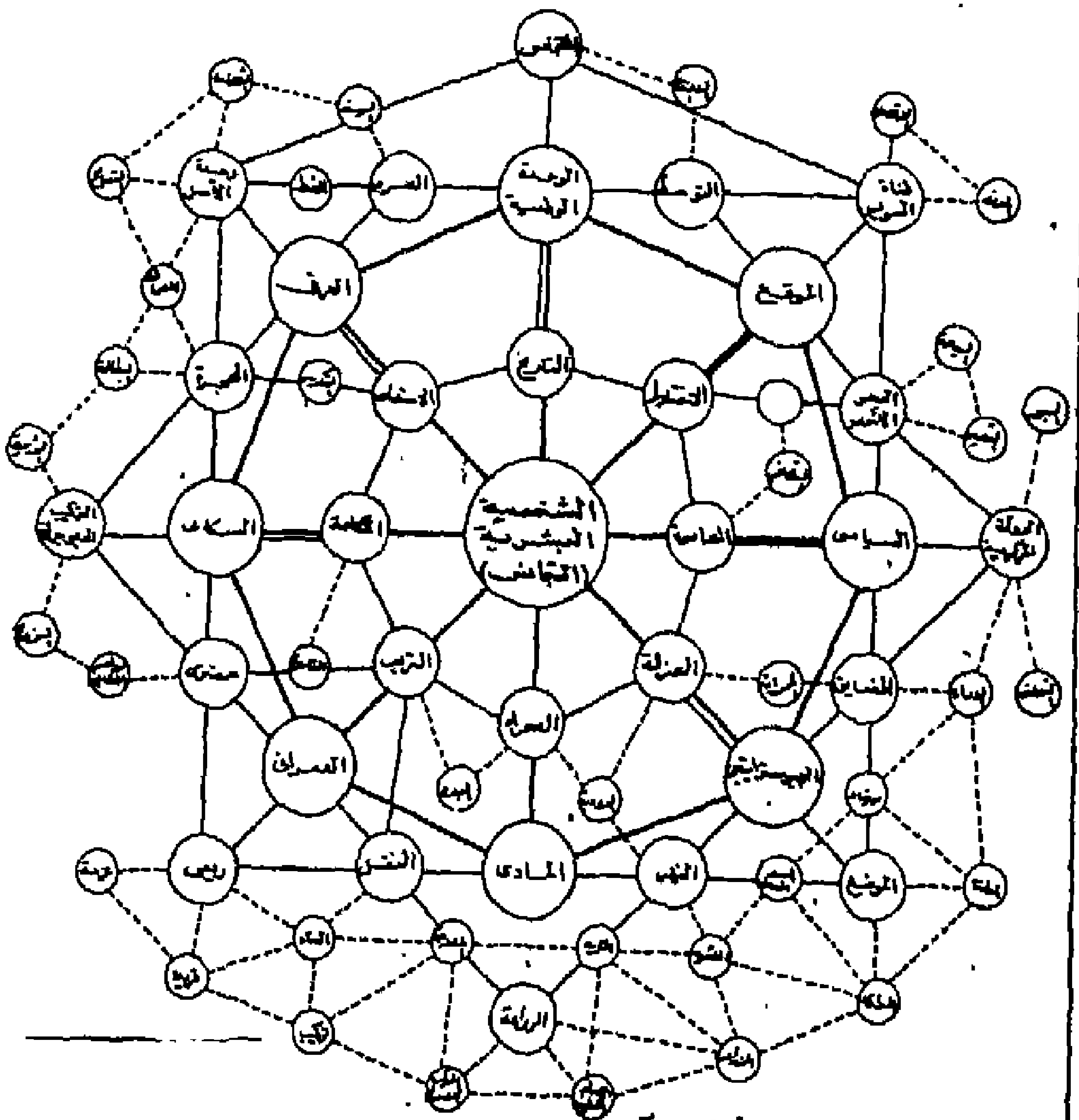
يناقش الماء « كسلاح سياسى » محددا لب القضية فى هذه العبارة (.. كقاعدة عامة يرى البعض أن دول المصب .. مثل مصر .. هى بالضرورة فى الموقف الأضعف جغرافيا .. فى حين أن دول المنبع فى الموقف الأقوى ص ٩٢٥) ويتابع هذه القضية تاريخيا بصفة عامة .. وفى مرحلة الاستعمار بصفة خاصة ، وبالأخص (السياسة البريطانية المخططة العامدة للاكثار من السدود والخزانات والمشاريع المائية والزراعية فى السودان ص ٩٢٨) وخاصة خزان سنار وجبل أولياء (.. بما يمكن من التحكم فى ايراد مياه النهر ، ص ٩٢٩) عدا مايثار أيضا بشأن منابع النهر فى اثيوبيا ، ويتصدى للقضية مستندا الى الحقوق القانونية التى تكفلها اتفاقيات توزيع مياه النيل بين دول الحوض من ناحية ، وإلى ضمانات الطبيعة (ص ٩٣١) من ناحية ثانية ، هذه التى تتمثل فى ثنائية المنابع أولا ، وفى استحالة كبح المياه الحبشية ثانيا (٩٣٢) وفى أن الطبيعة قد وزعت هباتها (المطر + النهر) بعدالة بين دول الحوض ثالثا ، بحيث يظهر دور النهر محدودا للغاية بالنسبة لدول المنابع الوفيرة المطر بالفعل ، بما يحقق مايسميه « الكفاية الطبيعية » للجميع (ص ٩٣٦) ومن ثم يحدد ستراتيجية مصر المائية فى (مبدأ حسن الجوار + وحدة المصلحة بين دول الحوض + السد العالى) .

وبتوضيح مكانة هذه الدعامة الطبيعية الثانية (الموضع) بعد أن أوضح مكانة الأولى (الموقع) ينهى هذا الفصل .

وبعد ذلك .. لايعدو الفصل الثالث من هذا الباب (ضبط النيل) أن يكون فصلا مكملا لما سبقه ، يحلل فيه أسس البناء الحضارى أو الصرح .. الذى شيدته مصر فوق دعامتين راسختين ، وتحت عنوان « تطور الرى المصرى » (ص ٩٤٤) يتابع مراحل الفن الزراعى . فى رحلة تاريخية كدأبه ، تبدأ من فجر التاريخ فى مصر ، حيث يحددها فى مراحل أربع (ص ص ٩٤٥ ـ ٩٦٧) يضيف خلالها العديد من اللمسات الى قسمات شخصية مصر (الرى الصيفى ، مرحلة الترع بلا قناطر ، مرحلة الخزانات والقناطر ، خزان أسوان ..) منتهيا إلى السد العالى (٩٦٨) الذى يخضعه لدراسة مستفيضة كموضوع شبه مستقل ، يبدأ معه منذ ولد كفكرة ، منتقلا الى تحليل موضعه (٩٦٩) ثم مائيته (٩٧١) ثم هندسته (٩٧٣) ثم نتائجه (.. السد واللاندسكيب ص ٩٧٧) هذه التى يحددها فى ثلاثة (نظام النهر ، البحيرة الصناعية ، نمط العمران ، ص ٩٧٧) ويفصل فى نتائجه المادية والاقتصادية (ص ٩٩٨) مبتدئا بتقرير (.. النتائج الايجابية لا تقل بالطبع عن انقلاب كامل ..) مثبتا ذلك هيدرولوجيا وزراعيا وكهربائيا ، أما آثاره الجانبية (ص ١٠٠١) فيلخصها فى معادلة واحدة (.. أن السد قد استبعد بمجاعة الماء .. مجاعة الطمى ..) بكل مايترتب عن الأخيرة .. من مشكلات تدهور الخصوبة وتآكل السواحل والنحر ونقص المادة اللازمة لطوب البناء ـ وهجرة السردين (ص ١٠٠١) ومن ناحية غير مباشرة .. فالسد قد

جعل من مياه الترع الرائقة مرتعا للنباتات .. التى تفقده نحو ٤٠ ٪ من مياهه (١٠٠٢) كما إنه لايحمى مصر من خطر الفيضانات العالية (وان كان مفيض توشكى قد تكفل بهذه المشكلة) وكذلك فإن مايوفره من مياه .. يدفع إلي الافراط فى الرى (ص ١٠٠٣) كما أدى إلى تفاقم مشكلة الصرف .. بسبب كما سبق (الافراط فى الرى + اختفاء الفيضان ميكانيكيا + نوعية المياه كيفيا) ويقترح مواجهتها بتدعيم نظام الصرف ، وتقوية قناطر النهر وجسوره ، والانتهاء من مفيض توشكى ، والتخصيب الصناعى للتربة ، وحماية سواحل الدلتا من التآكل (ص ص ١٠٠٣ ـ ١٠٠٨) كما يقترح انشاء قناة جانبية لاستعادة الطمى (١٠١١) وفى المحصلة وتحت عنوان « السد فى الميزان » . يرى بأن (السد هو قمة الرى الدائم . وهو بهذا قمة مزاياه مثلما هو قمة عيوبه ، ولهذا فكما أن السد نفسه ليس الكلمة الأخيرة فى الرى المصرى ، فإن المستقبل وحده هو الذى سيقول الكلمة الأخيرة ، والحكم النهائى فى أمر السد ، ص ١٠١٨) .

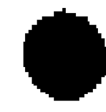
وبذا ينهى الفصل الأخير (الثامن والعشرين) وكذا الباب السابع .. والجزء الثانى من كتابه الكبير .



شكل (٥) منظومة عناصر شخصية مصر البشرية

ثالثا : شخصية مصر الاقتصادية

بهذا يعنون الجزء الثالث (٩٧٣ صفحة) من كتابه الكبير ، والتكامل مفتاحه .. من بعد (البساطة + التجانس) .. بالنسبة لشخصيتها الطبيعية والبشرية .. على الترتيب ، يضعه في باب واحد (الثامن ، ص ص ١١ ـ ٩٧٣) ، ويصنفه إلى ثمانية فصول (من ٢٩ إلى ٣٦) ، يخصص الأول منها لتحديد خصائص خريطة الاقتصاد المصرى .. كما أسفرت عنها تطوراتها وتغيراتها .. منذ عهد محمد على .. ومشروعه الاقتصادى الكبير ، ويخصص للزراعة المصرية ثلاثة فصول . (ص ص ١٧٦ .. ٥٣٨) .. عدا ما سبق منها فى الجزء الثانى .. تحت عنوان التجانس المادى (فصل ١٦ ، ص ص ٥٩ ـ ١٦٦) ، رصيدا يعود دائما إليه ، ويخصص للصناعة فى مصر .. أيضا ثلاثة فصول .. تتيح دراستها بقدر مناسب من التفصيل ، من حيث التطور والتوزيع والتركيب الهيكلى والمشكلات ، ثم يخصص الفصل الأخير .. للثروة المعدنية وصناعة التعدين .



والتكاملية عنده فى المعنى الأخير .. لا تقتصر على تكامل عناصر البنية الاقتصادية فى المكان .. أى من حيث التوزيع ، بل هى تتواصل بالتطور عبر التاريخ ، وتتوثق وظيفيا بتبادل المزايا والاستثمار .. وإضافة القيمة للزراعة بالتسويق

والتصنيع ، كما تترابط عضويا مع غيرها من مقومات الشخصية المصرية .. تتبادل التأثر والتأثير .. داخل الإطار الحضارى العام ، هى إذن تكاملية متشعبة ممتدة .. جغرافيا وتاريخيا ووظيفيا وعضويا .. فذلك ما يعنيه .. ويسعى لاثباته فى هذا الجزء من مشروعه العام .

ولا تختلف معالجته لشخصية مصر الاقتصادية عن شخصيتها البشرية ، وتتفق نظرتهما إليهما من حيث استنادهما إلى قاعدة طبيعية .. شكلت خصائصهما الأساسية ، بما يعنى أساسا مشتركا لها جميعها ، كما لا تختلف أدواته التحليلية ـ كما تتمثل فى المتابعة والمقارنة التاريخية ، على طول منحنيات تكشف عن بداياتها وتحدد محصلاتها ، متضمنة ذبذباتها وتغيراتها ، وما تنطوى عليه من نقاط الضعف والقوة ، وهى أيضا لا تختلف من حيث نحت الصياغات الرامية إلى تلخيص نتائجها .. فى عبارات مشحونة بفكره ، بمثابة أوتاد يرتكز عليها ويعود إليها ، وهى أخيرا لا تختلف من حيث الرؤية للنظرية العامة .. الهادفة إلى التوصل لمحاور التوازن بين مكونات هذه الشخصية بما يسمح لطاقاتها أن تتفاعل وتتواصل وتتصاعد .. دون أن تختل علاقاتها أو يتهتك نسيجها .

وبقدر ما استوعبت مقولته الأساسية عن "التجانس" .. عناصر شخصية مصر البشرية .. وأبرزت مضمونها ، بقدر ما عبرت مقولته الأساسية فى هذا الجزء عن "التكامل" ..

واتسقت مع عناصر شخصيتها الاقتصادية ، والواقع أنه لم يستغنى عن التجانس اطلاقا .. بل جعل منه قاعدة للتكامل لا غنى عنها ، ومن هنا فإنه يستهل تحليل لشخصية مصر الاقتصادية بعنوان له دلالته (جـ ٣ ص ١٣) عن "الأساس الطبيعي للاقتصاد المصرى .. باعتباره لحن القرار فى عمله كله ، مرددا عبارة تكررت كثيرا عن أحادية بيئة مصر المعمورة .. مضيفا إليها (.. وقد انعكس هذا على الاقتصاد المصرى .. فكان هو الآخر أحاديا زراعيا) ، وبذا تتكامل أيضا نظريته العامة عن شخصية مصر .. من الجذور الطبيعية (النهر والبيئة الفيضية) .. إلى الجذع البشرى (الريف) .. إلى الفروع والثمار ، وبعد أن يطمئن إلى سلامة البناء .. ينطلق إلى التفصيلات .. متابعا التغيرات الكمية والنوعية ، ومحددا المحصلات الراهنة .. ومشيرا الى مقومات تطويرها فى الختام .

أبعاد التطور الاقتصادى :

كما سبق .. فإنه يخصص الفصل الأول من هذا الجزء (فصل ٢٩ ص ص١٧ ـ ١٧٥) كما يعنونه بـ "خريطة الاقتصاد المصرى" ، يبتدئها بقراءة "تفوز الاقتصاد الحديث" .. يمهد لها بتحديد خصائصها التى ارتبطت به منذ وجدت .. وحتى بدأت .. تطورها الحديث (.. جوهر الزراعة المصرية تاريخيا .. يتمثل فى كونها معاشية Subsisfemce

ecomomy أى غذائية كسائية ، ثم هى مغلقة اكتفائية ـ تهدف لتحقيق الكفاية الذاتية .. وليس التبادلات التجارية ، ص ١٣) ، وكانت التجارة محدودة .. قد أضعف منها .. ضرائب الدولة المركزية .. التى كانت تنزح النسبة الكبرى من فوائضها .. إلى مخازنها لتحقيق أهدافها ، ورغم ما أفضى إليه ذلك من اعاقة النشاط التجارى والصناعى ، الا انه قد حقق نوعا من التوازن .. كفل لهذا المجتمع الوجود والاستمرارية التاريخية (.. ان الاقتصاد الزراعى يبقى بلاشك .. الأساس المادى الصلب لقوة مصر التاريخية .. ورخائها وتفوقها ، وكونه اكتفائيا هو نقطة قوة .. ولا يجوز أن يعد نقطة ضعف .. كما يظن الذين ينظرون غير منصفين بمنظور اليوم ، ص ١٤) ، وسيعود إلى هذه النقطة عندما يناقش قضية الكفاية الذاتية ـ التى تعد الآن من أهم مشكلات مصر ، غير أن استمرارها كنقطة قوة . يجب أن يقترن بتنميتها وتطويرها .. وتنويعها ومضاعفة فوائضها ، بحيث تؤدى إلى دوائرها التكاملية ، هذه التى تتمثل فى دائرة الصناعة الوطنية .. ودائرة التجارية الخارجية ، دون أن يكون ذلك على حساب الكفاية ، أى دون أن يختل التوازن بين الدوائر الاقتصادية الثلاث للزراعة (الكفاية + التجارة + الصناعة) ، ويعود إلى معادلته الأساسية (الموضع × الموقع) فى شخصية مصر ، حيث يرى أن مصر (لم ترتفع تماما إلى مستواها .. من حيث استغلال موارد الموقع .. بالتجارة أساسا .. إلى القدر الذى وصلته بالزراعة فى

استثمار موارد الموضع ، ولو قد فعلت لتغير اقتصادها .. وبالتالى كيانها جذريا ، ولعاشت تاريخها منذ وقت مبكر على ساقين من الزراعة والتجارة .. بدل ساق الزراعة الأحادية ، بل ولا تفتح بذلك وبعد ذلك أيضا .. مجال الصناعة .. كما حدث فى أوربا ، ولتغير اختصار كل تاريخها ومصيرها على الأرجح ، ص ١٦) .

بهذا يضع يده على جذور المشكلة الاقتصادية المصرية المعاصرة ، واذا كانت مصر قد دخلت منذ القرن الماضى .. مرحلة من التطور الجذرى .. فانها جاءت متأخرة .. فضلا عن أنها اضطرت (لاقتراض اقتصادها الحديث من أوربا ، ص ١٦) .. مما سيؤدى رغم المحصلة الايجابية .. إلى مشكلات متفاقمة كما سيأتى .

والآن .. وقد بدأ الاقتصاد الحديث منذ أوائل القرن الماضى .. مع انقلاب الرى والزراعة .. فهل يمكن تقسيمه منذ بدأ إلى مراحل متمايزة ؟ ، ويجيب .. (.. يمكن أن نقسمه إلى ثلاث مراحل . مرحلة الاقتصاد الانقلابى .. نسبة إلى انقلاب محمد على ، فالاقتصاد الاستعمارى .. مع الاستعمار البريطانى ، والاقتصاد الثورى .. مع ثورة يوليو ، ص ١٧) ، وقد أدت جميعها إلى تغير الاقتصاد المصرى تغيرا جذريا .. يصفه بأنه (.. يكاد يصل الى حد الانقلاب الكامل ، ص ١٧) ، ويفيض بعد ذلك فى تحليل خصائص كل مرحلة منها ، ويحدد فى سياقه .. ما يعتبره نقطة التحول

الكبرى فى تاريخ مصر الاقتصادى .. تلك هى (الحرب العالمية الثانية وما تلاها ، ص ١٨) ، هى الحد الفاصل بين ما يسميه الاقتصاد القديم .. بما فيه عصر محمد على وما أعقبه من تغيرات شملت الزراعة والتجارة ، وحتى نقطة التحول ، التى يبدأ بها الاقتصاد الجديد .. ومحوره الصناعة ، ويكثف تحليلاته ومتابعاته (.. الاقتصاد القديم أولا .. كان اقتصاد زراعة أساسا ، وزراعة محصول واحد ، بهدف الكفاية ثم التصدير منذ عصر محمد على تحديدا وصناعة محدودة ، وصناعة بلا معادن تقريبا ، وارتد الاقتصاد زراعيا فحسب . ولكنه اكتفائى تماما .. معظم المرحلة الاستعمارية ، أما الاقتصاد الجديد .. فيكاد يكون الآن اقتصاد صناعة أولا .. وزراعة فى المحل الثانى ، وزراعته زراعة تصنيع بدل التصدير ، الا انها غدت بعيدة جدا عن الكفاية ، أما صناعته فصناعة إحلال محل الاستيراد ، ولأول مرة صناعة وتعدينا معا .. لا صناعة بلا معادن ، ص ١٩) ، وتنطوى هذه الفقرة المكثفة .. على جملة المنحنيات التى يتابع عليها تطور الاقتصاد المصرى ، ويستند إليها فى معظم تحليلاته التالية .. فى فصول الباب الثامن من كتابه ، ويعود إلى هذا الاقتصاد الجديد فى سياق آخر ، يكشف فيه عن مقوماته وعيوبه .

.. ويتلخص جوهر الاقتصاد الجديد فى أنه جمع لأول مرة بين ثلاثة أبعاد أساسية : الزراعة الكثيفة ذات المحاصيل الجديدة التجارية ، والصناعة الحديثة على أسس عصرية

عريضة ، ثم أخيرا التجارة الخارجية التى تربط بين الزراعة والصناعة ، وتربطهما بالسوق العالمية الجديدة ، وبذلك كله لم يعد الاقتصاد المصرى أحاديا بصورة معوجة تماما مثلما كان من قبل ، كما كان فى ذلك بداية ارتباط الاقتصاد المصرى كله بالاقتصاد الغربى أو الأوربى العالمى (حـ ٣ ص ٢١) .

فإذا أضفنا إلى هذه الثلاثية الأساسية .. ثلاثية البترول وثروته التى احتلت صدارة الاقتصاد كله ، ثم تحويلات المصريين الرافدة من خارج الحدود ، فضلا عن موارد السياحة ، لصح ان نقول ان شجرة الاقتصاد المصرى المعاصر .. ان لم تكن بمثابة شجرتين توأم ، فإنها أجدر أن تشبه بالنخلة : الزراعة جذورها ، والصناعة ساقها ، والتجارة فروعها ، بينما أن البترول والتحويلات والسياحة عراجينها (جـ ٣ ، ص ١١١) .

وبوجه عام فإن هذا الاقتصاد الجديد بجوانبه .. كان على ضخامته أشبه بقطاع عصرى فرض فرضا على قاعدة اقتصادية تقليدية عتيقة ، بلا علاقات عضوية وثيقة تماما ، ولذلك كان اقتصادا ثنائيا Duel ecomomy بمعنى تعايش صرح عصرى مع قاعدة عتيقة .. فى حالة تجاور أكثر منها حالة تفاعل (جـ ٣ ص ٢١) .

هذا البناء الضخم يعانى من الأساس إلى الصرح العديد من العيوب والثقوب ، والشروخ والشقوق بعضها موضعى ثانوى وبعضها عميم خطر ، ولكنها فى مجموعها تتركه

مخلخلا ، وبعض هذا الخلل كامن فى تركيب وهيكل الاقتصاد نفسه ، وبعضها تراكمى فى تطوره ونموه غير المتكافىء أو المتوازن ، غير انه على الجملة يترك الاقتصاد كله زاخرا بالمتناقضات والتشوهات والتقلصات الغريبة ، ص ١١١) ، هذه التى تفاقمت مع التحول الحاد المفاجىء . .. المتمثل فى الانفتاح فى سياسة الدولة الاقتصادية العامة ، ويؤكد الصورة (.. وجماع ذلك فى المحصلة العامة ، هو أن مصر تحولت ببساطة من الاقطاع القديم إلى الرأسمالية الفردية ، عبر مرحلة انتقالية من رأسمالية الدولة أو الاشتراكية الحكومية ،) ، ويتخذ من هذا الميراث المعقد المتناقض ـ مدخلا كما سيأتى ـ لتحديد مشاكلها الاقتصادية العديدة .

والواقع أنه يوجه عنايته فى الفصل الأول من جزئه الرابع (فصل ٢٩ ص ص ١٧ ـ ١٧٥) ، إلى تغيرات الاقتصاد المصرى .. بعد ثورة يوليو بصفة خاصة (مرحلة الاقتصاد الثورى ، ص ٤٤) ، فبعدما ينتهى مما قبلها .. يتوجه لها .. بفقرة مكثفة تكشف نظرته ومدخله .. ثم يتابعها تفصيلا .. (.. ففى الاقتصاد .. كما فى السياسية .. جاء يوليو بمعطيات جديدة ، أقلها ما تحقق .. وأكثرها ما تحقق عكسه ، بحيث انقلبت هى على نفسها ، وانتقلت من النقيض إلى النقيض تماما ، ص ٤٤) ، ويضيف (.. لكنها لا تخلو مما يجعلها موضوعيا .. شبه ثورة اقتصادية حقيقية بمعنى ما ، ص ٤٥) . ويقسمها إلى مرحلتين (الانطلاق والانزلاق .. بديلا عن الانغلاق والانفتاح ، ص ٤٦) . على طرف

النقيض ، تشغل كل منهما نصف المرحلة تقريبا ، ويحدد ايجابيات الأولى .. فى سعيها نحو الاستقلال الاقتصادى (ص ٤٧) ، ومحافظتها على الأمن الغذائى والصناعى (ص ٥٠) ، واعتصامها بالاستقلال المالى (ص ٥١) ، وهى بذاتها سلبيات المرحلة الثانية ، مدعما مقولتيه بالمؤشرات الاحصائية .. المستندة إلى أرقام الجداول ، كما يتخذ من الاصلاح الزراعى فى المرحلة الأولى (ص ٥٧) مقياسا يجرى عليه مقارناته ، ويربط ما بين دور البترول العربى وبين التحول للمرحلة الثانية (الانفتاح) .. أو الانحراف نحوها على حد تعبيره ...

(... من المحقق أن البترول العربى .. ممثلا فى تحويلات المصريين العاملين فى دولة ، فضلا عن تأثيراته وانعكساته وعدواه هو الذاتية ، خاصة بعد طفرة عائداته الخرافية منذ ١٩٧٣ ، كان أكبر عامل خارجى منفرد أثر فى الاقتصاد والمجتمع المصرى مباشرة وغير مباشرة ، مثلما كان أكبر عامل منفرد فى توجيه ... أو ان شئت فقل تحريف ـ سياسة مصر الخارجية تجاه العدو الاسرائيلى ، وبوضوح أكثر .. البترول العربى عامة هو أكبر سبب فى انحراف السياسة المصرية خارجيا نحو السلام ، وتحويلات البترول العربى خاصة هى أكبر سبب فى انحراف الاقتصاد داخليا نحو الانفتاح .

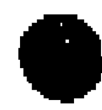
وعلى الجملة .. فإن البترول العربى بحد ذاته وبتحويلاته .. قلب كيان مصر رأسا على عقب وحتى النخاع

مرتين ، من الخارج ومن الداخل .. أفقيا ورأسيا ، خارجيا .. اذ قلب مكانة مصر فى العالم العربى من الصدارة والعروبة والصراع إلى الصلح والعزلة والعراء ، وداخليا : حيث قلب جزئيا نظام الطبقات وترتيبها الاجتماعى ، فجعل بعض عاليها وسطها ، وبعض وسطها سافلها ، وبعض سافلها وسطها أو عاليها ، ص ٦٥) .

ومع "**الاصلاح الزراعى**" كمؤشر ايجابى عن المرحلة الأولى ، **ودور البترول** كمؤشر سلبى عن المرحلة الثانية ، يجرى نوعا من المقابلة المقارنة بين التنمية الصناعية الانتاجية ، واستهلاكية الانفتاح الاقتصادى (.. ففى عصر أصبحت فيه القوة الصناعية هى نواة وعتاد وزناد القوة الاقتصادية الضاربة ، كان من الضرورى تحقيق الأمن الصناعى كجزء من الأمن الاقتصادى العام ، ولعل هذا أن يفسر الاصرار على إقامة نواة للصناعة الثقيلة بحسبانها أساس الصرح الصناعى برمته ، جنبا الى جنب مع القطاع العام كصاحب الدور القيادى فى التنمية جميعا .

ورغم أن الاستقلال الصناعى الكامل أو شبه الكامل لم يكن واردا ، فإن القطاع العام الجديد مع بداية التخطيط ـ على علاتهما ـ أثبت قيمة كبرى حين ساعد بصورة عملية على صمود مصر سياسيا واقتصاديا بل وعسكريا.. فى وجه الضغوط الخارجية العنيفة .. خاصة بعد هزيمة يونيو .. حـ ٣ ص ٥١) .

(.. ورغم أن سياسة الانفتاح انما فرضت لتنشيط ودفع الاقتصاد الوطنى فى مجمله ، فإن سياسة الباب المفتوح والاغراق بالاستيراد ، وتشجيع القطاع الخاص والرأسمالية الوطنية ورأسمالية الشركات متعددة الجنسيات .. أصابت الصناعة الوطنية والقطاع العام .. بنكسة خطيرة على أقل تقدير ، أبسط مظاهرها مخزون الراكد الصناعى الذى قدر بنحو ٣ ـ ٤ آلاف مليون جنيه ، كما انعكس فى تراجع كثير من خطوط الصناعة المحلية فى التصدير بما فى ذلك حتى غزل القطن ومنسوجاته ، وحتى القليل من الصناعات التى دخلها الانفتاح اتجه الى الصناعات الكمالية ولا نقول الطفيلية كالغازيات والمرطبات ، بالمقارنة إلى الصناعات الهامة كالنسيج والسكر والحديد ، بينما هرول أكثره إلى النشاطات غير الصناعية أصلا ، كالأعمال التجارية والخدمات العامة .. سريعة الربح والعائد ، جـ٣ ص ص ٥٥ ـ ٥٦) .



وتحت عنوان "أزمة مصر الاقتصادية" .. التى يصفها بأنها تبدو (.. مثل كومة معقدة من الخيوط المتشابكة .. ، ص ١١٩) ، ثم يحصرها فى خمس مشاكل محددة :

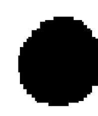
- الانفجار الإستهلاكى (ص ١١٩)
- التضخم : الانتاج والدخل القومى والفردى (١٢٥)
- الديون الخارجية (ص ١٣٠)
- المرافق والخدمات (ص ١٣٥)
- الغلاء (ص ١٣٦) .

وبعدما يتابع كل مشكلة منها تاريخيا وتحليليا ورقميا .. يضع عنوانه الختامى فى هذا الفصل (مفاتيح الأزمة ص ١٤٦) ، مقررا .. (.. ورغم كل ما سبق ذكره .. فان أزمة مصر الاقتصادية قابلة للحل .. وذلك فى اطار سياسة قاطعة صارمة .. تهدف الى تعظيم الايجابيات وتحجيم السلبيات فى الهيكل الاقتصادى الراهن ، تعظيم الادخار والاستثمار والانتاج والدخل القومى والفردى إلى الحد الأقصى ، وتحجيم الانفاق والاستهلاك والاستيراد والاستدانة ، ويمكن أن نضيف الأسعار بل والسكان الى الحد الأدنى ، ص ١٤٩) ، ويؤكد (.. تستطيع مصر أن تضاعف دخلها القومى مرات .. وذلك بالتصنيع الكامل لكل زراعتها وخاماتها وانتاجها .. بالاضافة إلى الخدمات العليا ..) ، وهكذا يجعل من التصنيع مفتاحه الرئيسى لحل الأزمة ، مدعما ذلك بمقارنة دالة بين الوضع فى مصر .. وبينه فى كل من الصين واليابان (ص ص ١٦٠ ـ ١٦٤) ، ويضيف إلى التصنيع . المجال السياحى (١٦٨) ، وتطوير التجارة .. وخاصة فى مجال النقل البحرى (١٧٤) ، وغير ذلك مما يضيفه تباعا تفصيليا فيما يعقب هذا الفصل من فصول .

الزراعة المصرية :

يفرد الفصول الثلاثة التالية (٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ص ص ١٧٦ ـ ٥٣٧) للزراعة المصرية وحدها ، يغطى بها تغيرات

مركبها المحصولى أولا ، ثم تكثيفها مكانيا ونمو متوسطاتها الانتاجية (التوسع الرأسى) ثانيا ، ثم تغيرات مساحتها (التوسع الأفقى) .. ثالثا ، مستندا فى تحليلاته الى ما سبق تحديده .. من منحنيات التطور الاقتصادى العام .. فى مقوماته ودوافعه ، سواء منحنى التطور من الاقتصاد المعيشى .. إلى اقتصاد الفائض والتراكم ، أو منحنى تغير المرتبة بين الزراعة والصناعة .. فى الاطار الهيكلى .



ويأتى الفصل ٣٠ (ص ص ١٧٦ ـ ٣٥٠) .. تحت عنوان "الزراعة المصرية .. من الخريطة الى التخطيط) ، ويعنى بذلك تطور الزراعة المصرية من التلقائية الحرة التى عرفتها مصر طوال تاريخها ، لا تضبطها سوى ظروف بيئتها وحدها .. وبها تشكلت عضويا وايكولوجيا معا ، إلى نوع من التخطيط الموجه فى اطار سياسة عامة توضع لها ، تحدد مساحات محاصيلها ونوعيتها .. بدرجات متفاوتة ، كما تضع لها السياسة التسويقية لبعضها .. فى أعلى درجات تداخلها .. فى إطار تنظيمها ، ويبدأ تاريخيا مع ثورة يولية .. التى جعلت من التخطيط القومى بعدا ثالثا فى سياساتها للتنمية (ص ٤٦) ، والواقع أن الخط الفكرى للفصل يتمحور حول مقومات الاستمرارية الايكولوجية فى الزراعة المصرية من ناحية ، ودوافع تنظيمها فى اطار خطة عامة . من ناحية ثانية ، ومن ثم دار موضوعه حول المركب المحصولى .. باعتباره مرآة عاكسة .. لمحصلة الاستمرارية والتنظيم معا ،

ومن ثم الكشف عما تنطوى عليه هذه المحصلة .. من مشاكل مزمنة بسبب الاستمرارية ، أو طارئة متفاقمة .. بحكم التنظيم .. سواء كفكرة أو أجهزة .

وبعد متابعة قصيرة .. لتغير المركب المحصولى فى مصر التاريخية إلى عصر محمد على وما بعده ، يفيض فى متابعة تغيراته فى العقود المنصرمة الأربعة ، ويتمثل أبرزها فى اعادة ترتيب مكوناته (.. تراجع القمح ، وتقدم القطن والذرة والقصب والأرز والبستانيات ، واستمرار البرسيم كقاعدة ، يستند اليها هرم الزراعة المصرية بأسره ، ص ١٨٣) ، ويضيف .. (.. كقاعدة عامة يمتاز المركب المحصولى المصرى بقدر معتدل من المرونة ، ومنذ اتخذت هيكلها الأساسى .. فان عناصرها تدور حول متوسطها تقريبا ، لكنه يتعرض منذ السبعينات .. لما يشبه الشذوذ الانحرافى عن هذه القاعدة ، ص ٢٠٧) ، ويعود ويقيم وضعها فى نظرة شاملة (.. إن أبرز ما يميز المركب الزراعى قيم متغيرة .. إن لم نقل متذبذبة ، تضع الزراعة المصرية جميعا فى حالة سيولة وانصهار بالغة ، a skate of flux ، تجعلها فى مفترق طرق حقيقى ، وربما تاريخى ، بحيث لا يمكن التنبؤ بهيكلها فى المستقبل المنظور) ، ويخصص نظرته بالنسبة للسبعينات .. (.. ثمة مع ذلك .. خاصة فى العقد الأخير ، تطورات واضحة وقيم متغيرة فى مساحات المحاصيل المختلفة ، وفى أهمياتها النسبية ، تشى فى مجموعها بانقلاب صامت فى الزراعة المصرية ، والواقع ان زراعتنا تمر حاليا

بمرحلة مخاض وتطور وتغير حرجة بقدر ما هى حاسمة ، وربما تتسارع وتتصاعد أكثر فى المستقبل القريب ، ولا ينبغى فى كل الأحوال لقربها منها أو لقربنا منها ان تغيب عن عين الباحث الملاحظ ، ويكمن السد العالى بالقوة أو بالفعل خلف هذه المرحلة ، ولكن جزئيا فقط ، فرغم أنه أحدث ثورة كاملة فى الرى ، الا ان ثورة مماثلة وعلى نفس المستوى فى الزراعة نفسها لم تواكبه ، ص ٢٠٧) ، بل انها تعرضت لثورة مضادة .. اصابتها بما يسميه "الشذوذ الانحرافى" عن دورها الأساسى ، ويعود بهذا الشذوذ إلى سياسة الدولة الزراعية .. من اخضاع محاصيل بعينها للتسعيرة الحكومية ، وفرض نظام التسويق بالتوريد ، مما أدى الى تهرب الفلاح من زراعتها (.. انها ليست محاصيله .. بل محاصيل الحكومة ، ص ٢٠٩) ، ومن ناحية ثانية .. فقد حدث تحول (من زراعة الألياف إلى زراعة الأعلاف) استجابة لقوى الطلب الاستهلاكى المتنامية على اللحوم .. فى عصر الانفتاح ، مقترنة لذات الأسباب (.. بموجة غامرة من التحول إلى المحاصيل البستانية .. لتحقق ربما أكبر ربحية متاحة فى مجال الزراعة ، ص ٢١١) ، يدل على هذا التحول .. (انها تحقق نحو ١٠ أمثال القطن أحيانا ، ص ٢١١) ، ويضع على الفور الخطوط تحت المشكلة الام فى الزراعة المصرية .. وتتمثل فى (.. اشتداد قصورها عن حد الكفاية الذاتية ، وخاصة الكفاية الغذائية ، وبرزت بحدة مشكلة الفجوة الغذائية ، وتحولت مصر لأول مرة فى تاريخها الحديث ..

وربما تاريخها كله .. إلى دولة مستوردة للغذاء والحبوب ، بل لقد وصل الاعتماد على الخارج الى نصف حاجاتنا الغذائية ، والى نحو ثلاثة أرباع استهلاكنا بالذات ، لقد انتفى الأمن الغذائى مثلما انتهى الاستقلال الاقتصادى ..) ، وسيعود إلى هذه المشكلة تكرارا وبالتفصيل .

الموارد الرعوية والأسماك :

وتقتضيه مشكلة الغذاء - أن يتابعها بالنسبة للموارد الرعوية والأسماك ، فمصر فقيرة فى مواردها الحيوانية .. (.. مصر بالجغرافية ليست دولة رعي ومراعى ، ص ٢٥٧) ، ومن الناحية الاقتصادية .. فقد كانت النظرة لانتاجها الحيوانى .. على انه مجرد مكمل ثانوى .. أو تذييل للزراعة والانتاج الزراعى ، غير أنها تغيرت فى عقود السنين الأخيرة .. (.. لقد تضاعفت كثافة الحيوان بالنسبة الى المساحة الزراعية .. خلال ربع القرن الأخير تقريبا ، من ٤١ رأسا لكل ١٠٠ فدان سنة ١٩٤٥ ، إلى ٧١ رأسا فى ١٩٨١ ..) ويعقب (.. غير ان هذه الزيادة لا تعكس نمو الثروة الحيوانية .. بقدر ما تعكس جمود الرقعة الزراعية ، ص ٢٥٧) ، والأهم أن الفارق بين الانتاج والاستهلاك .. يعكس استمرار انخفاض الكفاية الذاتية (.. والمشكلة الغريبة والمزعجة حقا .. أن من الأوفر اقتصاديا ان نستورد ما نحتاجه من الانتاج الحيوانى .. من أن ننتجه ،

ص ٢٥٩) ، ويقدم الحل فى سياق آخر (.. والمفتاح الصحيح .. ان مصر انما جعلت لتكون مزرعة دواجن عظمى Poultry Farm ، أكثر منها مزرعة حيوان dairy Faym ، ص ٢٣٥) .

وبالنسبة للموارد السمكية (.. فرغم تضاعف انتاج مصر خلال العقدين الأخيرين .. الا انه مايزال دون امكاناتها واحتياجاتها ، ص ٢٦١) ، وبعدما يتابع احصائيا تطور انتاجها فى السنين الأخيرة ..

يقرر .. (.. ومن الواضح فى النهاية أن مصر رغم كل سواحلها وبحارها ونهرها وبحيراتها ، غير "سماكة" ، أى فقيرة جدا فى الثرة السمكية بالمستوى العالمى ، فانتاج الفدان المائى عندنا ٢٠٠ كجم سنويا مقابل ٨ أطنان فى بعض الدول فى الخارج .

ومن هنا فإن الأمل فى توفير الغذاء البروتينى الرخيص الغزير معقود على الأسماك فى الدرجة الأولى ، غير ان هذا لا يتأتى الا بتثوير الانتاجية وظروف الاستغلال وفتح أو غزو مصايد جديدة ، والاتجاه الآن هو الى التوسع فى مزارع الأسماك .. خاصة حقول الأرز كالصين ، ومن الممكن ان يصل انتاجها الى مثل انتاجنا الحالى على الأقل ، ويرى البعض اننا نستطيع وينبغى أن نستزرع ١٥٠ ألف فدان بالمزارع السمكية ، مع استخدامها فى الوقت نفسه كمزارع للأرز ، تعادل مليون فدان مساحة محصولية ، وتنتج ٢٥٠

ألف طن سمك سنويا ، قابلة للزيادة ، وفى مشروع اخر ان تستزرع السمك فى مليون فدان أرز دفعة واحدة ، بمحصول قدره ١٠٠ كجم للفدان سنويا ، وهناك أخيرا فكرة لانشاء أحواض سمكية مغلقة على طول امتداد ضفاف النيل لتربية مكثفة واقتصادية ورخيصة ، وخاصة على ضفاف بحيرة ناصر ، حيث يمكن للأخيرة وحدها أن تغل ٨٠ ـ ١٠٠ ألف طن سنويا ، ص ٢٦٢) .

ويعود إلى القضية المؤرقة (قضية الكفاية الذاتية ، ويشبعها تحليلا وتفصيلا الى نهاية الفصل (ص ص ٢٦٣ ـ ٣٥٠) .

من الكفاية إلى العجز :

انه لا يكف عن وضع الخطوط أسفل "قضية الكفاية الذاتية" .. خاصة الغذائية ، محددا خطورتها فى أن مصر تستورد نصف احتياجاتها الغذائية إجمالا ، وثلاثة أرباع احتياجاتها من القمح تقريبا ، بينما كانت تقليديا وحتى الحرب العالمية الثانية تتمتع عادة وعامة بالكفاية الذاتية فى معظم محاصيلها ، مع فائض قل أو كثر للتصدير ، وهى اذ فقدت كلية هذه الميزة .. فقد ضاعت أيضا فرصتها بالعودة إليها ، اذ تحولت الى دولة مستوردة للغذاء نباتيا وحيوانيا بصورة مخيفة (ص ٢٦٣) ، إنه الشذوذ الانحرافى الذى سبق وحدده ؛ ويؤكد مرة اخرى متسائلا (.. والسؤال الآن ؛ من أين وكيف نشأت هذه الفجوة الغذائية ؟ ص ٢٦٥) .

تتعدد بالطبع الأسباب .. يتصدرها اختلال العلاقة بين الانتاج والاستهلاك (.. أو بين الزراعة والسكان ص ٢٦٤) ، فقد تعرض الانتاج الزراعى للجمود .. بحيث لم يعد معدل نموه السنوى يجاوز ٣٪ فى الفترة الأخيرة ، بينما يتزايد استهلاك الغذاء كل عام بمعدل ١٢,٥٪ على الأقل (ص ٢٦٥) ، وبعد الجمود تأتى نقطة الضعف الثانية فى الزراعة متمثلة فى اختلال المركب المحصولى ، نتيجة اختلال النظام السعرى برمته ، مما دفع ويدفع بالمركب الى التحيز الطاغى الى محاصيل معينة من جهة ، ويخلق اختناقات حادة فى محاصيل بعينها من جهة أخرى (ص ٢٦٥) ، ويعود الاختلال الى تزايد التوجه نحو محاصيل العلف المرتبطة بانتاج اللحوم والألبان ، وكذلك إلى المحاصيل البستانية ، فى مقابل الهروب من المحاصيل المسعرة عشوائيا ، والغير عادلة ، والتى لا تؤدى ـ حتى القطن ـ الا الى هامش ربح ضئيل ، خاصة هذه التى تشتريها الحكومة من الفلاح بنصف سعرها فى السوق ، وبذا لم يعد المركب المحصولى يعبر تعبيرا حرا طبيعيا وصحيا وتلقائيا تماما عن القوى الجغرافية السوية ، بقدر ما يعبر عن قوى اقتصادية غير قويمة أو سوية (ص ص ٢٦٥ ـ ٢٦٨ جـ ٣) .

وبالنسبة للسكان .. تتعدد أيضا ظواهر الاختلال ، يتصدرها الانفجار السكانى ، وتطور أنماط الاستهلاك ، والهجرة من الريف ، والانفجار الاستهلاكى المرتبط بالبترول (ص ص ٢٦٨ ـ ٢٧٨ جـ ٣) ، وتعد القرية المصرية نموذجا

للمشكلة بأكملها .. وأيضا لظواهر الاختلال (... ولعل أسوأ ما يعبر عن موضوع أزمة القرية المصرية الراهنة .. هو تحولها من وحدة منتجة تقليديا .. إلى وحدة مستهلكة باطراد ، فبعد أن كانت القرية تغذى نفسها والمدينة ، الاستهلاك المحلى والصادر الى الخارج ، أصبحت تستورده بعض غذائها من المدينة ، والمدينة نستورده لها كما لنفسها من الخارج ، بما قد يتيح تقسيم تاريخنا الاقتصادى الحديث من حيث الكفاية الغذائية إلى ثلاثة مراحل عامة وعريضة ، مرحلة فائض غذائي وتصدير الى الخارج ، ثم مرحلة اكتفاء تقريبا مع تصدير .. ولكن لا إلى الخارج .. وانما من القرية إلى المدينة ، ثم أخيرا مرحلة العجز الغذائي والاستيراد من الخارج للمدينة أولا ـ ثم لكل من المدينة والقرية على حد سواء ، ص ٢٨٠) .

فما حجم هذه الفجوة الغذائية الآن ؟

إنه يقدر هذه الفجوة بشتى أساليب التقدير ، بالأثمان والأحجام والعلاقة بين الصادرات والواردات (ص ص ٢٧٠ ـ ٢٧٧) ، ثم يوجزها فى أبسط صورة ممكنة بما يسميه «المساحة المستوردة" .. حيث يقدرها بما يعادل المساحة المزروعة فعلا .. أى ان مصر تحتاج الى مساحة زراعية تعادل مساحتها الراهنة ، كى تسد فجوة عجز انتاجها الغذائى عن كفايته (ص ٢٧٧) .

ومن بعد .. فما هى الحلول المطروحة لحل المشكلة ؟ . وما هى احتمالاتها ؟

تأتى مناقشة هذه الحلول والاحتمالات تحت عنوان "أمل المستقبل" (ص ٢٨٦) ، ويستبعد منها "القمح" بداية (إذ لا أمل زراعيا . ولا جدوى اقتصاديا فى تحقيقه على أية حال .. ص ٢٨٦) ، بل ويضيف اليه بقية الحبوب (.. الكفاية فى الحبوب مستحيلة تقريبا .. ولعلها غير مطلوبة عمليا ، ص ٢٨٨) مفسرا ذلك بارتفاع تكلفة انتاجها - بالمقارنة مع غيرها ، ومن العبث اهدار أرض مصر الخصبية فى زراعتها ، والأولى زراعة غيرها العالية الثمن ، بما يمكن من شرائها واستيرادها .. مع تحقيق وفورات كافية ، ثم يرتب ما يراه ممكنا ومجديا ، ويتمثل فى التوسع الرأسى الذى يمكن أن يسد الفجوة الغذائية (الحبوب) بمقدار النصف (٢٨٨) .

ويضع الخطوط سميكة أسفل "ترشيد الفاقد" (٢٨٩) ، حيث تهدر مصر بسببه ما يعادل بضعة ملايين من الأفدنة المحصولية (٢٩٠) ، ويعدد بالوعات الفاقد واسبابه ، بداية من سوء التخزين .. إلى القوارض من الجرذان .. ولصوص البشر (٢٩٢) ، ويقيمه كميا بالنسبة لكل محصول على حدة ، متابعا عملية انتاجه من بذره إلى حصاده ، ومن الحقل إلى السوق أو الصومعة ، ومن بعد يقرر (.. وكصورة عامة جامعة .. ثمة تقدير حديث لفاقدنا الغذائى والزراعى .. يغطى الانتاج المحلي والمستورد على السواء ، فالأول .. يضيع منه ويتلف ١٠٪ على الأقل ، حسب هذا التقدير ، ويمكن تقدير فاقد الحبوب بقرابة المليون طن ، والقصب مثلها ، وجملة

المحاصيل الغذائية النباتية بحوالى ٣,٨ مليون طن ، أما الانتاج الحيوانى والسمكى .. فلا يقل فاقده عن نصف مليون طن ، وبذا تبلغ جملة فواقد مصر من الانتاج المحلى بقرابة ٤,٣ مليون طن سنويا ، بخلاف قيمة النواتج الجانبية والثانوية لتلك المحاصيل ، عدا الواردات الغذائية .. التى لا تفلت هى الأخرى من الفاقد والتبديد ، ص ٢٩٣) .

وتبعا لخطته .. يأتى ترشيد الفاقد .. قبل تخطيط الزراعة (.. ذلك الفاقد الذى يسخر من عملية الانتاج نفسها ، مثلما يسخر من عملية تخطيطه . قبلها أو بعدها ، حيث يبدو معها كمن ينفخ فى قربة متقوبة ، ص ٢٨٩) ، ومن ثم يأتى عنوانه «التخطيط الزراعى" .. (ص ٢٩٣) .. تاليا لتوصيته بترشيد الفاقد كما سبق .

التخطيط الزراعي

نظريا .. فإن قضية التخطيط للزراعة المصرية .. قضية معقدة مزمنة ، أشبه بمعادلة متعددة الأطراف ومتشابكة ، ولكنها باعتبارها قضية أمن قومى .. تستحق المحاولة ، فى اطار من الاستراتيجية العملية المباشرة (.. وتطبيقيا فان لب استراتيجية الزراعة تتلخص فى التعظيم Maximisation الانتاج ، يعنى تحقيق أكبر قدر من الاستثمار والاستغلال للمواد المتاحة بأكبر طريقة اقتصادية ممكنة ، سواء ذلك كما أو كيفا ، سلعية أو نقديا ، داخليا أو خارجيا ، وبصيغة مكثفة وأكثر تحديدا ، فان المطلوب هو الكيف قبل الكم فى الزراعة ،

أكبر محصول من أقل مساحة ، أكبر انتاج حيوانى بأقل علف ، وأكبر عائد بأقل تكلفة .

ويستدعى هذا الهدف تطبيق المبادىء الأساسية الثلاثة المقررة فى استغلال الأرض وتخطيط الموارد عموما .. وهى الاستغلال الأعظم Maximum use والاستغلال الأنسب Optimum use والاستغلال المتعدد multiple use ، وبهذا الشكل تتحدد عناصر تخطيطنا الزراعى فى أربعة تتداعى منطقيا كما يلى : (٢٩٦)) :

★ تخطيط الهيكل المحصولى .
★ التوسع الرأسى .
★ تخطيط الأرض .
★ التوسع الأفقى .

ويستغرقه تحليلها فى اطار مبدأ عام يقرره (.. ينبغى أن تكون البوصلة الموجهة .. هى كيفية تحقيق الحد الأقصى من العائد الحقيقي والقيمة المضافة الى الاقتصاد القومى ، وهذا يعنى الحد الأقصى من اثنتين .. الكفاية الذاتية الغذائية والصناعية فى الداخل ، والكفاءة التصديرية فى الخارج ، وهذا بدوره يعنى الحد الأقصى من الحبوب الغذائية ، والحد الأقصى من المحاصيل التجارية على الترتيب ، ص ٢٩٩) ، ويؤكد أركان استراتيجية التخطيط الزراعى فى (.. التكثيف + التتجير + التصدير + التصنيع) ، ويوضح (.. التكثيف بالحد الأقصى من التوسع الرأسى ، والتتجير Commercialisation بالتوجيه الى المحاصيل النقدية

السوقية التجارية .. بدل المعاشية ، والتصدير .. بالتوجه الى السوق العالمية .. لتصريف تلك المحاصيل التجارية الثمينة ، والتصنيع بالحد الأقصى من تحويل الخامات الزراعية الى منتجات مصنعة لتصديرها بأعلى ثمن ، فضلا عما ينتج عنها من توسيع فرص العمالة داخليا ، مع الحد الأدنى من تصدير المحاصيل والسلع الزراعية خاما .. ، ص (٣٠) .

ويعود فيخصص للتوسع الرأسى والأفقى الفصلين التاليين فى عنوان متصل يجمع بينهما ، فالأول (فصل ٣١ ص ص ٣٥١ ـ ٤٣٨) .. يأتى تحت عنوان (من التوسع الرأسى ...) ويكمله الثانى (فصل ٣٢ ص ص ٤٣٩ ـ ٥٣٧) (.. الى التوسع الأفقى) .. اتساقا مع تتابع استراتيجيته .. ومع نظريته التكاملية .. السارية ، دون أن يغيب عنه فى أيهما .. ما سبق وضعه من فروض ايكولوجية محددة ، وما انتهى اليه من مقولات عن شخصية مصر الاقتصادية التاريخية .. من حيث الاستمرارية وانقطاعها ، وما حدده من قسمات ايجابية ومتكلسة جامدة ، وما توصل اليه من مشكلات ، وما اقترحه لها من حلول .. مستندة الى أوتاد صلبة .. من التحليل التاريخى المكانى الاحصائى .. معا .

من التوسع الرأسى

يعرفه (.. قد لا نقصد أكثر أو أقل .. من مدى تكثيف

الانتاجية فى وحدة المساحة ، أى التكثيف الزراعى ببساطة ، ص ٣٥١) ، ويتابع تاريخيا المسألة .. ثم يوثقها احصائيا .. بمعامـل التكثيف الزراعـى (ص ٣٥٢) .. منتهيـا إلـى (.. الزراعة المصرية على درجة عالية من التكثيف فعلا .. تصل بها إلي أن تعد بحق نوعا من فلاحة البساتين Jardining (ص ٣٥٣) ، دفع اليها ضيق المساحة المتاحة فى الوادى والدلتا معا ، فهل ثمة امكانية لاتزال فى تكثيفها ؟

والاجابة .. نعم .. لقد تكثفت عبر تاريخها إلى طابقين من الزراعة فوق القطعة الواحدة ... ، والمطلوب الآن تكثيفها إلى ثلاثة طوابق (ص = ٣ ، س = ١٨ مليون فدان) .. حيث ص تساوى التكثيف ، وس تساوى جملة المساحة المزروعة بها (ص ٣٥٣) ، وذلك تمشيا مع امكانات السد العالى .. الذى لم تستثمر بعد كافة عوائده كما ينبغى ، على ان يخصص الطابق الثالث للمحاصيل الغذائية من القمح والأرز والبقوليات .. خاصة الفول والعدس (ص ٣٥٤) ، على ان يقترن ذلك بالوصول بالانتاجية الى حدها الأقصى .. وتقليل الفاقد الى حده الأدنى ، وتتوالى توصياته .. عن الأسمدة وطرق الرى ونوعية التقاوى .. ومقاومة الآفات .. ثم الحصاد وتخزينه وتسويقه ، ليس لها ككل .. وانما لكل محصول على حدة (ص ص ٣٥٤ ـ ٣٧٥) ، بل وبعدها .. حين يعرض لمشكلة الملوحة والقلوية فى التربة المصرية (ص ٣٨١) وكيفية علاجها ، وتحسين الصرف (٣٨٤) .. والميكنة (٣٨٨) وكهربة الزراعة (٤٠٧) حتى يصل الى قوارض

الأرض (٤١٥) .. ويعرضها تحت عناوين موحية (الرمل ضد الطين ، القوارض الداخلية ، الميت ضد الحى ، وباء التجريف ، مصر المنكمشة ، ص ص ٤١٥ ـ ٤٢٨) ، باعتبارها جميعها أهم ما يواجه تكثيف الأرض .. وأصلا يبددها ويبدده ، وكما يرى أن ترشيد الفاقد يسبق التخطيط للانتاج .. فإن المحافظة على المساحة .. يسبق تكثيفها .. ، ومن هنا يطالب .. بوضع دستور للأرض .. يحمى استخداماتها (ص ٤٢٩) ، وبالتخطيط الصارم للنمو السكنى .. (ص ٤٣١) .. سواء فى القرى أو المدن ، ويختتم فصله بالتخطيط الصناعى .. (٤٣٤) فى اتجاهى دمجها بالزراعة من ناحية . واعادة توزيع وحداتها خارج الزمامات المزروعة من ناحية ثانية (تصحير الصناعة ص ٤٣٥) .. وسيعود اليها تكرارا فيما يلى من فصول هذا الجزء .. وفى الجزء الرابع أيضا من كُتابه .

إلى التوسع الأفقى

يأتى تاليا للتوسع الرأسى فى خطته .. (.. لأن الكل يكاد يجمع على أن التوسع الرأسى هو المنفذ المباشر لتوسعنا الزراعى ، أولا لأنه لا يتطلب كالأفقى انفاقات رأسمالية ضخمة ، ولأنه لا حد لامكاناته ولا سقف له ثانيا ..) ، اذن فأهم ما يواجه التوسع الأفقى ـ ارتفاع التكلفة ، وضيق مجالاته المتاحة فى الوادى والدلتا معا ، ويستدرك فى مقدمة

هذا الفصل (٣٢ ص ٤٣٩) ويقرر (.. غير انه يظل هناك رصيد له) فضلا عن أهميته الفائقة للتخطيط الاقليمي برمته وتبعا لمنهجه .. يتابع المسألة تاريخيا .. وصولا الى بداياتها ، منتهيا الى وضع خريطة احتمالاتها القائمة ويحددها فى (شمال الدلتا ، الهوامش الصحراوية للوادى، الساحل الشمالي الغربى ، شرق الدلتا ، ضفاف قناة السويس ، الواحات المصرية ، ص (٤٤) .

ويفيض فى تحليل كل منطقة منها .. متوصلا الى تقرير مشكلاتها (.. يتوقف الأمر كله على الماء ، ص ٤٤٥) ، ومن ثم يعرض لمصادره الطبيعية فى مصر .. عرضا نقديا لطرق استخدامها .. والاهمال شبه التام لبعضها (مياه النهر ص ٤٤٨ ، مياه الصرف ٤٤٩ ، المياه الجوفية ٤٥٠) ، ويجمعها تحت عنوان "الموارد المتاحة" (ص ٤٥١) ويقدرها بنحو ٦٠ مليارا .. يمكن أن تزيد الى ٨٠ مليارا .. حالة ترشيدها .. ورفع كفاية مصادرها معا ، ومن بعد يحلل منحنى العلاقة بين الاحتياجات والاستهلاك .. تبعا لتوزيعها فى قنواتها الرئيسية (الزراعة ، الصناعة ، العمران) ، مطالبا باعادة رسم استراتيجية المياه فى مصر .. تبعا لاقتصادياته من ناحية ، واتساقا مع مواردها منه من ناحية ثانية ، وبالنظر الى أزمة المياه العالمية .. من ناحية ثالثة (ص ٤٥٤) .

وتحت عنوان "مسح إقليمى .. يعود الى خريطة

احتمالات التوسع الأفقى بالتفصيل (ص ص ٤٦٢ ـ ٥٣٧) .. أى الى نهاية هذا الفصل ، مؤكدا جدارتها .. وبأنها نواة اعادة التخطيط الاقليمى لمصر كلها .

وبهذا تنتهى فصوله الثلاثة المخصصة للزراعة المصرية ، وينتقل من مجالها فى الفصول الثلاثة (٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ص ص ٥٣٨ ـ ٨٥٥) التالية .. إلى "الصناعة المصرية" .. وحدها ، بل ان الفصل الأخير من هذا الجزء .. كما سيأتى عن الصناعة أيضا ، مما قد يكون مؤشرا عن وزنها فى نظريته التكاملية كلها .

مصر الصناعية

بهذه التسمية العامة يعنون الفصل الأول (٣٣ ص ص ٥٣٨ ـ ٦٤٦) من ثلاثيته أو رباعيته عن الصناعة فى مصر ، ويخصصه لصورتها العامة .. قبل أن يحلل تفصيليا نوعياتها ، بمثابة اللحن الافتتاحى له ... ، يستهله بمقولته (.. مصر بطبيعتها لا تنقصها المقومات الأساسية للصناعة الحديثة ..) ، وتقتضيه هذه المقولة إثباتها .. جغرافيا واقتصاديا وتاريخيا .. بطول صفحاته ، مستخدما مجموعة من العناوين الدالة المكثفة .. من قبيل (بين الوفرة والندرة ص ٥٥٢ ، نقط القوة والضعف ٥٥٣ ، مشكلة الجدارة الانتاجية ٥٥٤) ، يناقش فيها هذه المقومات فى اشارات مركزة .. ينتهى منها إلى أن مصر (.. تملك أساسا طبيعيا لا

بأس به .. لقاعدة صناعية متوسعة ، يمكن أن ترتفع إلى صرح .. لا يقل عن الدول الصناعية المتوسطة ، كما تملك بالفعل بناءً صناعيا لا يستهان به .. وان لم يزل بعد فى مرحلة بدء الانطلاق ، أما ان هذا الصرح ملىء بالثقوب والعيوب حاليا .. فذلك من خصائص مرحلة البداية التى عرفتها معظم الدول الصناعية المتقدمة الآن ، على أن المطلوب هنا والآن اختزال هذه المرحلة بأسرع ما يمكن ، جـ ٣ ص ٥٥٤) .

وبعد تحليل التوطن الصناعى تحت عنوان "الخصوصية المصرية" (ص ٥٥٨) ، يحدد ما يطلق عليه خصائص الصناعة المصرية العشر (ص٥٧٨) ، وذلك كما يلى بيجاز : (ص ص٥٦٨ ـ ٦١٦) :

★ سيادة الصناعات الزراعية .
★ صناعة استهلاكية لا رأسمالية .
★ صناعة خفيفة لا ثقيلة .
★ صناعة اكتفاء لا تصدير .
★ صناعة مصنعة لا صناعية .
★ التكامل الرأسى والأفقى .
★ التنوع والتركز الشديدان .
★ التركيز الحجمى .
★ التركيز الجغرافى .
★ مناطق لا أقاليم صناعية .

تلك إذن هى قسمات مصر الصناعية .. فماذا عن أنماطها المكانية ؟

وتبعا لحسابات معينة يحددها فى (.. قرص الدلتا ص ٦١٦ ، خيط الصعيد ٦١٩ ، منطقة القاهرة الصناعية ٦١٩ ، منطقة الاسكندرية ٦٢١ ، خط الاستواء الصناعى ٦٢٥) ، حيث يقرر عنها اجمالا بعد ذلك (.. تلك اذن فى صورتها التفصيلية نوعا خريطة مصر الصناعية ، ولاشك ان أبرز ملامحها ومعانيها هى التحولات الأساسية فى المركب الصناعى والنمط الجغرافى على حد سواء ، ان خريطة جديدة لمصر تتخلق تحت ناظرينا فى مجال الصناعة ، بقدر ما تقتحم مصر عالم الصناعة الحديثة ، ان مصر تتغير صناعيا ، مثلما وجدناها تتغير زراعيا ، وبدلا من الصناعات المعاشية والتقليدية الأولية أو البسيطة ، حلت أحدث الصناعات العصرية المتطورة ، الاستهلاكية ، والخفيفة والثقيلة على السواء ، وبدلا من ذرات أو حبات الصناعة المتواضعة المبعثرة هنا وهناك ، اصبحت هناك أحجار صناعية ضخمة ، مناطق صناعية كاملة متكاملة ، كالخلايا العارمة المضطرمة بالحياة الصناعية ، جـ ٣ ص ٦٣١) .

ومن فوره يضع يده على نقطة الضعف الرئيسية فى هذا البناء (.. انه لم يأت من اسف متوازنا على مستوى الوطن أو متكافئا على مستوى أقاليمه ، ص ٦٣١) ، ومن ثم يفرغ لها بقدر من التركيز تحت عنوان (خريطة جديدة .. ولكن بالكاد ..) ، هى خريطة جديدة حقا .. ولكنها تفتقر الى عدالة التوزيع (اللاقليمية ضد الاقليمية ص ٦٣٤) ، وهى تستعيض بالتخطيط القومى عن الاقليمى . لحساب المركزية

العاتية ، مخلفة الأقاليم وراءها .. وقد فقدت وفوراتها .. از
نزحت الى خارجها بشتى الأساليب ، وبذا يصل التركيز الى
نقطة الانعكاس (ص ٦٣٧) .. وعندها يتحول التركيز الى
تخمة فانفجار ، فضلا عما ينتج عنها قبلها من تضاعف نمو
الكبير .. وتطاحن الصغير (المبدأ الالومنزى allometric
ص ٦٣٧) ، وتعمق الفجوة بين العاصمة والمدن الكبرى
والأقاليم ، مطالبا آخر الأمر باعادة التوزيع ، مدعما طلبه ، بما
يبرره (.. وعلى مستوى الواقع العملى ، اذا عدنا الى جسم
الصناعة المصرية "ولحمها الحى" ، فان من الثابت ان كثيرا
جدا من صناعاتنا الراهنة ، أغلبها فى الواقع ، يمكن ويحسن
ويجب نقله الى مواقع أخرى دون إبطاء ودون هزة فى الكيان
الصناعى ، بل وبمكاسب وأرباح لا حد لها اقتصاديا
واجتماعيا ، قوميا واقليميا ، وقد حاول البعض حصر هذه
الصناعات القابلة للحركة أو للتحريك ، ولكن عبثا .. لأن
القائمة تكاد تشمل كل صناعاتنا إلا أقل القليل ، ص ٦٣٨) .

بل ويقترح قائمة بالمواقع الجديدة مستندا فى ذلك الى
مبادىء (الخلخلة de - concentration واللامركزية con-
tratisation وتدريج المركزية Subconcentration
ص ٦٣٩) ، ومفندا عوائق المسافة والحجم والتفتيت
Pulverisation وغير ذلك ، منتهيا إلى ما يسميه تصحير
الصناعة (ص ٦٤٤) .

.. فإذا ما اتفقنا على هذه الخطة وتلك الصناعة من حيث
المبدأ ، وهى فى الواقع مسألة مصيرية بالنسبة لمصر ، فإن

مشكلة الصناعة عندنا تغدو وهي أكثر من مجرد مشكلة مناطق مأزومة محرومة ضد مناطق متخمة مكتظة ، ولا تعود قضية بعثرة ريفية ضد تشتيت اقليمي ، ولا مسألة تريف الصناعة ضد تصنيع المدن حيث (.. لم تعد حياة المدن بالضرورة وظيفة لدرجة النمو الصناعي ، بل أصبح ممكنا في ظل حضارة اليوم أن تقوم مدن ضخمة بغير صناعة كبيرة ، أو على الأقل أن يسبق نمو المدن الضخمة التنمية الصناعية ، ويمكن للصناعة أن تلحق بها وتصحح التوازن ، باختصار .. لابد ان نعتبر المدنية المرتفعة بلا تصنيع نمطا جديدا من أنماط الحضارة المعاصرة .. ونتيجة طبيعية للتكنولوجيا الحديثة ..) .. كلا إذن ليست ضد المدن ، والمشكلة من قبل والحل من بعد أيضا وأساسا .. هي تصحير الصناعة .

أجل تصحير الصناعة .. أي نقلها إلى الهوامش والتخوم الصحراوية إلى أقصى حد ممكن عمليا واقتصاديا وانسانيا ، ذلك هو الشعار القائد المطلوب الآن ، ليس فقط انقاذا واستنقاذا للأرض الزراعية التي تغتالها الصناعة ـ وغير الصناعة ـ ولكن أيضا انقاذا للصناعة نفسها ولغيرها من التكدس المدمر هنا .. والتفتيت المجدب المحدب هناك ، (ص ٦٤٢ جـ ٣ ـ ٦٤٦) ولحسن الحظ فان خطة مصر الطبيعية برمتها قد جعلت لمثل هذا التخطيط بحذافيره ، ص ص ٦٤٤ ـ ٦٤٦) ، وبهذه الدعوة ينهي فصله .

الصناعات الأم :

شبكة الصناعة فى مصر .. أشبه بشجرة ـ والزراعة أمها ، منها بدأت وبها نمت .. وتكاثرت العائلة ، ومهما تعددت جذورها .. وتباعدت أصولها .. فستبقى الصناعات الزراعية أقدمها .. وأشدها رسوخا وتوطنا ، واذا كانت البيئة قد اتاحت موارد أخرى .. كونت أيضا عائلاتها ـ الأكثر ثراء منها ربما .. الا انها تدنو عن الأم من حيث درجة ايكولوجيتها الثابتة المتوازنة ، ومن هنا يأتى عنوان هذا الفصل (٣٤ ، ص ص٦٤٧ ـ ٧٤٤) وأيضا منهجه فى ترتيب الدراسة النوعية لهيكل خريطة صناعات مصر الراهنة .. (.. أما عن تسلسل العائلة ـ فستبدأ من الصناعات ذات الأصول الزراعية أساسا ، وتتقدم الى الصناعات ذات الأصول المعدنية أساسا ، فبعد النسيجية والغذائية .. تأتى الكيماوية فالبناء كحلقتى وصل .. تؤديان الى الصناعات المعدنية فالهندسية ، حيث تلحق بهم فى النهاية الصناعات التعدينية .. مع الثروة المعدنية ، ص ٦٤٨) .

الصناعات النسيجية :

تحتل بين الصناعات الزراعية الحديثة .. قاعدة الهرم ، ترتبط بالقطن .. وتشغل فى الصناعة مثل موقعه بالنسبة

للزراعة .. وهما معا حجر الأساس وركن الزاوية ، سبقت غيرها .. وتوطنت وتركزت .. ثم انتشرت فى الدلتا والوادى .. وقدمت المثل ، وخاصة من حيث درجة تركزها فى العاصمتين القاهرة والاسكندرية .. التى يقل نصيبهما منها عن ٥٠٪ ، كما انها تستوعب وحدها بين ثلث ونصف العمالة الصناعية فى مصر كلها (٦٤٩) ، وبعد الانتشار المنشود .. فانها تتسم بتنوعها .. وكثرة وحداتها من حيث العدد ، تتضمن وحدات مجمعة ضخمة بالمقياس العالمى .

كما تتضمن غيرها من الوحدات الصغيرة .. نتجت عن انتشارها ، ويعود اتجاهها نحو الضخامة إلى متطلباتها من التكامل الرأسى والأفقى بدرجة فائقة (.. فهى لا تقتصر على الغزل والنسيج فقط .. وانما تمتد الى اشكالها التابعة .. من سجاد وكليم ولباد وحبال وغيرها ، ص ٦٥٠) ، وتسهم وحدها بقرابة ثلث قيمة الانتاج الصناعى فى مصر جميعا .. وكانت تلك النسبة هى الأولى بين قطاعات الصناعة كلها (٦٥١) ، وتتألف خاماتها من (القطن ، الصوف ، الحرير ، الكتان) .. وأضيف اليها الألياف الصناعية مؤخرا .

ويتابع كل خامة منها تاريخيا .. فى سياق من المقارنة .. المدعمة بالجداول المتتابعة (ص ص ٦٥٢ ـ ٦٥٦) ، ثم يتناولها نوعيا فى صورتها المعاصرة ، مبتدئا بالقطن (٦٥٦) بعملياته المتعددة (الحلج ، الكبس ، الغزل ، النسيج) ، وأيضا نمط انتشار وحداتها (.. هذه التى ترسم خطا من الشمال إلى الجنوب .. أى نحو الصعيد .. بلا ارتداد

تقريبا ، وذلك من بعد تركزها فى الاسكندرية والمحلة وكفر الدوار فى مرحلة ، ص ٦٦١) ، اتساقا مع مقتضياتها من الجفاف المناسب لها .. الى جانب عوامل بشرية مساندة ، ورغم أنها تستهلك نحو ٦٠٪ من جملة انتاج مصر من القطن الطويل التيلة ـ وتصدر بقيته ، فقد اتجهت منذ عقود قليلة الى استيراده بنوعية منخفضة من السودان والهند .. فى نوع من الموازنة بين استمرار تصديره .. تلبية للطلب العالمى ، وبين متطلبات نموها ، والمنشود (.. التصنيع التام له في مصر .. فى اطار الهدف النهائى لسياسة من الألياف إلى المنسوجات .. أو تصنيع الخامات المصرية من ألفها إلى يائها ، ص ٦٦٣) ، خاصة مع تطور التكنولوجيا .. وتصاعد أرباح السلع المصنعة .. فى مقابل تذبذبها وهى خامات أو نصف مصنعة .

وتحت عنوان "أحسن قطن وأسوأ صناعة" (٦٧٩) .. يلخص متناقضة القطن فى مصر زراعة وصناعة .. ويتابعها فى بعديها من وجهة النظر الاقتصادية ، وخاصة من الناحية التسويقية داخليا والقدرة التنافسية خارجيا ، وينتهى منها إلى التوصة بالتوسع فى استيراد الأقطان قصيرة التيلة الرخيصة .. وتصنيعها ، والتوسع فى تصدير الأقطان طويلة التيلة الحالية (ص ٦٨٥) ، وتخليط صناعتها بالألياف غير الطبيعية (٦٨٧) ، والتوسع فى صناعة الملابس إلى أقصاها (.. من الحقل إلى المستهلك .. ولا نقول الملابس الجاهزة أو الموت ، ٦٨٨) .

ثم تعرض للصناعات الغذائية (٦٩٢ ـ ٧٤٤) ـ أى الى نهاية الفصل ، حيث يتناولها من حيث خصائصها العامة (ص٦٩٣) تاريخيا وجغرافيا ، ثم نوعيا .. مبتدئا "بصناعة السكر" .. مطلقا عليه "قطن الجنوب" .. تلخيصا لتركز زراعته وتوطن صناعته فى الصعيد .. فضلا عما تعنيه التسمية من قيمته الاقتصادية وتعدد جوانبه ، ويحقق اتفاق مناطق زراعته مع مصانعه .. توليفة اقتصادية مناسبة ، كما يتسق توزيع معامل تكريره .. مع أسواق الاستهلاك والطلب (.. يعنى توطن بالسوق ، ص ٧٠٢) ، وتتحدد مشكلته فى قصور انتاجه عن تلبية الطلب (.. فى غضون سنوات معدودة ـ سوف نستورد من السكر قدر ما ننتج ، ص ٧٠٧) ، ومن هنا توصيته بالتوسع فى زراعته فى الأراضى المستصلحة من ناحية ، وبالتوجه المكثف نحو سكر البنجر .. من ناحية ثانية (٧٠٨) .

ومن صناعة السكر ـ إلى صناعة اعداد الحبوب (٧١٢) ، وتتضمن (طحن الحبوب ، ضرب الأرز ، الكسر ، والرجيع ، النشا والجولوكوز ، الزيوت النباتية (٧١٦) ، الحلوى والمشروبات (٧٢٢) ، السجاير (٧٢٦) ، حفظ الأغذية (٧٣٠) ، تعبئة الأسماك (٧٣٧) ، صناعة الألبان (٧٣٨) ، الأعلاف الصناعية (٧٤٢) ، ويتابع كل منها من حيث التوزيع الجغرافى ، وعدد الوحدات والعمالة والتسويق .. وغير ذلك .. مما يغطى جوانب اقتصاديات المشروع الصناعى .. منهجيا وموضوعيا معا ، ومنها ينتقل

الى فصله التالى (٣٥ ، ص ص ٧٤٥ ـ ٨٤٥) الى مجال صناعى مختلف .

من الصناعات الزراعية إلى المعدنية

يبتدئها بالصناعات الكيماوية .. ويقدمها (إن انفجار الصناعات الكيماوية يعد أبرز معالم تطور الصناعة المصرية .. فى العقود الأخيرة الأربعة ، ص ٧٤٥) ، وتضم مجموعة عريضة من المواد الوسيطة اللازمة لغيرها من الصناعات ، ومن ثم فهى (وسيلة وغاية فى آن واحد) ، ويصنفها إلى (الغازات والسوائل واللدائن والجوامد الصلبة ، وتنقسم إلى مجموعتين عريضتين .. الكيماويات الأساسية والكيماويات المركبة ، ص ٧٤٦) ، وتضم كل منهما العشرات من النوعيات المصنعة ، وتتسم لأسباب اقتصادية بتركزها فى القاهرة والاسكندرية .. عدا الأسمدة ، وتبعا لمجموعتيها يتابعها تفصيليا .. داخل الاطار المنهجى لاقتصاديات المشروع الصناعى .. كما سبق ، يستهلها بالكيماويات الأساسية (٧٤٩) ، وبعدها الأسمدة (٧٥٧) ، ثم صناعة الورق (٧٦٩) ، فالخشب الصناعى (٧٧٤) ، فصناعة الجلود والأحذية (٧٧٦) ، ثم الصابون والمنظفات الصناعية (٧٧٨) ، وبعدها صناعة الأدوية (٧٨١) ، ثم المطاط والبلاستيك (٧٨٣) ، ثم ينتقل إلى مجموعة أخرى متكاملة . هى "صناعات البناء" (٧٨٦) ،

وتضم الأسمنت والطوب الطفلى والرملى ، والجبس ، وغيرها من توابعها .. مثل الخزف واخوته (٨٠٤) والحراريات والزجاج (٨٠٧) ويختتم بالصناعات المعدنية فصله . (ص ص ٨٠٨ ـ ٨٥٤) .

الصناعات المعدنية :

ويصنفها بداية إلى (الصناعات التكريرية ، التى تشمل الصهر والتكرير ، والصناعات التشكيلية لها ، وتعنى المنتجات المعدنية (٨٠٨) التى تتضمن اساسا الحديد والصلب ثم الألومنيوم .. وأخرى هامشية من النحاس والزنك والرصاص وغيرها ، وبالطبع فإن صناعة الحديد والصلب ـ تستغرق جل عنايته ، ويتابعها تاريخيا (قبل الصناعة الثقيلة ، ٨٠٩) وبعدها (٨١٠) ، ثم يحللها اقتصاديا .. وخاصة من زاوية موقع المصنع (حلوان ومناجم خاماته ..) ، ويجرى مقارنة سريعة بين هذه الصناعة وصناعة الألومونيوم . ينتهى منها الى (.. أن كليهما صناعة خاسرة اقتصاديا ، اذ تحقق سنويا خسائر جسيمة .. تتعدد اسبابها ، ومن ثم تحتاج الى ترشيد شديد (٨١١) .

ويفيض بعد ذلك فى دراسة "صناعة الحديد والصلب" (ص ص ٨١١ ـ ٨٣٢) ، وتحت عنوان (استراتيجية الموقع ، ص ٨١٢) ، يعقد مقارنة دالة وشيقة بين أسوان وحلوان كمواقع شهدت مولد هذه الصناعة ونموها ، ينتهى

منها ـ إلى (.. أنه وان بدا موقع حلوان موفقا للغاية .. فقد كان ذلك نتيجة للصدفة الحسنة ـ وليس لحكمة التخطيط المستقبلى ، الصدفة الجيولوجية التى أتت بحديد البحرية وغاز أبو الغراديق .. فى الزمان والمكان المناسب كليهما تماما ، بل فى اللحظة الحرجة والبقعة المواتية .. لحلوان دون غيرها ، ص ٨١٦) ، ويتابع مرحلته الأولى فى أسوان ، ثم مراحله التالية ، مختتما دراسته لها بعنوان "النمو المستقبلى" (ص٨٢٩) ويقدم توقعاته استنادا الى امكانات الصناعة ، وقدرتها على تحقيق الكفاية الذاتية ، مقدرا ان الاستهلاك المتوقع سنة ٢٠٠٠ يقرب ٣٠ مليون طن ، لن تحقق الخطة الموضوعة منها سوى نصفها ، فاذا كان الإنتاج الفعلى فى سنة ١٩٨٠ لا يجاوز ١,٥ مليون طن .. فان هذا يعنى ان الخطة الموضوعة تهدف الى مضاعفة الانتاج بعشرة امثاله فى عقدين فقط (من ١,٥ مليون سنة ١٩٨٠ إلى ١٥ مليون سنة ٢٠٠٠ بما يعنى اضافة ٥ مجمعات للصلب الى الحالية ، وتتعدد الروايات حول ذلك .. تبعا لتعبيره ، (ص ٨٣٠) .. على ان انشاء مجمع الدخيلة سنة ١٩٨٥ .. قد يكون بداية .. ولعل وعسى .

ويأتى دور "صناعة الالومنيوم" (ص ص ٨٣٢ ـ ٨٤٢) ، ويتابعها تاريخيا تبعا لمنهجه ، ثم اقتصاديا من زواياها المتعددة ، يناقش خلالها قدرته التنافسية (وهى عالية لشدة نقاوته) وتكلفته (وهى عالية أيضا لاعتماده على الطاقة الكهربائية حيث تستهلك ٢٥٪ من الكهرباء المباعة

للصناعة فى البلد كلها ، ص ٨٣٧) ، ويطالب أخيرا .. بالتوقف عن تصديره نصف مصنعا ، وبالتحول إلى تصنيعه كاملا بما يستوعب التكلفة ويحقق أربحية عالية ، ٨٣٧ .

وتأتى عائلة الصناعات الهندسية (ص ٨٤) وتتضمن الميكانيكية (ص ٨٤٣) ، والماكينات (٨٤٨) ، والصناعات الكهربائية (٨٥٠) ، وبها ينهى فصله ، بعد ان يشبعها تحليلا تبعا لمنهجه .

صناعة التعدين

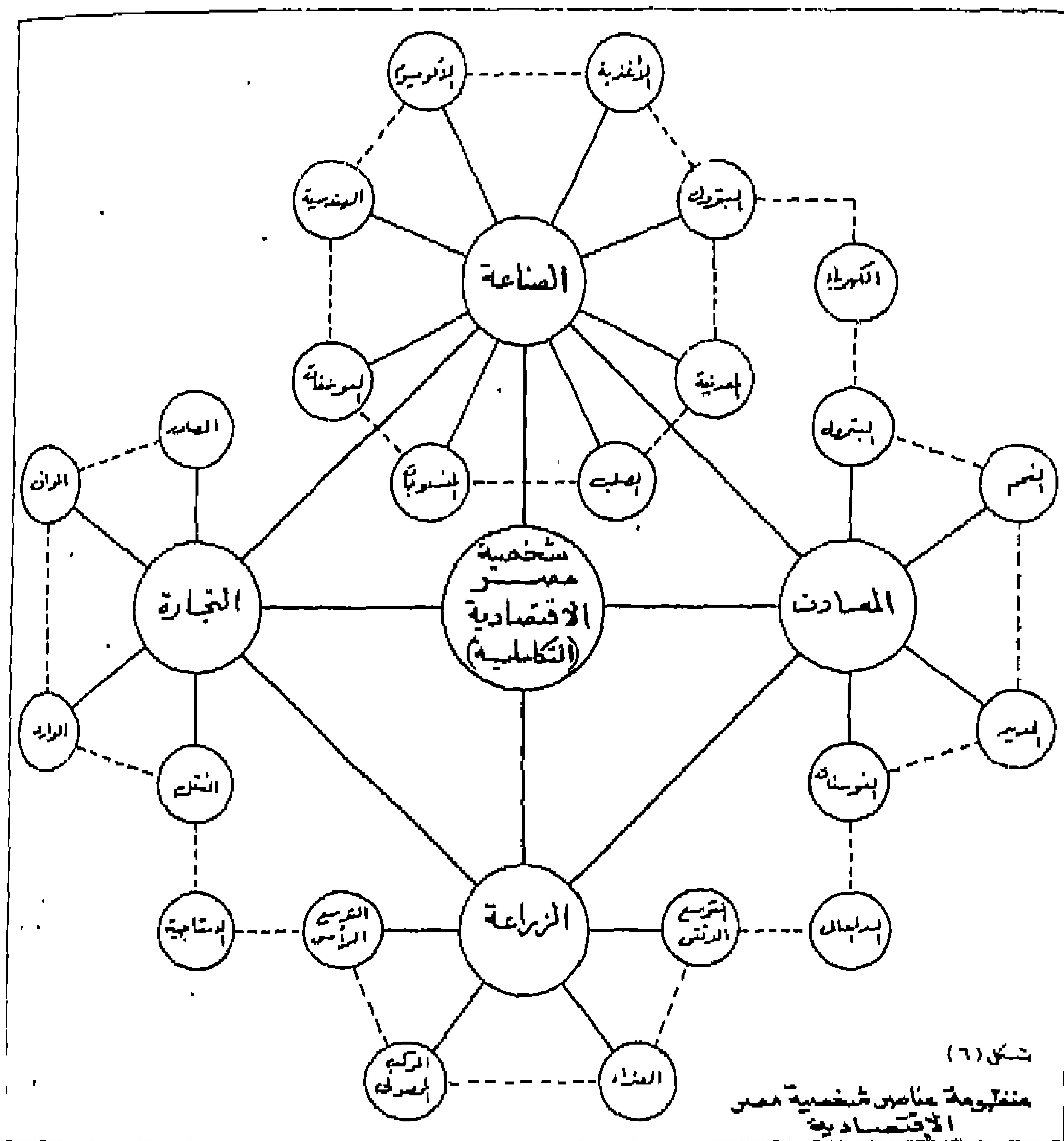
هذا هو العنوان الثانوى لهذا الفصل (٣٦ ص ص ٨٥٥ - ٩٧٣) ، أما عنوانه الرئيسى فهو "ثروتنا المعدنية ، ويستهله بهذه العبارة المكثفة (.. نقرر بصيغة التوكيد .. أن ثورة معدنية مؤثرة قد حدثت فى مصر فى العقود الأخيرة من تاريخها ، ص ٨٥٥) ، ويقتضيه اثبات ذلك نوعا من المتابعة التاريخية والاحصائية .. ، يقرر بعدها أن هناك فى مصر مرحلتان .. (ما قبل المعادن .. وما بعدها .. ص ٨٥٦) ، ومن هنا تميز هذا الفصل عما سبقه .. من الفصول الثلاثة المتصلة بالصناعة وحدها ، هذا فصل الموارد المعدنية أولا .. ثم الصناعة ثانيا .

وينتهى تحليله لما قبل الثورة المعدنية وما بعدها .. الى تحديد أبرز خصائص الخريطة المعدنية الراهنة .. فى هذه الثلاثية القاعدية (ص ٨٦٠) المتمثلة فى (الحديد +

الفوسفات + البترول) .. والتى اكتشفت بكميات اقتصادية مناسبة ، بما قد يعد باعثا على معاودة التنقيب عن غيرها من الموارد المعدنية .. والتى بقيت طويلاً ثروة مهملة ، وتحت عنوان "خريطة معدنية جديدة" (ص٨٦٤) - يتابع توزيعاتها وتطورات انتاجيتها ، كما يحدد مناطق الثقل المعدنى (سيناء وعلى جانبى خليج السويس + وسط وجنوب الصحراء الشرقية + خط الواحات فى الصحراء الغربية) ، بما يكون شبكة تعدينية متكاملة ، تحيط بالوادى حيث يمكن تصنيع ما تنتجه ، وتحت عنوان "المركب المعدنى" (ص ٨٦٨) .. يتابعها نوعيا .. ويصنفها إلى (خماسية المعادن الأساسية (البترول ، الفوسفات ، الحديد ، الفحم ، المنجنيز ..) ، ثم مجموعة المعادن الثانوية ، وهى ثمانية . النحاس والنيكل والرصاص والزنك والقصدير والكبريت والأحجار الكريمة والذهب ، ثم مجموعة الصخور الصناعية من الكاولين والطين والرمال والجبس والتلك وغيره ، وأخيرا .. مجموعة المعادن النادرة . من اليورانيوم وغيره ، ص ٨٦٩) ، وبعدما يحدد الخريطة والمركب المعدنى ، ينتقل الى الدراسة المسهبة لكل معدن منها على حدة ، يستهلها بالفوسفات (٨٧٠) ، ثم الحديد (ص ٨٧٩) ، ثم الفحم (٨٨٢) ، ثم الصخور الصناعية (٨٨٧) ، فى دراسة منهجية تبدأ بالتوزيع فالانتاجية وتنتهى بالاحتياطى المحتمل ..

وينال "البترول" جل عنايته .. فيفرد له الصفحات (ص ص ٨٩٠ - ٩٧٣) .. أى إلى نهاية هذا الفصل

المعدنى ، يتناول خلالها التطور التاريخى لانتاجه (ص ٨٩٠) ، ثم تطوراته النوعية .. من البر الى البحر (٩٠١) ومن الزيت الى الغاز (٩٠٣) ، ويتعمق فى اقتصادياته (بين الانتاج والاستهلاك والفائض ، ص ٩٠٤) ، منتقلا إلى صناعته (٩١٢) .. صناعة التكرير أولا ، ثم شبكة الأنابيب (٩٢١) كعنصر مكمل يتصل بنقله ، ويحلل احصائيا العلاقة بين منتجاته واستهلاكها (٩٢٥) ويعود الى جغرافية الحقول (خريطة متغيرة ، ص ٩٣١) ، مع دراسة مسهبة لحوض خليج السويس (٩٣٦) ، ولا تفوتته مرحلة استنزافه من اسرائيل بين ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ، ويختتم هذا الفصل بدراسة لامكانات حوض الصحراء الغربية (٩٦٦) باعتباره أفق المستقبل البترولى لنا ، وبه ينهى هذا الفصل كما سبق .. ومعه الباب الثامن .. الذى استغرق الجزء الثالث من كتابه .



شكل (٦)

منظومة عناصر شخصية مصر الاقتصادية

رابعا : شخصية مصر الحضارية

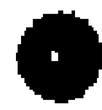
تتعدد مفاتيح الجزء الرابع من كتابه .. الذى يخصصه "لدراسة شخصية مصر الحضارية" (٦٦٦ صفحة) ، فهو ليس "البساطة" وحدها .. كما فى جزئه الأول (شخصية مصر الطبيعية) ، أو التجانس والوحدة .. فى جزئه الثانى .. (شخصية مصر البشرية) ، أو التكاملية .. بالنسبة لجزئه الثالث (شخصية مصر الاقتصادية) .. تعددا يعود الى تنوع موضوعاته وتشعبها ، والى تشابك جوانب شخصيتها الحضارية ، وأيضا إلى اتصاله بالأجزاء السابقة عليه . يستكملها ويتوجها ، ومن هنا .. فإن لكل فصل به مفتاحه الذى يخصه .. يعنونه به مباشرة ، ويلقى بدلالته على فصول أخرى سبقت .. كما يستمد منها ما يوضح المعنى ، وستكون هناك إشارة إلى هذه الصلة مستمرة .

ويتكون هذا الجزء (ص ص ١٣ ـ ٦٦٦) من ثلاثة أبواب (٩ ، ١٠ ، ١١) ، تعقبها القائمة البيلوجرافية لكتابه كله (ص ص ٦٦٧ ـ ٩٧٧) ، موزعة بين المراجع العربية (٢٤٥ عنوانا) والأجنبية (٧٩١ عنوانا) ، وجملة فصوله سبعة .. ثلاثة للباب التاسع (الفصول ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩) ، ومثلها العاشر (٤٠ ، ٤١ ، ٤٢) .. أما الأخير الحادى عشر . ففصل واحد .. (٤٣) ، بهما ينهى الجزء وكتابه كله ، (٤ أجزاء ، ١١ بابا ، ٤٣ فصلا) ، يربط بينها ما يحاول

تجميعه من سمات مصر الحضارية (المركزية + تعدد الأبعاد + الاستمرارية والانقطاع) .. كمحصلة لعمله كله .

خريطة المجتمع المصرى

بهذا يعنون الباب التاسع (الأول من هذا الجزء ، ص ص ١٣ ـ ٣٩٨) ، قاصدا أن يحيط هذا العنوان الفضفاض بما يريد طرحه .. وأن يكمل ما سبق عرضه منها .. ويبلور نتائجه ، ويشتمل كما سبق على ثلاثة فصول ، يخصص اثنين منهما لمتابعة موضوع "سكان مصر" (ص ص ١٣ ـ ١٣٠) .. وتحليل مشكلتها .. واستعراض الحلول المقدمة لها (ص ص ١٣٠ ـ ٢٥٠) ، أما ثالثهما .. فيخصصه لمدينة القاهرة .. تحت عنوان "مركزية رغم الامتداد ـ قاهرة مصر" (ص ص ٢٥١ ـ ٣٩٨) مكثفا لموضوعه ـ بمثابة مفتاحه ، وبذا تفصح مكونات الباب عن توجهه لدراسة "السكان + العاصمة" .. باعتبارهما بنية وبوصلة خريطة المجتمع المصرى ـ كما يعبر عن ذلك العنوان الرئيسى للباب ، وتستند الفصول الثلاثة .. إلى ما سبق وروده فى الجزء الثانى من الكتاب (فصل ١٧) .. تحت عنوان "التجانس العمرانى" (ص ص ١٦٦ ـ ٢١١ ، جـ ٢) .



كثافة بلا هجرة

يتابع تحت هذا العنون .. ما سبق له بذره عن نمو وكثافة السكان فى مصر .. باعتبارهما وراء تجانس الغطاء البشرى بها ، ويضيف اليهما زوايا متعددة .. تمهد لعرض المشكلة ،

ويتحدد ما أضافه فى دراسته المسهبة عن زوايا التركيب الديموجرافى لبنيتها خاصة ، يستهلها بما يسميه "الثورة الديموجرافية" (ص ٣٣) .. من حيث جذورها ومراحلها وأسبابها ، كما يحدد ديناميااتها فى (الزيادة الطبيعية ص ٥٥ ، ضوابط المواليد ص ٥٦ ، ضوابط الوفيات ص ٦٠ ، خريطة الحياة وفرص الموت ٨٦ ، التركيب الجنسى ٩٢ ، تركيب السن ١٠٥ ، خريطة الأعمار ١٠٩) ، وذلك فى صياغات كمية دقيقة .. تستند الى جداول التعدادات المصرية المتتابعة (١٨٨٢ ـ ١٩٧٦) .. أى طوال قرابة قرن من الزمن ، بل ويتابعها بعد ذلك .. تبعا لحسابات معينة ، منتهيا إلى (.. لقد أضافت مصر إلى نفسها فى الربع قرن الأخير .. أكثر مما أضافت فى قرن وثلث قبلها ، لقد أضافت الى نفسها مصرا ثانية .. ص ٥١) ، لقد تضاعف سكان مصر من ٢٣ مليونا سنة ١٩٥٦ الى ٤٦ مليونا سنة ١٩٨٢ ، وتنمو بعدها بمعدل ١,٥ مليون نسمة كل سنة (ص٥٢) .

وحين يأتى دور "الكثافة" (١١٦) .. يضيف اليها تفصيليا دواعيها وأسبابها .. متمثلة فى (الأرض والماء + الرى + نمط الزراعة والتركيب المحصولى) ، متابعا مراحلها وتغيراتها ، ويقرر بشأنها (.. ان السكان حبيسة الوادى ، والوادى حبيس الصحراء ، والوادى أصبح قالبا حديديا لا فكاك منه Procrustean bed .. والسكان أصبحت مصندقة embaitee ، ومن ثم يتحول برمته من زجاجة مغلقة .. إلى عنق زجاجة مختنقة مثلما هى مسدودة ،

ص ١١٧) ، والنتيجة الحتمية أن التعدادات السكانية المتعاقبة ـ لا تفعل سوى أن ترفع الكثافة بصورة آلية من عقد إلى عقد .. الى ان تبلغ مستواها الخطير الراهن (.. وهكذا مرة أخرى .. على المستوى الديموجرافى .. بعد الطبيعى والمائى والزراعى والاقتصادى نجد مصر جوهريا كثافة لا مساحة ، ص ١١٧) ، وها يكمن لب المشكلة .

ويختتم الفصل بما يسميه "بروفيل مقارن" (ص ١٢٩) ، يجرى عليه عددا من المقارنات الموحية الدالة .. بين مصر وبريطانيا واليابان .. من حيث مقومات الكثافة ودواعيها فى كل منها ، منتهيا الى وجود درجة من التقارب بينها ، خاصة من حيث تتابع مراحل النمو الديموجرافى ، وإن تفاوت من حيث التوقيت والمدى ، بما قد يفيد فى مجال التوقع السكانى المستقبلى ، وبهذا البروفيل ينهى فصله .

المشكلة والحل ؟

كما سبق فإنه يحدد مشكلة السكان فى مصر فى الكثافة المفرطة .. وليس تركيبها الديموجرافى بصفة خاصة ، ويضيف إلى الكثافة هنا .. فى الفصل (٣٨ ص ص ١٣١ ـ ٢٥٠) .. الهجرة بأنواعها (الداخلية ، الداخلة ، الخارجة) مع الاهتمام بالأخيرة منها خاصة .. باعتبارها مخرجا ، وبالنسبة للأولى .. أى الداخلية بين مناطق مصر ذاتها .. فهى ظاهرة قديمة ومستمرة بها ، قد تمثل الحل الطبيعى

للكثافة .. بما تؤدى إليه من اعادة توزيع السكان بينها ـ بصورة حرة تلقائية معا .. وتبعا لقوى الطرد والجذب السارية ، ولكنها أفرطت بحيث أدت الى تركز حضرى مفرط (الافراط ثم فرط التركيز) .. ونجم عنها ترييف المدن ، بما زرعته من جيوب الفلاحين وأنصاف الريفيين بها ، وأمست أحجامها دليلا على تورمها وانتفاخها ، وبذا انقلبت من ظاهرة صحية .. إلى مرضية مزمنة ، وهى على كل حال بسبب الكثافة .. وضيق الوادى وتكدسه ودلتاه معه ، وتصاعد النمو السكانى وتفجره ، تقصر عن حل المشكلة السكانية المتفاقمة .

أما الهجرة الداخلة .. فإنه يقرر بشأنها (.. فى الأغلب الاعم من تاريخ مصر .. لم تصدر الرجال .. وانما الحضارة وأعمالهم ، بل وكانت بانتظام مصبا لهم ، لم تكن مصر بعبارة أخرى .. منطقة هجرة خارجية ، على العكس كانت بوجه عام منطقة هجرة داخلة ، فبقدر ما كانت منبعا للحضارة .. كانت مصبا للبشر ، وفيما عدا ذلك .. فاذا كانت ثمة هجرة قوية عرفتها أو مارستها مصر .. فهى الهجرة الداخلية بين أجزائها المختلفة ، كثافة الهجرة الداخلة ، ضعف الهجرة الخارجية ، قوة الهجرة الداخلية ، تلك اذن هى السمات الأساسية تاريخيا فى تركيب الهجرة فى مصر ، ص ١٣١) ، ومن هنا يوجه اهتمامه للثالثة .. أى الهجرة الخارجية وحدها .. خاصة بعدما فرضت نفسها حديثا .. كظاهرة شديدة البروز ومؤثرة ، ومن ثم يفرد لها مساحة واسعة من صفحات هذا الفصل

(ص ص ١٣٥ ـ ١٩٠) ، أما بقيتها .. (١٥٠ ـ ٢٥٠) فيخصصها "للمشكلة السكانية" .. بأبعادها وحلولها.

الهجرة الخارجة

يمهد لها بنبذة قصيرة عن الهجرة الداخلة ، هذه التى تعرضت لها تاريخيا .. من جيرانها وغيرهم ، ويشير إلى ما سبق له تتبعه فى الجزء الثانى من كتابه (فصل ١٩ ص ٢٥٥ ـ ٣٥٨) .. من اجتذابها لهجرة عناصر بشرية متعددة ، منتهيا الى انها قد شهدت فى العقود الأخيرة. خروج معظم من وفد اليها بعد الاستعمار البريطانى واستقر بها ، ويسميه "الخروج الأبيض" .. (ص ١٣٤) .. باعتباره أوربيا فى معظمه .. بعد سنة ١٩٥٦ خاصة .. كما يرصد (.. وهذا هو الأهم ارهاصات الخروج المصرى .. وبوادر الهجرة الخارجة بعيدة المدى ، والمحصلة .. انه فى نفس الوقت الذى رحلت فيه الجاليات الأجنبية عنها ، تحولت هى نفسها الى الهجرة الخارجة ، بعد الهجرة الينا .. اصبحت الهجرة منا .. انقلاب تاريخى بأى مقياس ، يفتح صفحة جديدة تماما فى كتاب مصر ، ص ١٣٥) ، ولا يدع رصده دون أن يؤكده ، ويضيف مفسرا هذه الحقيقة التاريخية فى تاريخ مصر السكانى ، مضيفا لمسة لها دلالتها الى شخصيتها بعامة (.. إن مصر بلد جعل للهجرة من .. لا إلى ، الهجرة الخارجة لا الداخلة ، واذا كان العكس تماما هو ما حدث تاريخيا وكأمر واقع ، فان العكس تماما هو التعبير

الحق والواجب عن شخصية مصر الكامنة الحقيقية ، ذلك ان البديل الوحيد عن الهجرة من مصر المتناهية الرقعة الزراعية هو ، كلما زاد عدد سكانها عن قدراتها الطبيعية والاقتصادية القصوى ، المزيد من تعظيم الانتاج ، أى التوسع الرأسى ، إلى أن تأتي النقطة التى لا مزيد عليها من التوسع ، وعندئذ تتحتم الهجرة الى الخارج ، والا فانه انخفاض مستوى المعيشة باطراد الى خط الجوع ونقطة ماتحت الصفر أو الأدمية ثم المجاعة فحاجز الموت جوعا فى النهاية ، جـ ٤ ، ص ١٤٢) ، واذا كانت الهجرة الخارجة قد تأخرت .. فربما يكون ذلك مع الكثافة الطافحة .. من أسباب (طمس الشخصية المصرية السوية .. كما حدث ، ص ١٤٢) .

ومن هنا ترحيبه بها .. وتوقعاته الايجابية .. لها .. (.. اننا نعيش الآن انقلابا حقيقيا وتاريخيا فى عملية ، أكاد أقول فى عقلية الهجرة المصرية ، فلأول مرة فى تاريخنا الحديث ، وربما فى تاريخنا المعروف ، تخرج من مصر موجة هجرة بالجملة ، تنتشر فى اطار جغرافى عريض ، صحيح انها .. حديثة ليست دائمة .. بل مؤقتة .. لكنها متجددة ، ويبقى بعض الوقت كى نحكم على طبيعتها النهائية ، الا انها غالبا جاءت لتبقى ، بل لعلها لا تعدو مجرد البداية ، وطلائع مد مستقبلى أعظم ، جـ ٤ ص ١٤٢) .

. وبعد توصيفها يصنفها كعادته الى مراحل ثلاث (جنينية ، تكوينية ، انفجارية) ، وقد بدأت الثالثة مع منتصف

السبعينات ، حيث وصل الخروج المصرى الى أعلاه ، مثل كرة ثلج مليونية ، بل وقفزت بين ٧٣ ـ ٨٣ إلى ٣,٥ مليون وبصيغة نسبية الى مجموع سكان مصر ، تحرك حجم الهجرة من ٠,٣٪ سنة ١٩٦٥ إلى ٣,٧٪ سنة ١٩٧٦ إلى ٧٪ أى نحو الضعف سنة ١٩٨٣ (ص ١٥٣) ، وكما لا تكاد أسرة فى أى مدينة أو قرية أو عزبة .. الا ولها عضو مغترب فى الخارج ، فقد كونت تجمعاتهم المتزايدة فى العالم العربى أكثر من مصر صغرى litlle Egybt في عدد من دوله (جـ ٤ ص ١٨١) ، وبذا لم يعد المصرى يمكن أن يوصف بأنه قعيد بيته Seadentee ، وتضع نهاية تصوره انسانا نباتيا مغروس جذره فى طمى النيل (.. درس الهجرة والمهجر بعبارة أخرى هو ان الانسان المصرى هجرى لا ميلادى فحسب ، ص ١٨٣) .

ورغم حماسه الفائق للهجرة (.. التى ينبغى أن تتضاعف أضعافا ، جـ ٤ ص ١٨٤) . ليس فقط كمساهمة فى حل مشكلة مصر السكانية ، وانما كانطلاقة نحو العالم المعاصر (البالغ السيولة والدينامية) ، لكنه لا يطلق دعوته دون محاذيرها ، ويخضعها للدراسة النقدية تحت عنوان "الهجرة فى الميزان" (ص ص ١٨٤ ـ ١٩٠) ، ويضيف الى ما سبق من ايجابياتها (.. ان الهجرة هى أحد الجوانب المشرقة فى ثروة مصر البشرية ، واذا كانت فى معظمها مادة خاما ماتزال ، فانها بالتعليم والعلم والتكنولوجيا جديرة بأن تتحول الى سلعة تصدير مصنعة رابحة ورائجة ، وبذلك وحده يمكن

تعظيم الهجرة المصرية إلى الخارج الى أقصى حد ، وهذا التعظيم قد يأتي - دون تناقض - بتحجيمها ، تحجيمها بتخطيطها لا بتقييدها ، وتخطيطها كيفيا لا كميا ..) ، وهو يتجاوز ما أحاط بها من حساسيات وتشوهات ، بل ويستخلص من ذلك ايجابياته (بأن الهجرة قد أعادت تقديم العرب الى العرب عامة .. ومصر الى العرب خاصة ، وذلك بعد طول ابتعاد فى عصر الاستعمار ..) ، ويتصاعد بالفكرة ويرى فى الهجرة المصرية (.. أداة مجسمة من أدوات عملية تمصير العرب ..) ، كما يراها تجربة عملية فى تطبيق الوحدة العربية (.. فإن التجربة كابح واقعى للأوهام ، مثلما هى حافز منبه ضد اخطار الاقليمية الضيقة ..) .

أما صيحته التحذيرية فتتلخص فى سؤاله عن "مستقبل الهجرة" ، مبعثها ما أصبح يحيطها من شكوك عميقة معلقة (.. فبينما كانت أوائل السبعينات هى بداية المد ، بدت أوائل الثمانينات وكأنها بداية الجزر ، وربما تنفجر فقاعتها فى التسعينات ، ذلك الانفجار المدوى الذى سيكون له نتائجه واثاره التى تفوق خطرا فرقعته ودويه ، ص ١٧٦) ، ويرى بضرورة الاعداد والاستعداد من الآن لعودة الطيور المهاجرة ، وترتيب الاتفاقيات مع دول البترول على جداول زمنية تدريجية لعملية التسريح الحتمية ، حتى تخف صدمة التيار الراجع والتوازن الجديد إلى الحد الأدنى .. والا (.. فإن متاعب خطيرة متفجرة لابد من انتظارها) غير أنه يجدد دعوته إلى رفع مستوى العمالة المصرية .. بحيث تبقى دائما

محل الطلب في الأسواق الخارجية ، وليس بالضرورة الأسواق البترولية .

وهكذا بعد تقليب الهجرة الخارجة على وجوهها ، يصل إلى المشكلة .

المشكلة الأم

والآن يصل به المطاف إلى "مشكلتنا السكانية" (.. هى واحدة من أخطر ملامح الكيان المصرى المعاصر ، انها المشكلة الأم .. حتى ليصح ان نضعها قاعدة عامة فى كل مشاكلنا ، فتش عن السكان ، ص ١٩٠) .

ويبدأ بتشخيصها تحت عنوان "سباق السكان والموارد" (ص ١٩٠) ، مستخدما مؤشرات (الفرد والأرض + الفلاح والأرض + الكفاية الغذائية + اتجاه الدخل) ، منتهيا الى تشبيهه بسباق السلحفاة والأرنب (١٩٦) ، السلحفاة للموارد والسكان للأرنب بداهة .

أما أعراض المشكلة فتتمثل فى (العمالة والبطالة + الريف والزراعة + المدن والتحول المهنى + هجرة العقول + دولة الموظفين + مستوى المعيشة + التغذية والمركب الغذائى + الصحة والمركب الباثوجينى) .

منتهيا إلى اثارة سؤال هام ـ حول معنى الافراط السكانى ؟ .. باعتبار ان الافراط يبدأ حين يختل التوازن بين السكان والموارد .. فهل حدث ذلك فى مصر ؟ وما هى نسبة

الافراط فوق الحجم الأمثل بالضبط ؟ وتقتضيه هذه الاسئلة تقديم وجهات النظر المختلفة حول الموضوع (ص ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧) ، حيث يقرر أن لب القضية كمية وكيفية معا (.. أناسٌ أكثر مما ينبغي .. من نوعية أقل مما ينبغى ، ص ٢٢٧) ، وتحت عنوان "حلول أربعة" (ص ٢٣٤) يقدم تصوره العام لحل المشكلة .

★ اعادة توزيع الدخل :

(.. لابد من اعادة توزيع الدخل القومى توزيعا عادلا على الجميع ، فهذا من شأنه أن يخفض من الاستهلاك غير العادى وغير العادل للطبقات الغنية الطفيلية من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرفع مستوى معيشة الطبقات المعوزة ، بما يؤدى فى النهاية الى خفض معدلات نموها سكانيا ، ص ٢٣٦) .

★ زيادة الدخل القومى :

(أيا كان الفاعل والمفعول به بين طرفى المعادلة ، فلابد من الاستناد الى استراتيجية للتنمية ، وليس من حق أحد ان يدعو الى غير ذلك من حلول .. قبل أن يرتاد ويستنفذ الحل الاقتصادى تماما ، ص ٢٣٦) .

★ الهجرة :

(.. من المؤكد أنها قد ساهمت بعوائدها فى حل المشكلة السكانية .. أو تخفيضها ، ولا مجال للخوف من سلبياتها ، وبالحجم المناسب لن تؤثر فى الاقتصاد المصرى مطلقا . ص ٢٤٠) .

★ ضبط النسل :

(.. واقع الأمر .. أن ضبط النسل .. مفتاح تخطيطنا القومى لحل المشكلة ، ص ٢٥٠) .

واذا كانت المشكلة السكانية . هى مشكلة مصر بعامة ، فانها تتمثل فى أعقد تداعياتها فى عاصمتها القاهرة ، هذه التى تجسد فى حد ذاتها .. مشكلة مصر الثانية ، ليس فقط من حيث ما تعانى هى منها ، بل وأيضا فيما يؤدى اليه تضخمها من مشاكل .. تصيب القطر كله ، ومن ثم يتوجه بعد السكان لها . (فصل ٣٩ ص ص ٢٥١ ـ ٣٩٥) .

المركزية العاصمية (قاهرة مصر)

يفسر بالمركزية الجغرافية تفرد موقع القاهرة ، فهى تقع عند رأس الدلتا .. عقدة مصر العظمى (.. مقدمة خاصرة الوادى بكل معنى ، تؤدى كل الطرق إليها ، عنق الزجاجة ، عنق مصر ، مركز الثقل الطبيعى هندسيا ، ونقطة الارتكاز ميكانيكيا ، ومركز الثقل بشريا ، ص ٢٦٥) ، وبذا يفصح عنوان الفصل عن دلالته ، وتغدو هذه الدلالة مدخله لدراسة القاهرة .. وكشف خصائصها الناجمة عنها ، على أن القاهرة .. ليست وليدة الجغرافية فقط ، بل هى من اختيار التاريخ أيضا ، فرغم تغيرات موقع عاصمة مصر عبر تاريخها ، فقد استقطبتها رأس الدلتا عامة .. قرابة ٢٥٠٠ سنة متقطعة . بما يعادل نصف تاريخ مصر (ص ٢٦٥) .

ومع تعدد مناهجه .. إلا أنه يتخذ من التحليل المكانى محوره .. يفسر بها مركزيتها الصارمة .. كخاصة أساسية دعت لظهورها .. وتخللت نسيجها . وأفضت إلى ايجابياتها وسلبياتها فى المحصلة .. لها ولمصر كلها ، ومن ثم يصدرها .. ويجعل منها العنوان الرئيسى لفصلها ، ويصيغها فى مقولة مكثفة (مركزية رغم الامتداد) تخص القاهرة ، كما ان لها دلالتها العريضة عن جانب هام من شخصية مصر الاقليمية .. (.. لعل من أبرز ملامح شخصية مصر ، المركزية المصارخة طبيعيا واداريا وحضاريا ، وهى صفة متوطنة مزمنة حتى اليوم ..) ، يفسرها ويتابعها (.. وترقد الطبيعة بوضوح خلف هذه الظاهرة ، فنحن ابتداء ازاء مركزية مورفولوجية ، أى تركيبية ، أى جغرافية صريحة ، فتبلور الوادى الضئيل داخل شرنقة الصحراء الشاسعة .. وتجسمه حول النيل ، يجعله جسما ملموما ونسيجا ضاما ، ص ٢٥١) .

ولكن هذا التجسم حول النيل .. يحمل داخله امتدادا .. يجعل من مصر المعمورة (مسافة لا مساحة ص ٢٥١) ، فالصعيد يفتقر إلى قلب طبيعى ، يجعل منه امتداده الخطى طولا بلا عرض ، أحادى الحركة والتوجه ، لا تتميز فيه نقطة عن أخرى ، وكذلك الدلتا التى تخلو من بؤرة حاسمة ، فلئن كان بها حزمة من خطوط طبيعية على المحور الشمالى الجنوبى ، متمثلة فى فروعها وترعها ، فإنها تعدم أى محاور طبيعية عرضية تتعامد عليها ، وتؤدى إلى عقدية طبيعية

madality فعالة (ص ٢٥٢) ، وقد اتسق مع هذا الامتداد والانسياح .. توزيع العمران والمواصلات .. مؤكدا صورتها العامة (.. الصعيد كالدلتا تقريبا .. هذا خط بلا بؤرة .. وهذه رقعة بلا عقدة) .

وهكذا يفسر عنوانه "مركزية رغم الامتداد" .. ويوضحه ، منتقلا إلى مقولته الثانية (تكاد القاهرة تلخص كيان مصر البشرى) حيث هى بحكم موقعها المركزى بين الدلتا والصعيد .. تستمد سكانها بتوازن معقول من كل اقاليم الدولة ، وبالتالى تؤلف بحق عينة ممثلة لمصر (ص ٢٦٩) ، بل هى تلخص كيانها الطبيعى أيضا ، بل انه الأسبق ، فالقاهرة مروحية الشكل ، ضيقة طولية فى الجنوب ، وهذا هو هيكل الأرض السوداء فى مصر عموما ، هى اذن تختزل شكل مصر الجغرافى أيضا ، بل هى فوق ذلك تختزل تاريخها فى تركيبها ، حيث تقع بين قوسين معلقين من التاريخ القديم .. الفرعونى غربا والاسلامى شرقا ، فى حين ترقد المدينة الحديثة فى القاع المنخفض بينهما ، هى ثالثا اذن (.. خير نقطة فى مصر تختزل تاريخها ، ص ٢٦٨) .

ولأن المركزية تورث الحجم .. فقد نمت القاهرة وأفرطت فى تضخمها ، من مدينة مليونية سنة ١٩٢٧ بنسبة ٨٪ إلى جملة سكان مصر ، إلى أكثر من ٥ ملايين سنة ١٩٧٦ ، دون حساب هوامشها العشوائية ، وفاضت خارج كردونها (٢١٤ كم^{2}) ، وافترشت عمليا قرابة ٢٩٠٠ كم^{2} ، متضمنة اقليم العاصمة المدنى بمعناه الواسع ، وفراغاتها المحيطة ،

والقرى والعزب القريبة ، وأجزاء من بعض المراكز الريفية فى الجيزة والقليوبية ، هذه التى دخلت أو أوشكت ضمن نسيجها المتروبوليتانى (ص ٢٩١) ، وتبعا لأرقام ١٩٨٣ بلغت نحو ٩,٣ مليون نسمة ، أى نحو ٢٠٪ من جملة سكان الدولة ، أى ضعف نسبة العاصمة فى الدول الناضجة حضاريا (ص ٢٩٢) ، وصفوة القول أن حجم القاهرة ليس فقط أكبر جدا مما يتناسب مع حجم سكان البلد ، ولكن أيضا مع أحجام سائر المدن فى البلد عدا الاسكندرية .

ويتابع احصائيا نموها (.. لقد أصبحت "القاهرة" مدينة مليونية منذ تعداد ١٩٢٧ ، بنسبة ٨٪ الى جملة سكان مصر ، ثم تضاعفت بعد نحو عقدين .. وترتفع نسبتها إلى ١٠٪ ، وأضافت المليون الثالث قبل أقل من عقد .. وتزيد نسبتها إلى نحو ١٣٪ ، وفى أكثر قليلا من نصف عقد أضافت المليون الرابعة ، وزادت عن ٥ ملايين فى ارقام ١٩٧٦ ، دون حساب هوامشها العشوائية المكدسة ، وفاضت خارج كردونها المساحى ٢١٤ كم٢ الذى لم يعد سوى القاهرة الصغيرة بملايينه الخمسة ، أما القاهرة الكبرى فقد افترشت عمليا أكثر من عشرة أضعاف هذه المساحة (٢٩٠٠ كم٢) متضمنة إقليم العاصمة المدنى بمعناه الواسع ، وفراغاتها المحيطة ، والقرى والعزب القريبة وأجزاء من بعض المراكز الريفية فى الجيزة والقليوبية .. هذه التى دخلت أو أوشكت ضمن نسيجها المتربوليتانى تضم تبعا لأرقام ١٩٨٣ نحو ٩,٣ مليون نسمة .. أى نحو ٢٠٪ من جملة سكان الدولة ، اى ضعف نسبة العاصمة فى الدول الناضجة ريفيا وحضريا ،

(وفى المرتبة السادسة بين أكبر مدن العالم حجما .. سابقة بذلك بكين الصين ذاتها (ص ٢٩١) .

وتصل التوقعات بها في ١٩٩٠ إلى ما بين ١٣ ـ ١٦ مليونا (٢٦٪ من الحجم المتوقع لسكان الدولة ، ويقدر أن تبلغ دائرة ٢٠ مليونا مع سنة ٢٠٠٠ وربما ٢٨ مليونا .. وبذلك تستوعب أكثر من ثلث حجم الدولة المتوقع لها أيضا آنذاك .

وصفوة القول إذن أن حجم القاهرة ليس فقط أكبر جدا مما يتناسب مع حجم سكان البلد ، ولكن مع أحجام سائر المدن فى البلد عدا الاسكندرية فقط .

المركزية الوظيفية

ليس هذا فحسب .. فقد اقترن بالمركزية العاصمية منذ وقت طويل .. تركز شديد للوظائف الحضرية فى شتى أشكالها ، تمثل أولا فى الوظيفة السياسية (.. لقد كان لمصر دائما دور خارجي ، غالبا بدرجة أكبر من امكانياتها ، بدت معه كرأس كبير ينوء به جسم صغير ، تركزت بها كل المسئوليات والتطلعات الخارجية ، ومن هذا التناقض نشأت متناقضة العاصمة الكاسحة والجسم الكسيح ، ص ٢٨٦) ، واقترن ذلك بدور الحكومة الطاغى ، وأرسى نواة الموظفين الثقيلة ، واصبحت البيروقراطية المركزية عنصرا أصيلاً فى مركب الحضارة المصرية (ص ٢٧٠) ، ولقد نما عدد الموظفين

الحكوميين فى العقود الأخيرة نموا هائلا ، قاربت دائرة الملايين الثلاثة ، تعادل أكثر من ٣٠٪ من مجموع القوة العاملة فى مصر (٢٧٥) ، ورغم الحكم المحلى ، يظل جيش الموظفين فى العاصمة ، لقد كانت القاهرة دائما كما يصفها جاك بيرك قلعة قديمة لمركزية الدولة (ص ٢٧٦) .

وهكذا تدحرجت مركزية العاصمة مثل كرة الثلج ، لتصبح القاهرة في اللاندسكيب الحضرى المصرى أقرب لأن تكون الورم الأكبر (.. لقد تحولت القاهرة من مجمع مدنى إلى كائن يمتص دم الإقاليم ..) ، ليس فقط أراضيها المزروعة ، بل ورؤوس أموالها أينما كانت (.. بعدما كانت الأرض الزراعية بالوعة مصر الاقطاعية ، اصبحت القاهرة بالوعة مصر الرأسمالية) ، ولئن كانت القاهرة لا تتعدى خمس الدولة من حيث العدد المطلق ، فلعلها تزيد عن النصف من حيث الوزن والثقل الفعال ، فلو أننا قيمنا الدخول المرتفعة والعقارات والأملاك والصناعات والمرافق والخدمات الراقية ، وكذلك مالا يمكن تقييمه رقميا كالسلطة والنفوذ ، فلقد ترجح العاصمة كفة بقية البلد ، ص ٣٣٧) .

ولقد امتد ذلك الى صدرها هى نفسها ، لقد تجاوز التضخم حد التخمة المرضية الى التفجر الباثولوجى ، فباتت كل مؤسسات العاصمة تئن وتتأكل وتنهار تحت ضغط سكانى متفاقم ، واذا كان لذلك من معنى فهو بلاشك أن مصر باتت تتألف من مدينة كبرى وقرية كبرى ، المدينة الكبرى هى

العاصمة ، والقرية الكبرى هى الأقاليم ، ولم يكن تضخم العاصمة hyperlrophy سوى نتيجة لضمور الريف atrophy (ص ٢٨١) .

وقبلما يفسر الآليات التى أدت إلى هذه الثنائية المرضية .. يحدد مؤشرات تفاقم مشكلات العاصمة فيما يلى :

★ تلتهم القاهرة ١٤٤٠ فدانا كل سنة من الأراضى الزراعية .

★ تبلغ كثافتها العامة نحو ٢٤ ألف/كم^{٢} (أكثر من ٣٠٠ نسمة/فدان) ، وتصل الى ١٠٠ ألف نسمة فى أحياء روض الفرج وباب الشعرية (٣٥٤) .

★ يخص الفرد من المساحات الخضراء والمفتوحة ١,٦ م^{٢} مقابل ١٢ ـ ٤٠ مترا فى المدن المتوازنة .

★ تتدفق اليها هجرة الفقراء والمعدمين النازحين من الريف ، فتتحول هوامشها الى معسكرات انتظار ومدن وعشش الصفيح Shanty towns , bidonvilles تمثل الريف فى العاصمة أو عملية ترييف المدينة .

★ أكثر من ٢٥٪ من مبانيها آيلة للسقوط ، وقد تجاوز ٤٠٪ منها عمرها الافتراضى ، ونسبة ثالثة لا تصلح للآدميين (٤١٪ من سكان حى الخليفة ، ٢٨,٨٪ من سكان الجمالية ، ١٣,٣٪ من سكان الدرب الأحمر .. يقطنون المقابر ..) ص ٣٥٦ .

★ اختناق حركة المواصلات ، وغياب التخطيط بين مواقع السكن والعمل .

★ التلوث .. الرصاص عشرة امثال المتوسط العالمى .

وينفى أن تكون الجغرافية وحدها (المركزية المكانية) وراء تلك الثنائية المختلة ، هى قد تؤدى اليها فى نسبة معينة .. ولكنها تعود بعدها لغيرها ، عوامل تاريخية واجتماعية وسياسية وحضارية ، بل والي (.. عوامل آلية بحتة كامنة في ميكانيزم نمو المدن .. تتداعى بها مثل كرة الثلج ، ص ٢٨٣) فلئن كانت المركزية تورث الحجم ، فان الحجم أيضا يورث الحجم ، والكل يرتبط فى النهاية بصورة أو أخرى بسياسة "دعه يمر" التى تترك الأمور تجرى عشوائيا فى أعنتها ، ويفيض بعد ذلك فى تحليل هذه العوامل غير الجغرافية (البحتة)، فى متابعة تاريخية يبرهن بها على مقولته ، كما يستخلص منها دلالاتها الأخرى (جـ ٤ ص ص ٢٨٣ ـ ٢٩٠) ، محددا انعكاساتها الاخرى هذه التى تكاد تتطابق معها شكلا ومضمونا مثل :

● الهرم الطبقى الاجتماعى .
● النظام التعليمى .
● مورفولوجية العمران والبناء
● البيروقراطية الوظيفية .
● الاستثمارات الرأسمالية .
● الدور السياسى الاقليمى .
● الهجرة الريفية .

● التركيز الصناعى .

وتحت عنوان "حماقة العاصمة الجديدة" (ص ٣٦٠) .. يضع مناقشته للحلول المطروحة لحل مشاكل القاهرة ، ويفصح العنوان عن رأيه المبدئى فى هذا الاقتراح .. بانشاء عاصمة بديلة لها ، مفندا المواقع المقترحة كبدائل لها ، منتهيا الى أن (.. القاهرة ـ ليست نبتا شيطانيا ، بل ليس فى الدنيا عاصمة أكثر منطقية وطبيعية من القاهرة ..) .. إذن فموقعها ليس المشكلة ، ويتبعه بمناقشة اقتراح "العاصمة المغلقة" (ص ٣٧٠) ويراه حلا مناسبا .. على الأقل .. لوقف التفجر الراهن فى نموها ، ويفضل غيره ، وقد يؤدى الى تثبيت حجمها ، مذكرا بما اقترحه يوما .. من تثبيت حجم القاهرة عند دائرة (٧ ملايين نسمة) كسقف أعلى لنموها .. وكذا بالنسبة لغيرها من العواصم الإقليمية المتنامية ، ولكن بما أن ذلك قد فات .. ولم ينتبه أحد لدعوته .. فإن تثبيت الحجم باغلاقها .. لم يعد كافيا .. بعدما تضاعف حجمها عما اقترحه ، وفى مقابل ما يسمى "بالقاهرة الكبرى" (.. وهى عنده خطة تضاعف من حجمها ومشكلاتها .. ومن ثم فهى قطعة من جنون الضخامة . سوف تؤدى كالديناصور إلى انتهائها ، ص ٣٧٢) ، ويستبدلها بخطة متناقضة . تتحدد بعد (الغلق + التثبيت) فى تنصيفها ، مستندا فى ذلك الى مبادئ الإقليمية المتوازنة .. التى ترى الصورة ضمن اطارها الأوسع .. بهدف التوصل الى شبكة حضرية فعالة بقدر ما

هى متوازنة ، ويتوجه نحو وضع بنود تنصيفها عمليا كما يلي :

★ تحويل القاهرة الى عاصمة سياسية فقط .
★ ايقاف النمو الصناعي فورا بها .
★ تخليصها مما يحيطها من أحياء الصفيح والعشش .
★ التوقف عن انشاء المدن الجديدة .. بالقرب منها وحولها .

.. (باختصار ليس المطلوب مدنا جديدة .. ولكن مدينة منصفة ، لا القاهرة الكبرى هى المطلوب ، وانما القاهرة الصغرى ، جنبا الى جنب وشرطا مع الاقليمية الكبرى .. نقطتنا التالية ، ص ٣٧٨) .

وهكذا يتحدد اقتراحه (الغلق + التثبيت + التنصيف) .. مستندا كما سبق .. إلى مبادىء الاقليمية Regionalism الراسخة ، والرامية إلى تفكيك المركزية الصارخة .. لحساب عواصم بقية اقاليم مصر كلها ، ومن ثم فليس تخطيط القاهرة عملية منفصلة بذاتها .. ولا يجب (حسنا إذن .. كيف الآن نعيد بناء أقاليمنا ؟ ص ٣٨١) .

وتستغرق اجابة هذا السؤال ـ بقية صفحات هذا الفصل (٣٩ ص ص ٣٨١ ـ ٣٩٥) ، يحدد رؤوس إجابته عن التنمية الاقليمية فيما يلى :

★ اعادة وبعث واحياء المدن والعواصم الاقليمية .
★ اعادة بناء القرية :

★ اعادة تخطيط هيكل التقسيم الادارى (ص ٣٨١) .

ويفصل فى كل منها كما ينبغى ، كما يقدم اقتراحه بشأن خريطة التنمية الاقليمية (ص ٣٩٥) ، هادفا فى المحصلة .. إلى احلال اللامركزية .. محل المركزية الموروثة المتوطنة .

وبها ينهى هذا الفصل الذى خصصه "لمشكلتى السكان والقاهرة" .. باعتبارهما أبرز أمراض خريطة مصر الاجتماعية ، منتقلا بعده (فصل ٤٠ ، ص ص ٣٩٩ - ٤٧٩) إلى تحليل عدد من سماتها الحضارية المتميزة .

تعدد الأبعاد

كما سبق .. فإن لكل فصل من فصول الجزء الرابع من كتابه .. مفتاحه .. يضعه كعنوان له ، يحصد به ما سبق بذره فى فصول أجزائه السابقة ، يستهله بتعدد الأبعاد فى شخصية مصر ، ثمرة للجزء الثانى عامة ، ولنظريته السارية عن الوضع والموقع خاصه ، وكما أن التجانس فى شخصية مصر خاصية للموضع ، فان تعدد الأبعاد فى كيانها وظيفة للموقع (.. تعدد الأبعاد والجوانب فى كيان مصر وتوجهها نتيجة متوقعة للموقع البؤرى فى قلب مثلث القارات ، فمصر حلقة للوصل من العالم المتوسطى وبين حوض النيل برمته ، وعلى الجملة بين افريقية وأوربا ، وتتحدد لنا فى المحصلة

العامة أبعاد أربعة في توجيه مصر ، الآسيوى الافريقى على مستوى القارات ، والنيلى المتوسطى على المستوى الاقليمى ، جـ ٤ ص ٣٩٩) ، وكلاهما (التجانس + تعدد الأبعاد) من أدوات فحصه لشخصيتها .. واستخلاص مكنوناتها .. وتحديد هويتها (.. على ان الكل يتداخل مع الاطار العربى الكبير ، بيد أن الاطار العربى ليس مجرد بعد توجيهى ، وانما كيان الجوهر فى ذاته .. هو الوجه والهوية ، ص ٤٠٠) ، والهوية عنده ثقافية فى جوهرها ، ومن هنا فلا تعارض وبين تقريره (مصر هى النيل) .. فرغم أنه أقوى وأعمق ما يربط مصر بخارجها .. بما يجعل من البعد النيلى فى طليعة أبعادنا الخارجية أولا .. ومحوريا فى بعد مصر الافريقى ثانيا ، الا انه لم ينقل اليها مع مائيته وتربته "ثقافة افريقية" ، بل كان وسيلة نقل الثقافة العربية الى داخل افريقية ، وبما انه بصدد تحديد ملامح شخصية مصر الحضارية .. فالثقافة هى أول ما يهمه .

فاذا كان النيل هو مصر ذاتها .. والعروبة هويتها .. فما دور البحر المتوسط فى شخصيتها الحضارية ؟ ، وتقتضيه اجابة هذا السؤال بحثا مطولا فى حضارة البحر المتوسط ، ومناقشة مسهبة لكافة الآراء التى عرضت لعلاقة مصر بحضارته ينتهى منها إلى .. (.. وأن البحر المتوسط من ابعاد التوجيه الحضارى المصرى .. قضية لا يمكن بداهة أن تكون خلافية ، فالنيل اذا ينحدر شمالا ليصب فيه ، والحياة المصرية اذ تجرى مع النيل نحوه ، فإن مصر برمتها تتوجه

اليه وتتطلع نحو الشمال ، والبلد اذ يطل عليه بجبهة مشرفة مترامية نوعا ، واذا يمثل البحر أحد ضلوعه الأربعة ، أو بالأصح الضلع الوحيد الحى الذى يتصل مباشرة بالمعمور المصرى ، باعتبار الضلع العربى ميتا .. والجنوبى والشرقى شبه ذلك ، نقول ان البلد بهذا لا يملك الا ان يتفاعل مع البحر ويتعايش ، أى ان احاطة الصحراء بمصر . كما بالشام والأناضول وجهتها كما وجهتهم نحو البحر المتوسط ، كما ربطتهم ببعضهم البعض ، وربطتهم بأوربا من خلفه ، كما يرتبطون بافريقيا واسيا ، ان مصر وفورا ولا تردد .. توسطية أكثر مما هى مدارية أو افريقية ، جـ ٤ ص ٤٤١) .

ويتساءل عن وزن أبعاد مصر فى شخصيتها ؟ وعن نسبها فى تكوين هويتها ؟ ، وعن دورها بالنسبة لكل منها ؟ (ص ٤٥٩) ، ويجيب .. (قد يكون من المفيد أن نفرغ أولا .. من أن الأبعاد البحرية تأتى فى الحل الثانى بالضرورة .. اذا ما قورنت بالأبعاد القارية ، ويتحدد المجال البحرى المصرى تقليديا بالبحرين المتوسط والأحمر ، والثقل الأكبر فى الأهمية للمتوسط ، واذا كان كل منهما يستمد جزءا اساسيا من قيمته العالمية من الآخر ، ودون تناقض .. فدور مصر فى البحر الأحمر أكبر نسبيا من دورها فى البحر المتوسط ، واليوم فإنها بلا نزاع محور استراتيجية البحر الأحمر الأساسية والحربية ، ص ص ٤٥٩ ـ ٤٦١) .

وتحت عنوان له دلالته "تعدد لا انفصام" .. (ص ٤٥٩) يقرر (.. وداخل هذه الدوائر .. لم تصب مصر عادة بدوار جغرافي ، ففيما عدا الانتماء العربى المؤكد .. فنحن مصريون قبل أن نكون افريقيين أو اسيويين أو أوربيين ، نحن فى افريقيا ولسنا منها ، ومن أوربا ولسنا فيها .. ولسنا فى آسيا .. ولكن إليها ، ذلك أننا فى افريقيا الجغرافية والأرض ، ومن أوربا إلى حد ، وإلى اسيا بالتاريخ والثقافة ، ص ٤٦٨) ، وداخل هذا الاطار .. فإن لمصر علاقة خاصة بكل من السودان والشام .. يحددها فى سياق سابق .. حيث يقرر (.. ولا يمكن أن نتكلم عن البعد النيلي لمصر .. دون أن نضع أكثر من خط تحت السودان ، فمع موقع الجوار الجغرافى ، ووحدة النيل الهيدرولوجية .. أصبح من أشد الأقاليم ارتباطا بمصر طوال التاريخ ، شأنه فى ذلك شأن الشام .. حيث الرابطة هى موقع الجوار والوحدة الاستراتيجية ، أى بين مصر والسودان .. كما بين مصر والشام علاقة خاصة .. بمعنى ما ، وكلتا العلاقتين قديمة .. وسابقة للعروبة كما هى لاحقة عليها ، ص ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨) .

وبين هذه الأبعاد .. فإن مصر هى البوصلة الراسخة ، ومقياس الأبعاد كلها يتحدد فى انتمائها القومي (.. أى العروبة .. الكيان والجسم نفسه .. قبل أبعاده ، فالقومية العربية وحدها تحفظ توازنها.. ويمنع عنها الاصابة بالدوار الجغرافى بينها ، ذلك هو المصل المضاد لخطر الدوار

الجغرافى فى قلب العالم ، ص ٤٦٩) ، وسيعود إلى تأكيد هذه الحقيقة مرارا وتكرارا فى بقية صفحات هذا الفصل .. وما يتبعه .. إلى نهاية كتابه .

وبعد تعدد الأبعاد .. ينتقل إلى "التوسط والاعتدال" .. كسمة بارزة فى قسمات شخصية مصر الحضارية ، يخصص لها الفصل التالى (٤١ ص ص ٤٨١ ـ ٥٥٠) من هذا الجزء الثانى من كتابه .

التوسط والاعتدال

وتأتى مقولته عن "التوسط والاعتدال" لتتكامل مع سابقاتها (التجانس + المركزية + تعمد الأبعاد) هذه التى تميز مع ما يأتى بعدها شخصية مصر الحضارية ، وجميعا بمثابة أدواته لفحص جوانبها والكشف عن أسرارها العميقة ، حيث تثبت تطبيقاته لها تخللها نسيج هذه الشخصية .. وتجليها بدرجة أو بأخرى فى عناصرها ومكوناتها (.. ليس من قبيل التبسيط أن تعد التوسط والاعتدال من أبرز السمات العامة فى شخصية مصر والشخصية المصرية ، فالوسطية والتوازن سمات رئيسية عريضة فى كل جوانب الوجود المصرى تقريبا ، الأرض والناس ، الحضارة والقوة ، الأخذ والعطاء ، جـ ٤ ص ٤٨١) .

ويعود فيؤصل هذه السمة في المكان . شأنها شأن غيرها (.. سواء من حيث الموضع أو الموقع ، تمثل مصر مكانا وسطا ، وسطا بين خطوط الطول والعرض ، وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الانتاج ، وبين القارات والمحيطات ، حتى بين الأجناس والسلالات والحضارات والثقافات ، وبغير فكرة التوسط المحورية هذه ـ لن نفهم روح مصر أو شخصيتها ، بل يمكن القول أن هذا التوسط هو مصر نفسها ، ص ٤٨٢) .

ثم يدمجها مع نظريته العامة عن "الموضع والموقع" ، ويقدرها وقد انبثقت من توازنهما العام فى مصر (.. نجد فى الموقع والموضع توازنا وتقاربا عاما من حيث القيمة والأهمية ، ونجد بناءً حضاريا يتكافأ مع قوة الأساس الطبيعى ، ونجد فى الحضارة عطاءً يعادل الأخذ أو يزيد عليه ، بالمثل فى الموقع والمناخ ، فى الجنس والسكان وحتى فى الثقافة والدين ، ص ٤٨٨) ، أى أن التوسط والاعتدال يستند الى قاعدة راسخة من التوازن الطبيعى يفصلها (.. يمتاز الموضع بتوازن ملحوظ فى الهيئة ، وذلك بتناظر البحرين والصحراوين والهضبتين على جانبيه ، كما يمتاز بالتوازن فى درجة الاتصال .. حيث تتسم مصر بفضل عزلتها النسبية الخفيفة بالاعتدال والتوازن بين العزلة الجغرافية المنطوية والانسياح أو الانفتاح الكاسح ، أيضا فإن مصر كشبه واحة فى وسط الصحراء ، تعد أيضا شبه واحة ساحلية تجاور البحر وترتكز اليه وتنفتح عليه ، وبالوضع نفسه فإنها

تعد بمثابة جزيرة أو شبه جزيرة نهرية ساحلية بين الصحراء والبحر ، إلا أنها بمقياسها الضخم واحاطة الصحراء تعد فى الوقت نفسه جزيرة قارية من الخارج ، ولكن الغريب بعد هذا أنها من الداخل تبدو كأرخبيل نهرى يتألف من آلاف الجزر من كل حجم ومقياس ، وذلك بحسبانها بيئة نهرية تختطها وتقطعها مئات الترع والمصارف والقنوات من كل حجم ومقياس ، جـ ٤ من ٤٨٥) .

وتنمو الفكرة وتتصاعد من مستوياتها البسيطة إلى مستوياتها الأعلى ، حيث يؤدى التوازن الطبيعى القاعدى .. الى توازن البنية الحضارية فوقه ، بما يتضمنه ذلك من تفاعل بين شتى العناصر ، يؤدى الى تركيبة قوامها التوسط (... والواقع أن هذه التركيبة الفريدة تقودنا خطوة أخرى الى الأمام نحو أخص خصائص موضعنا الطبيعى ، فهو فى الحقيقة انما يمثل احدى الحالات النادرة مما يمكن أن نسميه "تراكب البيئات" Superimposed enuironments ، فلقد استطاعت الحضارة الحديثة ووسائل النقل بالجملة أن تخلق أخيرا بيئات تركيبية منقولة تتواقع فى نقطة واحدة عن طريق الاحتكاك الحضارى ، ولكن الطبيعة خلقت فى مصر منذ البداية بيئة طبيعية تركيبية تراكبية حين أوصلت النيل من منابعه وبخصائصه الموسمية من قلب افريقيا الى عتبة البحر المتوسط .

وهكذا جمعت مصر بين عدة مزايا نادرة استمدتها من موقعها هى كمصب ومن منبعها كمصدر ، بحيث جمعت بين

محاسن كل منهما دون أضداد أى منهما ، حتى ليمكن القول إنها جغرافية مقطرة مرشحة .. تلك التى ظفرت بها مصر من الطبيعة ، فهى أولا قد أخذت موقع البحر المتوسط المتقدم .. ولكن ليس موقع الحبشة السحيق المتخلف ، وهى قد أخذت من اثيوبيا الجبلية الوعرة المضرسة .. بيئة سهلية منبسطة كأفضل ما يكون الاستواء ، واستمدت منها تربة رسوبية بركانية .. ولكن دون أن تعانى من البركنة والزلازل ثم هى أخيرا قد أخذت مائية الموسميات .. دون أن تأخذ منها رطوبتها الوائدة ومناخها القاسى ، بالاختصار وبصيغة جامعة ، مصر صحراوية المناخ .. ولكنها فى الوقت نفسه موسمية الهيدرولوجيا ، غير أنها أيضا متوسطية الموقع ، جـ ٤ ص ٤٨٦) .

وهكذا تتجمع خاصية التوسط فى شخصية مصر مما لا يحصر من الجزئيات . التى أخذت من كل منها بقدر جنبها ظواهر التطرف بأى صورة ، فمن المستحيل أن تكون شخصيتها تركيبية ومتطرفة فى آن واحد ، فالأخيرة تعنى الأخذ من جانب واحد .. بكمية ونوعية .. تحجب غيره ، أما التركيبية فتعنى تناسب المكونات فى بنية معتدلة متناسبة التكوين ، ويؤكد المعنى باقتباس من المقريزى عن مناخ مصر (.. مصر متوسطة الدنيا ، فقد سلمت من حر الأقليم الأول والثانى ، ومن برد الأقليم السادس والسابع ووقعت فى الأقليم الثالث .. فطاب هواؤها وضعف حرها .. وخف بردها . وسلم أهلها من الأمراض ، ص ٤٨٨)

وبالنسبة للتطور المادى والاقتصادى (.. ٥١٢) .. فقد سبقت مصر الى الأخذ بأسبابه منذ أوائل القرن الماضى وبدت رائدة فى كثير من وجوه التحضر ، ولكن أين تقع بالضبط فى خريطة العالم ؟

(.. ومهما يمكن من أمر .. فإن الباحث يحار فيما اذا كانت مصر اليوم دولة شبه نامية أو شبه متقدمة ، فقيرة هى بالتأكيد بمتوسط الدخل الفردى بالقياس الى الدول المتقدمة ، ودعك تماما من دول البترول المحدثة ، بحيث يمكن ان تصنف شكلا كدولة انزلقت من العالم الثالث الى الرابع ، غير أنها بمستوى التطور الحضارى والمادى وهيكل البناء التحتى والصرح الفوقى .. تقع بلاشك فوق دول العالم الثالث الجديد ، إن لم تقترب من صغار الدول المتقدمة ، أما المقارنة مع الدول العربية وغير العربية البترولية ، فهى ان لم تكن ظالمة قصيرة النظر حقا .. فإنها على الأقل تنبع أو تعانى من انكسار خطير في الرؤية ، فالأمر كله شذوذ بحت ، حالة بترولية خاصة ، تكاد تقول حالة بترولية مرضية Petro pathology أكثر منها أى شىء آخر ، ص ٥١٥) والواقع أنها تملك تحوز قدرة فائقة ، على التجانس ، تستمدها من خاصية التوسطية .. التى صارت أداة كما هى سمة ، تتجاوز بها التناقضات الطارئة .. وتتوازن وتتعادل بملكة خاصة . فما هى ؟

ملكة الحد الأوسط

يفرق بين التوسط والاعتدال (.. التوسط دراسة فى عبقرية المكان ، والاعتدال دراسة فى عبقرية الانسان ، ص ٥١٧) ، وما الاعتدال والتوازن في شخصية المصرى .. الا الوجه الآخر لتوسط مصر .. ، وهما معا . الاعتدال والتوسط .. ليس التوازن الخامل .. بل ملكة الحد الأوسط ، بمعنى عدم التطرف والتطوح وقرين الحيوية والتكيف ، أو كما يقول ويلسون عن مصر القديمة (.. فمرونة الأسلوب المصرى والوسائل التى حققوا بها الأمن والسلام .. على أساس التوازن بين القوى المتعارضة .. تدل على عبقرية شعبه ، ص ٥١٦) .

ويبدى تحرجه من دراسة بروفيل الشخصية المصرية ـ على الأساس السيكولوجى وحده ، خشية تهمة التملق عند ذكر المحاسن .. والاساءة عند تحديد أضدادها ، ولكنه يتجاوز حرجه .. ويتساءل هل هناك شخصية قومية مصرية ؟ ص ٥١٨ ، وينهمك فى تحليلاته كدأبه ـ بهدف المساهمة برأى فيما أصبح يعرف بقضية اعادة بناء الانسان المصرى ، وتتحدد اجابته .. (.. تتم اعادة بناء الانسان .. فى إطار من إعادة بناء الديمقراطية ، ص ٥٢١) ، ودعك مما تشتهر به الشخصية المصرية .. من سمات اشتهرت بها عبر تاريخها ، كالوداعة والبشاشة والمحافظة وروح النكتة ، فجميعها من

طبيعته وطبعه ، ولن تعاود هذه الشخصية ابداعها .. إلا بالديموقراطية .. وبدونها يتعمق ما أصاب شخصيته السمحة من تشوه ، وتأخذه هذه مباشرة إلى فرضيته التالية "عن الاستمرارية والانقطاع" .. يستكمل بها ما بدأه من سمات شخصية مصر الحضارية (المركزية + تعدد الأبعاد) في الفصول السابقة من هذا الجزء ، ومؤصلا لها بما سبق ترسيخه منها في أجزائه الأخرى (فصل ٤٢ ص ص ٥٥١ ـ ٦٢٧) .

الاستمرارية والانقطاع

ثم تأتي مقولته الأساسية عن "الاستمرارية والانقطاع" مدعما جدارتها وموضحا دلالتها (.. ما من كاتب تعرض لتاريخ مصر أو حضارتها .. دون أن يصر على عنصر الاستمرارية في كل مقوماتها ومقدراتها ، والمهم هو مدى صحة تلك المقولة ، وإلى أى حد بالدقة تذهب هذه الاستمرارية ، وعند أى نقطة بالضبط يظهر نقيضها .. الانقطاع ؟ ص ٥٥١) ، ويضيف محددا مجالاتها (.. ولكي نضع معادلة الاستمرارية ـ الانقطاع في ميزانها الصحيح ، لابد أن ندرك أنها معادلة مركبة متعددة الحدود ، فهي إذ تشمل الأرض والبايس ابتداء ، فإنها تضم النواحي المادية واللامادية جميعا وبذا تطوى الحضارة والثقافة معا ، غير أن الاستمرارية تتركز خصوصا في النواحي المادية ، بينما

الانقطاع الصق بالجوانب اللامادية ، بصيغة أكثر تحديدا الاستمرارية للحضارة أساسا .. والانقطاع للثقافة أساسا ، ص ص ٥٥١ ـ ٥٥٢) .

ويتابع دلائل الاستمرارية فى الأرض والمناخ والفيضان والعمران والزراعة وأسماء الأماكن وتنظم الحكم (ص ص ٥٥٥ ـ ٥٦٣) وغيرها ، حتى يتوصل إلى قانون الاستمرار القاعدى (.. بأن الأشياء تميل فى مصر كقاعدة إلى أن تستمر فى اتجاهها الواحد وعلى خطها المستقيم دون تغيير أو انحراف ، مالم والى ان تصطدم بقوة مضادة لها فى الاتجاه ومساوية لها فى القوة .. فيحدث الانقطاع ، ص ٥٨١) .

وبعد توصله الى هذا القانون الثرى القابل للتطبيق ، يحدد خصائص هذه الاستمرارية .. بأنها تراكمية لا تكرارية ، تضبطها البيئة الطبيعية .. خاصة الموضع والموقع ، فعناصر الموضع (النهر ، المناخ وغيرهما) تعمل بانتظام وباستمرار ودون تغيير ، كما وفر لها الموقع قدرا من العزلة .. والحماية الصحراوية .. حفظتها من الهزات العنيفة أو الانقطاعات الحادة الفجائية (ص ٥٨٦) ، أفضيا ـ أى الموضع والموقع ـ الى تجانس البيئة ـ والى عملية متواصلة من بناء الحضارة .. يطلق عليها "ايكولوجية الحضارة" .. لها جدليتها الخاصة (.. وبها يفسر صعودها فى البداية .. كما يفسر الهبوط فى النهاية .. ثم الاستمرار أو الانقطاع فيما بين

الطرفين ، فعلى الجانب الصاعد .. مثل المركب الحضارى الذي نمته مصر منذ البداية .. حالة تلاؤم بيئى Symboisis وعلاقة فعالة Workable Connection مع ظروف البيئة الطبيعية ، ومن هنا بدت غير قابلة للتجويد عليها ، وبعبارة أخرى فإن التفسير الأساسى للاستمرارية .. إنما يكمن فى ضخامة البداية .. هذه التى وصلت الى سقف البيئة .. والى قرب أعلى آفاق امكانياتها الحضارية ، وعلى الجانب الآخر .. فلم يكن تاريخ مصر بعد البداية الا استمرارا لها .. وبعدها تدهور تدريجى نسبى ، ص ٥٨٨) ، وهى نظرية بدورها خصبة وثرية .

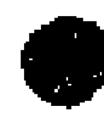
إذن فالاستمرارية قد تحققت للحضارة المصرية .. من وثبتها الأولى المبكرة .. التى استوعبت بها بيئتها . واستوعبتها بيئتها ، فكيف انقطعت ؟ (ص ٥٩٢) وإجابته .. (.. أن قوى الحضارة الغربية ـ منذ الحملة الفرنسية ـ قد أدت الى ذلك تدريجيا ، وانقلبت مصر الزراعية من الرى الحوضى إلى الرى الدائم .. وتغير هيدرولوجيتها .. ومن بعدها معمورها ، وتضاعف حجم السكانى .. بحيث أصبحت أضعاف ما كانت عليه فى تاريخها ، ويفيض فى متابعة كافة ظواهر الانقطاع الأخرى

ويعود إلى فصوله السابقة فى الجزء الثانى من كتابه خاصة هذه التى يتضمنها الباب الخامس (ثوابت جغرافية ومتغيرات تاريخية ، ص ص ٣٦٣ ـ ٦٠٣) ، وبالأخص ه التى تحمل ذات دلالة مقولته عن الانقطاع والاستمرارية ، ه

الفصل العشرون (من السبق الحضاري إلى التخلف ، ص ص ٣٦٣ ـ ٤٥٦) ، والثاني والعشرون (من الطغيان الفرعوني إلى الثورة الاستراكية ، ص ص ٥٣٦ ـ ٦٠٢) ، وكذلك الفصل ٢٣ (من امبراطورية إلى مستعمرة) فهذه هي التي أمدته بمقولته .. وهي مصدرها .. ورصيد براهينه وأدلته ، ومنها يتوصل ويقرر تحت عنوان "السياسة والقوة" (جـ ٤ ص ٥١١) .. إلى أن مجموع نتائج الاستمرارية في تاريخها .. يعادل مجموع نتائج انقطاعه .. بفعل الحضارة الغربية ، ولهذا فان مصر ومعها منطقة الحضارات القديمة .. تواجه أوربا بنوع خاص من ندية الأصالة وعراقة التحدى ، ولعل هذا هو السبب الدفين فى شراسة العداء الغربى لها .. رغم مكانته العالمية ، ورغم ما يبدو على السطح الآن من انعدام التكافؤ تماما ، ولاشك ان كل هذه الخصائص .. تصل الى قمتها فى مصر ، ص ٥١١)

وتقتضيه معادلته (الاستمرار / الانقطاع) .. أن يتعمق فى نسبهما فى كافة مجالات الحياة ، ويرى أن التغير فى اقتصاد مصر .. يبدو أوسع من غيره .. فى الزراعة والصناعة على حد سواء ، ويصفه بأنه فى حالة انصهار وسيولة تامة واعادة تشكيل ، ص ٥٩٨) ، ولكنه يظهر في المجتمع .. أثقل خطي وأقل مدى ، ولكنه يتغير حتما بمؤشرات دالة .. يحددها فى (مد التمدين الصاعد + التجارب والتحولات الايديولوجية + الحراك الطبقى + الخروج المصرى الكبير ، ص ص ٥٩٨ ـ ٦٠٢) ، أما مصر السياسية .. فعلى

طرف النقيض من مصر الاقتصادية (.. مصر السياسية .. آخر وأقل ما يتغير فى مصر ، إنها قمة الثوابت والاستمرارية ، وحضيض الانقطاع والمتغيرات ، ص ٦٠٣) ، وتتوالى العناوين .. يفند بها ظواهر التغير السياسى الشكلية الورقية .. التى توهم بها الحكومة شعبها .. وتقنع بها ديموكتاتوريتها (ص ٦٠٨) - بشتى الأقنعة - ولا مزيد (.. لا السكان ولا الفقر ، ولا حتى الاستعمار فى الماضى أو اسرائيل أو البترول العربى ، هى المشكلة الأم فى كيان مصر ، وانما مشكلة المشاكل . هى قضية الديمقراطية الديكتاتورية أو نظام الحكم المطلق ، انها جماع مشكلة مصر كلها ، ص ٦١١) ، ويتوجه من بعد إلى أعتصار ما يسميه بأجرومية التغير المصرى ؟ .. ، أشبه بالنظرية من كيفية حدوث التغيير فى بنيتها (ص ص ٦١٨ - ٦٢٧) يحددها فى ست قواعد أساسية (تغير لا إرادى أكثر منه اختيارى ، تغير جزئى أكثر من جذرى ، تغير من الخارج قبل الداخل ، تسلسل التغير من المادى إلى اللامادى ، حتمية التغير ، وجهة التغير ، ص ٦١٩) ، ينتهى منها الى هذه المقولة الناصعة (.. الثقافة هى الثوابت .. والحضارة للمتغيرات ، الأصالة للثقافة وللحضارة المعاصرة ، ص ٦٢٧) ، وبها ينهى هذا الفصل الهام ، ومعه الباب العاشر ، وينتقل الى موضوعه النهائى "مصر والعرب" .. ويخصص له الباب الأخير .. من هذا الكتاب (ص ص ٦٣١ - ٦٦٦) .



تحتل العروبة من فكره وقلبه موقعا أثيرا ، تدل على ذلك مقولاته عنها فى العديد من الفصول ، ودائما ما تنطوى عليها تحليلاته عن مصر والمصريين ، وهو حين يتوج بها كتابه .. فإنه يضع بذلك لمسته الأخيرة .. فوق شخصية مصر الثقافية .. التى يمنحها فائق الاهتمام ، وليستكمل أيضا بناء نظريته العامة .. عن "شخصية مصر" .. بعدما أشبعها تحليلا وتنظيرا .. بطول ٣٦ فصلا ومئات الصفحات .

ويستهل هذا الباب باستدراك أو توضيح .. (.. لقد كان التصور الأصلى عند تخطيط هذا العمل أن يأتى هذا الباب الختامى .. تتويجا وقمة له جميعا ، يستخلص ويستقطر أعمق وأخطر نتائجه النظرية والعملية ، ثم يرسم أهم وأدق دروسه .. ومؤشراته التطبيقية والمستقبلية .. فى مجال العلاقة العضوية .. التاريخية والمصيرية بين مصر والعرب ، وعلى هذا الأساس كان المفروض أن يشمل الباب .. فصلين على الأقل أو ثلاثة ، أولها بعنوان "بين الوطنية المصرية والقومية العربية" ، وثانيها هو "مصر فى عالم عربى متغير" ، وثالثها "مستقبل مصر والعرب ، ورغم أن المادة الأولية والأفكار الأساسية ، والتخطيط العريض لهذه الفصل .. تم اعدادها بالفعل منذ أمد ليس بالقصير ، إلا أن المؤلف بكل الأسف والأسى .. يستأذن فى أن يقدم اعتذاره لقارئه .. عن استحالة الكتابة والنشر .. فى ظل الظروف القهرية القاهرة التى يعرف ، اذ لن يصل اليه حرف منها بحال لو حاول ، ومع استحالة الكتابة والنشر هذه ، ولكن أيضا مع

استحالة حذف الموضوع برمته من الكتاب تماما ، فقد رأينا أن نعيد نشر الفصل الأصلى .. كما ورد فى طبعته الأخيرة سنة ١٩٧٠ ، وذلك بالطبع رغم كل التغيرات الانقلابية المحزنة والمخزية التى طرأت .. لتجعل من الحقائق المادية الصلبة اخطاء علمية بحتة ، وأسوأ منها .. لتزلزل كثيرا من الآراء والأحكام القومية والسياسية الأساسية .. وتجعل منها سخرية مريرة ومفجعة ..) .

وانما عذرنا .. وهو أيضا رجاؤنا ـ أن يكون النص بصورته الأصلية .. وثيقة تاريخية دامغة .. مثلما هى صافعة .. لكل من كان له قلب لم يزل .. أو ألقى السمع وهو شهيد ، وتذكرة وعبرة لمن لم يفقد بعد آخر قطرة من حسه الوطنى والقومى ، فلعل القارىء واجد نفسه فى النهاية متفقا معنا فى أن جوهر الدراسة ولب القضية ـ كما هو وارد مازال سليما فى مجمله ، وأن النص القديم على علاته وقصوره وقصره .. أقرب إلى الحقيقة العلمية الخالدة .. منه إلى الأمر الواقع الزائل .. الذى بالمقابل لا مستقبل له .. وانما لها مهما طال الانتظار .

شخصية مصر الحضارية

تعدد الأبعاد

النيلية

العربية

الموقع

البحر المتوسط

التوسط والاعتدال

المركزية

الإقليمية

الدولة

الاستمرار والانقطاع

الحاكم

شكل (٧) منظومة عناصر شخصية مصر الحضارية

بين الوطنية والقومية ..

وتتواصل تطبيقاته لقاعدة (الاستمرارية والانقطاع) فى شخصية مصر ، ويغوص بها فى عمق وجهه الثقافى .. ليفسر بها مسألة شائكة ... تتصل بقسمتىّ الفرعونية والاسلامية فى هذا الوجه العريق ، يحددها كما يلى تمهيدا للتحليل (.. الانقطاع الثقافى الذى أحدثه الاسلام والتعريب ، هو بلا مبالغة .. أخطر تغير طرأ على كيان مصر ، منذ نشأة الحضارة الزراعية قبل الفرعونية .. وحتى قدوم الحضارة الغربية الحديثة ، ص ٦٣٣) ، ويخصص بأن التغيير لم يصب الجوانب المادية .. وانصب على اللامادية .. أى الثقافة على وجه التحديد ، ويكاد يوجز رأيه فيما تم فى هذه الصورة الزاخرة بالدلالات (.. ولاشىء يرمز إلى الجمع بين تلك الاستمرارية وهذا الانقطاع .. كالقاهرة .. بجناحيها الفرعونى الحفرى المحنط فى الغرب ، والاسلامى الحىّ المضطرم فى الشرق ... الأول .. وإن كان ميتا إلا أنه يشير إلى الاستمرارية المادية ، والثانى وإن كان قائما يدل على الانقطاع اللامادى ، ص ٦٣٣) ، وإذا كان قد سبق له متابعة جوانب الاستمرارية المادية (الزراعة ، السلالة ، العمران) .. فإنه يفرغ الآن لجوانب الانقطاع .. متسائلاً "فرعونية أم عربية ؟ .. هذا هو السؤال ؟ (ص ٦٣٤) .. ورغم وضوح الإجابة عنده (عربية بالحياة والوجود) .. إلا أنها تتشعب .. ويخوض من أجلها المناقشات ، لايدع سؤالا

دون أن يطرحه .. ويفندما أثاره من آراء وإجابات ، ثم يقدم رأيه موثقا (ص ص ٦٣٤ ـ ٦٣٥) ، ثم يضع اجابته لمن يشكك فى عروبه مصر (مصر .. سامية العرق .. عربية اللغة .. شأن معظم العرب ..) ، ويدمج بين مصر والعرب فى رؤية ثاقبة (.. ومن ثم بالتالى كان مصير مصر عربيا من الناحية السياسية ، بمثل ما أن مصير العرب مصرى .. من الناحية الحضرية ، ص ٦٣٩) ، فما عن العلاقة بين الوطنية والعروبة فى هذه المعادلة ؟ .

مصر قسم عضوى كبير داخل دوار العرب ، هى منه بالتأكيد .. ولكنها أيضاً متميزة ، متميزة بحجمها السكانى داخله (أكثر من ربع جملة سكان العائلة) ، ولا مجال للمقارنة من هذه الناحية .. بينها وبين غيرها ، ويضاف للحجم تجانسه ووحدته (.. وفى النتيجة فإن مصر أقوى مرتين .. مرة بمطلق حجمها .. ومرة بتجانسها المطلق ، ص ٦٤٩) ، ومصر قد سبقت الدول العربية إلى المجال العالمى ، وهى بحكم موقعها ملتقى العرب (٦٤٨) ، وهى بلا حدود مع غير العرب ، وإذا كانت بهذا وغيره قد تميزت .. فإنها تاريخيا لم تنعزل (.. ودع عنك دورها .. فى صد الصليبيين ، ص ٦٤٩) ، بل هى قد تصدت للدولة العثمانية فى عهد محمد على .. وبذرت مع حروبه وحدة العرب ، وإذا كانت قد انعزلت بعده .. بعد اجهاض الغرب لمشروعه ، وعكفت على ذاتها .. معظم فترة الاحتلال البريطانى لها .. فإنها قد عاودت المشاركة بعد الحرب العالمية الثانية ، ودعت إلى تأسيس

جامعة الدول العربية .. وأصبحت عاصمتها مقرا لها ، غير أن فترة عزلتها هذه .. قد غذت فكرة الوطنية بها ، كما أن العالم العربى .. وسوريا خاصة .. قد شهدت تبلور الفكر القومى بها (ص ٦٥٤) ، فبدأ وكأن هناك فرقا ومسافة .. بين مصر والعرب ، ضاعف منها .. ماكتبه بعض المصريين عن مصر الوطن ، وماسعى إليه الغرب من فصلها عن جسمها .. خاصة والمشروع الاسرائيلى يجرى تثبيت أوضاعه ، وارتبطت فكرة الوطنية .. بمشروع مصر قطعة من أوربا .. (ص ٦٥٥) ، ثم باتجاه آخر .. يتمثل فيما عرف بوحدة وادى النيل فقط ، ولكن "اعلان اسرائيل" كدولة .. جرف كل ذلك ، وتصدت له مصر مع العرب ، وبرز المشروع القومى .. دون أن يعنى ذلك تعارضا بين الوطنية وبينه (.. فإذا القومية العربية .. محصلة الأوطان العربية .. بقوة متناهية ، ص ٦٥٨) .. ومن هنا استهدفت .. ووجبت تصفيتها بأى ثمن .

ويختتم الفصل والباب والجزء والكتاب .. بمناقشة قضية شائكة .. هى قضية زعامة مصر للمنطقة (ص ٦٥٩) ، ومن قبل طالما ذكر انها بوصلتها وحجر الزاوية ، ويضيف هنا .. فى لمسة أيضا إلى شخصيتها الحضارية عامة (.. وهذه أيضا قضية مزيفة ، لأن الجغرافية حسمتها مرة واحدة وإلى الأبد ، فإن دور مصر القيادى والريادى فى العالم العربى لم ينقطع أبدا .. حتى فى الفترات التى آلت فيها الزعامة الشكلية إلى غيرها ، ص ٦٥٩) ، ويؤكد ذلك مقتبسا من

ساطع الحصرى (لقد زودت الطبيعة مصر .. بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة .. فى انهاض القومية العربية ، لأنها تقع فى مركز البلاد العربية بين القسمين الأفريقى والآسيوى منها ، كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم إليها العالم العربى .. بحكم السياسة والظروف ، وكل ذلك من الموقع الجغرافى إلى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة وتشكيلات الدولة .. مما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقومية العربية ، ص ٦٦٠) ، ويفند الآراء التى تنكر عليها ذلك .. وهذه التى تخوفها من العرب .. وتخوف منها العرب ، ويطرح بدائلها التى ترى القومية قوة لمصر وللعرب (.. مع ذلك .. فإن مصر أكثر من غيرها ربما ، تدرك ألا ضمان ولا كيان حقيقى لها .. إلا الوحدة وفى ظلها ، لقد استمد العرب فى المجتمع الدولى كثيرا من القيمة والمكاسب التى أضفتها عليهم قيمة مصر وتقدمها .. وصراعها القومى ونجاحاتها ، لكن مصر تدرك أيضا بنفس الدرجة أنها تستمد الكثير من هيبتها السياسية وقوتها وثقلها الدولى .. من العرب حولها .. ، ص ٦٦٥) ، وفيما يلى الفقرة الأخيرة من كتابه (.. وكما أن الكيف لا الكم .. سيبقى أبدا مفتاح مستقبل مصر جميعا ، فى الحضارة ، فى العلم ، فى السكان ، فى الانتاج ، فكذلك سيظل الكيف قبل الكم أساس وضعها ومكانها فى الوطن العربى الكبير ، دار العرب ، غير أنه إذا كانت القيادة والزعامة مسئولية تمارس ، فلعل الاختبار النهائى لزعامة مصر .. فى أن ترقى إلى مسئوليتها عن

استرداد فلسطين للعرب ، وإذا صح أن نقول أنه لا وحدة للعرب بغير زعامة مصر ، فربما صح أن نقول أنه لا زعامة لمصر بين العرب .. بغير استردادها فلسطين للعرب، لأنه لا وحدة للعرب أصلا .. بدون استرداد فلسطين .

انتهى

تلخيص النص .. عن شخصية مصر

شكل (٨٠) منظومة المشكلات المصرية

« دراسات فى العالم العربى »
.. عرض وتحليل ..

مقدمـة :

يمثل العالم العربى .. الدائرة الثانية . من نظريته الجغرافية العامة ، تسبقها دائرة مصر .. وتليها دائرة العالم الاسلامي ، هي حلقة الوصل إذن بين دوائره الثلاث الأثيرة ، يقدمها فى كتاب صغير الحجم حقا .. لكنه ثقيل الوزن والقيمة ، يمهد به لمشروعه .. (.. فى اصدار سلسلة كاملة .. عن الشخصيات العربية .. الواحدة تلو الأخرى .. من محيطه إلى خليجه ..) ، لكن عمره قصر عن أحلامه .. وخلف مشروعه .. فكرة فى ضميره ..

ويقدم لكتابه .. حيث يذكر (.. هذه ثلاثة أبحاث علمية .. يجمعها أنها تعالج موضوعا حيويا من موضوعات الساعة ..) ، أما الساعة .. فهى سنة تأسيس الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨) .. هذه التى شهدته يؤلف كتابه ، ويالها من سنة .. ويالها من ساعة .. فمن يصدق أن دولة الوحدة .. قد قامت فعلا .. وليس قولا .. من قبل قرابة أربعين عاما ، وأنها بقيت قائمة .. أكثر من ثلاث سنوات مهولة ، مجسدة حلما .. يصعب الآن أن نحلم به .. ناهيك عن تجسيده ، وحين

سقطت لم تذهب بددا .. فتجارب الشعوب .. تبقى لها رصيدا ، وكلما أمعن الحلم فى روغانه .. ثابرت الأمة على تلمسه بكل حيلة .. يراودها فى كل أزمة .. تتحصن به .. ويتضاعف سعيها فى سبيله ، فبه تحققت كينونتها يوما .. ومثل هذه لاتنسى .. فى هذه الأيام العصيبة .

وحين يقرر بأنها (ثلاثة أبحاث علمية) .. لايجاوز الحقيقة ، بما يلتزمه ويلزم به نفسه .. من شروط المنهج العلمي الدقيقة ، بل هى تعلو لتكشف عن فلسفة المكان .. فى رؤية كلية .. (.. تستقطر روحه .. وتعتصر رحيقه ..) ، تستقرىء (.. أولا كل ثنايا الحقيقة الطبيعية .. وطوايا الحياة البشرية فى المنطقة ، لا فى الحاضر فحسب .. وإنما كذلك فى الماضى .. لأن الزمن بحق بعدها الرابع .. بقدر ما أن التاريخ البعد الرابع للجغرافية ..) ، تلك كلماته .. وهذا تعبيره ، أما عن موضوعات أبحاثه .. فتأتى بالتتابع التالى :

★ الشخصية الاقليمية للعالم العربى .

★ الوحدة الاقليمية للعالم العربى .

★ الجمهورية العربية المتحدة .. دراسة فى الجغرافية السياسية .

ويشير المبحث الأول إلى اهتمامه المبكر .. بموضوع الشخصية الاقليمية ، اهتمام سوف يتجلى فيما بعد فى كتابه العمدة عن "شخصية مصر" ، وفيه يفسر توجهه نحو هذا الموضوع (.. البحث فى الشخصية الاقليمية .. مسألة تلقى مسئولية خاصة على الجغرافى الملتزم .. الذى يضع علمه فى

خدمة مجتمعه ووطنه الكبير ..) .. ، وبالفعل .. فإنه فى هذا المبحث الأول .. يتخذ من الكشف عن خصائص الشخصية الاقليمية للعالم العربى .. مدخلا لتبين جذور الوحدة الكامنة .. فى جغرافيته وتاريخه معا ، ويكون من هذه الخصائص قاعدة .. يستمد منها براهينه وأدلته ، مضيفا مايكشفه ويكونه .. فى بناء تركيبى عضوى متماسك .. تغذى مدخلاته محصلاته .. فى دورة مشحونة بطاقة تفكيرية عالية ، تؤدى به فى سلاسة وطواعية إلى مبحثه الثانى عن "الوحدة" .. كذروة لهذه الشخصية المركبة المتجانسة ، هذه الوحدة التى تحققت بتأسيس "الجمهورية العربية" .. بين مصر .. وسورية ، ومن ثم تصبح المجال الحى .. لتطبيق فروضه .. تطبيقا موضوعيا .. لاتطويع فيه أو مواربة .. تستقيم فيه الحقائق ولا تلتوى ،. يخضعه فيه لرؤيته النقدية الناقدة ، يضع فيه الخطوط تحت ايجابيات ماتم وسلبياته ، وتصل به الرؤية الثاقبة تقريبا .. الى تشخيص ما أفضى بعد ذلك لسقوط التجربة ، يدل على ذلك ما أورده .. فى الصفحات الأخيرة .. من هذا المبحث الثالث .. فى كتابه ، وإذا كانت منظومة عناصر هذا البحث وما يسبقه .. تفتقد مانعرفه الآن .. من تطورات العالم والمنطقة .. فما ذلك إلا أن ماينقصها .. لم يكن قد حدث ، ولم يكن ماجرى قد جرى .. خلال العقود الأربعة الحافلة التى أعقبت تأليفه لكتابه ، ومع ذلك نادرا .. مايشعر القارىء .. بأن الكتاب قد فقد حداثته ، ربما لأن رؤيته العامة .. ماتزال سارية .. صلبة وصادقة .. تضمخ تحليلاته

بعمق فلسفى .. يشحنها باستمراريته ،° وربما لأن التاريخ مايزال حاضرا .. ملقيا على المستقبل بمؤشراته .. وأن قوانينه الكامنة .. لاتزال تفصح عن مكنونها ، وربما لأن الوحدة .. وإن سقطت .. لاتزال معتصمة بمقوماتها .. تقاوم بها البلى ومرور الزمن ، وربما لغير ذلك من الأسباب أيضا .. مما قد يكتشفه القارىء بنفسه .. أو توحى إليه بها .. أفكاره المفعمة .

المبحث الأول

الشخصية الاقليمية للعالم العربى

وكما سبق .. يأتى المبحث الأول .. فى كتابه .. تحت عنوان "الشخصية الاقليمية للعالم العربى" (ص ص ٧ ـ ٣٤) ، يستهله فى سطره الأول بهذا السؤال (.. هل للعالم العربى شخصية إقليمية متفردة .. يتميز بها عن غيره .. من مناطق العالم ؟ ..) ، وفى البداية .. يجدر التفرقة بين "التفرد الاقليمى" .. بالمعنى الجغرافى العام .. وبين تفرد "الشخصية الاقليمية" .. كما يقصده حمدان ، حيث يقتصر فى المعنى العام .. على مستويات التميز والتمايز والتمييز ، تستند كلها إلى قاعدة من تشابه الأقاليم ، تشابه يعود إلى وحدة الأصل (الأرض) .. وحتمية توافر عناصرها الأولية (التركيب الجيولوجى ، التضاريس ، المناخ ، التربة .. وغيرها) .. فى كل إقليم ، ويبدأ تميزها من نسب ونوعية تمثل كل عنصر .. هذه تتفاوت وتتباين بالضرورة .. من إقليم إلى أقليم ، ويتأكد تميزها بما يتداعى عن ذلك من علاقات عضوية .. بين هذه المكونات .. ومن ثم فإنها تتمايز .. أى تختلف فى المحصلة .. من حيث (المكونات + العلاقات) ، وبذا يمكن التمييز بينها ـ تحليليا وكميا .. ثم كارتوجرافيا .. برسم الحدود .. دون اهمال التداخلات ، وتظهر العملية بمستوياتها .. أسهل نسبيا .. فى الجوانب الطبيعية .. منها فى الجوانب البشرية والحضارية (السكان ، العمران ،

الثقافة .. وغيرها) للإقليم ، وتصل إلى أشدها صعوبة .. حين يصبح الهدف "شخصية الاقليم .. التى هى مزيج مركب من كل ماسبق .. كما تتجسد فى الواقع .. وكما تجلت فى التاريخ ، وعند هذه الذروة يتفرد الاقليم حرفيا .. بالمعنى الذى يقصده حمدان ، ويتخذ منه مدخلا لدراسة العالم العربى بالذات (.. ليس من الضرورى أن يكون لكل منطقة شخصية اقليمية متفردة ، وليس من الضرورى أن تكون الشخصية إلاقليمية للمنطقة .. كاملة التفرد والتمايز عن غيرها ، ولكن لا مفر من أن نعد العالم العربى .. واحدا من بين تلك المناطق النادرة .. التى تمتاز بشخصية إقليمية متفردة ..) ويؤكد (متفردة لدرجة ليست أقل من مذهلة ، ص ٧) ، وبذا لا تعود فقط مدخله .. بل قضيته التى يخصص لاثباتها .. بقية صفحات هذا المبحث من كتابه .

★ محور الشخصية ومكوناتها

ولأن الشخصية هدفه .. فإنه يتوجه أولا للكشف عن لبها الذى تشكلت حوله .. مستمدة من جوهره .. سماتها وقسماتها ، هذه التى مهما تفرعت تفصيلاتها .. تبقى منتسبة لهذا المحور .. بدرجة أو بأخرى (.. هناك ايقاع مشترك يسيطر على جميع نواحى الوجود الطبيعى للعالم العربى ، كما يتكرر فى كل جوانب الحياة البشرية فى الماضى والحاضر ، هذا القاسم المشترك الأعظم .. يتمثل فى كونه إقليم اتصال Zone af Junction .. تلتقى عنده مجموعة من الوحدات

الاقليمية ، ص ٧) ، تلك إذن هى الخاصية المحورية .. للشخصية الاقليمية للعالم العربى ، ومنها تستمر إلى بقية خصائصه (.. فالعالم العربى اقليم اتصال مورفولوجيا ووظيفيا ، موقعا ومناخا ونباتا وبنية وتركيبا ، حيويا وجنسيا ، فى التاريخ والسياسة .. فى الحضارة والثقافة) ، ومن بعد .. فإنه يتوجه لدراسة كل منها تفصيليا ، بعد أن يصنفها الى (النواحى الطبيعية ثم البشرية ثم التاريخية والسياسية) .

● الجوانب الطبيعية

تتضمن مايعرف منهجيا .. بمنظومة عناصر الجغرافية الطبيعية ، يستهلها بالموقع وماينتج عنه (المناخ ، النبات) بتفصيلاتهما ، وما يتداعى عن المناخ خاصة .. إلى الزراعة وغيرها ، ويختمها بالبناء الجيولوجى وظواهره الجيومورفولوجية .

وتتحدد خصائص موقعه .. فى كونه (قلب) العالم القديم ، باعتباره كتلة اليابس اللاحمة .. بين قاراته .. افريقية وآسيا وأوربا ، بمثابة (عقدة) الجزيرة العالمية الكبيرة World Island كما أسماها ماكيندر Mackinder فى نظريته الجيوستراتيجية ، حيث يتجمع عندها .. يابس العالم القديم .. ويتفرق ، وأيضا فإنه (خاصرته) .. باعتباره عنق الزجاجة .. الذى يدق اليابس عنده (البرزخ) ويتقارب الماء حوله ، بما يجعله (مجمع

بحاره) .. يتخلله البحران المتوسط والأحمر .. والخليج العربى ، هذه التى تتجمع مياهها فى المحيطين الأطلسى والهندى ـ عبر مضيق جبل طارق وباب المندب ، فإذا ما أضيف إليها .. بحر قزوين والبحر الأسود ـ وهما ليسا بعيدين عنها ـ تغدو أرض (البحار الخمسة) ، ووصلت قناة السويس .. بين خطوط الحركة العالمية .. (شريانا) لها .. ومضخة رئيسية للتجارة الدولية .

على أن للموقع .. من زاويته الفلكية .. انعكاساته قبل ذلك وبعده ، تتوافق جميعها مع ماسبق تحديده من خاصيته الأساسية (.. بحكم عروضه الوسطى .. يمثل العالم العربى .. اقليم اتصال بكل معنى الكلمة .. من الناحيتين المناخية والنباتية ، ص ٩) ، ويفصل فى ذلك .. منتهيا الى (.. يضم العالم العربى نوعين مناخيين أساسيين .. النوع الصحراوى .. ويحتل الرقعة الكبرى ، والنوع المتوسطى الذى يتوّجه باطار هامشى ، ولكن نوع الصحراء يتعدل محليا .. إما بالارتفاع إلى مناخ جبلى فى الشمال ، أو موسمى فى الجنوب من الجزيرة العربية ، إما بالمياه الدخيلة أو الواحات المتداخلة exotic - Intrusive النابعة من مناخات خارج الصحراء .. ولكن الواقعة داخله كالرافدين والنيل) ، وكذلك الأمر بالنسبة للنباتات الطبيعية .. التى تتوزع مابين الفصائل الصحراوية بأنواعها .. والتى تتعدل أيضا تبعا للظروف المحلية ، وأحراش البحر المتوسط .. حول حوضه وفوق المرتفعات .

ويشير الى تأثير الخاصية الانتقالية للمناخ فى الزراعة (.. التى تشكل مركبا من المحاصيل الانتقالية أساسا .. تتألف من الحبوب والفواكه والقطن والحمضيات والكروم ، بما يجعل منها حلقة اتصال بين عوالم زراعية متفاوتة .. يأخذ من كل منها بمركب زراعى معين ، ص ١٠) .

واذا كان من الطبيعى أن يستمر تأثير هذه الخاصية المحورية من الموقع الفلكى الى المناخ الى النبات إلى الزراعة ، فإن التركيب الصخرى لاينتمى لذات السياق ، ولكن الواقع أن كتلة اليابس العقدية العربية .. قد انطوت على ذات الخاصية .. وإن اختلفت الأسباب وتغير السياق (.. فجيولوجية العالم العربى .. أساسا هى التقاء القديم بالحديث ، فالجزء الأكبر منها رصيف جندوانى قديم .. تحول إلى هضبة أو سهل تحاتى ، بمثابة نواة .. نمت حولها من الشمال .. حلقة جبلية حديثة عالية) ، ويربط فى تكثيف شديد .. بين التركيب والسطح والمناخ (.. وبوجه عام جدا .. يتفق الرصيف القديم مع الصحراء ، والالتواء الحديث مع مناخ البحر المتوسط ، وليس هذا مجرد اتفاق .. ولكن ملامح التضاريس الكبرى ـ بنت البنية ـ ضبطت وشكلت توزيع تفاصيل النطاقات المناخية إلى حد معين ، ص ١٠) ، وهكذا ينتهى من اثبات فرضيته (خاصية الاتصال) بالنسبة للنواحى الطبيعية من الاقليم .

●● الجوانب البشرية

الواقع أن تطبيقه لفرضيته .. على النواحى البشرية .. تستحق التنويه ، لما تتضمنه من تصورات دقيقة .. تتسم بالكلية والشمول ، يبدأها بتحديد الخطة العمرانية الأولية فى المنطقة ـ هذه التى تقوم على محورين متقاطعين متناقضين ، يتمثل الأول فى اللا معمور الصحراوى .. شاملا الصحراء الكبرى وشبه الجزيرة العربية ، ويتمثل الثانى فى المحور المعمور .. الذى يشمل حوض البحر المتوسط .. وقطاعات الأنهار المتداخلة فى الصحراء .. والسهول ، وينتقل من الخطة العمرانية المتمشية مع الظروف الطبيعية .. خاصة المناخ والمياه ، إلى البنية السكانية .. التى يراها متوسطة الكثافة .. ضئيلة الحجم العام .. النسبة لمساحة العالم

العربى .. التى تبلغ ١١ مليون كم^2 على وجه التقريب ، ويقرر (.. هذه نقطة خطيرة ، معناها أن القوة البشرية محدودة فى العالم العربى ، وسنرى أثرها بعد قليل .. فى الشخصية السياسية... عبر التاريخ ، ص ١٢) ، ويضيف فى شىء من التفصيل (.. كان هناك ثلاث جزر بشرية رئيسية متباعدة Macro chores ، هى الرافدان .. مصر .. المغرب) ويؤكد الأثر السلبى لهذا النمط التوزيعى (.. وسنرى فيما بعد الآثار البشرية التاريخية الخطيرة لهذا) ، ويعود فى لقطة من أعلى .. ويضيف (.. إن هوامش العالم العربى .. هى القطاع الغنى المأهول .. بينما القلب صحراوى مخلخل

السكان ، وقد قدمت هذه الهوامش .. الدائرة Ring Felix التى سارت فيها معظم الحركات التاريخية .. وجرت فيها أهم فصول الحياة البشرية ، ص ١٤) ، ويعنى بها الهلال الخصيب الممتد من الشام الى العراق .. وملحقه هلال اليمن السعيد ، ومعهما ذراع شمال افريقية .. وذراع النيل فى مصر والسودان ، وبعدما تكتمل الصورة العضوية التى يرسمها بريشته .. يحدد وظيفتها البنيوية (.. الواقع أنه يمكن تشبيه الأجزاء الفعالةِ من العالم العربى بالجسم البشرى ، لا من حيث الشكل والتركيب فحسب ، وإنما من حيث الدور الوظيفى التاريخى .. الذى لعبه كل عضو ، فالجزيرة القارية هى الجذع Trunk ، والصحراء هى القلب .. بحكم توسطه الجغرافى .. وحركة نبضه التاريخية ، ومصر .. هى الرأس ، والسودان وشمال افريقية .. هما الذراعان .. اللذان تمتد بهما كتلة الجسم .. إلى أبعد آفاقها .. غربا وجنوبا ، ص ١٤) .

والآن .. كيف تستمر خاصية الاتصال فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ؟

لقد سبقت الاشارة الى الزراعة فى العالم العربى .. كمركب يجمع بين أقاليم متعددة .. أهمها الزراعة المطرية المتوسطية + الزراعة الفيضية المدارية ، وكذلك الأمر بالنسبة للرعى .. الذى يمتد كنطاق عرضى متواصل من الشرق الى الغرب ، وتظهر "الزراعة" من حيث التوزيع (..

كجزر وظيفية داخل الاطار الجاف) مرتبطة باشد مناطقه كثافة .. مع تداخل النطاقين .. ضمن منظومة (الفلاح والراعى) .. السائدة فى المنطقة ، ويضيف (.. ليس فى العالم القديم منطقة ـ تتخلل الزراعة الرعى فيها .. بنفس الدرجة والنمط التى نراها فى العالم العربى ..) ويقرر (.. وهكذا تتأكد شخصية العالم العربى المتفردة كإقليم فى المجال الاقتصادى .. وما يتصل به من توزيع ونمط مجتمعاته ص ١٦) .

ويتساءل (.. هل للعالم العربى شخصية جنسية ودينية مستقلة ؟) .

مرة أخرى تتأكد خاصيته المحورية فى تكوينه الجنسى (.. ففى داخل إطار التجانس العام ..عينات من السلالات والعروق) ، يفسرها بموقعه كصرّة للعالم القديم ، كما يعود بها الى نمط تضاريسه الممرى Corridor .. مما جعله (ملقى البشرية .. بالضرورة) ، فتواترت عليه الموجات الجنسية .. وإن امتصتها الصحارى والجبال - Shock absorber .. وصلت بها الى نوع من التجانس المعقول ، فالمنطقة مرة أخرى منطقة اتصال بين كتل السلالات (الفرشة الأساسية من سلالة البحر المتوسط وهى من الناحية الانثروبولوجية سلالة انتقالية بالضرورة ، وتتعاقب بها النقاوة والاختلاط .. بحسب درجة الطرد أو الجاذبية الجغرافية المحلية ، ص ١٧) .

وبالنسبة للدين (.. فإذا كانت المنطقة مصبا للحركات

الجنسية .. فهى منبع الأديان) ، ولكن دون اختلاط ، فقد أزاغ الاسلام ماقبله .. وصبغها دينيا وثقافيا .. بصفة عامة ، مع وجود أقليات هامشية ، ورغم اختلاف العملية .. فالتجانس بمثابة المحصلة .. جنسيا ودينيا .. (من أهم خصائص شخصيتها الاقليمية ، ص ١٧) فى الختام ، وسيعود إلى التجانس الدينى فى كتابه التالى .. عن جغرافية العالم الاسلامى .. بقدر من التفصيل .

●●● الجوانب التاريخية والحضارية

كيف تبرز شخصية العالم العربى فى التاريخ ؟

يعنى "البروز" .. الارتفاع فوق المستوى العام لعصر من العصور ، وقد تحقق ذلك للمنطقة بالتجارة .. قبل الاسلام ، وذلك بحكم خصائص موقعه .. كماسبق ، كعقدة قاربة .. وجسر برمائى .. وحلقة متوسطة وسط معمور العالم القديم ، بما هيأ له أن يكون الممر الطبيعى Durchgangsland, Corridor .. لتبادل فوائض الموسميات والمعتدلات ، والوسيط التجارى الوحيد أو الرئيسى بين آسيا الموسمية وأفريقية المدارية وأوربا المعتدلة ، متميزا بذلك عن ايران والأناضول (.. فهما معا يمثلان الجسر الجبلى المعلق .. بينما العالم العربى هو الجسر الممهد السهلى ، ص ١٨) ، وقد دعمت جغرافيته الداخلية من دوره .. بما تتضمنه من ممرات مائية متداخلة فى عمق اليابس .. بمثابة أسهم مكانية الى اتجاهات حركة التبادل .. بين مناطق الفائض والوفرة فى العالم القديم ، تطورت بها ومعها مهارات التبادل بين السكان ، هؤلاء

الذين لم يتوانوا عن تنظيم الحركة .. بالقوافل .. وضبط ايقاعاتها بالمحطات والأسواق ، وتواصلت الخطوط الى السواحل المتوسطية والمحيطية (.. فكان هناك الفينيقيون ثم الشوام .. فى الجبهة الشمالية الغربية ، وبإغريق المحيط الهندى .. من الحضارمة والعمانيين ، ص ١٩) .

وقد أعادت التجارة تشكيل العمران .. حيث ارتبطت بخطوطها المدن والأسواق ، هذه التى رصعتها على طولها .. وعند نقاط ، تغيرها متمثلة فى أربعة محاور رئيسية للتوزيع ، اثنين بين البحر المتوسط والخليج ، وثالث يحف بالهامش الشمالى للهلال الخصيب ، ثم طريق رحلتى الصيف والشتاء بين اليمن والشام ، ويلخص خصائص المرحلة فى عدد من السمات (ص ٢٠) :

● بقدر ماتفوقت موارد الموقع كممر للتجارة .. على موارد الموضع الانتاجية ، سيطرت المنطقة على التجارة الأوربية ، الأمر الذى أفضى كما سيأتى .. إلى سياق طويل من الصراع .

● بقدر ما كانت أوربا وآسيا (مقرا) للفائض .. غدت المنطقة (ممرا) لها ، وقد أسهم دورها العبورى فى تشكيل قسماتها الحضارية بالتأكيد ، وإن كان له تداعياته السلبية فى شخصيتها بوجه عام .

● يعود الفارق بين قيمة الموقع والموضع .. إلى خاصية المنطقة الأساسية كمنطقة اتصال . وهكذا تظهر من وقت مبكر .. بذور نظريته الأساسية عن شخصية مصر ، هذه التى

تتمثل فى معادلة (الموضع والموقع) كما سبق ، ويقدمها فى إطار العالم العربى .. باعتبار الدور الحضارى لمصر والعراق ، هذا الدور الذى استند على مواردهما الموضعية كبيئات فيضية منتجة .. وليس على دورها التجارى فى الأساس ، بما يميزهما (كمشتلين الحضارة ، ص ٢٠) على حد تعبيره ، وبفضلهما (تم تفريخ التاريخ) .

وتعود للموقع أهميته الكبرى .. مع حركة انتشار الاسلام ، هذه التى نقلت ثقافة وحضارة المنطقة .. وفوقهما الدين .. إلى هذه المنطقة الممتدة بين الأطلسى والصين ، وتلاقحت الثقافات .. وامتصت الثقافة العربية غيرها .. وألقت عليها بأضوائها .. خاصة فارس والهند والأناضول ، وحين دخلت أوربا صراعها الطويل معها .. الذى بلغ نقطة عالية مع الحروب الصليبية .. فقد أفرخت الثقافة العربية الاسلامية داخلها ـ مالايحصى من الايجابيات (.. كانت درسا حضاريا قبل كل شىء ، ص ٢١) ، وإن كانت نتيجة الصراع لحساب أوربا .. بحكم الكشوف الجغرافية .. التى أسرت خاصية العبور الى خارج المنطقة العربية .. وأصابت مواردها الموقعية فى الصميم ، ويختم فى هذا الجزء .. بتكرار التأكيد .. على استمرار خاصية الاتصال .. فى الثقافة والحضارة والتاريخ .. مقررا كاستدراك (.. ولا يعنى أن المنطقة كإقليم اتصال حضارى .. أنها متميعة الشخصية الحضارية ، بل على النقيض .. فقد رسخت شخصيتها بالاختلاط .. وبها تعد من وجهة نظر الانثروبولوجيا الاجتماعية .. منطقة حضارية Culture - area مستقلة قائمة بذاتها ، ص ٢١) .

●●● الجوانب السياسية

إذا كانت خاصية الاتصال .. بمثابة الجذر المشتركة لمكونات الشخصية الاقليمية للعالم العربى .. فإن النواحى السياسية منها .. بمثابة المرآة النهائية لانعكاساتها وتجلياتها ، حيث هى (مفتاح اجمالى أو اختزالى للشخصية الاقليمية كاملة) ، ويصنفها تبعا لمراحلها التاريخية الى مايلى .. بما يكاد يشكل نظرية متكاملة .. قائمة وحدها .

- المرحلة النهرية Potamic
- المرحلة البحرية ThaLassic
- المرحلة المحيطية Oceanic
- المرحلة الكوكبية Global

ورغم استناد التصنيف أحيانا ـ كما سيأتى ـ إلى متغيرات من خارج تاريخ المنطقة .. إلا أنه يربطها به .. ويدمجها بدرجات متفاوتة .. فى سياقه ، وتبدأ المرحلة الأولى (النهرية) .. مع بداية بزوغ الحضارة فى المنطقة .. حول أحواضها الفيضية خاصة ، ويلخص سماتها فى معادلة الصراع بين (الرمل والطين) داخل إطارها ، أى أنها مرحلة محلية داخلية غالبا ، تجرى تغيراتها .. السلمية والحربية .. بين القوى الحضارية فى المنطقة ، أو من خارجها إليها .. أو من قلبها الصحراوى الى هوامشها الغنية ، وبقى الصراع فى مجمله بريا طول المرحلة .. التى استمرت إلى ماقبل الميلاد بقليل .

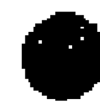
أما الثانية (البحرية) .. فتتفق مع ظهور القو البحرية .. التى فرضت معادلة جديدة للصراع (بين قو البحر والبر) .. لم تنته بها الأولى .. وإنما استمرت معها خضعت خلال فترة منها .. المنطقة لسيطرة قوتى البر الرئيسية (فارس) والبحرية (الرومانية) .. وإن بقى قلبها محايدا بينهما ، ويعتصر دلالة ذلك فى نظرة تمتد من التاريخ والحاضر والمستقبل (.. حين ظهرت فى العالم قوى برية وأخرى بحرية .. أصبحت منطقتنا تلقائيا .. منطقة التحا وارتطام Crush zone .. تقع فريسة لأيهما ، أو منطقة حاجزية Buffer Zone .. حين لاتتفوق أى منهما على الأخرى تماما ، ص ٢٤) ، وتظهر الدولة العربية الاسلامية التى تكونت فى هذه المرحلة .. استثناء من القاعدة حيث تحولت منطقة الارتطام الى قوة .. هزمت كلا من قوتى البر والبحر ، ويعود بالتحول الى الشحنة الذاتية للاسلام (الذى حقق الذاتية الحضارية للمنطقة) ، وإلى مستوى التدفق التجارى بين مناطق الفائض .. (الذى صب معظم أرباحه فى المنطقة) ، وإذا كانت المنطقة قد صمدت بفضل ذلك أمام الحروب الصليبية ، بل وأمام القوة البرية الآسيوية .. (التى تعددت ضرباتها مع المغول والتتر) ، فقد أصابتها الكشوف الجغرافية .. بضربة مؤثرة ، أدت الى تراجعها وانكماشها . وبداية مرحلة جديدة من تاريخها السياسى .. كما سبق .

ولا تخص المرحلة الثالثة (المحيطية) المنطقة بصفة مباشرة ، أو هى تخصها من وجهها السلبى .. المتمثل فى نقل

خطوط التجارة Transport Capture إلى خارج أرضها وبحارها (وتحول البحر المتوسط من شارع رئيسي للحركة .. إلى زقاق مغلق .. والممر العربى الى قبو مصمت ، ص ٢٦) ، انتقال بؤرة الصراع إلى المحيطين الهندى والأطلسى .. من هنا تسمية المرحلة ، والقصة بعد ذلك .. هى قصة الصراع بين القوى الاستعمارية .. التى وصلت أخيرا إلى المنطقة .. مخترقة قلبها .. ومحققة ما أخفقت الحروب الصليبية فى تحقيقه ، وبرزت أهميتها كممر ثانية .. ولكن ليس لحسابها ، ومن هنا فقد أحاطت الدول الاستعمارية بهوامشها جميعها ، وتعددت خططها لاحكام سيطرتها .. واستثمار مزايا موقعها .. فى الوصول إلى أجزاء امبراطورياتها المترامية ، وجسدت قناة السويس .. محصلة هذه المرحلة .. التى وإن كانت بمثابة استعادة لخطوط التجارة المفقودة منذ الكشوف الجغرافية ومابعدها ، ولكن لحساب القوى الاستعمارية الغالبة ، وقد عادت معادلة الصراع بين (قوى البحر والبر) لتأثيرها .. بعد تكوين الاتحاد السوفيتى .. قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى (ص ٢٨) ، وأمسى الصراع بينهما على المنطقة حقيقة واقعة ، أى أنها عادت منطقة التحام وارتطام ثانية ، ومع نزول الولايات المتحدة للساحة العالمية .. دخل الصراع مرحلة الكوكبية .. كما يسميها فى نظريته .

وتتسم هذه المرحلة الاخيرة (الكوكبية) بأن المنطقة قد باتت جزئية من استراتيجية .. تشمل العالم كله .. قديمه

وجديده ، يسعى الاتحاد السوفيتي لبحاره الدافئة ..، وتعمد الولايات المتحدة الى احتوائه ، وفى إطار تصاعد حركة التحرر من الاستعمار .. بعد الحرب العالمية الثانية ..، تصلبت المنطقة بزعامة مصر .. وشاركت فى تكوين مايعرف بالكتلة الثالثة .. (وليست الكتلة الثالثة .. فى جوهرها إلا منطقة الارتطام بالضبط .. كما تمثلت فى العالم العربى وغيره من المناطق التى تعرضت لضغوط الاستقطاب ذاتها .. تأكيدا خاصية الارتطام أو الاتصال المتأصلة ، ص ٣١) ، وقد جرت المياه عميقة بعد ذلك فى المنطقة .. ولكن لم يلحقها الكتاب .. بحكم تاريخ تأليفه (١٩٥٨) ، وإن كان برؤية ثاقبة يقرر (.. تتحرك الأهمية الاستراتيجية الى الصحراء الكبرى ، كما برزت استراتيجية جديدة لشبه جزيرة العرب ، وذلك مع البترول ونتائجه ..، ص ٣٣) ، وتجدر الاشارة الى أن أبعاد البترول لم تكن قد تبلورت بعد بصورة كاملة ، ويختتم نظريته (.. هذه هى الشخصية السياسية الكامنة الكاملة للمنطقة ، ومهما تغيرت .. فستبقى حقيقة كونها منطقة التحام وارتطام .. تصادم واستقطاب .. بحكم خاصيتها كاقليم اتصال .. بين قوى العالم جميعها ، ص ٣٤) .



المبحث الثانى .. الوحدة الاقليمية للعالم العربى

من الشخصية المتكاملة إلى الوحدة الاقليمية .. ذاك منهجه وتلك رؤيته ، ويربط مابين "التفرد" .. و"القومية" (.. أى وحدة الشخصية لأرض وقوم معا ، ص ٣٧) ، حيث تتسع القومية .. بالمعنى الصحيح للجغرافية السياسية ، وتتجاوز المعنى الإثنولوجى الضيق .. أى وحدة الجنس فقط ، وهكذا يتضح الخط الرئيسى لفكرته (التفرد ـ القومية ـ الوحدة) ، وبصيغة رياضية (الوحدة = التفرد الاقليمى × القومية) ، وبعدها يفرق بين نوعين من الوحدة .

● الوحدة المورفولوجية .. أى التركيبية .. وشرطها التجانس التكوينى .

● الوحدة الوظيفية .. أى التكاملية .. وشرطها الفعالية .

وبذا يضع القاعدة النظرية .. لتطبيقاته التالية لها فى المنطقة .

أولا .. ماهى درجة تحقق شروط الوحدة التركيبية (المورفولوجية) .. فى العالم العربى ؟

بداية فإن ماسبق الكشف عنه من تفرد شخصية العالم العربى .. لايستند بالضرورة الى وحدة تركيبية شاملة ، حيث لايعود تفرده الى ماتوافر منها فى تركيبه الداخلى .. وإنما استمدها أيضا من موقعه .. وعلاقاته المتغيرة بالعالم

الخارجي ، ويتطلب ذلك متابعة مورفولوجيته من زاويتيها الطبيعية والبشرية معا بتفصيلاتهما .. كما يلي :

★ **المورفولوجية الطبيعية :**

تظهر المنطقة جغرافيا .. وقد تكونت من مجموعة من الوحدات المورفولوجية المتنوعة ، ولكنها تحقق فيما بينها قدرا من التجانس المركب .. القائم على التعدد .. وليس التشابه في صورته المبسطة ، ويتمثل التجانس .. في تكرار هذه الوحدات .. على شكل نظائر جغرافية Geog . paralleis متتالية ، فالبيئة الفضية تتناظر في النيل والرافدين ، والبيئة البحرية تتناظر في الشام وعمان وحضرموت ، وتتناظر البيئة الجبلية في كردستان واليمن ، وينطوى تناظرها على قدر كبير من التقارب .. من حيث (التركيب Homologues والوظيفة Analogues معا ، وتتكرر الظاهرة بين المغرب والشام (وحدة جبلية بحرية) ، كما تتناظر الصحراء في شبه الجزيرة العربية .. والصحراء الكبرى (ص ٤١) ، بما يثبت مفهوم التجانس المركب القائم على تكرار الوحدات المتناظرة .. كما سبق .

على أن التناظر .. لايعنى تشابها .. وإنما يعنى تقاربا ، حيث تختلف الوحدات المتناظرة .. في تفصيلاتها ، فمصر الفيضية مثلا واحة صحراوية .. بينما العراق نظيرها .. شبه واحة استبسية (ص ٤١) ، وكان لذلك أثره .. في المسار التطورى لكل منهما ، وينطبق ذلك على كافة الوحدات

المتناظرة .. بدرجات متفاوتة ، وتحظى منه هذه النقطة بمتابعة شيقة ، تنطوى على مقارنات دالة موحية .. بين الشام وشمال افريقية (ص ٤٢) وبينهما وعمان وحضرموت ومنطقة الخليج عامة (ص ٤٣) ، وبين كردستان واليمن ، وغيرها مما سبق ذكره ، ينتهى منها .. إلى أن التناظر وإن تضمن قدرا من التقارب الأولى .. إلا أنه لايخلو من اختلافاته المؤثرة ، ومن مجموع النسب المتفاوتة .. تتكون الشخصية المحلية لكل وحدة مورفولوجية .. قائمة وشاخصة بذاتها ، ومن مجموعها العام .. يتشكل هذا التجانس المركب .. بالمعنى الذى يقصده .. فى عموم المنطقة ، حيث يقرر فى صياغة مكثفة (.. هذا هو التركيب الطبيعى الداخلى للعالم العربى بالتفصيل ، فداخل إطار الشخصية الاقليمية .. المشتركة كأقليم اتصال فى المحل الأول ، هناك شخصيات محلية قوية ، وتوجيهات جغرافية وعلاقات مكانية .. ونظرات وألوان خاصة Couleurs Locales .. وإنما فى المحل الثانى ، ولكن هذا التنوع والتباين لايحدث كالفسيفساء ولاخبط عشواء ، وإنما فى نظام وسمترية واتساق ، ليس هناك تجانس مورفولوجى مطلق ، ولكن ليس الوضع تنافرا تاما ، هناك تجانس مركب .. بضعة نظائر من نمط واحد .. مرتبة ترتيبا خاصا ، ص ٤٦) ويتصاعد بالفكرة إلى مستوى آخر (.. ولايضيرنا أن نقرر هذا .. لأنه يبدد الغموض الذى استغله المغرضون .. أصحاب نظرية التشكيك فى امكانية الوحدة الوظيفية ، هؤلاء الذين يتكلمون عن التركيب الطبيعى الداخلى

للعالم العربى .. كما لو كان متحفا متنافرا .. تنافرا لا أمل فى توحيده ، ومن ناحية أخرى .. نقرر هذا ليضع حدا لمن يحاولون الدفاع عن الوحدة بالبحث عن تجانس جغرافى .. بل جيولوجى !! مطلق ، فهو دفاع فج .. يسىء الى القضية .. أكثر مما يدعمها ، ص ٤٧) ، وهكذا يوظف فكرته لتدعيم رؤيته النهائية .. عن الوحدة القومية للعالم العربى .. فهذه رؤيته .. وأيضا حلمه .. الذى لم يتخل عنه مطلقا .

وقبل طرح سؤاله .. عن مغزى هذا التجانس المركب بالنسبة الموحدة الوظيفية ، تجدر الإشارة إلى تحليلاته بالنسبة للزاوية التركيبية الثانية :

★ المورفولوجية البشرية :

كما سبق .. فإن التركيب الطبيعى للمنطقة .. وإن تضمن وحدات مورفولوجية متعددة ، إلا أنه فى مجموعة .. يظهر ملموما تقريبا .. ومحددا بخطوط طبيعية صارمة (البحر شمالا وجنوبا ، والصحراء جنوبا ، والجبال خط زاجروس ، طوروس شمالا وشرقا ، ص ٣٨) ، ومن شأن ذلك أن يحفظ شخصيته البشرية .. وأن يرسخ التمايز بينها وبين المناطق المجاورة ، ومن داخله .. فقد منحه الاسلام تجانسه .. بصفة غالبة ، غير أن بقية سمات التجانس البشرى (.. ليست كاملة تماما ، ص ٣٨) ، وإن كان أقرب لذلك عرقيا ولغويا معا ، وذلك مع عدم تجاهل شروخ معينة .. تتصل بأقلياته .. من

بربر المغرب وأكراد العراق وزنوج جنوب السودان خاصة ، تمثل فى مجموعها (جنسيا ولغويا ودينيا .. قرابة ١٢٪ من مجموع سكانه ، ص ٣٩) ، ولكن أيا من هذه الأقليات .. لاتختلف عن بنيته .. إلا من ناحية واحدة منها غالبا ، بحيث لايعدم الأمر وجود جانب مشترك بينها وبين الكتلة القاعدية ، ويقتصر توزيع الأقليات الصغرى (من الأرمن والشراكسة والايرانيين والهنود .. وغيرهم .. على هوامش المنطقة .. أو جيوبها المنعزلة ، ومرة أخرى يوظف فكرته لقوميته (.. لهذا .. ليس هناك مايبرر المبالغة فى الحديث عن التنافر البشرى المزعوم فى المنطقة ، ومرجع ذلك غالبا الخلط بين العالم العربى والشرق الأوسط .. حيث يضم الأخير إيران وتركيا وغيرهما .. وهما حقا ليسا منها .. بقدر ماهى ليست الشرق الأوسط وحدها) ، ويؤكد (.. الواقع أن الغريب ليس أن يوجد بعض التناقض فى التركيب البشرى ، بل الغريب حقا أن يوجد هذا القدر الكبير من التجانس .. وذلك رغم التتابع الحافل الذى مر على المنطقة .. كإقليم اتصال ، ص ٤٠) ، وهكذا يعود دائما إلى فرضه الأساسى (إقليم اتصال) .. متصاعدا به الى تفسير شخصية المنطقة .. فالى التدليل على صدق وصلابة رؤيته .. المحددة فى وحدة المنطقة .

والآن يأتى مكان سؤاله .. عن مغزى هذا التجانس الطبيعى (المركب) والبشرى .. للمنطقة بالنسبة لوحدتها الوظيفية ؟ .. ، يمهد به لتحليلاته اللاحقة ، وتأتى إجابته ..

فى سياق من المفروض المتتابعة .. تكون فى مجموعها بناء نظريا متكاملا .. كما يلى :

الفرض الأول : ليس من الضرورى أن تستند الوحدة الوظيفية .. إلى وحدة مورفولوجية مطلقة .

الفرض الثانى : لا توجد وحدة مورفولوجية مطلقة التشابه مطلقا .

الفرض الثالث : التنوع فى إطار التشابه يمثل القاعدة بلا استثناء طبيعى أو بشرى لها .

الفرض الرابع : التنوع مبعث التفاعل .. وتدفق العلاقات بين مكونات الوحدة .. وبينها وبين غيرها .

الفرض الخامس : لا تأتى الوحدة الوظيفية من الوحدة التركيبية .. وإنما من اختلافها . ويدلل على فروضه بمقارنات وأمثلة .. دالة وموحية (ص ٤٩) ، ينتهى منها إلى هذه الصيغة المتوازنة (.. الوحدة الوظيفية تأتى إذن من التنوع المورفولوجى .. ولكن فى حدود معينة Unity in dirersity ، إذا تعدتها أصبح التنوع تنافرا ، فالتباين إذا زاد عن الحد .. انقلب الى الضد ، تمزقا وتشتيتا وخطرا سياسيا وتميعا حضاريا ، وفى حالة العالم العربى .. نجد أن التجانس المركب .. يكاد يحقق أنسب التنوع .. فلا تنميط ولا تميع ... ص ٤٩) ، ثم يتوجه إلى القسم الثانى من مبحثه .

الوحدة الوظيفية :

تستند الوحدة الوظيفية لمنطقة ما .. إلى دعامتين .. من العضوية والتكامل العضوية .. بمعنى تدفق تفاعلات أجزائها .. تلقائيا .. بحكم ترابطاتها المكانية وعلاقاتها البنيوية .. سابقة بذلك أى تنظيم فى أى صورة من صوره ، فإذا ما استثمرت خاصية العضوية .. بعد ذلك .. فى خطة .. وجدت الأخيرة رصيدا مسبقا يغذيها .. ويمدها بقوة اندفاعها ، وتتحقق التكاملية الوظيفية .. من تبادل المصالح .. في إطار من المصالح المشتركة حيث تسد أجزاء المنطقة .. النقص في بعضها بعضا .. وتحقق فى المحصلة فوائض .. تفوق المحتمل من انفرادها فإذا كانت العضوية تنطوى على المستويات الثقافية والسيكولوجية .. ضمن مقوماتها ، فإن التكاملية لاتحقق دون المصلحة الاقتصادية .. وهذه جميعها بمثابة المقومات للوحدة السياسية .

وبالنسبة للعالم العربى (ص ٥) .. فقد انبثقت وحدته العضوية .. من تاريخه وثقافته ، ومن الأصول العرقية المتقاربة ، ومن التجاور المكانى .. بمثابة قارب واحد يجمعها ، وقد تجلت فى التاريخ السياسى المعاصر مكونة مايعرف بالشارع العربى .. ممتدا من شرقه الى غربه ، كما تجلت وحدته التكاملية ـ فى فترة من تاريخه تملك فيها طرق العالم التجارية .. وكون دولته العربية الاسلامية ، ولكنه منذ فقدها بعد الكشوف الجغرافية ، وتمزقت دولته .. وسقطت فى

قبضة القوى الاستعمارية ، غابت تكامليته .. وبقيت عضوية كامنة .. تنتظر من يبعثها .. ثم يمنحها الفاعلية .. بالتكامل الاقتصادية .

ويتخذ من التجارة بين العرب Inter - Trade Arab مقياسا .. حيث يقرر (.. تعتبر حتى الآن بدائية لاتغنى، ومجموع قيمتها الى جملة قيمة التجارة العربية الخارجية لايمثل الا نسبة بسيطة ، بحيث أن وحدات العالم العربى . تعطى ظهرها لبعضها البعض تجاريا ، ويتوجه كل منها بكليته من حيث التبادل الاقتصادى ـ إلى العالم غير العربى ، ص ٥٠) ، كما يتخذ من التمزق السياسى .. دليلا على ما أصاب المنطقة من جزاء قرون الهيمنة الاستعمارية (.. وهنا نجد العالم العربى .. مفتتا تفتيتا ذريا ، هذا عدا الجيوب المحايدة .. والأسافين الداخلية .. والمنازعات الحدودية ص ٥١) ، فإذا كانت الوظيفية الفعالة .. لاتتحقق إلا بالوحدة .. فكيف يمكن التوفيق إذن بين أطراف المعادلة ؟ ، هذا هو سؤاله المعلق .. يجيب عنه خطوة خطوة ، فى سياق من الأسئلة المتتابعة ـ تهدف إلى تأصيل اجابته .. ودمجها فى بناء متصل بما سبق له الكشف عنه من خصائص شخصية المنطقة .. جغرافيا وتاريخيا وسياسيا .

هل الوحدة الوظيفية ضرورة إقليمية ؟ (.. رأينا أن الشخصية الاقليمية للعالم العربى .. تتركز فى حقيقة كبرى .. انها إقليم اتصال .. سواء من ناحية الموقع أو التركيب الداخلى ، ومن ثم فإن الوحدة الوظيفية ضرورة

إقليمية .. بسبب طبيعة هذه الشخصية ، فكل الخصائص والعناصر التى تجعله إقليم اتصال .. هى عناصر ضعف شديد له . إذا لم تكن له هذه الوحدة ، بينما هى فى نفس الوقت عناصر قوة هائلة ـ اذا تحققت له هذه الوحدة ..) .

لماذا هى عناصر ضعف بلا وحدة ؟ (.. لأن ماسبق تحديده عن التجانس المركب .. يتحول الى تنافر .. إذا ماجزىء ، حيث تتضخم الاختلافات بينها بحكم انفصالها ، فالتوزيع السكانى يمس جزرا متباعدة ، وتتضاعف الفروقات المحلية .. بينما هى تذوب فى إطار الوحدة) .. .. ويضرب المثل بلبنان وحده .. كيف حاله منفردا .. بأقلياته وطوائفه .. وماذا يمكن أن تكون عليه .. فى الاطار العام للقومية ، وكذا العراق بأكراده .. والسودان وسوريا ، إن الوحدة تصل بالشروخ ، إلى أدنى نقاطها .. بينما تتضاعف فى كل وحدة منفردة ، وهى جميعها دون وحدة .. فريسة سهلة .. للقوى الطامعة .. فى مواردها الموضعية والموقعية (ص ٥٢) ، وأيضا بضغوط المضاربة عليها .. بسياساتها المنفصلة .. بالمزايدة والمناقصة ، ويستمد من التاريخ أمثلته (ص ٥٣) فى الشام والخليج وشمال افريقية .. وغيرها ، هذه التى تحقق قوتها من (تجمع مزاياها المكانية .. الظهير مع الساحل الصحراء مع البيئات الفيضية .. الجبل والسهل والهضبة) .. ، بينما لاتجد سوى الضعف من تفرق هذه المزايا .. والفصل بينها .. بسياسات حكومية متضاربة . (..

ويتجسد ذلك بوضوح بالنسبة للسياسات البترولية ، ص ٥٤) ، باعتباره بؤرة لأعتى الأطماع الاقتصادية الراهنة .. من القوى الخارجية الكبرى ، هذه التى أدركت مبكرا .. طبيعة المنطقة كقطاع للارتطام بين القوى .. وعمدت بشتى الطرق .. لتفتيتها .. وضع وحدتها كأساس لاستمرار تبعيتها لها .. ودوام هيمنتها عليها .. سياسيا وثقافيا واقتصاديا معا .

وكيف يمكن أن تكون ذات خاصيته الاتصالية .. مصدر قوته ؟

لقد سبقت إجابته .. عن بعض مايتضمنه سؤاله .. (تؤدى العزلة الناجحة عن الانفصال الى تضخيم المشكلة ، بينما تؤدى الوحدة الى تذويبها ..) ، ويضيف هنا .. (التكامل بين الأجزاء المتناقضة .. تكاملا يشمل السكان .. يوازن بين مناطق الكثافة المفرطة والمتدنية ، والانتاجى .. فى كافة مجالاته الزراعية والرعوية والسمكية والغابية .. والمعدنية وغيرها ، ويمنح التجارة وزنا خاصا .. باعتبارها .. عنصر تجنيس ، هذه المنطقة المركبة ، بحيث لا تتخلص من نوعيتها المنخفضة كتجارة مرور فقط ، وإنما يتضاعف حجمها .. بعيدا عن ضآلتها الراهنة ، وكذلك الصناعة .. التى تقدم للتكامل أنسب أوعيته - وأعلاها قيمة (الخامات + رؤوس الأموال + السوق + الطاقة + قوة العمل) ، خاصة وأن البترول العربى يقدم (نواة ممكنة للانقلاب الصناعى العربى .. على غرار ماحدث فى أوربا قبله ، ص ٥٧) ، ويؤكد (.. والواقع أنه فى كل مجالات الانتاج

والحياة .. يمكن أن يتحول العالم العربى .. الى نموذج فريد للتخطيط الاقليمى .. الذى هو وحده كفيل بتحريك ثورة فى المستوى المعيشى العام للمنطقة ..) ، وتتواصل المتابعة .. الى الموقع .. كمصدر أساسى لقوته ـ حالة استثماره له .. بتكتله فى وحدة قصوى .. تمكنه من مجابهة مايحيطه من أخطار ضخمة محدقة ، منتهيا الى (.. الخلاصة إذن .. أن الوحدة بالنسبة للعالم العربى .. ليست أبهة سياسية ، ولكنها بحكم شخصيها .. ضرورة استراتيجية لها ، ص ٥٨) .

ويأتى سؤاله الأخير .. ولكن كيف يمكن للعالم العربى أن يحقق وحدته الوظيفية ؟

لقد تحققت له من قبل تاريخيا كماسبق ، ولا تزال ممكنة .. بامكانية وضرورة متضاعفة ، يدعمها الآن الاتجاه العالمى ـ نحو تكوين الكيان الكبير .. إطارا لدولة Grecssraume ، خاصة بعد الثورات الصناعية المتعاقبة ، وتلاشى المسافات فى إطار ثورة المواصلات والاتصالات الجارية (وإذا كانت القافلة قد وحدته قديما من الناحية الاقتصادية فكيف بوسائل المواصلات الراهنة ؟ ، ص ٥٩) .

واذا كانت المسافة بعد أبعد أجزائه .. فى حدود سبعة آلاف كيلومترا .. بين محيطه وخليجه .. فإن ثورة المواصلات تلاشيها .. وتفقد المسافة تأثيرها .. سواءً بالنسبة للبشر .. أو لتبادل السلع ، كما هى كفيلة باذابة الشروخ الثقافية .. الناتجة عن العزلة .. وضعف التفاعل بين وحداته ، بما يؤدى

الى (ترسيخ الثقافة وتأكيد النمط ، ص ٦٠) .. كما أن من شأن الاتجاهات السياسيـة المعاصـرة .. أن تمتص بالديموقراطية انطواء اقلياته .. ومشاكلها المتوارثة ، بما تكفله لها من حقوق متساوية .. تحقق بها ذاتيتها ... وتتفاعل مع غيرها ، ولا يعنى الكيان الكبير .. تضاعف المساحة وحدها .. بل وأيضا البشر ، ومن شأن وحدته الوظيفية .. أن تجعل من مجموعهم .. كتلة لا يستهان بها ، تمكنه من الارتفاع بمستوى استثماره لموارده .. دون الحاجة لغيرهم .. فى مناطق البترول خاصة .

ويبقى سؤال يتصل بما سبق .. هل تتم هذه الوحدة الوظيفية .. تدريجيا أم دفعة واحدة ؟

(.. هناك مدرستان مختلفتان فى هذا الصدد ، مدرسة ترى بالتدريجية .. تبدأ من الوحدات الأقرب لبعضها ، مثل مجموعة الهلال الخصيب ، ووادى النيل ، والمغرب الكبير .. وغيرها ، أى أنها مؤقته .. انتقالية .. تمهد للمرحلة التالية ، وإن كان هناك داخل هذه المدرسة .. من يرى بأن تكون تجمعاتها نهائية .. بادعاء أن كلا منها أمة كاملة (ص ٦٢) ، أما المدرسة الثانية .. فترى بالوحدة الوظيفية الشاملة .. باعتبار .. أن الضرورات تدعو لها .. كما أن مقوماتها الجغرافية والتاريخية كافية ، ولكن المسألة تقتضى صيغة متوازنة .. تجمع بين التدرجية .. والوحدة الوظيفة الشاملة ، تدرجية لا تقتصر على المناطق المتجاورة .. ثم غير المتجاورة

بعدها ، ولكنها أيضا تدرجية فى توقيتاتها .. وفى نوعية الوحدة الوظيفية وأولوياتها .. كأن تكون ثقافية تعليمية أولا .. ثم تنسيقا سياسيا ثانيا .. ثم تعاونا اقتصاديا متدرجا فى حد ذاته ، أى أن التدرجية هى الصيغة المناسبة تاكتيكيا .. أما استراتيجيا .. فهى الوحدة الوظيفية الشاملة .

المبحث الثالث :

الجمهورية العربية المتحدة .. دراسة فى الجغرافية السياسية

كتبت هذه الدراسة .. بعد شهور من قيام دولة الوحدة (١٩٥٨) .. بين مصر وسوريا ، وأطلق عليها الجمهورية العربية المتحدة ، وقدمت نموذجا ـ أمسى الآن تاريخيا ـ عن دولة الوحدة الوظيفية الكاملة ، وقد كتبت بالطبع فى إبانها .. ولم تكن سلبيات تأسيسها قد اتضحت ، هذه التى لم يكن مستحيلا تجاوزها ، وبذا تكون بسقوطها .. قد أوضحت مايجدر تجنبه فى المستقبل ، فرغم مايظهر من تباعد احتمالاتها .. فإنها تجربة فى حد ذاتها .. ومن يدرى .. ماذا يخبئه الأفق .. فقد انبعثت القومية من مرقدها .. بل مقبرتها .. فى مناطق شيعت فيها دون دمعة ، ولكنها هنا فى العالم العربى .. لا تزال ساخنة تحت رمادها .. يثير سقوطها الألم والحسرة ، وقد يمثل ذلك يوما .. ليس بالضرورة قريبا .. رصيدا لتجربة أخرى .. قادمة .

وتنتسب هذه الدراسة .. إلى منهج قياس قوة الدولة Power State aPP . يدل على ذلك سطرها الأول (الوزن السياسى للدولة .. من أهم مناهج دراسة الجغرافية

السياسية ، لتقييم ثقلها ووقعها impact في المجتمع العالمي ، ص ٦٧) ، ويعود هنا إلى نظريته العامة (الموقع ، الموضع) ، ويتخذ منهما ومن تفصيلاتهما محكات لقياساته المختلفة ، حيث تتحدد قيمة الموقعSituation في القيمة الحيوية والبشرية والاستراتيجية للدولة في إطار العلاقات المكانية .. والمواقع النسبية الخارجية ، وتتحدد قيمة الموضعSite في الموارد الداخلية للدولة .. من حيث الأرض والناس .. كما وكيفا ، ومنهما يتصاعد منهجيا .. ليدرس التركيب السياسي للدولة (ص ٧٦) .. متبعا في ذلك مقاييس شتى ، ليصل أخيرا إلى مايسميه "التنسيق السياسي للدولة" .. بمثابة توصياته المتضمنة رؤيته .. يوظفها جميعا لما يعتبره الأمثل ..

★ أولا : الوزن السياسي لدولة الوحدة :

يستمد موقع الدولة الجديدة أهميته .. من الموقع العام للعالم العربي ، فهي منه في المركز .. وهو من العالم في قلبه ، تترامى بقسميها (مصر وسوريا) عبر قارتي افريقية وآسيا ، بل إن كلا منهما بوابة لقارة .. ووراء كل منهما ظهير يدعمها ، وكلاهما (المجمع النهائي لتوجيه خطوط الحركة لقارة كاملة ، تمسك كل منهما بمدخل .. يفتح الوراء القاري .. ويفضي منهما واليهما بالحركة) ، فسوريا نافذة بحرية للعراق والأردن ومابعدها ، ومصر بقناتها .. عنق الزجاجة للتجارة العالمية ، وهي موارد موقعية ثابتة أو شبه ثابتة .. غير

قابلة للمنافسة .. بحكم الجغرافية ، تضاعفت مواردها بعد البترول العربى .. باعتبارها تسيطر على ممر الحركة الرئيسى ـ القناة ـ من حقوله إلى أوربا .

ومن الناحية الجيوستراتيجية .. فهى (بمثابة الحلقة الوسطى .. الأكثر حساسية وقيمة فى سلسلة قوسية فاصلة ، بين القوى الرئيسية ، ص ٦٩) ، ومن هنا يبرز وزنها ضمن قوة ثالثة بينية (ص ٧٠) ، من شأنها فى حد ذاتها أن توازن القوى الأساسية فى الشرق الأوسط (ايران ، تركيا) وأن تنهى ذلك الانحدار الچيوبوليتيكى Geo-political Grudient بينهما وما يجاورهما ، خاصة بين تركيا وسوريا .. قبل الوحدة ، وأن تحقق التكافؤ الديموجرافى والاستراتيجى .. بعد أن نقلت الوحدة حدود مصر إلى جنب تركيا (ص ٧١) ، ومن الناحية الأخرى (.. وضع موقع الدولة الجديدة اسرائيل ـ التى أريد لها أن تكون اسفينا إقليميا وبشريا ـ وضعها بين فكى كماشة لكتلة سياسية واحدة ، تتصل حدودها بها اتصالا مباشرا من الناحيتين .. على جبهتين مجموعهما ٣٥٠ كم ، منها ٧٠ كم سوريا ، وبقيتها ٢٨٠ كم مع مصر ، ص ٧١) .

وبالوحدة .. تصبح مصر وسوريا .. أغنى بقعة موضعية فى العالم العربى ، سواء حيث القوة البشرية .. (أكثر من ثلث المنطقة سكانيا) ، أو من حيث المساحة .. فهى من أكبرها (١,١٨٤ مليون كم^2) ، ورغم ضآلة المعمور من هذه المساحة (نحو ٥٠ ألف كم^2) .. بمثابة نواة تغلفها درقة صحراوية أو استبسية ، فإنه يتمثل فيما لايقل عن ٣٠ مليون

فدان .. قابلة للاستغلال .. حيث لايزرع سوى أقل من نصفها .. (أى أن هناك امكانيات توسعية أفقية .. وأيضا رأسية ..) يضاعف من قيمتها تنوعها الطبيعي .. فوق أكثر من ١٥ دائرة عرضية (بين ٢٢° شمالاً جنوب مصر .. إلى ٣٧,٥ شمال سوريا) .

ويمثل الانتاج الزراعى المورد الموضعى الرئيسى لدولة الوحدة ، واقتصادها يرتكز على الخامات الزراعية انتاجا وتصديرا (اقتصاد انتاج أولى Primary Production أساسا ، ص ٢ يتطلب تطويره فى خطة شاملة ، لا تضاعف قيمته فقط .. وانما تحرره أيضا من التبعية الاقتصادية والضغوط السياسية ، وذلك بوضع الكفاية الذاتية .. خاصة الغذائية .. ضمن أولوياتها القصوى ، خاصة مصر (.. التى تطورت الزراعة بها من الغذاء إلى الألياف .. ومن الألياف إلى النسيج From Food To Fibre From Fibre To Fabric ، ولهذا تستورد الآن نسبة كبيرة من مقطوعية استهلاكها الغذائى ، وبدرجة أقل فى سوريا .. التى تستورد نسبة من المواد الغذائية تساوى ٢٠٪ بالوزن والقيمة من وارداتها ، ص ٧٣) ، وبعد الغذاء .. تأتى الصناعة ضمن أولويات الخطة ، ويمكن أن تمثل الصناعات الغذائية والاستهلاكية .. أهم مجالاتها فى المستقبل ، مع تحريرها من طابع الصناعة الواحدةMono Facture ، وذلك بتنويعها والتوسع فى الصناعات التمويلية (ص ٧٤) .

وتحوز دولة الوحدة ـ موارد معدنية ضخمة .. لم تستغل .. بمثابة القاعدة الاحتياطية لسياستها التصنيعية ، تدعمها امكانيات مماثلة من الطاقة المائية (السد العالى فى مصر ، وسد يوسف باشا على الفرات ومشروع الغاب واليرموك فى سوريا ..) وإذا كانت مصر قد سبقت إلى الصناعة الثقيلة .. فيمكن لسوريا أن تلحقها بنواة مماثلة ، وإذا كانت هى أيضا .. قد عثرت على البترول فى أراضيها ، فإن حقل قرة تشوك الداخلى بأرض الجزيرة .. يعد برصيد ضخم .. يمكن سوريا من الاعتماد قريبا عليه (ص ٧٤) ، مع تدعيم صناعته التكريرية والتحويلية .

ويختم هذا الجزء من مبحثه الثالث بهذا السؤال (ماقدر الثقل السياسى للجمهورية العربية المتحدة .. كما يحدد وزنها الاقتصادى فى العالم العربى ؟) .

لقد سارت هذه العلاقة منذ بداية هذا القرن .. فيما يشبه المنحنى ، تظهر الشام ومصر فى بدايته .. كمركز للثقل الاستراتيجى فى المنطقة ، بشريا واقتصاديا وسياسيا معا ، بينما تقع بقية المنطقة فى ظله ، وتحرك الثقل بعد الحرب العالمية الثانية .. مع الكشوف البترولية .. فى العراق وحول الخليج وقربه وتضاعفت أهمية موارد موضعه ، ونالت مصر نصيبها .. ليس من البترول .. ولكن من قناتها .. التى أصبحت المخرج الرئيسى .. لمنطقة انتاجه ، وعاد التوازن .. مع الدولة الموحدة .. التى تحوز من الأرض والبشر مايفوق غيرها .. كما سبق .. بالاضافة إلى بنية حضارية أكثر رسوخا

وتماسكا .. وإن كانت موارد البترول فى مناطق انتاجها .. تفوق مواردها الموضعية .. فى درجة تطورها الراهنة ، وإذا كانت هذه المعادلات مؤقتة .. ومستمرة فى تغيراتها .. فإنها تنبيء بمقدار ما يمكن أن يحققه العالم العربى .. إذا ماتحققت له تكامليته .. فى إطار وحدة وظيفية .. تضم أجزاءه .

ثانيا : التركيب السياسى

يستهل هذا الجزء من مبحثه .. بوضع مقاييسه .. فى هذه الأسئلة الثلاثة التالية :

- هل الجمهورية الجديد نسيج متجانس ؟
- هل هى ملمومة Compact متماسكة ؟
- هل هى واضحة الحدود .. ؟

وبالنسبة للمقياس الأول (التجانس) .. فإنه يعنى به (التجانس التركيبى البشرى .. بمجالاته الانثروبولوجية واللغوية والدينية ، ص ٧٦) ، ومن ثم فإن "الأقليات" .. أهم مؤشراته ، ويقرر بأنها هامشية التوزيع المكانى ثانوية الحجم السكانى ، وإذا كان التجانس يمثل القاعدة المشتركة .. إلا أن مصر أشد تجانسا دينيا وجنسيا ولغويا (ص ٧٧) ، بل ويمكن القول (.. أن الأقليات هى مشكلة فى سوريا إلى حد ما ، فهناك من الأقليات الجنسية واللغوية .. الأكراد والشراكسة والأرمن والأشوريون والتركمان..) ، وذلك لأسباب تعود إلى موقعها العبورى والتقطع التضاريسى

والعزلة الجبلية .. فضلا عن سياسة الاستعمار الفرنسى .. بوجه خاص (.. فقد قسم سوريا أولا إلى ٤ دول .. هى العلويين والدروز ودمشق وحلب ، كما جعل أنطاكية والاسكندرونة حيث الأقلية التركية .. سنجقا مستقلا ، ص ٧٨) ، وسيعود إلى هذه النقطة مرة أخرى .. عند دراسة مقياس الحدود ، غير أن من شأن دولة الوحدة .. أن تمتص كما سبق هذه الشروخ .

أما بالنسبة للمقياس الثانى (التماسك الأرضى) .. فإنه يكشف عن نقطة الضعف الأساسية بلا جدال (.. فالدولة إقليمان منفصلان .. بينهما فاصل أرضى حوالى ١٧٠ ميلا فى خط مستقيم .. بين حدود سيناء وحدود حوران ، ص ٧٩) ، هذا بالنسبة للوضع العام .. أما بالنسبة لكل دولة بوجه خاص .. فمصر غطاء بشرى مستمر .. ليابس متصل دون انقطاع ، وتتألف سوريا من كتلتين .. متصلتين أرضا .. منفصلتين سكانيا الى حد ما (.. الساحل .. وهو النواة nuclear core ويضم ٨٨٪ من السكان ، والجزيرة .. نواة ثانوية تضم ١٢٪ من السكان ، وتفصل بينهما بادية الشام ، ولكنهما يتقاربان باستصلاح الأراضى والتعمير ، ص ٧٩) ، وفى المحصلة .. فإن الفاصل المسافى بين مصر وسوريا .. ضئيل من حيث القيمة الجغرافية والجيوبوليتيكية ، ويستمد خطورته من وجود اسرائيل .. باعتبارها فاصلا أرضيا .. يجعل من البحر عامل الوصل الوحيد ، يسانده ممر جوى Air Lift .. وإن ناوشتهما معا الأخطار ، ويوصى الدولة الجديدة (بأن تصبح قوة بحرية بالضرورة ، ص ٨٣) .. وأن توظف فى ذلك قناة السويس .

أما المقياس الثالث (الحدود) .. فإنه يحددها أيضا بعدد من المؤشرات ، يبدأها بالطول (.. للدولة الجديدة حدود يبلغ طولها نحو ٧٢٥٨ كم ، منها لسوريا ٢٢٧٤ كم .. ولمصر ٤٩٨٤ كم ..) ويصنفها (.. من هذه الحدود ٢٥٧٣ كم مائية طبيعية ، يخص سوريا منها ١٧٣ كم .. والباقى ٢٤٠٠ كم لمصر ..) ويقرر (هذه حدود طويلة .. مشكلتها الأساسية .. الدفاع .. خاصة وأنها تتاخم ٧ دول .. بينها اسرائيل وتركيا ، وهى فوق ذلك هندسية فلكية فى معظمها البرى .. ينقصها البعد الدفاعى الطبيعى .. فالأراضى متواصلة عبرها دون انقطاع ، ومن بعد ينتقل إلى درجات الخطر .. وأشدها اسرائيل ، تليها تركيا .. التى تأسفنت داخل سوريا التاريخية .. بانتزاعها لواء الاسكندرونة .. متجاوزة الحد الطبيعى الصارم لجبال طوروس (ص ٨٥) ، ويفيض فى تحليل المشكلة جغرافيا وتاريخيا (ص ٨٦) .. موضحا النتائج الفادحة لعملية الاغتصاب (ص ٨٧) ، منتهيا إلى أن سوريا ومن بعدها دولة الوحدة (لا تعترف بفصل اللواء .. ولاتزال تحتفظ بحقها فيه ، ص ٨٨) ، ويتابع حدود سوريا مع العراق .. ثم مع فلسطين (حدود مشتركة بطول ٧٠ كم) ، ويعود إلى الاسفين الاسرائيلى (ص ٨٩) .. كاشفا عن شذوذه .. وأهدافه (.. ويرقد سر كل هذا التخطيط الشاذ .. فى أن بريطانيا .. تحت ضغط الصهيونية .. قد عمدت الى ابعاد سوريا ولبنان عن منابع المياه ..، ص ٨٩) .

أما عن الحدود المصرية .. فإنها وإن أحاطت بسيناء .. إلا أن العمق الدفاعى أمامها .. قد خسر فلسطين ، كما شاركتها اسرائيل رأس خليج العقبة .. بمينائها الاسفين ايلات ، كما لايخلو من بعض التعرجات فى الغرب ، أما من الجنوب .. (.. فإن مصر لم تتخل عن أية مناطق هناك .. منذ انسحابها أيام المهدية من السودان ، ص ٩٥) ، ويشير إلى منطقة حلايب بشىء من التفصيل (.. فى عام ١٩٠٢ تحدد خط حدود متعرج إلى جانب الحدود السياسية ، ويتخذ شكل مثلثين .. غربى يقطع فى السودان .. متمثلا فى مثلث جبل بارتازوجا .. ومساحته ٦٠٠ كم٢ ، وشرقى يقطع فى مصر . متمثلا فى مثلث جبل علبة ومساحته ١٢٥٠٠ كم٢ ، وقاعدته على الخط السياسى بطول ٣٠٠ كم ، وقد تحدد مثلث علبة ليوحد إدارة شئون بشارية مصر .. مع كتلتهم الرئيسية فى السودان ، بينما مثلث بارتازوجا .. ليوحد إدارة شئون عبابدة السودان .. مع كتلتهم الرئيسية فى مصر ، وتبلغ مساحة ماسلخ من مصر ٩ أمثال ماضم إليها ، فضلا عن كونه منطقة مرتفعات .. غنية نسبيا بالمياه والنبات .. بل وبالمعادن .. خاصة جبل علبة وشنديب ، كما يمثل جبهة بحرية على البحر الأحمر ، والواقع أن ذلك لم يكن لخدمة القبائل الرعوية .. بقدر ماحقق استراتيجية بريطانيا .. الرامية دائما إلى تلغيم الحدود بالمشكلات .. وهو مايظهر الآن كمشكلة بين مصر والسودان ، ص ٩٦) .

وينتهى من مؤشراته المتصلة بخطوط الحدود (الطول +

الخطورة + المشكلات) .. حيث يقرر (.. من العرض السابق يتضح أن حدود مصر وسوريا .. تتشابه فى أن كل منهما حدود منقوصة .. قلمت منها أطراف ومداخل استراتيجية خطيرة ، ولكنها فى مصر أشد صلابة .. لأنها شبه واحة صحراوية .. بينما سوريا شبه واحة اسبتسية مفتوحة ، كما أنها فى مصر أقل خطورة ـ لقلة عدد الجيران .. عدا ما يتهددها من ناحية اسرائيل ، فضلا عن موقع سوريا الهامشى .. بحدودها الطويلة مع تركيا .. بما يجعل ميزة العمق الدفاعى Defensive in depth بالنسبة لها أقل من مصر بوجه عام ، ومن هنا تظهر دولة الوحدة كسياج واقى لكليهما .. ولسوريا بوجه خاص . (ص ٩٧) .

ثالثا : التنسيق السياسى لدولة الوحدة

كما سبق .. فإن يضمن هذا الجزء من مبحثه الأخير .. مايمكن أن يعد رؤيته العامة .. منطوية على توصياته .. لمواجهة مارصده من نقاط ضعف وسلبيات ، وتدعيم التفاعل العضوى والتكامل الحيوى بين القسمين ، بكل ما يتطلبه ذلك من تكييف الأوضاع الجديدة .. وتطويع القديمة منها للجديد ، محددا الهدف (ينبغى أن يسيطر على عملية التكيف هذه .. هدف تحقيق شبكة متكافئة متساوية .. من القيم البشرية والحيوية فى الاقليمين على السواء ، بمعنى آخر .. ينبغى أن يسود مبدأ المساواة الاقليمية ..) ويستدرك (.. دون أن

يؤدى ذلك إلى التنميط Standardisation) أى دون تذويب الشخصية المحلية .. ولكن توظيف مواهبها الخاصة .. داخل الاطار العام (ص ٩٨) ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك دون تخطيط (وهذه توصيته الثانية .. حيث الأولى هى المساواة) ، ثم يوصى بأن يهدف التخطيط إلى :

● تحقيق الحد الأقصى من التجانس القومى والاقليمى .
● الجمع بين مزايا الوحدة .. والتنوع .
● صياغة التخطيط بحيث يتضمن عملية اعادة التوجيه Re - orientation للاقليمين .. بالموازاة مع عملية اعادة التوزيع Re - distribution .. فى الاقليمين . ثم يتساءل عن مجالات التخطيط .. ويوجزها فى هذين المجالين :

★ القوة البشرية :

وتقدم المجال الأساسى لاعادة التوزيع ، حيث تبدو النسبة كبيرة (١ : ٥) لكل من الحجم السكانى لسوريا ومصر .. على الترتيب ، وهى تقدم للمغرضين الحجة .. على أن الوحدة ليست بين أنداد ، ولكن اعادة التوزيع ليست مسألة هينة ، حيث هى يجب أن تأخذ فى الاعتبار .. أن سوريا مقبلة على مرحلة ديمرجرافية متفجرة .. وأنها يمكن أن تستوعب ما لايقل عن ١٥ مليونا من السكان ، فضلا عن أن اعادة التوزيع .. تتطلب التهجير .. وهى مسألة محفوفة بالحساسيات ، ومن ثم فإن ضوابط اعادة التوزيع .. تتمثل فى (توقعات الحجم

السكاني المحتمل فى سوريا + حساسيات التهجير ..)
وبازاء الضوابط .. هناك الضرورات .. تتحدد فى :

● بينما تعانى مصر من افراط السكانover - population .. تواجه سوريا مشكلة نقص السكانUnder populaion ، بما يؤدى فى الحالتين .. إلى ضعف الاقتصاديات .

● بينما ضاقت فرص التوسع فى مصر .. فإنها مازالت متوافرة في سوريا .. بأكثر من ضعف المستغل الآن ، بما يقدم القاعدة للتكامل الاقتصادي السكانى المنشود لصالح الاقليمين ، خاصة وأن ذلك يحقق الوحدة الوظيفية .. كما يجب أن تكون .

● ثم هناك الضرورة السياسية .. المتمثلة فى دمج الشعبين .. وازالة اسباب الانفصال .. بتيار بشرى .. يدفع بالدماء السكانية إلى الشرايين ، ويملأ فراغ الهوامش السورية قرب الحدود .

ويفيض فى متابعة تيارات الهجرة المتبادلة بين مصر وسوريا .. عبر التاريخ (ص ١٠١) ، ويشير إلى (.. مشروع ضخم للتهجير .. تتبناه الحكومة الموحدة .. على عدة سنوات ، ويقدره البعض بمليونين .. ويقدره البعض بمليون ..) ويحذر (.. من التخوفات التقليدية فى مجال الهجرة) ويراها تدنو فى الحساب .. عن ضرورات التهجير ، كما يحذر من سوء التنفيذ .. فمهما كان التخطيط محكما على الورق .. فإن محكه الأساسى عند التنفيذ .

وينتقل الى المجال الثانى للتخطيط .

★ تنسيق التكامل بين الاقليمين :

ماهي المبادىء السياسية الأساسية .. فى عملية تنسيق التكامل .. بنواحيها المختلفة .. الادارية والثقافية والاقتصادية .. وغيرها ؟

يعود فيؤكد على مبدأ المساواة .. ويكرر (.. التخطيط للتجانس .. وليس التنميط) فالتكامل الوظيفى لايأتى من التنميط .. وإنما من التفاوت التركيبى.. أو التجانس التركيبي .. أو التفاوت التركيبى كما سبق وأسماه ، فالتفاعل فى حده الأدنى يحدث بين المتشابهات .. ويصل إلى حده الأقصى بالتنوع الوظيفى .. ويتدفق بالتخطيط ، ولا يقتصر ذلك على الاقتصاد .. بل يمتد الى النظم الادارية والحكم المحلى .. وغيرهما من المجالات ، مستندا الى الخصائص الخصيصة لكل إقليم ، فالمركزية مثلا .. أنسب لمصر .. بحكم النهر الوحيد ، بينما طبيعة سوريا تؤدى بها الى اللامركزية بحكم تعدد البيئات ، وفى الحالين .. يجدر التوافق مع هذه الأحكام .. والتمشى معها .. وليس ضدها .. بالتنميط الادارى .. أو غيره .. مما يفضى بالضرورة للمشكلات ، ويدلل على هذه النقطة بمثال ثان عن المواصلات .. هذه التى فرضت الطبيعة وسائلها في القطرين (.. فطبيعة مصر المتصلة الملمومة .. جعلت للقطار اليد العليا فى المواصلات ، بينما الأولوية المحققة هى للسيارة والطرق فى

سوريا .. المضرسة هنا .. والمبعثرة هناك ص ١٠٤) ، ويورد غير ما ذكر من الأمثلة للتدليل والتأكيد .

ويحدد الهدف من تنسيق التكامل في الاقتصاد (.. ليس الكفاية الذاتية المطلقة ، ولا العزلة عن السوق العالمي ، ولكنه طريق إلى مزيد من الاستقلال عن المؤثرات الخارجية .. التي تخرج عن ضبط الاقليمين ص ١٠٥) ، ولاشك أنه هدف متعدد الأبعاد .. يتضمن تحصين الاقتصاد من الصدمات .. بما يدعم استقلاليته .. ويحرره من التبعية .. الناتجة عن الضغوط .. أو الحصار ، كما يتضمن رفض العزلة والانكماش .. حيث يرى في التفاعل والتواصل سبيل الاستمرار والانتعاش ، متصاعدا بفكرته إلى ذروتها .. حين يقدم المشاركة بالتصدير والاستيراد .. على مبدأ الكفاية الذاتية المطلقة .. الذي لايعني سوى الانغلاق .. والمستوى الأدنى من الاحتياجات .. عدا استحالته الواقعية .. بالنسبة لأي كيان منفرد .. مهما كان ، ويتابع مايعنيه وماينشده .. بالأرقام والتحليل ، ويضيف .. (يجب مضاعفة التبادل التجاري بين القطرين ، كما يجب تخليصهما من التنافس الخاسر .. نتيجة تصديرهما سلعا متشابهة الى ذات السوق ، وذلك بوضع سياسة عليا .. تقوم على استثمار المزايا التنافسية لكل منهما إلى أقصاها .. والتنسيق الدقيق عند التسويق ، كما يجب التنسيق بينهما لمواجهة الكوارث والأزمات .. إلى غير ذلك من اتجاهات وقنوات التنسيق ، ص ١٠٥) .

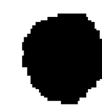
ويختم توصياته بمناقشة عميقة .. لامكانية تطبيق نوع من التخصص الاقتصادى الاقليمى بين القطرين حيث يقرر (.. أن سوريا بحكم المناخ .. مؤهلة بأفضلية طبيعية واضحة فى ميدان الانتاج الرعوى .. من لحوم والبان وجلود ، وميدان الفواكه والقمح والزيوت وأخشاب الغابات والبنجر ، وبالتالى فى الصناعات الزراعية المرتبطة بها .. كالجلديات والتعليب وحفظ الفواكه وصناعة الصابون وسكر البنجر والورق ، بينما تتمتع مصر بأفضلية فى الأرز والقصب .. وما يترتب عليهما من صناعات ، كما تتمتع بأفضلية واضحة فى المعادن خاصة الحديد والفوسفات والبترول ، وما يرتبط بهما من صناعات كالحديد والصلب الثقيلة خاصة .. والأسمدة والتكرير ، أما عن القطن .. فالأفضلية لمصر .. بحكم التربة والمناخ .. مع تخصيص انتاجها الفاخر للتصدير ، وتغطية الاستهلاك المحلى .. بتصنيع القطن السورى المتوسط ، بذا يمكن توزيع صناعته بالتساوى بين القطرين ، ص ١٠٨) .

وتتواصل توصياته فى ذات الاطار .. بالنسبة للتجارة (.. الأفضلية لمصر بالنسبة للتجارة الثقيلة البطيئة ، وهى لسوريا فى السلع الخفيفة ..) .. مدللا على ذلك بتحليل المزايا التنافسية للقطرين ، على أن التخصص المنشود .. يجب أن يبقى دائما محكوما بمبدأين (١٠٩) .

● العدالة الاقليمية فى التوزيع .. بما يضمن التوازن الدائم بين القطرين . Regional Balance

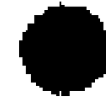
● الأمن القومى National Security بما يضمن سلامة الكيان .

فإذا كان التكامل الاقتصادى مطلوبا لزيادة تماسك واندماج القطرين ، وإذا كان هذا التكامل يأتى عن طريق التخصص الاقليمى ، فإن هذا التكامل وهذا التخصص .. ينبغي ألا يجعلا كلا أو أحدا من الاقليمين .. معتمدا كلية على الآخر .. فى خط انتاجى حيوى أو أكثر .. بحيث يتهدد الكيان الحيوى والاقتصادى لهما أو لأحدهما .. بشلل .. أثناء الأخطار الخارجية أو الحصار البحرى ، وذاك على أساس أن التركيب الجغرافى / السياسى للدولة الموحدة .. يتركها حتى الآن مشطورة بفاصل أرضى (ص ١١٠) ، وبذا تسبق السلامة القومية .. التخصص الاقليمى ، ويقتضى التوازن بينهما .. تحقيق قدر كاف من التجانس التوزيعى فى نواحى الانتاج الحيوية الحرجة Key Production .. حتى يمكن تحويل كل منهما بسهولة الى كتلة شبه معتمدة على ذاتها .. أثناء فترات تعذر الاتصال بينهما .



وينهى مبحثه وكتابه .. بهذه السطور المشرقة المتفائلة .. (.. ومن حسن الحظ .. يتضافر توجيه مبادىء التخطيط الاقليمى الثلاثة .. فى حالة الجمهورية العربية المتحدة .. ولا يتنافر ، فكلها تشير بوجه عام .. الى قدر معقول من التجانس الانتاجى .. لايتنافى مع قدر رشيد من التخصص يقترن

بفرص متكافئة تحقق المساواة بين القطرين ، ص ١١١) .



ولكن دولة الوحدة العربية الأولى فى العصر الحديث .. استهدفت بقوة نيران تفوق الاحتمال .. نسفت وجودها .. وعادت بها حلما .. بعدما تجسدت واقعا .. وأثبتت أن وجودها ليس من المحال .. وتبقى التجربة محلا للدراسة والتمحيص .

شكل (٩) مكونات كتاب "دراسات في العالم العربي" لجمال حمدان

العالم الاسلامى المعاصر

● من أشد ما أثار الاسى .. من بعد رحيله ، ما أثير عن احتمال فقدان مخطوطة له .. عن جغرافية العالم الإسلامى ، استغرقه اعدادها سنواته الاخيرة ، بمثابة الجزء الموسع .. من وجيز سبق اصداره .. قبل أكثر من عشرين عاما ، تحت عنوان "العالم الإسلامى المعاصر" (١٩٧٢) ، أشار فيه بين سطوره .. الى مشروعه بشأن توسيعه . مؤكدا بذلك منهاجه فى بعض مؤلفاته ، هذه التى يصدرها متدرجة .. تولد صغيرة .. وتنمو على مراحل ، خاصة ما يتصل منها بدوائره الثلاث الأثيرة .. مصر .. العالم العربى .. والعالم الإسلامى ، وهى ما تكون فى مجموعها .. رؤيته الحضارية العامة ، غير أن الوقت لم يسعفه لاتمام مشروعه المتكامل ، والآن وشخصية مصر .. فى صورتها الموسعة .. بين أيدينا .. فإن لنا أن نأسى لغيابه .. ونشعر بافتقاد فكره الشامل ، كما نأسف لضياع أى مخطوطة تخصه .. ظنا كان ضياعها أو حقيقة ..

●● ويضاعف الاسى .. ان العالم الإسلامى قد أمسى .. قضية محورية فى خريطة العالم الجديدة ، ليس فقط باعتبارات الجغرافية السياسية والاقتصادية القديمة ، وانما أيضا باعتباره فى حالة سيولة تعيد تشكيله ، تبدى ظواهرها غير ما تبطنه من قوى حبيسة ، معاقة بفعل ضغوط عديدة ،

منطوية على احتمالاتها الدفينة ، وبينما المكتبة العربية تكاد تخلو من مرجع عنه يعتد به ، أو دورية علمية تتابع تغيراته ، لا تتوقف عنه الكتابات الاجنبية .. بهدف التعرف على كل تفصيلة .. بل ويضع له بعضها استراتيجياته .. الدانية والبعيدة ، وذلك باعتباره منطقة واحدة .. بأبعاد مديدة ، وكمثال على ذلك .. ما أورده نيكسون عنه فى كتابه "الفرصة السانحة" "Seize the moment" الذى صدر له أخيرا (١٩٩٢) ، حيث يشير اليه بقوله (.. ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام .. سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة ، وانه مع التزايد السكانى والامكانات المادية المتاحة ، سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة ، ص ١٢٥) ، ويقرر مطمئنا .. (.. ان هذا الكابوس المخيف لن يتحقق .. فان المسلمين من الكثرة والاختلاف بشكل لا يسمح لهم بأن يكونوا كتلة واحدة ، ص ١٣٥) ، ويوجه الى دولته النصيحة (.. وعلينا ان نرسم سياسة طويلة المدى .. تؤدى الى توجيه العالم الإسلامى الوجهة الصحيحة ، ص ١٣٨) ، وهكذا يرسم الآخر .. وهكذا يحدد هو الوجهة الصحيحة ، فمن يفسر لنا المسافة بين واقع العالم الإسلامى وامكاناته ؟ هذه هى الدعوة المتجددة المطروحة ، امام كل مفكر عربى وإسلامى .. ليسهم فيها باجابته أو يعاود اسهامه ، حبذا لو نشدت فى مجموعها التكامل كرؤية عامة .. فقد تشبع التاريخ والواقع بالتضاد المطلق وصراعاته .

●●● واذا كان الواقع لم يسعفه لتقديم اجابته

الموسعة .. فقد خلف رؤية متكاملة .. بالغة القيمة فى وجيزه ، حيث تتضمن صفحاته القليلة (١٦٠ صفحة) نظريتين فى فصلين من فصوله ، يمهد لكل منهما بفصل تحليلى ، وهذه الفصول الأربعة هى جملة كتابه ، وتأتى نظريته الأولى تحت عنوان "نظرية عامة فى مورفولوجية العالم الإسلامى" (الفصل الثانى) ، أما النظرية الثانية فعنوانها "نظرية الوحدة الإسلامية" (الفصل الرابع) ، ورغم ما يقرره فى مقدمة كتابه (.. بأنه كما يترابط الفصلان الأول والثانى ، ويؤلف الفصلان الثالث والرابع .. وجهين لشىء واحد ويمثلان معا دراسة فى الجغرافية السياسية للعالم الإسلامى ، ص ٨) ، فالحقيقة أن نظريتيه مترابطتين تماما ، حيث الأولى المورفولوجية .. للشكل التوزيعى للعالم الإسلامى .. كنظام مكانى يكشف عن قوانينه ، والثانية لمضمون بنية هذه التشكيلات .. فى ظلالها العديدة ، وبترابط النظريتين كنظرية واحدة تترابط فصول الكتاب جميعا ، وسوف تكون هناك عودة تفصيلية لكل ما ذكر .. عند تحليل مضمون كتابه ، غير ان قيمة نظريته بوجهيها .. تتجلى فى مرونتها التطبيقية .. وقابليتها للتوظيف السياسى ، حيث تسلم نتائجها لواضعى الاستراتيجية وراسميها .. متسربلة ـ كما سيأتى ـ بفيض من النفعية والجدارة .

●●●● هذا عن قيمة الكتاب .. أما عن هويته .. فانه ينسب الى جغرافية الاديان بصفة خاصة (.. هو دراسة للإسلام فى ذاته ، من حيث هو ظاهرة فى المكان .. له توزيعه

وامتداده وعلاقاته ، ومن حيث هو عامل مؤثر فى اقليمه ، ص ٦) ، وبالتالى فان الجغرافية البشرية تمثل اطاره بصفة عامة ، حيث يتبدى تأثير عناصرها فى (.. تشكيل تاريخه وحياة سكانه ، وتكوين وجه النشاط البشرى والعلاقات الاجتماعية فيه ، بما فى ذلك على الاخص الجوانب السياسية الداخلية ، وتوجيه السياسة الخارجية والمشاكل الدولية الى آخر ذلك ، ص ٦) ، وبقدر ما ينفى بهذه المجموعة المختارة من العناصر .. أن يكون كتابه مسحا سريعا للعالم الإسلامى ، أو ان يكون دراسة فى جغرافيته الاقليمية العامة ، بقدر ما ينبه الى اهتمامه بعناصر معينة من موضوعه ، تتصل بخلفيته التاريخية وبنيته السياسية وتكوينه الاجتماعى ، والواقع ان مضمون كتابه ينسبه الى الجغرافية السياسية للاديان تحديدا ، يؤكد ذلك ما ذكره عن فصليه الثالث والرابع .. (.. بأنهما دراسة فى الجغرافية السياسية للعالم الإسلامى) ، وينتمى الفصلان الأول والثانى .. لذات الوشيجة .

●●●●● ويشير فى مجال تدليله على أن للجغرافية اهتماما تقليديا بالأديان .. الى العمل الموسوعى الكبير الجغرافية والدين Geographia et Religion لبيير ديفونتين ، والى كتابات فلير وبومان وهتنتجتون وغيرهم من كبار الجغرافيين ، والواقع أن تراث الأدب الجغرافى العربى فى هذا المجال .. زاخر بغير ما ذكره من مؤلفات .. وما اورده من مؤلفين ، فقد نالت "دار الإسلام" .. جل الاهتمام من

الجغرافيين والمؤرخين ، وقد تنبه كراتشوفسكى فى كتابه الضخم (تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ١٩٥٧) الى هذه الحقيقة واكدها عشرات المرات ، بل جعل منها اساسا للتمييز بين ما كتب عن دار الإسلام وحدها ، وما تجاوزها الى غير من الديار ، فيذكر على سبيل المثال لا الحصر .. ان (.. الاصطخرى كغيره من جغرافى هذه المدرسة يقتصر على وصف العالم الإسلامى وحده ، ص ١٩٩) ويعني بذلك "المدرسة الكلاسيكية لجغرافى القرن العاشر الميلادى .. ويعنون بها الفصل السابع من كتابه المذكور ، ويورد عن ابن حوقل ما سجله فى مقدمة كتابه "المسالك والممالك" عن منهجيته (.. وقد فصلت بلاد الإسلام اقليما اقليما وصقعا صقعا وكورة كورة لكل عمل ، وبدأت بذكر ديار العرب .. فجعلتهما اقليما واحدا ، لان الكعبة فيها .. ومكة أم القرى .. وهى واسطة هذه الاقاليم عندى ، ص ٢٠٢) ، ويؤكد كراتشكوفسكى ما سبق .. (من هذا يتضح أن ابن حوقل .. شأنه فى هذا شأن بقية ممثلى المدرسة الكلاسيكية ، قد حصر اهتمامه على وجه التقريب فى وصف دار الإسلام ص ٢٠٣) ، ويكفى ذلك .. دون التوسع فى متابعة غير ذلك من الامثلة .. لاثبات اهتمام الجغرافيين المسلمين .. بما يعرف الآن بجغرافية الاديان ، اهتماما تتفق معظم اهدافه .. وان اختلفت ادواته وأساليبه .. مع ما يدعو اليها الآن ، ومما يلفت استخدام "نيكسون" لنفس التعبير (دار الإسلام) فى كتابه المذكور ، وذلك فى

مجال اثباته التناقض بين الغرب والإسلام .. (.. ويؤيد هذا الرأى بأن الإسلام والغرب متضادان ، وان نظرة الإسلام للعالم تقسمه الى قسمين : "دار الإسلام" ، و"دار الحرب" ، حيث يجب ان تتغلب الاولى على الثانية ، وان المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب ، وعلى الغرب ان يتحد .. ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة ، نيكسون ص ١٣٥) ، وهكذا تتجدد التعبيرات .. وتعاد صياغة المصطلحات ، ويستخرج من باطن التاريخ .. ما يصطنع كدليل على التوجه العام للديانات ، وتوظيف ذلك فى وضع السياسات ، ويدل ما يجرى فى البوسنة بمقياس مصغر مكثف الآن .. على استثمار اختلاف الدين فى فصم العرى التاريخية داخل الشعب الواحد .. وبينه وغيره من الشعوب ، بما قد يضيف لجغرافية الاديان زاوية تطبيقية نفعية .. تتحدد فى الكشف عن هذه الطبقة المتكلسة للتاريخ الثقافى للشعوب .. والتى تنذر اذا لم تصف بالتفجر فى يوم من الايام .

التوزيع القاعدى للإسلام :

يأتى البناء المنهجي للفصل .. بما يحقق اهدافه .. مبطنا بتفسيراته ، يستهله بالسؤال الجغرافى القاعدى "اين" ؟.. وإجابته "التوزيع المكانى للعالم الإسلامى" ، ومنها يمكن تبين ضوابط انتشار الإسلام وحدوده ، حيث لكل ظاهرة حضارية ـ مهما عظمت ـ قدرة معينة على الانتشار المكانى ،

هى محصلة قواها الدافعة .. ومقاومة القوى المغايرة أو المضادة ، وتتجسد مكانيا فى شكل دوائر متداخلة من نقطة مركزية - متلاشية فى اتجاه هوامشها ، ويمكن تصويرها كمنحنى متصاعد .. بحكم القوى المواتية .. التى تصل بها الى نقطة الاوج أو مستوى الذروة ، هى فى حالة الإسلام مرحلة الفتوح .. وما اعقبها من رسوخ الدولة الإسلامية (شكل ١٠) ، ينحدر بعدها بحكم ما يبطئه أو يعيقه من الثقافات المحلية والقوى المناوئة ، فضلا عن عوامل القصور الذاتى .. الناتجة عن تنائى المسافات . وتخلخل الرصيد السكاني .. عدا عوامل الوهن التاريخية ، وليست الصورة التوزيعية الراهنة للعالم الإسلامى .. سوى المحصلة الاخيرة لهذه العملية ، وقد خضعت هذه العملية لمنهجية أخرى .. فى كتاب آخر له (استراتيجية الاستعمار والتحرير) ، قد يفيد الرجوع لها (ص - ٥٥) .. لتبين بعض الفروض التى يقيم عليها تحليلاته ، وخاصة ما يتصل بتوصيف الدولة العربية الإسلامية .. كقوة برية فى صميمها ، وما نجم عن ذلك من صراعها .. مع القوى البحرية الأوروبية .. والقوى البرية المجاورة ، وما افضت اليه من تآكل هوامشها وانفصالها .. فى فترات ضعفها ، بما يمكن أن يثرى هذا الفصل عند قراءته .

وكما يقرر ايضا فى مقدمة الكتاب .. فانه يعتبر الفصل الاول (.. رحلة تقصى حقائق ، ينظر الى الخريطة الخام فحسب ، وحصيلته هى التوزيع الجغرافى للاسلام ..)

وتتحدد قيمته ووظيفته فى (.. انه وحده يمدنا بالمادة الاولية الضرورية لكل بناء يتلو .. ص ٧) ، واذا كان "التوزيع" .. بمثابة القاعدة لكل دراسة جغرافية .. باعتبار الجغرافية علم المكان Science the Place وبالتوزيع يمكن الكشف عن تبايناته Areal differentiations فان التوزيع فى هذه الدراسة عن جغرافية الإسلام .. يتجاوز ذلك مع تحقيقه .. ليكشف عن النظام المكانى Spatial organization الكامن وراءه ، وتحليل ضوابطه ومحدداته ومكوناته ، ومن بعد ذلك أستخلاص قوانينه ، ومن ثم بناء النظرية التى تكشف عن حركته الداخلية وشبكة علاقاته ، ويمكن توضيح ما سبق بهذه المتوالية البسيطة (التوزيع ـ التباين ـ النظام ـ القوانين ـ النظرية) وهو ما يفسر ما ذكره عن ترابط الفصلين الاول والثانى (ص ٨) فبدون التوزيع فى الفصل الأول .. يستحيل بناء النظرية فى الفصل الثانى ، ويقتضى ذلك أن لا يأتى التوزيع تقريريا وصفيا كالشائع ، بل توظف تفصيلاته أول بأول .. بما يجعل منها مادة قابلة للصياغة الفكرية ، وذلك بشروط عدم التعسف وتوجيه النتائج ولوى اعناق الحقائق ، ويمكن تقرير بأن ذلك قد تحقق بنسب عالية من الجدارة .. وان شابتها احيانا ـ كما سيأتى ـ بعض الشوائب .

وتعكس عناوين هذا الفصل التوزيعى .. هدفه المعلن فى توظيفه لبناء نظريته العامة .. حيث لا تستغرقه تفصيلات التوزيع البسيطة .. هذه التى قد يحجب تراكمها .. ما يهدف لكشفه من خطوطها الاساسية .. وتشكيلاتها الرئيسية ، وقد

لا يشبع ذلك نهم الجغرافية الوصفية التقليدية للمنمنمات الدقيقة ، غير انه يعوض عن ذكرها مباشرة .. باعتصار معناها ، وربما يفسر ذلك قلة خرائطه ولا يبررها .. حيث من شأن الخريطة أن تعوض ايضا عن السرد اللغوى .. بما تستوعبه من اسماء الاماكن ومسميات المواقع .. وما تختزله من تفصيلات العلاقات الكثيفة .. ومن هنا تشعر به قلقا من اتساع المسافة بين اطلالاته الفوقية .. وما يقتضيه فهمها من المعلومات والخرائط .. ومن ثم يقدم عن ذلك أسفه واعتذاره وفى دراسة كهذه .. تعتمد فى الاساس على الحقائق العلمية الدقيقة ، نصطدم من أسف بعدم كفاية الارقام اليقينية ، الوثيقة أو الحديثة ، ص ٨) ، ثم يقدمه ثانية .. حيث يقرر (.. فان بدا هدف هذا البحث لاول وهلة مجالا ضيقا ان لم يكن متواضعا ، فان الرحلة نفسها .. اذ نلهث معها عبر القارات والمحيطات والعوالم الشتى ، جديرة بان تقنعنا بان بعض الاستقراء الاولى للمادة الخام قد يكون أشق من بعض التنظير العلمي والتقنين أو التفلسف المنهجي ، ص ١٢ وهذا اعتذار لاشك بسبب حقيقى ، فمن يطالب شخصا مهما علت قدراته .. بأن يغطى تفصيليا جغرافية العالم الإسلامى .. عليه أن يتقدم فورا لاثبات ذلك ، واذا كانت شخصية مصر قد اقتضته اربعة آلاف صفحة .. واستغرقته قرابة عشرين عاما .. فماذا نتوقعه من تغطية العالم الإسلامي المترامى ؟ خاصة بطريقته من استقطار المعانى ، وتكمن وراء اعتذارته ربما دعوة .. لان تستكمل هيئة ما قادرة

مشروعه .. واذا كانت مخطوطته الموسعة قد ضاعت ظنا أو حقيقة ، فقد يقدم كتابة الصغير محل الدراسة .. ما يمكن اعتباره مدخلا على حد تعبيره (ص ١١) .

ومع ذلك .. يبقى السؤال قائما .. هل يمكن التوصل الى "النظرية" .. دون قاعدة سميكة مشبعة من التفصيلات الدقيقة ؟ هذا ما حاوله فعلا فى الفصل الثانى من كتابه ، ومن ثم فالاجابة عن درجة توفيقه مؤجلة .. لما بعد الانتهاء من فصله الأول التوزيعى .

فاذا عدنا الى ما سبقت الاشارة اليه من عناوينه الدالة .. فانه يستهلها بتساؤل عن ابعاد العالم الإسلامى (ص ١٢) ، تتضمن اجابته موقعه الفلكي ومساحته وحدوده وجيرانه .. وحجمه السكانى وغير ذلك ، كما يضمنه مناقشة سريعة لبعض المسائل الهامة .. التى قد يكون تسجيلها هنا بإيجاز مفيد :

* تقدير نسبة الحجم السكانى للمسلمين إلى جملة السكان في العالم .. بين التهوين والتهويل ، وتقديره له بنسبة ١٥٪ على وجه التقريب ، وتوقعه ان تصل الى ٢٠٪ قبل نهاية القرن العشرين .

* عالمية الدين الإسلامى من حيث التوزيع وتركزه فى نصف الأرض الشمالى من العالم القديم (.. الربع الإسلامى .. كما قد نقول ، ص ١٥) .

* القطبية الدينية الثنائية فى العالم .. بين المسيحية

والإسلام ، مع تبادل الترتيب بين العصرين الوسيط والحديث . وبعد تحديد "الأبعاد" .. يفرد بقية الفصل (ص ١٦ ـ ٤٥) لمتابعة توزيع الإسلام بين القارات ، متبعا فى ذلك المنهج الجغرافى المعتاد ، وان تميز باشارات تاريخية .. تضاعف من دلالات التوزيع .. وتمنحها الظلال ،

خاصة ما يتصل منها بتغيرات الانتشار والوزن .. بعد الكشوف الجغرافية بوجه خاص ، باعتبارها نقطة التحول الحاسمة فى غير صالح الإسلام ، وذلك رغم ما قدمته الدولة العثمانية من تعويض فى هذا المجال

وفى اشارات خاطفة .. تعكس تنبهه العميق .. يضع اصبعه على جذور المشكلات العرقية الراهنة فى شرقى أوروبا وجنوبيها ، خاصة البلقان ، لا يتابعها كما ينبغى .. بحكم ضيق حيز الكتاب .. واكتفائه فى مشروعه الصغير بالاشارات (ص ١٦) ، وايضا بحكم تاريخ وضعه .. فانه يشير الى ما نجم عن ظهور الاتحاد السوفييتى .. من تعديلات قهرية فى توزيع السكان ، ولاشك أن سقوطه قد ادى الى اضعافها .. ولكم لصالح الإسلام بما يفرض متابعة هذه الزاوية بأكبر قدر من التفصيل .. فى المستقبل القريب .. ويقرر بالنسبة لتراجع الإسلام فى أوروبا بموضوعية (.. والمحصلة النهائية هى أن الإسلام الآن ليس آلا ظلا باهتا لما كان عليه فى يوم ما فى أوروبا المتوسطية والجنوبية والشرقية ، بيد اننا ينبغى ان نضيف ان هذا التراجع والانكماش هو عملية زحزحة وخروج ، وليس ردة بطبيعة

الحال ، ص ١٦ ـ ١٧) ، أى ان الانحسار ليس فى الإسلام أو المسلمين .. وانما فى نمط التوزيع والانتشار ،

بل أن الإسلام قد عوض انحساره المذكور .. بتوسع مشهود فى افريقيا .. التى شهدت (جبهة مدية زاحفة بقوة وايقاع ، لا يعرفهما فى قارة اخرى .. كما لا يعرفهما دين آخر سواه ، وهكذا اذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط كبحيرة إسلامية ، فانه قد كسب افريقا كقارة إسلامية ، ص ١٧) ، وهى ايضا زاوية تضاف لسابقتها فى الاهمية .. ومن حيث ضرورة متابعتها بالتوثيق والتفصيل ، واذا كانت الخلفية التاريخية والمقارنات .. قد منحت الثراء لمثل هذه الاشارات ، فالاجدر التمسك بها .. حالة صياغة جغرافية العالم الإسلامى .. فى المشروع الكبيرالمنشود .

لقد تراجع الإسلام عن أوربا .. وانتشر فى افريقيا .. ولكن آسيا تبقى بيته الاصيل حيث يتجمع بها ٨٠٪ من مسلمى العالم .. على اقل تقدير ، وفى رؤية شاملة تميزه .. يقرر (أن جسم الإسلام ككل يزحف تحت ناظرينا .. فى حركة كتلية من الشمال الى الجنوب ، فيستبدل على اطرافه الجنوبية عروضا سفلى .. بعروض عليا على أطرافه الشمالية ، ص ١٨) ، فهل يعنى ذلك انه ينزلق من مستوى حضارى اعلى الى آخر أدنى ؟ تلك زاوية أخرى تضاف الى سابقتيها أو سابقاتها خطورة واهمية .. وتدعو الى النقاش ، وإذا كان قد اوردها من باب تسجيل ما يردده ناقدو الإسلام ، فما اولاها بأن تحظى

بالتفنيد الموضوعى ، فى اطار حضارى تاريخى .. يفسر اسباب التراجع (القسرية غالبا) .. واسباب التقبل (الطوعى غالبا) بين سكان العالم الفقير (شكل ١١) .

وبعد هذه الرحلة التوزيعية . التى لهث فيها ـ على حد تعبيره ـ بين القارات ، يرسو بنا فى مرفئه الأثير (.. مورفولوجية العالم الإسلامى .. ص ١٩) ، ولكنها مورفولوجية دون نظرية ، فهو لا يزال يمهد لها بالتوزيع ، أو بمعنى ادق باكتشاف صياغات التوزيع ، ورغم وفرة ما اكتشفه .. فقد اكتفى بالتعبير عنها فى خريطة واحدة (ص ٢٢) . ومن هنا اهميتها لتوضيح هذه المورفولوجية وتقريبها ، انها تتلخص باختصار فيما اسماه "هلال الإسلام" ، وهى تسمية موفقة مبنى .. وايحاء .. ومعنى ، يحدد بها الاطار الأرضى .. او يابس العالم الإسلامى جغرافيا ، يكمله بحرا "محيط الإسلام" أو "المحيط الهندى" ، وهما "هلال الإسلام + محيط الإسلام" .. بمثابة دعامتى هذه المورفولوجية .. ومعادلتها العامة .

ومن بعد يتوجه لتحديد الخصائص التفصيلية لطرفى المعادلة ، يقدمها فى لغة تعوضه ربما عن نقص خرائطه (ص ـ ٢٤) ، ويمكن الاكتفاء بايراد مقتبس قصير منها .. عينة ودعوة للقارىء لان يتابعها فى متنه (.. واذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط . فقد كسب المحيط الهندى .. الذى اصبح "البحر المتوسط" الجديد فى العالم

الإسلامى ، الحضارمة والعمانيون اغريقه وبنادقته .. وان لم يكونوا رومانه ، ص ٢٠) ، وعلى كل .. فانه يرسم بالكلمات لوحة .. زاخرة بالارخبيلات والاجنحة والبؤر والخطوط المنحنية والمستقيمة .. الممتدة والمنقطعة ، يستلخص منها آخر الامر مايلى :

* التمييز داخل هلال الإسلام بين قطاعين .. غربى وشرقى .. يفصل بينهما خط يمر بالتبت والهند .

* يتحدد نمط توزيع الإسلام فى مجموعة متراصة من الحلقات .. مختلفة الاقطار والكثافات والاوزان .

* الإسلام كدين رقعة متصلة ، يتوزع سكانها كجزر او واحات متباعدة .

* تتفق كثافة معمور العالم الإسلامى مع محاور انتشاره .. هذه التى تحيط بصحراوات شبه خالية منه (.. اشبه ببحر داخلى عظيم يتكدس المسلمون على شطآنه وسواحله ، اكثر مما يخوضون فيه ، ص ٢١) .

واذا كانت رؤيته المورفولوجية .. تتفق فى اساسها ومصطلحاتها .. مع هذه التى اوردها "ماكيندر" "Mackinder" فى نظريته عن قلب الأرض قبله ، وهى نظرية شائعة لا يخلو منها كتاب فى الجغرافية السياسية الكلاسيكية ، الا ان براعته تتجلى فى تطويعها وتطبيقها فى غير مجالها ، ومن هنا .. فإن بناءه لمورفولوجية العالم الإسلامى التوزيعية .. المستندة الى وحدات (القلب + الحلقات + الهوامش + الاجنحة + التوازن البرى

البحرى) .. لا تظهر غريبة عن طبيعة هذا العالم .. بل هى منبثقة إلا قليلا منها ، تنطبق على هضبة الاناضول وايران وافغانستان وشبه الجزيرة العربية ، وبدرجة اقل فى مصر ومعظم شمالى افريقية ، ولكنه يتعسفها قليلاً فى الهند واقواس الارخبيلات الاندونيسية والفلييينية ، أما فى اليمن كوحدة خاصة .. فالقلب الهضبى ليس ميتا .. وبها تنقلب المعادلة ، دون أن تفقد رؤيته جدارتها العامة .

وبعدما يرسخ دعامتيه (هلال الإسلام + محيط الإسلام) .. ويعمق من سماتهما العامة (القلب الميت + الحلقات السعيدة + الاجنحة) .. يواصل بحثه فيما سبق واطلق عليه (.. القطاع الغربى من الإسلام ، ص ٢٥ ـ ٣٦) ، (القطاع الشرقى ص ٣٦ ـ ٤٥) ، متبعا فى ذلك ذات اسلوبه .. الذى يجمع بين الاشارات المكثفة الخاطفة .. والنظرات الشمولية الفوقية ، وهنا لابد من الخريطة مرة أخرى . فالمتابعة بها للمناطق والسواحل والبحيرات والهضاب والصحراوات والسلاسل الجبلية ، وهى وغيرها مما وضعت الخرائط اصلا لتوضيحها ، فاذا قصرت عن ذلك خرائط متنه .. فلا بأس من الاستعانة بأطلس خارجى يعوض عنها ، وعندئذ قد يجد القارىء ما يعوض جهده هذه التى لا يعنى ايجازها التالى .. انها تعوض بحال عن قراءتها فى متنه .

أ ـ القطـاع الغربـى :

* من حيث الحجم السكانى والمساحة .. فالقطاع الغربى بمثابة صلب العالم الإسلامى ومركز ثقله .

* يتضمن القطاع الغربى "العالم العربى" افريقية المدارية ، من البلقان الى الباكستان ، من الفولجا الى سينكيانج" ، ولكل منها نواتها ، غير ان العالم العربى بمثابة النواة النووية لمجمل القطاع .

* تمثل "إسرائيل" نقطة الانقطاع فى التواصل الأرضى لهذا القطاع (.. فقد حشد الاستعمار الصهيونى خلاسيا مغتصبا من شذاذ اليهود ، ص ٢٨) ، ويراه انقطاعا طارئا دخيلا ، متناقضا بصهيونيته وليس بيهوديته مع الجسم الحضارى للإسلام .

* نيجيريا أهم جزيرة إسلامية فى افريقية وراء الصحراء اما فى شرق افريقية فاثيوبيا هى النواة .. ليس فى الهضبة ولكن فى السهول ، بامتداد شبه مطلق الى الصومال (٩٩٪ من السكان) مع بؤرة مكثفة فى زنجبار ، مع بضعة مئات من الالوف من المسلمين بالبانتو .

* قلب العالم الهندسى من الفولجا الى سينكانج . يتسم بهشاشة الغطاء السكانى .. ولكنه إسلامى الدين .. وان كان هامشى الموقع من حيث الجوار ، يذكر عنه (.. وقد كانت سيادة الإسلام هنا تقليديا سيادة مطلقة أو شبه مطلقة بين القبائل والشعوب التركية المغولية من تركمان وكازاك وقرغيز

وتاجيك واوزبك ، الى ان بدأ التوغل القيصرى فى القرن الماضى ، ثم تيار الهجرة السوفييتية من سلاف الروسيا الأوروبية ، ص ٣٥) ، وهى زاوية مشحونة تضاف لسابقاتها اهمية .. وشحذا لهمة المبادرة الى مشروع "جغرافية العالم الإسلامي" .. الموسع ، تتضاعف خطورته وحساسيته بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ، والتوجه المكثف لدول الحوض نحو البحث عن هويتها الملموسة بطبقة رقيقة من الغبار ، سوف تؤدى ازالتها الى اضافة فائقة الى جسم العالم الإسلامى الكبير .

ب ـ القطاع الشرقى من الإسلامى

* أهم ما يميز القطاع الشرقى أنه ارخبيل الإسلام ، بحكم تقطع توزيعه بالقياس الى التواصل الكتلى للقطاع الغربى .. باستثناء "إسرائيل" .

* يتألف هذا القطاع من اندونيسيا والباكستان ، مع اذرعة على شكل اقواس الى الفيليبين وامتدادات اسفينية فى بورما والصين ، وبؤر نووية فى الهند وسيلان .

* من حيث الحجم السكانى .. يستوعب نحو ٢٠٪ من جملة المسلمين ، ففيه تتكدس الحياة وتتضاغط الى اعلى بدلا من ان تنساح افقيا (ص ٣٧) ، وفيه تقع كبرى دول العالم الإسلامى قاطبة .. (الباكستان ، اندونيسيا) ، اما الثالثة ـ فهى اما الهند .. وهى الأرجح ـ أو الصين .

* اذا كان انفصال الباكستان عن الهند .. بمثابة إبرز احداث الجغرافية السياسية فى هذا القطاع ، فانه من اشد القضايا حساسية فى جغرافية الاديان (زاوية اخرى تضاف) ، ثم تأتى مضاعفات انقسام الباكستان الى دولتين .. (هذه التى لم يدركها الكتاب) .. لتجسد مجموعة اشد تعقيدا من التناقضات العرقية هذه المرة .. الى الموضوع ، ولتشير الى ما لا حصر له من مشكلات الاقليات الإسلامية المضغوطة داخل هذا النطاق ، وهى مشحونة بقدر من التوتر المتصاعد .. يدعو الى استجلاء أغواره باكبر قدر ممكن من الاهتمام والتفصيل .

ثانيا : مورفولوجية العالم الإسلامى

اذا كانت اجابة السؤال الاول "التوزيعى القاعدى" عنده .. بمثابة نظرة .. بطول الفصل الاول كله ، فانه يخصص الفصل الثانى (ص ص ٤٩ ـ ٨٤) لنظريته عن مورفولوجية العالم الإسلامى .. وهى أيضا عنوانه ، ويستهله بهذا التساؤل (.. هل يمكن ان نضع نظرية عامة عاملة ، تجمع شتات العالم الإسلامى فى توزيعه الكوكبى ، وتستقطب تفاصيله فى معادلة اقليمية محددة ؟) ، هو إذن يطمح الى نظرية عامة .. بشروط محددة :

* ان تكون فى مورفولوجية العالم الإسلامى .
* ان تكون عاملة .

* ان تتخلص الى معادلة إقليمية تلخصه .

وقبل البحث عن هدف كل شرط منها ، وكذا عن اهداف النظرية بعامة ، ربما يكون مفيدا توضيح ما استخدمه من مصطلحات (مورفولوجية + عاملة + معادلة اقليمية) .. قد تكون خافية او مختلطة الدلالة ، وتتفق المعاجم على ان مصطلح Morphology يعني دراسة الشكل Study Of The Form ، سواء في ذلك الظاهرات الطبيعية أو الحيوية أو البشرية .. أو حتى الكلمات (اوكسفورد ، ص ٢٨٦) ، ويتفق ذلك مع عناصر نظريته .. بشكل شبه تام ، ومن هنا ضرورة استنادها الى خريطة توزيعية .. قدمها له الفصل الاول من الكتاب ، ومن ثم يصفها (بانها محاولة لتوظيف معطيات الخريطة التوزيعية ، والكشف عن منطقها وقوانينها ، ص ٧) ، وبما انها توزيعية .. فان معطياتها لابد وان تكون مورفولوجية ، اى تتصل كما سبق باشكالها وتشكيلاتها ، والعلاقة بين نواتها وهوامشها ، وانحدار الارتباطات Gradiants بين دوائرها ، وسماتها الداخلية وخصائص حدودها ، الى غير ذلك مما تتجاوز دلالته المستوى الظاهرى لمكونات الخريطة وخطوطها العديدة .

وتعنى النظرية العاملة .. تجاوزها المستوى النظرى البحت .. وقابليتها للتطبيق فى مجالات متعددة او معينة .. بدرجات متفاوتة من الفعالية ، وذلك بما تتضمنه من الفروض الحقيقية .. الكاشفة عن مكونات وديناميات الظاهرة ، ورغم استناده الى بعض فروض النظريات الحضرية ، وخاصة ما

يتصل منها بموقع المدينة فى اقليمها ..، وتأطيرها لمناطق نفوذها على شكل حلقات متتابعة ، حيث يقرر (.. وهذا الهيكل النظرى العام .. الذى نلقاه فى كثير من الظاهرات الاجتماعية والمركبات الحضارية ، وبخاصة داخل وحول المدن ، بحيث تصبح المحصلة النهائية اقرب الى النظام الحلقى المشع Radial Concentric ، يمكن ان نجده فى اساسياته وتفصيلاته فى العالم الإسلامى ، ص ص ٥٠ ـ ٥١) .. اى انه ينقل الفروض الى غير مجالها ، رغم ذلك .. فان توظيفه لها .. واعادة صياغتها كقاعدة لنظريته عن "مورفولوجية العالم الإسلامى" .. قد اشعت باضاءاتها القوية ، ليس فقط بما ضاعف من فهمه واستيعابه فى رؤية كلية ، بل وايضا بما اختزلته من مكوناته فى معادلات اقليمية ثاقبة ـ سوف ترد الاشارة اليها فى حينها ـ صالحة للتطبيق وعالية النفعية ، تستحق بها تسميتها (النظرية) كما تستحق صفتها (العاملة) ، سواء فيما يحيط بالتسمية من هالات التقدير ، أو ما تبعثه الصفة من النقد والمناقشة ، ومن متابعة نفعيتها فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية معا ، خاصة بعد دمجها فى وجهها الآخر .. اى نظريته الثانية .. عن "وحدة العالم الإسلامى" .. بدرجات الوحدة المتسقة مع مورفولوجيته .. كما سيأتى لاحقا .

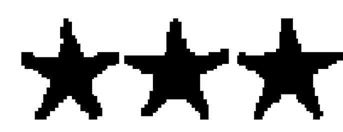
وفى عبارة خاطفة يحدد مطلبه (.. المقصود نظرية كورولوجية ـ يعنى إقليمية ـ تلخص وتفسر معا ما يختلف ويتشابه داخل بنية الإسلام ، هدفنا هو تحديد اقاليم الإسلام

الجغرافية ، بالمعنى الواسع للاقاليم الجغرافية ، اى بابعادها الطبيعية والبشرية ، التاريخية والدينية ، ص ٤٩) ، واذا كان قد مهد لذلك بالتوزيع فى الفصل الاول ، فلكى يستخلص منه ما ينشده (.. من نظرة كلية أو احادية .. تكتفه فى قوانين مكانية ، بمثابة مفتاح Passe Partout ، ص ٤٩) ، وبداية فانه يستبعد ان تكون نظريته ايكولوجية فقط ، تربط بين الإسلام وبيئته ، وتنتهى الى مقولة مبسطة (.. الإسلام دين الصحراء) .. او غير ذلك من قبيلها ، يريدها اذن مركبة .. تشف مكوناتها عن نسيجها الداخلي ، كما لا تقنعه نظرية "المنطقة الحضارية" Kulturkreislehre .. كإطار وحيد يستهدى به ، وهو وان اقر بجدوى بعض فروضها .. الا انه يستبعد مدخلها الانثروبولوجى ، فليس العالم الإسلامى منطقة انثروبولوجية واحدة .. سواء بالاصل العرقى أو بجذور ثقافته ، ويعثر اخيرا على بغيته .. فى صورة الاقليم العقدى Nodal .. كما يرد فى جغرافية المدن ..، وتشكيله (.. قلب وله اطراف ، تتراوح داخله وبينهما الظاهرة المعنية فى درجة تبلورها ومدى كثافتها ونسب حدوثها ، ص ٥٠) ، ويظهر اختياره بسيطا .. ولكنه السهل الممتنع ، وذلك لشدة تطابقه مع تاريخ ظهور الإسلام فى نواة محددة .. بمثابة قلبه ، وجغرافية انتشاره منها فى دوائر متداحة الى اطرافه وهوامشه ، وتراوح توزيع كثافته بين القلب وهوامشه (انظر شكل ٤ ص ٦٠) ، هذا عدا كونها مورفولوجية حرفيا كما اشترط ، وبذا يضع اللبنة الاولى من نظريته .

هى اللبنة الاولى وهى القاعدة ، حيث هى قد مكنته من وضع فروضه ، ومن بناء العناصر الاخرى من نظريته فوقها ، ومن التحليل التاريخى والجغرافى .. المتسق مع اسسها ، اما فروضه .. فمن اهمها :

* يؤدى الانبثاق من مركز ـ الى الترتيب المنتظم التنازلى للظاهرة Gradients في اتجاه هوامشه .

* يتخذ هذا الترتيب الشكل الحلقى Radio - Concentric التتابعى (شكل ١٢) .



* يتعدل الشكل الحلقى البحت .. الى نمط القطاعات الحلقية .. حالة حدوث الانتشار على محاور انتخابية محددة .

ولمتابعة هذه الفروض .. يستحسن الاستعانة بشكل ٥ (ص٦١) من الكتاب .

وعلى الفور يطبق فروضه .. فتضىء الخريطة العالمية لتوزيع الإسلام بدلالاتها (القلب + الهوامش + محاور الانتشار) .. ويسلس فهمها واستيعابها من نظرة واحدة ، فالعالم العربى قلبها ، وبقية العالم الإسلامى هوامشها ، اما المحاور فيوضحها شكل ٣ (ص ٥٣) في كتابه ، لكنه لا يدع قاعدته وفروضه دون نقدها (.. غير اننا لا ينبغى ان ننتظر من الإسلام هيكلا مورفولوجيا .. يحقق هذا النمط النظرى تحقيقا صارما مثاليا بطبيعة الحال ، ص ٥١) ، ويعدد بعد ذلك بعض ظواهر الشذوذ فى التشكيل ، دون ان يخل باساسيات النظرية الا نادرا .

النظام الحلقى التتابعى :

والواقع ان لب هذه النظرية وجل نفعيتها (كما سيأتى فى الفصل الرابع المخصص لنظريته الثانية عن وحدة العالم الإسلامى) .. إنما يتمثل فى عناصرها التفصيلية .. اى .. النظام الحلقى التتابعى .. الذى كشف عنه تطبيق الفرضين الاول والثانى ، غير انه آثر ان يبدأ بمحاور الانتشار (ص ٥٢) .. اى بالفرض الثالث ، وذلك باعتبار أن الانتشار المحورى .. يسبق بداهة التشكيل الحلقى .. من ناحية ، كما أن من شأن متابعة الانتشار .. توضيح العملية التاريخية التى تم فى اطارها ، وكذلك تحديد الضوابط الجغرافية التى دفعت بمساراته فى اتجاهات وبمسافات معينة .. من ناحية ثانية ، وتبعا لاصول النظرية المورفولوجية عامة .. يقسم هذا المحور الى :

* محاور اساسية .
* محاور ثانوية وثالثة .
* بؤر الانتشار .
* محطات الضخ والتوصيل .
* الاتجاهات والمسافات .
* الفراغات البينية والثغرات .

وتقدم فى جملتها نقاط وزوايا التحليل التاريخى الجغرافى لعملية الانتشار ، يمهد له بهذه اللقطة الفوقية .. شأنه قبل كل

تحليل (.. غطى عرب الجزيرة ـ البؤرة المركزية ـ منطقة العالم العربى ، وتتابعت بعدها بؤرات ثانوية .. تولت دفعه الى آفاق مكانية ابعد ، وتتعدد بعدها البؤرات الثالثة ، اما المحاور فثمة ثمانية منها ، تتفق الى مدى بعيد مع التوزيع الفعلى للمسلمين فى العالم القديم ، منها ٤ محاور لآسيا ، ٣ بافريقية ، ٣ بأوروبا .. حيث يخدم بعضها اكثر من قارة ، ص ٥٢) ، وتجمعها خريطة (ص ٥٣) بدقة ووضوح ، ويفيض بعد هذه اللقطة الفوقية فى متابعة كل منها .. تبعا لما سبق تحديده من نقاط وزوايا التحليل (ص ص ٥٤ ـ ٥٨) .

ويحيط بهذه المتابعة التاريخية الجغرافية .. بأبعاد المورفولوجية الراهنة لجغرافية العالم الإسلامى الكبير ، يبرز من بينها "المحور النيلى" بشعابه الثلاث ، وما تفرع منها عبر المتوسط والصحراء والسافانا فى اقصى الجنوب ، وما طرقته من طرق القوافل .. وما استخدمته من نقط الوثوب (الواحات) ، يليه محور الهلال الخصيب فى الشام والعراق ، وبعده يتفتح الطريق الى ايران ، وجنوبا الى الهند عبر ممر خيبر ، ويتواصل الى هوامش الصين ، ومن ايران كبؤرة ثانوية .. يتدافع الإسلام الى ما وراء النهرين ، وثمة اخرى من عقدة البامير ، ومن تركيا كبؤرة ثانوية ثانية .. يصل الإسلام الى الدانوب والبلقان ، هذا عدا المحاور البحرية الموازية لسواحل المحيط الهندى .. وحتى الملايو واندونيسيا والفيلبين ، وحين ينتهى يكون قد وضع اللبنة الثانية فى نظريته (محاور الانتشار) ، ودمجها فى الاولى

القاعدة (النواة) ، وليس التشكيل الحلقى القطاعى بعد ذلك .. الا صورة منطبعة فوق المحاور والنواة .

وقبل ان يحدد ويسمى الحلقات .. يشير الى اسس التميز (.. هى على الترتيب ، عمر الإسلام ، كثافته ، نوعيته ، نسبة العرب والعربية ، ص ٥٨) ، وهى من الوضوح بحيث تخضع لقاعدة العلاقة الطردية والعكسية .. فى علم الحساب ، فهى تزيد أو تتناقض حسب القرب أو البعد من النواة ، ومن ثم فالعلاقة بين النواة والحلقات .. تتخذ احصائيا وكارتوجرافيا بيانيا شكل الانحدار ، ومن بعد .. فهذه هى الصورة العامة للحلقات :

الحلقة الاولى : منطقة القلب والنواة (ص ٦٤) .
الحلقة الثانية : النواة الميتة (ص ٦٩) .
الحلقة الثالثة : ظل العرب (ص ٧١) .
الحلقة الرابعة : شبه ظل العرب (ص ٧٣) .
الحلقة الخامسة : صدى العرب (ص٧٤) .
الحلقة السادسة : الاطراف الهامشية (ص ٨٤) .

ويستحسن الرجوع الى شكل ٥ (ص ٦١) المتميز ، قبل متابعة الموضوع .

ويعرفها بانها ببساطة (.. الاقاليم الطبيعية والبشرية والتاريخية فى العالم الإسلامى ، كما يفسر اختياره لتسمياتها ، ورغم وضوحها بشكل عام ، الا ان تقارب المعنى بين بعضها يثير قدرا من الالتباس ، فضلا عن كونها تسميات

لغوية فى الاساس ، وليست الالفاظ ما يعبر عن الانحدار بل الارقام ، ولكن هذا التشدد المنهجى ان جاز فى البحوث .. فقد يتجاوز عنه فى الكتب وبعض المؤلفات .

وقد يثير استنادا تقسيمه الى "العرب والعربية" (معامل العروبة) .. للتمييز بين اقاليم العالم الإسلامى .. شبهة تحيز فى عالم اغلبيته من غير العرب ، غير انه يدفع ذلك حيث يقرر (.. واذا كان العنصران مشتقين من القلب التاريخى للعالم الإسلامى ، فالمقصود فقط قياس بعد التباين الجغرافى ما بين اجزاء العالم الإسلامى .. بصورة تبلور ملامح اقاليمه .. ولا تصنفها طبقيا ، ص ٥٨) ، والواقع ان الكتابات الجغرافية التى تعود للعصر الوسيط .. كانت تتبع ذات المستويين فى التمييز :

* المستوى الدينى .. للتمييز بين "دار الإسلام" ـ وغيرها من الامم المجاورة غير المسلمة .
* المستوى اللغوى .. للتمييز بين الشعوب المختلفة داخل دار الإسلام .

واذا كان كراتشكوفسكى Krachkovski يكرر فى كتابه السابق الاشارة اليه .. توجه المدرسة الجغرافية العربية الإسلامية الكلاسيكية .. الى دراسة "دار الإسلام" بوجه خاص (ص ١٩٩ من كتابه المذكور) ، الا ان ذلك لا يعنى انها لم تميز داخل هذه الدار بين مختلف الشعوب ، وتظهر اللغة من اهم ادوات هذا التمييز .. دون ان يقترن ذلك بدلالة

محددة عن الترتيب ، فقد كانت نسبة هامة من هذه الكتابات .. تعود لغير العرب من المسلمين ، يدل على ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما اورده اليعقوبى وهو من اوائل المؤلفين .. فى "كتاب البلدان" الذى يعود للقرن التاسع الميلادى ، وذلك فى مجال توضيحه لمنهجه فى جمع المعلومات ، عن عنايته بالسؤال عن السكان (.. من هم من عرب أو عجم ؟ ص ١٥٩ من كتاب كراتشكوفسكى) ، وسوف تكون هناك عودة لليعقوبى .. عند المقارنة بين رؤيته لاقسام العالم الإسلامى فى عصره .. وبين ما وضعه عنها حمدان ، وقد تابع اليعقوبى الكثيرون .. فى اتخاذ اللغة اساسا للتمييز ، فضلا عن الاشارة لتطورات اسس التقسيم .. فى الجغرافية الإسلامية المزدهرة فى هذا العصر الوسيط .

فاذا ما عدنا الى حمدان .. فانه يلخص الانحدارات القائمة بين الحلقات ـ بناء على اسسه ـ فى هذه الفقرة شديدة التركيز (.. ففى منطقة القلب تجتمع كلها على اعلى مستوياتها ، فنجد اطول تاريخ للإسلام واعلى كثافة أو نوعية ، فضلا عن اعلى نسبة للعرب والعربية ، وفى منطقة الظل ـ الثالثة ـ نجد الإسلام كثيفا متطورا كذلك ، ولكن تاريخه احدث قليلا ، كما يختفى العرب الا كجاليات ضئيلة ، ولكن تكثر مؤثرات اللغة العربية .. سواء فى شكل الكتابة أو فى الفاظ اللغة بنسبة كبيرة ، وفى منطقة شبه الظل ـ الرابع ـ يزداد تاريخ دخول الإسلام حداثة ، ويختفى شكل الكتابة العربية ، أما فى منطقة الصدى ـ الخامسة ـ فان تاريخ

الإسلام احدث واحدث ، كما تختفي مؤثرات العربية كلية سواء من شكل او الفاظ ، فاذا ما وصلنا الى اطراف الإسلام .. وجدنا الإسلام نفسه اقلية عددية وحديث العهد للغاية ، كما يختفى الاثر العربى تماما جنسا أو لغة ، ص ٦٤) ، ويبرر عدم وجود الحلقة الثانية (النواة الميتة) فى هذا الموجز .. بانها (.. يمكن ان تعد جزءا من الحلقة الاولى ، غير انها لم يعد لها وجود ، وربما دعوناها لهذا بالنواة الميتة ، وبها نعنى الوجود الإسلامى العربى فى العصور الوسطى عبر البحر المتوسط الى اسبانيا وصقلية ، ص ٦٩) ، غير ان ذلك لا يبرر وجودها ضمن تقسيمه المعاصر لمورفولوجية العالم الإسلام ، حيث يخل ذلك بتتابع الحلقات ، كما ان تسميتها بالميتة لا يطابق وضعها الراهن ، فهى حلقة تاريخية بالنسبة للإسلام .. فقدت صفتها الجغرافية ، وربما لو سميت بالحلقة التاريخية ونزعت من المورفولوجية المكانية .. لكان ذلك اقرب الى طبيعة الحال وفيما عدا ذلك .. فان نظريته تستحق ان توصف بالعاملة .. بما تثبته من جدارة وفعالية عند التطبيق ، باستثناء بعض التداخلات التى ستكون اليها اشارة بين الحين والحين ، وما من نظرية الا وتعرضت للنقاش .. واثارت الجدال ، والمرجح انه كان سيتناولها بالتنقيح ، وقد يكون قد فعل ذلك فى مخطوطه المفقود .. ظنا او حقيقة ، فالتنقيح والتطوير من اتجاهاته التى اثبتها فى اكثر من مجال .

اســس التقسيــم :

والحقيقة ان اعتبارها نظرية فاعلة فعالة .. انما يعود الى ما اتبعته من اسس التقسيم ، هذه التى تميزها ايضا ـ فى حدود معرفتي ـ عن المؤلفات المعاصرة حول نفس الموضوع ، حيث هى تكتفى بالمعلومات .. ولا تنحو الى التنظير ، وربما يكون مفيدا لو قورنت اسسه .. بما وضعه جغرافيو العصر الوسيط ، خاصة من حاول منهم النفاذ الى شخصيات الاقاليم ، سواء بوضوح .. او بحكم كون كتاباتهم موسوعية المضمون ، وستكون الاشارة اليهم واليها بايجاز .. وللقارىء اذا شاء ان يستزيد .. من كتاب كراتشكوفسكى المذكور .

لقد سبقت الاشارة الى ان "الدين" .. كان بمثابة الاساس الاول لتقسيم العالم المعروف أنذاك ، وظهرت معه أو أضيفت بعده .. اسس اخرى تمحورت حولها المؤلفات .. وذلك من قبيل :

* التقسيم على الاساس الفلكى تبعا لدوائر العرض وخطوط الطول .
* التقسيم على اساس الممالك والمسالك .
* التقسيم على الاساس الإدارى (الولايات) والخراج .
* التقسيم على اساس الفضائل واوصاف الشعوب (الفضائل والمثالب) .
* اسس اخرى عديدة .

فاذا ما بدأنا بـ "الأساس الدينى" .. فان معظم كتابات المدرسة الجغرافية الإسلامية الكلاسيكية قد اقتصرت على "دار الإسلام" .. واهملت ما عداها ، بما يدل على شدة العناية بهذا الاساس ، ويمثل "الاصطخرى" هذا الاتجاه ، حيث يقتصر كتابه "المسالك والممالك" على وصف العالم الإسلامي وحده ، مقسما اياه الى عشرين اقليما ، ويلى الكلام العام عن "الربع المعمور" وابعاده وعن البحار ، وصف جزيرة العرب وبحر فارس مع الميحط الهندى ، والمغرب مع الاندلس وصقلية ، ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وايران الجنوبية والهند ، وايران الوسطى والشمالية مع ارمينا واذربيجان وبحر الخزر ، ويختتم كلامه بوصف بلاد ما وراء النهر (كراتشكوفسكى ، ص ص ١٩٩ - ٢٠٠) ، ويلحقه "ابن حوقل" فى كتاب بنفس العنوان (.. وقد فصلت بلاد الإسلام اقليما اقليما .. وصقعا صقعا .. وكورة كورة لكل عمل ، وبدأت بذكر ديار العرب .. فجعلتها اقليما واحدا ، لان الكعبة فيها ومكة أم القرى ، وهى واسطة هذه الاقاليم عندى ، كراتشكوفسكى ص ٢٠٢) ، ومنها يظهر اتفاق منطقة النواة (بلاد العرب) بينه وبين حمدان ، كما يدل على ان ابن حوقل لم يكن يكتب عن دار الإسلام .. دون نظرة عامة تهديه ، حيث الكعبة مركز مكة .. ومكة مركز النواة . وبعد ذلك تتوالى الاقاليم .

وقد اتجهت الكتابات لاستخدام الاساس الفلكى منذ وقت

مبكر .. تأثراً باليونان ، ويظهر بوضوح فى مصنف الخوارزمى (صورة الأرض) الذى قسم المعمورة الى سبعة اقاليم ، يتوزع العالم الإسلامى بين الاقليمين الثالث والرابع .. بوجه عام ، والواقع ان التقسيم على اساس "الممالك" .. يتفق مع ما اتبعه حمدان بشأن (العرب + العربية) .. اى السكان واللغة والثقافة بوجه عام ، حيث يحدد اليعقوبى منهاجه في كتابه البلدان .. على سبيل المثال (.. فكنت متى لقيت رجلا فى تلك البلدان .. سألته عن وطنه .. فاذا ذكر لى محل داره .. سألته عن زرعه ومن هم ساكنيه من عرب أو عجم .. حتى اسجل عن لباسهم ومقالاتهم والغالبين عليه ، ص ١٥٩ ، المرجع السابق) ، اما ما كتب على اساس "المسالك" .. فيتفق مع ما اورده فى نظريته عن "محاور الانتشار" ، يدل على ذلك ما اورده ابن خرداذبة .. على سبيل المثال (.. نبدأ بالطرق التى تخرج من بغداد شمالا الى آسيا الوسطى شمالا والهند جنوبا ، والطريق البحرى الى الهند والصين ، وطريق الشمال الى اذربيجان والقوقاز ، والطرق الخارجة من بغداد الى مكة وشبه الجزيرة العربية ، المرجع السابق ، ص ١٥٧) ، ويظهر منها انتقال المركز من مكة الى بغداد .. اتساقا مع اتساع الدولة الإسلامية الى قرب حدودها الآن .

ويظهر الاساس الإدارى فى كتاب "الخراج" لقدامة بن جعفر ، كما يولى اهتماما كبيرا لجيران العالم الإسلامى ، وبالنسبة لـ "لفضائل" .. اى ذكر محاسن البلاد والشعوب ،

فقد نبعت من تمجيد دار الإسلام .. وخاصة الحجاز .. وبالاخص مكة المكرمة ، وبالتدريج اضيفت اليها "المثالب" .. ووظفتا معا سياسيا مع تعدد الاوطان (نريد ان نتبوأ الأرض فصفها لى ..) .. وذلك لشدة الحرص على نشر الإسلام من جهة .. ولمقاومة الشعوبية من جهة ثانية ، وقدمت تحت ذات العنوان "الفضائل والمثالب" .. العديد من المؤلفات ، ومن هنا اهمية مما قام به حمدان . من تطهير تسمياته لحلقاته فى نظريته ما قد يشوبها من ظلال .. وكذلك اسسه بطبيعة الحال ، ليس بالضرورة كنوع من التصدى المباشر لهذا الجانب من التراث ، وانما لانه يمهد بنظريته هذه عن ميورفولوجية العالم الإسلامى .. لنظريته الثانية فى الفصل الرابع .. عن "وحدة العالم الإسلام" .. ومن شأن الفضائل والمثالب .. ان تهدمها من الاساس ، وبعد هذه المقارنة التى قد طالت رغم الايجاز ، يمكن تحديد ابرز ما ورد من خصائص هذه الحلقات .

لقد سبقت الاشارة الى حلقاته واسس تصنيفها .. وخصائص كل حلقة منها بعامة ، وترتبط مباشرة بالفصل الاول التوزيعى .. فما كشفه من سمات مورفولوجية العالم الإسلامى .. قد اشتقه من صورة توزيعه .. فى الخريطة العالم الراهنة (شكل ١٣) ، ومرة اخرى .. فان تحليله للحلقة الاولى (منطقة القلب والنواة) .. قد تتضاعف دلالته .. بقراءة الفصل الثانى من كتابه "استراتيجية الاستعمار والتحرير" (ص ص ٢٦ ـ ٥٥) ، خاصة فيما

يتصل بديناميات نمو الدولة الإسلامية العربية فى محيطها اليابسى ، وتفسيرات تناميها فى دوائر متلاحقة ، نمو متجانسا ، تسهم العربية مع الإسلام فى تجنيسه فى بعضها ، يصبح الإسلام بعدها .. عامل التجنيس المنفرد ، متسما بقدرة انتشارية كاسحة ، وان خلفت جيوبا وراء .. محلية ومغلقة ، يرتبط توزيعها بمناطق العزلة المستعصية ، كما ادى تناقص رصيده البشرى فى نواته .. الى تناقص كثافته فى مناطق الفتوح مع تباعده .. واختلاطه بعقائدها وثقافاتها ، وغلبتها خاصة فى اللغة ، كما تنازعته فيما بعد مذاهبه ، التى غذتها شعوبية هوامشه وجيوب العزلة فى بنيته ، ورغم ذوبانها النسبى فى ثقافته .. فقد بقى بعضها (الأكراد والبربر ، ص ٦٦) ناتئا ، ادت وتؤدى الى بعض من أهم مشكلاته الراهنة ، خاصة بعدما عاود الاستعمار غزوه .. الى قرب قلبه .. مؤثرا فى لسانه العربى خاصة (الجزائر) .. اى فى اخص دوائره .. هذه التى تتدامج فيها اللغة مع الدين .. فى بنية واحدة ، وليس مثل هذه دعوة منذرة .. بان يقوم العالم العربى بدوره ، فهو دوار العرب (ص ٦٧) .. وهو مدرسة الإسلام ومعهده الدينى (٦٨) والعربى سدنة الإسلام .. وليسوا بسادته .. وعليه فان دورهم ليس تبشيريا فقط فى اتجاه هوامشه .. بل وثقافيا سياسيا تتعدد مجالاته .

وبالنسبة للحلقة الثانية (النواة الميتة ، ص ٦٩) .. فقد خرجت من اطاره ، ضمن حركة التراجع التى اعقبت سقوط

الاندلس ، وان كانت ملامحه الكامنة باقية ، والواقع ان حركة التراجع لا تزال سارية .. ليس فقط مما سبق رصده .. من تآكل اللسان العربى وتدهور فى مناطق معينة ، بل وايضا بالمعنى المادى بدرجات متفاوتة ، تمثل تركيا درجة منها .. واشد منها فلسطين التى انتزعت من قلبه ، وما يمكن تسميته بتآكل الهوامش جنوبى السودان خاصة ، وهذه دعوة اخرى للعمل .. تضاف لسابقاتها .

أما الحلقة الثالثة (ظل العرب ، ص ٧١) .. فتشمل ايران وافغانستان .. بعد انزلاق تركيا للحلقة الرابعة ، هى الحلقة الفارسية إذن .. التى اسهمت فى الحضارة الإسلامية بنسبة لا يستهان بها ، والتى كادت تصبح عربية كليةً ، وان لم يبق منها سوى الحروف الابجدية فيما تكتب ، وتمثل الشيعة الشائعة بين سكانها .. خط الاختلاف المذهبى .. بينها وبين النواة السنية غالبا ، وهنا دعوة ثالثة للتوفيق المذهبى ، وحتى لا يتحول خط الاختلاف الى خط انكسار .. تستثمره القوى المضادة فى اضعافهما معا .

وتحتل تركيا وحدها الحلقة الرابعة (شبه ظل العرب ، ص ٧٣) ، والتسمية هنا غامضة .. مختلطة الدلالة مع سابقتها ، ويمكن أن تضم لها .. مع الاشارة الى وجه اختلافها ، وهى انها (.. عملت على تطهير اللغة من التراث العربى ، بل كادت بعد ان فصلت الدين عن الدولة فصلا صارما .. ان تصل فى وقت ما الى تجميد الإسلام ، الى أن اكتفت فى النهاية بتتريكه ، ص ٧٤) .

وتأتى تسمية الحلقة الخامسة (صدى العرب ، ص ٧٤) ايضا غامضة للدلالة واللغة ، وان كانت حدود الحلقة ذاتها واضحة ، هى ليست حدوده النهائية ومحيطه .. فلا تزال هناك حلقة سادسة ، ولكنها الاكبر مساحة بينها ، فهى تمتد من قزوين الى اندونيسيا ومن ارتيريا الى الاطلسى ، وهى الحلقة التى تعرضت لتغيرات جذرية .. لم يدركها الكتاب حين تأليفه ، هذه التى تتمثل فى عودة جمهوريات وسط آسيا المسلمة الى اطار العالم الإسلامى بعد سقوط الاتحاد السوفييتى بغتة وتجسد مشكلة جيوبوليتيكية معقدة ، وتظهر مستهدفة من قوى متعددة ، غير ان تطلعها لاستعادة هويتها الإسلامية ليس محل جدل ، وربما تكون هذه هى الدعوة الرابعة .. التى تستلزم العمل ، فهل تجد لها صدى عند العرب .. من صدى العرب ؟

واخيراً الحلقة السادسة (الاطراف الهامشية ، ص ٨٢) ، وهى تتمثل على محيط دائرة العالم الإسلامى برمته (.. وهى لا تزيد عن اطار خارجى باهت يغلف الحلقات السابقة ، وتتمثل ايضا فى الاقليات الضئيلة المبعثرة .. فى أوروبا والعالم الجديد وجزر الباسيفيكى المبعثرة ، وبها - لأول مرة - قد يختلط الدين فى بعض اجزائها .. بأوشاب من الوثنية القديمة بها ، ويستهويه التصنيف التفصيلى .. فيكاد يضيف حلقة سابعة .

(.. هذا ومن الممكن ان نضيف الى هذه الحلقة الهامشية

القصوى من الإسلام فى العالم القديم ، هالة كالزغب اشد تخلخلا وسديمية ، تؤلف الغلاف الشفاف الخارجى الاقصى ، او الاطراف الخارجية ، هذه الهالة التى يمكن أن تعدها اما حلقة مستقلة أو حلقة تكميلية ، والتى يمكن ان نميزها عن الاطراف الهامشية الداخلية السابقة .. بانها الاطراف الخارجية ، ص ٨٤) ، والواقع ان حذف بعض حلقاته .. قد يكون اجدى من الاضافة اليها ، ويكفيه منها اربعة ربما .. هى (النواة + الظل + شبه الظل + الهوامش) .. كافية لاستيعاب تدرجات الظاهرة ، ولكن استقامة وسلاسة الاسس .. قد مكنته من تفصيل قماشته باطمئنان وثقة ، وتقديم حلقاته المتعددة ناضجة .. لواضعى الاستراتيجية .. وصناع القرار .. مادة جاهزة .. فى كتاب غالى القيمة رخيص الثمن ، وستكون هناك عودة لهذه النظرية (عن مورفولوجية العالم الإسلامى ..) . ثانية وذلك لربطها بنظريته الواردة فى هذا الكتاب ايضا كما سبق (عن وحدة العالم الإسلامى) لتحديد القيمة النفعية لكل منهما ولكليهما .

خريطة الإسلام السياسية :

كما سبق .. فإنه يمهد بالفصل الثالث (خريطة الإسلام السياسية ، ص ٨٥ ـ ١٢٢) .. لنظريته المرتقبة عن "وحدة العالم الإسلامي" ..، ويصف تحليلاته لهذه الخريطة بانها قراءة مسحية لها ، يحدد اتجاهاتها فى (.. تصنيف دول

العالم الإسلامى .. بحسب كثافاتها السياسية المختلفة ، دولا إسلامية أو دول اقليات إسلامية ، مع تحليل المشاكل السياسية المترتبة وتشخيص اعراضها ، ص ٨) ، وبداية يجدر التنويه بهذا المصطلح المبتكر (الكثافة السياسية) الوارد فى المقتبس السابق .. والمستمر كأداة اساسية لتحليلاته .. فى بقية هذا الفصل وغيره ، ليس فقط باعتبار ان نحت المصطلحات .. مهارة فكرية تميزه ..، وانما ايضا لدلالته الوظيفية الفاعلة .. التى تكثف فى عبارة منحوتة واحدة .. ما يستغرق سطورا او فقرات دونها ، وبها تقاس صلابة العلم .. وبواسطتها يتم التفاهم بين المتخصصين فى مجاله ، حيث هى لا تعنى سوى مفهوم اتفق على تحديده ، ولا حاجة من بعد لشرحه والجدل حوله ، ثم هى تنتقل بعد ذلك للمتلقين تبعا لشيوعها ، لتصبح ايضا لغة التداول بينهم .. دون ادنى ظلال مربكة (شكل ١٤) .

وبهذا المصطلح يتوصل الى التصنيف الثلاثى التالى للعالم الإسلامى ، تبعا لكثافة الإسلام بين دوله :

* دول الاغلبية الإسلامية .
* الدول نصف الإسلامية .
* دول الأقليات الإسلامية.

ويتفق توزيع الفئة الاولى مع الحلقة الاولى فى نظريته المورفولوجية (العالم العربى) ، مع وجود امثلة منها (تركيا ، ايران ، باكستان ، اندونيسيا) .. ضمن الحلقتين الثالثة والرابعة ، أما دول الفئتين الثانية والثالثة .. فتتوزع

كانت "روح الوحدة الوطنية" .. قد قاومتها لبضعة عقود ، الا ان لبنان قد سقط فريسة لها فى الحرب الاخيرة الاهلية (لم يدركها الكتاب) ، وهى تنخر الآن في السودان ايضا .. تفتت نقاط الالتحام بين شماله وجنوبه ، ولم تعد فى مناطق اخرى من العالم العربى بين الاديان المختلفة ، وانما بين المذاهب المختلفة فى الدين نفسه ، وذلك بتضخيم الاختلافات الفقهية وتعميقها .. حتى يتعذر علاجها ، ويتمثل ذلك بشكل خاص بين الشيعة والسنة .. فى العراق واليمن ولبنان .. وغيرها ايضا ، وترد فى كتاب نيكسون (الفرصة السانحة) اشارة لتصور الآخر لهذه الاختلافات .. لا بأس من ايرادها رغم بشاعتها (.. إن المتعامل مع العالم الإسلامى يشبه وضعه وضع الشخص الذى فى حفرة ضيقة ، ومعه مجموعة من الثعابين السامة ، تحمل فى سمها ايديولوجيات متصارعة ، ص ١٣٩) ، هذه هى الصورة فى ذهن الآخر .. هى عن العالم الإسلامى حقا .. ولكنها تنطبق على العالم العربى ايضا ، فأين هذه الحفرة من رؤية حمدان قبل عشرين سنة منها .. حين يقرر بالنسبة للأخير (.. الوعى بالوحدة القومية وحده اذن ... والبعد القومى الذى يمكن ان يحتوى البعد الدينى ، دون ان يتعارض معه أو يقصر دونه أو يضيق به ، ذلك هو الرد الصحيح على كل استغلال للدين للتخريب السياسى ، سواء من قبل الاستعمار الدخيل .. أو الرجعية الداخلية ، ص ٩٣) ، والآن .. وبعد زوال الاستعمار الدخيل في صورته المباشرة ، فهل ثمة وسيلة لمواجهة الرجعية

الداخلية ؟، غير انه مما يلفت فى مجال متابعة رؤية الآخر فى كتاب نيكسون المذكور .. انعدام الاشارة الى القومية العربية كقوة يحسب حسابها .. فى طول الفصل المعنون "العالم الإسلامى" (ص ١٣٥ ـ ١٦٢) ، وتأتى الاشارة الى الدول العربية منفردة .. وباعتبار هويتها الإسلامية ، ثم يقرر بشأنها جميعها عربية وإسلامية (.. ان المسلمين من الكثرة والاختلاف .. بشكل لا يسمح لهم بان يكونوا كتلة واحدة ، ص ١٣٥) ، وهكذا فان ما حدده حمدان من ظواهر التمزق .. لا يزال قائما ، كما ان حلمه بالوحدة القومية لم يتحقق ، عسى الا يكون قد تبدد .

وبعد العالم العربى .. يتابع فى الاطار ذاته (دول الاغلبية المسلمة) .. تحليل العلاقة بين الدين والدولة فى اندونيسيا وتركيا والباكستان (حمدان ص ٩٣) ، حيث لكل منها حالتها الخاصة . التى تضيف لهذا الاطار ما يعمق من فهم هذه العلاقة ، فاذا كانت تركيا قد تخلت رسميا عن الإسلام كدين للدولة ، بينما قامت الباكستان على اساس دينى صرف ، فإن اندونيسيا قد جعلت الإسلام ضمن ايديولوجيتها التى اتخذتها شعارا لها (.. وهى خماسية البانتشاسيلا Pantjasila التى اختصرت الى ثلاثية تجمع بين القومية والإسلام والشيوعية ، برغم ما بين اطرافها من تناقضات جوهرية متبادلة ، ص ٩٤) ، ومع عدم تجاهل التغيرات التالية ، فإن الدول الثلاث تعانى من اختلال العلاقة بين الدولة والدين بدرجات مختلفة ، ومرة أخرى .. فإن الديمقراطية كفيلة بمعالجة

باختصار (.. عربة يجرها جوادان .. كل يشد فى اتجاه مضاد ، ص ١٠٥) .

وتقترن "ثنائية الدين" غالبا .. بما يضاعف تقيحاتها من الاسباب ، وخاصة حين تقترن بثنائية السكان .. سواء من حيث العرق أو اللسان ، وقد تؤدى العزلة الى تأكيد السمات المحلية للثقافات ، كما تنطوى القبلية فى بعضها والعشائرية فى بعضها الآخر .. على تراث من الثارات الدفينة .. والمشاعر المضادة .. قد تعود لما قبل الاديان ، وغالبا ما يؤدى اختلاف مناطق التركز والكثافة .. الى تباين التوجه الاقتصادى .. وما يتداعى عن ذلك من تفاوت مستويات التطور والدخول (.. ففى لبنان حيث يعبر عن الاقتصاد الزراعى بصيغة طائفية احيانا .. فيقال .. إن التفاح مارونى والبرتقال مسلم .. ص ١٠٧) ، ويزمن التقيح ويدعو لمعاودة الصراع .. حين تكرس الثنائية بالقوانين .. واحيانا بالدستور ، بحيث تكون الهيمنة لطائفة دون اخرى .. بما يخالف الديمقراطية فى الصميم ، ويتأجج الصراع حين تفرز التغيرات ما يغاير ما كرسته القوانين ، وتؤكد المؤشرات حتمية تفجره .. حين تزدهر الاوضاع فى منطقة طائفية من الدولة .. على حسابترديها فى منطقة اخرى ، أو حين تتوجه استثمارات الدولة الى حيث تجتذبها التوظيفات .. دون حساب للمناطق التى تحتاج للتنمية والتطوير ، أو حين تكتشف موارد جديدة فى منطقة معينة .. وتنزح الى اخرى .. دون تخطيط .. كما حدث فى نيجيريا بعد اكتشاف البترول بها على سبيل

المثال ، والقاعدة ان تفجر الصراع لن يطول .. اذا ما
تراجعت المصلحة العليا من بقاء الدولة موحدة .. لحساب
المصلحة الخاصة للطائفة المتمركزة فى منطقة معينة ، ومن
هنا اهمية ان تحقق الدولة لكل منطقة من مناطقها .. ولكل
طائفة من طوائفها .. ما يفوق ما يمكن ان تحققه ايها فى حال
انفصالها ، وان تعالج خطوط التوتر بما إصطلح على تسميته
بالديمقراطية الثقافية .. هذه التى تعنى المساواة التامة بين
ثقافاتها (اللغة ، الدين ، التاريخ) المحلية ، وان تعمق
قنوات التفاعل والتواصل بينها .. بحيث تتدفق فى مسارات
بطبيعية وتلقائية .

والحقيقة انه كجغرافى لا يدع "المكان" يغيب عن رؤيته
الثاقبة وتداعياتها ، ويتخذ من تبايناته الأرضية ما يعمق به
فهم هذه الثنائية الضاربة فى بنية هذه الدول وغيرها
(ص ١٠٦) ، خاصة فيما يتصل بظاهرة "العزلة
الجغرافية" .. هذه التى تفضى اليها عوامل طبيعية وتاريخية
واقتصادية شتى داخل الدولة ، تتمثل الطبيعية فى اختلافات
التضاريس والمناخ والتربة والموارد المائية وغيرها .. بين
مناطقها ، وتتمثل التاريخية فيما قد ينطوى عليه الماضى من
صراعات .. دفعت بالعناصر الاضعف الى المناطق الافقر ،
وتتمثل الاقتصادية فى تفاوت الموارد فضلا عن درجة
استغلالها ، وهو حين يعود بها الى السياسات الاستعمارية .
يضع يده على جذورها ، ويقرر (.. وفى النتيجة فان الإسلام
فى كل الدول النصف الإسلامية .. يصبح هو الطرف

الاضعف فى التوازن الوطنى ، ص ١٠٨) .. خاصة فى افريقيا ، ولكن الذى لم يذكره .. يتحدد فى اسباب استمرار تردى الأوضاع فى هذه الدول .. بعد استقلالها ، وهى مسألة معقدة .. ربما تتحدد اجابتها فى مدى قدرة الدولة على إدارة مناطقها داخل حدودها ، ودرجة توجهها نحو تطهير بنيتها من موروثات الماضى الاستعمارية وقبل الاستعمارية ، وحدود طاقتها على بناء الاجهزة والمؤسسات الحكومية ، فضلا عما تتبعه من سياسات لحل مشكلات حدودها مع جيرانها ، وما تصممه من خطط تنموية لمناطقها ، وغير ذلك مما يضيق المجال قطعا عن ذكره ، وبذا يطرح كمشكلات مزمنة تلازمها ، وايضا كمجال يستحق الدراسة بأكبر قدر من التفصيل الممكن ، ومتابعته الى جذوره .. مهما نأت واستعصت .

حـــالات للـدراســـة :

وتحت عنوان "مسح اقليمى" (ص ١٠٨) يعاود دراسة امثلته (لبنان ، اثيوبيا ، تشاد) .. كحالات Case Study منفصلة ، وتظهر سيطرته ، الفائقة على ادواته .. حين يحلل كياناتها السياسية ، محددا شروخها .. فى عبارات خاطفة تحلق .. تعقبها اخرى منقضة تحدق ، غير ان متغيرات المرحلة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية .. هذه التى شهدت تصاعد تيار المد الوطنى .. والجزر الاستعمارى

العالمى ، قد جعلته متفائلا بشأن مستقبل تطوراتها ، حيث يقرر بالنسبة للبنان (.. على ان هذه ان تكن هى الصورة التقليدية للجغرافية السياسية به .. فان هناك الآن مؤشرات واعدة بتغيرات هامة وطيبة .. ص ١٠٩) ، ومن اسف ان الحرب الاهلية اللبنانية المروعة .. قد خيبت مؤشراته ، ولكن من كان يتصور ان صديد الطائفية فى لبنان قد غذى أتونها بحرب قاربت الخمس عشرة سنة ، وهى خبرة لابد من التوقف عندها .. حيث هى تنتظر كل دولة لا تطهر بالديمقراطية اولا بأول صديدها ، وتصدق بالنسبة لاثيوبيا مؤشراته .. (.. وفى الوقت الحالى لا يعدم الإسلام فى اثيوبيا بعض اتجاهات انفصالية .. ولكنها خافتةٌ مكتومة ، بينما هو فى ارتيريا انفصالى علنا Irredentist ، وهناك حركات سياسية مستمرة .. تعد الوجود الاثيوبى احتلالا لا اتحادا وتتطلع بلهفة الى فضه ، ص ١١٠) .. وقد تحقق اخيرا فضه ويكتفى بالنسبة لتشاد بتوصيف اوضاعها ، مع الاشارة لجدية محاولات تصفية مشكلاتها ، ويقرر بالنسبة لنيجيريا (.. ان تعانى من صراعات جعلت وزنها السياسى فى المجتمع الافريقى ضئيلاً لا يتناسب البتة مع حجمها كأكبر دول القارة سكانا ، ص ١١١) ، وهذا تشخيص دقيق فى حد ذاته ، ويرى بأن تصوير هذا الصراع كمبارزة دينية بين الشمال والجنوب ليس سليما ، وانها حين توفق بين المصالح الاقتصادية لاقاليمها . سوف تسترد وزنها (ص ١١٢) وهى ايضا وصفة مناسبة ، تؤتى فى السنوات الاخيرة ثمارها .

دول الاقليات الإسلامية :

وتأتى الفئة الثالثة من تصنيفه لـ "كثافة الإسلام" . تحت عنوان "دول الاقليات الإسلامية" (.. وتؤلف اكثر من نصف دول العالم الإسلامى ، ص ١١٢) ، ويصف اوضاعها كما يلى بعامة :

* لا توجد بينها تطلعات سياسية فعالة .
* قد توجد رغبة انفصالية مكبوتة .
* تتعرض للضغوط والكبت بقوة من جانب الدولة .
* غالبا ما تنتزع لنفسها مكانة اقتصادية تفوق حجمها .

ويقسمها الى قسمين :

* الدول الافروآسيوية .
* فى العالم "الشيوعى"

وتدل تسمية القسم الاول على مواقع دوله ، ويبدأ بالافريقية منها ، حيث يتابعها فى اشارات خاطفة فى غرب افريقيا (ونموذجها الكاميرون) بنسبة مسلمين تقارب الثلث من سكانه ، وبأوضاع تشبه نيجيريا .. من دول الفئة الثانية .. النصف إسلامية ، سواء بالنسبة لتركز الإسلام فى الشمال .. او تحكمه في الجنوب .. الذى تمزقه الصراعات القبلية ، اما في شرقها فالإسلام يتميز بوزن خاص .. بسبب تركزه على الساحل الشرقى .. وثيق الصلة من قديم بمنابعه

ونواته الاساسية فى الصومال .. الذى يسعى لان يكو
كبيرا .. بضم ما يعرف بالصومال الكينى اليه (انظر ما ا
اليه احواله الآن فى التسعينات) ، بل وكيف ذابت فى تنزا
(تنجانيقا سابقا) ممباسا وزنجبار ، وهنا يقرر رؤية تقتض
اثباتها بمزيد من الدراسات .. وهى (.. ان دور الإسلا
السياسى فى دول الاقليات يصعب أن يكون الانفصال .. وا
دوره يتمثل فى نشر الدين ، ص ١١٤) ، وهى رؤية ان
صدقت .. تصلح قاعدة لوضع السياسات ، وإن لم تصدق
فماذا يمكن ان يكون دورها على وجه التحديد ؟، وفى مقار
سريعة بين غانا وقبرص .. يمنح رؤيته بعض الظلال ، حيث
قمع حزب الاقلية الإسلامية فى الاولى ، بينما تصاعدت فى
قبرص حركة الانفصال ، مستندة الى دولة إسلامية كبيرة
مساندة هى تركيا ، وقد تحقق توقعه بقيام كيان إسلامى
مستقل فى قبرص .. ولم يكن ذلك قد تم حين تأليف الكتاب
(ص ١١٤) .

ومن افريقيا ينتقل إلى آسيا .. باهتمام خاص بالفيلبين
التى تشتد فيها دعوات الانفصال ، عكس الملايو .. نواة
ماليزيا .. ثمرة الدعوة للملايو الكبير ، اما الهند .. فانه يصف
الاوضاع فيها .. (.. بانها معقدة متشابكة الى أقصى حد ،
ص ١١٤) ، ورغم الاقلية المسلمة الكبيرة الحجم (ثالثة
تجمع إسلامى على مستوى العالم) .. فليس ثمة فرصة
اخرى لتكوين دولة إسلامية بعد الباكستان ، حيث تحيطهم
اغلبية هندوكية بما لا يقاس ، ربما ايضا بسبب التجربة

الديمقراطية الهندية .. التى استوعبت النسبة الكبرى من اسباب الصراع ، وذلك رغم ما يطرأ من صراعات واحيانا مذابح بين الحين والحين ، وتبقى مشكلة كشمير .. ويرى بانها تنتمى دينيا للباكستان ، ومن ثم فإنها يجب ان تكون لها .. تبعا لاصول التقسيم ، وحين ينتقل الى القسم الثانى (فى العالم الشيوعى ، ص ١١٥) .. فإن ما كتبه بشأنه قد تجاوزته المتغيرات .. سواء كتحليلات او توقعات (ومن كان يتوقع او يتصور سقوط الاتحاد السوفييتى وانفراط عقده الكبير ؟) ، ويبقى منهجه صالحا لان يؤسس قاعدة لدراسة شاملة عن الموضوع حيث يعالجه فى هذه الخطوات .. أو المراحل التى تتضمن تطوراته وزواياه :

* مرحلة ما قبل القيصرية .
* مرحلة القيصرية .
* مرحلة الاتحاد السوفييتى .

ويضاف اليها مرحلة "مابعد الاتحاد السوفييتى" .. الذى سقط بعد صدور الكتاب بنحو عشرين عاما ، ويقتضى ذلك ـ فى إطار مشروع "جغرافية العالم الإسلامى" الكبير ، حشد كل ما يمكن من القدرات ، تستند الى مكتبة كاملة عن الموضوع ، والى دراسات ميدانية مكثفة .. فيما يعرف الآن بجمهوريات وسط آسيا الإسلامية ، عسى تجد هذه الدعوة صداها القريب .

ورغم ما جرفته الاحداث ، فلا يخلو ما ورد من بصيرة تشعر بادق التغيرات . (رغم ما بدا من تعرض الإسلام لعملية

تصفية Desislamisation .. فإنه يمر فى السنوات الاخيرة بمرحلة صمود .. بل ربما احياء ، وذلك كرد فعل طبيعى للضغوط العقائدية المضادة ، لاسيما مع انصباب الهجرة الروسية السلافية ، التى وصلت الى ابعاد خطيرة ، وتؤذن بتحويل الاهالى الى اقليات ، ص ١١٧) ، ويذكر نيكسون فى كتابه .. ما يؤكد هذا الصمود (.. لقد قاوم العالم الإسلامى الشيوعية .. باقوى مما قاومها العالم الغربى ، ص ١٦٢) ويدلل حمدان على تأثير الهجرة المذكور بجدول هام (ص ١١٧) .. ينبه فيه الى تأثير التهجير فى خلخلة كثافة الإسلام .. ولكن من يسمع لتنبيهات العلماء ، وقبلها من يعمل بما تشعر به بصائرهم المتصلة بعقولهم .. قبل فوات الاوان .

نظرية الوحدة الإسلامية :

يأتى الفصل الرابع (ص ص ١١٥ ـ ١٦٠) تحت عنوان "نظرية الوحدة الإسلامية" ، وهى فى لبها نظرية تكاملية .. يستكمل بها رؤيته الحضارية الشاملة فى دوائرها الثلاث ، فبعد مصر (الوطن) والعالم العربى (القومية) .. يتصاعد بها فى سلاسة صلبة الى اطارها العام (الإسلام) ، ويهتم فى هذا الفصل بوجه خاص .. بتحديد المجال الوظيفى لكل من القومية والدين ، وتطهير الحدود بينهما من الالتباس وذلك بعد ان قام بمثل ذلك .. بين الوطن والقومية .. فى كتاب "شخصية مصر" الكبير (جـ١ ، ص ص ٢٠ ـ ٢٥) وبهذا التوحيد الفكرى بينها .. يعلو بها فوق هذه الثنائيات

المتضاربة بين الوطنية والقومية .. وبينهما وبين الإسلام ، هذه التى شغلت كثيرين غيره .. بالاختيار من بينها .. وتأكيد استحالة الجمع بينها بابراز الاختلاف ، بينما هى متكاملة من الاساس .. او قابلة لأن تكون ، وما الفصل بينهما .. الا تجاوبا مع نظريات من خارجها .. عن الوطن والقومية والدين ، مزقت تكامليتها الجغرافية والتاريخية فى العالم الإسلامى .. بما يحقق اهداف الآخرين .. العامدة عمدا الى هذا التمزيق ، إن لب نظريته .. ينفى اى سبب حقيقى .. يمنع تكامل الدوائر الثلاث ، إلا أن تكون نظم الحكم .. والمصلحة الضيقة .. والنظرة الاحادية التى لا ترى سوى اتجاه واحد .. من الميراث الثقافى القديم والحديث ، وبذا يتناقض أيها مع تكاملية الأرض والتاريخ .

وقبل ان يوضح رؤيته "للوحدة الإسلامية" .. فإنه يسعى الى اثبات الوظيفية الخاصة لكل من الوطن والقومية والدين ، والى نفى التناقض بين القومية والدين بوجه خاص ، والتدليل على تكاملية الدوائر الثلاث .. كميراث تاريخى جغرافى ، وكأساس لمستقبل متفاعل وفعال ، وقد اتخذ سبيله لتحقيق ذلك .. تحت مايلى من العناوين ، بمثابة وحدات منهجية .. توضح آراءه .. قبل تجميعها فى منظور :

* الوحدة والتنوع فى العالم الإسلامى (ص ١٢٦) .
* تاريخ الإسلام الجيوبوليتيكى (ص ١٢٩) .
* قضية الوحدة (١٣٩) .
* الدين والقومية (ص ١٤٣) .

* دور الإسلام السياسى (ص ١٤٧) .

وبداية .. يعد فرض "الوحدة والتنوع" .. Varaity Within Unity من الفروض الاساسية فى علم الجغرافية بعامة ، يوظفه هنا للكشف عن التباين الاقليمى .. داخل العالم الإسلامى المترامى ، وذلك فى ضوء ان الاقليم لا يعنى التشابه .. وانما التنوع فى إطار من الوحدة المكانية الوظيفية .. تتجلى مع الترابط والتفاعل والتكامل ، غير ان تطبيقه لهذه الفرضية .. لا يقتصر على مجالها المكانى ، بل يضيف اليه التاريخ والشعوب والثقافة ، وذلك بهدف اثبات ان "الإسلام" .. بمثابة الوحدة القاعدية للعالم الإسلامى ، وان اختلافات الأرض والثقافة . والمذاهب .. انما تعود الى ترامى اطرافه ، وبذا يدمج بين هذه اللبنة الاولى فى نظريته عن وحدة العالم الإسلامى ، وبين نظريته المورفولوجية كما سبقت الاشارة .. وكما سيأتى تفصيلا .

وهكذا فإن ما يعنيه بالوحدة هو الدين .. اما التنوع فيتصل بالتوزيع المكانى والمذاهب والثقافة ، فالاصل ان الدين قد ظهر واحدا وفى مكان واحد ، ثم وزعته حركة الفتوح بين المناطق ، وتعددت مذاهبه مع حركة التاريخ .. وتنوع الثقافات وتلون السياسة ، ومن يراجع خريطة الإسلام .. سوف يكتشف كم هى متباينة الاقاليم .. متعددة المستويات والظواهر ، تتراوح ما بين الجبال والهضاب والصحراوات والسهول والسواحل ، وما بين الموسميات والمتوسطات والمناطق الجافة (ص١٢٧) ، فهل افضت هذه الاختلافات

الى نفى وحدته الدينية الاصيلة ؟.. والاجابة .. انها لم تجاوز كونها نتيجة للتباين المكانى الجغرافى الطبيعى ، تتمثل فى موطنه الاصلى ايضا .. اى فى شبه الجزيرة ، ولا تقتصر عليه وحده .. بل تميز ايضا غيره من الديانات ذات الانتشار الواسع ، وبقدر ما تدل على قدرته الانتشارية .. بقدر ما اكسبته تنوعا وثراء .. بحكم تعدد بيئاته ، وهى وان اسفرت عن سلبياتها بعد ذلك .. فان ذلك يعود الى اسباب اخرى عديدة ، يذكر منها (.. صحيح ان الإسلام لا يعرف هيراركية كهنوتية .. لكن تاريخه لم يخل من تداخل بين الدين والدولة ، ص ١٢٥) ، وبهذه الاشارة السريعة .. يضع يده على ما سيتابعه بعد ذلك ، ويبقى السؤال عن كيفية استثمار التنوع الطبيعى .. لحساب الوحدة الدينية الاصيلة .

اما عن التنوع الثقافى فى العالم الإسلامى .. فانها عنده شأن الاختلافات الجغرافية ، محصلة تعدد شعوبه فى عالمه المترامى ، فهذا العالم الذى يضم العرب والفرس والاتراك والافارقة وغيرهم ، يستحيل ان تكون وحدته انثروبولوجية بالمعنى الثقافى (ص ١٢٨) ، غير ان ما يهدد وحدته الدينية حقاً انما يتمثل فى تعدد المذاهب ، هذه التى يفسرها سياسياً "أن اغلب الفرق الدينية التى تكاثرت فجأة فى صدر الإسلام وما بعده .. ما بدأت اصلا الا كتحزبات سياسية ، وكصراعات على السلطة والحكم ..) ، ويضيف فى عبارات دالة (.. ولكن بينما فقدت هذه الاعتبارات معناها وقيمتها .. بتغير السياق التاريخى .. الى ان زالت تماما ، فان العصبيات

الدينية التى اصطنعتها ، تبقت مترسبة عبر الاجيال ، وتجمدت مع الزمن ، حتى آلت الينا كإرث غير مفهوم وغير منطقى ، يثير التساؤل مثلما يثير المشاكل ، ص ١٢٥) ، ويتابع تقيحات الطائفية الدينية خلال العصرين العثمانى والاستعمارى ويراها مستمرة حتى العصر الحديث ، وينصح (من المفيد والضرورى تقديم دراسة علمية منهجية متكاملة فى هذا الصدد ص ١٢٧) وينتهى من فرضية الوحدة والتنوع .. بأهمية توظيف التنوع لحساب الوحدة ، بمثابة اللبنة الثانية فى نظريته .. باعتبار ان الاولى تتمثل فى وحدة الدين .

وتبقى المشكلة عنده محددة فى هذا السؤال "هل يمكن لهذه الوحدة الدينية" ان تقيم كيانا سياسيا مركزيا موحدا .. كما يقدر لها منظرو الإسلام السياسى ؟

وهذا سؤال معقد بطبيعة الحال ، يسترشد فى اجابته عنه بنظريته المورفولوجية وبالتاريخ والسياسة والدين ، حيث تدل مراجعة الحلقات .. على تجاوز الإسلام لما يتضمنه تتابعه بالضرورة من اختلافات ، ومن ثم يسميها (الاتجاهات الجاذبة المركزية ، ص ١٢٩) ، كما يدل تناقص كثافة الإسلام .. من حلقة الى اخرى بداية من النواة (اتجاهات المقاومة) .. على ان ثمة قوى مضادة .. توازن قدرته على الانتشار ، يتصل بعضها بالمسافة والمساحة واختلاف الثقافات ، ويخص بعضها رصيده السكانى فى النواة ، فضلا

عن فعالية الدولة المركزية .. وقدرتها الذاتية على إدارة هذا العالم المترامى الاطراف ، وهذا ما يعنيه بالمعادلة الاقليمية لانتشار الإسلام (ص ٨) ، ورغم أن حضارة الإسلام وثقافته .. قد بقيت وتعمقت .. واستمرت وحدة الدين ، إلا أن دولته السياسية قد تراجعت لحساب الدولة الوطنية والقوميات ، وهكذا بينما صمد الدين لاعتى الاختبارات .. فقد سقطت دولة الدين ، بما يشير الى وظيفة اخرى .. تستثمر بها خاصيتى الوحدة والاستمرار فى الدين ..، وليست الدولة وحدها وسيلة هذا التوظيف .

وينتقل الى التاريخ .. فيجد انه (يتضمن سلسلة من التجارب المريرة .. التى فشلت فى النهاية .. كأساس للكيانات السياسية للعالم الإسلامى ، ص ١٣٩) ، وفى التاريخ الحديث .. انبثقت من جديد فكرة "اسلامستان" .. فى باكستان ، ترددت اصداؤها فى اندونيسيا .. التى رفعت شعار "دار الإسلام" ، غير ان الفكرة والشعار وغيرهما .. قد وظفت من جانب القوى العالمية المهيمنة .. فى تأسيس الاحلاف ، اى انها قد استثمرتها سياسيا (.. وسخرتها لحسابها الخاص ، ص ١٥١) ، ثم صدرتها الى بقية الدول الإسلامية ، مستثمرة اختلاف المذاهب ، واختلاف درجة التشدد فى التفسير ، بما يعلل انتشار (.. الجماعات المسلمة الإرهابية فى العالم العربى ، خاصة مصر مؤخرا ، ص ١٤٠) .

أما من ناحية "الدين" .. فإن النظرية السياسية الاصولية فى الفقه الإسلامى ، لم تحتم قط وحدة "الامامة" ، يعنى وحدة النظام والاطار السياسى فى دار الإسلام ، ص ١٤٥) ، ولعل خير ما يدل على ذلك .. ابن تيمية فى القرن الرابع عشر .. ومن بعده تلميذه ابن القيم الجوزية (.. فهو عند جمهور الفقهاء المحدثين أول دعاة الوحدة الإسلامية ، غير انه بواقعية ملحوظة .. لم يدع الى دولة إسلامية عالمية موحدة ، وانما الى شىء ـ اشبه فى تقدير المحدثين ـ باتحاد كونفيدرالى يجمع العالم الإسلامى جميعا ، ولكن من الواضح ان شيئا من ذلك لم يتحقق ، ص ١٣٠) ، وبذا يقرر ان الدور الاصيل يتمثل فى (.. توحيد الدين ، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين ، وتعميق روح الإسلام ، ص ١٥٣) ، ومن بعد .. توظيف تنوع الموارد والثقافات لحساب العالم الإسلامى الكبير ، وسيعود لتأكيد هذا الدور بشىء من التفصيل .. بعد قليل ، باعتباره من اساسيات نظريته ، فبعد وحدة الدين .. يأتى السؤال عن الدور ، وبعد تحليل التنويع .. يأتى السؤال عن التوظيف .

والآن .. ماذا يعنى فى نظريته .. عنوانها التفصيلى الثانى "تاريخ الإسلام الجيوبوليتيكى ؟" .

مثل مقولة "الوحدة والتنوع" .. فإن لمصطلح "جيوبوليتيكا" دلالته الجغرافية الخاصة ، تتصل اساسا بالاساليب السياسية والممارسات ، ولكنه يطهره هنا مما علق

به من شوائب .. نتيجة استخدامه من قبل قوى الاستعمار .. فى تطويع حقائق الجغرافية الثابتة .. لخدمة اغراض السياسة المتغيرة ، وهى عادة تقهر الحقائق لحساب المطامع ، وتوظفها لتبرير القوة والهيمنة .. بل والتوسع على حساب الآخر والتهامه ، ومن هنا أهمية التأكيد على ما سبق ذكره .. من تطهير معنى المصطلح ، والعودة به لمعناه اللغوى حرفيا .. كما يدل عليه تكوينه "Geo - Politic" . وجعله مرادفا للجغرافية السياسية . Political - Geog .. وهذا ما يعنيه حمدان ، مختلفا بذلك - على سبيل المثال - مع كتاب نيكسون المذكور (الفرصة السانحة) .. الذى يمكن اعتباره نموذجا للكتابات "الجيوبوليتيكية المضمون" .. بالمعنى القديم الشائع حتى الآن .

ولان العنوان يتضمن ايضاً كلمة "تاريخ" .. فقد التزم منهجيا بتقسيم موضوعه الى مراحل تاريخية .. كما يلى ، بعد تمهيد قصير عن اثر التاريخ عامة فى شكل ومضمون الحضارات ، وفى تشكيل مورفولوجيتها الجغرافية .. كما تتحدد فى المكان :

* العصر الوسيط .
* الدولة العثمانية .
* عصر الاستعمار .
* المرحلة القومية .

والمرجح انه كان سيضيف اليها اخرى (المرحلة المعاصرة) .. لو اعاد تأليف كتابه فى تاريخ لاحق

(١٩٧٢) ، او ربما اضافها فى مخطوطته المفقودة .. ظنا او حقيقة ، بل انه يمكن القول بأنه قد ضمن بعض عناصرها ، فى الفصل الاخير .. من الجزء الرابع من كتاب "شخصية مصر" (ص ص ٦٣١ ـ ٦٦١) ، وفى غيره ايضا من فصول نفس الجزء ، وعدد من فصول جزئه الثانى ، صفحات مبثوثة داخل موضوعات هذا المتن الكبير .

وربما يكون مفيدا لو استعان القارىء بكتابه (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، الفصلان الثانى ص ص ٢٦ ـ ٥٥ ، والثالث ص ص ٥٦ ـ ٩٨) عند مطالعة هذا الجزء من نظريته ، ليس فقط للارتباط الوثيق بينهما موضوعا .. وانما ايضا للتعمق فى جوانب ودوائر فكره التنظيرى ، فمهما اوردنا ـ كما سيأتى ـ من اقتباسات دالة .. فلن تعوض عن متابعته فيما ذكر .. وربما فى مؤلفاته جميعا .

والعصور الوسطى عنده هى (.. عصر الدين بامتياز ، ص ١٢٩) ، تجسدت بها وحدة الدولة المركزية للعالم الإسلامى ، يذكر عنها فى كتابه "استراتيجية الاستعمار والتحرير" (.. لم تسبقها من قبل دولة فى الامتداد والرقعة ، ولم تلحقها من بعد الا امبراطوريات العصر الحديث ، بل هى فى نظر ماكيندر .. الامبراطورية العالمية الاولى فى التاريخ ، ص ٢٦) .. ويتابعها فى تحليلات موحية بعد ذلك فى كتابه ، غير انه مع ضعف قلبها الجاذب .. انفصلت هوامشها تباعا ، وبذلك يمسك بطرف خيط هام فى نظريته .. يتمثل فى العلاقة

بين القلب والهوامش ، هذه التى تعود ايجابية مع الحروب الصليبية .. وطوفان المغولية .. حتى تكاد توحد من جديد بين قلب وهوامش العالم الإسلامى ، ورغم توهج العصر المملوكى بعامة ـ فقد افرغت الخلافة من شحنتها كقطب جاذب ، ومع ذلك اتخذت الدولة العثمانية من الخلافة .. ستارا يسبغ الشرعية على سيطرتهم على هذا العالم بعد ذلك ، ووجهة نظره فيها (انها استعمار ديني .. جعلت من اقاليمها مجرد توابع ، ص ١٣١) ولم تجد معها الخلافة فتيلا .. حين دهمها العصر الاستعمارى .

ومن الهوامش ايضا زحف الاستعمار الى العالم الإسلامى ، وتآكله تدريجيا من شرقه وشماله .. ثم من غربه وجنوبه (ص ص ١٣١ ـ ١٣٢) ، بذات وتيرة الصليبيات الوسيطة ، بما ايقظ من قلبه حركات الاحياء الدينى .. متسربلة بالتحرر السياسى .. فى شبه الجزيرة (الوهابية) والسودان (المهدية) وليبيا (السنوسية) ومصر الأزهر .. وصحراء الجزائر ، يبددها ضعف تواصلها .. وتقوقعها داخل ثيوقراطيات محلية (ص ١٣٤) ، سرعان ما تتهاوى .. إن لم تتحالف مع الاستعمار ذاته ، وإن برزت فكرة الجامعة الإسلامية Pan - Islamic التى قدمها الافغانى ، وترادف (.. اتحادا فيديراليا من النمط الالمانى .. على مستوى العالم الإسلامى ، ص ١٣٤) ، وقد افضى ضعف الدولة العثمانية عن الدفاع عنها رغم تبنيها .. الى بزوغ الوعى القومى العروبى .. كصيغة مضادة طامحة لمواجهة المد

الاستعمارى ، خاصة بعد سقوط الدولة العثمانية ذاتها .. وتحلل الخلافة .

لقد تضمن السياق السابق اشارات الى بداية العصر الاستعمارى ، ومن يطالع الفصل الثالث من كتابه المذكور "استراتيجية الاستعمار والتحرير" .. سوف يحظى بتفصيلات دقيقة عنها وعما يتلوها ، ورغم سقوط الدولة العثمانية فى سياق الاستعمار العاتى ، فإنه لا يغفل تقدير قوتها (.. هذه قوة لا يستهان لها ، ولها مقومات يجب ان يحسب لها حساب ، ص ٥٣ من الكتاب المذكور) ، محذرا من وقوع القلب العربى الإسلامى مرة أخرى تحت سيطرة الهوامش ، وهذا تحذير له ما يبرره فى الوقت الحاضر (ايران بصفة خاصة) ، وبه يحفظ لنظريته اتساقها .. فى وجهيها المورفولوجى والموضوعى ، حيث العالم العربى بها قلب العالم الإسلامى ونواته وحلقته الاولى .. وبه يتحقق للإسلام اعلى كثافة ، ومن ثم فان تطهير الحدود بين القومية والإسلامية .. يجب ان ينال فائق العناية .

وقبل الاستمرار معه فى اجابته عن سؤال "هل القومية بنت العصرالاستعمارى .. ومن نتاج فكره الغازى ؟ (ص ١٣٦) ، ربما يكون مفيدا .. الاشارة الى انعدام وجود اى مقولة عن "القومية العربية" فى كتاب "نيكسون" المذكور ، سوى للدقة مجرد اشارة اليها باعتبارها تخبطا .. وهذه كلماته (.. لقد تمكن العالم الإسلامى من تحرير نفسه من الاستعمار فى الخمسينات والستينات ، وبعد ذلك اندفع

وهو مغمض العينين ـ في اتجاه عدم الانحياز ، واتحاد العرب ، وسياسة رد الفعل ، وسوف يعاود البحث في التسعينات ، وما بعدها ، عن مكانه اللائق بين دول العالم ، وعلى الولايات المتحدة أن تساعده فى ذلك بطريقة ما ، ص ١٣٩ ، الفرصة السانحة) هو إذن لا يذكر القومية العربية صراحة (اتحاد العرب) ، وهو يندفع الى هذا الاتجاه (مغمض العينين) ، وان على الولايات المتحدة ان تهديه وتنير طريقه .. ليس وحده .. وانما لكل العالم الإسلامى ، وبالطبع فان طريقه ليس بحال ما اندفع اليه بعماء على حد تعبيره ، ومرة ثانية استسمح القارىء فى اشارة اليه .. عسى لا تضجره او تصرفه عن متابعة موضوعه ، وعذرى انها تتصل بها .. وتوضح رأى الآخر المهيمن .. بعد عشرين عاما من طرح حمدان لسؤاله ، وهذه هى الاشارة (.. العالم الإسلامى متقلب وغير مستقر ، ولكن من الاهمية بمكان .. ان قوى التقدم والرجعية والاصولية تتصارع فيه ، لكى تحظى بتأييد الشعوب التى يبلغ تعدادها ما يزيد عن ٨٥٠ مليون نسمة ، هل ستتبع العالم الإسلامى نموذج تركيا فى انحيازها نحو الغرب والتحضر ؟ امستتبع نموذج العراق ؟ ام يتبع نموذج ايران ؟ ان الاجابة على هذه الاسئلة ستكون لها ردود فعل خطيرة في العالم ، وسوف تلعب السياستان الامريكية والغربية مع المسلمين ، دورا رئيسيا فى تحديد الخيار الذى تختاره الشعوب المسلمة ، ص ٢٨ ، الفرصة السانحة) ، هذه اذن نماذجه .. ومن الواضح ان النموذج

التركي يروقه ، ومن بين العرب من يختار النموذج العراقى .. وهو يلعنه صراحة فى صفحات كتابه ، وكذا الامر بالنسبة للنموذج الايرانى ، ولا وجود لنموذج القومية العربية بتاتا ، عسى تكون الاشارة قد وصلت ، وخلاصتها انه بينما يفضل التعامل مع العالم الإسلامى كوحدة .. فانه يقدم اليه تركيا كنموذج .. وهى من تخلت عن الإسلام اصلا .. واتجهت نحو الغرب لتتحضر اساسا ، وستكون هناك عودة لذلك .. وعذرا للإطالة .

وفى مناقشة خاطفة (ص١٣٦) يطرح كما سبق سؤاله "هل القومية بنت العصر الاستعمارى .. ومن نتاج فكره الغازى ؟ واحيل القارىء اليها ليقرأها باستفاضة ، وتتلخص اجابته فى ان الثقافات المحلية قد افرزت الشعوبية .. منذ وقت مبكر من التاريخ الإسلامى (ص ١٢٥) ، وفى العصر الحديث .. فإن (.. نقطة الانكسار من الدين الى القومية .. لم تأت بسرعة أو فجأة ، بل استطالت من اواخر القرن ١٩ الى فترة الحرب العالمية الأولى ، ص ١٣٦) ، قد غذتها الطبقية التركية القومية ، وروتها المؤثرات الأوروبية ، وبلورها سقوط الخلافة العثمانية ، وقادتها الاحزاب القومية فى العراق والشام .. والأحزاب الوطنية فى مصر وشمالى افريقيا ، وانقسم العالم الاسلامى بين الجامعة العربية Pan - Arabian والجامعة الطورانية ـ Pan - Turanian غير انه لم تلبث .. ان تحللت (الوحدة الدينية الى عواملها الاولية .. وهى الوطنية والوحدات القومية . ص ١٣٨) ، وقد سبقت

الاشارة .. الى انه لا يرى تناقضا بين الوطنية والقومية ، حيث يقرر فى كتابه شخصية مصر (.. وقد خلق بهذا كله فى العقل العربى .. أو اللاوعى العربى نوعا من الازدواجية والتضاد بين الوطنية والقومية ، حيث لا ازدواجية ولا تناقض بالتأكيد .. وانما ثنائية متكاملة أو قطبان لمتصل مدرج واحد Continuum ، جـ ١ ، ص ٢٤) ، وبذا يضع اللبنة الثالثة .. فى نظريته .. وتتمثل فى فصل الادوار بين الوطن القومية والإسلام ، ثم العمل بعد ذلك على تكاملها ، وعليه عند هذه النقطة الحرجة فى بنائه النظرى .. ان يحدد بالضبط والتفصيل دور الإسلام السياسى فى نظريته التى يسميها "نظرية الوحدة الإسلامية" .

وتأتى اجابته متسقة مع نظريته المورفولوجية .. مرة أخرى ، وبخاصة معادلته الاقليمية الرئيسية عن (محصلة القوى) ، فاذا كانت القدرة الانتشارية للإسلام .. قد توازنت مع القوة المضادة ، بما ادى بها كمحصلة .. الى خريطته الراهنة .. بحلقاتها المتمايزة تبعا لدرجة كثافة الإسلام فى كل حلقة ، فان دور الإسلام السياسى ايضا .. قد تحدد كمحصلة تاريخية .. لتغيرات العلاقة بينه من ناحية (القوة) .. وبين القومية والدولة (المقاومة) من ناحية اخرى (١٢٩) ، وبناء على ذلك .. فاذا كانت جدارة الإسلام الحضارية قد صمدت .. فكيف يمكن توظيف ذلك لحساب العالم الإسلامى المعاصر .. بواقعية تستقطر جوهره .. لحساب دولة فى خريطته الراهنة ؟ وكيف يمكن استثمار الوحدة الدينية ..

لتحقيق اقصى ما يمكن من التكاتف السياسى والثقافى والاقتصادى فى الساحة العلمية ؟، غير انه لا يكتفى بتحديد دور الإسلام السياسى عنده بوضوح تام (.. الوحدة الإسلامية وحدة عمل لا وحدة كيان ، بل يمكن ان نضيف وحدة مصير .. الا انها ليست دستورية ، وفى كلمة اخرى وحدة فكرية لا دستورية ، ص ١٥٣) ، ولكنه يعود فيفصل فى مجالات دوره .. ولكنه يسوق قبلها ما يفسر رأيه (ص ص ١٣٩ ـ ١٥٣) ، وفيما يلى تفسيره .. وتفصيل دوره :

* ان الترامى الجغرافى الشاسع للإسلام .. وان دل على قدرته الانتشارية .. الا انه بقى يعمل دائما ضد الدولة المركزية .

* إن قيام الدولة الإسلامية على الاساس الدينى وحده .. يمكن ان يبرر قيام غيرها على اساس الديانات الاخرى ، وبذا يعود العالم ساحة للصراعات والحروب الدينية ، ساحة يصعب تصدر الإسلام لها .. بحكم الصورة المعاصرة لهرم القوى بها .. وتراتبها .

* كما سبق فى تصنيف كثافة الإسلام فى مناطق انتشاره .. فانها تتراوح بين الاغلبية والتنصيف والاقلية ، فماذا تضم دولة الإسلام منها .. وماذا تترك ؟، خاصة مع تداخل الكثافة .. بدرجة تقطع التواصل الارضى اللازم ، بما قد يؤدى الى انقسام دولة إسلامية موحدة فعلا .. مثل ما حدث فى باكستان مثلا ، غير ما ينطوى عليه التداخل من مشكلات الاقليات الدينية .

* انه لا تناقض بين الدين والقومية ، فالاخيرة تؤطر واقعا معقدا .. وتكرسه دستوريا ، يضم الدين فى إطاره الواسع .. العديد منها ، ومن شأن القيام بدوره فى التنسيق بينها أن تصيغ لنفسها استراتيجية عظمى واحدة .

(.. الإسلام بوصلتها التى تسترشد بها فى عالم القوى .. الذى يهدد الكل بصراعاته وتوازناته ، بضغوطه وتكتلاته ، وايضا باستقطاباته وتفككاته ، ص ١٥٤) .

وبهذه الاسباب وغيرها .. يعقد صلحا فكريا بين القومية والدين ، ويطهر الحدود بينهما من تحيز الاختيار الاحادى لأيهما ، ويكشف عن مساحة التكامل بينهما والوفاق ، وهى المساحة التى تتشكل حولها نظريته عن "وحدة العالم الإسلامى الكبير" ، ولكن اين "القومية" من الساحة الآن ؟، إن هناك من يرى بانها قد انتهت .. ويكتفى "نيكسون" بوصفها بالجمود (الفرصة السانحة ، ص ١٥) ، ولكن علينا مثله ان (لا نقلل من شأن الاحتمالات المستقبلية مطلقا (نفس الصفحة) ، بل لعل الحاضر يشهد فعلا بوادر دورة جديدة لانتعاشها ، وعندئذ سوف تكون لكل كلمة كتبت عنها قيمتها .. خاصة فى اتجاه التوفيق بينها وبين الدين .

اما عن تفصيل دور الإسلام .. فانه يحددها فى هذه المجالات (.. التبادل الثقافى والفكرى العام ، المزيد من التنسيق الاقتصادى والتبادل التجارى ، التضامن السياسى الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الاخطار الخارجية ،

التعاون لتحرير فلسطين المحتلة ، تلك جميعا هى المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامى سياسيا ، ص ١٥٣) ، وفى صياغة عملية يقرر (.. ويعنى هذا ان العمل السياسى والنشاطات الدولية الإسلامية .. التى تخضع حاليا لتوجهات منفصلة ومشتتة وربما متعارضة ، ينبغى ان تتحول من نمط الطرد المركزى الى قوى الجذب المركزى ، ص ١٥٤) ، وذلك بحكم حجم التحديات والمشكلات .. هذه التى يمكن تجميعها من سطوره وما بينها .. فى هذه المشكلات العشر المحورية فى العالم الإسلامى بإيجاز :

* الصراع الداخلى بين الدول الإسلامية .. المتزايد مع الزمن .

* الهبوط المستمر فى مستوى المعيشة .. نتيجة عدم التوازن بين الزيادة السكانية والتنمية .

* ضعف قدرة الدولة على السيطرة على الامن والاستقرار الداخلى .

* نقص الموارد المائية فى بعض الدول ، واحتمال نشوب الحرب بين الدول المشتركة فى موارد واحدة .

* مشكلات الحدود الناتجة عن رسمها .. بوساطة قوى الاستعمار الأوروبى فى الماضى .

* مشكلات الاقليات الدينية والعرقية والثقافية .. الظاهرة والكامنة .

* ديكتاتورية نظم الحكم القائمة فى معظم الدول .

* التفكك السياسى لبعض الدول الإسلامية بعد استقلالها .

* نزيف الاتفاق على التسليح ، حيث تجمع بها أكبر كم من السلاح فى عالم الدول المتخلفة .

* الانقسام السياسى ، والتفتت الدينى المذهبى ، بين السنة والشيعة خاصة .

وهناك بالتأكيد غيرها .. مما يضيق عن تفصيله المجال ، وهو يعتبر ان مواجهة هذه التحديات والمشكلات .. تحقق التعريف الوظيفى لوحدة العالم الإسلامى السياسية (.. هذا الذى قد يراه البعض حدا ادنى ، ونراه حدا امثل ، بل اننى لنخشى ان جهود الدول الإسلامية واستعداداتها الفعلية ، تقصر كثيرا دون برنامج العمل الايجابى الذى ينتظمه ، حتى ليكاد يبدو على بداهته .. برنامجا طموحا اكثر مما ينبغى ، بل ان هذا البرنامج هو المحك والمقياس الحقيقى لنظرية وحدة العالم الإسلامى ، مثلما هو محيطها ومجالها ، ص ١٥٤) .

وبعد فهذا كتابه .. بمثابة شهادته على عصره ، واذا كان تحليل مضمونه قد طال .. رغم صغر حجمه .. فما ذلك الا لكونه ثقيل الوزن حقا ، يقدمه كاتبه للقارىء باعتباره مدخلا .. ربما معتذرا بذلك عن صغر حجمه ، ولكن وزنه يؤهله قاعدة راسخة لمشرع أكبر ، ولعل ما يرجح هذا الاحتمال .. قوله (.. ليس ثمة بين ايدينا فيما نعلم .. دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن الصورة الجغرافية الراهنة لتوزيع الإسلام فى العالم ، ولهذا فنحن مازلنا بحاجة الى دراسة متكاملة ترسم جغرافية الإسلام من حيث هو غطاء روحى واسع الانتشار ، بالغ الخطورة فى الحياة اليومية المعاصرة ، المادية

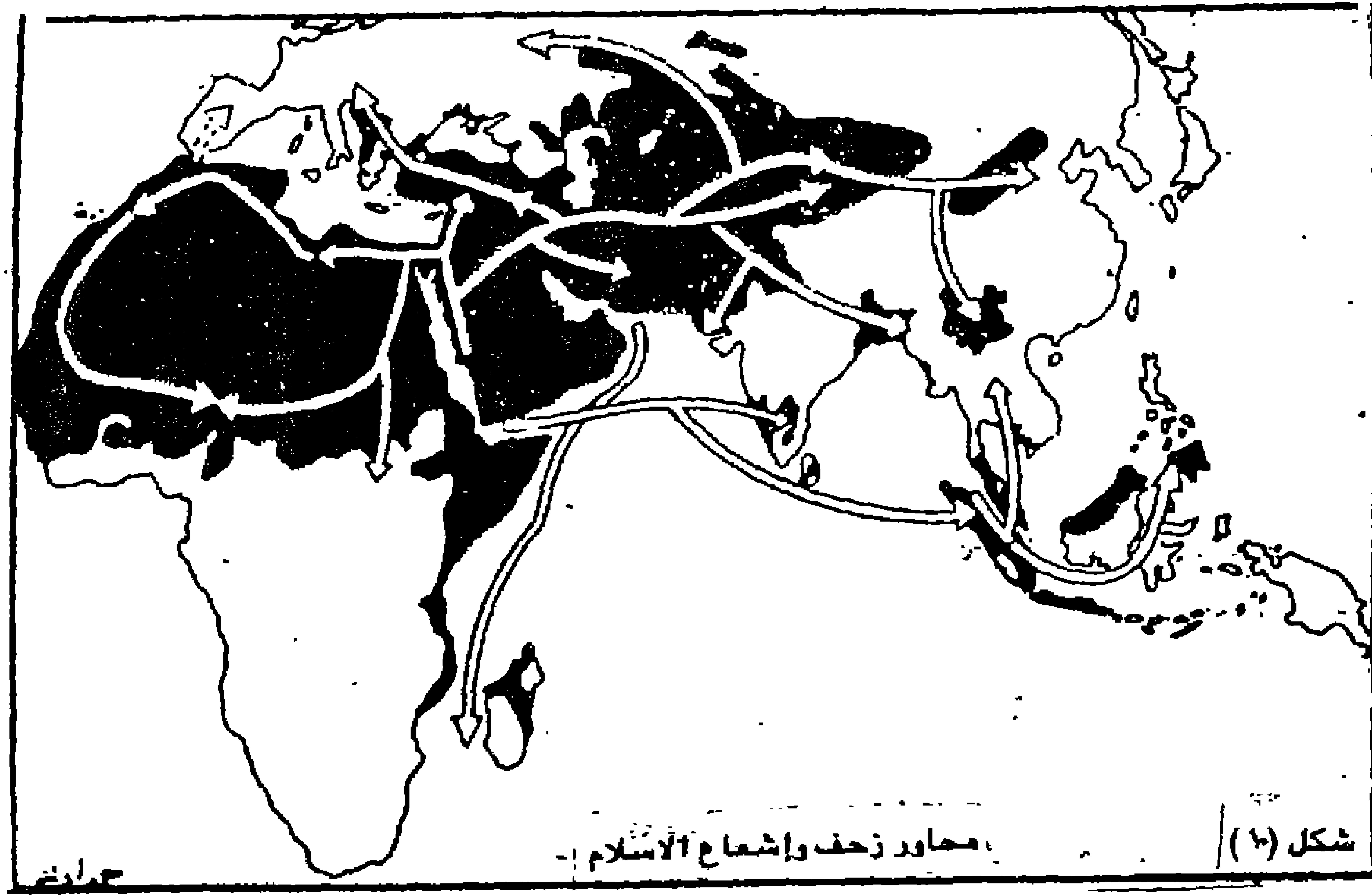
والثقافية ، والاقتصادية والسياسية ، لقطاع كبير من البشرية ، وما نزعم ان هذا البحث الذى نقدم الآن يمكن أن يسد هذه الثغرة تماما ، ولكنا نحسب انه يقدم ارضية عامة ونقطة ابتداء صالحة لمزيد من التعمق والتمحيص ، ص ١١) ، بل انه يكاد يشير الى بعض ما ينبغى استكماله :

* القصة التاريخية الجغرافية لانتشار العقيدة .

* تحليل الجوانب السياسية والاجتماعية المنبثقة من الوجود الإسلامى .

* نظرية شاملة تخضع العالم الإسلامى لفلسفة ايكولوجية احادية .

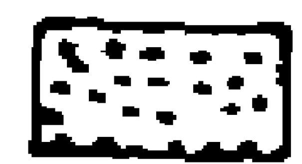
وجميعها مما يدخل فى صميم اهتماماته وقدرته ، تكاد تتشابه مع المحاور الفكرية والنظرية .. لكتابه الشامخ عن شخصية مصر ، ومن بعد غيابه .. وصدقا او ظنا ضياع مخطوطه ، عسى يظهر من يتحمس لاتمام مشروعه ، وأن يضيف اليه ما طرأ فى عقد السنين الاخيرة من متغيرات عميقة ، وشكرا مسبقا لمن يتحمس .



شكل (١٠) محاور زحف وإشعاع الإسلام

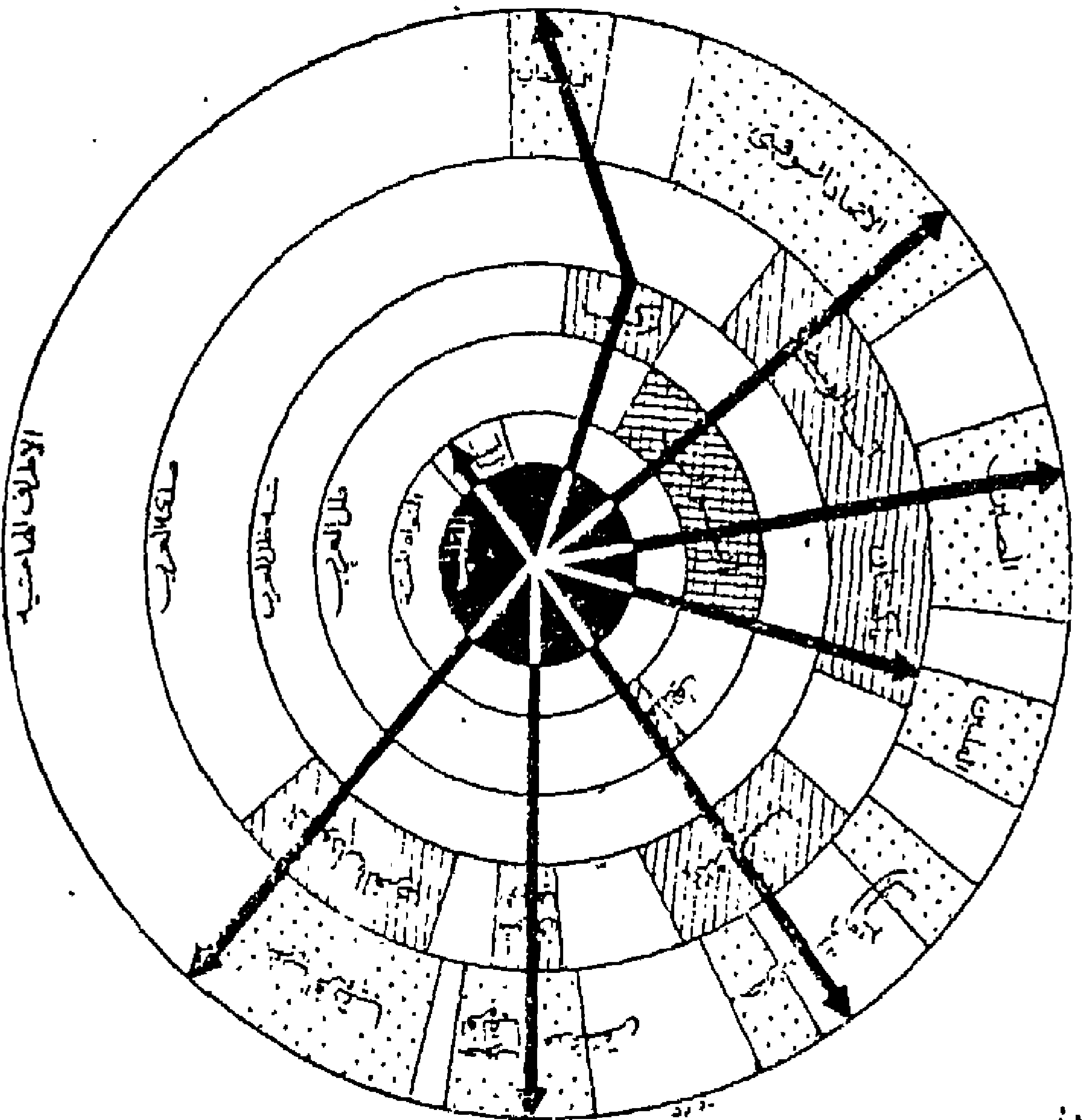
هلال الاسلام فى العالم القديم

شكل (١١)

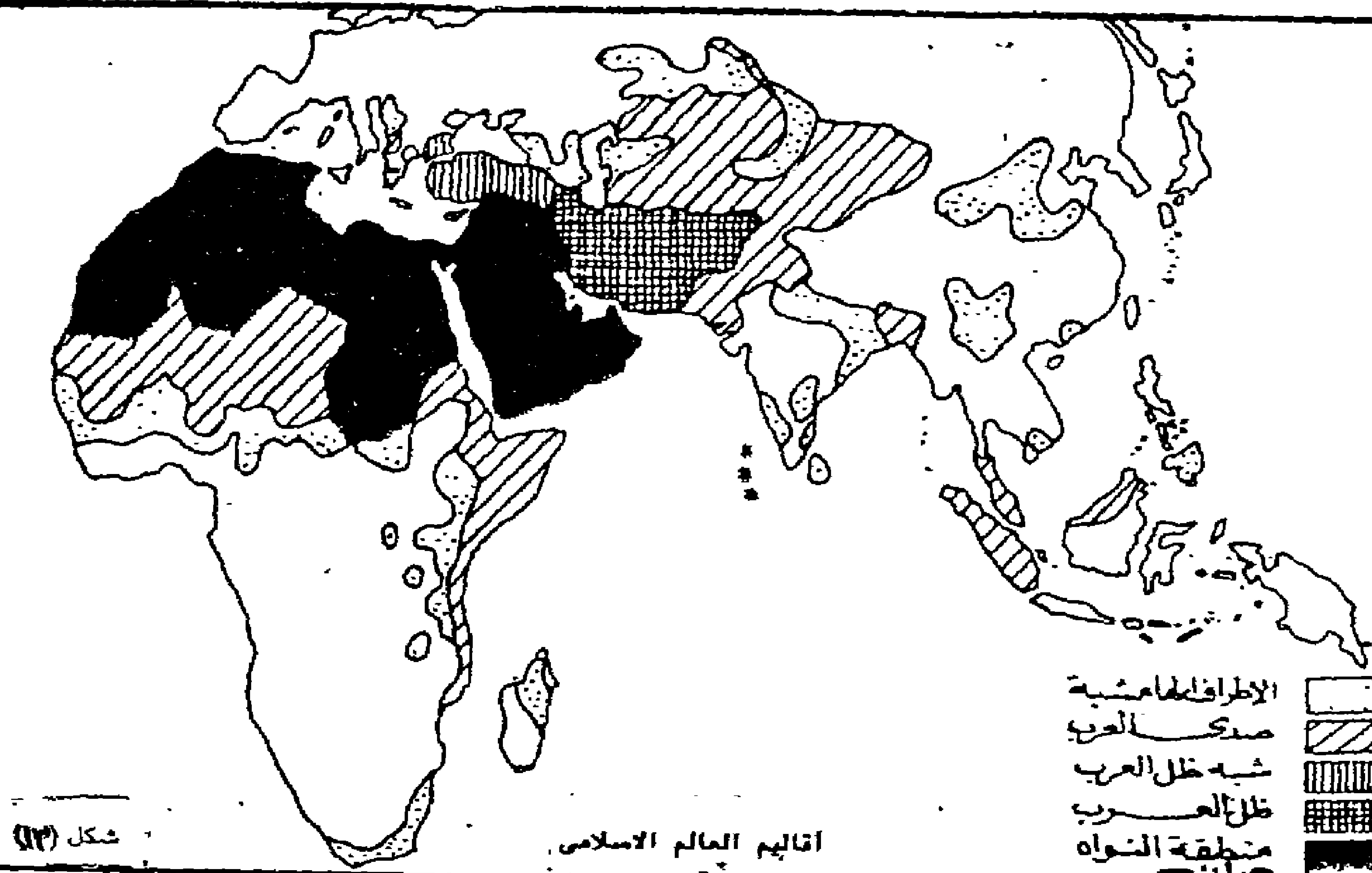

اقلية صغيرة


اقلية كبيرة

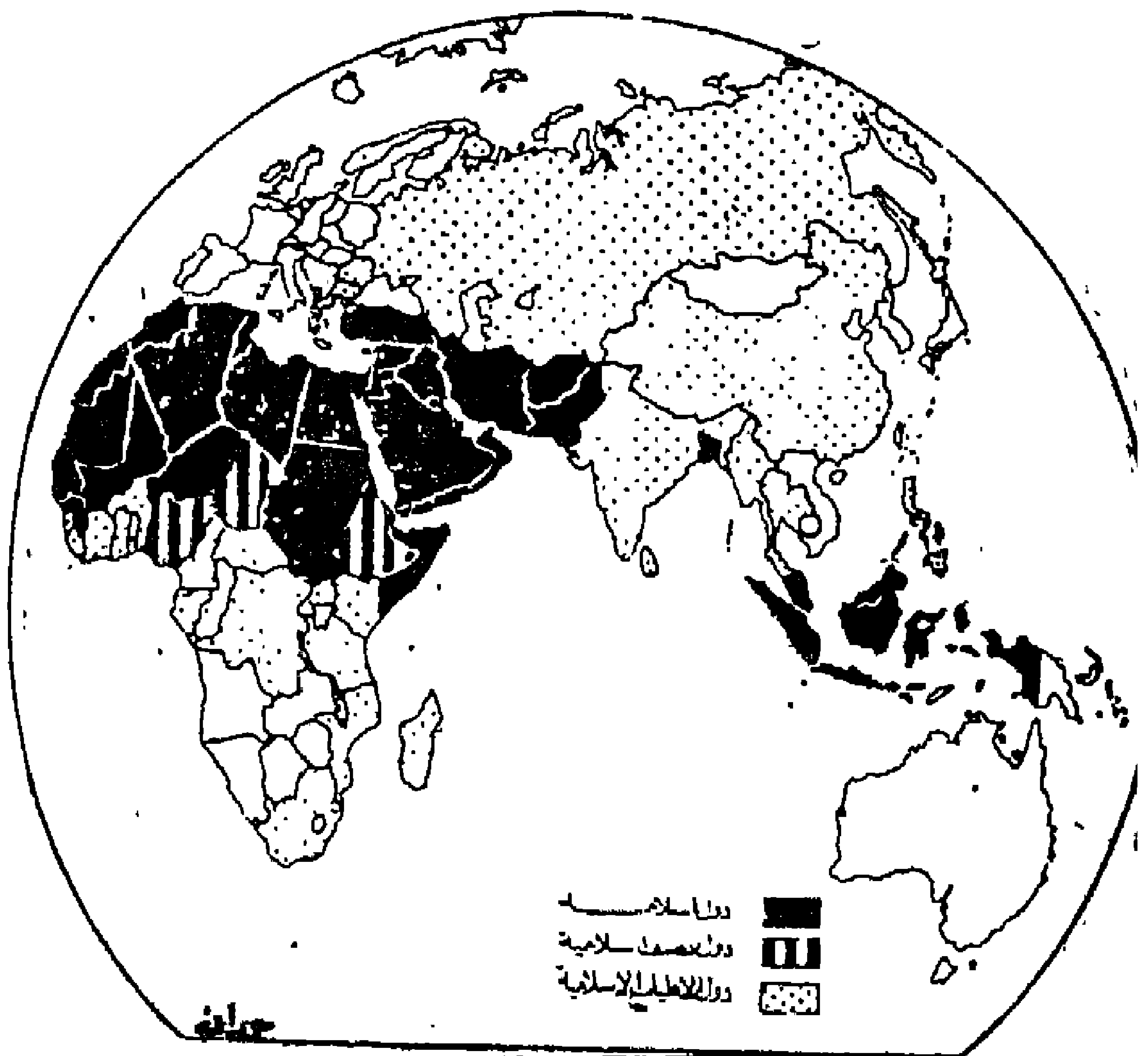

اغلبية سائده



(شكل ١٢) الهيكل النظرى التجريدى لمورفولوجية العالم الإسلامى


الأطراف الهامشية
صدى العرب
شبه ظل العرب
ظل العرب
منطقة النواة
اقاليم العالم الاسلامى

شكل (١٣)



شكل (١٤) _ كثافة الإسلام السياسية

فهرس الأشكال

المحتويات

رقم الايداع

٤٥٣٣ / ٩٥

I. S. B. N

977 - 07 - 0400 - 8

هذا الكتاب

يعرض د . عمر الفاروق .. فى هذا الكتاب .. لثلاثة من أعمال المفكر الجغرافى جمال حمدان ، يعرضها مجمعة لأول مرة .. بإعتبارها تكون ثلاثيته الجغرافية الوطيدة ، ثلاثية تتكامل أضلاعها .. من الوطن إلى القومية إلى العقيدة ، يتناول فى الأول منها الوطن .. فى « شخصية مصر » .. بالدراسة الواسعة المستفيضة ، ويأتى الثانى منها « دراسات فى العالم العربى» . عن القومية فى إطارها الجغرافى ، ويكمل ثلاثيته بكتابه « العالم الإسلامى المعاصر » .. عن حضارة العقيدة ، توحد بينها رؤيته .. وتجمعها فى بناء متماسك ، رؤية تصيغها جماع قوة (الوطنية × القومية × حضارة العقيدة) فقد ثبت أن تغليب أى منها .. إنما يوهنها جميعها ، ويحولها إلى عملية طرح وقسمة . بدلا من مجموع قوة متصاعد ، وماأحوجنا لهذه الرؤية .. فى غابة عالمنا المعاصر .

ويأتى عرض الكتب الثلاثة .. من زواياه المعتمدة جميعها ، يدلل عليها بإقتباسات من متن كل عمل منها .. بما يحقق أيضا أكبر قدر من المشاركة للقارىء .. مقترنة بأشكال تبسط منظومتها .. وتقدمها فى سياقها الفكرى والموضوعى ، ويمهد لدراستها .. بتحليل مسهب عن حمدان . كفيلسوف للمكان .. وكأكبر جغرافى معاصر ، يغوص فيه فى عقلية هذا المفكر .. يمكنه من ذلك تخصصه الجغرافى .. وعمق ادراكه لقيمة هذا المفكر فى الثقافة المصرية بعامة .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

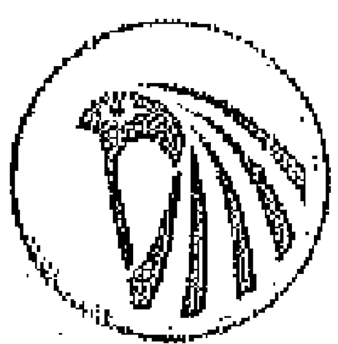
● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

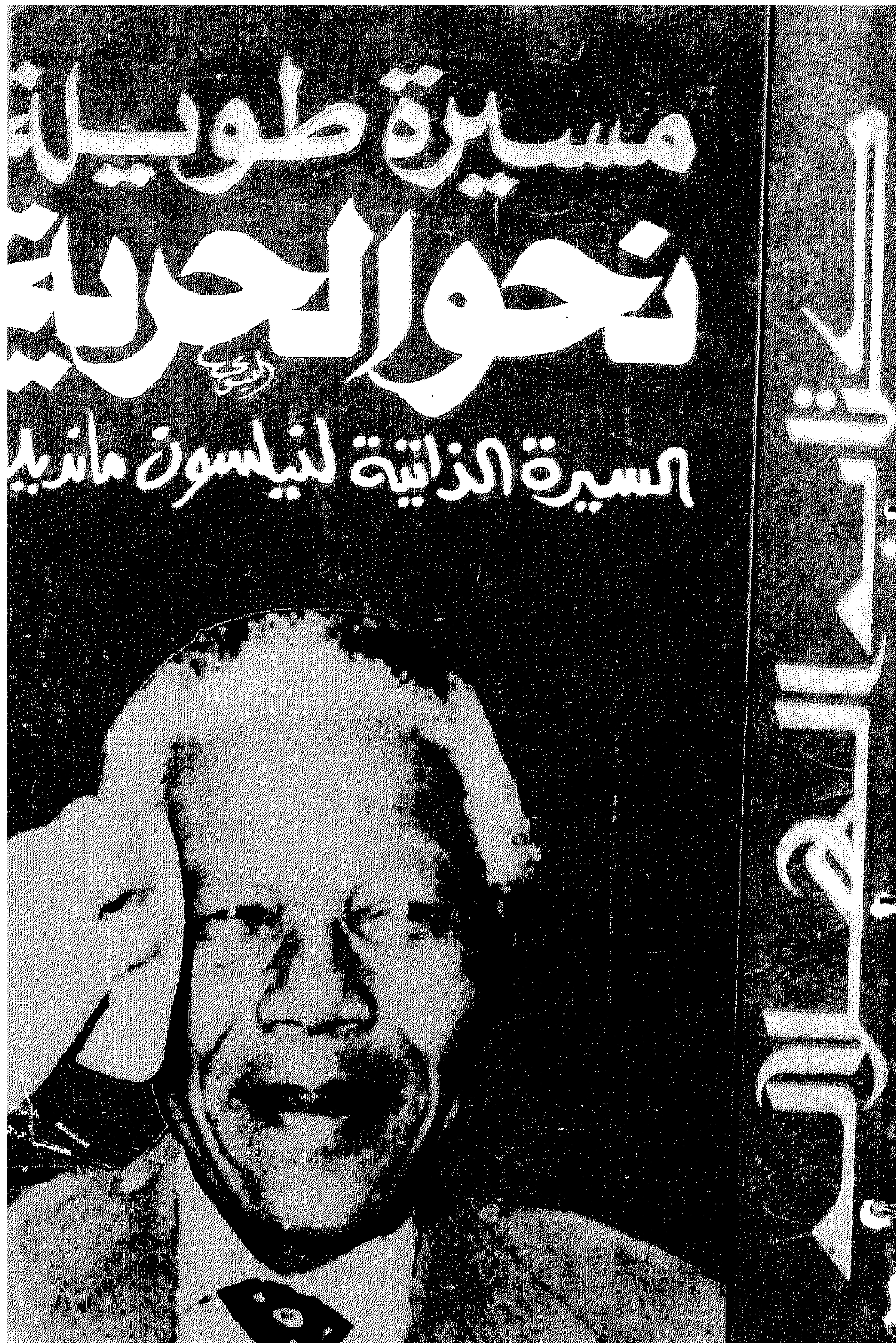
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

مكتبة انغام
الرياض

أهلاً بكم في عالمنا



مصر للطيران


مسيرة طويلة
نحو الحرية
السيرة الذاتية لنيلسون مانديـ



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
NO.534 - JU-1995
العدد ٥٣٤ - محرم - يونية ١٩٩٥
FAX 3625469 فاكس

اسعار بيع العدد فئة ٤ جنيهات

سوريا : ١٣٠ ليره ، لبنان : ٨٠٠٠ ليرة، الاردن : ٣٠٠٠ فلس ، الكويت : ٢٠٠٠ فلس ، السعودية : ٢٠ ريالاً ، تونس : ٣ دينارات، المغرب: ٣٥ درهماً، البحرين : ١,٥٠٠ دينار، الدوحة: ١٥ ريالاً، دبى/ ابوظبى: ١٥ درهماً، مسقط : ١,٥٠٠ ريال، غزه/الضفة/ القدس: ٢ دولار، لندن : ٢,٥ جك.

مسيرة طويلة
نحو الحرية

سيرة الذاتية لنيلسون مانديلا

ترجمة

د. فاطمة نصر

دار الهلال

الغــلاف تصــميم
الفنان حلمي التوني

سيرة ذاتية أم وثيقة سياسية ؟

السيرة الذاتية فى بدايتها كانت كتابة اعترافية دينية يسبر فيها الفرد أغوار ذاته للتعرف على مواطن ضعفه الانسانى وليقيم علاقة سليمة مع الخالق . ورغم أن تلك الكتابات انفصلت لاحقا عن أصولها الدينية وأصبحت شكلا من الأشكال الأدبية طرقه الأدباء والمفكرون والساسة فقد احتفظت تلك الكتابات بسمتين أصيلتين وهما محورية الذات وصيغتها الاعترافية . وفى زمننا هذا نحت السيرة مناحى مختلفة وتعددت أساليبها وأهدافها . فإلى جانب السير التى مازالت تلتزم بالسمات الأساسية ظهرت أخرى تهدف إلى الاثارة والكسب السريع . أيضا نجد أن هناك من بين القادة والمرموقين من الأفراد من يحاول استباق التاريخ بكتابة سيرته الذاتية حتى لا يترك لأقلام الآخرين حرية تسجيل الكلمة الفاصلة عنه ، وقد ظهر فى السنوات الأخيرة عدد غير مسبوق من سير القادة والملوك والمشاهير من الأفراد .

وتستدعى طبيعة وأهداف ذلك الشكل من الكتابة التساؤل عن مقصد مانديللا من نشر سيرته ولم تمض شهور على توليه السلطة . فسيرته كما نقرأها ليست اعترافية والذات ليست محورها فهى ترتكز على الحدث .

كما أن مانديللا أصبح رمزا تمتلكه البشرية جمعاء لذلك يستبعد أن تكون سيرته محاولة منه لاستباق المؤرخين خوفا من التشويه أو سوء الفهم .

في سياق سرده للأحداث يذكر مانديللا أنه أثناء تواجده في المعتقل اقترح زملاؤه عليه كتابة مذكرات احتفاء ببلوغه الستين على أن يتم تهريبها خارج السجن والبلاد لنشرها كي تعمل على إزكاء شعلة المقاومة التي كانت قد خفتت آنذاك . ونجح مانديللا وزملاؤه فيما اعتزموه . غير أن تلك المذكرات لم يكتب لها أن ترى النور . يقول مانديللا أن تلك المذكرات هى العمود الفقرى لكتابه الحالي ، وعلى ذلك فلنا أن نفترض أنه رغم أن كلتي السيرتين قد تحوى نفس الأحداث الرئيسية إلا أنه ربما قد جرى تعديل بالحذف أو بتغيير بؤرة التركيز لأن المذكرات الحالية أريد بها تحقيق هدف مختلف عن ذلك الذى هدفت إليه المذكرات الأولى .

وبقراءتنا للسيرة الحالية يتبين لنا أن هدف مانديللا الأول هو تبيان وترسيخ وتبرير سياسته التوفيقية التى التزم بها واتبعها . وتلك السياسة ليست وليدة الساعة ، وليست مسايرة للظروف والمتغيرات لكنها تنبع من عقيدة التزم بها المؤتمر منذ نشأته واعتنقها مانديللا فكرا عقلانيا وأساسا واقعيا لكفاحه منذ بداية تسييسه ، كما عمقتها التجربة وقوىَّ التزامه بها نضج الفكر وشمولية تجربته الإنسانية .

لم يشب مانديللا على كراهية للبيض . بل على العكس ، فإن تجربة طفولته وصباه كما يصورها هى تجربة رعوية لم يفسد صفوها أى شعور بالقهر ولم يكتسب من نشأته الأولى عوامل أثرت فى اختياره طريق الكفاح سوى حس راسخ بالعدالة وإيمان بالديموقراطية وكبرياء لكونه إفريقيا أسود . أما خلال سنوات دراسته بالمدارس والكليات الإرسالية فقد زاد اعجابه بالرجل الأبيض وكان منتهى طموحه أن يصبح "چنتلمان" انجليزيا أسود .

ولعل من الأهمية بمكان ملاحظة تزامن تفتح وعيه والتزامه السياسى مع دراسته للقانون فى جامعة Wits وقد تزامنت تلك الفترة أيضا مع اجراءات قمعية متزايدة من قبل السلطة لترسيخ نظام الأبارتايد . وربما يسترعى الإنتباه أيضا أن زملاء مانديللا من غير السود قد لعبوا دورا كبيرا فى تسييسه . أى أن اختيار مانديللا لطريق الكفاح لم يقرره شعور شخصى بالظلم ورغبة شخصية فى مقاومة من يمارسونه لكنه نتج فى المقام الأول عن عقيدة ايديولوجية فى عدم عدالة الأبارتايد ورغبة منه فى اقرار العدالة . فهو يذكر فى كل مناسبة أن عداءه لم يكن لأشخاص معينين أو لإثنية بذاتها ، لكنه اختار أن يكافح نظاما باطلا ليقر نظاما عادلا . بل إنه كان يرى أن البيض أنفسهم وهم يمارسون الأبارتايد هم ضحايا للكراهية والتحيز وضيق الأفق .

لا عجب اذن أن مانديللا فى سرده للأحداث لا يتوقف لوصف تفاصيل الممارسات الدموية الشريرة للبيض والتى نقرأ عنها حتى فى كتابات بعض البيض أنفسهم ، ولا يتخير وقائع بعينها كأمثلة لمعاناة الأفارقة . فإن أكثر الأمثلة التى يذكرها دموية هى مذبحة شاربڤيل التى اقترفها نفر قليل من رجال الشرطة تملكهم الخوف ، كما يقول ، من كثرة عدد المتحديين من السود فأطلقوا الرصاص وكان عدد الضحايا أقل من مائة قتيل ، وفى المقابل فإن مانديللا يسرد بإسهاب وحشية الممارسات الدموية لأعضاء الإنكاثا من الزولو بطريقة تقشعر لها الأبدان .

ومن ناحية أخرى يعطى مانديللا أمثلة عديدة لعظمة وعدالة بعض رجال القانون البيض ومن بينهم بعض القضاة الذين حاكموه . كما يسجل كفاح ومواقف عدد من البيض الذين عملوا معهم وتعرضوا للسجن والنفى والموت .

يتضح إذن أن مانديللا لا يريد التركيز على أو إحياء ممارسات بشعة لنظام وصفه هو بأنه من أعتى الأنظمة التى عرفها التاريخ بل يريد التأكيد على لاإثنية عناصر الشر وعناصر الخير وأن يؤكد تلك المبادىء التى قام عليها المؤتمر والتى كافح هو وغيره من أجلها لإقامة نظام عادل ديموقراطى تعيش الأعراق المختلفة فى ظله حياة عدالة وكرامة وأمان .

وعلى ذلك فسيرة مانديللا ليست ذاتية لكنها تأطير وتأصيل تاريخى وعقائدى وواقعى لسياسته التوفيقية التى التزم بها منذ توليه السلطة .

وقصة كفاح مانديللا وشعب جنوب إفريقيا كما ترويها السيرة هى "أوديسا" الواقع المعاصر قادها شعب عاش مغلوبا على أمره لمئات السنين وسلب حقوق مولده وكيانه الإنسانى ضد نظام من أشرس الأنظمة وأشدها قوة وثراء وصلفا . وتمكنوا وهم الضعفاء الفقراء المحتقرون ليس فقط من زعزعة النظام والاتيان عليه بل أيضا من كسب مؤازرة شعوب الأرض وحكوماتها ودفعها لتبنى قضيتهم سواء كان ذلك عن عقيدة أم مسايرة للتيار العام .

لم ينظر مانديللا للمعركة على انها معركة بين مجموعتين من البشر فقط لكنه نظر إليها على أنها معركة بين ايديولوجيتين يميزهما التباين والتشابه فى نفس الوقت . فقد قام الأبارتايد على أساس عقيدة سمو الجنس الأبيض ودعمت تلك العقيدة إسطورة دينية تصنف البشر تصنيفا هرميا يتربع الجنس الأبيض فيه على القمة ويرتب بقية البشر فيه بين القمة والقاع الذى يحتله السود . وعلى هذا فرغم تقديس الأفريكان للعدالة والديموقراطية فإن القوانين التى تجسد هذين المفهومين هى قوانين مصدرها البيض ولحماية البيض . وعلى الجانب الآخر تتلخص ايديولوجية المؤتمر ومانديللا فى

التأكيد على المساواة بين البشر وأن العدالة والديموقراطية هما من أجل حماية حقوق الفرد والمجتمع بغض النظر عن اللون والعرق . ومن خلال كفاحه أثبت شعب جنوب إفريقيا حذقا غير عادى ومهارة فى التنظيم والتنظير والممارسة مما أجبر عدوهم والعالم أجمع ليس فقط على الاعتراف بهم كنظراء بل على الاعجاب بهم والتسليم لهم ..

ولعل تجربة المعتقل التى فاق عدد سنواتها عدد سنوات الكفاح خارج المعتقل هى التى تشعر القارىء ليس فقط بضآلته أمام عمالقة الارادة والفكر السليم ، لكنها تجدد فى النفس الثقة بالإنسان والعقيدة . فخلال سنواتهم الطويلة فى معتقل جزيرة روبن النائية القاسية الموحشة حيث اختير لها عتاة السجانين والضباط ، نقل مانديللا وزملاؤه المعركة هناك حيث لم ينجحوا فقط فى الحفاظ على آدميتهم وتأكيد حقوقهم ، بل إنهم حولوا المعتقل إلى جامعة لتربية النفوس والعقول والأجساد ، ولتثقيف وتعليم المسجونين السياسيين ، وتسييس وتعليم عتاة الاجرام من السجناء العاديين . فإنهم بالاضافة إلى استغلال وقتهم لمواصلة دراستهم أقاموا المساجلات السياسية والثقافية والاجتماعية والتراثية ووضعوا منهجا متكاملا للدراسة . كما قاموا بتكوين لجان للإستشارات القانونية ، وتكوين منظمة داخلية للمؤتمر وقيادة عليا له ، وعقد المباحثات مع أعضاء المنظمات

الأخرى لرأب الخلافات . وفى نفس الوقت عملوا جهدهم لكيلا يفقدوا الصلة بالتنظيمات والأحداث خارج المعتقل ولكى يبقوا المعركة حية بعد أن اعتقل ونفى جميع الزعماء . وانتهى الأمر بأن ترك القائمون عليها شئون الجزيرة وحفظ النظام بها للسجناء أنفسهم . أما بالنسبة للعالم الخارجى فقد ارتقت الجزيرة وقاطنوها إلى منزلة الرمز والإسطورة مما أجبر العدو فى النهاية إلى أن يسعى إليهم وأن يدرك أنه لا بديل للتفاوض معهم وللخضوع لإرادة الحق .

أتى الأفارقة وعلى رأسهم مانديللا مائدة المفاوضات مسلحين بالعلم والمعلومات والخبرة والعقيدة . أتوها وهم يعلمون عن عدوهم اكثر مما يعلم هو عن نفسه وعنهم . ويقول مانديللا فى ذلك الصدد "لم نأت الإجتماعات متسولين لكن مواطنون لنا الحق فى مكان متساو على المائدة" . أصر مانديللا ورفاقه على عدم قبول اشتراطات مسبقة ورفض المساومة ، كما رفض أن تتوقف النشاطات العسكرية كشرط لبدء المفاوضات ولم يملك الطرف الآخر أمام الوعى والإصرار سوى الخضوع والتسليم .

ومع انبهار القارىء إذ تتفتح أمامه تلك السيرة البطولية فإنه يتوقف عند بعض النقاط المحيرة ولعل أهمها بالنسبة لى كقارئة عربية بعض ما يأتى فى سياق رواية مانديللا . فإنه يذكر أنه إبان اختفائه فى مزرعة

ريفونيا كان معلمه الأول في فنون حرب العصابات هو آرثر جولدريتش الذي كان ضمن الجناح العسكري لحركة بالماخ الصهيونية في فلسطين والذي خاض حرب العصابات هناك . كما يذكر أيضا ضمن الكتب التي قرأها وأفادته كتّاب الثورة لمناجم بيجين الذي يمتدحه . لم يتوقف مانديللا ذو الحس المرهف بالعدالة لحظة ليفكر أن هذين الشخصين الذين حازا إعجابه قد خاضا حربا ضد سكان فلسطين الأصليين أعتى من تلك التي خاضها الأفريكانيون ضدهم وأن أيديولوجية الصهيونية تتماثل تماما مع ايديولوجية الأفريكانيون البيض التي عاني من جرائها شعبه ما عاناه .

ومن النقاط المحيرة أيضا موقف مانديللا من الحركات المناوئة للمؤتمر وبالذات من منظمة الـ P.A.C التي قادها سوبوكوي معلمه ورفيق كفاحه والتي كانت تتمتع بشعبية بين القادة الأفارقة في وقت لم يكونوا يعلمون فيه الكثير عن المؤتمر . فإن مانديللا يصور تلك المنظمة للقارىء كما فعل مع القادة الأفارقة ومن بينهم جوليوس نيريري على أنها منظمة صبيانية تعوز أعضاؤها الحنكة ومراعاة الصالح العام ، وأن هَمَّ أعضائها الأكبر كان محاربة المؤتمر وليس محاربة العدو ، كما يغفل دورها في المعركة ومساهمتها في تحقيق الانتصار . ولا يملك القارىء إلا أن يتساءل .. أنه لو صحت مثل تلك الادعاءات فلماذا اذن اعتقل زعيمها وأبقى في المعتقل

رغم إنتهاء مدة الحكم عليه إلى أن توفى ؟ ولماذا لم يتبنها النظام كما تبنى حركة انكاثا لو أن هدفها الأول كان فعلا محاربة المؤتمر وكانت دوافع أعضائها هى الغيرة والانتقام .

ورغم ذلك لم أملك ـ وأنا أقرأ تلك الملحمة ـ التغلب على مشاعر الخزى والضآلة والانهزام ، الخزى من تخلف أساليبنا وخواء شعاراتنا ، من جهلنا بأنفسنا وبأهدافنا وبعالمنا ، من تفرقنا وتطاحننا ونحن أبناء العرق الواحد واللغة الواحدة والتاريخ المشترك ، من ضياع الطريق من تحت أقدامنا والهزيمة التى هى واقعنا .

تحية لك مانديللا .. تحية لك جنوب إفريقيا .. تحية لكل من ساهم فى تلك المعركة الملحمية من أجل الإنسان .

فاطمة نصر
مايو ١٩٩٥

الجـزء الأول
طفولـة فـى الريـف

إن الشىء الوحيد الذى منحه إياى والدى بخلاف الحياة ، والبنية القوية ، والصلة الوثيقة بعائلة ثمبو الملكية هو دوليهلاهلا ، إسمى عند الميلاد . والمعنى الحرفي لاسمى هو "نزع فرع الشجرة" ولكن معناه الدارج هو المشاغب" . ورغم أننى لا أؤمن بأن الأسماء تصنع قدر الإنسان لكن فى السنوات التى تلت صار الأصدقاء والأقرباء يعزون الزوابع التى سببتها وواجهتها إلى اسمى . ولم أكتسب إسمى الإنجليزى المألوف حتى يوم التحقت بالمدرسة .

فقد ولدت فى الثامن عشر من شهر يوليو عام ١٩١٨ فى مفيزو ، وهى قرية ضئيلة فى إقليم أومتاتا . وكانت سنة مولدى قد وافقت نهاية الحرب العالمية . وانتشار وباء الانفلونزا فى العالم وزيارة وفد المؤتمر القومى الإفريقى فرساى لكى يعبر عن معاناة الأفارقة فى جنوب افريقيا . وعلى أية حال فإن مفيزو لبقعة صغيرة منعزلة عن عالم الأحداث حيث كان نمط الحياة قد استمر لمئات السنين .

ويقع أقليم الترانسكى على مسافة ثمانمائة ميل إلى الشرق من كيب تاون وخمسين ميلا إلى الجنوب من جوهانسبرج ويحده نهر كى وحدود الناتال ومن الشمال جبال دراكنسبرج ومن الشرق المحيط الهندى . وترانسكى بلاد جميلة ذات

جبال وأودية حصينة وآلاف من الأنهار والجداول التى تبقى على اخضرار الأرض . وكان الترانسكى أحد أكبر الأقسام الإقليمية فى جنوب افريقيا هو مساحة سويسرا وتعداد سكانه حوالى الثلاثة ملايين ونصف من قبائل الإكسهوسا مع أقلية ضئيلة من قبيلة الباسوتوس والبيض . وهو موطن شعب الثيمبو أحد أفرع الإكسهوسا الذين انتمى اليهم .

وكان والدى رئيسا بالنسب وطبقا للتقاليد فقد عمده ملك قبيلة الثيمبو رئيسا لمقيزو وصدقت الحكومة على اختياره فى ظل الحكم البريطانى . وكان له ـ كرئيس معين من قبل الحكومة ـ راتب كما كانت له نسبة من الرسوم التى كانت الحكومة تفرضها على السكان نظير تطعيم المواشى .

وتنتسب الثيمبو من عشرين جيلا إلى الملك زويدى . وطبقا للتراث فقد عاش الثيمبو على سفوح جبال دراكنسبرج وهاجروا باتجاه الشاطىء فى القرن السادس عشر حيث امتزجوا بالاكسهوسا . أما الإكسهوسا فهم جزء من شعب النجونى الذى عاش منذ القرن الحادى عشر على الأقل على القنص وصيد السمك فى الإقليم الجنوبى الشرقى الغنى المعتدل من جنوب افريقيا بين الهضبة الكبيرة الواقعة إلى الشمال والمحيط الهندى إلى الجنوب . ويمكن تقسيم النجونى إلى مجموعة شمالية وهم الزولو والسوازى ومجموعة جنوبية التى تتكون من القبائل التى تتكون منها أمة الإكسهوسا .

وشعب الإكسهوسا ذو كبرياء ونسب أبوى ولغة معبرة عذبة وعقيدة ثابتة فى أهمية القانون والتعليم والكياسة . وكان

مجتمع الإكسهوسا تنظيما اجتماعيا متوازنا يعرف فيه كل فرد مكانه . وينتمى كل إكسهوسا إلى عشيرة تتتبع نسبها إلى سلف معين . أما أنا فأحد أعضاء عشيرة الماديبا التى سميت على اسم رئيس من الثيمبو حكم فى ترانسكى فى القرن الثامن عشر . وأحيانا كثيرة القب بماديبا كدليل للإحترام .

وكان نجو بنجكوكا أحد أعظم الملوك الذى وحد الثيمبو وتوفى عام ١٨٣٢ لديه طبقا للعرف زوجات ينتمين إلى البيوت الملكية الرئيسية وهى البيت العظيم حيث ينتقى وريث العرش ، وبيت اليمين ، وبيت أقل أهمية يدعى الاكسهيبا ويشار إليه أحيانا ببيت اليسار . وكانت مهمة أبناء بيت الإكسهيبا أن يحكموا فى المنازعات الملكية . وكان من بين أبناء البيت العظيم نجانجيلزوى ومانتانزيما . أما ساباتا الذى حكم الثيمبو منذ عام ١٩٥٤ فقد كان حفيد نجانجيلزوى وابنا أكبرا لماتانزيما الرئيس السابق لترانسكى وقد كان أيضا ابن أخى طبقا للقانون والعرف الذى هو من سلالة ماتانزيما . وكان الابن الأكبر لبيت إكسهيبا هو سيماكادى الذى كان أخوه الأصغر مانديللا جدى .

ورغم توارد قصص على مدى عقدين من الزمن عن كونى سليلا لعرش ثيمبو فإن النسب الذى ذكرته يدحض تلك الإسطورة . فرغم كونى أحد أعضاء البيت الملكى فلم أكن ضمن القلة المدربة للحكم . ولكن كسليل لبيت إكسهيبا فقد دربت كأبى على اسداء المشورة لحكام العشيرة .

وكان والدى رجلا أسمر طويلا ذا قوام مستقيم مهيب قد ورثته عنه . وكان سلوكه صارما لا يتورع عن استعمال العصا

فى تربيته لأبنائه كما أنه كان عنيدا للغاية وتلك صفة قد أكون أيضا قد ورثتها .

وأحيانا كان يشار إلى والدى على أنه رئيس وزراء ثيمبو لاند أثناء حكم والد ساباتا الذى حكم فى أوائل القرن ، وكذلك فى عهد ابنه الذى خلفه لكن مسمى هذا اللقب غير صحيح رغم أن دوره كان لا يختلف عن مهام تلك الوظيفة فقد كان يرافقهما فى أسفارهما ويحضر معهما الاجتماعات الهامة مع مسئولى الحكومة . كما كان والدى قيمًا معترفا به على تاريخ الإكسهوسا وكان هذا أصل اهتمامى أنا بالتاريخ ذلك الاهتمام الذى كان يشجعه والدى . ورغم جهل والدى بالقراءة والكتابة فقد كان خطيبا ممتازا يستحوذ على انتباه الجماهير .

وفيما بعد اكتشفت أن والدى كان أيضا صانعا للملوك فقد توفى والد ساباتا وهو طفل وعند استشارة والدى أوصى باختيار وصى العرش الذى سيكون قدوة للأمير الصغير . وثار جدل حول شخص الوصى لكن فى النهاية أخذ الثيمبو والبريطانيون باختيار والدى . وحينما حان الوقت رد الوصى جو تجينتابا الجميل بطريقة لم تخطر ببال والدى آنذاك

وكان لوالدى أربع زوجات ثالثتهم هى أمى نوز/ كينى فانى من عشيرة من عشائر الاكسهوسا . وكانت لكل من تلك الزوجات : الزوجة العظمى ، والزوجة اليمنى (والدتى) والزوجة اليسرى وزوجة بيت الدعم ، وحدتها السكنية . وتتألف من مكان للسكنى وحظيرة فسيحة وقطعة أرض لزراعة المحاصيل وكوخ له سقف من القش وكانت تفصل بين كل من تلك الوحدات أميال وكان والدى يسافر بينها . وفى أثناء تلك

السفريات صار لأبى ثلاثة عشر من الأولاد ، أربعة ذكور وتسع اناث . أما أنا فالابن الأكبر لزوجة البيت الأيمن وأصغر أبناء أبى ولي ثلاث شقيقات وفيما عداى فجميع أبناء أبى فى عداد الموتى الآن وكان جميعهم أكبر منى سنا ومرتبة .

وحينما كنت طفلا صغيرا دخل أبى فى جدل نتج عنه حرمانه من الرئاسة فى مفيزو . كان والدى متمردا عنيدا ذا اصرار على العدالة وإحساس بها وقد ورثت ذلك عنه فقد كان عليه كرئيس أن يقدم تقريرا عن عمله لملك الثيمبو وللقاضى الأبيض . وذات يوم قدم أحد رعايا والدى شكوى ضده بسبب ثور كان قد شرد من صاحبه . وأرسل القاضى رسالة لوالدى يأمره فيها بالمثول أمامه وأرسل والدى ردا مفاده أنه لن يحضر لأنه مازال يستعد . وفى تلك الأيام لم يكن لفرد أن يعصى أمرا لممثل حكومة البيض واعتبر تصرف والدى غاية فى الغطرسة .

لكن رد والدى كان يعبر عن عقيدته بأن ليس لقاضى الحكومة سلطة قانونية عليه . فإنه لم يكن يستعين بالقوانين الانجليزية فى تصريف شئون القبيلة . ولم يكن ذلك التحدى نوبة غضب ولكنه كان مسألة مبدأ .

وحينما تلقى القاضى رد والدى اتهمه فورا بالعصيان ولم يجر استجوابا أو تحقيقا فقد كان ذلك حقا للموظفين البيض فقط . وقام القاضى بعزل والدى ببساطة وأنهى بذلك رئاسة عائلة مانديلا .

ولم أكن وقتها أدرى بتلك الأحداث ولكنى تأثرت بها . فقد

فقد والدى ، الذى كان من النبلاء بمقاييس ذلك الزمن ، ثروته ولقبه . فقد حرم من معظم قطعانه وأرضه ومن ريعها . ونتيجة لعسر ظروفنا فقد رحلت أمي إلى قونو ، وهى قرية أكبر قليلا إلى الشمال من مڤيزو حيث حظيت بدعم الأقارب والأصدقاء . وفى تلك القرية قرب أومتاتا قضيت أيام صباى ومن هناك يمكننى استعادة أولى ذكرياتى .

- ٢ -

كانت قرية قونو تقع في واد ضيق معشب تتخلله جداول الماء وتحيط به التلال الخضراء . وكان السكان بضع مئات يعيشون فى أكواخ مشكلة كخلايا النحل من جدران من الطين وعمود خشبى فى الوسط يسند سقفا مدببا من الأعشاب . وكانت الأرضيات مصنوعة من كثيبات بيوت مستعمرات النمل المجروشة وتحفظ ملساء بطلائها بروث البقر . أما الفتحة الوحيدة فكانت مدخلا صغيرا كان على الإنسان أن ينحنى ليمر منه . ولم تكن هناك طرق ، فقط كانت هناك ممرات بين الأعشاب داستها الأقدام العارية للصبية والنساء . وكانت نساء القرية وأطفالها يرتدون بطاطين مصبوغة بلون يميل للاصفرار ولم يكن يرتدى الملابس الغربية فى القرية سوى الأفراد الذين يدينون بالمسيحية . وكانت الماشية والأغنام والماعز والخيل ترعى فى مراع جماعية . أما الأرض نفسها فكانت ملكا للدولة وفيما عدا استثناءات قليلة فلم يكن للأفارقة فى ذلك الوقت حق ملكية الأرض ولكنهم كانوا مستأجرين يدفعون ايجارا سنويا للحكومة . وفى تلك المنطقة كانت هناك مدرستان ابتدائيتان وحانوتا عاما وبركة لتغطيس الماشية .

وكانت الذرة والفاصوليا والفول والقرع تكوّن الجزء الرئيسى من طعامنا ولم يكن ذلك لتفضيلنا إياها ولكن لأن الناس لم يكن بمتناولهم الحصول على أطعمة أخرى أما العائلات الأكثر ثراء فكانت تضيف إلى ذلك الشاى والقهوة والسكر . أما المياه المستعملة فى الزراعة والطهى والغسيل فكانت النسوة ينقلنها من الجداول والينابيع . وفى الواقع فإن قونو كانت قرية نساء وأطفال لأن معظم الرجال كانوا يقضون الجزء الأكبر من العام يعملون فى مزارع بعيدة أو فى مناجم على طول الصخور التى تكون الى الجنوبى لجوهانسبرج وكانوا يعودون إلى القرية أحيانا مرتين فى العام لحرث الحقول . أما بقية الأعباء فكان يترك أمرها للنساء والأطفال . أفراد قليلون جدا فى القرية هم الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة لأن فكرة التعليم كانت ما تزال غريبة على الأكثرية .

كانت أمى تشرف على ثلاثة أكواخ فى قونو كانت تعج دائما بالرضع والأطفال من الأقارب ولا أتذكر أى مناسبة كنت فيها وحيدا كطفل . ففى الحضارة الإفريقية يعتبر أبناء وبنات الخالات والأعمام أخوة وأخوات وليس لدينا إخوة وأخوات غير أشقاء وتعتبر أخت أمى أماً لى وابن خالى أو عمى أخا لى وطفل أخى طفلى .

كان أحد أكواخ أمى الثلاثة يستعمل للطبخ والآخر للنوم والثالث للخزين . ولم يكن بالكوخ الذى كنا ننام به أثاث بالمعنى الغربى فقد كنا ننام على حصير ونجلس على الأرض . وكانت أمى تطهو الطعام فى إناء ذى ثلاثة أرجل على نار مكشوفة داخل الكوخ أو بالخارج . وكانت تزرع وتحصد

الذرة الخاصة بها . وكانت النساء يستعملن وسائل مختلفة لإعداد الذرة فكن يطحن الحبات بين رحايتين ليصنعن الخبز أو يستخرجن دقيق الذرة ليصنعن اللبن الرائب أو يطهين جريش الذرة . وعلى خلاف الذرة التى كانت تندر أحيانا فقد كان حليب الماعز والأبقار متوافرا دائما .

وفى صغرى كنت أقضى معظم وقت فراغى فى المروج ألعب وأتعارك مع صبية القرية فقد كان الصبى الذى يقضى وقته ملتصقا بأمه ينظر إليه على أنه مخنث . وفى الليل كنت أقتسم طعامى وبطانيتى مع أولئك الصبية . وعندما عملت بالرعى لم أكن قد تجاوزت الخامسة حيث كنت أسهر على الأغنام والعجول . وقد تعلمت وأنا أعمل فى الحقل الإيقاع بالطيور بواسطة المقلاع وجمع عسل النحل والجذور التى تؤكل ، وأن أرتشف الحليب الدافىء من ضروع الأبقار وأن أسبح فى القنوات الصافية وأن أصطاد السمك بواسطة الخيط المجدول بالأسلاك الحادة . كما تعلمت المبارزة بالعصى وتلك مهارة أساسية لكل فتى ريفى أفريقى .

وكنا كصيبية نُترك لنفعل ماشئنا وكنا نلعب بدمى صنعناها من الطين وأغصان الأشجار . وكانت المروج والتلال ملعبنا . وتعلمت الركوب بالتسلق على ظهور العجول التى تم فطامها وبعد أن سقطت عدة مرات تمرست فى العملية .

وذات يوم تلقيت درسا من حمار جامح كنا نتبادل تسلق ظهره وحينما جاء دورى قفزت على ظهره فجمح الحمار باتجاه شجرة شوكية وألقى بى بعد أن خدشت وجرحت الأشواك وجهى وسبب لى الارتباك فى حضور أصدقائى ورغم أن

الفاعل كان حمارا تعلمت قسوة اهانة المرء لغيره . فقد كنت أهزم زملائى دون اشعارهم بالمهانة . وعادة كان الصبية يلعبون بمفردهم لكن أحيانا كنا نسمح لأخواتنا بمشاركتنا فى ألعاب مناسبة .

وبعد الانتهاء من تلك الألعاب كنت أعود للكوخ حيث كانت والدتى تقوم بتجهيز طعام العشاء . ومثل ما كان والدى يقص علىّ قصصا عن معارك تاريخية لمحاربى الاكسهوسا كانت والدتى تسحرنا بأساطير الاكسهوسا التراثية وكانت تلك الأساطير تثير مخيلة طفولتى وغالبا ما احتوت على عبرة أخلاقية .

وكأطفال الإكسهوسا كنت أحصل على المعرفة عن طريق الملاحظة والمحاكاة وليس بتوجيه الأسئلة وكان الكبار يلقوننا المعلومات التى يرونها ضرورية .

وكانت حياتى وحياة معظم الإكسهوسا فى ذلك الوقت تشكلها الأعراف والطقوس والمحرمات . فالرجال كانوا يتبعون الطريق الذى حدده لهم آباؤهم أما النساء فقد عشن حياة أمهاتهن من قبل .

ولم أقابل سوى قليل من البيض فى قونو . فقد كان القاضى أبيض وكذلك بالطبع كان صاحب المتجر القريب . وكان يحدث أحيانا أن يمر مسافرون بيض أو أفراد شرطة عبر منطقتنا . وكان البيض يبدون لى فى عظمة الآلهة وكنت أعلم أنه يجب ابداء الخوف والاحترام إزائهم .

وكانت المنافسة القبلية الوحيدة فى عالمنا الصغير فى

قونو هى بين الإكسهوسا والأمفنجو الذين كان يعيش عدد صغير منهم فى قريتنا . وكان الأمفنجو قد وصلوا من الرأس الشرقى فى تلك الفترة مابين ١٨٢٠ ـ ١٨٤٠ التى حاول خلالها محاربو الزولو غزو كل القبائل وتوحيدها تحت حكم عسكرى . وأجبر الأمفنجو كلاجئين أن يقوموا بأعمال كان لا يقوم بها أفارقة كالعمل فى مزارع البيض ومتاجرهم . وكانوا قوما محبين للعمل ، ولصلتهم بالأوروبيين فقد أصبحوا أكثر تعليما وغربية من الأفارقة الآخرين .

وحينما كنت صبيا كانت منطقة الأمفنجو أكثر الأقسام تقدما فى مجتمعنا وكانت تمدنا برجال الدين والشرطة والكتبة والمترجمين وكانوا من أوائل الذين اعتنقوا المسيحية وبنوا بيوتا أفضل واستخدموا طرقا علمية فى الزراعة وكانوا أكثر ثراء من مواطنيهم من الإكسهوسا وكانوا برهانا على مقولة الإرساليات وهى أن تصبح مسيحيا فإنك تصبح متحضرا ولكى تكون متحضرا فعليك أن تكون مسيحيا . وكان هناك بين الإكسهوسا شعور بالعداوة ضد الأمفنجو أعتقد أن سببه الغيرة .

ولم يسهم والدى فى العداء ضد الأمفنجو بل صادق أخوين منهما هما ·جورج وبن مكبيللا وكانا استثناء فى قونو حيث كانا متعلمين وكان جورج مدرسا متقاعدا أما بن فقد كان شرطيا ورغم محاولات الأخوين مكبيللا فقد ظل والدى متباعدا عن المسيحية واحتفظ بعقيدة آبائه من الإكسهوسا . أما والدتي فقدت وقعت تحت تأثيرهما واعتنقت المسيحية وأصبح اسمها الذى منحته إياها الكنيسة هو فانى . وأيضا يرجع

تعميدى فى الكنيسة الميثورية إلى الأخوين ، ومن ثم أرسلت إلى المدرسة رغم أن أحدا من عائلتى لم يتلق تعليما من ذلك النوع .

كان مبنى المدرسة يتكون من غرفة واحدة ذات سقف أوروبى تقع على الجانب الآخر من التل من قريتي قونو . وكنت حينذاك فى السابعة . وفى ذلك اليوم انتحى بى والدى وأخبرنى بأن علىّ أن أرتدى الثياب المناسبة وأخذ أحد سراويله وقصه عند الركبتين وطلب منى أن أرتديه وفعلت . كان الطول مناسبا لكن الوسط كان متسعا جدا وأخذ والدى قطعة دوبارة وحزمنى بها عند الوسط وشعرت بالفخر وأنا ارتدى ثيابى تلك .

وفى أول يوم لى فى المدرسة أعطت المدرسة كل واحد منا اسما انجليزيا قائلة إنه من ذلك الحين فصاعدا فإن ذلك هو الإسم الذى سنتادى به . وعموما فالأفارقة من جيلى وحتى فى يومنا هذا يحملون إسما إنجليزيا وآخر افريقيا فلم يكن البيض يريدون أو يستطيعون نطق الاسماء الافريقية وكانوا يعتبرونه تخلفا أن تحمل اسما وطنيا وقالت لى المدرسة فى ذلك اليوم أن اسمي الجديد هو نيلسون .

- ٣ -

وفى احدى الليالى وحينما كنت فى التاسعة انتبهت لحركة فى المنزل فقد كان والدى قد جاء إلينا فى غير موعد وصوله المعتاد . ووجدته فى كوخ والدتى راقدا على ظهره على الأرض وقد انتابته نوبة من السعال المتصل . وكان من

الواضح أن والدى لم يمكث طويلا فى هذا العالم فقد كان مريضا بالرئة لكنه لم يحدث أن زار طبيبا . ومكث فى الكوخ دون حركة أو كلام لعدة أيام . وفى إحدى الليالى ساءت حالته وكانت أمى وزوجته الصغرى نودابيمانى التى حضرت لتمكث معنا ترعيانه . وفى ساعة متأخرة من الليل نادى على زوجته الصغرى وطلب منها أن تحضر تبغه وتشاورت الزوجتان وقررتا أنه من غير الحكمة أن يتعاطى التبغ فى مثل حالته ولكن أمام اصراره ملأت نودابيمانى غليونه وأشعلته وناولته إياه . فدخن والدى وهدأ واستمر يدخن لمدة ساعة تقريبا ثم مات وغليونه مازال مشتعلا .

لا أتذكر أن حزنى كان بمقدار شعورى بالضياع . فرغم أن والدتى كانت مركز وجودى فإن معرفتى بذاتى كانت بنسبى إلى أبى . وقد غيرت وفاته حياتى كلها بطريقة لم أشك فيها فى ذلك الوقت . فبعد فترة الحداد أخبرتنى والدتى بأننى سأترك قونو ولم أسألها لماذا أو إلى أين أنا ذاهب .

قمت بحزم ممتلكاتى القليلة وفى يوم مافى الصباح الباكر اتجهنا إلى الغرب فى الطريق إلى سكنى الجديد . لم أشعر بالحزن لفقدان والدى مثل شعورى بالحزن على ذلك العالم الذى تركته . وقبل أن نختفى وراء التلال استدرت ونظرت إلى قريتى . ولم أستطع أن أتخيل أن المستقبل الذى كنت متجها إليه يمكن أن يقارن بذلك الماضى الذى تركته .

سافرنا على الأقدام فى صمت حتى بدأت الشمس تغيب . كانت رحلة مرهقة عبر طرق صخرية غير مرصوفة أعلى وأسفل تلال وعبر قرى عديدة ، لكننا لم نتوقف . وقرب المساء وفى

قاع واد ضحل تحوطه الأشجار حططنا فى قرية كبيرة يتوسطها مسكن متسع حسن المنظر يفوق أى شىء قد رأيته من قبل . كان المسكن يتكون من منزلين مستطيلين وسبعة أكواخ كبيرة كلها مطلية بالجير الأبيض وبدت مبهرة حتى فى ضوء الغروب . كانت هناك حديقة أمامية كبيرة وحقل ذرة تحده أشجار الخوخ . وكانت هناك حديقة أشد اتساعا فى الخلف بها أشجار تفاح وخضروات ومساحة من الزهور والسنط . وبالقرب كانت هناك كنيسة .

وفى ظل أشجار السنط التى كانت تزين المدخل الأمامى للمنزل الرئيسى جلست مجموعة من حوالى عشرين رئيسا قبليا . وكانت فى الضيعة قطعان من الماشية ترعى فى الأرض الغنية . كان منظر الثراء يفوق خيالى ، وكان ذلك هو المكان العظيم - مفهيكيزوينى ، عاصمة ثمبولاند الإقليمية ومقر الرئيس جونجيتابا القائم بأعمال حاكم شعب ثمبو .

ودخلت سيارة مهولة من البوابة الغربية وقف على أثرها الرجال الجالسون فى الظل رافعين قبعاتهم وهم يهللون بالتحية التقليدية لشعب الإكسهوسا لرئيسهم "مرحبا جوجينتابا" ونزل من العربة رجل قصير متين يرتدى حلة أنيقة ، وكان ذا حضور قوى تتطلع إليه كل الأعين . ثم صافح كل الرجال الذين كانوا تحت الشجرة والذين اكتشفت فيما بعد أنهم يكونون أعلى سلطة قانونية فى ثمبولاند .

كان ذلك هو الحاكم الذى سيصبح ولىَّ نعمتى للعقد لقادم . فحتى تلك اللحظة لم يكن لدى طموح أكثر من الطعام الجيد وبطولة المبارزة بالعصى . لم تكن لى أفكار عن النقود

أو الطبقات أو الشهرة والقوة . وفجأة فتح عالم جديد أمامي وشعرت بأن كثيرا من معتقداتى وانتماءاتى الراسخة تتلاشى . وبدأت الأسس التى أرساها والدى فى الاهتزاز وفى لحظة أدركت أن الحياة ممكن أن تنطوى بالنسبة لى على أشياء أكثر من أكون بطل مبارزة العصى .

وفيما بعد علمت أنه عقب وفاة أبى عرض جوجينتابا أن يكون وصيا علىّ وأن يعاملنى معاملة أبنائه وأن أحصل على نفس مزاياهم . ولم يكن أمام والدتى خيار وكان رضاها مبعثه أنه رغم أنها ستفتقدنى فإن نشأتى فى رعاية الحاكم ستكون أفضل ولم يكن الحاكم قد نسى أن تدخل والدى لجعله وصيا هو الذى جعل منه رئيسا ذا سلطة عليا .

وبسرعة انغمست فى الحياة اليومية لمفهيكزوينى . فقد كانت بالنسبة لى مملكة سحر وكان كل شىء بهيجا وأصبحت الواجبات التى وجدتها مملة فى قونو مغامرة فى مفهيكزوينى فبعد فراغى من المدرسة كنت أعمل فى الحرث أو الرعى وكنت أركب الخيل وأقتفى الطيور بالمقلاع وأبحث عن صبية أقارعهم وكنت أحيانا أرقص الليل بأكمله على نغمات وتصفيق فتيات التمبو .

وانتظمت فى المدرسة ذات الحجرة الواحدة المجاورة للقصر وكنت أدرس الإنجليزية والإكسهوسا والتاريخ والجغرافيا . وقد لقيت اهتماما من مدرسى وتفوقت نتيجة لانكبابى على الدراسة . وقد دعمت عمتى فانيوى التى كانت تعيش فى القصر النظام الذى فرضته على نفسى وكانت تراجع واجباتى المنزلية فى المساء .

وكما كان الحاكم محور الحياة فى مفهيكزوينى فقد كان والداه محور حياتى . كان چاستيس إبنه الكبير الأوحد ووريثه وكانت نومافو إبنته . وقد عشت معهما وعوملت مثلهما . وفيما بعد انضم إلينا أخو ساباتا الأكبر ووريث العرش وكونا أربعتنا المجموعة الملكية .

كان چاستيس يكبرنى بأربع سنوات وأصبح بطلى الأول بعد والدى . وكان وقتها تلميذا فى مدرسة كلاركبرى الداخلية التى تبعد عن القرية ستين ميلا . وكان طويلا مليحا ذا عضلات ورياضيا ممتازا وكان بشوشا جريئا يسحر من حوله بغنائه ورقصه الغربى . وقد أصبحت وچاستيس صديقين حميمين رغم تعارض صفاتنا . ورغم أننا كنا نعامل كندين فقد كان لكل منا مستقبله فقد كان چاستيس وريث أحد الرئاسات القوية فى قبيلة الثمبو بينما كنت سأرث ما يرى الحاكم أن يفيض به علىّ .

كنت أتواجد يوميا فى قصر الحاكم للقيام بأعباء معينة وكان أحب الواجبات إلىّ هى كَىْ حلل الحاكم فقد كنت أقضى الساعات الطويلة لأثنى له السراويل بإحكام .

وكان الذى سير حياتى فى مفهيكزوينى هما رئاسة القبيلة والكنيسة . وقد تواجدت مبادئهما فى حياتى فى تناسق غير مستقر رغم أننى حينذاك لم أجد تنافرا بينهما . فلم تكن المسيحية تمثل لى نظاما عقائديا بقدر كونها الدين الذى يدين به شخص معين وهو المقدس ماتيولو الذى كان حضوره القوى يمثل لى ماهو جذاب فى المسيحية وقد ترك أثرا روحانيا علىّ لكن اهتمامات الكنيسة فقدت الآخرة إلى عالمنا

الدنيوى وكنت أرى بنفسى أن مامن شىء يحققه الأفراد الأفارقة إلا ويأتى عن طريق الكنيسة وعمل الإرساليات بها. فقد كانت المدارس الإرسالية تدرب الكتبة والمترجمين ورجال الشرطة . وكان هؤلاء يمثلون أعلى طموحاتى .

وكان الحاكم يأخذ دينه مأخذ الجد . وفى الواقع فإن المرة الوحيدة التى جلدت فيها كانت حينما تغيبت عن قدّاس الأحد لأشارك فى مبارزة ضد بعض الصبية من قرية أخرى.

لقد تأثرت أفكارى عن الزعامة بعمق ملاحظتى للحاكم وبلاطه . فقد كنت أرقب وأتعلم من الاجتماعات القبلية التى كانت تعقد بانتظام فى المكان العظيم . وكانت تعقد كلما دعت الحاجة لمناقشة الأمور المحلية كالجفاف أو السياسات التى يأمر بها القاضى الأبيض أو القوانين الجديدة التى تسنها الحكومة وكان لكل شعب الثمبو حرية الحضور وكان يأتى عدد كبير على ظهور الخيل وسيرا على الأقدام .

وفى تلك المناسبات كان يحيط بالحاكم مجلس مستشاريه الذى كان يقوم بدور البرلمان والسلطة القانونية . وكانوا رجالا حكماء على معرفة بالتاريخ القبلى وكان لآرائهم ثقل كبير.

وكان الضيوف يجتمعون فى فناء دار الحاكم الذى كان يفتتح الاجتماع بشكرهم لحضورهم ويوضح سبب استدعائهم ثم لا يتفوه بكلمة أخرى حتى قرب نهاية الجلسة وكانت تلك ديمقراطية فى أصفى معانيها فقد كان يتكلم كل من يريد ذلك وكان يُنصتُ إلى المتكلم سواء كان رئيسا أم فلاحا أم أجيرا وكان الناس يتكلمون دون مقاطعة فقد كان أساس الحكم

الذاتى حرية الجميع فى التعبير عن آرائهم وتساويهم كمواطنين .

كانت الدهشة تتملكنى فى البداية لعنف وصراحة الأفراد فى نقدهم للحاكم وكان هو الهدف الأول للنقد ومهما كانت التهمة فإن الحاكم كان يستمع ولا يدافع عن نفسه .

وكانت الجلسات تستمر حتى يصل الحضور إلى نوع من الإجماع . وكان الإجماع أحيانا يكون على عدم الاتفاق لكى ينتظروا إلى وقت آخر ليقترحوا حلا . وكانت ديموقراطيتهم تعنى أن يسمع كل فرد وأن يؤخذ القرار بواسطة الجميع وليس بالأغلبية .

وعند غروب الشمس كان الحاكم يتكلم ويلخص ماقيل ويشكل إجماعا من الآراء المختلفة .

وكقائد الآن فإنى أحاول دائما أن أتبع المبادىء التى رأيتها مبكرا تتمثل فى الحاكم فى "المكان العظيم" فإنى أحاول أن أستمع لما يقوله كل شخص فى أى نقاش قبل أن أغامر برأيى وغالبا ما يمثل رأيى إجماعا لما سمعته فى النقاش .

وهناك أيضا بدأ اهتمامى بالتاريخ الإفريقى . فإلى ذلك الحين كنت قد سمعت فقط عن أبطال الإكسهوسا لكن فى "المكان العظيم" تعلمت أن هناك أبطالا آخرين أفارقة وعرفت عنهم من رؤساء العشائر وقادتها الذين كانوا يأتون "للمكان العظيم" ليحسموا المنازعات أو يحكموا فى القضايا . وكانوا ينتهون مبكرا فى بعض الأيام ويجلسون يقصون الحكاوى

وكانت قصصهم عن كفاح الأبطال والمحاربين الأفارقة ضد الغزاة والمستعمرين البيض تلهب خيالى وكان أحد هؤلاء الرؤساء يشجب الرجل الأبيض الذى شتت قبيلة الإكسهوسا عن قصد وأفهم شعب الثمبو أن رئيسهم الحقيقى هو الملكة البيضاء التى تجلس وراء المحيط وأنهم رعاياها ولكن الملكة البيضاء لم تأت إلا بالتعاسة والغدر للرجل الأسود . وقد جعلتنى قصص ذلك الرئيس وإدانته للبريطانيين أشعر بالغضب وبأننى قد خدعت . وكان يقول أيضا إن الأفارقة كانوا يعيشون فى سلام نسبى حتى مقدم البيض عبر البحار ومعهم أسلحة تنبعث منها اللهب وفى إحدى المرات قال أن الثمبو والمبود والإكسهوسا والزولو كلهم نسل أب واحد لكن الرجل الأبيض فرق ألفة القبائل المختلفة وأنه جاء شرها إلى الأرض وقاسم الرجل الأسود أرضه كما قاسمه الهواء والماء فإن الأرض ليست ملكا لأحد لكن الرجل الأبيض اغتصب الأرض كلها .

لم أكن أعرف أن التاريخ الحقيقى لا يتواجد فى الكتب البريطانية التى تدعى أن جنوب إفريقيا بدأت حينما رَسَى چان ڤان ريبيك فى رأس الرجاء الصالح عام ١٦٥٢ . فقد بدأت أكتشف أن تاريخ الشعوب التى تتحدث بلغة البانتو بدأ من بقعة بعيدة فى الشمال وأنه ببطء وعبر آلاف السنين وجدنا طريقنا إلى حافة تلك القارة العظيمة . وعلى أية حال فقد اكتشفت بعد ذلك أن وصف ذلك الرئيس للتاريخ الإفريقى وخاصة لفترة مابعد عام ١٦٥٢ لم يكن دائما وصفا دقيقا .

- ٤ -

عندما بلغت السادسة عشر قرر الحاكم أن الوقت قد حان لأصبح رجلا وفى عرف الإكسهوسا لا يتحقق ذلك إلا عن طريق الختان . وطبقا للتقاليد فإن الرجل الذى لا تجرى له العملية لا يرث ثروة أبيه ولا يستطيع أن يتزوج أو أن يقوم على طقوس القبيلة ولا ينظر إليه كرجل بل يظل صبيا . وتصحب عملية الختان طقوس معقدة لتعد الفرد لمرحلة الرجولة .

وكانت المراسم التقليدية للختان قد أعدت أساسا من أجل چاستيس أما الباقون وكان عددهم ستة وعشرين فكانوا هناك لمشاركته . وفى بداية السنة الجديدة توجهنا إلى كوخين من الأعشاب فى واد منعزل على ضفاف نهر مباشى وهى البقعة التقليدية لاجراء العملية لأبناء ملوك الثمبو . وكان علينا أن نعيش فى عزلة عن المجتمع . وكان من بين رفاقنا فتى هو أكثرنا ثراء وكان ذا شخصية آسرة وكان رغم أميته يحكى قصصا عن رحلاته إلى جوهانسبرج وهو مكان لم يكن أحدنا قد رآه وكانت قصصه عن المناجم مثيرة لدرجة أنه كاد يقنعنى بأن أصبح عامل مناجم قائلا إن ذلك يتطلب أن تكون قويا وشجاعا وتلك هى صفات الرجولة المثلى وبعد ذلك تحققت أن قصصا كتلك قد جعلت شبابا كثيرا يهرب ليعمل بمناجم جوهانسبرج حيث كانوا يفقدون صحتهم وحياتهم .

وفى فجر اليوم المحدد بدأنا استعدادنا فاقتدنا إلى النهر لنستحم فى مائه وعند الظهر أمرنا بالاصطفاف على قطعة

أرض قرب النهر حيث اجتمع لفيف من الآباء والأقرباء ومعهم حفنة من رؤساء القبائل . وكانت عملية الختان اختبارا فى الشجاعة وقوة التحمل ولم يكن يستخدم فيها مخدر وكان الذى يجرى العملية رجل عجوز خبير يستعمل رمحه ليحولنا من صبية إلى رجال بضرْبة واحدة .

وفجأة سمعت الولد الأول يصيح "أنا رجل" التى كنا قد دربنا على أن نقولها لحظة الختان ولما جاء دورى رأيت الرجل راكعا أمامى . نظرت فى عينيه مباشرة . كان شاحبا ورغم برودة الجو فقد كان وجهه يلمع بالعرق . وتحركت يداه بسرعة وبدون كلمة قام بشد الجلد الأمامى وبحركة واحدة هبط رمحه . شعرت كأنما النيران تسرى فى أوردتى وكان الألم عظيما ومرت ثوان عدة قبل أن أتذكر أن أصيح ثم استعدت نفسى وصحت "أنا رجل" وعند نهاية المراسم عدنا إلى أكواخنا حيث مكثنا يومين وفى نهاية عزلتنا حرقت الأكواخ ومحتوياتها وهكذا دمر آخر ما كان يربطنا بطفولتنا .

ثم أقيم احتفال كبير للترحيب بنا كرجال فى مجتمعنا واجتمعت العائلات والأصدقاء والرؤساء المحليين ليلقوا الكلمات ويغنوا الأغانى ويقدموا الهدايا . وقد منحت أنا عجلا وأربعة أغنام أما چاستيس فقد منح قطيعا بأكمله فقد كان ابن ملك أما أنا فقد كان مقدرا لى أن أصبح مستشارا .

وجاء فى كلمة المتحدث الرئيسى وكان رئيس عشيرة قوله "لقد قمنا بختان زهرة شبابنا فى طقوس واعدة بالرجولة لكننى أقول لكم إنه وعد خداع ، وعد لن يتحقق لأننا نحن الإكسهوسا والسود الأفارقة شعب مهزوم . إننا عبيد فى

أرضنا . إن بين هؤلاء الشباب رؤساء لن يحكموا لأنه ليست لدينا القدرة على أن نحكم أنفسنا وجنودا لن يحاربوا وطلبة علم لا يوجد مكان لهم يدرسون به . وإن قدراتهم ستضيع هباء فى محاولتهم أن يرتزقوا ما يكفى لعيشهم بقيامهم بأعباء لا تتطلب ذكاء فى خدمة الرجل الأبيض . إن تلك الهدايا ليست لها قيمة لأننا لا نستطيع أن نهبهم أعظم هدية وهى الحرية والاستقلال" .

وشعرت بالغضب لما قاله الرئيس رافضا ملاحظاته على أنها تعليقات مهينة من شخص جاهل لا يستطيع أن يقدر قيمة التعليم والمزايا التى أتى بها الرجل الأبيض . فقد كنت حينذاك أنظر للرجل الأبيض على أنه صاحب فضل واعتقدت أن الرئيس جد جاحد . ولكن ـ ودون أن أدرى سببا ـ بدأت كلماته تشغلنى .. لقد ألقى بالبذرة التى رغم أنها ظلت نائمة لوقت طويل ، أخذت تنمو فى آخر الأمر . وحينذاك تحققت أن الجاهل لم يكن الرئيس بل أنا .

ـ ٥ ـ

لم يكن مقدرا لى مثل معظم الفريق الذى تم ختانه معى أن التحق بالعمل فى مناجم الذهب . وكثيرا ما قال لى الحاكم إنه لا يناسبنى أن أقضى حياتى أستخرج ذهبا للرجل الأبيض دون أن أتعلم حتى كتابة إسمى . فقد كان مقدرا لى أن أصبح مستشارا لساباتا وكان لابد أن أتلقى التعليم المناسب لذلك . وهكذا عدت إلى مفهيكزوينى بعد الاحتفال لأمكث فترة أعبر بعدها نهر مباشى لأول مرة فى حياتى فى طريقى إلى معهد كلاركبرى الداخلى . وقد قام الحاكم بنفسه بتوصيلى بسيارته

المهيبة . وكان قد أهدانى أول زوج لى من الأحذية كعلامة للرجولة . وكان المعهد يقع فى موقع إحدى الإرساليات فى ترانسكى وقد أسس فى عام ١٨٢٥ وكان فى ذلك الوقت أعلى مؤسسة تعليمية فى ثمبولاند وكان الحاكم نفسه قد تلقى تعليمه به وتبعه چاستيس . كان مدرسة ثانوية ومعهدا لإعداد المعلمين فى الوقت نفسه وكان يقدم بعض الدراسات العملية كالنجارة والتفصيل والحدادة .

لم تكن لى خبرة فى التعامل مع البيض وفى أثناء الرحلة كلمنى الحاكم عن المبجل هاريس مدير المعهد وأعطانى محاضرة عن كيفية التعامل معه قائلا أننى يجب أن أعامله بنفس الإحترام الذى أعامله هو به .

وكانت المدرسة تتكون من حوالى أربعة وعشرين مبنى من طراز مبانى المستعمرات وكانت تحوى مساكن خاصة والقسم الداخلى والمكتبة وقاعات الدراسة .

وفى مكتب المبجل هاريس قدمنى الحاكم حيث وقفت أصافح رجلا أبيضا لأول مرة فى حياتى . وكان السيد هاريس ودودا وكان يعامل الحاكم باحترام كبير . وقد بيَّن له الحاكم أننى أُعَّد لأكون مستشارا للملك وأنه يأمل أن يشملنى باهتمام خاص . وهنا أومأ المدير قائلا إن طلبة المعهد عليهم أن يقوموا بأعمال يدوية بعد ساعات الدراسة وأنه سيجعلنى أعمل فى حديقته الخاصة .

وبعد انتهاء المقابلة ودعنى الحاكم وأعطانى جنيها كمصروف لى وكان أكبر مبلغ أمتلكه .

وبما أن كلاركبرى كانت معهدا للثمبو أنشئت على أرض منحها ملك عظيم للثمبو فقد توقعت كأحد سلالته أن ألقى نفس الإحترام الذى كنت ألقاه فى مفهيكزوينى ولكن أحدا لم يعرف أو يهتم أن يعرف تلك الحقيقة فقد كان كثير من الطلبة من سلالات مرموقة . وكان هذا درسا مهما فقد تبينت سريعا أن علىَّ أن أبدأ شق طريقى معتمدا على قدراتى وليس على إرثى وكان معظم زملائى متفوقين علىَّ رياضيا وعلميا وكان علىَّ أن ألحق بهم .

وسرعان ما تأقلمت مع الحياة فى كلاركبرى وشاركت فى النشاط الرياضى والألعاب لكن أدائى كان أقل من العادى . ولأول مرة تلقيت العلم على أيدى مدرسين مدربين كان العديد منهم يحمل درجات جامعية رغم ندرة ذلك حينذاك . وكان من بينهم مدرسة التاريخ والإنجليزية وكانت أول افريقية تنال درجة الليسانس .

وكان المبجل هاريس يدير كلاركبرى بيد من حديد وحس صارم بالعدالة . وكان الطلبة يبدون نحوه الخوف أكثر من الحب . لكن فى الحديقة رأيت جانبا مختلفا من شخصيته فقد كان خلف قناع شدته فرد رقيق ذو عقلية واسعة وكان يؤمن بحرارة بأهمية تعليم شباب الأفارقة . وكنت نادرا ما أتحدث إليه ولكنه كان قدوة لى فى التفانى من أجل هدف نبيل .

وبعد بداية غير مرموقة تمكنت من فهم الأمور وأسرعت فى الدراسة لأحصل على الشهادة العلمية الأولى فى عامين بدلا من الثلاثة المعتادة . وكنت طالبا دؤوبا . وساعد الوقت الذى قضيته فى كلاركبرى على توسعة أفقى ولكننى لا أستطيع

القول أننى حينما تركت المعهد كنت شخصا متفتحا غير منحاز . فقد كنت قد التقيت بعدد من الطلبة من جميع أنحاء ترانسكى ومن جوهانسبرج وباستولاند وكان بعضهم مصقولا ومنفتحا على العالم بدرجة جعلتنى أشعر بإقليميتى . لكننى لم أحقد عليهم . فحينما تركت كلاركبرى كنت مازلت ثمبو فى أعماقى وكنت فخورا أن أفكر واتصرف من ذلك المنطلق . فقد اعتقدت أن جذورى هى قدرى وأننى سوف أصبح مستشارا لملك الثمبو كما أرادنى الوصى علىَّ .

- ٦ -

وفى عام ١٩٣٧ وعندما كنت فى الثامنة عشرة لحقت بچاستيس فى هيلدتاون ، الكلية الإرسالية فى فورت بوفورت التى كانت فى القرن التاسع عشر إحدى نقط الحدود الأمامية البريطانية فيما كان يسمى بحرب الحدود التى إبانها كانت هجمات المستوطنين البيض تنتزع الأراضى من قبائل الإكسهوسا وعند وصولى إلى هيلدتاون لم تكن هناك من معالم القرن السابق سوى أن بوفورت قد أصبحت مدينة للبيض . وكانت هيلدتاون أكبر مدرسة للإفريقيين جنوب خط الإستواء وتحوى اكثر من عشرة آلاف طالب من الجنسين وكان يدرس بها العلوم المسيحية الإنسانية على النمط الإنجليزى .

وكان الدكتور آرثر ويلنجتون مدير المدرسة رجلا متين البنية متجهم الوجه يفخر بنسبه إلى دوق ويلنجتون . وفى بداية الإجتماعات كان يصعد المسرح ويقول بصوت جهير "إنى من سلالة دوق ويلنجتون العظيم رجل الدولة وقائد

الجيش الارستقراطى الذى هزم نابليون وأنقذ الحضارة لأوروبا ولكم أيها الوطنيون" .

وعندها كنا نصفق بحماس وكل منا ممتن امتنانا عظيما أن يأخذ حفيد لدوق ويلنجتون على عاتقه تعليم أفارقة مثلنا . كان الرجل المتعلم الإنجليزى هو مثلنا وكان كل ما نتطلع إليه هو أن نكون "إنجليزا سودا" كما كنا نلقب بسخرية . كنا نعتقد أن أفضل الأفكار هى الأفكار الإنجليزية وأن أفضل الحكومات هى الحكومة الإنجليزية وأن أفضل الرجال هم الإنجليز .

وكانت هيلدتاون تجتذب طلبة من جميع نواحى البلاد ومن المحميات مثل باسوتولاند وسوازيلاند وبتشوالاند . كما أنه كان هناك طلبة من جميع القبائل . وكان معلم علم الحيوان .. ويتحدث بلهجة السوثو وذا شعبية كبيرة بين الطلبة . كان حديث السن جذابا ويختلط دون حرج بالطلبة كما كان من نجوم فريق كرة القدم . ولكن ما أدهشنا هو أنه كان متزوجا من فتاة من الإكسهوسا . وكنا قد تعلمنا أن الزواج خارج القبيلة محرم ولكن تجربة المدرس ، وكان اسمه فرانك ، وزوجته بدأت تقوض النزعة القبلية المسجونة داخلى وبدأت أحس بذاتى كإفريقى وليست فقط كثمبو أو إكسهوسا .

وكان المشرف على قسمى بالسكن الداخلى هو المبجل موكيتيمى والذى كان عليه أن يفصل أحيانا فى المنازعات . ولكنه كان الإفريقى الوحيد الذى يتحدى د . ولينجتون بأدب ويرفض تدخله المباشر فى شئون عمله . وجعلنى ذلك أقتنع بأن د . ولينجتون لم يكن إلها وأن موكيتيمى أكبر من أن يكون مجرد تابع .

وفى الكلية تمتعت بممارسة الرياضة وبما أننى كنت طويلا ونحيفا فقد تدربت على رياضة جرى المسافات الطويلة بجدية ومتعة . كما تدربت على رياضة أخرى لم تكن تناسب بنيتى فى ذلك الوقت وهى الملاكمة .

وفى السنة الثانية أصبحت من طلبة حفظ النظام وتدرجت حتى وصلت إلى المناوبات الليلية وكان أن وجدت نفسى فى إحدى المناوبات فى مأزق أخلاقى . فلم يكن لدينا مرحاض فى أماكن النوم لكن كان هناك واحد خلف المبنى على بعد حولى مائة قدم . وكان يحدث أثناء الليالى الممطرة أن يتبول الطلبة من الشرفة وسط الشجيرات وكان ذلك مخالفة كبيرة وكانت إحدى مهام المشرف الليلى تسجيل أسماء المخالفين .

وفى إحدى ليالى مناوبتى ـ وكان المطر شديدا فى الخارج ـ ضبطت عددا من الطلبة يرتكبون ذلك العمل . وقرب الفجر رأيت شخصا يخرج وينظر يمينا ويسارا ثم يقف فى الشرفة ليتبول . فذهبت إليه وعندما استدار عرفت أنه أحد المشرفين . كان ذلك مأزقا . ورأيت أنه من غير العدالة أن أتحاشى الإبلاغ عن مشرف وأبلغ عن خمسة عشر طالبا . وعليه فقد قمت بتمزيق القائمة .

وفى السنة الأخيرة فى هيلدتاون وقعت حادثة كانت بالنسبة لى كمرور نيزك عبر سماء الليل . فقرب نهاية العام أخبرنا أن شاعر الإكسهوسا العظيم مفهابى سيزور المدرسة . وكان مداحا أو مؤرخا شفاهيا ينظم الأحداث التاريخية المعاصرة فى قصائد . وأعلن اليوم إجازة للجميع واجتمعنا بما فينا هيئة التدريس من البيض والسود فى قاعة الطعام

حيث كان فى نهايتها مسرح فى آخره باب يفضى إلى منزل د . ويلنجتون ولم يكن يستعمله إنسان غيره . وفجأة فتح الباب وكان من ظهر من خلاله ليس د . ويلنجتون ولكن رجلا أسود يرتدى جلد فهد وقبعة مماثلة ويحمل حربة فى كل من يديه . ثم تبعه د . ويلنجتون . من الصعب وصف ماكان من أثر ذلك علينا فكأننا والكون انقلب رأسا على عقب . وبينما جلس مفهابى على المسرح إلى جانب د . ولنجتون كان من الصعب إحتواء انفعالنا . ونهض مفايي وبدأ كلامه الذى لم أجده مؤثرا فى البداية . وعند نقطة معينة رفع حربته فى الهواء لتأكيد ما يقول فضربت الحربة سلك الستار بالخطأ مما أحدث جلبة حادة وسبب تحريك الستار . وهنا نظر الشاعر إلى حربه وإلى السلك وفى تفكير عميق أخذ يغدو ويروح على المسرح ثم توقف وواجهنا صائحا إن تلك الحادثة ـ الحربة وهى تقرع السلك ـ لتمثل تصارع الحضارة الإفريقية والأوروبية وارتفعت عقيرته قائلا إن الحربة تمثل ماهو مجيد وحقيقى فى التاريخ الإفريقى وأنها ترمز للمحارب والفنان الإفريقى بينما السلك الأبيض يمثل الصنعة الأوروبية ، مهارة باردة وحذق بدون روح وأن ما حدث ليست ملامسة قطعة من العظام لقطعة من المعدن ولا تداخل حضارتين بل اصطدام ماهو أصلى وخير وماهو دخيل وشرير وتنبأ بيوم يجىء تحقق فيه القوى الإفريقية انتصارا على الدخلاء .

وكنت لا أكاد أصدق تلك الجرأة فى الحديث فى حضور د . ولنجتون وآخرين بيض . وفى الوقت نفسه استثار الشاعر حماسنا وبدأ فى تغيير مفاهيمى عن أشخاصا مثل د . ولنجتون الذى كنت قد اعتبرته تلقائيا صاحب فضل علىَّ .

ثم بدأ مفهابى فى إلقاء قصيدته المشهورة التى يُقسِّم فيها نجوم السماء بين شعوب الأرض . ثم فجأة توقف عن الحركة وخفض صوته وقال :

"والآن آتى إليكم ياشعب الإكسهوسا" ثم أخذ ينخفض بجسده حتى ارتكز على ركبتيه وأضاف "إنى أمنحكم نجم الصباح لأنكم قوم ذوو كبرياء وقوة . إنه النجم التى تحسب به السنون . نجم الرجولة" وحينما نطق الكلمات الأخيرة أحنى رأسه على صدره ونهضنا نحن مصفقين مهللين . وشعرت بفخر عميق ليس كإفريقى بل كإكسهوسا ينتمى إلى شعب مختار .

هزنى أداء مفهابى لكنه أيضا أربكنى فقد مضى من موضوع قومى شامل يمس الوحدة الإفريقية إلى آخر ضيق يخاطب به شعب الإكسهوسا وكنت قد بدأت أرى أن لدى الأفارقة من جميع القبائل ما يشتركون فيه لكن هاهو مفهابى العظيم وقد وقف يثنى على الإكسهوسا فوق الجميع . كنت أيضا أرى أن الإفريقى يمكن أن يتصدى للرجل الأبيض ولكننى كنت أرى مصلحتى مع البيض وكان ذلك يتطلب خضوعا فى أحيان كثيرة . وحينما غادرت هيلدتاون فى نهاية العام كنت أفكر فى نفسى كإكسهوسا أولا وكإفريقى ثانيا .

- ٧ -

وفى عام ١٩٦٠ كانت كلية فورت هير الجامعية الواقعة فى إقليم أليس المكان الوحيد للدراسة الجامعية المنتظمة للسود فى جنوب إفريقيا وكانت أيضا المنارة للدارسين الافريقيين

من جميع أنحاء جنوب ووسط وشرق إفريقيا . وقد كان الحاكم يريدنى أن التحق بفورت هير وشعرت بالامتنان حينما قبلت هناك وكنت حينها فى الحادية والعشرين من عمرى .

وكانت فورت هير قد أسستها الإرسالية الإسكتلندية فى مكان ما قد كان أكبر القلاع فى الجزء الشرقى من الكيب وكانت الجامعة تضم مائة وخمسين طالبا فقط وكانت هناك مجموعة ممن كانوا فى كلاركبرى وهيلدتاون . ورغم أن تلك المعاهد التى درست فيها تنتقد كثيرا لكونها استعمارية فى اتجاهاتها وممارساتها لكن بالرغم من ذلك فإننى أعتقد أن فائدتها كانت تفوق ضررها . فقد بنى الارساليون تلك المعاهد وأداروها حين كانت الحكومة لا تريد ذلك . وكانت البيئة التعليمية رغم جحودها الأخلاقى أكثر تفتحا من المبادىء العنصرية التى كانت تؤسس عليها المدارس الحكومية . وكانت فورت هير معمل تفريخ بعض أفضل المثقفين الذين عرفتهم إفريقيا . وأذكر أننى كنت مسافرا يوما من فورت هير إلى أومتاتا بالقطار فى المقصورة المخصصة للأفارقة وجاء الكمسارى الأبيض لفحص التذاكر وحينما رأى أننى قد ركبت من أليس سألنى إن كنت من جامعة جاباقو فأومأت بالإيجاب . وكان جاباقو أستاذا افريقيا فى فورت هير تخرج فى جامعة لندن وكان واسع الإطلاع فى تخصصات عدة وخصوصا فى الأنثربولوجى والتاريخ وأنساب الإكسهوسا وكان متحدثا مقنعا ورأس مؤتمر "كل الإفريقيين" عام ١٩٣٦ .

وكان تعليمى فى فورت هير داخل وخارج قاعات الدراسة فقد اشتركت فى النشاطات الرياضية وخاصة كرة القدم

وجرى المسافات الطويلة . وعلمنى الجرى درسا هاما فإنه من الممكن للفرد أن يعوض عن الإستعداد الفطرى بالإجتهاد والتنظيم وقد طبقت هذا فى كل شىء تعلمته . كما أننى التحقت بجمعية المسرح واشتركت فى تمثيل مسرحية . وأيضا تعلمت مع الطلبة فن الرقص الغربى .

وكانت الحياة الإجتماعية والعقلية فى فورت هير تتسم بمستوى من الرفعة غريبا وجديدا علىَّ . وهناك ولأول مرة ارتديت البيچاما واستعملت فرشة الأسنان والمعجون بدلا من استعمال الرماد والخلال كما كنا نفعل فى قريتنا . وكانت المراحيض ذات الصرف الصحى والحمامات ذات الأدشاش الساخنة أشياء جديدة بالنسبة لى .

ورغم أن فورت هير كانت منعزلة عن العالم فقد كنا مهتمين بشدة بتطورات الحرب العالمية الثانية . وكنت أؤيد بريطانيا بحرارة . وكان حماسى شديدا حينما علمت أن المتحدث الأول فى حفل التخرج فى الجامعة عند نهاية سنتى الأولى هو المؤيد الأول لإنجلترا فى جنوب افريقيا وهو رئيس الوزراء السابق جون سماتس السياسى ذو الشهرة العالمية وكان وقتها وهو نائب لرئيس الوزراء يقوم بحملة لكى تعلن جنوب افريقيا الحرب على ألمانيا بينما كان رئيس الوزراء هيرتزوج قد أعلن الحياد . وفى الحفل تكلم سماتس عن أهمية مساندة بريطانيا العظمى ضد الألمان وعن تمثيل بريطانيا للقيم الغربية التى تعتنقها جنوب إفريقيا . وقد صفقت له وزملائى بحرارة لدعوته لخوض معركة لتحرير أوروبا ناسين أننا لم نكن نملك الحرية فى أرضنا .

وكنا فى المساء نتجمع حول المذياع لسماع خطب تشرشل المثيرة . ورغم تأييدنا لموقف سماتس فقد أثارت زيارته كثيرا من المناقشات واتهمه نياتي خونجيسا فى إحدى المناقشات بالعنصرية قائلا إننا ربما نعتبر أنفسنا إنجليزا سودا ولكن الإنجليز اضطهدونا ثم أضاف أنه مهما كان العداء بين البوير والإنجليز فإن المجموعتين بيض وسيتحدان لمواجهة الخطر الأسود . وقد صدمتنا آراء خونجيسا تلك واعتبرناها راديكالية خطيرة وهنا همس زميل لى بأن خونجيسا عضو فى المؤتمر الوطنى الأفريقى وهى منظمة كنت قد سمعت عنها بطريقة مبهمة .

وفى أثناء السنة الثانية فى فورت هير دعوت صديقى بول ماهاباني لقضاء إجازة الشتاء معى فى ترانسكى وكان بول معروفا فى فورت هير لأن أباه كان الرئيس العام للمؤتمر العام للمؤتمر الوطنى الإفريقى مرتين . وكانت صلته بتلك المنظمة قد جعلته يعرف بأنه ثائر .

وذات مرة خلال العطلة ذهبت معه إلى اومتاتا عاصمة ترانسكى وبينما كنا ننتظر خارج مبنى البريد طلب قاضى المدينة الأبيض وكان رجلا فى الستينات من بول أن يشترى له بعض الطوابع . فقد كن عاديا أن يطلب أى فرد أبيض من أى أسود القيام بأى مهمة وحاول القاضى أن يعطى بول النقود ولكنه رفض وشعر القاضى بالاهانة وسأله إن كان يعرف من هو فرد بول قائلا إنه يعرف من هو فسأله القاضى عما يعنى فقال له إنه يعنى أنه وغد . وكان غضب القاضى شديدا وانصرف وهو يتوعده .

شعرت بعدم الارتياح لتصرف بول .. فرغم احترامى لشجاعته فقد وجدتها مربكة ولو كان القاضى قد توجه بطلبه إلىَّ لكنت قد قمت به على الفور . ولكننى أيضا بدأت أفهم أنه ليس على الأسود أن يتقبل كل الإهانات التى توجه إليه .

وعدت بعد الإجازة وكلى شعور بالقوة وركزت على دراستى متخيلا أننى سأحصل على درجة الليسانس خلال سنة واعتقدت أن الدرجة الجامعية هى جواز المرور إلى المراكز القيادية فى المجتمع وإلى النجاح المادى وأننى سيمكننى أن أرد لوالدتى الثروة والمكانة التى فقدتهما بموت والدى .

وفى أثناء السنة تم ترشيحى لانتخاب مجلس الطلبة وكانت الانتخابات تجرى فى الفصل الدراسى الأخير من السنة . وطبقا لدستور فورت هير فإن جميع الطلبة كانوا يقومون بانتخاب الأعضاء الستة . وقبل الإنتخابات بقليل عقد إجتماع لجميع الطلبة لمناقشة المشاكل والحديث عن المظالم وأجمع الطلبة على سوء الوجبات الغذائية وطلبوا زيادة سلطات مجلس الطلبة ووافقت على الاقتراحين وحينما قرر الطلبة مقاطعة الإنتخابات إلا إذا وافقت السلطات على مطالبهم صوت معهم .

وبعد الإجتماع بقليل بدأ التصويت الرسمى للإنتخابات وقاطعها معظم الطلبة عدا خمسة وعشرين طالباً انتخبوا الستة المرشحين الذين قرروا تقديم استقالاتهم .

ولكن المدير د . كير كان حاذقا فقد قبل استقالاتنا وأعلن أن إنتخابات جديدة ستجرى فى اليوم التالى فى قاعة الطعام

وقت العشاء فقد كان ذلك يكفل تواجد جميع الطلبة ولكنه حينما أجريت الانتخابات لم يصوت سوى خمسة وعشرين طالبا منتخبين نفس الأعضاء الستة . وتمسك زملائي الخمسة بحرفية الرأى الذى يقول أنه قد تم إنتخابنا فى حضور جميع الطلبة وعليه فإننا نمثلهم جميعا ولكننى عارضتهم قائلا أنه من الناحية الأخلاقية فإن القول بأننا نمثلهم باطل واستقلت للمرة الثانية .

وفى اليوم التالى استدعيت إلى مكتب المدير الذى كان أيضا المؤسس الفعلى للجامعة وكان يتمتع باحترام كبير . وناقشنى د . كير فى الموضوع وأصررت على موقفى ونصحنى بأن أفكر وأعطيه ردى الأخير فى اليوم التالى . وقال إننى إذا أصررت على استقالتى فسيجد نفسه مجبرا على فصلى من الجامعة .

قضيت الليلة مسهدا فلم يحدث أننى كنت قد اتخذت قرارا مصيريا من قبل . وكنت مترددا بين أن أضحى بحياتى العملية من أجل مبدأ مجرد وبين أن أضحى بالتزامى لزملائى من أجل اهتمامات أنانية .

وحينما سألنى فى اليوم التالى أجبته بأننى لا أستطيع أن أقبل العضوية بضمير مستريح وهنا بدا عليه الاندهاش وبعد تفكير قرر أن يمنحنى فرصة إجازة الصيف للتفكير . وبينما قدرت موقفه ورغبته فى أن يمنحنى فرصة أخرى ساءنى تحكمه المطلق فى قدرى فقد رأيت أن من حقى أن أستقيل وألهبنى الشعور بالظلم وبدأت أرى د . كير ليس كرجل ذا فضل ولكن كشخص مستبد تعوزه الطيبة .

وحينما عدت إلى مفهيكزويني بعد نجاحي أبلغت الحاكم بما حدث الأمر الذى سبب شديد غضبه ورأى موقفى ضربا من الجنون وأمرنى بأن أطيع أوامر العميد وأن أعوذ إلى فورت هير . وكان چاستيس الذى كان يعيش فى كيب تاون بعد أن أنتهى من دارسته قد عاد فى اجازة .

وذات يوم استدعانا الحاكم وقال لنا أنه رأى أن يزوجنا وأنه قد اختار فتاتين من أسرتين طيبتين وأنه قد تم دفع ثمن العروسين . وتركت أنا وچاستيس الإجتماع مشدوهين مكتئبين . وفى ذلك الوقت كان حسى الاجتماعى أكثر نموا من حسى السياسى فبينما لم أكن مستعدا أن أحارب النظام السياسى للرجل الأبيض كنت على استعداد للثورة ضد النظام الإجتماعى لقومى ورفضت أن يختار أحد لى عروسا ولو كان الحاكم نفسه .

ورفض الحاكم تغيير رأيه ووجدت أن لا خيار لى إذ أننى كنت لا أستطيع البقاء فى حمى الحاكم إن رفضت رأيه . ثم اتفقت وچاستيس على الهرب إلى جوهانسبرج . وكان الحاكم يستعد للسفر ليحضر دورة المجلس التشريعى فى ترانسكى وقررنا الهرب بعد سفره . ولم يكن معنا نقود فذهبنا إلى مشتر وعرضنا عليه شراء اثنين من أفضل ثيران الحاكم واعتقد الرجل أننا نفعل ذلك بناء على طلبه فأعطانا ثمنا طيبا استأجرنا ببعضه سيارة لتوصلنا إلى محطة القطار الإقليمية . لكن الحاكم كان قد استبقنا وأخبر المدير بأن يرفض أن يبيعنا

تذاكر وكانت تلك هى الإجابة التى تلقيناها فى المحطة فأسرعنا إلى السيارة وطلبنا من السائق توصلينا للمحطة التالية وتمكنا أن نستقل القطار لكن فقط إلى كوينز تاون . ففى الأربعينات كان السفر معقدا للأفارقة فقد كان عليهم أن يحملوا تصاريح مرور يبرزونها عند الطلب وكان تجاهل التصريح يعنى المحاكمة والسجن أو الغرامة وكان التصريح ينص على محل السكن وإسم رئيس القبيلة بالإضافة إلى جميع التفاصيل عن حامله ويوقعه صاحب العمل .

ورغم أنه كان لدىَّ وچاستيس تصاريح صحيحة إلا أننا كأفارقة كان علينا أن نحصل على وثيقة سفر وخطاب من صاحب العمل أو الوصى علينا لكى نغادر الإقليم وفشلت محاولاتنا مع المسئولين نظرا لتدخل الحاكم المفاجىء . وتذكر چاستيس أن له صديقا يعمل فى مكتب محام وذهبنا إليه وعرضنا عليه الأمر فأخبرنا بأن والدة المحامى ستذهب بالسيارة إلى جوهانسبرج . ودفعنا لها مبلغ ثلاثين جنيها لتوصيلنا وقضى هذا المبلغ على معظم ما معنا من نقود .

الجـزء الثانـى
جـوهـانسـبـرج

- ٩ -

كان الوقت فجرا حينما وصلنا إلى مكتب مناجم التاج التى كانت تقع على هضبة وسط التلال المطلة على المدينة . وكانت جوهانسبرج قد أسست حول المناجم عند إكتشاف الذهب عام ١٨٨٦ .

ذهبنا فورا إلى رئيس العمال واسمه بيليسو وكان قد سمع عن چاستيس حينما ارسل الحاكم خطابا منذ أشهر لكى يحصل چاستيس على وظيفة كاتب وقدمنى چاستيس على أننى أخيه وعينت حارسا فى المنجم . وكانت لكلمة الحاكم وغيره من رؤساء القبائل ثقلها فى المنجم لما يتمتعون به من سلطة على الرجال فى الريف والذين يحتاج إليهم المختصون كعمال وكانت سلطة المناجم تريد من الرؤساء ترغيب الأشخاص المحليين فى العمل بالمناجم ولذا فكان الرؤساء يعاملون معاملة خاصة وتخصص لهم منازل فى أرض المناجم حين حضورهم للزيارة . وهكذا عوملت وچاستيس معاملة خاصة ومنحنا وجبات غذائية وأماكن للنوم وراتبا صغيرا . وكانت السلطات تفصل العمال تبعا للقبائل التى ينتمون إليها ضمانا لعدم تضامنهم وكان ذلك الفصل كثيرا ما يتسبب فى نزاعات بين الجماعات القبلية المختلفة .

وبدأت عملى فورا كحارس ليلي ـ وكان عملى بسيطا فقد كنت أنتظر عند مدخل المجمع إلى جانب اللافتة التي تقول "حذرا ـ هنا معبر الأفارقة" وأقوم بفحص مستندات الأفراد الذين يعبرون .

تحت تأثير النجاح تباهيت وچاستيس يوما أمام صديق من إقليمنا كان يعمل بالمناجم بتحايلنا على السلطات . ووشى بنا الصديق عند رئيس العمال الذى استدعانا وقال إنه أبرق إلى الحاكم وأن الحاكم أمر بإرسالنا فورا إلى بلدتنا وكان رئيس العمال غاضبا واتهمنا بالغش والتزوير .

وبعد ذلك قمنا بالاتصال ومقابلة بعض من لهم سلطات وأخبرناهم بمعلومات ملفقة ولكن كان أمرنا يُكتشف فى آخر لحظة ولم تفلح محاولاتنا للعمل بالمناجم .

وانتهى بى المقام إلى الإقامة مع أحد أبناء عمومتى ويدعى جارليك وكان يعمل بائعا جائلا وأخبرته برغبتى فى العمل بمكتب محاماه فقال إنه سيبحث الأمر وبعد أسابيع أخبرنى أنه سيصطحبنى لمقابلة أحد أفضل الناس فى جوهانسبرج .

وكانت جوهانسبرج فى تلك الأيام خليطا من المدن الحدودية والمدينة الحديثة . فقد كان الجزارون يقومون بتقطيع اللحوم فى الطريق بجانب المبانى المكتبية . وكانت الخيام تقام إلى جانب المحلات الحديثة والنساء ينشرن غسيلهن الى جانب المبانى الشامخة . وكان هناك نظرا لظروف الحرب العالمية طلب شديد على العمالة ولذا اجتذبت

جوهانسبرج الأفارقة من الأقاليم الأخرى وكانوا يجدون عملا فى المصانع وسكنا فى المناطق غير الأوروبية مثل الكسندرا وصوفياتاون ومنطقة الوطنيين القريبة وكانت عبارة عن مجمع كالسجون يحوى عدة آلاف من المنازل من طراز صندوق الثقاب مقامة على أرض جرداء .

وذهبت أنا وجارليك وجلسنا فى غرفة انتظار الرجل الذى كان وكيل عقارات بينما أخبرته موظفة الإستقبال الإفريقية بوجودنا وبعدها أخذت تكتب على الآلة الكاتبة برشاقة وملأنى الاعجاب لأننى لم أكن قد رأيت إفريقيا يستعمل الآلة الكاتبة .

وعند دخولى مكتب رئيسها رأيته شابا إفريقيا تنم ملامحه عن الذكاء والطيبة ويتحدث الإنجليزية بلكنة المدينة ويبدو عليه الانشغال والنجاح وكان إسمه وولتر سيسولو . كان يدير مكتبا عقاريا متخصصا فى ممتلكات الأفارقة . ففى الأربعينيات كان من الممكن للأفارقة حيازة ممتلكات محدودة فى أماكن معينة مثل صوفيا تاون والكسندرا وكانت ترجع حيازة بعضهم إلى أجيال عديدة . أما فى باقى المناطق الإفريقية من جوهانسبرج فكانوا يستأجرون المنازل من مجلس المدينة .

كان سيسولا قد بدأ يبرز كرجل أعمال وقائد محلى وعندما أخبرته برغبتى فى العمل بالقانون وعن عزمى على التسجيل فى الجامعة للحصول على درجة فى القانون أخبرنى عن محام أبيض يدعى لازار سيدلسكى وقال إنه شخص تقدمى يهتم بتعليم الأفارقة وأنه سيبحث حالتى معه . كنت أعتقد فى فورت هير أن القيادة والنجاح فى العمل والطلاقة فى

الانجليزية تتطلب مؤهلا جامعيا ، ولكننى إكتشفت أن وولتر سيسولا لا يحمل أى مؤهلات وكان ذلك درسا لى .

كنت وقتها أقيم مع عائلة من الإكسهوسا فى غرفة ذات سقف من الصاج بناها صاحب المنزل خلف سكنه ليدر دخلا اضافيا فى منطقة الكسندرا .

ووافق لازار سيدلسكى على أن أعمل بمكتبه إلى أن أكمل درجتى الجامعية . وكان مكتبه أحد أكبر مكاتب المحاماة فى جوهانسبرج ويتعامل مع السود والبيض . ولكى يصبح الفرد محاميا فى جنوب إفريقيا فإن عليه إلى جانب الدراسة أن يتدرب عدة سنوات مع محام ممارس . وبدأت دراسة ليلية فى جامعة جنوب افريقيا التى كانت تمنح درجات علمية بالمراسلة .

وكان ضمن ممارسات المكتب مساعدة الأفارقة الراغبين فى الحصول على قرض لسداد قيمة صكوك الرهونات ورغم أن المكتب كان يتقاضى الجزء الأكبر من القرض فلم يكن لدى الأفارقة بديل . ورغم ذلك فقد كان المكتب وكان صاحبه يهوديا من أكثر المكاتب ليبرالية وكان يقبل أن يعمل فيه أفارقة . وكان صاحبه عطوفا وكان يقول لى دائما أننى لو أصبحت محاميا ناجحا فسوف أصبح نموذجا لمواطنيى .

ورغم ذلك كانت هناك تفرقة عنصرية فى المكتب مثل إصرار السكرتيرة البيضاء وبطريقة معسولة أن نشرب أنا وزميلى الإفريقى جور الشاى من فناجين خاصة بنا . وكان جور يتحداها ولا يفعل ، أما أنا فقد امتعنت عن شرب الشاى

فى المكتب . وأيضا ، وبينما كنت أملى بعض المعلومات على سكرتيرة بيضاء دخل عميل تعرفه ولكى تبرهن على أن شخصا إفريقيا لم يكن يمليها معلومات أخرجت عملة من حقيبتها وطلبت منى الذهاب لشراء شامبو لها . وفعلت .

كان عملى فى البداية بسيطا لكن السيد سيدلسكى كان لا يألو جهدا فى شرح تفاصيل أى حالة وأسبابها وتفاصيل القانون وخلفيته الفلسفية . وكان يؤمن بأن القانون آلة يمكن استغلالها لتغيير المجتمع ورغم ذلك فقد حذرنى من ممارسة السياسة ومن مخالطة المشاغبين الغوغائيين من أمثال جور راديبى وولتر سيسولو .

وكان جور مشاغبا بشكل لم يشك فيه سيدلسكى فقد كان عضوا فى المجلس الإستشارى للمنطقة الوطنية الغربية وكانت مهمته معالجة مشاكل الوطنيين مع السلطات وكان أيضا عضوا فى المؤتمر الإفريقى والحزب الشيوعى .

وكان جور مثالا للرجل غير الحاصل على شهادة عليا والذى كان أكثر علما وثقافة بمراحل من كثير ممن تخرجوا فى فورت هير وكان أيضا جريئا واثقاً .

لم أكن الكاتب الوحيد بالمكتب فقد التحق بالعمل بعدى بقليل نات بوجمان وكان مفكرا نابها لطيفا ولم يكن لديه تمييز للون البشرة وأصبح أول صديق أبيض لى .

وفى أحد الأيام كنا فى المكتب وقت الغداء وأخرج نات لفافة من السندوتشات وأمسك أحدها وطلب منى أن أمسك بالطرف الآخر للسندوتش ففعلت وطلب منى أن أقوم بجذب

الطرف الذى أمسكه فانشطر الساندوتش قسمين وطلب منى أن آكل ثم قال إن ما فعلناه يمثل فلسفة الحزب الشيوعى وهو اقتسام كل ما نملك وأخبرنى أنه عضو فى الحزب وشرح لى أوليات مبادئه وشرح لى فى مناسبات أخرى عدة فضائل الشيوعية محاولا إقناعى ولكننى بالإلتحاق بالحزب وكنت أوجه الأسئلة ولكننى لم أكن أرغب فى الإلتحاق بأى منظمة سياسية عملا بنصيحة سيدلسكى .

وكنت أذهب مع نات إلى أماكن عديدة من ضمنها حضور محاضرات فى مقر الحزب وكنت أفعل ذلك من باب الاستطلاع العقلى فقد كنت بدأت أهتم بتاريخ الاضطهاد العنصرى الذى كنت أراه على أنه عرقى فقط بينما يراه الحزب على أنه صراع طبقات ولكننى اعتقدت أن ذلك لا ينطبق على الحال فى جنوب افريقيا ولكننى كنت أستمع فقط .

وقد قام نات بدعوتى لحفلات عدة يؤمها بيض وأفارقة وهنود وملونون كان ينظمها الحزب ووجدت هناك أناسا لا يعبأون بلون الإنسان غير أننى كنت أشعر بأننى غير مؤهل للإشتراك فى أحاديثهم المشتعلة فقد كانت أفكارى لا تضارع أفكارهم الناضجة المصقولة .

- ١٠ -

كانت الحياة فى منطقة الكسندرا مثيرة محفوفة بالمخاطر . ورغم وجود بعض الأبنية الجميلة كان الحى من مناطق الفقراء القذرة ودليلا على إهمال السلطات . كانت الطرق قذرة غير معبدة مليئة بالأطفال الجوعى أشباه العرايا يجوبون المكان .

وكان الجو مفعما بدخان مواقد الفحم وكان هناك صنبور مياه واحد يخدم عديدا من المنازل . كانت المنطقة تعرف بالمدينة المظلمة حيث لم تكن فيها كهرباء . وكان المشى ليلا فى طريق العودة إلى المنزل خطرا حيث كانت تخترق الظلام صيحات وضحكات وأحيانا أصوات طلقات نارية . كان الازدحام شديدا حيث كان يحتل كل قدم مربع فى المنطقة اما مبنى متهالك أو كوخ ذو سقف من الصفيح . وكانت البندقية والمدية تسيطر على حياة الناس هناك . أما هجمات الشرطة فكانت مظهرا منتظما للحياة هناك حيث كان يلقى القبض على جماعات من الناس لخرقهم نظام تصاريح المرور أو حيازتهم كحولا أو لعدم دفعهم ضريبة الرؤوس . ولكن رغم ذلك كانت المنطقة جنة للأفارقة حيث كانت أحد الأماكن القليلة فى البلد التى كان للأفارقة فيها حق تملك العقارات وإدارة شئونهم دون اللجوء لطغيان المجالس البلدية البيضاء وكانت المنطقة لهذا تمثل أرض الميعاد للأفارقة وخاصة القادمين من الريف . وكانت السلطة تدعى أن الأفارقة بطبيعتهم غير مؤهلين لسكنى المدن وذلك لتمد وجودهم فى الأقاليم وفى مناطق المناجم . وكانت الحياة فى الكسندرا تدحض مثل ذلك الإدعاء حيث قطنها أفراد من جميع القبائل وكانوا على وعى سياسى . ويبدو أن الحياة فى المنطقة كانت تعمل على ازالة الفوارق الإثنية القبلية فبدلا من كوننا زولو أو إكسهوسا أو سوثو أو شانجان كنا جميعا ننتمى إلى الكسندرا . أما الحكومة فكانت تتبع فى تعاملها مع الأفارقة سياسة فرق تسد .

وفى عامى الأول هناك خبرت الفقر كما لم أخبره طوال اقامتى فى قونو . فقد كنت اتقاضى جنيهين فى الاسبوع على

أن أدفع منها ثلاثة عشر شلنا أجرة سكنى وكانت حافلة نقل الوطنيين وهى أرخص وسائل المواصلات تكلفنى جنيها وعشر بنسات فى الشهر كما كنت أدفع مصاريف جامعة جنوب إفريقيا وأنفق حوالى جنيه على الطعام علاوة على ثمن الشموع للاستذكار . وكنت فى أيام كثيرة اضطر إلى السير ستة أميال فى الذهاب للعمل والعودة وكانت تمر أيام لا أتناول فيها ما يقيم أودى ولا أغير ملابسى . وكان سيدلسكى قد أعطانى إحدى حلله القديمة التى ظللت ارتديها خمس سنوات حتى أصبح فيها من الرقع أكثر مابها من قماشها الأصلى .

وبالتدريج بدأت التعود على الحياة فى المنطقة وبدأ ينمو داخلى شعور بالقوة الذاتية وعقيدة أننى أستطيع النجاح خارج المحيط الذى نشأت فيه وببطء اكتشفت أن علىَّ ألا أعتمد على صلاتى الملكية أو دعم أسرتى لكى أتقدم فى الحياة .

وفى نهاية عام ١٩٤١ تلقيت رسالة عن زيارة الحاكم لجوهانسبرج وعن رغبته فى أن يرانى . وعند مقابلته وجدته قد طرأ عليه كثير من التغيير . ولم يذكر شيئا لى عن هربى أو فورت هير أو الزواج . وكان دائما لطيفا وساءلنى بأبوة عن دراستى وخططى للمستقبل وعرف أن حياتى ستأخذ مجرى غير الذى كان قد رسمه لها ولم يحاول اثنائى .

وكان لمقابلته أثر مزدوج فقد شعرت بالانتماء مرة أخرى وبتقديرى لأسرة ثمبو الملكية . وكان الحاكم مليئا بالأسى بخصوص چاستيس وكان يرى أنه يجب أن يعود إلى مفهيكزوينى وكان چاستيس لا ينوى العودة وساندت

چاستيس حينما استدعاه المفوض الوطنى بعد أن كلف والده احد معاونيه باتخاذ الاجراءات القانونية ضده ، وهنا قال معاون الحاكم إن الحاكم قد تبنانى وعلمنى وعاملنى كإبنه وأنا الآن أريد ابعاد ابنه عنه . فشعرت بالخجل وقلت لچاستيس أنه يجب أن يعود لكنه رفض .

وفى عام ١٩٤٢ ومن أجل توفير أجرة المواصلات قررت السكنى بالقرب من قلب المدينة فى مجمع عمال المناجم وساعدنى فى ذلك السيد فستايل الذى كان يعمل فى غرفة المناجم حيث كان السكان من إصول إثنية مختلفة ويتكلمون لغات متفرقة وتشتعل بينهم العداوت .

وبعد أقل من ستة أشهر من زيارة الحاكم علمت وچاستيس بوفاة والده فى شتاء عام ١٩٤٢ فأسرع كلانا إلى ترانسكى ووصلنا بعد الجنازة بيوم .

وفى نهاية عام ١٩٤٢ حصلت على درجة الليسانس .. ورغم شعورى بالفخر لهذا الإنجاز فقد كنت أعلم أن الدرجة العلمية ليست جوازا للنجاح .

أما فى المكتب فقد توثقت علاقتى بجور مما ضايق سيدلسكى . وكان جور يقول أن التعليم أساسى لتقدم شعبنا لكن لم يقم شعب أو أمة بتحرير أنفسهم بواسطة التعليم فقط وكان يؤمن بالاتيان بالحلول وليس بإيجاد النظريات كما كان يقول إن آلة التغيير بالنسبة للأفارقة هى المؤتمر الوطنى الإفريقى الذى كان قد أسس عام ١٩١٢ وينكر دستور العنصرية وله رؤساء ينتمون إلى مختلف القبائل كما أن هدفه هو حق المواطنة الكاملة للأفارقة فى البلاد .

ورغم أن جور لم يتلق تعليما منهجيا فقد كان يفوقنا جميعا معرفة . وفى أثناء فترة الغداء كان يلقى علىَّ محاضرات مرتجلة وكان يعيرنى كتبا ويزكى لى أشخاصا اتحدث إليهم واجتماعات احضرها . ومما ترك أثرا عميقا فى نفسى هو التزام جور الكامل بمعركة الحرية وكان يحضر أحيانا عدة اجتماعات فى اليوم الواحد يبرز فيها كمتحدث مرموق . وكنت أحضر مع جور الاجتماعات كمراقب فقد كنت أرغب فى فهم المواضيع التى تناقش . وكانت اجتماعات المؤتمر مليئة بحيوية الحوار والنقاش عن البرلمان وقانون التصاريح والايجارات والمواصلات وأى موضوع يؤثر فى حياة الأفارقة .

وفى أغسطس عام ١٩٤٣ أشتركت مع جور فى مسيرة كبيرة لمؤازرة مقاطعة منطقة الكسندرا لخدمة الحافلات احتجاجا على رفع الأجرة . وكان لتلك الحملة أكبر الأثر علىَّ . وإلى حد ما بدأت أترك دور المراقب . وكانت نتيجة المقاطعة مؤثرة فقد عدلت الشركة عن رفع الأسعار .

وكان سيدلسكى دائم التحذير لى من جور وسيسولو قائلا أنه إن أردت أن أصبح محاميا ناجحا فعلىَّ ألا أقرب السياسة وإلا فسأقع فى مشاكل مع السلطات وأفقد زبائنى وأهدم أسرتى وينتهى الأمر بى فى السجن . وكنت قد بدأت بالفعل أميل للتورط السياسى لكننى التزمت التؤدة غير متأكد مما يجب عمله .

وكان جور أيضا سبب تقدمى الوظيفى فقد قال لى يوما أنه طالما يعمل هو فى المكتب فلن يلتزم أصحاب العمل بعقد معى

رغم حصولى على المؤهل الجامعى لأنه هو يقوم بما يلزم ويجلب العملاء للمكتب ولهذا قرر ترك المكتب قائلا إنه سيفتح مكتبا عقاريا وأضاف أنه من المهم لحركة الكفاح أن أصبح أنا محاميا ولن يتأتى ذلك سوى بتركه العمل . ونفذ ذلك وحدث ما توقع .

وبدأت اتحرك فى جوهانسبرج فى دوائر كانت فيها الحكمة والتجربة أهم من الدرجة الجامعية . ففى الجامعة كان الأساتذة يتحاشون ذكر قضايا مثل الاضطهاد العنصرى ومجموعة القوانين المتشابكة التى تخضع الرجل الأسود . ولكن حياتى فى جوهانسبرج جعلتنى أواجه تلك الأشياء يوميا .

وفى عام ١٩٤٣ سجلت إسمى فى جامعة ويتسواتر سراند للحصول على درجة الليسانس فى القانون وهو نوع من الاعداد الأكاديمى للمحامى تحت التمرين . وتقع الجامعة فى الجزء الشمالى الأوسط من جوهانسبرج وتعرف بويتس ويعتبرها كثيرون على رأس الجامعات المتحدثة بالإنجليزية فى جنوب إفريقيا وكانت تلك الجامعات معملا عظيما لإفراز القيم الليبرالية ومن ضمن فضائلها أنها كانت تقبل الطلبة السود على عكس الجامعات الأفريكانية . ورغم أننى هناك اكتشفت مجموعة من البيض المتعاطفين مع القضية والذين أصبحوا اصدقاء وزملاء فيما بعد فإن أغلبية البيض فى الجامعة كانوا عنصريين . وأذكر أننى وصلت متأخرا إلى إحدى المحاضرات فجلست إلى جانب طالب أصبح فيما بعد عضوا فى البرلمان فجمع اشياءه بطريقة ملفتة للنظر وجلس

بعيدا ولم يكن هذا التصرف غريبا بل كان هو القاعدة ورغم أن أحدا لم يوجه لى لفظ "كافير" وكانت عداوتهم صامتة لكننى كنت أحسها من الطلبة والأساتذة .

وفى الجامعة ألتقيت بأفراد عديدين ممن سيشاركوننى نجاحات وفشل معركة التحرير وقد بذل عدد من الطلبة البيض جهدا لإشعارى بأننى مرغوب فى . والتقيت بجو سلوفو وزوجته المقبلة روث فيرست . وكان چو كما هو الآن ذا عقلية جادة ذكيا . وكان شيوعيا متحمسا وكانت روث شخصية متفتحة وكاتبة موهوبة وكلاهما كان من اليهود المهاجرين . وهناك أيضا بدأت صداقة عمرى بجورج بيزوس وبرام فيشر وكان جورج من أصل يونانى أما برام فكان محاضرا خارجيا وابن أسرة مرموقة من الأفريكان وكان والده رئيس وقاضى ولاية أورانج الحرة ورغم أنه كان باستطاعته أن يصبح رئيس وزراء جنوب افريقيا فقد أصبح أحد أشجع وأشد أصدقاء معركة الحرية اخلاصا . كذلك صادقت تونى أودوود وهارولد وولب وجولس برادرى وزوجته سيلما وكانوا جميعا سياسيين راديكاليين من أعضاء الحزب الشيوعى . وكذلك كونت صداقات مع عدد من الطلبة الهنود مير وجـ . ن . سينج وأحمد بولا ورملال بهوليا . وكان إسماعيل مير مركز تلك المجموعة وشقته الواقعة فى منتصف المدينة مركز التقائنا واصبحت نوعا من مقر القيادة لشبان حركة التحرر .

وحدث ذات مرة أن كنت أنا وسينج ومير فى عجلة من أمرنا فركبنا الترام رغم أن ذلك كان محظورا على الأفارقة وجاء مفتش التذاكر وقال لهما ان على زميلهما "الكافير" أن يغادر

الترام وانفجرا فيه قائلين أنهما لا يفهمان معنى الكلمة وأنه لا يجب أن يدعونى بذلك اللقب فأوقف الرجل الترام واستدعى الشرطى الذى اصطحبنا إلى المخفر ووجهت إلينا التهمة وكان علينا أن نظهر فى المحكمة فى اليوم التالى وهنا استدعى مير وسنج برام فيشر للدفاع عنا وأصاب المحققون الذعر من صلات برام العسكرية وأفرج عنا . وهنا رأيت لأول مرة أن العدالة ليست عمياء .

لقد فتحت عالما جديدا ، أمامى ، عالما من الفكر والعقائد السياسية والحوار . كنت بين مثقفين بيض وهنود من أبناء جيلى ممن كان لهم أن يكونوا طليعة أهم الحركات السياسية فى السنوات القليلة القادمة .

الجـزء الثالـث
طريق المكافح من أجل الحرية

- ١١ -

لا أستطيع تحديد اللحظة التى سُيِّسْتُ فيها والتى عرفت فيها أننى سأمضى حياتى فى الكفاح من أجل الحرية . ولأن تكون افريقيا فى جنوب إفريقيا يعنى أن تُسَيَّسْ منذ الميلاد . فالطفل الإفريقي يولد فى مستشفى للأفارقة فقط ويحمل للمنزل فى حافلة الأفارقة ويعيش فى مناطق الأفارقة ويلتحق بمدارس الأفارقة هذا إذا التحق بمدارس أصلا . وحينما يكبر يقوم بالأعمال التى يقوم بها الأفارقة فقط ويركب قطارات الأفارقة ويؤمر فى أى وقت من الليل والنهار ليبرز تصريحه وإذا لم يفعل يلقى به فى السجن وتحد حياته القوانين واللوائح العنصرية التى تعوق نموه وتضيع إمكاناته وتشل حياته .

لم أتلق رؤيا أو أمر بلحظة الصدق ، ولكنها كانت تراكمات متطردة لآلاف الاهانات .. وآلاف اللحظات هى التى ولدت فىَّ الغضب والتمرد والرغبة فى محاربة النظام .ووجدت نفسى ببساطة أكرس نفسى لحركة تحرير شعبى ولم يكن بمقدورى غير ذلك .

وقد تولى وولتر سيسولا توعيتى وتعليمى بحكمة فقد كان قويا ، متزنا ، عمليا ومتفانيا . وكان يعتقد أن المؤتمر الوطنى

هو الوسيلة لتحقيق التغيير فى جنوب إفريقيا وكان المؤتمر يرحب بالجميع وكانت المنظمة التى ترى نفسها مظلة يلتجىء إليها كل شعب جنوب إفريقيا .

وفى عام ١٩٤١ عقد ميثاق الأطلنطى الذى كان يتبنى عددا من المبادىء الديمقراطية ورغم أن البعض فى الغرب كان يرى فيه وعودا فارغة فلم يكن الحال كذلك فى افريقيا وبإيحاء من ذلك الميثاق وضع المؤتمر الإفريقى ميثاقه الذى نادى فيه بالمواطنة الكاملة لكل الافريقيين وبإلغاء التشريعات العنصرية فقد كان أملنا أن ترى الحكومة والفرد العادى أن المبادىء التى نحارب من أجلها هى نفسها التى حاربت من أجلها أوروبا .

وكان منزل وولتر ملتقى أعضاء المؤتمر . وهناك فى عام ١٩٤٣ التقيت بأنتون ليمبيد الذى كان يحمل عدة شهادات عليا ويفكر بطريقة مبتكرة وكان أحد المحامين الأفارقة الذين يعدون على الأصابع وكان يقول إن افريقيا قارة الرجل الأسود وأن على الأفارقة أن يثبتوا ذاتهم ويستردوا مالهم . وكان يكره عقدة النقص السوداء ويهاجم عبادة وتقديس الغرب وافكاره وكان يقول "إن لون بشرتى جميل كلون تربة إفريقيا الأم" .

وكان والد ليمبيد فلاحا أميا من الزولو من إقليم ناتال . أما هو فقد درس فى كلية آدم ليصبح مدرسا وقام بالتدريس عدة سنوات فى ولاية أورانج الحرة وتعلم اللغة الأفريكانية . وقد كتب فى صحيفة أفريكانية قائلا : "إن التاريخ الحديث هو تاريخ القوميات . وقد تم اختبار القومية فى معارك الشعوب

وتحت نيران المعارك ووجد أنها الترياق الوحيد ضد الحكم الأجنبي والامبريالية الحديثة . وهذا هو السبب في أن القوى الامبريالية الكبيرة تحاول بكل قواها وبطريقة محمومة أن تحبط وتزيل كل الميول القومية بين رعاياها الأجانب . وتصرف المبالغ الباهظة بسخاء على الدعاية ضد القومية ووصفها بالضيق والبربرية وغير الحضارية والشيطانية . وقد وقع البعض في مصيدة تلك الدعايات وأصبحوا أدوات للامبريالية ونظيرا لخدمتهم فإن القوى الامبريالية تغدق عليهم المديح وتصفهم بأنهم مثقفون وليبراليون وتقدميون وذوى أفق متسع" .

وقد لقيت آراء ليمبيد صدى في نفسي . فقد كنت أنا تحت تأثير أبوة الإستعمار الإنجليزى ، وتحت جاذبية أن ينظر إلىّ البيض على أنى مثقف وتقدمي ومتحضر فقد كنت على وشك الانضمام للنخبة السوداء التي حاولت بريطانيا أن تزرعها في إفريقيا وكان ذلك ما أراده الجميع لي ابتداء من الحاكم وحتى سيدلسكي . ومثل ليمبيد بدأت أعتقد أن الترياق هو القومية الإفريقية المناضلة .

كان هناك شباب آخرون يفكرون على الخط نفسه وكنا نلتقي لمناقشة تلك الأفكار . كان هناك وولتر سيسولو وأوليفر تامبو ود . ليونيل ماجو مبوزى ووليام نوكولو وداڤيد بوبابى . وكان الكثيرون من الشباب يشعرون بأن المؤتمر أصبح متحفا لنخبة إفريقية مميزة متعبة وغير مناضلة . وكان الإجماع أنه لابد من القيام بعمل واقترح د . ماجو مبوزى تكوين تنظيم للشباب كطريقة لإيقاد النار تحت قيادة المؤتمر .

وفى عام ١٩٤٣ ذهبت لمقابلة د . إكسوما وكان يمتلك منزلا فخما فى صوفيا تاون بالاضافة إلى عيادة جراحة ومزرعة صغيرة . وكان وقتها رئيسا للمؤتمر وقد أدى إليه خدمة جليلة بايقاظه من حالة النعاس والتقاعس التى كان يعانيها تحت القيادة السابقة وأفاده إفادة مادية عظيمة كما أنه هو شخصيا كان يتمتع باحترام رؤساء القبائل والوزراء . وكان ذا مظهر شامخ واثق مطمئن لا يناسب مظهر قائد منظمة جماهيرية . وكان اهتمامه الأول عمله كطبيب كما انه كان يريد الإبقاء على العلاقات التى كونها مع مؤسسات البيض ولم يكن يريد أن يعرضها للخطر بالعمل السياسى .

وعند لقائنا أخبرناه بأننا ننوى إنشاء تنظيم للشباب وتنظيم حملة عمل نحشد بها مساندة الجماهير . وكنا قد احضرنا معنا نسخة من مسودة دستور التنظيم والإعلام . ولكن د . إكسوما شعر بأن الدستور والتنظيم يهددانه وعارضها بشدة .

وبعد ذلك بقليل شكلت لجنة إقليمية لتنظيم الشباب بقيادة ويليام نكومو ثم حضر أعضاؤها اجتماع المؤتمر السنوى وقدموا اقتراحهم وقبل الاقتراح .

وفى أول اجتماع أكد المتحدثون على إنجازات الإفريقيين وعلى القومية الإفريقية الوليدة وتمت انتخابات الإدارة وانتخبت أنا فى اللجنة التنفيذية .

كانت صيحة الحرب لدينا هى القومية الإفريقية وكانت عقيدتنا هى خلق أمة واحدة من القبائل العديدة واسقاط

سيادة البيض وانشاء حكومة ديمقراطية . وكنا على حذر شديد من الشيوعية وقد مضى اعلاننا على أنه يجوز لنا أن نستعير من الأيديولوچيات الأجنبية ولكننا نرفض استيراد ايديولوچيات أجنبية بالجملة فى افريقيا .

وكنت مرتبكا بشأن انضمامى للمنظمة وبشأن مدى التزامى السياسى فقد كانت لدىّ وظيفة وكنت منتسبا للجامعة ولم يكن عندى متسع من الوقت لشىء آخر . كما أنه كان يساورنى شعور عدم ثقة بوعيي وثقافتى السياسية بالمقارنة بوولتر وليمبيد ومدا كما أننا كنا مازلنا مختلفين حول إفريقية التنظيم وعما إذا كنا سنسمح لعناصر من البيض بالالتحاق وكنت فى ذلك الوقت معارضا لانضمام الشيوعيين والبيض .

وكان منزل سيسولو منزلا لى أيضا وكانت زوجته ذات حكمة وحضور مدهش . وبينما كنت فى غرفة معيشتهم يوما التقيت بإيڤيلين ميس زوجتى الأولى وكانت فتاة هادئة جميلة من الريف وكانت حينئذ تتدرب لتصبح ممرضة فى مستشفى جوهانسبرج العام لغير الأوروبيين . وكانت فتاة يتيمة من ترانسكى أرسلت لتتم تعليمها الثانوى فى جوهانسبرج وكانت تمت بصلة قرابة لوالدة سيسولو .

وحدثت بيننا علاقة حب أعقبها زواج مدنى حيث لم يكن باستطاعتنا تحمل تكاليف زواج تقليدى . وواجهتنا مشكلة السكن . فبعد إقامة قصيرة مع أخيها فى شرق أورلاندو أقمنا مع أختها فى منطقة المناجم حيث كان زوجها يعمل كاتبا .

فى عام ١٩٤٦ وقعت سلسلة أحداث حاسمة شكلت تطور واتجاه الصراع . فقد حدث أن قام ٧٠٫٠٠٠ من عمال المناجم باضراب . وكان إتحاد عمال المناجم الافريقية قد أقيم بناء على مبادرة من جـ . ب . ماركس ، ودان تلوم ، وجور ردايبى وعدد من عناصر المؤتمر النشيطة وكان معظم عمال مناجم السخرة وعددهم حوالى ٤٠٠٫٠٠٠ لا يزيد أجرهم على ٢ شلن فى اليوم وقد حاولت قيادة الاتحاد أن تضغط على غرفة المناجم لتحديد أجر أدنى يقدر بعشرة شلنات فى اليوم ومسكن عائلى وإجازة إسبوعين بأجر ولكن الغرفة تجاهلت هذه المطالب .

وفيما يعتبر من أكبر العمليات فى جنوب إفريقيا فقد أضرب عمال المناجم لمدة إسبوع وأبقوا على تضامنهم . وكان انتقام الدولة لا هوادة فيه فاعتقل القادة وحوصرت المجمعات السكنية ونهبت مكاتب الاتحاد وقمعت الشرطة مسيرة احتجاج وقتل اثنى عشر عاملا .

وكان ماركس وهو عضو قديم فى المؤتمر والحزب الشيوعى رئيسا للإتحاد . وكان من مواليد الترنسفال من أصل مختلط ، ذا شخصية كارازماتية وكنت أنتقل معه أثناء الاضراب بين المناجم مخاطبين العمال ومخططين لاستراتيجية العمل . وقد أعجبنى تنظيم الاتحاد وقدرته على التحكم فى الأعضاء حتى فى مواجهة تلك المعارضة الوحشية . وانتصرت الدولة وقمع الاضراب وسحق الاتحاد .

وكان الاضراب بداية علاقتى الوثيقة بماركس وكنت أزوره فى منزله وقد ناقشنا معارضتى للشيوعية بالتفصيل وكان يشعر بأنه من الطبيعى لشاب مثلى أن يعتنق القومية وأن آرائى ستتسع حينما أكبر واكتسب خبرة أكثر .

وناقشت القضايا نفسها مع موسيس كوتانى ويوسف دادوو وكانا يعتقدان أن الشيوعية يمكن أن تطبق لتناسب الموقف الإفريقى .

وبعد الاضراب اعتقل اثنان وخمسون شخصا من بينهم كوتانى وماركس وعديد من الشيوعيين وقدموا للمحاكمة بتهمة التحريض على الفتنة والعصيان .

وأجبرتنى حادثة أخرى فى العام نفسه على تغيير معالجتى للعمل السياسى ففى عام ١٩٤٦ أصدرت حكومة سماتس قانونا يقيد حرية حركة الهنود والأماكن التى يمكنهم السكنى والتجارة فيها ويحدد بشدة حقوقهم فى التملك ومقابل ذلك منحوا حق التمثيل فى البرلمان بواسطة ممثلين بيض . وانتقد د . دادوو تلك القيود بعنف ووصف عرض التمثيل البرلمانى بأنه عرض زائف لتمثيل خادع واشتد غضب مجتمع الهنود وبدأوا حملة عصيان مدنى مدتها سنتان وقد خلفت فينا الحملة أثرا قويا لحسن تنظيمها وشده الإخلاص لها ولمدة عامين علق الناس فيها حياتهم ليخوضوا المعركة ونظموا المسيرات واحتلوا الأراضى المخصصة للبيض وطوقوها وأرسل ما لا يقل عن الفى شخص للسجن بينما تلقى د . نيكر ودادوو أحكاما بالأشغال الشاقة مدتها ستة أشهر وقد شلت الحكومة حركة العصيان بالقوانين الصارمة ووسائل التخويف

لكنا نحن فى تنظيم الشباب شهدنا المواطنين الهنود يسجلون احتجاجا غير عادى ضد القمع العنصرى بطريقة لم يتبعها الافارقة ولا المؤتمر . فقد علق اسماعيل مير وجـ . ن سينج دراستهما وودعا أسرتيهما وذهبا إلى المعتقل وفعل مثلهما أحمد كاثرادا الذى كان مازال طالبا فى المرحلة الثانوية .

اصبحت الحملة الهندية مثالا لنا فى تنظيم الشباب لنوع الاحتجاج الذى كنا ندعو إليه وغرست فينا روح التحدى والراديكالية وكسرت حاجز الخوف من المعتقل .

وفى بداية عام ١٩٤٦ انتقلت وايفلين إلى منزل من منازل البلدية فى أورلاندو الشرقية وبعد ذلك إلى منزل أكبر قليلا فى أورلاندو الغربية وهى منطقة متربة منازلها مثل الصناديق وأصبحت فيما بعد جزءا من سويتو الكبرى . وكان ايجار المنزل سبعة عشر شلنا وست بنسات فى الشهر وكان مطابقا لمئات آخرين أقيمت على رقع صغيرة من الأرض غير الممهدة وكانت سقفها من الصفيح وأرضياتها من الاسمنت . ولم تكن الكهرباء قد دخلت بعد . وكان منزلى رغم تواضعه الشديد أول منزل لى وكنت فخورا به . وتلك السنة ولد أول أولادى ماديبا شيمبكل وكنا نناديه بثمبى . وكنا أيضا نتلقى الضيوف والنزلاء فإن جميع أعضاء الأسرة طبقا لتقاليدنا لهم حق الضيافة عند أى فرد من أفراد الأسرة ، وعلى ذلك فقد كان منزلى دائما ممتلئا بالضيوف .

وفى بداية عام ١٩٤٧ انهيت فترة تدريبى فى المكتب وقررت أن أتفرغ لكى أحصل على درجتى الجامعية فى

القانون لكى أفتح مكتبا خاصا بى . وتقدمت إلى صندوق الخدمات بطلب قرض ٢٥٠ جنيها استرلينيا لتغطية نفقات اتمام دراستى ومنحت ١٥٠ جنيها فقط . وبعد ثلاثة شهور تقدمت بطلب آخر ومنحت بقية المبلغ حيث أنه كانت زوجتى على وشك القيام باجازة وضع تفقد أثناءها راتبها . وحدث بعد ذلك أن وُلِدت لنا طفلة ضعيفة مريضة توفيت وعمرها تسعة أشهر .

وعقب مرض مفاجىء توفى ليمبيد وكان لوفاته آثر عميق على الكثيرين وأنهك الحزن سيسولا خاصة . وكان موته انتكاسة للحركة حيث كان ليمبيد نبعا للأفكار التى اجتذبت الكثيرين للمنظمة .

وخلف ليمبيد بيتر مدا الذى جعلت منه طريقته التحليلية وقدرته على التعبير ببساطة ووضوح وخبرته التكتيكية سياسيا ممتازا وقائدا مرموقا للتنظيم وكان مدا يؤمن بأن تنظيم الشباب يجب أن يكون جماعة ضغط وجناح نضال يعمل من خلال إطار المؤتمر ككل حتى يدفع بالمؤتمر إلى عهد جديد .

وأسس مدا فرعا لتنظيم الشباب فى فورت هير تحت قيادة ماثيوس وبينجيه وقاموا بتجنيد عدد من الطلبة المرموقين الذين أتوا للتنظيم بدماء وأفكار جديدة ومن بين هؤلاء جو ابن ماثيوس وروبرت سوبوكوى الذى كان خطيبا لامعا ومفكرا واضحا . وكنت مازلت من بين أعضاء التنظيم الذين كانت تملأهم الشكوك من اليسار الأبيض وكنت أعارض الحملات المشتركة للمؤتمر والحزب الشيوعى واعتقد أن القومية الإفريقية الخالصة هى التى ستحررنا وليست الماركسية أو

التعددية الإثنية وكنت أشعر نحو الهنود بنفس شعورى نحو الشيوعيين .

وفى عام ١٩٤٧ انتخبت عضوا فى اللجنة المركزية للمؤتمر الوطنى الافريقى عن إقليم الترانسفال وعملت تحت إمرة رئيسه راموهانو وكان ذلك أول منصب لي فى المؤتمر وكان علامة فى تاريخ التزامى تجاهه . ومنذ ذلك الحين بدأت أتوحد قلبا وقالبا مع المؤتمر ككل بطموحاته ونجاحاته وفشله .

وفى عام ١٩٤٧ وقع د . إكسوما رئيس المؤتمر ود . دادوو رئيس المؤتمر الهندى الترانسفالى ود . نيكر رئيس المؤتمر الهندى الناتالى ميثاقا للعمل الجماعى عرف بميثاق الأطباء للعمل ضد العدو المشترك وكانت تلك خطوة هامة لتوحيد الحركات الهندية والإفريقية وفيما بعد لحقت بهم منظمة الشعب الإفريقى وهى منظمة للملونين .

- ١٣ -

رغم أنه لم يكن للأفارقة حق التصويت فلم يعن ذلك أننا لم نكن نهتم بمن يكسب الانتخابات . وكان الحزب المتحد بقيادة سماتس يتمتع باحترام دولى لتأييده الحلفاء فى الحرب على خلاف حزب القوميين الذى أيد النازية . وأدار حزب القوميين حملته حول الخطر الأسود وكان لهم شعاران : "فليبق الزنوج فى أماكنهم" و"فليرحل الحمالون" أى الهنود . وكانت تحفز القوميون بقيادة دانيال مالان مرارتهم ضد الإنجليز الذين عاملوهم باحتقار لعشرات السنين وضد الأفارقة الذين كانوا يرون أنهم يهددون نقاء وازدهار الحضارة الأفريكانية . ورغم

عدم ولاء الأفارقة لسماتس فقد كان ولاؤنا أقل للقوميين وعرفت دعاية مالان الانتخابية بالأبارتايد وكان لفظا مستحدثا رغم قدم الفكرة ذاتها . وكانت الكلمة حرفيا تعنى الفصل ، أى أنه ما ظل واقعا كان سيصبح شرعيا طبقا للقانون وأن التفرقة ستصبح نظاما متوحدا قويا شيطانى التفاصيل لا مفر من قبضته . وكانت افتراضية الأبارتايد تقوم على فكرة سمو الجنس الأبيض على الأفارقة والملونين والهنود . وكانت وظيفته تنحصر فى ترسيخ السيادة البيضاء إلى الأبد أو كما صاغ ذلك القوميون "إن الرجل الأبيض يجب أن يظل سيدا" بكل ما يحمله لفظ السيادة من معانى العنف وكانت الكنيسة الاصلاحية الهولندية تؤازر تلك السياسة وقد أمدتها بالأساس العقائدى القائم على الأسطورة التى مفادها "أن الأفريكانيين هم شعب الله المختار وأن السود نوع تابع .

وكان انتصار القوميين نهاية لسيادة الإنجليز على الأفريكان . وكانت شعارات القوميين وهى "شعبنا ولغتنا وأرضنا" تلخص مهمتهم ورسالتهم .

وحينما انتصر القوميين صدمت صدمة أذهلتنى لكن أوليڤر امبو علق قائلا : "إننى راض عن ذلك ولا أعرف لماذا . فالآن نحن نعرف تماما أعداءنا ونعرف أين نقف" . وأعلن مالان فى خطاب انتصاره قائلاً "والآن فإن جنوب إفريقيا قد عادت لنا"

وفى العام نفسه جدد تنظيم الشباب سياسته فى وثيقة كتبها مدا وأصدرتها اللجنة المركزية التنفيذية وكانت صيحة تحث كل الشباب الوطنى على الاتحاد ليسقط السيادة

البيضاء ورفضنا الفكر الشيوعى القائل بأن الافريقيين مضطهدين كطبقة اجتماعية وليس كجنس وأضفنا أنه لابد من خلق حركة تحرر قوى تحت لواء القومية الافريقية يقودها الافريقيون أنفسهم ونادينا بإعادة توزيع الأراضى على أساس أكثر عدالة وإلغاء الحواجز القائمة على أساس لون البشرة كما نادينا بالحاجة إلى تعليم مجانى والزامى .

وكنت حينئذ متعاطفا مع التيار الأكثر ثورية من التيارات القومية فقد كان غضبى منصبا على الرجل الأبيض وليس على التفرقة فى حد ذاتها . وكنت على استعداد لتقبل الهنود والملونين على أن يتقبلوا هم سياستنا ولكن اهتماماتهم لم تكن هى اهتماماتنا وكنت متشككا فى قدرتهم على احتضان قضيتنا عن صدق .

وفى خطوات متلاحقة بدأ مالان تنفيذ برنامجه الكريه فاعلنت الحكومة عزمها على تقليص حركة الاتحادات وإلغاء الحقوق الدستورية المحدودة للهنود والملونين والأفارقة . وصدر قانون منع الزيجات المختلطة اعقبه قانون الفجور الذى يجرم أى اتصال جنسى بين البيض والأجناس الأخرى . ثم صدر قانون تصنيف السكان الذى صنف سكان جنوب افريقيا على أساس عرقى قائم على اللون ثم قانون مناطق الجماعات الذى هو لب الأبارتايد والذى طالب بمناطق مدنية لكل مجموعة عرقية . وهكذا فبينما كان البيض يستولون على الأراضى بالقوة فى الماضى أصبحوا الآن يفعلون ذلك بقوة القانون . وفى ظل ذلك اتخذ تنظيم الشباب والمؤتمر خطوات لتعبئة الجماهير .

ففى الاجتماع السنوى للمؤتمر تبنى خطة عمل التنظيم ودعا إلى المقاطعة والاضرابات والبقاء فى المنازل والمقاومة السلبية ومظاهرات الاحتجاج وغيرها من أشكال العمل الجماهيرى وذلك رغم وجود معارضة من داخل المؤتمر وخاصة من د . إكسوما الذى كان يرى فى استراتيجيتنا خطرا قد يعطى الحكومة فرصة لسحقنا كما أنه كان غير مستعد لأن يعرض منصبه وعمله كطبيب للخطر . فأعطيناه انذارا أننا لن نصوت فى صالحه فى إنتخابات رياسة المؤتمر إن لم يوافق على خطتنا فاتهمنا بالغرور وبمحاولة ابتزازه وطردنا من منزله .

وحاولنا فى ديسمبر التالى خلع إكسوما وإحلال د . موروكا مكانه رغم عضوية الأخير فى منظمة الأفارقة التى كانت تسودها العناصر التروتسكيه إلا أنه كان نشيطا وكان يؤيد برنامجنا وكان طبيبا مثقفا من أكثر السود ثراء . وفى انتخابات المؤتمر هزم إكسوما وانتخب موروكا رئيسا عاما وسيسولا سكرتيرا عاما وتامبو عضوا فى اللجنة التنفيذية .

وكان البرنامج الجديد قد نادى أيضا بتحديد يوم للتوقف عن العمل على المستوى القومى احتجاجا على سياسات الحكومة العنصرية . وبذلك نجحنا نحن أعضاء تنظيم الشباب فى توجيه المؤتمر نحو طريق أكثر راديكالية وثورية .

وكنت قد انتقلت للعمل فى مكتب جديد للمحاماة وكان عملى يستغرق كل وقتى ورغم ليبرالية أصحاب العمل فقد كانوا يريدون منى أن أنسى السياسة .

وجاشت روح العمل الجماهيرى لكن شكوكى حول الهنود والشيوعيين استمرت . وقد اجتذب مؤتمر الدفاع عن حرية الكلام الذى نظمه مؤتمر الترانسفال ومجلس الترانسفال الهندي ومنظمة الشعب الإفريقى واللجنة الإقليمية للحزب الشيوعى فى جوهانسبرج فى مارس عام ١٩٥٠ عشرة آلاف شخص وترأسه د . موروكا ونجح المؤتمر ولكن حذرى استمر حيث أن المنظم الأول للمؤتمر كان الحزب الشيوعى .

وبمبادرة من الحزب الشيوعى والمجلس الهندى قرر المؤتمر تنظيم اضراب لمدة يوم واحد هو أول مايو يسمى يوم الحرية وينادى بإلغاء قوانين التصاريح وكل تشريعات التفرقة ورغم مساندتى للأهداف فقد اعتقدت أن الشيوعيين يريدون أن يطفئوا وهج يوم الاحتجاج الذى اقترحه المؤتمر الإفريقى ولذا عارضت الاضراب .

وكان أحمد كاثرادا حينئذ فى الحادية والعشرين من عمره وكان عضوا هاما فى مجلس الشباب الهندى للترانسفال وقد سمع عن معارضتى للأضراب وحينما قابلنى اتهمنى أنا وتنظيم الشباب بأننا لا نريد العمل مع الهنود والملونين رغم أنه واثق أن جماهير الأفارقة تؤيد الاضراب .

ونفذ اضراب يوم الحرية دون تأييد رسمى من المؤتمر . وكانت الحكومة قد حظرت كل الاجتماعات والتجمعات ترقبا له . وقد بقى أكثر من ثلثى العمال الأفارقة فى منازلهم ذلك اليوم . وبينما كنت وولتر فى غرب أولاندو نرقب مسيرات الاحتجاج والتجمعات إذا بالشرطة تطلق النار فى اتجاهنا .

وانبطحنا أرضا ثم سارعنا بالاختفاء فى منزل للممرضات حيث سمعنا الطلقات النارية التى نتج عنها وفاة ثمانية عشر أفريقيا وجرح العديد .

وبعد أسابيع أصدر القوميون قانون حظر الشيوعية وتجريم الحزب الشيوعى واعتبار عضويته جريمة يعاقب عليها بالسجن عشر سنوات . وكان نص ذلك القانون يرى أن اعتناق أى مذهب يشجع أى تغيير سياسى أو صناعى أو اقتصادى أو اجتماعى جريمة . وعلى ذلك فقد سمح ذلك القانون للحكومة أن تحظر أى منظمة وأن تقيد أى فرد معارض لسياستها .

واجتمع المؤتمر والمجلس الهندى ومنظمة الشعب الإفريقى لمناقشة تلك الاجراءات وأعلن دادوو مع آخرين أنه من الغباء أن نسمح لخلافات قديمة أن تقف فى طريق تكوين جبهة متحدة ضد الحكومة وفى خطابى قلت أن حظر أى منظمة هو حظر لجميع المنظمات . وقررنا تخصيص يوم ٢٦ يونيو يوما قوميا للاحتجاج على مقتل ثمانية عشر إفريقيا فى أول مايو .

وكنت فى بداية ذلك العام قد حللت محل د . إكسوما الذى كان قد استقال لمرضه من عضوية اللجنة المركزية للمؤتمر وأصبحت فى مركز من مراكز القوة التى طالما ثرت عليها .

كانت الأعمال الجماهيرية فى جنوب إفريقيا محفوفة بالأخطار حيث كان الاضراب بالنسبة للإفريقى جنحة جنائية وحيث كانت حقوق الكلام والحركة مقيدة بلا هوادة . وكان

الاضراب السياسى أشد مخاطرة من الاضراب الاقتصادى وكان يوم الاحتجاج اضرابا سياسيا .

وفى سبيل الاعداد ليوم ٢٦ يونيو أخذ وولتر يجوب أنحاء البلاد للتشاور مع القادة المحليين وفى غيابه توليت مسئولية مكتب المؤتمر وأخذت بمحور العمل القومى المعقد والتحاور مع القادة المختلفين فى جميع أنحاء البلاد عن طريق الهاتف . وكان التخطيط متسرعا .

وكان يوم الاحتجاج أول محاولة للمؤتمر لتنفيذ اضراب سياسى على مستوى قومى ولاقى نجاحا معتدلا . ففى المدن بقى معظم العمال الأفارقة فى المنازل وظلت متاجر السود مغلقة . كما حدثت مظاهرات فى أماكن أخرى كتبت عنها الصحف فى العناوين الرئيسية . وارتفعت معنوياتنا وأرسلنا انذارا لحكومة مالان مقتضاه أننا لن نبقى سلبيين فى مواجهة الأبارتايد . وظل يوم ٢٦ يونيو علامة مميزة فى تاريخ الكفاح ويحتفى به كيوم الحرية . وكانت تلك أول مرة أقوم بدور هام فى حملة قومية وشعرت بالبهجة النابعة من النجاح فى المعركة .

وفى تلك الأثناء ولد ابنى الثانى وكنت مع ايفيلن حينما خرج للحياة لكن لفترة وجيزة وقد سمى باسم بطل افريقى مكافح .

وفى تلك الأيام كانت تعوزنى الثقة حيال ما أنا ضده وما أنا معه . فقد كانت معارضتى الطويلة للشيوعية قد بدأت تضعف . وكان موسيس كوتانى كثيرا ما يأتى إلى منزلى ليلا

ويساءلنى عن سبب عدائى ولم تكن لدىَّ إجابة . كان الكثيرون من أعضاء الحزب أصدقاء لى وكانوا متفانين فى القضية . أما د . دادوو أحد أعضاء المقاومة عام ١٩٤٦ فقد كان ماركسيا مرموقا وكان دوره كمدافع عن حقوق الإنسان قد جعل منه بطلا لكل المجموعات . ورغم ذلك فلم أكف عن مساءلة الأساسات الفلسفية للماركسية ولم أكن أعلم الكثير عنها . وعلى ذلك حصلت على الأعمال الكاملة لماركس وانجلز ولينين وستالين وماوتسى تونج وغيرهم . واجهدنى كتاب رأس المال بينما حفزنى المانيفستو الشيوعى ولاقت فكرة مجتمع بلا طبقات من نفسى استجابة قوية إذ وجدتها تشابه الحضارة الافريقية حيث يتقاسم الناس الحياة مشاعا . وأقنعتنى مقولة ماركس الأساسية التى وجدت فيها قاعدة ذهبية والتى تقول "لكل طبقا لقدراته لكل طبقا لاحتياجاته" . وبدت الدياليكتية المادية وكأنها تلقى ضوءا على الاضطهاد العرقى ، وأيضا كآلية يمكن توظيفها لإنهائه وساعدتنى على رؤية الموقف من زاوية غير زاوية العلاقة بين السود والبيض لأنه إذا كان لحركتنا أن تنجح فلابد لها أن تتسامى على اللون . كما جذبتنى الأسس العلمية للدياليكتيك المادى وتحليلها للاقتصاد وبدت لى الفكرة التى تقول أن قيمة السلع تقدر على أساس العمل المبذول لانتاجها مناسبة بصفة خاصة لجنوب إفريقيا إذ أن الطبقة الحاكمة كانت تدفع للعمال الأفارقة أجورا دنيا وتضيف قيمة الأجور الحقيقية إلى تكاليف السلعة وتحتفظ لنفسها بالفرق . وكان لدعوة ماركس للعمل الثورى وقع الموسيقى على أذنى . وخلال قراءتى للأعمال الماركسية وجدت معلومات كثيرة لها علاقة بنوع المشاكل

التي تواجه السياسي الممارس بالاضافة إلى أن الماركسيين اهتموا بحركات التحرر القومية وكفاح الشعوب ضد الاستعمار وكان ذلك سببا آخر لتغيير نظرتي للشيوعيين وقبولي ترحيب المؤتمر بهم بين صفوفه . ولم يكن عليَّ أن أعتنق الشيوعية لأعمل معهم ووجدت أن القومي الإفريقي والقومي الشيوعي بينهما عوامل مشتركة أكثر من اختلافات .

- ١٤ -

في عام ١٩٥٠ أصدرت الحكومة قرارين يعتبران حجر الزاوية في الأبارتايد وهما قانون السكان والتسجيل وقانون المناطق الجماعية أو مناطق المجموعات وقد سمح القانون الأول بتصنيف السكان على أساس عرقي وبطريقة عشوائية مما نتج عنه أحيانا التفريق بين أعضاء الأسرة الواحدة اعتمادا على لون البشرة وتجاعيد الشعر وسمك الشفتين . أما قانون المناطق فيعتبر أساس الأبارتايد السكاني وبناء عليه فإذا أراد البيض تملك الأراضي أو المساكن التي يمتلكها الأفارقة أو الهنود فما عليهم إلا أن يعلنوا المنطقة بيضاء . كما أنه بناء على ذلك القانون بدأت حركة نقل جماعية للسكان بالقوة في حالة قرب المناطق التي يعيش فيها الأفارقة من مناطق سكن البيض .

وكانت صوفيا تاون على رأس تلك القائمة وهي منطقة حية كان يسكنها أكثر من خمسين ألف إفريقي وكانت إحدى أقدم المواطن الإفريقية في جوهانسبرج وكانت تفيض حياة رغم فقرها كما كانت تحتضن كثيرا مما هو جديد وقيم في حياة

الأفارقة وحضارتهم وكان لها على صغرها معنى رمزى للأفارقة يفوق حجمها .

كما أصدرت الحكومة قرارين الغى بمقتضاهما حق التمثيل النيابي بالنسبة للملونين كما ألغى المجلس النيابى للبانتو وهو منتدى إفريقى له دور التمثيل غير المباشر وأحلت الحكومة محله نظاما هرميا من رؤساء القبائل الذين تعينهم الحكومة على أساس إثنى وكان الهدف هو إعادة السلطة للرؤساء المحافظين وتقوية الإختلافات الإثنية التى كانت بادئة فى الزوال . ونتيجة لذلك نظم الملونون مظاهرة ضد القانون الخاص بهم فى كيب تاون واضراب ظلت على إثره المتاجر والمدارس مغلقة . وعملا بروح المقاومة المشتركة بين الطوائف الثلاث طرح سيسولو فكرة حملة للعصيا ن المدنى . ولقيت الفكرة منا قبولا ولكني وبصفتى حينئذ رئيسا لتنظيم الشباب كنت أرى أن تقتصر الحملة على الأفارقة فقد كنت مازلت أخشى تأثير الهنود . ولكن رأيى هزم فى الاقتراع وأخيرا قبلت برأى الأغلبية . ووجه القادة نداء للحكومة لإلغاء القوانين الإثنية والعنصرية ثم قرر المجلس الذى تم تشكيله من هؤلاء القادة أن يقوم المؤتمر بتنظيم مظاهرات يوم ٦ إبريل عام ١٩٥٢ كمقدمة لبدء حركة العصيان . وكان ذلك هو يوم احتفال البيض بالعيد الثلاثمائة لوصول جان ڤان رايبك إلى الكيب وكان يحتفون به على أنه يوم انشاء دولتهم بينما يلعنه الأفارقة كبداية ثلاثمائة عام من الاستعباد . وصاغ المؤتمر خطابا لرئيس الوزراء يعلمه بالقرارات وينصحه بالغاء القوانين وكنا نحتاج إلى توقيع د . موروكا على الخطاب لأنه

كان موجها بإسمه وأوكلت لى مهمة السفر إلى ولاية أو رانج الحرة للحصول على التوقيع . وسافرت إلى هناك بالسيارة فقد كنت قد حصلت على رخصة قيادة وكان ذلك شيئا غير عادى بالنسبة للأفارقة وحدثت على الطريق لى حادثة تورطت فيها مع الشرطة وسببت تأخيرى لكنها انتهت بسلام . وحصلت على توقيع د . موروكا وأرسل الخطاب إلى رئيس الوزراء الذى أجاب في رسالة موقعة من سكرتيره الخاص أنه من حق البيض أن يتخذوا من الاجراءات ما يضمن بقاء هويتهم كقومية منفصلة وأنهى الرد محذرا من أنه إذا ما اتبعنا اجراءاتنا فإن الدولة ستتخذ جميع الوسائل المتاحة لها لإخماد أى اضطرابات وقد اعتبرنا رد مالان القاطع اعلانا للحرب ولم يكن أمامنا سوى اللجوء للعصيان المدنى وأخذنا نعد العدة للعمل الجماهيرى . وكان من المهمات الأساسية تجنيد وتدريب متطوعين للحملة لضمان انجاحها . وبدأت التجمعات والتظاهرات المبدئية وخطبت فى بعضها مبينا أن التطوع واجب صعب وخطر وأن السلطات ستعمل على إرهاب وسجن ومهاجمة المتطوعين وأنهم لابد لهم أن يردوا على العنف بعدم استعمال العنف وأن يحافظوا على النظام مهما كلف الأمر .

وكان الاتفاق قد تم على قيادة الحملة طبقا لمبادىء غاندى التى تسعى إلى الكسب عن طريق تغيير المعتقدات وأيد ذلك نجل المهاتما مانيلال غاندى رئيس تحرير صحيفة الرأى الهندى وعضو المجلس الهندى البارز والذى كان هو شخصيا تجسيدا لمبادىء والده .

وكان آخرون وأنا من بينهم يرون أننا لا يجب أن نتبنى مبادىء معينة بل نضع تكتيكا ومنهجا يناسب الظروف وبما أن الدولة قوية فإن استعمال العنف سيؤدى لسحقنا وهكذا دعيت للاحتجاج السلمى طالما كان ذلك مؤثرا وليس كمبدأ وقد تبنت الأغلبية رأيى رغم معارضة مانيلال غاندى القوية .

وتم اقتراح مرحلتين للتحدى يقوم عدد من المتطوعين فى المرحلة الأولى بخرق عدد من القوانين فى المناطق المدنية كأن يدخلوا مناطق محظورة دون تصاريح أو يستعملوا منشآت خاصة بالبيض كالمراحيض ومقصورات القطارات ومداخل مكاتب البريد أو يبقوا فى المدينة بعد ميعاد منع التجول . وعين قائد لكل مجموعة كان عليه أن يبلغ الشرطة قبل القيام بالعصيان حتى تتم اجراءات القبض بأقل قدر من التشويش . وكان تصورنا للمرحلة الثانية أن تكون تحديا جماهيريا يرافقه اضراب وعمليات فى المؤسسات الصناعية عبر البلاد .

وقبيل الحملة عقد اجتماع سمى بيوم المتطوعين وهو يوم ٢٢ يونيو فى دربان وكان ضمن المتحدثين الرئيس لوثولى رئيس المؤتمر فى ناتال ود . نيكر رئيس المجلس الهندى هناك وأعلنا التزامهما بالحملة وكنت أنا المتحدث الرئيسى وكان هناك ما يقرب من عشرة آلاف من الحضور .

وعلى طول البلاد وعرضها فإن الذين قاموا بالتحدى يوم ٢٦ يونيو فعلوا ذلك بشجاعة وحماس وحس بالتاريخ . وبدأت الحملة فى بورت إليزابيث حيث دخلت جماعة محطة للقطارات من مدخل البيض وتم القبض عليهم وكانوا وهم يسيرون

ينشدون أغانى الحرية بينما كانت أسرهم واصدقاؤهم يحيونهم ويتصايحون "فلتعد إلينا افريقيا" .

وطبقا للخطة فقد كان متطوعو المؤتمر سيقومون بدخول منطقة فى شرق جوهانسبرج دون تصريح وفى آخر لحظة اعتذر القس الذى كان سيقودهم لمرضه وهنا أحللت المبجل الهندى نانا سيتا رغم مرضه بالروماتويد وكبر سنه وكنا نريد بمثل تلك القيادة أن نبرهن أننا لسنا فقط مجموعة من الشباب الطائش ثم بعد ذلك اكتشفت غياب سكرتير فرع المؤتمر فى الترنسفال الذى كان سيرافق نانا سيتا وأحللنا وولترسيسولو محله رغم كونه أحد المنظمين . ثم ذهبت أنا ويوسف كاتشاليا للمنطقة حيث كنا سنسلم القاضى هناك خطابا نخبره بأن خمسين متطوعا سيدخلون المنطقة بدون تصريح وفى مكتبه وجدنا عددا من المراسلين الصحفيين والمصورين الذين أخذوا فى التقاط الصور .

وسارت المظاهرة بنجاح وحماس ورغم الاستمرار فى اغلاق بوابات الحى فقد انتظر المتطوعون بصبر وأخذوا يطالبون بالدخول بقيادة وولتر . أما الروح المحركة فكان نانا سيتا الذى ظل رغم مرضه يتحرك بين المتظاهرين ويبث فيهم روح الحماس ثم فتحت الأبواب واندفع المتطوعون فورا فى عملية خرق للقانون وحاصرت الشرطة المتطوعين وألقت القبض عليهم كما كان مخططا ونقل المتطوعون إلى مركز الشرطة ووجه إليهم الإتهام .

وفى المساء اجتمعنا نحن قيادة لجنة العمل لمناقشة

أحداث اليوم والتخطيط لاسبوع قادم وكان ذلك قرب المنطقة التى كان مقررا لمجموعة أخرى من المتحديين أن يخرقوا قانون منع التجوال والقيام بمسيرة جماعية في الشارع .

وخرجنا من الاجتماع فى منتصف الليل وفى تلك اللحظة اقترب منى أنا ويوسف كاتشاليا رجل شرطة وكان من الواضح أننا كنا فى طريقنا إلي منزلنا ولم نكن من المتحديين وألقى القبض علينا وبعد دقائق وجدنا أنفسنا بين أكثر من خمسين من متطوعينا . وكان المكان قذرا وقميئا لكن معنوياتنا كانت مرتفعة ومر اليومان بسرعة .

وخلال الأشهر الخمسة التالية اشترك فى الحملة ٨٥٠٠ شخص من أطباء وعمال ومحامين ومدرسين وقساوسة وطلبة تحدوا القانون ودخلوا السجن . وانتشرت الحملة فى طول البلاد وعرضها ولقيت أصداء إعلامية هائلة وارتفع عدد المشتركين فى المؤتمر الوطنى الإفريقى من ٢٠ر٠٠٠ إلى ١٠٠ر٠٠٠ .

ورأت الحكومة فى الحملة خطرا على أمنها وعلى سياسة الأبارتايد وكان العصيان المدنى لا ينظر إليه على أنه من أعمال الاحتجاج بل كجريمة . بالإضافة إلى أن العمل المشترك بين الهنود والأفارقة أزعجهم فقد كان الهدف من الأبارتايد تقسيم المجموعات الإثنية . وعلى ذلك أصر القوميون أن الحملة كانت من تدبير عناصر الشعب الشيوعية وأصدرت الحكومة قانون الأمن العام الذى يخول للسلطة إعلان القانون العسكرى أو حالة الطوارىء واحتجاز الأفراد دون محاكمة وقانونا آخر يجيز العقوبة الجسدية للمتحديين .

وقد حاولت الحكومة أيضا استخدام الوسائل الخبيثة لإفشال الحملة فدسوا الجواسيس والعملاء في المنظمة ونجحت الشرطة في اختراق بعض الفروع المحلية والمتحديين . وكان الأفارقة الذين يعملون جواسيس يفعلون ذلك من أجل المال وكانوا يرون فينا تهديدا . ليس لبنيان القوى البيضاء ، لكن لمصالح السود لأنهم اعتقدوا أن البيض سيسيئون معاملة كل السود بسبب أعمال الشغب . ورغم ذلك فقد كان هناك عديد من رجال الشرطة السود الذين ساعدونا في السر وكانوا يقومون بإخبارنا عن ميعاد هجمات الشرطة معرضين حياتهم للخطر .

وفي مايو وفي منتصف حملة التحدي صدر قرار "بحظر" ج . ب . ماركس طبقا لقانون عام ١٩٥٠ الخاص بحظر الشيوعية لمساعدته على تحقيق أهداف الشيوعية .

وكان "الحظر" هو أمر قانوني من الحكومة ويترتب عليه الاستقالة الاجبارية من المنظمة التي يحددونها ومنع حضور الفرد أي اجتماعات . كان أشبه بالسجن المتحرك ولم تكن الحكومة تحتاج إلى أي برهان لحظر أي شخص وكان تجاهل أو خرق أمر الحظر يعاقب بالسجن .

وبناء على توصية ماركس قمت بترشيح نفسي لرئاسة فرع الترانسفال بدلا منه وفزت بأغلبية ساحقة .

وفي ٣ يوليو عام ١٩٥٢ وبينما كنت في عملي بمكتب المحاماة حضرت الشرطة وألقت القبض عليَّ بتهمة انتهاك قرار حظر الشيوعية وقامت الحكومة بسلسلة اعتقالات في

انحاء البلاد وتفتيش المكاتب والمنازل . وتمت المحاكمات فى ٢١ سبتمبر وكان ضمن من قدم للمحاكمة د . موروكا وماركس ودادوو وكاتشاليا وكاثرادا . وكان ظهورنا في المحكمة مناسبة لقيام مظاهرات صاخبة وكان بين المتظاهرين طلبة بيض من جامعة ويتواترساند ورجال المؤتمر الكبار من الكسندرا وطلبة مدارس ابتدائية وثانوية . واكتظت المحكمة نفسها بالجموع الذين أخذوا يهتفون لافريقيا الحرة .

وعكرت خيانة د . موروكا رئيس عام المؤتمر ورمز الحملة صفو المحاكمة . فقد أذهلنا بتفويض محاميه وكانت الخطة أن تتم محاكمتنا معا . وفوضنى زملائى للحديث مع موروكا لكننى لم أنجح فى اقناعه بالعدول . وقدم التماسا ذليلا لتخفيف الحكم وعند سماع أقواله تبرأ من المبادىء التى يقوم عليها المؤتمر .

وفى ٢ ديسمبر ادانتنا المحكمة بتهمة الشيوعية فطبقا لقانون حظر الشيوعية كان من الممكن اتهام أى فرد يعارض الحكومة بالشيوعية حتى دون أن يكون عضوا فى الحزب . وكان القاضى عادلا فرغم تهمتنا التى كانت تتراوح مابين عدم إطاعة القانون والخيانة العظمى فقد اقتنع بأننا كنا دائما ننصح الأعضاء بالعمل السلمى . وحكم على كل منا بالسجن تسعة أشهر مع إيقاف التنفيذ .

لقد ارتكبنا عدة اخطاء لكن حملة التحدى كانت نقطة تحول فى تاريخ المعركة وخرج المؤتمر من الحملة منظمة ذات قاعدة جماهيرية وكوادر ذات خبرة فى العمل تحدت الشرطة والمحاكم والسجون . وزالت الوصمة التى كانت ترتبط

بالسجن وكان ذلك انجازا هاما لأن الخوف من المعتقل يشكل عائقا هائلا لحركات التحرر .

وحررتنى الحملة من عقد النقص والدونيه ومن الشعور بالقهر ومن مناعة الرجل الأبيض ومؤسساته . وبلغت سن الرشد كمقاتل من أجل الحرية .

الجزء الرابع
المعركة حياتى

- ١٥ -

وفى المؤتمر السنوى للمؤتمر فى آخر عام ١٩٥٢ كان هناك تغيير . فتم اختيار رئيس أكثر حيوية لفترة جديدة أكثر فاعلية وهو الرئيس ألبرت لوثولى وأصبحت أنا طبقا لدستور المؤتمر أحد أربع نواب للرئيس وعينتنى اللجنة التنفيذية النائب الأول إلى جانب رئاستى لفرع الترانسفال .

وقبيل المؤتمر السنوى كان الرئيس لوثولى قد وجه إليه انذارا وخير بين أن يتخلى عن عضويته للمؤتمر ومساندته حملة التحدى وبين أن يفصل من منصبه كرئيس قبيلة معين من قبل الحكومة ويتقاضى منها أجرا . وكان لوثولى مدرسا متدينا وكان رئيسا ذا كبرياء من رؤساء الزولو ولكن التزامه بالكفاح ضد الأبارتايد كان يأتى فى المقام الأول ورفض الانذار وفصلته الحكومة . وساندت انتخاب الرئيس لوثولى لكنى لم أتمكن من حضور المؤتمر لأنه وقبل أيام كان قد صدر قرار "بالحظر" ضد اثنين وخمسين عضوا ومنعهم من حضور اجتماع أو تجمعات لمدة ستة أشهر وقيدت حركتى لنفس المدة فى حدود جوهانسبرج .

ورغم عدم حضورى المؤتمر السنوى لعام ١٩٥٢ فقد

اخبرت فى التو بما قد تم وكان قد اتخذ أحد أهم القرارات سرا ولم يعلن فى ذلك الوقت .

فقد كنت مع آخرين مقتنعا بأن الحكومة تنوى اعلان المؤتمر الإفريقي والمجلس الهندى منظمتين غير قانونيتين كما فعلت مع الحزب الشيوعى .

وهنا اقترحت على اللجنة التنفيذية فكرة خطة طوارىء لمواجهة هذا الإحتمال . وطلبوا منى أن أضع الخطة التى تمكن المنظمة من العمل كمنظمة سرية وعرفت الخطة فيما بعد بإسم خطة مانديللا أو خطة "م" .

وكانت الفكرة إقامة آلية تنظيمية تسمح للمؤتمر أن يتخذ قرارات على أعلى مستوى ويمكن بعد ذلك نقلها إلى المنظمة لكل دون عقد اجتماع . أو بمعنى آخر فإن الخطة تسمح لمنظمة غير قانونية أن تعمل وتمكن قادتها الذين هم تحت الحظر من القيادة . وصممت خطة "م" على أساس أن تمكن المنظمة من تجنيد أعضاء جدد وأن تستجيب للمشكلات الإقليمية والقومية وأن تواصل صلتها بانتظام بين الأعضاء والقيادات السرية .

وتم قبول وتنفيذ الخطة فورا . ورغم حسن المقاصد من وضع خطة "م" فإن نجاحها كان محدودا ولم تلق رواجا كبيرا . وكانت أفضل نتائجها فى منطقة الكيب الشرقية وفى بورت إليزابث حيث استمرت روح حملة التحدى ورأى أعضاء المؤتمر هناك فى الخطة بديلا للحركة فى تحدى الحكومة .

وكانت حياتى خلال حملة التحدى تسير فى اتجاهين : عملى النضالى ، وعملى كمحام .

وكنت قد انتقلت إلى مكتب هيلمان وميتشيل وكان مكتبا ليبراليا ويتقاضى من الأفارقة أتعابا معقولة وكان هيلمان مهتما بمشاكل الأفارقة وكان شريكه الآخر ميتشيل شديد الليبرالية وكان يعمل طيارا إبان الحرب العالمية الثانية وبعد ذلك بسنوات ساعد على نقل عدد من أعضاء المؤتمر خارج جنوب افريقيا إبان حملات "الاضطهاد"

وعملت فى ذلك المكتب بينما كنت أدرس للإمتحان الذى يؤهلنى لأن أمارس المهنة .

وبعد اجتيازى الامتحان التحقت كمحام بمكتب هـ . م . باسنر الذى كان ممثلا للأفارقة فى مجلس الشيوخ وعضوا قديما فى الحزب الشيوعى ومؤيدا قويا لحقوق الأفارقة وكان يشجع عملى السياسى طالما أقوم بعملى فى المكتب . وبعد الخبرة فى الدفاع عن الأفارقة التى أكتسبتها فى مكتبه شعرت أنه بالإمكان أن أستقل بعملى .

وكان أوليفر تامبو يعمل فى مكتب آخر وكنت أزوره كثيرا فى فترة الغداء وكنا نناقش شئون المؤتمر ، وكنت قد عرفت أوليفر فى فورت هير وعرفت ذكاءه ومهارته فى المناظرات وإسلوبه المنطقى الهادىء . وكانت موضوعيته الهادئة توازن من ردود فعلى العاطفية ، كما كان جارا لى فى ترانسكى فكان

من الطبيعي أن أطلب منه أن يشاركني وبعد شهور فتحنا مكتبنا المشترك في قلب مدينة جوهانسبرج .

كانت اللافتة تحمل إسم "مانديللا وتامبو" وكان المكتب يقع فى مبنى صغير مقابل تماثيل العدالة التى تقع أمام المحكمة فى وسط جوهانسبرج وكان المبنى يمتلكه هنود وكان أيضا أحد الأماكن القليلة التى يمكن أن يستأجر فيها إفريقى مكتبا فى المدينة . ومن البداية حاصرنا العملاء ، فلم نكن فقط المحاميين الافريقيين الوحيدين فى المدينة ولكننا كنا مكتب المحاماة الإفريقى الوحيد فكنا الاختيار والملجأ للأفارقة ولكى نصل إلى مكتبنا فى الصباح كان علينا أن نشق طريقنا بين الناس المزدحمين فى الممرات وعلى درجات السلم وفى غرفة الانتظار الصغيرة .

وقد كان الأفارقة فى أمس الحاجة للمساعدة القانونية فقد كانت جريمة أن تدخل من باب مخصص للبيض وجريمة أن تركب حافلة للبيض وجريمة أن تستعمل صنبور مياه للبيض وجريمة أن تسير على شاطىء مخصص للبيض وجريمة أن تتواجد فى الشارع بعد الحادية عشر مساء وجريمة ألا تحمل دفترة تصاريح وجريمة أن يكون هناك توقيع خطأ فى الدفتر وجريمة أن تكون عاطلا وجريمة أن تصل فى المكان الخطأ وجريمة أن تسكن فى المكان الخطأ وجريمة ألا يكون لك سكن . كنا نستمع يوميا ونقابل آلافا من الاهانات التى يلقاها الأفارقة فى حياتهم .

وسريعا ما عرفت ما يعنى "مانديللا وتامبو" بالنسبة للأفارقة العاديين فقد كان مكانا يجدون فيه آذانا صاغية

متعاطفة وحلفاء أكفاء ، ومكانا لا يطردون منه ومكانا يشعرون فيه بالفخر لأن من يمثلهم له نفس لون بشرتهم . كان ذلك هو السبب الذى من أجله أصبحت محاميا وكان عملى كثيرا ما يجعلنى أشعر بأن أختيارى صحيح .

وكثيرا ما كنا نواجه التحامل فى المحكمة نفسها فغالبا ما كان الشهود البيض يرفضون إجابة أسئلة محام أسود وبدلا من أن يؤخذ ذلك على أنه تحد للمحكمة كان القاضى يوجه إليهم الأسئلة بنفسه . وغير ذلك من الأمثلة الكثير من الاهانات التى كانت تصدر من رجال الشرطة ومن بعض القضاة .

وفيما بعد اكتشفت أنا وأوليفر أنه طبقا لقرار المناطق المدنية فإنه لا يحق لنا أن نحتل مكان عمل فى المدينة بدون تصريح وزارى . وتقدمنا بطلب رفض ومنحنا تصريحا مؤقتا سرعان ما انتهى ثم طلبت السلطات هنا أن ننقل مقر عملنا إلى منطقة إفريقية لا يستطيع عملاؤنا الوصول إليها . ولكننا واصلنا عملنا فى المقر ونحن مهددون بالطرد فى أى وقت .

وعالجنا قضايا عديدة تتعلق بتصنيف المواطنين حسب لون بشرتهم الأمر الذى كان يحدث بعشوائية شديدة ، وقضايا تتعلق بوحشية الشرطة رغم أن نجاحنا فى هذا النوع من القضايا كان محدودا إذ كان من الصعب تقديم البرهان على اعتداءات الشرطة فقد كانوا يتعمدون حجز السجين لمدة طويلة كافية لالتئام جروحه . أما تقرير الطبيب الشرعى بشأن اسباب الوفاة فكان ينص على أن الوفاة نتيجة لأسباب متعددة .

على بعد أربعة أميال من جوهانسبرج وعلى واجهة مرتفع صخرى يطل على المدينة تقع منطقة صوفيا تاون الإفريقية . وكانت صوفيا تاون جزءا مما كان يعرف بمناطق الإسكان الغربى وكانت أصلا معدة للبيض وقام أحد المستثمرين الغربيين فعلا ببناء عدة منازل لاستخدام البيض ولكن بسبب ملقف القمامة الخاص بالبلدية الذى كان يتواجد فى المنطقة اختار البيض أماكن أخرى وبعد تردد بدأ المستثمر ، فى بيع المنازل للأفارقة . وكانت صوفيا تاون إحدى الأماكن القليلة فى الترانسفال التى كان يسمح فيها للأفارقة بشراء أكشاك ، وقطع أرض قبل قرار عام ١٩٢٣ بشأن المناطق المدنية . وكانت المنازل التى بنيت فى ذلك الحين من الحجر الأبيض او الطوب الأحمر ما تزال هناك بشرفاتها المغطاة بالصاج الأحمر تضفى على المدينة لفحة من جمال العالم القديم . وبنمو الصناعة فى جوهانسبرج أصبحت المنطقة مقرا لقوة العمالة الإفريقية المتزايدة فقد كانت قريبة من المدينة وكان العمال يسكنون أكواخا يقيمونها فى أحواش المنازل القديمة وكان الكوخ يزدحم عادة بعدة أسر وكان كل أربعين شخصا يقتسمون صنبورا من المياه . كانت المنطقة بوهيمية ومحافظة ، صاخبة ورزينة . فكانت مقر سكن د . إكسوما وأفراد عصابات اتخذوا لأنفسهم أسماء ممثلين امريكيين .

وفى جوهانسبرج كانت خطة اخلاء المناطق الغربية تعنى اخلاء صوفيا تاون ومارتنيل ونيوكلير أى عدد من السكان يتراوح مابين ٦٠٫٠٠٠ ، ١٠٠٫٠٠٠ . وقامت حكومة

القوميين بشراء قطعة أرض تبعد ١٣ ميلا عن المدينة عام ١٩٥٣ وكان من المفروض اعادة توطين السكان هناك تحت سبع تقسيمات إثنية .

وكانت الحكومة فى قرارها تحت ضغط من مؤيديها فى المناطق المحيطة . كما أنها أرادت إحكام قبضتها على تحركات جميع الأفارقة فى جميع المناطق . فرغم سريان قانون التصاريح إلا أن الإنسان لا يحتاج تصريحا فى منطقة يمتلك فيها سكنا فى حين كان التصريح ملزما فى الأماكن التى تتملكها البلدية . لذلك قررت الحكومة نقل الأفارقة من صوفيا تاون إلى منطقة كان لم يتم إقامة المنازل فيها بعد . وكان اخلاء صوفيا تاون هو أول اختبار لقوة المؤتمر الذى لم تبدأ حملته ضد القرار إلا فى منتصف عام ١٩٥٣ حيث بدأ حملة تعبئة لحث الناس على المقاومة . وعقد اجتماع فى دار سينما أودين لمناقشة وسائل المعارضة حضره أكثر من ١٢٠٠ شخص لم يبد على أحدهم الخوف من وجود عشرات من رجال الشرطة المسلحين .

وفى الداخل أخذ رجال الشرطة المسلحون يستثيرون الناس ويوجهون إليهم الإهانات . وبينما كنت وبعض القادة نجلس على المسرح دخل رجال شرطة آخرون وأعتقلوا يوسف كاتشاليا الذى كان قد بدأ حديثه وروبرت ريشا وأحمد كاثرادا وثار الجمع وخفت من حدوث عنف فقفزت إلى المنصة وأخذت فى انشاد إحدى أغانى الإحتجاج ولحق بى الجميع .

وبدأ المؤتمر فى عقد اجتماعات إسبوعية فى ميدان فى قلب صوفيا تاون لتعبئة المعارضين للاخلاء وكانت اجتماعات

نابضة تخللتها الاناشيد . وكان مقرراً لى أن أتحدث للجموع يوم الأحد التالى لحادثة سينما أودين . وكانت الجماهير ليلتها متحمسة وانتقل حماسها إلىَّ . وكانت تحيطنا الشرطة المسلحة بالبنادق . والأقلام لكتابة أسماء المتحدثين وكلماتهم كالعادة . وبدأت فى الحديث عن أعمال القمع المتزايد من جانب الحكومة عقب حملة التحدى . ثم اندفعت فى الكلام وقد تملكنى الغضب وكنت أحاول إثارة الجماهير فهاجمت الحكومة ثم تجاوزت الحدود وأعلنت أن المقاومة السلمية قد انتهت وان عدم العنف غير مجد لقلب نظام حكم الأقلية . وفى النهاية قلت إن العنف هو الطريقة الوحيدة لانهاء الأبارتايد . واهتاجت الجماهير وخاصة الشباب وانطلقت أغنى "هناك أعداء، فلنحمل السلاح ونهاجمهم" ولحقت بى الجماهير وفى النهاية أشرت إلى الشرطة قائلا "هؤلاء هم أعداؤنا" وأخذت الجماهير تصيح وهى تومىء بعدوانية تجاه الشرطة . وبدا القلق على الشرطة . وصاح أحدهم "مانديللا ، ستدفع ثمن هذا" .

ولم تكن كلماتى قد أتت من فراغ . فإن الحكومة والشرطة كانت قد اتخذت من التدابير لمنع أى اجتماع سلمى وتجريمه وكانت الأمور تسير تجاه حكم بوليسى . وبدأت أرى أن الاحتجاجات القانونية ستصبح مستحيلة فى الوقت القريب . فإن المقاومة السلمية تكون فعالة إذا تمسك من تقاومهم بنفس القوانين التى تتمسك بها أنت وإلا فلا فاعلية لها . وبالنسبة لى كان عدم العنف استراتيجية فقط ولم يكن مبدأ أخلاقيا فلا يوجد خير أخلاقى فى استعمال سلاح غير فعال . ووجهت إلىَّ اللجنة التنفيذية اللوم مشيرة إلى أن السياسة العفوية التى

دعيت إليها ليست فقط سابقة لأوانها لكنها خطرة إذ أن مثل تلك الكلمات قد تحرض العدو على الإتيان على المنظمة تماما . وقبلت اللوم وبعد ذلك كنت أدافع عن سياسية عدم العنف رغم علمى أنها لم تكن الإجابة .

وكان وولتر سيسولو قد أخبرنى فى الوقت الذى ألقيت فيه خطابى فى صوفياتاون أنه قد دعى لحضور المهرجان العالمى للطلبة والشباب من أجل السلام والصداقة في بوخارست . ولم يكن الوقت يسمح له باستشارة اللجنة التنفيذية وكنت حريصا على أن يذهب وطلب منى مساعدته فى استخراج شهادة خطية من القسم تنص على هويته وجنسيته فإن الحكومة لم تكن أبدا لتمنحه جواز سفر . وسافرت المجموعة التى كان يرأسها وولتر سيسولو ودوما نوكوى على الخطوط الوحيدة التى قبلت تلك الشهادة وهى خطوط العال الإسرائيلية .

وكان وولتر يشاركنى رأيى بشأن اتجاه الحكومة وعدم جدوى المقاومة السلمية لذا طلبت منه قبل سفره ترتيب أمر زيارة للصين لمناقشة امكان امدادنا بالسلاح . ورغم التوتر الذى سببه سفر وولتر داخل اللجنة المركزية وعدم اطمئنان البعض إلي دوافعه فقد أمكن له أن يصل إلى الصين حيث استقبلته القيادات بالترحيب لكنهم أظهروا حذرا حينما طرق فكرتنا عن الكفاح المسلح وحذره القادة من خطورة المهمة وعاد وولتر بالمساندة وبدون أسلحة .

- ١٨ -

وفى ٣ سبتمبر ذهبت إلى ولاية أورانج الحرة فى قضية بعد رفع الحظر عنى . وكنت أشعر بأمان زائف وأنا أدخل قاعة المحكمة ذلك الصباح . وهناك فوجئت بمجموعة من رجال الشرطة فى انتظارى وأبلغونى أمرا بموجب قرار حظر الشيوعية أن علىَّ أن أستقيل من المؤتمر وحددت إقامتى فى جوهانسبرج ومنعت من حضور أى اجتماعات أو تجمعات لمدة عامين .

كنت فى الخامسة والثلاثين وأنهى قرار الحظر ذلك عقدا من الاشتغال مع المؤتمر ، وكانت تلك السنوات هى سنوات يقظتى ونموى والتزامى التدريجى بالمعركة التى أصبحت حياتى . ومنذ ذلك الوقت فقد كان على جميع أفعالى وخططى المتعلقة بالمؤتمر وبالمعركة أن تصبح سرية وغير قانونية . وكان علىَّ العودة فورا إلى جوهانسبرج .

وهكذا ازاحنى الحظر من بؤرة المعركة إلى الهوامش . ورغم أنه كانت تتم استشارتى وكنت قادرا على تحريك مسار الأحداث فقد كنت أفعل ذلك عن بعد وعندما يطلب منى . وكان على إطاعة القوانين وإلا سجنت بتهمة خرق الحظر وكان هذا لن يفيدنى أو يفيد المؤتمر . وحينما أجبرت على تقديم استقالتى من المؤتمر كان عليهم أن يجدوا من يحل محلى .

- ١٩ -

حينما تسلمت قرار الحظر كان مؤتمر الترانسفال قد حدد انعقاده بعد شهر وكنت قد أعددت خطابى الرئاسى الذى

قرىء على المؤتمر . وفى ذلك الخطاب الذى عرف فيما بعد بخطاب "صعوبة المسيرة إلى الحرية" وهى مقولة مقتطفة من جواهر لال نهرو قلت أن الجماهير يجب أن تستعد لأشكال جديدة من المقاومة وإن المناهج القديمة تعد الآن نوعا من الانتحار .

وفى إبريل عام ١٩٥٤ تقدمت الجمعية القانونية للترانسفال بطلب للمحكمة العليا بشطب اسمى من جدول المحامين المعتمدين باعتبار أن أنشطتى السياسية تصرف غير شريف وغير مهنى . حدث ذلك فى وقت كان مكتب "مانديللا وتامبو" يلقى نجاحا كبيرا وكنت أذهب إلى المحكمة عشرات المرات إسبوعيا .

وحالاً انتشر الخبر تلقيت عروضا بالمساعدة والمساندة حتى من محامين أفريكان وكان كثير منهم من مؤيدى الحزب القومى لكنهم اعتقدوا أن الطلب غير عادل . وقد دافع عن قضيتى بمهارة وولتر بولاك رئيس مجلس المحامين لجوهانسبرج ولكن آخرين نصحونى أن يدافع عنى شخص غير مرتبط بالمعركة فوكلت أحد أبرز المحاميين فى جوهانسبرج ودافع عنى الاثنان بدون مقابل وقد بنى الدفاع على أساس أن الطلب يعتبر مهانة لفكرة العدالة لأن من حقى أن أدافع عن معتقداتى السياسية وهذا حق للجميع فى دولة يحكم ويطبق فيها القانون . وارتكز بولاك فى دفاعه على سابقة شخص كان معاونا للنازيين فى الحرب العالمية وتم التحفظ عليه وبعد ذلك سمح له بمزاولة المحاماة على أساس أنه لا يجب حظر إنسان على أساس معتقداته السياسية .

وكان القاضى نزيها فرفض الطلب وأمر جمعية القانونيين بدفع النفقات .

- ٢٠ -

استمرت الحملة ضد اخلاء صوفيا تاون واستمرت الاجتماعات والخطب والاحتجاجات بقيادة د . إكسوما . وقد أدرنا نحن الحملة تحت شعار "على جثثنا" وحاولت أنا وأوليڤر كمحاميين للمطرودين أن نثبت عدم قانونية الإجراءات ولكن كان ذلك اجراء مؤقتا فلم تكن الحكومة لتأخذ به . وعقد اجتماع جماهيرى فى ميدان الحرية من ١٠٫٠٠٠ نسمة ليستمعوا للرئيس لوثولى . لكن قبل وصوله أبلغ بقرار حظر أعاده إلى ناتال .

وكان الشباب من أعضاء المؤتمر قد أخذوا شعارنا حرفيا وكانوا مستعدين للعمل الثورى ضد الشرطة . لكن حينما خاطبتهم القيادات وأنا منهم مطالبينهم بالتريث شعروا بالغضب والإحباط لكننا كنا نعلم أن العنف ستكون له نتائج مأساوية ولم نكن بعد مستدعين للقتال ضد عدو مستعد .

وفى ٩ فبراير أحاط أربعة آلاف من رجال الشرطة والجيش بالمنطقة بينما أخذ العمال فى إزالة المنازل الخالية وأخذت شاحنات الحكومة فى نقل العائلات إلى المنطقة الجديدة . وبعد أسابيع قليلة انهارت المقاومة وكان قرار الحظر قد صدر لمعظم قياداتنا المحلية واعتقل كثير منهم ولم تكن نهاية صوفيا تاون على أصوات القنابل بل على أصوات الشاحنات والمعاول .

لقد ارتكبنا كثيرا من الأخطاء فى حملة اخلاء صوفيا تاون وتعلمنا دروسا عديدة . فقد كان شعار "على جثثنا" شعارا ديناميكيا لكنه كان معوقا وليس مساعدا . فالشعار هو حلقة وصل بين المنظمة والجماهير . وقد لقى شعارنا استجابة على مستوى خيال الجماهير ولكنهم اعتقدوا أننا سوف نقاتل حتى الموت لنقاوم الاخلاء . ولم يكن المؤتمر بعد مستعدا لذلك . كما أننا لم نقدم للجماهير بديلا عن الانتقال إلى المنطقة الجديدة . فضعفت مقاومتهم وتدفقوا على المنطقة الجديدة بإرادتهم وانتقدوا المؤتمر بواسطة عدد من الأعضاء الذين اتهموا القيادة بحماية مصالح الملاك على حساب المستأجرين .

ولكن الدرس الذى استنتجته أنا هو أن خيارنا الوحيد هو الكفاح المسلح .

إن التعليم هو آلة التطور . ومنذ بداية القرن كان الأفارقة مدينين بتعليمهم للكنائس الأجنبية والإرساليات التى أنشأت وبنت المدارس وتحت حكم حزب المتحدين كانت مناهج المدارس للسود والبيض واحدة تقريبا .

وحتى قبل وصول القوميين إلى الحكم كان الانفاق المتفاوت على التعليم برهانا على العنصرية . فقد كان ينفق على تعليم الأبيض ستة أضعاف ما ينفق على تعليم الإفريقى . ولم يكن التعليم إجباريا للأفارقة وكان مجانيا فقط فى المرحلة الابتدائية . وكانت نسبة من يحضر المدرسة من الأطفال الأفارقة هى النصف . وكان عددا ضئيلا جدا يكمل المرحلة الثانوية .

وحتى هذا القدر لم يكن يروق للقوميين . فقد كان الأفريكانى يعتقد أن تعليم الأفارقة إهدار لأنهم بطبيعتهم جهلة وكسالى .

وفى عام ١٩٥٣ أقر البرلمان قانون تعليم البانتو الذى قصد بمقتضاه أن يضاف طابع الأبارتايد إلى التعليم ونقل أمر إدارة تعليم الأفارقة من هيئة التعليم إلى هيئة شئون الوطنيين وهى هيئة تحظى بالكراهية العميقة من الأفارقة . وخيرت الكنائس والإرساليات بين تسليم مدارسها للهيئة أو تقليص ما يستلمونه من مساعدات .

وقد شرح د . هنريك فيرويرد السياسة الجديدة قائلا إن التعليم يجب أن يعلم الناس ما يناسبه فرصهم فى الحياة . أى أن الأفارقة باختصار يجب أن يتدربوا على الأعمال الوضيعة لكى تستمر سيادة الرجل الأبيض .

أما بالنسبة للمؤتمر فقد رأى أن القانون وسيلة شريرة قصد بها إعاقة نمو الحضارة الإفريقية ككل وأن تلك السياسة إذا نفذت فستصيب معركة التحرير بانتكاسه .

وقد أثار القانون وشرح فيرويرد غير المهذب له غضب السود والبيض وباستثناء الكنيسة الهولندية عارضت الإرسالية اللوثرية وجميع الكنائس الخطوات الجديدة ولكن المعارضة لم تتحد لإدانة القانون ولم تقاومه .

وأغلقت بعض الارساليات والكنائس مدارسها بينما سلمت الأخريات مدارسها للحكومة ولم تستمر سوى كنائس ثلاث فى إدارة مدارسها دون مساعدة الحكومة .

وبدأت مناقشة المؤتمر لخطط مقاطعة المدارس وكانت مناقشاتنا سرية . ودارت حول خيارين : إما مظاهرة احتجاج مؤقتة أو مقاطعة دائمة للمدارس لإفساد القانون قبل أن يشتد عوده . ورأيت أن المقاطعة الدائمة تتطلب آليات وامكانيات لا نمتلكها . وعلى ذلك فقد طالبت أنا وآخرون بمقاطعة مدتها إسبوع . وقررت اللجنة أن تبدأ المقاطعة ولمدة إسبوع يوم ١ إبريل عام ١٩٥٥ . لكن المندوبين في دربان رفضوا التوصية وصوتوا فى صالح مقاطعة غير محددة .

وبدأ الاضراب فى أول إبريل وكانت نتائجه متفاوتة فكان غالبا مشتتا وغير منظم . وفى بعض الأماكن بدأت مسيرات قبل الفجر وقذفت النساء المدارس بالحجارة وقمن باخراج الأطفال الذين ذهبوا إلى مدارسهم وقام البعض بإدارة مدارس للأطفال الذين اشتركوا فى المقاطعة فاصدرت الحكومة قانونا يعاقب بالغرامة والحبس كل من يقدم تعليما بدون إذن . وعملت تلك المدارس فى السر ثم تضاءلت وواجه الآباء الاختيار بين تعليم دونى أو لا تعليم فاختاروا الأول .

ورغم أن الحملة فشلت فى إلغاء القانون فإن الاحتجاج أجبر الحكومة على تعديل القانون ووضع مناهج أفضل . لكن نتائج القانون طاردت الحكومة بطرق لم تتوقعها فقد كان تعليم البانتو هو المسئول فى عام ١٩٧٥ عند تخريج جيل من الشباب الأسود الأكثر غضبا وأكثر ثورة .

وبعد شهور عديدة من تولى الرئيس لوثولى رئاسة المؤتمر عاد البروفسور ماتيوس إلى جنوب إفريقيا بعد عام فى

الولايات المتحدة ودعا فى الإجتماع السنوى للمؤتمر الى عقد إجتماع مؤتمر وطنى يمثل جميع فئات الشعب فى البلاد دون تمييز للون أو عرق لوضع دستور للحرية لجنوب افريقيا الديمقراطية في المستقبل .

وقبل الاقتراح وشكل مجلس لمؤتمر الشعب برئاسة الرئيس لوثولى وأمانة سر سيسولو وكاتشيا . واتفق على أن يكون الميثاق وثيقة مصدرها الشعب نفسه وقد أوكل القادة المؤتمر عبر البلاد أن يبحثوا عن الأفكار كتابة من كل شخص فى مناطقهم .

وتم تشكيل المجلس القومى للعمل من قيادات المؤتمر والمنظمات الأخرى الذى دعا كل المنظمات المشاركة وأتباعها أن يرسلوا اقتراحاتهم للميثاق . وتم طبع تعميمات ومنشورات أرسلت إلى كل أنحاء البلاد تدعو الأفراد أن يتقدموا بمقترحاتهم . واستثارت الدعوة أخيلة الناس . ووصلت مقترحات من النوادى الثقافية والجماعات الكنسية وجمعيات دافعي الضرائب والمنظمات النسائية والمدارس وأفرع الاتحادات التجارية . وكان مما يثير فى النفس التواضع رؤية مقترحات العامة التى تفوق مقترحات القادة جرأة وتقدمية وكان أكثر الطلبات إلحاحا هو "صوت لكل فرد" .

وقد ساهمت أفرع المؤتمر فى كتابة مسودات الميثاق . ونسخت مسودة توافقية من كل تلك المقترحات وتم إرسالها للأقاليم للتعليق . أما الميثاق نفسه فقد صاغته لجنة صغيرة من المجلس القومى للعمل وراجعته اللجنة التنفيذية للمؤتمر .

وأعدت الصيغة النهائية وتقرر أن يعقد الميثاق على مجلس الشعب وأن تخضع كل عناصره لموافقة المندوبين .

وتم عقد مجلس الشعب فى قرية متعددة الأعراق وقد حضره ثلاثة آلاف مندوب ليوافقوا على الصيغة النهائية وكانت الغالبية العظمى من السود لكن كان هناك ثلاثمائة هندى ، ومائتى ملون ومائة من البيض .

وذهبت أنا وولتر وكان علينا قرار حظر فاخترنا مكانا فى الطرف يمكن منه المراقبة . كان الجميع يرتدون ما يدل على انتماءاتهم وكان هناك الشباب والشيوخ والرجال والنساء . وكان رجال الشرطة البيض والأفارقة وأعضاء من الفرع الخاص يطوفون بالمكان يلتقطون الصور ويكتبون الملاحظات .

وانبعثت عشرات الأغانى وألقيت عشرات الخطب وقدمت المأكولات وفى عصر اليوم الأول قرىء الميثاق فقرة فقرة بالإنجليزية والإكسهوسا والسيسوتو وبعد كل فقرة كانت الحشود تصيح موافقة وتطلق شعار "إفريقيا" .

وكان اليوم الثانى مثل اليوم الأول . وفى الساعة الثالثة والنصف حينما حان وقت أخذ الأصوات على الموافقة النهائية اجتاح لواء من الشرطة والبوليس السرى المنصة شاهرين أسلحتهم وأخذ أحدهم مكبر الصوت وأعلن باللغة الأفريكانية أن هناك شكا فى الخيانة وأنه من غير المسموح لأحد أن يغادر المكان دون إذن الشرطة . وأخذوا يدفعون الناس ويصادرون الوثائق والصور واللافتات وأجاب

المحتشدون بالأغانى الوطنية وبعد ذلك سمح للمندوبين بمغادرة المكان بعد سؤالهم وتسجيل أسمائهم وتسللت أنا عائدا لجوهانسبرج لحضور اجتماع طارىء وأنا أعلم أن تلك الغارة هى بداية سياسة جديدة للحكومة .

ورغم فض مجلس الشعب إلا أن الميثاق ذاته أصبح علامة مضيئة لمعركة التحرير وكان كغيره من الوثائق السياسية الباقية كاعلان الإستقلال الأمريكى وإعلان حقوق الإنسان للثورة الفرنسية ، والمانيفستو الشيوعى خليطا من الأهداف العملية واللغة الشعرية . وكان يمجد إلغاء التمييز العنصرى والحقوق المتساوية للجميع ويرحب بكل من يعتنقون الحرية ليسهموا فى صنع جنوب إفريقيا ديموقراطية لا عرقية وكانت المبادىء الاساسية للميثاق هى الحكم للشعب - حقوق متساوية لجميع المجموعات القومية - مشاركة كل الشعب فى ثروة البلاد - توزيع الأرض بين هؤلاء الذين يفلحونها .

وعارض بعض أعضاء المؤتمر وخاصة الأفارقة القوميون الذين كانوا ضد الشيوعية وضد البيض الميثاق على أساس أنه خطة لايجاد جنوب إفريقيا مختلقة عما نادى به المؤتمر طوال تاريخه وادعوا أن الميثاق يميل إلى نظام اشتراكى . وفى ١٥ يونيو كتب فى صحيفة "لبراشن" أن الميثاق يقر المشاريع الفردية وأنه يضمن للأفارقة الفرصة لكى يتملكوا مشاريعهم التجارية ومنازلهم وأراضيهم باسمهم وهكذا ينجون كرأسماليين ومضاربين . أما الفقرة الخاصة بتأميم المناجم والبنوك والصناعات الاحتكارية فإنها خطوة لابد أن تؤخذ لئلا يتملك رجال الأعمال البيض الاقتصاد ويديرونه .

وكان الميثاق وثيقة ثورية لأن المتغيرات المتصورة لا يمكن تحقيقها بدون تغيير جذرى للبنية الاقتصادية والسياسية . ولم يقصد بالوثيقة أن تكون رأسمالية أو اشتراكية لكن تشكيلة متآلفة من مطالب الشعب لانهاء الاضطهاد .

- ٢١ -

وفى أوائل سبتمبر عام ١٩٥٥ انتهى الحظر المفروض علىَّ وكنت لم أتمتع بإجازة منذ عام ١٩٤٨ وشعرت بشوق لزيارة الريف ورؤية أسرتى والاجتماع بسباتا وداليونجا لأن المؤتمر كان يرغب فى أن أناقشهم فى بعض الأمور وعلى ذلك فقد قمت باجازة عمل .

وعند وصولى إلى أومتاتا اجتاحنى شعور بالألفة والذكريات المحببة وثارت مشاعره بعنف للقاء والدتى وبيتنا المتواضع وأصدقاء صباى . لكن رحلتى لترانسكى كان لها هدف آخر فقد تزامن وصولى مع عقد اجتماع لجنة خاصة تمَ تعيينها لتشرف على نقل مجلس السلطة المحلية القبلية فى ترانسكى إلى سلطات البانتو .

وكان المجلسُ يتكون من ١٠٨ أعضاء ربعهم من البيض وثلاثة أرباعهم من الأفارقة وكانت مهمته استشارية للحكومة فيما يختص بالتشريعات التى تؤثر فى الأفارقة وتنظيم الشئون المحلية كالضرائب والطرق . ورغم أن صفة المجلس كانت استشارية فقد هدف قانون البانتو الجديد إلى احلال نظام قمعى اقطاعى محله يستند على الأسس الوراثية والفروق القبلية لاذكاء التنافس القبلى . ورأى المؤتمر أن قبول القانون

الجديد هو أذعان للحكومة . وفى ليلة وصولى عقدت اجتماعات مع عدد من المستشارين الترنسكايين وبابن أخى الذى كنت أدعوه داليونجا وكان يحاول اقناع المجلس بقبول قانون البانتو لأن ذلك سيزيد من قوته .

وذهبت إلى قريتى قونو وأيقظت والدتى التى بدت وكأنما رأت شبحا ورغم سعادتى بالعودة فقد شعرت بالذنب من مظهر والدتى وهى تعيش وحيدة فقيرة . حاولت إقناعها بالذهاب معى إلى جوهانسبرج لكنها أقسمت ألا تترك الريف الذى أحبته . ثم قمت بزيارة مفهكزوينى وقضيت اسبوعين أتنقل بين القريتين زرت خلالهما أمى الثانية أرملة الحاكم وأختى ميبل وتناولت نفس الطعام الذى كنت أتناوله وأنا صبى وسرت فى نفس الحقول وحملقت فى نفس السماء بالنهار ونفس النجوم بالليل . فإن من المهم ألا يفقد المقاتل من أجل الحرية الصلة بجذوره وأحيت هذه الزيارة إحساسى بالمكان الذى ترعرعت فيه .

وبدأت مناقشة قانون سلطات البانتو مع داليونجا فى حضور اثنين من مؤيدى المؤتمر وقلت أن القانون غير عملى لأن كثيرا من الأفارقة قد هجروا مواطنهم إلى المدينة وأضفت أن سياسة الحكومة تهدف إلى وضع الأفارقة داخل سياجات إثنية لأنها تخشى توحدهم . وقلت إن الشعب يطلب الديمقراطية وقيادة سياسة مبنية على الجدارة وليس على النسب . وكانت إجابة داليونجا أنه يحاول استرداد مكانة أسرته الملكية التى سحقها البريطانيون وأكد حيوية النظام القبلى والقيادات التقليدية وأنه هو الآخر يريد جنوب إفريقيا

حرة ولكنه يعتقد أن الهدف يمكن تحقيقه أسرع وبسلام عن طريق سياسة الحكومة للتنمية المنفصلة وأن المؤتمر سيأتى بسفك الدماء والمرارة . ودامت المناقشة طوال الليل ولكن وجهات نظرنا لم تتقارب . ورغم استمرار صداقتنا فقد أصبحنا أعداء سياسيين .

قضيت أياما قليلة أخرى فى قونو ثم قفلت راجعا . وفى بورت إليزابث التقيت بمهلابا وبارد وجوفان مبيكى المفكر الصحفى والسياسى النشيط والذى لعب دورا فى التخطيط لمجلس الشعب والذى سيصبح أيضا أحد القيادات فى المنظمة .

وتوقفت فى مدينة صغيرة على بعد مائة متر إلى الغرب من بورت إليزابث لألقى نظرة على ما يحوطنى وفى كل الاتجاهات كنت أرى غابات شديدة الكثافة ممتدة . ولم أفكر حينئذ فى الخضرة لكن فى أن هناك أماكن كثيرة يمكن لجيش من الفدائيين أن يعيش فيها ويتدرب دون أن يكتشف .

وفى كيب تاون حيث توقفت لمدة إسبوعين وعقدت عدة اجتماعات وبينما كنت أسير فى المدينة رأيت أمرأة بيضاء تقرض بقايا عظام سمك . كانت فقيرة وعلى ما يبدو بدون مأوى وكانت صغيرة السن ولا تنقصها الجاذبية . كنت أعلم بوجود فقراء بيض فى جنوب إفريقيا ولكن لم أكن قد رأيتهم وشعرت بالرغبة فى أن أعطى تلك المرأة نقودا بينما أنا لا أعطى نقودا لمتسولين . وفى تلك اللحظة تبينت ما يفعله الأبارتايد بالإنسان فإن العذاب الذى يعانيه الأفارقة يوميا

يبدو أمرا طبيعيا بينما ساءنى منظر وتعاطفت مع تلك المرأة البيضاء الموحلة .

وبينما كنت أستعد لمغادرة كيب تاون ذهبت إلى مكاتب صحيفة العهد الجديد لأرى أصدقاء قدامي وكانت الصحيفة يسارية وعلى علاقة حسنة بالمؤتمر . كان ذلك يوم ٢٧ سبتمبر وبينما كنت أصعد درجات السلم سمعت أصواتا غاضبة وصوت قطع أثاث تحرك من مكانها وعرفت أن رجال الشرطة يقومون بتفتيش المكتب وبعد ذلك علمت أنها لم تكن واقعة فردية ولكن الأوامر كانت قد صدرت فى جميع أنحاء البلاد بضبط أى شيء يعتبر قرينة على الخيانة العظمى والفتنة والإخلال بقانون حظر الشيوعية وأن الشرطة قد قامت بتفتيش أكثر من خمسمائة فرد فى منازلهم ومكاتبهم عبر البلاد وأنه قد تم تفتيش مكتبى ومنازل د . موروكا والبروفسور ماثيوس .

- ٢٢ -

وعند عودتى قدمت تقريرا عن رحلتى للجنة العاملة للمؤتمر . وكان شاغلنا هو ما إذا كانت تحالفات المؤتمر من القوة فى الأقاليم بحيث تستطيع ايقاف مخططات الحكومة . فأخبرتهم أن شئون المؤتمر فى ترانسكى ليست على قدر كبير من التنظيم . ثم تقدمت ببديل وهو أن يسهم المؤتمر فى البنيات الجديدة لسلطات البانتو كوسيلة لبقائه على صلة بالجماهير هناك وفى الوقت المناسب تصبح تلك المساهمات منصة تنطلق منها أفكارنا وسياستنا . وقوبل اقتراحى بالمعارضة الغاضبة .

ولم يلق تقريرى اهتماما كبيرا نظرا لوجود تقرير بخصوص ما عرف حينئذ بنظام البانتوستان وهو نظام من اختراع د . ڤيرويرد وكان يتلخص في انشاء محميات تكون سياجا إثنيا أو مواطن لكل الأفارقة . وكانت الفكرة هى الاحتفاظ بالوضع كما هو عليه حيث يمتلك ثلاثة ملايين من البيض ٨٧٪ من الأرض وتخصص نسبة الـ ١٣٪ الباقية لثمانية ملايين إفريقى . وكان الموضوع الرئيسى للتقرير هو رفضه فكرة اندماج الأعراق المختلفة مع احلال تنمية منفصلة لكل منطقة . وكان هدف الحكومة من ايجاد نظام المواطن هو الإبقاء على ترانسكى والمناطق الإفريقية الأخرى مستودعات للعمالة الإفريقية الرخيصة للصناعة البيضاء . أما الهدف الآخر غير المعلن فهو خلق طبقة وسطى افريقية للحد من جاذبية المؤتمر والنضال من أجل الحرية .

وقد أدان المؤتمر التقرير رغم بعض توصياته الليبرالية فكما قلت لداليونجا أن التنمية المنفصلة هى حل زائف لمشكلة لا يعرف البيض كيف يتحكمون فيها . وفى النهاية وافقت الحكومة على التقرير ولكنها رفضت بعض توصياته التى رأست أنها تقدمية .

وفى مارس عام ١٩٥٦ صدر قرار الحظر علىَّ للمرة الثالثة وحددت إقامتى فى جوهانسبرج لمدة خمس سنوات ومنعت من حضور أى اجتماعات . لكن هذه المرة تغير موقفى من الحظر وقررت ألا أسمح لعدوى أن يقرر مدى نشاطاتى السياسية وصلتى بالمعركة وقررت أيضا ألا أنصب نفسى سجانا على نفسى .

الجزء الخامس
الخيانة

- ٢٣ -

فى فجر الخامس من ديسمبر عام ١٩٥٦ أيقظنى طرق على الباب وعرفت فورا أنها الشرطة ووجدت الكونستال روسو الذى كان معروفا بالمنطقة ومعه رجلا شرطة وأبرز أمرا بالتفتيش وبدأ ثلاثتهم فى تمشيط المنزل واستيقظ الأطفال ونظرت إليهم آمرا إياهم بالصمت . وبعد ذلك أرانى أمر القبض علىَّ الذى كان مكتوبا عليه "الخيانة العظمى" . واصطحبنى روسو بالسيارة وكان معه أمر بتفتيش مكتبى واستمر تفتيشه لمدة خمس وأربعين دقيقة ثم اصطحبنى إلى سجن جوهانسبرج وكان هناك عدد من الزملاء الذين قد ألقى القبض عليهم وتم احضار أصدقاء ورفاق آخرين على مدى الساعات التالية وتمكن أحدهم من تهريب العدد المسائى من صحيفة ستار وعلمنا من العناوين الرئيسية أن الحملة شملت جميع أنحاء البلاد وأن القادة الكبار لمجلس التحالف تم اعتقالهم بتهمة الخيانة العظمى والتآمر لإسقاط الدولة ومن بينهم لوثولى ونيكر وسبتمبر وليليان نجويى وبيليفيلد الذين تم نقلهم بطائرة حربية إلى جوهانسبرج وبلغ مجموع من ألقى القبض عليهم مائة وخمسة وأربعين شخصا . وفى اليوم التالى ظهرنا فى المحكمة ووجهت إلينا التهمة رسميا . وبعد إسبوع تم اعتقال

وولتر سيسولو وأحد عشر آخرين فكان المجموع مائة وخمسة إفريقيين وواحدا وعشرين هنديا وثلاثة وعشرين من البيض وسبع ملونين .

وسرعان ما تم نقلنا إلى سجن جوهانسبرج الذى كان يلقب بالقلعة وأخذنا إلى ساحة رباعية الأضلاع وأمرنا أن نخلع ملابسنا ونصطف على الحائط وأجبرنا على الوقوف هكذا لأكثر من ساعة .

وحينئذ دخل طبيب أبيض وسألنا إن كان أحد منا مريضا ولم يكن أحد يشكو من أى مرض . وهنا أمرنا أن نرتدى ملابسنا واصطحبنا إلى زنزانتين كبيرتين ليس بها أى أثاث وأعطى كل واحد منا بطانية خفيفة وكان بكل زنزانة مبولة أرضية غير مغطاة .

ومكثنا فى القلعة اسبوعين وكان يسمح لنا بالصحف وكانت موجة الغضب التى اجتاحت جنوب إفريقيا والاستنكار فى العالم مبعث رضا لنا . وتحولت زنزانتنا الموحدة إلى نوع من المؤتمر أجرينا فيه المناقشات ووضعنا برنامجا للنشاط اليومى شمل التمرينات الرياضية والمحاضرات والأغانى القومية والرقصات والسِّير البطولية .

وبعد إسبوعين اصطحبنا إلى قاعة التدريب العسكرى فى جوهانسبرج لاجراء المساءلات المبدئية وتم نقلنا فى عربات شرطة مصفحة يراقبها عدد من حافلات القوات مليئة بالجنود المسلحين وكانت جماهير مؤيدينا تسد الطريق وكان بإمكاننا سماعهم يحيون ويغنون وتحولت الرحلة إلى مسيرة نصر .

وداخل القاعة استقبلتنا جماهير أخرى من المؤيدين حتى بدت القاعة وكأنها إجتماع احتجاج صارخ أكثر منها قاعة محاكمة . وسرنا ونحن نرفع أصابعنا باشارة تحية المؤتمر ونومىء إلى مؤيدينا واختلط المتهمون بالمراسلين الصحفيين والأصدقاء حتى بدأ الأمر إحتفالا وليس عقوبة .

كانت التهمة الموجهة إلينا جميعا من قبل الدولة هى الخيانة العظمى والتآمر لاستعمال العنف لقلب الحكومة الحالية وإحلال حكومة شيوعية محلها وكانت المدة التى شملها الإتهام هى من ١ أكتوبر عام ١٩٥٢ إلى ١٣ ديسمبر عام ١٩٥٦ أى أنها شملت حملة التحدى واخلاء صوفيا تاون ومجلس الشعب . وكان تعريف الخيانة طبقاً لقانون جنوب افريقيا هى أنها نوايا عدوانية للاحتلال والإضرار باستقلال الدولة وأمنها أو تعريضها للخطر . وكانت العقوبة هى الموت .

وكان القاضى المحقق الذى ينظر القضية هو ن . س . ويسيل ونظرا لعدم وجود مكبرات صوت فى القاعة تأجلت الجلسة ونقلنا مرة أخرى وسط هتاف الجماهير إلى القلعة .

وفى اليوم التالى كانت الجماهير أكثر عددا والشرطة أكثر تأهبا . وحينما وصلنا وجدنا أن الدولة قد قامت بتشييد قفص هائل من الأسلاك . لنجلس فيه وتم اقتيادنا داخله وجلسنا على مقاعد طويلة محاطين بستة عشر جنديا .

وكان مؤيدو المنظمة قد جمعوا فريق دفاع هائلا من بينهم برام فيشر ونورمان وزنبرج وإسرائيل ميزلس وموريس فرانك . وقد بدأ فرانك باحتجاج عنيف ضد الدولة لامتهان

كرامة موكليه ومعاملتهم كما لو كانوا حيوانات متوحشة وأضاف إنه إذا لم يتم إخراجنا من القفص فإن جميع المحامين سينسحبون . وبعد مداولة قرر القاضى هدم القفص وبدأوا بنزع الواجهة .

واستمرت قراءة عريضة الاتهام يومين حاول المدعى العام أن يثبت للمحكمة أن المتهمين بمساعدة دولة أجنبية كانوا يخططون لقلب نظام الحكم القائم باستعمال العنف وفرض حكم شيوعى على جنوب إفريقيا وبرهن على ذلك بمقتطفات من الميثاق . وأفرج عنا فى اليوم الرابع بكفالة وكانت الكفالة مثلا آخر من أمثال الأبارتايد فكفالة الأبيض كانت ٢٥٠ جنيها ، ١٠٠ للهندى ، ٢٥ للإفريقى والملون وتقدم الكثيرون من مختلف مناحى الحياة ليدفعوا الكفالة لكل المتهمين كرمز للمساندة وأصبحت تلك الظاهرة فيما بعد صندوق الدفاع عن المتهمين فى قضية الخيانة وبدأه الأسقف ريفز ومجموعة أخرى وتم الأفراج عنا على أن نثبت حضورنا فى مقر الشرطة مرة كل أسبوع ومنعنا من حضور أية إجتماعات عامة . وتقرر نظر القضية فى يناير .

- ٢٤ -

بدأ زواجى من إيفلين فى التداعى قبل المحاكمة . كانت قد بدأت تدرس التوليد فى دربان وكان ذلك يبعدها أشهرا عن المنزل . وكان ذلك ممكنا فى حينه حيث كانت أمى وأختى تقيمان معنا . ونجحت إيفلين وعادت إلى المنزل وكانت حاملا ثم ولدت لنا طفلة اسميناها مكازيوى تسميا بتلك التى فقدناها . وفى غضون السنة التالية بدأت تندمج فى نشاط

جمعية شهود چيهوڤا وتوزع منشوراتهم وحاولت أن تضمنى لصفوفهم كبديل عن التزامى بالمعركة . ولكن انشغالى بالنضال قد أقلق إيڤيلين التى كانت تعتقد أن السياسة تمضية وقت للشباب وأننى يوما سأعود إلى ترانسكي وأمارس المحاماة هناك وشرحت لها مليا مبينا أن السياسة هى عمل حياتي وجزء أساسى من كيانى ولم تتقبل ذلك بينما حاولت هى اقناعي بقيمة الإيمان والتدين وإن قلت لها أنى أخدم الأمة كانت ترد قائلة : إن خدمة الله أهم من خدمة الأمة . ولم تكن بيننا أرض مشتركة وأصبح الزواج واهنا .

وتنازعنا أيضا حول قلوب وعقول الأطفال فقد كانت تريد لهم أن يكونوا متدينين وكنت أعتقد أنهم لابد أن يسيسوا وكانت تصطحبهم إلى الكنيسة وتعطيهم المنشورات ليوزعوها وكنت أناقش الأولاد فى السياسة وكان ثيمبى عضوا فى منظمة الرواد فى المؤتمر .

وكان برنامجى فى تلك الأيام قاسيا فكنت أترك المنزل فى الصباح الباكر وأعود متأخرا فى الليل إذ أنى كنت أحضر اللقاءات فى المساء ولم تكن إيڤيلين تفهم ذلك وأخذت تشك أن لى علاقات نسائية . وفى عام ١٩٥٥ وجهت لى إنذارا أن أترك المؤتمر وحاول وولتر وزوجته ألبرتينا التدخل وعندما حاول وولتر أن يحادثنى فى الأمر لم أعطه فرصه . وذات يوم اصطحب وولتر شقيق زوجتى إلى مكتبى وحاولنا مناقشة الأمر ولكن لم تفلح المحاولة .

وبعد القبض علينا فى ديسمبر حضرت إيڤيلين لزيارتى مرة واحدة وعند خروجى من السجن وجدت أنها انتقلت من

المنزل وأخذت الأولاد . وكانت خلافاتنا لا يمكن حسمها فلم أكن بمستطيع ترك المعركة ولم تكن هي لتقبل سوى أن أكرس نفسي لها وللأولاد . ولم أفقد أبدا اعجابي بها واحترامي لها ولكننا في النهاية لم نستطع انجاح الزواج .

- ٢٥ -

وفي التاسع من يناير عام ١٩٥٧ اجتمعنا مرة أخرى في صالة التدريب وجاء دور الدفاع ليفند ادعاءات الدولة . وفي دفاعه قال بيرانجيه أن مبادئ الميثاق قد تكون متعارضة مع سياسة الدولة ولكنها تمثل معتقدات الغالبية العظمى في العالم من مختلف الأعراق والألوان كما أنها معتقدات الغالبية العظمى في جنوب افريقيا . فقد كان خط دفاعنا ينصب على عدم اثبات براءتنا فقط بل أيضا على إثبات أن الحكومة تضطهدنا للقيام بأعمال مبررة أخلاقيا .

وبعد ذلك أخذت الدولة تستعرض أدلة الإتهام الأمر الذى استغرق شهرا . وكانت الأدلة تشمل أشياء تتراوح بين اعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة وكتاب طهى روسى . وخلال الفحص المبدئى الذى استمر لعدة شهور استمعنا إلى رجال الأمن ومن الشرطة السرية من البيض والسود يقرأون ما دونوه فى مذاكرتهم المشوشة والملفقة عن اجتماعات المؤتمر .

وخلال الشهور الستة التى استغرقتها المحاكمة أكدت الدولة أنها ستقدم برهانا على التخطيط للعنف وكان شاهد الدولة الرئيسى هو سولومون نجوباسى وكان يقضى عقوبة

عن جريمة احتيال . وقد قال فى البدء أنه يحمل درجة الليسانس من فورت هير وأنه يعمل محاميا وأنه كان سكرتير المؤتمر فى بورت إليزابث وعضوا فى اللجنة المركزية وأنه كان حاضرا فى اجتماع اللجنة المركزية حينما اتخذ قرار بسفر وولتر سيسولو وداقيد بوبابى إلى الاتحاد السوفييتى للحصول على أسلحة للقيام بثورة عنيفة فى جنوب إفريقيا . وأضاف أشياء أخرى منها أننا كنا نخطط لأعمال شغب واغتيال جميع البيض فى ترانسكى كما تفعل الماوماو فى كينيا وقد سببت شهادة نجوباسى قلقا وهياجا فى المحكمة ولكن استجواب بيرانچيه له أثبت أنه كذاب ومجنون معا . فقد برهن على أنه ليس خريجا من الجامعة وليس عضوا فى المؤتمر وأنه قام بتزوير شهادات جامعية ومارس المحاماة بشكل غير قانونى هذا إلى جانب قضية الاحتيال المتهم فيها وأثبت أن شهادته كلها لا أساس لها من القيمة .

وقد قام جوسو لوفو أحد المتهمين وكان محاميا بالدفاع عن نفسه وأثبت فى استجوابه لرجال البوليس السرى تلفيقهم للتهم حيث أن بعضهم لا يعرف الإنجليزية أطلاقا وادعى أنه حضر اجتماعات المؤتمر وسجل مذكرات بما جرى .

واخيرا وفى ١١ سبتمبر أى بعد عشرة أشهر من تجمعنا فى صالة التدريس أعلن المدعى أن المراحل التمهيدية للقضية قد استكملت وأعطى الدفاع أربعة أشهر للإطلاع على ثمانية آلاف صفحة مطبوعة من البراهين ضدنا وأثنتى عشر ألف وثيقة . وانفضت المحكمة فى سبتمبر وبدأت هيئة الدفاع فى مراجعة القرائن . وبعد ثلاثة أشهر أعلنت الدولة إسقاط

التهم عن واحد وستين متهما من بينهم لوثولى وتامبو.

وبعد ثلاثة عشر شهرا من الفحص المبدئى وجد القاضى أسبابا كافية لمحاكمتنا أمام محكمة الترنسقال العليا بتهمة الخيانة العظمى .

- ٢٦ -

فى عصر يوم من الأيام وأثناء الاستراحة فى الفحص المبدئى كنت أقوم بتوصيل صديق لى ومررت قريبا من محطة للحافلات ومن طرف عينى رمقت فتاة جميلة تنتظر الحافلة . ثم نظرت خلفى لأتملى منها لكن سيارتى كانت قد قطعت مسافة .

وبعد أسابيع كنت فى المكتب وخرجت من غرفتى لأرى أوليڤر ووجدت نفس الفتاة جالسة مع أخيها أمام مكتب أوليڤر وقدمنى أوليڤر لهما قائلا إنهما جاءا لاستشارة قانونية . كان إسمها نومزامو وينيفريد مايكيزيلا وتعرف بوينى وقد أكملت دراستها فى مدرسة الخدمة الاجتماعية وكانت أول سوداء تعمل اخصائية اجتماعية فى أحد المستشفيات . ومن أول لقاء أردت وينى زوجة لى .

واتصلت بها هاتفيا وطلبت منها المساعدة فى جمع أموال لقضية الخيانة ودعوتها للغداء ثم ذهبنا لنزهة بالسيارة وكلمتها عن آمالى وعن مصاعب المحاكمة وأخبرتها أنى أريد أن أتزوجها . لقد شعرت بمجرد رؤيتها بتفتحها للحياة وعاطفتها الجياشة وشجاعتها واصرارها . وخلال الشهور التالية كنا نلتقى كلما استطعنا كما قامت هى بزيارتى فى صالة التدريب وفى المكتب وقابلت أولادى ثمبى وماكجاثو

وماكازيوى وحضرت الاجتماعات السياسية وقد كنت أتودد إليها وأسّيسها فى نفس الوقت .

وبعد ذلك اتخذت اجراءات الطلاق من ايفيلين . وكانت المحاكمة قد دخلت عامها الثانى وألقت بثقلها الخانق على عملنا فى المكتب الذى بدأ فى التدهور لأننا لم نكن باستطاعتنا التواجد هناك وكنا نواجهه أنا أوليڤر مشاكل مادية . وكان أوليڤر وبعد سقوط التهم عنه يعمل ساعات تعويضية لكن الضرر كان قد وقع وأصبحنا نبحث عن عملاء . وشرحت تلك الظروف لوينى وأخبرتها أننا من المحتمل أن نعيش على راتبها الصغير ووافقت ولم أعدها بالماس والذهب ولم أستطع أبدا أن أعطها ذلك وتم الزواج فى ١٤ يونيو عام ١٩٥٨ .

ورغم أننى كنت أحاكم بتهمة الخيانة فقد منحتنى وينى الأمل وشعرت أن فرصة ثانية للحياة قد أتيحت لى .

- ٢٧ -

كان الحدث الهام الذى ينتظر البلاد فى عام ١٩٥٨ هو الإنتخابات العامة وكان المؤتمر يرى أن علينا ألا ندع المناسبة تمر دون عمل فإن هزيمة حزب القوميين كانت مصلحة لنا .

واتحدت المنظمات الأربعة ودعونا إلى اضراب وبدأت حملتنا التى كان شعارها "يجب أن يذهب القوميون" وكان قادة الحملة يعملون فى السر وفى يوم الأضراب أجرينا الاتصالات من مخابئنا بالقيادات المختلفة وأرسلنا أشخاصا

إلى الأماكن الاستراتيجية فى المدن لتقرير مدى استجابة الناس للإضراب وكانت التقارير تقول إن الناس قد تجاهلوا الاضراب . وقررنا إلغاء الدعوة للإضراب ورغم أن التراجع كان مهينا شعرنا أن الإمتهان الأكبر هو عدم التراجع .

ولكن ما حدث أنه كان هناك مناطق لم تسمع بالإضراب ففى اليوم التالى كانت الاستجابة حسنة فى بورت إليزابث . وعلى أية حال فقد فاز القوميون بزيادة ١٠٪ من الأصوات .

- ٢٨ -

قررت الحكومة تطبيق نظام تصاريح المرور على النساء وعزمت النساء على عدم الخضوع للقرار .

وفى عام ١٩٥٧ وتحت تأثير التنظيم النسائى للمؤتمر أظهرت النساء فى جميع أنحاء البلاد غضبهن ضد اصرار الحكومة على قرارها . وأظهرن شجاعة وحماسا فى احتجاجهن حتى صارت مقاومتهن معيارا لا يضاهى فى الاحتجاج على الحكومة . ففى جوهانسبرج تجمعن خارج مكتب التصاريح الرئيسى وقمن بتفريق النساء اللائى جئن للحصول على تصاريح والموظفين الذين يعملون بالمكتب الأمر الذى أوقف العمل واعتقلت الشرطة المئات منهن .

وذات يوم أخبرتنى وينى أنها تعتزم أن تنضم للنساء المحتجات فى اجتماعهن فى اليوم التالى عند مكتب التصاريخ ورغم أعجابى بإلتزامها وشجاعتها فقد كنت حذرا . فقد كانت وينى قد انضمت إلى فرع المؤتمر النسائى فى غرب أورلاندو . وقلت لها إنى أرحب بقرارها لكنى حذرتها من

تلك الخطوة التى ستغير حياتها . فقد كانت تنتمى إلى أسرة ميسورة بالمعايير الإفريقية ولم تكن قد تعرضت لواقع الحياة البغيض في جنوب إفريقيا . وأخبرتها أنه إذا تم القبض عليها فستفقد وظيفتها التى يقيم دخلها أودنا هذا بالإضافة إلى كونها حامل . فقد كنت أشعر أننى كقائد للمعركة . وكزوج يجب أن أوضح لها نتائج عملها . ولكنها كانت قد عقدت العزم وفى الصباح اصطحبتها بالسيارة إلى المحطة التى كانت النساء ستستقل منها القطار إلى المدينة وعرفت أنها قد بدأت رحلة الأخطار الطويلة .

وتجمعت مئات النساء عند مكتب البريد الرئيسى . كان هناك الفتيات والكبيرات السن وكانت هناك من يحملن أطفالهن على ظهورهن الفتيات ومن يلتحفن بالبطاطين القبلية ومن يرتدين ملابس أنيقة . ونظمن المسيرات وأطلقن الأناشيد والأغنيات . وخلال دقائق حاصرهن رجال الشرطة المسلحون وألقوا القبض عليهن واقتادوهن إلى نقطة شرطة ميدان مارشال . وبدت النساء مبتهجات وكن يلقين إلى مراسلى الصحافة بعبارات التحدى الفكاهية . وقد تم اعتقال ألف امرأة فى ذلك اليوم . ومثل "مانيدللا وتامبو" معظم النساء اللائى ألقى القبض عليهن وتوجهت لقسم الشرطة لعمل ترتيبات الكفالة ورأيت وينى مبتهجة هناك . وفى اليوم التالى تم اعتقال ألف امرأة أخرى وأحيلت بعضهن للقلعة لتنتظرن المحاكمة . وقد سبب ذلك متاعب للسلطات إذ لم تكن هناك أماكن لهن جميعا هذا بالإضافة إلى عدم وجود أغطية وحصر ومراحيض كافية . ورغم أننى والقادة الآخرين كنا نحاول الإفراج عنهن بالكفالة فقد عارضت ليليان نجويى رئيسة

التنظيم النسائى وقيادات أخرى ذلك الإجراء ورأت أن تقضى النساء مدة العقوبة التى يحكم عليهن بها من أجل فاعلية ومصداقية الاحتجاج . وكحل وسط اتفقت مع ليليان أن تقضى النساء إسبوعين فى السجن نقوم بعدها بتقديم الكفالة .

- ٢٩ -

كنا لمدة أشهر نستعد لمحاكمتنا الرسمية التى كان موعدها أغسطس عام ١٩٥٨ وكانت الحكومة قد كونت هيئة محكمة عليا خاصة من القضاة رامف ، وكيندى ، ولودورف وكان لثلاثتهم صلة بالحزب الحاكم هذا بالإضافة إلى شهرة كينيدى "كقاضى الإعدام" حيث أنه قد حكم بالإعدام على ثلاثة وعشرين إفريقيا بتهمة قتل اثنين من رجال الشرطة البيض .

ونقلت الدولة مكان المحاكمة إلى بريتوريا على بعد ٣٦ ميلا . وكان جميع المتهمين وهيئة الدفاع من سكان جوهانسبرج مما ألزمنا بالسفر يوميا ما استلزمه ذلك من ضياع الوقت وزيادة النفقات هذا بالاضافة إلى ما عناه القرار من تحطيم معنوياتنا بعزلنا عن مؤيدينا إذ كانت بريتوريا من معاقل الحزب الحاكم ولم يكن للمؤتمر هناك سوى تواجد طفيف . وكانت رحلة الذهاب التى كانت تبدأ فى السادسة صباحا والعودة فى الحافلة غير المريحة ذات المقاعد الخشبية الطويلة تستغرق خمس ساعات يوميا .

كان فريق دفاعنا بقيادة إسرائيل ميسلز فريقا نضاليا

قويا . وبدأ ميسلز بطلب تغيير القاضيين لودورف ورامف باعتبار أن لهما اهتمامات تمنعهما من اتخاذ قرارات عادلة حيث كان رامف قاضى محاكمات التحدى وكان لودورف ممثل الحكومة عام ١٩٥٤ فى قضية لنا ضد الشرطة . كان ذلك الطلب استراتيجية خطرة لعلمنا أن هناك قضاة أسوأ بكثير من هذين وكنا أيضا على ثقة أن رامف يقف دائما مع القانون رغم انتماءاته السياسية . وأعلن لودورف انسحابه ورفض رامف قائلا أن تحكيمه فى قضية التحدى لن يكون له أثر على هذه القضية وعينت الحكومة القاضى بيكر محل لودورف ولقى منا الترحيب حيث لم تكن له ارتباطات بالقوميين .

وبعد ذلك حاولنا اثبات عدم صحة قرار الاتهام على أساس عدم الوضوح والدقة حيث أن أساس الإتهام بالخيانة العظمى وهو التخطيط للعنف لم يثبت . وبدا القضاة الثلاثة مقتنعين بذلك وبعد محاولات قانونية استمرت شهرين وفى ١٣ أكتوبر أعلنت الدولة فجأة سحب الإتهام بالكامل . وبعد شهر أصدر المدعى العام اتهاما آخر صيغ بعناية ودقة قائلا إن المحاكمة ستستمر ضد ثلاثين من المتهمين من بينهم أنا وأن الآخرين سيحاكمون فيما بعد . واستمرت المحاكمة شهورا عديدة قضيت معظمها فى مناورات قانونية عقيمة . ورغم نجاح هيئة الدفاع فى ايضاح زيف الادعاء فإن الحكومة استمرت وأعلن وزير العدل وقتها أن المحاكمة ستستمر رغم الملايين التى ستتكلفها .

وفى ٤ فبراير ١٩٥٨ وضعت وينى طفلتنا التى أسميناها زينانى ويعنى الإسم "ماذا أحضرت إلى العالم" ويجسد

التحدى . وحضرت أمى لمساعدة وينى .

- ٣٠ -

في ٦ إبريل ١٩٥٩ وفى الذكرى السنوية لرسو جان فان رايبيك في الكيب ولدت منظمة جديدة أخذت تعمل على منافسة المؤتمر كمنظمة إفريقية رائدة فى جنوب إفريقيا . كانت المنظمة تدعى "مجلس كل الأفارقة" وقد أعلنت منذ البداية رفضها لسياسة كل الأعراق التى يتبعها المؤتمر . وكان الأعضاء المؤسسون يعتقدون أن منظمة المؤتمر ليست نضالية بالدرجة الكافية وأن أعضاءها لا يرتبطون بالجماهير وأنها يسيطر عليها غير الأفارقة . وتم انتخاب روبرت سوبوكوى رئيسا وبوتلاكو ليبالو أمينا عاما وكلاهما من الأعضاء السابقين لتنظيم الشباب . وفى الخطاب الافتتاحى دعا سوبوكوى إلى حكم الأفارقة للأفارقة ومن أجل الأفارقة وقدمت المنظمة مانيفستو ودستورا . وأعلنت أنها تنوى الإطاحة بسيادة البيض وأن تؤسس من الأفارقة اشتراكية قوامها الديمقراطية واستنكرت الشيوعية بجميع أشكالها واعتبرت البيض والهنود أقليات أجنبية ليس لها مكان فى جنوب إفريقيا .

ولم يسبب ميلاد المنظمة الجديدة لنا الدهشة فقد كان الأفارقة القوميون فى المؤتمر يجهرون بالشكوى منذ أكثر من ثلاث سنوات ، وفى عام ١٩٥٧ دعوا إلى سحب الثقة من اللجنة التنفيذية للترنسفال ولكنهم هزموا وعارضوا قرارات عديدة للمؤتمر مما أدى إلى فصل ليبالو وكان مجموعة الأفارقة القوميين قد عارضوا الميثاق على أساس أنه خرق

لمبادىء القومية الإفريقية . ورفعت المنظمة الجديدة شعارات إفريقيا للأفارقة والولايات المتحدة الإفريقية .

وكان المؤسسون أصدقاء وزملاء لي وشعرت بالاستياء أن راديبى معلمى السياسى قد انضم للمنظمة الجديدة رغم كونه عضوا سابقا فى الحزب الشيوعى .

وكان عديد ممن انضموا للمنظمة الجديدة قد فعلوا ذلك لأسباب شخصية منها الغيرة والرغبة فى الانتقام . وكان اعتقادى دائما أن على المقاتل من أجل الحرية أن يكبت كثيرا من المشاعر الشخصية التى تجعل منه فردا مستقلا بدلا من جزء من حركة جماهيرية واعتقدت أن كثيرا من آراء وتصرفات غير ناضجة . ورغم تعاطفى مع آراء الأفارقة القوميين وأن كثيرا من آرائهم ضمن معتقداتى فى وقت من الأوقات فقد كنت أعتقد أن النضال من أجل الحرية يتطلب من الإنسان القبول بآراء وسيطة وتقبل نظم قاومها حينما كان أحدث سنا .

وقدمت برنامج عمل مثيرا وطموحا يعد بالحلول السريعة وكان ضمن ذلك الوعد بأن التحرير سيتم عام ١٩٦٣ . ورغم أن ذلك التنبؤ أثار الأمل والحماس بين الجماهير التى تعبت من الانتظار فإنه لمن الخطر أن تعد منظمة جديدة بما لا تستطيع تنفيذه .

ورغم ترحيبنا الدائم بانضمام أى شخص لمعركة الكفاح فإن المنظمة الجديدة كانت كثيرا ما تقوم بدور المفسد . فقد أدت إلى تقسيم الناس فى لحظة حرجة . فكانوا مثلا يطلبون من الناس الذهاب إلى العمل فى وقت نكون قد دعونا فيه إلى

الإضراب وكانت تصدر تصريحات مضللة ترد بها على تصريحاتنا . لكننى كنت آمل فى الوحدة بين المنظمتين رغم أن المؤسسين كانوا قد انفصلوا عن المؤتمر . وهكذا بدأت أهتم بنشاط تلك المنظمة وسياستها على أمل أن أجد مماثلا أكثر من الإختلاف الظاهر .

- ٣١ -

وفى عام ١٩٥٩ أقر البرلمان قانون الحكم الذاتى للبانتو الذى أدى إلى خلق ثمانى بانتوستانات عرقية منفصلة وكان ذلك تأسيسا لما أسمته الدولة بالأبارتايد الأعظم . وتبع ذلك قرار منع غير البيض من الالتحاق بالجامعات التى كانت تقبلهم بحجة استحالة دمج الأفارقة فى مجتمع أبيض . وطبقا للقانون الجديد فقد حرمنا نحن الأفارقة الذين نعيش فى مناطق "البيض" من الحرية فى تلك المناطق ومن الإستقلال فى "مناطقنا" العرقية .

وحدثت مقاومة شديدة للقانون الجديد فى المناطق الإفريقية اعتقل على اثرها عشرات الأبرياء وحوكموا وسجنوا ونفوا وعذبوا وقتلوا . ووصلت المقاومة فى سكهوكهو نيلاند إلى تحد علنى رفض الناس على إثره دفع الضرائب وكان المؤتمر قد لعب دورا قائدا فى الاحتجاج فى تلك المنطقة وفى منطقة زيروست . وانبثقت فروع جديدة للمؤتمر فى زيروست لحق بعضويتها ألفان وحظر نشاط المؤتمر هناك . كما انفجرت المقاومة فى أماكن اخرى عديدة قوبلت بالقمع . أما فى ثمبولاند فقد كانت المقاومة قد بدأت منذ عام ١٩٥٥ وكان ساباتا أحد قوى الاحتجاج .

وقد آلمنى أن يتوجه غضب الناس فى ترانسكى إلى داليونجا الذى كان يتعاون مع الحكومة والذى كان ابن أخى ومعلمى فى وقت من الأوقات . واتخذ هو ضد المواطنين إجراءات تعسفية وكانت هناك محاولات عدة لاغتياله . وكان مصدر ألم آخر لى هو أن والد وينى كان من مؤيدى الحكومة .

- ٣٢ -

وفى ٣ أغسطس وبعد عامين وثمانية أشهر من اتهامنا بدأت محاكمتنا الفعلية . وقد ضمت المحكمة حوالى ألفين من الوثائق إلى ملف الدعوة ودعت مائتين وعشر شهود منهم مائتين من أعضاء الشرطة السرية الدين اعترفوا أنهم قاموا بالاختباء فى دواليبنا وتحت أسرتنا والتخفى كأعضاء فى المؤتمر بالاضافة إلى العديد من الوسائل الأخرى لجمع المعلومات . وكانت معظم الوثائق عبارة عن كتب وأوراق ضبطت فى حملات التفتيش ومذكرات كتبها رجال الشرطة السرية أثناء اجتماعنا وكانت معظمها مشوشة .

وبدأ استجواب الشهود ورغم حجم الوثائق المقدمة فلم يكن بها ما يديننا . وفى مارس أعلن الادعاء أنه أتى بدليل الإدانة القاطع وكان ذلك تسجيلا لكلمة ألقاها روبرت ريشا على عدد من المتطوعين قبل أسابيع من إلقاء القبض علينا وجاء فيها "إذا طلبت المنظمة منكم عدم استعمال العنف فيجب عليكم ألا تستعملوه . وإذا كنت متطوعا حقا واطلب إليك أن تستعمل العنف فعليك أن تصبح عنيفا لأقصى درجة ، لابد أن تقتل .. تقتل .. وهذا هو كل شىء"

واعتقد المدعى أنه قد ختم القضية ورددت الصحف كلمات ريشا واعتبرت الدولة والصحافة أنها قد كشفت النقاب عن ادعاءات المؤتمر بعدم استعمال العنف . وكانت كلمات ريشا غير معتادة وكما أثبت الدفاع فقد كان يؤكد على أهمية النظام وعلى أن يفعل المتطوع ما يطلب منه مهما كان لا يروقه وكانت تلك الكلمات مقتطعة من السياق كما برهن الشهود .

وبعد ذلك كان علينا استدعاء الشهود وكان شاهدنا الأول هو د . ويلسون كونكو على خلاف جميع التوقعات فى أن يكون هو الرئيس لوثولى . وكان كونكو من زولو إقليم الناتال وكان طبيبا ممارسا نابها وضمن مؤسسى تنظيم الشباب وأحد الذين شاركوا فى حملة التحدى . وكنا قد طلبنا ضم سجله فى جامعة ويتس حيث كان الأول على دفعته إلى القضية . وقد بدا على القاضى كيندى أنه هو الآخر فخور به حيث أنه كان هو ناتاليا أيضا . وقد سبب وجود كونكو أن ينظر إلينا كيندى على أننا لسنا مثيرى شغب بل رجال لهم طموحاتهم . وقد برهن كونكو فى شهادته التزام المؤتمر بعدم العنف . وبعد ذلك صعد الرئيس لوثولى منصة الشهادة وترك أثرا إيجابيا على الهيئة القاضية لوقاره وصدقه وقد استمرت شهادته عدة أيام برهن فيها بصدق سعى المؤتمر إلى التناسق الاجتماعى كما وضح أن هناك فرقا بين عدم العنف والمسالمة فإن الذين يميلون الى عدم العنف يدافعون عن أنفسهم إذا هوجموا على عكس المسالمين . ولكن وقع حدث هام فى جنوب إفريقيا يوم ٢١ مارس قطع سير شهادة لوثولى وحينما عاد مرة أخرى كانت جنوب إفريقيا قد تغيرت كثيرا .

في ديسمبر عام ١٩٥٩ عقد الاجتماع السنوى للمؤتمر فى دربان وسط مظاهرات صاخبة ضد تصاريح المرور وقرر المجتمعون بالاجماع بدء حملة على مستوى البلاد ضد التصاريح يوم ٣١ مارس تبلغ ذروتها يوم ٢٦ يونيو بحرق جماعى للتصاريح .

وبدأت الحملة فورا وأرسلت الوفود إلى السلطات المحلية وجاب موظفو المؤتمر البلاد متحدثين عن الحملة وسرت الأخبار فى المناطق والمصانع وتم طبع منشورات وملصقات وتوزيعها ولصقها فى القطارات والحافلات . وأخذت الدولة تهدد بحظر المؤتمر . أما فى أنحاء إفريقيا فكانت مسيرة الحرية تتقدم وأعلنت غانا جمهورية مستقلة برئاسة نيكروما الإفريقى القوى المعارض للأبارتايد مما سبب الذعر للحزب القومى وجعلهم أكثر اصرارا على اخماد المعارضة فى البلاد . وفى عام ١٩٦٠ تم استقلال عدة مستعمرات سابقة فى افريقيا وأصبحت دولا مستقلة . وفى فبراير زار هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا جنوب إفريقيا وتحدث فى البرلمان عن رياح التغيير التى تهب على إفريقيا .

وكانت قيادة P.A.C تبحث عن مناسبة تضم إليها التابعين . فبدلا من أن يلحقوا بحملة المؤتمر المعارضة للتصاريح قرروا بدء حملتهم المنفردة يوم ٢١ مارس أى قبل حملتنا بعشرة أيام . وفى اليوم المحدد سار سوبوكوى ولجنته التنفيذية إلى مركز الشرطة ليسلم نفسه للحبس معلنا أنه لن

يدافع عن نفسه أو يدفع غرامة أو يخرج بكفالة فقد اعتقد أن حبسهم لن يتجاوز الأسابيع وبدلا من ذلك حكم بسجنهم ثلاث سنوات دون أى خيار آخر .

ورغم أن دعوة الـ P.A.C لم تلق استجابة قوية فى جوهانسبرج . ففى ايڤاتون تقدم عدة مئات للشرطة طالبين إلقاء القبض عليهم لعدم حملهم التصاريح . كما حدثت مظاهرة ضخمة من حوالى ٣٠٫٠٠٠ شخص فى كيب تاون ووقعت حوادث شغب قتل فيها إثنان . وكانت آخر الأماكن التى وقعت فيها مظاهرات هى شاربڤيل حيث انتهى الأمر بمأساة . فقد توجه عدة آلاف إلى الشرطة وكانوا هادئين غير مسلحين ونظرا لتفوقهم العددى شعرت قوة الشرطة وعددها خمسة وسبعين بالخوف وفتحت نيرانها على الجموع التى استدارت وبدأت فى الهرب من الرصاص . وكانت النتيجة مقتل ستة وتسعين إفريقيا أصيب معظمهم برصاص فى ظهره وبلغ عدد الجرحى أكثر من أربعمائة من بينهم عشرات النساء والأطفال . وكانت مذبحة نشرت صورها صحف العالم وأثارت ردود فعل عنيفة على المستوى المحلى والدولى وصدرت احتجاجات غاضبة من جميع أنحاء العالم بما فيها المصادر الرسمية الأمريكية . ولأول مرة يتدخل مجلس الأمن فى شئون جنوب إفريقيا ويصدر لوما للحكومة ويطالبها ببدء خطوات لإحلال المساواة بين الأعراق وهبطت أسعار البورصة وبدأ تهريب رؤوس الأموال ألى الخارج وأخذ البيض فى رسم خطط الهجرة بينما أصدرت الحكومة بيانا قالت فيه أن أحداث شاربڤيل كان مؤامرة شيوعية .

وقد خلقت تلك الأحداث موقفا جديدا فى البلاد فرغم عدم نضج وانتهازية بعض القيادات فقد أظهرت المنظمة شجاعة وقوة احتمال فى المظاهرات في شاربڤيل . وفى خلال يوم واحد احتلت المنظمة الصفوف الأمامية في المقاومة ولقى سوبوكوى الترحيب في الداخل والخارج كمخلص للبلاد وقائد لحركة التحرير .وكان على المؤتمر أن يقوم بتعديل خططه طبقا للموقف الجديد .

وعقدت جماعة صغيرة منا ـ وولتر ودومانوكوى وچو سلوڤو وأنا ـ اجتماعا دام طوال الليل للتخطيط لرد الفعل . وكنا نعرف أن علينا أن نعلن علمنا بالأحداث وأن نهيىء للناس فرصة للتعبير عن غضبهم وحزنهم . وأخبرنا الرئيس لوثولى بخطتنا وفى ٢٦ مارس قام بنفسه بإحراق جواز مروره علنا فى بريتوريا ودعا الآخرين أن يفعلوا مثله وأعلن يوم ٢٨ مارس يوما يلزم المواطنون فيه منازلهم للحداد والاحتجاج على وحشية حوادث شاربڤيل وقمت أنا ودوما نوكوى بحرق تصاريحنا فى أورلاندو أمام مئات الناس ومراسلى الصحف .

وفى يوم ٢٨ مارس كانت هناك استجابة رائعة لدعوة الرئيس وأثبت ذلك جماهيرية المؤتمر كمنظمة . وفى كيب تاون اجتمع حوالى خمسين ألفا فى منطقة لانجا للاحتجاج . وثارت أحداث شغب فى أماكن عديدة . وأعلنت الحكومة حالة الطوارىء وأعطت لنفسها سلطات واسعة فى اتخاذ الاجراءات ضد أى نوع من العصيان وباتت جنوب إفريقيا خاضعة للأحكام العسكرية .

فى الواحدة والنصف من صباح ٣٠ مارس استيقظت ء
صوت طرقات معادية على الباب وعرفت أنها الشرطة وفتد
الباب لأجد عددا من رجال الشرطة المسلحين الذين قام
بقلب المنزل رأسا على عقب وأخذوا معهم كل قصاصة ور
وجدوها حتى السجلات التى كنت أقوم بجمعها عن ذكريا
والدتى عن التاريخ والأساطير القبلية . وتم القبض علىَّ دو
اعطائى فرصة للاتصال بمحاميى وأخذت إلى مركز شرط
نيوزلاند فى صوفيا تاون حيث وجدت عددا من زملائى بينه
وصل آخرون أثناء الليل ووصل عددنا أربعين . وفى السابع
والنصف صباحا نقلنا إلى زنزانة صغيرة بها حفرة فى الأرض
ولم نعط أى بطاطين أو حصائر .

وأخذت الحفرة فى الانسداد بانتظام وأصبحت الرائحة لا
تحتمل . واحتججنا وقوبل الاحتجاج بالصمت فقررنا الاندفاع
حين فتح الباب ورفض العودة لحين احضار طعام ولما فعلنا
ذلك أمرنا الجاويش بالعودة فورا وإلا أحضر خمسين شرطيا
بهراوات لكسر رؤوسنا . وفعلنا .

وفى الثالثة ظهرا وضعوا لنا اناء به ثريد ذرة دون أى
أدوات إطعام ورغم ذلك أكلنا بأيدينا غير المغسولة نظرا لشدة
جوعنا . وبعد ذلك انتخبنا لجنة كنت متحدثها وكتبنا طلبا
نحتج فيه على الظروف غير المناسبة ونطلب الإفراج عنا على
أساس عدم قانونية احتجازنا . وفى السادسة مساء أحضروا
لنا بطاطين وحصرا ملوثة بالدماء الجافة والقىء وترعى فيها
الحشرات والهوام كالقمل والصراصير ومنبعث منها رائحة

تنافس رائحة البالوعة . وفى منتصف الليل بدأوا فى استدعائنا وكنت أول المستدعين ووجهوا إلينا أسئلة أعيد بناء عليها إلقاء القبض علينا طبقا لقانون الطوارىء . وفى الصباح قيل لنا أن علينا أن نرحل إلى بريتوريا لحضور جلسة المحاكمة .

- ٣٥ -

وكانت المحاكمة قد استؤنفت فى غيابنا يوم ٣١ مارس وكان الذين حضروها هم الذين فشلت الشرطة فى إلقاء القبض عليهم . وكان على الرئيس لوثولى أن يدلى ببقية أقواله وعندما سأل عنه القاضى رامف أبلغ أنه فى حيازة الشرطة . وطلب القاضى استدعاءه ورفعت الجلسة .

وبعد ذلك اكتشفت أنه قد وقع اعتداء على الرئيس بعد القبض عليه وكانت معاملة كتلك لشخص فى مثل منزلته ، هذا بالاضافة الى مرضه بالقلب ، شيئا لا يحتمل وحينما أحضرنا مرة أخرى إلى المحكمة أبلغ القاضى أن الشرطة رفضت احضار لوثولى وتأجلت الجلسة . وألقى القبض علينا مرة أخرى وسط هرج وفوضى . ووقعت يومها الشرطة فى خطأ مضحك . فقد كان ويلتون مكوايى أحد العناصر النشيطة فى المؤتمر قد حضر من بريتوريا لحضور المحاكمة وحدث أن أنفصل عن زملائه المسجونين داخل القاعة وحينما أراد الخروج ورأى الحلقة التى كان قد أحدثها اعادة القبض علينا سأل رجل الشرطة عن الأمر فأخبره أن ذلك لا يخصه فلما أبلغه أنه أحد المقبوض عليهم أهانه الضابط وهدده وانصرف ويلتون واختبأ لعدة أشهر ثم تم تهريبه خارج البلاد ليظهر مرة

أخرى كممثل اتحاد النقابات التجارية فى الخارج وليذهب بعد ذلك إلى الصين ليدرب عسكريا .

وكانت الحملة قد اسفرت عن اعتقال أكثر من ألفى شخص فى جميع أنحاء البلاد رجالا ونساء من جميع الأعراق وكلهم معارضون للأبارتايد . وفى يوم ٨ إبريل أعلن المؤتمر P.A.C ومنظمتين غير قانونيتين وأصبحت عضويتهما جريمة تعاقب بالغرامة والحبس وكانت عقوبة تعزيز أهداف المؤتمر عشر سنوات سجن وهكذا أصبحنا جميعا خارجين على القانون .

ونقلنا إلى سجن بريتوريا الذى أصبح منزلا لنا لمدة طويلة . فقد كنا نغادره فى الصباح إلى المحكمة ونعود إليه بعد الظهر . وطبقا لتعاليم الأبارتايد كان السجن يفصل بين المحتجزين طبقا للون البشرة وكانت الوجبات تحدد طبقا للون البشرة . فكانت تصرف فى الأفطار كميات متساوية للأفارقة والهنود والملونين لكن الهنود والملونين كانوا يحظون بنصف ملعقة سكر للفرد . وكانت وجبات العشاء موحدة إلا أنه لم يكن يصرف خبز للأفارقة . أما طعام البيض فكان متميزا حتى فى النوعيات التى تقدم .

وكنت أثناء مدة الحجز أتمتع برحلات عمل فى نهاية الأسبوع إلى جوهانسبرج . فقبيل إعلان حالة الطوارىء غادر أوليفر جنوب إفريقيا عملا بأوامر المؤتمر الذى كان قد قرر أنه يجب سفر بعض الأعضاء لتقوية المنظمة فى الخارج تحسبا لليوم الذى تحظر فيه . وكانت مناورة أوليفر من ضمن الأعمال الموفقة من جانب المؤتمر حيث لم تكن وقتها نتخيل الأهمية الحيوية التى ستكون للجناح الخارجى . وكان أوليفر قبل

سفره قد أوكل إلى صديق مشترك لنا وهو هايمى داڤيدوڤ أمر اغلاق مكتبنا وإنهاء عملنا وقد طلب داڤيدوڤ من السلطات السماح لى بالحضور إلى المكتب ووافقت السلطات فى نوبة من الكرم .

- ٣٦ -

وفى يوم ٢٥ إبريل أى قبل استئناف المحاكمة استدعانا ميسلز لمناقشة الآثار الخطيرة لحالة الطوارئ على سير المحاكمة . وكانت الاستشارات بيننا وبين هيئة الدفاع قد أصبحت مستحيلة بسبب قانون الطوارئ . واقترحت هيئة الدفاع الإنسحاب كنوع من الاحتجاج رغم معارضة ميسلز خوفا من استفزاز القضاة . وقررنا بالإجماع أن نتولى نحن المحتجزين الدفاع عن أنفسنا وأن أتولى أنا ودوما نوكورى اعداد القضية وقام نوكورى باعلان ذلك فى المحكمة يوم ٢٦ إبريل وكانت صدمة للقضاة الذين حذورنا من مغبة تصرفنا .

وكانت استراتيجيتنا أن نطيل أمد القضية حتى انتهاء حالة الطوارئ وعند ذلك يعود محامونا ويتمكنون من الدفاع عنا فى أحوال طبيعية .

وكان من الصعب الإعداد للقضية فى السجن حيث تعوقنا أنظمة الأبارتايد فقد كنا نحتاج أن نتقابل لكن قوانين السجن كانت تمنع لقاء الرجال والنساء والبيض والسود وبعد مفاوضات مطولة مع سلطات السجن سمح لنا بالتشاور تحت ظروف مشددة وتمت إقامة فواصل حديدية شبكية تفصل البيض عن السود أثناء تلك اللقاءات . وقمنا بتدريب المتهمين على إجراءات الشهادة والدفاع .

وبعد فترة من الأدلاء أمام المحكمة بدأ التعب ينتاب البعض . وطلب أحدنا التأجيل ورفضت هيئة المحكمة مذكرة إيانا بتحذيرنا عندما طلبنا من هيئة الدفاع الانسحاب . وعندما عدنا إلى السجن تعرضت للهجوم وطالبنى البعض بالكشف عن السبب الذى من أجله أخبرتهم أن يستغنوا عن فريق الدفاع وأخبرتهم أن ذلك كان قرارا جماعيا وحذرتهم من أن يفقدوا شجاعتهم وإلا فسنواجه متاعب جمة وذكرت أن القضية أكبر من أن تكون مجرد محاكمة لخرق القانون إذ أنها إختبار لقوتنا وخمد الاحتجاج .

وعندما بدأ المتهم الثالث أحمد كاثرادا قضيته وأثناء استجوابه للشهود أعلن فيرويرد رئيس الوزراء عن قرب رفع حالة الطوارىء اعتقادا منه أن الحكومة قد قضت على معركة التحرير . عندئذ عادت هيئة الدفاع وشعرنا بالارتياح فقد كان قد مر علينا خمسة أشهر فى الحجز بدون محامين .

بدأت أقوالى يوم ٣ أغسطس وكان قد مرت علىَّ سنوات ثلاث من الصمت والحظر والنفى الداخلى وكنت أترقب تلك الفرصة لأعبر عن نفسى أمام من يحاولون الحكم علىَّ . وفى أثناء شهادتى الرئيسية قلت أننا نطالب بالحقوق الدستورية لكل البالغين وأننا مستعدون للقيام بضغوط اقتصادية لتحقيق ذلك حتى تضطر الدولة للحوار معنا . فإذا اقترحت الحكومة مثلا أنه نظرا لعدم استعداد الأوروبيين الآن أن يسيطر عليهم الأفارقة وأنها على استعداد لمنحنا ستين مقعدا فى البرلمان على أن تعيد تقييم الموقف بعد خمس سنوات فإنى أعتبر ذلك انتصارا . ولكن الدولة مصرة على كونى شيوعيا خطيرا ورغم

عدم كونى شيوعيا فأنا لا أرغب فى التباعد عن أصدقائى الشيوعيين ولهذا ورغم خطر إعادتي للسجن للادلاء بهذه الآراء فأنا لا أتردد فى التأكيد على الدعم الهائل الذى منحه إيانا الشيوعيون .

وعندئذ سئلت عما إذا كان نظام الحزب الواحد مناسبا لجنوب إفريقيا فأجبت أن المشكلة ليست مشكلة شكليات ولكنها مشكلة الديمقراطية فإن كان بالامكان التعبير الديمقراطى من خلال الحزب الواحد فلابد لى أن أبحث الأمر جيدا وكذلك أفعل إذا ما كان بالإمكان التعبير الديمقراطى من خلال التعددية الحزبية . وقلت أنه فى هذه البلد يوجد نظام متعدد الأحزاب لكن فيما يختص بغير الأوروبيين فلا توجد سوى ديكتاتورية شريرة .

وأغضبنى القاضى حينما قال إن التمثيل البرلمانى لا يجدى مع غير المتعلمين فقد نسى أن التعليم لا يعنى القراءة والكتابة فالشخص الأمى من الممكن أن يكون ناخبا متعلما يفوق من يحمل درجة جامعية . وأخبرت المحكمة أيضا أننا نعتقد بإمكانية تحقيقنا لمطالبنا دون عنف نظرا لغلبتنا العددية . وأنه عن طريق سياسة الضغط الإقتصادى كالاضرابات مثلا فلابد وأن يستجيب الأوروبيون .

ورفعت القوانين الاستثنائية آخر أغسطس وأفرج عنا واستقبلتنا الجماهير بحماس زائد وجاءت وينى إلى بريتوريا ولأول مرة منذ خمسة شهور أقضى الليل فى سريرى .

واستمرت المحاكمة بعد ذلك تسعة شهور وكانت أياما

مجيدة حيث كان بإمكان أفرادنا أن يقفوا على المنصة متحدثين عن سياسة المؤتمر . وكذلك فعلوا .

وفى أكتوبر دعى البروفسور ماثيوس كشاهد أخير . وأدى أقواله برباطة جأش وكان يعامل ممثلى الادعاء كطلبة فى حاجة إلى توبيخ وشرح بإسلوب بديع أن الأفارقة يعلمون أن المعركة القائمة على عدم استعمال العنف تتطلب معاناة وقد اختاروا ذلك لأنهم يفضلون الحرية على أى شىء آخر . وهكذا أنهى الدفاع نهاية رائعة وبعد أن أنتهى صافحه القاضى كيندى وأعرب عن أمله أن يلتقيا ثانية فى ظروف أفضل .

- ٣٧ -

وبعد رفع الطوارىء اجتمعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر سرا فى سبتمبر لمناقشة المستقبل وقررنا ألا نحل أنفسنا بل نعمل سرا وكان ذلك يتطلب توقف سياستنا الديمقراطية المبنية على الاجتماعات والمؤتمرات وخلق هياكل جديدة للاتصال بمنظمات المؤتمر غير المحظورة وكانت تلك الهياكل غير قانونية مما يعرض المشاركين للسجن وكان علينا بالضرورة حل تنظيمى الشباب والمرأة .

ورغم أن "مانديلا وتامبو" كان قد أنهى أعماله فقد كنت أمارس عملى القانونى من خلال شقة أحمد كاثرادا وتكاثر العملاء حتى أصبحوا يزحمون المكان . وكانت وينى فى ذلك الوقت حاملا للمرة الثانية وكانت تأمل أن أكون معها وقت الوضع . لكن مرض ابنى مكجاثو جعلنى أخرق أمر الحظر وأسافر إلى ترانسكى وأحضره لإجراء جراحة له فى

جوهانسبزج . وحين عدت كانت وينى فى المستشفى وأسرعت هناك لأجدها قد وضعت بنتا أسميناها زيندا زيسوا .

- ٣٨ -

واستغرقت المحكمة شهرا لتستكمل تلخيصها الأخير للقضية وفى مارس بدأ ميسلز الدفاع وأعقبه برام فيشر . ولكن المحكمة قطعت دفاع فيشر فى ٢٣ مارس وطلبت التأجيل إسبوعا .

وكان قرار الحظر مقررا له ان ينتهى عقب ذلك بيومين وقررت أن أذهب فى غفلة من الشرطة لحضور مؤتمر "الجميع فى المعركة" الذى كان هدفه اثارة القلاقل من أجل مؤتمر دستورى لجميع مواطنى جنوب إفريقيا وكان مقررا أن يعقد فى مدينة على بعد ثلاثمائة ميل وكنت أنا المتحدث الرئيسى .

وفى اليوم السابق لسفرى عقد إجتماع سرى للجنة العاملة القومية لبحث الاستراتيجية وكنا قد قررنا العمل سرا وفقا لخطة "م" . واتخذ القرار بأنه إذا لم تتم إدانتى فعلى أن أختفى وأسافر عبر البلاد لتنظيم المؤتمر المقترح كما تقرر أن أظهر فى بعض المناسبات لأعلن أن المؤتمر مازال يكافح .

وشرحت لوينى ما حدث وأخبرتها أنى سأرحل فى اليوم التالى وأننى قد أعود لبريتوريا يوم الاثنين لسماع النطق بالحكم وعلى أية حال فلن أعود إلى المنزل فإن تمت إدانتى فسأذهب إلى السجن وإذا ما ابرئت فسأختفى .

حضر المؤتمر ألف وربعمائة مندوب من أنحاء البلاد يمثلون مائة وخمسين هيئة دينية وإجتماعية وثقافية وسياسية وحينما وقفت لإلقاء كلمتى قوبلت برد فعلى حماسى ودعوت فى خطابى إلى اجتماع يجلس فيه جميع الجنوب الافريقيين فى تآخ ويأتون بدستور يمثل تطلعات البلاد ككل وإختتمت كلمتى داعيا إلى الوحدة .

ودعا مؤتمر "الكل فى المعركة" إلى مؤتمر قومى عام من ممثلين منتخبين لكل الراشدين من مبدأ التساوى لتقرير دستور جديد ديمقراطى لا عرقى . وتم انتخاب مجلس قومى للعمل انتخبت أمينا عاما شرفيا لإبلاغ هذا المطلب للحكومة . وأنه فى حالة عدم دعوة الحكومة لمثل هذا المؤتمر فسندعو إلى ثلاثة أيام من الأضراب فى المنازل يوم ٢٩ مايو الذى يوافق عيد الجمهورية فى جنوب إفريقيا .

وكان ذلك اليوم قد حدد لإعلان الجمهورية فى جنوب إفريقيا . وعقب المؤتمر وجهت خطابا إلى رئيس الوزراء ڤيرديرد اطالبه بعقد مؤتمر للدستور وأعلمته باعتزامنا الاضراب ثم اصدرت بيانا صحفيا مؤكدا أن الاضراب سيكون سلميا خاليا من العنف ولم يجب رئيس الوزراء واكتفى بوصف خطابى فى البرلمان بالصلافة .

- ٣٩ -

حتى قبل أن تفتح المحكمة أبوابها يوم ٢٩ مارس عام ١٩٦١ لسماع النطق بالحكم كان جمهور من المؤيدين والصحفيين قد احتشدوا محاولين شق طريقهم إلى الداخل .

وبعد أن استعرض القاضى رامف وقائع القضية قال أنه بناء على جميع الأدلة التى قدمت للمحكمة وعن بحث المحكمة عن الحقيقة كان من المستحيل لهيئة المحكمة أن تصل إلى استنتاج أن المؤتمر الإفريقى قد تبنى سياسة للإطاحة بالدولة بالقوة وكذلك فقد وجدت الهيئة أن الادعاء قد فشل فى أن يثبت أن المؤتمر منظمة شيوعية أو أن الميثاق تصور لدولة شيوعية . وبعد أن تحدث لمدة أربعين دقيقة قال القاضى رامف "وهكذا فقد وُجد أن المتهمين غير مذنبين وتم الإفراج عنهم" .

وانفجرت صيحات الفرح من الجمهور . وعانقنا بعضنا . ولوحنا للقاعة الممتلئة سعادة . وصاحت الجماهير فى الغناء وأخذت فى الانشاد . وعند خروجنا حمل بعضنا هيئة الدفاع على الأكتاف وأخذت الكاميرات تلتقط الصور وأخذنا نحن نبحث عن الزوجات والأصدقاء والأقارب . وجاءت وينى وتعانقنا بفرحة رغم علمى أننى لن أنعم بتلك الحرية طويلا وأخذنا جميعا نغنى لإفريقيا . وتسبب الحكم فى احراج الحكومة فى الداخل والخارج وأدى ذلك إلى شعور الدولة بالمرارة أكثر تجاهنا وتصميمها على أن تكون أكثر صرامة .

ولم أنظر للحكم على أنه تبرير للنظام القضائى فى جنوب إفريقيا أو على أن الرجل الأسود بإمكانه أن يحظى بمحاكمة عادلة فى محاكم الرجل الأبيض فقد كان حكما صحيحا وعادلا لكنه كان نتيجة وجود هيئة دفاع ممتازة وهيئة قضائية عادلة .

أما فى حالة محاكمة قضية الخيانة فإن القضاة الثلاثة سموا فوق تحيزاتهم وتعليمهم وبيئتهم . فأثناء المحاكمة كان

القاضى رامف يعطى انطباعا بأنه يشارك الأقلية الحاكمة آراءها ولكن جوهر العدالة تغلب فى حكمه . ولم يكن كيندى محافظا بنفس درجة زملائه وكان يبدو أن فكرة المساواة تروق له . فقد حدث أن كان مسافرا إلى دربان على نفس الطائرة التى كان نوكوى سيسافر عليها ولما لم يسمح لنوكوى أن يركب الحافلة التى كانت ستقلهم إلى المطار رفض كيندى أن يستقلها . أما بيكر فبدا لى دائما أنه متفتح عقليا وأنه كان على دراية بأن المتهمين قد عانوا كثيرا . وإنى لأمتدح هؤلاء الثلاثة كأفراد وليس كممثلين للمحكمة أو الدولة أو جنسهم .

الجـزء السـادس
البيمبـرنيـل الأسـود

- ٤٠ -

لم أرجع إلى منزلى عقب الحكم فقد كنت أعرف أن السلطات قد توجه ضربتها فى أية لحظة وأردت أن أرحل قبل أن يقع علىَّ الحظر أو يلقى القبض علىَّ .

وفى بورت إليزابث التقيت بعدد من القيادات لنناقش الهياكل السرية للمنظمة والتقيت برئيسى تحرير مجلتين ليبراليتين لأناقش معهما القيام بحملة صحفية من أجل عقد مؤتمر قومى .

وفى اليوم التالى انضممت إلى اجتماع سرى فى دربان مع الأعضاء التنفيذيين لحركة الكونجرس لتقرير ما إذا كنا سننفذ الإضراب فى شكل احتجاج بالمنازل أو فى شكل تنظيم مرابطات أمام المؤسسات ومظاهرات . وكان هناك من يرى أننا فى حاجة إلى عمل أكثر نضالية خاصة وأنه بدأ فى اجتذاب الجماهير . وكان رأيى أن إضراب المنازل يسمح لنا بالاضرار بالعدو دون أن يضرهو بنا وكنت أقول ذلك وأنا أعلم أن الناس قد ضاقوا بالمقاومة السلمية . واتخذ القرار فى صالح إضراب المنازل .

أن تعيش فى السر يتطلب نقلة نفسية . فعلى المرء أن

يخطط لكل فعل مهما صغر . وأن يسائل فى كل شىء . ولا يستطيع المرء أن يكون نفسه فلابد وأن يتقمص الدور الذى يلعبه . ولا أظن أن هذا صعب للشخص الأسود فى جنوب إفريقيا . ففى ظل الأبارتايد عاش الأفارقة حياة ظلية مابين القانونية والخروج عنها ومابين الظهور والاختباء . ولأن تكون أسود فى جنوب إفريقيا فإن ذلك كان يعنى ألا تثق فى أى شىء وهذا لا يختلف كثيرا عن الحياة مختبئا .

أصبحت مخلوقا ليليا فكنت لا أخرج لعملى إلا فى الظلام وفى الأساس كنت أعمل فى جوهانسبرج ولكننى كنت أسافر إذا استدعى الأمر . كنت أقيم فى شقق خالية وفى منازل الآخرين وفى أى مكان يمكن أن أكون فيه وحيدا وغير ظاهر . وعندما كنت أعيش مختبئا كنت لا أسير طويلا معتدل القامة وكنت أتكلم بصوت خفيض بدون وضوح أو تميز وكنت لا أسأل عن أى شىء بل كنت أترك الآخرين يخبروننى عما أعمل . تركت شعرى وذقنى ينموان وكنت غالبا ما اتخفى كسائق أو طباخ أو بستانى وكنت أرتدى الزى الأزرق أو زى عمال الزراعة . كانت لدىَّ سيارة وكنت أرتدى قبعة السائق مع الزى الأزرق وكان ذلك التخفى يناسبنى لأننى كنت أستطيع التنقل متظاهرا بأننى أقود سيارة سيدى .

وفى الأشهر الأولى وحينما كان يصدر امر بالقبض علىَّ وتتبع آثارى الشرطة فقد كان وجودى كخارج على القانون يروق لأخيلة الصحفيين . فتظهر مقالات تدعى أننى أتواجد بأماكن معينة وتضع الشرطة المتاريس على طول الطرق لكى يعودوا خاوين الوفاض . وأطلق علىَّ حينئذ لقب "البيمبرنيل

الأسود" إشارة إلى شخصية روائية تدعى البيمبرنيل الأحمر نجحت فى أن تتحاشى الإمساك بها إبان الثورة الفرنسية .

وكنت أسافر سرا فى أنحاء البلاد . كنت مع المسلمين فى الكيب وعمال السكر فى ناتال وعمال المصانع فى بورت إليزابث وكنت أحضر الإجتماعات السرية فى المناطق المختلفة من البلاد فى المساء . وكنت أحيانا أغذى إسطورة البيمبرنيل بأن أحادث الصحفيين من تليفونات عامة وأخبرهم عما كنا ننوى فعله وعن عجز الشرطة . وكنت أظهر فجأة فى مكان أو آخر مما يضايق الشرطة ويبهج الناس .

إن هناك قصصا غير دقيقة عن تجاربى وأنا مختف فإن الناس يحبون تزيين قصص التحدى . لكننى أيضا كنت أجد نفسى فى مواقف كنت أهرب منها بصعوبة . فحدث أن كنت مسافرا بسيارتى فى المدينة ووقفت فى إشارة مرور ثم نظرت إلى اليسار لأجد الكولونيل سبنجلر رئيس أمن ويتسوتر ساند وكان الإمساك بالبيمبرنيل الأسود سيعتبر إنجازا له . كنت أرتدى قبعة العمال والزى الأزرق والنظارة ، ولكنه لم ينظر ناحيتى ومرت الثوانى كالساعات .

وفى عصر يوم وبينما كنت متخفيا فى زى سائق وأنتظر على ناصية ليصطحبنى أحدهم رأيت رجل شرطة إفريقيا يخطو بعزم تجاهى . ونظرت حولى لأرى ما إذا كان هناك طريق للهرب وقبل أن أفعل نظر إلىَّ وابتسم ورفع ابهاميه باشارة المؤتمر واختفى . وكانت تلك المواقف تحدث كثيرا مما كان يمنحنى الثقة فى ولاء كثير من رجال الشرطة الأفارقة

الذين لعب الكثير منهم أدوارا حقيقية وكانوا ذوى فائدة عظمى لنا .

- ٤١ -

واستغرق الإعداد لاضراب ٢٩ مايو وقتي وأنا مختف . فقد كانت الأمور تسير باتجاه حرب فعلية بين الدولة والحركة الليبرالية . ففى آخر مايو نظمت الدولة غارات على قيادة المعارضة ومنعت الاجتماعات وصودرت المطابع وصدر تشريع يسمح للشرطة بأن تحتجز المقبوض عليهم اثنى عشر يوما مع عدم السماح بالكفالة.

وأعلن فيرويرد أن هؤلاء الذين يؤيدون الأضراب ، إنما يلعبون بالنار . وحثت الحكومة المصانع أن تمد العمال بأماكن للنوم . وقبل الإضراب بيومين قامت الدولة بأكبر استعراض عسكرى لقواتها فى زمن السلم وألغيت عطلات الشرطة ورابطت قوات الجيش فى مداخل ومخارج المناطق المدنية وسارت الدبابات فى الشوارع غير المرصوفة فى المناطق الإفريقية بينما كانت تحلق الطائرات العمودية ثم تنقض لتفريق أى تجمع وكانت تسلط بالليل الأضواء الكشافة على المنازل .

وفى الليلة السابقة للاضراب كان مقررا لى أن ألتقى بعدد من قيادات المؤتمر فى منزل آمن بسويتو . ولكى أتحاشى متاريس الشرطة دخلت سويتو عن طريق لا يوجد به عادة دوريات ولكننى قابلت كمينا وأشار لى الشرطى الأبيض أن أقف وكنت أرتدى زى السائق وبعد أن نظر لى عن قرب أخذ

يفتش السيارة ولما لم يجد شيئا سألنى عن تصريح المرور فأخبرته بأننى قد نسيته خطأ وذكرت له رقما وهميا فأشار لى بالذهاب .

وفى أول أيام الاضراب غامر مئات الآلاف من الناس بوظائفهم ولم يذهبوا إلى العمل ، ففى دربان غادر العمال الهنود المصانع بينما لم يغادر آلاف العمال الملونين منازلهم فى الكيب . أما فى جوهانسبرج فقد لزم نصف العاملين منازلهم وكانت النسبة أعلى فى بورت إليزابث . وقد غطت حملتنا تماما على احتفالات البيض بيوم الجمهورية .

أما على مستوى بقية البلاد فكانت الإستجابة أقل مما توقعنا وذلك لصعوبة الاتصالات . وفى ذلك المساء صرحت لأحد الصحفيين قائلا أن أيام عدم العنف قد انتهت .

وبعد التشاور مع زملائى قررنا أن ننهى الإضراب فى يومه الثانى . والتقيت فى منزل آمن فى ضاحية بيضاء مع صحفيين محليين وأجانب ووصفت الاضراب بأنه نجاح باهر كما ذكرت أنه طالما أن الحكومة تلجأ إلى العنف لقمع نضالنا السلمى فعلينا أن نستعمل طرقا أخرى .

وكان الحوار بشأن استعمال العنف قد بدأ عام ١٩٦٠ وتشاورت مع وولتر واتفقنا على أن المنظمة يجب أن تبدأ نهجا جديدا وكان الحزب الشيوعى قد أعاد ترتيب صفوفه فى السر وكون جناحا عسكريا . وقررنا مناقشة موضوع المقاومة المسلحة مع لجنة العمل فى اجتماعها فى يونيو عام ١٩٦١ : وهناك عارضنى موسيس كوتانى عضو الحزب الشيوعى وقوبل

اقتراحي بالرفض . وقابلت موسيس فى الخفاء وشرحت له الأسباب التى دعتنى إلى الاعتقاد بأنه لا طريق لنا إلا العنف وضربت له مثالا باتيستا الذى استمر فى ممارساته السلمية غير المجدية إلى أن قلب كاسترو الموازين وقلت له إن الناس قد بدأوا فى تكوين وحداتهم العسكرية المستقلة وعلى المؤتمر أن يقودهم . وفى النهاية أخبرنى موسيس بأنه لا يستطيع أن يعد بشىء وأن علىَّ أن أعرض الموضوع للمناقشة مرة أخرى على اللجنة المركزية فى دربان . وكنت متخوفا من معارضة الرئيس لوثولى الذى يعتنق عدم العنف كمبدأ وقلت فى الاجتماع أن العنف هو خيارنا الوحيد إذ أنه خطأ أخلاقى أن نعرض الناس لهجمات مسلحة من الدولة دون أن نقدم لهم البديل وأنه من الأفضل أن نقود نحن أعمال العنف من منطلق مبادئنا حيث ننقذ حياة الأفراد بالهجوم على رموز القمع وليس على الناس .

وفى البدء عارض الرئيس مناقشاتى وجادلناه طوال الليل وأخيرا وافق على أنه لا مفر من الحملة العسكرية وأقرت ذلك اللجنة .

وكانت فكرة الرئيس أن يكون للحركة العسكرية استقلالها الذاتى وفى نفس الوقت تكون متصلة بالمؤتمر وعلى هذا تكون هناك قناتان منفصلتان للمعركة .

وفى اجتماع اللجنة المركزية للحركات التحررية كانت المناقشة ساخنة وعارض بعض المشتركين وخاصة أعضاء المجلس الهندى اللجوء إلى العنف وحاولوا اثناءنا واستمرت المناقشات طوال الليل ووصلنا فى الصباح إلى قرار وفوضنى

المجتمعون فى تكوين منظمة جديدة عسكرية منفصلة عن المؤتمر لأن سياسة المؤتمر يجب أن تظل سلمية .

وكانت تلك خطوة مصيرية . فعلى مدى خمسين عاما عالج المؤتمر عدم استعمال العنف كمبدأ لا يحاد عنه . ولكن فى تلك اللحظة أصبح المؤتمر منظمة مختلفة وأصبحنا على وشك الولوج فى طريق صعب ، طريق العنف المنظم الذى لم يكن باستطاعتنا أن نعلم نتائجه .

- ٤٢ -

وأوكل إلىَّ أنا الذى لم أكن أبدا جنديا ولم أطلق مسدسا مهمة تشكيل جيش . وكان اسم المنظمة رمح الأمة ويرمز إليها بـ M.K ورغم أنه لم يكن يسمح بعضوية البيض للجنة المركزية للمؤتمر فلم تكن هناك قيود على .M.K . وعلى الفور جندت چوسلوڤو الذى شكلت أنا وهو وولتر سيسولو القيادة العليا برئاسته واستعدنا بجهود أعضاء الحزب الشيوعى عن طريق چو الذى كانوا قد بدأوا حملة عنف تشمل قطع أسلاك تليفونات المصالح الحكومية وخطوط الإتصالات . وتم تجنيد جاك هو وجنسون الذى كان قد اشترك فى الحرب العالمية الثانية ورستى بيرنستاين وكلاهما من الحزب وأصبح جاك أول خبير لنا فى التدمير وكان تكليفنا هو توجيه ضربات عنيفة ضد الدولة بينما نتحاشى الاضرار بالأفراد .

وبدأت بالقراءة والتحدث إلى المختصين واكتشفت أن هناك كتبا عديدة فى هذا الموضوع وبدأت أقرأ أدبيات الحرب المسلحة وخاصة حرب العصابات . كنت أود أن أعرف

الظروف الملائمة لمثل تلك الحرب وكيف يكون الفرد ويدرب وكيف تكون قوة فدائية وكيف تسلح وأين تجد إمداداتها إلى آخر المشاكل الأساسية . فقرأت تقرير بلاروكا سكرتير عام الحزب الشيوعى فى كوبا عن سفراتهم كمنظمة غير قانونية فى كوبا وقرأت عن جيفارا وماوتسى تونج وفيدل كاسترو . وفى "الفدائى" بقلم وينيز ريتز قرأت عن تكتيكاتهم أثناء حرب البوير وقرأت كتاب ادجار سنو الرائع "النجم الأحمر" ورأيت كيف أن تصميم ماو وفكره غير التقليدى هما اللذان قاداه إلى النصر . وكنت متشوقا أن أعرف المزيد عن المقاومة المسلحة لشعب اثيوبيا ضد موسوليني وعن جيوش الفدائيين فى كينيا والجزائر والكاميرون . كما رجعت إلى تاريخنا ودرست ماضينا قبل وبعد الرجل الأبيض وحروب الأفارقة ضد الأفارقة وضد البيض وحروب البيض ضد البيض . ثم قمت بمسح المناطق الصناعية فى البلاد ونظام المواصلات وشبكة الاتصالات وجمعت خرائط مفصلة وحللت بطريقة نظامية تضاريس كل منطقة فى البلاد .

وفى ٢٦ يونيو وجهت خطابات من مخبئى إلى صحف جنوب إفريقيا أثنيت فيه على الشعب لشجاعته أثناء إضراب المنازل ودعوت إلى مؤتمر وطنى دستورى وأعلنت أن حملة عدم تعاون ستبدأ فى شتى أرجاء البلاد إذا لم تعقد الدولة ذلك المؤتمر وإختتمت خطابى بأننى لن أترك جنوب إفريقيا ولن أستسلم .

وخلال الأشهر الأولى من العمل السرى تقاسمت شقة

مكونة من غرفة واحدة فى دور أرضى مع وولفى كوديش فى ضاحية بيضاء هادئة إلى الشمال من وسط المدينة . وكان وولفى عضوا فى مجلس الديمقراطيين ومراسل صحيفة العهد الجديد وكان قد حارب في شمال إفريقيا وإيطاليا إبان الحرب العالمية الثانية وكانت معلوماته وخبرته مفيدة لى وبناء على اقتراحاته قرأت بعض الكتب القيمة ومنها كتاب الجنرال البروسى كارل فون كلاوزويتر "عن الحرب" الذى كانت فكرته الأساسية هى أن الحرب استمرار للدبلوماسية . وكنت أقضى النهار داخل الشقة مسدلا الستائر وأترك المنزل للاجتماعات وجلسات التنظيم ليلا .

وكانت .M.K فى ذلك الوقت تتدرب على التفجيرات . وفى إحدى الأمسيات ذهبت بصحبة وولفى لحضور تجربة فى مصانع الطوب على أطراف المدينة . وبدأ جاك هودجسون التجربة ونجحت وعدنا إلى سياراتنا وذهب كل فى اتجاه .

كنت أشعر بالأمان فى تلك الضاحية لكونها منطقة بيضاء ومن غير المحتمل أن تبحث عنى الشرطة هناك . وكنت وأنا أقرأ أثناء النهار أضع لترا من الحليب على حافة النافذة ليخمر فقد كنت مولعا كبقية شعب الإكسهوسا بالحليب الرائب . وذات مساء وبينما كنت أتحدث مع وولفى سمعت حديثا يدور بين رجلين أسودين من الزولو خارج النافذة وكانت الستائر مسدلة فأشرت إلى وولفى أن يصمت . وسأل أحدهما عما يفعله "حليبنا" على حافة النافذة وحينما استفهم الآخر عن مقصده رد الشخص الآخر قائلا "الحليب الرائب على حافة النافذة" وأراد ذلك الشخص الثاقب البصر أن يوحى

بأنه لا يضع الحليب على حافة النافذة سوى شخص أسود وبالتالى فماذا يفعل شخص أسود فى منطقة بيضاء . وحين ذلك قررت أن أرحل . ورحلت إلى مخبأ آخر الليلة التالية .

وتنقلت بين منزل طبيب فى جوهانسبرج ومزارع قصب سكر فى ناتال حيث سكنت فى بيت للشباب متخفيا كمندوب لوزارة الزراعة لتقييم التربة . وكانت المنظمة قد أمدتنى بآلات التقييم وكنت أقضى جانبا من اليوم أفحص التربة وأجرى التجارب ورغم ثقتى من أن المزارعين لم ينخدعوا لكنهم لم يوجهوا إلىَّ أية أسئلة حتى بعد أن رأوا أناسا يصلون بسياراتهم فى الليل وكان بعض منهم سياسيين معروفين فى المنطقة . وحينما كنت أخطط للرحيل من المنطقة شكرت أحد الأشخاص من كبار السن لرعايته إياى فرد قائلا "أهلا بك ، لكن من فضلك أخبرنا ماذا يريد الرئيس لوثولى" ؟ فأخبرته أنى لا أدرى ولكنى أعلم فقط أنه يريد عودة أراضينا ألينا وملوكنا إلى قوتهم كما يريد لنا أن نتحكم فى حياتنا . فرد قائلا "وكيف سيفعل ذلك وهو لا يملك جيشا" ؟ وبينما تشجعت لما قاله الرجل عرفت أنه لابد وأن آخرين قد اكتشفوا مهمتى فرحلت الليلة التالية .

- ٤٤ -

كان مكانى التالى منتجعا اكثر منه مخبأ فقد انتقلت إلى ضيعة فى ريفونيا وهى ضاحية رعوية فى شمال جوهانسبرج وكانت المنظمة قد ابتاعت ضيعة هناك لتكون ملجأ أمينا لمن يعملون فى السر . وكان البيت عتيقا غير مسكون .

وانتقلت هناك متخفيا كخادم يرعى البيت حتى يسكنه سيده . وكنت قد سميت نفسي داڤيد موتسمايي وهو إسم أحد عملائى السابقين وأثناء النهار كان المنزل يزدحم بالعمال والبنائين والمبيضين الذين كانوا يصلحون المبنى الرئيسى والمبانى الملحقة وكانت الخطة أن نعد غرفا إضافية ملحقة بالمنزل لمزيد من الأفراد وكان كل العمال أفارقة وكانوا ينادوننى بالنادل أو الصبى وكنت أقوم باعداد الإفطار لهم والشاى فى الصباح وبعد الظهيرة وكانوا يرسلوننى فى مهمات بالمزرعة أو يأمروننى بمسح الأرضية أو حمل القمامة . وكانت تحدث مواقف ينهرنى فيها العمال بصفتى أقل منهم منزلة .

إن الكثيرين قد رسموا صورة مثالية لطبيعة المجتمع الإفريقى التى تساوى بين البشر . وبينما أشاركهم الرأى إلى حد كبير فإنى أجد أن الأفارقة لا يعاملون بعضهم البعض دائما معاملة الأنداد فلقد لعب التصنيع دوره فى ادخال فكرة الإحساس بمنزلة الفرد التى تعم مجتمع البيض . وبالنسبة لهؤلاء الرجال فقد كنت أقل منهم مرتبة ، مجرد خادم أعامل باحتقار وقد أتقنت الدور بحيث لم يشك أحد فى أننى غير ذلك .

وواصلت حياتى على النمط السابق فكنت أخرج للإجتماعات ليلا فقط . وبعد أسابيع لحق بى ريموند مهلابا الذى حضر من بورت إليزابث وكان عضوا بإتحاد نقابى قوى وعضوا فى اللجنة المركزية فى الحزب الشيوعى فى الكيب وكان من ضمن أوائل قادة المؤتمر الذين ألقى القبض عليهم

فى حملة التحدى وكان قد تم اختياره للعمل فى .M.K وحضر إلى المزرعة ليستعد للرحيل لجمهورية الصين مع ثلاثة آخرين للتدريب العسكرى وقد ساعدنى فى كتابة دستور الـ .M.K وبعد ذلك لحق بنا چو سولڤو وراستى برنستامين وبعد رحيل ريموند ناتى مايكل هارمل أحد الأعضاء البارزين فى الحزب الشيوعى السرى وأحد مؤسسى مجلس الديمقراطيين ورئيس تحرير مجلة ليبراشن .

وبعد ذلك انتقل أرثر جولد ريتش وعائلته إلى المزرعة كسكان وانتقلت أنا إلى منازل العمال والخدم الملحقة التى كان قد تم بناؤها . وأمدنا وجود آرثر بغطاء لنشاطاتنا وكان آرثر فنانا ورساما وكان عضوا فى مجلس الديمقراطيين وأحد أعضاء الـ .M.K وكانت حياته السياسية غير معروفة للشرطة كما كانت له خبرة فى حرب العصابات إذ أنه قد حارب مع البالماخ وهو الجناح العسكرى للحركة اليهودية القومية فى فلسطين وكان على علم بحرب العصابات مما أفادنى . وبعد ذلك لحق بنا جيلمان وهو صديق قديم للحركة وأصبح رئيس عمال فى المزرعة وأحضر معه عددا من العمال فبدأ المكان كأى منزل آخر فى المنطقة . وكانت أسعد أوقاتى فى المزرعة تلك التى تزورنى فيها زوجتى وكانت تأتى فى عطلات نهاية الإسبوع وكنا نعمل جاهدين على تضليل الشرطة عن تتبع خط سيرها .

وكنا ونحن نخطط لاتجاه وشكل أنشطة .M.K قد درسنا أربع اختيارات : "التخريب ، حرب العصابات ، الإرهاب ،

والثورة المعلنة . وكانت الثورة المعلنة مستحيلة على جيش لم يقو عوده أما الإرهاب فكانت له آثاره السلبية على من يقومون به لأنه يفقدهم أى تأييد جماهيرى" . وكانت حرب العصابات إمكانية ولكن ولأن المؤتمر كان مترددا فى تبنى العنف فقد كان من الصواب أن نتبع الوسيلة التى تسبب أقل الأخطار للأفراد ألا وهى أعمال التخريب ولأن أعمال التخريب لا تتسبب فى اهدار حياة الأفراد فإنها كانت تحمل امكانية المصالحة بين جميع الأعراق فيما بعد .

وكانت استراتيجيتنا تتلخص فى القيام بمناوشات منتقاه ضد المنشآت العسكرية ومحطات توليد القوى وخطوط الهاتف وشبكات المواصلات وغيرها من الأهداف التى تعوق فاعلية الدولة العسكرية وتخيف مؤيدى الحزب القومى وتفزع رأس المال الأجنبى وتضعف الاقتصاد لكى نجر الحكومة إلى المساومة . وقررنا أنه إذا لم تؤد أعمال التدمير نتائجها ننتقل إلى حرب العصابات .

وذات يوم سمعت عبر المذياع أن الرئيس لوثولى قد نال جائزة نوبل للسلام وغمرنى كما غمر غيرى الفرح فقد كان ذلك اعترافا بكفاحنا وبمنجزات الرئيس كقائد وشخص وكان ذلك يمثل اعترافا من الغرب بأن معركتنا معركة أخلاقية كما أنه كان تحديا مهينا للقوميين الذين صوروا لوثولى على أنه ثورى خطير وقائد مؤامرة شيوعية .

وكان توقيت هذا التشريف حرجا بطريقة أثارت التساؤلات حول الجائزة . ففى اليوم التالى لعودة لوثولى من أوسلو أعلنت .M.K عن وجودها بطريقة درامية فى الساعات الأولى

من صباح ١٦ ديسمبر إذ انفجرت قنابل يدوية فى محطات توليد الكهرباء ومكاتب حكومية فى بورت إليزابث وجوهانسبرج ودربان وفى وقت الانفجار وزعت آلاف المنشورات نص فيها على مانيفستو الـ .M.K فى انحاء البلاد وحملنا فيها القوميين مسئولية الموقف .

وكنا قد اخترنا ذلك اليوم لأنه اليوم الذى يحتفل فيه البيض بهزيمة دينجانى قائد الزولو العظيم فى معركة نهر الدم سنة ١٨٣٨ على يد البيض .

وصدمت التفجيرات البيض وجعلتهم يتحققون من أنهم جالسون على فوهة بركان أما السود فبدأوا يدركون أن المؤتمر قد خرج عن كونه منظمة للمقاومة السلبية .

وقد أثار اعلان .M.K حفيظة الحكومة ودفعها إلى شن هجمات مضادة شريرة وقاسية على مدى لم يسبق له مثيل وأصبحت مهمة البوليس السرى الرئيسية القبض على اعضاء .M.K مظهرين عزمهم على اقتلاع ماكانوا ينظرون إليه على أنه أخطر تهديد لوجودهم .

- ٤٦ -

حينما كانت تزورنى وينى كنت أشعر بوهم مؤقت أن الأسرة مازالت متماسكة . وكانت ابنتاى مازالتا صغيرتين أما ابنى ماكجاثو فقد كان فى الحادية عشرة ولذا أخبرناه بألا يذكر إسمى الحقيقى أمام أحد . وذات يوم وبينما كان يلعب مع ابن آرثر وجدا نسخة من مجلة كانت وينى قد أحضرتها معها وأخذا يقلبان الصفحات وفجأة رأى ماكجاثو صورتى قبل

أن أتخفى فصاح "هذا والدى" ولما لم يصدقه الآخر أخبره أن إسمى هو نيلسون مانديللا فرد عليه أن اسمه هو داڤيد ثم جرى إلى والدته لتؤكد ما يقوله . عند ذلك انزعجت وأخبرتنى وهنا تحققت من أنه يجب علىَّ أن أغادر المكان ولكننى لم أفعل لأنه كان مقررا أن أسافر خارج البلاد بعد حوالى إسبوع .

وكان المؤتمر قد تلقى دعوة من حركة "الحرية لكل إفريقيا" لحضور مؤتمرها في أديس أبابا . وكانت مهمتي فى إفريقيا أوسع من مجرد حضور المؤتمر ، فقد كان علىَّ أن أرتب مساندة مالية لحركتنا العسكرية وتدريبا لرجالنا إن أمكن داخل القارة خاصة وأن P.A.C كانت قد قامت بحملتها للإعلان عن نفسها .

وقبل مغادرتى ذهبت للقاء الرئيس فى مكان آمن . ولم يكن الرئيس فى حالة صحية جيدة وكانت ذاكرته قد بدأت تضعف فأخذ يؤنبنى على تكوين M.K. دون استشارته رغم أننى حاولت تذكيره بمناقشاتنا .

وكان على المؤتمر ترتيب أمر سفرى إلى دار السلام حيث كنت سأستقل الطائرة من هناك إلى أديس أبابا . وكنت سألتقى بوولتر وكاثرادا ونكويى الذين كانوا سيحضرون الأوراق المطلوبة للسفر . ووصل كاثرادا ولكن تأخر وولتر ونكويى أكثر من اللازم وعلى ذلك اضطررت للسفر بالسيارة إلى بيتشوالاند حيث أستأجرت طائرة من هناك . وبعد ذلك علمت أنه كان قد تم القبض على وولتر ونكويى فى ذلك اليوم .

وبعد عبورى حدود جنوب إفريقيا ووصولى إلى مدينة لوباتش وجدت بانتظارى برقية من دار السلام بتأجيل رحلتى اسبوعين وهناك لحق بى جو ماثيوس ولكننى قررت أن علينا أن نسرع إلى دار السلام لأنه كان قد اختطف مؤخرا أحد أعضاء المؤتمر من لوباتش بواسطة شرطة جنوب إفريقيا . وبعد مصاعب جمة وصلنا إلى تانجانيقا ونزلنا فى فندق محلى ووجدنا جمعا من البيض والسود يجالسون بعضهم بعضا ويتحادثون فى شرفة الفندق ولم يكن قد حدث أن تواجدت فى مكان عام ليس فيه تمييز عنصرى . وكنا هناك فى انتظار السيد مواكا نجالى من الاتحاد القومى الإفريقى التانجانيقى وعضو البرلمان . ومن حديثه مع موظفة الإستقبال البيضاء وتوصيته إياها بشأننا أحسست أننا فى بلد يحكمه الأفارقة . وفى كل مكان ذهبت إليه فى تنجانيقا كان لون بشرتى يلقى قبولا ولأول مرة كنت أقيم على أساس عقلى وشخصيتى وليس على أساس لون جلدى .

ووصلنا إلى دار السلام فى اليوم التالى وقابلت جولويس نيريرى أول رئيس جمهورية للبلد المستقل وتحادثنا فى منزله وأتذكر أنه كان يقود بنفسه سيارة بسيطة ماركة أوستن وقد ترك ذلك أثرا فى نفسى إذ أدركت أنه رجل من الشعب وكان هو يؤكد أن الطبقية غريبة عن إفريقيا وأن الاشتراكية طبيعية .

ولخصت له موقفنا واختتمت بطلب المساعدة وكان سياسيا ماهرا ذا صوت منخفض . ولاقت مهمتنا منه قبولا ولكن سرعان ما ساءنى تفهمه للموقف فقد اقترح أن نؤجل المعركة

المسلحة إلى أن يفرج عن سوبوكوى وكانت تلك أول مرة أعلم فيها بشعبية P.A.C فى بقية إفريقيا . وقمت بوصف نقاط ضعف الـ P.A.C وقلت له أن التأجيل سيكون نكسة للنضال ككل فاقترح أن أحاول كسب الإمبراطور هيلاسى لاسى ووعدنى بتقديمى له .

وكان مقررا أن ألتقى بأوليفر فى دار السلام ولكن بسبب تأخيرى لم يستطع الانتظار وترك لى رسالة أن أتبعه إلى لاجوس حيث ذهب لحضور مؤتمر للدول المستقلة .

وتوقفت الطائرة فى الخرطوم واصطففنا للمرور من الجمرك وكان جو ماثيوس يتقدمنى وباسنر وزوجته من ورائى . وكان باسنر هو المحامى الذى كنت معه وكان قد طلب اللجوء السياسى إلى غانا بسبب اتجاهاته السياسية الراديكالية ونشاطاته اليسارية فى جنوب إفريقيا . وبما أننى لم أكن أحمل جواز سفر فقد كانت معى وثيقة صادرة من تانجانيقا تقول "إن هذا هو نيلسون مانديلا من مواطنى جنوب إفريقيا وهذا تصريح له بالسفر من تانجانيقا والعودة إليها" وقدمت الورقة إلى الموظف السودانى المسن فنظر وهو يبتسم وقال "أهلا بك فى السودان ياولدى" وصافحنى ثم ختم الوثيقة . وحينما قدم له باسنر نفس الوثيقة صاح قائلا "إنها غير رسمية وشرح له باسنر أنه مضطهد فى جنوب أفريقيا لأنه يقاتل من أجل حقوق الرجل الأسود" . فنظر السودانى إليه قائلا "إنه رجل أبيض فوقفت إلى جانب باسنر وأومأت برأسى مؤمنا على كلامه وهنا ختم الرجل الوثيقة قائلا "مرحبا بك فى السودان" .

وكنت لم أر أوليفر منذ عامين وحينما التقيت به فى مطار أكرا تعرفت عليه بصعوبة فقد كان قد أطلق لحيته وشعره وكان يرتدى الزى العسكرى الذى كان يميز المقاتلين فى جميع أنحاء إفريقيا . وامتحدته للإنجازات الهائلة التى أداها فى الخارج فقد قام بانشاء مكاتب للمؤتمر فى غانا وإنجلترا ومصر وتانجانيقا وأنشأ اتصالات قيمة فى بلاد عديدة وكان بذلك أفضل سفير للمنظمة .

وعلى متن الطائرة من أكرا إلى أديس أبابا وجدنا جوز راديبى وبيتر مولوتس وأعضاء آخرين من P.A.C الذين كانوا فى طريقهم إلى المؤتمر وأبدوا دهشتهم لرؤيتى وأخذنا فى مناقشة أمور تتعلق بجنوب إفريقيا ووجدت أننا ونحن خارج بلدنا كان هناك ما يجمعنا أكثر مما يفرقنا .

وتوقفنا قليلا فى الخرطوم ثم ركبنا طائرة أثيوبية إلى أديس أبابا وهنا انتابتنى مشاعر غريبة فقد كان قائد الطائرة أسودا ولم أكن قد رأيت من قبل قائد طائرة أسود وفى تلك اللحظة وجدت أن علىَّ أن أتغلب على الخوف الذى تملكنى وواجهت نفسى ووجدت أن تفكيرى قد تأثر بالأبارتايد فاعتقدت أن الأفارقة أدنى مستوى وأن قيادة الطائرة هى وظيفة رجل أبيض ولمت نفسى لتلك الأفكار .

- ٤٧ -

وكان أول توقف فى أديس أبابا التى وجدتها خلافا لشهرتها حيث لم يكن هناك سوى شوارع قليلة مرصوفة وكانت هناك أغنام وماعز فى الشوارع أكثر من السيارات

وبخلاف القصر الامبراطورى والجامعة وفندق الرأس حيث كنا نقيم فلم تكن هناك مبان ذات قيمة . ولم تكن أيضا إثيوبيا الحديثة مثلا للديمقراطية فلم يكن هناك أحزاب سياسية أو مؤسسات شعبية فى الحكومة فلا فصل للسلطة . فقط كان الامبراطور هو الشخص الأسمى .

وقبيل انعقاد المؤتمر اجتمع المندوبون فى مدينة صغيرة إسمها ديرازيد وأقيم نصب عظيم فى منتصف الميدان وجلست أنا وأوليفر فى جانب بعيد عن المنصة . وفجأة سمعنا موسيقى عن بعد تنطلق من بوق ثم أنغام آلات نحاسية تصاحبها دقات طبول إفريقية وحينما اقتربت الموسيقى كان باستطاعتى سماع مئات من الأقدام وهى تسير ومن خلف مبنى على حافة الميدان ظهر ضابط يلوح بسيف يبرق وفى أعقابه كان يسير خمسمائة من الجنود الأفارقة فى صفوف عرضية مكونة من أربع وكل منهم يحمل بندقية لامعة على كتفه وحينما وصلت القوات إلى المنصة الرئيسية سمعت صوتا آخر ينطلق بالأمهارية وتوقف الجنود فجأة وحيوا بدقة رجلا يلبس زيا مبهرا وكان ذلك الرجل هو امبراطور اثيوبيا هيلاسى لاسى آسد يهوذا .

وفى الصباح حضرت وأوليفر إجتماعا تقدمت فيه كل منظمة بطلب اعتماد ولدهشتنا علمنا أن أوغندا قد أوقفت سير طلبنا على أساس أن منظمتنا قبلية ولما شرحنا لهم الأمر ووضحنا أن رئيسنا لوثولى هوزولو قبل الطلب .

وافتتح الامبراطور المؤتمر رسميا وكان مقررا أن أتكلم عقب الامبراطور وبعد ان استعرضت تاريخ نضالنا

واضطهادنا شكرت الدول المجتمعة لضغطها على جنوب إفريقيا وخصصت بالذكر الدول التى قادت الحملة التى نجحت فى طرد جنوب إفريقيا من الكومنولث وانتقلت إلى تكوين .M.K ولما أعلنت أننى سأعود إلى جنوب إفريقيا لمواصلة الكفاح قوبل ذلك بالهتاف . وتناقشت وأوليفر مع كينيث كاوندا رئيس زامبيا المستقبل ورئيس حزب الاستقلال فى شمال روديسيا وأبدى قلقه لعدم اتحاد فصائل المقاومة فى جنوب إفريقا وكان يقصد P.A.C التى لفتت أحداث شاربفيل إليها الأنظار فى إفريقيا .

وكانت مصر قد تملكت مخليتى وأنا طالب كمهد للحضارة الإفريقية وكنز لجمال الفن والتصميم وكنت دائما أرغب فى زيارة الأهرام وأبوالهول وعبور نهر النيل أعظم أنهار إفريقيا . ومن أديس أبابا ذهبت وأوليفر وروبرت ريشا إلى القاهرة وقضيت يومى الأول فى المتحف أفحص القطع الفنية وأدون الملاحظات وأجمع المعلومات عن نمط الرجال الذين أسسوا حضارة وادى النيل القديمة ولم يكن اهتمامى اهتمام هاو للآثار فإنه لمن المهم للأفارقة القوميين أن يتسلحوا بالبرهان الذى يدحضون به ادعاءات البيض أن الأفارقة لم تكن لهم فى الماضى حضارة تضارع مدنية الغرب . واكتشفت فى صباح واحد أن المصريين كانوا يبدعون أعمالا فنية ومعمارية عظيمة بينما كان الغربيون فى الكهوف .

وكانت مصر نموذجا هاما لنا فقد كان أمامنا على الطبيعة برنامج الاصلاح الاقتصادى الذى أطلقه جمال عبدالناصر . فقد حدد الملكية الخاصة للأراضى الزراعية وأمم بعض

قطاعات الاقتصاد وكانت له الريادة فى بدء برنامج سريع للتصنيع وجعل التعليم ديمقراطيا وبنى جيشا حديثا . وكانت كثير من تلك الاصلاحات هى بالتحديد ما يطمح المؤتمر الى أن يحققه وكان الأهم بالنسبة لنا فى ذلك الوقت أن مصر كانت الدولة الإفريقية الوحيدة التى تمتلك جيشا وإسطولا بحريا وجويا يمكن أن يقارن بذلك الذى تمتلكه جنوب إفريقيا .

وبعد يوم رحل أوليفر إلى لندن على أن نلتقى فى غانا .

وفى تونس فى اليوم التالى التقينا بالحبيب بورقيبه وكان رد فعله ايجابيا وفوريا وعرض أن يقدم التدريب العسكرى ومنحنا خمسة آلاف جنيه للأسلحة .

وكانت المغرب ملتقى المناضلين من أنحاء إفريقيا فهناك وجدنا أناسا من موريتانيا وأنجولا والجزائر وكانت أيضا معقل جيش الجزائر الثورى وقضينا أياما مع رئيس البعثة الجزائرية فى المغرب وكان الموقف فى الجزائر هو النموذج الأقرب لنموذجنا حيث كان الثوار يواجهون مجتمعا كبيرا من المستوطنين البيض الذين يحكمون الغالبية وهم السكان الأصليون . وشرح لنا د . مصطفى حرب العصابات فى الجزائر والهدف من حرب العصابات الذى هو ليس الكسب العسكرى لكن اطلاق العنان للقوى السياسية . والاقتصادية التى ستهزم العدو ونصحنا بعدم أهمال الجانب السياسى لأهمية الرأى العام العالمى ثم أرسلنا إلى المقر الرئيسى للجيش الجزائرى فى مدينة حدودية صغيرة حيث قمنا بزيارة وحدة جيش على الجبهة وبعد يومين كنت ضيفا فى استعراض عسكرى على شرف أحمد بن بيللا الذى أصبح

فيما بعد رئيس وزراء الجزائر والذى كان قد خرج لتوه من المعتقل .

وكانت محطتى التالية هى سيراليون وعندما وصلت إكتشفت أن هناك اجتماعا للبرلمان قررت أن أحضره وبينما أنا جالس فى مقعد قرب رئيس المجلس إقترب منى أحد الكتبة وطلب منى أن أعرف نفسى فأخبرته أننى ممثل الرئيس لوثولى الحائز على جائزة نوبل فصافحنى بحرارة وقال لى أنه لشرف لهم أن أتواجد هناك . وأثناء الإستراحة وجدت أن المجلس بأكمله قد اصطف لمصافحتى وشعرت بالرضا حتى كان مرور الشخص الثالث أو الرابع الذى تمتم قائلا أنه ليشرفه أن يصافح الرئيس لوثولى وشعرت بأننى مدع وأن الكاتب قد أساء فهمى وعند ذلك حضر رئيس الوزراء وقدمنى ذلك الشخص على أننى لوثولى وهنا حاولت أن أخبر الكاتب أننى لست هو لكنه رفض أن يستمع وقررت أن أكمل الدور حتى لا يضيع كرم الضيافة هباء وبعد ذلك التقيت برئيس الجمهورية وشرحت له الأمر وقدم لى مساعدة مالية سخية .

وفى ليبريا أيضا قدم لى الرئيس تابمان مساعدة سخية وذهبت بعد ذلك إلى غانا حيث قابلت أوليفر وعند لقائنا مع وزير غينيا المقيم فى غانا أخبرته بأننى لم ألتق بسيكوتورى ورتب لنا لقاء معه وقد أثار سيكوتورى اعجابى فقد كان يعيش فى بيت متواضع ويرتدى حلة قديمة باهتة وشرحنا له تاريخ المؤتمر والـ .M.K وبعد أن استمع الينا جيدا قال إن حكومة وشعب غينيا يؤازرون كفاح إخوانهم فى جنوب إفريقيا مؤازرة تامة وأنهم قد أعلنوا ذلك فى الأمم المتحدة ثم أهدانا كتابين

له بتوقيعه وشكرنا وانتهت المقابلة . وتضايقت وأوليفر وتساءلت إن كان قد تم استدعاؤنا من بلد آخر لنعطى كتابين موقعين وأحسسنا أننا قد أهدرنا وقتنا . وبعد ذلك بقليل . وبينما كنا فى غرفتنا فى الفندق وصل مسئول من وزارة الخارجية وكان يحمل حقيبة دبلوماسية فتحها ووجدنا أنها مليئة بأوراق النقد .

وفي السنغال أصدر لى الرئيس سنجور جواز سفر ودفع ثمن تذكرتى إلى لندن .

- ٤٨ -

اعترف بأننى أحب كل ماهو إنجليزى فحينما كنت أفكر فى الديمقراطية والحرية الغربية كنت أفكر فى النظام البرلمانى الانجليزى وكان الرجل الإنجليزى هو نموذج الجنتلمان . ولكن بالرغم من أن انجلترا هى وطن الديمقراطية فقد كانت تلك الديمقراطية هى التى عملت على ابتلاء شعبى بذلك النظام الكريه .

وكان من دوافع ذهابى إلى إنجلترا قلقى على صحة أوليفر ومحاولة اقناعه بتلقى العلاج الطبى كما كنت أرغب فى رؤية زوجته وأولاده وكذلك يوسف دادوو الذى كان يعيش فى لندن ممثلا لحركة المجلس الهندى .

وكنت أتحرك هناك فى السر خوفا من مخابرات جنوب إفريقيا . وانجزت بعض أعمال المؤتمر هناك وكانت لى لقاءات مع رئيس تحرير الأوبزيرفر وأعضاء البرلمان من حزب العمال ورئيسه هيوجتسكل ورئيس الحزب الديمقراطى .

وبعد ذلك ذهبت إلى إثيوبيا لتلقى تدريبى العسكرى وكان مدربى هناك ضابطا ذا خبرة وكان برنامج التدريب مرهقا ويتكون من التدريب العملى والمحاضرات وتعلمت استعمال الأسلحة المختلفة وصناعة القنابل الصغيرة والديناميت وغيرها من الفنون العسكرية كما تلقيت معلومات عن تكوين فرق العصابات وقيادة الجيش . وكان من المفروض أن أقضى ستة أشهر فى التدريب ولكن بعد ثمانية أسابيع تلقيت برقية من المؤتمر يطلب عودتى حيث كانت المقاومة فى تصاعد وكان لابد من وجود القائد هناك .

وعند وصولى إلى الخرطوم قابلنى مسئول الخطوط البريطانية وأخبرنى أن طائرتى إلى دار السلام قد تأجلت إلى اليوم التالى . وفى دار السلام التقيت بأول مجموعة من رجال M.K. الذين كانوا فى طريقهم إلى إثيوبيا لتلقى التدريب العسكرى . وبعد ذلك منحنى الرئيس نيريرى طائرة خاصة إلى ليبيا ومن هناك طرت إلى لوباتش وأخبرنى قائد الطائرة أن الخطة قد تغيرت . وفى مدينة كاينى قابلنى القاضى المحلى ورجل أمن وكانا أبيضين وسألانى عن إسمى فأجبت أننى أدعى دافيد موتسمابى فرد القاضى قائلا أن علىَّ أن أخبره بإسمى الحقيقى لأنه أبلغ أن يقابل نيلسون مانديللا وأن يوفر له المساندة والمواصلات وإلا فسيلقى علىَّ القبض لعدم حملى إذنا بدخول البلاد . وهنا لم أجد بدا من ذكر إسمى الحقيقى وبعد ذلك اصطحبنى بالسيارة إلى حيث كان ينتظرنى رفاقى وقررت السفر فى الليلة نفسها مع سيسيل ويليامز وهو مدير مسرح أبيض وعضو فى M.K. وتخفيت كسائقه وقدت السيارة باتجاه جوهانسبرج .

الجـزء السـابـع
ريـفـونيـــا

- ٤٩ -

وذهبت إلى ريفونيا الضيعة التى كنت قد أقمت بها سابقا وعقدنا إجتماعا سريا فى الليلة التالية أخبرت فيه لجنة العمل بما تم فى رحلتى ولخصت ما دار أثناءها وأعطيتهم بيانا بالأموال التى تلقيتها وعروض التدريب العسكرى وأخبرتهم بالتفصيل عن التحفظات التى واجهتها من القادة الأفارقة حول تعاون المؤتمر مع البيض والهنود والشيوعيين . وكانت مازالت ترن فى أذنى كلمات قادة زامبيا عن أنه رغم علمه أن المؤتمر أقوى وأكثر شعبية من الـ P.A.C ولكنهم يتفهمون نقاء القومية الإفريقية لـ P.A.C وأن إختلاط الأعراق فى المؤتمر يذهلهم وكذلك صلاته بالشيوعيين . وأخبرتهم أنى وأولقير متفقان على أن المؤتمر لابد وأن يبدو أكثر استقلالية ليطمئن حلفاؤنا الجدد فى القارة حيث أنهم سيقومون بتمويل وتدريب M.K. واقترحت اعادة تشكيل مجلس التحالف بحيث تبدو قيادة المؤتمر واضحة خاصة فى الشئون التى تتعلق بالأفارقة .

وكان ذلك اقتراحا خطيرا يجب بشأنه استشارة جميع القيادات وطلبوا منى الذهاب إلى دربان لمقابلة الرئيس . وذهبت الليلة التالية برفقة سيسيل متخفيا كسائقه والتقيت

بنيكر وإسماعيل مير ولخصت لهما ما دار في رحلتي وقدمت عرضي الجديد وكان الإثنان شديدي القرب من الرئيس لكنهما أظهرا قلقا شديدا حينما أخبرتهم أن المؤتمر يجب أن يقود التحالف وأن يصدر بيانات مستقلة فيما يتعلق بشئون الأفارقة . وكان رد لوثولي بعد ذلك أنه لا يجب أن يملي السياسيون الأجانب سياسة المؤتمر وأنه لا بد من استمرار السياسية اللاعرقية . فقلت له إن أولئك الساسة لا يملون لكنهم فقط لا يمكنهم فهم سياستنا مضيفا أن التغيير سيكون ظاهريا من أجل إرضاء حلفائنا وإلا فسيقوى دعمهم لـ P.A.C وستتحول من منظمة ضعيفة إلى منظمة شديدة القوة . ولم يتخذ الرئيس قراره فورا . وعقدت إجتماعات أخرى في دربان كان آخرها مع القائد المحلي لـ .M.K وكان خبيرا في عمليات التخريب وشرحت للقيادة هناك تفاصيل رحلتي ثم أخبرتهم أنه في الوقت الحاضر سيقتصر نشاط .M.K على عمليات التخريب وإذا لم تجد فستتحول إلى حرب عصابات .

ومرة أخرى تخفيت في زي سائق سيسيل وقفلنا راجعين وكنا نتبادل القيادة وبينما كنا مستغرقين في المناقشة رأينا سيارة فورد مليئة بأشخاص بيض تسبقنا من الناحية اليمنى والتفت خلفي ورأيت سيارتين أخريين مليئتين بالرجال البيض وأشارت لنا السيارة التي في الأمام أن نقف وعرفت أن الشهور السبعة عشر من الحرية كانت في سبيلها إلى الانتهاء .

وأتى شخص نحيف طويل ذو تعبيرات قاسية إلى النافذة

وقدم نفسه على أنه الجاويش فورستر من قوة الشرطة وأبرز أمرا بالقبض عليَّ وطلب منى أن أعرف هويتى فأخبرته أن إسمى هو داڤيد موتسمابى ووجه إلىَّ عدة أسئلة حاولت تفادى الإجابة عليها فبدا ضيقه وقال "إنك نيلسون مانديللا وهذا سيسيل ويليامز وكلاكما مقبوض عليه" .

وفى مكتب فورستر فى مقر الشرطة كان هناك عدة ضباط من بينهم ضابط كان قد أدى شهادة غير متحيزة فى قضية الخيانة وحيا كلانا الآخر .

وتمسكت هناك بما قلته أن إسمى داڤيد وطلبت محاميى ولكن طلبى رفض فامتنعت عن الإدلاء بأقوالى .

واحتجزت أنا وسيسيل كل منا فى زنزانة . وكانت السلطات قد اعتقدت منذ أسابيع سابقة لعودتى بأننى موجود بالبلاد ففى شهر يونيو تصدرت الصحف العناوين عن عودة البيمبرنيل الأسود . وربما كان ذلك تمويها .

وكانت السلطات قد أخذت فى مضايقة وينى ظنا منها أنها تعلم بمكان تواجدى وتتبعوها وفتشوا المنزل فى عدة مناسبات . وربما أيضا كانوا قد عرفوا أننى لابد وأن أزور الرئيس بمجرد عودتى . لكننى لم أستبعد الوشاية فقد كان المخبرون قد اخترقوا صفوف الحركة هذا بالإضافة إلى أننا لم نكن جميعا حريصين بالدرجة الواجبة .

وفى الساعة الثامنة والنصف صباحا أحالنى القاضى المحلى رسميا إلى جوهانسبرج . وفى الطريق استمعت إلى نبأ القبض علىَّ من المذياع وعند وصولى إلى جوهانسبرج

أودعت سجن مارشال فى زنزانة منفردة . وبينما كنت أخطط لاستراتيجية اليوم التالى سمعت سعالا وتعرفت على صاحبه فقد كان وولتر وكان فى زنزانة قريبة فناديت عليه ورد النداء وأخذنا نضحك تحت تأثير مزيج من الدهشة والفرح والإحباط وقد علمت أنه قد تم القبض على وولتر بعد القبض عليَّ بقليل .

وفى اليوم التالى استدعيت أمام القاضى لإعادة حبسى رسميا وكان هارولد وولب وجوسلوفو قد حضرا إلى المحكمة بعد سماع نبأ القبض عليَّ وهناك تعرفت على القاضى وعدد من المحامين وحيونى كزميل . وأثناء الإجراءات بدوا جميعا خجلين محرجين . وعند ذلك تحققت أن سبب عدم ارتياح هؤلاء الرجال ليس فقط كونى زميلا لهم ولكن أيضا لكونى رجلا عاديا يعاقب على معتقداته .. وهنا تحققت أيضا من إمكانات دورى أثناء المحاكمة . فقد كنت رمزا للعدالة فى محكمة للمستبد وكنت أمثل العدالة والحرية والديمقراطية فى مجتمع أخل بتلك الفضائل وعرفت أنه بإمكانى مواصلة المعركة وأنا داخل قلعة العدو .

وأعلنت أننى سأمثل نفسى وأن چو سولڤو سيكون مستشارى القانونى وهكذا يمكن استخدام محاكمتى كوسيلة لعرض مقاومة المؤتمر لسياسة التمييز العنصرى وبذلك أضع الدولة فى موضع المتهم . وعلى ذلك لم أجب على أية أسئلة فى ذلك اليوم إلا فيما يختص باسمى واسم مستشارى واستمعت إلى الاتهامات وهى تحريض العمال على الإضراب ومغادرة البلاد بدون مستندات رسمية وكانت العقوبة على ذلك

تبلغ السجن لعشر سنوات . وشعرت بالارتياح لأن ذلك يعنى أن الدولة لم تكن تملك الدليل على صلتى بـ .M.A وإلا كانت التهمة هى الخيانة العظمى .

ونقلت إلى قلعة جوهانسبرج وفى الطريق كان هناك مئات من الناس يهتفون ويصيحون ويغنون . وكانت أخبار القبض علىَّ ومحاكمتى قد احتلت العناوين الرئيسية بالصحف .

- ٥٠ -

كان المشرف على القلعة أفريكانيا يعتبر ليبراليا بمقاييس زملائه وقال أنه سيضعنى فى مستشفى السجن لكونه أفضل مكان بالقلعة وهناك سيكون لى مقعد ومنضدة لكى أتمكن من تجهيز قضيتى . غير أن السبب الحقيقى كان هو أن المستشفى كان أكثر الأماكن تحصينا فى القلعة فقد كان محاطا بأسوار حصينة وحراس مسلحين لأن الصحافة كانت قد تنبأت بأن المنظمة ستحاول انقاذى .

وكانت الصحافة قد بدأت تنشر أنباء عن قيام أشخاص من داخل المنظمة بالإبلاغ عنى وحددت البيض والهنود من أعضاء الحزب الشيوعى . ولكننى كنت أعلم وزملائى أن الحكومة تريد تفريق صفوفنا وقد استنكرت وبنى تلك الشائعات فى اجتماع عام . كذلك انتشرت شائعات عن مسئولية وكالة المخابرات الأمريكية ولكن لم تثبت صحة تلك الشائعات رغم علمى بمسئولية الوكالة عن نشاطات حقيرة ومساندتها للإمبريالية .

ثم تم نقلى لبريتوريا حيث لم تكن هناك فرصة لاستقبال

زائرين على عكس الحال فى القلعة .

وكان يسمح لى بتلقى الزيارات مرتين فى الإسبوع وكانت وينى تأتى بانتظام ومعها الأكلات الشهية والملابس النظيفة رغم بعد المسافة ومشقة حضورها فى منتصف النهار ومنتصف الإسبوع تاركة طفلتين صغيرتين بالمنزل . وكان عدد كبير من الأفراد يأتون لزيارتى ومعهم الطعام الذى كنت أقتسمه مع السجناء الآخرين . وعن طريق قنوات الاتصال الداخلى علمت بوجود وولتر فى بريتوريا وقد تمكنا من الاتصال رغم فصلنا . وكان وولتر قد تقدم بطلب للإفراج عنه بكفالة ووافقته رغم موقف المؤتمر من الكفالة إذ كأن البعض يرى أنها يمكن أن تؤدى إلى تصويرنا على أننا جبناء نتقبل محظورات النظام القانونى العنصرى . ولكننى كنت أرى أن لكل قضية ظروفها الخاصة فقد كان وولتر قد أصبح السكرتير العام للمؤتمر وكان وجوده فى الخارج حيويا للمنظمة . أما أنا فقد كنت أعمل فى الخفاء وكنت قد أصبحت رمزا عاما للثورة والنضال فى حين كان عمل وولتر يتم وراء الكواليس . وبعد ذلك بقليل نقلت إلى المستشفى مرة أخرى وكان أول شىء فعلته هو ارسال خطاب للسلطات أعلنهم بعزمى على مواصلة دراسة القانون للتخصص وطالبا السماح لى بشراء كتاب قانون الغرر الذى كان ضمن المقرر .

إن الهرب من السجن يحقق هدفا مزدوجا فهو أولا تحرير للمعتقل المناضل كما أنه يعطى دفعة نفسية هائلة لحركة النضال ويوجه لطمة دعائية للعدو . وقد كنت قد قمت برسم خريطة تفصيلية للسجن وتم تهريبها مع التأكيد على اعدام

الورقة فيما بعد وكانت هناك خطة لتهريبى من تدبير المؤتمر وأوصلها إلى جوسلوڤو وأعطيت چو مذكرة شرحت فيها آرائى عن الخطة وهى أن الـ .M.K غير مستعدة الآن للقيام بتلك العملية وأن من الأفضل تأجيل المغامرة إلى أن يصدر الحكم علىَّ وتتراخى الإجراءات . وقد وافق چو والآخرون على عدم محاولة الهرب فى ذلك الحين . وكنت قد أضفت فى النهاية أنه يجب إعدام الورقة بمجرد قراءتها ولكنهم قرروا أن تبقى المذكرة كوثيقة تاريخية مما أدى إلى نتيجة سيئة فيما بعد .

- ٥١ -

وحدد يوم ١٥ أكتوبر لجلسة الاستماع الأولى . وأنشأت المنظمة لجنة سمتها لجنة إطلاق سراح مانديللا وبدأت حملة نشطة تحت شعار "أطلقوا سراح مانديللا" وبدأ الشعار يظهر مكتوبا على جوانب المبانى وردت الحكومة بأن منعت الاجتماعات الخاصة بسجنى لكن الحركة تجاهلت القرار .

وكإعداد للجلسة نظمت اللجنة مظاهرة جماهيرية عند المحكمة وكانت الخطة أن يصطف الناس على جانبى الطريق الذى ستمر به عربة الشرطة وعرفت من التقارير الصحفية أن التوقعات أكدت أن أعدادا ضخمة ستشترك فى المظاهرة ولكن يوم السبت السابق للمحاكمة تم نقلى الى بريتوريا حيث تقرر إجراء المحاكمة ولم تعلن السلطات عن ذلك . وكان رد فعل الحركة سريعا فقد ازدحمت قاعة المحاكمة فى بريتوريا بالمؤيدين . وصدر قرار بحظر جو سلوڤو واستبدل ببوب هوبل الذى قدم لى المساعدة القديرة .

ودخلت القاعة وأنا أرتدى الزى التقليدى للإكسهوسا وتعالت الصحيات والهتافات التى اشتدت بسبب وقع الزى حيث كان كثير من الحاضرين أصدقاء وأقارب وكان بعضهم قد حضر من ترانسكى . كذلك ارتدت وينى زى نساء الاكسهوسا التقليدى وكنت ارتديت ذلك الزى لتأكيد أهمية رمزى كأفريقى أسود يدخل محكمة الرجل الأبيض فقد كنت أحمل على ظهرى تاريخ وحضارة وإرث شعبى . وكنت أعلم أن السلطات ستشعر بالتهديد من ارتدائى ذلك الزى الوطنى كما يستشعر البيض الخطر من الحضارة الافريقية الحقة . ونودى على القضية فطلبت التأجيل اسبوعين نظرا لنقلى الى بريتوريا دون أن تتاح لى الفرصة لاحضار محام . ووفق على التأجيل أسبوعا . وعندما عدت إلى السجن حاول مديره ان يصادر ردائى فهددته بالالتجاء الى المحكمة العليا حيث أنه ليس لديه السلطة القانونية ليفعل ذلك . فلم يكرر الطلب فقط منعت من ارتدائه وأنا فى الطريق إلى المحكمة واقتصر استعمالى إياه على داخل المحكمة فقط .

وحين أعيد نظر القضية طلبت السماح لى بالدفاع عن نفسى فقد كنت أريد أن أوضح لهيئة المحكمة نيتى فى وضع الدولة موضع الاتهام :

واستعان المدعى بأكثر من مائة شاهد وقدم معظمهم براهين فنية تثبت صحة التهمتين وهما تحريضى للعمال أثناء اضراب المنازل وأننى غادرت البلاد . ولم أحاول مجادلة أى من التهمتين فقد كنت مذنبا من وجهة النظر الفنية .

واستدعت المحكمة السكرتير الخاص لرئيس الوزراء ليشهد بشأن واقعة الخطاب الذى أرسلته أطالب فيه رئيس الوزراء بعقد مؤتمر لوضع دستور غير عنصرى وإلا قمنا بالاضراب . وسألت الشاهد عما إذا كان رئيس الوزراء قد رد على الخطاب فأجاب بالنفى وكنت قد بدأت بقراءة نص الخطاب . وبعد أن سألته كان يوافق على أن الخطاب يثير قضايا تهم الأغلبية وأجاب بالنفى سألته إن كان يوافق إن قضايا حقوق الانسان والحريات المدنية حيوية للشعب الافريقي فرد بالايجاب وسألته إن كان الخطاب يذكر تلك القضايا فوافق . ثم سألته عما اذا كان يعلم أن الافارقة لايتمتعون بتلك الحقوق فأجاب أنهم لايتمتعون ببعضها ففصلت له تلك الحقوق فأجاب أن الأفارقة لايتمتعون بها فسألته إن كان يوافق على أنه فى أى بلد متحضر فى العالم يعتبر عدم رد رئيس الوزراء على أمور بمثل تلك الأهمية تصرفا مخزيا فقال إنه لا يوافق وأجاب أن رئيس الوزراء لم يتجاهل الخطاب وأضاف أنه قام بالرد . ولم أتمكن من انتزاع الموافقة منه .

وكنت حينما سألتنى المحكمة عن عدد الشهود الذين سأستدعيهم أجبت بأننى سأستدعى عددا اكبر من الشهود الذين استدعتهم الدولة . ولكن حينما انتهت الدولة من عرض القضية وانتظرت أن أبدا دفاعى نهضت وأبلغت المحكمة أننى لن أستدعى شهودا على الاطلاق . وحينما سألنى القاضى إن كان لدىّ أى شىء أضيفه قلت له أننى أقرر أننى لم أرتكب جريمة وأنه ليس لدىّ ما أضيفه .

وأجلت المحكمة الجلسة الى اليوم التالى لأعد خطابى

الذى أطلب فيه تخفيف الحكم .

وفى اليوم التالى وقبل انعقاد الجلسة كنت أجلس مع بوب هيبل نناقش القضية ونمتدح القرار الذى اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة بتوقيع بعض العقوبات على جنوب أفريقيا حينما دخل علينا المدعى فى القضية السيد بوش وطلب من بوب مغادرة الغرفة ثم أخبرنى أنه لم يكن يريد أن يأتى إلى المحكمة لأنه لأول مرة فى تاريخه الوظيفى يشعر باحتقار مايفعله وأنه يشعر بالمعاناة أن يطلب من المحكمة أن تحكم علىَّ بالسجن ثم صافحنى وأعرب عن أمله فى أن يتحول كل شىء لصالحى .

وكانت السلطات متأهبة إذ أن الزحام كان أشد منه فى اليوم الأول وكانت وينى حاضرة بزيها الوطنى وكذلك كان جمع من أقاربى وكان مئات المتظاهرين يقفون قريبا من المحكمة وكان عدد رجال الشرطة يماثل عدد الحضور .

وعندما دخلت القاعة رفعت يدى هاتفا وردد الحاضرون الهتاف . ثم تكلمت لمدة ساعة وكان خطابى نصا سياسيا أكثر منه طلبا لتخفيف الحكم .

وفى خطابى ذكرت للمحكمة ماكانت عليه الأمور قبل قدوم الرجل الأبيض وكيف كنا نعيش فى سلام وديمقراطية وأنه لم تكن هناك ملكية خاصة ولا طبقات ولا استغلال للإنسان بل كان الجميع طلقاء متساويين وكان هذا أساس الحكم حيث وجد تعبيرا فى دستور الحكم القبلى ومجلس القبيلة . وأضفت

أن ذلك التاريخ هو الذى يلهمنى وزملائى فى كفاحنا السياسى .

تم اخبرت المحكمة بسبب التحاقى بالمؤتمر الذى توافق سياسته الديموقراطية اللا عنصرية معتقداتى . وذكرت أننى وبينما كنت أعمل كمحام كنت دائما أجبر على الاختيار بين إطاعة القانون وبين ضميرى وذكرت أن مثل هذا الصراع ليس مقصورا على هذا البلد ففى بريطانيا مثلا واجه أحد أعظم فلاسفة العصر وأحد نبلاء بريطانيا وهو برتراند راسل الصراع نفسه وحكم عليه بالسجن لاتباع ضميره وتحدى القانون لاعتراضه على سياسة التسلح النووى .

ثم استعرضت تفصيليا المرات التى حاولت السلطات فيها استخدام القانون لشل عملى وحياتى ونشاطى السياسى وقلت أن القانون جعل منى مجرما ليس بسبب مافعلت لكن بسبب ما أمثله والفكر الذى اعتنقه وذكرت أن حياتى فى الخفاء كانت أصعب من حياتى المحتملة فى السجن فى الهموأن .بتحدينا كان بسبب أعمال ومواقف الحكومة وأن آخرين قبلى قد دفعوا ثمن معتقداتهم وآخرين أكثر سيدفونه بعدى . ثم اختتمت قائلا إن الشىء الوحيد الذى هو أقوى من كراهيتى للظروف البشعة التى سأخضع لها فى المعتقل هو كراهيتى للظروف البشعة التى يخضع لها مواطنى خارج السجون فى عموم البلاد وأنه بعد انتهاء مدة الحكم على فسأواصل المعركة لانهاء تلك المظالم حتى تختفى الى الأبد .

وكان الحكم هو ثلاث سنوات لتحريض الناس على الأضراب وسنتان لمغادرة البلاد دون جواز سفر وبدأ

الحضور في العويل ولكنى اتجهت إليهم رافعا قبضتى وهتفت لإفريقيا وبدأ الناس فى الغناء والرقص وأطلقت النساء الزغاريد وأنا أقاد إلى المعتقل

- ٥٢ -

إن المعتقل لا يأخذ من الإنسان فقط حريته ولكنه أيضا يحاول أن يحرمه من هويته فإن الجميع يرتدون نفس الملابس ويأكلون نفس الطعام ويتبعون نفس برنامج الحياة اليومى وإن الدولة السلطوية فقط هى التى لاتسمح باستقلال الانسان وتفرده .

وفى سجن بريتوريا المحلى أمرت بخلع ملابسى وصرف لى زى المساجين الأفارقة وهو عبارة عن بنطلون وقميص كاكى وجورب وصندل وكان يصرف البنطلون القصير للمساجين الأفارقة فقط لأن الرجال الأفارقة كانوا فى نظر السلطات "صبية" ثم أحضروا الىَّ طعاما من ثريد الذرة البارد فرفضت الاكل والسروال القصير وهنا قال لى مأمور السجن أنه سيعطينى طعاما أفضل وسروالا طويلا إذا وافقت على الحبس الانفرادى . ووافقت .

وقضيت الأيام التالية فى عزلة تامة ولم يكن هناك ما أقرأه أو أكتب به . وبعد بضعة أسابيع تغلبت على كبريائى وأخبرت المأمور أنى على استعداد لاستبدال السروال الطويل بصحبة الآخرين . وبعد اعتراضات متكررة وافق المأمور على أن ألحق بالسجناء السياسيين الآخرين وكان بينهم سوبوكوى قائد الـ P.A.C وكنت أتوق للحديث معه عسى أن نصل الى

مايوحد بين آرائنا فى السجن .

ووجدت خلافا لسوبوكوى آخرين من المنظمات الأخرى ورحب الجميع بى بحرارة وطلب منى روبرت أن أعطيه تقريرا عن رحلتى فى إفريقيا وكنت صريحا عن صورة P.A.C والمؤتمر فى أفريقيا وأضفت أننا لابد وأن نناقش مختلف القضايا ولكن بعد ذلك عملت سلطات السجن على فصلنا وعدم لقائنا ولم يكن هناك سوى فرص قليلة لحديثنا وكنت أحترم سوبوكوى واقدر آراءه . لكننا أيضا اختلفنا بشأن ظروف السجن إذ كان هو يعتقد أن مقاومة الظروف السيئة تعد اعترافا منا بحق الدولة فى سجننا .

ولحق بنا وولتر لمدة إسبوعين فقد كان يحاكم فى جوهانسبرج بتهمة التحريض على الاضراب وحكم عليه بالسجن لمدة سنة واحدة . وكان قد استأنف الحكم فشجعته على طلب الكفالة وفعل ذلك ثم صدرت إليه التعليمات من المنظمة بالاختفاء والعمل القيادى السرى وقد فعل ذلك بجدارة .

وفى إكتوبر ١٩٦٢ وأثناء محاكمتى عقد المؤتمر اجتماعه السنوى الأول منذ عام ١٩٥٩ ولأن المنظمة كانت غير قانونية فقد عقد الاجتماع فى لوباتشى على حدود بتشوالاند وكان الاجتماع علامة مميزة لأنه أعلن صلة المؤتمرى بـ M·K وأشار اليها على أنها الجناح الحربى للمعركة وكان ذلك قد تم للقضاء على أعمال ارهاب غير مسئولية تقوم بها منظمة موكو

التى كان لها روابط ضعيفة مع P.A.C وكانت تستهدف المتعاونين من الأفارقة والبيض .

وكانت أعمال الارهاب ضد سلطات البانتو قد تزايدت وذلك لأن الحكومة كانت قد قننت النظام وكان الناس قد ساهموا فى تقنينة بالتصويت عليه ولو بالمعارضة وكان فورستر وقتها وزيرا للعدل وكان يؤمن بأن القبضة الحديدية هى الرد الوحيد على أعمال العصيان .

وفى مايو ١٩٦٣ طبقت الحكومة تشريعا كان الهدف منه كسر ظهر M·K حسب تعبير فورستر وعرف القانون باسم قانون الحجز لمدة ٩٠ يوما الذى كان يعطى أى شرطى الحق فى احتجاز أى شخص دون أمر بالقبض عليه على أساس الشك فى ارتكابه جريمة سياسية وكان بالامكان مد أمد الأيام التسعين إلى مالا نهاية وقد حول القانون البلاد الى دولة بوليسية وأصبحت الشرطة أكثر شراسة وكان المساجين يضربون ويعذبون بالصدمات الكهربائية والخنق ولم يعارض القانون فى البرلمان سوى هيلين سوزمان من الحزب التقدمى .

وتزايدت العقوبات لعضوية المنظمات غير القانونية وكانت العقوبة على ما يسمى مساعدة أهداف الشيوعية تتراوح بين الخمس سنوات والاعدام وكان ذلك القانون قد طبق فى حالة سوبوكوى الذى كانت مدة عقوبته قد انتهت ولكن الحكومة جددت سجنه بدون تهمة جديدة وأرسلته الى جزيرة روبن كما طبق قانون تحديد الاقامة بالمنازل وقوانين أخرى عنيفة وفق

مشيئتها او كما صدر قانون بعدم نشر او ترديد أى مقولة لشخص محظور . وفى عام ١٩٦٢ اوقفت صحيفة العهد الجديد وأصبح امتلاك أى اصدارات غير قانونية يعاقب عليه بالسجن .

وفى ليلة قرب نهاية مايو أخبرت أنا والسجناء السياسيين الأخرين أنه سيتم نقلنا الى جزيرة روبن . ونقلنا إلى كيب تاون وكنا أربعة موثقين معا ونقلنا فى حافلة شرطة مغلقة ليس بها نوافذ وبها دلو . واستمرت الرحلة طوال الليل ومعظم النهار . ولم يكن من السهل لأربعة أشخاص موثقين معا أن يستعملوا دلوا فى عربة تتحرك .

وكان رصيف الميناء فى الكيب يعج بأفراد الشرطة المسلحين ونقلنا إلى معدية خشبية وحيث وقفنا كانت هناك فتحة صغيرة بالسقف كان يروق للحراس التبول منها على رؤوسنا . ووصلنا للجزيرة قبل الغروب .

وكنت قد سمعت عن تلك الجزيرة وأنا طفل وكانت الجزيرة معروفة بين الاكسهوسا لأن أحد قادتهم كان قد نفى إليها عام ١٨١٩ لقيادة معركة ضد الانجليز . وحاول الهرب بقارب ولكنه غرق قبل أن يصل إلى الشاطىء ولم يعرف عن أحد أنه نجح فى الهرب منها سوى شخص كان قد نفاه هناك جان فان رايبيك عام ١٦٥٨ .

وكانت الجزيرة قد تحولت إلى مستعمرة لمرض البرص

ومعقل للمجانين وقاعدة بحرية ثم أصبحت مؤخرا سجنا مرة أخرى .

واستقبلنا مجموعة من السجانين البيض الأفظاظ وهم يصيحون « هذه هى الجزيرة وهنا ستموتون » وكان أمامنا مجمع تحيطه مراكز حراسة وأصطف الحراس المسلحون على طول الممر المؤدى للمجمع . وصاح سجان طويل ذو وجه أحمر قائلا « إنى هنا رئيسكم وكان أحد الأخوين كلينتهانسن المشهورين بوحشيتهم فى معاملة السجناء وبينما كنا نسير تجاه السجن أخذ الحراس يصيحون « إثنين إثنين » ثم طلبوا منا أن نجرى وهنا قلت لزميلى أن علينا أن نعطى مثلا لأننا إذا خضعنا الآن نستظل تحت رحمتهم وأخذنا نسير ببطء وكنا فى المقدمة وهددنا كلينهانسن لكننا ثابرنا فى السير بخطوات وئيدة . ولما وصلنا إلى الزنزانات أخذنا الى غرفة مستطيلة تغطى أرضيتها المياه وأمرنا أن نخلع ملابسنا وكنا كلما خلعنا قطعة التقطها الحراس وفحصوها ثم أغرقوها فى الماء ثم بعد ذلك أمرنا بارتداء الملابس المشبعة بالمياه .

ثم أخذنا الى زنزانتنا وكانت أفضل زنزانة رأيتها فقد كانت النوافذ كبيرة وكان بإمكاننا رؤية السجانين والنزلاء وهم يسيرون . وكانت الزنزانات متسعة ولها مراحيضها وحماماتها . ولكن أمرنا ألا نحادث أحدا من النوافذ .

بعد ذلك علمنا أنه يوجد بالجزيرة اكثر من ألف مسجون من الأفارقة وكانوا كلهم قد وصلوا حديثا وكنت أعلم أنه لابد أن

يكون بينهم بعض السجناء السياسيين وحاولت الاتصال بهم ولكننا كنا معزولين تماما . ولما طلبنا أن نخرج للعمل كبقية السجناء نفذ طلبنا لكننا كنا نخرج منفردين وكان يشرف علينا أحد الأخوين كلينهانسن . وأوكل إلينا ردم بعض الأنابيب التى كان قد تم تركيبها حديثا وكنا نعمل بجد طوال اليوم .

وكان مراقبنا هو الأخ الأكبر ولابد أن أخاه قد حذره وطلب منه أن يضبط نفسه لأنه لم يحدث وأن لمسنا . وحدث ذات يوم بينما كنا عائدين من العمل فى رفقة الأخ الأصغر أن توقف ليتحدث الى أخيه واستدرت لأنظر الى بعض المساجين الأخرين الذين كنت أعرف شخصياتهم وهنا أمرنى بوقاحة ألا أفعل ذلك وشعرت أن كبريائى قد جرحت فى حضور المساجين الآخرين ورفضت أمره فتقدم وهو ينوى مهاجمتى ولكن حينما اقترب منى جرى إليه أخاه هامسا فى أذنه وسحبه بعيدا .

وحينما بدأت أعمل فى السجن شعرت بحياة المساجين فى الجزيرة . وقامت السلطات بنقل بعض المساجين التابعين لـ P.A.C إلى زنزانة مقابلة وكنا نستطيع فى الليل التحدث معهم واكتشفت ان بينهم ابن أخ لى لم أكن قد رأيته منذ أن كان رضيعا . ولما علم الآخرون أننا لسنا أعضاء فى P.A.C أثناء رحلتى فى أفريقيا كما سمع فأجبته بالنفى واستاء الجميع وأوقفوا التحدث معنا .

وذات ليلة حضر إلينا أحد الضباط وأمرنا أن نجمع

حاجاتنا . ورحل الثلاثة الآخرين واستبقيت أنا . وفى الصباح الباكر نقلت الى بريتوريا وكانت الحجة التى أذاعتها مصلحة السجون أن النقل قد تم لحمايتى من تهديدات أعضاء P.A.C وكان ذلك كذبا لأننى نقلت لأسبابهم الخاصة التى سرعان ماوضحت وسجنت انفراديا فى سجن بريتوريا ولكننى تمكنت من تبادل الاتصالات مع أعضاء المؤتمر هناك وعلمت أنه قد تم القبض على بعض كوادر الـ M.K بعد انتهاء تدريباتهم فى اثيوبيا وعن طريق القنوات السرية حاولت مساعدتهم فى المحاكمة وعرضت عليهم الاتصال بهارولد وولب للدفاع عنهم لكننى علمت أنه فى الحجز . فأيقنت أن شيئا ما قد حدث . وكان قد صدر أمر بالحظر على وينى فى أوائل ١٩٦١ لمدة سنتين . وذات يوم فى يوليو ١٩٦٣ وبينما كنت سائرا فى الممر المؤدى إلى زنزانتى رأيت توماس ماشيفان الذى كان رئيسا للعمال فى المزرعة . ورغم أننى فهمت أن السلطات قد دبرت ذلك اللقاء لتتأكد من معرفتى إياه فقد حييته بحرارة وكان وجوده يعنى أن السلطات قد اكتشفت ريفونيا . وبعد يومين استدعيت إلى مكتب السجن حيث وجدت وولتر وجوفان مبيكى وأحمد كاثرادا وأندرو مالفجينى وريموند مهلابا عضو القيادة العليا لـ M.K الذى كان قد عاد من الصين بعد اتمام تدريبه . ووجهت إلينا تهمة التخريب وكان علينا الظهور فى المحكمة فى اليوم التالى . كنت قد قضيت تسعة أشهر من سنوات سجنى الخمس .

وبالتدريج علمت ماحدث . ففى عصر يوم دخلت شاحنة

تنظيف ملابس إلى المزرعة ولم يكن أحد قد طلب تسليم شيء . وحينما حاول حارس افريقى استيقافها هاجمه عشرات رجال الشرطة المسلحين وقفزت الكلاب البوليسية من الشاحنة وأحاطوا بالمزرعة وفتشوا المبانى وتم القبض على الجميع بما فيهم آرثر جولد ريتش . وتمت مصادرة مئات الوثائق والأوراق وبضربة واحدة ألقت الشرطة القبض على جميع أعضاء قيادة M.K وألقى بهم فى الحجز طبقا للقوانين المستحدثة . ولحسن الحظ كان جوسلوفو وبرام فيشر غير متواجدين .

ووجهت إلينا تهمة التخريب وبعد أيام قليلة سمح لنا بمقابلة هيئة الدفاع وأخبرنا برام فيشر أننا نواجه محاكمة شديدة الخطورة وأن الدولة ستطالب باعدامنا .

- ٥٥ -

وفى اكتوبر ١٩٦٣ نقلنا فى شاحنة شرطة مسلحة إلى قصر العدالة فى بريتوريا حيث تنعقد المحكمة العليا فيما أصبح يعرف باسم قضية الدولة ضد نيلسون مانديللا وآخرين أو محاكم ريفونيا . وأحاطت بنا شاحنات الشرطة وهناك كانت تقف عربات شرطة بها كبار مسئوليها . وكانت المحكمة تعج بالرجال المسلحين . واقتدنا الى المدخل الخلفى تحاشيا للمؤيدين الذين كنا نستطيع سماعهم وهم ينشدون . وبدأت ما اتفق على أنه أهم محاكمة سياسية فى تاريخ جنوب أفريقيا .

ودخلنا قاعة المحكمة وكل منا فى حراسة اثنين من رجال الشرطة المسلحين . وقمنا برفع قبضات أيدينا بتحية المؤتمر ورددنا هتافاتنا التى رد عليها الجمهور . وقامت الشرطة بتصوير الحضور وأخذ بياناتهم قبل مغادرة القاعة . وكانت القاعة مليئة برجال الصحافة المحليين والأجانب ومندوبى الحكومات الأجنبية .وكون رجال الشرطة حاجزا بيننا وبين الجمهور . وكانت الحراسة قوية وخاصة لأن قبل ذلك بأسابيع كان آرثر جولد وهارولد وولب وموسى موولا وعبد الحى جاسات قد نجحوا فى الهرب وتمكن آرثر وهارولد من عبور الحدود متخفين كقساوسة إلى سوازيلاند ومنها الى تنجانيقا . وقد أحدث هربهم حالة من الهستريا ورحب به بعناوين رئيسية فى الصحافة مما سبب الاحراج للحكومة .

وكان القاضى فى محاكمة ريفونيا هو كوارتس دى ويت أحد آخر قضاة كان قد عينهم حزب المتحدين . أما الادعاء واسمه بيرس يوتار فكان شخصا ميلودرميا غير دقيق التعبير ذا صوت كالصرير حينما يغضب . وقدم يوتار عريضة الاتهام وطلب محاكمة فورية مختصرة . وكنت المتهم الأول . وكنا نحن الأحد عشر متهمين بالاشتراك فى أكثر من مائة عمل تخريبى تهدف الى تسهيل الثورة المسلحة والغزو المسلح للبلاد وادعت الدولة أننا أعضاء مؤامرة لقلب نظام الحكم وكانت العقوبة القصوى هى الاعدام وطبقا لقانون التخريب فكان العبء على الدفاع ليثبت براءة المتهم .

وطلب فيشر التأجيل على أساس أن الدفاع لم يعط فرصة لتحضير القضية ومنحنا القاضى ثلاثة أسابيع .

وطلبت وينى من وزير العدل السماح لها بالحضور وكانت تحت قرار حظر فوافق على شرط ألا ترتدى الزى الوطنى .

وفى يوم ٢٦ اكتوبر دخلنا مرة أخرى إلى قصر العدالة . وكانت الجموع كبيرة ومتهاجة وكانت الحراسة قوية للغاية ومرة أخرى كان هناك العديد من الضيوف الأجانب ذوى الشأن .

وبدأنا الهجوم على الفور ووصف فيشر عريضة الاتهام بأنها زائفة وتحوى تفاهات كاتهامى بالاشتراك فى أعمال تخريبية فى وقت كنت فيه فى السجن ونظر القاضى الى يوتار طالبا التوضيح وبدلا من أن يقدم تفصيلات بدأ ماوصفه القاضى بأنه خطبة سياسية وحينئذ قال له القاضى « إن أساس اتهامك كما أفهمه هو اقتناعك الشخصى بأنهم مذنبون » وألغى أمر الاتهام وأنهى الجلسة .

وأصبحنا فنيا فى تلك اللحظة طلقاء وساد الهرج القاعة وأعيد القبض علينا حتى قبل أن يغادر دى ويت مقعده .

وأعادت الدولة صياغة عريضة الاتهام وعدنا إلى المحكمة أوائل ديسمبر . ولاحظنا أن دى ويت كان أكثر عداء هذه المرة وقرأت الاتهامات الجديدة وكانت هى أننا جندنا أشخاصا للقيام بأعمال تخريب والبدء فى ثورة مسلحة وأننا تآمرنا

لمساعدة غزو عسكرى أجنبى لنبدأ ثورة شيوعية وأننا استشرنا دولا أجنبية وتلقينا منها مساعدات لهذا الهدف .

وعندما نودى علينا قرر كل من المتهمين أن يوحى بأن الحكومة هى المجرمة قبل أن يقرر أنه غير مذنب .

وفى كلمته أكذ يوتار أننا كنا نخطط لعشرة آلاف من الفدائيين المدربين ليبدأوا ثورة يعقبها غزو عسكرى أجنبى وبعد ذلك تقام حكومة إقليمية ثورية وأن أداه تلك الخطة هى M.K تحت الادارة السياسية للمؤتمر والحزب الشيوعى وأن المقر الرئيسى لـ M.K كان ريفونيا ثم قام بوصف لنشاطاتنا التى ضمنها إقامة محطة إرسال إذاعى فى ريفونيا ومسئوليتنا عن مائتين واثنين وعشرين عملا تخريبيا وتجنيد الأعضاء وإقامة مدرسة تدريبية فى الكيب وانتاج قنابل متنوعة وجمع الأموال من الخارج . وأثناء الشهور الثلاثة التالية أتت الدولة بمائة وثلاثة وسبعين شاهدا وضمت الى سجل القضية آلاف الوثائق والصور .

وكنا فى حيرة من أمر ماتمتلكه الدولة من أدلة ضدى فقد كنت خارج البلاد وفى السجن فى الفترة التى حدث فيها التخطيط فى ريفونيا . وكنت حينما رأيت وولتر فى سجن بريتوريا المحلى قد طلبت منه أن ينقل كل كتبى ومذكراتى من الضيعة . ولكن خلال الاسبوع الأول للمحاكمة وحينما طلب راستى برينستاين الافراج بكفالة أبرز يوتار بطريقة درامية خريطة القلعة التى كنت قد رسمتها والمذكرة الملحقة بشأن

خطة الهرب وصاح قائلا إن ذلك دليل على أن جميع المتهمين من الممكن أن يخططوا للهرب . وكان ذلك علامة على أن شيئا من متعلقاتى لم ينقل من ريفونيا .

وكان شاهد الدولة الرئيسى هو زولو من دربان ويدعى برونتو متولو أو السيد × كما سمى فى المحكمة وكان يوتار قد ذكر بلهجة مسرحية أن حياة الشاهد فى خطر جسيم . وكان متولو ذا ذاكرة حادة وكان قد صار قائد الفرع M.K فى ناتال كما كان خبيرا فى أعمال التدمير وقد زار ريفونيا وكنت قد ألقيت خطابا فى كوادره فى ناتال عقب عودتى وقابلته هناك . وكانت شهادته دقيقة عن العمليات التى قام بها وعن استعمال القنابل وعن نشاطاتنا السرية وقال إنه لم يفقد الايمان بمثل المؤتمر لكنه فقد الثقة فى المنظمة لأنه تبين أن M.K هى أداة للحزب الشيوعى وأن شهادته ببساطة وبتظاهر بالصراحة ولكنه أدخل اضافات - غالبا بناء على تعليمات الشرطة - كقوله إننى قلت لهم أن على كوادر M.k أن يكونوا شيوعيين بدون الاعلان عن آرائهم وبدا ذلك صحيحا فى سياق التفاصيل الدقيقة التى رواها . وقد أذهلتنى خاينة متولو الذى لم يتعرض للتعذيب والذى ذكر أسماء أبرياء كثيرين مورطا إياهم فى القضية دون داع .

ومن خلال مساءلة الدفاع له اكتشفنا أن متولو كان مجرما حقيرا قبل التحاقه بـ M.K وكان قد سجن ثلاث مرات بتهمة السرقة ولكن بالرغم ذلك فقد كانت لشهادته أثرها

المدمر لأن القاضى وجده أهل ثقة وكانت شهادته إدانة لنا جميعا .

وكان مفتاح القضية ضدنا هو خطة العمل المكونة من ست صفحات والتى صادرتها الشرطة عند الهجوم على ريفونيا وكانت حينئذ أمام القادة على المائدة وكانت تدعى عملية مايبوبى وهى عبارة عن تخطيط مبدئى للعمليات الفدائية الممكنة وكيفية اشعال ثورة جماهيرية مسلحة ضد الحكومة وكانت قضية الادعاء ترتكز على أنه قد تمت الموافقة على العملية من قبل اللجنة التنفيذية للمؤتمر وكنا قد تمسكنا نحن بقولنا أنها كانت مازالت موضع مناقشة وقت الهجوم . وكنت أنا قد رأيت أن العملية غير واقعية فى أهدافها وخططها .

- ٥٦ -

واستمرت قضية الدولة حتى ٢٦ فبراير ١٩٦٤ . وبعد ذلك منحنا مدة شهر أو أكثر قليلا لفحص الأدلة واعداد الدفاع . وكانت أدلة الدولة لاتجرمنا جميعا بنفس الدرجة فلم يكن هناك دليل ضد جيمس كانتور . أما راستى بيرنستاين وريموند مهلابا وأحمد كاثرادا فكان دليل تورطهم فى المؤامرة ضئيلا وقرر بقيتنا الستة الاعتراف بأننا مذنبون فى تهم معينة .

وكان برام فيشر متشائما . أما نحن فكنا قد قررنا منذ البداية أن هدفنا هو استغلال المحاكم كمنصة نعلن منها عقائدنا . فلم يكن همنا هو أن تبرأ ساحتنا أو تخفف الأحكام ضدنا لكن أن تدعم المحاكمة القضية التى نناضل من أجلها .

وكان دفاعنا عن أنفسنا ينصب على وجهة النظر الأخلاقية . فمثلا قررنا اثبات عدم صحة ادعاء الدولة بأننا بدأنا حرب عصابات لكننا قررنا الاعتراف أنه كانت لدينا خطط بديلة لاستعمال حرب العصابات فى حالة فشل أعمال التخريب .. وكنا أيضا سننفى أى تهمة قتل أو إضرار لحق بأى شخص برىء وكذلك أننا قد فكرنا فى تدخل قوات أجنبية . أما بخصوصى فكان هناك من الأدلة مايكفى لإدانتى .

وكنت الشاهد الأول وقررت بدلا من الخضوع للاستجواب أن أقوم بالقاء بيان وكان ذلك الإجراء كما حذرنى المحامون سيعرضنى بأن يستبعد القاضى أى شىء فى بيانى يخص براءتى . لكن اهتمامنا الأول كان أن نبدأ الدفاع ببيان عن سياستنا يكون هو السياق لما يتلوه .

وقضيت إسبوعين أحضرّ بيانى ثم قرأته على زملائى وأقروه مع اقتراحات ببعض التغييرات . ولكن عندما قرأه فيشر وعرضه على أحد المحامين رجانى أن أعدله وإلا فلا أمل لى . لكننا كنا نعتقد أن احتمال حكم الاعدام وارد فلا أقل من أن نقول مانعتقده .

وفى يوم الاثنين ٢٠ ابريل وتحت الحراسة المشددة أخذنا إلى صالة العدالة لبدء الدفاع . وكانت وينى هناك مع والدتى وكانت القاعة مكتظة .

وأعلن برام فيشر موافقة المتهمين على بعض أجزاء أدلة الدولة وقال إن الدفاع سينكر بعض ما أكدته الدولة بما فيها

أن M.K هى الجناح العسكرى للمؤتمر لأن قادة المنظمتين حاولوا دائما إبقاءها منفصلتين وأنكر بشدة أن M.K كانت تتلقى أوامرها من الحزب الشيوعى وأن جولدبيرج وكاثرادا وبيرنستاين أعضاء فى M.K ثم قرر أنه سيبرهن أن M.K لم تتبن عملية مايبورلى وأنها لم تبدأ الاعداد لحرب العصابات . وبصوته الخفيض أعلن أن قضية الدفاع ستبدأ ببيان من قفص الاتهام يلقيه المتهم الأول الذى اشترك شخصيا فى تأسيس M.K

وهنا ثار يوتار الذى كان قد أعد العدة لاستجوابى لكن القاضى تجاهله . ووقفت فى مواجهة المحكمة وقرأت بيانى ببطء .

قلت أننى المتهم الأول وأننى الآن سجين أقضى عقوبة مدتها خمس سنوات وأننى قد ساعدت فى انشاء M.K وقلت اننى فعلت مافعلت كفرد وقائد نتيجة لتجربتى فى جنوب افريقيا ولخلفيتى الافريقية التى أفخر بها .

ثم ذكرت لهم ظروف نشأتى وكيف غرست فى نفسى الفخر بكل ماهو إفريقى مما جعلنى آمل أن تتاح لى الفرصة أن أخدم شعبى وأقدم مساهمتى المتواضعة فى معركة حريتهم وأن تلك هى دوافعى فى كل مافعلت ويتعلق بالتهم الموجهة لى فى تلك القضية .

ولم أنكر أننى خططت لبعض أعمال العنف ليس حبا فى

العنف ولكن نتيجة لتقييم هادىء للموقف السياسى الذى وجد نتيجة سنوات عديدة من الطغيان والاستغلال والاضطهاد من جانب البيض لشعبى . ثم وضحت كيف أن خمسين عاما من عدم العنف من جانب المؤتمر لم ينتج عنها سوى القوانين الظالمة والاستغلال والاضطهاد للأفارقة وهكذا بدت السياسة التى تهدف الى إقامة الدولة غير العنصرية عن طريق عدم العنف غير مجدية . وذكرت أننا شعرنا أن البلد فى سبيلها إلى حرب أهلية بين السود والبيض مما كان سيستحيل معه إقامة سلام في المستقبل بين الاعراق المختلفة . وعلى ذلك بدت أعمال التخريب الأمل الوحيد لعلاقات سليمة مستقبلية بين الأعراق وكان رد الدولة على مجهوداتنا الأولية سريعا ووحشيا . ثم قلت أن التمرد سيعطى للحكومة فرصا لانهائية لارتكاب المذابح ولأن تربة جنوب إفريقيا مازالت مشبعة بدماء الأفارقة الأبرياء فقد رأينا . أن نعد أنفسنا على المدى البعيد لاستعمال القوة فى مواجهة القوة فإن كانت الحرب أمرا محتوما فإننا أردنا للمعركة أن تجرى فى ظروف مواتية لنا وأن الحرب الوحيدة ذات الاحتمالات المواتية لنا والتى تقلل من المخاطرة بحياة الأفراد من الطرفين هى حرب العصابات . ولهذا قررنا أن نعد لامكانية قيام حرب عصابات .

ثم ذكرت ظروف مغادرتى البلاد والتدريب العسكرى الذى تلقيته ثم ذكرت الخط الفاصل بين المؤتمر و M.K ثم فندت دعاوى الدولة من أن أهداف المؤتمر والحزب الشيوعى واحدة

مؤكدا أن المؤتمر كان مبدأه دائما القومية الافريقية وليس القاء الرجل الأبيض فى البحر وأن أهم وثائقه هى ميثاق الحرية ولم يفكر فى أى وقت فى تغيير البنية الاقتصادية للبلاد . فبينما يعمل الحزب الشيوعي على التأكيد على تفاوت الطبقات يعمل المؤتمر على التناسق بين الطبقات . ثم أضفت أن التعاون بين الحزب الشيوعى وبين المؤتمر هو تعاون من أجل إنهاء سيادة الرجل الأبيض وأعطيت مثالا بتحالف بريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفييتي ضد هتلر .

وذكرت أنه لعقود عدة كان الشيوعيون هم المجموعة الوحيدة السياسية فى جنوب إفريقيا التى تعامل الأفارقة كآدميين وأنداد ولهذا السبب فهناك أفارقة اليوم يميلون إلى مساواة الحرية بالشيوعية . ولم أنكر أن فكرة المجتمع اللاطبقى قد لاقت من نفسى قبولا وأن الفكر الماركسى قد أثر فىَّ وقلت أن هذا ينطبق على كثير من القادة الأفارقة فى الدول حديثة الاستقلال الذين تقبلوا الحاجة إلى شكل من أشكال الاشتراكية ليمكنوا شعوبهم من اللحاق بالدول المتقدمة فى الغرب . ورغم ذلك فإننى أنظر إلى النظام البرلمانى البريطانى كأكثر النظم ديمقراطية فى العالم وكذلك هى نظرتى للنظام البرلمانى الأمريكى .

وبعد ذلك فصلت الفوارق بين حياة البيض والسود فى جنوب افريقيا وذكرت أن البيض يدعون أن الأفارقة فى جنوب إفريقيا أحسن حالا من الأفارقة فى انحاء القارة وقلت أن

شكوانا ليست أننا فقراء بالنسبة لغيرنا من الأفارقة ولكن أننا فقراء .. بالمقارنة بالبيض فى بلدنا وأننا ممنوعون من إصلاح هذا الوضع .

واستطردت قائلا إن انعدام الكرامة الانسانية الذى يعانى منه الأفارقة لهو نتيجة مباشرة لسيادة البيض ، وإن التشريع الذى هدفه أن يحافظ على تلك السيادة يعمق الفكرة فالمهمات الحقيرة يقوم بها الأفارقة وأن الفقر وانهيار الأسرة لها آثارها الأخرى فإن الأطفال يجوبون الشوارع لأن ليس لديهم مدارس يذهبون إليها أو والدان يرسلانهم إلى المدرسة لأن على كل من الوالدين أن يعمل ليقيم أولادهم وهذا يؤدى إلى انهيار المعايير الأخلاقية وارتفاع عدد اللقطاء وتفجر أعمال العنف السياسية وغيرها .

وقلت أننى أعرف أن مطالبة الأفارقة بحقوق متساوية يبدو ثوريا للبيض لأن معظم الأصوات ستكون للسود ولهذا يخاف الرجل الأبيض من الديمقراطية . وختمت كلمتى وسط صمت تام فى القاعة وأنا أنظر إلى القاضى دى ويت وقلت :

لقد كرست نفسى لمعركة الشعب الافريقى هذه وناضلت ضد سيادة البيض وناضلت ضد سيادة السود فقد اعتنقت مبدأ مجتمع حر وديمقراطى حيث يعيش جميع الأفراد فى تآلف ولديهم فرص متساوية وهذا هو المثل الاعلى الذى آمل أن أعيش من أجله وأحققه . ولكن إذا احتاج الأمر فهو المثل الأعلى أيضا الذى أنا على استعداد كى أموت من أجله .

وجلست ، وساد القاعة صمت بدا كما لو أنه امتد دقائق عديدة ولكنه فى الواقع لم يستمر أكثر من ثلاثين ثانية ، وعندئذ ، ومن مقاعد الجمهور سمعت ماقد بدا وقتها وأنه تنهيدة عظمى جماعية تلاها بكاء النساء .

وكانت كلمتى قد استمرت أربع ساعات وكانت الساعة قد تخطت الرابعة وهو ميعاد رفع الجلسة عادة لكن القاضى دى ويت طلب الشاهد التالى لأنه كان مصمما على تخفيف وقع بيانى ولكن لم يفلح أى شىء فعله فى تخفيف الوقع وحينما فرغت من كلمتى وجلست كانت تلك آخر مرة يواجه فيها دى ويت نظراتى .

ولاقت كلمتى ردود فعل ضخمة فى الصحافة المحلية والأجنبية ونشرتها الديلى راند كاملة رغم قرار حظر كلماتى . وكانت الكلمة قد بينت خط دفاعنا وجعلت الادعاء أعزل نظرا لأنه كان قد أعد للقضية على أساس أننى سأقوم بالادلاء بالشهادة محاولا إنكار مسئوليتى عن أعمال التخريب .

وجاء دور المتهم الثانى وولتر سيسولو وكان عليه أن يتحمل الاستجواب الذى كان يوتار قد أعده لى ولكن وولتر تحمل سيل الأسئلة العدائية وسما على حقارة يوتار . وجاء بعد ذلك دور جوفان الذى روى بفخر تاريخ عضويته للحزب الشيوعى وكذلك فعل أحمد كاثرادا ورستى بيرنستاين وقد أنكر كاثرادا ارتكاب أعمال تخريب أو تحريض للآخرين ولكنه قال أنه يؤيد تلك الأفعال إن كانت تخدم المعركة .

وكان خطاب يوتار النهائى عبارة عن تلخيص مشوه لقضية الادعاء مليئا بالاهانات حتى أن القاضى دى ويت بدا متحيرا ازاء بعض المعانى التى قصدها يوتار وعند نقطة معينة قاطعه متسائلا إن كان يوافق على أنه قد فشل على أن يبرهن أن قرارا كان قد اتخذ بشأن حرب العصابات .. وأحيا ذلك لدينا الأمل .

ورد مستشار الدفاع على النقط التى أثارها يوتار فى كلمته . وكذلك بين برام فيشبر التناقضات والادعاءات الكاذبة التى وردت فى كلمة الادعاء . ولكن دى ويت قاطعه قائلا أنه مقتنع أنه لم يتخذ قرارا بشأن حرب العصابات وأن المؤتمر منظمة منفصلة عن M.K . وتأجلت الجلسة ثلاثة أسابيع لدراسة الحكم .

وكان العالم مهتما بمحاكمة ريفونيا منذ أقيمت صلوات طوال الليل فى كاتدارئية سان بول فى لندن وانتخبنى طلبة جامعة لندن رئيسا للاتحاد غيابيا ودعا فريق من المختصين فى الأمم المتحدة الى عقد مؤتمر قومى فى جنوب إفريقيا لانتخاب برلمان يمثل حقيقة الشعب ودعوا الى العفو عن جميع المعارضين للأبارتايد وقبل أن يتخذ القاضى دى ويت قراره بيومين حث مجلس الأمن فى غياب أربعة أعضاء من بينهم بريطانيا والولايات المتحدة حكومة جنوب إفريقيا إلى إنهاء المحاكمة والعفو عن المتهمين .

وفى الأيام التى سبقت إعادة انعقاد المحكمة كنت قد أديت امتحان ليسانس الحقوق لجامعة لندن وكان السجانون يعلقون على ذلك بقولهم أننى لن احتاج لدرجة فى القانون حيث أنا ذاهب . وكانت تلك طريقة منعت نفسى من التفكير بها بطريقة سلبية . ونجحت فى الامتحان .

ويوم الخميس ١١ يونيو اجتمعنا ثانية بقصر العدل وكنا فقط ننتظر نوع العقوبة .

وبدون إضاعة وقت نطق دى ويت بالحكم وكان إدانة المتهمين الرئيسيين فى التهم الأربعة الموجهة إليهم أما كاثرادا فقد ثبتت عليه تهمة واحدة وثبت براءة راستى بيرنستاين . وتأجل النطق بالعقوبة حتى اليوم التالى لكى تعطى الدولة والدفاع فرصة لتقديم أى وثائق يرونها .

وبعد مناقشات قررنا أننا لن نستأنف الحكم حتى ولو كان حكما بالاعدام لأن الاستئناف يقوض الموقف الأخلاقى الذى التزمنا به وكبرياءنا فيما فعلنا الذى عبرنا عنه . كما أننا لم نكن نريد أن نعوق الحملة الجماهيرية التى لابد وأن تتفجر فى حالة الحكم بإعدامنا وكان رأينا أن الاستئناف سيكون هبوطا مفاجئا للخط الذى التزمنا به واحباطا للآمال .

وكنت مستعدا للحكم بالاعدام ولكى يكون الانسان مستعدا بحق فلابد له وأن يتقبله بالفعل فلا يستطيع الانسان أن يكون مستعدا لشىء إذا كان يؤمن فى أعماقه أنه لن يحدث . وكنا جميعا مستعدين ليس لكوننا شجعانا ولكن لكوننا واقعيين .

وفى يوم ١٢ يونيو ١٩٦٤ دخلنا المحكمة للمرة الأخيرة وكان قد مر عام تقريبا منذ الهجوم على ريفونيا . وكانت احتياطات الأمن غير عادية . وهرعت بنا حافلة الشرطة عبر الشوارع مطلقة صفاراتها ولم يسمح بالمرور فى الشوارع المؤدية للمحكمة . وبرغم اجراءات التخويف فقد تجمع حوالى ألفى شخص امام المحكمة رافعين شعاراتهم . وفى الداخل امتلأت مقاعد النظارة عن آخرها . ولوحت محييا وينى ووالدتى . وقبل النطق بالحكم تكلم هارولد هانسون وآلان بيتون الكاتب ورئيس الحزب الليبرالى طالبين تخفيف الحكم حيث أنه لايمكن تجاهل المظالم القومية وأن أهدافنا نفسها لم تكن إجرامية ولكن الوسائل المتبعة هى غير المشروعة . وتجاهل القاضى كلماتهما . ثم أشار إلينا بالوقوف وتكلم وهو يتحاشى نظراتنا وقال إنه استمع لكل ماقيل عن مظالم غير الأوروبيين وعن دوافع المتهمين التى كانت رفع تلك المظالم لكنه شخصيا لايعتقد فى إيثارية دوافعهم إذ أنه فى حالة قيام ثورة فإن هؤلاء القادة سيحتلون مناصب الحكومة وحيث أن الدولة قد قررت عدم اتهامهم بالخيانة العظمى فإنه بعد تفكير ودراسة قرر من منطلق التسامح ألا يحكم بالعقوبة القصوى وعلى ذلك فإن العقوبة لجميع المتهمين هى السجن مدى الحياة .

وساد الهرج قاعة المحكمة . وأخرجنا من الباب الخلفى ودخلنا الشاحنة السوداء التي سلكت طريقا مختلفا ورغم ذلك كنا نسمع صياحات وهتافات الجماهير . وفصلنا عن دينيس جولدبيرج لكونه أبيضا . وسجن الباقون فى زنزانات فى سجن بريتوريا المحلى بعيدا عن جميع السجناء الآخرين . وبدلا من الهتافات والأغانى كنا نسمع فقط صرير الأبواب والبوابات .

وتلك الليلة وأنا مستلق على حصيرتى فى الزنزانة بدأت أراجع أسباب قرار دى ويت . فقد كانت المظاهرات قد عمت جميع أرجاء جنوب إفريقيا . كما أن الضغط الدولى كان لابد وأن أثر فى قراره . فقد احتجت الاتحادات الدولية على المحاكمة وهدد اتحاد السفن بمقاطعة التعامل مع بضائع جنوب إفريقيا وكتب بريجنيف إلى فيرويرد طالبا استعمال الرأفة واحتج بعض أعضاء الكونجرس الأمريكى وقاد خمسون من أعضاء البرلمان فى انجلترا بتسيير مسيرة وكانت هناك شائعات أن وزير خارجية بريطانيا قد تدخل من أجل المحاكمة كما كتب ممثل الولايات المتحدة يقول أن حكومته مستعدة لأى شىء من أجل أن تمنع صدور حكم الاعدام . وفكرت أنه بما أن دى ويت قد اقتنع أننا لم نبدأ حرب عصابات وأن المؤتمر وM.K منفصلان فقد كان من الصعب عليه اصدار حكم بالاعدام .

وفى كل مساء فى سجن بريتوريا المحلى وقبل أن تطفأ

الأنوار كانت تسمع أصداء أغانى الحرية التى ينشدها السجناء وكنا نحن أيضا ننطلق بالغناء .

الجزء الثامن

جزيرة روبن
السنوات المظلمة

- ٥٩ -

وفى منتصف إحدى الليالى اوقظنا واقتدنا عبر ممرات السجن وفى الخارج قيدنا نحن السبعة : وولتر ، وريموند ، وجوفان ، وكاثرادا ، وأندرو ، وإلياس ، وأنا ، وحشرنا فى الجزء الخلفى لشاحنة شرطة وفى أقل من نصف ساعة وجدنا أنفسنا فى مطار عسكرى قديم خارج المدينة ودفعنا نحو طائرة نقل عسكرية عتيقة التى حملتنا إلى جزيرة روبن . وحينما رسونا قابلنا الحراس المسلحون بالأسلحة الأوتوماتيكية . ثم اقتدنا الى السجن القديم وهو مبنى حجرى منعزل حيث أمرنا بخلع ملابسنا وألقى إلينا بالزى الكاكى الخاص بجزيرة روبن وكانت تعليمات الأبارتايد تشمل زى السجن فقد أعطى كاثرادا سروالا طويلا وجوربا . وأقسمت وأنا أرتدى السروال القصير ألا أرتديه طويلا .

وفى الصباح الرابع قيدت أيدينا ونقلنا فى شاحنة مغطاة الى سجن داخل سجن . وكان ذلك عبارة عن قلعة مستطيلة

من طابق واحد لها فناء أسمنتى فى المنتصف وكانت الزنزانات تحتل ثلاثا من الجوانب الأربع أما الجانب الرابع فكان جدارا ارتفاعه عشرين قدما .

وخصصت لكل منا زنزانة وكان لكل زنزانة نافذة مساحتها قدم مربع مغطاة بالحديد وبابان أحدهما من المعدن وله قضبان حديدية وخارجه باب من الخشب الثقيل وفى أثناء النهار كان الباب المعدنى يوصد أما أثناء الليل فكان البابان يوصدان .

ولما شكوت إلى الضابط من رطوبة الجدران قال إن أجسادنا ستمتص الرطوبة وتم صرف ثلاث بطانيات رقيقة بالية لدجة الشفافية وحصيرة من القش لكل منا ثم أضيف إليها حصيرة من اللباد وكانت الزنزانات فى ذلك الوقت من السنة شديدة الرطوبة لدرجة أننا كنا ننام بملابسنا كاملة .

ولحق بقسمنا بعد ذلك عدد آخر من المسجونين السياسيين كانوا فى القسم العام مثل جورج بيك أحد مؤسسى منظمة ملونى جنوب افريقيا ودنيس برونس وهو مناضل آخر من الملونين وكان شاعرا وكاتبا وبيلى نير من المجلس الهندى لناتال ونيفل الكسندر من المثقفين الملونين البارزين وعضو حركة غير الأوروبيين وآخرين وكوننا مجموعة من عشرين سجينا سياسيا .

وبدأ فى الأسبوع الأول العمل الذى اشتغلنا به لعدة أشهر تالية فكان يلقى إلينا كل صباح بحمولة من الأحجار فى حجم

الكرة فى مدخل الفناء وباستعمال عربات يد كنا ننقل تلك الأحجار الى منتصف الفناء وكان علينا أن نصحن تلك الحجارة بالمطارق ونحولها الى حصى . وتم تقسيمنا إلى أربع مجموعات يفصل كل منها عن الأخرى حوالى ياردة ونصف وكنا نجلس على الأرض متربعين ثم كان كل منا يعطى حلقة سميكة من المطاط مصنوعة من إطارات السيارات القديمة نضع فيها الحجارة لمنع تناثر الشظايا التى كانت فى الواقع غير مؤثرة . وكنا نلبس أقنعة من السلك لحماية أعيننا وكان السجانون يمشون بيننا ليفرضوا الصمت والمساجين من الأقسام الأخرى يأتون ليحملقوا فينا كحيوانات متوحشة . وكان العمل صعبا ومملا وغير عنيف بالدرجة التى تجلب لنا الدفء ولكنه متعب بدرجة توجع مفاصلنا .

وكان الجو فى الجزيرة فى ذلك الوقت قارس البرودة وكنت أرتجف حتى وأنا فى الشمس وعند الظهيرة كنا نتوقف للغداء وكان فى الاسبوع الأول حساء كريه الرائحة .

وحدث أن تحديث السجانين بمحاولة مساعدة كاثرادا لتحريك عربة اليد المحملة بالحجارة ، وفى الصباح التالى وضعت السلطات دلوا كبيرا فى الفناء وأعلنوا أنه لابد وأن يملأ إلى منتصفه قبل نهاية الاسبوع ، وفى الاسبوع التالى أعلنوا أن علينا أن نملأ ثلاثة أرباع الدلو فاجتهدنا ونجحنا وفى الاسبوع الثالث أمرنا أن نملأه حتى الحافة وكنا نعلن أننا لن نحتمل ذلك لمدة طويلة ولكن لم نفعل شيئا وتمكننا من

ملء الدلو لكن السجانين استفزونا وفى الاسبوع الذى تلى ذلك بدأنا أول اضراب للعمل ببطء فى الجزيرة فقررنا أن نعمل بنصف السرعة التى عملنا بها للاحتجاج على المطالب المسرفة وعلى الفور فهم السجانون وأنذرونا لكننا لم نزد سرعتنا وأخذنا فى اتباع استراتيجية البطء مدة العمل فى الفناء .

وكانت جزيرة روبن قد تغيرت عما كانت عليه عندما كنت نزيلا بها عام ١٩٦٢ حيث كان المكان يبدو كتجربة أكثر منه سجنا متكاملا . وبعد سنتين من ذلك التاريخ كانت الجزيرة بدون شك أعتى وأقسى نقطة حدودية فى نظام العقوبات فى جنوب إفريقيا . وكان التقسيم العرقى هناك مطلقا فلم يكن هناك سجانون سود أو مساجين بيض . وهناك كنا معزولين تماما وكان عزاؤنا الوحيد وجودنا معا . لكن سرعان ما اختفى شعورى بالاستياء ليحل محله شعور أن معركة جديدة قد بدأت .

منذ اليوم الأول كنت قد احتججت على إجبارى على ارتداء السروال القصير وطالبت مقابلة مأمور السجن لابلاغه بقائمة شكاواى وتجاهل السجانون احتجاجاتى . ولكن فى نهاية الاسبوع الأول وجدت سروالا طويلا ملقى على أرض زنزانتى ورغم فرحتى به فقبل أن أرتديه عرفت أنه لم يتم صرف سراويل مماثلة لزملائى وكان اصرارى أن يرتدى جميع الأفارقة السراويل الطويلة لكن مأمور السجن رفض وأخذ منى سروالى .

وفى نهاية الاسبوعين الأولين أخطرنا أن محامينا برام فيشر وجويل جوف سيزورنا اليوم التالى وكان الهدف من زيارتهما معرفة أحوالنا والتأكد من أننا لم نكن نرغب فى الاستئناف . وجلسنا فى الغرفة الخاوية وكنت أشعر برغبة شديدة فى معانقتهما لكن وجود الضابط معنا منعنى وأخبرتهما أننا لانرغب فى الاستئناف للأسباب التى ذكرناها سابقا . وحينما كنا على وشك إنهاء المحادثة سألت برام عن زوجته مولى ولكننى ماكدت أنطق بالاسم حتى نهض فجأة وخرج من الغرفة وبعد دقائق عاد مرة أخرى وقد تمالك نفسه . وأستأنف الحديث . وانتهت مقابلتنا وبينما كنا فى طريقنا إلى زنزانتنا سألنى الضابط إن كنت قد عجبت لتصرف برام فيشر ولما رددت بالايجاب أخبرنى أن مولى توفيت فى حادث سيارة فى الاسبوع الماضى وكان برام يقود السيارة حينما إنحرف بها ليتفادى حيوانا فى الطريق وسقطت السيارة فى نهر وغرقت مولى . وصعقتنى الأنباء فقد كانت مولى امرأة مدهشة كريمة منكرة لذاتها وبدون تحيزات على الاطلاق وكانت له زوجة وزميلة ورفيقة وكان برام قد خبر المآسى فى حياته عند وفاة إبنه فى سن المراهقة من مرض السكر . وكان تصرف برام عندما سألته متمشيا مع شخصيته فقد كان صبورا لايحمل أصدقاءه آلامه ومشاكله . وكان كأفريكانى قد فرض عليه ضميره أن يرفض إرثه . ونبذه قومه . وأظهر

مستوى من الشجاعة والتضحية لانظير له . فقد كنت أنا أقاتل ضد الظلم وليس ضد قومى .

وفى خلال شهر استقرت حياتنا وفقا لنمط معين فى السجن . فإن حياة المعتقل روتينية تتماثل فيه الأيام حتى تختلط الأشهر والسنوات . وإن أى شىء يخرج عن القالب يقلق السلطات لأن الروتين علامة من علامات حسن الادارة فى السجن . وقد كانت الساعات من أى نوع ممنوعة وكنا نعتمد على الأجراس وصفارات السجانين وصيحاتهم لمعرفة الوقت . وكان من بين أوائل مافعلته هو أن أسجل تقويما على الحائط فإن الانسان اذا فقد قبضته على الوقت فقد قبضته على سلامة عقله .

إن التحدى الذى يقابل كل سجين وخاصة السجين السياسى هو المحافظة على ذاته فى السجن وأن يخرج من السجن دون أن يتضاءل وأن يحتفظ بل ويزيد من عقائده وأول مهمة لتحقيق ذلك هو أن يتعلم المرء كيف يبقى ولكى يتحقق ذلك فلابد للمرء أن يعرف هدف عدوه . فان السجن يهدف الى هزيمة معنويات الانسان وتقويض عزمه ولكى يتحقق ذلك تحاول السلطات استغلال كل ضعف وتحطيم كل دافع وأن تبطل مايدل على التفرد وذلك لكى تقضى على تلك الومضة التى تضفى على كل آدمى هويته .

وكان بقاؤنا يعتمد على فهم ماتحاول السلطة أن تفعله وتشارك ذلك الفهم كان من المستحيل أن يقاوم الفرد منفردا

كان خطأ السلطة الأكبر هو ابقاؤنا معا لأن ذلك قوى تصميمنا وهكذا عاون الأقوياء من هم أقل قوة وصرنا جميعا اقوياء وفى النهاية فقد كان علينا أن نخلق حياتنا داخل المعتقل . وكما اعترفت بذلك السلطات فقد كنا نحافظ نحن على النظام أكثر من السجانين .

كنت حينذاك مهمشا ولكننى كنت أعلم أننى لن أتخلى عن المعركة . كنت فى بيئة مختلفة وصغيرة حيث الجمهور هو أنفسنا وسجانونا . ولكنا نظرنا للمعركة داخل المعتقل كمصغر للمعركة ككل . فقد كانت هناك نفس العنصرية ونفس الاضطهاد . ولم يدر فى خلدى قط أننى لن أخرج من السجن يوما من الأيام وكنت أعلم أنه سيجىء اليوم الذى أسير فيه رجلا حرا تحت أشعة الشمس والعشب تحت قدمى فإننى أساسا انسان متفائل وجزء من هذا التفاؤل أن يبقى الانسان جزءا من رأسه في اتجاه الشمس وأن يحرك قدميه إلى الأمام . وكانت هناك لحظات عديدة مظلمة اختبرت فيها ثقتى بالانسان بقوة ولكننى لم أترك نفسى لليأس أبدا ، فقد كان ذلك يعنى الهزيمة والموت .

- ٦١ -

وكان يتم إيقاظنا فى كل صباح فى الخامسة والنصف على صيحات السجان وفنون جرسه النحاسى . وكانت الفترة مابين ايقاظنا وخروجنا من الزنزانات فى السابعة تقضى فى

تنظيف الزنزانة وطى الحصائر والبطاطين . ولم تكن هناك مياه جارية فى الزنزانات بل كان هناك دلو من الحديد وكان له غطاء مقعر من الخزف يوضع به الماء المخصص للحلاقة وغسل أيدينا وأوجهنا .

وكان أول شىء نفعله بعد خروجنا من الزنزانة افراغ الدلو وغسله جيدا لمنع الرائحة الكريهة . وكان الشىء الوحيد المبهج فى تلك اللحظات هى أنها كانت فرصة للتهامس بيننا .

وكان السجناء من القسم العام يحضرون إلينا طعام الافطار فى الزنزانة وكان عبارة عن ثريد الذرة وبعد ذلك بأشهر كنا نتناول طعام الافطار فى الفناء حيث كان يوضع فى براميل زيت معدنية أما القهوة فكانت عبارة عن ذرة محمص مطحون مغلى فى الماء . وكان الطعام عنصريا لأن الملونين والهنود كانوا يتناولون طعاما أفضل قليلا من طعامنا . وكان الطعام موضع احتجاجنا . وبعد ذلك كنا نعمل فى تفتيت الحجارة حتى موعد الغداء الذى كان يتكون بالنسبة للأفارقة من ذرة مسلوقة أما الهنود والملونون فكانوا يتناولون نوعا من حساء الذرة بها بعض الخضروات أحيانا .

وبعد الغداء كنا نعمل حتى الرابعة ثم يسمح لنا بنصف ساعة للاغتسال وكانت المياه فى الحمامات هى مياه البحر الباردة ، وبعد ذلك نتناول العشاء فى الزنزانات وكان يتكون من ثريد الذرة وأحيانا يضاف إليه حبة من الجزر أو البنجر أو قطعة من الكرنب . وأحيانا كانت تضاف قطعة غضروفية من

اللحم إلى الثريد وكان الهنود والملونون يعطون ربع رغيف من الخبز من العشاء . ثم يتم غلق أبواب الزنزانات والممرات فى الثامنة حيث كان من المفروض أن ننام . ولكن مرور الصوت فى الممر كان ممتازا فكنا نحاول أن نتجاذب أطراف الحديث احيانا قبل النوم .

- ٦٢ -

وذات صباح وبعد أيام عديدة من لقائنا مع برام وجويل أخذنا الى المكتب الرئيسى واصطففنا هناك لأخذ بصماتنا وكان ذلك إجراء روتينيا فى السجن . وبينما كنا ننتظر لاحظت أحد السجانين ومعه كاميرا وبعد أخذ بصماتنا أمرنا كبير السجانين بالاصطفاف لالتقاط صورنا ولكننى أشرت على زملائى ألا يتحركوا وقلت للسجان إننى أود أن أرى الوثيقة الصادرة من مدير السجون والتى تخوله السلطة فى التقاط صورنا وكنت أعلم أن مثل تلك الوثيقة ضرورية . فهددنا بتوجيه الاتهام ضدنا إذا رفضنا أن يلتقط صورنا ولم يفلح تهديده . وكنا كقاعدة نرفض إلتقاط صورنا فى السجن لأن نشرها كان يعتبر نوعا من المهانة .

ولكن حدث أن فى صباح يوم بدل أن يعطى لنا السجان المطارق أعطانا إبرا وكومة من الملابس البالية وأمرنا أن نصلحها وكان الأمر قد استثار دهشتنا وفى وقت متأخر من الصباح فتحت البوابة الأمامية ودخل منها لمأمور السجن ومعه

زائران عرفناه أنهما مصور ومراسل صحيفة الديلى تلغراف اللندنية ولكننا فى شك من أمرهما لأنهما أتيا تحت رعاية الحكومة ولأن الصحيفة التى يمثلانها محافظة . وكان من مصلحة الحكومة ازاء الاهتمام العالمي بأمرنا ، أن تبرهن أنه لايساء معاملتنا وسار الصحفيان حول الفناء وبقينا ورؤوسنا إلى أسفل مركزين على عملنا ثم جذبنى أحد الحراس من كتفى وطلب منى أن أتكلم وتحدثت مع المراسل حوالى عشرين دقيقة عن السجن وعن محاكمة ريفونيا بصراحة وعندما طلب التقاط صور ترددت ولكننى وافقت لعلمى أن الصور ستنشر بالخارج وربما تساعد القضية وطلبت أن يرافقنى سيسولو . ولم أر المقال أو أسمع عنه بعد ذلك .

وكانت القصص قد انتشرت فى الخارج عن طريق الصحافة عن الظروف غير الانسانية فى الجزيرة وعن التهجم علينا وتعذيبنا وسببت الحرج للحكومة وعلى سبيل الرد عليها أحضرت مجموعات لزيارتنا لتدحض تلك القصص .

وفى يوم أخبرنا أن السيد هايننج ممثل جمعية المحامين الأمريكيين سيحضر لزيارتنا . وكان الأمريكيون مستجدون فى جنوب إفريقيا . وملأنى حب الاستطلاع لمقابلة ممثل جمعية قانونية مهيبة كتلك .

وفى يوم زيارته دعينا إلى الفناء ووصل الأمريكى برفقة جنرال ستاين مدير السجون الذى كان نادرا مايأتى إلى الجزيرة وكان شخصيا يسبب لنا الاضطهاد بما يغفله وليس

بما يفعله لأنه كان يترك للمسئولين حرية ممارسة وحشيتهم . واختارنى الآخرون للتحدث عنهم . وشكرت السيد هاينتج ولخصت شكاوينا وأولها أننا مسجونون سياسيون ولسنا مجرمين ويجب أن نعامل على هذا الأساس وعددت الشكاوى من الطعام وظروف المعيشة والعمل . ولكن هاينتج أخذ يقاطع حديثى . ولما تحدثت عن ساعات العمل الطويلة التى نقضيها فى مجهود جسدى قال إننا كمسجونين يجب أن نعمل وربما كنا أشخاصا كسالى - وذكر أن الظروف فى السجون الأمريكية أسوأ بكثير منها فى جزيرة روبن وأضاف إن الحكم علينا عادل وأننا محظوظون أن لم يصدر حكم بإعدامنا ، الأمر الذى استحققناه .

- ٦٣ -

تصنف السلطات المساجين فى جنوب إفريقيا .. أربع فئات أ ، ب ، ج ، د . وأرفع تلك التصنيفات أ ويمنحون بعض الميزات وكان جميع المساجين السياسيين يصنفون من فئة د وكانت الميزات تتضمن الزيارات والخطابات والفرصة لأن يشترى المسجون مأكولات وخلافه . وقد طالبنا اعتبارنا ضمن فئة أ ولكن كان التصنيف جزءا من نظام السجون . فإذا احتج سجين من فئة د على أنه يتسلم خطابا واحدا كل ستة شهور كانت الأجابة أن عليه أن يحسن سلوكه ليلحق بفئة ج ويتسلم خطابين كل ستة شهور . وكانت التصنيفات توازى عدد

سنوات الحكم فيبدأ السجين بفئة د ثم يرقى كل سنتين الى الفئة الأعلى وكانت السلطات تشهر ذلك النظام سلاحا ضد السجناء السياسيين وكانت اسهل وسيلة للارتقاء هى الاطاعة وعدم الشكوى .

وكان مسموحا لى كسجين من فئة د أن أتلقى زيارة واحدة وخطابا واحدا كل ستة أشهر وكانت الزيارات مقصورة على الأقرباء من الدرجة الأولى ـ ولكن السلطة أساءت استعمال هذه الحظر فكانت الخطابات تصل الى الجزيرة مرة كل شهر وأحيانا كان يمر ستة أشهر دون أن تصل خطابات وهكذا كان يحدث ألا نتسلم الخطاب المقرر كل ستة أشهر وكان يحدث حينما يصل الخطاب أن تحتجزه السلطات وتخبرنى أننى لن أتسلم الخطاب بدون أى توضيح وفى تلك اللحظات كنت أحتاج لكل ماتعلمته من صبر كى لا أنفجر وأن أحتج من خلال القنوات الرسمية .

وخلال الستة أشهر الأولى تلقيت خطابا من وينى ولكن الرقابة كانت قد سودت بالحبر معظمه حتى لم يبق سوى التحيات . وبعد ذلك عدلت السلطات عن استخدام الحبر حينما اكتشفت أنه يمكن غسله وقراءة ماتحته واستخدمت الأمواس لقطع فقرات كاملة وحيث أن الخطابات كانت تكتب على صفحتى الورقة فكان ذلك يعنى قطع أجزاء كاملة كانت الرقابة تسمح بها . وكانت قراءة الخطاب من الرقابة تستغرق شهرا أحيانا

وبعد ثلاثة أشهر من وجودنا على الجزيرة تلقيت أنا وولتر أول زيارة لنا . وكانت السلطات مثلا تتصل بزوجة السجين قائلين بها إن لديها تصريحا بزيارة زوجها اليوم التالى وبذلك كانت تصبح الزيارات مستحيلة . فإذا كانت الزوجة رتبت أمر الزيارة مقدما تعمدت السلطات تأخير تسليم التصريح حتى تقلع الطائرة . وبما أن معظم أسر السجناء كانت تعيش فى أماكن نائية عن الكيب ولم يكونوا يمتلكون من الأموال مايكفى أصبحت زيارة الجزيرة أمرا يفوق بكثير استطاعتهم . ولذا قضى رجال سنوات طويلة دون رؤية زوجاتهم وبعضهم لم يروهن إطلاقا . وكانت الزيارة تتم فى غرفة بدون نوافذ أقيمت بها أكشاك ضيقة بها مساحات صغيرة من الزجاج يحوى عددا صغيرا من الثقوب للتحدث من خلالها ولذا كان الحديث يستلزم استعمال الصوت العالى جدا لكى يسمع الطرف الآخر . وبعد ذلك قامت السلطات بوضع مكبرات صوت . واستدعيت أنا وولتر الى غرفة الزيارة . ورأيت وجه وينى يملأ الزجاج وكانت دائما ترتدى ملابس أنيقة جديدة لزيارتى ولكن ذلك لم يخف أثر المعاناة من وجهها ثم اكتشفت بعد ذلك أن أمرا جديدا « بالحظر » قد صدر ضدها وأنها قد فقدت وظيفتها فى مركز رعاية الطفولة نتيجة لذلك وأنه تم تفتيش مكتبها لاعتقاد السلطات أنها تتصل بى . وكانت وينى مولعة بوظيفتها لصلتها بالمعركة فقد كانت تساعد على إيجاد آباء لتبنى الأطفال وإيجاد فرص عمل للعاطلين ومساعدات طبية لمن ليس لديهم تأمينات .

وأثناء الزيارة كان يقف خلفها سجانان ويقف خلفى ثلاثة وكانت مهمتهم التخويف إلى جانب الرقابة . وكانت التعليمات تنص على أن المحادثة يجب تكون بالانجليزية أو الأفريكانية وإلا أنهى السجان المحادثة وكان يجب أيضا أن تكون عن أمور الاسرة فقط . وطمأنت ويني عن نفسى وسألتها عن كل أفراد الأسرة وفجأة سمعت السجان ينهى المقابلة . وبينما كنت اسير فى طريقى إلى الزنزانة استعدت ماتحدثنا عنه وكنت أفعل ذلك واستحضر صورتها خلال الأسابيع والشهور التى تلت فقد كنت أعلم أننى لن أراها قبل ستة أشهر على الأقل . وكان لى ألا أراها لمدة عامين بعد ذلك .

- ٦٤ -

وذات صباح .. وبدلا من أن نسير إلى الفناء أمرنا بالسير الى الخارج ودخول شاحنة مغطاة وبعد دقائق خرجنا ووجدت أننا فى المكان الذى رأيته أول شىء حين أتيت الجزيرة عام ١٩٦٢ وكان ذلك هو محاجر الجير . وقابلنا هناك الضابط المسئول الكولونيل وسيلز وقال لنا أن العمل الذى سيعهد لنا به سيستمر ستة أشهر بعدها يعهد إلينا بواجبات طفيفة . ولم يكن توقيته صحيحا إذ استمر عملنا فى المحاجر ثلاثة عشر عاما .

وسلمنا فئوسا ومجارف ثم أعطينا تعليمات أولية عن تنجيم الجير . فالجير نفسه يوجد مدفونا تحت طبقات من الصخر

يجب تكسيرها بالفأس ثم يستخرج الجير بالمجرفة . كان ذلك العمل أصعب كثيرا من العمل فى الفناء وكنا فى الأيام الأولى ننام من شدة الاجهاد بعد العشاء مباشرة وكان ذلك فى الرابعة والنصف ولا نستيقظ إلا فى اليوم التالى .

وفسرنا ذلك التغيير على أن طريقة السلطات لاخبارنا أننا لانختلف عن السجناء العاديين الذين كانوا يعملون فى محاجر الجزيرة فقد كانت ضمن المحاولات لسحق معنوياتنا . لكن الأسابيع الأولى في المحجر كان لها أثر عكس ذلك أنه بالرغم من أيادينا الدامية الممتلئة بثورا فقد زادت قوتنا . وكنت أنا أفضل تواجدى في أحضان الطبيعة مع الحشائش والأشجار أرقب الطيور وأشعر بالريح وهى تهب من البحر .

وخلال أيام أصبحنا نمشى إلى المحاجر بدلا من ركوب الشاحنة . وكانت العشرين دقيقة التى تستغرقها الرحلة فرصة لنا لرؤية الجزيرة وكان بإمكاننا رؤية الأدغال الكثيفة والأشجار الطويلة التي تحيط بنزلنا وأن نشتم النباتات والزهور . ورغم أن عملنا فى المحاجر كان يهدف لإشعارنا أننا لانختلف عن السجناء الآخرين فقد كانت السلطات تعاملنا كالمصابين بالبرص وكانت تأمر المساجين الآخرين بالاختفاء فى الأحراش إذا حدث ومررنا بمجموعة منهم أثناء سيرنا . غير أننا كنا نلمح من طرف أعيننا أحيانا بعضهم وهم يرفعون قبضتهم بتحية المؤتمر .

وقرب المحجر كان الطريق يتفرع وكان السجناء العاديون

يسلكون الجهة اليمنى فى اتجاه محاجر الحجارة . وقد أصبح التقاء الطريق ذلك نقطة هامة للاتصال فيما بعد وحيث كان الطريق يتفرع كان بإمكاننا أن نرى الأحراش والكوخ الأبيض الصغير الذى كان يعيش فيه روبرت سوبوكوى . وكانت مدة الحكم على سوبوكوى قد انتهت عام ١٩٦٣ فقد كان يحق لوزير العدل أن يبقى السجناء دون اتهامهم لأجل غير مسمى وهذا مافعلوه مع سوبوكوى الذى كان يعيش نصف حياة فى الجزيرة فقد كان رجلا حرا محروما من حريته .

وكنا نبدأ العمل فى الصباح .. وقبل الظهر مباشرة كنا نعبىء الجير فى عربات يد نجرها إلى الشاحنة التى تنقل الجير بعيدا .

وكانت الصفارة تنطلق فى منتصف النهار فنزل أسفل التل حيث كنا نجد البراميل المحتوية على الذرة المسلوقة وكانت طيور النورس تحلق أثناء أكلنا وهى تصرخ ثم تنقض وتدور حولنا وأحيانا كان يسبب روثها إفساد طعامنا . ثم كنا نعمل مرة أخرى حتى الرابعة وننقل الجير الى الشاحنة . وبنهاية اليوم كانت أجسادنا ووجوهنا تكون مغطاة بطبقة سميكة من الرماد الأبيض نحاول جاهدين ازالتها بمجرد عودتنا إلى الزنزانات .

وكان الضوء فى المحاجر أسوأ من الحرارة لأن أشعة الشمس كانت تنعكس فى أعينا من الجير نفسه وكانت تتسبب فى انهمار الدموع من أعيننا . وقد طالبنا بنظارات شمسية

فرفضت السلطات حيث أن التعليمات لم تكن تسمح حتى بالنظارات الطبية . وبعد ثلاث سنوات ونصف من المطالبة قرر طبيب متعاطف ضرورة النظارات وإلا فقدنا بصرنا . وأن علينا أن نبتاعها نحن .

وبالنسبة لنا فقد كانت الحملة لتحسين الأوضاع فى المعتقل جزءا من الحملة ضد الأبارتايد فى الخارج . فقد كنا نحارب عدم العدالة أين وجدناها وكان علينا أن نحاربها لنحتفظ بآدميتنا .

وبعد ذلك بوقت قصير التحق بنا عدد آخر من أعضاء M.K البارزين الذين كان قد ألقى القبض عليهم فى يوليو ١٩٦٤ وحوكموا وأدينوا وكان من بينهم ماك مهاراج ولالو تشيبا وويلتن مكاوايى الذى كان فى محاكمة الخيانة وترك طليقا عن طريق الخطأ وفر إلى الخارج وتلقى التدريب العسكرى وأصبح القائد العام لـ M.K بعد محاكمة ريفونيا ، وكذلك إيدى دانيالز الذى أصبح أحد أحسن أصدقائى فى المعتقل .

ولكى توازن السلطات وجود الحلفاء السياسيين وضعت بيننا عددا من المساجين العتاه المحكوم عليهم فى قضايا قتل واغتصاب وسرقة بالاكراه والذين كانوا يثيرون الرعب بين السجناء وكان دورهم كعملاء هو إثارة الشغب واغتصاب طعامنا وتعويق أى مناقشات سياسية كنا نحاولها . وكنت أرى فى هؤلاء مادة خاما يمكن تغييرها . وهذا ماحدث مثلا بالنسبة

لأحدهم الذى التحق بالمؤتمر فيما بعد وقدم خدمات جليلة فى تهريب اشياء من وإلى المعتقل .

وذات يوم سمعنا أن سجانا فى المحجر ضرب بوجارت قائد عصابة السجناء العتاه ضربا وحشيا أدى إلى احداث جرح عميق وكدمات فى وجهه وطلب بوجارت منى المساعدة . وكنا دائما نبحث عن موقف نتخذه ضد السلطات ونعلم أن تقريرا عن الضرب يمكن إثارته مع قيادة السجون وكنت قد علمت قبل ذلك بفترة وجيزة أن رجلا من P.A.C قد ضرب أيضا . وبصفتى محاميا كتبت خطابا إلى مدير السجون نيابة عن المعتدى عليه ووجهت بالمسئولين فى السجن الذين أنكروا . لكنى صممت على نقل السجان ورفض الطلب بداية ولكن بعد ذلك بقليل تم نقله . وشجعتنى تلك الواقعة فطلبت مقابلة رئيس السجن الذى قال لى أنه حقق فى القضية وثبت بطلان الادعاء ولكنى تمسكت بأن يجرى تحقيقا ولكن الضابط أخبرنى أن المدعى ينكر أنه ضرب وواجهنى ببوجارت الذى كانت تغطى وجهه الضمادات وأنكر أنه ضرب ومنذ ذلك الوقت صرت أطالب المسجون المعتدى عليه بتقرير خطى موقع عليه قبل تولى قضيته .

وذات يوم فى صيف ١٩٦٥ لاحظنا تحسنا غير عادى فى الطعام . وفى اليوم التالى تلقى بعض الأفراد قمصانا جديدة

وأحذ السجانون يعاملوننا باحترام . وبعد ذلك علمنا أن رجال الصليب الأحمر سيصلون فى اليوم التالى .

وفى السنوات الأولى لم يكن أحد يستمع إلى شكاوينا أو يستجيب لها سوى الصليب الأحمر . وقبل ذلك بقليل تقدمنا بقائمة شكاوى الى مدير السجون وقدمناها إلى كبير السجانين الذى لم يكن يريد تسلمها بحجة خرقنا للتعليمات لأننا استخدمنا الورق فى غير كتابة الخطابات .

وفى يوم الزيارة استدعيت إلى المكتب للقاء ممثل الصليب الأحمر وكان حينذاك ولسنوات قليلة بعدها هو السيد سن مدير السجون فى بلده الأصلى السويد ثم هاجر الى روديسيا . وعكس جميع المقابلات لم تكن تلك مراقبة وكتب مذكرة تفصيلية بجميع الشكاوى والمظالم وشكرنى لما قلته ـ وشكوت من ملبسنا وقلت إننا نطالب بسراويل طويلة وجوارب وملابس داخلية وشكوت من الطعام والزيارات والخطابات والدراسة والتدريب والأشغال الشاقة وتصرفات السجانين . وتقدمت بطلبات كنت أعلم أن السلطات لن تنفذها كأن ننقل الى سجون قرب منازلنا .

وبعد الزيارة بقليل تحسنت الملابس بأن صرفت لنا سراويل طويلة . ولكن سن لم يكن بالشخص التقدمى وكانت سنوات إقامته فى روديسيا قد عودته على التفرقة العنصرية . فمثلا قبل عودتى إلى الزنزانة ذكرت أنه لايصرف خبزا للأفارقة وكان رده إن الخبز مضرر جدا بالانسان وأن الذرة

أفضل وبعد سنوات صارت الهيئة ترسل أشخاصا أكثر ليبرالية ولعبت دورا هاما : فقد كانت تمد زوجاتنا وأقاربنا بالأموال التى كانت تساعدهم على زيارة الجزيرة .

وبعد شهور قليلة من وصولنا أعلنت السلطات أن على الراغبين فى الدراسة التقدم بطلباتهم . وتقدم معظم السجناء وسمح لهم وكانت الدولة تشعر بالثقة فمنحنا الاذن ، وندمت على ذلك فيما بعد . ومنحت أنا الاذن بمواصلة الدراسة العليا وسجل السجناء للدراسة الجامعية وللحصول على شهادات المدارس . لكن تم منع دراسة السياسة والتاريخ العسكرى ، كما منعنا من تلقي أموال من أسرنا ومعنى ذلك أن الدراسة كانت مقصورة على من لديهم نقود ومنعنا حتى من إعارة كتبنا لزملائنا . وكنت أدرس أنا تبع جامعة لندن مما نجم عنه تمكنى من دراسة كتب مثيرة غير التى كانت تدرس بجنوب أفريقيا لكن السلطات كانت تصادر الكثير منها .

وتقدمنا بشكوى من عدم وجود ومقاعد وسلمناها لمندوب الصليب الأحمر وفى النهاية قامت السلطات بتثبيت لوحات خشبية فى الجدران كنا ندرس عليها ونحن وقوف وشكونا مرات حتى منحتنا الدولة مقاعد بدون أظهر وقللت من ارتفاع اللوحات بعد حوالى ستة أشهر .

وذات يوم سبت بعد عودتى من التدريبات التى كان يسمح لنا بها لمدة نصف ساعة يوميا لاحظت أن أحد السجانين وكان قد أصبح ودودا نحونا قد ترك إحدى الصحف على

المقعد . وكانت الصحف ضمن قائمة الممنوعات وأغلى ماكنا نتمناه وكنا نتوق إلى الأنباء ولكن السلطات لم تكن تريد لنا أن نعرف شيئا قد يرفع معنوياتنا . وفيما بعد تمكنا من الحصول على الصحف بطرقنا . وكان الحراس في المحجر يغلقون سندوتشاتهم بأوراق صحف ثم يلقونها فى القمامة فكنا نغافلهم ونحصل عليها . وكانت الرشوة هى الطريقة الأخرى حيث كان كثير من السجانين فى حاجة الى نقود ولما كان تداول الصحف التى كنا نحصل عليها بتلك الطريقة شديد الخطورة فقد كان كاثرادا ، وفيما بعد ماك ماهراج يقومان بقراءتها وتلخيص مايخصنا فى اوراق صغيرة نتداولها ويتم تهريبها بعد ذلك إلى القسم العام .

وحينما رأيت الصحيفة على المقعد تركت زنزانتى وسرت إلى نهاية الممر ونظرت فى الاتجاهين ثم إختطفت الصحيفة وجلست مستغرقا فى قراءتها لدرجة أننى لم أسمع صوت الأقدام القادمة وفتحت الزنزانة ودخل الضابط والسجانون وأتهمت بحيازة ممنوعات وتم استدعاء القاضى وحكم على بالحبس الانفرادى ثلاثة أيام وفى الحبس الانفرادى كان يتم حرمان الفرد من الرفقة والتدريب والطعام حيث كان عبارة عن ماء أرز ثلاث مرات يوميا .

وكما ذكرت فإننى كنت أجد أن الحبس الانفرادى أبغض مظاهر المعتقل فلا توجد بداية أو نهاية فليس هناك سوى عقل الانسان الذى يبدأ فى خداعه ويبدأ الفرد فى التساؤل عما اذا كان شىء بعينه حقيقة أم خيالا ويبدأ فى مساءلة قراراته

وأهمية تضحياته . أما جسم الانسان فيتكيف مع أى ظروف قاسية كما أن المعتقدات الراسخة هى سر البقاء فى ظروف الحرمان .

وكان الحبس الانفرادى روتينا فى السنوات الأولى نعاقب به على نظرة مخالفة أو عدم الوقوف إذا دخل الحارس الزنزانة . وكان بعض أعضاء الـ P.A.C الذين يتحدون الأوامر من أجل التحدى ويقضون أوقاتا طويلة فى الحبس الانفرادى .

- ٦٦ -

إن أهم فرد فى حياة المعتقل ليس الوزير أو مدير السجون أو مأمور المعتقل لكنه السجان الذى يعمل فى القسم الذى به السجن - فإن شعرت بالبرد وكتبت إلى الوزير طالبا بطانية لن تتلق ردا أما مدير السجون فيقول أن ذلك ضد التعليمات وسيرد مأمور المعتقل قائلا أنه اذا أعطاك فسيعطى الآخرين . ولكنك اذا التجأت إلى سجان أنت على علاقة طيبة به فسيذهب الى المخزن ويحضرها ذلك .

وكنت أحاول دائما أن أبقى على علاقات طيبة مع السجانين فإن العدواة كانت تعتبر هزيمة للنفس وكانت سياسة المؤتمر قائمة على محاولة تعليم الأفراد حتى الأعداء منهم . ولكن أن تكون ودودا مع سجان لم يكن أمرا هينا لأنهم عموما كانوا يجدون فكرة التأدب مع رجل أسود كريهة .

وسهل اجتذاب السجانين المتعاطفين أحد أصعب مهامنا في جزيرة روبن ، ألا وهى الاتصال . فقد كنا نعتبر الاتصال بالأقسام التى يتواجد بها رجالنا من المساجين العاديين أمرا واجبا لأنه كان يهمنا كسياسيين أن تقوى منظمتنا داخل السجن وخارجه كما أن الاتصال كان أساسيا لتنسيق احتجاجاتنا وشكاوانا ولأن دخول المعتقل والخروج منه كان يحدث كثيرا بين هؤلاء السجناء فكانوا يحصلون لنا على معلومات عما يحدث بالمنظمة فى الخارج وعن أخبار أصدقائنا وعائلاتنا .

وكان الاتصال بين الأقسام المختلفة خرقا للأنظمة وأمكنا تخطى ذلك الحظر عن طريق الرجال الذين كانوا يحملون إلينا الطعام وكانوا من الأقسام العامة وشكلنا لجنة من كاثرادا وماهراجا وتشيبا وآخرين للقيام بمهام تلك الاتصالات السرية .

لجأنا أولا إلى استعمال صناديق الثقاب التى كان يلقى بها الحراس لكتابة رسائل بأحرف دقيقة ووضعها فى الصناديق بعد إضافة قاع آخر لكل منها . وبعد ذلك اتفقنا مع رفاق من القسم العام ممن يعملون بالمطبخ على وضع الرسائل والمذكرات مغلفة بالبلاستيك أسفل براميل الطعام وكنا نرسل الردود بنفس الطريقة بالاضافة الى أننا كنا أيضا نستعمل المراحيض العامة التى كان يشاركنا استعمالها سجناء القسم العام وكنا نحث رفاقنا السياسيين فى القسم العام على

العصيان لكى يرسلوا إلى الحبس الانفرادى ويحضرون إلينا الرسائل ويتسلمون رسائلنا من المراحيض .

وكنا نكتب رسائلنا بطريقة يصعب قراءتها أو فك ألغازها إن أمسك بها . فكنا أحيانا نستعمل الحليب فى الكتابة التى كانت تتضح اذا رشت بالسائل المطهر الذى كنا نستعمله فى تنظيف الزنزانات . كما كنا نستعمل ورق « التواليت » وكان وسيلة محببة لسهولة تخبئته وحمله وبعد أن اكتشفت أمره السلطات قللت الكمية المسموح بها بدرجة كبيرة . وكانت أفضل وأسهل طريقة هى دخول المستشفى الوحيد فى الجزيرة حيث كان يصعب فصل المساجين بالقسم العام عن المساجين السياسيين وكان يمكن هناك تبادل المعلومات عن المنظمات السياسية والاضرابات والتباطؤ وغير ذلك .

أما الاتصال بالعالم الخارجى فكان يتم عن طريق السجناء الذين يكملون مدة العقوبة ويفرج عنهم وعن طريق الزائرين . فكان المفرج عنهم يحملون خطابات فى أمتعتهم أما الأمر بالنسبة للزوار فكان صعبا عدا المحامين الذين لم يكن يسمح بتواجد السجانين فى حضورهم وكنا أحيانا نسلمهم خطابات كما أننا كنا ننقل المعلومات لهم عن طريق كتابتها كما كنا نفعل أثناء محاكمة ريفونيا لأن الغرفة كان بها أجهزة تصنت .

وعن طريق مذكرة مخبأة فى براميل الطعام علمنا أن مساجين القسم العام سيقومون بالاضراب عن الطعام لسوء الأحوال ولم تذكر المذكرة الزمن أو المدة ولكننا قررنا مشاركتهم .

وخلال اليوم الأول قدمت لنا المقادير العادية أما في اليوم الثاني فكانت المقادير أكبر مع اضافة الخضروات وفي اليوم الثالث كان هناك لحم طازج زادت كميته في اليوم الرابع . وسمعنا أن المساجين في القسم العام بدأوا يفقدون قوتهم وكان يتم نقلهم للمستشفى على عربات يد .

واستدعيت إلى مكتب الرئيس لمقابلة الكولونيل ويسيلس وكان زملائي يعلمون أن السلطات ستحاول التأثير في لأدعو لانهاء الاضراب وطلب ويسيلس معرفة إسباب اضرابنا فأجبته أننا نرى أن اضرابا لتحسين الأحوال هو امتداد للنضال ضد الأبارتايد وأضفت أن معركتنا في القسمين واحدة . فانهى المقابلة . وفي اليوم التالي علمنا بتطور غير عادى في الأحداث فقد قاطع السجانون طعامهم ورفضوا الذهاب إلى الكاميرا . ولم يكونوا مضربين تأييدا ولكنهم رأوا أنه إذا كنا نحن نستطيع الاضراب فلماذا لايضربون هم للمطالبة بطعام أفضل وبتحسين وسائل معيشتهم . وكان اضرابان في وقت واحد امرا كبيرا بالنسبة لسلطات السجن قوت أمورها مع السجانين وطلبت من مسجوني القسم العام ارسال ثلاثة مندوبين للمفاوضات . فأعلن المسجونون هناك انتصارهم وأوقفوا الاضراب وتبعناهم .

وكنت أرى أن مجرد الاضراب عن الطعام داخل السجن أمر غير واقعي فلكي يكون فعالا يجب أن يعلم به العالم الخارجي وكانت الاتصالات شبه مستحيلة في تلك السنوات .

وبالنسبة لى كان الاضراب عن الطعام أمرا سلبيا يضر بصحة أجسادنا الضعيفة واستدعاء للموت . وكنت دائما أفضل أنواع المقاومة الأكثر إيجابية ونضالا كالاضراب عن العمل والتباطؤ ورفض أعمال النظافة وتلك أعمال تضر بالسلطات ولانعاقب بها أنفسنا ولكن اقتراحاتى لم تلق تأييدا وكان متى اتخذ القرار أؤيده تماما .

- ٦٧ -

وفى منتصف الاضراب عن الطعام فى يوليو ١٩٦٦ زارتنى زوجتى للمرة الثانية وكانت قد تعرضت لمضايقات جمة منذ زيارتها عام ١٩٦٤ واضطهدت الشرطة أخاها وأخواتها وحاولت السلطات منع أى فرد من عائلتها العيش معها وكنت أعرف بعض التفاصيل لأننى كنت عند عودتى من المحجر أحيانا أجد قصاصات بها أنباء عن وينى وقد وضعها أحد السجانين على سريرى .

وعملت السلطات على وضع العراقيل فى سبيل زيارات وينى بفرض الحظر عليها الأمر الذى كان يمنعها من السفر وبعد ذلك أخبرتها السلطة أنها تستطيع زيارتى فقط إذا كانت تحمل تصريح مرور وكانت وينى ضمن من احتجبن على التصاريح فى الخمسينات فكان رفضها طبيعيا ولكنى اعتقدت أن رؤيتنا أحدنا الآخر أهم من مقاومة الاجراءات التافهة ووافقت على حمل التصريح . وكانت اجراءات زيارتها طويلة

ومعقدة فقد كان محظورا عليها السفر سوى بالطائرة مما كان يكلفها كثيرا وكان عليها التوقيع على وثائق مكتب شرطة كيب تاون عند وصولها وقبل رحيلها هذا عدا مضايقات أخرى كثيرة .

وكانت مدة الزيارة الثانية نصف ساعة وكان هناك الكثير الذى نود مناقشته وتكلمنا عن تعليم الأولاد وعن صحة والدتى المتدهورة وعن أمورنا الحالية وكانت وينى قد ألحقت طفلتينا بمدرسة هندسة وقامت الدولة بمضايقة المدير باعتبار ذلك خرقا لقانون التعليم لأن الطفلتين افريقيتين وقررنا إرسال الطفلتين للدراسة فى سوازيلاند رغم ماكان يعنيه هذا لوينى . وسألتها أيضا عن أمور تتعلق بها وبالمؤتمر عن طريق استعمال اسماء مستعارة متفق عليها .

وبعد الزيارة علمت أن وينى قد ألقى القبض عليها وأفرج عنها بكفالة لعدم ذهابها إلى مركز الشرطة بعد زيارتى ورفضها تسجيل عنواننا وحكم عليها بالسجن سنة مع وقف التنفيذ مما ترتب عليه فقدانها لوظيفتها كاخصائية اجتماعية للمرة الثانية .

وعملت الدولة على اختلاق المضايقات لى بطريقة ظنوا معها أننى لا أستطيع المقاومة فبناء على تحريض من وزير العدل اقترحت جمعية القانونيين للترانسفال شطب اسمى من قائمة المحامين المشتغلين على أساس إدانتى فى محاكمة ريفونيا . وأبلغت السلطات أننى سأتقدم بالطعن وأننى

سأجهز دفاعى بنفسى وطلبت من موظفى السجن أن أعفى من العمل فى المحجر وأن تجهز زنزانتى بمنضدة وكرسى مناسبين وضوء للقراءة لأكتب المذكرة كما طلبت أن أنقل لبريتوريا لكى أستطيع استعارة الكتب المناسبة من المكتبة القانونية وكان الرد المبدئى أن أقوم بتوكيل محام عنى ولكننى تقدمت إلى مسجل المحكمة العليا طالبا السجلات والكتب والوثائق التى احتاجها وطلبت قائمة بأسماء شهود الدولة وملخصات شهاداتهم وتلقيت ردا يطلبون فيه معرفة طبيعة دفاعى لكى يتمكنوا من ارسال ما طلب ورددت قائلا أن الدفاع سيعرفونه حين تنظر القضية .

واستمر تبادل سيل الخطابات بينى وبين المحكمة العليا والمحامى العام الذى كان سيمثل الجمعية القانونية ورفضت جميع طلباتى ولكننى واصلت الكتابة إليهم لعدة شهور وبعدها ، وبدون مقدمات أسقطوا الموضوع وأمكننى قراءة ردود الفعل الرسمية لمعارضتى لأعمال الجمعية القانونية لأننا فى ذلك الوقت كنا نتلقى صحيفة يومية بانتظام فقد تمكن ماك ماهراج من مصادقة الحارس الليلى وهو شخص هادىء كبير السن بعد أن طلب منه الحارس مساعدته فى دخول مسابقة كتابة مقال لصحيفة نظير وعد بجائزة وبعد اسبوعين حضر الحارس وهو مبتهج وقال لماك أن إسمه فى القائمة النهائية للمسابقة وطلب منه كتابة مقال آخر ووعده بدجاجة مطهية فى المقابل وقال له ماك أنه سيفكر فى الأمر وفى المساء قال للحارس أنه سيكتب المقال لقاء علبة سجائر وفى اليوم التالى

أخبر ماك وولتر أن لديه بصمات الرجل على علبة السجائر وبإمكانه أن يبتزه ليحضر لنا صحفا ورغم تحفظاتنا على الوسيلة التى اتبعها ماك فلم نعارض . ونجحت الحيلة وبعد ذلك ولمدة ستة أشهر وحتي تم نقله كان الرجل يهرب إلينا الصحيفة يوميا وكنت أنا وماك نلخص الأنباء فى ورقة صغيرة ونتداولها .

وفي عام ١٩٦٦ بدأ الحراس في المحجر يخففون من رقابتهم فكان باستطاعتنا أن نتحدث كما شئنا وأخذنا نكون مجموعات صغيرة ونقضى اليوم فى التحدث فى جميع المواضيع .

وفى المعتقل يصبح لدى الانسان وقت للتفكير الأمر الذى لايتأتى للمرء وهو فى خضم المعركة وكنا كثيرا ماندخل فى مساجلات سياسية وكان أحد المواضيع الذى استغرق بحثه وقتا طويلا هو العلاقة بين المؤتمر والحزب الشيوعى . وكان البعض وخاصة جنود الـM.K. شيء واحد وكانت هناك بعض الرئاسات فى المؤتمر مثل جوفان ميبيكى وهارى جوالا الذين تبنوا نفس النظرة . فإن الحزب لم يكن يتواجد كشيء منفصل كما كان الحال فى الخارج ولم تكن نظرتى لتلك القضية قد تغيرت على مدى السنوات أى أننى كنت أرى أن المؤتمر هو حركة جماهيرية يرحب بكل من كان له نفس الأهداف وبمرور الوقت أصبح الحوار لاذعا واقترح البعض أن نحسم ذلك الأمر بأن نكتب الى المثقفين من أعضاء

المؤتمر فى لوساكا وأعددنا وثيقة من اثنتين وعشرين صفحة مع خطاب منى وأرسلناها الى لوساكا مع ماكان ذلك يحوى من المخاطرة . وفى النهاية أكدت لوساكا على فصل المؤتمر عن الحزب وانتهت المناقشة .

وكانت هناك حوارات أخرى كثيرة اجتماعية وتراثية وسياسية . وكانت إحدى نقاط الحوار الأخرى هى إن كانت قيادة المؤتمر يجب قصرها على الطبقة العاملة فقد كان البعض يرى أنه بما أن المؤتمر حركة جماهيرية تعتمد عضويته الى حد كبير على العمال فإن القيادة يجب أن تكون من بين صفوفهم . وكانت وجهة نظرى أن قصر القيادة على طبقة واحدة مناف للديمقراطية وأن ذلك يعنى أن معظم قادة المؤتمر مثل لوثولى وموسيس كوتانى ودادوو غير مؤهلين للقيادة .

- ٦٨ -

كان الربيع قد ترك أثره على السلطات فخففت من قبضتها الحديدية كما خف التوتر بين السجانين والسجناء . لكن فترة الهدوء لم تدم طويلا ففى أحد أيام سبتمبر ١٩٦٦ همس إلينا أحد مساجين القسم العام أثناء تناول الغداء قائلا إن فيرويرد قد توفى ونظرنا الى بعضنا البعض غير مصدقين . ولم نكن ندرى كيف توفى وقد سمعنا بعد ذلك أن شخصا أبيض يعمل مراسلا فى البرلمان قد طعنه ولم نعرف دوافعه .

وكان فيرويرد قد برهن أنه المنظر الأساسى ومهندس بنية الأبارتايد فقد تبنى خلق البانتوستانات ونظام تعليم البانتو .

وفى اليوم التالى كان من الواضح أن السجانين قد علموا بالأمر وبدأوا يعكسون شعورهم بالغضب علينا وتبلور التوتر مرة أخرى وأخذت السلطات تفرض أنظمتها بقسوة . وكانت السلطات تعتقد أننا على علاقة سرية بالمنظمات الوطنية بالخارج . وكان انفجار أعمال حرب العصابات الناجحة ضد شرطة جنوب افريقيا فى ناميبيا بواسطة منظمة سوابو وهى حليف المؤتمر قد أفقد السلطات تماسكها . وتجددت الأجواء الصارمة التى كانت سائدة عند وصولنا الى الجزيرة . وتم استبدال الحارس المسالم بضابط متشدد شرير يدعى فان رينسبرج وكان قد طار إلى الجزيرة بعد أربع وعشرين ساعة من الاغتيال وكان اسمه معروفا ومقترنا بين المساجين بالوحشية . وكانت وظيفته تنحصر فى اتعاس حياتنا الأمر الذى كان يفعله بحرارة .

وخلال الأشهر التالية كان رينسبرج يتهم واحدا منا يوميا بالعصيان أو التهرب . وكان كل صباح يناقش زملاءه عمن سيوجه إليه الاتهام بعد الظهيرة . وكانت سياسته سياسة تخويف انتقائى وكان الاتهام يوجه للشخص عشوائيا . وبدأت المحكمة الادارية للمعتقل تعمل ساعات إضافية . وردا على ذلك كونًا لجنة قانونية منى وفيكيل بام وماك ماهاراج لتوجيه الاستشارة القانونية للرفاق فى تعاملاتهم مع المحكمة الادارية .

وكان فان رينسبرج حقودا فى عظائم الامور وصغائرها . فكان مثلا يختار وقت تناولنا الغداء ليتبول إلى جوار طعامنا وكانت إحدى الوسائل التي أمكننا الانتقام بها منه هو جعله موضع تفكهنا واستهزائنا .

وذات صباح فى بداية عام ١٩٦٧ وبينما كنا نستعد للذهاب إلى المحجر أخبرنا فان رينسبرج أن أمرا صدر من الماجور كيلرمان بمنعنا من الحديث أثناء السير والعمل . وكان الحديث هو الشيء الوحيد الذى يجعل العمل فى المحجر محتملا وأثار هذا استياءنا وغضبنا . وتمكن قادة المؤتمر والمنظمات السياسية الأخرى من تكوين خطة وبينما كنا نناقشها ظهر ماجور كيليرمان بنفسه وكان ذلك أمرا غير عادى وأعلن بشيء من الاحراج أن أمره كان خطأ وأننا باستطاعتنا الحديث على أن نفعل ذلك فى هدوء وقفل راجعا . وانتابنا الشك . وطوال ذلك اليوم لم يجبرنا أحد على العمل الشاق وعمل فان رينسبرج جهده ليتودد إلينا وقال أنه كدليل على حسن نيته فسيسحب الاتهامات التى كان يزمع توجيهها إلينا . وبعد ظهر ذلك اليوم إكتشفت أن حاجياتى قد نقلت إلى الزنزانة الخلفية رقم ١٨ بدلا من الزنزانة الأمامية التى كنت أحتلها . وحدست أن هناك أمرا مرتقبا وأنه قد تم نقلى لكى لا أكون أول المتحدثين وأنه سيبدأ بالاستماع الى شكاوى المسجونين الآخرين وحينما يأتى دورى سيكون ميعاد اعلان أن الوقت قد انتهى . وقررنا أن يقول الجميع أن سجين الزنزانة رقم ١٨ هو الذى سيتحدث باسمهم . وفى الصباح

التالى تم اخبارنا بأن نذهب الى المحجر ثم ظهر الماجور كيليرمان ليقول أن السيدة هيلين سوزمان ممثلة الحزب التقدمى وعضو المعارضة الوحيد فى البرلمان ، وربما العضو الوحيد هناك الذى كان يهتم بمعاناة المسجونين السياسيين . وحضرت يرافقها جنرال ستاين مدير السجون وسارت الخطة كما رسمناها ووصلت الى باب زنزانتى وكانت القصص قد انتشرت عن جزيرة روبن وحضرت بنفسها لتقصى الحقائق .

ولم أتحفظ فيما قلت رغم وجود ستاين وكيليرمان وأخبرتها برغبتها فى تحسين طعامنا وملبسنا وتوفير احتياجات الدراسة ووسائل المعلومات مثل الصحف وأشياء أخرى كثيرة وأخبرتها عن قسوة السجانين وبالذات فان رينسبرج وسجلت سوزمان ماقلت ووعدتنى أن ترفع الأمر إلى وزير العدل ثم قامت بتفتيش الزنزانات وتحدثت مع آخرين .

وكان فان رينسبرج منزعجا أثناء حديثى مع سوزمان كما أخبرنى كاثرادا واعتذر عن تصرفاته السابقة ولكن فى اليوم التالى عاد سيرته الأولى وأعلن أنه سيعيد اتهاماته لنا . وفيما بعد علمنا أن سوزمان قد رفعت شكوانا الى البرلمان وبعد أسابيع قليلة تم نقل فان رينسبرج .

لم أتخيل فى يوم أن المعركة ستكون قصيرة أو سهلة وكانت السنوات الأولى فى المعتقل سنوات صعبة بالنسبة

للمنظمة فى الخارج وبالنسبة لنا فى الداخل . وكانت معظم الأليات السرية قد تم تدميرها بعد ريفونيا وتم اكتشاف هياكلنا واقتلاعها . وكان الذين لم يتم القبض عليهم يحاولون بصعوبة تجنب العدو وكان كل الأعضاء القياديين تقريبا إما فى المعتقل أو فى المنفى .

وفى السنوات التى تلت ريفونيا أخذت البعثة الخارجية للمؤتمر التى كانت فى الأصل مسئولة عن جمع الأموال والمهام الدبلوماسية وتوفيز التدريب بزمام الأمور كلها . فلم تعمد فقط إلى خلق منظمة فى المنفى بل تولت المهمة الأصعب وهى تنشيط النظام السرى للمؤتمر داخل جنوب افريقيا .

أما الدولة فقد ازدادت قوتها كما ازدادت قوة الشرطة وأصبحت أساليبها أكثر عنفا ووسائلها أكثر صقلا وكبرت قوة دفاع جنوب إفريقيا واستقرت الأحوال الاقتصادية وكانت الحليفتان القويتان لجنوب إفريقيا ، بريطانيا والولايات المتحدة ، ترغبان فى إبقاء الأمور على ماهى عليه .

ومن ناحية أخرى نمت المقاومة للامبريالية . فمنذ منتصف الستينيات وحتى نهايتها انتشرت المعارك فى جميع الجزء الجنوبى من افريقيا وكانت سوابو تقوم بهجماتها فى ناميبيا وكذلك اشتدت حرب العصابات فى موزمبيق وإنجولا . أما فى زيمبابوى ، أو روديسيا سابقا ، فكانت المعركة تتصاعد ضد حكم الأقلية البيضاء وكانت قوة دفاع جنوب إفريقيا تدعم

حكومة إيان سميث البيضاء بينما اعتبر المؤتمر المعركة فى زيمبابوى امتدادا للمعركة فى قلب الوطن . وفى ١٩٦٧ علمنا أن المؤتمر أنشأ تحالفا بينه وبين اتحاد شعب زيمبابوى (زابو) .

وفى تلك السنة عبرت مجموعة من جنود M.K التى تلقت تدريبها فى تانزانيا وزامبيا نهر زامبيرى إلى روديسيا استعدادا للتسلل الى البلاد وكان قد أطلق على تلك المجموعة فرقة لوثولى . وفى أغسطس وبينما كانت تتحرك تجاه الجنوب ترافقها فرق من الزابو اكتشفها الجيش الروديسى ونشبت معارك بين الطرفين أسفرت عن خسائر فى الأرواح لكل منهما . وفى النهاية تمت هزيمة قواتنا وأسر البعض وأنسحب الآخرون الى بوتشوالاند التى أصبحت فيما بعد بوتسوانا . وبداية ١٩٦٨ دخلت فرقة أكبر من جنود المؤتمر روديسيا وحاربت جيش روديسيا وشرطة جنوب افريقيا المتمركزة هناك .

ولم نعلم عن ذلك حتى التحق بنا بعض من حاربوا من الرجال ورغم أنهم لم يحرروا النصر فقد احتفينا بهدوء لمجرد أن كوادر الـM.K قد قامت بالاشتباك مع العدو فى معركة بطريقتهم .

وقبل أن نعلم عن المعارك فى الخارج كنا قد علمنا بوفاة الرئيس لوثولى فى منزله فى يوليو ١٩٦٧ فى ظروف غريبة فقد صدمه قطار قرب مزرعته التى كان كثيرا مايتمشى بها . وقد

تركت وفاة لوثولى فراغا فى المنظمة فقد كان حائزا على جائزة نوبل وكان شخصية دولية متميزة احترمه البيض والسود . ووجدت المنظمة فى أوليفر تامبو الذى كان نائب الرئيس العام خليفة للرئيس . ومثل لوثولى كان أوليفر متحدثا ماهرا واثقا ومتواضعا وكان يجسد فكر لوثولى .

أقمنا صلاة وتأبينا للرئيس فى قسم ب ودعونا كل من يريد التحدث وحينما جاء دور نيفيل الكسندر وهو عضو فى حركة الوحدة ليتحدث كان من الواضح أنه يفعل ذلك من أجل دفن لوثولى وليس لاطرائه فقد إتهمه بالعمالة للبيض قبل جائزة نوبل . وكانت كلمة نيفيل الخاطئة ضد مناخ التعاون بين مختلف المنظمات الذى حاولنا خلقه فى الجزيرة .

وكنت قد رأيت في تواجدنا بالجزيرة فرحة لبريق الخلاف بين P.A.C والمؤتمر ليكون ذلك سابقة لتوحيدهما فى معركة التحرير ككل . ولكن منذ البداية كانت العلاقة بين المنظمتين علاقة تنافش أكثر منها تعاون وحين وصولنا رأى بعض أعضاء الـP.A.C تواجدنا على الجزيرة انتهاكا لحضورهم هناك .

ولى عام ١٩٦٢ كان عدد أعضاء الـ P.A.C يفوق بكثير عدد أعضاء المؤتمر ولكن فى عام ١٩٦٧ كان الوضع قد انعكس وعمل ذلك على صلابة أعضاء P.A.C فى مواقفهم وتحادثت مع زيف موثوينج عضو لجنتهم التنفيذية وكان نقاشه ينصب على أن P.A.C أكثر نضالية من المؤتمر وأن

علينا أن نتبع قيادتهم فى المعتقل وفى عام ١٩٦٧ أجريت محادثات مع سلبى نجندانى حول موضوع الوحدة الذى كان يعارضه بشدة خارج المعتقل ولكن وجدت أن حدته قد خفت وكتب كل منا خطابا الى منظمته فى القسم العام نؤيد الوحدة . وكان هناك تعاون بين المؤتمر وكلارانس ماكيتو الذى أصبح بعد ذلك رئيسا لـP.A.C وكان قبل ذلك عضوا فى تنظيم شباب المؤتمر ولكن بعد الافراج عنه خلفه جون يوكيلا فى قيادة المنظمة فى الجزيرة وتعثرت المحادثات .

وكون المؤتمر منظمته الداخلية فيما عرف بالقيادة العليا التى كانت تتكون من الأعضاء القياديين الموجودين فى الجزيرة وكانوا سابقا أعضاء فى اللجنة التنفيذية مثل وولتر سيسولو وجوفان مبيكى وريموند مهلابا وعملت أنا رئيسا للجنة .

ومنذ البداية قررنا أن تحاول القيادة التأثير فى سياسة المؤتمر خارج الجزيرة كما كنا نصدر قراراتنا بشأن الأمور التى نعلمها مثل شكوى المعتقلين والبريد والطعام وكنا أحيانا نعقد اجتماعات عامة . لكن نظرا لخطورة مثل تلك الاجتماعات التى كانت تضم أعضاء من مختلف المنظمات . ونظرا لتصادف كون أعضاء القيادة من الاكسهوسا ضمننا عضوا دوريا إلى الاعضاء الأربعة من خارج الاكسهوسا . ولم أكن أسيطر على القيادة بل على العكس فإن عددا من اقتراحاتى تم رفضها .

فى عام ١٩٦٨ زارتنى والدتى ولم أكن قد رأيتها منذ نهاية المحاكمة وقد بدت وقد أصابتها الشيخوخة وكانت قد جاءت من ترانسكى برفقة ابنى مكباثو وابنتى مكازيوى وشقيقتى ميبل ولأن عدد زوارى كان أربعة وكانوا قد جاءوا من مسافة بعيدة فقد سمحت السلطات باستمرار الزيارة لمدة خمس وأربعين دقيقة .

وكان ابنى وابنتى قد نضجا وشعرت بالدهشة والفخر أما أمى فكانت قد نحفت مما سبب لى القلق على صحتها . فقط أختى ميبل بدت وكأنها لم تتغير .

وأبديت رغبتى لابنى وابنتى أن يواصلا تعليمهما وتحدثت لميبل عن الأهل فى ترانسكى ومر الوقت وشعرت أنها آخر مرة أشاهد فيها والدتى وبعد أسابيع تلقيت برقية من إبنى يخبرنى فيها بوفاتها وقد أضاف الى حزنى عدم استطاعتى المشاركة فى تشييعها .

ودعانى موتها الى مساءلة نفسى عن صحة قرارى فى أن أضع أمور شعبى فى المقام الأولى على حساب رفاهية أسرتى . ولم تستطع والدتى ان تفهم لمدة طويلة التزامى بالمعركة . ولم تطلب أسرتى أو ترد التورط فى المعركة لكن تورطى أنزل بهم العقاب . ولكنى توصلت إلى نفس الاجابة فإنه من الصعب أن يتجاهل الانسان فى جنوب أفريقيا

احتياجات شعبه حتى ولو كان ذلك على حساب أسرته فقد أخذت قرارى وأيدت هى اختيارى فى النهاية . ولكن ذلك لم يقلل شعورى بالأسى على عدم قدرتى أن أجعل حياتها أكثر راحة وأن أشيعها بعد وفاتها .

وفى ١٢ مايو ١٩٦٩ احتجزت الشرطة وينى طبقا لقانون الارهاب وكان ذلك جزءا من اجراءات صارمة شملت ارجاء البلاد واحتجز إثرها العشرات من بينهم شقيقة وينى . وتم وضع وينى فى الحبس الانفرادى فى سجن بريتوريا ولم يسمح لها حتى بالكفالة أو بالزيارات وأخذوا وعلى مدى شهور فى استجوابها بوحشية ولما تم توجيه التهمة إليها هى واثنين وعشرين آخرين وهى تهمة محاولة إحياء المؤتمر أرسلت تعليماتى أن يتولى الدفاع عنها جويل كارلسون المعارض للابارتايد وفيما بعد التحق بالدفاع جورج بيزوس وأرثر تشاسكالسون من أعضاء فريق ريفونيا . وبعد سبعة عشر شهرا من اعتقالها أسقطت الدولة التهمة ضدها وتم الافراج عنها وطلبت السماح بزيارتى ولكن طلبها رفض . وفى تلك الأيام تلقيت برقية من ابنى الأصغر ماكجاتو يخبرنى فيها أن ابنى الأكبر الذى كنا ندعوه ثيمبى قد قتل فى حادث سيارة وكان وقتها فى الحادية والعشرين وأبا لطفلين . وليس لدىَّ من الكلمات ما أستطيع به التعبير عما شعرت به تجاه تلك المأساة التى جاءت على قمة أحزانى على والدتى وقلقى على وينى .

ولم توافق السلطات على طلبى لحضور جنازة ولدى وكل ماسمحوا به هو أن أرسل خطابا لوالدته ايفيلين أشاركها فيه الأحزان .

الجزء التاسع

جزيرة روبى
بداية الأمل

- ٧١ -

كان التحسن فى المعتقل لايأخذ شكلا اضطراديا بل كان يتوقف وينتكس . ولكن الأحوال قد تحسنت بالفعل فقد كسبنا عدة معارك صغيرة أدت الى تغيير الجو فى الجزيرة . وبعد رحيل فان رينسبرج أصبحت حياتنا محتملة .

وكنا قد أعطينا سراويل طويلة فى جلال السنوات الأولى فى ١٩٦٩ تسلم كل الملابس الخاصة به وسمح لنا أن نغسلها بأنفسنا وسمح لنا بالخروج للفناء أثناء نهاية الاسبوع ، كما سمح للمساجين الأفارقة بالخبز أحيانا مع وجبة الافطار . وصرفت لنا ألعاب مختلفة وأوراق لعب ولم يعد أحد يقاطع أحاديثنا فى المخجر ونجحنا فى تحييد السجانين السيئين وصادقنا المعتدلين كما أصبحنا قادرين على عقد الاجتماعات .

كما كانت مناسبة الكريسماس هى اليوم الوحيد الذى تبدى فيه السلطات الارادة الحسنة نحو الرجال فلم نكن نذهب

للمحاجر وكان يسمح لنا بشراء كميات قليلة من الحلوى ويصرف لنا قدح إضافى من القهوة مع العشاء . وكان يسمح لنا فى أيام الكريسماس باقامة حفلات غنائية كنا نقدم فيها مسرحيات ونغنى فيها التراتيل الدينية والأغانى التراثية والشعبية التى كنا نضمنها بعض أغانى الاحتجاج الأمر الذى كان تتجاهله السلطات أو ربما أنهم كانوا لايفهمون الكلمات . كما كنا نقيم مسابقات فى الشطرنج والطاولة وألعاب الورق .

كان بعض السجانين يبدأون معنا الاحاديث . ولم أكن أنا آخذ المبادرة ولكن ان حادثونى أجبتهم . وكانوا يسألوننى عما أريد وقد أوتيت مايكفينى فكنت أبدأ فى شرح سياسة المؤتمر لهم . وفى عام ١٩٦٩ وصل سجان شاب بدا وكأنه مهتم بأن يتعرف على وكنت قد سمعت شائعة مؤداها أن أشخاصا فى الخارج كانوا يرتبون أمر هروبى وأنهم سوف يسربون أحد الحراس إلى الجزيرة لمساعدتى . وأسر الى ذلك الحارس أنه الشخص المعنى .

وبدأ يخبرنى بالخطة وكانت تتلخص فى أنه سوف يقوم بتخدير الحراس المناوبين عند الفنارة لكى يرسو قارب عند الشاطيء وأنه سيمدنى بمفتاح أستعمله للخروج من المبنى ولقاء القارب وبعد ذلك أرتدى زى الغطس وأنا فى القارب وأسبح حتى ميناء كيب تاون حيث يصطحبنى أشخاص الى مطار محلى وأهرب خارج البلاد .

وتشاورت مع وولتر وقررنا أن ذلك الشخص غير أهل للثقة .

ولم اوضح له أننى لن أقوم بالعملية لكنى لم أفعل أى شىء لانجاز الخطة ولابد أنه فهم ما أعتقدته لأنه سريعا ما انتقل من الجزيرة وقد تبين لى فيما بعد أنه عضو فى مخابرات جنوب افريقيا وكانت الخطة أن أنجح فى الهرب من الجزيرة لكى يتم قتلى بواسطة رجال الأمن وأنا أحاول الهرب من المطار .

وفى نهاية عام ١٩٧٠ قررت السلطات استبدال الجو المتراخى فى الجزيرة وعين الكولونيل بيت بادنهورست مأمورا للجزيرة وكانت له سمعة ضابط وحش سلطوى فى جميع خدمات السجون . وكان كلما تم تعيين مأمور جديد أطلب مقابلته لشرح موقفنا وأيضا لتقييم شخصه ولما تقدمت بطلبى هذه المرة كان الجواب هو الرفض .

وألغى المأمور الجديد عددا من القواعد المزايا بشأن الدراسة ووقت الفراغ وكان من الواضح أنه يعتزم الغاء المزايا التى اكتسبناها على مدى السنوات . وتم نقل السجانين القدامى من الجزيرة واستبدالهم بأشخاص من انتقائه يصغرون الآخرين سنا ويفوقونهم فظاظة . وكانت وظيفتهم تنحصر فى مضايقتنا وهدم معنوياتنا . وخلال أيام من تعيينه تم تفتيش الزنزانات وصودرت الكتب والصحف وحجبت الوجبات بدون انذار وكان يجرى دفع الاشخاص بخشونة فى الطريق الى المحجر .

وكان بادنهورست يجيب بالنفى على كل شىء واذا طلب

أحد رؤية محاميه كانت النتيجة الحبس الانفرادى . وألغيت الزيارات وتدهور الطعام وزادت الرقابة .

وبعد اسبوع من تعيينه وبينما كنا نعمل فى المحجر وصل بسيارته وخرج منها ووقف يرقبنا عن بعد وتوقفنا للنظر إلى مأمورنا الجديد فنادانى ووجه الى عبارة بذيئة لم أتقبلها فتقدمت نحوه لكن قبل أن أقترب منه ركب سيارته ومضى . ثم أرسل رسالة بالراديو إلى موظفيه حيث حضروا بالشاحنة ونقلونا إلى قسمنا وحينما وصلنا إلى الفناء أمرنا بالوقوف وعندئذ ظهر بادنهورست يتمشى أمامنا وأخذ يوجه إلينا العبارات البذئية ثم قال لنا أنه شعر بالاشمئزاز لما رآه من تكاسلنا فى المحجر وعلى ذلك قرر أن يدنى تصنيفاتنا درجة وكان معظمنا قد ارتفع الى تصنيف جـ أو أعلى وكان لايسمح بالدراسة للمساجين من تصنيف جـ . وكانت السلطات قد ندمت على المساح لنا بالدراسة وبدا بادنهورست مصمما على إصلاح ذلك الخطأ .

- ٧٤ -

فى مايو ٧١ أحضر عدد من رجال منظمة سوابو الى الحبس الانفرادى وكان على رأسهم أنديمبا تويتو مؤسس سوابو . وعلمنا أنهم بدأوا اضرابا عن الطعام فقررنا أن نلحق بهم مما سبب غضب بادنهورست والسلطات الذين رأوا فى ذلك عصيانا غير مقبول .

وفى وقت متأخر من ٢٨ مايو استيقظنا على صوت صيحات وطرقات عنيفة على أبواب الزنزانات وأخذ السجانون يأمروننا بالاستيقاظ ثم بخلع ملابسنا والاصطفاف على الحائط وكان الليل قارس البرودة ولمدة ساعة وبينما كنا نقف عاريين مرتجفين أخذوا فى تفتيش زنزاناتنا واحدة واحدة . وبنهاية الساعة أصابت جوفان آلام حادة فى صدره وانهار . وأخاف ذلك الحراس وأمرونا بالعودة الى الزنزانات .

وكان التفتيش عذرا ليمارس به رئيس السجانين نزعاته السادية . وفى اليوم التالى اكتشفنا أن السجانين قد قاموا بضرب بعض مسجونى القسم العام . وبعد ذلك تهجموا على تويفو الذى قام بدوره بالدفاع عن نفسه وأوقع السجان الذى هاجمه وتمت معاقبته بقسوة لذلك .

وقررنا ألا ندع الأمور تسوء كلية تحت إدارة بادنهورست وقمنا بتهريب رسائل إلى رجالنا فى الخارج للقيام باضطرابات لطرده وفى نفس الوقت قررنا تكوين لجنة لمقابلة بادنهورست واستغرقت المناقشة شهورا حتى اتخذ قرار التكوين وكنت أنا ووولتر نمثل المؤتمر وكان لكل من التنظيمات الأخرى ممثلون وأثناء المقابلة هددناه بالتوقف عن العمل والتباطؤ والاضراب إن لم يعدل أساليبه ورد إلينا الامتيازات التى سحبها منا وقال إن سيدرس الموضوع واعتبرنا ذلك انتصارا .

وبعد أسابيع قليلة عرفنا أن زيارة هامة قد اقترب موعدها إذ سمح لنا أن نحتمى من الأمطار حينما هطلت على المحجر .

وفى اليوم التالى علمنا أن ثلاثة قضاة سيقدمون إلى الجزيرة واخترت متحدثا عن الباقين .

وفى تلك الأثناء علمت أن سجينا من القسم العام قد تم ضربه بعنف من قبل الحارس وكان القضاة الثلاثة من قسم الكيب تاون من المحكمة العليا وكان يرافقهم مدير السجون وبادنهورست وقابلتهم فى المكان الذى نعمل فيه .

وتكلمت فى حضرتهم عن الهجمات التى حدثت فى القسم العام وعن وقائع الضرب الآثمة ومحاولة تغطية الجريمة وحاول بادنهورست تكذيبى وتهديدى ولكن القضاة اعتقدوا فى صحة ما أقوله . ثم عددت شكاوانا من نظام التغذية والعمل والدراسة . وعقب الزيارة لاحظنا أن يدى بادنهورست كبلت وعقب ثلاثة أشهر تم نقله .

وقبل أيام من مغادرة بادنهورست كان مدير السجون فى زيارة للجزيرة واستدعانى الى المكتب الرئيسى ليعرف شكاوانا وعددت مطالبنا وبعد انتهائى من كلمتى رد بادنهورست مباشرة قائلا إنه سيغادر الجزيرة وأضاف أن يرجو لنا حظا موفقا . وأصابتنى الدهشة . فقد قال تلك الكلمات كإنسان وأظهر جانبا من نفسه لم نره من قبل فشكرته .

وأعلن أن الكولونيل ويليميز سيخلف بادنهورست وطلبت مقابلته ووجدت أنه وإن لم يكن تقدميا فقد كان مجاملا ومعقولا .

ورحل السجانون الذين كان بدنهورست قد أحضرهم معه واستعدنا تصرفاتنا المعتادة فى المحجر ورغم أن ويليمز كان معقولا فقد صعق عندما رأى أننا نقضي وقتا فى الحديث أكثر منه فى العمل . فاستدعانى إلى مكتبه وطلب منى مساعدته فى فرض النظام فأخبرته أن لطلبه شرعيته ولكن قبل أن أستجيب له فعلى أن أجتمع بكل الرجال وكان مثل ذلك الاجتماع محظورا فطلب منى بعض الوقت لدراسة طلبى وبعد أيام سمح لى بالاجتماع والتقينا جميعا بعد الظهيرة فى الفناء دون حراس وأخبرتهم بما قاله ويليمز واتفقنا أن نظهر على الأقل وكأننا نعمل وأفعل بالسرعة التى تناسبنا ولم نسمع شكوى مرة أخرى .

وفى الفترة الاولى من عمل ويليمز مابين ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ حضرت أعداد كبيرة من أسرى M.K وكانوا قد شهدوا المعركة وكانت لديهم معلومات عن حالة الحركة فى المنفى . وكنت متشوقا أن أسمع عن أوليفر وعن معسكرات التدريب وعن نجاح وفشل الـM.K

وكان هؤلاء الرجال نضاليين إلى أقصى درجة ولم يتقبلوا

حياة السجن بسهولة وكان من قيادات هؤلاء الرجال جيمى إبريل وهو ضابط M.K تلقى تدريبه تحت قيادة جو سلوفو وحارب العدو فى روديسيا .

وكانت الـ M.K تواصل تسريب رجالها إلى البلاد بوثائق مزورة وكان جيمى أحد هؤلاء ، وقد ألقى القبض عليه .

وروى جيمى لنا الكثير عن أنباء الحرب وانتحيت به جانبا وسألته عن مشاكل الـ M.K وبما أننى مؤسسها وأول قائد عام لها فكان جيمى أكثر صراحة معى وروى لى قصصا عن عدم رضا فى المعسكرات وعن سوء المعاملة من جانب الضباط وطلبت منه ألا يحادث أحدا فى الموضوع وتمكنت من تهريب خطاب إلى أوليفر طالبا منه أن يجرى الاصلاحات فى المعسكرات .

وكانت نضالية هؤلاء الرجال شديدة وعدم تقبلهم لقيود وحياة السجن تسبب لنا المتاعب .

- ٧٥ -

وذات صباح وبدلا من أن نسير إلى المحجر أمرنا أن نصعد مرة أخرى إلى الشاحنة وسارت بنا خمس عشرة دقيقة ورأينا المحيط أمامنا والشواطىء الصخرية وعلى بعد كانت هناك أبراج كيب تاون الزجاجية وقال لنا الضابط أن علينا أن نجمع طحالب بحرية وكانت طويلة ولزجة وكان بعضها يصل

طوله الى ثمانية أقدام ويزن ثلاثين رطلا . وبعد جمع الأعشاب أنتظمنا في صفوف ثم حملناها في الشاحنة بعد جفافها وقيل لنا أنه سيتم تصديرها إلى اليابان لتستعمل كاسمدة وفي ذلك اليوم لم يعد العمل متعبا ولكننا في الاسابيع والأشهر التي تلت وجدناه مجهدا ولكن ذلك كان معينا لما كان يوفره جمال المنظر من متعة .

- ٧٦ -

وفي أوساط المقاومة كانت تعرف جزيرة روبن بالجامعة ولم يكن ذلك فقط لأننا كنا نتعلم من الكتب أو لأن المسجونين درسوا هناك الانجليزية والأفريكانية والفن والجغرافيا والرياضيات ، أو لأن أشخاصا مثل بيلى نير وأحمد كاثرادا ومايك وينجاكى وإيدى دانيالز حصلوا على عدة درجات جامعية ، ولكنها كانت تسمى الجامعة لأننا كنا نتعلم من أحدنا الآخر فقد كنا نحن هيئة تدريس أنفسنا ومنهجنا الدراسى وكنا نميز بين الدراسات الاكاديمية الرسمية وبين الدراسات السياسية غير الرسمية .

فحينما كان يصل الشباب الى الجزيرة كنا نعلم أنهم لايعرفون سوى القليل عن تاريخ المؤتمر وكان وولتر أعظم مؤرخ للمؤتمر يبدأ في اخبارهم عن نشأة المنظمة الأولى ، وتدريجيا تحول ذلك التاريخ غير الرسمى إلى منهج دراسى تم وضعه بواسطة القيادة العليا وكان يعرف بمنهج أ وكان

يستغرق عامين من المحاضرات ، وكان المنهج يتضمن مقررا يقوم كاثرادا بتدريسه يسمى تاريخ النضال الهندى وآخر يسمى تاريخ نضال الملونين بينما قام ماك بتدريس تاريخ الماركسية .

وشمل المقرر الذى درسه وولتر تاريخ المؤتمر منذ عام ١٩١٢ الى الوقت الحالى وكان بالنسبة لكثير من الشباب التعليم السياسى الوحيد الذى تلقوه .

وبدأنا نوعا من الدراسة بالمراسلة مع مسجونى القسم العام الذين علموا عن البرنامج التعليمى ورغبوا فى الالتحاق به وكان القادة يسربون اليهم المحاضرات . وكان ذلك مفيدا لنا ولهم فهؤلاء الرجال لم يكونوا قد تلقوا سوى القليل من التعليم ولكنهم كانوا على دراسة واسعة بمشاق الحياة وكانت اهتماماتهم عملية أكثر منها فلسفية وكانت أسئلتهم تجبرنا على التفكير الجدى فى آرائنا .

وقمت أنا بتدريس مقرر فى الاقتصاد السياسى حاولت فيه تتبع تطور الانسان الاقتصادى ، منذ المجتمعات الجماعية وحتى الاقطاع ثم الرأسمالية والاشتراكية ، وكنت أحاول أن أجيب على الأسئلة بدلا من أن ألقى المحاضرات ، وكنت منحازا للاشتراكية التى كنت أجد فيها أكثر مراحل الحياة الاقتصادية التى طورها الانسان تقدما .

كما استمر عملى القانونى .. فكنت أقضى الساعات العديدة كل إسبوع أعد استئنافات قانونية للسجناء من جميع

الطوائف السياسية . وكان كثير من الرجال فى القسم العام قد حكم عليهم بالسجن لأنه لم تكن لديهم الفرصة للاستشارة القانونية وسعى إلىَّ كثير منهم لعمل استئنافات . وكان فى ذلك إبقاء على حيوية مهاراتى القانونية من جهة ومن جهة أخرى فقد تم إلغاء بعض الأحكام أو تقليلها فى عدد قليل من القضايا وكانت تلك انتصارات مرضية .

- ٧٧ -

لم يتوقف .اضطهاد السلطات لزوجتى ، ففى عام ١٩٧٢ ركل رجال الشرطة باب المنزل وحطموه وقذفوا قوالب الطوب من النافذة وأطلقوا النيران على البوابة ، وفى عام ١٩٧٤ اتهمت وينى بخرق أوامر الحظر التى كانت منعت بمقتضاها من استقبال أى زائرين سوى أطفالها وطبيبها . وكانت وقتها تعمل فى مكتب محام واحضر صديق البنتين إليها أثناء ساعة الغداء فاتهمت بخرق الحظر وحكم عليها بالسجن ستة أشهر فى سجن ولاية أورانج وكتبت إلى وينى قائلة أن تجربتها فى السجن عملت على تدعيم التزامها بالمعركة وكانت السلطات تسمح لزيندزى وزينى بزيارتها كل يوم أحد .

وكانت قوانين السجن فى جزيرة روبن لاتسمح للأطفال مابين عامين وستة عشر عاما بالزيارة . وفى عام ١٩٧٥ كانت زيندزى قد أتمت الخامسة عشر وقامت والدتها بتغيير وثائق ميلادها لتثبت أنها أتمت السادسة عشر وقدمت لها على

تصريح بالزيارة تمت الموافقة عليه .

ولم أكن قد رأيت زيندزى منذ أن كانت فى الثالثة وكانت هى تعرفنى من الصور أكثر من الذاكرة . وفى يوم زيارتها اعتنيت بمظهرى أكثر من المعتاد . وعندما رأيتها سعدت انها قد أصبحت امرأة جميلة تشبه والدتها إلى حد كبير . وبدت زيندزى مترددة فى البداية فلم يكن من السهل عليها أن ترى والدها الذى لم تعرفه أبدا والذى بدا وأنه لاينتمى إليها ولكن إلى الناس عامة . ولابد أنها كانت فى أعماقها تكن الاستياء والغضب نحو والدها الذى ظل غائبا طوال مدة طفولتها ومراهقتها . وتبينت فورا أنها شابة نارية ثورية مثل والدتها .

وأثناء تلك الزيارة علمت من وينى بمأساة وفاة فيشر من مرض السرطان بعد الافراج عنه من السجن بقليل . وقد تأثرت بعمق لوفاته . فرغم أن الحكومة لم تترك بصماتها على جثته فإن قسوة معاملتها التى لاهوادة فيها هى التى تسببت في مرضه الأخير الذى أدى إلى وفاته المبكرة . وحتى بعد وفاته استمرت الحكومة فى مطاردته وصادرت رماد جثته بعد حرقها .

وكان برام صفائيا . فبعد محاكمة ريفونيا قرر أنه يستطيع خدمة المعركة على الوجه الأفضل بالعمل السرى بالمعيشة كخارج على القانون . فقد كان يؤرقه أن الرجال الذين تولى الدفاع عنهم كانوا يرسلون إلى المعتقلات بينما كان يعيش هو حرا . وأثناء المحاكمة نصحته ألا يسلك ذلك الطريق مؤكدا

أنه يخدم المعركة أفضل فى قاعة المحكمة حيث يستطيع الناس رؤية أفريكانيا وابن رئيس قضاة يقاتل من أجل حقوق المغبونين ولكنه لم يكن ليستطيع أن يرى الأخرين يعانون بينما يظل هو حرا . وكالقائد الذى يقاتل جنبا إلى جنب مع جنوده لم يرد أن يطلب من الآخرين أن يقدموا تضحية يتورع هو عنها . والتحق برام بالعمل السرى حينما أفرج عنه بكفالة . وقبض عليه عام ١٩٦٥ وحكم عليه بالسجن مدى الحياة للتآمر على ارتكاب الأعمال التخريبية . وحاولت الكتابة إليه ولكن القوانين كانت تمنع ذلك . وعند إصابته بالسرطان قامت الصحافة بحملة للافراج عنه على أسس إنسانية واستجابت الحكومة وبعد الافراج عنه وبينما كان يقيم مع أخيه حيث حددت إقامته توفى .

وبطرق عديدة فإن برام فيشر حفيد رئيس وزراء مستعمرة نهر أورانج قدم أكبر التضحيات على الاطلاق . فمهما كانت معاناتى فى بحثى عن الحرية فقد كنت أستمد القوة من كونى مناضلا مع ومن أجل شعبى . أما برام فكان رجلا حرا ناضل ضد شعبه من أجل أن يضمن الحرية للآخرين .

وبعد شهر من الزيارة تلقيت رسالة من وينى تقول أن طلبها الأخير للزيارة قد رفض بحجة أنى لا أريد رؤيتها وحددت فورا موعدا مع الضابط برينس الذى كان مأمورا للسجن والذى لم يكن مهذبا . فحينما شرحت له الأمر مؤكدا أنه يجب السماح لزوجتى بزيارتى علق قائلا أن زوجتى تبحث عن الدعاية ولما أظهرت استيائى من تعليقه ووصف زوجتى بأوصاف بذئية ولم

أحتمل ونهضت من مقعدى وتحركت نحوه فأخذ يتقهقر ولكننى تحكمت فى نفسى وبدلا من التهجم عليه بقبضتى هاجمته بالكلمات . وختمت قائلا إنه إنسان وضيع بدون شرف وأنه إن تكرر منه ذلك فلن أمنع نفسى كما فعلت ذلك اليوم واندفعت خارج المكتب وشعرت أنه قد تسبب فى أن أنتهك السيطرة على نفسى وشعرت بالهزيمة .

وفى اليوم التالى اصطحبنى سجانان إلى مكتب المأمور وحينما وصلت أحاط بى حوالى ستة سجانون مسلحون . وكان هناك برينس وضابط الاتهام فى المعتقل وقال لى المدعى أنه يتهمنى بإهانة وتهديد مأمور السجن وناولنى أمر الاستدعاء وسألنى إن كان لدىَّ ما أقوله فأجبت بامكانه التحدث مع مُحاميى .

وقررت أن أقوم بإعداد قضية مضادة اتهم فيها كل الأفراد بدءا بالمأمور وحتى وزير العدل بسوء التصرف وأقاضى نظام السجون على أساس أنه مؤسسة عنصرية تسعى إلى استمرار سيادة البيض وأجعل من القضية قضية عامة .

وطلبت من جورج بيزرس أن يمثلنى وقلت للسلطات أننى سأقوم باعطائه تعليمات مكتوبة لأننى أعتقد بوجود أجهزة تصنت فى غرفة الاستشارة فرفض طلبى لأن السلطات كانت تخشى أن يسرب جورج بيانى المكتوب الى الصحافة وكانت تلك هى بالفعل استراتيجيتنا . وكانوا أيضا يخشون أن استغل جورج كقناة توصيل الى أوليفر فى لوساكا وقد كنت قد

استخدمت جورج لغرض كهذا من قبل ولكن الوثيقة الحالية لم يكن بها شيء من هذا القبيل . وحدد موعد لعقد محكمة التأديب بالجزيرة وقبل الجلسة بيوم واحد أبلغت أن محاميى سيصل فى اليوم التالى وأنه بإمكانى إعطاؤه البيان مكتوبا وتشاورت مع جورج قبل انعقاد الجلسة ، لكن ما إن بدأت الجلسة حتى أعلن المدعى سحب القضية ضدى . وبينما نظرت وجورج باستغراب وكنت أستعد لوضع أوراقى فى الحقيبة وصل ضابط اتهام بأمر جديد وأشار الى بيانى المكتوب وأمر أن أعطيه إياه . ولما طلبت من المدعى أن يخبره أن تلك وثائق تحميها حقوق المحامى وأن من حقى ألا أسلمها رد قائلا أن القضية الأولى قد انتهت وأن المحكمة غير منعقدة وأن ضابط الاتهام هو الشخص الوحيد فى الغرفة الذى لديه أية سلطة وكان من الواضح أن السلطات سحبت القضية للحصول على الوثيقة التى لم يكن بها شيء ليسوا على علم به .

ورغم ماكان يبدو من استحالة الهرب فلم أستبعد الفكرة طيلة وجودى فى الجزيرة وكان ماك ماهاراب وإيدى دانيالز وكلاهما شجاع وواسع الحيلة دائما التفكير ومناقشة الخطط والاحتمالات .

وكان أحد الرفاق قد تمكن من صنع مفتاح يفتح معظم غرف قسمنا حيث استعملناه لدخول بعض المخازن ولكننا لم نستعمله للخروج من القسم . فقد كان البحر هو الخندق المائى الذى لايمكن اجتيازه .

وفى عام ١٩٧٤ عبر ماك البحر إلى كيب تاون لزيارة طبيب الأسنان وكان متعاطفا حيث أن أحد أقرباءه كان مسجونا سياسيا ولذلك فقد رفض أن يعالج ماك حتى يفك قيده . وقد لاحظ ماك أن غرفة الانتظار بها نافذة قريبة من الأرض تطل على شارع جانبى وخططت أنا وماك وويلتن مكوايي وسجين رابع أن نذهب الى طبيب الأسنان وكنا على استعداد للقيام بالمحاولة ولكن حينما اتصل ماك بالشخص الرابع رفض ، وكنا نشك فى ولائه . ولما ذهبنا إلى طبيب الأسنان أخليت العيادة من المرضى الآخرين . وطلبنا فك قيودنا وقام الحراس بذلك . ولكن حينما نظرنا من النافذة لاحظنا أن الشارع وهو شارع شديد الازدحام فى العادة قد أخلى من المارة وشككنا فى أمر كمين ولم ننفذ الخطة .

- ٧٨ -

كان عيد ميلادى الخمسين قد مر يوم ١٨ يوليو ١٩٦٨ دون أن ألحظه وفى عام ١٩٧٥ حينما بلغت السابعة والخمسين تقدم وولتر وكاثرادا بخطة طويلة الأجل لاحتفال يجعل عيد ميلادى الستين مناسبة تذكر .

وكانت احدى القضايا التى تشغلنى هى إبقاء فكرة للمعركة حية بين الشعب وكانت الحكومة قد أخمدت معظم الصحف الراديكالية خلال العقد الماضى وكان هناك حظر على نشر أى كلمات أو صور للسجناء .

وذات يوم كنت أتحدث مع كاثرادا ووولتر فى الفناء حينما أقترح كاثرادا أن أكتب مذكراتى ورأى أن أنسب ميعاد لنشر مثل ذلك الكتاب هو بلوغى الستين وقال وولتر إن مثل تلك القضية إذا رويت بصدق وعدل فستعمل على تذكير الناس بما قاتلنا ومازلنا نقاتل من أجله وأنها ستكون بمثابة إلهام للمقاتلين الشباب وراقت لى الفكرة ووافقت أن أبدأ وقررت أن أكتب معظم الليل وأنام معظم النهار .

وكنت كل يوم أعطى ما أكتب لكاثرادا الذى كان يراجعه ثم يقرأه على وولتر ويكتب ملاحظاته فى الهوامش ولم يتردد الاثنان فى نقدى وكنت أهتم بنقدهما وأقوم بعمل التغييرات وبعد ذلك كان لالو تشيبا يأخذ المسودة ويحول ما كتبته إلى نسخه ميكروسكوبية مختزلة بنقل صفحات عشر من الفولسكاب الى وريقة صغيرة وقام ماك بتهريبها الى الخارج .

وبدأ الشك يساور السجانين فسألوا ماك عما أفعله طوال الليل فهز كتفيه قائلا إن ليس لديه أدنى فكرة وأخذت أكتب بسرعة عظيمة حيث انتهيت فى أربعة أشهر وغطيت الفترة من مولدى وحتى محاكمة ريفونيا وختمت ببعض التعليقات على جزيرة روبن .

وخبأ ماك النسخة المصغرة فى أغلفة دفاتره التى يستعملها فى الدراسة وقام بتهريبها خارج السجن حين الافراج عنه عام ١٩٧٦ وكانت الترتيبات قد تمت على أساس أن يخبرنا ماك حينما يتم تهريب النسخة خارج البلاد وحينئذ

نقوم بإعدام الأصل . وفى نفس الوقت كان علينا أن نتخلص من الخمسمائة صفحة الأصلية بدفنها فى الحديقة فى غفلة من الحراس فى ثلاث بقع مختلفة بدل حفر حفرة واحدة كبيرة وقسمنا المخطوط إلى ثلاثة أجزاء غلفناها بالبلاستيك ووضعنا كلا منها فى علبة كاكاو وطلبنا من جيف ماسيمولا أن يصنع أدوات الحفر . وذات صباح خرجت أنا وكاثرادا ووولتر وإيدى دانيالز وكأنما للتمشية والحديث السياسى فى الحديقة وتمكننا من حفر الحفر ودفنت أنا الجزء الأكبر من المخطوط فى حفرة عميقة فيها إنبوبة معدنية وثبتت المخطوط تحت الانبوبة وانتهينا من العملية فى الوقت المحدد لذهابنا إلى المحجر وشعرت بالراحة لوجود المخطوط فى مكان أمين .

وبعد أسابيع قليلة وبعد ميعاد استيقاظنا بقليل سمعت صوت دقات فئوس ومجارف . وبعد خروجنا من الزنزانات لنغتسل تمكنت من استرقاق النظر الى الخارج وهناك ، فى النهاية الجنوبية للفناء ، كان فريق عمل من سجناء القسم العام يقوم بحفر فى المنطقة التى دفنا فيها المخطوط . فقد قررت السلطات بناء جدار أمام قسم الحبس الانفرادى لانهم إكتشفوا أن السجناء هناك كان بوسعهم الاتصال بنا فى الفناء . وكان فريق العمل يحفر حفرة لوضع الأساس .

وأخبرت كاثرادا ووولتر بالأمر ونحن نغتسل واعتقد كاثرادا أن الجزء الرئيسى من المخطوط الذى كان قد تم دفنه تحت أحد الأنابيب لاحظ عليه أما الجزئين الآخرين فكانا معرضين للاكتشاف . وحينما أحضر الافطار إلى الفناء أمر السجانون

المشرفون على فريق البناء رجالهم بمغادرة الفناء لكى لايحدث إتصال بينهم وبيننا . وتشاورت مع وولتر وكاثرادا ، ثم مشينا حتى وصلنا إلى نهاية الفناء الجنوبى ووجدنا أن بداية الحفر كانت قريبة جدا من مواقع العلبتين الأصغر ولحق بنا إيدى دانيالز وبدأنا فى الحفر وأنقذنا المخطوطين ولما كنا متأكدين أنهم لن ينزعوا الانبوبة من أجل بناء حائط تركنا المخطوط الثالث مكانه .

وعندما عدت من المحجر ذلك اليوم وبدلا من الذهاب للاغتسال تمشيت إلى نهاية الفناء محاولا التظاهر باللامبالاة ولكنى أزعجنى مارأيت فلقد لاحظت أن فريق العمل قد انتزع الماسورة ولابد أن رد فعلى جذب الانتباه وكان هناك عدد من السجانين يرقبوننى وتأكدوا أننى كنت على علم بمكان المخطوط . وعدت الى الممر لأغتسل وأخبرت وولتر وكاثرادا وكان إيدى قد تخلص من المخطوطين الآخرين .

وفى الصباح الباكر لليوم التالى استدعيت إلى المكتب لمقابلة المأمور الذى كان يقف الى جانبه أحد مسئولى السجون الكبار وكان قد وصل توه من بريتوريا . وأخبرنى المأمور أنهم قد وجدوا المخطوط الخاص بى . وبقيت صامتا وحينما سألنى إن كان ذلك خطى لم أجب . ولما أكد أنهم يعلمون أنه لى سألته أن يأتى بالدليل .

وكان ردهم أن ما بحوزتهم هو الدليل وأضافوا أن الملاحظات الهامشية هى بخط كاثرادا ووولتر . ورغم أنهم لم

يوقعوا علينا عقوبات ذلك اليوم فقد أعلمنا بعد أيام قليلة أنه قد تم حرماننا من ميزات الدراسة واستمر ذلك الحرمان أربع سنوات .

وبعد أن تم الافراج عن ماك فى ديسمبر أرسل الدفاتر إلى انجلترا ثم قضى سنة محددة إقامته فى منزله فى جنوب إفريقيا وعقب ذلك تسلل من البلاد وذهب إلى لوساكا لمقابلة أوليفر ثم إلى لندن حيث مكث ستة أشهر وهناك وبمساعدة كاتب آلة أعاد كتابة المخطوط وعاد إلى لوساكا وأعطى نسخة لأوليفر ولا أعرف ماذا فعل بها أوليفر بعد ذلك ورغم أنها لم تنشر وأنا فى السجن فإن محتوياتها هى العمود الفقرى لهذه المذكرات .

وفى ١٩٧٦ تلقيت زيارة غير عادية من جيمى كروجر وزير السجون وعضو بارز فى الوزارة ولم يكن كروجر فقط ذا تأثير بشأن سياسة السجون بل أيضا كان ينتقد سياسة الحكومة إزاء معركة التحرير .

وقد حدست سبب مجيئه فقد كانت الحكومة تقوم بمجهودات ضخمة لانجاح سياستها للتنمية المفضلة وللمناطق شبه المستقلة وكانت ترانسكى بقيادة ابن أخى وولى نعمتى فى وقت سابق ماتانزيما النموذج الذى تعرضه الحكومة فى هذا الصدد . وتذكرت ماكان المأمور قد قاله لى

مؤخرا وكأنما يتفاكه من أن على أن أتقاعد فى ترانسكى وأخذ فترة راحة طويلة . وكان ذلك بالفعل ما اقترحه كروجر . وقد رأيت فى المقابلة فرصة لعرض شكاوانا وكان رده أننا جميعا شيوعيون نستعمل العنف . وكان من الواضح أنه لايعرف شيئا عن المؤتمر . وحينما قلت له أننا أقدم من الحزب القومى ، صعقته الدهشة ، وكان أيضا لايعرف شيئا عن ميثاق الحرية .

وكان من الواضح أن كروجر جاء مسلحا بعرض محدد وهو أنه فى حالة اعترافى بحكومة الحكم الذاتى فى ترانسكى فإن العقوبة ستخفف عنى بدرجة كبيرة . وأخبرته أننى أرفض سياسة البانتوستانات رفضا تاما وأننى لن أفعل شيئا لدعمها وذكرت أيضا أننى من جوهانسبرج وأننى لو عدت فستكون عودتى لجوهانسبرج ولم تفلح محاولاته لإقناعى وعاد مرة أخرى بعد شهر لنفس الغرض وقوبل بالرفض فقد كان عرضا لايقبله سوى مرتد .

وفى يونيو ١٩٧٦ بدأنا نسمع تقارير غير واضحة عن انتفاضة كبيرة فى البلاد . وسمعنا أن شباب سويتو تغلبوا على العسكر وأن الجنود ألقوا بأسلحتهم وهربوا . ولم نعلم بواقع ماحدث إلا مع وصول المسجونين الشباب ممن اشتركوا فى انتفاضة ١٦ يونيو ١٩٧٦ .

ففى ١٦ يونيو تجمع خمسة عشر ألفا من تلاميذ المدارس في سويتو للاحتجاج على قرار الحكومة القاضي بأن تدرس نصف المقررات في المدارس الثانوية الافريقية باللغة الأفريكانية ولم يكن الطلبة يريدون أن يتعلموا ولم يكن المدرسون يريدون أن يدرسوا لغة الغاصب . ولم تجد الالتماسات التى أرسلها المدرسون والآباء . وجابهت كتيبة شرطة ذلك الجيش من الطلبة وفتحوا نيرانهم عليهم بدون مقدمات مما نتج عنه مقتل هيكتور بيترسون البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما وآخرين كثيرين . ورد الأطفال بالحجارة والعصى وترتب على ذلك حالة من الفوضى الجماهيرية مما أدى إلي جرح مئات من الأطفال بينما قتل رجلان أبيضان بالحجارة .

وترددت أصداء الأحداث فى أرجاء المدن والمناطق الافريقية ونتجت أعمال شغب وعنف فى جميع أنحاء البلاد ونظمت جنازات جماهيرية لضحايا عنف الدولة تحولت الى مظاهرات وفجأة اشتعلت أرواح شباب جنوب إفريقيا بالاحتجاج والثورة . فقاطع الطلبة المدارس فى جميع أنحاء البلاد وشارك منظمو المؤتمر الطلبة بدعم الاحتجاج وهكذا انقلب النظام التعليمي على الذين ابتدعوه لأن ذلك الشباب الغاضب الجرىء كان ثمرته .

وفى سبتمبر امتلأ قسم الحبس الانفرادى بشباب تم القبض عليهم عقب الأحداث وعلمنا منهم بما حدث وارتفعت

معنوياتنا فقد انفجرت روح الاحتجاج الجماهيرى التى بدأت خامدة فى الستينيات . كان كثير من هؤلاء الشباب قد ترك البلاد ليلحقوا بحركتنا العسكرية ثم تسللوا راجعين وكان قد تم تدريب الآلاف منهم فى تنزانيا وأنجولا وموزمبيق .

وكسجناء ، كان هؤلاء الشباب مختلفين عن أى شيء رأيناه . فقد كانوا شجعانا عدائيين وعدوانيين ولم يكونوا ليطيعوا أى أوامر وكان يميلون إلى المواجهة ولم تدر السلطات ماذا تفعله معهم فقد قلبوا الحياة فى الجزيرة رأسا على عقب .

وقد رأينا فيهم روح العصر الثورية الغاضبة وكنت قد عرفت من وينى ميولهم النضالية الافريقية . وقد روع المساجين الجدد ما أسموه الظروف البربرية فى الجزيرة وبدوا متشككين فينا وتجاهلوا دعوتنا للنظام . وكان من الواضح أنهم يروننا معتدلين . وبعد سنوات طويلة من وصمتى بالثورية والرديكالية لم يكن رأيهم فىَّ كمعتدل مدعاة للسرور - وفضلت أن أسمع مايقولون .

وحينما حضر بعض هؤلاء الشباب مثل سترينى مودلى من منظمة الطلبة الأفارقة ، وساتش كوبر من مؤتمر الشعب الأسود إلى قسمنا دعوتهم إلى القاء محاضرات عن تنظيماتهم فقد أود أن أعرف ما أتى بهم إلى المعركة وما هى دوافعهم وأفكارهم عن المستقبل .

وقد رفض هؤلاء الشباب الانصياع لتعليمات السجن كخلع

القبعات فى حضور الضباط أو الوقوف إذا دخل الضابط الغرفة .

وكانت هذه أول مرة نتعرف على حركة « الوعى الأسود » فبعد حظر المؤتمر والـ P.A.C والحزب الشيوعى ساعدت حركة « الوعى » على ملء الفراغ بين الشباب وكان « الوعى الأسود » فلسفة أكثر منها حركة ونتجت عن فكرة وجوب تحرير السود أنفسهم من عقدة النقص التى كانت نتاج قرون من حكم البيض لكى يمكن للشعب أن يهب بثقة ويحرر نفسه من الطغيان . وبينما كانت حركة الوعى تؤيد مجتمعا لا عنصريا فإنهم لم يسمحوا للبيض أن يلعبوا دورا لتحقيق ذلك الهدف . وكانت تلك هى الآراء التى كنت اعتنقها حينما كونت منظمة الشباب من ربع قرن مضى . إذا فحركة الوعى تمثل نفس الاستجابة لنفس المشكلة التى لم تختف . وبينما شجعتنى روحهم النضالية فقد اعتقدت أن فلسفتهم بتركيزها على اللون الأسود كانت فلسفة اقتصادية وتمثل وجهة نظر انتقالية لم تنضج بعد . ورأيت أن دورى كسياسى أكبر سنا هو أن أساعدهم إلى أن ينتقلوا لما هو أكثر شمولا وكنت أعلم أيضا أن هؤلاء الشباب سيحبطون لأن حركتهم لاتقدم برنامج عمل .

وقد كنت أقوم بالاتصال ببعض هؤلاء الشباب عن طريق رسائل مهربة وتحادثت مع بعض ممن كانوا من إقليم ترانسكى وسألتهم عن موطنى وكان بعضهم ذا شهرة نضالية

وقد كنت سمعت تقارير عن باتريك ليكوتا المشهور بالرعب وكان قائد جمعية طلبة جنوب إفريقيا وأرسلت له رسالة أرحب به فى الجزيرة وكان قد اكتسب شهرته كلاعب كرة ، وأيضا لمهارته فى المجادلة وكان قد اختلف مع بعض زملائه بخصوص الاقتصادية العرقية وبذلك كان قد اقترب من أفكار المؤتمر . وحينما أتى إلى الجزيرة قرر أن يلتحق بالمؤتمر ولكنا لم نشجعه خوفا من خلق توترات فى القسم العام ولكنه غير ولاءه والتحق بالمؤتمر . وذات يوم تعرض لهجوم بمذراة فى الحديقة بواسطة أعضاء من الوعى الأسود وتم علاجه ووجه الاتهام إلى المتهجمين . ولكى لانشتت الشمل أشرنا عليه ألا يقدم شكوى ووافق ورفض تأدية الشهادة ضدهم وأسقطت الدعوة . وقد كنت أريد أن يرى هؤلاء الشباب المؤتمر مظلة كبرى تظل أناسا من نزعات مختلفة وآراء متباينة . وبعد تلك الحادثة قرر العشرات من هؤلاء الالتحاق بعضوية المؤتمر بما فيهم بعض الذين هاجموه . وقد ارتقى « رعب » إلى الصفوف الأمامية للمؤتمر فى القسم العام وأصبح يقوم بتدريس سياسة المؤتمر للسجناء الآخرين . وأكدت شجاعة ورؤية رجال مثل ليكوتا أنه مازالت لآرائنا فاعليتها وأنها مازالت تمثل الأمل الأفضل لتوحيد معركة التحرير ككل .

ولقلق السلطات على كيفية التعامل مع تلك الاسود الصغيرة فقد تركت لنا الحبل على الغارب وكنا حينذاك فى السنة الثانية من احزاب التباطؤ فى العمل فقد كان مطلبنا أن يسمح لنا بعمل شيء مفيد كالدراسة أو تعلم مهنة وأن يلغى العمل اليدوى فأوقفنا الذهاب الى المحجر وقضينا الوقت نتحدث . وفى آخر عام ١٩٧٧ ألغت السلطات العمل اليدوى وأصبح بإمكاننا قضاء اليوم بقسمنا .

وكانت نهاية العمل اليدوى نوع من التحرر فتفرغت لكتابة الخطابات والنقاش والقراءة واعداد مذكرات قانونية كما أننى ركزت على هوايتين لى وهما لعب التنس والعمل بالحديقة . وقد نجحت بزراعة حديقة بالفناء أصبحت تمد الحراس بالبصل والطماطم كما أرسلت فى طلب كتب عن فن زراعة الحدائق . وكنت أرى فى الحديقة الى حد ما مجازا لبعض أوجه حياتى . فعلى القائد رعاية حديقته وغرس الحبوب وزراعتها وجنى المحصول . وكالبستانى فيجب على القائد تحمل مسئولية مايزرعه والعناية بعمله والتخلص من الأعداء والحفاظ على مايجب الحفاظ عليه وترك مالايمكن انجاحه .

وكتبت خطاب لوينى عن نبتة طماطم احتضنتها منذ أن كانت صغيرة إلى أن أصبحت زرعة قوية وأنتجت ثمارا عميقة الاحمرار . ولكن نظرا لخطأ ما أو للتهاون فى الرعاية بدأت

تذبل لم تفلح محاولاتى فى أن أعيدها قوية وحينما . ماتت اقتلعت الجذور من التربة وغسلتها ودفنتها فى ركن الحديقة . رويت تلك القصة بالتفصيل ولا أعرف ماذا استنتجت وينى من ذلك الخطاب ولكنى حينما كتبته كانت لدى مشاعر متباينة فلم أكن أريد لعلاقتنا أن تنتهى مثل تلك الزرعة ولكنى كنت أشعر أنه لم يكن بمقدورى تدعيم معظم علاقاتى المهمة . وأحيانا يقف الانسان عاجزا حيال شىء يجب أن يموت .

وكانت نتيجة إيقاف العمل اليدوى زيادة وزنى . وإنى أجد التمرينات الرياضية ليست اساسية فقط لصحة الجسد بل للسلام النفسى . وكنت أقوم بالتدريبات بانتظام فى الجزيرة . وكانت هيئة الصليب الأحمر . وبناء على شكاوينا قد أمدتنا بمعدات الرياضة المختلفة ككرة الفولى وتنس الطاولة . وبعد إلغاء مميزات الدراسة بدأت فى قراءة الروايات وكانت مكتبة الجزيرة تحوى عددا هائلا منها . أما الكتب السياسية فكانت من المحظورات كذلك كانت كل الكتب عن الاشتراكية والشيوعية لدرجة أن عنوان أى كتاب ، حتى ولو كانت رواية ، اذا احتوى لفظ أحمر أو حمراء أصبح من الممنوعات . وكنت منذ البداية أحاول قراءة كتب عن جنوب إفريقيا لكتاب من جنوب إفريقيا فقرأت رويات نادين جورديمر غير المحظورة وتعلمت منها الكثير عن المشاعر الليبرالية البيضاء .

وفى اعقاب انتفاضة طلبة سويتو علمت أن وينى وصديقى القديم الطبيب نثاثو موتلاند التحقا بجمعية الآباء السود . وفى أغسطس وبعد شهرين من ثورة الطلبة احتجرت وينى وسجنت بقلعة جوهانسبرج بدون توجيه تهمة ولمدة خمسة أشهر وبعد الافراج عنها كانت أكثر تصميما والتزاما بالمعركة . وكانت السلطات مستاءة من شعبية وينى وسط الراديكاليين الشباب وكانوا مصممين على الاقلال من تاثيرها وقد نفذوا ذلك بتبجح ووقاحة ففرضوا عليها النفى الداخلى حيث حضرت شاحنة وعربات شرطة فى ليلة ١٦ مايو ١٩٧٧ وحملوا الأثاث والملابس فى الشاحنة . وصدر القرار بنفى وينى الى منطقة ليس فيها أى صداقات أو معارف ولاتعرف لغتها .

ومن خطاباتها علمت أن الحياة هناك شديدة الصعوبة فلم تكن هناك تدفئة أو مراحيض أو مياه جارية ولم تكن هناك متاجر صغيرة وكانت المتاجر الكبيرة تكن العداء للأفارقة وكان البيض هناك شديدى المحافظة وأصبحت وينى وزيندزى هناك تحت الرقابة الشديد والتهديد من الشرطة .

وفى سبتمبر وبمساعدة محامى وينى تقدمت بطلب ضد الشرطة هناك طالبا منعهم من مضايقة وينى وزيندزى وحكم القاضى وزيندزى باستقبال زائرين هناك وبما أوتيته وينى من

مرونة تمكنت خلال فترة قصيرة نسبيا من اكتساب الناس هناك بما في ذلك بعض البيض المتعاطفين وقامت بنشاطات اجتماعية لصالح الأفارقة هناك .

وفى ١٩٧٨ تزوجت ابنتى الثانية من وينى بأمير ثامبموزى نجل ملك سويوزا من سوازيلاند وكانا قد التقيا أثناء الدراسة . ولم استطع القيام بواجبات الأب في تلك المناسبة ووكلت مستشارى القانوني جورج بيزوس فى أن ينوب عنى . وعلمت من جورج أن والد العريس قائد محلى مستنير وعضو فى المؤتمر وكان لزواج زينى من الأسرة المالكة لسوازى ميزة هائلة فقد منحت جواز سفر دبلوماسيا وكان بإمكانها زيارتى عندما تريد . وحضرت فى الشتاء هى وزوجها ووليدتها ولمنزلة الأمير فقد سمح بلقائنا فى غرفة الاستشارات وكان لقاء رائعا . وكان للزيارة هدف رسمى فقد كان على أن أختار إسما لحفيدتى وأسميتها زازيوى الذى يعنى أمل .

وفى أثناء العامين التاليين أصابتنى حالة نوستالجيا حاملة وكانت إبانها ذاكرتى تنقلنى إلى لحظات فرح وحزن غامرين . وأصبحت الأحلام غنية وكنت أقضى ليالى بطولها أعيش الأوقات السعيدة والحزينة للماضى . وأضحى هناك كابوس يعاودنى فقد كنت أرانى وقد أطلق سراحى ولكن من جوهانسبرج ومررت خلال أسوار المدينة ولكن لم أجد أحدا

يستقبلنى هناك فقد كان المكان خاويا وكنت أسير تجاه سويتو قاصدا منزلنا وبعد عدة ساعات كنت أجد المنزل ولكنه أيضا خاو كمنزل الأشباح .

- ٨٤ -

وفى عام ١٩٧٨ وبعد حوالى خمسة عشر عاما من المطالبة بحق تلقى الأنباء وصلت السلطات إلى تسوية فبدلا من أن تسمح بالصحف أو بالاستماع إلى الاذاعة قررت أن تبدأ إذاعة داخلية تذيع منها ملخصا للأنباء وكانت الفقرات التى تذاع تتكون من أنباء طيبة عن الحكومة وسيئة عن اعدائها وافتتحت أول نشرة إخبارية بنبأ وفاة سوبرت سوبوكوى وكانت هناك أبناء أخرى عن انتصارات قوات إيان سميث .

وفى تلك السنة علمنا أن بوتا خلف فورستر فى رئاسة الوزراء . وكان كل ما أعرفه هو أن بوتا كان وزير دفاع شرسا . وقد أمر بالهجوم على انجولا عام ١٩٧٥ . ثم علمنا مالم تذعه المحطة وهو نجاح حركة التحرير فى انجولا وموزمبيق وتولى حكومات ثورية هناك .

وأدخلت السلطات أيضا إلى الجزيرة الأفلام السينمائية حيث كان يعرض فيلم كل اسبوع . وكان ضمن الأفلام التى عرضت فيلم كليوباترة وأثار الفيلم مناقشات كثيرة حيث اعترض الكثير على أن تقوم ممثلة أمريكية بدور كليوباترة .

ورأوا فى ذلك الفيلم مثلا للدعاية الغربية التى تسعى أن تمحو حقيقة أن كليوباترة كانت إفريقية وذكرت لهم أنا عن التمثال الرائع الذى رأيته فى مصر لكليوباترة والذى صورها ذات بشرة أبنوسية . وتأثرت تأثرا عميقا بفيلم وثائقى صور اغراق السفينة الملكية البريطانية على أيدى اليابانيين وكان أكثر ما أثر فى هو رؤية تشرسل يبكى عقب فقدان السفينة وقد بقيت الصورة فى ذاكرتى مدة طويلة وحدث بعد مشاهدتنا فيلما عن مجموعة جهنم الأمريكية التى كانت ضد السلطة أن تناقشنا ووجهنا اللوم للمجموعة ولكن أحد أعضاء جمعية الوعى الأسود ويدعى سترينى هاجمنا وقال إننا مجموعة من مثقفى الطبقة الوسطى وعلى ذلك توجدنا من السلطات اليمينية وما أثار قلقى هو مدى صحة اتهام سترينى فلقد كان قد مر وقت طويل على دخولنا السجن وكان الخطر هو أن تكون أفكارنا قد تجمدت مع الوقت فالسجن نقطة ثابتة فى عالم متحرك ومن السهل أن يبقى الانسان فى مكانه بينما العالم يتغير.

وفى عام ١٩٧٩ أعلنت السلطات تعديل نظام التغذية وتوحيده بين جميع السجناء من جميع الأعراق وعمدت السلطات فى السجن إلى الاقلال من نصيب الرجل الملون من السكر بدلا من زيادة نصيب الافريقى .

وفى الثمانينيات منحنا حق شراء الصحف وكان ذلك الحق مقصورا على مصبنفى أ وكانت كل مجموعة منهم لها الحق فى شراء صحيفة واحدة إنجليزية وأخرى ، أفريكانية ولكن إذا تبادلوها مع المجموعات الأخرى يسقط هذا الحق عنهم. ورغم أن الصحف التى كنا نشتريها كانت محافظة فقد كانت تخضع لرقابة السجن التى تتولى قص الفقرات التى تراها ضارة .

وأمكننى فى مارس ١٩٨٠ قراءة فقرة صحفية فى جريدة جوهانسبرج سانداى وكان العنوان « أطلقوا سراح مانديللا » أما فى داخل الصحيفة فقد كان هناك التماس يمكن للناس التوقيع عليه للمطالبة باطلاق سراحى وزملائى .

وكانت الفكرة قد بدأها أوليفر والمؤتمر فى لوساكا وكانت الحملة حجر زاوية فى استراتيجية تضع قضيتنا فى بؤرة تفكير الناس وقام المؤتمر بتركيز الحملة على شخص واحد يريد أن يعطيها أبعادا شخصية . ومما لاشك فيه أن الملايين الذين أيدوا الحملة لم تكن لهم أدنى فكرة عمن يكون نيلسون مانديللا . وقد علمت أنه حينما ظهرت ملصقات Free Mendela فى لندن اعتقد معظم الشباب هناك أن إسمى الأول هو Free .

وكنت قبل ذلك بعام قد منحت جائزة جواهر لال نهرو لحقوق

الانسان فى الهند وكان ذلك دليلا على انبعاث المقاومة من جديد وبالطبع منعت أنا وويني من حضور الاحتفال وحضر أوليفر نيابة عني . وتجدد أيضا نشاط الـM.K حيث كانت تقوم باحداث تفجيرات إسبوعيا فى مواقع استراتيجية . واستحدث وزير الدفاع مالان ـ يؤيده بوتا ـ نظام « عسكرة » البلاد لمواجهة معركة التحرير .

- ٨٦ -

وفى أحد أيام ١٩٨٠ علمت أن ملك ترانسكى ساباتا داليند يبو الذى كان من المقرر أن أكون مستشارا له قد خلعه ابن أخى ماتانزيما رئيس وزراء ترانسكى . قد سبب ذلك استيائى الشديد . وطلب عدد من رؤساء قبائل الثمبو المحليين زيارتى وتمت الموافقة عليها من قبل السلطات لاعتقادهم أن انشغالى بالشئون القبلية قد يقلل من تورطى فى المعركة . وقد كانت الحكومة تدعم سلطة رجال القبائل للتقليل من أثر المؤتمر . وبينما رأى الكثير من زملائى أن أرفض رؤية هؤلاء الرؤساء رأيت ممن الواجب أن أحاول الوصول إليهم فلم أكن أرى تعارضا بين كون الانسان قائما قبليا وعضوا فى المؤتمر بل كنت أعتقد أن اسهامنا فى التنظيمات المحلية سيكون مصدر قوة لنا .

والتقيت بالرؤساء الذين كانوا يؤيدون ساباتا ويخافون ماتانزيما وأشرت عليهم بالوقوف إلى جانب ساباتا وأن يبلغوه تأييدى ومعارضتى لماتانزيما .

كما طلب ماتانزيما مقابلتى بحجة مناقشة أمور عائلية ورغم رغبتى فى رؤيته لاعتقادى بامكانية التأثير عليه فقد اعترض كثير من رفاقى فى القسم لأنهم رأوا أن ماتانزيما سيستغلها للدعاية السياسية ولإيهام الناس أننا راضون عن سياسته . وانحنيت أمام آرائهم .

وفى مارس ١٩٨٢ علمت باصابة وينى فى حادث سيارة وبعد ذلك جاءنى محاميها ليطمئنى عليها وكانت الزيارة قصيرة . وعند عودتى إلى زنزانتى زارنى هناك مأمور القسم وكان ذلك أمرا غير معتاد . وأخبرنى المأمور أن على أن أجمع حاجياتى لأن الأوامر قد صدرت بنقلى ولم يفصح لى عن الجهة التى سأنقل إليها . وعلمت أن وولتر وريموند مهلابا وأندرو مالا نجينى قد صدرت اليهم نفس الأوامر .

وتساءلت : لقد مر على ثمانية عشر عاما فى الجزيرة ، فلماذا هذا القرار المفاجىء ؟ وحدث حالة اهتياج فى الممر عندما علم الآخرون أننا سنرحل ولكن لم نمنح الوقت لوداع رفاق السنوات الطويلة .

ونظرت من العبارة تجاه الجزيرة فقد اعتدت عليها . لقد عشت هناك قرابة عقدين من الزمان ورغم أنها لم تكن أبدا لى موطنا فلقد كانت مكانا شعرت فيه بالراحة فإنى لا أشعر بالراحة مع التغيير ولم تكن الجزيرة استثناء لذلك .

وفى كيب تاون دفع بنا إلى شاحنة مدة لاتتعدى الساعة ووقفت وأمرنا بالسير فى الظلام وتسلقنا درجات إسمنتية

ودخلنا من أبواب معدنية إلى منطقة أخرى ؛ وحينما سألت الحارس عن المكان الجديد أجاب أنه سجن بولسمور .

الجزء العاشر

التحادث مع العدو

- ٨٧ -

ويقع سجن بولسمور للحالات الأمنية القصوى على حافة ضاحية بيضاء غنية تدعى توكاى إلى الجنوب الشرقى من كيب تاون . وتحيط بالسجن مناظر الكيب الخلابة . ولكن ذلك الجمال تحجبه عن السجناء أسوار اسمنتية وفي بولسمور فهمت مقولة اوسكار وايلد عن الخيمة الزرقاء التى يلقبها السجناء السماء .

وتم فصلنا هناك عن سجناء القسم العام ولم يكن هناك سجناء سياسيون غيرنا . وكانت معاملتنا مختلفة . فمنح أربعتنا ملحقا للسجن عبارة عن غرفة متسعة على السطح فى الطابق الثالث وكنا السجناء الوحيدين فى ذلك الطابق . وكانت الغرفة نظيفة وحديثة وكان بها ملحقاتها من الحمامات والمراحيض . وكان بالغرفة أربعة أسرة وضعت عليها ملاءات ومناشف وكان ذلك رفاهية لرجال قضوا الثمانية عشر عاما السابقة ينامون على الأرض . وكانت هناك شرفة ذات مساحة ضخمة سمح لنا بالخروج اليها اثناء النهار ولم يكن بإمكاننا

رؤية أى شيء سوى السماء نظرا لاسوارها العالية . ورغم وجودنا فى قلب القارة فقد شعرنا بالعزلة لأن الجزيرة بالنسبة لنا كانت مركز المعركة . وكان النقل على مايبدو استرتيجيا فقد أرادت السلطات قطع رأس المؤتمر على الجزيرة بنقل قادته لكى تحرم الجزيرة من أهميتها الرمزية بعد أن أصبحت إسطورة تدعم المقاومة . وكنت أنا ووولتر وريموند أعضاء فى القيادة العليا على الجزيرة فلماذا ملانجيين ؟ وتأكد حدسنا بعد أن لحق بنا كاثرادا بعد شهور قليلة . ثم لحق بنا شخص لم نكن نعرفه يدعى باتريك مافابيللا وكان محاميا شابا من المؤتمر من شرق الكيب تاون ومحكوم عليه بالسجن عشرين سنة وقد نقل من سجنه لنشاطه فى عمل تنظيمات سرية .

ورغم أننا كنا نعيش فى عالم من الأسمنت فقد كانت ميزات المكان الجديد افضل فقد كان الطعام أحسن وكان بإمكاننا قراءة العديد من الصحف والمجلات التى كانت ممنوعة مثل التايم والجارديان من لندن وكان لدينا مذياع يتلقى المحطات المحلية فقط . وكانت الغرفة الرئيسية لها ملحق صغير استعمل كغرفة دراسة وبه مكتب وأرفف كتب . وكنت أقوم بممارسة الرياضة فى الغرفة الواسعة .

وحضرت وينى لزيارتى عقب نقلى وكانت مساحة الزيارة أفضل بكثير منها فى الجزيرة والرقابة أخف .

وكان مأمور السجن البريجادير مونرو شخصا بذل جهده لنحصل على ماكنا نطلبه . ورغم ذلك حدثت مشاكل ضخمت

لأضعاف حجمها . فقد شكوت مرة لويني أن الحذاء الذى تسلمته أصغر من حجم قدمي وسمعت بعد ذلك أن التقارير الصحفية قالت أنه ستجرى لي عملية لبتر إصبع قدمي وجاءت هيلين سوزمان لزيارتي في السجن وأريتها إصبعي سليما معافا . وحدث أن شكونا من رطوبة الغرفة ونشرت الصحف أن زنزانتنا قد أغرقتها المياه .

وفي مايو ١٩٨٤ حدث تغيير سبب لي الكثير من الارتياح فقد سمح لنا بالالتقاء المباشر مع الزائرين وحدث ذلك عند زيارةويني وزيني وابنتها الصغرى حيث سمح لنا بالتواجد في نفس الغرفة وعانقت زوجتي وابنتي لأول مرة منذ إحدى وعشرين عاما .

وفي بولسمور كنا على اتصال بالاحداث الخارجية وكنا نعلم أن المقاومة تتصاعد وكذلك مجهودات العدو . ففي عام ١٩٨١ قامت القوات الجوية لجنوب إفريقيا بالهجوم على مكاتب المؤتمر في موزمبيق حيث قتل ثلاثة عشر من رجالنا . وفي ديسمبر ١٩٨٢ فجر رجال الـM.K وزرعوا قنابل في مواقع عسكرية وأهداف للأبارتايد . وفي نفس الشهر هاجمت قوات جنوب إفريقيا مواقع للمؤتمر في لوسوتو وقتلت اثنين وأربعين شخصا فيهم نساء وأطفال وفي ١٩٨٢ كانت المناضلة روث فيرست تفض خطابا لها حينما انفجرت فيها

متفجرات كانت داخل الخطاب . وكانت وقت ذلك تعيش في مايوتو في المنفى وكانت زوجة جو سلوفو ، وعاشت مناضلة مناهضة للآبارتايد وقضت شهورا عدة بالسجن وكانت ذات شخصية قوية جذابة وكنت قد التقيت بها أول مرة في جامعة Wits

واستعملت M.K قنابل السيارات لأول مرة في مايو ١٩٨٣ وكان ذلك ضد قوة دفاع جوى ومكتب عسكرى في قلب بريتوريا انتقاما للهجوم على المؤتمر في الخارج وتصعيدا للعمليات العسكرية وقتل تسعة عشر شخصا وجرح مايربو على المائتين . وعبر أوليفر عن الموقف في ذلك الوقت قائلا إن المعركة العسكرية قد فرضت علينا بواسطة عنف نظام الأبارتايد .

وكانت الحكومة والمؤتمر في ذلك الوقت يعملان في اتجاهين : الاتجاه العسكرى والاتجاه السياسي . فعلى الصعيد السياسي كانت الحكومة تتبع سياسة فرق تسد لتفصل بين الهنود والملونين والأفارقة . فحاول بوتا أن يعطى الهنود والملونين امتيازات انتخابية ولكن ذلك لم يخدع الناس إذ قاطع ثمانون في المائة منهم الانتخابات .

وتكونت حركات قاعدية سياسية جديدة في داخل البلاد ذات صلات وثيقة بالمؤتمر مثل حركة الجهة الديمقراطية المتحدة التي نصبوني راعيا لها وضمت أكثر من ستمائة منظمة مناصفة للأبارتايد وكان لها نشاطات سياسية واسعة

وكان المؤتمر يشهد ميلادا وشعبية جديدين . وأثبتت استطلاعات الرأى أن المؤتمر يتصدر قائمة المنظمات الأخرى بين الأفارقة رغم حظره لربع قرن ويتفوق عليها بكثير . وكانت حركة الأبارتايد ككل قد حازت اهتمام العالم وفى عام ١٩٨٢ منح الأسقف توتو جائزة نوبل للسلام . وأصبحت السلطة تحت ضغط دولى متنام حيث أخذت الدول فى جميع أنحاء الأرض فى فرض الحظر الاقتصادى على بريتوريا .

وعلى مر السنوات كانت الحكومة ترسل لى مستطلعين بدءا بكروجر يحاولون معى أن أنتقل إلى ترانسكى . ولم تكن تلك محاولات للتفاوض بل وسائل لعزلى عن منظمتى ورغم عدم استجابتى لتلك المحاولات فقد كان بالامكان رؤية محاولاتهم للتفاوض بدلا من الهجوم مقدمة لتفاوضات حقيقية .

وأخذت الحكومة تختبر الموقف فخلال عامى ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ تلقيت زيارتين من رجلى دولة مهمين أولهما اللورد نيكولاس بثل عضو مجلس اللوردات البريطانى والبرلمان الأوروبى وثانيهما صامويل داش أستاذ القانون بجامعة جورج تاون والمستشار السابق للجنة مجلس الشيوخ بشأن ووترجيت .

وكانت كلتا الزيارتان قد صرح بهما وزير العدل الجديد كوبى كوتس الذى كان نوعا جديدا من القادة الأفريكان .

وتحدثت عن الأوضاع فى السجون مع لورد بثل وعن

بولسمور والمقاومة المسلحة وأخبرته أنه بإمكان الحكومة إنهاء أعمال العنف وقلت له أننا نستهدف المنشآت العسكرية وليس الأفراد . وفى لقائى مع البروفسور داش عرضت تصورى للحد الأدنى لجنوب إفريقيا لاعرقية تكون دولة موحدة دون مواطن للأعراق المختلفة وتجرى فيها انتخابات لبرلمان مركزى حيث يكون لكل فرد صوت انتخابى وأكدت أن مانريده هو المساواة السياسية وقلت له بصراحة أننا فى الواقع لانستطيع هزيمة الحكومة عسكريا ولكن بوسعنا جعل حكمها صعبا وزارنى رئيس تحرير الواشنطن بوست المحافظة التى كان هدفها ليس هو الاستماع لما أقول بقدر إثبات أننى شيوعى إرهابى وأننى لست مسيحيا لأن القس مارتن لوثر كونج لم يلجأ إلى العنف . فبينت له أن جنوب إفريقيا ليست دولة ديمقراطية مثل امريكا بل دولة دستورية يتوج دستورها عدم المساواة ويرد جيشها على عدم استعمال العنف بالقوة .

وفى مواجهة الاضطرابات فى الداخل والضغوط من الخارج اتخذ بوتا خطوة فاترة مترددة فقد أعلن فى البرلمان أنه مستعد لاطلاق سراحى إذا أنكرت العنف كأداة سياسية وقال إن ذلك ينطبق على جميع السجناء السياسيين الآخرين . وكان ذلك سادس عرض مشروط من الحكومة خلال عشر سنوات وبعد الاستماع إلى الخطاب طلبت السماح لزوجتى ومحاميى إسماعيل أيوب بالزيارة لاملاء الرد ولم يسمح لها بالزيارة إلا بعد اسبوع كنت فى خلاله قد كتبت الرد إلى وزير الخارجية بيك بوثا رفضت فيه أى اشتراطات لاطلاق سراحى

وأعدت إعلانا عاما حرصت فيه على ذكر عدة أشياء لأن هدف بوتا كان التفريق بينى وبين زملائى وقد أردت أن أؤكد للمؤتمر عامة وأوليفر خاصة ولائى الخالص للمنظمة وكنت أيضا أود افهام الحكومة إنه رغم رفضى العرض فإنى اعتقد أن المفاوضات وليست الحرب هى السبيل للحل . وكنت أيضا اوضح أننى اذا خرجت من السجن فى نفسى الظروف الذى اعتقلت فيها فاننى سأقوم بنفس الممارسات التى أدت الى سجنى .

وقابلت وينى وإسماعيل يوم الجمعة وكان يوم الأحد قد حدد لمظاهرة فى استاد سويتو يعلن فيها ردى . وأعطيت وينى واسماعيل الكلمة التى أعددتها وكنت أيضا أود أن أوجه شكرى الى الجبهة الديمقراطية المتحدة على أعمالها الرائعة وأهنىء الأسقف توتو على الجائزة . ويوم الأحد ١٠ فبراير ١٩٨٥ قرأت ابنتى زيندزى ردى على الجماهير المهللة التى لم يكن بإمكانها سماع أى كلمة منى فى أى مكان من جنوب افريقيا لمدة تربو على العشرين عاما .

وكانت زيندزى متحدثة ديناميكية مثل والدتها . وقالت إن والدها كان يجب أن يكون فى الاستاد ليتكلم بنفسه . وجاء فى كلمتى أننى عضو بالمؤتمر وسأظل عضوا فيه إلى وفاتى وأن أوليفر تامبو أكثر من شقيق لى وأعلم أنه من الممكن أن يضحى بحياته ليرانى حرا . وأضفت أن الشروط التى تريد الحكومة فرضها تسبب لى الدهشة لأننا لم نسلك طريق العنف إلا بعد أن سدت امامنا جميع طرق المقاومة . وأن على بوتا

أن يبرهن أنه مختلف عمن سبقوه ويترك العنف ويلغى الأبارتايد ويطلق سراح السجناء والمنفين لمعارضتهم للأبارتايد ويضمن حرية النشاط السياسى ليتمكن الشعب من تقرير من يحكمه . وقلت : إننى أحرص على حريتى لكنى أحرص بالتأكيد على حريتكم ولست أقل حبا منكم للحياة ولكني غير مستعد لبيع حق مولدى أو حق مولد شعب لأحصل على حريتى . فماذا تعنى تلك الحرية بينما تحظر المنظمة التى أنتمى إليها أو بينما يمكن أن يلقى القبض على لعدم حملى تصريحا للمرور أو بينما زوجتى منفية فى براندفورت أو بينما . يجب أن أطلب تصريحا لأسكن فى منطقة مدنية أو بينما لاتحترم مواطنتى فى جنوب إفريقيا . إن الأحرار هم الذين يستطيعون التفاوض ولايمكن للسجناء الدخول فى اتفاقات . فأنا لا أستطيع ولن أتعهد بشىء فى وقت أنا وأنتم لسنا أحرارا فلايمكن الفصل بين حريتكم وحريتى .

وسأعود .

- ٨٩ -

تقرر دخولى المستشفى فى عام ١٩٨٥ فى كيب تاون لاجلاء عملية البروستاتا تحت حراسة مشددة طارت وينى لرؤيتى قبل اجراء العملية . ولكنى تلقيت زيارة أخرى أدهشتنى فقد حضر كوبى كوتسى وزير العدل بحجة زيارة صديق له في المستشفى ولقد كنت قد كتبت إليه خطابا دعوته

للقاء لمناقشة إجراء محادثات بين المؤتمر والحكومة . فقد كانت الحكومة قد تبينت أنها لابد وأن تصل الى اتفاق مع المؤتمر وكانت زيارتها هى غصن الزيتون .

وبعد شفائى حضر المأمور لاصطحابى وكان ذلك أمرا غير عادى . وأخبرنى أننى لن أذهب الى رفاقى بل سأقيم بمفردى . وعند وصولى إلى السجن ساقونى إلى زنزانة فى قسم مختلف تماما . فقد كانت عبارة عن جناح من ثلاث غرف وحمام ولم أستطع فى البداية استيعاب سبب التغيير . لكن فى الأسابيع التى تلت تفهمت وضعى الجديد الذى قررت أنا أن أستغله لبدء محادثات مع الحكومة فقد رأيت أن الوقت قد حان لدفع عجلة النضال من خلال المفاوضات مستغلا فرصة وحدتى .

فقد كان قد مر علينا خمسة وسبعون عاما من النضال ضد حكم الأقلية البيضاء . كما كان قد مر مايربو على عقدين على بدء القتال المسلح . وقد مات أناس كثيرون من الجانبين ، أما العدو فكان قويا وعنيدا . لكن رغم عنادهم فلابد وأنهم قد أدركوا أنهم على الجانب الخطأ من التاريخ ورغم أن الحق كان معنا لم نكن نملك القوة بعد وكان من الواضح أن النصر العسكرى بعيد إن لم يكن مستحيلا ولم يكن من الحكمة للجانبين أن يفقدوا الآلاف . ان لم يكن الملايين فى معركة غير ضرورية . ولابد أنهم أدركوا ذلك . وقد حان الوقت للحديث وكان كلا منَ الجانبين ينظر للنقاش على انه نوع من الضعف وكانت الحكومة قد أعلنت مرارا أن المنظمة ارهابية

شيوعية ولايمكن التحادث معها وكان المؤتمر قد أكد مرارا أن الحكومة فاشية عنصرية وأنه لايوجد موضوع نقاش حتى يرفع الحظر عن المؤتمر ويطلق سراح جميع المسجونين السياسيين بدون شرط وتنسحب القوات من المناطق الافريقية .

وكان يجب أن يتخذ القرار فى لوساكا ولكنى شعرت أن العملية يجب أن تبدأ وأنه ليس هناك وقت أو وسيلة للاتصال بأوليفر . وكان عزلى الجديد يوفر لى الحرية أن أتحرك تحت ستار من الجدية .

وقررت ألا أنبىء أحد بما فاعله حتى زملائى فى نفس السجن الذين كنت أعرف أنهم سيستنكرون اقتراحى ويحكمون على المباراة بالاعدام قبل أن تولد . وان هناك أوقاتا يجب على القائد أن يستبق الرعية ويسير فى اتجاه جديد وهو واثق أنه يقود السفينة فى طريق النجاة .

وكان عزلى أيضا يمكن منظمتى من التماس العذر فى حالة فشل المساعى بأن يقال أن الرجل العجوز كان منعزلا واتخذ خطواته بصفة شخصية وليس كممثل للمؤتمر .

وفى خلال أسابيع أرسلت لكوتس اقتراحا بأن نتحادث بشأن بدء مفاوضات وكالمرة السابقة لم أتلق ردا . وكتبت مرة

أخرى دون استجابة . وقررت أن أتحين فرصة أخرى وقد واتتنى فى بدء ١٩٨٦ .

ففى اجتماع الكومنولث فى اكتوبر ١٩٨٥ لم يستطع قادته التوصل الى قرار بشأن فرض العقوبات على جنوب افريقيا لمعارضة مارجريت تاتشر الشديدة لذلك . وللخروج من المأزق تقرر إرسال وفد على مستوى عال لزيارة جنوب إفريقيا لتقرير ما إن كانت العقوبات أداة صحيحة لانهاء الأبارتايد وفى بداية ١٩٨٦ وصلت مجموعة السبع أشخاص بقيادة الجنرال أوسانجو وهو قائد حربى سابق لنيجيريا ، ورئيس استراليا السابق مالكولم فريزر إلى جنوب إفريقيا لتقصى الحقائق .

وفى فبراير زارنى أوسانجو لبحث طبيعة تقرير الوفد وكان حريصا على أن يسجل لقائى بالمجموعة كلها وأدرجت المقابلة فى مايو بموافقة الحكومة . وبعد ذلك كان مقررا للمجموعة أن تتحدث إلى مجلس الوزراء ووجدت ذلك فرصة لاقتراح المفاوضات .

وقد رأت الحكومة أن اجتماعى مع المجموعة مناسبة غير عادية فزارنى البريجادير مونرو وبرفقته حائك لأخذ مقاساتى قبل الاجتماع بيومين . وقال إنهم يريدون لى أن أقابل هؤلاء الناس على وجه المساواة ولايريدون لى أن أقابلهم بثياب السجن . وبعد يومين أحضر الحائك حلة أنيقة كما منحت قميصا وربطة عنق وزوجا من الجوارب وملابس داخلية . وقال

المأمور يومها أنني أبدو رئيسا للوزراء وليس سجينا .

ولحق بنا مراقبان في لقائي مع المجموعة هما كوتسى وويلمس رئيس السجون . ولكن الأمر الغريب هو أنهما انصرفا عقب بداية الاجتماع وحاولت معهما أن يبقيا فرفضا وقلت لهما أن الوقت قد حان للتفاوض بدلا من الاقتتال وأن المؤتمر والحكومة يجب أن يجلسان للتحادث .

وجاءت المجموعة بأسئلة كثيرة تتصل بقضايا العنف والمفاوضات والعقوبات الدولية . وفى البداية أرست قواعد للمناقشة قائلا أننى لست رئيس الحركة وأن الرئيس هو أوليفر تامبو فى لوساكا ولابد لهم من اللقاء به وأن آرائى شخصية وإنى لا أمثل حتى آراء زملائى فى السجن وبعد كل شىء فأنا أفضل أن يبدأ المؤتمر محادثات مع الحكومة .

وكان بعض أعضاء المجموعة قلقا بشأن ايديولوجيتى السياسية وماذا ستكون عليه جنوب إفريقيا تحت قيادة المؤتمر وشرحت لهم انتمائى القومى الافريقى وأننى غير شيوعى وأن القومية الافريقية تضم تحت لوائها أشخاصا من مختلف الأعراق والنحل وعن ايمانى بميثاق الحرية الذى يجسد مبادىء الديموقراطية وحقوق الانسان وذكرت اهتمامى بإن تشعر الأقلية البيضاء بالأمان فى جنوب افريقيا وايمانى أن المشاكل القائمة يمكن حلها عن طريق المفاوضات . وبينما لم أستنكر العنف فقد قلت لهم أن العنف لن يوجد الحل النهائى للوضع فى جنوب إفريقيا واقترحت أن تسحب الحكومة الجيش والشرطة من المناطق الافريقية .

وفى تلك الحالة يمكن للمؤتمر الموافقة على تعليق المعركة العسكرية تمهيدا للمفاوضات .

وكانت خطة المجموعة بعد ذلك أن تقابل أوليفر فى لوساكا ومسئولى الحكومة فى بريتوريا وكانت ملاحظاتى قد احتوت على رسائل للطرفين ثم تجتمع اللجنة بى مرة أخرى فى مايو وكنت متفائلا بعد أن زارت اللجنة لوساكا وبريتوريا من بدء المفاوضات . ولكن فى اليوم السابق للاجتماع بإعضاء مجلس الوزراء ، وبناء على أوامر الرئيس بوتا أغارت قوات دفاع جنوب افريقيا وقوات فدائييها على قواعد المؤتمر فى بوتسوانا وزامبيا وزيمبابوى مما سمم جو المحادثات .

دعا أوليفر تامبو ورجال المؤتمر شعب جنوب افريقيا أن يجعلوا البلد مكانا لايمكن السيطرة عليه وأطاع الناس الدعوة ووصلت حال القلق والعنف أقصاها واشتعلت الفوضى فى الأماكن الافريقية وكان الضغط الدولى يقوى كل يوم . وفى يونيو ١٩٨٦ فرضت الدولة حال الطوارىء كمحاولة للتحكم فى الاحتجاج وبدأت الظواهر تنبىء عن استحالة التفاوض . ولكن غالبا ماتكون اللحظات الأكثر احباطا هى المناسبة للمبادرات . وكتبت خطابا إلى ويلمس رئيس السجون لمقابلته وحينما التقينا قلت له أننى أرغب فى مقابلة وزير العدل لأبحث إمكانية التعاون فى كيب تاون وأنه سيدرس الامكانية وبعد مكالمة هاتفية مع الوزير أخبرنى أنه طلب منه أن يحضرنى اليه .

وقضيت مع الوزير ساعات ثلاث فى قصره وبدا مرحبا

ودودا منصتا . وكانت اسئلته تبين مدى إلمامه بالقضايا التى تفصل بين الحكومة والمؤتمر وسألنى عن الظروف التى نتطلبها لايقاف المعركة العسكرية وإن كنت أتحدث نيابة عن المؤتمر وإن كنت قد كونت تصورا عن الضمانات الدستورية للاقليات فى جنوب إفريقيا الجديدة . وسألنى عن الخطوة التى فقلت له إننى أريد أن ألتقى برئيس الجمهورية ووزير خارجيته بيك بوتا فقال إنه سيرسل طلبى عن طريق القنوات الصحيحة وصافحنى وعدت الى زنزانتى .

لم أبلغ أى أحد فقد أردت للامور أن تبدأ قبل اخبار الآخرين فأحيانا يكون من الضرورى أن يعرض المرء على زملائه خطة سياسية كأمر واقع وكنت أعرف أن زملائى فى بولسمور ولوساكا سيوافقوننى بعد دراسة الموقف لكن بعد تلك البداية المبشرة مرت شهور دون أن يأتينى رد من كوتس وكتبت له مرة أخرى .

رغم أننى لم أتلق ردا من كوتس فقد كانت هناك مؤشرات أخرى إلى أن الحكومة كانت تستعد لوجود مختلف . ففى اليوم السابق لكريسماس دخل نائب مأمور سجن بولسمور الى زنزانتى بعد الافطار وعرض أن يصطحبنى لنزهة فى المدينة ورغم عدم فهمى قبلت عرضه . وسرت أنا وهو خلال الخمس عشرة بوابة التى تفصل زنزانتى عن المدخل حيث كانت

سيارته فى انتظارنا واخذ يتحول لى فى المدينة وشعرت كسائح متشوق فى بلاد غريبة مميزة . وسألنى ان كنت أريد شرابا باردا ولما أومأت اختفى فى محل وجلست بالسيارة متفردا لأول مرة منذ عشرين عاما بدون حراسة وراودتنى فكرة الهرب خاصة وأننى لاحظت منطقة غابات قرب المكان الذى توقفنا به ولكننى رأيت أن مثل ذلك الفعل غير حكيم ولامسئول بجانب خطورته . وشعرت بالراحة حينما عاد بعلبتين من شراب الكوكا كولا .

كانت تلك أول رحلة وخلال الأشهر التى تلت ذهبت مع نائب المأمور إلى المدينة مرارا وإلى أماكن سياحية خارج المدينة وإلى الشواطىء والجبال وبعد ذلك أخذ يسمح لضباط أقل رتبة بموافقتى وأخذنا نرتاد المقاهى وكنت حينئذ أحاول أن أرى إذا ماكان بالامكان لأحد أن يتعرف على ولكن لم يحدث ذلك فلم يحدث أن نشرت لى صورة منذ عام ١٩٦٢ .

وكان لتلك الرحلات أثرها التثقيفى فقد رأيت الحياة وقد تغيرت ونظرا لأننا كنا نذهب إلى مناطق البيض فقد رأيت الثراء غير العادى والرفاهية التى يتمتعون بها . ورغم الاضطرابات التى كانت تعم البلاد ورغم أن مناطق السود كانت على حافة الحرب المعلنة فلم تتأثر حياة البيض وسارت فى سلاسة واطمئنان .

وكنت أعلم أن السلطات لها دوافع غير تسليتى . فقد أحسست أنهم أرادوا لى أن أتأقلم على الحياة فى جنوب

افريقيا وفى نفس الوقت أعتاد على المتعة التى يوفرها لى ذلك القدر الضئيل من الحرية وأصبح متسعدا لتقديم التنازلات فى سبيل الحصول على حريتى كاملة .

- ٩٢ -

أعدت الاتصال بكوتس عام ١٩٨٧ وعقدنا عدة لقاءات سرية فى قصره . وفى الجزء الأخير من ذلك العام تقدمت الحكومة بأول مقترحات ملموسة لها . . فقال كوتس أن الحكومة تود أن تعين لجنة من كبار المسئولين لاجراء محادثات سرية معى وأن ذلك سيكون بعلم من رئيس الجمهورية وسيكون كوتس رئيسا لتلك اللجنة وستضم ويلمس مدير السجون ود . نيل بارنارد وهو أكاديمى سابق وكان يعمل رئيسا لجهاز المخابرات القومى وبما أن هؤلاء على علاقة بنظام السجون فلو حدث وتعثرت المفاوضات أو تسربت أنباؤها إلى الصحافة يصبح بالامكان تغطية الأمر بالقول أننا كنا نبحث أحوال السجون .

وكان وجود بارنارد من دواعى قلقى فقد كان على صلة بالمخابرات العسكرية فقد كان من الممكن تبرير مناقشاتى مع الآخرين لمنظمتى لكن وجوده كان سيجلب المشاكل ويتطلب برنامج عمل أكثر اتساعا وأخبرت كوتس أننى سأفكر فى الاقتراح تلك الليلة . ودرست تشعبات الموقف جميعها فقد كنت أعلم أن بوتا قد أوجد نظاما يدعى مجلس أمن الدولة وهو

سكرتارية مبهجة مكونة من خبراء أمنيين وبعض مسئولى المخابرات . وكان قد فعل ذلك ، كما قالت الصحف ، ليتحاشى سلطة مجلس الوزراء ويزيد من قوته . وكان د . بارنارد الشخص الأساسى فى ذلك التنظيم . وفكرت أننى إذا رفضت بارنارد فسأنفر بوتا وإذا لم ينضم رئيس الجمهورية للمباحثات فإن شيئا لن يحدث . وفى الصباح أخبرت كوتس أننى قبلت اقتراحه .

وكان أمامى أمور حرجة ثلاث علىَّ معالجتها : أولا استطلاع رأى زملائى فى الدور الثالث قبل بداية المحادثات وثانيها وكان أساسيا هو الاتصال بأوليفر فى لوساكا بشأن مايحدث ثم كتابة مذكرة لبوتا عن آرائى وآراء المؤتمر بشأن القضايا الحيوية التى تواجه البلاد تكون بمثابة نقاط محادثات لدى حدوث مناقشات مستقبلية .

وطلبت مقابلة زملائى ودهشت لرفض السلطات ورفعت الأمر الى مسئولين كبار وحصلت على الموافقة .

وعند لقائى بهم فى قسم الزيارات لم أذكر تفاصيل كثيرة وقررت أن استشيرهم فقط بشأن عقد مباحثات مع الحكومة دون ذكر أن هناك لجنة قد شكلت بالفعل . وكان رد وولتر فاترا وعلق أن يود لو أن المبادرة جاءت منهم بدلا من جانبنا وحاولت اقناعه ورأى أننى مصمم فقال أنه لن يقف فى طريقى ولكنه يرجو أن أكون أعرف ما أنا بصدده . أما مهلابا فقد تساءل لماذا انتظرت طوال ذلك الوقت وكذلك كان رد

ملانجين . أما كاثرادا فقد وقف ضد الاقتراح وقال إننا بتقديم المبادرة نبدو كأننا نزعن وكان أكثر تصميما من وولتر واختتم قائلا إننى قد اتخذت الطريق الخطأ لكنه لن يقف فى سبيلى .

وبعد ذلك بقليل تلقيت رسالة مهربة من أوليفر تامبو قال فيها أنه قد سمع تقارير عن وجود مناقشات سرية بينى وبين الحكومة وأنه قلق وأنه يعلم أننى قد ظللت وحيدا بعيدا عن زملائى لفترة من الوقت . وكانت مذكرته مقتضبة وفى لب الموضوع وكان يود أن يعرف ما أتباحث بشأنه ولم ترد احتمالية الشك فى خيانتى لكن لهجته كانت تدل على اعتقاده أننى أخطأت الحكم .

وأرسلت إليه خطابا مختصرا جدا أخبرته فيه أننى كنت أتباحث مع الحكومة حول نقطة واحدة فقط واحدة وهى عقد لقاء بين اللجنة المركزية للمؤتمر وحكومة جنوب إفريقيا ولم أخبره بالتفاصيل حيث أننى لم أكن أثق فى سرية المراسلات . وببساطة أخبرته أن الوقت قد حان للتفاوض وأننى لن أورط المؤتمر بأية طريقة .

وعقد أول لقاء رسمى فى نادى الضباط الفخم الملحق ببسلمور فى مايو ١٩٨٨ ولم أكن قد رأيت فان ديرميروى أو بارنارد من قبل . وكان الأول هادئا متزنا لايتكلم إلا عندما

يكون لديه مايقوله أما بارنارد فكان فى منتصف الثلاثينات وكان شديد الذكاء والتحكم فى النفس . واستمرت اللقاءات تعقد كل إسبوع لعدة أشهر وبعد ذلك كانت تعقد على فترات غير محددة وكانت تقل أحيانا وتتكلم أحيانا أخرى وكانت الحكومة هى التى تنظم الاجتماعات ولكنى كنت أحيانا أطالب بعقد جلسة واكتشفت أنه خلافا لبارنارد لم يكن أحد من أعضاء اللجنة يعلم الكثير عن المؤتمر وكان جميعهم أفريكان متفتحى الأفق لكنهم كانوا ضحية الدعايات لذا كان من الضرورى تصحيح بعض النقاط .

وشرحت لهم تاريخ المؤتمر ومواقفنا من القضايا الرئيسية الأمر الذى يجعلنا نختلف مع الحكومة وبعد ذلك بحثنا الكفاح المسلح والتحالف مع الشيوعيين وهدف حكم الأغلبية وفكرة التآلف العرقى .

واستغرقنا شهورا فى مناقشة الكفاح المسلح حيث أصروا على أن يتخلى المؤتمر عن العنف قبل أن توافق الحكومة على المفاوضات وقبل أن ألتقى بالرئيس بوتا وأجبتهم بأن الدولة مسئولة عن العنف لأنها تستعمله وفى حالتنا فهو دفاع مشروع عن النفس وقلت أن الدولة إذا لجأت إلى طرق سلمية فسنستخدم طرقا سلمية ورغم أنهم بدأوا يتفهموا تلك النقطة فقد بدت العقبات العملية للموقف . فقد كان حزب القوميين قد أعلن أنه لن يتفاوض مع منظمة تستخدم العنف فإن بدأوا مثل تلك المفاوضات فقدوا مصداقيتهم وقالوا إنه لكى نصل الى نقطة بدء فعلى المؤتمر أن يقدم تنازلات لتستطيع الحكومة

مواجهة شعبها . ورغم تفهمى لموقفهم فلم أقدم لهم الحل قائلا بان مهمتي ليست حل مشاكلهم فأن عليهم أن يخبروا مواطنيهم أنه لن يكون هناك سلام بدون مفاوضات مع المؤتمر . أما بشأن تحالفنا مع الشيوعيين فقد بينت لهم أن المؤتمر والحزب منظمتان مختلفتان مستقلتان رغم اشتراكهما فى الأهداف القريبة المدى ولكن أهدافنا البعيدة المدى مختلفة . واستمرت المناقشة حول تلك النقطة أشهر وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أنه بما إن معظم الشيوعيين بيض أو هنود فإنهم بالتالى يتحكمون فى أعضاء المؤتمر السود وحاولت دحض هذا الادعاء بالبراهين لكنهم لم يقتنعوا . وأخيرا انفجرت قائلا أنه برغم كونهم أربعة بيض وأنهم ينظرون لأنفسهم على أنهم أذكياء فقد مضت أشهر دون أن يفلحوا فى تغيير رأيى .

وكانوا أيضا قلقين بشأن قضية التأميمات التى فكرت فى ميثاق الحرية فذكرت لهم إننا نهدف إلى توزيع اكثر عدالة لعائد بعض الصناعات التى هى فى الواقع احتكارات وأن التأميمات ستنتصر على ذلك فقط وذكرتهم بما كتبته فى صحيفة ليبراشن من أن الميثاق ليس اعلان مبادىء للاشتراكية لكن لرأسمالية إفريقية وأننى لم أغير رأيى منذ ذلك الوقت .

وتناقشنا حول الأقليات تحت حكم الأغلبية وكيف للمؤتمر أن يضمن حقوقها فذكرت لهم أن المؤتمر هو المنظمة الوحيدة،

فى جنوب إفريقيا التى تسعى إلى توحيد كل الأعراق وأنها تعتبر البيض إفريقيين ولاتريد أن تلقيهم فى البحر .

- ٩٤ -

وكانت النتيجة الايجابية للمحادثات أننى علمت فى صيف ١٩٨٨ أن رئيس الجمهورية يخطط لزيارتى قبل نهاية أغسطس . وكانت البلاد فى حالة من الاضطرابات وأعادت الحكومة فرض قانون الطوارىء فى ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ وكان الضغط الدولى يتعاظم وترك عدد أكبر من الشركات جنوب افريقيا وأقر الكونجرس الأمريكى قانون مقاطعة شاملة .

وفى عام ١٩٨٧ احتفل المؤتمر بعيد ميلاده السابع والخمسين وحضر مؤتمره فى تنزانيا وحضره مندوبون عن أكثر من خمسين أمة وأعلن أوليفر أن المقاومة ستتعاظم حتى تعلن الحكومة استعدادها للمفاوضة لالغاء الأبارتايد .

كان قد تم قبل عامين الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على الميثاق تم أثناؤها انتخاب اعضاء من أعراق مختلف للجنة المركزية ووعدت اللجنة ألا تتم أى مناقشات مع الحكومة حتى يفرج عن قادة المؤتمر .

وعلى الجانب الآخر زادت قوة الحزب القومى وكسب أغلبية ساحقة فى انتخابات ١٩٨٧ واحتل المحافظون بدل الحزب التقدمى مقاعد المعارضة وكانوا يتهمون القوميين بالتراخى مع المعارضة السوداء .

ورغم تفاؤلي بشأن المحادثات السرية فقد كانت الأوقات صعبة وزارتني ويني وأخبرتني أن بيتنا في أورلاندو قد حرق وقد خسرنا بعض وثائق الأسرة القيمة . ومرضت بعد ذلك وقرر الطبيب نقلي إلى مستشفى تايجر بيرج الجامعي في كيب تاون وسط حراسة مشددة وبعد إخلاء المدخل تماما رافقوني إلى طابق كان قد أخلي أيضا ووضع به عدد كبير من الحرس خوفا من تعاطف الطلبة معي وأخبرني الطبيب أن إصابتي خفيفة وأنني يمكنني مغادرة المستشفى في اليوم التالي .

وفي الصباح حضر طبيب آخر وفحصني وقال إنه توجد مياه برئتي ثم نقلت الى غرفة العمليات حيث تم تخديري وسحب ٢ لتر من المياه من صدري وبعد فحص السائل اكتشفت به جرثومة سل ولكن مرضي كان مايزال في المرحلة الأولى وقال الطبيب أنه لن يلزمني أكثر من شهرين للشفاء ثم نقلت بعد اسبوعين الى عيادة فخمة قرب بولسمر لم يدخلها أسود من قبل . وفي صباح يوم لي هناك تلقيت زيارة مبكرة من كوتس برفقته الميجور ماريس الذي كان مسئولا عن حراستي .

وبعد استقراري في المستشفى بدأت الاجتماعات مرة أخرى بيني وبين كوتس وأعضاء اللجنة . وأثناء وجودي هناك صرح كوتس بأنه يريد أن يضعني في موقف أكون فيه في منتصف الطريق بين حالة التحفظ والحرية . وشعرت ان ذلك يعني خطوة على سبيل الحرية .

وكان المستشفى مريحا . واستمتعت لأول مرة بفترة نقاهتى . وكانت الممرضات البيض والملونات يفرطن فى تدليلى وكن يأتين لزيارتى حتى فى أوقات راحتهن . وحدث أن أخبرتنى إحدى الممرضات أنهن سيقمن حفلة ولابد أن أحضرها لكن سلطات الأمن منعت ذلك . فأقامت الممرضات الحفلة فى غرفتى .

وفى بداية ديسمبر ١٩٨٨ شددت الحراسة على جناحى فى المستشفى وفى مساء ٦ ديسمبر أخبرنى رئيس الحرس أن أجهز نفسى للرحيل ولما سألته إلى أين أجاب أنه لايعرف .

وغادرت المستشفى على عجل وبعد ساعة فى الطريق أخذت إلى سجن فيكتور فيرستر فى الكيب القديمة التى تبعد حوالى خمسة وثلاثين ميلا إلى الشمال الشرقى من كيب تاون . وكان سجنا نموذجيا ودخلناه بالسيارة حتى وصلنا إلى كوخ من طابق واحد يقع خلف جدار أسمنتى وتظلله أشجار التنوب الطويل . وبالداخل كان هناك غرفة جلوس متسعة ومطبخ كبير وغرفة نوم أكثر اتساعا فى الجزء الخلفى . كما كان هناك حوض للسباحة فى الفناء الخلفى وغرفتى نوم صغيرتين إضافيتين . أما الشىء الوحيد الذى أفسد تلك الرعاية فكان الجدار الذى تعلوه الأسلاك الشائكة .

وبعد الظهر زارنى كوتس وأحضر معه هدية بمناسبة انتقالى للمنزل الجديد وتفقد المنزل وقال إن الجدار يجب أن يرتفع أكثر لضمان عزلتى وقال إن سبب نقلى هو إيجاد مكان لاجراء مباحثات فى جو من السرية والراحة .

وكان المكان يوهم الفرد بالحرية فقد كان بإمكانى أن أنام أو أستيقظ حسب ما أريد ، وأن أسبح ، وآكل حينما أشعر بالجوع وكانت تلك مشاعر لذيذة . فقد كان من البهجة أن يتمكن المرء أن يخرج أثناء النهار للنزهة حينما يريد . ولم يكن هناك قضبان أو مفاتيح تصلصل أو أبواب توصد وتفتح . لكني لم أنس قط أنه قفص ذهبى .

وأمدتنى السلطات بطاه وكان يعمل سابقا فى جزيرة روبن . وكان ماهرا ويعد ولائم فخمة لمن يزوروني وكان عددهم قد بدأ فى التزايد .

واستمرت اجتماعات اللجنة وتعثرنا بسبب نفس القضايا التى كانت قد منعت تقدمنا وهى المعركة المسلحة والحزب الشيوعي وحكم الأغلبية . وأخذت أحث كوتس على ترتيب اجتماعي بالرئيس بوتا وكانت السلطات قد سمحت لى باجراء اتصالات أولية مع زملائى فى بولمسور وجزيرة روبن والمؤتمر فى لوساكا فلم أكن أريد أن أتقدم على الطريق بمفردى .

وفى يناير ١٩٨٩ زارنى رفاقى الأربعة من بولسمور وناقشنا المذكرة التى كنت على وشك إرسالها لرئيس الجمهورية وكانت ترديدا للنقاط التى ناقشتها مع اللجنة ولكنى أريد التأكد من أن رئيس الجمهورية قد سمعها منى مباشرة واقترحت فيها معالجة مطالب الحكومة الثلاثة من المؤتمر كشرط لبدء المفاوضات وذكرت أن وقف أعمال العنف من قبل المؤتمر ليس هو المشكلة ولكن المشكلة هى أن الحكومة غير مستعدة بعد لمشاركة السود فى القوة السياسية وشرحت أسباب عدم رغبتنا فى الانفصال عن الحزب الشيوعى ذاكرا أننا لسنا تحت سيطرتهم ثم ذكرت أنه ليس هناك شخص شريف يتخلى عن صديق حياته نتيجة لاصرار عدو مشترك ويبقى على مصداقيته مع الشعب وأضفت أن رفض حكم الأغلبية من قبل الحكومة هى محاولة للابقاء على السلطة واقترحت عليه أو يواجه الواقع ذاكرا أن حكومة الأغلبية والسلام هما وجهان لعملة واحدة وعلى جنوب افريقيا البيضاء أن تقبل ذلك وفى النهاية تقدمت باطار مبدئى للمفاوضات وهو معالجة قضيتين أساسيتين وهما مطلب حكومة الأغلبية والثانى قلق جنوب افريقيا البيضاء من هذا المطلب بالاضافة إلى أصرار البيض على ضمانات بنيوية لضمان ألا تسود الأغلبية السوداء الأقلية البيضاء . وأضفت أن المهام الحرجة التى ستواجه الحكومة والمؤتمر هى محاولة التوفيق بين الموقفين . ثم اقترحت أن يتم ذلك على مرحلتين أولهما اجراء مناقشات لخلق ظروف مناسبة للمفاوضات وثانيهما اجراء المفاوضات ذاتها .

وكان أن حدث تأخير فقد أصيب الرئيس بوتا فى يناير بجلطة وهى إن كانت لم تعجزه فقد أضعفته أصبح طبقا لوزرائه شخصا سريع الغضب ثم فجأة استقال كرئيس لحزب القوميين فى شهر فبراير وكان ذلك موقف لم يحدث مثيله فى تاريخ جنوب افريقيا حيث يصبح رئيس الأغلبية فى البرلمان رئيسا للجمهورية .

واستمرت أعمال العنف السياسية والضغط الدولى فى التعاظم . وقام المسجونون السياسيون فى جميع انحاء البلاد باضراب عن الطعام - نتج عنه الافراج عن تسعمائة متهم وفى ١٩٨٩ كونت الجبهة الديمقراطية المتحدة تحالفا مع مجلس الاتحادات التجارية لجنوب إفريقيا وكونا الحركة الديمقراطية الجماهيرية M.D.M ' التى بدأت فى تنظيم حملة تحد وعصيان فى جميع أنحاء البلاد لتحدى قوانين الأبارتايد . وعلى الجانب الدولى أجرى أوليفر تامبو مباحثات فى بريطانيا والاتحاد السوفييتى وفى يناير ١٩٨٧ التقى بوزير الدولة الأمريكى جورج شولتز فى وشنطن واعترف الامريكيون بالمؤتمر عنصرا لايمكن الاستغناء عنه فى أى حل فى جنوب إفريقيا وتزايدت العقوبات ضد جنوب أفريقيا .

وكان للعنف السياسى جانبه المأساوى فبازدياد أعمال العنف فى سويتو سمحت زوجتى لمجموعة من الشباب أن يكونوا حرسا خاصا لها أثناء تحركاتها فى المنطقة وكان أولئك الشباب غير مدربين وغير منظمين وتورطوا فى نشاطات غير لائقة بحركة التحرر . ونتيجة لذلك تورطت وينى من الناحية

القانونية فى محاكمة أحد حراسها الذى اتهم بقتل زميله . وقد تسبب ذلك الموقف فى ارباكى الشديد حيث أن فضيحة كتلك عملت على تفريق الحركة وقد كانت الوحدة شيئا أساسيا . وقد أيدت زوجتى تأييدا تاما وأكدت أنها رغم حكمها السليم فى الموضوع فإنها بريئة من أى تهمة خطيرة .

وفى يوليو ، وفى عيد ميلادى الحادى والسبعين زارنى جميع أفراد أسرتى فى السجن وكانت تلك أول مرة أجتمع فيها بزوجتى وأبنائى وأحفادى فى مكان واحد وكانت مناسبة عظيمة . وأعد الطباخ وليمة فخمة وكان ذلك مصدر سعادة عميقة لى رغم ألمى لأننى لم أنعم أبدا بمثل تلك المناسبات لسنوات طويلة .

- ٩٧ -

وفى ١٤ يوليو زارنى جنرال ويليمس وأخبرنى أننى سأذهب لمقابلة رئيس الجمهورية فى اليوم التالى ووصف الزيارة بأنها للمجاملة . وطلبت حلة وربطة عنق من أجل المناسبة حيث أن الحلة الأخرى كانت قد اختفت . وأعددت نفسى بكل ما أملك وراجعت مذكرتى والملاحظات المطلوبة التى ألحقتها بها وقرأت صحفا كثيرة ومطبوعات للتأكد أننى على علم بما استجد فقد حدث بعد استقالة الرئيس من رئاسة الحزب القومى أن انتخب دى كلارك مكانه وكان هناك حديث عن مناورات كثيرة بين الاثنين . وأخذت أتدرب على

المحاورات التى قد يأتى بها رئيس الدولة وعلى ردودى عليها . فعند لقاء خصم فعلى المرء أن يتأكد أنه ترك الأثر الذى يبغيه .

وكان بوتا يعرف بالتمساح الكبير وتخيلته نموذجا للأفريكانى المتكبر المتحجر الذى لايناقش الأمور مع قادة افريقيين بل يملى عليهم مايريد .

وفى الخامسة والنصف صباحا حضر مأمور القسم إلى غرف الجلوس حيث وقفت أمامه فى حلتى الجديدة للفحص وسار حولى ثم اعترض على الطريقة التى ربطت بها رباط عنقى حيث قد نسيت كيف أعالجها نظرا لطول إقامتى فى السجن . وقام المأمور بحلها وإعادة ربطها .

وذهبنا بالسيارة الى منزل جنرال ويلمس فى بولسمور حيث قدمت زوجته لنا طعام الافطار ثم ذهبنا إلى المكتب الرسمى لرئيس الجمهورية جيث أوقفوا السيارة فى الجراح تحت الارض لكيلا يرانا أحد وقاموا بتهريبى إلى جناح رئيس الجمهورية وهناك قابلنا كوتس وبارنارد ومجموعة من مسئولى السجون وكان كوتس وبارنارد فى محادثات سابقة قد نصحانى أن أتحاشى القضايا الجدلية مع الرئيس وبينما ننتظر نظر بارنارد إلى أسفل ولاحظ أن ربطة حذائى لم تكن كما يجب فركع على الأرض وقام بربطها وفتح الباب ودخلت وأنا أتوقع الأسوأ .

وفي الاتجاه المقابل في مكتبه الفخم سار بوتا نحوى وكان قد خطط لسيره جيدا حيث التقينا في منتصف الغرفة تماما . ومد إلى يده مبتسما وفي الحقيقة فقد سرني منذ اللحظة الأولى فقد كان مجاملا مبجلا وودودا .

وبسرعة وقفنا لالتقاط صورة لنا نحن الاثنين ونحن نتصافح وبعد ذلك لحق بنا كوتس وويلمس وبارنارد على المائدة المستطيلة وبدأنا الحديث ، وبدونا كما لو كنا في حلقة دراسية ولسنا في مناقشة سياسية مربكة ولم نناقش القضايا الجوهرية بقدر حديثنا عن تاريخ وحضارة جنوب إفريقيا وذكرت أنني قد قرأت مؤخرا مقالا في مجلة أفريكانية عن ثورة الأفريكان عام ١٩١٤ وعن احتلالهم لمدن في الولاية الحرة وذكرت لهم أنني أرى في حركتنا توازيا مع تلك الحركة . وكانت وجه نظرهم أن عصيانهم كان شجارا بين أخوين أما معركتنا فهي ثورية فقلت أنه ممكن النظر اليها على أنها معركة بين أخوين من لونين مختلفين ولم يستمر الاجتماع أكثر من نصف ساعة وكان مليئا بالود واللطف حتى النهاية . وهنا أثرت قضية الافراج عن جميع السجناء السياسيين وكانت تلك هي لحظة الارتباك الوحيدة في الاجتماع وأجاب بوتا أنه لايستطيع أن يفعل ذلك

ثم ناقشنا بإيجاز مايجب قوله إذا تسربت أنباء الاجتماع وقمنا بكتابة بيان موجز قلنا فيه إننا تقابلنا لتناول الشاي في محاولة لنشر السلام في البلاد . وبعد ذلك صافحني بوتا

وشكرته وذهبت بالطريقة التى أتيت بها . وشعرت أنه رغم عدم تقدم المباحثات فلا مجال للعودة للوراء .

وبعد أكثر من شهر بقليل ذهب بوتا إلى التليفزيون القومى ليعلن استقالته من منصب رئيس الجمهورية واتهم فى خطابه الوداعى أعضاء وزارته بأنهم يتيحون الفرص لأعضاء المؤتمر . وفى اليوم التالى حلف دى كلارك اليمين كقائم بأعمال رئيس الجمهورية واكد التزامه بالاصلاح والتغيير .

وبالنسبة لنا فلم يكن دى كلارك يعنى شيئا ولم يكن هناك فى تاريخه مايشير الى روح الاصلاح . وكوزير للتعليم فقد حاول منع الأفارقة من الالتحاق بجامعات البيض . ومن خطاباته وكلماته بعد توليه رئاسة الحزب القومى تبينت أنه ليس شخصا ايديولوجيا بل شخصا براجماتيا ، رجل رأى أن التغيير ضرورى ولا محالة منه .

وفى اليوم الذى حلف فيه اليمين كتبت له خطابا أطلب مقابلته . وكان قد قال فى خطابه الأول أن حكومته ملتزمة بالسلام ومستعدة للتفاوض مع أى مجموعة تلتزم بالسلام . ولكنه برهن على التزامه بنظام جديد حينما نظمت مسيرة بعد تنصيبه للاحتجاج على وحشية الشرطة بقيادة الأسقف توتو والمبجل الآن بوساك وكانت مثل تلك المسيرة لابد وأن تمنع تحت حكم بوتا وكان المشتركون لابد وأن يتحدوا المنع مما كان سيؤدى إلى أعمال عنف . لكن الرئيس الجديد نفذ ماوعد به وسمح للمسيرة أن تحدث فقط طلب من المشتركين أن تظل المسيرة سلمية .

وبعد تولى دى كلارك الرياسة استمرت الاجتماعات بينى وبين اللجنة ولحق بنا جيريت فيلجون وزير التطورات الدستورية وكان رجلا نابها ويحمل الدكتوراه فى الكلاسيكيات وكان دوره أن يؤطر مناقشاتنا فى إطار دستورى .

وأعدت مطلبى بشأن اطلاق سراح المسجونين السياسيين فى بولسمور وجزيرة روبن بدون شروط ذاكرا أن للحكومة أن تتوقع منهم تصرفات نظامية بعد اطلاق سراحهم كما أثبت ذلك جوفان مبيكى وكان قد أطلق سراحه فى نهاية ١٩٨٧ .

وفى اكتوبر ١٩٨٩ أعلن دى كلارك اطلاق ريموند مهلابا وأحمد كاثرادا وأندروا ملانجيين وإلياس موتسوليدى وجيف ماسيمولا وولتن مكوايبى وأوسكار مبيثا . وفى ذلك الصباح زارنى وولتر وكاثرادا وريموند وأندرو وكانت لحظة مشحونة بالعواطف . ولكنى كنت أعرف أن دورى قد أقترب .

وكان الافراج عنهم مقرونا بعدم الحظر أى أنه كان بامكانهم التحدث باسم المؤتمر مما كان يعنى رفع الحظر عن المنظمة نفسها .

وبدأ دى كلارك يهدم قوالب بناء الأبارتايد ففتح شواطىء جنوب افريقيا للمواطنين من جميع الألوان ووعد بالغاء القانون الذى لايسمح بالاختلاط فى الحدائق والمسارح والمطاعم

والحافلات والمكتبات والمراحيض وغيرها من المنشآت العامة وفى نوفمبر أعلن حل ادارة الأمن القومى السرية التى كان قد أنشأها بوتا لمجابهة قوى المعارضة للأبارتايد .

وفى أوائل ديسمبر أبلغت بأننى سأقابل دى كلارك فى الثانى عشر من الشهر وأنه يمكننى فى تلك الأثناء التشاور مع زملائى القدامى والجدد وعقدت إجتماعات معهم ومع قادة المنظمات الأخرى الموالية للمؤتمر ومع رجال المؤتمر من جميع الأقاليم . ومن بين قابلتهم كان سيرل رامفانوسا السكرتير العام للاتحاد القومى لعمال المناجم وأحد أقدر قيادات الجيل الجديد كما زارنى زملاء من جزيرة روبن ومن بين هؤلاء « رعب » ليكوتا وطوكيو سيكسويل .

وبإرشاد عدد من الزملاء كتبت خطابا لدى كلارك يماثل ذلك الذى كتبته لبوتا عن المباحثات بين الحكومة والمؤتمر وذكرت عدم قبولنا اشتراطات مسبقة للمفاوضات وخاصة وقف الكفاح المسلح . وذكرت أن أول خطوة للتوافق هى هدم الأبارتايد وجميع مايدعمه . ثم أضفت أنه لم يتخذ خطوات لدعم الأمل الذى أحياه خطابه الافتتاحى ولكن بدلا من ذلك فإن الحكومة تعقد المحادثات مع القيادات السوداء للمواطن الافريقية ، تلك القيادات الظالمة التى ترفضها جماهير جنوب افريقيا السوداء . ورددت اقتراحى بشأن مرحلتى المحادثات وقلت أننى أؤيد الخطوط التى تبناها المؤتمر فى اعلان هرارى لسنة ١٩٨٩ الذى حمل الحكومة مسئولية إزالة العقبات التى أوجدتها الدولة من طريق المحادثات وأن تلك المطالب تتضمن

الافراج عن المسجونين السياسيين ورفع الحظر عن المنظمات والأشخاص وانهاء حالة الطوارىء ونقل القوات من المناطق الافريقية وقلت أن اتفاقا لوقف اطلاق النار من الجانبين يجب أن يكون أول خطوة فى العمل . وسلم الخطاب الى دى كلارك قبل اجتماعنا بيوم .

ومن البداية لاحظت أن دى كلارك كان ينصت لما أقول . وأكدت فى حديثى معه على خطة الخمس سنوات لحزب القوميين الخاصة بحقوق المجموعات والتى ترتكز حول فكرة عدم أحقية أى مجموعة عرقية فى التفوق على أى مجموعة أخرى .

ورغم تعريف الخطة « لحقوق المجموعات » على أنها وسيلة لحماية حقوق الأقليات فى جنوب إفريقيا الجديدة فإن الهدف الحقيقى منها كان الحفاظ على سيادة البيض . وأخبرت دى كلارك أن ذلك أمر لايقبله المؤتمر وأضفت أن ذلك يعطى انطباعا أنه يريد تحديث الأبارتايد دون التخلى عنه ، وأن النظام الظالم لايمكن اصلاحه ولكن يجب التخلى عنه . وأضفت أن المؤتمر لم يقاوم الأبارتايد لمدة خمس وسبعين عاما لكى يخضع لشكل مستتر منه .

وكانت من مميزات دى كلارك أنه أنصت لما قلت دون أن يناقش ثم قال لى إن هدفه لايختلف عن هدفى وذكر أن مذكرتى إلى بوتا ذكرت أن علينا معالجة مخاوف البيض من سيادة السود وأن قانون حقوق المجموعات هى طريقته

لمعالجة تلك المشكلة . ولكنى قلت إن الفكرة تزيد من مخاوف السود أكثر من ازالتها لمخاوف البيض فرد قائلا ان عليه إذن تغيير القانون .

ثم ناقشت بعد ذلك موضوع حريتى وقلت له إن كان يتوقع أن أذهب الى المراعى بعد الافراج عنى فهو خاطىء ذاكرا أنه إذا تم الافراج عنى تحت نفس الظروف التى دخلت فيها السجن فإننى سأفعل مافعلت وأدى بى إلى السجن .

وقلت له إن أفضل مايمكن عمله هو رفع الحظر عن المؤتمر والمنظمات الأخرى ورفع حالة الطوارىء والافراج عن السجناء والسماح للمنفيين بالعودة فإنه إن لم ترفع الحكومة الحظر عن المؤتمر فإنى سأعمل لمنظمة محظورة بعد الافراج عنى .

ورد قائلا أنه سيتدارس الأمر لكنه لايستطيع الوعد بشىء . وكانت المقابلة استطلاعية حيث كنت أعرف أنه لن يتخذ قرارا ذلك اليوم . وكتبت إلى زملائى فى لوساكا قائلا أن دى كلارك يمثل تغييرا عمن سبقوه فى قيادة الحزب القومى ثم اقتطفت ماقالته تاتشر عن جورباتشوف من أنه رجل يمكن العمل معه .

فى ٢ فبراير ١٩٩٠ وقف دى كلارك ليلقى خطاب الافتتاح

أمام البرلمان وفعل حينئذ ما لم تفعله أى رئيس لجنوب أفريقيا من قبل فقد بدأ فى هدم نظام الأبارتايد ووضع أسس جنوب افريقيا الديمقراطية . فقد أعلن بطريقة درامية رفع الحظر عن المؤتمر والـ P.A.C والحزب الشيوعى الأفريقى وإحدى وثلاثين منظمة أخرى قانونية والافراج عن السجناء السياسيين المحجوزين بسبب نشاطات غير أعمال العنف وتعليق عقوبة الاعدام ورفع كافة التقييدات المفروضة بسبب حالة الطوارىء ثم قال إن الوقت قد حان للتفاوض . وبذلك ، وبخطوة شاملة واحدة طبع دى كلارك الوضع فى جنوب إفريقيا وتغيرت الحياة فى ليلة واحدة .

واستحسن العالم خطوات دى كلارك الجريئة . لكن وسط تلك الأنباء الطيبة احتج المؤتمر على عدم رفع حالة الطوارىء رفعا تاما وعلى عدم سحب القوات من المناطق الافريقية .

وفى يوم ٩ فبراير أبلغت أنى سأقابل دى كلارك ووجدته مبتسما فى مكتبه وتصافحنا وأبلغنى أنه سيفرج عنى فى اليوم التالى . فأجبته قائلا أنه بالرغم من أننى قد أبدو ناكرا للجميل فإننى أفضل أن أبقى فى السجن إسبوعا آخر حتى تستعد أسرتى ومنظمتى لاطلاق سراحى لأن إطلاق سراحى بتلك الطريقة قد ينجم حالة من الفوضى . وأدهشت إجابتى دى كلارك ولكنه استمر فى تفاصيل خطة الافراج عنى وقال إن الحكومة ستنقلنى بالطائرة إلى جوهانسبرج وسيتم الافراج عنى رسميا هناك . ولكنى عارضت ذلك فقد كنت أريد أن أخرج من بوابة سجنى الحالى لأتمكن من شكر هؤلاء

الذين رعونى هناك وأحيي أهل كيب تاون فرغم أننى من جوهانسبرج فقد كانت كيب تاون موطنا لى لما يقرب من ثلاثة عقود وكنت أريد أن أجد طريقى الى جوهانسبرج حينما أريد وليس فى الوقت الذى تريده الحكومة . فقلت له إننى أعرف كيف أرعى نفسى حينما يطلق سراحى مما أصابه بالدهشة مرة أخرى فترك مكتبه للتشاور مع الآخرين وعاد قائلا إن الوقت قد تأخر بالنسبة لتغيير الخطة فرددت مطالبى وكانت لحظة حرجة ولم يتمكن أحد منا وقتها أن يرى المفارقة الناتجة عن طلب السجين عدم الافراج عنه بينما يحاول السجان تنفيذ الافراج . وخرج من الغرفة مرة أخرى وعاد بعد عشر دقائق ليقول أنه بالرغم من إمكانية الافراج عنى من سجنى الحالى فإن عملية الافراج لن تتأجل فقد تم إبلاغ الصحافة الأجنبية بموعد الافراج . وقبلت .

ولم أعد إلى كوخى إلا قبيل منتصف الليل حيث أبلغت زملائى فى كيب تاون نبأ الافراج عنى وبعثت رسالة إلى وينى وتحدثت هاتفيا مع وولتر فى جوهانسبرج وفى ذلك المساء حضر أعضاء ماعرف بلجنة الاستقبال القومية من المؤتمر إلى الكوخ لكتابة البيان الذى سألقيه صباح اليوم التالى وذهبوا فى ساعات الصباح الأولى .

الجزء الحادى عشر

الحرية

- ١٠٠ -

استيقظت يوم إطلاق سراحى بعد نوم استمر سويعات قليلة . وكان يوم ١١ فبراير يوما مشرقا من أيام نهاية الصيف فى كيب تاون . وقمت بعمل تدريباتى الرياضية ، واغتسلت وأفطرت ثم تكلمت بالهاتف مع عدد من أعضاء المؤتمر والجبهة الديمقراطية فى كيب تاون أدعوهم للحضور ليعدوا للافراج عنى ويراجعوا كلمتى . وحضر طبيب السجن لفحصى . وكانت هناك أمور عديدة يجب مناقشتها وتقريرا أمرها فى ذلك الوقت القصير . وكان عدد من أعضاء لجنة الاستقبال من بينهم سيرل رفاموسا وتريفور مانويل قد وصلوا . وكان أول شىء يجب تقريره هو أين أقضى أول ليلة بعد الافراج عنى وكان بودى قضاؤها فى منطقة الملونين والسود فى كيب تاون لاظهار تضامنى معهم ولكن زوجتى وأعضاء اللجنة رأوا أن أقضى الليلة فى منزل الأسقف توتو الفخم فى ضاحية بيضاء غنية لم يكن ليسمح لى بالعيش فيها قبل ذهابى إلى السجن ورأيت أن ذلك قد يكون مؤشرا خاطئا ولكن أعضاء اللجنة قالوا إن المنطقة فى وجود الأسقف أصبحت متعددة الأعراق ورمزا للانفتاح اللاعرقى .

وكان موعد الافراج عنى قد حدد له الساعة الثالثة لكن وولتر وويني وآخرين الذين كان مقررا وصولهم على طائرة مؤجرة من جوهانسبرج لم يصلوا إلى ما بعد الثانية وكان هناك عشرات في المنزل وأخذ الجمع مظهر الاحتفال وأعد الطاهي وجبة نهائية لي وشكرته ليس فقط على الطعام بل على رفقته لي لمدة عامين وحضر حارسى جيمس جريجورى وعانقته بحرارة فقد كان قد رعاني منذ بولسمور وحتى سجنى الحالى ولم يحدث أن تناقشنا قط فى السياسة لكن الرابطة بيننا كانت بلا كلمات .

وكان رجال كهؤلاء قد دعموا ايماني بجوهر الانسان حتى بالنسبة لهؤلاء الذين أبقوني خلف الجدران لسبعة عشرين عاما .

كانت الخطة أن أخرج أنا وويني من البوابة الأمامية بالسيارة وكنت قد أخبرت السلطات أنى أود وداع الحراس والسجانين الذين رعوني وقد طلبت أن يتواجدوا هم وأسرهم عند البوابة لأتمكن من شكرهم بنفسى .

وبعد الثالثة بدقائق اتصل بى مسئول معروف من إذاعة جنوب افريقيا وطلب أن أنزل من السيارة بعيدا عن البوابة كي يمكنهم التقاط فيلم لي وأنا أسير نحو الحرية ووافقت .

وبدأت أقلق فى الثالثة والنصف حيث أننا كنا قد تأخرنا . وقبل الرابعة تحركت السيارات فى موكب صغير وقبيل البوابة بما يقرب من ربع ميل ترجلت ووينى لنسير فى اتجاه البوابة .

وفى البداية لم أتبين ماكان يحدث أمامنا ولكن حين اقتربت رأيت اضطرابا هائلا وجموعا غفيرة . فقد كان هناك مئات المصورين وكاميرات تليفزيونية ورجال صحافة وعدة آلاف من المؤيدين . وتملكنى الذهول والانزعاج فلم أكن أتوقع ذلك .

فقد ظننت أنه سيكون هناك بضع عشرات بما فيهم السجانون وأسرهم . ولكن فقد كانت تلك فقط البداية ولم نكن أعددنا لما كان على وشك أن يحدث .

وأخذت الكاميرات تحدث أصواتها المعدنية وأخذ المراسلون يتصايحون بأسئلتهم كما بدأت فرق التليفزيون فى التزاحم وكان مؤيدى المؤتمر يتصايحون ويهتفون .

كانت حال من الفوضى السعيدة . وحينما دفع الى فريق تليفزيونى بشىء غامق فروى المملس تراجعت قليلا ظنا منى أن ذلك سلاح تم إختراعه أثناء تواجدى فى السجن فأخبرتنى وينى أنه مكبر للصوت .

وحينما توسطت الجمع رفعت قبضتى اليمنى وحدث صخب هائل فلم أكن قد تمكنت من فعل ذلك منذ سبعة وعشرين عاما وأمدنى ذلك بفيض من القوة والبهجة ومكثنا قليلا وسط الجموع قبل أن نسرع إلى سيارتنا مر أخرى لنذهب باتجاه كيب تاون وبعد عبور البوابة ركبنا عربة أخرى خارجها . وشعرت وكنت فى الحادية والسبعين أن حياتى تبدأ من جديد . فقد انتهت الأيام العشرة آلالف لسجنى .

وكانت كيب تاون تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلا إلى الجنوب الشرقى . لكن نظرا للازدحام لكن ما أدهشنى رؤية العديد من الأسر البيضاء تقف على جانب الطريق للقائى قد سمعوا فى الاذاعة أننا قد غيرنا مسارنا ، ورفع قليل منهم قبضاتهم بتحية المؤتمر وأمدنى هؤلاء الشجعان الذين ينتمون لأسر محافظة فى منطقة ريفية والذين عبروا عن تضامنهم باحساس هائل بالشجاعة . وعند نقطة معينة أوقفت السيارة وخرجت وحييت شاكرا أسرة من هؤلاء وأخبرتهم أن مؤازرتهم قد أمدتنى بالالهام . وجعلنى ذلك أرى أن جنوب إفريقيا التى أنا عائد إليها تختلف تماما عن تلك التى تركتها .

وعند حدود المدينة كان بإمكانى رؤية الناس وهم يتدفقون نحو الوسط . فقد نظمت لجنة الاستقبال حشدا فى الميدان الرئيسى وسط كيب تاون وكان مقررا أن أخطب فيهم من شرفة بلدية المدينة التى كانت تطل على كل المنطقة وكنا قد سمعنا ان جموعا غفيرة كانت تنتظر هناك منذ الصباح .

وحينما اقتربنا من الميدان كان بإمكاننا رؤية الحشود الهائلة وكان من المفروض أن يدور السائق حول المبنى ولكن بدلا من ذلك اخترق الجموع وفى الحال اندفعت الحشود وأحاطت بالعربة وحاولنا السير لمدة دقيقة أو اثنتين لكننا اجبرنا على الوقوف بقوة ضغط الأجساد . وبدأ الناس يضغطون على السيارة ثم بدأوا فى انفعالهم يقفزون عليها ثم أخذ البعض يهزونها حتى انتابنى للحظة شعور بالقلق وشعرت

أن من الممكن لحب الناس أن يقتلنا . وحاول البعض إيجاد طريق وإزاحة الجموع عن السيارة لكن لم ينجحوا . ولمدة تربو على الساعة بقينا داخل السيارة حيث سجننا مؤيدونا وكنا قد تجاوزنا منذ فترة ميعاد القاء الخطاب .

وفى النهاية حضر عشرات من رجال الشرطة لانقاذنا ونجحوا أن يخلوا طريقا للسيارة وسار السائق بسرعة كبيرة فى اتجاه مخالف للمبنى وسألته إلى أين نحن ذاهبون فأجاب أنه لايعرف فلم يكن قد خبر شيئا مثل ذلك من قبل .

وحينما هدأنا وصفت له منزل صديقى ومحاميى دولله عمر الذى كان يسكن فى القسم الهندى من المدينة ولحسن الحظ كان متواجدا هو وعائلته وبدل أن يحييونا سألونا بقلق عن سبب عدم تواجدنا فى الميدان الكبير .

ولم يمض علينا هناك دقائق حتى اتصل الأسقف توتو تليفونيا وكان حزينا وقال إن عليَّ أن أحضر الى الميدان فى الحال لأن الناس أصابهم القلق وقال إنه لايضمن مايمكن أن يحدث من إضطرابات إن لم أعد فوعدته بالعودة وبعد جهد أقنعنا السائق بالعودة . ولم يكن الازدحام شديدا عند المدخل الخلفى للمبنى . وصعدت وخرجت الى الشرفة ورأيت جموعا لامتناهية من الجماهير المحتفية المهللة التى كانت ترفع الأعلام والشعارات وتهتف وتصفق وتضحك .

ورفعت قبضتى للجمهور ورددت الجموع بهتاف هائل وتبادلنا الهتافات لافريقيا واشتعلت روح المقاومة داخلى .

وبعد أن هدأت الجموع قرأت خطابى الذى حييت فيه الشعب باسم السلام والديمقراطية والحرية للجميع وذكرت اننى لا أقف بينهم كنبى ولكن كخادم متواضع لهم أضع السنوات الباقية من حياتى بين أيديهم .

كنت أتحدث من القلب وأردت إبلاغ الناس أننى لست مسيحا ولكن رجلا عاديا أصبح قائدا بسبب الظروف غير العادية وأردت فى الحال أن أشكر جميع الناس فى أنحاء العالم الذين ضغطوا من أجل الافراج عنى وشكرت شعب كيب تاون وحييت أوليفر تامبو والمؤتمر وM.K والحزب الشيوعى والجبهة الديمقراطية ومجلس شباب جنوب افريقيا والاتحادات التجارية والحركة الجماهيرية واتحاد طلبة جنوب افريقيا والحركة النسائية وأعلنت عرفانى بالجميل لزوجتى وأسرتى . وقلت لهم أنه لامستقبل للأبارتايد فى جنوب إفريقيا وأن عليهم ألا يتركوا حمل العمل الجماهيرى . ثم أكدت أننى لم يحدث أن تحدثت مع الحكومة بشأن مستقبل البلاد الا لأصر على إجتماع بين المؤتمر والحكومة . ثم أشرت إلى شروطى لبدء المفاوضات الحقة . وأخبرتهم أن دى كلارك اتخذ خطوة أكثر من أى قائد قومى آخر لتطبيع الموقف ثم أضفت أن دى كلارك رجل يلتزم بقوله . وقد أرقتنى هذه العبارة فيما بعد ووجهت بها حينما لم يحافظ دى كلارك على وعده .

وقد كان حيويا لى أن أبرهن للشعب والحكوم أننى لم يفت عضدى ولم تنحن هامتى وأن المعركة لم تنته ولكنها بدأت من

جديد بشكل مختلف وأكدت كوني عضوا وفيا مطيعا للمؤتمر وشجعت الناس على العودة وراء المتاريس وتصعيد المعركة وقلت لهم إننا سنسير الميل الأخير معا .

وعند عودتي شاهدت مئات من الوجوه السوداء تنتظر لتحييني وتعانقت بحرارة من الأسقف توتو فقد كان رجلا ألهم أمة بأكملها بكلماته وشجاعته في ظروف حالكة . وكان في المنزل ينتظرني جمع من الأصدقاء والأهل ، لكن اللحظة الرائعة كانت عندما أخبرت أن هناك مكالمة لي من استوكهولم وكان صوت أوليفر ضعيفا وملأتني الفرحة لسماعه بعد كل تلك السنوات وكان أوليفر في السويد يستشفي بعد جلطة أصابته في أغسطس ١٩٨٩ . واتفقنا على أن نلتقي في أسرع وقت .

وكان المؤتمر قد خطط لعقد مؤتمر صحفي لي عصر اليوم بعد الافراج . والتقيت في الصباح بعدد من زملائي للتباحث بشأن الاستراتيجية . وكان قد وصل تل صغير من برقيات ورسائل التهنئة من أنحاء العالم من رؤساء وزارات لكني أتذكر بالذات برقية من رب منزل في كيب تاون قال فيها : « إني مسرور جدا لأنك الآن حر بين أصدقائك وعائلتك . لكن خطابك أمس كان مملا » .

وبعد ظهر ذلك اليوم كان هناك عدد كبير من الصحفيين من بلاد مختلفة حتى أني لم أكن أعلم مع من أتكلم وسرني أن

ارى نسبة الصحفيين السود . وفى المؤتمر الصحفى عملت على تأكيد كوني عضوا في المؤتمر وكنت أعرف أن قيادات مؤتمر فى الخارج ستشاهد وقائع الافراج عنى وستحاول تقدير ولائي وكنت أيضا أعلم أنهم سمعوا شائعات عن تحولي وعن تنازلات قدمتها ووددت أن أطمئنهم وحينما سئلت عن الدور الذى سأقوم به فى المؤتمر أجبت أننى سأقوم بأى دور تحدده المنظمة وقلت أنه ليس هناك أى تعارض لتأييدى الكفاح المسلح وتمسكى بالمفاوضات فإن الكفاح المسلح هو الذى أتى بالحكومة إلى حافة المفاوضات وحينما سئلت عن العقوبات أجبت أن الظروف التى أوجبت العقوبات مازالت قائمة وهى غياب الحرية السياسية للسود ورغم أنه قد أطلق سراحى فإنى لست حرا .

وسئلت عن مخاوف البيض وكنت أعلم أن الناس يتوقعون أن أكون غاضبا من البيض ولكن سنوات سجنى خففت مدى غضبى على البيض رغم أن كراهيتى للنظام تنامت وكنت أود لجنوب إفريقيا أن ترى أنى أحب حتى أعدائى رغم كراهيتى للنظام . وأردت أيضا أن يفهم الصحفيون أهمية البيض فى اى نظام جديد فلم نكن نود تدمير البلاد قبل أن نحررها وكانت مغادرة البيض تعني خراب البلاد فقلت أن هناك نقط تلاق بين البيض والسود وأن المؤتمر سيوجدها وأن البيض مواطنون جنوب أفارقة وأودهم أن يشعروا بالاطمئنان وأن يعرفوا أننا نقدر مساهمتهم فى تقدم البلاد وأن جنوب افريقيا اللاعرقية ستكون وطنا للجميع .

وبعد المؤتمر تلقيت مكالمة من زوجة الأسقف توتو فى جوهانسبرج قائلة إن على الحضور الى هناك فورا نظرا لأن الناس بدأوا يقلقون وكان الخوف أن تحدث اضطرابات اذا لم أعد فورا . وذهبنا إلى هناك ولكنى أبلغت أن هناك آلوفا تحاصر منزلى فى أورلاندو وقضيت الليلة مع وينى فى منزل أحد الأصدقاء فى شمال جوهانسبرج .

وفى الصباح ذهبنا بطائرة عمودية إلى إستاد البنك الأهلي في سويتو وكان بإمكانى من الطائرة أن أرى الفقر المدقع الذى تعيشه غالبية الجماهير السوداء التى تقطن المنطقة وكانت مظاهر الفقر قد اشتدت عما كانت عليه قبل ذهابى إلى السجن .

وهبطنا وسط الاستاد بالطائرة الذى كان قد ازدحم فيه مايقرب من ١٢٠٫٠٠٠ شخص وخاطبتهم قائلا إننى مبتهج بعودتى إلى سويتو ولكن أيضا يغمرنى الحزن لما يعانونه تحت نظام لا إنسانى من نقص المساكن وأزمة المدارس وبطالة ومعدل مرتفع للجريمة . وأكدت على هدف المؤتمر من إقامة مجتمع لاعرقى .

وعدت تلك الليلة إلى منزلى فى أورلاندو وتحققت أن ماتشوقت إليه دائما وهو الحياة العادية فى منزلى لن يمكن تحقيقه . فإنه فى تلك الليلة ولمدة أسابيع وشهور ظل المنزل محاصرا بمئات المهنئين الذين أخذوا فى الغناء والرقص والتهليل ولم أجد مفرا من مشاركتهم وكان ذلك على حساب أسرتى مرة أخرى .

وكانت مسئوليتى الأولى هى الذهاب إلى قيادة المؤتمر فى لوساكا . وذهبت هناك فى ٢٧ فبراير لحضور اجتماع اللجنة المركزية وكان لقاء رائعا مع رفاق لم أرهم لعقود من الزمن وكان هناك عدد من رؤساء الدول الإفريقية . وتحدثت مع الرئيس موجابى رئيس زيمبابوى وكينث كاوندا رئيس زامبيا وجوسين ادواردو دموس سيمانتوكا رئيس انجولا وكوين ، ماسير رئيس بوتشوانا وچاكيم شسانو رئيس موزمبيق ويويرى موساڤينى رئيس أوغندا . وكانت التساؤلات تبدو فى عيون أعضاء اللجنة عما إذا كان منديللا مازال نفس الشخص الذى عرفوه من قبل . وشرحت لهم بدقة طبيعة محادثاتى مع الحكومة ومطالبى منها والتقدم الذى تم احرازه وقد كنت سمعت عن الوشايات التى نقلها بعض من تم الإفراج عنهم وسعيت إلى دحضها عن طريق المصارحة بكل شىء فعلته . وفى تلك الجلسة تم انتخابى نائبا لرئيس المنظمة بينما انتخب الفريد نزو رئيسا بالنيابة حتى يتم شفاء أوليڤر . وفى مؤتمر صحفى أعلنت أننى أرى أن الوقت لم يحن بعد لتعليق الكفاح المسلح لأننا لم نصل إلى الهدف الذى بدأنا من أجله فإن إسكات مؤيدى دى كلارك اليمينيين ليس مهمة المؤتمر .

وبدأت رحلة فى أفريقيا شملت عدة دول وفى كل مكان ذهبت إليه كنت أقابل بالجماهير المتحمسة التى بلغ عددها نصف مليون فى دار السلام . وفى القاهرة ، وفى اليوم التالى

للقاء خاص مع رئيس الجمهورية ، كان من المقرر أن أخطب في حشد كبير في قاعة محلية . ولما وصلت بدت الجموع تفيض من القاعة ولم تكن هناك احتياطات أمنية كافية فذكرت لرجل الشرطة أنه يجب دعم القوة ولكنه هز كتفيه . وانتظرت وويني في غرفة خلف المبنى وفي الساعة المحددة أشار إلى رجل الشرطة أن أدخل وطلبت منه أن يرافق بقية الوفد أولا خوفا من حدوث جلبه بعد دخولي ولا يتمكنوا هم من اللحاق بي . لكن رجل الشرطة حثني على الدخول أولا ، وفعلا ، وبمجرد دخولي القاعة تزاحمت الجماهير مندفعة إلى الأمام وتغلبت على كوردون الشرطة ، وفي حماسهم دفعوا بي ، واهتز توازني وفقدت فردة حذائي في تلك الفوضى . وبعد أن بدأت الأمور تهدأ وبعد عدة دقائق لم أعثر على حذائي أو على زوجتي . وفي النهاية ، وبعد حوالي نصف ساعة أحضروا ويني معي على المسرح ، وكانت غاضبة لما حدث . ولم أستطع مخاطبة الجمهور لأنهم ظللو يهتفون "مانديللا ، مانديللا" بصخب لدرجة لم يستطع معها أحد سماع صوتي وغادرت المكان في النهاية بدون حذائي وكانت زوجتي صامتة على غير العادة .

وأثناء وجودي في القاهرة عقدت مؤتمرا صحفيا قلت فيه أن المؤتمر على استعداد لدراسة وقف أعمال العنف وكان ذلك مؤشرا للحكومة فقد كان كل من المؤتمر والحكومة يحاولان خلق مناخ لبدء المفاوضات وبينما كان المؤتمر يطلب من الحكومة تطبيع الموقف بإنهاء حالة الطوارئ والافراج

عن المعتقلين وإلغاء قوانين الأبارتايد كانت الحكومة مصرة على أن يعلق المؤتمر الكفاح المسلح وكنا نود أن نمنح دى كلارك فرصة ليواصل استراتيجيته الاصلاحية وكنا نعرف أننا لابد وأن نعلق الكفاح المسلح لتسهيل المفاوضات الجدية ولتمكين دى كلارك من أن يبرهن لناخبيه على نجاح سياسته .

وبعد ذلك ذهبت إلى ستوكهولم لزيارة أوليفر ولم يكن بصحة جيدة . وحين التقينا كنا كصبيين صغيرين يستمدان الحب من أحدهما الآخر . وكان أول شيء قاله لى أوليفر بعد أن انفردنا أنه عليَّ أن أتولى رياسة المؤتمر لأنه كان يحتفظ بها لى . وكان ردى أنه قد تم إنتخابه وعلينا الإنتظار حتى تحين الإنتخابات ولم أحد عن موقفى .

وفى إبريل ١٩٩٠ ذهبت إلى لندن لحضور حفل موسيقى أقيم على شرفي واشترك فيه فنانون دوليون كان معظمهم غير معروف لى وأذيع الحفل بالتليفزيون فى جميع أنحاء العالم وانتهزت الفرصة لشكر القوى المعارضة للأبارتايد فى العالم التى أوجبت العقوبات وطالبت بالافراج عنى وعن زملائى وعلى التأييد والتضامن مع الشعب المقهور فى بلدى .

- ١٠٣ -

حينما خرجت من السجن كان الرئيس مانجستو بوتيليزى زعيم حزب إنكاثا للحرية ورئيس وزراء كوا زولو أحد الشخصيات السياسية على المسرح السياسى لجنوب إفريقيا ولكنه لم يكن يتمتع بشعبية فى دوائر المؤتمر . وقد كان أحد

أحفاد ملك الزولو سيتيوايو الذى كان قد هزم البريطانيين سنة ١٨٧٩ . وكان وهو شاب طالبا فى فورت هير وبعد ذلك التحق بتظيم شباب المؤتمر وكنت أتوسم فيه صفات الشخصية القيادية للمستقبل . وكان قد أصبح رئيسا لوزراء كوازولو بمؤازرة المؤتمر . وحتى حينما أنشأ الانكاثا كمنظمة حضارية للزولو لم يعارضه المؤتمر . ولكن بمرور السنوات تباعد الرئيس بوتيليزى عن المؤتمر . ورغم أنه كان يعارض الأبارتايد بشدة ورفض جعل الكوازولو موطنا مستقلا كما أرادت الحكومة فقد كان شوكة فى جانب الحركة الديموقراطية فقد كان يعارض المقاومة المسلحة وانتقد انتفاضة سويتو عام ١٩٧٦ وقاد حملة ضد العقوبات الدولية وكان يتحدى فكرة جنوب إفريقيا موحدة . ورغم ذلك كان الرئيس بوتيليزى يدعو بانتظام للافراج عنى ورفض التفاوض مع الحكومة حتى يتم الافراج عن المعتقلين السياسيين . وكان أول من تحدثت معهم على الهاتف لأشكره على مساندته طويلة الأجل . وكان رجائى هو أن ألتقى به سريعا لأحسم خلافاتنا . واقترحت تلك المقابلة فى لوساكا لكن لم يتم الموافقة عليها . وحينما كنت فى السجن دعا ملك الزولو جودويل زويليثينى وولتر لزيارة أولندى عاصمة الكوازولو وشجعته على قبول الدعوة ظنا منى أنها مناسبة ممتازة للتأثير فى رئيس إحدى أكثر الأسر المالكة احتراما وأقراها فى البلاد . ووافق المؤتمر مبدئيا على أن يذهب وولتر إلى قصر الملك فى نونجوما لاعتقادهم أن ذهابه إلى أولندى هو اعتراف بسلطة المواطن المستقلة .

وعند عودتى من لوساكا حادثت رئيس الوزراء والملك هاتفيا وقلت أن وولتر يستعد للقاء الملك فى نونجوما وليس فى أولندى ويرد الملك أنه لن يقبل أن يزوره وولتر فى أى مكان آخر سوى العاصمة وأضاف أنه قد دعاه لزيارته فى أولندى وليس من حقه تحديد مكان الزيارة ورددت قائلا أننا نواجه معارضة من أعضاء المنظمة الذين لايرغبون فى ذهاب وولتر إلى كوازولو كلية . ورفض الملك أن يقابل وولتر .

وسأت العلاقات بعد ذلك وفى مايو أقنعت المؤتمر بالحاجة لأن أزور الملك وبوتيليزى ووافق الملك ولكن قبل الزيارة باسبوع تلقيت خطابا منه يقول فيه أن علىَّ أن آتى منفردا وكانت تلك آخر قشة ورفضت اللجنة المركزية . وقلت للملك أننى لا أستطيع القدوم إلا فى رفقة زملائى واعتبرها اهانة وألغى الزيارة . وكان هدفى تكوين علاقة مستقلة لأن الملك كان القائد التقليدى للزولو الذين كانوا يحبونه ويحترمونه وكان الإخلاص للملك فى كوازولو أكثر انتشارا من الولاء لإنكاثا .

وفى تلك الأثناء كانت ناتال قد أصبحت منطقة اقتتال . فقد اعلن مؤيدو انكاثا المسلحون الحرب على معاقل المؤتمر فى منطقة وسط ناتال وحول بيترماريتزبرج وتم احراق قرى بأكملها وقتل العشرات وجرح المئات وأصبح اللاجئون يعدون بالآلاف . وفى ناتال كان الزولو يقتلون زولو آخرين لأن أعضاء المؤتمر هناك من الزولو . وبعد الإفراج عنى بإسبوعين ذهبت إلى دربان وخطبت فى جمع يربو على المائة ألف شخص

كانوا كلهم تقريبا من الزولو وطلبت منهم إلقاء السلاح والتوافق . لكن دعوتي لم تلق استجابة . وأصبحت قلقا لدرجة أنني كنت على استعداد لاتخاذ الخطوات اللازمة لزيارة الرئيس بوتيليزى . وفى مارس وبعد نوبة شديدة من أعمال العنف أعلنت بصفتي الشخصية أنني سوف أزوره في قرية خارج بيترماريتزبرج ولكن قيادة المؤتمر فى ناتال عارضت الزيارة معارضة شديدة ورفضتها .

- ١٠٤ -

وفى مارس وبعد مفاوضات كثيرة مع أحزابنا رتبنا للإجتماع وجها لوجه مع دى كلارك وحكومته لاجراء محادثات بشأن المفاوضات فى اجتماعات تبدأ فى إبريل ولكن فى ٢٦ مارس وفى منطقة إفريقية فى جنوب جوهانسبرج فتحت الشرطة النيران بدون تحذير على متظاهرين من المؤتمر وقتلت اثنى عشر وأصابت المئات الذين جرح معظمهم فى ظهورهم وهم يقومون بالفرار . وبما أن حق التجمع والتظاهر لتأييد مطالبنا العادلة ليس منحة تسبغها علينا الحكومة وقت ماتريد فقد أغضبني ذلك التصرف وقلت للحكومة أن كل شرطى أبيض يرى فى كل شخص أسود هدفا له . وبعد استشارة المؤتمر أعلنت تأجيل المحادثات .

ولكن رغم التأجيل وبموافقة القيادة تقابلت سرا مع دى كلارك فى كيب تاون لدفع عملية إلمحادثاتت وركزنا على تحديد ميعاد آخر ولم تكن الحكومة فى عجلة من أمرها فقد

كانوا يريدون للوقت أن يمر لكى أفشل وأبرهن للناس أن السجين السابق الذى ظنه الناس مخلصا هو إنسان لايعلم شيئا عن الوضع الحالى . أما دى كلارك ، فرغم خطواته التقدمية فهو لم يكن محررا فقد كان يتحرك ببطء . وكان أيضا برجماتيا ليس فى نيته التخلى عن مركزه بل على العكس كان قد اتخذ تلك الخطوات لضمان قوة الأفريكان فى ظروف جديدة ولم يكن مستعدا للتفاوض لانهاء الحكم الابيض .

وكان هدفه خلق نظام لاقتسام القوة مبنى على حقوق المجموعات الذى يحافظ على سلطة الأقلية البيضاء . ورغم أنه كان على استعداد أن يسمح للأغلبية السوداء بالادلاء بالأصوات وبعمل التشريعات لكنه أراد أن يبقى على حق الفيتو للأقلية . وعارضت الخطة منذ البداية ووصفتها بأنها أبارتايد مستتر .

وكانت استراتيجية القوميين للتغلب هى التحالف ضدنا مع انكاثا واجتذاب الملونين الناطقين بالأفركاينية فى الكيب لعضوية حزب قومى جديد وحاولوا نشر الرعب بين الملونين بترويج شائعة عداء المؤتمر للملونين . وأيدوا خطة بوتيليزى للحفاظ على قوة الزولو وهويتهم فى جنوب إفريقيا الجديدة بأن أقنعوه بمبدأ حقوق الجماعات والفيدرالية .

وبدأت الجولة الأولى للمفاوضات فى مايو وكان وفدنا يتكون من وولترسيسولو وجوسلوفو والفريد نزو وثابو مبيكى وأحمد كاثرادا وجو موديسى وروت ممباتى وآرشى جوميد

والمبجل بيرسى نودى وتشريل كارلوس وأنا وعقدت الاجتماعاتت فى قصر قديم بالكيب .

وكانت المحادثات فى حد ذاتها علامة مميزة فى تاريخ بلدنا فلم يكن الاجتماع يمثل فقط ما أراده المؤتمر كل تلك السنوات ولكنه كان يمثل نهاية علاقة السيد بالخادم التي كانت هى علاقة الرجل الأبيض بالأسود فى جنوب إفريقيا . ولم نأت الاجتماعات كمتسولين بل كمواطنين لنا الحق فى مكان متساو على المائدة .

وكان الاجتماع الأول درسا فى تاريخ المؤتمر . أما دى كلارك فقد قال إن نظام التنمية المستقلة كان قد تولد عن نوايا طيبة ولكنه لم ينجح على أرض الواقع . وكانت أول قضية نوقشت هى تعريف المعتقلين والمنفيين السياسيين وكانت الحكومة تريد تعريفا فى حدود ضيقة ولكننا أردنا تعريفا شاملا ينطوى تحته كل من أدين فى تهمة كان دافعها سياسيا وبذلك ينطبق عليه العفو . ولم نتوصل إلى اتفاق . وفى نهاية الأيام الثلاثة توصلنا إلى خطة يتفق على أساسها الطرفان بأن يلتزما بعملية التفاوض السلمى وتلتزم الحكومة برفع حالة الطوارىء وقد نفذت ذلك واستثنى إقليم ناتال نظرا لأعمال العنف السائدة هناك وبخصوص القضايا الدستورية فقد أبلغنا الحكومة أننا نطلب مجلسا منتخبا لصياغة دستور جديد . ولكن قبل انتخاب المجلس رأينا أن تشكل حكومة جديدة انتقالية تشرف على عملية الانتقال حتى تنتخب الحكومة الجديدة وتبنينا فكرة ايجاد مؤتمر تفاوضى من كل

الأحزاب يشكل الحكومة الانتقالية . كما اتفقنا على تكوين فريق عمل مشترك للتغلب على الصعوبات .

- ١٠٥ -

ولم أتمكن من الذهاب إلى قونو بعد الإفراج عنى حتى شهر إبريل . وبعد اتخاذ احتياطات الأمن واعداد الكلمات التى سألقيها ذهبت إلى هناك حيث زرت قبر أمى المتواضع . وحين ذهبت إلى قريتى راعنى مارأيت من التغيير وعدم التغيير . فخلافا عن ما خبرته عندما كنت صغيرا من تقبل الأهل للحياة كما هى وعدم وجود دراية سياسية سمعت أطفال المدارس ينشدون أغنيات عن أوليفر تامبو وM · K وأقلقنى فقر القرويين المدقع ، فقد بدوا أكثر فقرا مما كانوا عليه فى الماضى . كانوا مازالوا يعيشون فى الأكواخ البسيطة ذات الأرضية الترابية حيث لا توجد كهرباء ولا مياه جارية . فحينما كنت صغيرا كانت القرية مرتبة والمياه صافية والعشب اخضر لكن الآن بدت القرية غير نظيفة والمياه ملوثة .

وفى ذلك الشهر زرت جزيرة روبن لاقناع خمسة وعشرين من رجال M.K بأن يقبلوا عفوا من الحكومة ويتركوا الجزيرة . لكنهم قالوا أنهم سيقبلون العفو فقط فى حالة الانتصار فى المعركة الحربية وليس على مائدة المفاوضات وكانت معارضتهم شديدة لأن الحكومة طلبت منهم الاعتراف بجرائمهم قبل العفو . وبعد مناقشات قبلوا عرض الحكومة .

وفى يونيو كان مقررا لى أن أذهب فى جولة فى أوروبا

وأمريكا لمدة ستة أسابيع . وحاول دى كلارك اقناعى بإسكات الدعوة لمد العقوبات لكننى قلت له أننا لن نفعل ذلك حتى ينتهى الأبارتايد وتكون حكومة انتقالية وكنت أعلم أن الاتحاد الأوروبى كان راغبا فى تخفيف العقوبات . وبينما أنا فى فرنسا ألغت الحكومة حالة الطوارئ وسررت رغم علمى أن الخطوة كانت قد اتخذت لتقويض دعوتى لمد العقوبات . وذهبت الى سويسرا وايطاليا وهولندا وانجلترا حيث زرت أوليڤر وزوجته . وكانت أمريكا هى وجهتى بعد ذلك لأننى كنت سأتوقف فى انجلترا مرة أخرى فى طريق عودتى للاجتماع بتاتشر .

وفى نيويورك ازدحم حوالى مليون شخص لمشاهدة موكبنا . وقد اشعرتنى مظاهر التأييد والحماس للمعركة ضد الأبارتايد بالتواضع الجم . وفى اليوم التالى ذهبت الى هارلم وكما قالت زوجتى إن هارلم هى سويتو أمريكا وتحدثت إلى حشد كبير فى استاد يانكى وأخبرتهم أننا جميعا أطفال إفريقيا وذكرت لهم كيف ألهمنى هؤلاء الذين دافعوا عن حقوق السود فى أمريكا . ثم ذهبت إلى ممفيس وبوستون وبعد ذلك إلى واشنطون لالقاء خطاب فى الكونجرس والاجتماع بالرئيس بوش وحديثى أمام الكونجرس ذكرت العقوبات ودعوت الكونجرس إلى عدم تخفيفها لعلمى أن بوش كان يريد ذلك .

وحتى قبل التقائى ببوش كنت قد كونت انطباعا إيجابيا عنه فقد كان أول قائد يحادثنى تليفونيا بعد مغادرتى السجن كما أنى كنت ضمن قائمته القصيرة من زعماء العالم الذى يخبرنى بالقضايا الهامة . وكان أثناء لقائى معه ودودا رغم اختلافنا تماما بشأن قضايا الكفاح المسلح والعقوبات .

ثم ذهبت إلى كندا وأيرلندا وبعد ذلك إلى انجلترا حيث اجتمعت وتاتشر لمدة ثلاث ساعات ولم أستطع أن أتقدم خطوة معها بخصوص العقوبات .

ـ ١٠٦ ـ

وعدت إلى جنوب افريقيا بعد توقف فى أوغندا وكينيا وموزمبيق وطلبت لقاء مع دي كلارك وكانت أعمال العنف فى البلاد قد ساءت وبلغ عدد القتلى سنة ١٩٩٠ ، ١٥٠٠ فردا . وبعد تشاورات مع زملائى قررنا الاسراع بعملية السلام .

وكانت قوات الحكومة قد اعتقلت أربعين من المؤتمر بدعوى أنهم ضمن أعضاء مؤامرة للحزب الشيوعى للاطاحة بالحكومة . ودعاني دى كلارك إلى اجتماع عاجل وقرأ علىَّ من وثائق ادعى أنها صودرت أثناء الغارة . واتصلت بجو سلوفو الذى قال لى أن ماقرأه دى كلارك كان مقتطعا من السياق وأن العملية التى يتحدثون عنها هى عملية قديمة وأن هدف الحكومة هو فصل الحزب الشيوعى عن المؤتمر وابعاد جوسلوفو عن المفاوضات . وعدت إلى دى كلارك وأخبرته أن شرطته قد خدعته وأننا لاننوى التخلى عن الحزب الشيوعى وأن سلوفو سيشارك فى المفاوضات . وفى منتصف يوليو وقبل اجتماع لجنة المؤتمر المركزية عرض على سلوفو ايقاف العمليات العسكرية لتهيئة الجو للمفاوضات ولمنح دى كلارك فرصة ليثبت لناخبيه أن سياسته قد نجحت . وعارضت الأمر في البداية لكنى بعد تفكير رأيت أن علينا أن نأخذ المبادرة وأن تلك هى أفضل وسيلة . وبعد مناقشة المسألة عدة ساعات فى اللجنة المركزية تمت الموافقة عليها .

وفى ٦ أغسطس وقع المؤتمر والحكومة فى بريتوريا ماعرف فيما بعد باسم مذكرة بريتوريا التى اتفقنا فيها على ايقاف العمليات العسكرية ولكننا لم ننه المعركة المسلحة . وحددت المذكرة مواعيد الافراج عن المعتقلين السياسيين واصدار أنواع معينة من العفو واتمام عملية العفو فى مايو ١٩٩١ . ووافقت الحكومة أيضا على اعادة النظر فى قانون الأمن الداخلى

وكانت أكثر العوامل عرقلة هى تصاعد أعمال العنف . وكانت الشرطة وقوات الأمن لاتلقى القبض إلا على القليل من مرتكبى تلك الأعمال وكان سكان المناطق الإفريقية يتهمون الشرطة بمساعدة وإثارة العنف وأصبح من الواضح أن هناك تواطؤا من جانب الشرطة وقوات الأمن .

وقال لى سكان مناطق الافارقة أن الشرطة تقوم بمصادرة الأسلحة من جهة ثم تقوم الانكاثا بالهجوم عليهم بنفس الأسلحة المصادرة . وفى سبتمبر ألقيت خطابا قلت فيه أن هناك يدا خفية ثالثة وراء أعمال العنف تستهدف المؤتمر ومعركة التحرير .

وكنت قد وصلت إلى تلك النتيجة بعد أن خبرت شخصيا حادثين متماثلين . ففى يوليو ١٩٩٠ تلقى المؤتمر معلومات أن ساكنى أحد بيوت الشباب المملوكة للإنكاثا كانوا يخططون لهجمة كبيرة على أعضاء من المؤتمر فى منطقة إفريقية يوم ٢٢ يوليو وقمنا بابلاغ وزير العدل ومدير الشرطة وقائد الشرطة المحلى عن طريق محامينا طالبين اتخاذ الاجراءات

وطلبنا من الشرطة أن تمنع اعضاء الانكاثا من دخول المنطقة لحضور تجمع لهم . وفى ٢٢ يوليو دخلت المنطقة حافلات محملة برجال الانكاثا المسلحين ترافقهم عربات شرطة فى وضح النهار . وبعد التجمع ذهب الرجال المسلحون فى حالة هرج وقتلوا مايقرب من ثلاثين شخصا فى هجوم رهيب وقد قمت بزيارة المنطقة فى اليوم التالى ورأيت مناظر لم أرها من قبل ولا أتمنى أن أراها بعد ذلك فقد رأيت جثثا قطعت إربا حتى مات أصحابها وكانت هناك امرأة قد قطع ثدياها بمدية .

وطلبت لقاء مع دى كلارك فى اليوم التالى وسألته غاضبا إيضاحا . ولم يجب ولم يقدم تفسيرا .

وكان الحادث الثانى مماثلا إلا أنه بالاضافة إلى القتل قام الإنكاثا بطرد أفراد المؤتمر من معسكر مقام على قطعة أرض فى احدى مناطق الزولو واحتلوا أكواخهم واستولوا على ممتلكاتهم وقرر سكان المنطقة أن قوات الشرطة كانت ترافق الانكاثا .

وفى خلال تلك الفترة قامت الحكومة بفعل أشعل الوضع فقد أقرت حمل الزولو لما يسمى بأسلحتهم التقليدية وهى عبارة عن الرماح والعصى ذات الرؤوس الغليظة التى كانوا يقتلون بها رجال المؤتمر .

وقد استفاد من تيارات العنف تلك هؤلاء الذين كانوا يعارضون التفاوضات وعملوا على إشعال حرب بين المؤتمر والانكاثا . وعمد رجال الحكومة ومن بينهم دى كلارك إلى تجاهل الوضع ولم يكن هناك شك أن مسئولى الشرطة على أعلى مستوى كانوا يساعدون تلك القوة الثالثة وتأكدت

الشكوك حينما ظهرت تقارير صحفية كشفت أن شرطة جنوب إفريقيا كانت تمد الإنكاثا بالدعم المادى .

وتصاعد العنف . وبدأت أراجع قرار تعليق الكفاح المسلح . وتململ الكثيرون من أعضاء المؤتمر .

- ١٠٧ -

وفى ديسمبر ١٩٩٠ عاد أوليڤر إلى جنوب إفريقيا بعد ثلاثة عقود فى المنفى . وذهب لحضور اجتماع استشارى للمؤتمر فى جوهانسبرج حضره أكثر من ألف وخمسمائة مندوب من جميع المناطق فى الداخل والخارج .

وتكلمت مادحا أوليڤر رجلا قاد المؤتمر إبان ساعاته الحالكة ولم يترك الشعلة تخبو وقادنا إلى مستقبل يبدو مضيئا ومليئا بالأمل . وكان هو الذى أنقذ المؤتمر خلال الأعوام السبعة والعشرين التى قضيتها فى السجن ، وانشأ منظمة دولية ذات قوة وتأثير فقد كان جنديا وديبلوماسيا ورجل دولة .

واحدث خطاب أوليڤر عاصفة فقد دعا إلى إعادة تقييم العقوبات وقال إن المؤتمر يواجه تهديدا بالتهميش الدولى إذا لم يأخذ المبادرة لتخفيف العقوبات وأن منظمة الوحدة الأوروبية قد بدأت فعلا فى تخفيف العقوبات وأن دول الغرب خاصة بريطانيا وأمريكا تريد مكافأة دى كلارك على إصلاحاته . ورغم أننا شعرنا بخطأ تلك الاستراتيجية فقد كان علينا الاعتراف بالواقع الدولى .

ورغم أن خطاب أوليڤر نوقش ووفق عليه من قبل المؤتمر إلا أن اقتراحه قوبل بالغضب من مناضلى المؤتمر الذى اصروا

على تبقى العقوبات كما هى . واتهمنى هؤلاء واتهموا المفاوضين بعدم التلاحم مع القاعدة وبأننا نقضى وقتا مع قادة الحزب القومى أطول من ذاك الذى نقضيه مع شعبنا. كما وجه إلى النقد فى الإجتماع للدخول فى دبلوماسية شخصية وعدم إبلاغى جميع الأعضاء بما يحدث . وتقبلت ذلك النقد مبديا موافقتي عليه ولكنى كنت أعلم حساسية المحادثات وأن أى اتصالات نصل إليها تعتمد جزئيا على سريتها . لكنى عرفت أن علىّ إن أخبر عددا أكبر من الأشخاص بما يحدث .

وكانت الصحف تمتلىء كل يوم بتقارير جديدة عن أعمال العنف الدموية فى مناطق الأفارقة . وفى أماكن عدة جعل خليط من الجريمة والتنافس السياسى ووحشية الشرطة وفرق الموت الحياة قاسية لاتحتمل .

ولمواجهة ذلك اتصلت بالرئيس بوتيليزى والتقينا فى دربان فى يناير وتحدث بوتيليزى الى المندوبين المجتمعين وإلى الصحافة وفتح جروحا قديمة وذكر قائمة بالهجوم اللفظى للمؤتمر عليه وانتقد مطالب المؤتمر فى المفاوضات . وحينما تكلمت شكرته على مجهوداته طوال السنين للافراج عنى وذكرت أمورا توحد منظماتنا بدلا من أن تفرقها .

وحدث تقدم أثناء محادثاتنا الفردية ووقعنا إتفاق قواعد للسلوك لكل من المنظمتين وكان اتفاقا عادلا كان من الممكن أن يوقف نزيف الدم لو نفذ . ولكن انكاثا لم تحاول تنفيذ الاتفاق . واستمر العنف بين المنظمتين ولم تفعل الحكومة شيئا للقبض على المعتدين . والتقيت مرة أخرى فى أبريل ببوتيليزى وأصدرنا بيانات ووقعنا اتفاقية أخرى أغرقت هى

الأخرى في الدماء . وكنت مقتنعا أن الحكومة وراء كثير من أعمال العنف .

وفى إبريل وفى اجتماع اللجنة المركزية الذى استمر يومين ناقشت شكوكى بشأن دى كلارك . وفى خطاب مفتوح الى الحكومة دعونا الى فصل ماجناس مالان وزير الدفاع وأدريان ثلوك وزير العدل والنظام وإلى منع حمل الأسلحة التقليدية وغير ذلك من الاقتراحات بما فيها تكوين لجنة مستقلة لبحث شكاوى سوء التصرف لقوات الأمن . وأعطينا الحكومة مهلة إلى مايو لإجابة مطالبنا ورد دى كلارك بالدعوة إلى مؤتمر لجميع الأحزاب يعقد فى مايو لمناقشة العنف ولكننى رددت بأن ذلك عديم الجدوى لأن الحكومة تعرف تماما ما عليها فعله لانهاء العنف . وفى مايو أعلنا تعليق المحادثات مع الحكومة .

وفى يوليو ١٩٩١ عقد حزب المؤتمر مؤتمره السنوى داخل جنوب إفريقيا لأول مرة منذ ثلاثين عاما . وحضر المؤتمر ٢٢٤٤ مندوبا لهم حق التصويت تم انتخابهم بطريقة ديموقراطية فى أفرع المؤتمر فى الداخل والخارج وتم انتخابى رئيسا للمؤتمر وانتخب سيرل رامفوسا سكرتيرا عاما وكان ذلك دليلا على أن الشعلة بدأ تمريرها الى القيادات الشابة .

وفى خطابى ذكرت أن النقطة التى يجب فهمها بوضوح هى أن المعركة لم تنته وأن المفاوضات نفسها مسرح للمعركة .

وكان لابد أن نبدأ المفاوضات فلم يكن فى مصلحتنا تمديد عذاب الأبارتايد فقلت إن من الضرورى تكوين حكومة انتقالية فى أسرع وقت

وفى المؤتمر تم تحديد أكثر المهام أهمية وصعوبة وهى تحويل حركة التحرير السرية غير القانونية الى حزب سياسى جماهيرى . وكان علينا إعادة هيكلة منظمة بكاملها من أصغر فرع محلى إلى اللجنة القومية المركزية فى خلال شهور .

وعاد جزء كبير من قيادات المؤتمر والحزب الشيوعى من المنفى لحضور المؤتمر ولم يكونوا يعرفون جنوب إفريقيا الجديدة فقد كانت أرضا تم إكتشافها حديثا بالنسبة لى ولهم وكان هناك حصاد من القيادات الشابة من الجبهة الديموقراطية والاتحادات التجاربة الذين بقوا داخل البلاد وكانوا على إلمام بالوضع السياسى بطريقة لانعرفها نحن . وكانت تلك المنظمات بديلة للمؤتمر فى الثمانينيات وكان على المؤتمر دمج هؤلاء النساء والرجال فى المنظمة .

وكانت هناك المشاكل الفلسفية أيضا فإنه بالامكان توحيد الحركة أثناء حرب مع العدو المشترك لكن إيجاد سياسة على مائدة المفاوضات أمر مختلف فإنه كان علينا ليس فقط أن ندمج مجموعات عديدة فى المؤتمر ولكن أيضا آراء مختلفة . وخلال السبعة عشر شهرا الأولى من النشاط القانونى أمكن للمؤتمر ضم ٧٠٠,٠٠٠ عضو وكان ذلك عددا لا بأس به ، لكن نسبة الأعضاء من المناطق الريفية ، تلك المناطق التى ظل المؤتمر فيها ضعيفا ، كانت قليلة ، وفى نفس الوقت فتح حزب القوميين أبوابه لغير البيض محاولا استقطاب الهنود والملونين .

ومنذ الإفراج عنى استمرت حملة الدولة لتشويه سمعة

زوجتى . فبَعد حادث اختطاف الشباب الأربعة المزعوم ووفاة أحدهم تم تشويه سمعتها بحملة شائعات وبعد ذلك وجهت إليها أربع اتهامات خطف وتهمة اعتداء . وبلغ التشهير بها درجة أصبحنا معه ننتظر يوم محاكمتها لتظهر براءتها .

وبدأت محاكمة زوجتى فى فبراير فى محكمة راند العليا فى جوهانسبرج وقد حضرت المحاكمة فى يومها الأول وكذلك حضرها عدد من كبار أعضاء المؤتمر وتوالى حضورى كلما استطعت وفعلت ذلك لمؤازرتها لإظهار إيمانى ببراءتها . وتولى جورج بيزوس الدفاع عنها باقتدار . وحاول إثبات أن وينى لم تتورط فى عملية الخطف أو الضرب . وبعد ثلاثة أشهر ونصف حكم القاضى بإدانتها فى اتهامات الخطف وتحريضها على الاعتداء وحكم عليها بالسجن ست سنوات لكن أفرج عنها بكفالة انتظارا لاستئنافها . أما فيما يخصنى فلم تكن براءتها أبدا موضع شك .

- ١٠٨ -

وفى ديسمبر ١٩٩١ بدأت المفاوضات الحقيقية فى جوهانسبرج فى مركز التجارة الدولى وعقد "المؤتمر من أجل جنوب إفريقيا ديموقراطية" وسمى CODESA ، أول اجتماع للمفاوضات الرسمية بين حزب المؤتمر وأحزاب جنوب إفريقية أخرى والحكومة وكان الاجتماع يضم ثمانية عشر وفدا تمثل جميع الاتجاهات السياسية فى جنوب إفريقيا بالاضافة الى مراقبين من الأمم المتحدة والكومنولث والمجموعة الأوروبية ومنظمة الوحدة الأفريقية . وكان غالبية الممثلين من السود .

وكان وفد الاعداد برئاسة سيريل رامافوسا وعضوية چوسلوڤو وڤالى موسى قد عقد اجتماعات إسبوعية مع الحكومة حول قضايا الانتخابات والدستور والمجلس التأسيسى والحكومة الانتقالية . وكانت وفود عشرين حزبا مختلفا بما فيهم حكومات المواطن قد اتفقوا على أسس المؤتمر .

وقاطعت الـ P.A.C الإجتماعات متهمة حزب القوميين والمؤتمر بالتآمر لاقامة حكومة متعددة الأعراق كما قاطع الرئيس بوتيليزى المحادثات بحجة أنه لم يسمح له بإرسال ثلاثة وفود .

ولم يسد المركز التجارى الدولى احساس بالتاريخ فقط بل أيضا إحساس بالاعتماد على الذات . فخلافا لمفاوضات فى دول إفريقية أخرى استلزمت وجود وسطاء خارجيين كنا فى جنوب إفريقيا نسوى تلافاتنا بأنفسنا . وتحدث دى كلارك عن الحاجة إلى حكومة إنتقالية تتقاسم فيها السلطة على أساس ديموقراطى .

وفى ملاحظاتى الافتتاحية ذكرت أنه مع فجر CODESA فإن التقدم فى جنوب إفريقيا أصبح لا رجعة فيه فقد اجتمعنا لايجاد سلطة شرعية وأضفت أن CODESA علامة على بداية الطريق إلى مجلس منتخب يكتب دستورا جديدا . وأننى لا أرى سببا للوحدة الوطنية للإشراف على الانتخابات ولمراقبة وسائل الاعلام والجيش ولتشرف على الإنتقال إلى جنوب إفريقيا جديدة ديموقراطية لاعرقية .

وفى اليوم الأول تم الاتفاق على إعلان نوايا تلتزم فيه جميع الأطراف بتأييد جنوب إفريقيا غير مقسمة قانونها الأعلى دستور يضمن سلامته نظام قضائى مستقل . وأن يضمن النظام القانونى للبلاد المساواة أمام القانون وأن يوضع ميثاق لحماية الحقوق والحريات المدنية . والخلاصة أن تكون هناك ديموقراطية تعددية .

وأوجد المؤتمر خمسة فرق عمل تجتمع فى أوائل ١٩٩٢ لتمهيد الطريق لجولة أخرى من CODESA فى مايو ١٩٩٢ . وكان على المجموعات بحث مسألة خلق مناخ حرية سياسية ، ومستقبل المواطن ، وبحث مبادىء دستورية مختلفة كالفيدرالية وإعادة تشكيل هيئة إذاعة جنوب إفريقيا وتشكيل حكومة إنتقالية ووافقت الأحزاب على أن تتخذ القرارات بناء على الإجماع الكافى .

وكان دى كلارك قد طلب منى أن تكون له الكلمة الختامية التى كان من المفروض أن ألقيها أنا فى نهاية اليوم وأقنعت اللجنة المركزية بذلك رغم معارضتها . وفى كلمته بدأ دى كلارك الهجوم على حزب المؤتمر لعدم محافظته على الاتفاقات التى عقدها مع الحكومة ووبخه على عدم الكشف عن مخابىء الأسلحة وعلى الابقاء على جيش خاص وعلى الـ M.K وبلهجة شديدة أبدى تشككه فيما إذا كان لدى المؤتمر من الشرف ما يجعله يلتزم بأى اتفاق يوقعه .

وقررت ألا تكون كلمته هى الأخيرة . فسرت إلى المنصة وفى صوت نم عن غضبى قلت إننى منزعج من تصرف دى كلارك فإنه لم يكن أمينا فى هجومه . فحتى رئيس لنظام

سيىء السمعة وغير شرعى كنظامه لابد وأن يلتزم بمعايير أخلاقية . فإن رجلا يأتى إلى اجتماع من هذا النوع ويمارس تلك الألاعيب السياسية لايود أن يتعامل معه إلا القليلين جدا . وأضفت أن أعضاء الحكومة أقنعونا أن تكون لهم الكلمة الختامية واتضح الآن لماذا أرادوا ذلك فقد أساء دى كلارك استعمال مركزه لأنه كان يأمل ألا أجيب ولكنه أخطأ . ثم مضيت أعدد خرق الحكومة جميع الاتفاقيات كما سبق ذكره . وأضفت أننى قد أخبرته أننا سنسلم أسلحتنا فقط حينما نصبح جزءا من الحكومة التى تتولى جمع تلك الأسلحة . وأضفت أن للحكومة جدولين مختلفين للأعمال فهى لا تستعمل المفاوضات لاقرار السلام ولكن لتحقيق أهدافها السياسية التافهة فقد كانت أثناء المحادثات تمول منظمات ارتكبت أعمال عنف ضدنا وذكرت ماكان قد تكشف حديثا عن دفع مليون راند لانكاثا الأمر الذى ادعى دى كلارك أنه لايعرف شيئا عنه وإن كان ذلك صحيحا فإنه غير أهل ليكون فى منصبه . واختتمت قائلا أننى على استعداد للعمل معه رغم أخطائه . وفى الجلسة النهائية فى اليوم حاول كلانا التظاهر أن ماحدث ليس شيئا لايمكن تقويمه وتصافحنا فى بداية الجلسة لكن كثيرا من الثقة كانت قد فقدت وسادت المحادثات حالة من الفوضى .

وبعد أسابيع من افتتاح CODESA خسر القوميون مقعدا فى دائرة محافظة كانت تعتبر إحدى معاقلهم لصالح حزب المحافظين الذى كان يعارض سياسة التفاوض مع المؤتمر . وبدت نتيجة الانتخابات وكأنها تلقى بظلال الشك على سياسة دى كلارك الاصلاحية والتفاوضية .

وقرر دى كلارك أن يغامر فأعلن أنه سيدعو إلى استفتاء يوم ١٧ مارس لكل البيض فى أنحاء الأمة للتصويت على سياسته وقرر أنه إذا هزم فسيستقيل من منصبه . وفى نهاية الحملة صوت ٦٩٪ من البيض لصالح المفاوضات . ومع شعوره بقوة مركزه تشدد الحزب القومى فى مركزه التفاوضى .

- ١٠٩ -

فى ١٣ إبريل وفى مؤتمر صحفى جلس فيه أوليفر ووولتر إلى جانبى أعلنت انفصالى عن زوجتى فقد أصبح الموقف من الصعوبة لدرجة أننى شعرت أنه لمصلحة كل الأطراف : المؤتمر ووينى والأسرة أن نفترق . ورغم أننى ناقشت الموضوع مع المؤتمر فقد كان الانفصال لاسباب شخصية . وبعد أن استعرضت فى بيانى تاريخ علاقتنا والتضحيات التى تحملها وشجاعتها وإخلاصها أضفت أنه نظرا للتوترات التى نشأت فى علاقتنا فى الشهور الأخيرة بشأن خلافنا على عدد من القضايا فقد اتفقنا على الانفصال وأن خطوتى تلك لم يدفعنى إليها الاتهامات ضدها فى وسائل الإعلام لأنها كانت ومازالت تثق فى تأييدى الذى لم يتزعزع خلال تلك اللحظات الصعبة فى حياتها .

وأضفت أننى ربما كنت قد عميت عن أشياء بعينها بسبب الألم الذى كنت أشعر به لعدم قدرتى على القيام بدور الزوج والأب . ولكنى مقتنع أن حياة زوجتى أثناء وجودى فى السجن كانت أصعب من حياتى وكانت عودتى أكثر صعوبة بالنسبة لها . فقد تزوجت رجلا سرعان ماتركها وصار ذلك الرجل إسطورة وعند عودة الاسطورة إلى المنزل ظهر أنه مجرد رجل .

وفى مايو ١٩٩٢ عقد المجلس المتعدد الأطراف دورته الثانية فى المركز التجارى الدولى وكان قد تم الاعداد لـ CODESA عن طريق اجتماعات سرية بين المتفاوضين .

وكانت الحكومة قد تعرضت لفضحيتين قبل يومين من بداية CODESA وكانت الأولى تتضمن كشف فساد هائلا ورشوة فى مصلحة مساعدة التنمية المسئولة عن تحسين حياة السود في المواطن والثانية كانت تخص تورط مسئولي أمن كبار فى مقتل أربعة من مناضلى الجبهة الديموقراطية المتحدة عام ١٩٨٥ وأشهرهم مايثوجونيوى هذا بالاضافة عن دلائل تورط الشرطة فى أعمال القتل فى ناتال والشكوك حول قيام المخابرات العسكرية بتدبير عمليات سرية ضد المؤتمر وبينما قوضت هاتين الفضيحتين مصداقية الحكومة فانهما أدتا إلى تقوية مركزنا .

وبعد مناورات مع الحكومة توصلت فرق الحكومة والمؤتمر الى اتفاق مبدئى يتعلق بفترة إنتقال من مرحلتين تقود إلى جنوب إفريقيا ديموقراطية تماما .

وفى المرحلة الأولى يعين مجلس تنفيذى متعدد الأحزاب من قبل CODESA تكون وظيفته إنشاء حكومة مؤقتة ليمهد المجال لجميع الأحزاب ويأتى بدستور انتقالى . وفى المرحلة الثانية تجرى انتخابات لمجلس تأسيسى وتشريعى حيث تشترك جميع الأحزاب التى تحصل على ٥٪ من الأصوات فأكثر فى مجلس للوزراء ويتم انتخاب نصف المجلس على

أساس قومى ونصفه الآخر على أساس إقليمى ويعطى المجلس سلطة صياغة دستور جديد وإجازة التشريعات .

وكانت هناك نقاط خلاف عديدة بين المؤتمر والحكومة واعاقت تلك النقاط CODESA وفى نهاية اليوم الأول وصل الاجتماع الى طريق مسدود وشهد اليوم الثانى نفس النهاية رغم المحاولات وكان ذلك فى رأيى لعدم رغبة حزب القوميين أن يخضعوا قدرهم لارادة الأغلبية .

وفى النهاية انهار ، CODESA بسبب أربع نقاط رئيسية وهى اصرار الحكومة على نسبة كبيرة غير مقبولة من الأصوات فى المجلس للموافقة على الدستور ، ووجود قوى إقليمية راسخة ملزمة فى الدستور ، وقيام مجلس شيوخ غير ديموقراطى وغير منتخب يتمتع بقوة الفيتو على تشريعات المجلس الأساسى ، والتصميم على جعل الدستور الانتقالى دستورا دائما .

ورغم ذلك وافقت الحكومة والمؤتمر على مواصلة المحادثات الثنائية لكن أمورا تدخلت لجعل ذلك مستحيلا .

وبتوقف المحادثات اتفق المؤتمر وحلفاؤه على عمل جماهيرى يبرهن للحكومة مدى مؤازرة الجماهير لنا وعلى أن شعب جنوب افريقيا غير مستعد للانتظار إلى الأبد ليحصل على حريته . وكانت تلك الأعمال تتكون من اضرابات مظاهرات ومقاطعات . واختير يوم ٢٦ يونيو ١٩٩٢ لبدء الأعمال الجماهيرية ، وهو يوم ذكرى ثورة سويتو وتقرر أن

تصل الحملة ذروتها باضراب عام يومى ٣ ، ٤ أغسطس .

ولكن وقعت حادثة قبل ذلك سببت شقاقا أكبر بين الحكومة والمؤتمر ففى ليلة ١٧ يونيو ١٩٩٢ أغارت قوة مسلحة من الإنكاتا سرا على منطقة للأفارقة من المؤتمر وقتلت ٤٦ شخصا معظمهم من الأطفال والنساء ولم تفعل الحكومة شيئا لمنع الجريمة أو للقبض على مرتكبيها . ووجدت أن تلك هى القشة الأخيرة .

وتحدثت الى جمهور من عشرين ألفا من مؤيدى المؤتمر الغاضبين بعد الجريمة بأربعة أيام وقلت لهم أننى أصدرت الأوامر إلى سيريل رامافوسا السكرتير العام للمؤتمر بايقاف أى تعاملات مع الحكومة وأعلنت عن اجتماع عاجل للجنة التنفيذية وحذرت دى كلارك أنه إن حاول فرض إجراءات جديدة لتقييد المظاهرات أو التعبير الحر فإن المؤتمر سيبدأ حملة تحد على مستوى الأمة اكون أنا فيها أول المتطوعين .

وكانت اللافتات التى حملها المتجمهرون تنادى باستعمال السلاح والتخلى عن المحادثات وتفهمت عواطف الجماهير التى كانت تريد إسقاط الأبارتايد وكانت قد سئمت المفاوضات . وكان العمل الجماهيرى فى تلك اللحظة طريقا وسطا بين المفاوضات والكفاح المسلح .

وأبلغنا الحكومة أننا قد أوقفنا المحادثات وأرسلنا إلى دى كلارك مذكرة بأسبابنا وبالاضافة إلى طلبنا حل القضايا الدستورية التى أعاقت CODESA طالبنا بتتبع المسئولين

عن العنف ومحاكمتهم . ورد دى كلارك بطلب اجتماع معى فرفضت .

وبلغت الحملة الجماهيرية ذروتها يوم ٣ ، ٤ أغسطس بالاضراب مساندة لمطالب المؤتمر فى المفاوضات واحتجاجا على أعمال العنف التى تساندها الدولة وامتنع أربعة ملايين عامل عن الذهاب إلى أعمالهم وكان ذلك أكبر اضراب فى تاريخ جنوب إفريقيا ثم نظمنا مسيرة من مائة ألف فرد إلى مقر الحكومة فى بريتوريا حيث عقدنا تجمعا هائلا خارج المبنى قلت فيه للجماهير أننا سنحتل يوما تلك المبانى كأول حكومة ديموقراطية منتخبة فى تاريخ جنوب إفريقيا .

وهدد دى كلارك باتخاذ خطوات مضادة فحذرته أن أى عمل غير ديموقراطى سيكون له عواقب خطيرة . واضفت أنه بسبب مثل تلك التهديدات يجب إقامة حكومة انتقالية .

وبعد حدوث مذبحة أخرى فى بيشو بين المتظاهرين من أنصار المؤتمر من قبل رجال حكومة إجدى البانتوستانات اجتمعت ودى كلارك لمحاولة ايجاد أرضيه مشتركة لتحاشى تكرار مثل تلك المأساة .

وبدأ المتفاوضون فى الاجتماع بانتظام . وفى ٢٦ سبتمبر جتمعت أنا ودى كلارك فى قمة رسمية وفى ذلك اليوم وقعنا تفاقا كان بمثابة قالب لكل المفاوضات التى تلته واتفقنا على ـاطالب به المؤتمر لمنع أعمال العنف ولكن الأهمية الحقيقية تلك الاتفاقية هى أنها فتحت الطريق المسدود الذى وصلت إليه CODESA ووافقت الحكومة على مطالبنا الدستورية ولم

يبق سوى تحديد يوم الانتخابات للمجلس التأسيسي ونسبه الأغلبيات اللازمة لاتخاذ قراراته . وقد حفزت الاتفاقية الانكاثا على الانسحاب من المفاوضات وقطع الرئيس بوتيليزى علاقته بالقوميين وكون تحالفا مع مجموعة من قادة البانتوستانات المشبوهين ومع أحزاب يمينيه بيضاء كان هدفه إقامة مواطن للأفريكان .

وتقدم چوسلوڤو بمبادرة لتكوين حكومة وحدة وطنية . وكان قد نشر بحثا فى إكتوبر قال فيه إن المفاوضات مع الحكومة ليست مفاوضات وقف قتال نملي فيه شروطنا على عدو تم قهره . فإن المؤتمر قد يحتاج إلى سنوات للامساك بجميع نواصى امور الحكومة فى جنوب إفريقيا حتى بعد اجراء انتخابات وأن حكومة من المؤتمر ستحتاج كثيرا من الموظفين المدنيين الحاليين لتسيير أمور البلاد . واقترح جو إضافة فقرة تسمح بإقامة حكومة وحدة وطنية تتضمن تقاسم السلطة مع حزب القوميين لفترة ينص عليها ، مع عفو عام عن ضباط الأمن واحترام لعقود الموظفين المدنيين . وكان تعبير تقاسم السلطة فى ذلك السياق يعنى فقط أن القوميين سيشاركون فى أى حكومة منتخبه طالما حصلوا على أصوات كافية .

وبعد مناقشات عديدة أيدت اقتراح چو ووافقت عليه اللجنة المركزية فى ١٨ نوفمبر على شرط عدم السماح بالڤيتو لأحزاب الأقلية . وبدأنا محادثات ثنائية مدتها خمسة أيام وكانت حرجة لأنها سارت على الأسس التى أقرتها الاتفاقية المبدئية . واتفقنا مبدئيا على حكومة وحدة وطنية مدتها خمس سنوات تشترك فيها كل الأحزاب التى تحصل على أكثر من

خمسة فى المائة من الأصوات بنسبة تمثيل فى مجلس الوزراء . وبعد السنوات الخمس تصبح الحكومة حكومة أغلبية عادية . وفى فبراير أعلن المؤتمر والحكومة اتفاقهما على مبدأ حكومة الوحدة الوطنية لخمس سنوات وعلى مجلس وزراء متعدد الأحزاب وعلى إيجاد مجلسى تنفيذى انتقالى واجراء الانتخابات بنهاية ١٩٩٣ .

- ١١١ -

وكنت قد قررت بناء منزل لى فى قونو وتم البناء فى فبراير ١٩٩٣ وذهبت هناك فى إبريل لاجازة قصيرة . وفى صباح ١٠ ابريل تلقيت مكالمة هاتفية عاجلة وعلمت أن كريس هانى أحد أعضاء M.K السابقين البارزين وأحد أعضاء المؤتمر ذوى الشعبية الكبيرة قد توفى إثر إطلاق الرصاص عليه فى جوهانسبرج وكان موته لطمة لى وللمؤتمر فقد كان جنديا للمهام الصعبة وكان بطلا لشباب جنوب إفريقيا يتحدث لغتهم وينصتون إليه . وكان هناك خوف من ثورة شباب انتقامية فأسرعت أولا بالذهاب لتعزية والده فى ترانسكى وعند عودتى علمت أن الشرطة قد ألقت القبض على أفريكانى من المهاجرين البولنديين بعد أن أبلغت امرأة افريكانية شجاعة عن رقم سيارته . وكان المقصود من الاغتيال تعطيل المحادثات وحاول المؤتمر تهدئة الموقف فطلب منى أن أتحدث إلى الأمة . وفى حديثى ذكرت أن القاتل رجل أبيض ملىء بالكراهية جاء إلى بلادنا وارتكب عملا قبيحا شريرا وأن إمرأة بيضاء جازفت بحياتها ليلقى القاتل جزاءه وأن الوقت قد حان لجميع مواطنى جنوب إفريقيا أن يتحدوا لتحقيق مابذل

كريس هانى حياته من أجله وهو الحرية لنا جميعا .

وكان اغتيال كريس محاولة من جماعات سيادة البيض لوقف ما لا مفر من حدوثه فقد كانوا يفضلون أن تعانى البلاد حربا أهلية من أن تحكم الأغلبية عن طريق الوسائل السلمية . ولنمنع أنفجار أعمال العنف نظم المؤتمر تجمعات وتظاهرات فى كل أنحاء البلاد ليعبر من خلالها الناس عن احباطاتهم . وعلمنا بعد أيام أن أحد أعضاء حزب المحافظين قد ألقى القبض عليه لعلاقته بالجريمة وكان ذلك تأكيدا لوجود قوة ثالثة . وبعد اسبوعين حدث أمر هزنى شخصيا فقد توفى أوليڤر بجلطة مفاجئة .

يصنف أفلاطون الناس الى ثلاث مجموعات من الذهب والفضة والرصاص . وكان أوليڤر ذهبا خالصا سواء فيما يختص بتألقه الفكرى أو دفئه أو آدميته أو تسامحه وكرمه أو فى ولائه وتضحيته . وكنت أحبه كرجل بالقدر الذى كنت أحترمه كقائد وشعرت بالحرمان لفقده ورغم أننا لم نكن فى السلطة فقد أردت لأوليڤر جنازة رسمية . ونظم المؤتمر الجنازة ونظم أيضا تجمعا فى استاد سويتو حضره العديدون من الشخصيات الأجنبية الذين جاءوا ليقدموا الواجبات الأخيرة للرجل الذى أبقى المؤتمر حيا أثناء سنوات نفيه .

- ١١٢ -

وفى يوم ٢٧ إبريل عام ١٩٩٤ وفى مؤتمر متعدد الأحزاب فى المركز التجارى حدد موعد أول انتخابات وطنية لاعنصرية قائمة على أساس صوت لكل فرد . وكان قد تم الاتفاق على

انتخاب أربعمائة من الممثلين لمجلس تأسيسى يقوم بوضع الدستور ويكون برلمانا ويكون أول عمل له انتخاب رئيس للجمهورية . وكان قد اشترك فى الاجتماع ستة وعشرون حزبا من ضمنها انكاثا و P.A.C والمحافظين . وكان الرئيس بوتيليزى يطالب بسلطة أقوى للأقاليم بينما كان الحزب المحافظ يرى أن قراراتنا السابقة تعادى مصالح الأفريكان وتكون ما عرف بالجبهة الشعبية للأفريكان للمطالبة بوطن للبيض . وفى ١٨ نوفمبر تم الاتفاق على دستور انتقالى وأصبحنا على أعتاب مرحلة جديدة .

ولم أكن أبدا أهتم بالجوائز الشخصية فإنه لايليق بالمقاتل من أجل الحرية أن يأمل فى كسب جوائز . ولكن حينما أخبرت أنى نلت جائزة نوبل للسلام بالاشتراك مع دى كلارك تأثرت كثيرا لأن للجائزة معنى خاصا فى جنوب إفريقيا حيث كانت قد منحت للرئيس لوثولى عام ١٩٦٠ كما منحت للأسقف توتو الذى حارب شرور العرقيه إبان الأيام الرهيبة للأبارتايد .

وكنت أكن احتراما كبيرا لشعبى النرويج والسويد فأثناء الخمسينيات والستينيات رفضت جميع الدول الغرببية مساعدتنا ومنحنا اعانات . ولكننا لقينا ترحيبا حارا فى السويد والنرويج ومنحنا مساعدات ومنحا دراسية وأموالا للدفاع القانونى ومعونات انسانية للمسجونين السياسيين .

وبدأنا حملتنا الانتخابية بعد اقرار الدستور الجديد ولم يمنحنا ذلك فرصة كبيرة لأن القوميين كانوا قد بدأوا حملتهم فى اليوم الذى تم فيه الإفراج عنى . ورغم أن استطلاعات الرأى أثبتت تفوق المؤتمر فلم ننظر للنصر على أنه أمر مسلم

به وكنت أنصح الجميع بعدم التفاؤل الزائد . فقد كنا فى مواجهة حزب منظم وممول جيدا .

وقاد حملتنا الإنتخابية بوبو موليف "ورعب" ليكوتا وكيتسو جوردهان وكلهم من مناضلى الجبهة الديموقراطية السابقين وكانوا خبراء فى تعبئة الجماهير . وكانت المهمة صعبة . فقد قدرنا عدد الناخبين بعشرين مليونا كان معظمهم يدلى بصوته لأول مرة وكان الكثير من أصحاب الأصوات لدينا أميين وكان من الممكن أن يصيبهم الخوف من مجرد فكرة التصويت . وقررنا أن ندرب أكثر من مائة ألف شخص للمساعدة فى تثقيف الناخبين .

وكانت المرحلة الاولى تعرف باسم مؤتمرات الشعب حيث يسافر مرشحو المؤتمر فى جميع أنحاء البلاد ليعقدوا اجتماعات فى المدن والقرى لكى يستمعوا الآمال ومخاوف وشكاوى شعبنا . وكنت أحضر ثلاثة أو أربع مؤتمرات يوميا . وكان الناس أنفسهم يستمتعون بها . فلم يحدث أن ذهب أحد إليهم ليسألهم عما يجب فعله فى بلدهم . وبعد جمع الاقتراحات كنا نسافر لننقل للناس رسالتنا وكنا قد قررنا أن نقدم لهم تصورنا عن جنوب إفريقيا التى نودها بدلا من أن نطالبهم أن ينتخبونا على أساسس أننا حررناهم فقد كنت أشعر أن حملتنا يجب أن تكون عن المستقبل وليس عن الماضى .

وقد صاغ المؤتمر وثيقة من مائة وخمسين صفحة عرفت باسم برنامج اعادة البناء والتنمية الذى لخص خطتنا فى خلق وظائف عن طريق الأشغال العامة وبناء مليون منزل جديد

مزودة بالكهرباء والصرف الصحي وتوسيع مدى الرعاية وعشر سنوات من التعليم المجاني لجميع مواطني جنوب إفريقيا واعادة توزيع الأرض عن طريق محكمة استحقاقات للأرض والغاء الضرائب على المواد الغذائية الأولية وقد أعيد ترجمة تلك الوثيقة بطريقة مبسطة على هيئة مانيسفتو سمى "حياة أفضل للجميع" وأصبح ذلك شعار حملة المؤتمر .

وشعرت أيضا أننا يجب أن نخبر الشعب بما لن نستطيع عمله . فقد كان الجميع يشعرون أن الحياة يمكن أن تتغير فى أعقاب انتخابات ديموقراطية حرة . ولذلك كنت أخبر الجماهير أنهم يجب ألا يتوقعوا أن يتملكوا سيارة مرسيدس ويكون لديهم حوض سباحتهم الخاص بعد الانتخابات . فكنت أقول لهم أنه لن يكون هناك تغيير مفاجىء سوى احترامهم لأنفسهم كمواطنين فى أرضهم وأنهم قد ينتظرون خمس سنوات لتؤتى الخطة ثمارها كما كنت أقول لهم إن عليهم أن يعملوا بجد إن أرادوا حياة أفضل "فلن نفعل ذلك لكم ولكنكم أنتم الذين ستحققونه بأنفسكم"

أما الجمهور الأبيض فكنت أقول لهم أننا نحتاجهم ولا نريدهم أن يغادروا البلاد لأنهم جنوب إفريقيين مثلنا وهذه أرضهم ولم أوفر الكلمات بشأن أهوال الأبارتايد لكنى كنت أردد أن علينا نسيان الماضى والتركيز على بناء مستقبل أفضل .

- ١١٣ -

لم يكن الطريق إلى الحرية أبدا سلسا . فقد انسحبت بعض الأحزاب من المجلس التنفيذى الانتقالى ورفضت انكاثا

المشاركة فى الانتخابات وقررت تبنى سياسة المقاومة ودعا الملك كوتليثيزى بمؤازرة الرئيس بوثيليزى إلى وجود استقلالى لكوازولو وحاول إثناء أهل إقليمه عن التصويت . وسمى اليمين الأبيض الانتخابات خيانة وطالب بوطن مستقل للبيض .

وكان ١٢ فبراير ١٩٩٤ اليوم الأخير للتسجيل فى الانتخابات بالنسبة للأحزاب . ولم يسجل الانكاثا والمحافظون والجبهة الشعبية الأفريكانية كما رفضت حكومة موطن بوفوثا تسوانا الاشتراك وقاومت دمجها فى جنوب إفريقيا موحدة . وكمحاولة للتسوية أدخلنا تعديلات تضمن سلطات أكبر للأقاليم . وإعادة تسمية إقليم ناتال بإقليم كوازولو ناتال مع التأكيد عن أن مبدأ تقرير المصير سيتضمنه الدستور للمجموعات التى لها حضارة ولغة مشتركة .

واستعددت للقاء الرئيس بوتيليزى فى دربان فى ١ مارس وقلت أننى مستعد للركوع والتوسل إلى أولئك الذين يودون جر البلاد إلى نزيف الدم ووافق الرئيس على تسجيل مشروط فى الانتخابات مع وعد بإحالة خلافاتنا الدستورية الى الوساطة الدولية ووافقت . وقبل انتهاء موعد التسجيل سجل الجنرال فيلجون قائد جبهة الأفريكان تحت اسم جديد وهو جبهة الحرية .

وبالرغم من أن لوكاسى مانجوبى رئيس بوفوثاتسوانا قرر أن يبقى موطنه خارج الانتخابات فقد ثارت الجماهير ضده

وعم الاضراب والفوضى واشتعلت المعارك فى الشوارع بين الشرطة الاقليمية والطلبة والعمال وبعد ذلك تخلت عنه قواته وبعد اسابيع تم عزله وطلب الزعيم الجديد من جنوب إفريقيا تسلم موطنه . أما العنف فى ناتال فقد زاد وعمل مؤيدو انكاثا على وقف مجهودات حملتنا فى ناتال وتم قتل وتقطيع خمسة عشر من فريق العمل الانتخابى . ولكى نبرهن على قوتنا فى ناتال قام المؤتمر بتنظيم مسيرة جماهيرية وسط دربان وحاولت انكاثا القيام بنفس العمل فى جوهانسبرج مما كان له عواقب وخيمه . فقد نظمت انكاثا مسيرة من أعضائها وهم يلوحون بحرابهم وعصيهم وساروا فى لب جوهانسبرج الى مركز للتجمع وفى نفس الوقت حاولت مجموعة منهم اقتحام مبنى شل وهو مقر المؤتمر فمنعهم الحراس وأطلقت النيران ونجم عن ذلك مقتل ثلاثة وخمسين شخصا وأضحت البلاد على شفا حرب أهلية . وكانت انكاثا تحاول تأجيل الانتخابات ولكنى دى كلارك لم يتزحزح فقد كان الموعد مقدسا .

ووافقت على وساطة دولية برئاسة اللورد كارينجتون وكيسنجر ولكن حينما علمت انكاثا بعدم تغيير ميعاد الانتخابات لم يقابل أحد منهم الوفود التى عادت أدراجها . وعند ذلك قبل بوتيليزى الدعوة الى دور دستورى لمملكة الزولو ووافق على الاشتراك .

وقبل التصويت بعشرة أيام تقرر عقد مناظرة تليفزيونية بينى وبين دى كلارك وأجرينا فى المؤتمر تجربة له حيث قام الصحفى اليستر سباركس بدودى كلارك .

وفى المناظرة الحقيقية هاجمت حزب القوميين ذاكرا أنهم ينشرون الكراهية العرقية بين الملونين والافارقة فى الكيب بتوزيع كتاب مثير جعلوا فيه شعار المؤتمر "اقتل ملونا .. اقتل مزارعا" . وحينما انتقد دى كلارك خطة المؤتمر لانفاق بلايين الدولارات على الاسكان والبرامج الاجتماعية نهرته قائلا أنه يخشى أن نكرس كثيرا من ثرواتنا للسود . وفى النهاية شعرت أننى كنت عنيفا مع الرجل الذى سيكون شريكى فى حكومة وحدة وطنية فقلت أن هناك حقيقة هامة وهى أنى أعتقد أن دى كلارك وأنا مثال ساطع لاناس من أعراق مختلفة لهم ولاء واحد وحب مشترك لبلدهم رغم انتقاداتى له . ومددت إليه يدى مصافحا وأنا أقول له أننى أفخر بأن أمسك بيده لنسير إلى الأمام معا . وبدا دى كلارك مندهشا لكنه كان مسرورا .

- ١١٤ -

وأدليت بصوتى يوم ٢٧ إبريل فى إقليم ناتال لأبرهن للناس هناك أنه ليس هناك خطر من الذهاب الى صناديق الانتخاب . وبينما كنت أسير الى مركز التصويت أخذت افكر فى الأبطال الذين سقطوا من أجل أن أكون حيث أنا فى ذلك اليوم وفى النساء والرجال الذين ضحوا من أجل القضية التى كتب لها أخيرا النجاح : فى أوليفر تامبو وكريس هانى والرئيس لوثولى وبرام فيشر وتذكرت أبطالنا الأفارقة العظام من أمثال جوشيا جيومبيدى . وج . م فيكر ، ود/ عبدالله عبدالرحمن ، وليليان

نجوثى وهيلين چوزيف ويوسف داود وموسيس كوتانى فلم أذهب فى ذلك اليوم إلى مركز الانتخابات بمفردى ولكنى كنت أعطى صوتى معهم جميعا .

وسارت صفوف طويلة من المواطنين الصابرين فى الطرق غير المعبدة فى المدن والقرى وكانت هناك العجائز من النساء اللاتى انتظرن طول حياتهم ليشعرن بآدميتهن وكان هناك البيض من الرجال والنساء الذين قالوا إنهم فخورون أن يعيشوا أخيرا فى بلد حر .

وتوقفت أعمال العنف وكأنما البلد قد ولدت من جديد .

وفاز المؤتمر بنسبة ٦٢,٦٪ من الأصوات أقل بقليل من ثلثى الأصوات اللازمة لكى نضع الدستور بمفردنا . وشعرت بالراحة لأننا لو كنا تمكنا من وضع الدستور بمفردنا لأصبح من الممكن أن يقال أنه دستور المؤتمر وليس دستور جنوب إفريقيا . فقد أردت حكومة وحدة وطنية .

وفى مساء ٢ مايو ألقى دى كلارك خطاب تنازل لبق .. فبعد أكثر من ثلاثة قرون تقبلت الأقلية البيضاء الهزيمة وسلمت السلطة للأغلبية السوداء وفى المساء أقام المؤتمر حفلا بالانتصار فى قاعة الرقص فى فندق كارلتون ونصحنى الأطباء بعدم الذهاب حيث كنت قد أصبت بالإنفلونزا ولكنى ذهبت حوالى التاسعة والتقيت بأوجه باسمه سعيدة . وكانت هناك على المنصة السيدة كورتينا سكوت كنج أرملة مارتن لوثر

كينج المناضل الأمريكى ونظرت اليها وأشرت الى كلمات زوجها وقلت :

إن تلك لمن أهم اللحظات فى حياة بلدنا وإنى أقف هذا أمامكم مليئا بالفرح والفخر بمواطنى هذا البلد المتواضعين العاديين . فلقد أبديتم تصميما هادئا صبورا أن تستعيدوا هذا البلد والآن يمكن أن نعلن فرحين من أسطح المنازل "لقد أصبحنا أخيرا أحرارا .. أخيرا أحرارا" .

ومنذ اللحظات التى أعلنت فيها النتيجة رأيت أن مهمتى هى التوفيق وخلق الثقة . وكنت أعرف أن كثيرا من الأقليات وخاصة البيض والملونين كانوا يشعرون بالقلق بشأن المستقبل واردت أن أشعرهم بالأمان . وذكرت الناس مرارا أن معركة التحرير ليست معركة ضد مجموعة معينة أو لون معين لكنها ضد نظام طاغ .

- ١١٥ -

وأشرق يوم ١٠ مايو ساطعا . وكنت فى الأيام القليلة السابقة سعيدا بحصار الأفراد المرموقين وقادة العالم الذين توافدوا ليعبروا عن احترامهم قبل حفل الافتتاح وكان للافتتاح أن يشهد أكبر تجمع لقادة العالم على أرض جنوب إفريقيا .

وأقيم الاحتفال فى مبنى الاتحاد فى بريتوريا الذى ظل لعقود مقرا لسيادة البيض وأصبح الآن مكانا للقاء مختلف

الألوان والأمم لقيام أول حكومة ديموقراطية لاعنصرية فى جنوب إفريقيا .

ورافقتنى ابنتى زينانى فى ذلك اليوم . وعلى المنصة حلف دى كلارك اليمين كنائب ثان للرئيس ثم حلف مبيكى اليمين كنائب أول . ولما كان دورى تعهدت باطاعة والتمسك بالدستور وأن أكرس نفسى لخير الجمهورية وشعبها وخاطبت الضيوف قائلا :

.. إننا نحن الذين كنا خارجين على القانون لوقت قريب قد منحنا اليوم امتياز استضافة أمم العالم على أرضنا ..

فقد حققنا أخيرا سيادتنا السياسية ونتعهد أن نحرر شعبنا من استمرار العبودية للفقر والحرمان والمعاناة العرقية ومختلف أنواع التمييز .

فلتسد يحدث أبدا أبدا أن تتعرض تلك الأرض الجميلة لطغيان أحد على الآخر . فلن تغرب الشمس عن انجاز انسانى كهذا .

فلتسد الحرية .. وليبارك الله فى افريقيا .

وبعد لحظات رفعنا جميعا أعيننا فى خشوع حيث حلقت الطائرات الحربية لجنوب إفريقيا فى تشكيلات رائعة فوق مبنى الاتحاد ولم يكن ذلك عرضا للدقة والقوة العسكرية ولكنه اثبات لولاء الجيش للديمرقراطية لحكومة جديدة انتخبت بحرية وعدالة . وقبل ذلك بدقائق كان الجنرلات الكبار من قوة دفاع جنوب إفريقيا وشرطتها قد أدوا لى التحية العسكرية

وتعهدوا بولائهم ولم أكن قد نسيت انهم منذ سنوات لم يكونوا يحيوننى ، بل كانوا يلقون القبض على .

وبعد ذلك رسمت طائرات الچيت اللون الأسود والأحمر والأخضر والأزرق والذهبى لعلم جنوب إفريقيا بدخانها .

فى يوم الافتتاح اجتاحنى إحساس بالتاريخ ، ففى العقد الأول من القرن العشرين رتقت شعوب جنوب أفريقيا البيضاء خلافاتها وأسست نظاما للتمييز العنصرى ضد البشرة السمراء فى أرضهم وكان النظام الذى أسسوه أساسا لمجتمع من أكثر المجتمعات التى عرفها العالم شراسة ولا إنسانية والآن ، وفى العقد الأخير من القرن ، وعقدى أنا الثامن ، أقتلع هذا النظام الى الأبد واستبد بآخر يعترف بحقوق وحريات جميع الشعوب بغض النظر عن لون بشرتهم .

وقد أتى ذلك اليوم عن طريق تضحيات لا يمكن تصورها من جانب الآلاف من شعبى . ذلك الشعب الذى لايمكن تقدير أو مجازاة شجاعته . وشعرت ذلك اليوم ، كما شعرت فى أيام أخرى كثيرة أننى بساطة نتاج كل أولئك الوطنيين الأفارقة الذين سبقونى وآلمنى أننى لم أكن باستطاعتى شكرهم ولم يكن باستطاعتهم رؤية ماحققته شجاعتهم .

لقد أوجدت سياسة الأبارتايد جرحا غائرا مستديما فى شعبى وسيقضى كثير منا سنوات عديدة إن لم يكن أجيالا لنشفى منها . لكن عقود الظلم الوحشية كان لها أثرها الذى لم تقصده . فقد أتت بأناس مثل أوليڤر تامبو وولتر سيسولو

والرئيس لوثولى ويوسف دادو وروبرت سوبوكوى وبرام فيشر ، رجال ذوى شجاعة غير عادية وحكمة وكرم الذين قد لا يعرف لهم مثيل مرة أخرى . إن بلدى غنى بالمعادن والأحجار الكريمة المدفونة تحت أرضها لكنى كنت أعرف دائما أن ثروتها الحقيقية فى أناسها . وأنه لمن أولئك الرفاق فى المعركة قد تعلمت معنى الشجاعة فقد كنت أرى مرارا نساء ورجالا يضحون بحياتهم من أجل فكرة وقد رأيت رجالا يواجهون هجمات وتعذيبا دون أن يهنوا مظهرين قوة واحتمالا يفوق الخيال . وتعلمت أن الشجاعة ليست هى انعدام الخوف لكن الانتصار عليه .

ولم أفقد الأمل أبدا أن التغيير لابد أت ليس فقط بسبب هؤلاء الأبطال لكن بسبب شجاعة النساء والرجال العاديين من شعبى . فلا يوجد أحد يكره شخصا بسبب لونه أو خلفيته أو دينه فإن الناس لابد أن يتعلموا أن يكرهوا وإن كانوا قادرين على تعلم الكراهية فلابد وأنهم قادرون على تعلم الحب . ففى أحلك أوقات السجن حينما كنت ورفاقى نساق الى حافة القدرة على الاحتمال كنت أرى وميضا من الانسانية فى أحد الحراس ، ربما لمدة ثانية ، لكن كان ذلك الوميض يطمئننى .

وقد اخترنا المعركة وأعيننا مفتوحة ولم تكن لدينا أوهام أن الطريق سيكون سهلا . وعن نفسى فلم أندم أبدا على التزامى بالمعركة ، لكن أسرتى دفعت ثمنا رهيبا نتيجة لالتزامى .

ففى بلد مثل جنوب إفريقيا كان من المستحيل القيام بالالتزام نحو الأسرة ونحو قومى وبلدى بسبب مولدى ولونى .

ففى جنوب إفريقيا كان الشخص الذى يحاول أن يفى بواجبه تجاه شعبه ينزع من أسرته ومنزله ويجبر على أن يعيش منفصلا فى وجود غير محدد من السرية والعصيان ولم أختر فى البداية أن أضع شعبى فوق أسرتى ولكنى لأنى حاولت أن أخدم شعبى وجدت أننى منعت من تأدية واجبى نحو أسرتى كإبن وأخ وأب وزوج .

ولم أولد وعندى فهم للحرية فلقد ولدت حرا قدر معرفتى عن الحرية . كنت حرا أن أجرى فى الحقول قرب كوخ والدتى وحرا فى أن أسبح فى القناة الصافية فى قريتى وأمارس النشاطات الصبيانية الأخرى .

ولكن فى جوهانسبرج رأيت ببطء ليس فقط أننى لست حرا بل إن جميع من هم لونى لايتمتعون بالحرية . والتحقت بالمؤتمر الوطنى الافريقى وعند ذلك تبدل فهمى لحريتى بفهم أكبر لحرية شعبى .

وكان خلال تلك السنوات الطويلة الوحيدة أن تحول فهمى لحرية ناسى الى فهم لحرية كل الناس بيضا وسودا . فقد كنت أعلم أنه لابد من تحرير الظالم من الكراهية والتحيز وضيق الأفق . .

وحينما خرجت من السجن كانت مهمتى هى تحرير الظالم والمظلوم وقد يقول البعض أنه قد تم انجاز ذلك ولكنى أعلم أن هذا غير صحيح فقد خطونا الخطوة الأولى فقط على طريق أطول وأصعب ـ فلأن تكون حرا لايعنى فقط أن تلقى بقيدك

لكن أيضا أن تعيش بطريقة تحترم وتعلى من حريات الآخرين .

ولقد سرت ذلك الطريق الطويل نحو الحرية وحاولت ألا أتعثر ولكننى اتخذت خطوات خاطئة على الطريق . وقد اكتشفت السر أنه بعد أن يكمل الإنسان تسلق تل يكتشف أن هناك تلالا أخرى كثيرة عليه تسلقها . لقد أخذت لحظة هنا للراحة لأسترق النظر الى ذلك المشهد المجيد الذى يحيط بى وأنظر خلفى الى المسافة التى قطعتها . ولكنى لا أتسطيع التوقف سوى لحظة لأن مع الحرية تأتى مسئوليات . ولا أستطيع الإطالة . لأن مسيرتى لم تنته بعد .

الفهـــــرس

الجـزء السادس :

الجـزء السابع :

الجـزء الثامن :

الجـزء التاسع :

الجـزء العاشر :

الجـزء الحادى عشر :

رقم الايداع
٥٢٥١/ ٩٥
I.S.B.N
977 - 07 - 0405.9

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

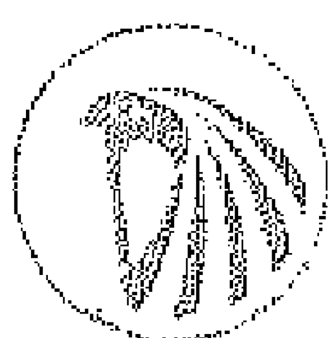
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

يعرض د . عمر الفاروق .. فى هذا الكتاب .. لثلاثة من أعمال المفكر الجغرافى جمال حمدان ، يعرضها مجمعة لأول مرة .. باعتبارها تكون ثلاثيته الجغرافية الوطيدة ، ثلاثية تتكامل أضلاعها .. من الوطن إلى القومية إلى العقيدة ، يتناول فى الأول منها الوطن .. فى « شخصية مصر » .. بالدراسة الواسعة المستفيضة ، ويأتى الثانى منها « دراسات فى العالم العربى» . عن القومية فى إطارها الجغرافى ، ويكمل ثلاثيته بكتابه « العالم الإسلامى المعاصر » .. عن حضارة العقيدة ، توحد بينها رؤيته .. وتجمعها فى بناء متماسك ، رؤية تصيغها جماع قوة (الوطنية × القومية × حضارة العقيدة) فقد ثبت أن تغليب أى منها .. إنما يوهنها جميعها ، ويحولها إلى عملية طرح وقسمة . بدلا من مجموع قوة متصاعد ، وماأحوجنا لهذه الرؤية .. فى غابة عالمنا المعاصر .

ويأتى عرض الكتب الثلاثة .. من زواياه المعتمدة جميعها ، يدلل عليها بإقتباسات من متن كل عمل منها .. بما يحقق أيضا أكبر قدر من المشاركة للقارىء .. مقترنة بأشكال تبسط منظومتها .. وتقدمها فى سياقها الفكرى والموضوعى ، ويمهد لدراستها .. بتحليل مسهب عن حمدان . كفيلسوف للمكان .. وكأكبر جغرافى معاصر ، يغوص فيه فى عقلية هذا المفكر .. يمكنه من ذلك تخصصه الجغرافى .. وعمق ادراكه لقيمة هذا المفكر فى الثقافة المصرية بعامة .

أهلاً بكم فى عالمنا



مصر للطيران



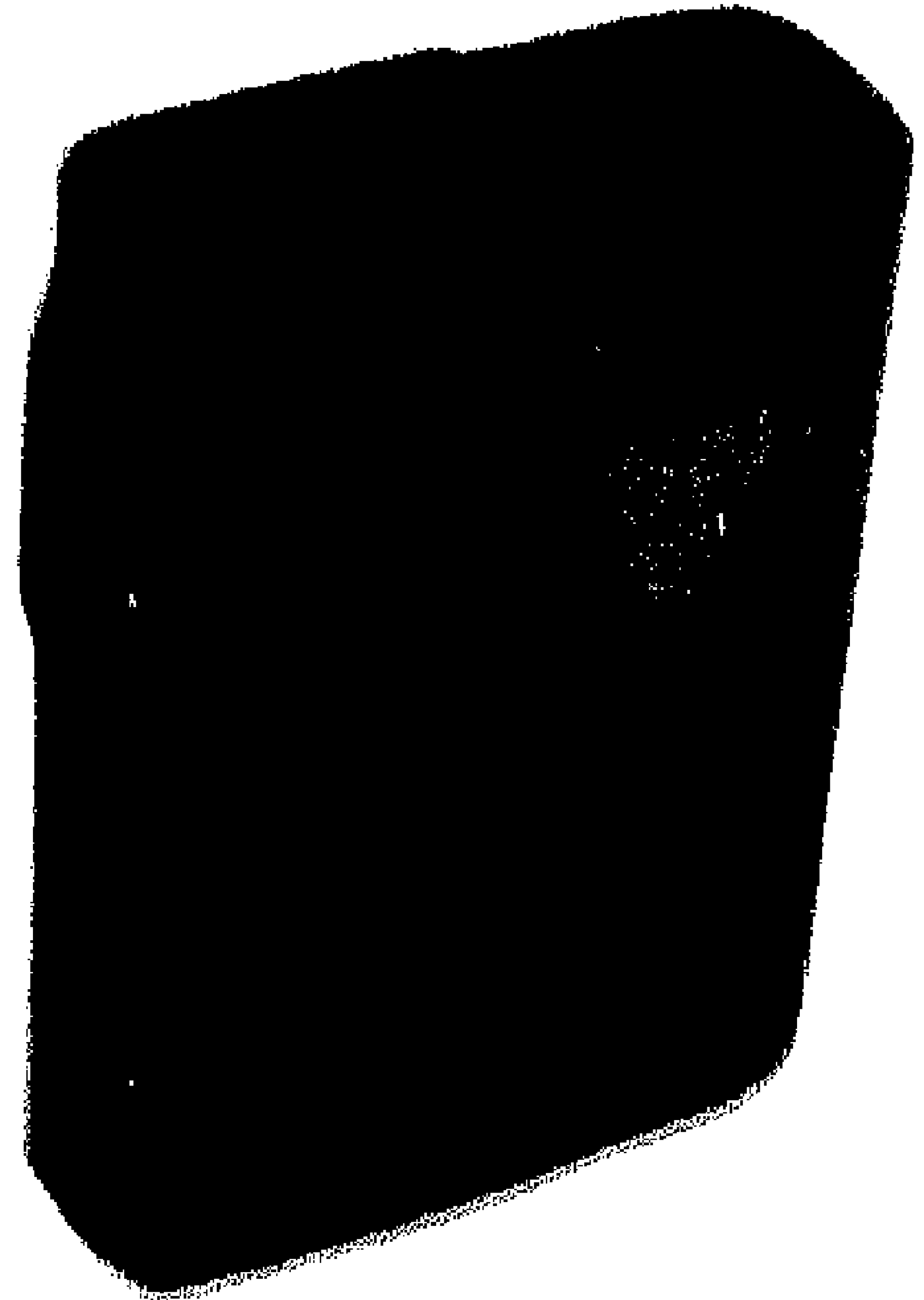
MOTOROLA

موتورولا الأمريكية

رائدة أجهزة الشبكات اللاسلكية فى العالم
تعمل على شبكة هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية
تقدم قمة الأجهزة الرقمية

Instinct™

أسعار لا تقارن



للسادة الأطباء ★ المستشفيات
الشركات ★ الهيئات ★ رجال الأ
★ النقابات ★ الأفراد.
ولكل من يُقَدِّر قيمة الوقت

● تشغيل بزرار واحد.
● اضاءة خلفية للشاشة.
● نغمات موسيقية للتنبيه.
● شاشة علو
● تسجيل ١٠ رسا
● اختيار من ٩ ألـ

الوكيل الوحيد: شركة سيستل YSTEL

القاهرة: ٢٩ شارع شفيق منصور - الزمالك ت: ٣٤١٢٨٠٠/٣٤١١٨٠٠ فاكس: ٣٤٠٩١٠٩
ـينة نصر: ت و فاكس: ٢٧٤٢٧٩٣ المعادى: ت: ٥١٧١٢١٨ ت وفاكس: ٥١٧١٢١٩
ـكندرية: ت: ٨٥٧٥٤٣٧ / ٨٥٧٤٢٧ (٠٣) فاكس: ٨٥٧٤٣٧

الشذوذ والإبداع

فورستر • أودين • إيشروود





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL

No.535-JU-1995
العدد ٥٣٥ ـ صفر ـ يوليو ١٩٩٥

FAX 3625469 فاكس

اسعار بيع العدد فئة ٣ جنيهات

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٦٠٠٠ ليرة - الاردن ٢٤٠٠ فلس - الكويت ١٥٠٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - تونس ٢,٥٠ دينار المغرب ٣٠ درهما - البحرين ١,٢٠٠ دينار - الدوحة ١٢ ريالاً - دبى / ابو ظبى ١٢ درهما - مسقط ١,٢٠٠ ريال - غزة والضفة والقدس ٢ دولار - لندن ٢ جك .

الشذوذ والإبداع

(فورستر - اودين - إيشروود)

بقلم

د. رمسيس عوض

دار الهلال

تصـــميم الغـــــلاف
للفنان حلمى التونى

إدوارد مورجان فورستر

سيـرة حياتـه :

فى عام ١٩٩٣ أصدرت دور النشر البريطانية كتابا من تأليف الباحثة نيكولا بومان يتناول سيرة حياة الروائى والناقد الكبير إدوارد مورجان فورستر المعروف فى عالم الأدب باسم أ . م . فورستر . وأهمية مثل هذه الدراسة لا تخفى على أحد فهى أول دراسة تعالج حياة فورستر وتربطها بأدبه . ومن نافلة القول أن فورستر نفسه شاء فى حياته ألا يميط اللثام عن حياته الخاصة التى بقيت بعض أهم معالمها فى طى الكتمان حتى رأت هذه الدراسة الجريئة طريقها إلى النور .

كانت والدة فورستر واسمها ليلى مربية فقيرة وصغيرة السن عندما تزوجت من رجل يدعى ايدى فى الحادية والعشرين من عمره . حبته الطبيعة بموهبة الرسم . وكانت ليلى رغم صغر سنها امرأة مكتملة الأنوثة . وسرعان ما حملت الزوجة من زوجها غير أن حملها لم يقيض له أن يكتمل . والغريب أنه بعد مضى وقت قصير على حملها الأول الذى لم يتم حملت الزوجة للمرة الثانية بسرعة غير عادية ووضعت مولودها الأول إدوارد مورجان فى أول يناير ١٨٧٩ . ورغم أن مؤلفنا لا يقولها صراحة فإنه يلمح (مثلما فعل فى روايته

"موريس") إلى أنه يعتقد أن والده كان مصابا بالشذوذ الجنسي وانه كان على علاقة بصديقه وابن عمه تيوستر تيفيلد الذي يميل الدارسون إلى الاعتقاد أن ليلى كانت تستلطفه . وساعد على التصاق هذين الرجلين كثرة أسفارهما سويا إلى البلاد الأوربية واشتراكهما فى العمل فى مكتب هندسة معمارية واحد . وينحدر مؤلفنا ـ من ناحية الأب ـ من عائلة من الكهنة والقساوسة تنعم بقدر ملحوظ من الدعة واليسار كان يكفي أديبنا لو أراد أن يعتمد عليه في معاشه . وأصبحت أمه بعد زواجها تعيش فى بحبوحة من العيش وتحتفظ فى بيتها أثناء طفولة مورجان بخادمتين .

ولعب جده لأبيه ـ واسمه هنرى ثورنتون ـ دورا بارزا فى طفولته بسبب تزعمه لحركة دينية انجيلية شديدة الصرامة والتشدد تأسست فى مدينة كلابام ودعت إلى الفضيلة وهداية الكفرة والمارقين وأخذت على عاتقها توزيع الكتاب المقدس فى جميع أنحاء العالم وتقديم يد العون والمساعدة الى المعوزين والفقراء من رجال الكنيسة . وأثمرت هذه الحركة فنجحت فى تحرير العبيد على يد محرر العبيد المعروف وليم ولبرفورس الى جانب سعيها الى حظر الألعاب الرياضية الوحشية ومحاولتها إصلاح السجون . والجدير بالذكر أن هذه الطائفة الانجيلية اتخذت من حجرة مكتب زعيمها هنرى ثورنتون (وليس من الكنيسة) مركزا لنشاطها واشعاعها الدينى . وأظهرت هذه الحركة مقتا للشعر والتصوف الأمر الذى كان سببا فى نفور الحركة الادبية المعروفة باسم جماعة بلومزبرى منها (وهى الحركة التى ينتمى إليها مؤلفنا وكوكبة

من الأدباء من أمثال فيرجينيا وولف) . والجدير بالذكر أيضا أن هذه الحركة الدينية تركت فى نفسه منذ نعومة أظفاره أعمق الأثر وهو فى نحو الثامنة من عمره عن طريق عمته ماريان . ورغم أن فورستر أبرز لنا مزايا هذه الحركة الدينية فى كتاباته فانه عاب عليها ضيق أفقها وعدم اكتراثها بالشعر والعاطفة والموسيقى . يقول مؤلفنا عن أتباع هذه الحركة :

"انهم يتمتعون بالثراء والتقوى الانجيلية والطيبة الصادقة وضيق الأفق والرضا عن النفس والأمانة والميل إلى لوم الآخرين وتقريعهم والاحساس بالانتماء الطائفى والحرص النبيل على المصلحة العامة .. ومن المؤكد أنهم كانوا يفتقرون إلى الاحساس بالفن والاهتمام بالأدب اللهم إلا إذا كان هذا الأدب ذا صبغة عقلية أو تربوية . ويبدو لى أن أخطر عيب يشوب الطائفة يكمن فى عدم اكتراثها بما هو غير مرئى أو منظور . وهو العيب الذى أدى إلى فشل هذه الطائفة فى أن تترك وراءها أثرا يذكر فى مسيرة التاريخ . وهذه الحركة لا تقيم أدنى وزن للشعر ولا تأبه بالغوامض والأسرار والعواطف المتأججة والانتشاء والموسيقى ».

طفولة هانئة فى روكس نست :

فى ٣٠ أكتوبر ١٨٨٠ مات ايدى والد مورجان قبيل أن يبلغ الثالثة والثلاثين من عمره بعشرة أيام نتيجة اصابته بحمى التيفود وسل الرئة . وكان عمر ابنه عند وفاته أقل من عامين . وبعد وفاة والده أخذته والدته وهو فى الرابعة من عمره فى أواخر فبراير ١٨٨٣ ليعيشا فى ريف روكس نست بالقرب من لندن . وهناك قامت أمه بتنشئته فى جو دينى ولكن بمعزل عن

أقرانه من الصبية . وبوجه عام كانت حياته فى روكس نست هادئة وهانئة لدرجة أنه تمنى لو عاش ومات فى ذلك الجو الريفى الوديع والجميل . وتشبع مؤلفنا بالقيم الريفية التى تأصلت فيه وأصبحت جزءا لا يتجزأ من موقفه العام من الحياة . فلا غرو أن راقت له أفكار سكين ووليم موريس وادوارد كاربتر التى تعلى من شأن الريف وتفضله على الحضر . ولكن هذا لم ينسه قط ـ وهو لم يتجاوز الثالثة أو الرابعة عشرة ـ أن طبقة فقيرة وكادحة من عمال المصانع تسكن العشش على مقربة منه فى قلب لندن . وتعكس روايته المعروفة "هواردز إند" (١٩١٠) سخطه على التصنيع الذى يعكر صفو الريف ويعصف بهدوئه . ولكننا نخطىء إذا ظننا أن حبه للريف يعنى كراهيته للمدينة . فالمدينة تروق له أيضا بعكس أنصار الريف الذين لا يحملون للمدينة غير المقت والموجدة . وبمعنى آخر انه لم يعرف الصراع المحتدم بين الريف والحضر اللذين استطاع أن يؤلف بينهما فى قلبه .

كان مورجان يحب أمه ولكن حبه لها لم يكن متأججا أو رومانسيا بل كان حبا هادئاً يقوم على العشرة والعيش معها تحت سقف واحد .

وكما أسلفنا كادت طفولته ـ حسب قوله ـ أن تخلو من الصداقات باستثناء صداقته لأنسل أول صديق طفل عرفه فى حياته . وكثيرا ما كان الطفلان ينامان فى أحضان بعضهما البعض ويتصايحان وهما يزغزغان أحدهما الآخر . وتركت هذه الصداقة الباكرة بصمة على انتاجه الأدبى . ففى روايته "أطول رحلة" عام ١٩٠٧ الأثيرة إلى قلبه نراه يطلق اسم

أنسيل على الصديق الوحيد لبطلها .

مدرسة كنت هاوس :

قررت الأم أن ترسل ابنها مورجان الى مدرسة كنت هاوس الواقعة بجوار البحر فوق قمم الجبال بالقرب من ايست بورن . وكان السبب فى اتخاذها هذا القرار اقتناعها بالجو الليبرالى التى اتسمت به هذه المدرسة . وهو عين السبب الذى حدا بوالدة اللورد بيفردج أن تبعث بابنها إلى نفس هذه المدرسة . غير أنه اتضح فيما بعد لوالدة فورستر ان جو المدرسة ليس ليبراليا كما يحلو لها أن تظن . الأمر الذى اضطرها إلى التدخل لدى إدارة المدرسة لحماية ولدها من كثرة الواجبات المدرسية المفروضة عليه ومن أعمال التخويف التى تعرض لها . ويبدو أن مشكلته آنذاك تلخصت فى أنه لم يجد من يفضى إليه بسريرته .

واستمر مورجان فى مدرسة كنت هاوس حتى ربيع عام ١٨٩٣ أى حتى أن بلغ الرابعة عشرة من عمره . وبمرور الوقت أصبح تلميذا مخضرما ، الأمر الذى أعطاه الثقة فى نفسه واشتهر بين زملائه بالشقاوة واعطاء المقالب لهم لدرجة أنهم أطلقوا عليه ساخرين اسم "القديس فورستر" .

وحزن مورجان عندما انتقل فى ابريل عام ١٨٩٣ الى مدرسة البنين فى ستيفندج ثم مدرسة أبنجهام . ففى مدرسة ستيفندج أصبح يتعرض لسخرية التلاميذ منه واستخفافهم به الأمر الذى أدخل التعاسة الى نفسه فطلب من أمه أن تقوم بنقله الى مدرسة أخرى فأجابته الى طلبه . وقد شهدت تلك

الفترة من حياة فورستر تطورا هاما فى زيادة التوسع العمرانى حول ستيفندج لدرجة هددت المزارع والحقول بالاندثار . الأمر الذى أدخل الحُزن والانقباض إلى نفسه .

مدرسـة تونبريـدج :

عندما بلغ مورجان الرابعة عشرة والنصف من عمره ألحقته أمه بمدرسة تونبريدج النهارية الخاصة بسبب سمعتها الطيبة وانخفاض رسوم التعليم فيها . ولكن الأم لم يخطر على بالها أن اهتمام المدرسة سوف ينصرف عن التعليم الجيد الى ممارسة النشاط الرياضى . وفى خريف عام ١٨٩٣ أجرت الأم منزلا قريبا من المدرسة كى تعيش فيه مع ابنها . وأسعده أن يعيش فى منطقة ريفية هادئة وجميلة . وفى تلك المدرسة بقى مورجان من عام ١٨٩٣ حتى عام ١٨٩٧ . وبوجه عام أظهر الطاعة ولكن تسلط الأساتذة جعله يميل إلى التمرد . كما أنه تضايق من افراط المدرسة فى الاهتمام بالنشاط الرياضى . ولكن الدكتور وود ناظر المدرسة كان مختلفا فقد اتسم بالتسامح ورحابة الصدر فيما عدا شىء واحد هو اصراره على حفظ التلاميذ للشعر اللاتينى عن ظهر قلب . فقد كان هذا الناظر ينتفض غضبا عندما ينسى تلميذ جزءا من محفوظاته أو يخطىء فى تلاوته . ولم يسخط فورستر على هذا الأسلوب المتعسف فى التعليم . ولكن أستاذه فى جامعة كامبريدج عزا تخلفه الدراسى إلى هذا الأسلوب العقيم فى التعليم . وأظهر هذا الأستاذ انزعاجه من كم المحفوظات الهائل الذى تعلمه على يدى الدكتور وود ومدرسيه . وعلى أية حال نجحت مدرسة تونبريدج مثلما نجحت مدرسة كنت هاوس

من قبل فى أن تغرس فيه حب الكلاسيكيات الذى لازمه طيلة حياته . ورغم هذا فقد قال "بالتأكيد أنا لم أحب تونبريدج" ويعتقد بعض الدارسين أن فورستر لم يكن بائسا أيام التلمذة فى مدرسة تونبريدج أو غيرها من المدارس.وأنه هو الذى شاء أن يشيع هذه التعاسة عن نفسه . ويرى هؤلاء الدارسون أيضا أنه هو الذى بالغ فى تصوير وحدته وعزلته عن أقرانه الطلبة . ويتهم الدارسون فورستر بالتركيز على ما يريد لنا أن نعرفه ويتجاهل تماما ما يريد اخفاءه عنا وهم يستشهدون على ذلك بالتزامه الصمت حول أبيه إيدى ويتجاهل تماما الاشارة الى صديق له أيام التلمذة يدعى ريجنالد تيدى يعتقد بعض الباحثين أن فورستر أحبه على نحو شاذ ولكنه قابل هذا الحب بالصدود ، الأمر الذى سبب له جرحا داميا وعميقا جعله يتحاشى ذكره أو مجرد الاشارة إليه . والجدير بالذكر أن ريجنالد تيدى شأنه شأن فورستر كان دارسا للكلاسيكيات بل انه تفوق منها عليه وحصل على منحة دراسية مكنته من الالتحاق بجامعة أكسفورد حيث تخرج وأصبح أستاذا فيها . ويذهب نفر من الباحثين أن الانطباع العام الذى تتركه يوميات فورستر هو أنه كان شابا مرحا واجتماعيا يحب المشى لمسافات طويلة وركوب الدراجات وتناول الشاى مع أصدقائه وليس ذلك الغلام المكتئب المنعزل والعزوف عن الناس كما يحلو لمؤلفنا أن يصور نفسه فى كتاباته المنشورة .

كامبردج :

كان مورجان فى الثامنة عشرة والنصف وذا وجه جذاب عندما التحق فى صيف عام ١٨٩٧ بكلية الملك بجامعة

كامبردج . ويمكن القول إن شخصيته آنذاك انطوت على جانب ظاهر وجانب يخفيه عن أعين الرقباء وهو الأمر الذى انعكس على طريقة رسمه لبعض الشخصيات الروائية مثل شخصيتي ادجار ولوسى فى روايته "حجرة تطل على منظر جميل" فلوسى التى كانت تستفسر عن كيفية عمل البودنج كانت تجد نفسها فى الموسيقى وتحققها فى العزف على البيانو فالموسيقى بالنسبة لها هى العالم الحقيقى الذى تعيش من أجله . ويجدر بالذكر أن والده سبق أن تلقى تعليمه فى كلية ترينتى بكامبردج . وتركت كلية الملك فى مؤلفنا أعمق الأثر إذ تشرب روحها وقيمها حتى أصبحت جزءا من كيانه . وكان الجو السائد فى كلية الملك جوا ليبراليا يناصب المحافظة والاستعمار العداء ويركز على اهتمامات الرجل العادى ويظهر الحرص على صالح الإنسان . فضلا عن أن فورستر ورث عن جماعة كلابام الدينية التى سبق الاشارة إليها ثقتها بالبشر وايمانها بالقيم والأحكام الأخلاقية . ولا غرو إذا رأيناه عام ١٩٢٦ يكتب فى مذكراته حول الشخصية الانجليزية يصف الشباب الأنجلو ـ ساكسونى الذى يتخرج من أرقى المدارس الخاصة بأنه يملك أبدانا قوية وعقولا متطورة إلى حد ما وقلوبا غير متطورة على الاطلاق .

وعندما صرح فورستر فى مقاله "ما أومن به" عام ١٩٣٩ إنه على استعداد لأن يخون بلاده ولا يخون صديقه كان يفكر فى شخصية انتيجون التى ألفها سوفوكل والتى تعتبر أن ولاءها لأخيها أهم من ولائها للدولة التى تعيش فى كنفها . وكان الشاعر السكندرى الكلاسيكى القديم ثيوكريتوس أثيرا إلى قلبه . فإليه يرجع الفضل فى استحداث القصيدة الرعوية

التى راقت له بسبب وصفها للحقول الخضراء وبساطة الحياة الريفية وسعادة حياة الرعاة . فضلا عن استخدامها لعنصر السخرية واستجلاء العلاقة بين الرومانسية والواقع . لقد نجحت جامعة كامبريدج فى أن تنفض الغبار عن الأدب الكلاسيكى وتبعث فيه الحياة من جديد . استطاعت كامبريدج أن تغرس فى مؤلفنا منذ حداثته حبه لأدب سوفوكل وفيرجيل وثيوكريتوس حتى أخريات حياته . وفى أيام التلمذة تأثر فورستر تأثرا كبيرا بثلاثة من أساتذة هذه الجامعة هم أوسكار براوننج وجولد زورثى لوويس ديكنسون وناثا نييل ويد . وعندما تحول فورستر إلى دراسة التاريخ كان أوسكار براوتنج مشرفا عليه . وكان من عادة هذا المشرف أن يجعل الطالب منهمكا فى قراءة بحثه بينما هو يغط فى النوم مختبئا وراء منديل يخفى به وجهه . وقد توثقت علاقة فورستر بأستاذه لوويس ديكنسون بعد أن تخرج من الجامعة . وسافر الاثنان سويا إلى الهند . وأخذ مؤلفنا عن ناثا نييل ويد هرطقته وتعلم منه القسم والحلفان . والى ويد يرجع الفضل فى اتجاهه الى الكتابة فقد حثه هذا الأستاذ على ذلك لأنه توسم فيه الموهبة الأدبية .

وهناك شخصيات أخرى كثيرة عرفها فورستر فى كامبردج وتأثر بها من الناحيتين الفكرية والأدبية . وعلى رأسها تلك الطائفة البارزة من الأكاديميين والعلماء والأدباء أمثال ليتون ستراتشى وجون شبرد وهيو ميرديث وليونارد وولف ومالكولم ارلنج وجورج بارجر وادوارد دنت . وفى ٩ فبراير ١٩٠١ اختير مؤلفنا عضوا فى جمعية تضم بعضا من طلبة جامعة كامبردج النابهين وبعضا آخر من ألمع خريجيها فى مختلف

التخصصات . وجرت العادة أن يقدم العضو الذى تمر على عضويته فترة معينة استقالته حتى يسمح بانتخاب عضو جديد يحل محله وبذلك يمكن تجديد الدماء فى عروق الجمعية . وكان الفيلسوف المعروف ج . أ . مور قد استقال من عضوية الجمعية مؤخرا فتم انتخاب فورستر مكانه . ولعب فورستر دورا هاما فى هذه الجمعية طوال فترة عضويته التى استمرت لمدة أربع سنوات . وكان واحدا من مريدى مور يدين بالمبادىء المؤمنة بأهمية العلاقات الشخصية فى حياة الأفراد والرافضة للخزعبلات الدينية التى سادت المجتمع الانجليزى فى المجتمع الفكتورى . وتحت تأثير فلسفة مور استطاع فورستر أن ينبذ المبادىء الدينية التى اعتنقتها طائفة كلابام دون أن يدعوه ذلك الى التشكك فى جدوى التقاليد الأخلاقية والقيم المادية السائدة فى القرن التاسع عشر ودون أن يشعر بالغربة عن المجتمع الفكتورى . وتتضمن روايته "أطول رحلة" تحية ولاء وتقدير لأفكار الفيلسوف جورج مور . وفى مايو عام ١٨٩٩ طرح مور على أعضاء جمعية الرسل السؤال التالى : "هل **العادة السرية** (أو الاستنماء) شر فى حد ذاتها" . وانقسم أعضاء الجمعية الى فريقين : فريق من أمثال مور نفسه وهاردى وروبرت مايور يرى أنها شر ، وفريق آخر لا يرى أنها كذلك أمثال سميث وروجر فراى وبوب تريفيليان وجولدى . وعندما طالع مورجان محضر الجلسة شعر بالراحة الشديدة بسبب ما كان يشعر به من ذنب من كثرة ممارسته للعادة السرية . غير أنه وجد حرجا فى مناصرة الرأى القائل بأنها غير ضارة

وكان مؤلفنا يلتزم الصمت أثناء المناقشات المحتدمة لدرجة أن الحاضرين كانوا ينسونه حتى يتفوه بعبارة أو تعليق عارض فينتبهون إلى وجوده منهم . ودرج فورستر على اتباع هذه السياسة المتحفظة فيما بعد عندما أنضم الى جماعة البلومزبرى . وكما يقول البعض استطاع كالسلحفاة أن يخفى نفسه محتميا وراء قشرة سميكة من الصدف . ورغم أن كامبردج ساعدته على الخروج من شرنقة الأفكار المحافظة التى تشربها فى تونبريدج فانه آثر الاحتفاظ عادة بأفكاره المتحررة لنفسه . وفى تعامله مع والدته آثر ألا يؤذى مشاعرها أو يصدمها بأى من الأفكار المتحررة التى اكتسبها فى كامبردج .

وبعد أن أمضى مورجان ثلاثة أعوام فى دراسة الكلاسيكيات أمضى عامه الرابع فى كامبردج عامى (١٩٠٠ - ١٩٠١) فى دراسة التاريخ وحضر المحاضرات التى ألقاها جولدى فيه . وساعدته دراسته للكلاسيكيات والتاريخ فى تكوينه ككاتب . وليس من شك أن العلاقة الوثيقة التى توطدت آنذاك بين طلبة جامعة كامبردج واساتذتها من ناحية وبين الطلبة أنفسهم من ناحية أخرى كان لها أيضا أعمق الأثر فى كاتبنا . وكانت علاقته بهيو ميريدث أقرب ما تكون إلى الحب بمعناه الجنسى منها إلى الصداقة العادية . والى هيو ميريدث صاحب الشخصية الانبساطية يرجع الفضل فى توطيد علاقته (وهو الانطوائى) بعدد من زملائه الطلبة فى كلية الملك . وكانت صداقاته القليلة الوطيدة بأساتذته سببا فى إحساسه بالسعادة الغامرة أيام الطلب فى الجامعة التى ظل قلبه ينبض بحبها أبدا والتى عاد إلى كنفها فيما بعد زائرا ومحاضرا .

ايطاليا واليونان والمانيا :

لعبت ايطاليا في أدب أ . م . فورستر دورا بارزا وفريدا . .ظلت ليلى والدته وعمته وقريباته الموسرات يتحكمن في حياته الباكرة بسبب اعتماده الكامل من الناحية المالية عليهن . وبعد تخرجه في الجامعة تبادر إلى ذهنه أن يقوم برحلة الى اليونان . غير أن والدته اقترحت عليه أن ترافقه في رحلة الى ايطاليا حيث بدأ بزيارة لبحيرة كومو . وعندما وطأت أقدامه أرض ايطاليا لأول مرة في حياته أحس أنه في بلد مألوفة لديه . وإذا كان هنرى جمس قد عالج في روايته "صورة سيدة" فكرة الالتقاء الحضارى بين أمريكا وأوربا فإن فورستر عالج التقاء الثقافات بين بنى جلدته وايطاليا في عدد من أعماله وأهمها "حجرة تطل على منظر جميل" ثم بين بنى جلدته والهند مثلما فعل في روايته الشهيرة "رحلة الى الهند" . وبعد كومو سافر مورجان وامه إلى ميلانو وبعدها إلى فلورنسا حيث أقاما في فندق مريح للغاية ويوجد فيه بيانو في حالة جيدة كان مؤلفنا يهوى العزف عليه . والفندق الذى تصوره رواية "حجرة تطل على منظر جميل" هو في واقع الأمر أحد الفنادق التى نزل فيها مورجان أثناء زيارته لايطاليا . ولم تكن فلورنسا آخر المطاف فقد زار بعض المدن الايطالية الأخرى .

لقد تركت فيه زيارته لايطاليا أثرا خطيرا فقد أطلقت خياله وغيرت رؤيته الجمالية تغييرا شاملا . وهناك بدأ روايته "حجرة تطل على منظر جميل" التى انتهى منها فيما بعد ونشرها بعد أن أجرى عليها كثيرا من التعديلات . ومن الخطل

أن نظن أن نظرة فورستر إلى ايطاليا كانت رومانسية فقد حدثنا عن قذارة أهل نابولى رغم أن اقامته فيها كانت نقطة تحول فى حياته . يقول فورستر عنهم أنهم فى منتهى القذارة والخمول والبعد عن التهذيب وأن نابولى نفسها تعج بصخب الشرق وحرارته وقذارته وجماله غير المألوف . لقد غيرت نابولى بوجه خاص وجنوب ايطاليا بوجه عام موقفه من الحياة . فهناك تفتحت بالقوة وليس بالفعل رغبات الشاب الجسدية . وإذا كانت نابولى وضعت فيه بذرة الشذوذ الجنسى فإن مدينة الإسكندرية المصرية ـ كما سوف نرى ـ هى التى جعلت هذه البذرة تينع وتؤتى ثمارها . وانه لمن سخرية القدر أن توافق أمه على اصطحابه إلى ايطاليا التى اقترن تاريخها منذ عصر النهضة بإرضاء شهوات الجسد سواء اتفقت مع التقاليد والأعراف أو شذت عنها . فلم يدر بخلدها مطلقا أن ابنها سوف يدرك بالغريزة أن وراء الحياة العادية فى نابولى تختفى ممارسات الجنس الشاذ التى يتقبلها أهلها كجزء من نسيج الحياة . كما أنه لم يدر بخلدها أن كثيرا من الأدباء الأوربيين أمثال جوته وماثيو أرنولد وصامويل بتلر اعتبروا ايطاليا طريقهم إلى الهروب من القيم الأخلاقية البروتستانتية المتشددة الى عالم رحب من الاباحية الجنسية والحرية والإنطلاق . وإذا كانت ايطاليا هى السبب فى إدراك فورستر لحقيقة مشاعره الجنسية غير السوية فإن كتابته لروايته ساعدت على تعميق معرفته بهذه المشاعر . وليس أدل على عزوفه عن النساء أنه ظل لا يعرف كيف يعاشر المرأة الرجل إلا بعد بلوغه الثلاثين من العمر .

. لقد أحاط فورستر حياته الجنسية بسياج من الكتمان فقد كانت القوانين الانجليزية أشد ما تكون صرامة فى معاقبة الشذوذ الجنسى . واتعظ كاتبنا من محاكمة أوسكار وايلد التى عاصرها فى شبابه والتى انتهت بالفضيحة النكراء والحكم على وايلد بالسجن لمدة سنتين مع الأشغال . وامتد هذا الكتمان الى أدبه الذى يعالج الشذوذ الجنسى من طرف خفى وعن طريق التلميح المبهم الذى ستغلق على أفهام معظم القراء . فلا غرو إذا اعتبره الكثيرون كاتبا تقليديا لا يهش ولا ينش .

وقبل سفره إلى بلاد اليونان فى رحلة نظمتها جامعة كامبردج زار فوستر كلا من النمسا وألمانيا . وفى اليونان أمضى شهرا بأكمله (إبريل) مع زملائه وأساتذته فى جامعة كامبردج التى أحبها من سويداء قلبه والتى كانت أمنية حياته أن تقبله للتدريس فيها . وتعبر روايته "الرحلة الطويلة" عن تعلقه الشديد بهذه الجامعة التى وافقت فيما بعد على القائه سلسلة من المحاضرات الناجحة بعنوان "جمهورية فلورنسا" . ورغم ضيقه بضجيج لندن وعجيجها فقد راق له المتحف البريطانى كثيرا وزاد من تعلقه به وجوده فى منطقة أثيرة إلى قلبه هى منطقة بلومزبرى . فضلا عما يحتويه من تماثيل يونانية قديمة . وقد زادت رحلته إلى اليونان من ولهه بفن النحت الاغريقى . ويرى فورستر ان المسيحية فى أوربا تعمدت أن تطمس فكر الاغريق الحقيقى وتاريخهم . فهى تصور أفكار افلاطون التى وردت فى كتابه الشهير "المناظرة" على أنها أفكار مثالية تتفق مع جوهر الدين المسيحى وادعت

أن الحب الذى دعا إليه افلاطون فى كتابه هو الحب العذرى أو ما اصطلح العالم على تسميته بالحب الافلاطونى ، فى حين أن الحب الذى يدافع عنه هذا الفيلسوف فى كتابه هو الحب الحسى الذى ينشأ بين الذكور .

ولكن عشق فورستر لايطاليا وغرامه ببلاد الاغريق لم ينسه حبه المقيم لجمال الريف الانجليزى . وهو حب تأصل فيه منذ نعومة أظفاره . هذا الحب جعله يؤمن بعبقرية المكان وانه يستمد الهامه منها . لقد استمد فورستر الهامه بوجه خاص فى قرية ريفية عاش فيها قريبة من نهر التيمس فى ضاحية سرى اسمها واى بريدج . والجدير بالذكر ان جميع رواياته الست التى ألفها طيلة حياته وهى "حيث تخشى الملائكة أن تطأ بأقدامها" (١٩٠٥) - "أطول رحلة" (١٩٠٧) - و"حجرة تطل على منظر جميل" (١٩٠٨) - "هواردز إند" (١٩١٠) - "رحلة إلى الهند" (١٩٢٤) - و"موريس" (١٩٧٠) . كما تستمد مادتها من هذه القرية وان ينابيع الابداع الأدبى جفت منه عندما ترك هذه القرية ليعيش فى أماكن أخرى . على أية حال غادر مورجان فى ربيع عام ١٩٠٥ قرية واى بريدج بعضا من الوقت . فقد أراد أن يعيش مع عائلة يتعلم منها اللغة الألمانية . وسنحت له الفرصة لذلك عندما أخبره صديق له فى كامبردج اسمه سيدنى واترلو أنه له عمة ثرية اسمها اليزابيث فون أرنيم تملك ضيعة كبيرة فى شمال ألمانيا وأنها بحاجة إلى مؤدب تخرج من جامعة كامبردج لتدريس اللغة الانجليزية لبناتها الثلاث . ولم تكن هذه السيدة مجرد امرأة ثرية بل كانت على جانب ملحوظ من الموهبة الأدبية . فقد ألفت عددا من الروايات الذائعة الصيت ومن بينها رواية "اليزابيث

وحديقتها الألمانية" . فضلا عن رواية "فيرا" التى تعتبر من أروع أعمالها . وهى رواية ترسم صورة لزوجها الثانى هو فرانسيس أخو برتراند راسل الذى كان يعاملها بقسوة وشراسة . ورغم حدة طباعها وتقلب مزاجها فقد كانت العلاقة بينها وبين مؤلفنا على مايرام . وفى ألمانيا عاش فورستر عيشة سعيدة وهانئة للغاية وسط الحقول والمزارع والحدائق . وزاد من احساسه بالسعادة الاحساس لأول مرة بالاستقلال عن والدته وانه لم يعد من الناحية المالية معتمدا عليها .

سيد روس مسعود :

ترجع علاقة مورجان بالشاب الهندى "سيد روس مسعود » إلى عام ١٩٠٨ . ففى نهاية هذا العام نراه يكتب فى يومياته معبرا عن حزنه على فشله من التقرب الجسدى من مسعود قائلا : "إنه ليس واحدا من ذلك النوع" ، ويبدو أن كل شخص يروق لى ليس من ذلك النوع" . وبحلول عام ١٩١١ أصبح هيام مؤلفنا بهذا الشاب بلا حدود . وبعد أن أمضى أجازة قصيرة فى باريس مع صديقه الهندى عام ١٩٠٨ كتب فورستر فى أوراقه الخاصة متسائلاً : "هل يرجع سره المستغلق الى شخصه أم إلى جنسيته" ! ثم أعقب ذلك بالعبارة التالية : "اننى أحبك ياسيد روس مسعود" . وتوطدت علاقة فورستر بمسعود على نحو يعتبره بعض الدارسين تمهيدا لصورة الصداقة الحميمة التى رسمها المؤلف فيما بعد بين الطبيب الهندى عزيز والمدرس الانجليزى فيلدنج فى روايته "رحلة إلى الهند" . وفى صيف ١٩١٠ قرر بعد أن انتهى من روايته "هواردز إند" ان يكرس وقته لممارسة

الرياضة أملا فى أن يحظى بإستجابة مسعود له من الناحية الجسدية . غير أن مسعود أعرض عنه بطريقة لبقة للغاية . فقد تعمد أن يروى له حكايات طويلة عن الأوقات السعيدة التى قضاها فى صحبة الفتيات . ولكن مسعود فاجأه بأن كتب إليه فى ٥ سبتمبر ١٩١٠ خطابا عبر فيه عن غرامه الشديد به ، الأمر الذى جعل نفس فورستر تضطرب وأشعل فيها نار الرغبة الكامنة . وفى صيف عام ١٩١١ سافر مع مسعود فى رحلة الى تيسيريت بالقرب من لوجانو بسويسرا باح لصديقه الهندى برغباته المشبوبة . وأظهر مسعود دهشته لذلك وأعرب عن أسفه . ولكنه لم يبتعد عنه أو يحاول أن يقطع صلته به . بل ظل يعامله بصداقة وود دون أن يمنعه ذلك من ملاحقة الفتيات فى كل فرصة تسنح له . وفى نهاية ذلك العام عاد مسعود إلى الهند حيث وافته المنية عام ١٩٣٧ . واستطاع فورستر أن يتغلب على ألم فراقه عن حبيب قلبه فقد كتب يقول : "اننى أتحمل رحيله الآن على نحو أفضل . لقد افترقنا عن بعضنا البعض ويبدو أخيرا أننا أصبحنا متماسكين" . وعلى أية حال يعترف فورستر فى مناسبة أخرى أن العلاقة بينهما أصابها شىء من الفتور فى نهاية الأمر .

الإسكندرية (كافافى ومحمد العدل)

فى فترة الحرب العالمية الأولى تطوع فورستر لخدمة الصليب الأحمر الذى أوفده للعمل فى مدينة الإسكندرية . وجندته وزارة الخارجية البريطانية عندما استشعرت أن تركيا

عدوتها تنوى غزو محميتها مصر والاستيلاء عليها . وانصب عمله فى الإسكندرية على البحث عن الجنود المفقودين .

وصل فورستر إلى ميناء بورسعيد فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٥ ومنها توجه مباشرة إلى الإسكندرية حيث أزمع البقاء فيها لمدة ثلاثة شهور . ولكن الأقدار شاءت أن يبقى فيها نحو عامين حتى انتهاء الحرب الأولى . وراقت الإسكندرية فى عين فورستر لجملة أسباب تتصل بتاريخها وسكانها الأجانب التى غصت بهم . يقول الدارسون أن تعداد سكان الإسكندرية فى عام ١٩١٧ (وهو الوقت الذى عاش فورستر فيها) بلغ ٤٥٠ ألف نسمة سدسهم من الأجانب وعلى وجه الخصوص اليونانيين والايطاليين إلى جانب بعض الانجليز والأرمن والسوريين . والذى لاشك فيه أن عراقة تاريخها الاغريقى والرومانى كان السبب المباشر لعشقه لهذه المدينة . ورغم زيه العسكرى لم يكن عمله بالإسكندرية عسكريا بل كان عملا مدنيا صرفا يتلخص فى زيارة المستشفيات لسؤال الجرحى من الجنود عن زملائهم المفقودين وتبليغ الصليب الأحمر بأسمائهم . ولعب هذا دورا حيويا فى بريطانيا فى التخفيف من كرب عائلات الجرحى والمفقودين . عرف فورستر الحرب عن كثب واستبشع فظائعها . فقد كتب إلى مسعود فى ديسمبر ١٩١٥ يقول له : "لقد اختفى الى الأبد كل ما يهمنى فى الحضارة . واننى أحاول أن أعيش بدون آمال أو مخاوف" . ويقع المستشفى الذى كان عمله يقتضى منه التردد عليه فى بقعة من أجمل بقاع الإسكندرية هى قصر المنتزه وشاطئها تحيط به الأشجار والورود الخلابة وكانت المستشفى التى يعالج فيها البريطانيون داخل القصر نفسه . وأصيب فورستر بالصفراء فبقى فى المستشفى حتى أبل من مرضه . وعلى شاطىء المنتزه اعتاد منظر العرى الجذاب .

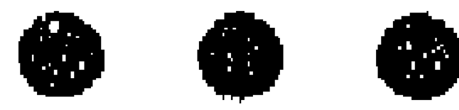
ولا غرو فقد كان الجنود الجرحى فى طور النقاهة يستلقون شبه عرايا على رمال الشاطىء الجميل فتقع أبصاره على أجسامهم البديعة الشكل والتكوين .

وفى الإسكندرية تعرف فورستر بالشاعر السكندرى الكبير اليونانى الأصل كافافى الذى تقابل معه لأول مرة فى مارس ١٩١٦ بعد وصوله إلى الإسكندرية بأسابيع قليلة . تعلم كافافى الأدب الانجليزى فى انجلترا الأمر الذى ترك بصماته الواضحة فى شعره اليونانى الذى أصدر الشاعر فيما بعد ترجمة انجليزية تولى بنفسه القيام بها . والجدير بالذكر أن كافافى استطاع بمسلكه الجنسى الشاذ وآرائه الجنسية غير المألوفة أن يؤثر أثرا بالغا فى أديبنا وأن يحرره تماما من قيود الأعراف والتقاليد . أى أنه نجح فى استكمال ما فعلته جامعة كامبردج به . وعندما التقى الأديب الانجليزى بالشاعر اليونانى حدثه كافافى برقته المعتادة قائلا : "ياعزيزى فورستر لن يكون بامكانك أن تفهم شعرى أبدا .. أبدا" . مشيرا بذلك إلى أن فورستر لا يجيد اليونانية . ثم أطلعه كافافى على قصيدة شعر بعنوان . "الآله يتخلى عن أنطونيو" . وتملكته الدهشة عندما اكتشف أن فورستر يتابعها بفضل تعلمه لهذه اللغة فى مدارس انجلترا . كان كافافى "الذى بدأ ممارساته الجنسية الشاذة فى العشرين من عمره" فى سن الخمسين عندما التقى بفورستر . ولم يخجل الشاعر اليونانى من الاعتراف له بشذوذه كما أنه لم يستح من حثه على السير فى نفس الطريق . وقد ترك هذا فى نفس مؤلفنا أعمق الأثر وحدد موقفه من الجنس الشاذ بشكل قاطع . بل إنه جعله بالفعل وليس بالقول أو النية يوم ظهره

للأعراف والتقاليد . ولم تمض بضعة شهور على تعرف مؤلفنا بكافافي حتى كتب إلى كاتمة أسراره فلورانس بارجر يسر إليها باعترافه : "أمس ودعت الحياة المحترمة لأول مرة في حياتي" . واللافت للنظر أنه كان في نحو الثامنة والثلاثين من عمره عندما فعل ذلك . وكانت تلك بداية انطلاقه . ففي عام ١٩١٧ وفي الترام المتجه إلى المنتزه تعرف فورستر بكمسارى ترام في الثامنة عشرة من عمره اسمه محمد العدل . ويبدو أن العاشق المصرى لم يقبل أن يستجيب استجابة كاملة لنزواته فقد آثر أن يحدثه عن الود والشعور الرقيق . واكتفى هذا العاشق بممارسة الاستمناء المتبادل معه . ويرجع تأخره الواضح في ممارسة الانحراف إلى شدة سطوة أمه عليه من ناحية وسطوة الأعراف والتقاليد الأخلاقية علية من ناحية أخرى . والجدير بالذكر أن الإسكندرية لعبت دوراً خطيراً في تحريره من هذه التقاليد والأعراف . ولم تدم علاقته بمحمد العدل طويلا فسرعان ما استدعاه الجيش للتجنيد . وغاب محمد العدل عنه سبعة شهور بأكملها ليعود اليه مشغول البال بوفاة أبيه وأخيه ومشاكل الميراث الناجمة عن وفاتهما . فضلا عن أنه كان يستعد للزواج . إن القليل من الممارسة الجنسية الشاذة مع العاشق المصرى كان يتم في سرية تامة وبعيدا عن الانظار والغريب ان عشاق فورستر كانوا متزوجين أو في الطريق إلى الزواج . ويعترف فورستر في أخريات أيامه بأن محمد العدل من الناحية الجنسية لم يخف اعراضه عنه وانه لم يستجب له إلا بدافع من الأدب والامتنان والشفقة . ويجدر بالذكر أن هذه الممارسات كانت تتم في العشش الأمر الذى جعلها تفوح برائحة التمرد الطبقى

على القيم البورجوازية من جانبُ بعض أفراد الطبقة المتوسطة . ويذكر ادوارد كاربنتر فى هذا الشأن أنه يجب أن يختار عشاقه من الذكور من ذوى العضلات المفتولة بين أبناء الطبقة العاملة . ويبدو أن اقدام البورجوازى على إقامة علاقة غير سوية مع الطبقات العاملة أو الدنيا يساعده على القضاء على عقدة الذنب التى تقف باستمرار عقبة فى هذا السبيل . على أية حال لم يقيض لمحمد العدل أن يعيش طويلا . فقد مرض ومات بداء الرقة فحزن عليه فورستر حزنا عظيما .

وبغض النظر عن انحرافه فقد ألهمت الإسكندرية مؤلفنا بتأليف الكتب التالية "الحكومة المصرية" (١٩٢٠) و"الإسكندرية تاريخ ومرشد" (١٩٢٢) و"فنار الإسكندرية القديم" (١٩٢٣) . ومن الواضح أن مؤلفنا تمثل روعة الإسكندرية فى عبق تاريخها الرومانى والاغريقى الخالد واستثار حاضر هذه المدينة فى مؤلفنا جلال الماضى وعظمته فعاش فيها بخياله ووجدانه قبل أن يعيش فيها بجسده .



لاشك أن عددا كبيرا من أعمال فورستر الخلاقة تشرب روح الشذوذ الجنسى الذى انتشر بين أساتذة جامعة كامبردج وطلبتها فى نهاية القرن التاسع عشر والذى نجد له وصفا مفصلا فى كتاب هولرويد عن ليتون ستراتشى . وقد تأثر كاتبنا بوجه خاص باثنين من أساتذة كامبردج الشواذ هما جولدزورثى لوويس ديكنسون وجون مالت تاجارت . نحن نجد اشارة إلى هذا الشذوذ فى العلاقة التى تربط بين ايوستاس وجينارو فى "قصة عن الذعر والفزع" (١٩٠٤

و"فيليب وجينو" فى قصة "حيث تخشى الملائكة أن تطأ أقدامها" (١٩٠٥) وريكى وستيفن فى رواية "الرحلة الطويلة" . ويظهر لنا هذا الشذوذ بصورة أوضح فى العلاقة بين بيب وجورج فى "حجرة تطل على منظر جميل" . ولم يعالج فورستر الشذوذ الجنسى بصراحة تامة إلا فى اثنين من أعماله هما روايته "موريس" (١٩٧١) وقصة "الحياة الأخرى" (١٩٧٢) ولكنه توخى الحذر فامتنع عن نشرهما فى حياته .

نبدأ بالحديث عن روايته "حجرة تطل على منظر جميل" .

حجرة تطل على منظر جميل :

تنقسم هذه الرواية إلى قسمين وتقع أحداث القسم الأول فى ايطاليا فى حين تقع أحداث القسم الثانى فى انجلترا . ويعالج القسم الأول الأثر الذى يتركه الانجليز الذين يزورون ايطاليا من بنى جلدتهم الموجودين فيها . أما القسم الثانى فيعالج الأثر الذى تتركه ايطاليا فى نفوس الانجليز الذين يعيشون فى انجلترا . ورغم أن أحداث القسم الأول تقع فى إيطاليا فإنه يركز على تصوير الشخصيات الانجليزية . حتى البنسيون الايطالى والذى ينزل فيه الزوار الانجليز وتديره سيدة إيطالية أقرب ما تكون إلى الفنادق والبنسيونات الانجليزية التى تظهر فيها الفوارق الطبقية بين النزلاء جلية واضحة .

تبدأ الرواية بوصف رحلة يقوم بها بعض الزوار الانجليز إلى مدينة فلورنسا تضم فتاة تهوى العزف على البيانو اسمها

لوسى التى حضرت إلى ايطاليا مرافقة قريبة لها اسمها مس بارتليت . وتشكو لوسى إلى رفيقتها باترليت من صاحبة البنسيون الايطالية التى وعدتها بحجرة تطل على منظر جميل ولكنها لا تفى بوعدها . ويسمع هذا الحديث الشاكى رجل انجليزى غريب اسمه إمرسون فيقحم نفسه فى الحديث ويعرض على لوسى ومرافقتها أن يترك لهما غرفته التى تطل على نهر الأرنو . فضلا عن أنه يحث ابنه جورج أن يفعل نفس الشىء . وتتضايق لوسى ومرافقتها من هذا التطفل وتسيئان الظن بالمستر إمرسون وابنه . وتذهب لوسى وحدها إلى حانوت فى ميدان السنيورة لتشترى مجموعة من الصور . ولكنها تشاهد فى الميدان رجلا ايطاليا يسفك دم رجل ايطالى آخر أمام عينيها ، فتتلطخ الصور التى اشترتها بالدماء ويغمى عليها وتسقط مغشيا عليها . وتشاء الظروف أن يكون جورج ابن إمرسون على مقربة منها فيبادر بإسعافها . وبمرور الوقت يتضح لها أنها أخطأت عندما أساءت الظن بجورج وأبيه . وتكتشف لوسى التى وعدت سيسيل بالزواج أنها بدأت تحب جورج وتصر على الزواج منه رغم اعتراض والدتها على هذا الزواج . وتنتهى الرواية بعودتهما إلى انجلترا حيث عقدا قرانهما وقررا السفر إلى فلورنسا كى يقيما فى نفس الغرفة التى تطل على منظر نهر الأرنو الجميل . ويصور فورستر تلقائية الايطاليين وتصرفهم على السجية . فهناك الحوذى الايطالى الذى كان يقل عددا من السواح الانجليز فإذ به ينشغل عن عربته وجياده وينصرف إلى تقبيل حبيبته الجالسة بجواره ، الأمر الذى أثار سخط السواح الانجليز عليه . ويمتدح مؤلفنا هذه التلقائية . وتتصرف لوسى بنفس هذه

التلقائية وبنفس الشاعر الايطالية الدافقة عندما تضرب عرض الحائط بنصيحة والدتها وتقرر الزواج من جورج .

يقوم البناء الروائي فى "حجرة تطل على منظر جميل" على سلسلة من المفارقات والتناقضات الموجودة فى شخصيات الرواية وفى خلفيات أحداثها والقيم التى تتضمنها. فشخصية إمرسون تتناقض مع شخصية إيجر وجورج يتناقض مع سيسيل ولوسى مع تشارلوت كما أن ايطاليا تتناقض مع انجلترا وضاحية سرى القريبة من لندن تتناقض مع لندن . والحياة فى عهد الاغريق والرومان تتناقض مع حياة القرون الوسطى والعاطفة المتأججة تتعارض مع العقل والغريزة مع التقاليد والأعراف . وهناك أيضا كاهنان على طرفى نقيض . فشخصية القسيس بيب (الذى تربطه علاقة شاذة بجورج ابن إمرسون) تتميز بالاستنارة والليبرالية ورحابة الصدر وطيبة القلب ، الأمر الذى يتعارض مع شخصية قسيس آخر اسمه إيجر متعجرف ومغرور . وفى بدء الرواية نرى بيب يدافع عن غرابة تصرفات إمرسون وينجح فى اقناعها بسلامة طويته مما جعلها تقبل أن تستبدل غرفتها غير الجميلة المنظر بغرفته ذات المنظر الجميل .

وإذا كان الشذوذ الجنسى لا يظهر فى الجزء الأول من الرواية فإنه يظهر بشىء من الجلاء فى الجزء الثانى منها وبالذات فى الفصل الثانى عشر منها . وهو الفصل الذى يصور منظرا للاستحمام والعرى من شأنه أن يلقى الضوء على شذوذ القسيس بيب الجنسى . وهو منظر له شبيه فى قصيدة "أغنية لنفسى" من تأليف الشاعر الأمريكى الشاذ

جنسيا . وتحدثنا هذه القصيدة عن مجموعة كبيرة من الرجال يجلسون بجوار الشط للاستمتاع بدفء الشمس وقد أظهروا أعضاءهم التناسلية دون اكتراث لما يثيره منظرها من رغبة واشتهاء فى النساء المارات . ويصور هذا المنظر العارى دعوة فريدى للقسيس بيب ورفيقه جورج إلى الاستحمام فى ماء بركة كانت لوسى تستحم فيها . وفى مبدأ الأمر يرفض بيب أن يخلع ملابسه الكهنوتية . ولكنه يغير رأيه عندما يرى الشبان يخلعون ملابسهم . وينتقل إليه حماس هؤلاء الشباب فيتخلى عن وقاره ويخلع ملابس الكهنوت ويلقى بجسده العارى فى الماء ويشعر بسعادة بالغة وهو يعاكس رفاقه ويرشهم بالماء ويطاردهم محاولا إرغامهم على الخروج منه . ويغتاظ منه رفاقه فيأخذون ملابسه الكهنوتية ويتقاذفونها فوق رءوسهم فيسقط لباس القس الداخلى فى الماء ويطفو على السطح . ويصل هذا المنظر ذروة الفكاهة والمرح عندما يخرج فريدى وجورج من الماء عاريين كما ولدتهما أمهما ويندفعان ليجدا نفسيهما أمام لوسى وأمها . ويلعب هذا المنظر دورا هاما فى توطيد علاقة الصداقة التى تربط بين فريدى وجورج ، ويخلص جورج من حالة الاكتئاب التى أصابته كما أنه يظهر الرغبات الجنسية الشاذة الكامنة فى نفس القسيس بيب . ومن السخرية الواضحة أن يصف المؤلف هذا المنظر العارى بنفس اللغة والرموز والأخيلة التى يستخدمها القساوسة فى ممارسة طقوسهم الدينية .

ولكن لا مناص من أن نؤكد أن الاشارات إلى الشذوذ الجنسى من هذه الرواية لا تعدو أن تكون مجرد إيماءات

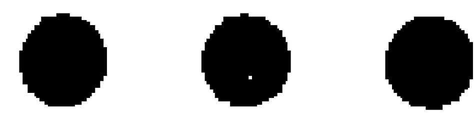
بخلاف ما نراه فى روايته "موريس" و"الحياة الأخرى" وهى مجموعة من ثمان قصص تحمل هذا العنوان . ولكننا نخطىء إذا ظننا أن فورستر فى أى من كتابته قادر على الكتابة فى

هذا الموضوع بصراحة .

رواية "موريس" :

يعيب بعض النقاد على رواية "موريس" أنها تبعث على السآمة والملل وأنها لا تقدم تحليلا لشذوذ موريس الجنسى كما أنها لا تشرح كيف تخلى كلايف عن نزعاته الشاذة ليعود إلى الحياة الجنسية السوية . والرواية تتضمن صورة عابرة لشخصية أديب معروف بشذوذه الجنسى هو ليتون ستراتشى كان لا يخجل من التصريح بشذوذه أمام الملأ . ويظهر هذا الرجل فى الرواية باسم ريسلى . وهو يتسم بالجرأة والتحدى فى البوح بشذوذه بعكس شخصية موريس الحانقة الوجلة التى تسعى الى إخفاء أفعالها قدر ما تستطيع عن الناس . وينحى ليتون ستراتشى باللائمة على فورستر لأنه فى روايته يشير بطرف خفى وغير ملحوظ إلى ممارسة موريس للعادة السرية فهو يحبذ أن يعالج المؤلف هذا الموضوع بقدر أكبر من الوضوح والصراحة . وكما سبق أن أشرنا فإن الأمر اللافت للنظر فى حياة فورستر الجنسية بل فى حياة الكثيرين من أترابه آنذاك ايثارهم للأمان وممارسة الجنس الشاذ فى بلاد بعيدة فكثيرا ما كان يسافر الى استكهولم لهذا الغرض . الى جانب عزوفه وعزوف أترابه عن ممارسة الجنس مع أبناء

طبقتهم البورجوازية وإقبالهم على ممارسته مع أفراد ينتمون إلى طبقة أدنى من الناحية الاجتماعية وهى الطبقة العاملة .



يذكر أ . م . فورستر فى ملحق الرواية التى كتبها من ألفها إلى يائها عن الشذوذ الجنسى بعنوان "موريس" والتى تتضمن جانبا من سيرة حياته أنه شرع فى تأليف هذه الرواية عام ١٩١٣ بعد أن قام بزيارة واحد من كبار المدافعين عن ممارسة الشذوذ الجنسى فى إنجلترا آنذاك هو إدوارد كاربنتر . بدأ كاربنتر (١٨٤٤ - ١٩٢٩) حياته كقسيس ولكنه سرعان ما نبذ الكهنوت بعد أن قرأ أشعار والت ويتمان وتأثر بها . واتجه إلى قرض الشعر ونادى بالاشتراكية وناصب التصنيع العداء ودعا إلى الحياة البسيطة . وساعده على ذلك أنه كان له دخل مستقل يغنيه عن الاعتماد على وظيفة أو الغير .

تعرف فورستر على إدوارد كاربنتر عن طريق الأستاذ الأديب الناقد لووس ديكنسون (١٨٦٢ - ١٩٣٢) وفى أثناء زيارته الثالثة لكاربنتر قابل فورستر عنده صديقاً لكاربنتر اسمه جورج ميريل . وتركت مقابلة فورستر لميريل فى نفسه عمق الأثر لدرجة أنها أوحت إليه بكتابة "موريس" . يعترف فورستر دون حياء أو خجل أن جورج ميريل هز كيانه عندما حسس ظهره برقة فوق الردفين ، الأمر الذى كان له مفعول السحر عليه من الناحيتين الجسدية والنفسية وجعله يمر بتجربة أقرب ما تكون إلى تجارب الصوفية واليوجا . وكما يبلغنا حركت فيه هذه التجربة الرغبة فى كتابة رواية

"موريس" التى جاءت إليه أحداثها وشخصياتها بمنتهى اليسر وانتهى من تأليفها فى زمن قياسى عام ١٩١٤ . ورغم أن فورستر امتنع عن نشرها بسبب حساسية موضوعها فإن هذا لم يمنعه من عرضها على قلة قليلة من أصفيائه وخلصائه من الرجال والنساء الذين أظهر كثير منهم إعجابا بها . حتى فكرة إنهاء الرواية نهاية سعيدة جاءت إلى المؤلف بمنتهى اليسر . ومن ثم ختمها بأن جعل بطلها الشاب موريس يعيش مع عشيقه أليك فى تبات ونبات وفى أحضان الطبيعة .

ويعترف فورستر أن شخصية موريس تختلف عنه فى عدة امور منها أنه لا يملك الفتنة الجسدية التى يملكها موريس . فضلا عن أنه لا يشبهه فى كسله العقلى وشعوره بالاستعلاء ونجاحه فى إدارة الأعمال ويضيف المؤلف أنه استقى شخصية موريس من طالب شاب عرفه معرفة شخصية فى جامعة كامبردج ، وأنه تعمد إضفاء الطابع الإغريقى أو الهيلينى (وهو ما سوف نعود إليه بالتفصيل) على شخصية كلايف زميل موريس بجامعة كامبردج . ويصور فورستر الحب المشبوب الذى يربط بين موريس وكلايف على أنه علاقة أفلاطونية مثالية لا تشوبها شوائب الجسد . وهى علاقة يعترف المؤلف نفسه بأنها أبعد ما تكون عن الواقعية .

وعندما قرأ ليتون ستراتشى (١٨٨٠ ـ ١٩٣٢) ـ وهو أديب وصديق لفورستر ـ مخطوطة الرواية اعترض على ديمومة العلاقة التى تطورت بين حارس الصيد أليك وموريس . قال ستراتشى إن مثل هذه العلاقة التى تقوم على

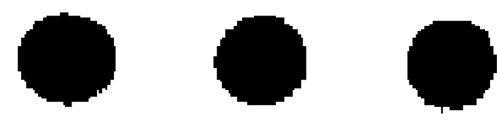
الشهوة وحب الاستطلاع لا يمكن لها أن تدوم ـ على أقصى تقدير ـ أكثر من ستة أسابيع .

يقول فورستر إنه سبق د . هـ . لورانس فى رسم شخصية حارس الصيد . فقد رسم هذه الشخصية فى يوليه عام ١٩١٤ أى قبل أربعة عشر عاما من رسم لورانس لشخصية حارس الصيد التى تدور حولها روايته المعروفة "عشيق الليدى تشاترلى" (١٩٢٨) . ويذكرنا فورستر أن أحداث رواية "موريس" تقع نحو عام ١٩١٢ أى قبل الحرب العالمية الأولى فى حين أن رواية لورانس تقع بعد نهاية هذه الحرب .

ولم يكن ليتون ستراتشى وحده الذى عاب على الرواية نهايتها السعيدة فقد عبر لووس ديكنسون ـ رغم إعجابه بها ـ عن عدم رضاة عن هذه النهاية السعيدة التى وصفها بالافتعال . وعرض فورستر رواية "موريس" على صديقه الجديد فورست ريد فعبر عن امتعاضه منها وأزواره عنها . الأمر الذى حفز مؤلفها إلى الدفاع عن موضوعها والقول بأن الشذوذ الجنسى بين الذكور أمر لا غبار عليه طالما أنه يقوم على موافقة طرفين راشدين وليس فيه شبهة الاكراه أو الاستغلال .

وعلى أية حال فلا مناص من القول إن المؤلف لم يكن مرتاحا إلى الجزء الرابع والأخير من روايته التى صور فيها سعادة العاشقين موريس وأليك بدليل أنه قام بإعادة كتابة بعض أجزائه مرتين الأولى فى عام ١٩١٩ والثانية فى عام ١٩٣٢ . فضلا عن أنه أدخل عليها تعديلات جديدة عام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ورغم السماحة التى طرأت على موقف الرأى

العام الإنجليزى من الشذوذ الجنسى فى الستينيات فى القرن العشرين فقد أصر فورستر على عدم نشرها إلا بعد وفاته رغم أن نشرها لم يكن يعرضه لأية مساءلة قانونية أو ضغوط أخلاقية . فنشرت لأول مرة عام ١٩٧١ .



قبل أن نعرض لرواية موريس يخلق بنا أن نقدم صورة مفصلة للحياة الجنسية عند الإغريق لأن هذه الرواية تدافع عن هذه الحياة ولا ترى فيها ما يعيب أو يخجل .

تلقى محاورة أفلاطون المعروفة بالمناظرة ـ التى تتردد الإشارة إليها فى رواية "موريس" ضوءا غامرا على تحبيذ الإغريق للممارسات الجنسية بين الذكور . يقول أفلاطون فى هذه المحاورة : "حيث إنه من المعترف به أن الإيروس (إله العشق الجنسى) هو أقدم الآلهة جميعا فإن الفضل يرجع إليه فى استمتاعنا بأعظم بركاته . فليس فى حياة أى شاب ما يفوق عثوره على عاشق فاضل وعثور مثل هذا العاشق الفاضل على حبيب قلبه بين الشبان إن الحسب والنسب والثروة ومظاهر التشريف والتكريم أو أى شىء آخر يعجز عن تعويض من يزمعون أن يحيوا حياة نبيلة طيلة أعمارهم عن فقدان الحب . فما الحب ؟ إنه الخجل من الإتيان بالأفعال المشينة والتطلع إلى القيام بالأفعال الطيبة التى بدونها يستحيل على أية مدينة أو فرد إنجاز أية أعمال عظيمة ونبيلة . ومن ثم فإنى أؤكد أن العاشق إذا تم ضبطه متلبسا بعمل أى شىء مشين أو متخاذلا عن الدفاع عن نفسه بسبب الجبن سوف يشعر بغصة الألم الممض إذا عرف حبيبه بأمر فعلته الشائنة أكثر

من تألمه فى حضرة أبيه أو اصحابه أو أى إنسان آخر . كما أننا نرى على نفس هذا النحو ان الشاب المعشوق يشعر بوجه خاص بالألم إذا رآه عاشقه وهو يرتكب الخطأ يقترف الإساءة . ولو أن هناك وسيلة تكوين الدولة أو الجيش من العشاق والأحباب فإنهم سوف يصبحون أقدر على إدارة الأمور على نحو أفضل من إدارة الآخرين لها بشرط أن يمتنعوا عن الإتيان بكل الأفعال الشائنة ويتنافسوا تنافسا شريفا فيما بينهم . مثل هؤلاء الرجال وأترابهم رغم قلة عددهم يمكنهم أن يهزموا العالم لأن الرجل الذى يعشق يشعر بالخزى من التخلى عن موقعه أو إلقاء سلاحه فى وجود حبيبه أكثر من أى إنسان آخر . وهو فى الغالب يفضل أن يفتدى حبيبه بحياته ويلقى الردى بدلا منه لأنه لا يوجد إنسان تبلغ خسته ونذالته مبلغا يجعله يتخلى عن حبيب قلبه ويتركه فى الوحل دون أن يمد إليه يد المساعدة عندما يرى الخطر يتهدده . فإيروس أو إله العشق نفسه سوف ينفث فى قلبه الشجاعة فيتصرف تصرفا يليق بأشجع الشجعان . والآلهة - كما يقول هوميروس - تنفث هذه الشجاعة فى أرواح بعض الأبطال ولكن الحب نفسه قمين ببثها فى نفوس العشاق والمحبين .

هذا ما قاله الفيلسوف أفلاطون فى محاورته "المناظرة" عن حب الذكور للذكور . "الجدير بالذكر أن الإغريق كانوا يعتبرون عشق الرجال للغلمان وساما يضعه هؤلاء الرجال على صدورهم كما كانوا يحتقرون الرجل الذى يفشل فى اجتذاب الغلمان إليه . فمثل هذا الرجل فى نظرهم لابد أن يكون عاطلا

عن المزايا والمواهب . ومن الخطل أن نظن أن علاقة الإغريق بالغلمان اقتصرت على شهوة الجسد فقد كانت علاقة روحية وأخلاقية بالدرجة الأولى أو هكذا ينبغى أن تكون . فالرجل بمثابة الأب الروحي للغلام الذى يعشقه ويتعهده بالرعاية ويزجى إليه النصح والإرشاد ويغرس فيه أسمى القيم والفضائل . ورأى الأغريق فى الغلام الجميل الممشوق القوام المثل الأعلى فى الجمال ، كما رأى الإغريق فى الذكور بوجه عام تجسيدا للفكر والعقل والحجى . وأدت هذه النظرة المتميزة من جانب الرجال ضد النساء إلى إهمال الإغريق تربية المرأة على نحو مشين . فالمرأة لا تعدو فى نظرهم أن تكون مجرد أم تنجب العيال وتعتنى بشئون المنزل . أى أنها مجرد وسيلة للحفاظ على النوع . وعندما حبذ الإغريق عشق الغلمان وفضلوه على عشق النساء لم يكونوا يقصدون بذلك الأطفال أو الصبية بل الغلمان البالغين . فالقانون الإغريقى ـ كما سوف نرى ـ كان يعاقب مضاجعة الأطفال . وكان أفضل عمر لعشق الغلمان عند الإغريق يتراوح بين الثانية عشرة والسادسة عشرة . أما سن السابعة عشرة فكانوا يعتبرونه مثلهم الأعلى في الحسن والصبا والجمال . وهو سن لا يفوز به غير الذكور من الآلهة وبالذات رب الأرباب زيوس الذى استأثر به دون الجميع .

يقول الباحثون إن اللواط قديم قدم العهد بين النساء بدليل وجود الرجال (الشواذ) جنبا إلى جنب مع المومسات فى المعابد فى سالف الزمان . ويستدل الباحثون على انتشار دعارة الرجال فى أثينا القديمة مما سطره الشاعر الفيلسوف والسياسى المشرع سولون فى هذا الشأن . ففى تشريعاته

يجرم سولون عشق طبقة العبيد للغلمان ويقصر هذا العشق على طبقة الأسياد أو الأحرار . فضلا عن أن تشريعاته توقع العقاب على كل غلام تسول له نفسه الاتجار بفتنته وجمال جسده . فعلاقة الرجل بالغلام لا ينبغى أن تقوم على المنفعة كما يتضح لنا من شكوى اسكينيس ضد الشاب تيماركوس ، ولكن ينبغى أن تقوم على الحب والود المتبادل . وهذا ما يؤكده الكاتب المسرحى الكوميدى أرسطوفان فى كتابه "بلوطوس" حيث يقول : "إنهم يقولون إن الغلمان يفعلون هذا الشىء ليس من أجل عشاقهم ولكن من أجل التربح والتكسب . ولكن أقول إن هذا ينطبق على النوع الأسوأ من اللواطيين لأن النوع الأفضل من الغلمان لا يطلب مالا مقابل هذا" .

ويشكو الكاتب ستراتون مر الشكوى من الغلمان الذين يتاجرون بجمال أجسادهم من أجل المال ويعيب عليهم أنهم لم يتلقوا التربية السليمة . فالغلام الذى أحسنت تربيته ويعشق حبيبه عشقا حقيقيا لا يقبل من عاشقه أكثر من تذكار أو هدية "رمزية" . ويحدثنا ليسياس أيضا باشمئزاز عن رجل أثينى أحب غلاما اسمه ثيودوتوس الذى وقع مع عاشقه عقدا لفترة طويلة يبيح لعاشقه أن يعاشره مقابل ثلاثمائة دراخمة . ورغم تجريم اتجار الغلمان بأجسادهم فقد انتشرت فى أثينا وبعض المدن الاغريقية مواخير يبيع فيها الغلمان والنساء أجسادهم لقاء المال . ولكن هؤلاء الغلمان فى العادة لم يكونوا من طبقة الأثينيين الأحرار بل من المهاجرين أو أسرى الحرب . ولعل أشهرهم هو فايدو الذى تحاور معه الفيلسوف سقراط محاورته

الشهيرة عن خلود الروح قبل أن يتجرع كأس السم وتفيض روحه ، وفايدو ينحدر من عائلة نبيلة من مدينة إيليس التى دخلت في حرب ضد مدينة إسبرطة . فسقط فى طفولته فى أيدى أعدائه الذين باعوه إلى الأثينيين فاشتراه صاحب بيت دعارة . وهناك تعرف به سقراط الذى طلب من أحد مريديه الأثرياء أن يقوم باقتنائه . وكثيرا ما كان وجهاء أثينا يذهبون إلى بيوت الدعارة ليختاروا لأنفسهم خليلا يستأجرونه ليسرى عنهم وعن رفاقهم فى المناسبات وأيام الأعياد والاحتفالات . ويجدر بنا أن نذكر أن المشرع سولون الذى سبق الإشارة إليه كان يمارس الشذوذ الجنسى . فضلا عن أنه المسئول عن سن التشريعات الخاصة بعدم أهلية العبد فى إقامة صلة جنسية بغلام أثينى حر ، الأمر الذى يؤكد اعتراف القانون الأثينى بظاهرة اللواط وإعلاء شأن الغلام الحر على الرجل العبد وسن سولون تشريعات تستهدف حماية الأطفال من أعتداء الراشدين الجنسيين عليهم لأن مثل هذه العلاقة الحميمة ـ كما أسلفنا ـ لابد أن تنهض على الود والحب المتبادل . والجدير بالذكر أن قوانين أثينا كانت فى منتهى الشدة والصرامة وتوقع غرامة كبيرة على كل من يثبت أنه ألحق غلاما أثينيا في بيت من بيوت الدعارة حيث يتاجر بجسده . ولكن صرامة هذه القوانين لم تجد فتيلا من الناحية العملية . فقد كانت هناك دائما وسيلة للتحايل على القوانين إذ كان بإمكان أى غلام أثينى يتاجر بجسده أن يتظاهر بأنه يفعل ما يفعل بسبب الود والحب المتبادل وليس بسبب المال وعلى كل حال كانت كل القوانين تنطبق على الأغريق وحدهم دون العبيد والمهاجرين وأسرى الحرب .

يقول الشاعر الألماني المعروف جوته إن عشق الرجال للغلمان قديم قدم الإنسانية . وهو رأى يؤيده العلم الحديث . ويرجع تاريخ أول سجل أدبى لهذه الظاهرة إلى أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة عام . فقد تناولت هذا الموضوع إحدى البرديات المصرية القديمة . الأمر الذى يدل على انتشار هذه الظاهرة فى مصر القديمة . أضف إلى هذا أن الأساطير الإغريقية الموغلة فى القدم تفيض بالإشارات الكثيرة إلى قصص عشق الذكور للذكور . فالشاعر هوميروس يحدثنا فى الإلياذة عن الحب الذى يحمله الشاب أشيل للغلام باتروكلوس . وفى ملحمة الأوديسا أيضا يخبرنا هوميروس أنه بعد موت أشيل حل أنتيلوكوس محله فى عشق باتروكلوس ، الأمر الذى يدل على أن الشاعر الإغريقى هوميروس لم يكن يتخيل أن بإمكانه تصوير بطل فى أى قصيدة ملحمية له دون أن يكون لهذا البطل غلام يعشقه ويشير الكاتب التراجيدى اسخيلوس إلى وجود علاقة شهوانية بين كل من أشيل وباتروكلوس .

ويخبرنا تيميوس أن سكان جزيرة كريت هم أول من استحدثوا عشق الغلمان وأدخلوه فى بلاد اليونان القديمة . ويقول الفيلسوف أرسطو إن دولة كريت لم تكتف بتنظيم هذه الممارسة فحسب بل شجعت عليها باعتبارها وسيلة فعالة لتحديد النسل ، والغريب أن سكان جزيرة كريت اعتبروا هذه الممارسة نشاطا قوميا . والدليل على ذلك أن سائر الإغريق اعتبروا أن رب الأرباب زيوس هو الذى اغتصب الفتى المليح جانيميد فى حين يزهو أهل كريت بأن ملكهم العجوز هينوس

هو الذى قام بفعل ذلك ، ويشير هذا إلى شيوع ظاهرة اغتصاب الغلمان فى كثير من المدن الإغريقية بوجه عام وفى جزيرة كريت بوجه خاص ، ولم تكن طلعة الغلام البهية هى سر انبهار الرجال الإغريق به . فقد كانت شجاعته أهم بكثير من جماله . واغتصاب الغلمان ـ كما يقول المؤرخ المعروف بلوتارك ـ كان شائعا أيضا فى مدن كورينثيا وأرجوس وطيبة الإغريقية . غير أن شيوعه لم يكن مؤكدا فى مدينة أسبرطة .

إن الأدب الإغريقى يفيض بالإشارات التى لا تنتهى إلى فتنة الغلمان وسحرهم مثلما نجد فى ترانيم هوميروس الذى يصف اغتصاب المليح جرانيميد بكثير من التفصيل وأيضا فى ملحمته "الأوديسا" التى تروى لنا كيف التقى أوديسيوس أثناء تجواله فى جزيرة سيرسى بفتى فاتن غض الاهاب غير معروف لديه اسمه هيرميز ، ويحدثنا أفلاطون فى بداية محاوراته "بروتاجوراس" عن عشق الفيلسوف سقراط للغلام المليح اليسباديس الذى ما انفك هذا الحكيم يلاحقه فى كل مكان . وعندما علق واحد على أن مظاهر الرجولة بدأت تلوح على هيئة هذا الغلام وأن لحيته أخذت تنمو رد سقراط على هذا بقوله : "وماذا فى ذلك ؟ ألا توافق هوميروس على رأيه القائل : "الشاب يتحلى بأكبر قدر من الحلاوة والفتنة عندما تبدأ لحيته فى الظهور وفيها يكمن سحر أليسباديس" . ويذكر ديوجنيس أن سقراط فى حداثته كان معشوقا لمعلمه أرشيبلوس وهو رأى يؤكده بورفيريوس الذى ذكره أن سقراط وهو غلام فى السابعة عشرة من عمره ـ كان راضيا بعشق أرشيبلوس له منغمسا معه فى الملذات والشهوات التى هى أساس الطاقة التى تحولت فى سنى نضجه إلى حماس للعمل

العقلى والنشاط الذهنى المنقطع النظير . ونحن نرى أن سقراط فى كتابات أكسينوفون يصرح بأنه يعشق الذكور فى أعماقه وبكل كيانه ، الأمر الذى يجعلهم يسعون إلى حضرته . وهناك تطابق كامل فى هذا الشأن بين الرواية التى أوردها أفلاطون فى "المناظرة" ورواية "أكسينوفون" عن عشق سقراط الجارف للذكور وحبه العميق للغلام أوتولايكوس . يقول أكسينوفون على لسان سقراط أنه عندما جلس بجوار الغلام المليح كريتوبولوس شعر بألم ممض يسرى فى نخاعه كما لو أن حيواناً قد لدغه . ولكن الصورة التى يرسمها أكسينوفون لسقراط صورة متناقضة . فهو يجعل سقراط كثيرا ما يحذر الشباب من مغبة الوقوع فى هوى الغلمان لأن هذا الهوى فى تقديره أشد فتكا من السم الزعاف . وهى صورة تتفق مع ما أورده أرسطوفان فى مسرحيته الكوميدية المعروفة باسم "السحاب" التى تسخر من سقراط سخرية لاذعة تخلو تماما من كل إشارة إلى عشق هذا الحكيم للغلمان عشقا جسديا شهوانيا . وتأسيسا على هذا يذهب الباحثون إلى أن سقراط فى سنى نضجه عشق الشباب عشقا روحيا وفكريا وأنه أراد أن يرشدهم إلى الحياة العقلية ويبتعد بهم عن الانزلاق فى هدة الرغبات الجسدية .

ومن الملاحظ أن الأدب الإغريقى يمجد بهاء الشباب الغلمان الذين اعتادوا قضاء الساعات الطوال فى ممارسة رياضة وهم عرايا كما ولدتهم أمهاتهم فيبدون بقوامهم ممشوق فتنة للناظرين ، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره تغنى شاعر هوميروس فى الإلياذة بجمال الغلام نيريوس الذى

يفوق فى جماله كل شباب الإغريق . ونحن نطالع فى الإلياذة أيضا كيف أن الملك العجوز بريام سعى إلى لقاء الشاب أشيل الذى سفك دم ولده هكتور مطالبا إياه برد جثة ابنه إليه . فما إن وقعت أنظاره على وجه أشيل حتى بهت بفتنته ووقف مبهورا أمام جمال ذلك الشاب الذى ذبح فلذة كبده .

والجدير بالذكر أن الاغريق لم يعبروا عن ولههم بالغلمان فى إنتاجهم الشعرى والنثرى فحسب (وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل) بل فى الرسم والفنون التشكيلية أيضا ، وخاصة تلك الرسوم التى خلفوها على أوانى الزهور . فعدد الغلمان المرسومين على هذه الأوانى يفوق بكثير عدد الفتيات . فضلا عن أن الرسام الإغريقى كان لا يرى فى الجمال الأنثوى أى جمال إلا إذا كان شبيها بجمال الغلمان .

وفى مجال الشعر يثنى الشاعر بندار فى ديوانه "نيميا" عاطر الثناء على حلاوة الغلمان .. ويفعل الشاعر الغنائى ليسمنيوس نفس الشىء فهو يروى لنا عشق هيبنوس إله النوم وهيامه بعيون الشاب أنديميون لدرجة أنه منعه من إغلاق عينيه أثناء النوم حتى يتملى بمنظرهما الجميل . ومن الضرورى أن ننبه فى هذا الصدد أنه لا شىء استأثر بأفئدة الإغريق فى أجساد الغلمان أكثر من العيون التى تغنى بجمالها الشعراء . ولعل الكاتب المسرحى أرسطوفان أفضل من عبر عن فتنة هذه العيون فى مسرحيته "عشاق أشيل" وفى وصفه لسحر عيون الغلام بيلوبس .

ويصف الشاعران ميليجر وكاليمالوس روعة الغلمان كما أن الكاتبين المسرحيين المعروفين سوفوكل ويوربيديس تغنيا فى

أدبهما بجمالهم . ويزخر شعر الإغريق الغنائى والملحمى على حد سواء بتقريظ الغلمان .

وقد جاء فى سير الأقدمين عن الشاعر الأسطورى أورفيوس أنه بعد أن رحلت زوجته عن الدنيا شعر بالوحدة المضنية فذهب إلى بيته فوق جبل تراس ليعيش فيه وجاءت إليه الفتيات والنساء من كل حدب وصوب والتفقن حوله يحاولن أن يسرين عنه فى لوعته وفجيعته ولكنه أبى أن يستجيب لهن بسبب إصراره على الوفاء لذكرى زوجته . وقد أورد الشاعر أوفيد فى هذا الشأن فقرة يدعو فيها أورفيوس الأزواج الذين فقدوا زوجاتهم ويحرصون على استمرار الوفاء لهن أن يفرجوا عن كربهم عن طريق معاشرة الغلمان . ومن المفارقة الشديدة أن يرتبط اسم أورفيوس فى أذهان المحدثين بالتفانى والإخلاص المنقطع النظير لزوجته فى حين يذهب الأقدمون وعلى رأسهم الشاعر أوفيد إلى أن أورفيوس هو المسئول عن تعليم أهل تراس معاشرة الغلمان .

وهناك الشاعر الملحمى هسيود أحب غلاماً اسمه باتراخوس أوحت إليه وفاته الباكرة بنظم مرثية عنه .

أما الشاعر الملحمى فانوكليس فقد نظم عدداً من المرثيات التى تروى تاريخ عشق الغلمان عند الإغريق فى قالب شعرى وهى مرثيات تتضمن حكايات كثيرة عن حب الآلهة والأبطال للغلمان . والجدير بالذكر أن آباء الكنيسة المسيحية أمثال كليمنت السكندرى ولاكتايتيوس وأروستيوس استشهدوا بقصائد فانوكليس للتدليل على إباحية وفسق الوثنية . وهناك أيضاً الشاعر ديوتيموس الذى نظم ملحمة فى كفاح هرقل

ذهب فيها إلى أن السبب فى إتيان هرقل بالأعمال الجبارة يرجع فى واقع الأمر إلى عشقه للغلام إيوريستيوس . وكذلك الشاعر أبولونيوس من رودس الذى اشتهر بنظم قصيدة طويلة بعنوان "مغامرات أرجويوتس" فى أربعة دواوين تحكى فيما تحكى قصة غرام هرقل للغلام هيلاس . فضلاً عن أن الشاعر نوفوس ألف قصيدة طويلة تتضمن إشارات إلى الموضوع بعنوان "حياة وأعمال دينسيوس" وهى ملحمة تدور حول رحلة هذا الإله الظافر إلى الهند وحول عشقه للغلام أمبيلوس . ولا يخشى الإله دينسيوس شيئاً قدر خشيته من أن يروق الغلام أمبيلوس فى عين رب الأرباب زيوس فيخطفه . ويموت الغلام أمبليوس فيلعن الإله دينسيوس خلوده كإله ويتمنى لو كان بشراً فانياً وليس إلهاً خالداً حتى يتمكن من اللحاق بعشيقه فى وادى الموت . وفى كربه لا يجد دينسيوس خلاصا من شقائه سوى الوقوع فى غرام جديد يشفيه من غرامه القديم . وهناك آلهة كثيرون يشاركون كلا من زيوس وديسيوس نفس الهوى مثل الإله بوسيدون الذى سحره جمال نبيلوس والإله أبولو الذى سحره جمال هياسينثوس . وهناك أيضاً الإله هرميز الذى وجده فى حلاوة كادموس ما يخلب لبه .

ومعنى هذا أن الآلهة الإغريق شاركوا الشعب الإغريقى فى استملاح الغلمان والافتتان بجمالهم . ونذكر فى هذا الصدد أن أب الكنيسة كليمنت السكندرى توفر على دراسة للأساطير الإغريقية وأحصى عدداً هائلاً من الإشارات إلى حب الذكور بين الآلهة والأبطال الإغريق كى يدلل بذلك على إباحية الحياة الإغريقية . ولكن حب الإغريق للغلمان لم

يمنعهم أحياناً من إطلاق النكات علي هذه الممارسة . يقول الشاعر الكبير هوراس إنه ليس مطلقاً ما يمنع من معالجة أى موضوع جاد على نحو مازح وخفيف . ويحتوى ديوان المختارات الشعرية الذى تركته لنا اليونان القديمة معالجة ساخرة للرجال الذين يتحولون إلى نساء فى حضرة غيرهم من الرجال . وهو الموضوع الذى أثار سخرية الكاتب الكوميدى المعروف أرسطوفان الذى أطلق على مثل هؤلاء الرجال بعض أسماء النساء .

وبالرغم من أن الشعر الغنائى الإغريقى انصرف فى كثير من الأحيان إلى التعبير عن عشق الرجال للغلمان فإن كثيراً من هذا الشعر باد واندثر ولم يبق منه سوى شذرات مثل أبيات الشاعر ثيوجنيس فى القرن السادس قبل الميلاد الذى عشق غلاماً اسمه سيرنوس . وتعهد الشاعر بحسن تربية الغلام الذى ازور عنه . وقد شاعت أبيات الشاعر ثيوجنيس لدرجة أنها أصبحت شيئاً أشبه ما يكون بالكتاب المدرسى . وعن طريق أفلاطون وصلت إلينا كثير من أقوال سقراط فى هذا الشأن مثل غزله فى الغلامين أجاثون وديون .

وهناك أيضاً تلك الشذرات الغنائية التى خلفها الشاعران أرشيلوكوس وأليسيوس حول هذا الموضوع . ويذهب شيشرون إلى أن الشاعر أبيكوس نذر كل حياته للإشادة بالغلمان . وعن الشاعر أناكريون يقول شيشرون إنه خصص كل شعره لمدح الغلمان مثل امتداحه لشعر سميرديس المجعد وعيون كليوبولوس وشباب باثيلوس الغض .

ويعتبر بندار الذى عاش فى الفترة بين عام ٥٢٢ وعام

٤٤٢ قبل الميلاد أعظم شاعر غنائى أنجبته اليونان القديمة . تغنى بندار فى شعره بصداقة الغلمان .

ويقال إن الآلهة منحته الغلام الجميل ثيوكسينوس تقديراً لموهبته . وأثناء حضور هذا الشاعر مسابقة فى ملعب أرجوس الرياضى داهمته نوبة قلبية فاستند إلى صدر الغلام وفاضت روحه وهو بين ذراعيه . وأيضاً من أشهر القصائد الغنائية التى خلفها الإغريق وراءهم ثلاثون قصيدة رعوية نظمها الشاعر ثيوكريتوس الذى عاش تقريباً فى الفترة بين عامى ٣١٠ و٢٤٥ قبل الميلاد . وقد كرس هذا الشاعر ثمانية من قصائده الثلاثين تكريساً كاملاً لعشق الغلمان . ومن أبدعها قصيدتان إحداهما بعنوان "أحباء القلب" والأخرى بعنوان "عيد الحصاد" . وأيضاً من أبرز دواوين الشعر التى تركها الإغريق ديوان يعرف باسم مختارات الشعر الذى سبق الإشارة إليه أو مختارات بالاتينوس . ويدور الجزء الثانى عشر من هذه المختارات بأكمله حول عشق الغلمان ويحتوى فيما يحتوى على أربع وتسعين قصيدة كتبها الشاعر الإغريقى البارز ستراتون (الوافد من ساردييس) الذى بدأ قصائده باستلهام زيوس رب الأرباب الذى ضرب للبشر أعظم مثل يحتذى فى عشق الذكور عندما قام باختطاف الغلام جرانيميد والهرب به .

وهناك أيضا الشاعر مليجر الذى سبق الإشارة إليه والذى نظم قصائد الغزل فى مدح عشيقه المفضل الغلام ميسيكوس . ويكرس هذا الشاعر سبعا وثلاثين قصيدة من مجموع قصائده الستين المنشورة فى ديوان المختارات

الشعرية فى التنويه ببهاء ميسكوس وبالذات ببهاء عيونه . يقول مليجر مدافعاً عن عشق الغلمان : "إن المرأة سيبريس هى التى تصنع فى صدورنا لهيب الرغبة المتأججة فى النساء ولكن الحب نفسه هو الذى يأمرنا بالرغبة فى الغلمان . فأين أتوجه . هل أتوجه إلى عشق الغلام أم إلى عشق أمه .

أؤكد لكم أنه حتى سيبريس نفسها سوف تحكم لصالح الولد الشقى" .

والشاعر أسليباديس يعتبر معلم ثيوكريتوس ويحتوى ديوان المختارات على إحدى عشرة قصيدة نظمها أسليبادوس للتغزل فى الغلمان . أما الشاعر والعالم كاليماكوس الذى عاش فى الفترة من ٣١٠ إلى ٢٤٠ ق . م . تقريباً فقد انتقل بعد دراسة العلوم فى أثينا إلى مدينة الإسكندرية حيث أصبح واحداً من أبرز علماء اللغة فيها وعمل فى بلاط البطالمة وساهم بدور فعال فى إدارة وتنظيم مكتبة الإسكندرية .

ويحتوى ديوان المختارات الشعرية على ما لا يقل عن اثنتى عشرة قصيدة نظمها هذا الشاعر فى التشبيب بالغلمان . وإلى جانب هؤلاء الشعراء البارزين يحتوى ديوان المختارات الشعرية على أشعار أربعة وعشرين شاعراً أقل مرتبة امتدحوا عشق الذكور للذكور أمثال الشعراء ديوسكوريدس وريانوس وألكيوس وألفيوس وأوتوميدون وإيفينوس وجوليوس ليونيداس وغيرهم .

قلنا إن الإغريق لم يقصروا دفاعهم عن عشق الغلمان على

الشعر فقط . ففى مجال الكتابة النثرية ألف ديموستنيس رسالة بعنوان "الحب الجنسى" تدافع عن هذا العشق من الواضح أنها تأثرت بكتاب "فايدروس" لأفلاطون . غير أن أهم كتاب سطره الإغريق فى الدفاع عن حب الذكور للذكور هو كتاب "المأدبة" وهو الحوار المعروف باسم "المناظرة" والذى يعتبر من أبدع ما سطره يراع الفيلسوف أفلاطون على الإطلاق . وقد ألفه أفلاطون بعد عدة سنوات على مرور حفلة غداء أقامها الكاتب التراجيدى أجاثون ودعا إليها أصدقاءه : سقراط وفايدروس ويوزانياس وإريكسيماكوس وأرسطوفان . وبعد أن تناول الحاضرون الغداء ومع بداية تناولهم للمشروبات اقترح أحد الموجودين وهو فايدروس مناقشة موضوع هام هو العشق الجنسى . وتحدث الكاتب المسرحى أرسطوفان فعرف الحب فأنه بحث الإنسان الذى شطرته الآلهة نصفين .

ولكن أهم الأحاديث التى دارت فى هذه الحفلة ذلك الحديث الذى ورد على لسان سقراط وفيه يقول : إن الحب هو تعبير عن سعى الإنسان إلى الخلود . فالحب يضع فى جسد المرأة وأحشائها بذور الإنجاب كما أنه يبذر فى أرواح الغلمان والشبان الحكمة والفضيلة . ويذهب سقراط إلى أن العشق هو المثل الأعلى الذى يجمع بين الروح والجسد فى انسجام رائع وبديع . وما أن فرغ سقراط من حديثه الرائع حتى دخل غلامه أليسبياديس وهو فى حالة سكر خفيف وقد جاء لتوه من مأدبة أخرى ليقرظ سقراط ويثنى عاطر الثناء عليه ويعتبره مثلاً يحتذى فى الحياة الذهنية والقدرة على ضبط النفس . ويفوق كتاب أفلاطون "المناظرة" فى إبداعه وجمال صياغته كتابه

الآخر "أليسيباديس" الذى يدور حول عشق سقراط لهذا الغلام . كما أن كتابه "فايدروس" يعالج أيضاً موضوع عشق الغلمان .

ويعالج كتاب "العشاق" الذى لا ينهض دليل على نسبته إلى أفلاطون موضوع المقارنة بين عشق الذكور للإناث وعشق الذكور للذكور . والكتاب عبارة عن مناظرة بين رجلين أحدهما كونيثى اسمه كاريكليس يدافع عن حب الرجل للمرأة والآخر أثينى اسمه كاليكراتيداس يدافع عن حب الرجال للغلمان .

ويقوم ليسينوس بدور الحكم فى هذه المناظرة بين الرجلين .

ويصل ليسينوس إلى رأى يعتبر أصدق تعبير عن موقف الإغريق فى هذا الأمر . فهو يقر أن الزواج شىء لا غنى عنه وخاصة إذا كان موفقاً . ومن ثم ضرورة شيوعه بين كل البشر فى حين أن عشق الغلمان هو دلالة الحكمة والحجى ولهذا نراه يحبذ قصر ممارسته على صفوة المجتمع وحكمائه .

وقد أصابت هذه المناظرة ذيوعاً كبيراً بين الإغريق لدرجة أن كثيراً من الكتّاب قاموا بمحاكاتها فى أعمال أدبية مماثلة مثل الكاتب أشيل تاتيوس . ويروى لنا أكسينوفون قصة الغرام المشبوب الذى ربط بين هيبوثوس والغلام هيبر رانثوس الذى اشتراه تاجر ثرى اسمه أريستوماكوس وسافر به إلى بيزنطة حيث تبعه عاشقه . وبدافع الغيرة أجهز هذا العاشق على التاجر الثرى ولاذ بالفرار مع حبيب قلبه . ولكن عاصفة هوجاء تهب على السفينة التى تقل العاشقين فيغرق

الغلام فى اللجج والأنواء . ويصيب الكمد هذا العاشق ويغمر قلبه المكلوم فيقيم نصباً جميلاً فى ذكرى حبيبه الذى اختطفه الموت منه . ولا يجد هذا العاشق مخرجاً من يأسه وقنوطه سوى الهيام على وجهه بعد أن تحول إلى لص وقاطع طريق .

ولكن عشق الغلمان فى المجتمع الاغريقى لم يقف عائقاً أمام نظام الزواج فقد كان الرجل الإغريقى ذا طبيعة جنسية مزدوجة . وبطبيعة الحال لم تقبل الزوجات الإغريقيات نظام عشق الغلمان عن رضا وطيب خاطر وهو الأمر الذى يتضح مما أجراه نص مسرحى كوميدى مجهول المؤلف على لسان إحدى الأثينيات التى صرحت بأنها لا تكترث بمعاشرة رجل يرغب بدوره فى أن يعاشره رجل آخر .

وأخيراً لا ينبغى أن يفوتنا أن نكرر ما سبق أن ذهبنا إليه من أن الاغريقى العاشق كان مسئولاً مسئولية كاملة عن حسن تنشئة عشيقه . وقد أورد بلوتارك فى هذا الشأن قصة مفادها أن غلاماً فى حومة الوغى ندت عنه صرخة مدوية رهيبة فوجهت الدولة فيما بعد اللوم لعاشق هذا الغلام وأنزلت به أشد العقاب لأنه فشل فى غرس الشجاعة والإقدام فى نفس معشوقه صحيح أن الكاتب الناشر لوسيان يكرس أحد مختاراته بالكامل لاستجلاء طبيعة الجمال عند الذكور وصحيح أيضاً أن الإغريق انبهروا بجمال عيون الغلمان . ولكن جمال الغلام الجسدى لم يكن كل شىء فى نظر المجتمع الإغريقى فهناك فضائل يجب على الغلام أن يتحلى بها مثل الشجاعة وجمال الروح .

ليس هناك بد من هذه المقدمة الضافية حتى نتمكن من

فهم رواية "موريس" لـ "ا . م . فورستر" على النحو الصحيح فهذه الرواية تدافع بصراحة عن تبنى موقف الإغريق الإباحى من الجنس .

بالرغم من أن رواية "موريس" تعالج موضوعاً شائكاً هو الشذوذ الجنسى بين الذكور فإنها تخلو تماماً من كل أثر للبذاءة بالعكس فإن كل كلمة فيها تتميز بالأناقة والرشاقة والبعد الكامل عن الفحش أو حتى مجرد الغلظة أو الخشونة فالرواية تعتمد على الإيماءات الجنسية الخبيئة ولا تستفز القارىء أو تصدم مشاعره بأية ألفاظ نابية .

تصور رواية "موريس" شخصيتها الرئيسية (التى تشبه شخصية المؤلف فى انحرافه عن السلوك الجنسى الطبيعى) وهو يتأهب لمغادرة مدرسته الثانوية الخاصة استعداداً للالتحاق بجامعة كامبردج . ولم يكن موريس طالباً نابهاً أو محباً للعلم بل هو كسول يحجم عن بذل أى مجهود ذهنى . فضلاً عن أنه كثير الشرود فى الفصل مما جعله يتعرض لعقاب مدرسيه من آن إلى آخر . وينحدر موريس الذى يتمتع بقدر غير عادى من الوسامة من أسرة ميسورة تقطن الريف مات عائلها وترك وراءه إلى جانب موريس أرملة وبنتين فى سن الزواج هما أدا وكيتى . وقبل أن يغادر موريس مدرسته حرص أقدم المدرسين المستر لوسى على إزجاء النصح الجنسى له وتبصيره بأمور الدنيا . وينتهز هذا المدرس فرصة الرحلة التى تنظمها المدرسة لتوديع خريجها موريس لينتحى به جانباً على الشاطىء ويشرح له طبيعة العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى . والغلام يبدو وكأنه فى حقيقة الأمر لا يعى

شيئا مما يقوله مدرسه . وعلي رمال الشاطىء يرسم المستر دوسى لتلميذه رسماً توضيحياً يبين اتصال الذكور بالإناث . غير أن الفزع يصيب الرجل حين يكتشف أن الشاطىء لا يخلو من الزائرين . ولا يطمئن باله حتى يأتى المد فتغطى أمواجه رسومه البيانية . والجدير بالذكر أن المدرسة الخاصة التى تخرج فيها موريس هى نفس المدرسة الخاصة التى سبق لأبيه أن تعلم وتخرج فيها .

وفى سنى مراهقته كانت الأفكار البذيئة تراود موريس ليس أثناء الصلاة فى الكنيسة فحسب بل أيضاً أثناء المناولة . ورغم هذا فقد كان إيمانه بالدين المسيحى وبوجود الله إيماناً عميقاً ظل يحتفظ به حتى تعرف بطالب اسمه كلايف درام فى جامعة كامبردج ، وتوثقت العلاقة بينهما .

كان كلايف شاباً مرهف الحس مغرماً بالموسيقى الكلاسيكية ومتفوقاً فى دراسته للغة الإغريقية . وفى حداثته نبذ كلايف درام الدين المسيحى وتبنى الموقف الهلينى الذى سبق أن شرحناه بالتفصيل والذى يحبذ الممارسة الجنسية بين الذكور .

وصدم هذا الشاب المتمرد أمه المتدينة وأخواته البنات (فقد توفى والده) عندما صرح أمامهن بإلحاده .

وتوثقت العلاقة الحميمة بين موريس وكلايف درام فأصبح الواحد منهم يشاهد وهو يسير متأبطاً ذراع زميله . ومن المفارقة أن بعض أساتذة الجامعة كانوا أسرع إلى ملاحظة تطور العلاقة الحميمة بين الشابين من زملائهما الطلبة .

وعندما جمعتهما حجرة معيشة طلابية واحدة لم يجد كلايف درام أدنى غضاضة فى الجلوس على الأرض تحت قدمى موريس والسماح لموريس أن يربت على شعر رأسه . وتحت تأثير كلايف بدأ إيمان موريس بالدين يهتز . وأشار كلايف على صديقه أن يقرأ "المناظرة" وهى ذلك الجزء من محاورات أفلاطون الذى يدافع عن الشذوذ الجنسى . غير أن موريس الكسول لم يأبه بذلك فى بادىء الأمر .

وفى أثناء إحدى الإجازات الجامعية زار موريس أهله فى الريف حيث التقى بفتاة اسمها جلاديس أو كلوت حاول أن يغازلها ولكنها نهرته بشدة وطلبت منه أن يكف عن ذلك العبث . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى إدراكها بالغريزة إنه فى واقع الأمر لا يصلح أصلاً لمعاشرة النساء . وبطبيعة الحال صرفته هذه التجربة الفاشلة عن الاختلاط بالنساء ودفعته أكثر وأكثر إلى بنى جنسه من الذكور .

وفى يوم من الأيام صرح كلايف درام لموريس أنه متيم به . فبهت موريس لهذا القول واعتبره إساءة بالغة . وخجل كلايف من نفسه عندما وجد أن صديقه موريس لا يستجيب لمشاعره فطلب إليه ألا يخبر أحداً بما دار بينهما . ومن جانبه حاول موريس (الذى لم يكن قد اكتشف نوازعه الحقيقية بعد) أن يتظاهر بأنه إنسان سوى وطبيعى وأنه يجد متعة فى مخالطة النساء . ولكنه أدرك فى النهاية أن مثل هذا التظاهر لن يجديه فتيلاً ، كما أدرك أنه مشدود إلى عالم الرجال بوشائج لا تنفصم عراها أبدا . وهو الأمر الذى جعله رغم كسله يقبل على قراءة "المناظرة" التى أوصاه صديقه

بقراءتها . ويحاول موريس أن يناقشها مع صديقه كلايف الذى يرفض ذلك لأن موريس سبق أن صده وجرح كبرياءه ومشاعره . واضطر موريس فى نهاية الأمر أن يعود إلى صديقه راضخا ومستسلماً ليعترف له بأنه يبادله الشعور بالحب . وهكذا تطورت علاقة العشق بين الشابين غير أنها ظلت علاقة بريئة ونوعا من العشق العذرى أو الأفلاطونى .

ولاحظ عميد الكلية أن موريس كثير التغيب عن محاضراته .

وفى أحد الأيام كان موريس يركب دراجة فى طريقه للقيام برحلة مع كلايف . وأراد العميد أن يستوقفه كى ينبهه إلى كثرة تغيبه عن المحاضرات . غير أنه لم يكترث به ومضى لحال سبيله لا يلوى على شىء . فاغتاظ العميد لقلة أدبه وأمر بفصله حتى يعتذر عن سوء سلوكه . ولكنه ركب رأسه ورفض الاعتذار وفضل أن يترك الدراسة بالكلية ويتولى إدارة العمل الخاص الذى كان والده المتوفى يقوم بإدارته وأصاب موريس فى إدارة هذا العمل الذى ورثه عن أبيه نجاحاً ملحوظاً .

ولم يستمر العشق بين موريس وكلايف . فقد بدأ كلايف يتغير بعد تخرجه بنجاح وتفوق من الجامعة إذ أخذ يخطط لمستقبله وفكر فى الاشتغال بالسياسة وخوض الانتخابات المحلية كى يصبح عضواً فى البرلمان . كما فكر فى الزواج وتكوين حياة عائلية مستقرة . وأبلغ كلايف صديقه موريس بمشروعاته المستقبلية وطلب إليه أن يكتفيا بعلاقة الود والصداقة وأن يطويا ذلك العشق الرومانسى المشبوب . وكان ذلك صدمة لموريس عجز عن تحملها . وعبثاً انتظر أن يعود

كلايف إليه . ولكن بات من الواضح أن كلايف يبتعد عنه يوماً بعد يوم وأنه سوف يعقد قرانه قريباً على سيدة من سيدات المجتمع الراقى تكون عونا له فى تحقيق طموحاته السياسية .

وهكذا أصاب اليأس والإحباط موريس ، وفى زيارة قام بها هذا الشاب لمنزل كلايف فى الأرياف التقى بحارس صيد اسمه أليك سكادر يعمل بخدمة صديقه الذى تصادف أن تغيب وقتاً طويلاً عن منزله . وبسبب قصة حبه الفاشل وجد موريس فى علاقته الجديدة بحارس الصيد شيئاً كثيراً من التعويض عن إحباطه . وإذا كانت علاقة موريس بكلايف فيما مضى اتسمت بالأفلاطونية والمثالية فإن علاقته الجديدة التعويضية بحارس الصيد أليك تطورت إلى علاقة جسدية . ولكنها على أية حال علاقة تقوم على التضحية والإيثار والفداء تماماً كما يحدث فى العلاقات الطبيعية التى تنشأ بين الرجل والمرأة .

وتنتهى الرواية بأن ينبذ موريس عمله التجارى الناجح والمحترم من الناحية الاجتماعية كى يعيش تحت سقف واحد مع عشيقه حارس الصيد . ومن جانبه يقرر حارس الصيد فى آخر لحظة العدول عن الهجرة من إنجلترا ليبقى بجوار موريس عشيقه .

دابليــو إتيش أودين

طفولتــه :

لم يكن الشاب دابليو إيتش أودين ـ واسمه بالكامل ويستان هيو أودين ـ رشيقا أو خفيف الحركة بل كان على العكس من ذلك تماما . ثقيل الحركة على نحو لافت للنظر . وساعد على ذلك قصر نظره الشديد الذى حال بينه وبين رؤية الأشياء المحيطة به بجلاء . ورغم ضعف ابصاره دفعه العناد والمكابرة الى الامتناع عن لبس نظارة طبية ، الأمر الذى جعل قيادته للسيارة فيما بعد شيئا محفوفا بالمخاطر يفزع المرافقون له من المعارف والأصدقاء .

لم يكن أودين يحب أن يخوض الدارسون فى سيرته أو يتناولونها بالتحليل مثلما نفعل الآن . فالرأى عنده أن حياة الكاتب الخاصة لا تهم أحدا غير أهله وأصدقائه . واعتبر شاعرنا أن الخوض فى خصوصيات لأديب ليست سوى نوع من النميمة والقيل والقال : لا يدخل بحال من الأحوال فى دائرة البحث العلمى . فلا غرو إذا رأيناه قبل وفاته يوصى أصدقاءه بحرق الخطابات التى أرسلها إليهم . ولكن قلوب الكثيرين منهم لم تطاوعهم على تنفيذ رغبته وآثروا الاحتفاظ بها للشهرة أو المال أو التاريخ .

ولد شاعرنا فى ٢١ فبراير عام ١٩٠٧ من أم اسمها كونستانس . تميزت بالعصبية وقوة الشكيمة والجنوح الى السيطرة . وكان جورج والده الطبيب الناجح والمرموق ابن قسيس انجيلى كما كانت أمه المقدنية ابنة قسيس انجيلى أيضا . ومن سخرية الأقدار أن نجد أن شاعرنا ويستان سمى على اسم قديس بريطانى سفك دمه فى عام ٨٠٥ ميلادى لأنه اعترض ـ مثلما فعل هاملت عند شكسبير ـ على زواج أمه من هذا العم الذى ينتهك باقدامه على هذا الزواج قوانين الكنيسة . وقد ورث الشاعر عن أمه ميلها الشديد للنظام والتمثيل وغرامها المفرط بالحيوانات وخاصة القطط فلا غرو إذا رأيناه ينام مع احدى القطط الأثيرة إلى قلبه فى فراش واحد ويقول : "أعتقد ان للحيوانات أرواحا . والكنيسة يجانبها الصواب عندما تنكر هذا" . وبلغ عشق الشاعر للنظام الصارم أنه وضع لنفسه جدولا زمنيا للكتابة والقراءة وتناول الطعام واستقبال الأصدقاء وكان الاخلال بهذا الجدول الزمنى الدقيق يثير فيه الضيق والانزعاج . فضلا عن أنه ورث عن أمه ذاكرتها العجيبة التى مكنتها من أن تحفظ بدون خطأ أية صفحة تقرؤها .

كان ويستان أصغر ابناء الدكتور جورج أودين يكبره أخوان آخران سنا على التوالى : برنارد وجون . وكان الفارق فى العمر بين شاعرنا وأخويه كبيرا . ورغم أن والدته كانت تدلله باعتباره آخر العنقود فإنها كثيرا ما أخذته بالشدة ومنتهى الحزم .

يقول أودين فى هذا الصدد عندما يذكر أسلوبها فى التعامل معه إنه اعتقد أنها لا تتورع عن قتله فى لحظات غضبها منه . وزاد من التصاقه بأمه أن الفارق بين سنه وسن أخويه كان كبيرا . فهما يلعبان ويمرحان أو ينتظمان فى مدارسهما الداخلية بعيدا عنه . وفضل الدكتور جورج أودين "الذى ينحدر من أصل ايسلندى" أن يغلق عيادته الناجحة فى يورك التى تدر عليه ربحا وفيرا ليصبح أول مفتش للصحة المدرسية فى مدينة برمنجهام . ورغم ذلك فإن دخله الخاص أتاح له فرصة العيش الرغد ومكنه من الاحتفاظ بحوذى لعربته وبخادمتين وطباخ .

كان ويستان رغم كسله نابها وأصغر تلميذ فى أى فصل يلتحق به . وعلمته أمه منذ نعومة أظفاره وهو فى السادسة من عمره متعة الانتظام فى الذهاب إلى الكنيسة التى صار شماسا يخدم على مذبحها . وتشرب الطفل من والده حب الأساطير ومنها الأساطير الايسلندية التى ازدهرت فى شمال أوربا . ولا عجب فقد كان أبوه يروى له حتى قبل أن يتعلم القراءة حكايات عن حرب طروادة وصراعات آلهة الاغريق ومشاحناتهم على قمة جبل الأولمب . وحذا ويستان حذو والده الذى جمع بين حب العلوم والفنون فى اتخاذ موقف مماثل . فتعمق الوالد فى دراسة العلوم الطبيعية والطبية لم يصرفه قط عن اللغتين اللاتينية والإغريقية . فضلا عن اللغات الأوربية الحديثة مثل الألمانية والدانماركية بدرجة مكنته من ترجمة بعض كتب الآثار والتاريخ القديم إلى اللغة الانجليزية . وبذلك يكون الدكتور أودين أول الذين أدركوا تكامل المعارف

الإنسانية وتجاهل الحواجز التقليدية التي تفصل دراسة العلوم الطبيعية عن دراسة العلوم الإنسانية . يقول ويستان فى هذا الشأن : "كانت الكتب العلمية فى مكتبة أبى تقف جنبا إلى جنب مع الأعمال الشعرية والروائية ، ولم يخطر ببالى مطلقا أن أفكر أن أحدهما يقل فى قيمته وإنسانيته عن الآخر" .

ويستطرد شاعرنا قائلاً : "إن مكتبة والدى لم تعلمنى القراءة فحسب بل أملت علىَّ اختيارى لما أقرأ . لم تكن مجرد مكتبة أديب أو متخصص ضيق الاهتمامات . بل كانت مجموعة من الكتب المتنوعة حول موضوعات كثيرة من بينها عدد قليل من الروايات ، وكانت نتيجة ذلك أن قراءاتى أصبحت على الدوام واسعة وعابرة أكثر من كونها قراءات من أجل الدراسة والبحث . فضلا عن أن هذه القراءات كانت فى مجموعها بعيدة عن الموضوعات الأدبية" . ومن الغريب أن الكتب التى تأثر بها شاعرنا فى طفولته كانت بعيدة كل البعد عن الأدب . ويحمل بعض هذه الكتب العناوين التالية : "مدرسة ادنبرة للجراحة" . و"كتاب السيدة بيتون فى الإدارة المنزلية" . و"الأخطار التى تهدد الصحة" إلى جانب أعمال هانز أندرسون وادوارد لير ولويس كارول وجول فيرن ورايدر هاجارد وشرلوك هولمز التى أولاها اهتمامه واعجابه . ويذكر لنا ويستان ان الشعر الوحيد الجاد الذى تأثر به فى طفولته هو قصيدة تينسون المعروفة "في الذكرى" التى اعتاد والده أن يتلوها بصوت عال ، الأمر الذى غرس فيه اقتناعا ظل معه طيلة العمر بأن الشعر لم ينظم ولكنه نظم

للتلاوة . ولعل من الغرابة بمكان أن نعرف أن كمية الشعر التى قرأها الشاعر فى طفولته محدودة للغاية . اضف إلى هذا نظرته إلى الشعر على أنه قيمة تبعث البهجة فى النفس . ويبدو أنه تأثر فى باكورة إنتاجه الشعرى بمهنة والده كجراح فهو يصور فيه نفسه على أنه جراح يضمد ويشفى ويعيد الصحة للنفس المعتلة .

كان علم النفس فى مطلع القرن العشرين علما ناشئا حديث التكوين اختلفت حول قيمته الآراء . غير أن والد ويستان كان من أوائل المؤمنين به والحريصين على اقتناء الكتب عنه . ورغم أن معظم أفراد عائلته كانوا قساوسة ومحامين فإن هارى عم الشاعر اشتغل بالكيمياء الصناعية . وكان هذا العم الأصغر يجنح إلى المثلية ويجمع صورا فوتوغرافية عارية لأطفال كورال الكنيسة ، الأمر الذى يعنى أن المثلية لم تكن غريبة عن العائلة . وأدرك ويستان منذ نعومة أظفاره بأن هناك فرقا فى الطباع بين عائلة والده وعائلة أمه التى كانت قريبة من طباعه . فعائلة أمه اتسمت بسرعة الغضب وشدة الكرم والهستيريا والمزاج العصبى والاستعداد لاعتلال الصحة . وهى جميعا صفات ورثها الشاعر باستثناء اعتلال الصحة فقد كان يتمتع بصحة موفورة . وإذا كانت أمه افرطت فى تدليله فإنه من ناحيته أفرط فى الوله بها . وكان افراطه فى حب والدته سببا فى شعوره الداخلى بالتوتر ، الأمر الذى جعله يعزو ميله إلى الأنثوية فى حياته اللاحقة إلى رغبته فى أن يصير صورة طبق الأصل من أمه . وغرست طفولته فيه احساسا راسخا بالأمان والاستقرار ، وهو احساس أعطاه ثقة

بالنفس بدون حدود . كما أن الأم التى شغفت بالموسيقى غرست فيه حب النغم وشجعته على أن يتعلم العزف على البيانو .

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ التحق والد الشاعر بالإدارة الطبية العسكرية الملكية فتغرب عن عائلته معظم سنوات الحرب الأربعة حيث خدم فى مصر وفرنسا وبعض البلاد الأخرى . وتأثرت حياة العائلة بغياب ربها عنها . وزاد من تناثر العائلة أن ابناءه الثلاثة التحقوا بمدارسهم الداخلية . فقد فضلت الأم ألا تعيش بمفردها فتركت منزلها المؤجر لتعيش مع بعض أفراد أسرتها . فإذا حلت أجازات المدارس استأجرت بعض الشقق المفروشة فى الريف تعيش وتجمع شمل أولادها فيها . وهكذا عاش شاعرنا فى الفترة بين ١٩١٥ و١٩١٨ كالبدو الرحل ينتقل من مكان إلى آخر دون أن يعرف حياة الاستقرار فى مكان واحد وبيت واحد . وهى نفس حياة الرحل التى عاشها فى حياته اللاحقة . ولعل هذا السبب الذى حدا به فيما بعد إلى الحنين الجارف إلى فكرة "الزواج" من ذكر والاستقرار المنزلى .

وتأثر ويستان منذ طفولته الباكرة بالوديان ومناظر الحجر الجيرى الموجودة بالقرب من برمنجهام كما تأثر على نحو غير رومانسى بمنظر الآلات وخطوط الترام وركام المعادن المتخلفة عن المناجم ومصانع انتاج الغاز وقنوات الماء التى لم تعد تستخدم لأن جميع هذه الأشياء ترتبط على نحو حميم بالنشاط البشرى . ونحن لا نبالغ إذا قلنا ان مناجم الرصاص المنتشرة بالقرب من برمنجهام خلبت لبه بنفس القدر الذى

خلبت به الكبارى والأنهار لبه . وانصرف الطفل منذ البداية الى قراءة كتب هندسة التعدين ، الأمر الذى مكن الصبى - لخيبة أمل عماته فيه - من أن يتحدث كما يتحدث أساتذة الهندسة . استهوته مناجم الرصاص فألح فى طلب الخرائط والصور الفوتوغرافية والدلائل المتعلقة بالتعدين . ووجد متعة خاصة فى تعلم أسماء المناجم والمصطلحات المتصلة بتقنيات التعدين . وأيضا استهوته دراسة الآلات المستخدمة فيه . وليس أدل على شغفه بالعلم من أنه تمني لو أصبح مهندس تعدين . غير أنه من الخطأ أن نظن أنه كان من الناحية العملية مؤهلا لمثل هذا العمل . فمن الواضح أن حبه للتعدين كان مجرد موقف نظرى حالم منبت الصلة بالواقع فقد كان شاعرنا يفتقر تماما إلى أية مهارة يدوية تعينه على وضع نظرياته موضع التنفيذ . وقد ترك اهتمامه الباكر بالعلوم والحداثة بصماته الواضحة على مفرداته الشعرية وعلى اقتصاده فى استخدام الألفاظ على نحو قريب للغاية من أسلوب الاختزال فى كتابة البرقيات .

مدرسة سانت ادموند :

فى خريف عام ١٩١٥ عندما كان ويستان فى الثامنة التحق بمدرسة سانت ادموند بضاحية سرى بالقرب من لندن وهى نفس المدرسة التى تعلم فيها زميله كريستوفر ايشروود . وبوجه عام كان مستوى التدريس فى هذه المدرسة جيدا . فضلا عن أنها تميزت بالاهتمام بالموسيقى والملاعب الفسيحة فى قلب الريف . وكان ناظر المدرسة ومدرس الكلاسيكيات فيها (واسمه سيريل مورجان براون) رجلا

متقلب المزاج يقسو أحيانا على التلاميذ لأقل هفوة أو خطأ يرتكبونه . ويدين ويستان إليه بالفضل فى اتقانه اللاتينية والاغريقية الأمر الذى ساعده فيما بعد على حسن استخدام اللغة الانجليزية . ومن ثم فنحن نراه فى حياته اللاحقة ينادى بضرورة تعليم الطلبة هاتين اللغتين الكلاسيكيتين . وبسبب ظروف الحرب طرأ تغيير فى هيئة التدريس بالمدرسة فقد استدعى الجيش الأساتذة الدائمين والأصحاء للخدمة العسكرية فالتجأت إدارة المدرسة الى استبدالهم بمدرسين مؤقتين . وفى طفولته تعلق شاعرنا تعلقا شديدا بروزا ابنة ناظر المدرسة التى أحاطته بالحب والحنان . وهناك بعض التلميحات فى كتابات أودين تشير إلى أن أحد مدرسى المدرسة واسمه ريجنالد أوسكار جارتسيد كان مصابا بالشذوذ الجنسى .

وفى مدرسة سانت ادموند تميَّز ويستان على أقرانه بسعة وغزارة معلوماته العامة التي كان يستقيها من اطلاعه على مكتبة والده ويتباهى بها أمام زملائه . الأمر الذى منحه سلطانا عليهم . ورغم تفوقه العلمي الملحوظ كان كسولا يميل إلى الصفاقة فى معاملة مدرسيه . وتمثلت هوايته خارج المدرسة فى عزف الموسيقى وجمع الأصداف والحشرات . ورغم ازواره عن الاشتراك في الأنشطة الرياضية بسبب قصر نظره وافتقاره إلى خفة الحركة فإن هذا لم يقلل من اعجابه بالرياضيين . ورغم انبهار كثير من زملائه به فإنه كان يحب الاختلاء بنفسه . وقد خلقت منه صحبتهم المفروضة عليه ـ وهم جميعا من أبناء الطبقة المتوسطة ـ نوعا من الاحتقار لهم

والزراية بهم وهو نفس موقف كريستوفر ايشروود من الطبقة المتوسطة .

وكان لغياب والده عنه فى طفولته أثره المدمر فقد استقر لديه أحساس دفين بالغربة عن أبيه وافتقده فى وقت كان فى أمس الحاجة إليه . وزاد الطينة بلة أن أخويه الكبيرين تركاه وحيدا معظم الوقت مع أمه . وعند بلوغه السابعة من العمر أجريت له عملية ختان تركت فيه أثرا نفسيا سيئا رهيبا ومروعا لأنها جاءت متأخرة . وكانت معلوماته عن الجنس أكبر بكثير من سنه بفضل اطلاعه على كتب التشريح التى تزخر بها مكتبة والده . وكان ينقل المعلومات التى يستقيها من هذه الكتب إلى زملائه فى المدرسة موضحا إياها عن طريق الرسوم التى يرسمها على السبورة . وبهرت هذه المعلومات التلاميذ وزاد من انبهارهم به وفرة معلوماته عن الجغرافيا والتعدين . يقول ايشروود عن ذكرياته المدرسية فى سن الثالثة عشرة : "اعتاد أن يسر إلينا وإلى العديد منا بأول تلميحات سمعناها فى حياتنا تنم عن الشقاوة وتبعث على العجب والانبهار بشأن حقائق الجنس . وأنا أتذكره أساسا بسبب شقاوته ووقاحته وأسلوبه المغرى المثير الذى ينم عن اغتباطه لأنه يعرف أسرارا مثيرة وشائنة . واستطاع عن طريق معرفته بالمحرمات وما تنطوى عليه من تلميحات وعن طريق ذخيرته الكبيرة من الألفاظ العلمية التى لا ينطقها على نحو صحيح والتى تفوه بها كمن يعلن بنبأ جلل أن يبلغ بيننا ـ نحن زملاءه شبه المتوحشين والمصدقين لكل ما يقوله لنا ـ مرتبة الساحر العجيب .

مدرسة جريشام وميل باكر للشذوذ :

وفى ديسمبر عام ١٩١٨ ترك ايشروود مدرسة سانت ادموند ليلتحق بمدرسة ريبتون فى حين استمر شاعرنا فيها لمدة ثمانية عشر شهرا قبل أن يلتحق بمدرسة جريشام عام ١٩٢٠ أملا فى أن يتخصص فى دراسة العلوم التى أظهر على نحو ما رأينا اهتماما مبكرا بها . ورغم تكاسله استطاع أودين أن يحصل على جائزة فى الرياضيات من مدرسة سانت ادموند . غير أن تفوقه العلمى المحدود فى هذه المدرسة لم يؤهله للحصول على منحة دراسية لمواصلة تعليمه بالمجان فى مدرسة جريشام . وقد امتدح الشاعر مبانى هذه المدرسة ونوعية التعليم فيها ولكنه هاجم التزمت الخلقى الذى سادها . كانت مدرسة جريشام تولى تدريس العلوم جل عنايتها فى حين أن اهتمامها بتدريس الآداب كان محدودا للغاية . يقول أودين إنه يدين بالفضل إلى اثنين من مدرسيها هما القسيس فيلد مدرس اللغة اللاتينية وتيلور مدرس اللغة الانجليزية الذى يقول الشاعر عنه : "لقد تعلمت من الاستماع إليه وهو يقرأ الكتاب المقدس وشكسبير عن الشعر والإنسانيات أكثر مما تعلمته من حضور أية محاضرات فى الجامعة" .

ورغم تزمتها الأخلاقى تميزت مدرسة جريشام بجوها الليبرالى من الناحية السياسية . فقد ساد التهذيب والتحضر العلاقات بين التلاميذ . واختفى العقاب البدنى والاستعلاء الطبقى وأعمال البلطجة والتخويف التى يمارسها الطلبة الكبار نحو الطلبة الصغار . ورفضت هذه المدرسة الانسياق وراء الحماس المحموم للألعاب الرياضية السائد فى معظم

المدارس الخاصة ، فاقتصر اهتمامها على تكريم التفوق العلمى والامتياز العقلى لدرجة أنها حظرت على طلبتها التصايح أو الهتاف أثناء مشاهدة مباريات كرة القدم . ولكن هذه المدرسة شابها نوع من التزمت الأخلاقى وخاصة عندما تولى ج . ر . إكليس نظارتها واستحدثت المدرسة فى عهده نظاما عرف بميثاق أو نظام الشرف ، كان إكليس بمقتضاه يصول ويجول فى قاعة الصلاة واعظا ومحذرا التلاميذ من مغبة ممارسة العادة السرية ، الأمر الذى هاجمه واستهجنه شاعرنا منذ البداية ، وخاصة لأن نظام الشرف تطلب من بعض التلاميذ التجسس على زملائهم وتبليغ إدارة المدرسة بمخالفاتهم ، مما بث الخوف فى نفوسهم ودمر الثقة فى بعضهم البعض وخلق على حد قوله جوا أشبه ما يكون بنظام الدولة الفاشية . وأظهر شاعرنا الذى تمرد على هذا النظام اعجابا بواحد من ألفوات المدرسة اسمه ت . أو . جارلاند الذى حرص على تهدئة نفوس زملائه الطلبة الأصغر سنا بأن شرح لهم أن الناظر يبالغ فى تحذيره من مغبة العادة السرية وأضرارها ، ويثير فزعهم دون داع . ومن ثم اعجاب أودين به . وبدوره أظهر جارلاند اعجابا مماثلا بشاعرنا لما اتصفت به شخصيته من تصميم وعناد .

وبعد انقضاء ثلاث فترات دراسية على التحاقه بمدرسة جريشام بدأ يألف المدرسة ويشترك فى أنشطتها وأصبح عضوا فى جمعية المناظرة واشترك فى تمثيل دور أورسولا فى مسرحية شكسبير "ضجة على الفاضى" . واستطاع فى هذه الفترة من حياته أن يشق طريقه بنجاح فى دراسته الأكاديمية

وصارت مقالاته فى اللغة الانجليزية يشار إليها بالبنان ويقرؤها المدرس على بقية الفصل باعتبارها نموذجا يحتذى . واشترك فى غناء فرقة الكورال بالمدرسة ومارس العزف على آلتى الأورج والبيانو . غير أن تخلفه فى الألعاب الرياضية ظل على حاله . وكانت تربطه علاقة طيبة بوالتر جرتوركس مدرس الأورج الذى أدى تورطه فى فضيحة شذوذ جنسى إلى نقله من مدرسته إلى مدرسة جريشام . ورغم هذا فقد استطاع هذا المدرس أن يحظى بحب وثقة تلاميذه الذين عاملهم كأنداد له وشملهم برعايته دون أن ينتظر مقابلا لهذا .

وفى تلك المرحلة فقد الشاعر ايمانه بالدين بعد أن كان شديد التحمس له فى فترة تلمذته بمدرسة سانت ادموند عندما كان فى الثالثة عشرة من عمره . وساعده على نبذ الدين جو التحرر الفكرى السائد فى مدرسة جريشام . وبدأ شاعرنا يتنبه إلى أن تحمسه للدين يخفى فى طياته رغبات جنسية مكبوتة لم تجد لها مخرجا أو متنفسا كما بدأ يتنبه أثناء حضوره الكنيسة الأنجلو ـ كاثوليكية المحلية مع والدته إلى أن غالبية المتعبدين فيها بؤساء بشكل أو آخر وأنهم يعانون من أبدان سقيمة ونفوس مريضة . فضلا عن أنهم فاشلون فى حياتهم الزوجية أو أنهم على قدر من القبح يحول بينهم وبين الزواج . واقتنع بأن الناس لا ينصرفون إلى حب الله إلا عندما ينصرف الناس عن حبهم . ولاحظ أيضا أن كثيرا من الكتاب الذين يثيرون اهتمامه لا يؤمنون بالمسيحية . ورغم نبذه للدين فقد ظل لفترة يتردد بنفس حماسه السابق على الكنيسة بسبب استمتاعه بالاشتراك فى الغناء الكورالى

فيها . والجدير بالذكر أن شاعرنا لم يفقد ايمانه بالدين على نحو مفاجىء ولكن بطريقة تدريجية . وارتبط نبذه للدين بزيادة وعيه برغبات الجنس التى تجيش فى صدره . وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره فى عام ١٩٢٢ شعر بجاذبية أحد اقرانه الجنسية واسمه روبرت ميدلى تشده إليه . ولكنه كتم هذه الرغبة فى نفسه ولم يفعل شيئا نحو تحقيقها . ولكن الاحساس بالذنب والخطيئة غمره . وعمق هذا الأحساس فيه ذلك الجو الأخلاقى المتشدد الذى أشاعه نظام الشرف فى المدرسة . وفى ٢٢ مارس ١٩٢٢ شاءت الظروف أن يتعرف شاعرنا بحبيب قلبه الذى شعر أن كثيرا من الوشائج تربطه به . فميدلى يولى الفن وخاصة الرسم اهتمامه ، كما أنه ـ مثله ـ ينكر الدين . وكان موقف ميدلى العام من الحياة مزيجا من الايمان بالاشتراكية على طريقة الشاعر وليم موريس والايمان برومانسية الشاعرين الانجليزيين شلى وبليك . ومن المفارقات أن روبرت ميدلى فى تلك الفترة ـ وهو ليس شاعرا ـ كان يقرض الشعر فى حين أن شاعرنا لم يظهر أدنى اهتمام به . فقد كان أمله آنذاك أن يصبح مهندس تعدين ويتقن التصوير الفوتوغرافى . وعندما سأله ميدلى إذا كان يقرض الشعر أجابه بالنفى . غير أن هذا السؤال حرك فى أعماقه حبه الكامن والدفين للشعر الذى أصبح فيما بعد قدره ومصيره .

قلنا إن أودين شعر بجاذبية روبرت ميدلى الجنسية ولكن ميدلى نفسه لم يتنبه الى حقيقة أحاسيس أودين نحوه . ونظرا لاتقان ميدلى للسباحة وحذقه لها فقد طلب منه شاعرنا

فى صيف عام ١٩٢٢ أن يسبحا معا أملا فى الاقتراب من جسد ميدلى العارى بقدر الامكان .

يقول أودين إن أول قصيدة ألفها فى حياته كانت عن منطقة البحيرات بأسكتلندا حيث عاش الشاعر الرومانسى المعروف وليم وردزورث والتى زارها شاعرنا مع بعض أفراد عائلته فى صيف عام ١٩٢٢ .

وهناك دلائل تشير إلى تأثره فى مطلع حياته بوليم وردزورث . وبعد أن أوحى إليه روبرت ميدلى بأن يحاول قرض الشعر ببضعة شهور قام بنشر بعض الأبيات فى مجلة مدرسة جريشام دون أن يمهرها بتوقيعه . وفى بدء حياته الشعرية تردد أودين على مكتبة المدرسة ليطالع فيها أعمال طائفة من الشعراء الذين راقوا له أمثال دابليو إيتش دافيد ووالتر دى لامار الذى سعى إلى تقليد أسلوبه . ورغم رغبته فى الاختلاء بنفسه فإنه اشترك فى الحياة الاجتماعية المدرسية ففى عام ١٩٢٢ اشترك فى تمثيل مسرحية شكسبير "ترويض النمرة" حيث لعب دور بطلتها كاثرينا . وفى نهاية عام ١٩٢٢ ترك روبرت ميدلى مدرسة جريشام ليلتحق بإحدى مدارس الفنون فى لندن حيث زاره أودين وقام معه بارتياد المسارح ومشاهدة بعض العروض المسرحية . ودعاه ميدلى لقضاء بعض الأجازات مع عائلته فى وديان يورتشير التى أحبها وأوحت إليه بتأليف بعض الأشعار . وحدث ذات يوم أن عثر والد الشاعر بين مخطوطات ابنه على قصيدة من تأليفه يصف فيها ميدلى عاريا فى حمام السباحة واشتم من هذه القصيدة الرغبة الجنسية الشاذة . الأمر الذى دعاه إلى مفاتحة ابنه

وصديقه ميدلى بشأن ضرر مثل هذه العلاقة . ولم يهدأ بال الأب إلا بعد أن طمأنه الشابان ـ وهما فى ذلك صادقان ـ إن العلاقة بينهما ليست سوى علاقة افلاطونية بريئة .

صور أودين فى شعره الباكر تفاصيل الطبيعة . غير أنه ما لبث أن قرر الانصراف عن تأليف هذا النوع من القريض . وهو يعزو السبب فى هذا إلى ضعف إبصاره الذى منعه من رؤية مظاهر الطبيعة بجلاء . ومن ثم نراه يدعو إلى ضرورة أن تصور الفنون حياة الإنسان بحيث لا تعدو المناظر الطبيعية أن تكون مجرد خلفيات يستخدمها الفنان لابراز وصفه لهذه الحياة . يقول شاعرنا عام ١٩٣٦ فى هذا الصدد : "الرأى عندى أن جسد الإنسان الفانى هو موضوع الفنون فى حين أن المنظر الطبيعى مجرد خلفية له".

وفى عام ١٩٢٣ حصل شاعرنا على نسخة من المختارات الشعرية الصادرة عام ١٩٢٣ والتى قام بجمعها شاعره المفضل والتر دى لامار وتعلم منها أن الشعر الجيد ليس بالضرورة شعرا عظيما أو جادا . وتأثر بالذات بقصيدة غير معروفة فى انجلترا للشاعر الأمريكى روبرت فروست (١٨٧٤ ـ ١٩٦٣) بعنوان "طائر أبو الحناء" ضمنها دى لامار فى مختاراته . وبلغ إعجاب شاعرنا بها حدا جعله يحاكيها . فضلا عن أنه امتدح هذه المختارات لخلوها من أية قصائد حديثة . فقد رأى أنه من الخطر على أى شاعر ناشىء أن يواجه ما يتضمنه الشعر الحديث من تعقيدات من شأنها أن تعصف بخصوبته وتفضى إلى جدبه مثلما تفعل المحاضرات الأكاديمية فى الفنون المعاصرة . وأثلج صدره

أن يجد فى مختارات دى لامار عدة قصائد لشاعره المفضل توماس هاردى الذى أحس بوشائج القربى تربطه به . ومن فرط اعجابه بهاردى كرس الفترة من ١٩٢٣ حتى ١٩٢٤ للتوفر على قراءة أشعاره . ويعترف أودين فى هذا الشأن أنه دأب على تهريب دواوين هاردى إلى حجرة الدراسة وحمله معه أيام الأحاد وفى عنبر النوم حيث وجد متاعب فى قراءتها بسبب كبر حجمها . وكان من الطبيعى أن تتأثر اشعاره بفلسفة توماس هاردى المتشائمة .. ولأن هذا التشاؤم لم يكن أصيلا فى طبيعته كان من السهل أن يختفى من شعره بمرور الوقت . يقول أودين فى معرض التعبير عن أعجابه بتوماس هاردى : "الذى أقدره فى هاردى ومازلت أقدره إلى يومنا الراهن أكثر من أى شىء آخر هو نظرته الشبيهة بنظرة الصقور . وأعنى بهذا أسلوبه فى النظر إلى الحياة من علٍ وارتفاع شاهق" . وهو نظرة نراها أوضح فى نثر هاردى من شعره مثل الفصل الأول من روايته "عودة ابن البلد" .

وفى سبتمبر عام ١٩٢٣ اتجه أودين فى دراسته الى علم الأحياء بناء على رغبته ورغبة والديه حيث تدرب على تشريح الجهاز العصبى لبعض الكائنات الحية . ومن الواضح أن قوله فى الثلاثينات إن وظيفة الشاعر تشبه وظيفة الجراح يرجع إلى ممارسته للتشريح البيولوجى . وفى عام ١٩٢٤ التقى وهو فى السادسة عشرة من عمره لأول مرة من حياته بواحد من شواذ الجنس البالغين يعمل بالصحافة اسمه مايكل دافيدسون الذى لعب دورا هاما فى تشجيعه على المضى قدما فى قرض الشعر . وحاول دافيدسون أن يتقرب إليه مغازلا

فصده وأعرض عنه بسبب نفوره من شكله وليس لأية أسباب أخلاقية . واعتاد دافيدسون أن يرسل إليه قصائد تتضمن رغباته الشاذة ولكن أودين آثر أن يتجاهلها . ورغم هذا استمرت العلاقة بينهما على خير مايرام . وفى تلك الفترة أرسل شاعرنا الى دافيدسون قصائده ملتمسا لديه النصح والمشورة بشأنها ، فلم يبخل عليه بها . وكان دافيدسون يشترى كتب النقد والدواوين الحديثة الصدور ويهديها الى أودين الذى تعرف من خلالها على شعر الشاعر الانجليزى ألفريد إدوارد هاوسمان (١٨٥٩ ـ ١٩٣٦) الذى امتدحه لقدرته الفائقة على التعبير عن حساسية المراهقين الذكور وراق له أسلوبه العدوانى فى مخاطبة الله . وبالتدريج تمكن أودين من استحداث أسلوب شعرى مستقل ومتميز . عندئذ بدأ يسطر الشعر فى موضوعات غير شاعرية وغير مألوفة مثل مناجم الرصاص والآلات الخاصة بالتعدين والضخ . وسعى مايكل دافيدسون لدى احدى دور النشر حتى أقنعها عام ١٩٢٤ بنشر ديوان لشعر التلاميذ بعنوان "أشعار من المدارس الخاصة" . والجدير بالذكر أن العام التالى (١٩٢٥) الذى شاهد تخرج أودين من مدرسة جريشام والذى أمضاه فى الاختلاء بنفسه والسير بمفرده لمسافات طويلة والعزف على آلة الأورج كان واحدا من أسعد أيام حياته .

وقبل انتهاء الفصل الدراسى الأخير فى مدرسة جريشام توثقت علاقته بتلميذ أصغر منه بسنتين اسمه جون بودنى الذى شعر بغرام الشاعر له . غير أن أودين لم يحاول مراودته

عن نفسه . ويبدو أنه ندم فيما بعد على ذلك . وألقى على مسامع بودني محاضرات عن الشذوذ الجنسي والعادة السرية كما حدثه كثيرا عن علم النفس الذى أظهر اهتماما باكرا به وعن اكتشافات سيجموند فرويد فى هذا العلم . ويذكر بودنى فى هذا الشأن انه لاحظ أن حديث أودين معه اتسم بالنضوج ورجاحة العقل على نحو لا يتناسب مع صغر سنه .

وفى أخريات أيامه فى مدرسة جريشام ضرب أودين بتعليمات المدرسة عرض الحائط وتصرف بشقاوة بالغة فكان على سبيل المثال يتسلق المواسير فى الصباح الباكر والكل نيام ليقفز منها إلى غرفة مكتب بودنى . يترك له رسالة ويصحح له واجباته المدرسية . وفى تلك الفترة عانى من احساس مدمر برداءة شعره وعدم قيمته . وذات يوم كان يسير برفقة زميله بودنى فإذ به يتركه فجأة ويتجه نحو بحيرة صغيرة ويخرج من جيوبه مخطوطات أشعاره ليلقى بها فى مائها مصرحا بأنه قرر استبعاد الشعر تماما من حياته وان العلم هو الطريق الوحيد لانقاذ البشرية . ولكنه عندما رأى الأوراق تطفو على سطح الماء لم يطاوعه قلبه لفقدانها فخاض فى ماء البحيرة ليستعيدها . وقبيل تخرجه من مدرسة جريشام لعب دور كاليبان فى مسرحية شكسبير "العاصفة" على نحو بارع للغاية . وبعد التخرج من المدرسة أخذه أبوه إلى النمسا للسياحة وتعلم اللغة الألمانية . وبعد عودته التحق بجامعة أكسفورد التى أعتبر أنها أفضل من العيش مع أمه ـ رغم شدة حبه لها ـ تحت سقف واحد .

متمرد شاذ فى جامعة أكسفورد :

استطاع أودين أن يحصل من كلية كرايست تشرش بجامعة أكسفورد على جائزة صغيرة . فقد تمكن من اعطاء الاجابة الصحيحة عن سؤال فى علم الأحياء طرحه عليه عالم البيولوجيا المعروف جوليان هكسلى . فعندما سأله هكسلى عن نوع احدى العظام أجاب بأنها عظمة الحوض لطائر وهو ما عجز أقرانه عن اكتشافه .

وفى جامعة أكسفورد بدأ أودين يدخن التبغ والغليون بشراهة مبررا هذا بقوله : "إن فطامى لم يكتمل ، الأمر الذى يقتضى منى أن أقوم بمص شىء ما" . ويقول لنا ستانلى فيشر زميله فى دراسة علم الأحياء انه اعتاد أن يستفيض فى تلاوة الشعر على مسامعه بطريقة غير شاعرية ونبرة رتيبة تخلو من المشاعر والأحاسيس . وظل حتى نهاية عمره يحتفظ بذاكرة قوية مكنته من ترديد أجزاء طويلة من كتابات الآخرين عن ظهر قلب . ولم ترق له الدراسة . بجامعة أكسفورد . ورأى أنها تقوض فرص الإنسان فى أن يصبح شاعرا ذا شأن . ووصف هذه الجامعة بأنها مؤسسة مصطنعة لا تربطها بالعالم الحقيقى أية صلة . وفى أكسفورد لم تخرج أحاديثه عن اربعة موضوعات : الهجوم على جامعته ، واستحالة قضاء أجازاته مع أمه بسبب شجاره المستمر معها ، واستحالة الايمان بوجود إله تربطه بالبشر صلات شخصية ، وحرصه على أن يكون شاعرا كلاسيكيا وليس شاعرا رومانسيا .

وفى أجازة عيد الميلاد لعام ١٩٢٥ استضافه زميله ستانلى فيشر فى بيت العائلة فكان ضيفا ثقيلا ومزعجا . فذات يوم أحدث جلبة لا تليق عندما استيقظ من نومه كعادته فى الفجر والتهم الطعام بكميات هائلة دون أدنى اعتبار لاحتياجات الجالسين بجواره على مائدة الطعام . وأتلفت سجائره المشتعلة قطع الأثاث . وكان إذا أوى إلى الفراش لا يكتفى بأغطيته المعتادة بل تمتد يده إلى أى شىء مثل سجادة الغرفة أو السلالم أو الستائر لتكوين كومة ثقيلة يتدثر بها . وفى احدى المرات لم يجد شيئا يغطى به نفسه سوى صورة ضخمة فى براوز . وفى فترة استضافته لأودين تلقى ستانلى فيشر مكالمة تليفونية من صديقه كريستوفر إيشروود يدعوه إلى منزله فى لندن بعد أن طفش من جامعة كامبردج فاعتذر ستانلى بوجود أودين معه . وتساءل ايشروود إذا كان ضيفه هو نفس الشخص الذى عرفه وزامله فى مدرسة ريبتون . فلما رد عليه بالايجاب بادر بدعوة ستانلى وضيفه إلى منزله . وهكذا نزل أودين ضيفا على ايشروود . وتعمد أودين قبل أن يودع ايشروود فى ختام زيارته أن يذكر أمامه بطريقة عابرة للغاية أنه أصبح الآن يقرض الشعر . فاعترت الدهشة أودين الذى استقر فى ذهنه أن أودين أبعد ما يكون عن تذوق الأدب والاهتمام به وأنه لا يهتم بشىء فى حياته سوى الهندسة والمناجم والآلات . وعلى أية حال طلب ايشروود منه أن يعرض عليه شيئا من انتاجه الشعرى .

وفى الجامعة تعرف بزميل آخر يدرس التاريخ يدعى دافيد أيرست . ولفت نظر أيرست فى شاعرنا "حدة وعنفوان خياله

البارد كالثلج" . ولاحظ صديقاه ستانلى ودافيد انغماسه المنتظم فى ممارسة الشذوذ الجنسى الذى سعى إلى تبريره بمختلف الأعذار والأسباب . فهو أحيانا يعزو هذا الشذوذ إلى الكبت المروع الذى فرضه نظام الشرف عليه وعلى بقية التلاميذ فى مدرسة جريشام . والجدير بالذكر ان الشذوذ الجنسى تفشى بين طلبة جامعة أكسفورد وأساتذتها فى الجيل السابق على جيل أودين مباشرة . يقول الشاعر فى هذا الشأن انه اكتشف فى أكسفورد ان الشذوذ الجنسى يكاد أن يرتبط بالذكاء ارتباطاً لا محيص عنه . ولم يخف أودين شذوذه الجنسى عن زملائه فقد أعتاد أن يغيب عنهم أمسيات بأكملها يقضيها فى مغامرات اللهو والمجون . فإذا عاد إليهم قص عليهم تفاصيلها بطريقة اكلينيكية وروى لهم بصفاقة تجاربه الشاذة . ومارس شاعرنا الجنس الشاذ مع بعض زملائه فى نفس الجامعة أو بعض أصدقائه من خارجها . وتلخص أسلوبه فى ممارسة الشذوذ على النحو التالى . يختار أودين من يتوسم فيهم استعدادا للاستجابة إليه . ثم يزورهم فى حجراتهم بالجامعة ويغلق الباب بالمفتاح . ثم يقول لصاحب الغرفة دون حياء أو خجل : "أنت تعرف السبب فى مجيئى إليك" . غير أنه أحيانا يمارس الجنس مع غرباء فى لقاءات عابرة أثناء رحلة فى قطار مثلا . وذات يوم ضبطه فراش الكلية فى فراش واحد مع طالب من كلية ماجدالين فاضطر إلى شراء سكوته بخمسة جنيهات وهو مبلغ كبير يفوق امكاناته المالية . ويظن بعض المقربين منه أنه استطاع أن يتخلص تماما من عقدة الذنب . ولكن يبدو أن هذا غير صحيح فقد كتب عام ١٩٢٧ إلى صديق له بالجامعة يقول : "مازال

باقيا في ذهني احساس بأن هناك شيئا بذيئاً في العلاقات الجنسية الشاذة" .

في مايو عام ١٩٢٦ أعلن العمال الانجليز الاضراب العام في لندن فقرر أودين الوقوف بجانبهم ومناصرتهم . وساعد على هذا موقفه العام الذى يميل إلى الليبرالية والاشتراكية . وعام ١٩٢٦ هو نفس العام الذى قرر فيه أن الدراسة العلمية لا تصلح له رغم أنه أمضى عام ١٩٢٥ بأكمله في دراسة علوم النبات والأحياء والكيمياء . ومن ثم طلب من كلية كرايست تشرش أن تسمح له بتغيير مادة التخرج فوافقت على طلبه . ومع هذا ظل يهتم بالقراءات العلمية من أجل متعته الخاصة حتى الأمر ، الأمر الذى انعكس على لغته وأخيلته الشعرية . ويمكن القول إن معرفته بالعلوم تفوق معرفة معظم الشعراء بها . واتجه أودين إلى دراسة الأدب الانجليزى غير أنه اصطدم بعقبة هى خلو كلية كرايست تشرش من قسم يتولى تدريسه . ولهذا سمحت له هذه الكلية بالالتحاق بكلية أخرى بنفس الجامعة هى كلية إكسترا .

ورغم انصراف أودين الى الشعر فى تلك الفترة من حياته فقد أولى الرواية شيئا من اهتمامه . فراق له ترولوب وديكنز الذى حفظ بعض صفحات رواياته عن ظهر قلب . وكذلك راق له الروائيون الروس فى القرن التاسع عشر . فضلا عن غرامه بالروائية الانجليزية جين أوستن وادمانه قراءة القصص البوليسية . ولكنه أزور عن الرواية الحديثة رغم اهتمامه البالغ بالحداثة فى شعره . وفى مجال الشعر تخلى أودين عن سابق اعجابه بالشاعر الرومانسى ورذورث ، كما أنه أولى ظهره

للشاعرين الرومانسيين المعروفين كيتس وشلى . وأعجب شعراء المدرسة الميتافيزيقية التى شاع انتاجها الشعرى آنذاك بين طلبة الجامعة . وكان يفضل الشاعر الميتافيزيقى جورج هربرت على قرينه جون دون . وكذلك أظهر اعجابه بالشاعرين الانجليزيين الكلاسيكيين الكسندر بوب ودرايدن وكال لهما المديح . فهو يقول إن بوب فى أجود قصائده لا يباريه أحد فى قدرته الفائقة على مزج الرؤية باللغة ، كما وصف درايدن بأنه شاعر الحجي والعقل الذى يلجأ الإنسان إلى قراءة أشعاره كلما أصابه النصب ودب فيه الاعياء . ومن العجيب أنه أظهر اعجابا بالشعر الأنجلو ـ ساكسونى مثل "بيولف" الذى انفض عنه معظم دارسى الأدب الانجليزى . ولم تنجح معظم مواد منهج الأدب الأنجليزى بجامعة أكسفورد فى اغرائه بالتوفز على دراستها . ومن ثم نراه يزور عن كتب النقد الأكاديمية ويفضل عليها استخدام حدسه النقدى . ولكن قلة من الكتابات النقدية استطاعت أن تحظى باهتمامه مثل مبحثيه آى . أ . ريتشارد "العلم والشعر" و"مبادىء النقد الأدبى" . فضلا عن اهتمامه بالعروض أو بالجانب التقنى فى كتابات دابليو . ب . كير . وفى كثير من الأحيان تجاوزت اهتماماته حدود الشعر لتشمل علم النفس مثل نظريات يونج وفرويد . وساءه فى تلك الفترة من حياته انه لم يستحدث لنفسه بعد ـ وهو فى التاسعة عشرة ـ صوتا شعريا متميزا .

وفى صيف ١٩٢٦ تعرف أودين بطالب فى كلية كرايست تشرس اسمه دريبرج اشتهر بممارسة الشذوذ الجنسى على

نحو فاجر . والغريب فى الأمر أنه نشأت بين الاثنين علاقة فكرية وأدبية ليس للجنس أى أثر فيها . وهداه دريبرج إلى قراءة شعر ت . س . إليوت فراقت له قصيدته المعروفة "الأرض الخراب" التى أدرك انها تعبر أحسن تعبير عن طبيعة المجتمع الذى يعيش فيه وما يعانيه هذا المجتمع من خواء روحى . وبادر أودين بشراء نسخة من ديوان إليوت "أشعار من عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩٢٥" . وما أن فرغ شاعرنا من قراءة هذا الديوان حتي توجه إلى أستاذه لوجهيل ليخبره أنه قام بتمزيق كل أشعاره . فلما سأله عن السبب أجاب بأنها قصائد رديئة بالمقارنة بقصائد إليوت . وأضاف انه يود أن يحتذى حذو الشاعر العظيم . وقد اتسم انتاجه الشعرى فى تلك الفترة بمحاكاته لأشعار اليوت فامتلأ شعره بالاشارات غير الواضحة والمصطلحات العلمية الغامضة والصور والأخيلة التى تبدو غير مترابطة . ولم يكتف أودين بمحاكاة أسلوب إليوت الشعرى فحسب بل انه تبنى موقفه النقدى الكلاسيكي العام كما جاء فى مقال إليوت الشهير "التقاليد والموهبة الفردية" (١٩١٩) حيث يدعو صاحبه الشعراء إلى نبذ العواطف الذاتية والهرب منها واستبدالها بنظرات مجردة وموضوعية . والجدير بالذكر أن محاكاة أودين لشعر إليوت لم تدم طويلا ولم تتجاوز مرحلة الطلب بالجامعة . وبعد انصرافه عن إليوت أولى الشاعرة إميلى ديكنسون اهتمامه كما أظهر اعجابه بشعر ويلفرد أودين وخاصة معالجته الموضوعية لمشكلة الحرب وفضله على شعر ساسون الذى عاب عليه معالجته لموضوع الحرب بعاطفة مفرطة ومبالغ فيها . وكذلك ترك شعر جيرالد مانلى هوبكنز فيه أثرا

عميقا . وعلى أية حال يعترف أودين بأن تأثره بلغة الشعر العادية كما يستخدمها توماس هاردى تفوق أثر معظم الشعراء فيه .

ولاحظ زميله ستانلى فيشر عند زيارته لعائلة أودين أن أمه امرأة متصلبة لا تلين لها قناة وأنه تقرع ابنها دائما وتعترض على كل أقواله وأفعاله وتحمل الكراهية لما يقرضه من شعر وتبدى انزعاجها الشديد بسبب نبذه للدين . وذات يوم خطر لأودين أن يستضيف زميله الجامعى دافيد ايرست بين عائلته ولكنه عاد وغير رأيه بسبب أمه التى رماها علنا بالجنون . وحتى يهرب من رتابة الحياة معها سافر إلى جزيرة وايت لينزل ضيفا على صديقه كريستوفر ايشروود الذى كان يقضى أجازته هناك . واعتاد شاعرنا عادة غريبة وهى تعبيره عن أى شئ يخطر على باله بصوت عال يسمعه الجميع ، الأمر الذى سبب الحرج الشديد للصديق المضيف . ولكن خفف من حرجه بعض الشئ أن بعض أحاديث أودين مع نفسه كانت أحيانا تدور حول موضوعات أدبية وفكرية مثل قوله بصوت عال فى يوم من الأيام : "إن العقل بطبيعة الحال هو الشئ الوحيد الذى له أهمية . إن اللون بكل تأكيد لا يهمنى فى كثير أو قليل . ولكنى أعلق أهمية بالغة على الشكل . فالشعر يجب أن يتكون من صور الشكل وأخيلته . اننى أمقت الأصيل والزهور كما أنى أمقت البحر لأن البحر يفتقر إلى الشكل" .

وأدرك ايشروود أن ضيفه يحمل له الاعجاب ويعتبره اخا أكبر يحتكم إليه ويلتمس لديه المشورة فى الشئون الأدبية . ومن ثم كان يعرض انتاجه الشعرى عليه ليأخذ رأيه فيه

ويجرى عليه كثيرا من التعديلات بناء على هذا الرأى . واعترف ايشروود لأودين انه ارتبط على نحو رومانسى بعلاقة لواطية مع طالب بجامعة كامبردج وأن هذه التجربة تركته فى حالة من القلق والاضطراب جعله يفكر فى التخلص من حياته . ومن ناحيته ظل أودين يلح عليه ويلاحقه بأفكاره المتحررة عن الجنس بهدف إعادة الاتزان النفسى إليه . وفى تلك الفترة اشترى ايشروود مسدسا ينتحر به . غير أن أودين تدخل ليعيده إلى صوابه . وعبثا حاول ايشروود الابتعاد عن صحبة أودين ، فقد نجح فى ذلك لعدة أسابيع فقط . ولم تمض شهور قلائل حتى توثقت الصلات بينهما .وتحولت إلى علاقة لا تخلو من المتعة الجنسية وإن كانت تخلو من كل أثر للرومانسية . وليس أدل على قوة الوشائج بينهما من أن ايشروود اعتاد عندما يأوى إلى فراشه أن يتدثر بمعطف أودين حتى يغلبه النعاس . وهو يحس بقرب صديقه منه . واتفق الاثنان على استبعاد العواطف من علاقتهما وألا يأخذانها مأخذ الجد . بل إنهما كانا فيما بينهما يسخران من هذه العلاقة كما يسخر كل منهما من هيئة ومنظر الآخر . فعلى سبيل المثال سخر ايشروود من أصابع أودين القصيرة الغليظة التى لم يكتمل نموها ومما أسماه عينيه الصغيرتين الصفراوتين الشاحبتين . فى حين سخر أودين من جسم ايشروود القصير الممتلىء المنهدم ودماغه الضخم . وكما أسلفنا خلت علاقتهما من الرومانسية واستمدت جذورها من رغبتهما المشتركة فى الرجوع إلى أيام زمان . ويذكر ايشروود فى هذا الشأن : "إن قيمة ممارستنا للجنس معا تكمن فى أنها أبقت خاصيته الراهقة فى علاقتنا حية ونابضة

كما لو كان بمقدورنا أن نرجع سويا إلى الماضى كلما شعرنا بالرغبة فى ذلك" ، "ومعنى هذا أن علاقتهما الجنسية كانت السبيل إلى عودتهما إلى أيام التلمذة وذكرياتها" .

كان أودين يسدل الستار فى غرفته ويقرأ على ضوء مصباح كهربائى فى وضح النهار . وفى صيف عام ١٩٢٦ تعرف بطالب اسمه جون بتجمان فى كلية ماجدالين . فضلا عن أن صلاته آنذاك توثقت بالشاعر سيسل داى لويس وركس وارنر . ولكن صلته بداى لويس كانت أقوى بكثير من صلته بوارنر . وأعجب أودين بعقل الشاعر ماكنيس المتقد والحاد . والجدير بالذكر أن السواد الأعظم من المثقفين والأدباء الأنجليز فى فترة الثلاثينات اتجهوا إلى الماركسية . ولهذا سمى هذا العقد بالعقد الأحمر . وأظهرت كوكبة من هؤلاء الأدباء أمثال سيسيل داى لويس وستيفن سبندر وكريستوفر ايشروود عطفهما على النظام الشيوعى . ورغم أن أودين لم ينضم إلى الحزب الشيوعى وان اهتمامه بالسياسة فى عمومه كان محدوداً فقد تأثر بهذا الجو اليسارى العام . وأغلب الظن أن صداقته لكثير من الأدباء اليساريين كانت السبب فى جنوحه الى اليسار . ومن ثم يمكن القول إن تمرده أيام طلب العلم فى جامعة أكسفورد تحلى فى شذوذه الجنسى وخروجه على الأعراف التقليدية أكثر من ايمانه بالماركسية والثورة الشيوعية . وعلى أية حال رفض شاعرنا أن تكون للشعر أية علاقة بالسياسة . وكان من عادته إذا أبدى رأيا أو عبر عن وجهة نظر أن يفعل ذلك على نحو قاطع وتسلط . وكان على وعى كامل بهذا الجانب من شخصيته فهو يقول عن نفسه :

"انني بطبيعتى أميل إلى أن أكون معلما أو مستبدا برأيى" . والجدير بالذكر أن سيسيل داى نفسه وهو شاعر وجد عسرا فى فهم شعره بسبب استغراقه فى الغموض . فضلا عن امتلائه بالمصطلحات العلمية والنفسية والفلسفية . ولكن هذا لم يمنعه من محاكاته .

وفى أكسفورد تعرف شاعرنا بطالب مستجد يدرس التاريخ فى كلية كرايست تشرش اسمه بيل ماك إلوى . ولا يستطيع الباحثون أن يقطعوا بطبيعة العلاقة التى ربطت بينهما فالكثير منهم يعتقد أن هذا اليافع رفض أن يستجيب لنداء أودين الجنسى . غير أن البعض يذهب إلى غير هذا . وفى أجازة عيد الميلاد عام ١٩٢٦ وافق ماك إيلوى على السفر مع أودين فى رحلة إلى النمسا . ويبدو أن شاعرنا أقام علاقة جنسية بصاحبة البنسيون الذى نزل فيه هناك : وهى احدى علاقاته الجنسية السوية النادرة التى تختلف عن سائر علاقاته الشاذة . وفى عام ١٩٢٧ قام أودين بالاشتراك مع الشاعر سيسيل داى لويس فى تحرير ديوان من المختارات الشعرية يحمل عنوان "أشعار من أكسفورد" . وفى يولية من نفس هذا العام سافر شاعرنا مع والده فى رحلة إلى يوغوسلافيا التى لم ترق له ، وأعقبتها رحلة أخرى إلى أوربا .

ومن الثابت أن أودين ترك أثرا عميقا فى أقرانه من طلبة جامعة أكسفورد لدرجة أنهم كانوا يستشهدون بأقواله وأحكامه فى أوراق اجاباتهم . وكان المهتمون منهم بقرض الشعر يعرضون عليه انتاجهم ويلتمسون المشورة لديه . ويرجع الفضل إلى كريستوفر إيشروود فى تعريفه بشاعر

معروف من نفس جيله هو ستيفن سبندر الذى لاحظ أن أودين يجد متعة كبيرة فى تسيير حياة الآخرين - وبخاصة حياتهم الجنسية - وفق هواه . وتأثر سبندر فى بداية حياته الشعرية - مثل داى لويس - بأسلوب أودين فأخذ يقلده فى تأليف قصائد تحتوى على ألفاظ أبعد ما تكون عن الشاعرية .

وفى خريف عام ١٩٢٧ قدمه صديقه بيل ماك إلوى إلى طالب رياضى مستجد اسمه جابريل كاريت وقع شاعرنا فى غرامه بمجرد أن رآه . وسبب له هيامه بكاريت ألما ممضا عبر عنه فى قصيدة ألفها فى نفس العام . فقد رفض كاريت الاستجابة لنزواته . وتتسم هذه القصيدة بالغموض وصعوبة التفسير كما أنها تمتلىء بالصور الغريبة والأخيلة غير المألوفة ورغم فشله فى حب كريت فقد ظل يحمل الود العميق له . ويذهب بعض الباحثين إلى أن شاعرنا تعمد أن يتورط فى هذه العلاقة الشائكة حتى يستثير هذا الحب الفاشل قريحته الشعرية . واستضاف كاريت - وهو ابن استاذ فلسفة فى الجامعة - شاعرنا فى منزل عائلته التى تعيش فى ضواحى أكسفورد . غير أن مسلكه معها لم يكن لائقا . فهو لا يتورع عن استخدام الألفاظ السوقية فى حضرتها .

وفى بيت كاريت التقى شاعرنا بطالب آخر اسمه ريتشارد جروسمان كان يولى السياسة والشعر والنشاط الرياضى اهتمامه . كان جروسمان اليافع الوسيم يمر بمرحلة دقيقة فى حياته الجنسية . ويبدو أن أودين تمكن من الايقاع به فى احدى المناسبات على أقل تقدير . وفى تلك الفترة فكر شاعرنا بالاشتراك مع كريستوفر ايشروود فى اصدار بعض المجلدات

التى تحتوى على اعترافات الطلبة الجنسية وهو مشروع لم ير طريقه إلى النور . ولهذا اقتحم أودين أدراج مكاتب أصدقائه فى الجامعة بحثا عن أية اعترافات . وعثر بالفعل على مجموعة من الخطابات فى درج جابريل كاريت أرسلها إليه من امريكا الجنوبية واحد من زملائه القدامى فى مدرسة سيدبرج ، فقام بنسخها وتعمد أن يقرأها على مسمع استاذ فى كلية أول سولز اسمه أ . ل . راوز عرف بالشذوذ الجنسى . وسبب هذا الوضع حرجا شديدا للأستاذ الذى منعه من مواصلة قراءة الخطابات .

وفى الفترة من يناير حتى أبريل عام ١٩٢٨ ألف أودين مجموعة من القصائد الغنائية القصيرة التى تدور حول الفشل فى الحب الجنسى بسبب التقاليد والضغوط الاجتماعية ثم اتجه بعد ذلك شطر تأليف الدراما الشعرية . وفى صيف عام ١٩٢٨ تقدم لأداء امتحان البكالوريوس فى الآداب . وعندما ظهرت النتيجة جاء اسمه بين طلبة المرتبة الثالثة (التى تعادل تقدير مقبول فى النظام العربى) ، وانخرط فى البكاء لهذه النتيجة المهينة التى لا يحصل عليها إلا الخائبون . وفيما بعد عزا الشاعر سوء نتيجته إلى كسله وافتقاره إلى الاستعداد الأكاديمى وهو رأى لا يجانبه الصواب . فقد كان ينظر إلى الأدب على أنه إنتاج فنى وليس مادة للدراسة والتشريح والتحليل .

وبعد إعلان النتيجة فى منتصف صيف ١٩٢٨ ذهب ليعيش بعض الوقت مع عائلة صديقه ستيفن سبندر فى شمال لندن . وكان سبندر قد اشترى آلة طباعة باليد بدائية بهدف

طبع انتاجه الشعرى عليها . وطلب منه أودين أن تطبع ديوانا يضم قصائده . ولكن المطبعة بلغت حدا من السوء جعلها تتوقف عن العمل فى منتصف الطريق ، فاضطر أودين إلى استكمال طباعة الديوان فى مطبعة خارجية . ولما خرج الديوان الى النور أهداه شاعرنا الى صديقه كريستوفر ايشروود . ويخلو هذا الديوان من العناية باستخدام علامات الوقف التى قال شاعرنا عنها فيما بعد انه لا يفهمها ولا يعرف لها أية فائدة غير مساعدة القارىء على التقاط أنفاسه . وكالعادة شاعت فى شعره الألفاظ والاشارات الغامضة والمحيرة التى تستغلق على الأفهام . ولكن حتى الذين عجزوا عن فهم شعره أحسوا بأنهم أمام صوت شعرى جديد ومتميز . واعترف أودين لسبندر بأنه يلجأ إلى استخدام العقل والحدس أكثر من استخدامه للعواطف والأحاسيس . فهو يقول فى هذا الشأن : "معنى هذا أنه يتعين علىّ معالجة الحياة عن طريق العقل والحدس وحتى أستطيع الاحساس بأى شىء يجب علىّ اكتساب المعرفة واكتساب أكبر قدر منها" . وبطبيعة الحال ساعده على اكتساب المعارف تمتعه بذاكرة فوتوغرافية . فقد كان يكفيه أن يتفحص أى كتاب حتى يتمكن من حفظ بعض صفحاته . فضلا عن تمتعه بقدرة مذهلة على التوصل الى لب أى كتاب والاهتداء الى أهم فقراته بمجرد تفحصه .

وبعد تخرجه من جامعة أكسفورد خطر له أن يتزوج فتقدم لخطبة ممرضة تدعى شيلا ريتشاردسون تعمل فى عيادة نفسية فى مدينة برمنجهام . ولا يعرف الدارسون على وجه

التحديد الأسباب التى حدت به إلى ذلك فالبعض يعزوها إلى طبيعته الجنسية المزدوجة أو حنينه الجارف إلى العيش فى كنف أسرة ولكنه سرعان ما نبذ فكرة الزواج من امرأة وقرر السفر إلى برلين فى ألمانيا حيث يمكنه ممارسة إباحيته الجنسية في حرية مطلقة . والجدير بالذكر أنه بالرغم من أن الثقافة الأجنبية السائدة فى انجلترا آنذاك كانت الثقافة الفرنسية فقد فضل عليها أودين الثقافة الألمانية كنوع من الاحتجاج على ثقافة جيل بأسره . والغريب في الأمر أنه كان يعرف الفرنسية ويجهل الألمانية عندما قرر السفر إلى ألمانيا . وفى أغسطس عام ١٩٢٨ كتب إلى صديقه دافيد إيرست يقول : "سوف أسافر إلى برلين لأقضى فيها عاما : فهل برلين ياترى شريرة للغاية" ؟!

برلين الشريرة واهتمام أكبر بالسياسة :

كانت برلين فى الثلاثينات تعانى من الكساد الاقتصادى وانتشار البطالة بشكل رهيب . فلا غرو أن تحولت إلى مباءة للشذوذ الجنسي وهو الأمر الذى أغرى شاعرنا بزيارتها والعيش فيها . وهناك اعتاد ارتياد الكباريهات ولعب الليل والحانات وبيوت دعارة الذكور المنتشرة فى جميع أرجاء المدينة وتعرف على رجل من شواذ الجنس تخرج فى جامعة كامبردج اسمه جون لايارد الذى لعب دورا خطيرا فى صياغة أفكار الشاعر وتشكيلها بدعوته الفاجرة إلى ممارسة المثلية والاباحية الجنسية مقتديا فى ذلك بمعلمه ورائده عالم النفس الأمريكي هومرلين . وتتلخص دعوة لايارد (التى تأثر بها كريستوفر ايشروود أيضا) فى رفض المواصفات الأخلاقية

والتقاليد الدينية التى تكبل غرائز الإنسان وتقف عائقا أمام سعادته . فالكبت فى نظره هو الخطيئة الحقيقية واستسلام الإنسان لغرائزه ونوازعه الطبيعية هو السبيل الوحيد إلى صحته النفسية . وهو رأى سبق ليسجموند فرويد ود . هـ . لورانس أن عبرا عنه . والجدير بالذكر أن أودين فى شبابه لم يظهر اعجابا بروايات لورانس أو شعره . ولكنه أظهر شديد الاعجاب بآرائه الفكرية كما عبر عنها فى كتابه "فانتازيا الشعور" (١٩٢٢) .

كان أودين مريدا وفيا لأستاذه لايارد ينفذ تعاليمه الداعرة لفاسقة حتى قبل أن يلتقى به . وهذا ما يؤكده مسلكه المنحل يام الطلب فى جامعة أكسفورد . وحز فى قلبه أن بعض لشبان الذين وقع فى غرامهم لم يستجيبوا لرغباته الشاذة ، لأمر الذى جعله يكتب شعرا يهاجم فيه هؤلاء الشباب الذين يسفون فى أغلال التقاليد وقيود المواصفات . والغريب ان يارد الذى كان يعاني من سقم النفس واهتزاز العقل ويظن نه إنسان سوى وطبيعى من الناحية الجنسية لم يدرك ميله ى المثلية إلا بعد أن التقى بأودين . وكأن شاعرنا قد فجر يه نزعته المكبوتة إلى الشذوذ . يقول لايارد فى معرض كرياته عن التقائه بأودين : "كان جميلا جدا . وكان وجهه عما وملائكيا للغاية . ذلك النوع من الوجوه الذى يتضح لنا نه فى الحقيقة شرير" .

وعندما التقى لايارد بشاعرنا أخذ يشرح له نظريات مرلين الاباحية باستفاضة وعلى مدى ساعات ، الأمر الذى ب لب شاعرنا وجعله ينسى نفسه ويتأخر فى العودة إلى

بيته فى ضواحى برلين . فاضطر إلى قبول استضافة لايارد له . ونظرا لأن لايارد لم يكن لديه غير سرير واحد فقد اقترح عليه أن يناما معا فى نفس الفراش . ويعترف لايارد انه رغم أنه لم يسبق له ممارسة الشذوذ الجنسى من قبل فقد شعر على الفور برغبة فى احتضان ضيفه . ولكن أودين رفض الاستجابة إليه قائلا إنه على علاقة بشاب اسمه بيبس . ولكنه يعترف فى يومياته التى بدأ كتابتها فى عام ١٩٢٩ انه غير رأيه بعد ذلك بفترة قصيرة ووافق على الاستجابة لرغبات لايارد الشاذة . غير أن هذه التجربة جاءت مخيبة لآماله فقد وجدها كئيبة وخالية من اللذة . وسرعان ما اختفى الجنس من علاقتهما التى تحولت إلى صداقة . وانصرف أودين إلى معاشرة المراهقين والشباب الذين التقى بهم فى المواخير والبارات والحانات والذين كانوا على استعداد لأن يبيعوا أجسادهم للزوار الأجانب مقابل المال والهدايا . ويكفينا أن نعرف أنه كان هناك فى برلين وحدها فى فترة الكساد العظيم عام (١٩٢٩) ما لا يقل عن مائة وسبعين بيتا من بيوت دعارة الذكور تحت رقابة البوليس وإشرافه . كان المال أساس العلاقة بين شاعرنا وبين عشيقه بيبس . ويلقى لايارد مزيدا من الضوء على هذه العلاقة فيقول إن أودين كان يستعذب أن يقوم حبيبه بضربه ضربا خفيفا . ويبدأ العراك بينهما بتبادل قذف المخدات ثم ينتهى باللكمات . وبعدها يتوجه الاثنان إلى حجرة النوم لممارسة الجنس . وكان أودين يشعر بالكسوف إذا لاحظ أن هناك من يراقبه . والغريب أنه لم يفكر آنذاك فى فسخ خطوبته من شيلا فقد كان يظن حتى ذلك الحين أن شذوذه الجنسى شىء عابر وسحابة صيف لن تلبث أن

تنقشع ، وأنه سوف يعود فى نهاية المطاف إلى العلاقات الجنسية السوية .

وفى برلين أعاد أودين كتابة مسرحيته الشعرية "مدفوع على الجانبين" التى بدأها فى انجلترا كقصيدة من الشعر . وتعكس النسخة المعدلة الأثر الكبير الذى تركته فيه آراء لايارد . والنسخة المعدلة تفوق الأصل فى غموضها لدرجة أن ت . س . إليوت نفسه عجز عن فهمها ولكن شعورا منه بقيمتها وافق على نشرها فى المجلة التى يصدرها بعنوان "ذى كريتيريون" . ومن ناحيته عزا أودين غموض المسرحية إلى طبيعته الكسولة التى تمنعه من بذل الجهد لتوضيح واستجلاء أفكاره .

وفى يناير عام ١٩٢٩ قرر الشاعر أن يترك العائلة التى يعيش معها فى مدينة برلين واستأجر عشة متواضعة بالقرب من أحد المواخير . وفى تلك الفترة استمر فى نظم القصائد الداعية إلى الأباحية الجنسية واتباع تعاليم لايارد . واتسمت هذه القصائد بالغموض والتعقيد اللذين يتحملان التفسير على عدة مستويات . وحين جاء صديقه كريستوفر ايشروود لزيارة برلين فى مارس عام ١٩٢٩ قام باصطحابه إلى باراتها وقدمه إلى بعض الصبية والغلمان . وفى احدى تلك البارات تعرف ايشروود بعشيقه بوبى ، وهو ما سوف نفصله فى الفصل التالى .

أحصى الدارسون عدد الغلمان الذين عرفهم أودين فى برلين فى الفترة من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٢٩ فوجدوا أنهم

تسعة أوردت المراجع العلمية أسماءهم . واعتمد أسلوبه فى اصطيادهم على ارتياد الحانات والبارات . وهو يقول فى هذا الشأن انه كان بامكانه ارضاء شهواته عن طريق بيوت الدعارة والمواخير ولكنه آثر أن تكون علاقته يرتبط بهم عاطفيا ويقيم صلات مستقرة بعض الشيء معهم . ويستشهد فى هذا الصدد بقول إيشروود إن الفسق الكامل هو نهاية اللذة ، وهذا يعنى ضرورة تخلى العاشق عن جانب من حريته من أجل إقامة علاقات غرامية أكثر ثباتا . وعاش أودين على أمل لم يتحقق إلا بعد هجرته إلى أمريكا مفاده أن يجد عشيقا يعيش معه طول العمر . وأثمرت مغامراته الجنسية فى برلين بعض القصائد . كما أن اتصاله بالشباب المنحرف فى البارات ألهمه بتأليف مسرحية شعرية غير منشورة بالاشتراك مع ايشروود بعنوان "الاصلاحية" التى غيرا عنوانها عند الانتهاء من كتابتها إلى "أعداء الأسقف"

وفى تلك الفترة كان أودين على علاقة بشاب يدعى جيرهارت قدمه الى لايارد الذى بدأ أثره فيه يضحل . وعرض جيرهارت على لايارد أن يصبح عشيقه من وراء ظهر أودين وقبل لايارد هذه الخيانة ولكنه شعر بالعجز الجنسى عندما حاول أن يمارس الجنس معه . فندم على خيانته لأودين دون طائل . فها هو سرق منه غلامه دون جدوى . عندئذ قرر لايارد التخلص من حياته بأن أطلق رصاصة من مسدسه داخل فمه . ولكن الرصاصة بدلا من أن ترديه قتيلا استقرت فى جمجمته فى مكان لا ضرر منه . وبعد أن غاب عن الوعى بضعة دقائق أفاق ليكتشف انه بخير فاستقل سيارة أجرة

وتوجه بها إلى مسكن صديقه أودين وسلمه المسدس المحشو بالذخيرة ورجاه أن يخلصه من حياته . ورق قلب أودين فود لو استطاع أن يريحه مما هو فيه من كرب ولكنه خشى أن يقبض البوليس عليه ويحكم القضاء عليه بالاعدام . ولهذا رفض الاستجابة له ، وقام بنقله إلى المستشفى حيث استخرج الأطباء الرصاصة من رأسه . وبعد مرور بعض الوقت تماثل لايارد للشفاء واسترد صحته . وعندما روى أودين هذه القصة الفاجعة لصديقه ايشروود تأثر بها وضمها فى روايته "الذكرى" . وتشاء الأقدار أن يتخصص لايارد بعد ذلك فى نظريات العالم النفسى المعروف يونج ويحصل على درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد ثم يتزوج ويطول العمر به فيموت فى سن الثمانين .

كان أودين أصلا لا يحفل بالسياسة ويهتم فقط بالعلاقات الخاصة غير أن ظروف ألمانيا المضطربة عام ١٩٢٩ جعلته يهتم بها . ومع تنامى المد النازى بدأ يشعر بالتعاطف على الحزب الشيوعى الألمانى الذى تعرض لاضطهاد السلطة له . وتنكيلها به . وعندما علم بمقتل عدد كبير من الشيوعيين على أيدى الشرطة المانية تناول محنتهم فى احدى قصائده . ولعلها كانت أول مرة يظهر فيها اهتماما واضحا بالسياسة . وفى نهاية مايو ١٩٢٩ غادر برلين بهدف التجول فى أرجاء ألمانيا . وكانت علاقته بعشيقه جيرهارت قد انتهت بعد أن سرق منه نقوده واختفى بها ثم يعود ليسرق من أودين المسدس الذى كان لايارد ينوى الانتحار به واستبدل أودين جيرهارت بغلام آخر هو أوتو كوزول . وانزعج أهل قرية

رونيشوت عندما أصر شاعرنا على تشنيف آذانهم بعزفه العالى والمتواصل على البيانو الموجود فى محطة السكة الحديد بالقرية . فضلا عن أنه صدم مشاعرهم عندما رأوه يتصارع مع عشيقه أوتو فى الحقول وهما عاريان تماما فقام الأهالى باستدعاء الشرطة التى لاحقت أوتو عندما اكتشفت أنه هارب من اصلاحية أحداث .

أحب أودين ألمانيا من كل قلبه لدرجة أنه أحس بحنين شديد إليها بعد عودته إلى بلاده انجلترا عام ١٩٢٩ . وكان لا يزال يفكر فى الزواج من شيلا خطيبته . غير أن ايشروود الذى نزل ضيفا عليه فى ألمانيا حاول أن يثنيه عن اتمام الزواج . ويبدو أنه نجح فى تغيير رأيه فى الزواج . فقد كتب حينذاك يقول إن جانبا من جاذبية ممارسة الشذوذ الجنسى يكمن فى العقبات التى تعترض طريقها وفى العذاب الناجم عنه ، فى حين أن حب الرجل والمرأة بالمقارنة يبدو ميسورا وسهلا ومستأنسا . ويتضح مما كتبه عام ١٩٣١ الى صديقته مارجريت جاردنر انه حسم المسألة بشكل نهائى لصالح الشذوذ الجنسى . والجدير بالذكر أن القوانين فى بريطانيا حتى ذلك الوقت كانت تجرم الشذوذ الجنسى وتعاقب الممارسين له بالحبس (كما حدث فى محاكمة أوسكار وايلد) ، الأمر الذى دفع بكثير من الشواذ الى اتخاذ أسباب الحيطة والحذر . والغريب أن أودين تصرف على سجيته كما لو كانت هذه القوانين غير موجودة ولم يحاول أن يخفى شذوذه الجنسى عن أصدقائه ممن وثق بهم وتوسم فيهم السماحة . عندما أنتهى من كتابة مسرحية "إصلاحية الأحداث" قام

باهدائها على كل من أوتو عشيقه وبوبى عشيق صديقه ايشروود .

أودين يمارس التدريس والسفر والشذوذ فى انجلترا :

بعد عودته إلى انجلترا عام ١٩٢٩ اضطر شاعرنا أن يعتمد فى معاشه على والديه . فلم يكن له عمل أو دخل ثابت ، فى حين أن أخويه جون وبرنارد كانا يعتمدان تماما على نفسيهما فبرنارد الذى هاجر إلى كندا يملك مزرعة . أما جون فكان يعمل جيولوجيا فى الهند ويهوى تسلق الجبال الشاهقة فلا غرو أن أهدى إليه ويستان مسرحيته الشعرية "الصعود الى قمة ف ٦" .

ومما زاد من تأزم شاعرنا النفسى ان والديه كانا على علم بشذوذه الجنسى . وفى صمت كابدت أمه حسرتها . أما الأب فاتخذ موقفا براجمانيا فقد عبر عن استعداده للتغاضى عن شذوذ ابنه بشرط أن يخفيه عن المجتمع والناس . وعندما حانت لشاعرنا فرصة العمل كمدرس خاص فى اللغة الاتينية لصبى يعيش مع عائلته فى لندن لم يتردد فى قبول هذا العمل الذى أداه على أكمل وجه وبضمير حيج . وفى بداية عام ١٩٣٠ نما الى علمه أن زميله الشاعر سيسيل داى لويس يتأهب لترك وظيفته كمدرس في احدى مدارس اسكتلندا فتقدم لشغل هذه الوظيفة الشاغرة فى فصل الصيف من نفس العام . وراقت له مهنة التدريس فظل يمتهنها لمدة خمسة أعوام .

كانت المدرسة الاسكتلندرية الصغيرة التى التحق أودين

للعمل بها واسمها أكاديمية لارتشفيلد ذات ماض عريق فقد تخرج فيها عالم الأنثروبولوجيا المعروف السير جيمس فريزر مؤلف مرجع "الغصن الذهبى" وجون لوجى بيرد مخترع التليفزيون . وأسندت إليه المدرسة تدريس اللغتين الانجليزية والفرنسية والاشراف أحيانا على طلبة القسم الداخلى والتحكيم فى ألعاب التلاميذ وأنشطتهم الرياضية . ويذكر عنه تلاميذه شدة شراهته فى التدخين واتساخ يده بالحبر وعادته الغريبة فى قضم أصابعه المتسخة بدخان التبغ بفمه . وكمدرس استطاع شاعرنا عن طريق الاتيان ببعض الأفعال البلهوانية والبذيئة ترويض الصبية . وهو يقول فى هذا الشأن انه يؤمن بضرورة أن يتحول المدرسون الى أراجوزات . فالمدرس الذى يستطيع الوقوف على رأسه أو عزف البيانو بأصابع قدمه قمين بجذب انتباه التلاميذ اليه ، الأمر الذى يمكنه من السيطرة عليهم .

وتعتبر فترة اشتغاله بالتدريس فى أكاديمية لارتشفيلد نقطة تحول فى حياته . فبعد عزوفه عن قراءة الصحف أخذ ابتداء من عام ١٩٣٠ يطالعها ويولى السياسة شيئا من اهتمامه . ولكن الأهم من هذا اتقاد قريحته الشعرية وإقبال المجلات ودور النشر على نشر أعماله . ففى تلك الفترة وافق الشاعر الكبير ت . س . إليوت بوصفه مسئولا فى دار نشر فابر وخابر على نشر ديوانه "قصائد" ولم يمانع فى اضافة "مدفوع من الجانبين" إلى الديوان . فضلا عن أنه كلفه بعرض الكتب لنشرها فى مجلة "كريتريون" التى يرأس تحريرها كما أن بعض المجلات الأخرى مثل "الليسنر" و"نيوستسمان" و"أشعار جديدة" . وقد تميز عرضه للكتب

فى هذه المجلات بالاستفاضة فى اقتطاف فقراته ما استطاع إلى ذلك سبيلا بغية إثارة اهتمام القراء بمطالعة النصوص الكاملة لهذه الكتب . ومن ثم تعمد أن يجيىء تعليقه عليها فى أضيق الحدود . غير أن الغموض شاب شعره المنشور مثلما شاب كتاباته النقدية . فلا غرو أن استقبل النقاد ديوانه الأول الذى نشره إليوت بكثير من الملامة والتقريع . ومما زاد من غموض الديوان كثرة ما ورد فيه من أخطاء بسبب رداءة خطه من ناحية وكسله فى تصحيح البروفات من ناحية أخرى . كما أنه استخدم بعض المفردات فى قصائده من أجل جرسها وليس من أجل ما تحمله من معان ، الأمر الذى يدل على شدة اهتمامه منذ باكورة حياته بالتكنيك وليس بالمضمون . ويذهب النقاد إلى أن بعض أجزاء "مدفوع من الجانبين" تستغلق على العقل ولا يفهمها غير المحللين النفسيين . علما بأن شاعر المستقبل ديلان توماس الذى كان آنذاك فى السادسة عشرة اشترى نسخة من ديوان "قصائد" وظل يعيد قراءته حتى تهلل من كثرة الاستعمال .

وفى عام ١٩٣١ ألف أودين أربع قطع نثرية ضمنها كتابه "الخطباء" المنشور عام ١٩٣٢ . ويدل بعضها على شدة تأثره فى مبدأ حياته بآراء الكاتب النفسى الألمانى جورج جروديك ومفادها أن الأمراض التى تبدو عضوية ليست فى أصلها سوى أمراض نفسية . وكانت هوايته أن يتولى تشخيص أمراض أصدقائه وردها الى أسباب نفسية . ويدل بعض قطعه الأخرى على تأثره بإيمان د . هـ . لورانس بالحدس واللاوعى وشكه فى قيمة الوعى والعقل . والجدير

بالذكر أن أودين استخدم فى كتابة بعض قطعه النثرية على نحو قريب من الأسلوب السوريالى . وانه شيئا فشيئا أخذ يتخلى عن سابق ايمانه بآراء لايارد ود . هـ . لورانس أو انه على أقل تقدير لم يعد يؤمن بها بنفس القوة التى آمن بها فى الماضى .

قلنا إن أودين أخذ يهتم فى أوائل الثلاثينات بالسياسة ولكن اهتمامه بها ظل محدودا . فقد كتب عام ١٩٣٢ قصيدة من جزءين بعنوان "عام جديد سعيد" تتضمن تعريضا بالسياسة وزراية بها . وقد أهدى الشاعر هذه القصيدة إلى واحد من شواذ الجنس تعرف به حديثا اسمه جيرالد هيرد الذى تنوه القصيدة به . ويخلق بنا أن نذكر أن جيرالد هيرد لعب دورا بارزا فى حياته الفكرية بعد أن انحسر عنه نفوذ لايارد . كان هيرد عندما تعرف به شاعرنا فى أوائل الأربعينات من عمره يقدم فى محطة الإذاعة البريطانية برنامجا بعنوان "هذا العالم المدهش" يهدف إلى تبسيط العلم حتى يفهمه عامة المستمعين . أضف إلى ذلك إنه ألف كتابين هما "صعود الإنسانية" عام (١٩٢٩) و"الجانب الاجتماعى من الدين" عام (١٩٣١) كما أنه أصدر مجلة لم يقيض لها أن تعيش طويلا كرسها للدفاع عن المذهب الانسانى القائم على العلم . غير أنه انصرف فيما بعد إلى تأليف القصص البوليسية . كان هيرد يعيش مع عشيق له ثرى يدعى كريس وود فى حى الويست أند الراقى فى لندن . ويذكر ايشروود أن أودين شارك هيرد أهتمامه بالعلوم على نحو غير متخصص وأنه كثيرا ما رأهما مستغرقين فى

مناقشات علمية . آمن هيرد بأن محنة الإنسان تكمن في انقسامه على ذاته بسبب طغيان المادة والجوانب الاقتصادية على دخيلة نفسه ، الأمر الذى يفضى إلى اصابته بالعصابية ثم يؤدى به إلى الثورة فى نهاية الأمر . وقد بلغ اعجاب أودين بهيرد مبلغا جعله يعتبره العاقل الوحيد فى مجتمع من المهرجين والأفاقين . فضلا عن أنه آمن بكل كلمة وردت فى كتابه المحدود الانتشار "الجانب الاجتماعى من الدين" .

ويخلق بنا أن نشير إلى أن ت . س . إليوت كتب عام ١٩٣٠ إلى هربرت ريد معبرا عن قلقه من عدم ايمان أودين بأى مبدأ أخلاقى وايدولوجى . ورغم أن إليوت لم يشك للحظة واحدة فى قدرته على اتقان التكنيك فقد خشى أن يؤدى افتقاره الى المعتقدات الدينية والأخلاقية والأيدولوجية إلى تعطيل قدرته على التطور التكنيكى .

وفى فترة اشتغاله بمدرسة لارتشفيلد (التى تركها فى الفصل الدراسى لصيف عام ١٩٣٢ ليلتحق بمدرسة الدوانز فى كولوال) ارتبط أودين من الناحية الجنسية بشاب . ولكن العلاقة بينهما ما لبثت أن انتهت بانتهاء فترة بقائه فى لارتشفيلد . وفى نفس هذا العام تكونت فى لندن فرقة مسرحية جديدة اقترح عليه كل من مديرها ومصممها جون بودنى (وهو نفس الغلام الذى راق فى عينيه أيام التلمذة فى مدرسة جريشام وقابله بالصدود) أن يتعاون مع فرقتهما المسرحية وخيراه بين تأليف باليه كورالى بعنوان "أورفيوس" أو مسرحية بعنوان "رقصة الموت" . ويبدو أن الاقتراح أحيا فيه عاطفته القديمة نحو بودنى ، الأمر الذى

جعله يرسل إليه كى يوافيه بصورة فوتوغرافية حديثة له . ورغم صدود بودنى السابق فقد قبل عند التقائهما أن يجمع الفراش بينهما . يقول بودنى فى هذا الشأن أن شهوة الجسد وحدها هى التى حركت شاعرنا . وانتهز بودنى علاقته بالشاعر كى يعرض عليه انتاجه الشعرى ويأخذ رأيه فيه . ولكن حكم أودين على هذا الانتاج لم يتأثر مطلقا بعلاقته به ، إذ أنه لم يتردد فى توجيه النقد اللاذع له وتنبيهه إلى مواطن الضعف فيه .

وفى مدرسة الداونز كان أودين يقوم بتدريس علوم الرياضة والأحياء الى جانب اللغتين الانجليزية والفرنسية . وكانت هذه المدرسة تعنى بتنمية هوايات تلاميذها ومواهبهم وخاصة الرسم والموسيقى . وبسبب اشتغاله بالتدريس وحبه له أصبح لشاعرنا (من واقع خبرته) رأى فى مناهج التدريس وأساليبه ، فهو يرى أنه من الخطأ تدريس الناشئة روائع الأدب الانجليزى التى يتذوقها الكبار دون أى اعتبار لتجارب الصغار . ومن ثم فإنه يقترح أن تكون هناك علاقة بين المناهج وبين بيئة التلاميذ . ورغم أنه حبذ حفظ التلاميذ لروائع الشعر عن ظهر قلب فإنه اشترط ضرورة شرح مفرداته شرحا وافيا قبل حفظه . ولم ير شاعرنا أى جدوى فى الاستفاضة فى شرح مواطن الجمال فى هذا الشعر للصغار . وذهب إلى أن أفضل أسلوب لتعليم الشعر للناشئة هو تشجيعهم على قرضه . ودعاه هذا إلى أنشاء مجلة مدرسية اسمها "البادجر" لنشر ما تنتجه قرائح التلاميذ من شعر وأدب .

قلنا أن أودين اتجه إلى قراءة الماركسية أيام دراسته

بجامعة أكسفورد دون أدنى التزام بأيدولوجيتها . صحيح أنه دعا إلى الثورة ولكن هذه الثورة كانت أبعد ما تكون عن الماركسية بل هي ثورة نفسية هدفها الاطاحة بكل مظاهر الكبت وأسبابه التى تؤدى الى شقاء الإنسان وتعاسته . ومعنى هذا أنه أراد إشعال ثورة على طريقة د . هـ . لورانس الذى دعا الى تحرير الغرائز واللاوعى من ربقة العقل واستبداد الوعى وليس على طريقة كارل ماركس الساعية إلى الإطاحة بالطبقة الرأسمالية كى تحل محلها طبقة البروليتاريا . وهذه الدعوة إلى الثورة النفسية أكثر وضوحا فى شعره من وضوحها فى نثره . وليس أدل على هذا من أنه نشر فى أغسطس عام ١٩٣٢ قصيدة بعنوان "شيوعى فى عيون الآخرين" فى مجلة "القرن والعشرون" ، تتضمن هجوما ـ من منطلق الحب والأخاء الإنسانى وليس من منطلق ايدولوجى ـ على الذين يضطهدون الطبقة العاملة ويسومونها الخسف والعذاب . ولولا أن أول بيت فيها يبدأ بكلمة "أيها الرفاق" وأن عنوانها يحتوى على لفظ "شيوعى" لما شعر قارئوها مطلقا بيساريتها . وفى هذه القصيدة يدعو الشاعر إلى اطلاق الغرائز من عقالها حتى لا يؤدى كبتها إلى تدمير النفوس وإصابتهم بالأسقام النفسية . علما بأن أودين قام فيما بعد بتغيير كلمة "الرفاق" الشيوعية الى كلمة "الأخوة" وهى كلمة إنسانية عامة . ومما يؤكد أن تأثره بالماركسية لا يعنى إيمانه بها من أنه أسهم فى مناظرة منشورة عام ١٩٣٥ بعنوان "الفنون فى يومنا الراهن" ذهب فيها إلى أن سيجموند فرويد له نفس أهمية كارل ماركس فى تشخيص أمراض المجتمع وعلله .

فى صيف عام ١٩٣٣ عكف شاعرنا تحت تأثير حب جديد بشاب يصغره بعدة أعوام على تأليف مجموعة من السوناتات فى العشق تميزت عن سابق قصائده الغنائية غير معهودة فى شعره وبما أظهره الشاعر من استعداد أكبر للإندماج العاطفى فى تجارب العشق الذى بدأ يكابده بدلا من وقوفه فيما مضى بعواطفه بمنأى عن هذه التجارب . ومن ثم فقد خفت فى هذا الشعر الجديد حدة وعيه بالذات وتضاءل إعماله الشديد للعقل . ومع هذا فقد احتفظ شعره بنفس غموضه القديم وصعوبة فهمه . ويرد الدارسون هذا التحول الذى أصاب أودين إلى سببين أولهما انه وصل إلى مرحلة النضوج وأن عواطفه أصبحت أكثر استقرارا وعمقا عن ذى قبل ، فهو لم يعد ينظر إلى تجاربه الجنسية على أنها نوع من مغامرات المراهقة ، أى أنها شىء عابر لا يلبث أن يذهب لحال سبيله ، كما أنه بدأ يأخذ عشقه مأخذ الجد تماما مثلما يأخذ الواله السوى عشقه لحبيبته . فلا غرو أن يطرأ على أسلوبه تغير ملحوظ قال بصدده إنه بدأ مع هذا التغير فى التخلى عن عادته السابقة فى صياغة قصائده بتركيز وأحكام شديدين لا يسمحان باستخدام كلمة واحدة زائدة يمكن الاستغناء عنها ، الأمر الذى جعل قراءة شعره شيئا عسيرا ومملا . وفى تلك المرحلة من حياته وقع تحت تأثير الشاعر الأيرلندى المعروف بيتس بعد أن كان فى باكورة حياته واقعا تحت تأثير كل من توماس هاردى وت . س . إليوت .

وفى عام ١٩٣٣ انتصرت النازية واستولت على الحكم فى ألمانيا ، الأمر الذى دفع مؤلفنا إلى معالجة السياسة فى

مسرحيته الجديدة "رقصة الموت" المنشورة فى نفس العام . غير أن اهتمام أودين باجراء التجارب التكنيكية والفنية فى هذه المسرحية يفوق اهتمامه بالسياسة . وليس هذا بالأمر المستغرب فقد سبق منذ سنوات أن صرح لكريستوفر إيشروود بأن الوقت قد آن للتخلص من المسرح الواقعى الحديث كما أرسى قواعده الكاتب المسرحى الروسى المعروف تشيكوف . ولعل المسرحية الشعرية التى ألفها شاعرنا بعنوان "مدفوع من الجانبين" تتضمن أول محاولة من جانبه للتجريب . ثم أوغل فى التجريب فتعمد أن يضمن مسرحيته الجديدة "رقصة الموت" كثيرا من أشكال المسرح الترفيهى وغير الراقى مثل موسيقى الصالات والبانتوميم واستعراضات الكباريهات . وهذه المسرحية لا تزعم أنها تقدم شعرا جادا . فالكثير من أجزائها لا يعدو أن يكون رجزا . ولم يستمر عرض هذه المسرحية فى لندن سوى لفترة قصيرة . ورغم أن الناقد ف . ر . ليفز هاجمها بضراوة فإن اليأس لم يتطرق قط إلى قلب مؤلفها الذى قدم فى ذات الوقت مسرحية "سفينة نوح" التى قام بتمثيلها طلبة مدرسة الدوانز . ويرجع تاريخ هذه المسرحية إلى العصور الوسطى . وقد سبق لأودين أن قدم مسرحية "أورفيوس" للكاتب الفرنسى كوكتو على خشبة مسرح نفس المدرسة . وفى يونية عام ١٩٣٥ قام بانتقاء مجموعة مختارة من القصائد التى ألفها طلبة المدرسة واصدارها فى ديوان بعنوان "لسان الشاعر" لقى نجاحا باهرا وحظى بتقريظ النقاد . وكان هدفه من نشر هذا الديوان أن يبين أن الشعر ليس سوى ذلك الكلام الذى يسهل حفظه . وهو تعريف للشعر غاية فى البساطة . يقول أودين فى شرح

مفهومه البسيط للشعر : "سوف نسيء إلى الشعر أبلغ إساءة إذا قصرناه فقط على معالجة أهم تجارب الحياة . الشعر ليس أفضل أو أسوأ من الطبيعة الإنسانية . فهو مثلها يجمع بالتناوب بين العمق والضحالة والتعقيد والسذاجة والغباوة والذكاء والدعارة والطهارة" .

وفي عام ١٩٣٥ قبل أودين عن طيب خاطر اقتراحا بزواجه من إريكا ابنة الكاتب الألماني الكبير توماس مان حتى يخلصها من براثن هتلر والنازية ويوفر لها فرصة الحصول على الجنسية البريطانية . ورغم أن هذا الزواج كان مجرد شكل أو خدمة قدمها أودين إلى إمرأة استجارت به دون أن ينطوي على أية علاقات عاطفية أو جنسية من الطرفين فإنه ظل يرتبط به طول العمر دون أن يخطر على باله أن يتخفف منه . واعترافا منها بما أسداه إليها شاعرنا من جميل أوصت له بعد وفاتها ببضعة آلاف من الدولارات .

وفي أغسطس من نفس العام (١٩٣٥) قام أودين برحلة في سيارته إلى أوربا واصطحب معه اثنين من طلبة مدرسة دوانز السابقين هما ميشيل بيتس وبيتر روجر الذي يبدو انه كان على علاقة لواطية بأودين . وفي العام السابق لرحلته (١٩٣٤) انتهى من تأليف مسرحية بعنوان "الصيد" استقى مادتها من بعض المقطوعات التي سبق أن كتبها وقام بعرضها على صديق عمره ايشروود الذي أدخل عليها كثيرا من التعديلات لدرجة أنه غيرها تماما عما كانت عليه . وهكذا فاجأ أودين دار النشر فابر وفابر بنص مسرحي مغاير تماما عن النص الذي اتفق معها على نشره بعنوان "الصيد" وقدم

لها مسرحية مختلفة كل الاختلاف عنوانها "الكلب تحت الجلد" عام (١٩٣٥) . ورغم امتعاض ت . س . إليوت المسئول عن النشر من اخلال أودين بشروط التعاقد فقد قبل نشر النسخة المعدلة ولكن دون إشارة إلى اسهام ايشروود فيها ، الأمر الذى أغضب شاعرنا من هذا التجاهل لجهود صديقه .

الاشتغال بالسينما ومزيد من الأسفار :

قرر أودين أن يهجر مهنة التدريس واتجه إلى كتابة مادة الأفلام التسجيلية التى تنتجها مصلحة البريد البريطانية : ورغم أن دخله من مهنته الجديدة كان نصف دخله من التدريس فإنه قبل الاضطلاع بها عن طيب خاطر . ومع هذا كانت أسعد فترات حياته تلك التى قضاها كمدرس فى مدرسة دوانز وخاصة لأنها من أخصب فترات عمره . وعندما اتجه الى السينما كلفه المخرج جون جريرسون بكتابة مادة فيلمين تسجيليين يدور أولهما حول قطار الليل الذى يحمل البريد إلى اسكتلندا . أما الفيلم الثانى - وهو من النوع التجريبى - فيتناول حياة عمال المناجم فى شمال إنجلترا . ونظرا لضآلة المبلغ المخصص لانتاج هذين الفيلمين عهد مخرجهما بوضع موسيقاهما إلى مؤلف مغمور ولكنه موهوب اسمه بنيامين بريتين الذى صعد نجمه فيما بعد فى عالم الموسيقى الانجليزية . ومن خلال فيلمه الأول "بريد الليل" نجح أودين أن يبين أنه يمكن استخدام الشعر فى السينما ، كما نجح بنيامين بريتين فى وضع الموسيقى المصاحبة لهذا الشعر . ولقى هذا الفيلم عند عرضه فى أوائل عام ١٩٣٦ نجاحا

عظيما وحقق مكاسب طائلة وحظيت موسيقاه باهتمام واسع بين الجمهور . ولم يخف على عين أودين الفاحصة أن يدرك أن الموسيقار الناشيء الموهوب كان يميل بالقوة وليس بالفعل إلى الشذوذ الجنسى فتضافر مع كريستوفر ايشروود على اقناعه بممارسته . وتشير بعض قصائد أودين إلى الدور الذى اضطلع به فى هذا السبيل . كما أن القصيدة التى ألفها فى مارس عام ١٩٣٦ . بعنوان "الليل يخفى الأرض الجامدة" وأهداها الى بريتين الذى وضع موسيقاها تشير إلى الحب الذى يحمله شاعرنا للموسيقار وصدود هذا الموسيقار عنه . وقد صرح بيتر بيرز صديق عمر بريتين بصحة هذا الأمر . وهذا ما تؤكده شهادة ايشروود نفسه .

لم تمض بضعة شهور على اشتغال أودين بالتأليف السينمائى حتى قدم استقالته من عمله فى السينما فى فبراير عام ١٩٣٦ . وشجعه على ذلك بطبيعة الحال ما أصاب من نجاح على كتابة بعض المسرحيات مثل "الكلب تحت الجلد" التى قدمت على خشبة المسرح فى ٣٠ يناير عام ١٩٣٦ واستقبلها النقاد بقدر غير ضئيل من المديح والثناء .

وتدور مسرحيته التالية "الصعود إلى قمة ف ٦" المنشورة عام ١٩٣٦ حول مناقشة مفهوم البطولة كما أنها تطرح بعض القضايا والتساؤلات . والمسرحية مستمدة من واقعة حقيقية فقد توفى أخو ناظر مدرسة الداونز فى عام ١٩٣٤ أثناء صعوده إلى قمة ايفرست ، الأمر الذى جعل شاعرنا يتساءل : ما عسى أن يكون السبب الذى يدفع إنسانا مفكرا وانطوائيا ومحبا للقراءة إلى تسلق الجبال وتعريض

حياته للخطر . وتناول ايشروود فى هذا الانتاج المسرحى المشترك قضية هامة فحواها أن الناس الذين يأتونْ ببعض الأفعال التى تبدو بطولية كثيرا ما يبعدون كل البعد عن البطولة . فالدافع اليها فى كثير من الأحيان لا يعدو أن يكون مرضا عصابيا يعانى منه البطل المزعوم مثل بطل مسرحية "الصعود إلى قمة ف" الذى يسلق قمه هذا الجبل حتى يثبت لنفسه أنه الرجل القوى الذى أرادته أمه أن يكون . فضلا عن أن المسرحية تطرح قضية هامة هى الاختيار بين حياة النسك والاستغراق فى التأمل ومعرفة الذات التى تمثل طوق النجاة وبين الاستجابة لمطالب الزعامة وقيادة الجماهير واثارة اعجابهم وهى أمور تفضى إلى التهلكة والدمار . وبعد نجاح مسرحية "الصعود إلى قمة ف ٦" التى أسهم فيها شاعرنا بأشعاره أحس أودين انه لا مناص أمامه من مغادرة انجلترا حتى لا يتحول فى نهاية الأمر إلى جزء من النظام البورجوازى الحاكم والفاسد الذى يحمل عظيم المقت والاحتقار والذى يتمنى لو استطاع الاطاحة به .

ثم قام أودين بزيارة قصيرة إلى البرتغال حيث عاش كريستوفر ايشروود مع واحد من غلمانه بعضا من الوقت . وبعد البرتغال سافر أودين إلى ايسلندا فى اسكندنافيا . وشجعه على ذلك أن أحد أصدقائه من المدرسين فى مدرسة برانيستون كان يتأهب للقيام برحلة مدرسية إلى هذه البلاد . وعرض على ناشريه فابر وفابر تمويل رحلته إلى هناك نظير وعد بتأليف كتاب رحلات عن ايسلندا . يتولوا نشره فوافقوا على ذلك . كان مؤلفنا منذ نعومة أظفاره يتحرق شوقا لرؤية

هذه البلاد البعيدة التى انحدرت عائلته منها قبل أن يهاجر والده إلى بريطانيا . وتصور احدى قصائد أودين رحلته البحرية إلى ايسلندا واقتراب السفينة التدريجى من شواطئها . وحتى يقتل ملل السفر الطويل توفر على قراءة قصيدة بيرون المعروفة "دون جوان" واستمتع بها . وبعد وصوله إلى ايسلندا عرف أن الشذوذ الجنسى ظاهرة نادرة وغير مألوفة هناك . ولفت نظره قدرة الكثير من الايسلنديين المتعلمين العاديين على قرض الشعر . وفى ايسلندا وقع شاعرنا فى حيص بيص فقد عجز عن البدء فى كتابة كتاب الرحلات الذى وعد ناشريه به . واستعان أودين بزميله الشاعر لويس ماكنيس فى نشر ديوان يحل محل كتاب الرحلات المزمع - قبلت دار النشر فابر وفابر نشره عام ١٩٣٦ بعنوان "انظر أيها الغريب" ولكن شاعرنا طلب من دار النشر الأمريكية راندوم هاوس تغيير عنوانه إلى "على هذه الجزيرة" عندما أعادت نشره عام ١٩٣٧ . وحظى هذا الديوان بثناء معظم النقاد عليه ومن بينهم أدوين موير وستيفن سبندر . ونفدت جميع نسخ الكتاب فى زمن قياسى لا يزيد عن ستة أسابيع . ولم يشذ عن تقريظ الكتاب سوى قلة من النقاد من بينهم ف . ر . ليفز الذى ظل يشن حملاته الشعواء على أودين حتى نهاية العمر متهما إياه بالافتقار إلى النظام وأنه ينسج أشعاره من عصابيته وذكرياته الشديدة الخصوصية .

الاشتراك فى الحرب الأسبانية .. تجربة فاشلة :

عندما نشبت الحرب الأهلية الأسبانية عام ١٩٣٦ بين القوى القومية والفاشية التى يمثلها الدكتاتور فرانكو ، وقوى الجمهورية والديموقراطية التى يساندها المثقفون الليبراليون واليساريون شعر أودين برغبة ملحة فى الانضمام إلى صفوف الجمهوريين يدفعه إلى ذلك احساسه الدفين بالذنب بسبب نكوصه عن الاشتراك فى الزود عن وطنه فى الحرب العالمية الأولى .. غير أنه امتنع عن الاشتراك فى القتال الدائر رحاه فى أسبانيا واكتفى بالتطوع كسائق عربة اسعاف . رحل أودين إلى الأراضى الاسبانية وسط ضجة إعلامية ضخمة ولولا انشغال كريستوفر ايشروود آنذاك بغلامه الألمانى هاينز لما تردد فى أن يفعل نفس الشىء . غير أن سفر شاعرنا إلى أسبانيا كان دون طائل فقد ذهب وعاد دون أن تفيد منه الحرب الأهلية الاسبانية شيئا . وهو الأمر الذى جعل واحدا من شانئيه يسخر من عدم اشتراكه فى القتال وايثاره باستمرار للعافية والسلامة . ولم تساعد سياسة الصمت المطبق التى التزم بها أودين ازاء هذا الموضوع فى القاء الضوء على الأسباب التى حالت بينه وبين الاشتراك الفعلى فى الحرب الاسبانية . فهو لم يفعل أكثر من أنه اشتغل لفترة قصيرة كمذيع فى محطة بث إذاعى يستخدمها الجمهوريون للدعاية لقضيتهم . وفى أسبانيا مر شاعرنا بتجربة أشد ما تكون دلالة على مدى تأصل الكنيسة فى وجدانه ولا وعيه . فقد ساءه كثيرا وصدم مشاعره (وهو الكافر بالمسيحية) أن يرى الكنائس مغلقة والقساوسة معلقين على المشانق . وسببت له

حدة هذا الشعور انزعاجا شديدا لأنه لم يكن مجرد نتيجة ايمانه بالسماحة والليبرالية أوقعته لكل صنوف التعصب. وهكذا اكتشف أودين فجأة أن تجاهله الواعى للكنيسة ورفضه الدين لمدة ستة عشر عاما لم يمح تأصل الكنيسة وطقوسها فى أعماقه.

ورغم مناصرته للاشتراكية فى صراعها ضد الفاشية فإنه لم يفعل هذا من منطلق سياسى بل من منطلق إنسانى. وقد تناول الحرب الأهلية الأسبانية فى احدى قصائده التى اتهمها الشيوعيون بأنها لا تتناول هذه الحرب فى قليل أو كثير.

وعلى أية حال لاحظ الدارسون أن نغمة جديدة من المرارة والتشاؤم بدأت تسرى فى أشعاره بعد تجربته الأسبانية.

العودة إلى حظيرة الدين:

فى عام ١٩٣٧ فكر أودين ومعه ستيفن سبندر فى زيارة أمريكا لالقاء بعض المحاضرات هناك. ولكن هذه الرحلة لم تتحقق آنذاك. غير أن دار النشر الأمريكية راندوم هاوس اقترحت أن تتعاون مع دار النشر الانجليزية فابر وفابر فى تكليف شاعرنا بالقيام برحلة الى الشرق الأقصى وتأليف كتاب رحلات على غرار كتابه المنشور بعنوان "خطابات من ايسلندا" (١٩٣٧) بالاشتراك مع لويس ماكنيس. واتفق أودين مع كريستوفر ايشروود (الذى اشترك معه مؤخرا فى

تأليف مسرحية تجارية بعنوان "على الجبهة" المنشورة عام ١٩٣٨) على السفر سويا الى الصين . وتعالج هذه المسرحية ذات الطابع السياسى والتى تكاد أن تخلو من الشعر باستثناء أناشيد الكورس عبث الحروب وسخف تأليه الزعماء وتقديسهم . وتتضمن المسرحية أيضا هجوما على الشيوعية وتعريضا بفكرة الجيوش الشعبية كما عرفها من خلال تجربته الأسبانية .

وفى نفس العام (١٩٣٧) حصل أودين على ميدالية تمنح للشاعر المجيد الذى ينتج أفضل ديوان شعر فى آخر عام حيث لايتجاوز عمره الخامسة والثلاثين . ويرجع السبب فى اختياره للحصول على هذه الجائزة إلى تحمس أمير الشعراء آنذاك جون ماسفيلد بتقديمه الى الملك جورج السادس فى قصر باكنجهام . واقتضى بروتوكول البلاط منه أن يرتدى بذة ذيل لايملكها ، الأمر الذى اضطره الى اقتراضها من صديقه سيريل كونولى . وأنحى عليه شانئوه باللائمة لقبوله هذا التكريم واعتبروه بمثابة ردة عن يساريته وايمانه بالاشتراكية ودليل على تحوله - وهو فى العقد الرابع من عمره - الى المحافظة . غير أنه حظى بتقدير كبار النقاد ورجال الأدب أمثال ادوين موير وجراهام جرين والسير هيو والبول وديلان توماس . ولم يغتر شاعرنا بالتكريم أو الثناء كما أنه لم يأخذه مأخذ الجد . ولعل النقد الوحيد الذى أخذه مأخذ الجد هو ذلك الذى وجهه الى شعره كل من صديقه كريستوفر ايشروود وعشيقه تشستر كولمان .

سافر أودين وايشروود بالبحر الى الصين يوم ١٩ يناير ١٩٣٨ واجتمع الأصدقاء فى ميناء دوفر لتوديعهم . وكان من بين المودعين لهما الروائى الانجليزى أ . م . فورستر وورود ماكولى . ولطول الرحلة أزجى المسافران وقت فراغهما بالنقاش المستفيض وتبادل الرأى فى بعض القضايا الميتافيزيقية اتضح لايشروود منها ان قلب صديقه أودين لايزال يتعلق بالدين المسيحى وطقوسه التى رضع لبنها منذ نعومة أظفاره . ويذكر ايشروود فى هذا الشأن أنه لاحظ أن الجزء الذى اسهم به أودين فى مسرحية "على الجبهة" يتضمن ايماءات دينية . ولعب لقاء شاعرنا بتشارلس وليامز دورا بارزا فى عودته الى حظيرة الدين . فرغم ممارسة وليامز للشذوذ الجنسى فقد امتلأت نفسه بصفاء وطهارة لا حد لهما . وبدأ أودين يضيق ذرعا بسخرية صديقه ايشروود من الدين وزرايته به وقال له محذراً : "حذارى .. حذارى ياصديقى . إنك إذا استمررت على هذا النحو فسوف ينتهى بك الأمر يوما ما بالعودة الى حظيرة الدين" . وهذا ماحدث لايشروود بالفعل فى قابل أيامه .

وفى شهر نوفمبر ١٩٣٩ أى بعد مرور شهرين من اندلاع ألسنة الحرب العالمية الثانية ذهب أودين لحضور سينما فى يوركفيل فى منطقة مانهاتن التى يقطنها كثير من المهاجرين الألمان حيث شاهد فيلما عن غزو القوات النازية لبولندا وما أن ظهر المواطنون البولنديون على شاشة السينما حتى تعالت صيحات نفر من المشاهدين الألمان ينادى بسفك دمائهم :

"اقتلوهم" ، الأمر الذى أحزن شاعرنا حزنا لا مزيد عليا وجعله يعيد النظر فى ايمانه بالمذهب الانسانى الليبرالى ويقضى على تفاؤله بالطبيعة البشرية ويعيده الى حظيرة الدين . لقد كان تفاؤله بالطبيعة البشرية وراء ايمانه بعدة أفكار وفلسفات بدءا بالماركسية ومرورا بالفرويدية وما بعدها وانتهاء بالمذهب الانسانى الليبرالى . وتصور فى تبسيطه للأمور أن الانسان بمقدوره تحقيق السعادة فور تخلصه من الكبت الجنسى أو الاطاحة باستبداد الطبقة البورجوازية بطبقة البروليتاريا . ولكن التجربة التى مر بها فى سينما يوركفيل قضت على كل أسباب تفاؤله بالطبيعة البشرية . بل إنها جعلته يدرك سذاجة وسطحية مثل هذا التفاؤل ويلوذ بالدين من هذا الشر البشرى المستطير . وعبر شاعرنا عن هذه المحنة فى احدى قصائده التى اعترف فيها بأن نبذ المطلقات التى تشكل جوهر الدين خطأ وعبر عن أسفه لتهاوى هذه المطلقات تحت معارك الفكر الليبرالى الذى يدفع الى الشك فى صحة هذه المطلقات . وساعده على استعادة ايمانه بالدين أنه قرأ كتابا فى اللاهوت من تأليف تشارلس وليامز بعنوان "أصل اليمامة" يرجع إليه الفضل فى تعريفه بكتابات الفيلسوف الدينى الوجودى الكبير كيركجارد الذى خلبه بأصالته وحدة بصيرته . بدأ أودين فى قراءة كيركجارد فى أواخر عام ١٩٣٩ وأوائل عام ١٩٤٠ وتحت تأثير أفكاره عاد لأول مرة منذ مراهقته الى ارتياد الكنيسة ولكن بصورة تمهيدية وتجريبية على حد قوله . ومعنى هذا أن عودته الى الكنيسة حتى ذلك الوقت لم تكن كاملة أو نهائية .

وطبقا لآراء كيركجارد الدينية التى اقتنع بها أودين فإن الفرد فى اهتدائه الى الله يمر بثلاث مراحل أولاها المرحلة "الجمالية" وفيها يعيش هذا الفرد من أجل حاضره ومتعته الراهنة فقط . وتتمثل هذه المرحلة فى الفترة التى قضاها أودين كطالب فى جامعة أكسفورد ولكن الفرد سرعان مايكتشف أن هذه المرحلة "الجمالية" غير كافية لاسعاده . ومن ثم نراه ينتقل الى مرحلة أرقى هى المرحلة الأخلاقية التى إذا اختارها تمكنه من إصدار الأحكام الأخلاقية . والاستمساك بها . وتنطبق هذه المرحلة الثانية على الفترة التى أظهر فيها أودين اهتماما بالسياسة ومشاكل المجتمع . ولكن الفرد سرعان ما يدرك أن هذه المرحلة غير كافية لاسعاده لأنها تستبعد من دائرة تجربته فكرة الأبدية والسرمدية . وهى الفكرة التى تاقت روح شاعرنا الى الايمان بها بعد تجربته الأليمة فى سينما يوركفيل . وفى هذه المرحلة يصبح أمام الانسان خياران لا ثالث لهما وهما أن يستسلم لليأس أو يلوذ برحمة الله . وهى مرحلة لا يصل إليها الآنسان عن طريق العقل ولكن عن طريق الايمان . وهى ليست خطوة يخطوها الانسان فى مدارج التطور والارتقاء بل هى قفزة يقفزها فى الفراغ . هذه القفزة تتمثل فى التسليم المطلق لله . ومثل هذا الخيار الأخير قمين بأن يحقق للفرد حريته وهو خيار ثابت لايهتز لأنه يرتكز على أساس راسخ . ففى طريق هذه القفزة فى الفراغ يتجاوز الفرد كافة أنواع التفكير العقلانى ويستشرق عالما جديدا من النورانية .

لم يقبل كثير من الانجليز هجرة أودين وايشروود الى أمريكا ببساطة وخاصة لأنها جاءت فى أحلك فترات الحرب فى انجلترا التى تعرضت لقذف القنابل المتواصل والمركز من جانب الطائرات الألمانية . ودمغهما البعض بالنذالة والجبن بأن سلوكهما عار على الشعر . وقال الأديب سيريل كونلى عن موقفهما أنه أبلغ دليل على عزلة الأدب والأدباء الانجليز عن السياسة فى عقد الثلاثينات ورفضهم الاشتراك فى أحداثها . وقد رسم الروائى المعروف ايڤلين وده صورة ساخرة لأودين وايشروود بسبب هجرتهما الى الولايات المتحدة فى روايته "ارفعوا المزيد من الأعلام" لقد أعطى أودين أعذاراً لهجرته إلى أمريكا ولكن يبدو أن السبب الحقيقى وراء إيثاره لأمان وسلامة العيش هناك على مواجهة أخطار الحرب فى انجلترا يكمن فى تعلقه الشديد بعشيقه الأمريكى الجديد تشستر كولمان ، وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل فى وقت لاحق .

وبمناسبة حلول عام ١٩٤٠ نظم أودين قصيدة طويلة تتكون من ألف وسبعمائة بيت بعنوان "خطاب العالم الجديد" التى أهداها الى مضيفته السيدة اليزابيث مايور التى جعلت من منزلها فى لونج أيلاند بيت ضيافة ينزل فيه كوكبة من الفنانين والأدباء أمثال الشاعر أودين والموسيقار برتين . ورغم شدة استمساكها بالتقاليد والأعراف فإنها تغاضت عن شذوذ ضيوفها وتعمدت أن تغض الطرف عنها . ودعا أودين فى "خطاب العالم الجديد" الى الحب بين البشر ، وترجع أهمية هذه القصيدة الى أنها تتضمن صياغة شعرية لتلك

الأفكار الدينية التى استقاها شاعرنا من كتاب "أصل اليمامة" لتشارلس وليامز ثم أضاف إليها تعديلات أجراها على قطعة نثرية سبق أن ألفها أودين وعبر عن عدم رضائه عن مستواها بعنوان "الغزير الانتاج والملتهم" ومن الخطل أن نظن أن الشاعر توهم أن أمريكا هى جنة الله على الأرض . بخطاباته التى أرسلها من أمريكا الى صديقته دودز التى تعيش فى انجلترا تدل على ادراكه للجوانب المدمرة التى ينطوى عليها التصنيع سواء فى أمريكا أو أوربا وكيف أنه أدى إلى استئصال الجذور التى تربط الانسان بمجتمعه فالآلة حولته الى جزيرة منعزلة . والفرق بين أوربا وأمريكا فى هذا الشأن يكمن فى أن أمريكا تواجه هذه الحقيقة المريرة فى حين أن أوربا تخدع نفسها وتتظاهر بأن هذه الجذور لا تزال موجودة . هذا وقد نشرت دور النشر الأمريكية فى نفس عام ١٩٤٠ ديوانا من الشعر بعنوان "وقت آخر" .

وفى خريف العام السابق (١٩٣٩) كلفته منظمة شيوعية تدعى منظمة الكتاب الأمريكان بتدريس الشعر لأعضائها . ولكنه ترك هذه المنظمة عندما اعترضت على نشره مقالا عن الشاعر الايرلندى بيتسى فى مجلة بارتيزان ريفيو التى اعتبرتها مجلة تروتسكية . ثم مارس أودين التدريس فى معهد علمى آخر بنيويورك هو المدرسة الجديدة للأبحاث الاجتماعية . وفى تلك الفترة من حياته قرر أن يضم قصيدته الطويلة "خطاب العام الجديد" فى ديوان تكون فيه هذه القصيدة حجر الزاوية وأطلق على هذا الديوان اسم "الرجل

المزدوج" (١٩٤١) وهو عنوان استقاه تشارلس، وليامز من الفيلسوف الفرنسى مونتانى وضمنه مبحثه اللاهوتى "أصل اليمامة" . والجدير بالذكر أن جولومان أخا زوجته اريكا لاحظ ان تغيرا دينيا أخذ يطرأ عليه فى تلك الفترة . فهو يقول : "لاحظت انه بدأ يختفى لمدة ساعتين فى أيام الآحاد ثم يعود بعدها ووجهه يطفح بالبشر . وبعد انقضاء بضعة أسابيع أسر الىّ بأن السبب فى اختفاءاته الغامضة هى ذهابه الى الكنيسة البروتستانية الابسكوبالية" . وهكذا استعاد الشاعر معتقداته وممارساته الدينية التى تشربها فى طفولته . فهو منذ اكتوبر ١٩٤٠ فصاعدا يحرص على حضور مناولة صباح الأحد الباكر ويتجنب حضور القداديس المتأخرة حتى لا يضطر الى الاستماع الى الوعظة . فضلا عن أنه كان يصلى بانتظام . والغريب أن عودته الى الدين لم تكن مفاجئة بل أتت بطريقة تدريجية وهادئة للغاية . غير أن ايمانه لم يكن قط مبنيا على العقل بل قائما على التسليم . فالايمان رغم لا عقلانيته هو سبيله الى الوصول الى منظومة فكرية يمكنها أن تفسر الوجود الانسانى بأسره . وهى منظومة ظل يجد فى طلبها طيلة حياته الراشدة . ويمكن القول إن اهتداءه الى الدين كان عملية ذهنية بحتة وليس تجربة روحية . صحيح انه يذكر انه فى حياته اللاحقة استمع مرة أو مرتين الى صوت الله وانه أحيانا اعتبر الصلاة نوعا من الاستماع أكثر من كونها نوعا من الحديث يقول أودين فى هذا الشأن : "إن الجزء الجاد من الصلاة يبدأ عندما ينتهى المصلى من توسلاته ويرهف السمع

لينصت الى صوت يمكن أن أسميه الروح القدس" . ولكن شاعرنا رغم هذا يستبعد العنصر الصوفى من إيمانه . فضلا عن أن اقتناعه بالدين المسيحى لم يمنعه من الايمان بمجموعة من المعتقدات المتناقضة مثل اعتقاده بوجود الشيطان والسحر الأسود وقراءة الكف وقدرة القطط على تواصل الخواطر والأفكار عن بعد .

ويبدو أنه لم يكن مقتنعا تماما بقيامة السيد المسيح من الأموات غير انه اظهر اقتناعا بمذهب سقوط الانسان كما يتمثل فى قصة طرد آدم من الجنة وفسره على أساس نفسانى . ورأى فى سقوط الانسان رمزا لتلك النقطة فى تاريخ الانسان التى بدأ فيها وعيه بالذات يتكون وأصبح يدرك ان بإمكانه تحقيق الحرية والاستقلال . ولم يشغل باله كثيرا التفكير فى تلك المشكلة الميتافيزيقية الأبدية وهى وجود الشر والألم على الأرض . ويذكر ستيفن سبندر أن أودين ترك فيه أحيانا الانطباع بأنه يكاد أن يخلو تماما من أى احساس حقيقى بالخطيئة أو الذنب رغم أنه مافتىء يردد فكرة كيركجارد القائلة بأن الانسان خطاء يقف بخطاياه وحيدا فى حضرة الله ذى الجلال . ومن الغرابة بمكان أن عودته الى حظيرة الدين المسيحى لم تمنعه من الاستمرار فى ممارسة الجنس الشاذ . يقول ايشروود فى هذا الشأن إن أودين كان يدرك تماما أن الدين الذى اهتدى إليه يحرم الشذوذ الجنسى ولكنه لم تبدر عنه أية بادرة تدل على عزمه على الامتناع عن ممارسته . وتعبر احدى قصائده عن المفارقة التى ينطوى

عليها هذا الموقف المتناقض ففيها يورد الشاعر وهو نصف
جاد ونصف مازح عبارة القديس أوغسطين الشهيرة :
"اجعلنى طاهرا يا إلهى . ولكن الوقت لم يحن بعد .. ولعله لم
يشعر بأن هذا الموقف يتناقض فى أساسه مع الدين لأسباب
ثلاثة أولها انه رأى أن الجنس ليس من الأمور التى يستطيع
الانسان أن يتحكم فيها أو يسيطر عليها وتعبر احدى قصائده
عن هذه الفكرة ففيها يقول الشاعر إن الرجل منذ ولادته يشعر
أن قضيبه عضو منفصل عنه بمعنى أنه لايخضع لارادته .
ويرجع السبب الثانى فى انفلاته الجنسى إلى إيمانه ، شأنه
فى ذلك شأن القديس أوغسطين ، (على عكس القديس
توماس الأكوينى : بأن خلاص الانسان لايتحقق نتيجة أفعاله
مهما كانت خيرة أو طيبة ولكنه يتحقق بسبب لطف الله
بعباده . أما السبب الثالث والأخير فيتلخص فى أن الله خلق
جسد الانسان وزرع فيه رغبات الجنس . ومن ثم فإن
الاستجابة لهذه الرغبات ليست سوى تحقيق لمشيئة الله .
وفى رأيه أنه من الهرطقة أن ننكر على الانسان العمل وفق
مشيئة الله . ويتمثل هذا الموقف فيما كتبه أودين الى شستر
حبيب قلبه . "إن الله شاء عن طريقك ان يظهر لى شفافيتى
الروحية" . وقد صرح أودين انه كان يفكر فى عشيقه تشستر
كالمان عندما سطر قصيدته "الوقت سوف لايقول شيئا وقد
أخبرتك بذلك" ، و "اقفز قبل أن تنظر" . وتدل هاتان
القصيدتان على محاولة الشاعر هداية تشستر إلى الدين
المسيحى . ولكن هذه المحاولة ذهبت أدراج الرياح لأن

تشستر اليهودي (الذى استبعد والده الدين من تربيته) رفض ذلك . ويعجب الدارسون من أودين عندما عاد الى المسيحية اختار الكنيسة الاسكوبالية مكانا لعبادته وليس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التى هفت إليها نفسه ، ويعزون ذلك الى حنينه إلى العودة الى الكنيسة الانجلو ـ كاثوليكية التى اعتاد أن يرتادها فى طفولته . فقد كانت الكنيسة الاسكوبالية . فى أمريكا أقرب الكنائس إلى الكنيسة التى اعتاد عليها فى طفولته . والجدير بالذكر أنه أظهر فى عقد الأربعينات نوعا من التعاطف على المذهب البروتستانتى المتطرف والمتشدد المعروف بالمذهب الكالفينى الجديد . وهو مذهب يؤمن بالجبرية وأن الله يعرف سلفا مصير كل أمرىء قبل ولادته . غير أنه مالبث أن تخلى شيئا فشيئا عن ايمانه بالكالفينية الجديدة واتجه الى فهم المسيحية على أنها تنعم كونى أو "رقصة كونية" على حد تعبيره فى قصيدة "صلاة الساعة الأخيرة" وبدأ يرى فى العقيدة المسيحية جانبا يهتم بما أسماه روح الكرنفال أى جانبا يعنى بالاحتفال والابتهاج . ويذكر واحد من أصدقاء أودين أنه قال له ذات مرة بمنتهى الجدية : "أحب أن أظن اننى لو لم أكن شاعرا لوددت أن أصبح أسقفا انجيليا على أمل أن أكون ليبراليا فى تفكيرى السياسى ولكنى أعرف ـ من الناحيتين اللاهوتية والطقسية ـ اننى سوف أكون محافظا" .

رحلة الى الشرق الأقصى ثم الولايات المتحدة :

فى عام ١٩٣٨ شد ويستان أودين وكريستوفر ايشروود رحالهما الى الشرق الأقصى حيث شاهدا الحرب الدائرة رحاها بين اليابان والصين . وفى هذه الرحلة الى الشرق الأقصى تركزت جميع أضواء الشهرة والاعلام على أودين بحيث ظهر إيشروود مجرد تابع يدور فى فلكه . ورأى أودين بعض القتلى بين الجنود الصينيين ، الأمر الذى دعاه الى تأليف بعض القصائد عن آثار الحروب المدمرة . وبوجه عام راقت له الصين ولكنه تحفظ على جو الغموض والأسرار الذى يحيط بالحياة فيها . وكعادتهما فى كل مكان يزورانه انتهز أودين وايشروود فرصة وجودهما فى الصين لممارسة الجنس الشاذ مع بعض الشباب المنحرف ممن يرتادون الحمامات العامة : ويذكر أن الناقد الكبير وليام إمبسون تصادف وجوده فى الشرق الأوسط وتعرض لضياع كل نقوده ، فالتجأ الى أودين الذى سارع بنجدته رغم انه لم تكن تربطه أية صلة ، الأمر الذى جعل أمبسون يشعر نحوه بالامتنان والعرفان الجميل . هذا وقد كان أودين كريما وشهما يخف لمساعدة كثير من المحتاجين من معارفه .

وبعد الصين توجه أودين وايشروود الى اليابان حيث زارا طوكيو ثم غادرا الشرق الأقصى فى طريقهما الى زيارة الولايات المتحدة . غير أن موظف الجوازات والهجرة فى السفارة الأمريكية فى الصين اعترض على دخولهما الأراضى

الأمريكية بحجة أنه لايوجد اى سبب مقنع لمنحهما تأشيرة دخول إليها . ولكن رفضه سرعان ماتحول الى قبول عندما ذكرا له انهما على علاقة بالسفير البريطانى فى الصين . وبمجرد وصولهما الى أمريكا استقبلهما جورج دافيد رئيس تحرير مجلة بازار هاربرز صديقهما القديم وأحد شواذ الجنس . وأراد جورج دافيز أن يكرم وفادتهما فأمدهما ببعض الغلمان . ولم تدم رحلتهما الى أمريكا أكثر من أسبوعين عادا بعدها الى انجلترا . ثم سافر أودين بعدها بوقت قصير إلى بروكسل حيث عكف على كتابة بعض القصائد من الصين اشترك بها مع كريستوفر ايشروود فى تأليف كتاب بعنوان "رحلة الى الحرب" (١٩٣٩) . وفى بلجيكا ارتبط أودين بعلاقة شاذة مؤقتة مع شاب أشار إليه باسم "جاك الصغير" . وفى تلك الفترة من حياته الف سلسلة من السونيتات تحمل عنوان "زمن الحرب" . وتعرض هذه القصائد للتاريخ الانسانى على نحو متشائم فقد خلص الى نتيجة قاتمة مفادها أن الجنس البشرى ليس منه رجاء وأن التاريخ يخيب الظنون والآمال على الدوام .

ويلاحظ الدارسون أن أودين لم يعرف الاستقرار بعد تلك الحياة الرعوية الهنيئة التى عاشها كمدرس بمدرسة داونز . فقد أخذ يجوب البلاد الأوربية لعله يهتدى الى مذهب فكرى يعوضه عن فقدان الايمان بمذهب هومرلين ولايارد ود . هـ لورانس الذى ينادى باستئصال شأفة الكبت والعقلانية وبضرورة اطلاق الانسان العنان لغرائزه وفطرته السليمة . ولم

تكن أسفاره الى ايسلندا وأسبانيا والصين الا محاولة من جانبه الى الاهتداء الى بديل يحل محل معتقداته السابقة فعندما سافر الى ايسلنده كان الأمل يحدوه الى أن ينأى بنفسه عن الحضارة الأوربية التى أصابها السقم حتى يتمكن من النظر اليها بحياد وموضوعية . ولكن أسفاره الى هذه البلاد جعلته يدرك انه ليس من السهل عليه أن يقطع الوشائج المتينة التى تربطه بأوربا وثقافتها .

حتى رحلته إلى أسبانيا للاشتراك فى الجانب غير العسكرى من الحرب الأهلية الأسبانية باءت بالفشل والاخفاق ثم جاءت تجربته الصينية لتؤكد فشل الحياة الانسانية برمتها . ومعنى هذا أن المجتمع الأوربى ومجتمعات الشرق الأقصى اصابته بخيبة الأمل التى أصابه المجتمع الانجليزى بها . لقد ظل أودين حتى عام ١٩٣٧ متفائلا يحلم بمشاركة الشاعر فى مجتمعه . ولكنه لم يمض عام واحد حتى تخلى عن تفاؤله . ففى قصيدة ألفها فى خريف عام ١٩٣٨ بعنوان "الرياض : كلام بالأمثال" نراه يعبر عن تشاؤمه ويأسه من اصلاح حال أوربا . فلا غرو أن يمم نظره شطر عالم جديد تماما هو الولايات المتحدة . ورغم ادراكه منذ البداية انها ليست الجنة الموعودة التى تداعب خيال الحالمين فإنها على الأقل تقدير قادرة على أن تطرح أمام مواطنيها مجموعة من الخيارات يمكن الانتقاء منها . وهكذا تحول أودين اليسارى الثورى الى انسان ليبرالى محافظ ، وأدت خيبة أمله فى العالم الى فقدان اهتمامه بالسياسة . وفى تصديره للقصائد

المختارة التى ضمها ديوانه "كتاب اوكسفورد للشعر الخفيف" (١٩٣٨) عبر الشاعر عن سخطه على المجتمع الصناعى الذى يصيب الشعر الذبول فالشعر فى رأيه لم يزدهر الا فى المجتمع السابق على التصنيع الذى كان مجيئه سببا فى انفصام الشاعر عن المجتمع الانسانى بحيث أصبح لايخاطب الا عددا محدودا من الناس الذين يشاركونه خلفيته الثقافية فى حين أن الشاعر فى المجتمعات السابقة على التصنيع استطاع أن ينفذ بشعره الى كل الناس .

وعندما عرف الأديب جون ليمان الذى كان يتولى آنذاك الاشراف على دار هوجارث للنشر أن صديقيه ايشروود وأودين فى طريقهما الى الهجرة للولايات المتحدة طلب منهما تأليف كتاب رحلات عن أمريكا يماثل الكتاب الذى ألفاه عن الصين . وفى ديسمبر ١٩٣٨ سافر أودين الى فرنسا ليلقى محاضرة عن "مستقبل المسرح الشعرى" فى جامعة السوربون . ثم سافر بعدها مرة أخرى إلى بلجيكا ليجد عشيقا آخر اسمه بيير اضافه الى قائمة غلمانه الطويلة .

عاشق الروح أم عاشق الجسد :

فى ١٨ يناير سافر أودين وايشروود بالقطار الى ميناء ساوثهامبتون بانجلترا ليستقلا الباخرة تشابلين المتجهة الى أمريكا . وكان أ . م . فورستر فى وداعهما مثلما كان فى وداعهما عند سفرهما الى الصين .

وفى مدينة نيويورك شاءت الأقدار أن يلتقى شاعرنا بشاب يدعى شستر كولمان كان السبب فى تغيير مجرى حياته تغييرا كاملا . فقد وقع أودين فى غرام هذا الشاب من أول نظرة . وهو غرام قل أن نجد له نظيرا فى تاريخ الآداب العالمية كلها . فقد تحول هذا العشق فى نهاية الأمر الى علاقة روحية مجردة تقوم على الايثار والتضحية بالنفس والنفيس من أجل عيون المحبوب . وهو عشق داهم أودين دون سابق انذار ونزل عليه نزول الصاعقة وتبدأ القصة الغريبة والشاذة على النحو التالى :ـ

فى مساء يوم ٦ أبريل ١٩٣٩ اقامت منظمة أدبية يسارية تدعى جماعة الكتاب الأمريكيين بدعوة نجوم الأدب الانجليزى فى الثلاثينات وهم أودين وايشروود ولويس ماكنيس للحديث فى ندوة بدأها الشاعر ماكنيس بقراءة بعض فقرات مؤلفه "صحيفة الخريف" . ثم تحدث ايشروود الى الحاضرين عن الرحلة التى قام بها مع أودين الى الصين . وعندما جاء دور أودين أخذ يتلو من مخطوطة أبيات مرثية كتبها عن الشاعر الأيرلندى الكبير دابليو د . بيتس . وحضر الندوة مجموعة من طلبة كلية بروكلين تولت اصدار مجلة أدبية اسمها الأوبزرفر . وكان على رأس هذه المجموعة شابان هما والتر جيمس ميلر وتشستر كولمان . وراقت وسامة ميلر فى عين شاعرنا . وبعد انتهاء الندوة سعى ميلر الى ايشروود ليناقشه فى موضوع المسرح الشعرى . ومن جانبه سعى تشستر الى أودين طالبا منه تحديد مقابلة معه لاجراء حديث ينشره فى مجلة الكلية

وعندما حدد له أودين الموعد المطلوب كان يأمل أن يحضر تشستر بصحبة زميله الوسيم ميلر . ولكن تشستر خيب أمله فقد حضر لاجراء المقابلة بمفرده . وفى بادىء الأمر لم يرق تشستر فى عين أودين الذى بدأ الضيق والضجر يعتريانه وخاصة لأنه كان يتهيأ لاستقبال بعض الضيوف من بنى جلدته الوافدين من انجلترا ولاحظ شاعرنا أن تشستر يملك وجها ملائكيا وشهوانيا فى آن واحد .

كان تشستر شديد الاعتداد بالنفس ويعتبر نفسه ندا لأودين من الناحيتين الفكرية والثقافية . وشجعه على هذه الثقة الغريبة بالنفس انه استطاع فى سن السادسة عشرة أن يلتحق بكلية بروكلين بسبب نبوغه الدراسى . وكانت كلية بروكلين آنذاك لاتقل فى مستواها العلمى عن كليات جامعة هارفارد العريقة . وزاد من ثقة الغلام بنفسه أن والده وهو طبيب أسنان يهودى ناجح لم يشجعه على حب الفنون والآداب والموسيقى فحسب بل قدمه أيضا الى نفر من كبار المثقفين من معارفه وأصدقائه . وأثناء المقابلة بلغ الضجر بأودين مبلغا جعله يتمنى لو أنه استطاع التخلص من الغلام قبل وصول ضيوفه ولكن حماس أودين سرعان ما اشتعل فجأة عندما تطرق الحديث الى الأدب الانجليزى . فقد أشاد تشستر فى معرض حديثه على نحو عابر الى شاعر انجليزى غير معروف من شعراء عصر النهضة هو توماس دوجرز كان أثيرا الى قلب شاعرنا . وعلى الفور وفى غمرة حماسه نسى أودين نفسه وضيوفه الذين كان ينتظرهم وطلب من تشستر .. البقاء

لتناول الشاى معهم . ودون أن يدرى وجد أودين نفسه متيماً بهذا الغلام المليح الذكى الذى لايتجاوز الثامنة عشرة من عمره وفى اندفاعه الملتاث فى حب هذا الغلام أقسم على الزواج به مثلما يتزوج الرجل بالمرأة فاشترى دبلتين من الذهب ألبس احداهما فى أصبع الغلام . واعتاد الخروج مع تشستر الى الفنادق والظهور معه فى الأماكن العامة واصطحابه الى دار الأوبرا فى نيويورك مرة كل أسبوع . وبسبب الآلام في قدميه كان يقوم بخلع حذائه فى دار الأوبرا وسط دهشة علية القوم وسيدات المجتمع الراقى . وعندما اشتد به ألم القدمين لم يجد حرجا فى أن يذهب الى صحن الجامعة ويحاضر فيها وهو يلبس (زنوبة) . أحب أودين الموسيقى وخاصة موسيقى موزارت وفاجنر ولكن الأوبرات لم تكن تروق له فقد كان يعتبر أنها تقل فى قيمتها عن الباليه والسيمفونيات . ولكن تشستر الذى عشق الأوبرات استطاع أن يحببه فيها ويجعله من غلاة المتحمسين لها وخاصة الأوبرا الايطالية بوجه عام وأوبرا فيردى بوجه خاص . وتحت تأثير تشستر ومرحه بدأ أودين يتخلى عن جهامته وصرامته وأصبح لا يستغنى عن صحبته . فعندما اضطره السعى . للرزق الى التدريس فى ولاية ماساشوتس لمدة أربعة أسابيع داوم الكتابة الى الغلام رغم قصر فترة غيابه عنه .

لم يكن الدكتور ادوارد كولمان والد تشستر بالرجل الساذج أو البسيط فقد أدرك منذ البداية السبب فى الصداقة التى ربطت بين ابنه وبين أودين الذى يكبره بنحو أربعة عشر

عاما . غير أن براجماتيته ونظرته العملية الى الحياة دفعته الى أن يأخذ العلاقة بينهما على عواهنها وأن يقبل شذوذ ابنه على علاته . كل مافى الأمر أنه طلب أن يتوخى جانب الحيطة والحذر فلا يصرح بشذوذه أمام بوبى جدته لأمه التى ماتت عام ١٩٢٥ أو الى أى واحد من أفراد العائلة . ولم يعترض الدكتور كولمان على علاقة ابنه بالشاعر الذى ارتاح الى شخصيته واقتنع بأنها تجمع بين النبل والشرف . وساورت السيدة بوبى الشكوك فى العلاقة التى تربط بين حفيدها والشاعر ولكنها آثرت أن تلتزم جانب الصمت . وعندما بلغ تشستر السابعة عشرة من عمره فى عام ١٩٣٨ لاحظ أبوه أنه يخالط أشخاصا مريبين . وفى ذلك العام زار الدكتور كولمان فى عيادته رجل ثرى للغاية فى منتصف العمر اسمه روبرت كنج . وعقدت الدهشة لسان والد تشستر عندما فاتحه هذا الزائر فى رغبته فى أن يتبنى ابنه وأبدى استعداده لالحاقه بجامعة هارفارد واصطحابه فى رحلات الى أوربا . وبدهشة بالغة سأل الدكتور كولمان زائره :

ـ أنا لا أفهم . ولماذا تشستر بالذات ؟

فأجابه روبرت كنج قائلا :

ـ إننى أرغب فقط فى القرب منه وأن أسافر معه وأنام بجواره .. أنت تفهمنى . إننى أعرف ماهو لأننى نفسى أنتمى الى ذات النوع أيضا .

واستفسر الوالد المشدوه عما يعنيه كنج بهذا القول فرد عليه بقوله :

ـ إنه من شواذ الجنس . أرجوك اننى أعلم ماعسى أن تفكر فيه وأنا آسف لذلك . ولكن ليس بوسعك أن تفعل شيئا حياله مثلما لم يكن بوسع عائلتى أن تفعل شيئا حيالى .

وهنا كظم الوالد غيظه واصطنع الهدوء قائلا :

ـ كيف يمكنك أن تقول عنه مثل هذا الشيء ؟ كيف يمكنك القول إنك « تعرف » ؟ أنت تقول إنك شاهدت تشستر فى دار الأوبرا فلابد أن تكون قد رأيته هناك بصحبة فتاة . فهو دائما يذهب هناك بصحبة فتاة .

ـ لقد داومت على مراقبته كل أسبوع فى دار الأوبرا . وأنا أعلم أن الفتاة لاتعنى شيئا بالنسبة إليه ، فهى مجرد صديقة لا أكثر ولا أقل .

وهنا قال والد تشستر عن اقتناع :

ـ إننى على يقين من أن لتشستر علاقات نسائية مع سيدات متزوجات .

فالتزم كنج الصمت ثم استطرد محدثا الدكتور كولمان برقة :

ـ أنا رجل ثرى وباستطاعتى أن أفعل كل شيء من أجله . وعلى كل حال فلسوف يجد تشستر رجلا غيرى ، فما المانع إذن أن أكون هذا الرجل . دعنى أتبناه فهو لايزال حدثا صغيرا وأنا أريده . وسوف لاتندم على ذلك . والواقع انه حدث ذات يوم أثناء وجود تشستر فى شقتى مع بعض أصدقائه بأنه التقى بابن أخى إليوت الذى جاء لزيارتى . وبدأ

تشستر يغازله لأنه وجد جاذبية فى ابن أخى . ولهذا قابلت المحامى الذى يتولى إدارة شئونى فى اليوم التالى وطلبت منه استبعاد ابن أخى من وصيته .

وفى هذه اللحظة تذكر الدكتور كولمان أن زوجته الثانية التى طلقها فيما بعد واسمها سيد سبق لها فى لحظة غضب وانفعال أن وصفت تشستر ابنه من زوجته الأولى التى توفيت عام ١٩٢٥ بأنه « زهرة البيت الساخن » كناية عن شذوذه الجنسي . تذكر الأب كلمات زوجته الثانية فلدغته كعقرب .

وبعد هذه المقابلة الغريبة انتحى الدكتور كولمان بابنه تشستر جانبا وواجهه بما قاله ضيفه غير المرغوب فيه . وطلب الأب من ابنه ضرورة مصارحته بالحقيقة . وهنا امتقع تشستر واصفر واخضر وحاول المراوغة . لكن الأب لم يسمح له بالتهرب من الاجابة وأصر على معرفة الحقيقة كاملة . فاضطر الابن الى الاعتراف بصدق ماقاله روبرت كنج عنه . وكان للدكتور كولمان صديق يثق فى كفاءته يعمل طبيبا نفسيا اسمه الدكتور ركس فعرض ابنه تشستر عليه ولكن تشستر توقف عن زيارته عندما عرف منه إنه لم يقرأ أشعار ت . س . اليوت .

وفى صيف ١٩٤٠ قرر أودين اصطحاب عشيقه الى ولاية نيو مكسيكو لقضاء شهر العسل فيها . وعند بلوغ تشستر العشرين من عمره فى ٧ يناير ١٩٤١ أقام والده وجدته لأمه بوبى حفلة عيد ميلاد حضرها أودين الذى كتب بهذه المناسبة

قصيدة بعنوان « إلى تشستر حولمان » كان الشاب تشستر يملك شخصية قوية وطاغية تبهر كل من يقترب منها وكان الجميع يخشون لسانه اللاذع ولكنهم فى نفس الوقت يستملحون نكاته الطلية . واستشعر المحيطون به بكل وضوح انه يرغب رغبة أكيدة فى تدمير ذاته . وفى طفولته مر تشستر بتجربتين كان لهما أسوأ الأثر فى حياته أولهما أنه أحب عمته سادى الى درجة الجنون . وحدث أثناء لعبه ورماحه الصبيانى معها أن طلب منها أن تعده بألا تتزوج سواه وأن تنتظره حتى يكبر . ولم تدرك العمة فى براءتها وهى تقطع على نفسها هذا العهد أن الطفل سوف يأخذ كل كلمة تتفوه بها مأخذ الجد . وحين رأى تشستر عمته تزف الى آرفنج عريسها أحس بأنها خانته وغدرت به وطعنته طعنة نجلاء فى قلبه . وتألم لذلك ألما ممضا فأخذ يصرخ ويرفص برجله كمن أصابه مس من جنون . ووجدت العائلة مشقة هائلة فى تهدئته . وأثناء حفل الزفاف ظل الطفل يراقص عمته حتى دب الاعياء فى أوصاله . فحملوه وأرقدوه لينام على سريره فلما استيقظ ولم يجد عمته فى البيت شعر أنها خدعته وغررت به . أما التجربة المريرة الثانية فتتمثل فى أن علاقته بسيد زوجة أبيه الثانية كانت بالغة السوء وظلت كذلك حتى آخر لحظة في عمره ورغم أن علاقته بأخيه غير الشقيق منها ظلت حتى النهاية ودية للغاية فقد كانت تسخر من اهتمامه بالأدب وشغفه بالموسيقى وتضيق ذرعا بتفوقه الدراسى . واذا كان مايقوله تشستر عنها صحيحا فهى امرأة شريرة تسقيه اللبن مخلوطا بالماء وتتعمد

تشغيل المكنسة الكهربائية حتى تفسد عليه سماعه للموسيقى والسيمفونيات وتنزع اللحم من ريش الخراف الصغيرة حتى لايجد ما يأكله سوى الدهن . فضلا عن أنها كانت ترميه بالشذوذ الجنسى وتصفه ـ كما أسلفنا ـ بأنه زهرة البيت الساخن .

يرى بعض الدارسين انه من الجائز أن حب تشستر الجارف لأبيه كان السبب في ممارسته للمثلية . فقد اعتبر ان كل النساء فى حياة أبيه (وكان رغم زواجه ثلاث مرات زير نساء) ينافسه فى هذا الحب الذى أراد الاستئثار به دونهن ، الأمر الذى دفعه الى كراهية الجنس اللطيف . وهذا يتناقض تماما مع عقدة الشاعر أودين الذى تعلق بأمه تعلقا غير عادي . فقد عاش بمفرده معها أيام الطفولة لأن والده كان غائبا يحارب على جبهة القتال فى الحرب العالمية الأولى كما أن أخويه كانا غائبين عن البيت بسبب انتظامهما فى الدراسة بمدارس داخلية .

عندما ألبس الشاعر أودين الدبلة فى أصبع عشيقه تشستر توقع منه الوفاء والاخلاص الذى كان جزءا لايتجزأ من طبيعته . ولكن طبيعة تشستر كانت على النقيض من ذلك ، فهو مثل أبيه من النوع الذى يزهد فى كل ماتملكه يداه ويستغرق باستخفاف فى اللهو ولايتعب أو يكل فى تغيير عشاقه تماما كما كان والده يفعل مع عشيقاته اللاتى لم يمنعه زواجه من اللهو معهن .

وفى يوليه ١٩٤١ اكتشف أودين أن عشيقه يخونه مع شاب انجليزى اسمه جاك لانسنج تخرج فى جامعة أكسفورد . وهو ابن واحد من الجنرالات البارزين . وزاد من مرارة أودين وحسرته انه هو الذى استضاف هذا الشاب عند وصوله من انجلترا الى أمريكا ومد إليه يد العون . ولم يكن لانسنج فى بادىء الأمر يدرك أن تشستر تربطه علاقة جنسية بأودين . وانزعج انزعاجا شديدا عندما علم بذلك فقد كان لايحب أن يسىء الى أودين الذى أحسن اليه . وقرر حتى يخرج من هذه الورطة الابتعاد عن تشستر . وعندما نما الى علم شاعرنا أن عشيقه يخونه مع لانسنج أصابته الغيرة القاتلة وجن جنونه فتسلل الى غرفة نوم تشستر الذى كان يعيش معه تحت سقف واحد وانقض عليه وهو نائم وضغط بقوة على رقبته حتى يخمد أنفاسه .

ولكن تشستر الذى استيقظ مفزوعا من نومه استطاع أن يدفعه بعيدا عنه وينقذ نفسه من الموت المؤكد . وهكذا أوشك أودين أن يكرر نفس مأساة فيرلين الذى كاد أن يقتل رامبو لنفس السبب . وعندما عاد أودين الى صوابه ارتاع لما فعله . ومن ذلك الوقت تخلى نهائيا عن فكرة استحواذه على تشستر الذى شعر بأنه مسلوب الارادة أمامه . واكتفى بولهه لهذا الشاب الساحر ورغبته فى إسعاده حتى لو كان لايبادله نفس الشعور أو ينام معه فى فراش واحد .

لم تكن انحرافات تشستر الجنسية التى لاتنتهى وخياناته

لأودين التى لاتنقطع خافية على الدكتور كولمان ، وعبثا حاول الوالد أن يرده عن ذلك وأن يجعله يقيم علاقة ثابتة ومستقرة مع الشاعر ونصحه بالعودة الى أودين قائلا : « عد الى ويستان فهو رجل شريف ولن تجد أبدا صديقا مثله » . وواقع الحال أن شاعرنا كان يتلهف الى حياة عائلية مستقرة وعلاقات عاطفية ثابتة ولأنه كان لايهوى أحدا غير تشستر فقد أصبح تشستر بمثابة الزوجة التى يركن إليها وليست بالضرورة الشخص الذى يمارس الجنس معه . ومن ثم حرصه الشديد واصراره العجيب على ضرورة اخلاص تشستر له . وهى فكرة بدت أشد ماتكون غرابة فى نظر جاك لانسنج وتشستر نفسه . وفى ذلك الوقت كانت هناك سيدة واسعة الثراء أسمها كارولين نيوتن اعجبت بالشاعر وأغدقت عليه الهدايا القيمة والمال فكان يأخذ منها هذا المال لينفقه على تعليم تشستر واستكمال دراسته العليا فى الأدب الانجليزى بجامعة ميتشيجان . والجدير بالذكر أن شاعرنا كما سوف نرى كان يجرب الجنس الطبيعى مع النساء من وقت إلى آخر بجانب علاقته المثلية الراسخة .

وفى عام ١٩٤٣ التحق تشستر بجامعة ميتشيجان لاستكمال دراسته العليا فى الأدب الانجليزى ولكنه اخفق فى استكمال هذه الدراسة وعاد الى نيويورك بخفى حنين ليواصل العيش مع أودين الذى لم يبخل عليه بشىء رغم ضائقته المالية : فضلا عن أن أودين قبل الاضطلاع ببعض الأعمال التافهة حتى ينفق عليه . وفى جامعة ميتشيجان نجح تشستر

في شيء واحد هو مخالطة أعداد هائلة من الشواذ الذين يلتقطهم من الشوارع والحانات . وكان أودين يحدوه الأمل أن يثوب تشستر الى رشده ويبتعد عن تلك الحثالة ويعود اليه . ولكنه كان يخذله باستمرار ويفضلهم عليه وهو خانع ذليل لايملك من أمره شيئا ، ويقدم إليه المال دون ضيق أو برم . ومن الخطل أن نعتقد أن تشستر كان لايروق في عيون الحسناوات . بالعكس فقد كن يتهافتن عليه ويتمنين رضاءه عنهن ومن بينهن فتاة متعلمة اسمها مرى فالنتين . ورغم أنه عاملهن بأدب ورقة بالغة فإنهن عجزن عن أن يحركن ساكنا فيه . وكان تعلقهن به وحبهن له يزداد كلما ازداد صده الرقيق المهذب لهن .

استمرت علاقة تشستر بجاك لانسنج حتى خريف عام ١٩٤٢ وفي تلك الفترة غادر أودين مدينة نيويورك لممارسة التدريس في ولاية بنسلفانيا حيث أرسل في طلب لانسنج لمقابلته هناك . ويتضح من هذه المقابلة أن شاعرنا من النوع الذي يتعامى عن الحقائق التي لاتروق له ولايرى غير مايريد رؤيته . يقول لانسنج عن هذه المقابلة أن أودين استقبله بأدب جم وتهذيب شديد وأنه أراد أن يطمئن منه إلى أن عشيقه لايعرف في حياته من الرجال سواه ولانسنج . وخشي لانسنج أن يصارحه بطبيعة تشستر الماجنة الفاسقة التي تعرف عددا لايحصى من العشاق كما خشي أن تكون صراحته سببا في الوقيعة بين أودين وغلامه ولهذا آثر المراوغة وقال للشاعر إن تشستر - بقدر علمه - لايعرف سواهما .

وصدق الشاعر هذه الاجابة وارتاح إليها فقد كانت الاجابة التى يحلو له سماعها . فى حين أن الواقع بخلاف هذا تماما فقد كان تشستر يجد متعة فى إثارة غيرة وتنافس العشاق عليه كما أنه كانت تحلو له خيانتهم فى وجوههم وعلى عينك ياتاجر . فقد كان هناك جانبان فى شخصيته المريضة جانب ماسوكي وجانب سادى . ويتمثل الجانب الماسوكى فى رغبته فى تعذيب نفسه وتدميرها ، فى حين تتمثل ساديته فى رغبته فى تعذيب عشاقه . وفى فترة ابتعاد تشستر عنه تعرف أودين عام ١٩٤١ بعشيق مؤقت اسمه رويس واجونر كان طالبا فى جامعة ميتشيجان . وعندما رأى جاك لانسنج أن تشستر نجح فى أن يلطش من أودين هذا العشيق المؤقت خشى على الشاعر أن تعصف به هذه الخيانة الجديدة . ومن ثم حذر رويس واجونر ونصحه بالابتعاد عن تشستر رحمة بأودين فأوغر ذلك صدرى تشستر ورويس عليه فدسا له لدى أودين الذى أصبح يمقت رويس مقتا لامزيد عليه ولا يطيق سماع اسمه .

وفى العام الدراسى ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ قامت جامعة ميتشيجان بتعيين الشاعر استاذا زائرا بها ولعله أغرب تعيين يمكن أن يحدث فى أية جامعة فى جميع أنحاء العالم . فقد كان أودين وقحا وعارى الوجه على نحو لايصدقه عقل . فعندما أجرت لجنة الاختيار (المكونة من عميد الدراسات العليا ورئيس قسم اللغة الانجليزية وآدابها وثلاثة أساتذة آخرين) المقابلة مع أودين لاستيفاء اجراءات التعيين بهتوا عندما أعلن الشاعر بكل وقاحة وفى وجوههم أنه يحب الغلمان

وانه يتقدم لشغل الوظيفة بسبب حاجته للمال . ولم ينبس واحد منهم بنت شفة ولم يسيء اليهم شذوذه بقدر ما أساءت اليهم صفاقته . وأيضا فى تلك الفترة تقرب منه طالب وسيم فى السابعة عشرة من عمره يقرض الشعر اسمه بيتر هانس نشأت بينهما علاقة شاذة لم يقيض لها أن تدوم وانتهت الى الفشل .

وفى حياته اللاهية العابثة لم يتعظ تشستر بدروس الماضى فقد دأبت حثالة المجتمع فى الشوارع والبارات الذين يمارسون الشذوذ الجنسى معه فى مغافلته وخاصة وهو مخمور وسرقة كل مافى جيبه وتركه على الحديدة . فلايجد من يخف لنجدته سوى العاشق الولهان أودين . وأحيانا كان نفس الشخص يستغفله عدة مرات متلاحقة ففى ربيع عام ١٩٤٤ التقطه هذا الشاب المستهتر بحارا رافقه الى منزله . فلما أفاق من سباته اكتشف ان كل نقوده قد سرقت منه . وعندما عاد إليه البحار فى الأسبوع التالى سامحه واصطحبه الى منزله حيث سرق منه هذه المرة شيكا باسمه نجح فى صرفه بعد أن قام بتزوير توقيع تشستر ، وبدلا من تبليغ البوليس نراه يعفو عنه ويصحبه معه الى البيت ليسرق منه الألة الكاتبة فى هذه المرة الثالثة ، وكان الحثالة من مخالطيه لايكتفون بسرقته بل كثيرا ماكانوا يضربونه ويعتدون عليه والغريب ان ماسوكية تشستر والجانب الأنثوى فى شخصيته كانا يختفيان فى حضرة النساء ويظهران فقط فى حضرة هذه الحثالة . والغريب أيضا أن مالا يقل عن عشر نساء اعترفن بأنه مارس

الجنس الطبيعي معهن . وهو نفس الشيء الذى نجده فى مسلك أودين . فبعد أن وضعت الحرب الثانية أوزارها كان أودين على علاقة جنسية بامرأة على وشك الطلاق من زوجها اسمها رودا جاف تعشق اقتناء القطط السيامية وتعترف هذه المرأة بفحولة الشاعر فى الفراش . ويبدو أن هذه العلاقة التى انتهت نحو عام ١٩٤٧ بعد أن دامت أكثر من عام لم تكن مرضية له . فقد كتب يقول : « لقد حاولت أن تكون لى علاقة بامرأة ولكنى أخطأت خطأ جسيما . بل انها كانت خطيئة فهى لم تؤثر فى علىَّ الاطلاق وشعرت أنى أغش نفسى وأغش الآخرين . ويذهب الدارسون الى أن شخصية روزيتا فى قصيدته الهامة للغاية « عصر القلق » تمثل عشيقته رودا ، ورغم انصرافه من عشقها فقد ظلت العلاقة بينهما ودية .

وفى نهاية الحرب الثانية أخذت أحوال شاعرنا المالية فى التحسن وفكر فى شراء منزل يستقر فيه بعد أن تعب من حياة التجوال والتنقل . وراق فى عينيه وعينى الدكتور كولمان منزل قديم جميل تحيط به الأشجار . وغاب عن بالهما سوء حالته وحاجته الشديدة الى كثير من الترميم . واشترى أودين هذا المنزل العتيق وكتبه باسم كولمان وابنه تشستر مقابل ايجار تضاف اليه الفوائد المعتادة ، الأمر الذى جعل كولمان يشعر بامتنانه الشديد لاريحية هذا الشاعر . غير أن سوء حالة المنزل دفعت أودين فى النهاية الى بيعه بسعر يقل عن سعر شرائه بألف دولار . وأودع الشاعر ثمن البيت باسم تشستر حبيب القلب .

وبحلول عام ١٩٤٨ تخلى أودين تماما عن أى أمل فى الاستحواذ بمفرده على تشستر واستسلم استسلاما كاملا لكل أهوائه الملتاثة التى جعلته عاجزا تماما عن الانتظام فى أى عمل ، الأمر الذى جعله باستمرار عالة على الشاعر . ففى عام ١٩٤٧ على سبيل المثال وجد تشستر عن طريق صديق له وظيفة بالأمم المتحدة لم يعمر فيها طويلا بسبب كثرة تغيبه . فقد كان يكفى أن يقابل فى المواصلات العامة رجلا من جنسه يروق له حتى ينسى نفسه وينسى عمله وينزل من القطار لملاحقته ويجرب حظه معه . وكانت أحيانا تنتابه نوبات كآبة شديدة تعين على شاعرنا الولهان أن يصبر عليها حتى تنقشع .

وفى خريف ١٩٤٧ نجح أودين فى ايجاد عمل يتفق مع مشارب تشستر وعشقه للأوبرات والموسيقى الكلاسيكية . فقد عرض عليه الموسيقار سترافنسكى أن يؤلف كلمات نص أوبرالى أو ليبرتو كان يزمع تلحينه بعنوان « الهبوط الى الحضيض » واقترح أودين أن يشترك تشستر معه فى تأليف الليبرتو فاعترض سترافنسكى على ذلك . ولكن أودين استطاع ان يقنعه بموهبة تشستر الفذة وفهمه العميق للموسيقى ، فقبل اشراكه فى العمل . وفى فبراير ١٩٤٨ انتهى أودين وتشستر من كتابة الليبرتو المطلوب . ولم يكن هذا ممكنا لولا اندامجهما الروحى الكامل . وفى ابريل من نفس العام ابحر العاشقان إلى أوربا وانتهز الشاعر هذه الفرصة لزيارة والده بصحبته تشستر . فاستنفر منظر هذا

العشيق مشاعر الأب ونكأ جراحه فتفوه بصوت مسموع ببعض الألفاظ الجارحة له ، بالاضافة الى توجيه الشتائم والاهانات الى اليهود . ثم سافر العاشقان بعد ذلك إلى نابولى بايطاليا حيث أقلتهما المعدية الى جزيرة صغيرة خلابة اسمها اسكيا اشتهرت بأنها الملاذ الذى يلجأ اليه شواذ الجنس من انجلترا وامريكا وسائر انحاء أوربا . ووجد بعض أهل الجزيرة فى هذا الرقيق الأبيض تجارة رابحة فلم يتورع غلمانهم وأطفالهم من بيع أجسادهم للزوار الأجانب ولم تكن المناظر الخلابة فى اسكيا هى التى أغرت أودين وتشستر بزيارتها على نحو متكرر بل كان السبب فى ذلك انخفاض قيمة الليرة الايطالية مما جعل نفقات المعيشة فيها زهيدة للغاية . ناهيك عن الفتنة التى تميز بها الغلمان الايطاليون هناك . وكان لميكانيكى الجزيرة غلام فى نحو التاسعة عشرة من عمره ارتضى أن يستجيب لنزعاتهما الشاذة مقابل أجر يتقاضاه منهما . والغريب كما أسلفنا أن شاعرنا لم يجد أدنى تعارض بين ممارسة اللواط وممارسة الشعائر الدينية . فقد كان فى الجزيرة كنيسة كاثوليكية اعتاد أودين الذهاب إليها بانتظام حيث مارس فيها طقوس العبادة الكاثوليكية الأثيرة الى قلبه بما فيها من كثرة النهوض والركوع .

وبعد جزيرة اسكيا الايطالية عاد أودين فى نفس عام ١٩٤٨ إلى أمريكا للتدريس فى المدرسة الجديدة للأبحاث الاجتماعية فى حين سافر تشستر إلى فرنسا لبعض الوقت . وفى أثناء سفره الطويل بالبحر أحس شاعرنا انه لايقوى على

فراق حبيبه فظل يكتب اليه من فوق ظهر الباخرة التى تقله الخطاب تلو الخطاب معبرا عن اشتياقه اليه ولهفته على معرفة أخباره ورغبته فى الاطمئنان عليه . وزاد من لوعته أن روحه تلظت من ألم الفراق . فقد أصبح حبه لتشستر بمرور الوقت حبا روحيا خالصا لاشأن للجسد فيه . وقد كتب أودين فى ٢١ فبراير ١٩٤٩ يصف تشستر بأنه « الرفيق الوحيد الذى لاتستطيع حياتى غير الجنسية الاستغناء عنه » .

وعبثا حاول أودين تحفيز تشستر إلى الاعتماد على نفسه فى كسب رزقه . فقد تعمد فى بادئ الأمر أن يقرضه المال بصفة سلفة يتعين عليه ردها إليه . ولكن هذه السياسة لم تجد معه فتيلا ، الأمر الذى أضطر الشاعر الى الاستسلام لمطالبه دون قيد أو شرط ، فضلا عن إرسال طرود الأطعمة اليه فى فترات إقامته بمفرده فى أيطاليا حيث انتهج نفس السياسة الماجنة الفاسقة التى سبق أن انتهجها فى نيويورك . فهو كالعادة يخرج الى الشوارع ويرتاد الحانات والبارات ليلتقط فى آخر الليل حثالة البشر الذين يرافقونه إلى منزله ويمارسون الجنس الشاذ معه فإذا صحا من سكرته وجد ان كل نقوده قد سرقت منه وأنه أصبح خالىَ الوفاض . وكثيرا ما كان تشستر يحرج أودين بالاقتراض من أصدقائه وعدم سداد الديون عليه ، الأمر الذى أوجب على الشاعر الوفاء بهذه الديون . ومما زاد الطين بلة أن كثيرا من معارف أودين لم يتورعوا عن استغلال طيبته ورقة قلبه . وبعث تشستر الى الشاعر يبلغه عزمه على الرجوع من ايطاليا الى أمريكا فى ٢٩

ديسمبر ١٩٤٨ فتهلل أودين وغمرت الفرحة العارمة قلبه . ولكن تشستر أرجأ عودته أكثر من مرة دون أدنى اكتراث بمشاعر عاشقه ، الأمر الذى أضنى فؤاده وزاده ايمانا ـ مثل شاعره المفضل توماس هاردى ـ بأن الدنيا تقبل على الخسيس وتولى ظهرها للأصيل .

والجدير بالذكر أن الفترة التى جرب فيها أودين معاشرة النساء امتدت من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٤٨ أقلع بعدها نهائيا عن الممارسات الجنسية السوية ، ورغم حبه الروحى الجارف لتشستر فإنه مارس الجنس الشاذ مع غيره من الغلمان وخاصة بعد أن أصبح على وعى كامل بخيانة تشستر له . ففى الفترة من ١٩٤٨ حتى ١٩٥٣ أقام علاقة مثلية مستقرة مع دارس للموسيقى اسمه كيث كالاهان الذى بلغ ادمانه للخمر مبلغا جعل معهد الموسيقى الذى يتلقى فيه تعليمه يقوم بطرده . وكعادته خف أودين لمساعدته فبحث له عن مدرس موسيقى خاص أجزل له العطاء حتى يواصل كالاهان دراسته الموسيقية على يديه . ورغم صدود تشستر الجنسى عن أودين فإنه لم يفكر قط فى اصطحاب كالاهان فى أسفاره مثلما فعل مع تشستر . وعندما توطدت علاقة الشاعر بعشيقه الجديد كالاهان أسر اليه بحقيقة مشاعره نحو تشستر فقال أن علاقته بتشستر اشبه ماتكون بعلاقة زوجية راسخة ودائمة ومستقرة رغم خلوها من الجنس . وأصبح شاعرنا عاجزا عن الاستغناء عنه وخاصة بعد أن جمعت بينهما كتابة ليبرتات الأوبرات . وسارت حياة أودين على النحو التالى : فى

لربيع والصيف يسافر برفقة تشستر الى أوربا ثم يسافر
ودين بمفرده فى الخريف والشتاء الى نيويورك حيث يكد
ينصب ويجمع المال من أجل معاشه ومعاش تشستر . وليس
دل على اهتمام شاعرنا الشديد بالعلاقات الاسرية المستقرة
تقديسه لها من أنه استطاع - رغم شذوذه الجنسى - أن يقيم
لاقات صداقة وطيدة مع بعض العائلات المتماسكة دامت
لى مر الأيام . وأنست اليه بعض الأسر المحترمة فطلبت منه
ن يصبح أبا روحيا لأطفالها الحديثى الولادة الذين سموا
سمه . فضلا عن أنه اعتبر انجاب الأطفال ضرورة لاغنى
نها لتعمير الأرض واستمرار الحياة فيها . بل أنه أثناء إقامته
جزيرة اسكيا الايطالية عرض على امرأة ان تتزوجه كى
نجب له طفلا . لم يمنع اتمام الزواج إلا أن المرأة رفضت
ا العرض . والجدير بالذكر أن تشستر شاركه حبه العميق
لأطفال ولكنه فاق أودين فى قدرته الفذة على مداعبة الأطفال
لتعامل معهم بسهولة ويسر .

ويبدى كالاهان بعض الملاحظات ذات الدلالة من بينها
يمان أودين فى فترة من حياته بالسحر وأثره فى حياة
ناس . (وهو ايمان استمده من تأثره الشديد بالشاعر
يرلندى بيتس) . ويستشهد كالاهان على ذلك بأن أودين
بتمزيق صورة تشستر وهو عريان الى قطع صغيرة ثم
تجميعها ولصقها ليعيدها إلى أصلها وهى عادة منتشرة
الشعوب البدائية المؤمنة بالسحر حين تلجأ الى الانتقام
أعدائها . ويلفت كالاهان نظرنا كذلك الى جانب عجيب فى

نفسية أودين الذى لم يمانع فى أن يخونه كالاهان أو أى عشيق آخر طالما أنها خيانة عابرة . ولكنه كان يتأزم نفسيا عندما يدرك أن مثل هذه الخيانة تنطوى على حب حقيقى ودائم .

يقول إرفنج ويس الذى عرف أودين عن كثب وكان يزوره فى أوقات متفرقة ومفاجئة انه لفت نظره فى علاقة الشاعر بتشستر إنها علاقة متينة وراسخة بدأت بالجنس ثم تحولت الى فهم روحى وفكرى ووجدانى متبادل وعميق . ويؤكد ارفنج أن تشستر لعب دورا هاما فى تشكيل ذوق الشاعر الموسيقى . ولم يقتصر التعاون بينهما على تأليف كلمات الأوبرات فحسب بل فى ترجمة بعضها أيضا . ورغم ذلك ظل أودين مقتنعا بأن الاوبرات ينبغى أن تغنى بلغاتها الأصلية وليس من خلال الترجمات . اشترك أودين وتشستر فى ترجمة ليبرتو أوبرا « الناى السحرى » التى عرضها التليفزيون الأمريكى عام ١٩٥٦ وليبرتو « دون جيوفانى » لموزارت وليبرتو « الخطايا السبعة المميتة » و « صعود وسقوط مدينة الماهاجونى » لبرتولد بريخت . والجدير بالذكر أن إعجاب أودين وبريخت كان متبادلا فقد قام أودين بترجمة بعض أعمال بريخت من الألمانية الى الانجليزية . غير أن بريخت أظهر امتعاضه الشديد من الثياب الزرية التى يرتديها الشاعر الانجليزى . وقد قام تشستر بمفرده بترجمة بعض الليبرتات الأخرى كما أنه نظم عددا من القصائد التى امتدحها أودين وساعده على تنقيحها ونشرها فى ثلاثة دواوين هى « عاصفة

فى كراستلفرانكو » (١٩٥٦) و « الغائب الحاضر » (١٩٥٧) و « الاحساس بالمناسبة » (١٩٧١) .

وبقدر ماكان تشستر بوهيميا يرفض الخضوع لأى نوع من أنواع النظام بقدر ماكان أودين يحيا حياة النساك والرهبان من حيث التزامه الصارم والدقيق بروتين حياة يومى لايحيد عنه قيد أنملة . فهو يستيقظ قبل الساعة السادسة صباحا ويأوى الى فراشه مبكرا بين التاسعة والعاشرة مساء . وينقطع للكتابة من الصباح حتى الظهر لدرجة انه يرفض فى تلك الاثناء الرد على التليفون . والغريب أنه بحلول الساعة الثالثة بعد الظهر كان يلازمه شعور بالكآبة لم يجد له تفسيرا سوى أن تلك الساعة بالذات كانت تذكره بالساعة التى مات فيها السيد المسيح . فلا غرو إذا رأيناه يؤلف عام ١٩٥١ ديوانا بعنوان « صلاة الساعة الثالثة » والذى لاشك فيه أن انتظام حياته فى مثل دقة الساعة زاد من غزارة انتاجه الأدبى . ولكن هذا الانتظام لم يمنع من تعرضه لتقلبات المزاج . فقد كان أحيانا يبدأ يومه بمزاج متعكر فيقول : « إن مزاجي معتل اليوم » وهو فى مثل هذه الحالة يصبح انسانا يستحيل التعامل معه . وكان بطبيعته يجنح الى الانفراد بنفسه ، الأمر الذى بث الرهبة منه حتى فى القدامى من أصدقائه . وقد وصفه واحد منهم بأنه « وحش ولكنه وحش حبيب الي النفس » وعلى النقيض من ذلك كان كريستوفر ايشروود لطيف المعشر ورقيق الحاشية يتعامل مع الناس بألفة ويسر . وعلى أية حال كان تشستر الشخص الوحيد

الذى يمكنه أن يتعامل معه عندما تصيبه نوبات اعتلال المزاج .

وبعد حياة شاذة هنيئة قضاها أودين وتشستر فى جزيرة اسكيا الايطالية أصبحت هذه الجزيرة بمضى الوقت مصدرا للازعاج والمضايقات وخاصة بعد افتضاح أمرهما . ففى عام ١٩٥٢ اكتشف أودين أن بعض أهالى الجزيرة دسوا سما زعافا لقطته لوسيا فحزن على وفاتها حزنا شديدا . وبدأت المشاكل تتفاقم عندما قرر ساندو عشيق تشستر الايطالى أن يتزوج من فتاة أحلامه وكعادة الكاثوليك فى الاعتراف قبل الزواج اعترف ساندو لقسيس الجزيرة بممارساته الشاذة مع تشستر وعبر عن ندمه وتعهد بالاقلاع النهائي عنها . وأيضا بدأت المشاكل مع أودين عندما احتدم الخلاف فى شتاء ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ مع جيوكوندو خادمه الايطالى الذى عهد اليه بمهمة رعاية منزله فى اسكيا فى فترات غيابه . وكان من عادة أودين أن يرسل الى هذا الخادم من نيويورك شيكا بالأجر المحدد له . ويبدو أن الشاعر أخطأ ذات مرة وأضاف صفرا الى قيمة الشيك . وحاول جيوكوندو صرف الشيك ولكن البنك رفض لأن رصيد أودين فيه ليس كافيا . وعندئذ طاش عقل جيوكوندو الطماع الذى بدأ يذيع اسرار البيت والأعمال الشائنة التى تجرى فيه . بل إنه ذهب الى حد التلميح بأن المبلغ الكبير المكتوب فى الشيك ليس سوى مكافأة له من الشاعر الكبير نظير « خدمات خاصة » قدمها إليه بحسن نية وطيبة قلب . بالنظر الى صغر مساحة الجزيرة وتردد بعض

كبار الشخصيات الانجليزية عليها فاحت رائحة فضائح تشستر وأودين الذى كان آنذاك فى ذروة مجده الأدبى تتهافت الدوائر العلمية والأدبية على تكريمه . ومن أهم مظاهر هذا التكريم حصوله عام ١٩٥٧ على جائزة فلترنيللى البالغ قيمتها ثلاثين ألف دولار . وخطر للشاعر أن يشترى المنزل الذى عاش فيه مع عشيقه تشستر فى جزيرة أسكيا . ولكن صاحب البيت أصابه الجشع عندما علم بأمر الجائزة المالية الكبيرة التى حصل عليها فطلب ثمنا باهظا لايتناسب مطلقا مع قيمته الحقيقية . ولهذا عدل أودين عن شرائه وخاصة لأنه أصبح مستهدفا بسبب اللغط الذى ثار حوله وحول تشستر وقرر شاعرنا ان يستقر مع تشستر فى النمسا حيث أخبرهما صديق لهما بوجود منزل تحيط به حديقة واسعة غناء معروض للبيع فى قرية كيرخسنتين التى تبعد سبعة وعشرين ميلا عن غرب العاصمة فيينا . فتقدم الشاعر عام ١٩٥٨ لشرائه باثنى عشر ألف دولار ثم عمل على تحديثه وادخال كثير من التحسينات ووسائل الراحة عليه . ودرج الشاعر بصفة منتظمة وحتى وفاته عام ١٩٧٣ على قضاء فصلى الربيع والخريف فيه . وغمرت السعادة العارمة فؤاده عندما آلت إليه ملكية هذا المنزل لدرجة أنه نظم قصيدة شكر لله لما أسبغه عليه من نعماء . وكثيرا ما أشار فى قصائده الى تلك القرية النمساوية التى اختارها مستقرا له حيث عاش وسط احترام وتبجيل أهل القرية الذين أطلقوا اسم الشاعر على الشارع الموصل الى بيته . وهناك أيضا واظب على الذهاب الى

الكنيسة الكاثوليكية لحضور القداس الباكر . وعند وفاته ورى الثرى في فناء هذه الكنيسة

قلنا إن حياة أودين مع تشستر كانت أقرب إلى الحياة الزوجية سواء كانت في نيويورك أو ايطاليا أو النمسا . فأودين هو رجل البيت الذي يكد ويكدح من أجل الحصول على الرزق ، في حين يسهر تشستر على راحته يدير شئون البيت ويشترى لوازمه ويطبخ ويرد على التليفونات التي لاينقطع رنينها والتي لم يشأ رب البيت أن يرد عليها . كما أن تشستر تولى ابعاد الفضوليين والزوار المزعجين عنه . وعلقت احدى الصديقات على العلاقة الحميمة بينهما بقولها إن أية علاقة زوجية ناجحة لايمكن أن تكون أسعد من هذه العلاقة . ولو أن تشستر قبل أن يشاركه ممارسة الجنس لاكتملت سعادته . وليس في مقدور الدارسين أن يعطونا تفسيرا معقولا أو مقبولا لاصرار تشستر على الامتناع عن معاشرة أودين بالذات في حين أن سفاهاته الجنسية لاتحصى ولاتعد . ويدل غرام الشاعر بتشستر على أن عواطفه الجنسية ظلت غير ناضجة لاتتجاوز مرحلة المراهقة : فقد عجز ارتباطه المؤقت والعابر بعدد من العلاقات الجنسية الشاذة أن يعوضه عن حبه الرومانسي الدائم والمقيم لتشستر .

وفي الخمسينات تعرف أودين بطبيب باطني اسمه دافيد بتروتتش ارتاح اليه وجعله صديقه وطبيبه الخاص . ويقول البعض أن السبب الحقيقي في ارتياح الشاعر اليه يرجع الى أن هذا الطبيب مكنه من الحصول على كميات كبيرة من مادة

البندرزين المخدرة التى كان يتعاطاها بانتظام والتى كان لايستطيع الحصول عليها بسهولة أثناء إقامته فى أوربا . وقد أهدى أودين الى هذا الطبيب احدى قصائده التى نظمها بعنوان « فن الشفاء »

وفى الفترة التى عمل فيها أودين أستاذا للشعر بجامعة أكسفورد من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٠ لم ينقصه شيء غير بعد تشستر عنه فكان يعيش على أمل اللقاء به فى بيتهما فى النمسا فى فصلى الربيع والصيف حيث يحضران حفلات الموسيقى فى سالزبورج وفيينا . وفى أوائل الستينات أسر أودين الى صديق له اسمه الدكتور ستيفنس انه يحتفظ بعشرين ألف دولار فى حسابه الجارى فى البنك . وعبثا حاول صديقه أن ينصحه بتحويل هذا المبلغ الكبير إلى وديعة لكى تدر عليه عائدا . ولكن أودين رفض متعللا بعلة غريبة مفادها انه أخذ يشعر ابتداء من عام ١٩٦٢ ان صحته تتدهور وانه إذا قدر له أن يموت قبل أن يحين موعد فك الوديعة فسوف يعجز تشستر المسكين عن تدبير المبلغ المطلوب لجنازته .

فى عام ١٩٦٣ تسبب طيش تشستر ونزقه فى إثارة فضيحة بجلاجل فى الصحافة النمساوية فقد وقع هذا العابث فى غرام لص يعمل ميكانيكى سيارات اسمه هيو استخدم سيارة أودين الفولكس فى السطو على المنازل . وتم ضبطه وتقديمه الى المحاكمة فحكمت عليه المحكمة بالحبس لمدة تزيد عن عام وأدى هذا بطبيعة الحال الى جر رجل أودين وتشستر فى موضوع السطو الذى لاشأن لهما به ، وخرجت

الصحف النمساوية بمانشيتات مثيرة عن « كاتب أمريكى يعيش فى فيينا » ورغم أنها لم تذكر اسمه صراحة فقد كان واضحا للعام والخاص أنها تقصده .

ولكن جنوح النمساويين آنذاك الى المحافظة الجنسية ـ شأنهم فى ذلك شأن الانجليز والأمريكان فى ذلك الوقت ـ لم يكن بالشيء المريح للشاعر الذى لم يعد يصرح بشذوذه مثلما كان يفعل فى شبابه . فضلاً عن أن تشستر فى النمسا وجد صعوبة بالغة فى العثور على رفاق السوء . فقد تعين عليه للعثور عليهم أن يسافر سبعة وعشرين ميلا شرقى مدينة فيينا . ولهذا نصحه صديقه القديم الان أنسين الذى كان يقيم بصفة دائمة فى أثينا (حيث يسهل الاستمتاع بالمثلية) أن يعيش فى العاصمة اليونانية . واقتنع تشستر بالفكرة وسافر بالفعل الى هناك عام ١٩٦٣ وهو فى الأربعين من عمره . وفى أثينا عشق تشستر لآخر مرة فى حياته . وكان حبه هذه المرة دائما وعميقا وعاصفا . أحب شابا فى الواحد والعشرين من عمره اسمه يانيس بوراس يفيض بالفحولة والحيوية . ورغم أن هذا الشاب لم يكن أصيلا من شواذ الجنس فقد استطاع تشستر بقوة شخصيته الشيطانية أن يقنعه بالرحيل معه الى فيينا واستمرت علاقة يانيس بوراس به لمدة خمس أعوام . ابتداء من ١٩٦٣ حتى وفاته المفجعة عام ١٩٦٨ عندما كان يانيس يقود وهو مخمور سيارة أودين الفولكس فى ساعة متأخرة من الليل وبصحبته فتاتان فقد أوقف يانيس السيارة فجأة فى منتصف الطريق الطوالى

وأطفأ أنوارها فجاءت شاحنة تسير بسرعة كبيرة لتصطدم بها من الخلف وتهشمها تماما . ومات يانيس بوراس على الفور وتشوهت جثته تشويها مفزعا . ولما علم تشستر بنبأ وفاة عشيقه اليونانى حزن عليه حزنا لا حد له وأصبحت حياته بلا طعم أو معنى . وعبثا حاول أودين أن يواسيه أو يخفف عنه . وبعد نقل جثة يانيس الى اليونان حيث تم دفنه فى جبانة الكنيسة الأرثوذكسية فى قرية ليفاداكى استقبلهما الأهالى عند وصولها إليها بالاهانات والشتائم فقد ساد بينهم اعتقاد بأنهما مسئولان عن وفاته . وأيضا أقتنع أهل يانيس وأصدقاؤه ان الثرى الأمريكى (تشستر) الذى جاء لقريته هو المسئول عن وفاته

وبعد فجيعة تشستر فى وفاة يانيس عاش عيشة التهتك والعربدة فى اليونان حيث غرق لأذنيه فى المسكرات ومضاجعة الجنود اليونانيين . وساء الضباط أن يروا عساكرهم يزورونه تحت جنح الظلام فأوعزوا الى صاحب البيت بطرده . ولم ينقذه من التشرد فى الشوارع غير طبيب طيب القلب اسمه الدكتور باسيل برويموس رق لحاله فقبل أن يأويه فى منزله . ومن ناحيته واصل أودين رحلة الفسق والمجون حتى بلوغه سن الستين فقد استمر يمارس الشذوذ الجنسى مع بعض أفراد الطبقات العليا الأمريكية كلما سنحت له الفرصة لذلك . والغريب أنه رغم تحسن أحوال شاعرنا المادية فانه لم يفكر فى أن يترك سكنه المتواضع فى نيويورك . وعندما أوفدت احدى المدارس وفدا من طلبتها

تحت اشراف بعض المدرسين لاجراء مقابلة معه فى منزله عاملهم بلطف ورد برفق على استفساراتهم ونصحهم بضرورة اتقان اللغة اللاتينية كما نصح الطلبة المهتمين بالشعر ألا يقدموا على قرضه إلا بعد بلوغهم سن الأربعين . وبعد خروج الطلبة مسرورين من منزله عبروا عن دهشتهم من أن يقطن شاعر عظيم مثل أودين ذلك البيت القذر أو العشة على حد تعبيرهم .

وعندما تدهورت صحة تشستر قرر مغادرة اليونان والعودة الى نيويورك حيث انغمس فى الشراب . وتمزقت نياط فؤاد الشاعر وهو يرى حبيب قلبه مصرا على تدمير نفسه . فقد تسبب افراطه فى الشراب فى اتلاف كبده واصابة قلبه الضعيف بمزيد من الوهن وخاصة لأنه كان يعانى فى طفولته من الحمى الروماتيزمية التى تركت فيه آثارا وبيلة . وعندما أدرك تشستر سوء مآله تحسر على حاله . ولكن عينيه لم تفارق صورة عشيقه الذى اختطفه الموت منه فى غمضة عين . لقد توهم تشستر إنه سوف يجد العزاء والسلوى فى نيويورك . فلما جاء اليها لم يطق البقاء فيها أكثر من يومين قرر بعدهما العودة إلى اليونان من حيث جاء غير عابىء ببدنه السقيم وجسده الناحل ودنو أجله . وعبثا حاول أودين أن يستبقيه الى جواره فى نيويورك حتى يعينه على بلواه وحتى يتمكن الشاعر نفسه من تحمل الوحدة التى بدأ يحس بشدة وطأتها عليه . وعبر أودين عن قسوة هذه الوحدة عليه فى قصيدة ألفها فى أغسطس ١٩٧١ بعنوان « الوحشة » .

لم يكن حال أودين أحسن بكثير من حالة عشيقه تشستر . فقد بدأت صحته تسوء في منتصف الستينات وأخذ يعاني من مرض القلب . ونصحه الطبيب ـ وهو صديق له ـ بالاقلاع عن الشراب والتدخين وتعاطي مخدر البندرزين . ولكنه ضرب بنصيحة الطبيب عرض الحائط . وأحس الشاعر انه لم يعد يقوى على احتمال الحياة بمفرده في نيويورك وخشى أن يموت دون أن يتنبه الى موته أحد ، وغمره في عام ١٩٧٢ حنين جارف للعودة الى اكسفورد تلك البلدة الجميلة التي أمضى فيها شبابه وأحلى أيام عمره والتي كرمته جامعتها بمنحه درجة الدكتوراه الفخرية . وعبر شاعرنا عن رغبته في أن يقضي البقية الباقية من عمره بالقرب من كليته كرايست تشرش حيث تعلم وعلم . وعلى الفور أجتمع المسئولون بالجامعة ليستجيبوا اليه ويرحبوا به بينهم . ووفروا له مسكنا مناسبا وقريبا من كليته الأثيرة الي قلبه . ووافقت الجامعة على مخالفة أعرافها فسمحت له بقضاء فصلي الربيع والصيف بعيدا عنهما وتركيز كل محاضراته في فترة وجيزة . ولكن سرعان ماتبين أنه يعيش في وهم وأن اكسفورد لم تعد نفس المكان أو الزمان الذي عهده بسبب ازدحامها بالطلبة وتحولها من مكان هادئ الى مكان صاخب . حتى كافتيريا الجامعة المجاورة (الكادينا) التي عرفها وأحبها لم يعد لها وجود . وأصبح الجيل الجديد من الطلبة يمر عليه دون أن يحفل به بعد أن كان زملاؤهم في الماضي يتهافتون عليه ويأتون اليه وحدانا وزرافات . وزاد الطين بلة أنه تعرض

لحادثة سرقة خمسين جنيها من حافظة نقوده الأمر الذى جعله يردد « لقد عدت الى اكسفورد كى يسرقونى » واشتد عليه احساسه بالوحدة فأدرك أن اكسفورد لم تعد تصلح له . وجرفه الحنين كي يعود الى نيويورك التى أصبحت دون أن يدرى مستقرة فى وجدانه لايستطيع فراقها أو البعد عنها ، فشد رحاله اليها ليجتمع شمله مع أصدقائه ومعارفه فيها .

وفى صيف عام ١٩٧٣ سافر أودين كعادته إلى النمسا ليلتقى برفيق عمره تشستر . وشاءت المقادير أن يكون ذلك آخر لقاء بينهما . فقد ذهب تشستر لحضور أوبرا ريجولتو فى فيينا فى حين أحيا أودين أمسية شعرية فى الجمعية النمساوية للأدب فى هذه المدينة .

وفى ختام الأمسية دعته هذه الجمعية لتناول العشاء ولكنه اعتذر لشعوره بالتعب والارهاق . ثم توجه الى الفندق كى يستريح . وهناك استراح الى الأبد وهو فى السادسة والستين فقد صعدت روحه الى بارئها أثناء نومه يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ .

وجاءه تشستر الى حجرته بالفندق الذى ينزل فيه ليوقظه حسب طلبه فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى . وفى يوم ٤ أكتوبر من نفس العام دفن الشاعر فى مدافن الكنيسة الكاثوليكية فى قرية كيرتشتستين التى اختارها مستقرا له .

وبعد الجنازة عاد تشستر الى أثينا ليعيش عيشة الفسق والتهتك رغم تدهور صحته واعتلالها بشكل واضح . وكعادته

كان يغشى البارات والحانات بحثا عن الجنس المحرم . وفى مايو ١٩٧٤ غادر اليونان ليعود الى قرية كيرتشتستين النمساوية . وكتب الى دوروثي فارنان زوجة أبيه الثالثة يبلغها عن عزمه على بيع المنزل الذى اشتراه أودين بعرقه وكده ليئول بعد وفاته إليه . ولم يمانع الشاعر فى حالة وفاته فى أن يوصى تشستر به الى عشيقه يانيس بوراس عند أيلولته إليه . ولو أن هذا الميكانيكى الجاهل تماما باللغة الانجليزية قد عاش لآل إليه المنزل الذى صرف عليه الشاعر دم قلبه وشكر بسببه الله لما أسبغه من نعماء عليه . غير أن القدر شاء أن يموت يانيس بوراس قبل أودين ، الأمر الذى اضطر تشستر الى كتابة وصية جديدة أوصى فيها بعفش هذا المنزل الى عشيقه اليونانى الجديد نيكوس بيروس . وتوهم نيكوس الجشع أن تشستر أوصى له بكل محتويات المنزل فطالب بحقه فى أيلولة أوراق الشاعر الهامة ومكتبته واسطواناته إليه .

وهذا ما لم يتحقق فقد سافر تشستر الى لندن فى يولية ١٩٧٤ حاملا معه جميع مخطوطات وخطابات الفقيد ، وخوفا من أن تتبدد هذه الثروة الأدبية نصحه بعض الخلصاء بسرعة إهدائها الى مكتبة نيويورك العامة .

وفى الواقع لم يكن تشستر بحاجة على الاطلاق الى بيع منزل أودين فى النمسا . فقد ترك له الشاعر دخلا يكفيه لتغطية نفقات المعيشة فى اليونان لولا حياة السفه والتبذير التى استغرق فيها . ومن نيويورك تلقى تشستر عن طريق

المحامين مبالغ تكفى لاعاشته طوال الشهر . ولكن عشاقه كانوا يسرقونها منه منذ أول يوم فى الشهر . الأمر الذى دفعه الى الاستدانة من أفراد الجالية الأمريكية فى أثينا . وفى احدى المرات ذهب كعادته الى البار وهو يحمل فى جيبه أكثر من ألف دولار ، فلما أصبح الصباح وجد أن عشيقه الذى عاد به فى آخر الليل قد اختفى بعد أن سرق منه هذا المبلغ الكبير .

ومن سخرية القدر أن تشستر قبل وفاته بأسبوعين أعطى بالمجان البيت الذى امتلكه أودين بشق الأنفس الى مديرته السيدة جوزيفا ستروبل كما تدل على ذلك سجلات محكمة نولينباخ بالنمسا . ويتضح من هذه السجلات ان تشستر قام فى ٢ يناير ١٩٧٥ ببيع المنزل والحديقة الى السيدة ستروبل نظير مبلغ ١٢٥ دولارا تدفعه له شهريا مدى الحياة مع احتفاظه بحقه فى استخدام البيت فى فترات زيارته للنمسا . ولم تدفع المشترية أية مقدمات أو مبالغ متجمدة . وليس هناك سخرية من القدر أكثر من انها استولت على البيت بعد أن دفعت لتشستر قسطا شهريا واحدا . فقد توفى تشستر وتم دفنه بمدافن اليهود فى أثينا فى ٢٠ فبراير ١٩٧٥ أى بعد اتمام عقد البيع بنحو شهر واحد .

ولابد أن القدر أمعن فى سخريته عندما أبى أن يحقق لتشستر أمنيته الأخيرة . فقد طلب حرق جثته ونثر رمادها على قبر عشيقه يانيس بوراس فى ليفادامكى . ولكن الحكومة

اليونانية رفضت ذلك لأنه يخالف قوانينها التى تمنع حرق جثث الموتى .

هذه قصة أودين الذى لم تترك حداثته وتجديداته التكنيكية بصماتها فى الشعر الانجليزى الحديث فحسب بل فى المسرح الشعرى الحديث فى انجلترا بأسرها .

كريستوفر إيشروود

كريستوفر إيشرود كاتب متنوع الاهتمامات فهو روائى ومؤلف سينمائي ومسرحي مرموق . ارتبط اسمه بالدعوة الى السلام ونبذ الحروب وباتجاهه الى اعتناق فلسفة الشرق والتصوف الهندى .

ولد كريستوفر إيشروود - واسمه بالكامل كريستوفر وليم برادشو ايشروود - يوم ٢٦ أغسطس ١٩٠٤ (وفى عام ١٩٤٦ بعد أن هاجر الى الولايات المتحدة آثر علي أن يختصر اسمه الى كريستوفر إيشروود فى الأوراق الرسمية) وعند ولادته غمرت الفرحة قلوب العائلة فقام جده لأبيه برفع العلم على منزله مبشرا بولادة الطفل ومعبرا عن ابتهاجه لمقدمه تزوج أبوه - وهو ضابط اسمه فرانك - من سيدة اسمها كاثلين . وأثمر زواجهما طفلين أكبرهما هو كريستوفر الذى أنجبته أمه بعد ولادة متعسرة ومؤلمة ثم ريتشارد الذى جاءت ولادته بعد عدة سنوات أكثر سهولة ويسرا . وينحدر مؤلفنا من عائلة ميسورة الحال وإن لم تكن شديدة الثراء . اشترى أجداده منزلين ريفيين كبيرين هما مربل هول وويبرسلى هول عام ١٦٠٦ الأمر الذى يؤكد عراقة تاريخ العائلة التى تعود الى نهاية القرن السادس عشر . وعندما احتدم الصراع بين

البرلمان الانجليزى والملك تشارلز الأول قرر هذا البرلمان محاكمته بتهمة الخيانة . ولكنها وجدت صعوبة بالغة في العثور على قاض مستعد لمحاكمته فقد كان معظم القضاة الانجليز آنذاك يعتبرون مثل هذا العمل انتهاكا للقانون . غير أن جد عائلة ايشروود الكبير القاضى جون برادشو قبل الاطلاع بهذه المهمة يناصره الشاعر البيرويتانى المعروف جون فيلتون الذى امتدح هذا القاضى لأمانته واستقامته وعلمه الغزير . ويبدو أن الدور البارز الذى لعبه هذا القاضى فى تاريخ انجلترا حدا بمؤلفنا الى التوفر على دراسة التاريخ . يقول إيشروود إن عائلته تضم عددا من المجانين والشواذ وهو الأمر الذى أثلج صدره ، ويضيف الى ذلك نزوع بعضهم الى الجريمة . ويبدو أن هذا غرس فى نفسه منذ نعومة اظفاره غرامه بقصص الرعب فلا غرو إذا رأيناه فى حياته اللاحقة يؤلف فيلما سينمائيا عن فرانكشتين وقد أصيب جده لأبيه ـ وهو ضابط جيش أيضا ـ بالفالج وهو لايتجاوز الواحد والعشرين من عمره ، الأمر الذى أرغمه على التقاعد المبكر دون أن يمضى على التحاقه بخدمة الجيش أكثر من أربع سنوات . واقعده الشلل عن الحركة وأفرط فى الشراب فكان يبول على نفسه أحيانا . ودعاه هذا الى التفكير فى أن يربط الى جسده قربة يبول فيها ويمكن نزعها بعد امتلائها . وتدل كتابات الصبى كريستوفر أنه كان يحمل لجده كل مودة ومعزة وأنه لم يشمئز من بلل البول ورائحته التى اقترنت به .

تلقى فرانك والد مؤلفنا العلوم العسكرية بكلية

ساندهيرست وفى عام ١٨٩٢ التحق بنفس الكتيبة التى كان أبوه أحد أفرادها ، والى جانب دراسته العسكرية عشق فرانك الرسم بالألوان والموسيقى والغناء والتمثيل . فضلا عن غرامه بقراءة الروايات والكتب التى تتناول المجتمع الشرقى والبوذية والصوفية . ويبدو أنه تأثر فى ذلك بالرحلات التى قام بها أخوه هنرى الى بلاد الشرق وراقت لفرانك أديان الشرق لما تضمنته من دعوة الى تقوية الارادة وتأمل الذات ولم يقتنع بتنظيمات الكنيسة المسيحية على عكس زوجته كاثلين التى آمنت ايمانا كاملا بسلامة الكنيسة الانجليكانية ورفضت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

واعتبرت أتباعها شرذمة من الشواذ وعبثا حاولت الزوجة اقناع زوجها بسلامة وجهة نظرها الدينية وقد تأثر كريستوفر وشقيقه ريتشارد بأفكار والدهما التى تنكر الدين المسيحى فاتجها مثله الى فلسفات الشرق وأديانه ينهلان منها . ولكن هذا لايعنى أن مؤلفنا سار على نفس الدرب الذى سبق لأبنه أن سار فيه فقد كان يختلف عن والده فى عدة وجوه كان فرانك يميل الى المحافظة ويمقت الأفكار البوهيمية والراديكالية ومسلك الطبقة العاملة فى حين أنها جميعا راقت فى نظر الابن كما أن الأب وزوجته ـ بخلاف الابن ـ كانا يجلان نظام الزواج ويحملان كل التقدير له .

أحبت كاثلين ولديها حبا لامزيد عليه وسجلت ملاحظاتهما عن تطور ابنها كريستوفر فى يومياتها منذ أيام التلمذة حتى عام ١٩٢٨ هو العام الذى نشر فيه روايته « حميم المتآمرين »

وقبل أن يبلغ كريستوفر الثالثة من عمره أستخدمت أمه مربية تدعى أنى أفيش ظلت فى خدمة العائلة مايزيد عن أربعين عاما . ورغم شقاوته معها فانه وجد فى صدرها الحنون الطمأنينة والأمان لدرجة أنه أسر إليها وليس الى أمه بالأحلام المزعجة التى تطوف بخياله وبخوفه من الظلام . فكانت تروى له الحكايات المسلية حتى ينام وتعلمه أغنيات الأطفال فضلا عن أن أباه كان يتمتع بالقدرة المذهلة على رواية الحكايات الخيالية التى خلبت لبه . وغرس الأب فيه حب الفنون والموسيقى والرسم وسرت شائعة بين أفراد العائلة أن شبح الملك تشارلز الذى حاكمه القاضى جون برادشو وانتهى الأمر باعدامه يسكن منزل ماربل هول ويتجول فى أرجائه حاملا رأسه المقطوع تحت إبطه . وفى أحد الأيام تعرض الطفل لحادثة غامضة أثناء غياب الوالدين عن المنزل . فقد خيل للطفل فى منامه أن أباه نقله بين ذراعيه الى غرفة الخدم الداخلية فصرخ مستنجدا بمربيته التى أسرعت اليه لتدخل الطمأنينة الى قلبه المذعور . ويبدو أن التفسير الذى يجلو غموض هذا الحادث أن أحد الخدم تنكر فى شخص والده وحمل الطفل أثناء نومه الى غرفة الخدم ليدخل فى روعه أن البيت مسكون .

وعلى أية حال شعر الطفل بسعادة غامرة عندما أهداه والده لعبا للأطفال يبنى منها المسارح وعمقت فيه الأم حب المسرح بأن ألفت له بعض المواقف المسرحية وعلمته القيام

بتمثيلها . فضلا عن أنها علمته أداء بعض الرقصات . والغريب أن كريستوفر في طفولته استهوته ملابس أمه وأدوات زينتها . ولكنها لم تنهره عن ارتداء بعض ملابسها وقمصانها . بل إنها سايرته فألبسته الفراء وأدوات الزينة أحيانا ، أى أنها شجعت فيه التخنث .

لم يتأثر كريستوفر بوالده ووالدته فحسب بل تأثر بعمه الأصغر جاك أيضا فاقتفى اثره وأظهر ما أظهره من اهتمام بالديانات الشرقية ، وخاصة فلسفة الهنود المعروفة بالفيدانتا وشجعته والدته على أن يشاركها سعادتها فى تأليف كتيب صغير فى شتاء عام ١٩١٠ - ١٩١١ بعنوان «تاريخ أصدقائى » وفى نفس العام بدأ الأب فى اعطائه دروسا أولية فى اللغة الفرنسية التى كانت الأم تتحدث فى البيت بها أحيانا يقول ليثون ستراتشى إن الطبقات العليا فى المجتمع الانجليزى آنذاك اتجهت الى استخدام اللغة الفرنسية لتحل بذلك محل اللغة الألمانية السائدة فى العصر الفكتورى ولهذا كان من الطبيعى أن تصبح اللغة الفرنسية اللغة الأجنبية الأولى التى درسها كريستوفر ليس فى البيت والمدرسة فقط بل أيضا أثناء زيارته المتكررة الى فرنسا . وبالرغم من هذا فقد كره هذه اللغة فى صدر شبابه وامتنع عن التحدث بها ، وفضل عليها اللغة الألمانية كنوع من الاحتجاج على ثقافة جيله .

والجدير بالذكر أن كريستوفر أيشروود اجتاز فى صباه أول تجربة جنسية أدت به فى نهاية الأمر الى الاستمناء . وصورت

له خيالاته الجنسية إنه يركض مثخنا بالجراح على أرض المعركة وقد تمزقت ثيابه وأصبح شبه عريان تحيط به امرأة بعطف وحنان لتشمله برعايتها . وفى مايو ١٩١١ التحق كريستوفر بمدرسة بنات تعمل ساعة واحدة فى اليوم . ولم يكن فى هذه المدرسة سوى خمسة صبيان . وفى المدرسة أظهر الصبى قدرة على الكتابة على نحو جيد غير أنه كان ضعيفا فى مادة المطالعة فسعى والده الى سد هذا النقص فى البيت . وحثته أمه على الاتجاه نحو المسرح بأن قرأت له كتاب تشارلز ومارى لامب المعروف « حكايات من شكسبير » وفكر فرانك فى ترك الجيش والالتحاق بوظيفة مدنية . غير أن اضراب عمال النقل فى أغسطس ١٩١١ حال دون ذلك . وكان من الواضح أن ولاء فرانك كان فى صف السلطة ضد عمال النقل . وعندما أنجبت أمه كاثلين فى أكتوبر ١٩١١ رضيعا (هو تشارلز) اعتبر كريستوفر ولادته بمثابة معجزة يعجز عن فهمها وفهم الغموض المحيط بها . وكرر الأب محاولة ترك الخدمة العسكرية ولكن وزارة الحربية رفضت ذلك ، وقامت بنقله للعمل فى بلدة ليمبريك بايرلندا حيث التحق ابنه بمدرسة مخصصة أصلا للبنات ضمت اليها عددا محدودا من الأولاد .

وفى منتصف عام ١٩١٢ أعلن الصبى كريستوفر على عائلته إقامة اسبوع شكسبير المسرحى لقراءة وتمثيل مقتطفات من أعماله . وقام بتعليق برنامج هذا الأسبوع على باب الغرفة التى يلعب فيها ودعا والديه الى حضور جميع حفلاته المسرحية المنزلية التى تخيل فيها أن الحيوانات تلعب

أدوار البطولة فجعل الأرنب يلعب دور ماكبث واستغرق تمثيله مسرحية ماكبث ربع ساعة فقط لاغير . وهكذا اقتفى الابن أثر الأب وتاق الى أن يصبح ممثلا . فضلا عن أنه اتجه منذ صباه الى التأليف المسرحي . فألف مسرحية باللغة الفرنسية بعنوان « رسالة » بسبب اعجابه الشديد بالممثلة الفرنسية المعروفة سارة برنار ولكن الأسرة حظرت عليه تمثيلها عندما اقتحم بلا استئذان حجرة مليئة بالضيوف ليقدم اليهم عرضه المسرحي المرتجل . وفى ايرلندا ادرك كريستوفر منذ نعومة أظفاره الكراهية المشبوبة التي حملها الايرلنديون الكاثوليك للانجليز البروتستانت . فقد نصحته أمه التى هالها مارأته من نزوع الايرلنديين الى سفك الدماء والخروج على القانون بالابتعاد عن الأطفال الايرلنديين وعدم اللعب معهم . وكان الأطفال الكاثوليك فى الشارع يصرخون فى وجهه « أيها البروتستانتى القذر » وعندما كبر الصبى وصار على وعى بأبعاد المشكلة الأيرلندية وجد نفسه فى صف الايرلنديين المتمردين على الحكومة الانجليزية والمطالبين بالاستقلال عنها . كما وجد نفسه يعارض سياسة أنجلترا الاستعمارية نحو الهند . الأمر الذى أضفى على مواقفه السياسية اتجاها نحو اليسار . وفى خريف عام ١٩١٢ حدث شغب فى بلدة ليمبريك ضد البروتستانت أدى الى تحطيم نوافذ المحلات والحوانيت .

وفى أواخر ١٩١٢ ذهب كريستوفر لمشاهدة السينما (وكانت آنذاك صامتة) لأول مرة فى حياته فأصبح غرامه

بالشاشة الكبيرة . يفوق غرامه بالمسرح . وفيما بعد ألحقته العائلة بمدرسة جديدة معظم تلاميذها من البنين حيث بدأ يعرف الصراع والشجار مع أقرانه من الصبية . ولاحظت الأم تصاعد حدة التوتر السياسي فى ايرلندا فآثرت أبعاد ابنها كريستوفر عنها والحاقه بمدرسة اعدادية فى انجلترا . وفى ذلك الوقت بدأت نذر الحرب العالمية الأولى تلوح فى الأفق . فآثرت الأم أن تعود بولدها من ايرلندا الى انجلترا لتلحقه بمدرسة سانت ادموند الداخلية في ابريل ١٩١٤ . وانتهزت كاثلين هذه الفرصة السانحة لقضاء بعض الوقت فى لندن حيث اصطحبت ابنها لمشاهدة مسرحية شكسبير « حلم ليلة صيف » التى أخرجها رجل المسرح المعروف جرانفيل باركر وكذلك متحف مدام توسو للشمع متحف التاريخ القومى وحديقة الحيوان فى ريخيت بارك . وكانت مدرسة سانت ادموند يديرها بعض أقارب العائلة . وقبل أن يتحول مبناها الى مدرسة كان برناردشو يقطنه بعض الوقت . وشكا ناظر المدرسة من أن كريستوفر لم يظهر أدنى اهتمام بدروس الدين الذى قامت المدرسة بالتركيز عليه إلى جانب تركيزها على تدريس الرياضيات واللغات اللاتينية والاغريقية والفرنسية وبالاضافة الى هذه المواد قامت المدرسة بتدريس مواد التاريخ والجغرافيا والأدب والموسيقى ولكن دون التركيز عليها . وفى المدرسة انصرف كريستوفر عن الدرس والتحصيل الى اللعب والشقاوة والصخب والكلام دون توقف واتضح للأم إنها ارتكبت خطأ عندما أرسلت ابنها الى مدرسة

يديرها الأقارب الأمر الذى جعل التلاميذ يعايرونه ويشكون منه . ورغم ذلك فقد استطاع بروحه الجذابة أن يكسب أقرانه الى صفه . غير أنه خيب أمل مدرس الألعاب الرياضية فيه عندما أخفق فى اتقان لعبتى الكريكيت وكرة القدم . ووجد كريستوفر متعة خاصة في المصارعة والملاكمة وبسبب الحرب سافر أبوه الى فرنسا للاشتراك فى القتال ضد الألمان ليعود الى انجلترا فى فبراير ١٩١٥ ولاحظ فرانك عند عودته الى انجلترا أن ابنه يعرج عرجا واضحا وانه مصاب بالروماتيزم . فضلا عن اصابته اللاحقة بمرض الحصبة . وبعد عودة فرانك الى ميدان القتال فى فرنسا ببضعة شهور أعلنت السلطات العسكرية ان فرانك مفقود وتصور الجميع انه مات . ولهذا بدأ الاساتذة والتلاميذ يعاملون كريستوفر على أنه ابن بطل وشهيد .

وفى عام ١٩١٥ التحق بنفس المدرسة طفل فى الثامنة من عمره اسمه بستان أودين (شاعر الثلاثينات الانجليزى الشهير الذى تناولناه فى الفصل السابق وبدأت علاقة ويستان بكريستوفر تتوثق فى آخر عام دراسى أمضاه مؤلفنا فى مدرسة القديس ادموند اى فى عام ١٩١٧ ـ ١٩١٨ . كان أودين يشبه ايشروود فى طفولته فى عزوفه عن ممارسة النشاط الرياضى . غير أنه استطاع أن يجتذب اليه اقرانه بفضل اتقانه للعزف الموسيقى وقدرته على ادخال التسلية فى نفوسهم . ونحن نجد فى رواية ايشروود (أسود وظلال) (١٩٣٨) واصفا للشاعر أودين فى طفولته تحت اسم

« هيووديستون » الذى يعتبر أول من علم كريستوفر دروسا فى الجنس فقد كان والده الطبيب يحتفظ بخزانة من الكتب والمراجع العلمية والطبية المكتوبة باللغة الألمانية ، تمكن ابنه ويستان أن يعثر على مفتاحها وأن يخرج منها بعض المجلدات المصورة فى علم التشريح ليعرضها على زميله كريستوفر . وقد سبق لنا أن فصلنا هذه الخلفية فى الفصل الثانى .

وعندما اقتربت الحرب العالمية الأولى من نهايتها عام ١٩١٨ قررت كاثلين اخراج ابنها من مدرسة سانت ادموند والحاقه فى يناير ١٩١٩ بمدرسة ريبتون التى كان الروائى الانجليزى الكبير جراهام جرين وهو أحد أقربائه من تلاميذها . ومن الشخصيات الانجليزية البارزة الأخرى التى التحقت بهذه المدرسة الناشر التقدمى واليسارى المعروف فكتور جولانز . ورغم انتشار اللواط فى مدارس انجلترا الداخلية فإن كريستوفر نجا من ممارسته فى فترة التحاقه بمدرسة ريبتون الداخلية . غير أن اقامة علاقات غرامية مع نفس الجنس كانت تطوف بمخيلته .

واهتم كريستوفر فى تلك المرحلة من حياته بقرض الشعر وقرب تخرجه من مدرسة ريبتون وقع فى العام الدراسى ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ تحت تأثير مدرسة التاريخ جراهام سميث وتلميذ زميل له يدرس التاريخ اسمه ادوارد ابوارد ويعطينا ايشروود صورة لهذا المدرس فى روايته « أسود وظلال » تحت اسم المستر هولمز كما أن زميله ادوارد أبوارد يظهر

فيها تحت اسم ألين تشارلز الذى حظى باعجابه الشديد بسبب ماعرف عنه من تمرد على النظام المدرسي بوجه خاص وعلى الدين وأعراف المجتمع بوجه عام ومؤلفنا لاينكر مقدار الأثر العميق الذى تركه كل من هذين الاستاذ والتلميذ فيه . وأمضى الزميلان كريستوفر وأبوارد الساعات الطوال فى مكتبة المدرسة ينقبان فى بطون الكتب . وفى عام ١٩٢١ وقعت بعض الأحداث الهامة فى حياة مؤلفنا ومنها أنه سافر مع زميله أبوارد الى كامبردج لأداء امتحان مسابقة فى التاريخ ورغم أن أبوارد تفوق عليه فقد حصل كريستوفر على جائزة مالية أكبر .

وكان كريستوفر آنذاك فى السابعة عشرة من عمره . وبعد الامتحانات سافر أبوارد عام ١٩٢٢ الى مدينة روان بفرنسا لتعلم اللغة الفرنسية . وفعل كريستوفر نفس الشيء فى وقت لاحق . وعلى اية حال سنحت لكريستوفر فرصة للسفر الى فرنسا ، ونفس الوقت فاسعده أن يلتقى بزميله أبوارد هناك . وفى فرنسا قرأ كريستوفر ديوان بودلير المعروف « أزهار الشر » بسبب تحمس زميله الشديد له وبلغ اعجابه بالشاعر بودلير حدا جعله يتوفر على ترجمة أحد أعماله الى الانجليزية فيما بعد وفى يوليه ١٩٢٣ عاد مؤلفنا من فرنسا الى بلاده .

عندما التحق كريستوفر بكلية كوربوس كريستى بجامعة كامبردج فى الفترة من ١٩٢٤ الى ١٩٢٥ أخفق فى دراسته فقد كان شارد الذهن سارحا فى خيالاته أثناء حضوره المحاضرات . واستمتع بحياة الدعة وآثر الانغماس فى الحياة

الاجتماعية المسلية . غير أن صداقته بأدوارد أبوارد أتاحت له فرصة الاطلاع فى مكتبته على مؤلفات كبار الأدباء والأديبات أمثال كاترين مانسفليد ووالت ويتمان وادجار الان بو وبودلير وفلوبيرت وغيرهم . واتفق كريستوفر مع ادوارد أبوارد على كتابة يوميات يسجلان فيها خيالاتهما المشتركة التى يسرحان فيها وقد شاهدت تلك الفترة الجديدة فى تأليف روايته « أسود وظلال » التى سبق الاشارة اليها والتى استقى عنوانها من الكاتب س . أ . مونتاجو . ولكن كريستوفر فى سنى نضجه أعاد صياغتها وضمنها سيرة حياته .

وفى أيام الطلب بجامعة كامبردج بدأ مؤلفنا يستشعر نزوعه الى الشذوذ الجنسى غير أنه لم يفعل شيئا ليضع هذا النزوع موضع التنفيذ حتى أخذ زميل له من نفس كليته زمام المبادرة فقد دخل عليه حجرته وأوصد بابها بالمفتاح ثم جلس على حجره من غير احم أو دستور . وعلى أية حال نشأت بينه وبين عدد من شباب الجامعة صداقات وثيقة ولكنها بريئة مثل صداقته بالطالب روجر بيرفور الذى أظهر اهتماما بالغا بالسينما وأسس نادى كامبردج السينمائى وعن طريقه ظهر كريستوفر ككومبارس فى أحد الأفلام وتقاضى جنيها وأربعة شلنات عن أداء دوره . ولكن التمثيل فى الأفلام لم يرق له . وكذلك توطدت فى لندن صلته بصديق اسمه هكتور وينتل الذى أطلق عليه اسم فيليب لينسلى فى رواية « أسود وظلال » ووجد مؤلفنا سعادة بالغة فى التجوال فى أزقة لندن وأحيائها القذرة . وتمرد كريستوفر على أسلوب تدريس الأدب فى

جامعة كامبردج وشاركه صديقه أدوارد أبوارد هذا التمرد وهو تمرد يرجع الى تشريح الأساتذة للنصوص الأدبية على نحو يزهق روح هذه النصوص ويجردها من نبض الحياة ولكن الصديقين المتمردين حرصا على حضور محاضرات أستاذ شاب هو أى . أ . ريتشارد (الذى ذاع صيته فى عالم النقد الأدبى فيما بعد) وتعلم الطالبات من هذا الأستاذ الشاب الاعجاب بالشاعر الجديد والمجدد معا ت . س . اليوت .

وبحلول موعد الامتحانات أصاب الهلع مؤلفنا فهو يكاد ألا يعرف عن المقررات الدراسية شيئا . وأوجد فى التمرد والتحدى مخرجا من مأزقه فقرر أن يشق عصا الطاعة على نظام التعليم السائد آنذاك فى جامعة كامبردج . وتعبيرا عن تحديه لهذا النظام قام ببيع كل كتبه الدراسية فى التاريخ باستثناء كتاب واحد آثر أن يحتفل بإلقائه فى ماء نهر الكام هو « تاريخ انجلترا الدستورى » تأليف الأسقف وليم ستب . ثم انصرف وصديقه أبوارد الى ركوب القوارب والاستماع الى موسيقى بيتهوفن وشوبيرت . وعندما جلس كريستوفر للاجابة عن اسئلة امتحان التاريخ حول الأسباب التى أدت الى هزيمة ملك انجلترا المخلوع تشارلز الاول ملأ أوراق الاجابة بمجموعة من الفقرات الساخرة والأشعار الرديئة التى تتهكم على الاسئلة الموضوعة . فعل كريستوفر هذا بجدية تامة وكأنه منهمك انهماكا حقيقيا فى الرد على الاسئلة . وبعد انتهاء الامتحان سافر الى لندن . ولم يمر أسبوع واحد على سفره حتى استدعاه أستاذه للحضور الى كامبردج على

عجل . وسأله أستاذه عن المبررات لتصرفه فلم يحر كريستوفر جوابا وظل صامتا . وهاج المسئولون فى الجامعة وماجوا وطالبوا بطرده . ولكن أستاذه اقترح شطب اسمه من سجلات الجامعة وبذلك لايكون له أى وجود فى سجلات الجامعة الرسمية رغم العامين اللذين أمضاهما فيها . وفى حياته اللاحقة شعر بالخجل مما فعل كما أن صديقه ادوارد أبوارد شعر بالذنب ولام نفسه كثيرا لأنه لم يحاول أن يمنعه أو يعيده الى رشده . وعندما علمت أمه كاثلين بهذا الأمر خاب أملها فيه فقد كانت تأمل أن يصبح ابنها فى يوم من الأيام استاذا بالجامعة .

وتعتبر علاقة كريستوفر بعمه الثرى هنرى أشد ماتكون غرابة . فقد نشأت بين هذا الرجل وابن أخيه صلة حميمة سمحت لهما بالمصارحة والكشف عن نزعتهما الى الشذوذ الجنسى . ولم يجد العم أدنى غضاضة فى أن يفضى إليه كريستوفر بمغامراته الجنسية الشاذة . كما أن الرجل لم يخجل من أن يحكى لابن أخيه الشاب عن مغامرات مماثلة مع بعض الحراس وأفراد الطبقة الدنيا . واعتاد العم بعد ممارسته للرذيلة أن يعترف للقسيس بما أقترف .

وفى الفترة بين ١٩٢٦ و١٩٢٧ تعرف كريستوفر بموسيقى فرنسى متزوج من سيدة انجليزية اسمه أندريه مانجيو الذى عرض عليه وظيفة سكرتير لجمعيته الموسيقية مقابل جنيها واحدا فى الأسبوع وقبل مؤلفنا هذا الأجر الشديد الضآلة بسبب حبه لعائلة هذا الموسيقار .

والجدير بالذكر أن الأيام فرقت بين كريستوفر ايشروود وويستان أودين بعد تركهما مدرسة سانت ادموند ثم عادت لتجمعهما وتؤلف بينهما من جديد عن طريق صديق مشترك وذلك بعد مرور ستة أعوام على آخر لقاء بينهما وبطبيعة الحال تبادل الزميلان السابقان ذكرياتهما عن المدرسة . وذكر أودين عرضا أمام كريستوفر انه يقرض الشعر الأمر الذى أدهش زميله القديم لأنه لم يكن يعلم أيام الدراسة ميل أودين الى تأليف الشعر وفى وقت لاحق بعث أودين الى زميله بنماذج من شعره تنم عن شدة تأثره بتوماس هاردى وأدوارد توماس وروبرت فورست . كان أودين يأخذ ملاحظات كريستوفر وتعليقاته على شعره مأخذ الجد لدرجة أنه كان يبادر بتغيير الابيات التى يعترض عليها . وعلى أية حال فقد تأثر كريستوفر بأودين بقدر ماتأثر أودين بكريستوفر ، ومن الثابت أن أودين اكتشف نزوع زميله الى الشذوذ الجنسى قبل أن يتنبه زميله الى وجود هذا الميل فيه .

ولم يخف أودين على كريستوفر .. شذوذه ومن سخرية الأقدار أن يفعل كريستوفر فيما بعد نفس الشىء وأن يجاهر بشذوذه ويعلنه على الملأ دون أدنى احساس بالعار أو الخجل .

وعندما اتضح لايشروود نزوعه الأكيد نحو الشذوذ الجنسى مر بمحنة نفسية كادت أن تعصف به وغمره شعور بالاكتئاب وخاصة بعد أن قرأ أعمال الكاتب الفرنسى مارسيل

بروست (المعروف أيضا بشذوذه الجنسى) الذى رسم صورة بشعة للشاذ جنسيا عندما يتقدم به العمر . وفى اكتئابه فكر كريستوفر فى الانتحار فاشترى مسدسا لهذا الغرض وتوجه الى صديقه هكتور ونتيل ليسأله عن أضمن طريقة للانتحار فنصحه ونتيل أن يضع فوهة المسدس فى فمه فى وضع معين قبل الضغط على الزناد ، ورغم أن ايشروود لم يتخلص من حياته فانه استفاد من هذه التجربة وضمها فى روايته « الذكرى » (١٩٣٢) يقول كريستوفر فى هذا الشأن ان كل كتاباتى فى الأساس تتضمن سيرة حياتى ومعنى هذا انى اكتب عن تجارب خضتها بنفسى أو خاضها شخص آخر . فمحاولة الانتحار التى أصنعها فى رواية (الذكرى) على سبيل المثال كانت تجربة واقعية رواها لى أحد الأصدقاء وأنا فى رواياتى اخترع قدرا كبيرا من الأحداث والحوار كما أن شخصياتى مركبة وتتكون من عناصر مختلفة . ولكن التجربة التى أقيمت عليها المناظر وكذلك الشخصيات مأخوذة من حياتى . وبعد فشله فى الانتحار قرر كريستوفر وهو فى الثانية والعشرين من عمره أن يترك البيت ليعيش مستقلا عن والدته واضطرته الحاجة الى المال إلى اعطاء الدروس الخصوصية . وفى عام ١٩٢٦ أكمل رواية بعنوان « الهروب من البحر » وعرضها على الأديبة الايرلندية ايثيل مابن التى لم ترض عنها ولكنها حثته على مواصلة الكتابة .

وفى ديسمبر ١٩٢٦ ذهب كريستوفر الى اكسفورد لزيارة صديقه أودين وهناك شاهد كوكبة من الشعراء الشبان تلتف

حول زميله مثل سيسيل داى لويس ولويس ماكنيس وريكس وارنر الى جانب الأديبة الألمانية جرتود شتاين واستمع كريستوفر الى أودين وهو يعزف مقطوعات من باخ على بيانو يحتفظ به فى مسكنه . وفى العام التالى (١٩٢٧) اعتلت صحة كريستوفر فسافر للاستشفاء فى جزيرة وايت . وهناك أسعده ان يخالط الصيادين وتعمد أن يخفى عنهم خلفيته البورجوازية وأن يتصرف كما يتصرفون وتبع نفس أسلوبهم الدارج فى الحديث . وهى عادة ترسخت فيه وتمكنت منه فلم تفلح عنها طيلة حياته . وفى جزيرة وايت ظهر اعراضه عن النساء . فقد تعرف بصياد شاب وجذاب فى السابعة عشرة من عمره وكانا يخرجان سويا لمراقصة الفتيات وملاحقتهن . فإذا أقبلت عليه احدى الفتيات سلمها كريستوفر الى صديقه ليستمتع بها دونه . وبعد أن أتم كريستوفر تأليف « كل المتآمرين » عرضها على صديقه ادوارد أبوارد الذى راقت له رغم أنه استهجن عنوانها . وقد استمد كريستوفر هذا العنوان من الخطبة التى ألقاها مارك أنتونى على جثة بروتس فى مسرحية شكسبير المعروفة « يوليوس قيصر » ويرى النقاد أن « كل المتآمرين » تفوق سائر الروايات التى ألفها كريستوفر فى التعبير عن السخط والغضب الأمر الذى مهد لظهور الجيل الغاضب الانجليزى فى الخمسينات . وفى عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ قرر كريستوفر الالتحاق بكلية الطب بجامعة لندن ، فشجعه صديقه أبوارد على ذلك وذهب أبوارد الى أن دراسة الطب من شأنها أن تتيح له فرصة الاتصال بالشواذ

والمرضى عن كثب ومن ثم يمكن تصويرهم فى أعمال روائية عظيمة . وفى تلك الفترة من حياته صادف ـ وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين ـ حظا سعيدا عندما أبلغه الناشر جوناثان كاب رغبته فى نشر روايته « كل المتآمرين » ففتح ذلك أمامه آفاق الشهرة والمجد الأدبى . وقد قام كاب بنشرها فعلا عام ١٩٢٨ .

ألمانيا وأوربا :

كان لكريستوفر إيشروود قريب اسمه بازيل فراى يعمل نائب قنصل بريطانيا فى مدينة بريمن الألمانية ورغم نفوره من قريبه بسبب زيفه ونزعته نحو التظاهر والادعاء فانه قبل عام ١٩٢٨ ، دعوته لزيارة سريعة إلى ألمانيا ، ويعطينا مؤلفنا صورة لهذا الرجل متمثلة فى شخصية مستر لانكاستر فى روايته التى تحمل عنوان "هناك فى زيارة" عام (١٩٦٢) . وفى زيارته الأولى لألمانيا شعر كريستوفر بقوة تجذبه نحو الشباب الألمانى . وألقى عليه قريبه الديبلوماسى محاضرة طويلة عريضة عن الفساد الأخلاقى الذى ساد ألمانيا بوجه عام وبرلين بوجه خاص . وحذره من الانغماس فيه والقاء نفسه فى التهلكة ، ثم أكدت الرسائل التى بعث بها إليه أودين من ألمانيا فيما بعد (أثناء إقامته فى برلين عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩) صحة الصورة التى رسمها بازيل فراى للانحلال الألمانى فتاقت نفس مؤلفنا للعودة إلى ألمانيا وزيارة برلين على وجه الخصوص ، وزاد من شوقه إلى مشاهدة برلين رغبته فى لقاء عالم نفسانى يدعى جون لايارد الذى تتلمذ على

يدى عالم نفساني أمريكى اسمه هومز لين والذى سبق لنا أن تناولنا علاقة أودين به . وتتلخص دعوة لين المتحررة فى ايمانه بأن المعصية الحقيقية التى يرتكبها الإنسان هى عدم اتباع ما تمليه عليه طبيعته . الأمر الذى أغرى كريستوفر بالسفر إلى برلين من أجل الالتقاء بتلميذ هذا العالم جون لايارد الذى يدعو مثل أستاذه إلى الضرب بالتقاليد والأعراف الأخلاقية والجنسية عرض الحائط .

وفي يوم ١٤ مارس عام ١٩٢٩ سافر كريستوفر إلى ألمانيا حيث إلتقى بصديقه أودين الذى كان يعيش بالقرب من ماخور واصطحبه أودين إلى بار شعبى اسمه "الركن المريح" يرتاده شواذ الجنس من الألمان الذكور . والجدير بالذكر أن الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى اجتاحت العالم عام ١٩٢٩ وأدت الى انتشار الكساد وتفشى البطالة أدت بدورها إلى تفشى الرزيلة . ولم يجد الشباب الألمانى أمامهم سبيلا للرزق سوى احتراف الدعارة مع السواح والزوار الأجانب . وكان هذا الشباب الضائع يكتفى بهدية بسيطة مثل قميص أو ربطة عنق . وفى كثير من الأحيان اهتم هؤلاء الشبان الألمان المنحرفين بممارسة الأنشطة الرياضية مثل المصارعة والملاكمة مما جعل أجسادهم قوية وعضلاتهم مفتولة . ورغم أن كريستوفر كان حينذاك يجهل اللغة الألمانية فإن هذا لم يقف عائقا دون مخالطتهم .

وفى برلين التى زارها كريستوفر لأول مرة عام ١٩٢٩ قابل مؤلفنا مثله الأعلى بين الشواذ الألمان وهو شاب جذاب أزرق العينين أشقر الشعر ناعم الملمس اسمه برتهولد أو بوبى كما

اعتاد معارفه على تسميته . كان بوبى الذى ينحدر من عائلة تشيكية ملاكما قوى البدن يتمتع رغم مكره بقدر كبير من الرقة والعذوبة . وقد نظم أودين قصيدة عنه بعنوان "حبيب القلب" . حرص كريستوفر على مقابلة بوبى يوميا والخروج بصحبته للتنزه والذهاب إلى السينما أو مدينة الملاهى . ووجد فيه مؤلفنا ضالته المنشودة نظرا لأنه كان فى انجلترا بلاده يرزح تحت وطأة الأحساس بالذنب بسبب اضطراره لممارسة اللواط مع ذكور ينتمون إلى نفس جنسيته وينحدرون من نفس طبقته الاجتماعية العالية . وقد ساعده على التخلص من عقدة الذنب أن جون لايارد (الذى توثقت علاقته به فيما بعد) أقنعه بأن معصية الإنسان الحقيقية تكمن فى اخفاقه فى أن يعيش وفق نوازعه . وقبل أن يقفل كريستوفر راجعا الى لندن أهداه عشيقه بوبى سوارا ذهبيا رخيصا كان يلبسه ففرح به مؤلفنا فرحا عظيما ولم يخجل من أن يلبسه مزهوا به أمام أهله وبنى جلدته رغم أنه إمارة متعارف عليها آنذاك فى انجلترا تدل على الشذوذ الجنسى .

ثم عاد كريستوفر إلى لندن ولكنه سرعان ما ضاق ذرعا بالحياة الاخلاقية والاجتماعية المحترمة وتاقت روحه للرجوع إلى بوبى الذى لم يعرف له عنوانا فى برلين . وبدأ كريستوفر يتأهب للسفر بأن شرع فى تعليم نفسه أللغة الألمانية . ولحسن حظه أن أودين كان يعيش فى تلك الفترة مع شاب المانى مرح اسمه جيرهارد . فقد استعان به فى العثور على بوبى . وصدم أودين الذى كان يجاهر بشذوذه مشاعر السكان الألمان المحليين عندما شاهدوه فى المراعى يتصارع مع

عشيقه جيرهارد وهما عريانان كما ولدتهما أمهما . نصح أودين زميله كريستوفر بالالتجاء الى صديق له يعيش في برلين ويفشى كل مواخيرها وباراتها اسمه فرانسيس ترافيل بتر وهو عالم آثار من شواذ الجنس سبق اصابته بمرض الزهرى ولكن مرضه بعد العلاج أصبح غير معد ، الأمر الذى شجعه على الاستمرار في ممارسة الرذيلة . ودأبه فرانسيس في البحث عن بوبي في كل المواخير والبارات وبيوت الدعارة حتى استطاع بعد لأى أن يتتبع أخباره . وعرف فرانسيس من استقصائه الدءوب أن بوب هرب من ألمانيا الى هولندا حتى لا يقع في قبضة البوليس الذى كان يبحث عنه ، وأنه يزمع السفر إلى أمريكا الجنوبية . وطلب كريستوفر من أودين أن يرافقه إلى امستردام . للحاق ببوبي قبل سفره إلى هناك . فقصد الأديبان هذه المدينة حيث لم يجد كريستوفر أية صعوبة في العثور عليه فقد قابله أمام مبنى مكتب بريد أمستردام الرئيسي وبالفعل رحل بوبي عن هولندا رغم محاولة كريستوفر اثنائه عن ذلك . غير أن المقادير شاءت لهما الالتقاء في مناسبات عديدة . وبمرور الزمن برد لهيب العشق وتحول الى صداقة هادئة . ولكن هذا العشق على أية حال كان من جانب كريستوفر وحده فهو لم يمنع بوبي من الجرى وراء البنات وملاحقتهن . والجدير بالذكر أن كريستوفر تحمل إعراض عشيقه عنه لمصاحبة الجنس اللطيف عن طيب خاطر . وهي نفس المعاملة التي لقيها على يد عشيقه الألماني الآخر أوتو كما سوف نرى في الصفحات اللاحقة .

وبعد رحيل بوبي عن هولندا رجع كريستوفر إلى بريطانيا ليشتغل بالتدريس في قرية اسكتلندية صغيرة ونائية حيث

أتيحت له فرصة ممارسة الجنس السوى مع امرأة لأول مرة وآخر مرة فى حياته . وفى عام ١٩٣٠ عاد إلى ألمانيا للمرة الثالثة معتزما البقاء فيها . ولولا سيطرة النازية على مقاليد الأمور لما تردد فى أن يفعل هذا . وأدرك مؤلفنا بشكل قاطع فى تلك الفترة من حياته انه يفضل معاشرة الذكور على معاشرة النساء مبررا ذلك بقوله إنه يجب أصواتهم وروائحتهم وحركاتهم وفوق هذا كله نزوعهم إلى الرومانسية . إن الفتيات فى نظره جميلات ولكنهن يفتقرن إلى رومانسية الذكور . وعندما وطأت قدمه الأراضى الألمانية للمرة الثالثة وجد نفسه وحيدا بعد أن هاجر بوبى الى أمريكا الجنوبية ورجع صديقه أودين إلى لندن . وتذكر أنه لا يعرف أحداً فى برلين غير فرانسيس الذى سبق أن إلتجأ اليه للعثور على بوبى . فتوجه إلى مسكنه الذى استأجره من أخت مدير معهد الدكتور ماجنوس هيرشفيلد لدراسة شئون الجنس الشاذ . وظن فرانسيس أن الذى يدق جرس بيته هو أحد الغلمان ممن يعاشرهم كان قد غافله وسرق منه بعض ممتلكاته . فخرج للتو كالثور الهائج . ودون أن يتصفح وجه القادم صاح فى وجهه وطرده شر طردة . وأدرك كريستوفر أن هناك خطأ غير مقصود فلفت نظر صاحب البيت إلى ذلك . ولما أدرك فرانسيس خطأه بادر بالاعتذار عن فظاظته ودعاه إلى الدخول وتناول الغداء معه . وعلم كريستوفر منه أن هناك غرفة رخيصة خالية فى نفس المنزل الذى يسكنه فسارع إلى استئجارها . وقد رسم مؤلفنا صورة لفرانسيس فى شخصية أمبروز فى روايته "هناك فى زيارة" (١٩٦٢) .

كان الدكتور هرتشفلد عالما سيء السمعة فى كل أوربا الغربية ذاع صيته بسبب خبرته الواسعة بالشذوذ الجنسى على اختلاف أنواعه وانشائه عام ١٩١٩ معهدا لدراسة هذا الشذوذ وإباحته . واستعان هرتشفلد بعشيقه وسكرتيره كارل جيز فى إدارة هذا المعهد . وقد تعرض هرتشفلد أكثر من مرة للاعتداء بسبب دعوته الصريحة لإباحة الشذوذ الجنسى . وعندما اشتد ساعد النازية قامت الحكومة الألمانية بتجريده من الجنسية الألمانية ، الأمر الذى اضطره إلى الأستقرار فى فرنسا حتى وفاته فى مايو ١٩٣٥ برفقة عشيقه كارل جيز الذى انتحر عام ١٩٣٦ . وقد أصر موظف شيوعى بالمعهد اسمه أدوين هانسن على الاستمرار فى حراسة المعهد رغم ظروفه السيئة . وفى أحد الأيام أغار مائة طالب على المعهد وقاموا باقتحامه وتحطيم أثاثه وأبوابه وجميع محتوياته فضلا عن حرق كل الكتب والمراجع فى مكتبته سواء كانت تتصل بالجنس أو بغيره من فروع المعرفة . وكان كريستوفر حاضرا فى وقت اشعال الحريق فى الكتب فعبر غن تأففه من ذلك بصوت خفيض . وعندما كان المعهد قائما اصطحبه كل من فرانسيس وجيز لزيارة المتحف الملحق به وهو متحف نادر وفريد من نوعه يحتوى على أدوات التعذيب التى يستعذبها شواذ الجنس فضلا عن مجموعة كبيرة من اللوحات والرسوم الجنسية الفاضحة والصور الفوتوغرافية لمشاهير الجنس الشاذ فى العالم مثل صور أوسكار وايلد مع اللورد ألفريد دوجلاس والشاعر ويتمان مع بيتر دويل وادوارد كارنبتر مع جورج ميريل .

وفى حين كانت علاقة كريستوفر بأمه كاثلين متوترة كانت علاقته بعمه هنرى جيدة . واحقاقا للحق لم يكن من الممكن لمؤلفنا أن يعيش فى برلين وينصرف إلى لهوه الشاذ والكتابة فى مقاهيها لولا المساعدات المالية الشهرية التى تلقاها بصفة غير قلَّ منتظمة من عمه الذى ربطته بابن أخيه علاقة آية فى الغرابة قلا أن نجد لها نظيرا . فقد اشترط هذا العم على ابن أخيه أن يروى له كلما حضر إلى لندن تفاصيل مغامراته الشاذة . فكان كريستوفر كثيرا ما يبالغ فيها بغية تشويق عمه وإثارة اهتمامه . أما علاقة مؤلفنا بأمه كاثلين فهى أشد ما تكون سوءا فهو يحرض أخاه ريتشارد على الخروج عن طوعها ويشجعه على التمرد والامتناع عن مواصلة الدرس والتحصيل للالتحاق بالجامعة . كما أنه تعمد أن يبكيها ويؤذى مشاعرها بالاعتراف لها بمسلكه الجنسى الشاذ . واتخذ من أخيه كاتبا يملى عليه ما يؤلف وصديقا حينما يفضى إليه دون خجل بسريرته وشذوذ أفعاله .

والجدير بالذكر على أية حال أن كريستوفر فى فترة بقائه فى برلين احتفظ بيومياته التى سجل فيها كثيرا من التفاصيل الدقيقة عن حياته الجنسية . وساعدته هذه اليوميات فى تأليف روايتين من أشهر رواياته هما "مستر نوريس يغير القطارات" عام (١٩٣٥) و"وداعا يابرلين" عام (١٩٣٩) . ولكن آثر بعد تأليفهما أن يدمر هذه اليوميات خوفا من أن تقع فى أيدى البوليس أو أيدى أعدائه وشانئيه فيشهرون هذا السلاح فى وجهه . وكان أخلص أصدقائه على علم تام بما يفعل فمنهم من تواطأ معه مثل الشاعر أودين

ومنهم من تحاشى الإشارة إلى هذا الموضوع الحساس مثل أبوارد ، ومنهم من قبل أفعاله برحابة صدر دون أن يمنعه هذا من الخوض من آن لآخر فى القيل والقال مثل ستيفن سبندر ، الأمر الذى أثار غضب مؤلفنا عليه فى إحدى مراحل حياتهما . والجدير بالذكر أن كريستوفر تعاطف مع الشيوعية على نحو رومانسى بسبب تأثير صديقه أبوارد السياسى فيه فقد كان أبوارد شيوعيا يؤمن بالماركسية . وقد زاد هذا من وعى كريستوفر السياسى فى فترة الثلاثينات التى شاهدت بذوغ نجم هتلر وصعوده إلى سدة الحكم . على عكس ما نلاحظ من فتور اتسم به اهتمام أودين بالسياسة .

وأثناء زيارة كريستوفر الثالثة لبرلين فى شهر مايو عام ١٩٣٠ وقع فى غرام غلام غض الاهاب فى نحو السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره أطلق عليه اسم أوتو نوفاك فى روايته "وداعا يابرلين" . وشاهد كل من ستيفن سبندر وأبوارد هذا العشق الجديد عن كثب أثناء زيارتهما لألمانيا . واقترح أوتو على كريستوفر أن يعيش تحت سقف واحد مع عائلته الفقيرة التى تسكن احدى العشش فلم يجد غضاضة فى الاستجابة إليه وفى أن يجرب هذا النوع من الحياة . ورحبت أم أوتو بضيفها الانجليزى ترحيبا شديدا لأنه كان يسهم فى مصروفات البيت رغم أنها كانت تدرك طبيعة العلاقات الشاذة بينه وبين ابنها ، وخاصة لأن ضيق المكان ساعد على هتك المستور . غير أن لوثار أخا أوتو لم يخف تأففه عنه واشمئزازه من انحلاله الخلقى . وكما أسلفنا كان أوتو ـ شأنه فى ذلك شأن بوبى ـ ينصرف عن مؤلفنا فى كثير من الأحيان لملاحقة الفتيات . ومن الثابت أن ستيفن سبندر

كان لا يرتاح إلى وجود أوتو معه فى نفس المكان . ولكن هذا لم يؤثر مطلقا على علاقة كريستوفر الجيدة بسبندر .

ولم يجد مؤلفنا أثناء اقامته فى ألمانيا أية غضاضة فى تلقى بعض المعونات المالية من صديقيه ستيفن سبندر وادوارد أبوارد . وهى معونات عجز فى كثير من الحالات عن سدادها . وعمل كريستوفر على زيادة دخله باعطاء دروس خاصة فى اللغة الانجليزية للراغبين من الألمان فضلا عن أن سبندر أغدق عليه الهدايا والكتب لشعوره بحاجة صديقه إلى المال . ولم يعترض أبوارد وسبندر مطلقا على أسلوبه الرخيص فى انفاق ما أعطياه من مال على اللهو والغلمان . ورغم شدة تعلق مؤلفنا بأوتو فإن هذا لم يمنعه من انتهاز فرصة غيابه عن البيت لمعاشرة غيره من الغلمان . وكان أخشى ما يخشاه أن يعود أوتو فجأة ويفتح عليه الباب ويضبطه فى ذات الفعل . ثم انتقل كريستوفر ليسكن فى بيت تديره السيدة ميتاثورو التى يسميها السيدة لينا سكرويدار فى كل من روايتيه "المستر نوريس يغير القطارات" و"وداعا يابرلين" . ورغم احترامها لكريستوفر فإنها لم تخف احتقارها الشديد لأوتو الذى اعتبرته طفيليا يعيش عالة على نزيلها . ورغم معرفتها بطبيعة العلاقات بينهما . وأنها كانت دائمة الشكوى من تفشى الانحلال الخلقى فى برلين فإنها لم تثر أية اعتراضات عليها . ومما يستحق التنويه أن مؤلفنا استقى شخصية نوريس ذلك النصاب الشديد الجاذبية من شخصية واقعية لرجل اسمه جيرالد هاملتون قابله عام ١٩٣٠ - ١٩٣١ . كان يعمل مندوب مبيعات متجول . كان هاملتون - الذى لم يخف علاقته الشاذة بعشيق شيوعى ينحدر من أصل

بروليتارى - أحد المدافعين عن الأجهاض وإصلاح السجون والغاء عقوبة الاعدام . وسوف نعود إلى الاشارة إليه فيما بعد . وفي تلك الفترة من حياته صادف مؤلفنا حسن الحظ فقد أبلغته دار النشر هوجارت بقبول نشر روايته "الذكرى" عام (١٩٣٢) الأمر الذى رفع روحه المعنوية التى تعرضت أحيانا لنوبات عنيفة من الكآبة والقتامة .

وتدل علاقة مؤلفنا بالممثلة "جين روس" التى قامت بأداء دور سالى باولز في رواية "وداعا يابرلين" التى قدمت على خشبة المسرح الأمريكي بعنوان آخر هو "عيني تشبه عدسة الكاميرا" على موقفه البارد من أجساد النساء . فقد نشأت بينهما علاقة حميمة للغاية دون أن يكون للجنس أى أثر فيها . فعندما اضطرتهما بعض الظروف الطارئة إلى اقتسام الفراش نام بجوارها كما لو كانت مجرد أخت له . ولم يؤثر فى علاقتهما الحميمة علمها بصلته بأوتو وغيره من الغلمان . ورغم أن الأيام فرقت بينهما فقد ظلا يتقابلان فى مودة من وقت إلى آخر حتى توفيت عام ١٩٧٣ .

ويتضح لنا مما كتبته أمه كاثلين فى يومياتها إنها كانت على وعي كامل بعلاقة ابنها الشاذة بأوتو . وهناك صورة نادرة التقطها سبندر تضم فرسان الأدب الثلاثة فى الثلاثينات وهم كريستوفر إيشروود ودابليو يتش أودين وستيفن سبندر ومعهم اليافع أوتو . والجدير بالذكر أن علاقة كريستوفر اعتراها شيء من الفتور بسبب أوبته المتأخرة إلى البيت وكثرة تردده على الكازينوهات وانشغاله المستمر بملاحقة الفتيات . وفيما

بعد أصبح أوتو بطلا فى الرياضة ولكن البطولات التى أحرزها كانت قليلة للغاية .

ثم اتجه كريستوفر إلى غلام آخر من أصل ألمانى ـ أمريكى كاد مؤلفنا أن يفقد البصر فى احدى عينيه أثناء اللعب معه . فقد خدشها هذا الغلام بعصا كادت أن تدخل فيها . وبعد أن تم شفاء كريستوفر من هذا الخدش انصرف إلى قراءة أعمال فلاديمير لينين بحماس واضح . ورغم عدم انغماس مؤلفنا فى السياسة وبعده عن الالتزام بالايدولوجية الشيوعية فإنه أظهر جنوحا عاما نحو اليسار .

واقترح عالم الآثار فرانسيس (الذى ساعد مؤلفنا فى العثور على بوبى وعلى سكن رخيص فى برلين) على كريستوفر أن يعيش معه فى قلب الريف الألمانى بعيدا عن حياة برلين الصاخبة . وراقت هذه الفكرة لكريستوفر لجملة أسباب منها أن علاقته بأوتو بدأ يعتورها الفتور وأن نفقات المعيشة مع شخص آخر سوف تكون أقل بكثير من نفقات حياته المستقلة فى برلين . فضلا عن انه توقع أن تساعده رتابة الحياة فى الريف على الانتهاء من كتاب بدأ فى تأليفه بعنوان "أسود وظلال" واتفق فرانسيس مع أودين هانسن الذى يشتغل فى معهد الدكتور هرتشفلد الجنسى على العمل كطباخ وأوكل إليه مهمة اختيار غلام يساعده فى ترتيب بيته الريفى . فاختار أدوين لهذا الغرض صبياً مليحا اسمه هاينز ما أن وقعت أبصار كريستوفر عليه حتى انبهر به وقرر على الفور أن يعيش مع فرانسيس فى بلدة موهرين الريفية . وفى

باديء الأمر تكفل فرانسيس بدفع راتب هاينز ولكنه ما لبث أن غير رأيه عندما لاحظ أن كريستوفر يبيت مع الصبى فى فراش واحد فطالبه بأن يدفع نصف أجر الغلام . وقبل كريستوفر هذا الوضع فقد أحب فى الغلام طيبته وبراءته ووجهه البشوش . كان هاينز شابا نحيفا فى نحو السابعة عشرة من عمره كما كان جذابا على الرغم من شفتيه البارزتين وأنفه المجدوع ومنظره الشبيه بمنظر الزنوج . ويبدو أن فرانسيس كان يحدوه الأمل أن تكون له علاقة مثلية بكريستوفر عندما عرض عليه أن يقاسمه الحياة فى الريف . ولعله اعتبر هاينز مزاحما له فبدأ يعامله بغلظة وجفاء . كان من عادة فرانسيس أن يسافر مع طباخه إروين إلى برلين لاحضار بعض الغلمان الذين يلتقطانهما من البارات . فانتقم كريستوفر لهاينز بأن تعمد اساءة معاملة غلمان صديقه . ولكن هذا على أية حال لم يعكر صفو العلاقة بينهما . وبدأت رائحة الفضيحة تفوح وتزكم أنوف أهل القرية فقام بعضهم بابلاغ البوليس الأمر الذى أرغم رفاق السوء على مغادرتها .

ثم دعا فرانسيس كريستوفر لقضاء بعض الوقت فى منزل شرع فى إقامته على احدى الجزر اليونانية الشديدة الصغر والتى استأجرها من سكان أقرب قرية لمدة عشرة أعوام نظير بضعة جنيهات . وهى جزيرة تدعى سانت نيكولاس . كان فرانسيس يأمل فى اكتشاف ما تحويه من آثار . وضمن ايشروود روايته "هناك فى زيارة" وصفا للحياة على هذه الجزيرة نقلها بالحرف الواحد من يومياته . وبات واضحا أن فرانسيس ضاق بوجود هاينز ومن ثم رفض استضافته وطالبه بدفع نفقات اقامته . والجدير بالذكر أن فرانسيس تمكن من

تهريب بعض الأحجار التى تحمل نقوشا فرعونية والتى تساقطت من مقبرة سيتى الأول بالأقصر . أراد فرانسيس أن يزين بهذه الأحجار واجهة المنزل حتى يتباهى بقدمه وبأن تاريخه يرجع إلى ثلاثة آلاف عام . ولما كان المنزل فى طور البناء والتشييد أصبح لزاما على الجميع أن يعيشوا فى خيم يمكن لأى محب للاستطلاع أن يرى ما يحدث بداخلها ، الأمر الذى سبب حرجا لمؤلفنا وعشيقه . فلا غرو إذا رأيناهما أحيانا يتركان الجزيرة ويسافران إلى أثينا للفرجة على الأكروبول والانفراد فى حجرة مريحة بأحد الفنادق بمنأى عن العيون المتلصصة لعمال البناء . وظهرت آنذاك على هاينز مظاهر الضيق والبرم بكل ما يحيط به ، وعبر عن رغبته فى مغادرة الجزيرة وترك كريستوفر الذى أجهش بالبكاء وأستعطفه حتى لا يهجره ، فأخذ هاينز يساومه فهو تارة يطالبه بالسفر إلى باريس وتارة أخرى يشترط عليه شراء قارب له . ولما رفض كريستوفر الاستجابة إليه بدأ يهدده بالعودة إلى برلين . وعندئذ لم يعبأ كريستوفر بتهديده وقرر فى قرارة نفسه الاستغناء عنه فى الوقت المناسب . وطلب هاينز منه أن يدفع ستة آلاف دراخمة إذا أراد منه البقاء . فرفض أديبنا هذا الابتزاز السافر وبالفعل توجه كريستوفر إلى مكتب سفريات ليحجز لعشيقه مكانا للعودة إلى برلين ولكنه وجد كل الأماكن مشغولة . فقام باصطحاب هاينز إلى باريس عن طريق ميناء مارسيليا توطئة للانفصال عنه . ولكن المياه ما لبثت أن عادت إلى مجاريها فعرض عليه كريستوفر أن يسافر معه إلى انجلترا للاقامة فيها . فوافق هاينز على اقتراحه . ودخل هاينز الأراضى البريطانية بتأشيرة دخول سياحية قصيرة الأمد

حيث أخذه كريستوفر ليعيشا مع أمه كاثلين . وكذب كريستوفر على أمه (التى لم تخف عليها علاقته بهاينز) عندما قال لها إنه قابل ضيفه عرضا فى باريس .. وكان من السهل عليها أن تكتشف كذبه فقد اتضح لها من حديث ابنها معها الهادف إلى الاساءة إليها أنه سبق أن التقى بهاينز فى ألمانيا واليونان . وساء الأم أن تتدهور أخلاق ابنها إلى حد الكذب الفاضح والرخيص . وأدركت كاثلين أن الغلام ينتمى إلى الطبقة العاملة فتعاملت معه بنوع من الاستعلاء الطبقى المغلف . ولكن أصدقاء كريستوفر (وعلى الأخص بياتريكس أخت جون ليمان وهمفرى أخو ستيفن سبندر) بذلوا قصارى جهدهم للترحيب بهاينز . ولكن تأشيرة دخول هذا الغلام ما لبثت أن انتهت ، الأمر الذى جعل لزاما عليه أن يغادر الأراضى البريطانية ويعود إلى بلده ألمانيا .

فى تلك الفترة اتصلت الممثلة جين روس تليفونيا بكريستوفر لتبلغه أن مخرجا نمساويا موهوبا هو بزتولد فييرتل يزمع اخراج أحد الأفلام وانه عهد إلى إحدى الكاتبات بكتابة حوار الفيلم ولكن مشاغلها حالت دون ذلك . وعرضت جين روس عليه أن يرسل إلى المخرج نسخة من مؤلفاته حتى يتعرف على قدراته . ورفض مؤلفنا هذا الاقتراح بحجة انه سبق أن أرسل كتبا كثيرة إلى عدد من الناس دون جدوى . فعرضت عليه جين روس أن يدفع نصف ثمن الكتاب وتدفع هى نصفه الآخر . فأصر على الرفض . عندئذ اقترحت عليه أن تدفع كل ثمن الكتاب نظير حصولها على نصف أجره فى الاسبوع الأول فى حالة اسناد العمل إليه . وقبل كريستوفر هذا العرض وأرسل إلى مخرج الفيلم نسخة من كتاب

"الذكرى" فوافق هذا المخرج على اسناد العمل إليه . واستطاع كريستوفر أن يؤلف حوار الفيلم بسهولة ويسر وأن يجرى هذا الحوار على نحو واقعى .

ولكن غياب هاينز عنه آنذاك عكر عليه صفو حياته فتفتق ذهنه عن حيلة جرت فى أذيالها عواقب وخيمة لتمكين الغلام من دخول بريطانيا والبقاء فيها لفترات طويلة . فكتب إلى هاينز يطلب منه الحضور إلى انجلترا ولقنه أن يخبر رجال الجوازات والهجرة فى بريطانيا أن أم كريستوفر هى التى دعته للحضور للعيش معها . وأرسل إليه كريستوفر المال اللازم وطلب منه أن يقول لرجال الجوازات والهجرة أنه ماله الخاص . وفى ٥ يناير عام ١٩٣٤ اصطحب مؤلفنا صديقه الشاعر أودين إلى ميناء هاريتش فى انتظار وصول السفينة التى تقل هاينز . ونزل جميع الركاب دون أن يظهر لهاينز أى أثر . وبحث الأديبان عنه فى كل مكان فوجداه فى حالة بؤس وأرتباك يرثى لهما أمام رجال الجوازات والهجرة البريطانيين الذين فحصوا جواز سفره الذى أفادت بياناته بأنه خادم . وتشككوا فى أمره فقاموا بتفتيشه فعثروا لسوء حظه على الخطاب الذى سبق لكريستوفر أن أرسله إليه . وعبثا حاول كريستوفر وأودين أن يتدخلا فى الأمر فقد أصر المسئولون على إعادة الغلام على أول سفينة متجهة إلى ألمانيا . فرجع مؤلفنا إلى لندن برفقة صديقه أودين محزونا كاسف البال . وفى تلك الفترة توفر كريستوفر لمدة أسبوعين على مراجعة النص السينمائى للفيلم المزمع اخراجه وهو بعنوان "الصديق الصغير" . ثم بادر بتسليمه حتى يتمكن من السفر إلى برلين للقاء هاينز . وبعد عودته الى برلين اتضح لمؤلفنا أن هو نفسه

أصبح موضع شك البوليس الألماني . الأمر الذى جعله يسارع بالرحيل عن ألمانيا وخاصة بعد أن رأى بعينيه أن النازيين قد أحكموا قبضتهم على مقاليد الأمور .

واصطحب كريستوفر الغلام هاينز إلى امستردام بهولندا حيث عاشا معا لمدة عشرة أيام قفل بعدها مؤلفنا راجعا الى انجلترا ليحضر تصوير الفيلم المشار إليه . ثم عاد إلى امستردام ليرافق عشيقه فى رحلة إلى جزر الكنارى . ثم تعددت أسفارهما إلى بعض الجزر الأخرى . وأخيرا استقر رأى مؤلفنا على أن يعيش بعض الوقت فى العاصمة الدانماركية كوبنهاجن حيث وجد فيها بعض أصدقاء ومعارف ستيفن سبندر الذين بذلوا قصارى جهدهم للعمل على راحته . غير أن شعورا بالاكتئاب انتابه ولم يزايله إلا بعد أن علم بقرب وصول صديقه أودين إلى الدانيمارك . وشهدت تلك الفترة تعاونا بين ايشروود وأودين فى تأليف بعض الأعمال الأدبية أبرزها مسرحية "كلب تحت الماء" التى لقيت نجاحا عند عرضها على خشبة المسرح فى لندن عام ١٩٣٦ . ولهذه المسرحية عنوان آخر هو "أين فرانسيس" ؟ وأغفلت دار النشر ذكر اسم ايشروود باعتبار أن دوره فى تأليف المسرحية ثانوى للغاية . وتعتبر هذه المسرحية أنجح المسرحيات الثلاث التى اشترك كل من أودين وايشروود فى تأليفها . واتضح لمؤلفنا أن السلطات الدانيماركية سوف تطالبه بدفع ضرائب عن التأليف . فضلا عن أنها لن تسمح له بالاستمرار فى البقاء على أراضيها لأنها اعتبرته كاتبا سياسيا . وانزعج مؤلفنا انزعاجا شديدا عندما علم أن عشيقه

هاينز مطلوب لأداء الخدمة العسكرية فى ألمانيا النازية وأن جواز سفره الألمانى على وشك الانتهاء فى عام ١٩٣٨ . ولم يجد كريستوفر حلا لهذه المشكلة غير أن يتجنس هاينز بأية جنسية أخرى فالتجأ إلى النصاب جيرالد هاملتون كى يساعد عشيقه فى الحصول على جنسية جديدة . ولهذا شد رحاله ومعه هاينز إلى بروكسل فى بلجيكا لمقابلة هاملتون الذى وعده بذلك ولكنه أخلف وعده . وفى تلك الفترة توجه كريستوفر إلى انجلترا حيث مكث فيها زمنا قصيرا فلما عاد إلى بروكسل اكتشف أن السلطات البلجيكية لا ترغب فى تجديد إقامة عشيقه بسبب جنسيته الألمانية . فخطر له أن يذهب إلى هولندا ويحصل على تصريح الاقامة عن طريق القنصلية البلچيكية الموجودة هناك . وسافر كريستوفر وعشيقه لهذا الغرض إلى أمستردام . وفى تلك الأثناء أصبح كريستوفر بفضل ايكرلى كاتبا منتظما فى مجلة الليسنر المعروفة تظهر مقالاته بجانب كتابات مشاهير الكتّاب مثل ا . م . فورستر وأدوين موير . وتناولت احدى مقالاته المنشورة فى ٢٦ يونية عام ١٩٣٥ مسرحية ت . س . إليوت "جريمة قتل فى الكاتدرائية" ، كما تناولت احدى مقالاته الأخرى المنشورة فى ١١ أغسطس عام ١٩٣٧ كتاب الرحلات الذى ألفه كل من أودين وماكنيس بعنوان "خطابات من ايسلندا" .

وفى فترة إقامة كريستوفر فى هولندا حضرت إليها إيريكا ابنة الكاتب الألماني الكبير توماس مان هربا من الطغيان النازى . وبعد أن تعرفت إيريكا به فاجأته بأن عرضت عليه الزواج منه حتى تستطيع الحصول على جواز سفر بريطانى يمكنها من الاقامة بانجلترا . ورفض كريستوفر أن يستجيب

لهذا الطلب الغريب لان اقدامه على مثل هذا الزواج قمين بأن يزيد صلته بعشيقه هاينز تعقيدا . وطلب من إيريكا أن تعرض فكرتها على صديقه أودين فلم يمانع في تلبية رغبتها .

ثم زار جون ليمان أمستردام حيث تناقش مع ايشروود في موضوع إصدار مجلة أدبية وفكرية تعكس أحوال الأدب المعاصر في كل أرجاء القارة الأوربية وهو مشروع قديم سبق لجون ليمان أن اقترحه عليه في برلين . ولكن ظروف اكتساح المد النازى للساحة السياسية الألمانية كان سببا في تأجيل تنفيذه وأصدر جون ليمان في مشروعه الثقافى الهام سلسلة من الكتيبات الأدبية تحمل عنوان "كتابات جديدة" . ويجدر بالذكر أن هذه السلسلة لعبت دورا هاما في تجديد شباب الأدب الانجليزى في فترة الثلاثينات والأربعينات . وفي امستردام استقبل مؤلفنا أيضا بريان هوارد الذى زاره برفقة عشيقه الغلام تونى إلى جانب الروائى الكبير ا . م . فورستر الذى جاءه برفقة عشيقه رجل البوليس بوب بكنجهام . وقبل أن نواصل الحديث عن قصة كريستوفر مع عشيقه الألمانى هاينز يجدر بنا أن نلقى الضوء على علاقته بالروائى الكبير أ . م . فورستر وظروف توطدها .

كان أ . م . فورستر في الثالثة والخمسين عندما تعرف به كريستوفر ايشروود عن طريق الأديب وليم بلومر . وكان أديبنا يحمل الاعجاب العظيم بفورستر ويعتبره مثله الأعلى في عالم الأدب بل فارس الكلمة في العصر الحديث . وأسعده أيما سعادة أن يعبر فورستر عن اعجابه بروايته "الذكرى" وعزمه على الكتابة عنها . واعتبر هذا بمثابة نيشان على صدره يفوق

في قيمته الحصول على جائزة نوبل للآداب . ونشأت بين الرجلين صداقة عظيمة وتبادلا الزيارات . وشعر كريستوفر شعورا غامرا بالسعادة والفخر عندما طلب إليه فورستر ابداء الرأى في مخطوط روايته "موريس" التى تناولناها في الفصل الأول وقلنا إن مؤلفها امتنع عن نشرها حتى وفاته عام ١٩٧٠ رغم أنه كتبها فى وقت باكر عام ١٩١٣ ـ ١٩١٤ . وفى هذه الرواية يعترف فورستر دون مواربة بشذوذه الجنسى . وتضاحك كريستوفر لفرط تحفظ فورستر فى معالجة هذا الموضوع الشائك فقد دأب فى روايته على استخدام كلمة (يشاركه) بدلا من كلمة يضاجعه . ورغم تحفظ كريستوفر على قيمة هذه الرواية من الناحية الفنية فإنه عبر عن تحمسه الشديد لها واصفا إياها بأنها عمل نبيل . وتأثر فورستر تأثرا بالغا بتحمس كريستوفر لروايته فتقدم منه ليقبله فى رفق على احدى وجنتيه . وقبل وفاته أوصى فورستر بأن تذهب عائداته من رواية "موريس" إلى كريستوفر . غير أن مؤلفنا آثر تخصيصها لمساعدة الكتّاب البريطانيين الشبان على السفر إلى الولايات المتحدة التى خطر له أن يزورها آنذاك .

نعود إلى حكاية هاينز فنقول إن كريستوفر ذهب إلى روتردام حيث سعى لدى القنصلية البلچيكية هناك للحصول على إذن بإقامة هاينز فى بلچيكا . ولكن القنصلية رفضت طلبه . فاقترح عليه صديق أن يسافر إلى لوكسمبورج التى كانت تسمح بدخول الزوار إليها بدون أية تأشيرات دخول . وبالفعل أصدرت القنصلية البلجيكية فى لوكسمبورج على الفور إذنا بإقامته وإقامة هاينز فى الأراضى البلجيكية لمدة ثلاثين يوما .

وبعد بلجيكا اتفق كريستوفر مع ستيفن سبندر وصديق آخر على الاقامة بعض الوقت فى لشبونة للاستمتاع بدفء البرتغال ومعهم هاينز بطبيعة الحال . وهناك استأجر الأربعة فيللا مستقلة يقوم فيها طباخ وخادمة على خدمتهم مستفيدين فى ذلك بانخفاض تكاليف المعيشة فى البرتغال . واستطاع كريستوفر بأدبه الجم ورقة حاشيته أن يجتذب إليه قلوب سائر سيدات الجالية الانجليزية فى لشبونة ، الأمر الذى جعلهن يغضضن الطرف عن علاقته بهاينز . وزاد من استحسانهن له قدرته الفائقة على اضحاكهن وادخال التسلية فى نفوسهن .

وبعد اشتراك أودين وايشروود فى تأليف مسرحية "الكلب تحت الجلد" قام هذان الأديبان بالاشتراك فى تأليف مسرحية أخرى تدور حول تسلق الجبال بعنوان "الصعود الى قمة ف ٦" عام (١٩٣٦) أسهم فيها مؤلفنا بنصيب أوفر من اسهامه السابق فى "الكلب تحت الجلد" . يقول مؤلفنا فى هذا الشأن أن مسرحية "الصعود الى قمة ف ٦" تعالج موضوع الدوافع الإنسانية وكيف أن هذه الدوافع قمينة بأن تجعل من أى عمل شيئا بطوليا أو خسيسا وفقا لطبيعة الدوافع الداعية إليه . ويضرب إيشروود المثل على ذلك برحلات ومغامرات ت . أ . لورانس فى صحراء الجزيرة العربية التى كان حبه لها هو الدافع وراء التجوال فيها . ولكن هذا الحب الخالص ما لبث أن تعرض للاستغلال السياسى .

ومر ايشروود بمحنة عندما تجددت مشاكل عشيقه هاينز بصورة حادة واستدعته الحكومة الألمانية للتجنيد . واستشار ايشروود محاميا بشأن امكانية حصول هاينز على الجنسية

البرتغالية . فأشار عليه المحامى باستحالة الحصول عليها . ولهذا بدأ مؤلفنا يمارس الضغط على والدته كاثلين كى تساعد هاينز بأموالها فى تغيير جنسيته الألمانية . وطلب منها أحد المحامين فى بروكسل أن تدفع له أتعابا قدرها ألف جنيه وأفهمها أنه ليس مغسلا وضامن جنة . وعندما اصطدمت الأم بهذه العقبات الكأداء طلبت من ابنها أن يسافر الى بلچيكا ليكون قريبا من المحامين وموقع الأحداث . وهناك عرفه صديقه جيرالد هاملتون بموظف يعمل بالمفوضية المكسيكية فى بروكسل أعطاه هاملتون مبلغا كبيرا من المال نظير مساعدة هاينز فى الحصول على الجنسية المكسيكية .

وعندما اندلعت الحرب الأهلية الأسبانية عام ١٩٣٦ بادر أصدقاء ايشروود بالتطوع فيها دفاعا عن الديمقراطية ضد فاشية الجنرال فرانكو . فتطوع الشاعر أودين للخدمة كسائق سيارة اسعاف كما سبق أن أوضحنا . وسافر ستيفن سبندر عام ١٩٣٧ إلى الجبهة الأسبانية كمراسل لصحيفة الديلى وركر الشيوعية . ولولا قلق ايشروود على مصير عشيقه هاينز وحرصه على تأمين مستقبله لحذا حذوهما . ومرت الأيام دون أن ترد إليه أية أخبار تبشر بالخير عن قرب تجنس هاينز بالجنسية المكسيكية فاقترحت إحدى الصديقات أن يتدرب هاينز على حرفة . ولما كانت تعرف صانعا للأدوات الفضية فى باريس فقد عرضت عليه تدريب هاينز على هذه الصنعة فقبل . وسافر الغلام إلى باريس لهذا الغرض . ثم ذهب ايشروود لقضاء بعض الوقت فى لندن . وهناك تلقى مكالمة هاتفية من صديقه الشاعر أودين الذى تصادف وجوده فى

باريس آنذاك تخبره بأن غلامه يواجه بعض المشاكل نتيجة فقده بطاقة تحقيق شخصية أثناء تعاركه فى أحد شوارع باريس . وجاء البوليس الفرنسى ليلقى القبض على هاينز ، ووجهت إليه تهمتان أولاهما احتراف الدعارة والأخرى الاعتداء على امرأة صماء بكماء تعمل فى فندق . وطلب منه البوليس الفرنسى مغادرة البلاد بمجرد انتهاء التصريح له بالإقامة . وتطوع أحد الأصدقاء بمرافقة هاينز والعودة به إلى لوكسمبورج التى حضر كريستوفر إليها من بلجيكا لمقابلة عشيقه الطريد . ولكن البوليس فى لوكسمبورج لم يمهل هاينز طويلا فقد جاء إليه ليبلغه بأمر طرده . واسقط فى يد ايشروود واستبدت به الحيرة فاتصل هاتفيا بمحاميه الذى أشار عليه بعودة هاينز إلى ألمانيا والانتظار هناك لحين حصوله على تأشيرة دخول قصيرة الأمد إلى بلچيكا . ولكن هذه النصيحة جرت المشاكل فى أعقابها . فقد قام الجستابو بالقاء القبض عليه بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية . واستدعى ايشروود محاميا ألمانيا إلى بروكسل وعهد إليه بمهمة الدفاع عن هاينز عند تقديمه إلى المحاكمة . وحزن مؤلفنا على فراق عشيقه حزنا عظيما وغمره احساس جارف بأنه لن يراه مرة أخرى فذرف عليه الدموع . واعتقد أن صديقه جيرالد هاملتون قد غدر به أو ضحك عليه فحز ذلك فى نفسه ، واعتبره مسئولا عما لحق بعشيقه من أذى . ولم يخفف من كرب ايشروود فى تلك الفترة سوى انصرافه الى كتابة روايته "أسود وظلال" . وجاءت الأنباء من ألمانيا تفيد بصدور حكم على هاينز بالسجن لمدة ستة شهور ثم بالخدمة العامة الشاقة لصالح الدولة لمدة عام يعقبها التحاقه لمدة عامين بالجيش الألمانى . ويبدو أن

هذا الحكم كان مخففا بالمقارنة بالأحكام القاسية التى أصدرها النظام النازى ضد الممارسين للشذوذ الجنسى . وبانتهاء علاقة ايشروود بهاينز هذه النهاية غير السعيدة بدت أواصر الصداقة بين مؤلفنا والشاعر أودين تتحول إلى عشق وممارسة للمثلية لم يقيض لها أن تستمر طويلا .

الشرق الأقصى والصين :

فى ١٩ يناير عام ١٩٣٨ سافر الأديبان ايشروود وأودين الى الشرق الأقصى (حيث زارا الصين) على ظهر سفينة ركاب فرنسية اسمها أراميس متجهة إلى ميناء كوبى فى اليابان . ووصلت الباخرة إلى ميناء بورسعيد فى صبيحة يوم ٢٥ يناير فوجدا أن صديقهما القديم عالم الآثار فرانسيس قد حضر من القاهرة لرؤيتهما . ونصحهما فرانسيس بعدم اضاعة وقتهما فى مدينة مملة مثل بورسعيد وبالسفر إلى القاهرة للفرجة على أهراماتها ثم اللحاق بالباخرة فى صبيحة اليوم التالى فى بور توفيق . وبالأسف لم ترق الأهرامات فى عيون ايشروود وأودين اللذين اعتبراها مجرد كومة من الحجارة فى محجر . ولكنهما انبهرا بأبى الهول . وذكر لهما أحد ركاب الباخرة ان المصريين هم أول من نبهوا الى تفوق أمريكا على سائر بلاد العالم بدليل أنهم شيدوا أباالهول ليتجه ببصره غربا نحو أمريكا . وتأثر أودين بهذا الاعتقاد فألف قصيدة جاء فيها أن أباالهول يتجه ببصره صوب الغرب . ولكن الشكوك لم تلبث أن راودته فاتصل بأحد المصريين العاملين بالسفارة المصرية فى لندن ليستفسر منه عن

الاتجاه الصحيح . وصحح هذا المصرى معلوماته الأمر الذى جعله يغير قصيدته فيقول إن "أباالهول يعطى ردفه الكبير إلى امريكا بصوتها الذى يصك الآذان" . وفى المساء جلس الأديبان مع فرانسيس وبعض أساتذة الجامعة المصرية من الاجانب ليتحدثوا ويتسامروا . فتكاثر حولهم الباعة المتجولون وسببوا لهم الضيق . ومن بورسعيد اشترى الأديبان بعض الصور الجنسية الفاضحة ولكنهما قررا التخلص منها حتى لا تقع فى أيدى سلطات هونج كونج المحافظة . ثم وصلا إلى الصين التى كانا يجهلان لغتها وتاريخها وتفاصيل الحرب والعداوة التى احتدمت بينها وبين اليابان الأمر الذى اضطرهما الى الاعتماد على مترجم .

لكن هون عليهما ذلك الاستقبال الدافىء الذى لقياه على المستوى الرسمى فقد قابلهما على رصيف الميناء مندوب خاص أوفدته القنصلية البريطانية . وفى رحلتهما لم يجد ما يسريان به عن نفسيهما غير قراءة بعض روايات أنتونى ترولوب ووالتر سكوت وغناء بعض الأوبرات والدخول فى مناقشات حامية الوطيس حول الدين . وفى ثنايا النقاش المحتدم بينهما صاح أودين فى وجه كريستوفر قائلا : "ياعزيزى لن أندهش اذا رأيتك تعود إلى حظيرة الدين فى يوم من الأيام" . وهذه نبوءة باكرة لارتداد كريستوفر ايشروود اللاحق عن الكفر الى الدين . وبسبب الحرب الدائرة رحاها آنذاك بين الصين واليابان لم يكن بوسعهما الوصول الى شنغهاى الواقعة تحت الاحتلال اليابانى دون الاستعانة بصديق يعرف طرق الصين ومسالكها الآمنة . وفى شنغهاى لم يتعرض الأديبان لأى أذى بسبب احترام اليابانيين

للجاليات الأجنبية هناك . وفى تلك المدينة وجد الأديبان ما يبتغيان من متعة وراحة وزاد من متعتهما انتشار الدعارة بين الذكور هناك . ورغم انشغالهما بدراسة ظروف العمالة وأحوال العاملين فى هذه المدينة فقد وجدا لديهما فسحة من الوقت لزيارة حمامات المدينة ومقابلة نفر من شبابها الغض النضير . ولأن الفترة التى قضاها ايشروود وأودين سويا فى الصين كانت أطول فترة قيض لهما أن يعيشاها معا فقد ظهرت بعض الخلافات الجذرية فى طبعهما . فقد تضايق أودين من نزوع صديقه إلى الديكتاتورية واستبداده بالرأى وأيضا من نوبات الكآبة التي تعتريه من وقت لآخر فى حين تضايق ايشروود من تحجر أودين وجموده الفكرى . ولكن هذه الخلافات على أية حال كانت أقل من أن تسبب شرخا فى جدار صداقتهما التى استمرت حتى بعد أن تبدد العشق المتبادل بينهما .

وبعد الصين فكر الأديبان الصديقان فى زيارة أمريكا فى طريق عودتهما إلى أوربا . ولكن الموظف فى القنصلية الأمريكية فى شنغهاى كان معتل المزاج بسبب إلحاح مجموعة من الروس البيض الذين أصروا على الهجرة الى الولايات المتحدة رغم عدم موافقة السلطات الأمريكية على ذلك . وشاء حظ ايشروود وأودين العاثر أن يتقدما بطلب تأشيرة دخول أمريكا فى نفس هذا الوقت . فالتفت إليهما موظف القنصلية غاضبا وقال لهما إنه لن يمنحهما التأشيرة المطلوبة إلا إذا أثبتا له أن زيارتهما لأمريكا ضرورية . غير أن رفض هذا الموظف سرعان ما تحول إلى ابتسامة عذبة

عندما ذكرا أمامه أنهما على صلة بالسفير البريطانى . والجدير بالذكر أن هذا السفير كان واحدا من المعجبين بكتابات ايشروود .

وبعد رحلة منهكة وصل الأديبان إلى مدينة نيويورك كما سبق أن ذكرنا حيث استقبلهما صديقهما جورج دافيز الذى أدخل السرور على قلبيهما عندما أعطاهما لفافة من الدولارات هى حصيلة مجموعة من المقالات كانا قد كتباها عن أسفارهما وأرسلاها إليه للنشر فى مجلته وغيرها من المجلات . وكما سبق أن ذكرنا أراد جورج دافيز أن يكرم وفادتهما فسألهما عما يريدان . فأجاب ايشروود انه يزيد غلاما أمريكيا ذكيا وسيما وأشقر الشعر وله ساقان جذابتان . ولم يمض وقت حتى أجابه دافيز إلى طلبه وأحضر له غلاما فتن مؤلفنا به اسمه (فرنون) . ويبدو أن ايشروود قبل عودته إلى بلاده غرق فى متع الجنس الشاذ حتى قمة رأسه لدرجة جعلت أودين يغار منه بل ويبكى من فرط غيظه من استئثار زميله بالمتع دونه .

الهجرة إلى أمريكا :

رجع كريستوفر ايشروود إلى بلاده بعد أن تركت فيه زيارته لامريكا أعمق الأثر . وأصبحت نفسه تهفو إلى العودة إليها . ولهذا رحب باقتراح أودين بالهجرة إلى أمريكا فى عام ١٩٣٩ قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية . وأغرى مؤلفنا بالهجرة إلى أمريكا أنها تتحدث نفس لغته مما سوف يزيد من فرصه فى العمل وفى كتابة سيناريوهات الأفلام . وفى أمريكا عاش ايشروود وأودين تحت سقف واحد لبعض الوقت . غير

أنهما ما لبثا أن افترقا . وقد سبقهما إلى الهجرة إلى أمريكا عدد من ألمع كتاب انجلترا ومفكريها مثل ألدوس هكسلى وجيرالد هيرد . ودعت النوادى والهيئات الأدبية المختلفة كلا من ايشروود وأودين لالقاء المحاضرات . وكانت احداها ـ التى اشترك فيها زميلهما الشاعر ماكنيس ـ بعنوان "اتجاهات حديثة فى الشعر والنثر الانجليزى" وحضرها شابان امريكيان هما والترجيمس ميلر وزميله تشستر كولمان . وبعد انتهاء المحاضرة طلب كولمان من كلا الأديبين عنوانهما فأعطياه له . والجدير بالذكر أن انصراف أودين الكامل الى قرض الشعر وانشغاله التام بقصائده كان يلهيه عن الانغماس من تلقاء نفسه فى المغامرات الجنسية . بل كان ينتظر دوما تشجيعا على ذلك من الطرف الآخر . على العكس من ايشروود الذى كان باستمرار يمسك فى يده زمام المبادرة . ومعنى ذلك أن أودين كان يغتنم أية فرصة سانحة لممارسة الجنس الشاذ طالما أن الطرف الآخر يشجعه عليه . وهكذا بدأت علاقة أودين بالشاب تشستر كولمان وهو ما سبق أن تناولناه بالتفصيل عند الحديث عن هذا الشاعر فى الفصل الثانى . ويجدر فى هذا الصدد الاشارة إلى أن أمريكا شاهدت نهاية التعاون الأدبى الذى نشأ بين ايشروود وأودين . فقد كان آخر مقال اشترك هذان الأديبان فى كتابته بعنوان "عشرة أدباء بريطانيون شبان فى طريقهم إلى الصعود" نشرته مجلة "فوج" بتاريخ ١٥ أغسطس عام ١٩٣٩ وبعد انتهاء التعاون الأدبى بينهما ضعفت الصلة بينهما ومضى كل منهما فى سبيله . والأدباء الذين تناولاهما فى مقالهما جورج أورويل ورالف بيتس وآرثر كولدر مارشال وهنرى جرين وستيفن

سبندر وركس وارنر وادوارد أبوارد ووليم بلومر وجيمس ستيرن .

وفى تلك الفترة بدأ ايشروود يتجه إلى السلام ونبذ الحروب دون أن يستند فى ذلك إلى أية معتقدات دينية . غير أن جيرالد هيرد الذى استقر في لوس أنجلوس عام ١٩٣٧ استطاع أن يفتح شهيته لمعرفة المزيد عن التصوف الهندى المعروف باليوجا ، الأمر الذى انتهى به إلى دراسة الفلسفة البوذية المتصوفة المعروفة باسم بالفيدانتا . وفى ٧ يولية عام ١٩٣٩ أرسل ايشروود خطابا إلى جون ليمان عبر فيه عن حنينه لرؤية أصدقائه فى لندن وقارن بين عشيقه الأمريكى الحالي فرتون وعشيقه الألماني السابق هاينز . يقول ايشروود فى هذا الصدد أن فرنون أكثر جدية من هاينز فهو يحب قراءة أعمال فرويد و هـ . ج ويلز وغيرهما من الكتاب ولا يحب السهر خارج البيت فى المساء ، فضلا عن أنه يذهب إلى مدرسة ليتعلم الفنون . ويذكر ايشروود فى خطابه إلى جون ليمان ايمانه بالدعوة إلى السلام ولكنه يعترف أن هذه الدعوة نفرت منه عددا من الأصدقاء أكثر مما نفرتهم منه ممارسته للشذوذ الجنسى .

وحتى يفهم ايشروود فلسفة الفيدانتا أكثر وأكثر تعرف بالحكيم الهندى سوامى برابها فانندا الذى اعترف له بممارسته للشذوذ الجنسي فترفق به هذا الحكيم وطمأنه الى أن هذا ليس عائقا فى سبيل بحثه عن الله وأكد له أن الفيدانتا سوف تنتهى به فى نهاية الأمر الى حياة الطهر والقداسة والعفاف . وعندما أعلن مؤلفنا ايمانه بهذه الفلسفة البوذية

ازور عنه كثير من أصدقائه أكثر من ازوراهم عنه بسبب دعوته الى السلام . وكان رفيق عمره الشاعر أودين أول من اختلف معه حول هذا الشأن رغم اتفاقه الكامل معه حول موضوع السلام ونبذ الحروب . وعلى أية حال أنحى جون ليمان وآخرون باللائمة على كل من ايشروود وأودين لتقاعسهما في الدفاع عن وطنهما عندما تعرض لأخطار العدوان النازى عليه . فقد كان يتوقع منهما العودة إليه للزود عنه والوقوف بجانبه في محنته . وفي يونية عام ١٩٤٠ أثار رجل عسكرى محافظ هو السير جوسلين لوكاس زوبعة عندما تقدم باستجواب المسئولين في وزارة العمل عن اعتزام الحكومة البريطانية استدعاء الشباب البريطانى فى سن التجنيد ممن يعيشون فى الخارج مثل أودين وايشروود لأداء واجبهما الوطنى . وفى نفس هذا العام تلقى ايشروود وهو فى أمريكا نبأ وفاة عمه الموسر الشاذ هنرى وأيلولة ميراثه إليه . ولكن شعوره بالتقصير فى حق أمه كاثلين وأخيه ريتشارد جعله يتنازل لهما عن التركة بأكملها . وفى تلك الفترة من حياته شعر ايشروود بميله نحو الملة المسيحية المعروفة باسم الكويكرز بسبب دعوتها الى السلام والتسامح ونبذ التعصب وإلى الايمان - مثل فلسفة الفيدانتا - بان الله موجود داخل كل إنسان ويتعين على المرء اكتشافه .

وكانت طائفة الكويكرز تدير معهدا تعليميا يعنى بمساعدة المهاجرين الوافدين من أوربا على التأقلم على الحياة الأمريكية . وكلف هذا المعهد كريستوفر بتدريس اللغة الانجليزية للمهاجرين الألمان والنمساويين . ولم تكتف طائفة الكويكرز بذلك بل اهتمت بتعريفهم بالعادات والمؤسسات

الأمريكية . وتدل التقارير التى سطرها المسئولون فى هذه الطائفة أن مؤلفنا اضطلع بمهام وظيفته بكل حماس وتفان واخلاص . وفى فترة عمله بالمعهد توثقت عرى الصداقة القائمة على الاعجاب المتبادل بينه وبين محاضر شاب فى اللغة الأسبانية بكلية هافر فورد اسمه بلان روس الذى لاحظ اعراضه عن الكتابة آنذاك فألح عليه أن يداوم عليها حتى لا يفتر حماسه لها . ورغم أن ضغط بلان روس عليه لم يثمر سوى قصة هزيلة بعنوان "خذها أو اتركها" نشرتها مجلة النيويوركر فى عام ١٩٤٢ فقد شعر مؤلفنا بامتنان عميق لصديقه دفعه فيما بعد إلى أن يهديه روايته "البنفسج الهازل" عام (١٩٤٥) . وعندما شن اليابانيون فى ٧ ديسمبر عام ١٩٤١ هجومهم المفاجىء على ميناء بيرل هاربور الأمريكى كان كريستوفر قد طلب قيد رغبته فى الحصول على الجنسية الأمريكية . وبذلك أصبح من حق الجيش الأمريكى أن يستدعيه الى الخدمة العسكرية . ولكن هيئة الكشف فى ولاية بنسلفانيا أعفته من التجنيد باعتباره واحدا من معترضى الضمير . وأوضح كريستوفر منذ البداية انه على استعداد للالتحاق بالإدارة الطبية التابعة للجيش بشرط دم مطالبته بحمل السلاح فامتنع المسئولون عن اعطائه وعدا بذلك .

وبعد تعاونه مع طائفة الكويكرز انتقل للعمل مع أتباع المذهب البوذى المعروف بالفيدانتا ولكنه ابتعد عنهم لفترة من الزمن افادته فى التفكير الهادىء فى معتقدات كلا المذهبين الكويكرز والفيدانتا . ولعبت مقابلته للحكيم الهندى برابها فاننداا دورا فى تحديد اختيازاته وإيثاره المذهب البوذى على

مذهب الكويكرز المسيحي . ورغم اعجابه بأتباع هذا المذهب الأخير فقد ضايقه تزمتهم الأخلاقى على نحو بيوريتانى . فلا غرو إذا رأيناه يكتب مقالا مستفيضا استغرق منه كثيرا من الوقت والجهد بعنوان "الفيدانتا والعرب" يدافع فيه عن المذهب البوذى . وفى عام ١٩٤٣ دعته جماعة الفيدانتا بهوليوود ان يعيش بينهم ، فلبى الدعوة وابتعد عن عشيقه فيرنون الذى آثر هو أيضا أن ينفصل عنه .. وأخيرا تزوج فيرنون وأنجب طفلا أسماه كريستوفر . وساعدت حياة الفيدانتا مؤلفنا الى حد ما فى ترويض نفسه وكبح جماح شهواته فامتنع عن أكل اللحوم واستغرق فى التأمل لفترات طويلة وحاول الامتناع عن ممارسة الجنس . ولكنه استمر فى نفس الوقت فى كتابة سيناريوهات الأفلام . وجر عليه ايمانه بمذهب الفيدانتا سيلا جارفا من العداوات حتى من أعز أصدقائه مثل جون ليمان . ولكن أ . م . فورستر دافع عنه فى غيابه وقال إنه لابد وأنه يدرك ما يفعل . ولكنه كان يترك جماعة الفيدانتا أحيانا بحثا وراء المتعة الجنسية المحرمة . وفى تلك الفترة من حياته ارتبط بصداقة طباخ مصاب بالشذوذ الجنسى اسمه دنهام (أو دينى) فاوتس كان قد عرفه فى لندن عام ١٩٣٨ . ورسم ايشروود صورة لهذا الطباخ فى روايته "هناك فى زيارة" . فضلا عن أن الروائى الأمريكى جورفيدال رسم صورة لهذا الرجل فى قصته "صفحات من صحيفة مهجورة" وكذلك صورة الكاتب سبيد لامكين فى قصته "الجرى وراء بيض عيد القيامة" . ونشأت صداقة حميمة بينه وبين الكاتب المسرحى الأمريكى المعروف تنيسى

وليامز الذى لم يشارك مؤلفنا اهتمامه بالأدب والسينما فحسب بل بالغلمان أيضا .

وفى فترة الحرب العالمية الثانية تفشت الرذيلة بين الجنود والمحاربين الذين غصت بهم شوارع هوليوود ونواصيها واجتمعوا أثناء أجازاتهم لاقامة حفلات سكر وعربدة ودعارة على الشواطىء الواقعة شمال سانتا مونيكا . ولم تتوقف هذه الحفلات الصاخبة بتوقف الحرب الأمر الذى جعل سكان المناطق المجاورة يضجون بالشكوى ويطلبون من أجهزة الدولة وضع حد لها . وفى احدى هذه الحفلات وقعت أنظار مؤلفنا على غلام اسمه وليام (بيل) كاسكى وهو يغسل الاطباق فى احدى كافتيريات الشاطىء . وخلب الغلام لبه فتقدم منه وعرض عليه مساعدته فى غسل الأطباق حتى يمكنه التعرف به . وتوثقت العلاقة بينهما وأصبح هذا الغلام خليله . كان بيل كاسكى يصغر مؤلفنا بسبعة عشر عاما وتميز بالدماثة والهدوء ولكن سورة الغضب العارم وغير المفهومة كانت تجتاحه فى فترات متباعدة الأمر الذى ساعد مؤلفنا على التركيز على الكتابة ورغم دماثة خلق بيل كاسكى معه تصرف ذات مرة على نحو فاضح وغير لائق فقد دعاه الممثل المعروف تشارلى شابلن وزوجته هو وكريستوفر صديق العائلة لتناول طعام الغداء فى بيتهما . وبحث بيل كاسكى عن مقعد خال يجلس فيه فنادت عليه إحدى معارفه من المدعوات اسمها ناتالى موفات ليأتى ويجلس بجوارها وهى تقول له : « تعال يابيل واجلس بجوارى فأنا أحب صحبة أزهار البانسيه »

(كناية عن شواذ الجنس من الذكور كما كانوا يسمونهم آنذاك) فرد عليها الشاب بقوله : « ياعزيزتى ناتالى ، أنت تستخدمين لغة دارجة عفا عليها الزمن فالكلمة الصحيحة هى (مصاص القضبان) » ووقع هذا الرد على المجتمعين وقع الصاعقة ـ ومما زاد الطين بلة أن شارلى شابلن اكتشف ذات مرة أن كريستوفر وبيل تبولا على الكنبة الموجودة فى حجرة الجلوس وهما فى حالة سكر بين الأمر الذى جعله يتوقف عن دعوتهما الى بيته بعد هذه الحادثة .

وفى ٢١ يناير ١٩٤٧ عاد كريستوفر الى انجلترا لأول مرة بعد غيبة طالت نحو ثمانية أعوام من اندلاع الحرب العالمية الثانية . فلاحظ أن بلاده لازالت تعانى من ويلات الحرب فى حياتها اليومية أكثر بكثير من آمريكا التى توفرت فيها السلع والبضائع وجميع وسائل الراحة . وانصرف كريستوفر الى تأليف روايته الجديدة التى أطلق عليها بعد الانتهاء منها « العالم فى المساء » (١٩٥٤) غير أنه أضطر الى تأجيل كتابتها لحين عودته من زيارة أزمع القيام بها لأمريكا الجنوبية بهدف تأليف كتاب رحلات عنها بتكليف من دار راندوم هاوسن للنشر . وفى أمريكا الجنوبية قام مؤلفنا بزيارة كولومبيا والأكوادور وبوليفيا والأرجنتين حيث التقى بصفوة المفكرين والمثقفين . وعند وصوله الى محطة العاصمة بوينس ايريس بالأرجنتين وجد عشيقه القديم بوبى فى انتظاره ليرحب به ويحكى له مغامراته وكيف أنه عمل كقواد على ظهر سفينة المانية قبل أن يلقى الجستابو القبض عليه . ولكنه تمكن من

الهرب الى جنوب أمريكا حيث أصبح شريكا فى ملكية مصنع صغير . وعندما دعاه بوبى لزيارة منزله فى ضواحى بوينس أيريس تأثر مؤلفنا تأثرا كبيرا حين اكتشف انه يحتفظ فى غرفة معيشته المريحة بنسخ من مؤلفاته رغم أنه كان لايستطيع القراءة باللغة الانجليزية .

كان كريستوفر يعتزم العودة من الأرجنتين الى نيويورك مباشرة ولكن المقادير شاءت له أن يذهب الى السنغال ثم إلى باريس حيث تعرف به الكاتب الأمريكى الوسيم والشاذ جنسيا جور فيدال . وتوثقت الصداقة بينهما . وبلغ اعجابه بجور فيدال حدا جعله يهدى إليه روايته « رجل أعزب » (١٩٦٤) ورد فيدال المجاملة بمثلها فأهدى إليه بدوره روايته « صبرا بريكينريدج » وكتب كريستوفر كتابا بعنوان « الكوندور والأبقار » استمد مادته من رحلاته فى أمريكا الجنوبية والجدير بالذكر أن الحياة الثقافية الأمريكية فى فترة غيبة كريستوفر فى أوربا وأمريكا الجنوبية بدأت تتعرض لضغوط المكارثيين الرجعيين ودعاة الظلام الذين لم يتورعوا عن الانقضاض على كل من يخالفهم فى الرأى وهكذا تم التحقيق مع عدد كبير من السينمائيين المشتبه فى يساريتهم . وأمام هذا التهديد الصارخ لحرية العاملين فى مجال السينما وغيره من المجالات قدم خمسمائة مفكر أمريكى مرموق عريضة يعترضون فيها على التحقيق مع زملائهم .

ولم يفقد كريستوفر صلاته بجماعة الفيدانتا الصوفية

وتجدد اهتمامه بدراسة اليوجا وترجمة تعاليمها الى الانجليزية ونشر فى هذا الصدد كتابا بعنوان « كيف تعرف الله » (١٩٥٣) ولكن عشيقه بيل كاسكى لم يأخذ نشاط هذه الجماعة مأخذ الجد . وفى تلك الفترة من حياته توطدت العلاقة بينه وبين الموسيقار المعروف إيجور سترافنسكى الذى اعتبره مؤلفنا واحدا من أعظم ثلاثة رجال قيض له أن يعاملهم طيلة حياته . أما الآخران فهما ا . م . فورستر والحكيم الهندوكى سوامى برابها فانندا . ولم يكن من السهل على مؤلفنا أن يتذوق موسيقى سترافنسكى أو يهضمها . ومن ناحيته اتهمه سترافنسكى بأنه يغط فى النوم أثناء عزف موسيقاه . ولكن هذا لم يؤثر مطلقا فى العلاقة الحميمة التى ربطت بينهما . وفى مطلع الخمسينات احتفلت الصحافة الأمريكية احتفالا بالغا بنشر روايته « وداعا يابرلين » تحت عنوان « عينى تشبه عدسة الكاميرا » وعنوان الطبعة الأمريكية مأخوذة من فقرة وردت فى الرواية دأب النقاد على ترديدها دون تمحيص دقيق لها باعتبارها المفتاح لفهم أدب ايشروود . يقول مؤلفنا فى هذه الفقرة التى لايكف النقاد عن اقتطافها بهدف القاء الضوء على المنهج الروائى الذى يتبعه فى سرد أحداثه : « أنا عبارة عن آلة تصوير عدستها مفتوحة وسليمة تماما تسجل ولاتفكر ، تصور رجلا وهو منهمك فى حلاقة ذقنه أمام النافذة فى البيت المواجه لى كما تصور امرأة تلبس الكيمونو اليابانى وهى تغسل شعرها . وفى يوم من الأيام سوف يتعين تحميض كل هذه الصور ثم طبعها بعناية قبل تثبيتها .

والغريب ان بداية الخمسينات شاهدت ذيوع صيت ايشروود فى كل من أمريكا وانجلترا فى آن واحد . ففى انجلترا ارتبط اسمه باختفاء اثنين من أبرز رجال المخابرات البريطانية عام ١٩٥١ وهما جاى بيرجز ودونالد ماكلين اللذان استطاعت المخابرات السوفيتية أن تجندها لحسابها . وكان السبب فى ارتباط اسميهما به أن صديقه أودين . قال فى تصريح طائش للصحافة البريطانية أن رجلى المخابرات البريطانية المختفيين كانا على علاقة طيبة به وببقية أصدقائه . وكانت نتيجة تصريح أودين الطائش أن قام بعض رجال المخابرات البريطانية باستجواب كريستوفر ايشروود .

وفى زيارتيه الأخيرتين لأوربا تجنب مؤلفنا زيارة ألمانيا . ولكنه قبل فى عام ١٩٥٢ تكليفات من صحيفة الأوبزروفر بزيارة برلين والكتابة عنها . وكان من الطبيعى أن يذهب مؤلفنا لرؤية السيدة العجوز مدام ثورو التى عاش فى البنسيون الذى تديره فى فترة بقائه فى برلين . وأخبرته مدام ثورو أن أوتو زارها منذ فترة قريبة . رغم أنه كان يلبس حلة قشيبة فانه اعطاها الانطباع بأنه لايزال يعيش عالة على الآخرين . ثم أضافت أن هاينز تزوج وأنه سعيد فى زواجه وانه انجب طفلا أسماه كريستوفر .

وفى لوس انجلوس بولاية كاليفورنيا توثقت عرى الصداقة بين مؤلفنا وعالمة نفسانية أسمها ايفلين هوكر تخصصت فى دراسة ظاهرة الشذوذ الجنسى واعتبرت ممارسته شيئا طبيعيا . وحتى تؤكد لمؤلفنا أنها لا تستبشع شذوذه أو

تستهجنه وافقت على أن تؤجر له ملحق بيتها الذى تعيش فيه . وهو ملحق منفصل يقع فى طرف الحديقة استغله ايشروود فى ممارسة الرذيلة مع غلام آخر اسمه دون باتشاردى وذلك بعد أن انفصل بيل كاسكى عنه ليصبح بحارا يجوب بقاع الأرض ثم مصدرا استقر به العيش فى أثينا فى أواخر الستينات . وكان كاسكى يحرص على رؤية كريستوفر من وقت لآخر اثناء زياراته للولايات المتحدة .

فى عام ١٩٥٣ قابل مؤلفنا غلاما خجولا وعلى جانب كبير من السحر والجاذبية اسمه دون باتشاردى فى حفلة أقيمت بمناسبة الاحتفال بيوم العشاق المعروف بيوم سانت فالانتين . وكان فارق السن بينهما كبيرا فقد كان كريستوفر فى الثامنة والأربعين ودون باتشاردى لايتجاوز الثامنة عشرة . وكان هذا الفارق الكبير فى السن سببا فى استهجان كثير من معارفه وأصدقائه لهذه العلاقة . حتى ايفيلين هوكر التى أقرته على شذوذه خشيت من غضب جيرانها واستياء زوجها منها . ولهذا طلبت من ايشروود اخلاء البيت والبحث عن سكن آخر . وتدخلت صديقة اسمها مارجريت لامكين لحل المشكلة ، فاتفقت مع زوجها على استضافة دون باتشاردى فى حين استأجر كريستوفر منزلا مستقلا مجاورا يلتقى فيه بعشيقه بعيدا عن أعين الفضوليين .

وفى شتاء ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ اصطحب كريستوفر عشيقه دون باتشاردى الى المكسيك ولكن مرضا خطيرا آلم بهما

وحال بينهما وبين الاستمتاع بالرحلة . وفيما بعد سافر العاشقان فى رحلة سياحية الى أوربا التى زارها باتشاردى لأول مرة وفى رحلتهما توقفا فى ميناء طنجة بالمغرب لرؤية أحد الأصدقاء . وهناك تعاطى مؤلفنا لأول مرة فى حياته الكيف أو المخدرات . غير أنه أفرط فى تناول هذه المخدرات مما جعله يهلوس ويعاين بعض الرؤى الفظيعة والمزعجة التي يصورها تحت عنوان « زيارة إلى أنسلم أوكسين » فى كتابه « نبش القبور » (١٩٦٦) وتحت تأثير الدوس هكسلى حاول مؤلفنا أن يجرب تعاطى مخدر آخر مسموح ببيعه فى الصيدليات اسمه ماسكالين وهو مخدر تحمس له ألدوس هكسلى وأستفاض فى الدفاع عنه ووصف قدرته على الوصول بمن يتعاطاه الى حالة سامقة من الشفافية والصوفية . وعندما جرب كريستوفر هذا العقار وجد أن له تأثيرا سيئا عليه فاقلع عنه واكتفى بتعاطى الحشيش بعد الغداء كما درج على ذلك بعض الأمريكان فى فترة الستينات والسبعينات وفى اكتوبر ١٩٥٧ اصطحب مؤلفنا دون باتشاردى فى رحلة الى الشرق الأقصى لزيارة اليابان وهونج كونج وبانكوك والهند . ويجدر بنا في هذا الصدد أن نذكر أن كريستوفر شجع عشيقه على الالتحاق بمدرسة للفنون وتنمية مواهبه في الرسم لدرجة مكنته من افتتاح مرسم خاص به .

وأخيرا ماتت كاتلين والدته فبدأ يعض بنان الندم وشعر بالخطأ فى حقها لأنه فى رغبته المحمومة من الاستقلال عنها قسا عليها . دون مسوغ أو داع . والغريب أن الدوائر

الأكاديمية فى الجامعات الأمريكية أصرت على النظر اليه على أنه أديب بريطانى رغم تجنسه بالجنسية الأمريكية عام ١٩٤٦ ورغم اختياره عضوا فى المعهد القومى للفنون والآداب فى الولايات المتحدة عام ١٩٤٩ . ورفضت تعيينه فى وظيفة محاضر فى الأدب الأمريكى وعهدت اليه بتدريس الأدب الانجليزى المعاصر .

إن اهتمام كريستوفر ايشروود بموضوع الشذوذ الجنسى فى انتاجه الأدبى يتفاوت من رواية الى أخرى . ولكنه يتضح بجلاء فى الأعمال الروائية التى ألفها بعد هجرته الى أمريكا . والذى لاشك فيه أن تجنسه بالجنسية الأمريكية وضع النقاد فى حيرة من أمرهم فالبعض يعتبرونه كاتبا بريطانيا على أساس أن الأثر الذى تركته نشأته البريطانية فيه أعمق من أن يمحوه الزمن وهو مانميل الى الأخذ به ، فى حين يعتبره البعض الآخر كاتبا أمريكيا على أساس انه سعى فى رواياته بعد هجرته الى تصوير خلفيات وشخصيات أمريكية . ومن هذه الروايات ما يعالج الشذوذ الجنسى بشكل محدود مثل « العالم فى المساء » التى تدور حول رجل واسع الثراء نشأ وكبر فى انجلترا ثم هاجر الى أمريكا اسمه ستيفن مونك وينتمى هذا الرجل الى عائلة من الطائفة الدينية المعروفة بالكويكرز . وقد تزوج مونك مرتين الأولى من روائية بريطانية تكبره باثنتى عشرة سنة والثانية أمريكية من هوليوود تهوى حفلات الأنس والمرح والانشراح ، ويشعر هذا الرجل بالضياع وبأنه يفتقر الى هدف واضح فى الحياة فيصيبه

الاكتئاب ويهجر زوجته الثانية . وتدهمه سيارة نقل تكسر عظام عجزه . وأثناء فترة علاجه يفكر فى حاله وكيف ينظم حياته وتعتبر هذه الرواية أول محاولة من جانب المؤلف لمعالجة مذهب الفيدانتا التى تدعو الديانة البوذية إليه . والرواية تتناول الشذوذ الجنسى فى موضعين يتمثل أحدهما فى تلك العلاقة الجنسية الشاذة التى تربط بين تشارلز الطبيب الذى يعالج ستيفن وبين عشيقه بوب . ويتمثل الموضع الثانى فى علاقة شاذة عابرة تجمع بين ستيفن نفسه وشاب اسمه ميشيل حاول ابعاد ستيفن عن زوجته أملا فى الاستئثار به . وعلاقة ميشيل بستيفن معقدة فمشاعر ميشيل الشاذة واضحة له منذ البداية والذى أثناه عن مصارحة ستيفن بها خشيته من أن تؤدى هذه المصارحة الى البعد والقطيعة بينهما . وينجح ميشيل عن طريق تقديم المسكرات الى ستيفن وتبادل الحديث العذب معه أن يغريه بمعاشرته . ويتلذذ ستيفن بهذه التجربة ولكنه يعتبرها شيئا عابرا فى حياته فى حين يقع ميشيل فى غرامه ويسعى الى الوقيعة بين ستيفن وزوجته اليزابيث بأن يفضى اليها بما حدث بينهما .

ولعل أهم ماتتضمنه هذه الرواية الهجوم على الموقف الأمريكى الذى ظل يرفض التسامح مع الجنس الشاذ حتى العقود الأولى من القرن العشرين . ويدافع بوب عن الشذوذ الجنسى ويشكو لستيفن من أن ممارسى الجنس مع النساء لايفتأون يهددون بطرد أهل لوط من مجتمعهم والزج بهم فى غياهب السجون فيشرح له ستيفن أن السبب الحقيقى فى

سوء معاملة الناس له يرجع الى موقفه العدوانى منهم . فيرد عليه بوب قائلا إنه قد يكون من المستحسن اس[illegible]اء الناس ضد ممارسى اللواط لأن هؤلاء الناس يتعمدون معظم الوقت أن يتجاهلوا وجود شواذ الجنس بينهم ويعاملونهم على أنهم طبيعون الأمر الذى يستحيل معه تغيير القوانين التى تجرم ممارساتهم الشاذة ويستطرد بوب فيقول إن نفرا من أهل القرية يعلمون حقيقة العلاقات الشاذة بينه وبين تشارلز . ورغم ذلك بأنهم يتظاهرون بأنهم لايعلمون . وتنتهى أحداث رواية « العالم فى المساء » بالتحاق بوب بالبحرية الأمريكية للاشتراك فى الحرب العالمية الثانية رغم أنه كان بامكانه الحصول على اعفاء سن التجنيد لأنه من معترضى الضمير الذين يعفون الحرب أو من شواذ الجنس الذين لاتسمح قوانين الجيش بتجنيدهم .

ويركز مؤلفنا فى روايته « رجل أعزب » على موضوع الشذوذ الجنسى في أمريكا . وهى تدور حول يوم كامل في حياة أستاذ جامعى فى الثامنة والخمسين من عمره اسمه جورج يعيش فى جنوب كاليفورنيا وتصبح حياة هذا الأستاذ بعد وفاة عشيقه جيم كئيبة ورتيبة معا . فهو يتناول افطاره فى الصباح ثم يتوجه الى الجمنازيوم لممارسة شىء من الرياضة ثم يباشر التدريس لطلبته ثم يتناول وجبة الغداء مع صديقة له . وفى آخر نهار نراه يخرج ليحتسى قدحا من الخمر . والأفكار التى تخطر بباله طيلة الوقت افكار عادية للغاية فهى ككل الأفكار العادية التى ترد على بال اى انسان فى مثل

وظيفته . غير أن هذه الأفكار تمتزج من وقت لآخر بأفكار تنبعث من رغباته الجنسية الشاذة . وفى الطريق الى عمله يستمع جورج الى راديو سيارته الذى يذيع أن احدى الصحف المحلية تشن حملة شعواء على شواذ الجنس المنتشرين فى كل مكان والمصابين بالزهرى وتهاجم القوانين الرخوة التى تتساهل معهم . ولم ينزعج جورج من هذا الهجوم بل استقبله بروح المرح والدعابة ومن ثم أخذ يتخيل نظرة جيرانه البورجوازيين المحترمين الى علاقته بجيم عندما كان حيا وكيف أنهم لابد وأن استبعدوا شبهة اللواط منها وحاولوا تفسيرها على انها مجرد اشباع رغبة تلح عليه لايجاد بديل يعوضه عن فقدان شىء عزيز عليه .

وفى الكلية يراقب الأستاذ طالبين يلعبان التنس ويبدى اعجابا بجسديهما المفعم بالرغبة . ويتساءل فيما بينه وبين نفسه اذا كان الطلبة يعرفون أن استاذهم واحد من شواذ الجنس . ورغم هذه الأفكار الشاردة فإنه يقضى يومه بشكل عادى للغاية . وفى المساء يظهر ميله الى الشذوذ بوضوح فبينما هو فى بار يحتسى الخمر يدخل أحد طلبته واسمه كيم ويشاركه الشراب وينظر جورج الى كيم فيجده مغريا للغاية . وبعد أن يشرب الأستاذ مع طالبه حتى الثمالة نراهما يستحمان فى ماء المحيط المجاور للبار . وأخيرا يعود جورج الى منزله برفقة تلميذه . وعلى غير مانتوقع يمتنع الأستاذ عن ممارسة الجنس معه لأسباب غير واضحة بالمرة . ويغلب جورج النعاس فينقله تلميذه الى الفراش ثم ينصرف .

اللافت للنظر فى هذه الرواية أن كريستوفر ايشروود يتناول ممارسة الشذوذ الجنسى على أنه نشاط عادى وطبيعى للغاية لايحتاج الى دفاع أو حتى تبرير . ويبدو أن سبب اقتناع الأستاذ عن معاشرة تلميذه ترجع الى شدة وفائه واخلاصه الى عشيقه الأول . ومن المفيد التنويه بما سبق لنا الاشارة اليه من تأثر ايشروود فى باكورة حياته الأدبية بأساليب السرد التجريبية الحديثة . فروايتاه « كل المتآمرين » و « الذكرى » تستخدم المنولوج الداخلى الذى يسيطر على الأحاديث والأحداث فى كثير من أجزائهما ، الأمر الذى يؤكد تأثر كاتبنا بالمذهب الأدبى المعروف بتيار الشعور التى تقترن بروايات فيرجينيا وولف وجيمس جويس . فضلا عن أن الكثير من أعماله تعكس أثر ا . م . فورستر فيه من جنب أن أسلوبهما يجمع بين التهذيب والسخرية وبين ماقل ودل أى كلام المختصر المفيد . ولكن تغيرا واضحا طرأ على أسلوبه ابتداء من « المستر نوريس يغير القطارات » و « قصص برلين » فقد آثر مؤلفنا أن ينتهج أسلوبا واقعيا شديد الوضوح وقريبا للغاية من الأسلوب التسجيلى الذى يتوخى الموضوعية فخوفه من قدوم النازية جعله يحرص على أن تصل رسالته جلية الى قرائه . ورغم أن ايشروود يركز على الجنس الشاذ بدرجات متفاوتة فى روايتيه السابقتين « العالم فى المساء » و « رجل أعزب » فإن كثيرا من أعماله الأخرى لاتخلو بشكل أو آخر من الاشارات إليه .

فهرس الكتاب

رقم الإيداع

٩٥/٣٥٣٦

I.S.B.N

977-07-0390-7

اصدارات دار الهلال

من الكتب الأدبية والثقافية والتاريخية والسياسية والطبية وكتب التراث وكتب الأطفال ومجلات ميكي وسمير تجدها فى مكتبات دار الهلال :

القـــــاهرة : مكتبة عز العرب - السيدة زينب .
الاسكـنـدريـة : مكتبة النبي دنيال - مكتبة المعمورة .
طـنـطـا : ميدان المحطة .
المنصـــــورة : ميدان المحطة.

وفى المكتبات الكبرى بالقاهرة .
طلعت حرب والمهندسين :مكتبة مدبولي - مصر الجديدة : مكتبة بوك سنتر و مكتبة اكسفورد - الزيتون : مكتبة كمبريدج - مدينة نصر: مكتبة راغب و مكتبة الدار العربية - العباسية : مكتبة الطالب - الزمالك :مكتبة علي مسعود و مكتبة الزمالك - باب اللوق : مكتبة الكيلاني القصر العيني : مكتبة العربي - السيدة زينب : مكتبة العسلي - المعادي: مكتبة غزال ومكتبة برج الكرنك ومكتبة عامر ومكتبة ياسين. دار السلام : مكتبة النجاح - حلوان : مكتبة الوفاء الجديدة .الفجالة : مكتبة راغب .

وفى المكتبات الكبرى بالجيزة :
ميدان سفنكس : مكتبة مدبولي الصغير - المهندسين : مكتبة اصدقاء الكتاب - جامعة الدول العربية : مكتبة الكوثر - الهرم : مكتبة منصور.

وفى المكتبات الكبرى بالمحافظات :
الســـويس : مكتبة الصحافة .
دمـيـاط : مكتبة ناشي بدمياط وفرع الجلاء .
المحـلـة : مكتبة الثقافة ومكتبة الشروق .
بورسـعـيد : مكتبة اولاد نسيم - أمام حديقة فريال .
رأس البـر : مكتبة حسن حسن ابوحجازي .
جـمـصـه : مكتبة فتحي حسب الله .
طـنـطـا : مكتبة الحسن والحسين .
الفيـوم : مكتبة نهى .
قـويـسـنا : مكتبة قطب .
مـنـوف : مكتبةابو شنب .
مـيت غـمـر : مكتبة محمد الدماصى .
القناطر الخيرية : مكتبة غريب كشك .
طـوخ : مكتبة طوخ .
بـنـهـا : مكتبة ابو شنب ومكتبة الامير.
المنـيـا : مكتبة علي مصطفى عبيد .
سـوهـاج : مكتبات الأمير و الفتح و الصحافة .
قـنـا : مكتبة الهلال .
ومكتبات الصحافة ببنى مزار و القوصية ونجع حمادى و ديروط.
و مكتبة حمدى الزواوى بالماستر هاوس .

الهـــــلال

تصدر أول كل شهر

● ملتقى الإبداع الثقافى والفكرى لكل مفكرى الوطن العربى

● نبض الحركة الثقافية المعاصرة

● تضم كل ألوان الأدب وفنونه بأقلام كبار المفكرين والأدباء في مصر والوطن العربى

● فكر حر مستنير وأراء بناءة على طريق التنوير الذى سارت على دربه طوال مائة عام

رئيس التحرير مصطفى نبيل

هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب حياة وأعمال ثلاثة من كبار الادباء العالميين الذين اتسمت حياتهم بالقلق والتوتر مما كان له أكبر الاثر على إنتاجهم الادبى ..

والكتاب يتضمن ابداع هؤلاء الادباء الثلاثة المصابين بالشذوذ الجنسى ، كما يتناول العلاقة بين ادبهم وحياتهم المريضة الخاصة والتي كانت مثارا للجدل والنقاش الساخن الذى اخذ اشكالا متنوعة ومثيرة .

وهؤلاء هم :

الاديب ذائع الصيت إدوارد مورجان فورستر المعروف فى عالم الادب باسم « ا . م فورستر » وهو الاديب الذى عشق الريف ولذا جاءت رواياته الست التى الفها طيلة حياته تستمد مادتها من القرية ، وان ينابيع الابداع جفت عندما ترك القرية ليعيش فى أماكن اخرى .

جاء فورستر الى الاسكندرية عام ١٩١٥ متطوعا فى الصليب الاحمر وعاش بها نحو عامين حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى وتقابل مع الشاعر السكندرى اليونانى الاصل كافافى ...

اما الثاني : فهو الشاعر الانجليزى « دابليو ايتش اودين » الذى عرف بالقلق والتنقل والترحال الدائم سعيا وراء مذهب فكرى يتفق مع ميوله .

والثالث : هو كريستوفر إيشروود الكاتب المتعدد المواهب والاهتمامات فهو روائى ومؤلف سينمائى ومسرحى مرموق ارتبط اسمه بالدعوة الى السلام ونبذ الحروب وباتجاهه الى اعتناق فلسفة الشرق والتصوف الهندى .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N


كليوباترا
FILTER TIPPED
CLEOPATRA